الكتاب الأول

إنذار من السماء

«النظرية»

نيازي عز الدين

إنذار من السماء

* **إنذار من السماء** (الكتاب الأول: النظرية)
* تأليف: **نيازي عز الدين**

* الطبعة الأولى ١٩٩٦/١

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب: ٩٥٠٣ - فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧
* التوزيع:
الأهالي - قسم التوزيع
دمشق - هاتف:٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب:٩٢٢٣ - تلكس:٤١٢٤١٦ - فاكس:٣٣٥٤٢٧

دراسة موضوعية تستند إلى منهج البحث العلمي، والمنطّق الرياضي، معزّزة بشواهد من القرآن الكريم وتقوم على نقض الفرض على أوامر الرسول الكريم، والبرهان على صحتها وتجريح المتقوّل منها ظلماً وبهتاناً.

حديث للرسول محمد ﷺ
من صحيح الله سبحانه وتعالى:
﴿وأُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذرَكُم به ومَن بَلَغَ﴾
صدق الله العظيم

من سورة الأنعام: ١٩

الإهداء

إلى أبنائي ـ الأحبة:

حسام

وسام

وئـام

وابنتي الغالية

سوسن

أقدم هذا الكتاب

* تعويضاً عن معاناة جيلنا، والأجيال التي سبقتنا من أفكار ورثناها من عصور غفوة المسلمين، وفي زعمنا أنها علوم ثمينة، وفاتنا أنها طبعت عقول المسلمين عامة، خلال ألف عام من الزمن بفيض من الأوهام والأباطيل والظنون.

* أوهام وأباطيل ترسّخت عبر الزمن، فتسامق بناؤها حتى أمست قلعة شامخة للجهل، ابتعد فيها المسلمون عن التفكير العلمي الذي دعا إليه القرآن الكريم، فتحجّر فكر الأمة، وجمدت في فهم كتاب الله وتدبّره عند أحاديث مرويّة عن الرسول الكريم، ظُنّ أنها المرجع والسند لتفسير القرآن، فالتزمها المسلمون التزامهم نصّ القرآن، مبتعدين عن مقاصد الله عز وجلّ في فهم آياته، وعنايته الإلهية بالبشر، ومساعدتهم على تدبير شؤون حياتهم، وتنظيم أمور معاشهم، وتمثُّل الغاية من وجودهم على الأرض، مما يتعذّر عليهم إدراكه إلا بمساعدة الرحمن، خالق الكون ومبدعه، ومن أجل ذلك الهدف أرسل الله رسله للناس ليبلّغوا ويعلّموا.

* إن قصتي مع الإيمان، يا أحبتي، قصة خاصة وفريدة من نوعها، فقد أتيح لي، بفضل من الله ومنّة منه، أن أقف على معجزة من معجزات كتاب الله العديدة، وهي أنه،

بالإضافة إلى روعة بيانه وسهولة حفظه، يقوم على لغة مرنة، تصلح لكل زمان ومكان، وتتيح لكل إنسان يعرف العربية أن يفهم من كتاب الله ما يفي بتبليغه قواعد الإيمان وأسسه دون حاجة منه إلى الاستعانة منه بالمحدّثين أو المفسّرين، وتَبيّن لي أن اعتماد المسلم على كتاب الله، والرجوع إليه دون وسيط، يعصم المسلم من التأثر بوجهات نظر المحدّثين والمفسّرين واجتهاداتهم، وتشعّب مناهجهم، مما قد يبعد المسلم عن صفاء الينبوع، ويشتت انتباهه أو يشغل ذهنه بالعَرَض دون الجوهر، وبالثانوي دون الأساسي، أو يبرّد حرارة البيان الدافق المعجز بالشروح المستفيضة التي تميت الروح وتخمد جذوة التأثر، فتغدو هذه الشروح بديلاً عن الآية المعجزة، وتضع نفسها في كفّة مع البيان الإلهي، وتسدّ على القارىء المتلهّف لكلمة الله منافذ التذوّق، ومَن يعدل ببيان الله كلام البشر ولو كانوا من العلماء؟ ومَن يستعيض به أفكارهم الذاتية؟!.

لقد ضيّقنا رحاب الكلمة المنزلة، وقيدناها بجملة أفكار بشرية استعصمت بالأحاديث النبوية تلتمس منها مرجعيتها وثباتها لتغدو تأطيراً لكتاب الله، ولا تترك لقارئه فسحة لاستلهام الأصل لا الفرع، وهي تعطّل ملكاته التي يجب أن تتفاعل مع النص القرآني بعيداً عن كل تأطير وتأثير.

وقد راجعت كتاب الله مراراً فلم أجد فيه أي نصّ يحثّ على تدوين الأحاديث النبوية أي: كلام الرسول ﷺ ومواقفه وسنته أو اتخاذها مرجعاً لفهمه وتفسيره، ولم أقف فيه إلا على دوره نذيراً ورسولاً للعالمين، اللهم إلّا ما ورد فيه من تكليفه تحديد عدد ركعات الصلاة والحدّ الأدنى للزكاة، وقد تبين لي أنّ الله عز وجل إنما سمح لنبيّه الكريم أن يتولّى بنفسه تحديد ذلك لغرضٍ إلهي سآتي على شرحه، في حين أن مناسك الحج ظلت كما كانت عليه منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

أولادي الأحبة:

أهديكم جهدي المتواضع هذا وأنا أفكر بجيلكم ومستقبلكم، آملاً أن يكون لما ورد في كتابي هذا من أفكار تأثيره الموقظ والمنبّه والمحذّر من خطر مقيم نعيش فيه، ويسبّب لنا مصائب كثيرة، لا نعلم مصدرها، متمنياً أن تتنبّهوا لهذا الخطر أنتم وجيلكم مبكراً، لتتحرروا من تلك القيود التي كانت سبباً في تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً، لتعودوا إلى مضمون القرآن الكريم ومنهج الرحمن فيه، لتنالوا به رضى الله فتربح تجارتكم في الدنيا والآخرة، فيكتب الله سبحانه وتعالى لكم جنتين من نخيل وأعناب، يفجر الله من

خلالهما نهراً هو نهر الزمان الذي يفصل بين جنتكم التي على الأرض، وجنتكم الأخرى التي وعدكم إياها صدقاًوعدلاً في السماء، إذا أنتم وفيتم ما عاهدتم الله عليه من الإيمان به، والتمسك بصراطه المستقيم، والتزام أوامره وتعليماته وحدوده، وعملتم عملاً صالحاً في هذه الحياة الدنيا، وأصلحتم فيها، وعبدتم الله وكأنكم ترونه، طاردين شيطان النفس عن أموركم بإبعاد الوهم والباطل، والتعامل في هذه الحياة الدنيا بالعقل، لأن الإسلام دين العقل والحق والحقائق العلمية، عالمين أن الله لم يخلق أوهاماًوخيالات وظنوناً، بل حقائق كاملة وعلماً وقوانين علمية ورياضية. وأرجو أن يكون هذا الكتاب لكم كبوصلة البحار يعيدكم أبداً إلى القرآن ومنهج الرحمن، فإن بقيتم على ذلك المنهج، تهتدون به في شؤونكم وأمور دنياكم وآخرتكم فلن تضلوا أبداً، واعلموا أن طريق الهداية هو لخيركم ومنفعتكم الدائمة: ﴿فَمَن اهتدى فإنما يَهتدي لنفسهِ ومن ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عليها..﴾(١): ﴿وَلْتكنْ منكمْ أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْن عن المنكرِ وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذينَ تفرَّقوا واختلفوا من بعدِ ما جاءَهم البيّنات، وأولئك لهم عذابٌ عظيم﴾(٢).

ولا يسعني إلا أن أخص بالشكر زوجتي، التي ساهمت معي في تقديم هذا الكتاب للقراء، فيما بذلته من جهد وعناية ورعاية وتشجيع، وما قامت به من جهود ووفّرت لي من ظروف ملائمة للعمل.

وفقنا الله سبحانه وتعالى لما فيه خير الإسلام والمسلمين، ورفع راية الإسلام شامخة على الدوام بعونه تعالى:

﴿فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ على ما تَصفون﴾(٣).

صدق الله العظيم.

---

(١) سورة يونس: ١٠٨

(٢) سورة آل عمران ١٠٤ ـ ١٠٥

(٣) سورة يوسف: ١٨

١ ـ مدخل

أين يقف المسلمون الآن؟ وما موقعهم في العالم؟.

قبل أن نتعرض بالتفصيل إلى بعض الأفكار الجوهرية التي يمليها موضوع هذا الكتاب، يجدر بنا أن نطرح السؤال المزدوج التالي:

ـ أين نقف الآن؟ وما موقعنا بين الأمم التي تعيش على الكرة الأرضية؟.

ـ ماهي درجة التصنيف التي استحققناها فأطلقت علينا بجدارة؟.

ـ هل نقع بمرتبة العالم الأول؟.

ـ أم هل نقع بمرتبة العالم الثاني؟.

ـ أم لازلنا نقبع في مرتبة العالم الثالث؟.

سؤال هام يتطلب منا إجابة ملحّة تسمح بعد معرفتنا للحقيقة لتكون قاعدة انطلاق حقيقية لتقويم واقعنا إسلاماً ومسلمين.

وللإجابة عنهما أرى ضرورة العودة قليلاً إلى استعراض حقائق النهضة، بحكم أن الإسلام حركة نهضوية في إطاره التاريخيّ والإنساني بالإضافة إلى كونه رسالة سماوية.

ـ عصر النهضة الأوروبية:

لكل نهضة حقيقية مفكرون ومنظّرون وقادة، فالنهضة لا تقوم إلا على الوعي، والإيمان بالتقدم والتطور، وهي تسعى إلى نقل الناس من حالة التردي إلى حالة أفضل على الصعيدين المادي و الروحي، ولا بدّ أن تخلّف النهضة آثارها في الناس، وأسلوب حياتهم، ونمط سلوكهم، وهي تلتمس معالم ناطقة لها من عمران وثقافة وفنّ وإبداع، وكل نهضة مرهونة بحركة الزمن والتطور الماديّ والعقلي، وكل نهضة يفجّرها قادة ملهمون يدركون واقعهم وأهدافهم، ويستعينون بالعلم، وحقائق التاريخ، وتجارب الحياة العامة والذاتية، ويتمثّلون سيرورة التطور والتغيير، والإيمان بهما قانوناً للتغير لا يُفرض فرضاً على الناس، وإنما ينبع من قناعاتهم المحصلة من الإيمان بالتطور، وضرورة تمثل

موجبات ذلك التطور ودواعيه(*)، عملاً بقوله تعالى الذي دعانا نحن المسلمين إلى التطور فقال جلّ وعلا: ﴿إنّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[1].

والتاريخ ناطق بالأمثلة، فهذا مارتن لوثر المصلح الديني الأوروبي أيقن بخبرته ودرايته، وفهمه للواقع والظروف، أن من أبرز أسباب تخلّف الغرب جمود الفكر الديني في عصره، فقد أمست الكنيسة في تلك الفترة شبحاً يكبّل عقول الناس ويرعبهم، ويحول دون تطلعهم إلى المعرفة والعلم، وقد رفض رجال الكنيسة كل محاولة للتفكير تعارض الكتاب المقدس، مؤكدين أن ما ورد فيه من حقائق هي العلم الثابت المطلق الذي لا يقبل الشك، فهو يتمتع بقدسية لا يجوز أن تتحداها العقول، إن ذلك الجمود الفكري ومعارضة سنة التطور وتقييد حرية العقل قد جعلا الكنيسة خارج حركة التاريخ، ووضعاها في مأزق حرج، فلا هي قادرة على إثبات تلك الحقائق، ولا هي متخلية عن إضفاء صفة القدسية عليها، وحين تعرضت للامتحان أمام البراهين العلمية والكشوف الجديدة كدوران الأرض، ظنت أنها تستطيع، بالقسوة والضغط والإكراه، أن تتخطّى عجلة التطور وتوقفها، فأقامت محاكم التفتيش، وأمعنت في التضييق على رجال الفكر وحرقتهم أحياء، واتهمتهم بالسحر والهرطقة، وكأنّما قوله تعالى: ﴿يريدونَ ليطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم واللهُ متمُّ نورِهُ ولو كَرِهَ الكافرون﴾[2] إنما يعبّر أحلى تعبير عن ذلك الوضع الديني الحرج الذي وضعت الكنيسة نفسها بسبب تمسكها الحرفيّ للنصّ في شروحها وتفاسيرها، ثم جاء مارتن لوثر في تلك الفترة المظلمة التي كانت الكنيسة فيها على مفترق طرقٍ لا معالم لها، ليقول للناس: «لم يبق أمامنا إلا حلّان لا ثالث لهما: إما أن نؤمن بالدين كما تقول الكنيسة، ولا بدّ آنذاك من أن نلغي عقلنا أو نؤمن بالعقل ونلغي الدين والكنيسة».

فما سر تلك الأزمة التي تعرضت لها الكنيسة وكيف وصلت إلى وضع ميؤوس منه؟.

خلال قرون طويلة لم يكن لرجال الدين من همّ إلاّ إثقال العقول بشروح وتفسيرات للنصوص الدينية المسيحية، بحسن نية في أغلب الأحيان، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، وفي أحيان أخرى كانوا متوهّمين أنهم يعملون على تمكين الناس من فهم الكتاب المقدس، دون أن يعلموا أنهم كانوا السبب المباشر في إثارة الجدل والخصومة

(*) أفضل من استطاع من الكتاب المسلمين توضيح معاني هذه الآية ومقاصدها القريبة والبعيدة هو الأستاذ جودت سعيد في كتاب يحمل الجزء الثاني من نص الآية (حتى يغيّروا ما بأنفسهم)

(١) سورة الرعد: ١١ (٢) سورة الصف: ٨

ودك إسفين الخلاف والفرقة حول مسائل دينية ما كان لها أن تبرز على السطح لولا تفتيقها منهم، مما دفع بالأجيال إلى السأم ورفض الدين بالجملة، وإعلان شعارات مثل (الدين أفيون الشعوب)، (الدين لله والوطن للجميع). والنداء بالأفكار الديمقراطية مثل: حرية التفكير، حرية الاعتقاد، حرية الكتابة والتعبير عن الرأي، وظهور الأفكار الاشتراكية حيث أصبح الدين رفداً لكل تأخر ولكل خرافة.

هذا ما حدث في الغرب، وما حصل هناك كان تطوراً طبيعياً لحركة التاريخ التي قررها رب العالمين بسنته ولن تجد لها تبديلاً.

ـ ولكن ماذا عن الشرق؟.

قامت الإمبراطورية العثمانية التي تميزت بحكم أوتوقراطي تحت اسم الخلافة العثمانية، وبغض النظر عن مراحل القوة التي مرت بها هذه الإمبراطوية فقد أصبحت في نهاية القرن التاسع عشر في وضع يرثى له من سوء الحكم والإدارة، وترتبت عليه نتائج سلبية منها: الضعف الجهل والفقر والتشتت، مما سهل على الأوربيين بعد الحرب العالمية الأولى تقسيمها إلى دويلات، رسمت حدودها وفق إرادة المنتصر الأقوى المتحضر والمسلح بالعلم والمنطق، وبالأفكار الماكيافيلية في السياسة. وأخذت الدول الأوروبية على عاتقها أمر تعليم الأجيال من أبناء المسلمين في مدارسها التي افتتحت في العواصم الإسلامية الجديدة، من كراتشي شرقاً وحتى أديس أبابا غرباً، وتعهدت لمن تخرج في تلك المدارس، لإكمال ما بدأت به، إتمام ثقافتهم في جامعاتها مثل أكسفورد وهارفارد والسوربون ليعود هؤلاء إلى بلادهم وقد تشبعوا بأفكار الغربيين، بعد أن درسوا الثورة الفرنسية، وأفكار كارل ماركس الاشتراكية، مرددين الشعارات التي تعلموها هناك مثل: (الدين أفيون الشعوب)، (الدين لله والوطن للجميع)...

وعاد هؤلاء المتعلمون بعد أن تلقوا علومهم في أحسن جامعات أوروبا، وكانوا في غالبيتهم من العائلات الأرستقراطية الغنية، المسيطرة في عواصم الدول التي أفرزتهم أصلاً، فقد تشبعوا بالثقافة الأدبية ليكونوا كما أريد لهم أصلاً، قادةً للفكر والسياسة في جامعات تلك العواصم ومؤسساتها، ومسؤولين في حكومات الدويلات الجديدة المستحدثة من الغرب، فأسسوا الأحزاب التي نعتت بالوطنية والتقدمية، مؤثّرين في الأجيال الصاعدة، المتعطشة للتقدم والتغيير بالأفكار البديلة. فنشأت الأجيال الرائدة على هذه العقلية العلمانية، التي كانت مقصودة أساساً، ورسخ في أذهان تلك النخبة أن

الأفكار الحديثة هي وحدها المنقذ الوحيد الذي لا بديل عنه لخلاص شعوبهم مما تعانيه من أسباب التأخر عن ركب الحضارة، من جهل وفقر وضياع في الأوهام الدينية والقدرية التي تدعو للتواكل والكسل، والعزوف عن العمل، معتبرين على غرار بعض الغربيين أن الدين هو المسؤول عن كل تأخر تعانيه مجتمعاتهم. وحاول بعضهم من المتعطشين للتغيير ولا صبر لهم على الانتظار، أن يلجأ إلى التقليد الأعمى، مثل مصطفى أتاتورك في تركيا، الذي حاول أن يستبدل بالطربوش القبعة وباللباس التركي البنطال والجاكيت، معتقداً أن ذلك وحده كفيل بتغيير الأتراك من آسيويين شرقيين إلى أوروبيين غربيين، مثلما عمد إلى أن يستبدل بحروف التركية العربية الأحرفَ اللاتينية، فقطع صلة الأتراك بتراثهم وبالقرآن الكريم، زاعماً أن الدين الإسلامي كان سبب تأخر شعبه، وكانت الجمعيات الماسونية وراء ذلك كله. لكنّ المعجزة لم تحصل ولم يتحول الشعب التركي الآسيوي، العريق في ثقافته وديانته إلى شعب أوروبي يتحلى بثقافة أوروبية.

وكان الأولى به أن يسعى إلى تغيير ما في النفوس، أي ما في الرؤوس والجماجم من أسباب التأخر الحقيقية، فما تلك الأفكار التي حملها إلينا الشبان الذين تثقفوا في أوروبا، ثم رجعوا عائدين إلينا، ليغيروا ما فينا من تأخر وجهل وفقر كما أوهمهم بها أساتذتهم الغربيون؟.

الأفكار الديموقراطية، حقوق الإنسان، نظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، الثورة الفرنسية، القانون الروماني، القوانين المدنية الحديثة، المأخوذة أصلاً عن القانون الروماني كالقانون الفرنسي والقانون الإنكليزي. ومع مرور الزمن فقدت كل تلك الأفكار بريقها، وانكشف زيفها وعدم صلاحيتها للشرق، لأنها لم تستنبط في الأصل له، ولذلك لم ترسخ في العقل الباطن للمسلم (إنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها). وكلما أخفقت لهم نظرية بعثوا الأمل في نظرية أخرى، وكلما خاب أمهلم في طريقة قالوا: التمسوا لها بدائل في الأفكار التقدمية والقومية والعقائد الاشتراكية، للحصول على التقدم والحضارة المنشودتين، فسقطت كل البدائل والأفكار بالتتابع، ولم يبق أمامهم إلا أن يجربوا الحل الإسلامي.

ولكن، أنظن أن مثل هذا الحل يسير التحقيق أو أن طريقه سيكون مفروشاً بالورد؟.

دعنا نستعرض الموقف:

إن الدنيا كما نعلم مصالح، ولا مجال للعواطف كثيراً مع المصالح. فأين تقع مصلحة

الغرب الذي يعد كل البلاد الإسلامية (وضمنها البلاد العربية) المجالَ الاستراتيجي للمصلحة الغربية، بما تحويه تلك المنطقة من ثروات نفطية ومعدنية، وبما تشكله هذه البلاد بكثافتها السكانية من سوق استهلاكية ضخمة، لا بد من وضعها تحت السيطرة الغربية لتحقيق تلك الأهداف؟!

فمصلحة الغرب في هذه البلاد أكبر من تصور الفرد البشري إذا جاز لنا هذا التعبير.

هذا إذا تذكرنا من الماضي القريب أن الغرب لا يزال يعدّ الإسلام الصحيح أكبر عدوّ عقائديّ له، وهو لم ينسَ بعدُ الحروب الصليبية إلى حد أن أحد جنرالات الاحتلال، وهو الجنرال الفرنسي غورو، عندما دخل دمشق، كان أول ما فكر أن يقوم به زيارة قبر المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبي فيها، ليركله بقدمه قائلاً: ها قد عدنا يا صلاح الدين! فالغرب لن يسمح بكل ما أوتي من قوة أن يظل نداء: الله أكبر، يتردد في سماء هذه البلاد، ولسوف يحارب الفكرة من بداءتها، وهو غير غافل عما يجري حوله إطلاقاً، ولذلك يخطط منذ الآن، (وإن كنا نحن لا نخطط على الإطلاق) لتكون العودة إلى إسلام وهمي خرافي لا جدوى منه ولا نفع فيه لكي يضل فيه المسلمون، ويؤمنون أن لا مفر لهم مما عرضه الغربيون عليهم، منذ البداية، وهو الاستسلام التام والإقرار لهم بالولاية التامة، والتفوق عليهم علماً وحضارة، فهم السادة ونحن الأتباع. والتابع يحاكي سيده ويتبنى طريقته وأسلوبه في الفكر والفن والحضارة، لكن الغربيين يعرفون ما يعطون وما يمنعون، وهم على استعداد لأن يقبلونا في جامعاتهم لنتعلم فيها الرسم والعمارة، والأدب والتاريخ، والفلك والنجوم، أمّا أن نتعلم الصناعة والتقنية وأسرار العلوم، فذلك من الممنوعات التي يجب ألا نفكّر فيها، وهل نلوم حرصهم على مصالحهم، والمصلحة فوق الجميع! لكن الأمور حتى في الغرب لا تجري كما يشتهون، ففي قلب ذلك التقدم الحضاري الذي بهر الناس في القرن العشرين، بدأت تظهر أمراض غير سارّة في مجتمعات الغرب ومنها الفراغ الروحي، والانحلال الخلقي، وانهيار الأسرة، وفقد القيمة الإنسانية وتفشي المشروبات الروحية والمخدرات، وانتشار الجريمة، وشيوع الشذوذ الجنسي، ومرض الإيدز الذي يهدد مستقبل شعوبهم بشكل غير متوقع. فالأوضاع الاجتماعية لديهم غير مواتية لكنها لا تبعث على اليأس بعد، فهم ما زالوا أقوياء يعلمون ما يفعلون، وما زالت بيدهم خيوط اللعبة كلها، وهم يملكون زمام المبادرة والتصرف وهم غير غافلين أو نيام، يخططون ليومهم وغدهم بعلم ووعي، على نقيضنا تماماً، فنحن لا نعلم بعد كيف ومن أين يكون البدء. ولا يذهبن بنا الظن

إلى أن إعادة طبع الكتب الدينية التراثية التي ألفت في عصور متأخرة، عصور الغفوة الإسلامية، ونشرها جاء تعبيراً عن صحوة إسلامية حقيقية، إنها كتب محشوة بأوهام وخيالات، خالية من العلم والمنطق، تعزز التواكل وتعطل العقل، وتنسف آخر أمل للمسلمين في الإصلاح والنهضة وبناء الإنسان على مبادىء العقيدة القويمة التي أعلت مكانة العقل ورفعت مشعله.

هذه الكتب الصفراء المريضة يعاد طبعها اليوم عن دراسة وتخطيط، ويعاد بعثها من المكتبات العربية الإسلامية، فتُلَبَّسُ ثياباً جديدة من ورق أبيض مصقول، في نسخ من الطباعة العصرية الأنيقة، لها أغلفة مزخرفة، مجلدة أحسن تجليد، مطلية بماء الذهب البرّاق، فما سر ذلك الاحتفاء والاهتمام بتلك الكتب التي لو نفعت لأفادت أصحابها الذين ماتوا جهلاً وفقراً واتكالاً وكسلاً وهروباً من الحياة؟!

المخططون لهذا كله يريدون أن يوهموا شباب المسلمين اليوم أن هذه الكتب فيها الحلّ الشافي لمشاكل المسلمين المعاصرة. وما أطرف تلك المفارقة! أن نلتمس في أفكار عصور التخلف والتردي وسيادة الخرافة والوهم الحل الشافي لمشاكل عصرنا الحاضر! والأدهى من ذلك أن الماء يجري من تحتنا ولا أحد يهتم للأمر، أو يقدِّر ما يُهيّأ لنا ولأبنائنا من مصائب، بل لعلّ أكثرنا من المهلّلين لما يحصل، وكأن هذه الأوهام الضالة هي التي ستعيد المجد الضائع، وتنقذ الأمور، وتعيد للعرب والمسلمين حضارتهم الضائعة، ولن تقودنا إلا إلى ضلال مبين.

وليس الغرب بساذج ليسفر عن تدخله في هذا الموضوع علناً، فمن السهل عليه أن يجند كثيراً من الشبان المسلمين المضلَّلين، الذين استحوذت عقولهم تلك الأفكار، بل نجد اليوم في كل مدينة إسلامية مئات من الرجال والنساء، يروجون لهذه الأفكار صباح مساء في دروس خصوصية شبه مجانية، وكلهم يهلّلون ويزعمون أنها صحوة دينية، ولا يعلمون أنهم مُقدِمون على كارثة بل فتنة دينية.

إن وراء ما يحصل الآن دراسات قام بها مستشرقون يعتمدون في تقديمها للناس على تلاميذ من الشرق أو يستغلون بها المشاعر الدينية للشبان. ولا أحبّ أن يفيق الشباب المسلم على الكارثة بعد خراب البصرة، وبعد أن تضيع منا فرصتنا الأخيرة والوحيدة.

علينا أن نفتح عيوننا حتى نتبين ماذا يُخطّط لنا وللعالم الإسلامي من أوله إلى آخره، والشعوب الإسلامية لا زالت مغلوبة على أمرها، لم تصل بعد إلى مستوى الوعي اللازم

لتقول نعم أو لا. وأغلب أصحاب الفكر والعلم كانوا ولا زالوا في المعسكر الذي هزم عقائدياً وقومياً، وما زال أثر الصدمة مسيطراً على أعصابهم وأفكارهم، وقد كفوا فجأة عن التفكير والكتابة. ولكن أين المفر؟ لا بد من العودة للإسلام، لا للإسلام الذي يدعونا إليه الغرب ويرسم معالمه لنا لنقع في خندق الأوهام والأساطير مجدداً.

لا بدّ لنا من العودة إلى خندق المجاهدين الصحيح، ليس للقتال، وإنما للدعوة.

إن الذي نحن فيه اليوم لا يمت إلى الإسلام بصلة، فكيف ندعو ونجاهد، ونحن لا نعرف اليوم كنه ديننا وما يأمرنا الله أن نفعل، علينا بكل ما أوتينا من قوة أن نغير ما بأنفسنا بدراسة القرآن مجدداً. وحتى نعلم من أين نبدأ علينا أولاً أن نتبين وضعنا الآن، وموقعنا على هذه الأرض، وما في يدنا.

بلادنا شاسعة منقسمة على نفسها سياسياً واقتصادياً وفكرياً، وقومياً ودينياً وطائفياً، لا يجمعها شيء غير كلمة كبيرة ضبابية في نفوسنا اسمها الإسلام، تمزقها الطائفية والفرقة، تفتقر إلى وحدة الهدف والمعتقد حتى ضمن الطائفة الواحدة.

والسنّة نفسها التي تعد أكبر الفئات تعاني من جمود ديني وفكري لأسباب تاريخية قديمة، مثل توقف الاجتهاد من قرابة ألف عام على فقه الأئمةالأربعة، وصفوة شبابنا المفكرين والمثقفين كانوا يقفون، كما رأينا، إلى عهد قريب في خندق التقدميين والعلمانيين والديموقراطيين والاشتراكيين والقوميين على امتداد العالم الإسلامي والعربي، معتقدين أنهم هم الذين اختاروا ذلك الخندق بكامل حريتهم، ولو فكروا ملياً لاكتشفوا أن هناك مخططين ساقوهم إلى ذلك الخندق، واختفوا وراء أفكارهم ببراعة فائقة.

إن أغلب أولئك الشبان هم من المسلمين الذين غُرّر بهم، لكن بعضهم، وأنا أعترف بأنني كنت واحداً منهم، أدركوا بعقلهم الباطن أن لا حل إلا بالعودة لله سبحانه وتعالى وللقرآن الكريم وللإسلام الصحيح تائبين مستغفرين، لكن الأغلبية الباقية منهم ما يزالون جامدين في أماكنهم، تنقصهم المبادرة ونقل الفكرة إلى منطقة الوعي من تفكيرهم، أو تنقصهم الشجاعة إلى صيحة تنبع من قلوبهم أن لا إله إلا الله، والله أكبر. آن لهم أن يعلموا أن لا أمل إلا بإسلام صحيح. ولا إسلام صحيحاً إلا بالقرآن الكريم. فالإسلام سره وفكره وعمله في القرآن العظيم، الدستور المتجدد لكل زمان ومكان. هذا القرآن، بمعونة الله سبحانه وتعالى، وبعمل جاد من الشباب المسلم والمفكر قادر على تحقيق المعجزة كما حققها أول مرة بمعونة الله ونصره وتأييده.

ينقصهم بعض التبصر والبحث عن الحقيقة الضائعة مرة آخرى، عندها سوف يتأكدون أن الحريص ذا البصيرة من ربح نفسه وعاد تائباً مستغفراً لله الواحد القهار، الغالب على أمره في كلّ الأمور، وأعلن إيمانه وإسلامه مجدداً، وعاد إلى رحاب الإسلام الصحيح، وإلى صفوف الدعاة من المجاهدين في سبيل الله في الصف الأول، حتى يشد بعضهم أزر بعض كالبنيان المرصوص، فكم من المسلمين المؤمنين تأخر إسلامهم وإيمانهم من أمثال خالد بن الوليد، لكنهم بعد أن ثابوا ورجعوا إلى الإيمان صاروا من المشهورين المبرزين بين صفوف المؤمنين.

لا بد من الاعتراف بالحقائق إذا كنا مؤمنين بكتاب الحقائق الذي هو القرآن الكريم، ومن تلك الحقائق أن المسلمين كلهم على الأرض في يومنا هذا أعجز من ذبابة، أوضاعهم متردية، يهانون من الغرب القوي المتكبر المتجبر بقوته وطغيانه كل يوم.

إن استخفاف الغرب بنا أصبح اليوم سافراً لا يحتاج منهم إلى احتشام أو خجل أو تورية، ولنا كل يوم في أنحاء العالم الإسلامي برهان عملي على ذلك ولو سأل سائل ما سرّ ذلك التردي؟ فلنا أن نجيبه بكل صراحة: لأن الله أمرنا أن لا نواليهم فواليناهم: ﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ، بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إنّ اللهَ لا يَهدي القومَ الظالمين﴾[٣].

جعلناهم يخططون لنا، بعد أن تخلينا عن تدبير أمورنا وجعلناهم يفكرون لنا، بعد أن تعودنا ألا نفكر على الإطلاق، وتركناهم يصنعون لنا ما نلبس ونأكل، بعد أن تواكلنا وتوقفنا عن العمل، وتركناهم يصنعون لنا ألعاب أطفالنا، وسلاحاً لكبارنا يقتل به بعضنا بعضاً، هم يشترطون علينا حين ندفع ثمن سلاحهم أن نقتل به أنفسنا إن شئنا، أو إخواننا في الدين، وإلا سحب منا ولو كنا ندفع ثمنه بالإسترليني أو الدولار.

والغريب أن أغلب الذين يملكون القدرة على التفكير والرؤية إلى أبعد مما هو متيسر لجماهير المسلمين، ما زالوا يقفون على الحياد، وكأن الكارثة القادمة لا تهمهم في شيء، متجاهلين مع أنهم يرون ما يُحضَّر لنا، ولعل من سبب صمتهم كثرة الأهوال والهزائم المتتالية والصواعق التي نزلت فوق رؤوسهم، ورؤوس شعوب المسلمين التي كانوا يمنونها بالوحدة والعدالة الاجتماعية والحرية والتقدم والرفاء والأحلام الذهبية. لقد خابت أحلامهم لأنهم ضلوا عن الطريق الصحيح والمرشد الأمين الذي لا يضل من والاه.

(٣) سورة المائدة: ٥١

والشعوب الإسلامية غدت بلا مفكّرين ولا منظّرين، ولا مخطّطين أو منظّمين، يقودها غالباً أئمة لا يمتازون عنهم إلا بالجبة والقفطان وذرابة اللسان، بلا علم صحيح أو فهم سليم لآيات القرآن الكريم، يقفون أمام المصلين صائحين: اللهم اقهر أعداء الإسلام أجمعين آمين اللهم آمين.. اللهم ودمرهم وخرّب بيوتهم أجمعين اللهم آمين، متواكلين، مهزومين ـ أمواتاً غير أحياء ولكنهم لا يعلمون، يتمنون من الشيطان الأماني بدل أن يشفعوا إلى الله بأعمالهم، وأيسر خَطبهم أنهم يقولون ما لايفعلون.

ويقف إلى جانبهم شباب متحمس قد شدوا السروج على الخيول، ولبسوا دروعهم، وحملوا سيوفهم، ولبسوا أكفانهم، يريدون من الله أن يعيد عجلة التاريخ إلى الوراء ألفاًوأربعمائة سنة، ليعودوا إلى عصر الرسول الذهبي، ويصبحوا من صحابة الرسول محمد ﷺ، وأصحاب خالد بن الوليد ثانية.

ولعل بعض ما يسوّغ منطقهم المستحيل أنهم يدعون إلىعمل، وأنهم يملكون الإرادة وحسن النية، لكن سنة الله سبحانه وتعالى ألا تعود الشمس إلى الخلف، بل تجري على سنن الكون إلى مستقر لها دون توقف لحظة واحدة، فكل من يتخيل إمكانية الخطو إلى الوراء واهم لا يعرف سنة الله في خلقه، فمن مات لن يعود، وما مضى أيضاً لا أمل في رجوعه. ولكل زمان وعصر رجاله، ولكل عصر أدواته ووسائله وظروفه، فزمن السيف والرمح والخيول مضى عهده، ونحن في عصرنا لنا سيوف ورماح وخيول مختلفة، هؤلاء الشبان أحوج إلى فكر معاصر يقودهم، ونحن أمة المسلمين أحوج إلى مفكرين ومنظّرين، ولا جدوى في أن يفكر عنا غيرنا بالأجرة لا نفع أن يخطط لنا سوانا بالتوظيف، أو ينظم لنا بالاستخدام، نحن أحوج ما نكون إلى علم معاصر، ووسائل معاصرة، وأدوات معاصرة، للقدرة على السير مع الزمن وفي مساره. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى فكر معاصر يقودنا، لأننا بالعلم وحده المعتمد على العقل والتفكير والتخطيط والتنظيم، يمكن أن نعمل كخلية النحل لبلوغ الأهداف، فلا مستحيل مع العقل والعلم والرغبة في العمل الصالح، بتقوى الله والاعتماد عليه والإيمان به. ذلك هو النصر الذي يعدنا به الله سبحانه وتعالى، وكل تلك الحقائق مشروحة في قرآننا العظيم، فما أحوجنا أن نتفهم القرآن ونتلوه! ولو سعى كل فرد منا، أو عدد كبير منا، إلى أن يصلح نفسه لتمّت المعجزة، ولرأينا التغيير يتم في جيل واحد، كما حدث في أيام الرسول ﷺ ولنتذكر أن من وعده الرسول في أول الإسلام بسواري كسرى قد

لبسهما في معصميه قبل أن يموت، وأن الجيل الأول الذي آمن وجاهد مع الرسول ﷺ في بداية الدعوة جنى ثمرات جهاده وأكل مما زرعت يدا رسول الله وأيادي من ناصره.

فبإيماننا بالله العزيز الجبار، وبتطبيقنا أحكام القرآن، طاعة للّه تعالى والرسول ﷺ الذي بلّغنا هذه الرسالة العظيمة، وبمحبتنا بعضنا بعضاً، والعمل والجهاد في سبيل الله، نحقق المستحيل، وقد يكون الطريق بعيداً، لكنه لن يكون حتماً بطول الفترة التي قضيناها في الكهف منتظرين وعداً لم يعده لنا أحد، فضيعنا ألف سنة هباء دون أن نعمل فيها غير النوم والأحلام، وانتظار وَهْم خلقناه.

المهم أن نخطو الخطوة الأولى على الطريق الصحيح، وفي الاتجاه السليم، بنية صادقة على العمل، وإيمان قوي بالله سبحانه وتوكل عليه، وأمل منه في النصر والتأييد. علينا ألا نتوقف، ألا نتحجر، نتحرك مع الزمن، وعلى الصراط الذي هدانا الله في كتابه الكريم لننال رضاه ونصره وتأييده: ﴿إنْ يَنصُرْكُم اللهُ فلا غالبَ لكم وإنْ يَخْذُلْكم فمن ذا الذي ينصُرُكُم من بَعده﴾[٤].

ولن يترك لنا أعداؤنا فرصة للتفكير لكن لا بدّ أن نلتمس على أرضنا مكاناً مناسباً نعيد فيه حساباتنا، ونتجهز للسير ونعد له عدته، متسلحين بالإيمان بالله العلي أولاً، وبقرآنه هدىً ونوراً، مسترشدين ببوصلة العلم والعقل، تاركين الوهم والأباطيل والسحر والأساطير في الكهف الذي حشرنا زمناً مع الخفافيش إلى غير رجعة، للانطلاق نحو الشمس. سلاحنا علمنا وعقلنا وعملنا وقرآننا في صدورنا، متفهمين أحكامه وآياته، مطيعين الله والرسول في كل ما يأمرنا به القرآن فعلا، لا ما نتوهمه. ولنتخيل الرسول ﷺ وكأنه حيّ يرزق بيننا نسمع صوته يصدع بكلام الله:

﴿يا أَيها الذينَ آمنوا اذكروا نِعمَةَ اللهِ عليكُم...﴾[٥].

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكُم بينكُم بالباطل﴾[٦].

﴿يا أيها الذينَ آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ﴾[٧].

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تبطلوا صدقاتِكم بالمنّ والأذى﴾[٨].

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتُمْ بدَينٍ إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوهُ...﴾[٩].

(٤) سورة آل عمران: ١٦٠
(٥) سورة المائدة: ١١
(٦) سورة النساء: ٢٩
(٧) سورة البقرة: ١٥٣
(٨) سورة البقرة: ٢٦٤
(٩) سورة البقرة: ٢٨٢

ومن كلامه تعالى نتبين الأحاديث الصحيحة التي لا ظن فيها ولا احتمال أو شك، والأوامر الصحيحة هي أوامر الرسول الواجبة الإطاعة، والتي إطاعتها من إطاعة الله، فننبذ الشيع والطوائف، وننبذ معها كل الذين لهم مصلحة في بقاء المسلمين طوائف وشيعاً، معيدين للإسلام روحه بالاجتهاد من القرآن، متمسّكين بسنة الله التي هي نفسها سنة الرسول، لا أن نوهم أنفسنا أو الآخرين أوهاماً لم تكن ولن تكون. ولا نترك للطيبة الساذجة مكاناً بيننا الآن فلا نستسلم لعواطفنا الجياشة لتجرفنا إلى أماكن مجهولة. يكفينا العقل المؤمن موجهاً ومرشداً في نهار طويل كثير الزوابع شديد الأعاصير، كلها تنتظر سفينتنا التي ستمخر بقوة سواعدنا وعزائمنا، وقلوبنا المؤمنة بأن الله سبحانه وتعالى معنا سيحمينا، كما وعدنا ووعد المؤمنين الصادقين بالنصر، وحمايتنا من مكائد الكائدين الماكرين مع الشيطان الذي أقسم معهم بأن لا يعطونا فرصة للنجاح إن استطاعوا: ﴿... ويَمكرونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خَيرُ الماكرين﴾(١٠).

﴿وما كيدُ الكافرينَ إلا في ضلالٍ﴾(١١).

﴿إنهم يَكيدون كَيداً، وأَكيدُ كيداً، فمهِّل الكافرين أمهِلْهُم رويداً﴾(١٢).

﴿إن ينصرْكم الله فلا غالبَ لكم﴾(١٣).

﴿ولينصرنَّ اللهُ من ينصرهُ إنَّ الله لقويٌّ عزيز﴾(١٤).

هم يقاتلوننا للمحافظة على مصالحهم وبقاء رفاههم على حسابنا، ومعركتنا معركة إيمان ومعركة وجود، ولن ينالنا إلا إحدى الحسنيين: إما الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله جنوداً في حزب الرحمن، أو النصر على الأعداء والكفار الذين جعلوا الدنيا كل همهم.

هي معركة إيمان في مواجهة قوى الكفر والشيطان. معركة المؤمنين بالله، والمتمسكين بمنهج الله الذي هو القرآن العظيم وهو منهج الناس والعالمين في المستقبل، وعلينا نحن المسلمين الذي نزل لهم هذا القرآن أن نكون مسؤولين عن تقديمه للعالمين، ولكن الماء المنخفضة لا تسقي الأرض العالية، فلا بد من رفع الماء من الوادي إلى الأعالي كي يرويها. علينا أن نرتفع نحن بالقرآن إلى مستوى أعلى من مستوى الغرب، عندها يمكننا أن نقول للعالم هذا هو المنهج الذي ارتفعنا به، ورفعنا الله به، ونصرنا على أعدائنا جميعاً به، رفعنا من الحضيض إلى أن بلغنا الذرا وحققنا به سعادة الدنيا والآخرة، إذا

(١٠) سورة الأنفال: ٣٠
(١١) سورة غافر: ٢٥
(١٢) سورة الطارق: ١٥ ـ ١٧
(١٣) سورة آل عمران: ١٦٠
(١٤) سورة الحج: ٤٠

كنتم تحبون أن تشاركونا نعمة الله فإليكم منهج الهداية، وهو ليس لنا فحسب، بل هو منهج للعالمين جميعاً وليس مقصوراً على أمة دون أمة.

تلكم هي رسالة الإسلام، ومن أجل هذا أرسل الله سبحانه وتعالى القرآن، ومن أجل ذلك حفظ الله سبحانه قرآنه من عبث العابثين، وأيدي المكذبين والمحرّفين. تعالوا نكن من أوائل جنود الله، العائدين إلى رحاب الله في عصر الجاهلية الحديثة. ولو فكّرنا جيداً لوجدنا أننا في جاهلية أكبر من جاهلية قدماء مكة ومشركيها. نحن جميعاً أحوج ما نكون إلى هدي جديد، وعودة صحيحة، وفهم سليم لآيات الله في القرآن العظيم.

﴿إن هذا القرآنَ يَهدي للّتي هيَ أقوَمُ﴾[١٥]

صدق الله العظيم.

---

(١٥) سورة الإسراء: ٩

٢ ـ الدافع الذي دعاني لكتابة هذا الكتاب:

لماذا وضعت هذا الكتاب؟

من حق كل قارىء، ذكي وناصح للناس ومنتصح لنفسه، أن يشك بكل الأفكار التي تُقدّم له ولشعبه وقومه وعشيرته وأمته. فيضعها في الميزان متسائلاً هل تقدّم لإضلاله أم لإرشاده؟ أيحاول هذا الكاتب أن يدسّ السم في الدسم؟ وإن كان ذلك فعليه أن ينبه الناس إلى موضع السم فيجتنبوه.

ولكي يتبين القارىء مع من يتحاور في هذا الكتاب حاولت جهد المستطاع أن أكون صريحاًصادقاً، مفهوماً لكلّ الناس، ودون لف أو دوران. فلم أستخدم رموزاً أو تعميات حرصاً مني على إيصال المعاني إلى ذهن القارىء. فأنا أتعامل معه تحت ضياء الشمس، وكل ما في سرّي أعلنه في العلن، فلا أحب أن يكون بيني وبينه أسرار، ولا حواجز تمنعنا من اللقاء، وأنا أحترم عقل القارىء، وأرجو صبره عليّ ليفهم المعاني بعد أن يستمع لما أريد أن أقول. ولا يحكم علي وعلى الكتاب سلفاً من مدخله قبل أن يقرأه، فلا يكون قد ظلمني وظلم نفسه بهذا التسرع في الحكم. وإني لقانع القناعة الكاملة بأني والقارىء نشترك في محنة قائمة نعيشها معاً، ونعانيها في كل لحظة من حياتنا، ولن تزول تلك المحنة إلا باجتماع كلمتنا جميعاً وتضافرنا بوعي وإدراك لإزالتها.

كيف يكون موقف إنسان يعمل في مؤسسة لدراسة الزلازل وتبين له أن زلزالاً عظيماً سوف يقع على منطقة يسكن فيها أهله وأحباؤه؟ وما نتوقع من ذلك الشخص؟ أيترك أمر الزلزال وكأن الأمر لا يعنيه في شيء ويدعه يفعل فعله بأهله بحجة أن الله يفعل ما يشاء أم يقول في سرّه إن الله قد وضع في علمي ما أعلمه كي أتصرف؟ ألا يقوم مسرعاً إلى قومه وأهله فينذرهم بما يعلم من حقائق ولو كان رَدّ فعل الناس مما نَقَل متبايناً؟ فمنهم من يصدقه ويعمل بمشورته ونصحه وهؤلاء من الذين آمنوا وصدقوا، فأنقذهم الله بمشيئته وإذنه، ومنهم نفرٌ سوف يكذّبونه ولا يكترثون لما قاله أبداً، فتحيق بهم الكارثة ويعذبهم الله في الدنيا فيزهق نفوسهم لأنهم كانوا من المكذبين لحقائق الله، والزلازل من حقائق الله، وليست من الأوهام، وأنا أيضاً أخاطب أبناء الأمة من

المسلمين مكرراً ما قاله تعالى: ﴿قالَ يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينةٍ من ربي وآتاني رحمةً من عنده فَعُمّيَتْ عليكم أنُلزمُكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجريَ إلا على اللهِ وما أنا بطاردِ الذينَ آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنّي أراكُم قوماً تجهلون * ويا قوم من يَنصُرني من اللهِ إن طردتُهم أفلا تَذَكّرون * ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ إني ملكٌ ولا أقولُ للذينَ تزدري أعينكُم لن يؤتيهمُ اللهُ خيراً اللهُ أعلمُ بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾(١).

﴿أفمن كانَ على بيّنةٍ من ربهِ كمن زُيّن لهُ سوءُ عمله﴾(٢).

وباختصار شديد أبين ما أقوله لهم في هذا الكتاب؟.

أقول: إن الله سبحانه وتعالى وكتابه وحقائقه وإسلامه وقرآنه الشافي لأمراض النفوس والمجتمعات أصبح اليوم منّا في واد وأصبحنا نحن المسلمين، بكتبنا وعلومنا، وأحاديثنا وسننا، وأوهامنا وأباطيلنا، في واد آخر مع الشيطان.

ودليلي الذي لا يقدر أحد على نقضه هو واقعنا الذي ينطق بالحقيقة ويصرخ أننا لضعفنا وهواننا وذلنا أمام الله والناس، أصبحنا في وادي الشيطان، ولسنا أبداً مع الله سبحانه وتعالى القويّ العزيز، فمن كان مع الله وجب أن تظهر عليه وعلى أحواله نِعَمُ الله وفضله، ومن كان مع الشيطان أيضاً وجب أن يظهر عليه وعلى أحواله غضب الله، ونقمته، فإن كنت كاذباً فيما أدعي وجب على من يكذبني أن يظهر لي وللناس أني حالمٌ واهمٌ لا أقول أو لا أتكلم منطلقاًمن واقع حقيقي، وليرني بنفسه النعم التي أحاول أن أنكرها على نفسي وعلى الناس في هذا الكتاب.

ثم أتابع حديثي وأقول: إن هناك نفراً من الناس يحضّرون لنا أوهاماً أمرّ وأدهى مما عندنا، وأباطيل أشد مما نحن فيه غارقون، مدّعين أنهم بتلك الأوهام والظنون والأباطيل البعيدة عن الحق أو الحقيقة سوف يتم بها شفاؤنا، غير أني أقول للناس أجمعين: لو كان في تلك الأباطيل الخير أصلاً لاستفاد من خيرها أصحابها الذين عاشوا في فقر وجهل وضياع وأوهام. فالحل والشفاء ليسا على الإطلاق فيما يدّعون، بل هما في كتاب آخر هو كتاب الرحمن، في القرآن الكريم وهووحده المنقذ، أعلنها صراحة لنفسي وللناس: ﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرّقوا﴾(٣).

---

(١) سورة هود: ٢٨ - ٣١
(٢) سورة محمد: ١٤
(٣) سورة آل عمران: ١٠٣

وأقول لهم إن أسلوب الاعتصام بحبل الله يكون بالدعوة إلى دين الله وقرآنه بالحكمة والموعظة الحسنة:

﴿ادع إلى سبيل ربّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة﴾[٤].

﴿إنَّ هذا القرآنَ يهديْ للتي هيَ أقوم﴾[٥]

و ﴿هذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتقين﴾[٦].

وأؤكد أنه لا يجوز إكراه الناس على الدين والإيمان، لأن الإيمان يجب أن يكون أساسه تطوعاً وحباً من الفرد لله سبحانه وتعالى، أن عصر الإكراه في الدين قد انتهى بعد الآية الكريمة: ﴿لا إكراهَ في الدِّين قد تَبيّنَ الرشدُ من الغيّ﴾[٧].

وأن كل إنسان حر فيما يختاره من الإيمان أو الكفر: ﴿وقلِ الحقُ من ربكُم فَمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومَنْ شاءَ فَلْيكفُر﴾[٨].

لذا وجب علينا نحن المسلمين أن نتبصر ونفكر في آيات الله قبل أن نتصرف ونعلم أن ليس من حقنا أن نكفر أحداً، أو أن نقتل أحداً، أو نروّع أحداً باسم الإسلام، وإن فعلنا نكون قد ارتكبنا جرائم حقيقية بحق أنفسنا وديننا، وبحق الله سبحانه وتعالى، نعاقب عليها في الدنيا والآخرة أشد العقاب، فالطريق الوحيد للإيمان نجده في نصّ الآية الكريمة: ﴿إنّ اللهَ لايُغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهم﴾[٩].

وقد وعدنا الله سبحانه، الصادق الوعد الأمين، أن يتكفل ويتدخل لتغيير حالنا إن نحن غيرنا ما في نفوسنا، وقوّمنا ما في قلوبنا، ونقّينا عقولنا من الوهم والباطل، وغيرنا سلوكنا، وتدبرنا حقائق الله في الكون والطبيعة، وتسلحنا بالعقل والعلم كما دعانا إليهما الله، فإنَّ نقلنا من حالنا إلى حال أفضل وتبديل ما نحن فيه أمر يعود إلى مشيئتنا نحن وهذا بإذن سابق من الله تعالى، وكل ما هو مطلوب منا نحن المسلمين أن نقرأ القرآن وحده، ونتدبر القرآن وحده، من دون أن نسمح للأوهام أن تعشش في عقولنا، ثم علينا أن نجدد الدعوة إلى الإسلام من جديد بعد أن نفهم نحن أولاً حقائق القرآن مستعينين بعقلية علمية ملكها سوانا كالياباني وأغلب الأوربيين، لكن نزيد عليهم أننا مؤمنون بالله ربّاً، وبالقرآن كتاباً، وبمحمد رسولاً ومبشراً ونذيراً، ونطيع الله والرسول في كل ما يأمراننا به في القرآن، وفي القرآن فحسب ولا نعترف بسواه، ولا نشرك بكتاب الله كتاباً آخر، فهل ترون فيما أدعو

(٤) سورة النحل: ١٢٥
(٥) سورة الإسراء: ٩
(٦) سورة آل عمران: ١٣٨
(٧) سورة البقرة: ٢٥٦
(٨) سورة الكهف: ٢٩
(٩) سورة الرعد: ١١

إليه سَمّاً في دَسَمْ؟ أجل أدعو ألا نشرك بالله شيئاً. فهل ترون في دعوتي هذه حُفَراًودَهَاليزَ ومطبّات؟ وهل وراءها أشراك منصوبة؟ أيُغْضِبُ اللهَ مما أدعو إليه؟ أم يُغْضِبُ الشيطان؟.

وإني أحاول أن أكون صريحاً معك، أخي القارىء، حتى تحكم في النهاية بنفسك، ولا تدع الآخرين يحكمون لك. استخدم عقلك وبصرك وسمعك ولا تسمح لتقولات الناس وأحكامهم أن تؤثر فيك، وجلّ ما أرمي إليه أن تصحو من نومك إن كنت من النائمين، أو تكفّ عن الحلم إن كنت من الحالمين. فتتبصر بما حولك وتدرك وتميز من ينصب لك حقولاً من الألغام ومَن يريد أن ينبّهك إلى حقولها، ولن أستطيع آخر الأمر أن آتيك بأفضل ممّا قاله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لأنهي هذا الموضوع وأحسمه معك: ﴿إنَكَ لا تهدي من أحببتَ ولكنّ اللهَ يهديْ من يشاء﴾[١٠].

فالله يهدي من يبحث ويرغب ويرجو الهداية، وقد بينت لك في هذا الكتاب كيف جعل الله مشيئة الإنسان في الهداية والإيمان هي الأولى.

وليعذرني القارىء إن وجد في مواطن كثيرة من كتابي هذا تكراراً فأرجو ألا يعدّ ذلك من الأمور التي وقعت عفو الخاطر وإنما كرّرتُ عامداً، ولي من وراء ذلك غايةٌ وهدفٌ، ذلك أن أغلب أفكار هذا الكتاب تبدو مفاجئة للناس إذ لم يتعودوا بعد على سماعها بل ألفوا نقيضها تماماً.

إن إعادة بحث تلك المسائل وطرحها بأساليب مختلفة وفي أماكن متفرقة من الكتاب تجعل القارىء يواجهها بحساسية أقل وتفهّم أكبر، وتدفعه إلى مراجعتها وتأملها في ذهنه، ومناقشتها ذاتياً، بعد زوال عنصر المفاجأة عنده، فيحلّلها ويعيد النظر فيها ليدرك ما فيها من منطق وثبات، ويزول بذلك ما تبادر إلى ذهنه من معارضة أملتها لحظة المفاجأة.. ومثل هذا الأمر بدهي، وهو يقع عادة من الإنسان تعبيراً عن ردة فعل طبيعية لما اعتاد عليه وألفه، والمرء يألف ما تعوّد ولو كان رديئاً، ومن هنا كان الهوى والتعصب لآرائنا، شأن ممارس التدخين فإنّ هواه يصرفه عن تبصر مضراته ولن يتراجع عنه بيسر إن اكتفيت بنصحه مرة.

ولكي يتحوّل من استعبدته العادة عن هواه وموقفه لا بدّ له أن يتفهم الحقائق العلمية المتعلّقة بحقيقة العادة نفسها أولاً. ثم يتفاعل مع تلك الحقائق بعقله حتى تتجسد له المضرات حقائق واضحة لا مجال للشك فيها.

---

(١٠) سورة القصص: ٥٦

فإذا تنبه للخطر وتمثل أثره فيه وفيما حوله من الناس انتقل من حالة الوهم إلى الوعي وتخلى إن كان يملك قوة الإرادة عن عاداته السيئة وإلا سيطرت عليه إلى النهاية وقضت عليه.

﴿قُل اللهُ يهدي للحقِّ أفمنْ يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أَن يتبعَ أَمَّن لا يهدي إلا أَنْ يُهدى فمالكم كيفَ تحكمون﴾(١١)

صدق الله العظيم.

وأضيف موجزاً أن كتابي هذا هو دراسة متواضعة للنصّ القرآني الحكيم بأسلوب علمي ومحاولة لفهم النص القرآني في سياق الآيات نفسها في ضوء اللغة العربية التي نزلت بها آيات هذا القرآن على لسان خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله ﷺ، مثلما هو أيضاًتحليل لظاهرتي الإيمان والكفر، وهما حالتان مقصودتان لذاتهما من الناس، فالمؤمن يسعى إلى الإيمان، ويصرح به، كذلك الكافر يقصد الكفر بمحض إرادته ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة.

لكن حالة الإشراك حالة خاصة تقع للمؤمنين من الناس وليس للكافرين فحسب، حالة يقع فيها المؤمن من دون شعور منه أو دراية. وقد برهنا في هذا الكتاب ومن خلال آيات القرآن الكريم أن مشركي مكة وقعوا مع إيمانهم بالله في الإشراك لاعتمادهم على مصادر للعلم غير الكتب المنزلة، فاعتقدوا وهماً بأن الملائكة من مخلوقات الله المؤنثة، مثلما دخل في اعتقادهم أيضاً بأن الله سبحانه يحبّ الإناث ويفضلهن على باقي مخلوقاته من الذكور، ولذلك عبد المشركون بعض الملائكة وقدسوها وتقربوا بها لله حتى تشفع لهم عند الله الواحد القهّار، ﴿ويعبدون من دونِ الله ما لا يضرّهم ولا ينفعُهم ويقولونَ هؤلاءِ شفعاؤُنا عندَ الله﴾(١٢) ولم يكن مشركو مكة وحدهم ممّن أضلتهم عقولهم، فثمة شعوب كثيرة سالفة وقعت أيضاً في الإشراك من عرب الجاهلية. وكذلك أهل الكتاب وقعوا في الإشراك. فاليهود قالت: العزير ابن الله، والنصارى ذهبت إلى أن المسيح ابن الله بل جعلته بمنزلة الله عندما قالت النصارى بالثالوث المقدس: ومن صفات المشركين أنهم لا يعترفون بشركهم لأنهم يقعون فيه من دون علم أو دراية منهم فإن واجههم من يعلم بإشراكهم أنكروا ذلك بشدة ودافعوا عن إشراكهم.

ومن يقرأ القرآن وآياته بتمعن يعلم أن الله سبحانه خلق هذه الحالة لكي لا يكون اختبار

---

(١١) سورة يونس: ٣٥ (١٢) سورة يونس: ١٨

الإنسان بعقيدته في هذه الحياة الدنيا سهلاً. فإن بعض المسلمين اليوم يعتقدون خطأً وظناً أن المؤمن الذي يتفوه بالشهادتين ويقيم الصلاة، ويصوم رمضان ويقوم بزيارة الأماكن المقدسة في الحج، ويردد باستمرار التعويذة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) قد بلغ مركب النجاة وأصبح بسهولة ويسر في طريقه إلى دار النعيم، وفات ذلك المؤمن آيات كثيرة يذكّره الله تعالى بها، ويُفْتَنُ كل يوم في دينه ويحاول شيطانه المتمثل في نفسه أو بأقران السوء الذين يمثلون شياطين الإنس، إلى جانب شياطين الجن من إبليس وذريته. وهؤلاء إن لم يستطيعوا أن يغيروا أفكار الإنسان المؤمن ومعتقداته ويحولوه من الإيمان إلى الكفر فإنهم يسعون بوسائل مختلفة لإيقاع المؤمن في حالة إشراك، مستغلين جهله بأشياء كثيرة عن الله وعن آياته في القرآن الكريم، وقد ضرب الله لنا مثلاً واضحاً في القرآن، وفي سورة الكهف بقصة الرجلين، حيث كان الله سبحانه قد قدَّر لأحدهما جنتين لإيمانه وصلاحه، فيفتنه الله بالشيطان فيقع في حالة الإشراك إذ يقول: ﴿قال ما أَظُنّ أن تبيدَ هذه أبداً﴾(١٣) يقصد بها جنته التي على الأرض، ويقع في الكفر عندما يقول: ﴿وما أظنّ الساعَةَ قائمةً﴾(١٤) فيلغي الله نتيجة ذلك جنته التي في السماء، الجنة التي وعد بها، ويعذبه في الدنيا قبل الآخرة بأن يدمر له حتى جنته التي على الأرض، والتي ظن ظلماً لنفسه أنها خالدة باقية لأنه جعل مع الله خالداً وباقياً آخر، مع أنه تعالى يقول له مراراً: ﴿كلُّ من عليها فان * ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام﴾(١٥) والله سبحانه وتعالى يعلم أن حالة الإشراك هذه عامة، وأن من السهل على المؤمن أن يقع فيها إذا لم يكن حريصاً على إيمانه، متمسكاً بكتاب الله ويفهم الآيات فهما سليماً، وإن لم يستمر فهمه إياها والعمل بها ما دام يحيا في هذه الدنيا.

﴿وما يؤمنُ أكثرهُم باللهِ إلا وهمْ مشركون﴾(١٦).

بل فاته أن الله يفتنه عن دينه ليستوثق من قوة تمسّكه بحبل الله كل يوم كما فتن بني إسرائيل بعد أن آمنوا مع موسى ورأوا الآيات التسع وأنقذهم الله سبحانه من كرب عظيم: فعبدوا العجل الذهبي وأشركوا بالله: ﴿قال فإنا قد فتنّا قومَكَ من بعدِكَ وأضلَّهُم السامريُّ﴾(١٧).

ولم يفتن الله قوم موسى فحسب فقد فتن أقواماً قبلهم: ﴿أَحسِبَ الناسُ أن يُتْركوا أن

(١٣) سورة الكهف: ٣٥
(١٤) سورة الكهف: ٣٦
(١٥) سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧
(١٦) سورة يوسف: ١٠٦
(١٧) سورة طه: ٨٥

يقولوا آمنّا وهمْ لا يفتنون * ولقد فتنّا الذينَ من قبلهم فليعلمنَّ اللهُ الذينَ صدَقُوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾[١٨].

فالمؤمن، من يوم بلوغه حتى يوم مماته، معرض لأن يفتنه الله في دينه بوساطة الشياطين حتى يتأكد سبحانه من قوة إيمان العبد وجهاده وكفاحه للمحافظة على ذلك الإيمان نقياً صادقاً خالصاً لله تعالى من دون أن يعكره إشراك بالله من أي نوع. ومن لم يستوعب الدين الإسلامي ويدرك آيات القرآن وآيات الجهاد بهذا الأسلوب يظل بعيداً عن تمثل آيات الله في القرآن. فالجهاد غالباًجهاد النفس الأمارة بالسوء. وهو الجهاد الدائم الذي لا يتوقف حتى الموت، فإن توقف المؤمن عن جهاد النفس مطمئناً إلى إيمانه بالله أصبح صيداً سهلاً للشياطين، يوقعون به ويغدون شركاء له غير منظورين دون علم منه أو دراية، والوحيد الذي يمكن أن ينجو من حالة الإشراك تلك هو المؤمن المنتبه لنفسه أبداً المتمسك بكتاب الله وحده، المتفهم لمعاني تلك الآيات، يطبقها على نفسه قبل تطبيقها على الآخرين.

وعلينا أن نعلم أن الله سبحانه يفتن حتى الأنبياء الذين كلّفهم:

﴿ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب﴾[١٩]

﴿ولقد فتنا قبلهُم قومَ فرعونَ وجاءهُم رسولٌ كريم﴾[٢٠]. وقد وظف الله سبحانه الشيطان ليفتن بني آدم، وقد حذر الناس في كتابه العزيز أن يمكّنوا الشيطان من نفوسهم فيفتنهم عن دينهم:

﴿يا بني آدم لا يَفتِننّكم الشيطانُ﴾[٢١]. وأوصى الرسول الكريم مثلما أوصانا نحن مراراً بذلك:

﴿واحذَرْهُم أَن يفتنوك عن بعضِ ما أَنزل اللهُ إليكَ﴾[٢٢]

﴿وإن كادوا لَيَفتنونَكَ عن الذي أوحينا إليكَ﴾[٢٣]

والفتنة دائمة ولا تتوقف: لذلك يقول الله سبحانه:

﴿أولا يرونَ أنهم يُفتنون في كل عام مرةً أو مرتين﴾[٢٤]. والحياة الدنيا ونعم الله فيها كلها ضروب من الفتن يمتحن بها قلب المؤمن كل يوم: ﴿ولا تمدنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُم فيه﴾[٢٥].

---

(١٨) سورة العنكبوت: ٢ - ٣
(١٩) سورة ص: ٣٤
(٢٠) سورة الدخان: ١٧
(٢١) سورة الأعراف: ٢٧
(٢٢) سورة المائدة: ٤٩
(٢٣) سورة الإسراء: ٧٣
(٢٤) سورة التوبة: ١٢٦
(٢٥) سورة طه: ١٣١

وإذ يقع المؤمن في الإشراك الخفي بسبب قلة حذره يتوهّم أنه بَريءٌ من الشرك، فيدافع عن نفسه مقسماً أنه لم يشرك بالله: ﴿ثم لم تكن فِتنتهم إلا أن قالوا واللهِ رَبِّنا ما كنّا مشركين﴾(٢٦).

وهو يقسم صادقاً لأنه وقع بالشرك دون قصد، بل عن غفلة وجهل، والله سبحانه لا يغفر للمؤمن غفلته وجهله. ويجبّ أن يكون المؤمن ذا فطنة حريصاً على دينه، عارفاً أساليب الشياطين من كل الأنواع، شيطان نفسه أو شياطين الإنس والجنّ.

وقد ذكرت هذه الكلمات في مقدمة الكتاب ليعلم كل مؤمن أنه ليس بعيداً عن الوقوع في الشرك إلاّ من اتخذ التدابير الوقائية اللازمة لتجنبه فالمؤمن الذي يحسب أنه محصّن من فتنة الله له بالشياطين مؤمن ذو غفلة: ﴿إن هي إلا فتنتكَ تُضلُّ بها من تشاءُ وتهدي من تَشاء﴾(٢٧) وفهم معنى هذه الآية مهم جداً لفهم الموضوع كله من الأساس.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي دبر الفتنة ليبلو المؤمنين، ويميز بين المؤمن الحريص الذي يستحق عن جدارة نعم الإيمان الصافي، فيثبته الله سبحان وتعالى على طريق الهداية والمؤمن الذي استكان واطمأن للشياطين ظناً منه أن إيمانه قوي بالله، ولا تستطيع شياطين الإنس والجن أن تفتنه عنه، فيقع فريسة سهلة للشياطين نتيجة تلك الأوهام فيشرك بالله من دون علم. ليأتي يوم القيامة إلى الله سبحانه وتعالى مردّداً: ﴿والله رَبِّنا ما كنا مشركين﴾(٢٨).

ولعله صادق في ظنه أن كان يعبد الله خالصاً من دون أن يعلم أنه كان يشرك به في حقيقة الأمر والواقع. ولن ينفعه ظنه أو تنفعه غفلته فقد أشرك بالله ومن يشرك بالله سبحانه لا يغفر الله له أبداً.

إن أغلب فصول هذه الكتاب تبرهن لكل مسلم يعتقد في نفسه الإيمان كيف يمكن أن يقع في الإشراك كل يوم إن لم يجاهد نفسه ويحترس من كل الشياطين لإبعادها عنه بطريقة علمية وعملية، لا باللجوء إلى الظن والوهم، وسوف يتبيّن له، من خلال هذه الدراسة، أننا مسلمي اليوم نشرك بالله بطريقة أو بأخرى، فإذا أدرك المؤمن ذلك واختبره بنفسه أمكنه بعد ذلك أن يتبع أساليب أفضل، تعتمد على آيات الله في القرآن لحماية نفسه من الشرك وإيصال هذه النفس سليمة مؤمنة مسلمة إلى بارئها ربّ العالمين، فينقذها ويبرىء ذاته من مسؤولية إفسادها، لأن الله أوكل إليه أمر سلامتها،

(٢٦) سورة الأنعام: ٢٣ (٢٧) سورة الأعراف: ١٥٥ (٢٨) سورة الأنعام: ٢٣

ولن يكون مسؤولاً يوم القيامة إلّا عن مدى صونه إياها والحفاظ عليها.

وإني لآمل من المؤمن المسلم ألا يثيره بعض ما جاء في كتابي من قول أملته الصراحة، إذ لم يكن دافع كاتب هذه الكلمات سوى تنبيه الناس عامة وأهله خاصة إلى أمور إيمانية تهم كل المسلمين في جميع أنحاء هذه الدنيا الغرورة.

﴿إن أريدُ إلّا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلا بالله﴾[29].

صدق الله العظيم.

(29) سورة هود: 88

٣ ـ المخطط العام لهذا الكتاب:

لا نضيف جديداً إذا قلنا إنّ لكل حالة سبباً أو مجموعة من الأسباب، لذا من الواجب علينا تعرّف أسباب تدهور أحوال المسلمين في العالم لنكتشف مواطن العطب والخلل التي أدت بالمسلمين إلى ما هم عليه في يومنا.

وسنضع نصب أعيننا أن منهجنا الأساسي، نحن المسلمين، بعد الإيمان بالله وحده هو كلام الله المقدس في القرآن الكريم.

وسننطلق في هذه الدراسة من أننا، نحن المسلمين، انحرفنا عن جادة الصواب في لحظة ما من تاريخنا الطويل، بدليل ما نحن فيه اليوم من ذلّ وضعف وجهل وهوان على الله والناس، فالعلامات البادية علينا لا تشير إلى علامات رضى الله عنا أبداً، بل هي علامات غضب شديد علينا، وتجاهل من الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا يكلّمُهُمُ اللهُ ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامة﴾[(١)]. ولن يكون مستبعداً أن يتجاهلنا الله سبحانه يوم القيامة، فما الذي بدّل أحوالنا، واستجرّ غضب الله علينا؟

انحرافنا في فهم الرسالة وتدبر نص القرآن الكريم، كلام الله المقدس، فنحن نحدد مقاصد الله بطريق مغاير لها تماماً، وقد طمحت في هذا الكتاب أن أظهر هذه الحقيقة لكل قارىء. فأنا أكتب هذا الكتاب لكل المسلمين وليس للخاصة من أهل الفكر. وقد حرصت أن يكون أسلوبي فيه سهلاً واضحاً، وقصدت ذلك قصداً.

إن كل ما أنزل من آيات في الكتاب إنما أنزلت إلينا لتكون دستوراً ومنهجاً للتطبيق، لا لتكون كتاباً مغلقاً، مختوماً بالشمع الأحمر، لا يمسّه إلا المطهّرون كما نتوهم نحن المسلمين اليوم، فالمطهَّر الذي لا يمسّه إلا المطهّرون هو الكتاب الموجود عند الله سبحانه في اللوح المحفوظ. ولا يقرب ذلك الكتاب إلا المطهّرون بدليل أنه لا وجود لأحد عند الله سوى الملائكة، والملائكة هم المطهّرون الذين يقصدهم الله سبحانه، أما الكتاب المطبوع على ورق ومن حبر فإنما يقدّسه الذي يعلم ما فيه ويؤمن به من الناس، أما من لا يؤمن به من الملحدين والكفار فإنهم يمسونه بلا طهر ولا طهارة، وإن لمس الكتاب في جميع الأحوال ليس جريمة، فقد أرسله الله سبحانه وجعله عربياً بلغة الرسول ﷺ وفاه

---

(١) سورة آل عمران: ٧٧

به أول مرّة محمد ﷺ ليلمسه الناس ويقرؤوه، فمن فهم ما فيه وجد فيه النور والحق واهتدى قلبه للإيمان، وانتفع به، ومن لم يفهمه، أو من أراد ألا يفهمه لهوى في نفسه، أو لأنه يتمسك بكل الممنوعات التي ينهى عنها القرآن الكريم فإنه يختار الكفر طريقاً، وينكر وجود الله، أو ينكر يوم البعث، وكلاهما كفر وضلال. فمن أولى مهماتنا إذاً العودة للقرآن الكريم، نقرأ آياته مجدداً، وعلينا قبل العودة للقرآن أن نفهم لماذا انحرفنا؟ ومتى حصل ذلك؟ وما العوامل التي ساعدت على ذلك الانحراف؟ فإذا أجبنا عن تلك الأسئلة بصدق نكون قد تحررنا من الوهم الأساسي الكبير المسيطر علينا، وهو أن هناك وحيين أحدهما: القرآن والثاني كان القدماء يسمونه الحكمة، وقد تطور اسمه إلى «سنة الرسول» فتغيّر الاسم وبقي المضمون. وفي سنة الرسول يندرج أيضاً ما نسميه حديث الرسول، ومن حق المسلمين علينا أن نبرهن لهم بالدليل القاطع الذي هو القرآن أن ليس هناك وحيان بل وحي واحد، وليس هناك كتابان بل كتاب واحد، وسأشرح وأبين أصل الوهم ومن أين أتى؟ أتى أولاً من ضيق أفق المتأخرين ممّن يَدَّعون العلم من المسلمين في عصر الانحدار الإسلامي فقد وهموا أن خلق الله سبحانه للكائنات المبني على ثنائية نلحظها في مختلف الكائنات، ولم يعلموا أن هذه الثنائية لابد أن تمتد إلى أسلوب القرآن الكريم. وبينت في فصل ثان أن وجود السنة والأحاديث سهّل عليهم التحريف بحسب أغراضهم الدنيوية السياسية، مبعدين الناس عن القرآن قدر الإمكان حتى لا تنكشف غاياتهم الخفية فأدخلوا الأباطيل والأوهام في الحديث بدل نور الله وحقائقه في القرآن الذي تركوه مهجوراً بقصد قاصد.

فإذا توافرت لدينا القناعة بأن ليس هناك كلامان ولا سنّتان، ولا هديان ولا كتابان في الإسلام، وإنما حديث واحد، وسنّة واحدة، وكتاب واحد، وهدي واحد موجودة كلها في المصحف الشريف، أمكننا أن نلتفت في القسم الثاني من الكتاب إلى آيات القرآن الكريم لنفهم معانيها بأسلوب فريد وجديد بالرجوع إلى الآيات نفسها في القرآن الكريم، ومن غير الاستعانة بأي كتاب آخر من قاموس أو كتاب تفسير لنبرهن أن الله سبحانه وتعالى أرسل كتابه ليكون مفهوماً للناس، كل بحسب قدراته وبحسب حاجته منه، ولا يحتاج المسلم في ذلك إلى مفسر أو كاهن يعطيه السر الإلهي. فليس في الإسلام أسرار إلهية، فمقاصده في القرآن واضحة متاحة لمن يستطيع أن يفهمها. وبعد أن نتفهم معظم الآيات في القرآن الكريم ننتقل إلى النتيجة العامة، فنتعرف المطلوب منا عمله نحن المسلمين. وكيف نستفيد من فهمنا لكتابنا وكيف نستطيع بإيماننا الصحيح، التمسك بمنهج الرحمن، والعودة مرة

خرى إلى رحاب الله، ليرضى عنا وينصرنا ويؤيدنا مجدداً، ويحقق أحلامنا التي سنعمل ونجاهد بكل قوة وصبر وجلد لتحقيقها. لأن الإيمان بلا عمل إيمان مبتور فلا إيمان بلا عمل في الإسلام، والإيمان القلبي يجب أن يعزّزه العمل الصالح والظاهر، فإذا لم يتعزز بالعمل الصالح يظل دفيناً في الأعماق، لا يفصح عن نفسه. وهذا هو المنهج القرآني: الإيمان والعمل الصالح، فهو الذي يجعل من القرآن الكريم دستوراً للحياة لكل زمان ومكان، ولا غنى للعالم كله عن تطبيقه الآن أو لاحقاً، لأن أيّ نظام بشري، ولو كانت له بعض المحاسن. لا يسلم من مساوىء لا يراها الناس لعدم إحاطتهم بالأمور إحاطة الله بها، ولا يشاهدها مصممو النظام من البشر إلا بعد أن يقعوا فيها، كما يحصل الآن للحضارة الغربية التي أفلست روحياً وبدأت أعراض المرض تظهر عليها، ولم تستطع أن تجلب السعادة لأبنائها، وإن جلبت لهم القوة والمال. لذلك نستطيع أن نقول بكل ثقة إن ضياع المنهج الإلهي هو ضياع للبشرية كلها، مما يحتم على البشرية الرجوع إلى منهج الله خلاصاً لها.

وأرى لزاماً علي، قبل الشروع في دراسة موضوعات الكتاب الإجابة عن بعض تساؤلات القارىء وخاصة إذا كان يجهل الموضوع الذي أتحدث عنه.

ولمزيد من التوضيح أحب أن أستشهد بابن قيّم الجوزية وهو مفكر في عصور انحدار المسلمين، جهر بالدعوة للإصلاح في عصره المظلم، وأحببت أن أختاره بالذات مثالاً لأن الفكر الإسلامي خلال القرون الثمانية التي تفصلنا عنه لم يتحرك بل جمد عند أفكار ذلك العصر.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه الروح (في الصفحة ١٣١ طبع دار العربي ١٩٩٤): (فهو أن الله سبحانه أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى: ﴿وأنزل اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمة﴾[٢] وقال تعالى: ﴿هو الذي بعثَ في الأميّين رَسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويُزَكّيهم ويعلمُهُمُ الكتابَ والحكمة﴾[٣]، ﴿واذكرنَ ما يتلى في بيوتِكنَّ من آياتِ اللهِ والحكمة﴾[٤] والكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله. هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم وقد قال النبي ﷺ: «إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه») انتهى النص.

---

(٢) سورة النساء: ١١٣ (٣) سورة آل عمران: ١٦٤ (٤) سورة الأحزاب: ٣٤

وواقع الحال أن أغلب آراء رجال الدين إن لم يكن كلهم ممن يدّعون العلم اليوم يقولون تقريباً ما قاله الإمام ابن قيم الجوزية، وإن اختلفوا في التفاصيل. وهذا الكلام مناقض لكل ما في القرآن من حقائق بل هي شبهة خلقوها لأنفسهم وهماً ولم تكن موجودة قبل ذلك بدليل أن الصحابة رضي الله عنهم لم تختلط عليهم الأمور وكلهم من العرب، ويفهمون معنى السنة لغة، إنها تعني بأن تسير الأمور بيسر دون تصادم كجريان الماء في النهر باتجاه واحد، دون أن يكون في سيرها تيارات يعاكس بعضها البعض الآخر. كما تجري الكواكب مثلاً باتجاه عقارب الساعة، دون أن يكون هناك ما يشذ عنها، فنقول: إن سنّة الله في سير الكواكب أن تكون باتجاه عقارب الساعة، أو نقول: إن سنة الله في الشروق أن تشرق الشمس من المشرق، وسنته في الغروب أن تغرب من الغرب دون أن نتوقع يوماً العكس، لذلك يقول الله سبحانه:

﴿فلن تَجِدَ لسنّةِ اللهِ تبديلاً ولن تَجد لسنّةِ اللهِ تحويلاً﴾[٥] فالقرآن لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا ذكرها فيما يتعلق بأمور المسلمين وتنظيمهم، حتى الأمور التي قد تبدو لنا تافهة ذكرها ولم يتركها غامضة، ولم يغفل عنها فقد قال تعالى:

﴿إذا قيل لكم تَفَسّحوا في المجالس فافسحوا﴾[٦] أي إذا ضاق بكم المجلس لكثرة الموجودين فحاولوا أن تحتلّوا أقلّ مكان ممكن ليتاح الجلوس لمن لا يجد فسحة يجلس فيها بسبب الازدحام، حتى هذا الوضع من الاجتماع لم يغفل عنه الله في القرآن، أفيغفل أن يكون للرسول حديث خاص ولا ينبّه عليه الله في كتابه؟ وأن يكون للرسول سنة خاصة اسمها سنة الرسول ولا يذكرها الله؟ أو أن يكون للرسول كلام خاص في الإسلام ولا يذكره الله؟ وهذا القرآن أمامكم جميعاً ليس فيه ذكر لا للحديث ولا للسنة ولا لكلام عن الرسول ﷺ. كل ما جاء فيه أن للرسول قولاً (وأقوال الرسول التي قصدها القرآن الكريم هي الكلام الذي يبلغ به الرسالة، وما على الرسول إلا البلاغ، فالقول ليس قوله وإنما هو قول الله تعالى ينقله بلسانه، وليس للرسول الحق أن يتقول على الله أو يتجاوز ما كلّفه من إبلاغ، وإنّ قوله تعالى: ﴿إنهُ لقولُ رسولٍ كريم﴾[٧] ليس المقصود به أقوال الرسول الخاصة التي يفوه بها في مناسبات حياته وإنما المقصود به قوله تعالى المنطوق بلسان رسوله، إذ لا يشترط بالقول أن يكون كلام قائله بالذات، فليس في كتاب الله سنة للرسول، وليس في كتاب الله ما يدفعنا إلى إحصاء ما قال في

---

(٥) سورة فاطر: ٤٣ (٦) سورة المجادلة: ١١ (٧) سورة التكوير: ١٩

حياته غير ما أمره الله به أن يقوله وأوحي إليه به، وليس في كتاب الله ما يدفعنا إلى تتبع ما قاله في حياته خارج نطاق الوحي، وردّ هذه الأقوال بالإسناد إليه، وجعلها معادلاً لكتاب الله أو النظر إليها على أنها مكمّلة للوحي، وكأن كتاب الله وحده وكلامه لا يفي بإبلاغ مقاصد الله، وهو الكتاب المعجز، القادر وحده على البيان والتبيين.

وفي القرآن آيات كثيرة جداً فيها أمر من الله: «قل: يا أيها الرسول» أو «يا أيها النبي» وفيه أيضاً آيات كثيرة فيها أمر للرسول. عن أمر الله في القرآن:

﴿وأمُر أهلَكَ بالصلاةِ واصطبر عليها﴾[٨]

﴿وكان يأمر أهلَه بالصلاةِ والزكاةِ وكانَ عندَ ربهِ مَرضياً﴾[٩].

ولو سلَّمنا بأن للرسول سنة خاصة فهل ذِكرُها وإفهامُها للمسلمين أهمُّ من الرجوع إلى الأصل؟ وهل إن كان له حديث عن المجالس يعدّ في مستوى الآية الكريمة التي تحدث عن الفسحة فيها؟ وإذا كان الله لم يذكر في كتابه أي سنة خاصة بالرسول فذلك يعني أن لا سنّة للرسول في ديننا وكل ما نقوله وهم من عندنا ولا برهان عليه من القرآن الكريم، إلا إذا زعمنا أنه جلّ وعلا غفل عن ذكرها، والخالق معصوم عن النسيان، قال تعالى: ﴿وما كانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[١٠] أي أن الله لا ينسى أبداً.

لم يبق أمامنا إذاًبعد أن أحصينا آيات القرآن، كلها، ولم نجد فيها ما يشير إلى سنة للرسول، إلا أن نقر بالواقع، ونعترف بأن سنة الرسول كانت من اختلاق أوهامنا وكذلك الحديث أو الكلام، إلا إذا قدّرنا أن كلام الرسول ﷺ الخاص لزوجاته أيضاً من الوحي يجب تسجيله بالحرف. إنه وهم ليس له نهاية، فالنتيجة إذاً هي عدم وجود سنة خاصة للرسول ﷺ لأن سنّة الرسول هي سنّة الله نفسها، لأن المنطق يفرض أن علم الرسول كله من الله، ولا يفترض منه بحكم أنه رسول مبلغ، أن يأتي بأي شيء من عنده وإلّا ما سمّي رسولاً، والرسول لا يتلقى العلم والتعليم من بشر وإنما يأخذهما من الله سبحانه. ولكن ليس قول الرسول ولا أمره، ولا النص القرآني هي السنة، وقد أدرك الصحابة ذلك ويُثبِتُ إدراكَهم ذلك الحديث الآتي: «عن علي بن أبي طالب أن عبد الله بن جعفر قال له عندما جلد عليّ شاربَ الخمر أربعين جلدة: كُفَّ. فقال له علي: جلد رسول الله ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وكمّلها عمر ثمانين، وكلٌّ سُنَّة» (مسند الإمام أحمد ص ٤٨ ـ ٤٩ حديث ٦٢٤ ج ٢).

(٨) سورة طه: ١٣٢ (٩) سورة مريم: ٥٥ (١٠) سورة مريم: ٦٤

وهذا الحديث يدل على أن السنة ليست هي النصّ القرآني، ولو كانت هي النص لتقيد عمر بن الخطاب بنص القرآن وجلد شارب الخمر مقدار ما جلد الرسول أمثاله فاكتفى بأربعين جلدة ولم يزد عليها، لكن عمر بن الخطاب فهم أن السنة هي اجتهاد في الرأي ضمن الحدود التي بينها الله، فإذا كانت هناك أمور موجبة للتشديد شدّد، وإن كانت هناك أمور موجبة للتخفيف خفَّف، أما أن تقطع يد السارق مثلاً سواء إن سرق أسرار الدولة أم سرق تفاحة ليسد بها جوعه فهذه ليست شرعة إلهية عادلة، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿إنّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرة﴾[11] بل يكون الله سبحانه ظالماً لعباده لو فهمناها خطأ كما مرّ بنا في المثال ـ أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

ألا يدل فهمنا المغلوط للسنة على منتهى الجهل ومنتهى الظلم للذات الإنسانية وللآخرين؟ وهل يجوز لنا أن نجعل من سنة الله غير ما أراد الله سبحانه منها.

لذلك فإن تصرف الخليفة عمر يثبت أن السنة ليست جموداً عند حدود حرفية النص، بل هي مرونة وحسن تدبر للنص وتحكيم للرأي في ضوء الموقف وملابساته وظروف الزمان والمكان، فالسنة هي الاجتهاد، وبما أن عمر رضي الله عنه فهم سنة الله في الأحكام في القرآن الكريم الذي فيه النص، وتجاوز حدود النص أحياناً، كتوقفه عن إعطاء المؤلَّفة قلوبهم حصتهم، وهي الأموال التي كانت تعطى لأشخاص مثل أبي سفيان بعد دخوله الإسلام، وكان دخوله قد تم بعد فتح مكة، وكان المسلمون يعرفون أن دخول أمثاله في الإسلام كان بالإكراه، ولم يتمّ عن حبّ له أو رغبة، فكان الرسول ﷺ تنفيذاً لأوامر ربه، وحسب الوحي المنزل إليه، لا بدافع رغبته الشخصية، يعطي هؤلاء أموالاً كبيرة كما حدث بعد معركة حنين مثلاً، فقد أعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وأعطى كذلك كثيراً من رؤساء القبائل الذين دخلوا الإسلام حديثاً، وهي أموال أعطيت للمؤلفة قلوبهم لترغيبهم في الإسلام.

فلما جاء عمر رضي الله عنه نقض تلك الأعطيات بعد انتشار الإسلام، وزيادة عدد المسلمين، لعلمه أن ذلك ليس قانوناً ثابتاً على مر الزمان، وأن الظروف التي فرضت ذلك قد زالت ولم يعد الإسلام محتاجاً لتأليف قلوب الناس إليه، فكلٌّ وضع إذاً قابل للتغيير لكن بفهم المنهج القرآني وهذا ما سيتضح لنا من خلال هذا الكتاب.

ولم يحتج على عمر بن الخطاب أحد أو يتهمه بتعطيل النص القرآني، والخروج على ما

---

(١١) سورة النساء: ٤٠

كان معمولاً به في عهد الرسول وعهد أبي بكر. بل أدركوا أن الظروف تغيرت ومن حقه أن يجتهد حتى مع وجود النص القرآني.

وكان المسلمون الأوائل يعرفون أن الاجتهاد لا يجوز في آيات الصراط المستقيم، فما ورد فيها ثابت لا يتغير، وكذلك المحرّمات فهي من الله وحده وليس للمحرَّم من الله أن يحلّله أحد وبالمقابل لا يجوز تحريم المحلّل أيضاً.

وللاجتهاد حدود أيضاً، وحدّه ألا يتجاوز المجتهد حدود الله في القرآن، فلا يجوز أن تزيد عقوبة السرقة عن قطع اليد، وللمجتهد أن يخفّف من ذلك حسب الظروف كما يشاء.

ولنلاحظ دقة الله في القرآن الكريم: فقد ورد في القرآن الكريم آيات كريمة تحثُّ على طاعة الله ورسوله: ﴿إن تطيعُوا اللهَ ورسولَه﴾[١٢]

﴿ومنْ يُطعِ اللهَ ورسولَه فقد فازَ فوزاً عظيماً﴾[١٣]

﴿ومن يطعِ اللهَ ورسولَه يُدخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾[١٤].

عدد الآيات التي تحث على طاعة الله ورسوله تسع عشرة آية في حين لم يرد إلا آية واحدة تدعو إلى طاعة رسول الله لأن إطاعته من إطاعة الله وهي:

﴿من يطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾[١٥].

وآية واحدة تحث على إطاعة الرسول دون أن يرد فيها ذكر لطاعة الله: ﴿وأَقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلكم تُرحمون﴾[١٦] وهي المرة الوحيدة التي ذكر فيها القرآن إطاعة الرسول دون أن تكون مقرونة بطاعة الله، لماذا؟ لأن الله سبحانه تعالى يعلم بأن الرسول الكريم رؤوف بالمسلمين، يقول تعالى:

﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليهِ ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم﴾[١٧] مع أن صفة «رؤوف رحيم» لم تطلق في أي آية في القرآن الكريم إلا على الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه، قد شاء أن يعلّق هذا الوسام الجديد على صدر رسوله الأمين بأن منحه صفة من صفاته في القرآن وهي الرأفة والرحمة بالمؤمنين. وسمح بآية واحدة وردت في القرآن الكريم أن يكون أمره مطاعاً فيما يتعلق بتلك الآية، ولكي تتميزّ طاعة الله عن إطاعة الرسول ذكرت إطاعة الرسول في آية واحدة في القرآن:

---

(١٢) سورة الحجرات: ١٤ — (١٤) سورة الفتح: ١٧ — (١٦) سورة النور: ٥٦

(١٣) سورة الأحزاب: ٧١ — (١٥) سورة النساء: ٨٠ — (١٧) سورة التوبة: ١٢٨

﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلكم تُرحمون﴾[١٨].

وواضح أن الله عزّ وجل ربط إطاعة الرسول في هذه الآية بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وواضح أن الله عز وجل طلب منا إطاعة الرسول فيما يتعلق بعدد ركعات الفرض في كل صلاة، وعدد ركعات السنة، وقيمة الحد الأدنى من الزكاة ومقداره واحد من أربعين أي ٢,٥٪ وهي أمور لم يرد تحديدها في القرآن الكريم، وفوّض الله بها رسوله في هذه الآية، أما ما يتصل بالصلاة والزكاة من النواحي الأخرى فقد ورد ذكره في كتاب الله مفصلاً، فلماذا فوّض الله رسوله بتلك الرخصة؟ لعلم الله تعالى بأن رسوله رؤوف رحيم بالمؤمنين، وعزيز عليه عنتهم، وهو حريص عليهم. ففضل أن يكون رسوله هو الذي يحدّد ذلك لهم بدلاً من أن يحددها الله سبحانه وتعالى لهم، هكذا كانت مشيئة الله، والله إذا شاء لا راد لأمره:

﴿واللهُ يَهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾[١٩] ولم يعرّف الصحابة السنة لأنهم كانوا يعلمون أنّ السنّة هي سنّة الله بما درج بينهم وتعارفوا عليه، ولا حاجة لتعريفها لأنّ المعروف لا يعرّف.

لكن رجال الدين في القرن الثالث الهجري عادوا وعرّفوا السنة وأضافوا إليها أموراً هي من اجتهادهم، فقد قالوا في تعريفها: (هي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية أو سيرة سواء كان ذلك قبل البعثة «كتحنثه في غار حراء» أم بعدها)[*].

وهذا التعريف الموسع الذي أتى في عصر متأخر عن عصر الرسول ﷺ وصحابته قد جرَّ البلاء على الإسلام، وفتح باباً عريضاً لإدخال أمور فقهية عجيبة إلى صلب الدين، حتى أصبح كل عالم دين مصلح في عصور الانحدار تلك يجد نفسه في بحر من الضياع، وأنى لعالم مثل ابن قيم الجوزية أو أستاذه ابن تيمية أن يصلحا الأمر؟ وهما لا يعرفان من أين يبدآن أمام هذا السيل الجارف من الاستقراء الموسع للأمور، والأقوال والآراء المتباينة أمام المواقف، حيث شكل ذلك كله خليطاً عجيباً متداخلاً، ولم يكن العصر ليسمح بمثل هذا الإصلاح، ولا ما واجهاه من ركام كتب التراث الديني يسمح أيضاً، مع أنهما، طيب الله ثراهما، بذلا ما في وسعهما، وقدّما أفضل ما عندهما، لنتبين

(*) قواعد التحديث: ص ٣٥ - ٣٨

(١٨) سورة النور: ٥٦ (١٩) سورة البقرة: ٢١٣

كيف قدر ابن قيم الجوزية الوضع الذي واجهه من خلال قوله الآتي: (ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتيهما، حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك، بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا إليهما الأمة. وكان عليها هو وصحابته من بعده وتابعوهم على مناهجهم وآثارهم. فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به: ﴿فتقطّعوا أمرهُم بينهم زُبُراً كلّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون﴾[٢٠] وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص والعلم وراء الكلام. ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار والآراء علما، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملأوا بها الصحف مداداً، والقلوب سواداً، حتى صرح كثير من الناس منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم، وأذّن بها بين أظهرهم حتى أسمعهم دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها والثوب عن لابسه. وقال لي شيخنا (الإمام ابن تيمية) مرة في وصف هؤلاء: إنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأحسن المطالب، ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله ما ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض، قال تعالى:

﴿ولو كانَ من عند غير اللهِ لَوَجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢١].

وهذا يدل على أن ما كان من عند غير الله لا يختلف، وإن اختلف وتناقض فليس من عنده، وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار ديناً يدان به ويحكم به على الله ورسوله، سبحانك هذا بهتان عظيم)(*).

وفي تقديري أن الإمام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية الذي جاء من بعده يعدان أول بصيص نور في ذلك الظلام الدامس الذي وصفاه لنا قبل قليل أفضل الوصف، لكنهما رحمهما الله، بسبب ركام الظلام الذي واجهاه وظروف العصر الذي عاشا فيه، اقترحا علاجاً شافياً لبعض الجروح والخدوش، لكنهما لم يعالجا الجرح الناغل

(*) من كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية: دار الهدى ١٩٩٤ . ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢٠) سورة المؤمنون: ٥٣ (٢١) سورة النساء: ٨٢

القاتل، ولم يصلا إليه، ولم يكتشفا وجوده، وها هو ذا الإمام ابن قيم الجوزية يصف لنا كيف يقابل باقي الناس ممّن يدعون وراثة العلم والهدى من يتصدى للإصلاح فيقول في كتابه ذاته تحت عنوان: كن في جانب الله ورسوله:

إذا كان الله ورسوله في جانب، فاحذروا أن تكونوا في الجانب الآخر، فإنّ ذلك يفضي إلى المشَاقَّة والمحَادَّة.

ولا تستسهل هذا فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثيره، كن في الجانب الذي فيه الله ورسوله وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يَعُدُّه الناس ناقص العقل سيء الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون.

وذلك من مواريث أعداء الرسول فإنهم نسبوه إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب والناس كلهم في شق وجانب آخر.

ولكن من وطّن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه، وإلى صبر تام على معاداة من عاداه، ولومة من لامه ولا يتم ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا، وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما.

وليس شيءٌ أصعب على الإنسان من ذلك في بادىء الأمر فإن نفسه، وهواه، وطبعه، وشيطانه، وأخوانه، ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل (أي الدنيا) فإذا خالفهم تصدّوا لحربه، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلاً، وذلك الألم لذة، فإن الربّ شكور، فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه إلى الله وإلى رسوله، ويريه كرامة ذلك فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوته وفرحه وسروره، ويبقى من كان محارباً له ـ على ذلك ـ بين هائب له ومسالم، ومساعد وتارك، ويقوّي جنده ويضعف من جند العدو، ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك فإنّ الله معك وإنما امتحن يقينك وصبرك.

أعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله، التجردُ من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما هان عليك التحيّز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله

ورسوله. ومتى قام بك الطمع والفزع، فلا تطمع في هذا الأمر، ولا تحدّث نفسك به، فإن قلت: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع والفزع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل. والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله ليس لأحد مع الله شيء(*).

وما قرأناه حتى الآن يقودنا إلى سؤال مهم هو:

هل وَقَعْنا نحن المسلمين في كل تلك الأخطاء القاتلة التي وَقَعَ فيها السلف من علماء أهل الكتاب قبلنا؟ وسوف نجيب عن هذا التساؤل في الفقرة الآتية.

(*) من كتاب الفوائد للإمام ابن قيم الجوزية . دار الكتب العربي . ط ٢ . ١٩٩٤ . ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

٤ ـ حوار وتمهيد.

أين نقف الآن ومن أين نبدأ؟:

هل وقعنا نحن المسلمين في كل الأخطاء القاتلة التي وقع فيها علماء أهل الكتاب قبلنا؟ كثيرون منا يستقبلون الدين بمشاعرهم وعواطفهم وقلوبهم، ظناً منهم أنه شعور وعاطفة، والصواب على نقيض ذلك تماماً، لأن العاطفة من الهوى، والعقل من الحق، والله سبحانه أمرنا باتّباع الحق ونهانا عن اتّباع الهوى، والرسول الكريم كان يتبع الحق ولا يتبع الهوى، ولذا قال الله سبحانه وتعالى عنه: (لا ينطق عن الهوى)، يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: «رسول الله حين نزل عليه الحق الذي هو الوحي لم ينطق عن هوى منه، فهو أبداً مع الحق، ولذلك كان الناس إذا اختلفوا حول قضية ما، طلب صاحب الحق أن يحكم فيها رسول الله ومن كان على الباطل هرب من حكم رسول الله لأنهم يعلمون جميعاً أن رسول الله مع الحق وأنه لا ينطق عن الهوى»(*) فإذا لم نقبل بهذا المنطق بدايةً فلن نصل إلى شيء بل تصطدم عقولنا مع تعصبنا الناتج عن الهوى وينقلب الموضوع إلى جدل سقيم، ليس منه أمل في الوصول إلى أيّ حقيقة. فعلينا أن نبدأ نقاشنا وحوارنا إذاً منطلقين من أن الله سبحانه أرسل القرآن وحياً إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ هدى ورحمة وأن فيه شفاء من أمراض العقول والنفوس، وأمراض المجتمع، وأنه علَّم رسوله منطق القرآن وسنة الله في الأمور والأحكام، وأنه أرسل إليه كتابه المتكوّن بإعجاز من آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأنزلتا معاً للناس بأسلوب رباني معجز يسهّل حفظهما وتذكرهما: ﴿هوَ الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتَّبعون ما تشابهَ منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وما يَعلمُ تأويلَه إلا الله، والراسخون في العلم يقولونَ آمنا به كلٌّ من عندِ رَبّنا وما يذَّكَّرُ إلا أولو الألباب﴾(١). ولو تمعنا في هذه الآيةَ لرأينا فيها الحقيقة والخطاب الفصل، فقوله تعالى: ﴿منه آياتٌ محكمات هنّ أمّ الكتاب﴾ يقصد به آيات الرسالة، وهكذا يتبين لنا أن كل آيات القرآن التي ذكر أنها الآيات المحكمات إنما يطلب فيها الله من رسوله أن يبلّغ، وماذا يبلغ الرسول إذا لم يبلغ

(*) مجلة اللواء الإسلامي ـ الحلقة الثانية ـ ٤ شباط ١٩٨٢.

(١) سورة آل عمران: ٧

الرسالة؟ بل إن كلمة الرسول اشتقت من الرسالة. وأما عن الأُخَر المتشابهات: ﴿وأُخَرُ متشابهات﴾ فمن دراسة هذه الآيات في القرآن يتبين لنا أنها الآيات التي لم يكن لنا علم بها وإنما كانت من أنباء الغيب فأنبأنا الله بها مثل: الكرسي والعرش والسموات السبع والبرزخ، وأمور كثيرة ليس لدينا معرفة بها أكثر من تلك التي نبأنا بها الله في القرآن ويدخل فيها القصص القرآني. فإن معلوماتنا عن ذي القرنين وأهل الكهف وكل قصص الأقوام السابقين والأنبياء وأقوامهم لا تتجاوز ما علمنا بها الله سبحانه وتعالى.

وحين قرأ الناس القرآن كان لهم موقفان من هذه الآيات: المحكمات والمتشابهات، أما من آمن بها فكانوا فريقين:

أ ـ الراسخون في العلم: وهؤلاء آمنوا عن طريق العقل والعلم أمثال الرسول ﷺ الذي أراه الله آياته الكبرى وعلمه سبحانه من علمه العلم الصحيح، كذلك علماء الكون الذين اكتشفوا وتعلموا أسرار الله وعلومه وآياته وقوانينه في الكون.

ب ـ المؤمنون تسليماً: وهم الذين آمنوا تسليماً وتصديقاً كصحابة الرسول في العصر الأول وكل المسلمين والمؤمنين في باقي الأزمنة حتى عصرنا عدا الذين ذكرناهم تحت بند (الراسخون في العلم) كلا النوعين من المؤمنين جميعاً يؤمنون بالآيات المتشابهة التي لا علم لنا بها إلا ما علمنا بها سبحانه في القرآن: كالروح، والكرسي، والعرش نقول عنها بالإجماع (آمنا به كل من عند ربنا) فنؤمن بها تصديقاً وإن لم نعرفها حقيقة. ولكننا جميعاً نلتفت لآيات الرسالة والأحكام والعبادات والحدود والصراط المستقيم فنطبقها في حياتنا.

٢ ـ ثم يعلمنا الله عن فريق آخر في منطقهم انحراف ومرض بدلاً من اتباع المطلوب اتباعه، يتركون ذلك، ويتّبعون ما تشابه من تلك الآيات ليس ابتغاء العلم، ولكن ابتغاءً للفتنة وابتغاء تأويله ظناً، لأن الله سبحانه وتعالى يعلمنا في النهاية أنّه لا يعلم تأويل هذه الآيات إلا الله سبحانه. ولكنهم لم يصدقوا بل اتبعوا أهواءهم . فماذا كانت النتيجة؟ لأن القرآن حفظ من التحريف والضياع ونتيجة للتطور والتقدم الذي هو سنّة من سنن الله في الكون بدأت هذه الآيات تكتشف من قبل بني الإنسان الذين استخلفهم الله على الأرض ليعمروها، فتأتي آيات القرآن شاهداً على أن الله سبحانه قد أخبر عنها قديماً، ولكنهم لم يعرفوا تأويل هذه الآيات لأنهم لم يؤتوا تأويلها في تلك الأيام بعد.

وانكشف أمر الذين كان في قلبهم زيغ، وبان أن كل ما قالوه كان ظناً منهم وتخريفاً ليس فيه من العلم شيء.

ومن أمثلة هذه الآيات المتشابهات التي لم يأتنا تأويلها بعد قوله تعالى: ﴿وكانَ عرشُهُ على الماء﴾[٢]، وقوله: ﴿وَسِعَ كرسيُّهُ السمواتِ والأرض﴾[٣].

ومن أمثلة الآيات المحكمات قوله تعالى: ﴿أمّ الكتاب﴾ لأنها هي الرسالة وهي الأساس للتبليغ.

وقوله تعالى: ﴿ولَأَمَةٌ مؤمنَةٌ خيرٌ من مشركةٍ ولو أَعجَبَتكُم﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنة﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿فإن آنستُم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالَهم﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿لا تَدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكم حتى تستأنِسوا وتُسلّموا﴾[٧].

ومن أمثلة الآيات المتشابهات التي أتانا تأويلها قوله تعالى: ﴿سبحانَ الذي خلقَ الأزواجَ كلّها مما تنبتُ الأرضُ ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون﴾[٨].

فقد تمّ في نهاية القرن العشرين تقريباً اكتشاف قانون ازدواجية المادة.

﴿ولقد خلقْنا الإنسانَ من سلالَةٍ من طين﴾: ﴿ثم خلقنا النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المضغةَ عظاماً فكسونا العظامَ لحماً﴾[٩].

فقد اكتشفه علماء الأجنة بعد النصف الثاني من القرن العشرين.

وأحب أن أنهي هذا الحوار بفقرة كتبها الشيخ محمد متولي الشعراوي تحت عنوان: الزمن والمعجزة:

(رسول الله ﷺ ترك القرآن.. فيما عدا التكليف بافعل ولا تفعل (الرسالة) تركه ليبين الزمن معجزاته.. فالقرآن هو كلام الله.. والكون هو خلق الله وفي القرآن آيات.. وفي الكون آيات، وآيات الكون تفسر من آيات القرآن الكريم في الخلق، في خلق السموات والأرض.. وفي الليل والنهار والشمس والقمر وكل الآيات.

وهذه الآيات الأرضية لها ميلاد تُكشَف فيه للإنسان.. هذا الميلاد يأتي مع باحث عن

---

(٢) سورة هود: ٧
(٣) سورة البقرة: ٢٥٥
(٤) سورة البقرة: ٢٢١
(٥) سورة النساء: ٩٢
(٦) سورة النساء: ٦
(٧) سورة النور: ٢٧
(٨) سورة يس: ٣٦
(٩) سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٤

آيات الله في الأرض.. فيثيبه الله سبحانه وتعالى على جهده بكشف آية من الآيات الأرضية، فإذا لم تصادف هذه الآية عالماً يبحث عنها.. كشفه الله سبحانه وتعالى لعالم أو مجدّ يبحث عن شيء آخر.. ولذلك فنحن نسمع كثيراً عن بحث بدأ بشيء وانتهى إلى شيء آخر.. ونسمع كثيراً عن أشياء يقول العلماء إنهم اكتشفوها بالمصادفة والحقيقة أنه ليس هناك شيء اسمه المصادفة في الكون ولكن لكل شيء أجل وميعاد..) (المصدر نفسه) ونلاحظ أن الشيخ شعراوي يقصد بالقرآن الآيات المتشابهة ويقصد بافعل ولا تفعل الرسالة وهذا دليل وعيه هذا الموضوع.

ويحضرني هنا أن أقدم مثالاً، قيل: إن إسحق نيوتن العالم الأوروبي، الذي استطاع وضع قانون الجاذبية مصادفة حين كان مستلقياً تحت شجرة التفاح، لاحظ التفاحة وهي تسقط من الشجرة إلى الأرض، واكتشف قانون الجاذبية من هذه الملاحظة. قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للعالم نيوتن لأن ذهنه كان مهيأً لاستلقاء آية الله في سقوطها ليستخرج القانون، ولكن كم من أناس آخرين سقطت على رؤوسهم تفاحات وهم مستلقون تحت الأشجار ولم يكتشفوا شيئاً. لأن عقولهم لم تكن ممهدة لفهم الآية، وهذا هو الأساس في العلم.

وقد أدرك الرسول الكريم وصحابته هذا الموضوع، وثمة أحاديث قرأتها عن الصحابة تشير إلى أنهم لم يكونوا يَسألون عن القرآن، أي لايسألون عن المتشابه من الآيات.

روي عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية في القرآن قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً (انظر موطأ مالك) وليس المقصود آيات الحدود والأحكام والعبادات أو الأوامر والنواهي المباشرة التي وردت تحت: يا أيها الذين آمنوا.

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: أيّ سماء تظلني. وأيّ أرض تقلّني؟ أم أين أذهب؟ أم كيف أصنع؟ إذا أنا قلت في آية من القرآن الكريم بغير ما أراد الله؟ ثم سئل عن الكلالة فقال: أقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني. هي ما دون الولد والوالد.

والناقد الذي ينتقد أبا بكر رضي الله عنه هو يخرف بما لا يعرف، يقول عن أبي بكر: «فقال هذا خلاف القول الأول (يقصد أن أبا بكر يناقض نفسه إذ قال من قبل كلاماًثم عاد فناقض نفسه عندما أبدى رأيه في الكلالة) وهكذا تجد أن الناقد يجهل جهلاً كاملاً حقيقة كان يعرفها أبو بكر وهي أن في القرآن نوعين من الآيات: نوعاً يمتنع تأويله لأنه

من غيب الله، ونوعاً آخر هو من آيات أم الكتاب أو الرسالة وفيها كل ما يتعلق بأمور المسلمين وهي تُشْرَحْ ويجتهد في تأويلها وهي مجال عمل الفقيه في التفسير والاجتهاد والرأي. لذلك أبدى أبو بكر رضي الله عنه رأيه في شرحها لأنه يعلم أن ذلك من حقه، في حين أن الناقد الجديد من عصر الانحطاط الإسلامي لا يعلم تلك الحقيقة بل يجهل بها جهلاً تاماً.

وعلى هذا الأساس فإن من المستحيل أن يكون الرسول ﷺ قد خالف أوامر ربه علناً وقال للناس (حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) فاتحاً الباب على مصراعيه لتخريب الدين وللفتوى والتأويل والتحريف والتبديل فيما أمره الله بالسكوت عنه، بل وبالإيمان به تسليماً، هو وباقي المؤمنين إذا لم يفهموا بعض تلك الآيات حتى يأتي تأويله في حينه: ﴿وما يَعلَمُ تأويلَهُ إلا الله﴾(١٠).

إن الله سبحانه وتعالى حين دعا رسوله والمؤمنين إلى التسليم بالآيات المتشابهات والإيمان بها إيماناً وتسليماً زمن نزولها على الرسول محمد ﷺ أو في عصر الرسول الكريم كله لم يقل إنه سيبقيها في غيب الله إلى الأبد، بل سوف يأتي وقت يعلم فيه الناس تأويلها لذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿يومَ يأتي تأويلُه يقول الذين نسوه من قبلُ قد جاءتْ رُسلُ ربّنا بالحقّ﴾(١١) وهو ما يقع الآن بالنسبة إلى الناس الذين يعرفون تأويل الآيات التي فيها حقائق علمية.

وقال تعالى: ﴿ولَتَعلَمُنَّ نبأَه بعدَ حين﴾(١٢).

أي سوف يأتي وقت سوف تعرفون نبأ تلك الآيات التي لم تفهموها الآن، لئلا يستبق المسلمون مشيئة الله في زمن كشفها فيصيبهم ما أصاب الله أهلَ الكتاب من قبلهم إذ فسروا كتبهم بأساطير، منها أن الأرض محمولة على رأس ثور وبين قرونه، ثم قالوا إن الأرض مركز الكون، وكل ما في الكون يدور حوله، إلى آخر تلك المقولات التي تزيد عن مئات المجلدات وليس فيها كلها علم أبداً بل هي ظنون وأوهام وخرافات وخيال وسراب: ﴿وإن الظّنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾(١٣) صدق الله العظيم.

ثم كانت مشيئة الله بكشف أسرار العلم، التي نقضت كل ظن وتخرص وتوهم من رجال الدين، وتبين أن الأرض كروية ولا يحملها ثور ولا حوت، ما هي إلا كوكب

---

(١٠) سورة آل عمران: ٧
(١١) سورة الأعراف: ٥٣
(١٢) سورة ص: ٨٨
(١٣) سورة النجم: ٢٨

صغير من مجموعة الكواكب الأحد عشر التي كان العلماء يظنونها سبعة لقلة وسائل الرصد التي كانت متوافرة لهم وبدائيتها.

ولو أن رجال الدين الإسلامي انتبهوا إلى دقة الله تعالى في كل كلمة وكل رقم ورد في القرآن الكريم لَبانَ للمدقق المتأمل حقائق علمية في ذاتها، فالله عندما يضرب مثلاً للناس كمثل يوسف ورؤياه فيقول:

﴿إذْ قالَ يوسُفُ لأبيه يا أَبَتِ إني رأيتُ أحَدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُم لي ساجدين﴾[١٤] إنما يقدم لنا مجموعة حقائق علمية، في عدد محدود من الكلمات منها:

أولاً: أن عدد الكواكب الحقيقية هي أحد عشر كوكباً وليس سبعة كما ظن البعض.

ثانيا: ليس القمر ولا الشمس من الكواكب كما ظن الأولون وعدّوهما من الكواكب، وجعلوا الأرض مركزاً للكون، والكواكب السبعة تدور حولها، ولذلك ظن المسلمون فيما بعد بأنّ السموات السبع هي أفلاك الكواكب السبع ووضعوا أحاديث مروية عن الرسول ﷺ تؤيد هذه النظرية الجديدة التي ألّفوها ظناً.

ثالثا: أن الأرض من بين الكواكب الأحد عشر، ولم يقل الله سبحانه وتعالى إن الأرض مركز لأي جرم، كل هذه الحقائق العلمية موجودة في ذلك المثال البسيط. فالأقدمون كانوا يعدّون الكواكب السبعة كما يلي: الشمس - القمر - زحل - المريخ - المشتري - الزهرة - عطارد. وهي تدور حول الأرض التي هي مركزها.

وهكذا نقلها رواة الحديث عندنا وألصقوها ظلماً وكذباً بالرسول ﷺ مستندين إلى حديث موضوع، وسوف نجد أغلب هذه الأحاديث المدسوسة ملصقة بأحد الرواة الثلاثة: غفر الله لهم: أبي هريرة وابن عباس وابن مسعود ومن الراجح أنهم أبرياء براءة الرسول الكريم ﷺ الذي لم يكذب على الناس قط فهل يعقل أن يكذب على الله ؟ وما الذي يجنيه إذا كذب؟ أيجني علماً جديداً وقد أمدّه الوحي بمنتهى العلم؟ بل كانوا ظالمين مفترين عليه.

وماذا وقع لرجال الدين من أهل الكتاب حين ظهرت حقائق العلم تخالف ما جاء في كتبهم وتفاسيرهم من أباطيل ومغالطات؟ لم يبق أمامهم إلا أن يكذبوا حقائق العلم، ونور العلم الذي لا يمكن طمسه، أو الاعتراف الصريح بصحتها وهذا يعني أن آباءهم

---

(١٤) سورة يوسف: ٤

كذبوا وحرفوا فلا يستحقون لذلك أن يكونوا ورثة الأنبياء ولا يستحقون أن يكونوا رجال دين بعلم ثبت بطلانه، ورجل الدين لا يكذب ولا يزور ولا يتطاول على علم الله، بل يفترض فيه أن يكون أميناً منزهاً عن الكذب والغايات الدنيوية السخيفة، منصرفاًعن سفاسف الحياة، وصغائر الأمور، هذا هو المفروض به لكن الواقع يغاير الحقائق المفروضة، فالكذب على الله واضح في كتبهم، غير أنهم أغمضوا أعينهم وسكتوا عنه حتى لا تضيع مراكزهم وأموالهم، ونعيمهم المقيم، وتيجانهم وصولجاناتهم، وذهبهم وأحجارهم الكريمة النفيسة.

ومن أوتي ذرة من عقل هَجَرهم وهجر خرافاتهم وأباطيلهم إلى غير رجعة، وكفر بهم: ﴿أولئكَ الذينَ اشتروا الضلالَةَ بالهدى فما رَبحَتْ تجارتُهم﴾[١٥]، ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالَةَ بالهدى والعذابَ بالمغفرة﴾[١٦] أما بالنسبة إلى المسلمين فالوضع يتشابه من طرف، ويختلف من طرف آخر، ولكن ليس بفضل رجال الدين من الفقهاء والمحدثين في الدين الإسلامي، لأنهم والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، صنعوا مثل ما صنع إخوانهم وأقرانهم من أهل الكتاب، وتتبعوا خطواتهم خطوة خطوة، بل سبقوهم وزادوا عليهم في الوضع والتأليف والكذب والتدليس.

وأنا لا أتقول ولا أظلم أحداً، فكل كتب التراث الإسلامي من إنتاج عصر الكهف الإسلامي من كتب الحديث بأنواعها، والسيرة، والتاريخ الإسلامي، محشوة بأعجب من ذلك بكثير فمن أراد أن يزداد علماً ونوراً فهي معروضة الآن وبطبعات حديثة جداً تملأ الأسواق بالآلاف. ومصادر معلومات كل هذه الكتب من الأساس هي كتب أهل الكتاب ثم ما كان من فيض الأحلام والأذهان التي تفتقت عن أوهام وضلالات جديدة عند المسلمين، في ذلك العصر الرديء الذي تردى فيه الفكر الإسلامي. لكننا نمتاز عن أهل الكتاب بميزة واحدة وذلك بفضل الله تعالى وليس بفضل المسلمين، وذلك ببقاء القرآن الكريم إلى الآن محفوظاً سليماً لم يمَسّه بشر بتحريف أو زيادة أو تبديل، بل ظل كما كتبه كتبة الوحي، ودليل ذلك هو الإعجاز العددي الذي ينطق بتلك الحقيقة، ولو زادوا حرفاً أو أنقصوا حرفاً لانكسر ذلك الإعجاز الإلهي ولسوف نرى ذلك في حينه من هذا الكتاب.

والدليل الآخر أن ما يكتشفه علماء الأرض كل يوم في مجالات العلوم المختلفة كلها

---

(١٥) سورة البقرة: ١٦ (١٦) سورة البقرة: ١٧٥

من فلك وجيولوجيا وبحار وذرة وطب وغيرها، تجد حقائقها ولله الحمد في آيات قرآنية، يؤيد صدقها العلم. وهذا ليس بغريب أو شاذ، فالله سبحانه الذي وضع قوانين الكون كلها هو الأعلم بقوانينه من البشر الذين يكتشفون تلك القوانين والسنن، ولا يمكن لأي قانون صحيح يكتشفه إنسان أن يخالف ما أتى به الله سبحانه إلا أن يكون غلطاً في النظرية التي توصل إليها العالم أو نقصاً في أحد جوانب الموضوع، أو بسبب إبهام نقطة لا زالت غائبة عن ذهن العالم وعقله حيث لم يتحقق له كشف الحقيقة العلمية كاملة. لكن الحقيقة الكاملة موجودة أبداً في معرفة الله وعلمه ماثلة في القرآن الكريم. فعلينا نحن المسلمين ألا نتعجل في تأييد أي اكتشاف قبل أن يصبح في مستوى اليقين من العلم، ولا سيما النظريات العلمية التي لا زالت في طور الرجحان، ولم تنتقل بعد إلى مستوى العلم اليقيني، كما حدث بالنسبة لنظرية تطور الأحياء لداروين الذي افترض أن أصل الإنسان قرد، القرآن الكريم يقرّنظرية التطور، وهي واضحة جلية في آيات القرآن الكريم، لكن القرآن لا يقر أبداً أن يكون أصل الإنسان من قرد، وترى كثيراًمن علماء الأحياء في يومنا هذا أخذوا يشيرون إلى أن داروين كان مخطئاً في تصوره، وأن نظريته لم تصل إلى مستوى العلم اليقيني بعد، بل لا زالت في مستوى الظن. ولو ركز علماء المسلمين على دراسة القرآن الكريم بدلاً من التركيز على دراسة كتب أهل الكتاب التي لا نفع فيها إلا إضاعة الوقت والعقل بالأوهام لاكتشفوا في القرآن أشياء كثيرة، فالقرآن كتاب معجز عجيب يتسم بالدقة الفائقة فإذا قرأنا الآية الكريمة الآتية: ﴿ولبثوا في كهفِهِمْ ثلاثَ مائةٍ سنينَ وازدادوا تِسْعاً﴾(١٧) لتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يقدم لنا الرقم بأسلوب فريد مبتكر يختلف عن الطريقة العادية المتعارف عليها في ترتيب الأرقام لتكون إشارة لمن يدقق في النظر والبصر: فإذا عرفنا أن ٣٠٠ سنة ميلادية تساوي تماماً ٣٠٩ سنوات هجرية، وإذا عرفنا أن السنة الميلادية تساوي: ٣٦٥ يوماً وربع اليوم لسهل علينا تعرف عدد أيام السنة الميلادية بالعدد ٣٠٠ ونقسم الناتج على الرقم ٣٠٩ فيكون الناتج عدد أيام السنة الهجرية مع أجزاء اليوم ٣٦٥,٢٥ X ٣٠٠ \ ٣٠٩ = ٣٥٤,٦١ يوماً. ومنها نستطيع أن نعرف طول الشهر القمري أيضاً بتقسيم أيام السنة على عدد الأشهر ٣٥٤,٦١ / ١٢ = ٢٩,٥٥ يوماً طول الشهر القمري.

(١٧) سورة الكهف: ٢٥

وقد توصل الباحثون إلى هذا من رقم واحد ورد في آية واحدة، فكم من الأرقام في القرآن تنتظر الملاحظة وكم فيه من حقائق تنتظر من يبحث عنها في الطبيعة لتصدقها آية من آيات القرآن الكريم.

والحقيقة الأخرى التي أريد الإشارة إليها أن الله سبحانه في كل القصص القرآني أهمل بشكل مقصود ذكر أسماء الأماكن والأشخاص بالتحديد إلا ما ندر منها عندما يكون ذكر المكان والشخص بالاسم ضرورياً، مثل قصة مريم ابنة عمران، وقصة يوسف بن يعقوب، أما باقي القصص فلا تجد أي تحديد على الإطلاق لعدم ضرورته مثل قصة أهل الكهف، وقصة الرجلين الذين كانا يتحاوران واحدهما يملك جنتين، وقصة ذي القرنين، وقصص أخرى كثيرة، والسنة التي يريد الله سبحانه أن نتعلمها من تلك القصص هي العبرة التاريخية، ومعرفة مواقف الناس من الإيمان بالله، وما ترتب على تلك المواقف من نتائج إيجابية أو سلبية انعكست علىمستقبلهم في الدنيا والآخرة. هذه هي الزبدة والخلاصة من دراسة التاريخ وهذا ما يريدنا الله تعالى أن نتعلمه من كل تلك القصص لكي لا تتكرر منا مواقف خاطئة كمواقف الذين سبقونا، وأخطاء كأخطاء الذين تقد ـونا في الزمن.

الحقيقة أن علماء التاريخ اليوم بدأوا يقولون بهذا الكلام في فلسفة التاريخ.

ولكن بدل أن يتعلم رجال الدين والحديث عندنا هذه السنة من القرآن الكريم فعلوا نقيض ذلك، وهجموا هجوم الجائعين على ما عند أهل الكتاب من كتب، جهلاً وظناً من بعضهم، وتضليلاً عن قصد من بعضهم الآخر، ينهلون منها ما وهموا أنه العلم، وحسبوا أنه يؤهلهم ليكونوا علماء يشار إليهم بالبنان، ولكي تتوافر لهم حرية الأخذ عنهم تسلّحوا بأحاديث أدخلوها على أحاديث أخرى صحيحة حتى لا ينكشف أمرهم، وهو ما ندعوه اليوم بالأسلوب الشيطاني حين نريد أن نصف شراً متقناً، وهدفهم خداع العقول الساذجة والنفاذ إليها. بالحيل البهلوانية، فقد دسوا مثلاً عبارة: (حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) على حديث آخر يعلمون أنه متواتر وصحيح لا يستطيع أحد أن يطعن فيه، وكل ما يستطيع المحدثون أن يفعلوه تجاه ذلك أن يشيروا إلى وجود رواية أخرى له، ذلك أن روايات الحديث المختلفة عند أهل الحديث، ولا ترفض الأحاديث إلا بالإسناد، ومناقضة المتن من الأساس للقرآن. وهكذا يختار هؤلاء الخبثاء متناً لا يناقض القرآن صراحة أو لا يكون موضوعه الذي يريدون إدخاله أصلاً مذكوراً

في القرآن الكريم. وقد استهدف هؤلاء المحرفون الحديث: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار» وهو من الصحيح المتواتر عن الرواة. فأضافوا إليه كلمةً ألغت مفعوله كله حيث أصبح في روايتهم: «من كذب علي (متعمداً) فليتبوأ مقعده من النار» فالساذج الذي لا علم له يظن أن الرواية الأولى للحديث لا تفرق عن روايته الثانية، وذو البصيرة يرى أن الفرق بينهما كالفرق ما بين السماء والأرض. وهكذا مع إضافة حديث آخر إلى هذا الحديث: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى» أصبح الحديثان يبرئان ساحة كل محرف أو مزور أو مختلق لأحاديث جديدة تضاف بحجة حسن النية وخدمة المسلمين والإسلام، فإن كُشِفَ كذبه سَوَّغ بأنه لم يكن متعمّداً وإنما كانت له غاية حسنة وخدمةٌ للإسلام والقرآن والدين والله سبحانه وتعالى، وهكذا وصل الشيطان إلى مبتغاه.

وامتدت أقلامهم إلى كتابة قصص عن الأنبياء على لسان الرسول ﷺ نقلاً كاملاً عن كتب أهل الكتاب المحرفة، والتغيير في أسلوبها الأسلوب الإلهي، فأتت خالية من العبرة التاريخية، والغاية الإلهية من إيراد القصة في القرآن وهي وجود الموعظة الخفية من الله للناس، بل وردت محشوة بتفاصيل تافهة وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان. فقد جددوا على سبيل المثال كتابة قصة أهل الكهف وحددوا لنا عددهم الحقيقي، وما كانوا يلبسون بالتحديد، وما كان اسم كلبهم، وما ألوان شعره! حقائق مهمة كانت غائبة عن الله تعالى! أستغفر الله العظيم.

كذلك فعلوا بباقي القصص القرآني فأضافوا تفاصيل لا لزوم لها ولا تسمن أو تغني من جوع.

ولو أنهم جميعاً اتفقوا على رواية واحدة لكل قصة جديدة لهان الأمر، لكنهم اختلفوا فيما بينهم ففريق يقول شيئاً لا يقوله الفريق الآخر، والحقيقة التي لا شك فيها أنهم جميعاً ضلّوا السبيل الصحيح، وأضلوا أيضاً عن السبيل الصحيح، رحمهم الله وحسابهم على ربهم ولسنا عنهم محاسَبين. إلا إذا اتبعناهم وقلنا مثل ما قال الأولون: ﴿إنا وجدنا آباءَنا على أمّةٍ وإنا على آثارِهم مقتدون﴾(١٨).

ولا يمكن لعاقل بقي لديه ذرة من عقل أن يصدق مهما قرأ من أحاديث، وقيل له إنها رويت في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، أو رواها أحمد والترمذي وابن ماجة

---

(١٨) سورة الزخرف: ٢٣

وأخرجها فلان وفلان، ووصفت بأنها صحيحة أو حسنة، أن يصدق أن الرسول ﷺ قد تقوّل على الله مالا يعلم، بل لماذا يفعل ذلك وهو يعلم أنه ليس بعالم أصلاً، وأن الله اختاره أمياً كي لا يقول من له غاية أو وراءه شيطان يدفعه إن الرسول أتى بهذا من علمه الخاص، أو كيلا يدعي كذباً من له غاية في الدس والتحريف أن هذا علمٌ من علوم رسول الله ﷺ وحده.

فالله سبحانه قد أغلق على الكفار والمشركين والمتقولين المنافقين هذا الباب بأن أعلن للجميع أنه اختار نبيّه أمياً لا يعرف ولا يعلم من العلوم والأخبار والتاريخ، ولو فرضنا جدلاً أن الله قد أعطى حقاًرسوله علماً نافعاً فلماذا لا يعمّمه على الناس بالوحي المباشر المعلن في القرآن. وهل يخشى الله سبحانه أن يصبح كتابه أكبر من اللازم؟ لا أعتقد أن كلّ ما عندنا غير القرآن إلا من الأوهام والأباطيل. فما من علم أعطي للرسول، وطلب منه تبليغه إلا وهو موجود بالحرف في الرسالة، والرسالة كلها في القرآن. والرسول ﷺ الذي تلقى القرآن وفهم آيات الرسالة كلها وما لم يفهمه منها سأل عنه فأتاه جبريل بجوابه. وقد سألَتْ الرسولَ ﷺ وفودٌ ورؤساء وقبائل وأناس كثيرون، وتعرض لمواقف كثيرة فكان يتبصر ويتدبر الأمر ويتخذ القرار والرأي أحياناً قبل ورود الوحي، مستخدما ذكاءه الإنساني الخاص، وبديهته وحكمته، وحسن تصرفه، فإن أصاب وَوُفِّقَ أتى الوحي موافقاً وإلا أرسل الله إليه بالوحي الصحيح، ولا نقول إن الرسول أخطأ، لأن ذلك يكون صحيحاً فقط لو كان هناك نص قرآني حول الموضوع، أو اختار الرسول طريقاً مخالفاً للوحي، أي للنص القرآني، وهذا لم يحصل من الرسول ﷺ فإذا لم يكن الله قد أرسل قراره حول الموضوع الذي اتخذ الرسول قراره فيه فإننا لا نستطيع أن نقول عن الرسول ﷺ أنه أخطأ. وإنما نقول إن رأيه لم يكن صواباً، فصحح الله له بالوحي.

وقد حصل ذلك مرات عديدة في القرآن الكريم فالله سبحانه لم يترك رسوله يتصرف دون عنايته، بل كانت كل تصرفاته تحت بصر الله واهتمامه. لأن ما يقوم به الرسول يجب أن يطابق تماماً ما هو موجود في القرآن الكريم. فالناس يقتدون به في كل شيء.

وكثيراً ما سئل الرسول سؤالاً لا يعرف له جواباً كما سأله بنو نجران: «يا محمد قل لنا من هو الله؟» فلم يعرف الرسول ﷺ بم يجيب فأرسل الله جبريل بالجواب قائلا: ﴿قُلْ هوَ اللهُ أَحَد * اللهُ الصَّمد * لم يَلدْ ولمْ يولَد * ولَم يكن لَه كُفواً أحد﴾[19]. جواب لا

---

(١٩) سورة الإخلاص.

يعرفه الرسول، ولا يمكن أن يأتي إلّا من رب العالمين، وهذا العلم غير موجود إلا في غيب الله سبحانه وتعالى.

وكما قلنا سابقاً، فإن أسلوب إعداد رجال الدين الذي يقوم على الإلمام بالعلوم الدينية واللغوية فحسب وجهلهم باقي العلوم حتى مبادئها الأولية، يجعل علمهم ومعرفتهم مهما توسعت في جوانب ناقصة ومبتورة من نواح أخرى، والإنسان عدوّ ما يجهل، لذلك فإن جهلهم العلوم الرياضية، ومبادىء علوم الفيزياء والكيمياء والطبيعة، وعلوم الحياة، وفلسفة العلوم والتاريخ والاجتماع، وعلم النفس، والتكنولوجيا الحديثة، والنظريات الحديثة مثل النظرية النسبية، والهندسة المستوية، والهندسة الفراغية، والبعد الرابع في الهندسات الحديثة كبعد أساسي وحقيقي، يجعل منهم على أهمية دورهم في توجيه الأفراد في المجتمع أعداء للعلوم الدنيوية، يحكمون لمريديهم وتلاميذهم أن تلك العلوم المذكورة كلها (علوم: العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضرّ) وهو حكم خاطىء، ولا صحة فيه على الإطلاق، بدليل آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعو إلى كل هذه العلوم في القرآن، وبدليل وجود حقائق علمية في القرآن تتعلق بكل تلك العلوم المذكورة سابقاً.

والطلاب والتلاميذ الذين يسمعون مثل هذا القول الخطير من شيخهم المحبوب يسلمون به حقيقةً غير قابلة للمناقشة لثقتهم أن شيخهم كامل العلم والمعرفة، مع أن ذلك غير صحيح بدليل أن الشيخ لا يدرك أهمية هذه العلوم بالنسبة للإنسان، وفائدتها لرجل الدين والمجتمع، وصلتها بموضوع استخلاف الإنسان على الأرض. فالله سبحانه وتعالى على نقيض ما زعموا، يريد من الإنسان المؤمن أن يبحث عن كل هذه العلوم: ﴿ثم جَعلناكم خَلائِفَ في الأرض من بعدهم لننظرَ كيفَ تعملون﴾[٢٠].

ولو قصد الله سبحانه وتعالى أن يرى صلاتهم وصيامهم، وطاعتهم للعبادات لقال عز وجل: لننظر كيف تعبدون الله ، ولكنّه يقول تعالى: كيف تعملون، والعمل هو العمل، في الزراعة، والصناعة، والتجارة، والسعي للدنيا والآخرة، وفي آية ثانية: ﴿ويستخلفَكم في الأرضِ فيَنظُرَ كيفَ تَعملون﴾[٢١].

وقوله تعالى: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ ممَّ خُلِقَ﴾[٢٢]. وهي دعوة مؤكدة لعلم الكيمياء ودراسة العناصر.

---

(٢٠) سورة يونس: ١٤ (٢١) سورة الأعراف: ١٢٩ (٢٢) سورة الطارق: ٥

وقوله: ﴿أولم ينظروا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ﴾(٢٣) وهي دعوة صريحة لعلم الفلك.

وقوله: ﴿أفلمْ يسيروا في الأَرضِ فينظروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِنْ قبلهم﴾(٢٤) وهي دعوة صريحة لعلوم الآثار.

وقوله تعالى: ﴿أَفلمْ ينظروا إلى السّماءِ فوقَهُم كيفَ بَنيناها وزيَّناها﴾(٢٥) وهي دعوة صريحة للبحث عن تشكل الكون وتشكل النجوم والمجرات وقوانين الفلك.

وقوله: ﴿قُل سيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ بدأَ الخَلْقَ﴾(٢٦) وهي دعوة صريحة لدراسة علوم الحياة وأسرار الخلق والتشكل والتكوين والتطور.

وقوله تعالى: ﴿وعلمناه صَنعةَ لَبوسٍ لكم لِتُحصِنَكم من بَأْسكم﴾(٢٧) وهي تشير إلى تعليم داود صناعة الدروع الحديدية من الزرد لحماية الإنسان من السيوف والرماح في الحرب.

وقوله: ﴿إنهُ لكبيرُكم الذي علّمكم السحرَ﴾(٢٨) وقد نهى الإسلام عن السحر وهو من العلوم الضارة.

وقوله: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملكِ وعلّمتني من تأويل الأحاديث﴾(٢٩) وتأويل الأحلام والمنامات علم يعتمد على علم النفس. وحثّ الله على العلم والتقدير، ووصف نفسه بالعليم: ﴿وإن من شيءٍ إلا عندنا خزائِنُهُ وما نُنَزِّلُهُ إلّا بقدرٍ معلوم﴾(٣٠).

وقوله تعالى: ﴿فجعلناهُ في قرارٍ مكينٍ إلى قدرٍ معلوم﴾(٣١).

وقوله تعالى: ﴿ربكم أعلمُ بما في نفوسكم﴾(٣٢).

وقوله: ﴿وربكَ أعلَم بمن في السموات والأرض﴾(٣٣).

﴿هو أعلمُ بكمْ إذْ أنشأكم من الأرضِ﴾(٣٤).

﴿فسواهُنَّ سَبْعَ سمواتٍ وهو بكلّ شيء عليم﴾(٣٥).

﴿وما تُنفقوا من شيءٍ فإن اللهَ به عليم﴾(٣٦).

﴿وخلَقَ كلَّ شيءٍ وهو بكلّ شيءٍ عليم﴾(٣٧).

---

(٢٣) سورة الأعراف: ١٨٥
(٢٤) سورة يوسف: ١٠٩
(٢٥) سورة ق: ٦
(٢٦) سورة العنكبوت: ٢٠
(٢٧) سورة الأنبياء: ٨٠
(٢٨) سورة طه: ٧١
(٢٩) سورة يوسف: ١٠١
(٣٠) سورة الحجر: ٢١
(٣١) سورة المرسلات: ٢١
(٣٢) سورة الإسراء: ٢٥
(٣٣) سورة الإسراء: ٥٥
(٣٤) سورة النجم: ٣٢
(٣٥) سورة البقرة: ٢٩
(٣٦) سورة آل عمران: ٩٢
(٣٧) سورة الأنعام: ١٠١

﴿وتلكَ الأمثالُ نضربها للناسِ وما يعقِلُها إلّا العالمون﴾(٣٨).

﴿إنما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماء﴾(٣٩).

﴿ولا تَقْفُ ما لَيسَ لَكَ به علمٌ﴾(٤٠).

﴿وليعلَمَ الذينَ أوتوا العلْمَ أنّه الحقُّ من ربّك فيؤمنوا به﴾(٤١).

فهل تظن أن الله سبحانه وتعالى في كل هذه الآيات يقصد علماء الدين؟ إنه يقصد العلماء الذين ذكرنا علومهم قبل ذلك، حتى إن الله سبحانه وتعالى لا يسمي من يدرس العلوم الدينية متعلماً وإنما يقول عنه إنه يتفقه في الدين: ﴿فلولا نفرٌ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين﴾(٤٢).

وقوله: ﴿انظر كيف نُصرّف الآيات لعلهم يفقهون﴾(٤٣).

﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾(٤٤).

لذلك كله نرى أن دراسة العلوم بالنسبة إلى رجال الدين من الضروريات الحتمية حتى لا يكون علمهم مبتوراً أو ناقصاً ليدركوا أهمية العلوم كلها في موضوع استخلاف الإنسان للأرض، وموضوع إعمار الأرض وإصلاحها من الإنسان العامل بالعمل الصالح إذ يستغرق فيه مبتعداً عما نهى الله من الأعمال المفسدة والمدمرة والمخربة في الأرض.

فالمحافظة على نظافة البيئة، وإبقاء جو الأرض الخارجي صالحاً للأحياء يعد من العمل الصالح، والحفاظ على البحر نظيفاً صالحاً لحياة الأحياء فيه يعد من العمل الصالح، والحفاظ على الغابات الخضراء لصيانة التربة، وعلى أوكسجين الهواء الذي تعيش عليه الأحياء يعد من العمل الصالح للإنسان. وهي شؤون يطلب من الإنسان ملاحظتها وملاحقتها لأنه المسؤول عن إعمار الأرض ولولا هذه المسؤولية لما استخلف الله الإنسان على الأرض، واللفظ القرآني (استخلف) يحمّل الإنسان مسؤولية حياة الأجيال على الأرض، وتوفير السبيل لتجدد البشرية.

إن جهل رجال الدين سنة التطور وقوانينه العلمية جعلهم ينكرون أهم عامل من سنن الله في الكون وهو التبدل والتغير مع الزمن مع أنها من الحقائق العلمية الموجودة في القرآن. يقول تعالى: ﴿كُلّ من عليها فان ويبقى وجهُ ربّكَ ذو الجلالِ والإكرام﴾(٤٥)

---

(٣٨) سورة العنكبوت: ٤٣
(٣٩) سورة فاطر: ٢٨
(٤٠) سورة الإسراء: ٣٤
(٤١) سورة الحج: ٥٤
(٤٢) سورة التوبة: ١٢٢
(٤٣) سورة الأنعام: ٦٥
(٤٤) سورة الأنعام: ٩٧
(٤٥) سورة الرحمن: ٢٦

ومعنى الآية أن كل شيء في الكون من مادة حية كالنبات أو الحيوان أو الإنسان، أو جامدة: كالنجوم والمجرات والموجودات الأخرى بين السماء والأرض تتأثر بعامل الزمن وتفنى به إلا الله سبحانه وتعالى الوحيد الذي لا يتأثر بالزمن، فهو باقٍ ولا تأثير لشيء عليه. وإن إنكار رجال الدين عاملَ التطور والتغير مع الزمن جعل فكرهم متحجراً، وقادوا أتباعهم بجهلهم هذا العامل وعنادهم، إلى الإشراك الخفي بالله دون علم منهم، فالحقائق القرآنية موجودة في القرآن بادية للعيان، وحقائق الطبيعة العلمية موجودة كلها أمام الناس في الطبيعة. وقد يسأل سائل: لماذا عرف فلان من الحقائق القرآنية كذا وكذا ولم يعرفها قبله من المسلمين المتبحّرين في علوم الدين؟ وسؤاله هذا كسؤال مَن يقول: لماذا عرف إسحق نيوتن بقانون الجاذبية؟ ولماذا اكتشف كبلر قوانينه في الرياضيات الفلكية ولم يكتشفها غيرهما من الناس؟.

والجواب أن الأخير اجتهد وبحث ودقق مستخدماً عقله وبصره وبصيرته، مستنداً في ذلك كله إلى آيات الله وحقائقه في الكون والطبيعة، فتوصل إلى تلك الحقائق، ولأن الله عز وجل لما رأى من جدّه واجتهاده وطلبه للعلم الصحيح ومن مصدره، ألهمه الصواب فعرف الحقيقة والحقائق. وأما الذين أفنوا حياتهم وهم يدرسون ويتعلمون علوماً ظنوا أنها هي العلم وظنوا أن فيها حقائق دون أن يعلموا أنهم يفنون أعمارهم على أوهام، لم يصلوا إلّا إلى الأوهام والأباطيل، ولم تنكشف لهم أي حقائق نورانية من كتاب الحق لأنهم لم يقصدوه أصلاً. فكل إنسان يعطيه الله سبحانه وتعالى على قدر سعيه واجتهاده وهذه من قوانين الله وسننه. فالله سبحانه وتعالى لا يعطي النشيط الذي يستخدم الوسائل العلمية المناسبة كالكسول أو كالشخص الذي يسعى إلى تحصيل الماء فيجري دائماً وراء كل سراب يتراءى له، دون أن يستخدم الوسائل المناسبة لتحصيل ما يبتغيه من علم وتقدير وتدبّر للأمور.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى موضوع آخر هام يجب وضعه في الاعتبار على الدوام، وهو موضوع البدهيات والأفكار الثابتة عند الإنسان، فالإنسان تسيطر على مخيلته أفكار ثابتة يعدّها مع الزمن من البدهيات التي لا تحتاج إلى مناقشة أو برهان، وإن أعظم الأوهام وأكثر أسباب الجمود وعدم التطور تأتي من تلك الأفكار الثابتة. فينبغي أن يؤمن الإنسان بأن لا شيء ثابت مع الزمن إلّا ما ثبّته وأكّد تثبيته الله سبحانه وتعالى، ومما ورد ثباته مفصلاً في القرآن الكريم، كالصراط المستقيم وبنوده العشرة والمحرّمات، وحدود الله، أما ما عدا ذلك فيجب أن يؤمن أن كل شيء قابل للمناقشة والتغيير حتى في

أحكام القرآن الكريم وهذا ما حاول الله أن يعلمنا إياه بالنسخ والإنساء.

فمن أكبر أخطاء المسلمين ظنهم الخاطىء أن القرآن لا يمكن تفسيره إلا عن طريق السنة النبوية. وذلك إجماع كبير على خطأ جسيم لا يغتفر، إذ كيف يجمعون على أن الله سبحانه أرسل وحيين وكتابين وسنتين: واحدة لله، والأخرى للرسول، إشراك واضح لا يراه المسلمون لأنهم قنعوا أن موضوع السنة والحديث قد أصبح من البدهيات التي لم تعد تقبل المناقشة.

ومن ذلك إجماعهم على أن مشيئة الله هي الأولى، إذ تحولوا كلهم إلى قطيع مستسلم لمشيئته، وعطلوا الإرادة، فانتفت عنهم صفة الإنسانية التي منحها الله لهم بإرادته ومشيئته في أن يكونوا أحراراً في كل الأمور التي لهم فيها مجال للاختيار، ومن هذا الفهم المغلوط المعزز بأحاديث كثيرة موضوعة ومكذوبة عن لسان الرسول فهم المسلمون، خطأ وظلماً لأنفسهم، أن الأعمار والأعمال والأرزاق مكتوبة ومقدّرة من الله تعالى بشكل مسبق، ولكل إنسان بالتحديد، من دون أن يفهموا تماماً مراد الله تعالى الذي شرحه لهم وأكّده في القرآن الكريم، فتركوا كلام الله الذي فيه كل الحق والحقيقة، إلى أكاذيب وظنون عدّوها صواباً وهي خطأ، وأنها موحاة من الله من دون أن يكون لها سند حقيقي واحد من حقائق الله في القرآن الكريم، ثم عاد المسلمون أنفسهم ليمنعوا أي فرد منهم إنْ فكّر أن يخرج من هذا الطوق أو الدائرة الشيطانية التي حبسوا أنفسهم فيها، فوضعوا قاعدة بديهية وأساسية في الإسلام، ولا تقبل المناقشة، مفادها (إن الإجماع معصوم من الخطأ) وهذه القاعدة من أخطر وأكبر الأخطاء الإسلامية التي ارتكبها من يسمون أنفسهم علماء المسلمين، ولو فكروا ملياً لأدركوا أن الإنسان خطاء، ومجموع الخطائين لا يتحولون إلى إله معصوم عن الخطأ أبداً.

من هذا كله نخلص إلى أن رجال الدين حين يتشبثون بثبوت أحكام الله في القرآن، وهم يجهلون حدود الله التي على المجتهد أن يتحرك ضمنها، وحين يتشبثون أيضاً بثبوت الأحكام التي حكم بها الرسول في زمانه وتقديسها إلى يوم الدين، ويصرّون على عدم تعديلها أو تحويرها فإنهم يُصرّون عن سذاجة وقلة تبصر في الأمور، وحقائق الكون، وحقائق القرآن الكريم، إن أكثر ما يغضب الله تعالى من البشر أنه وهبهم الحرية فارتضوا بالعبودية، ووهبهم الإرادة فاستغنوا عنها وعطلوها وارتاحوا إلى الخنوع، وتوقفوا عند الجمود على حال واحدة متجاهلين سنة الله تعالى في التطور والتبدل، ويعد ذلك

من البشر إشراكاً بالله تعالى في صفاته، لأن الثبوت على حال ليس إلا لله وحده، فهو الذي لا يحول ولا يزول، وحين يؤمن البشر بأن كل ما حولهم ثابت، وأنهم ثابتون على أحكام الله تعالى التي يرون أنها ثابتة وأحكام رسوله التي لا تتغير، فقد أشركوا أنفسهم، وأحكام رسولهم، بصفة الثبوت التي هي من صفات الخالق وحده، في حين أن كل ما عدا الله وحده يتبدل مع الزمن، وهذه حقيقة علمية يقينية.

يولد الإنسان طفلاً ولا يبقى على حال واحدة ساعة، دون أن يطرأ عليه تبدل مستمر حتى يموت، وكذلك كل الأحياء والموجودات وكل قوانين الإنسان. وأحكامه والثوابت التي ذكرها الله لنا في القرآن هي:

١ ـ الصراط المستقيم لا يتبدل مع الزمن لذلك قال عنه «مستقيم» وقد شرحنا ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

٢ ـ الحرام يدخل في الصراط المستقيم.

٣ ـ العبادات تدخل في الصراط المستقيم.

٤ ـ الحدود تدخل في الصراط، أي لا يجوز تجاوز الحد المقرر من الله، فالله قد حدد الحد الأعلى والحد الأدنى، والحركة بينهما من واجب الفقيه بالاجتهاد، وإنّ توقف الاجتهاد في حياتنا جريمة لا تغتفر لكل المسلمين بحق الله سبحانه، لأنه إشراك بالله. وكلّ توقف عن التغيُّر وكلّ جمود إشراك، وقد شرحنا ذلك أيضاً في الكتاب ولكي نتبين ضرورة التبديل نوضحها بالمثال الآتي على سبيل الافتراض:

لنفرض جدلاً أن أول سيارة صُنعت كانت في المدينة المنورة وفي أيام الرسول ﷺ ولنفرض أن أقصى سرعة لتلك السيارة كانت خمسة كيلو مترات في الساعة الواحدة فقتلت في أثناء سيرها رجلاً من سكان المدينة، فأصدر الرسول ﷺ أمراً بتحديد سرعة كل السيارات بثلاثة كيلومترات في الساعة، حفاظاً على أرواح الناس مع وجوب وجود منبه خاص يستخدمه السائق لتنبيه المارة، ومع مرور الزمن تحسنت صناعة السيارات وحسّن الناس الطرقات والشوارع لاستخدام هذه الآلة المفيدة للإنسان فارتفعت سرعة السيارات الجديدة إلى عشرين كيلومتراً في الساعة، وهو ما وقع في عصرنا، فما يكون موقف الرسول ﷺ مما سنّه سابقاً وتجاوزه الزمن؟ فإما أن يساير الزمن والتطور فيلغي القانون القديم أي ينسخه وينساه ويصدر أمراً جديداً يجعل السرعة القصوى ١٥ كيلومتراً بدلاً من القوانين أو الأحكام الثلاثة الأولى، وبها يكون الرسول قد أخذ بسنة

التطور وراعى مصالح الناس، دون أن يظلم أحداً، أو يخالف القانون الطبيعي للتبدل والتغير، وهكذا يمكن للرسول أن يلغي وينسخ أمراً قديماً ويصدر أمراً جديداً، وكذلك يفعل أولي الأمر من الناس الذين يأتون بعد الرسول ويعدلون قانون السير ليلائم عصرهم، هذا ما شرحناه سابقاً عندما ذكرنا كيف أن الخليفة عمر رضي الله عنه ألغى النص الإلهي الخاص بالمؤلفة قلوبهم فتوقف عن إعطائهم، لتغير الزمن وتغير موقف المسلمين من ضعف إلى قوة، فألغى النص الإلهي بنص جديد من عنده يمنع العطاء بعد ذلك فالفاروق عمر رضي الله عنه فهم سنة الله ولماذا كان الله يصدر أوامره ثمّ، بعد مرور الزمن يصدر أمراً آخر يُنْسيْ أمره السابق بآية أخرى، وهذا هو الطبيعي، فالله سبحانه وتعالى أحب أن يعلمنا الطبيعي، وتعلّمه السلف الأول منه، لكن كل من دخل إلى الكهف العظيم فيما بعد ضاع وتاه، ولم يعد يميز الحق من الباطل، ونحن اليوم نستمد كل علومنا الدينية من المصادر التي وضعت في ظلام ذلك الكهف ولا نستمدها من سنة الله في الخلق ومشيئته فلا تعجبوا بعد ذلك ان لا يأتينا منه الخير، لأنه لا خير عند من كتب هذه المصادر ليعطونا إياها، وليس عندهم إلا الضلال والأوهام والظنون وهي كلها لا تغني عن العلم بشيء، إن مصدر العلم الوحيد هو القرآن، ومن قصد غيره ضاع وتاه من جديد إلى يوم يبعثون، ومن تمسك به فاز ونصره الله وهداه إلى الحق، وعرف الحقائق وربح الدنيا والآخرة.

وتحضرني الآن قصة عشتها ورأيتها وأنا في الثانية عشرة، تحكي عن رجل طلب زوجته لبيت الطاعة، فحكم له القاضي الشرعي بذلك وأمر بأن يفتح الزوج الذي كان من أثرياء المنطقة، بيتاً لزوجته التي لم تعد تطيق العيش مع رجل ظالم قاسٍ يذيقها كل أنواع الذل والهوان، فتحضر الشرطة، تنفيذاً لحكم القضاء، الزوجة الهاربة من بيت زوجها إلى بيت الطاعة الجديد المكوّن من غرفة واحدة مظلمة وفي زاوية منها ستارة يستخدم ما خلفها منتفعات للبيت، من حمام ودورة مياه ومطبخ، وتنفيذاً لحكم القاضي الذي نص على أن يكون في البيت المزعوم الأثاث الآتي لتوفير مستلزمات العيش للزوجة: حصيرة واحدة، وفراش واحد، مخدة واحدة، سطل واحد، صحن واحد، ملعقة واحدة، طنجرة واحدة، موقد واحد، قنديل كيروسين واحد نمرة ٢ وحجة القاضي الفقيه في هذا الحكم العادل الذي تفتق عنه قضاؤه الشرعي الإسلامي أنه نظر في كتب الفقه، ولما كان الرجل والمرأة من السنة ومن أتباع الإمام أبي حنيفة بين له أن هذه الشروط، أو ما يعادلها في زمان أبي حنيفة كانت من شروط بيت الطاعة كما وردت

في الشرع الحنفي. دون أن يضع في اعتباره ولو لحظة واحدة أن تلك الشروط وضعت في زمن الإمام أبي حنيفة، وأن الزمان قد تغير وتبدل وتطور، فهل يكون تنفيذ هذا القاضي الشرعي لفقه الإمام أبي حنيفة كما ورد في عصر الإمام عدلاً إلهياً يتفق وما أمر الله به في القرآن الذي لا يحوي إلّا علماً ونوراً وحقاً وعدلاً؟ وهل يعدّ هذا الحكم الذي صدر بعد ألف سنة من حياة أبي حنيفة والتزام ما نص عليه الإمام حرفياً دون تعديل أو تبديل أو مراعاة للتطور من الفقه الإسلامي؟ أهذا هو العدل الإلهي الذي ندعو له ليتبعنا الناس أجمعين؟ أعتقد أن الله سبحانه وتعالى لن يلومهم إن لم يفعلوا. فيا أيها الأخوة إن هذا (شرك وظلم) وقد قال الله سبحانه وتعالى، على لسان لقمان في القرآن: ﴿يا بُنيّ لا تُشركْ باللهِ إنّ الشركَ لَظلمٌ عظيم﴾[٤٦].

أَنجمد نحن المسلمين عند أحكام الإمام أبي حنيفة بحرفيتها إلى يوم الدين أم أن علينا أن نسن أحكامنا مراعين تطور معيشة الناس، وما يناسب العصر؟ وهل تجاهل ذلك القاضي حالة الزوج المادية وحقوق الزوجة في ألا يكون بيت الطاعة للزوجة سجناً انفرادياً في زنزانة؟ وهل نتحدث عن ظلم الإسلام للمرأة قبل أن نبحث عن ظلم الإسلام للإنسان؟ إنه ظلم الإنسان لنفسه وليس الله والإسلام هما اللذان يظلماننا. لا يظلمنا أحد إلا أننا لجهلنا نعيش في ظلم وفي ظلام - بدل الحق والنور فإن من بدهيات الأمور التي لا تناقض القرآن ولا آياته أن يكون عندنا فقهاء علماء حقيقيون يفهمون الدين والدنيا، ويحكمون بما يرضي الله والناس ضمن حدود شريعتنا الدينية الإسلامية السمحاء وديننا الذي هو دين يسر قبل كل شيء، لا دين ظلم وعسر على الناس: ﴿فمن أظلمُ ممّنْ كَذَبَ على اللهِ وكذَّب بالصدقِ إذ جاءَه﴾[٤٧].

﴿ومن أظلم ممّن ذُكِّرَ بآياتِ ربه فأعرضَ عنها﴾[٤٨].

صدق الله العظيم.

---

(٤٦) سورة لقمان: ١٣ (٤٧) سورة الزمر: ٣٢ (٤٨) سورة الكهف: ٥٧

٥ ـ الإنسان وصفاته في ضوء آيات القرآن الكريم:

عندما يولد الطفل يمر بمرحلة لا يميز فيها ذاته عن الأشياء، ثم يدرك ذاته وتتجلى في تصرفاته حب الذات، ومنها حبّ التملك، فنراه يرغب في الاحتفاظ بالأشياء التي يحبها ولا يتركها لغيره، فإن أخذت منه بالقوة أبدى احتجاجه بالبكاء؛ اللغة الوحيدة التي يمتلكها للتعبير عن ذاته. ولكي يفهم الإنسان حقائق الكون ويميزها من الأوهام عليه بداية أن ينطلق من خطوة ضرورية قبل كل الخطوات، وهي أن يعرف نفسه، على الإنسان أن يعرف صفاته المميزة لا على أنه فرد من الأفراد بل على أنه واحد من نوع مخلوق متميز، أوجده الله، وكلفه مهمات عسيرة أشارت إليها الآية الكريمة الآتية: ﴿إنّا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرض والجبال فأَبَيْن أن يحمِلْنها وأشفَقْنَ منها وحملَها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾[١].

وإن ما يهمنا من دراسة موضوع الإنسان وتفهمه، إدراك حقيقة مشتركة بين كل بني الإنس، وهي أننا نتشابه في رغباتنا، وني أسلوب تفكيرنا، ونتشابه في أخطائنا، وفي عنادنا وتصلبنا، ونتشابه في وقوعنا في الأخطاء نفسها دون أن نتعلم من أخطاء غيرنا، ونتشابه في أننا نلاحظ أخطاء غيرنا دون أن نلاحظ أخطاءنا. ونتشابه في كل الصفات التي وصف الله بها الإنسان وقالها فيه:

﴿إنّ الإنسانَ خُلقَ هَلوعاً﴾[٢]. ﴿إنّ الإنسانَ لكَفور﴾[٣]. ﴿إنّ الإنسانَ لربهِ لكنُود﴾[٤]. ﴿إنّ الإنسانَ لظَلومٌ كَفّار﴾[٥]. ﴿إنّ الإنسانَ ليطغى﴾[٦]. ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَره﴾[٧]. ﴿لا يسأَمُ الإنسانُ من دُعاءِ الخَير﴾[٨]. ﴿وكانَ الإنسانُ أكثر شَيء جَدلاً﴾[٩]. ﴿وكانَ الإنسانُ عَجولاً﴾[١٠]. ﴿ويدعُ الإنسانُ بالشّر دُعاءه بالخير﴾[١١]. ﴿ولئن أذقْنا الإنسانَ منّا رَحمة ثُم نزعْناها منه إنّه لَيؤوس﴾[١٢].

وهي آيات ناطقة وحدها لا تحتاج إلى شرح أو إيضاح، ولكنّ للإنسان صفات أخرى

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٢
(٢) سورة المعارج: ١٩
(٣) سورة الحج: ٦٦
(٤) سورة العاديات: ٦
(٥) سورة إبراهيم: ٣٤
(٦) سورة العلق: ٦
(٧) سورة عبس: ١٧
(٨) سورة فصلت: ٤٩
(٩) سورة الكهف: ٥٤
(١٠) سورة الإسراء: ١١
(١١) سورة الإسراء: ١١
(١٢) سورة هود: ٩

ذكرها القرآن ومنها النسيان، نسيانه حتى أعماله: ﴿ومن أَظلَمُ ممن ذُكِّرَ بآيات ربه فأعرضَ عنها ونَسيَ ما قدّمتْ يَداه﴾(١٣).

﴿ولقد عَهِدنا إلى آدمَ من قبلُ فَنسي ولم نَجِدْ لَه عَزماً﴾(١٤).

فهل نعتقد اليوم أن صفاتنا قد تبدلت عما كان عليه جدنا آدم من صفات، وهل تحررنا من صفة النسيان: ﴿وضَرَبَ لنا مثلاً ونسيَ خَلقَه﴾(١٥).

إنه الإنسان يقع في الأخطاء نفسها، وقليلاًما يتعلم.

وقد بينتُ سابقاً أن هدفي من هذا الكتاب محاولة إيجاد وسائل ومبادىء وأسس للتمييز بين الحقيقة والوهم، ورمزت إليهما غالباً بالرحمن والشيطان، وقد يحسب الإنسان لأول وهلة أن التمييز بينهما واضح لا يتطلب دراسة أو تبييناً. وقد يصدق ذلك على الله عز وجلّ الذي خلق الحقيقة والوهم، وقد يكون صحيحاًأيضاً بالنسبة إلى الملائكة، لأنهم لا يعرفون إلا الحقائق فقط، وقد يصدق ذلك أيضاً بالنسبة إلى الشيطان الذي يعرف الوهم والباطل وحده، أوهكذا يريد أن يعرف فقط، ويريد أن يعلم الناس كلهم أن الحقائق كلّها لا وجود لها. لكن الأمور تختلط كثيراً بالنسبة للإنسان الذي خلقه الله تعالى وفيه الخير والشر، وفيه الحقيقة والوهم ـ ولديه استعداد للاتجاه نحو الحق أو الباطل، للرحمن أو للشيطان.

ولكننا لن نستطيع أن نفهم الإنسان، أو ندرك أسرار تصرفاته واتجاهاته إذا لم ندرك السر الإلهي الذي أودعه الله فيه، في تلك النفخة التي نفخ الله في آدم بعد أن اصطفاه من بين كل المخلوقات ليودع فيه السر: ﴿إنَّ اللهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيم﴾(١٦).

ولو عدنا إلى القرآن الذي يعلمنا الله تعالى بآياته أسرار خلقه لعرفنا أن من أبرز صفات المخلوقات كلّها صفة الزوجية، أو الثنائيات المتقابلة، والإنسان منها، وفيه تلك الصفات الزوجية مثل (نفس وبدن) و(خير وشر) و(حق ووهم) و(عدل وظلم) و(عقل وهوى). وهذه الزوجية ترتد إلى زوجية شاملة هي زوجية الرحمن والشيطان، فالله تعالى إذ نفخ في آدم تلك النفخة نقله من مستوى البهيمية إلى مرتبة الإنسان ووهبه صفات جديدة، لم تكن فيه قبل أن يكون إنساناً.

---

(١٣) سورة الكهف: ٥٧

(١٤) سورة طه: ١١٥

(١٥) سورة يس: ٧٨

(١٦) سورة آل عمران: ٣٣

فما هي هذه الصفات الجديدة التي أعطيت من الله لآدم ولم تكن عنده في الأصل؟ إنها:

١ ـ القدرة على النطق باستخدام رموز الأصوات. التي تشكل أساس اللغات.

٢ ـ القدرة على التعلّم من خبرات الآخرين، نقلاً بالرواية بطريق السماع بالأذن وهو جهاز الاستقبال، والنطق باللسان، وهو جهاز الإرسال.

٣ ـ القدرة على القراءة والكتابة وهذه تمّ نقلها للإنسان بطريق الأنبياء والرسل.

٤ ـ جعل عقله قادراً على استيعاب المجردات أي الأشياء التي لا يمكن تعلّمها مباشرة عن طريق الحواس كالبصر والسمع.

٥ ـ وهبه القدرة على الخلق والإبداع والخيال الإبداعي.

٦ ـ أعطاه صفة من صفات الله وهي المنطق القادر على التمييز بين الأشياء وأضدادها. كالقدرة على التمييز بين الحقيقة والوهم والخير والشر، إلى آخر تلك المتقابلات أو الأزواج من الأضداد. والزوجية من التقابل وقد أوضحنا ذلك في هذا الكتاب.

٧ ـ وهبه حرية التصرف بعد أن منحه تلك القدرات من غير تدخل حتى من الله الذي أصدر تعهداً على نفسه بعدم التدخل، (هكذا كانت مشيئته وإرادته لغاية يعرفها هو وقد شرحها لنا في القرآن) مثلما منحنا حرية الإرادة في اختيار الحقيقة أو الوهم، والخير أو الشر، أي اختيار أن نكون مع الرحمن أو الشيطان، ومن جنود الحق أو من جنود الباطل: ﴿لا إكراهَ في الدين قد تبينَ الرشدُ من الغيّ﴾[١٧].

﴿وقلِ الحقُّ من ربّكم فمن شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فليكفرْ﴾[١٨].

تلك هي الصفات الجديدة التي تؤهل آدم المصطفى ليقوم بمهمته الجديدة، وتلك هي الصفات التي بها استحق آدم أن يسجد له الملائكة جميعهم.

هل تعتقد أن الله ظلم الملائكة بذلك؟ إن الله لا يظلم مثقال ذرة. وإن منطق الله هو دائماً منطق الحق. والحق أن الملائكة جميعاً خلقوا بمشيئة سابقة من الله، ولا يستطيعون أن يفعلوا شراً أو يرتكبوا خطأً أو معصية، فقد نزههم الله من ذلك بالخلق.

انطلاقاً من هذه الحقيقة نرى أنه لم يكن للملائكة أي فضل ذاتي في عدم الوقوع في المعاصي، لأن الله خلقهم بمشيئته منزهين عن المعصية، وليست لديهم القدرة على فعلها أصلاً. فكيف يفضلهم الله وهم مخلوقات لا فضل لها بذواتها؟ لذلك نرى الملائكة

---

(١٧) سورة البقرة: ٢٥٦ (١٨) سورة الكهف: ٢٩

كلهم يسجدون لآدم، ولم يعص أمرَ الله أحد منهم مطلقاً، ولا يمكن عقلياً أن يعصي منهم أحد، لأنهم لا يملكون القدرة على العصيان، فهو غير مخلوق فيهم لأنهم لا يملكون حرية الإرادة.

وأذكر أني عندما كنت في مرحلة الطفولة، وقبل الشباب، كنت أتلقى الدين عن طريق والدتي وجدتي وجدي الذين كانوا يقصون علي قصص الأنبياء وقصة آدم، فكنت أستغرب كيف عصى إبليس وهو رئيس الملائكة كلهم (هكذا كانوا يشرحون لي ويبينون) وكان هذا التناقض يؤرقني، علماً أنهم كانوا يرددون أن الملائكة لا تفعل الشر، ولا تعصى ربّ العالمين، فكنت أتساءل تساؤل الطفل خشية أن أقع في الكفر: إذاً كيف عصى إبليس وهو رئيس الملائكة؟ إلى أن كبرت وقرأت القرآن فعرفت أنه من الجن ولم يكن من الملائكة، ثم عندما درست كتب أهل الكتاب فوجئت أني وجدت المصدر الأساسي الذي منه دخلت فكرة إبليس رئيس الملائكة، فكتب أهل الكتاب لا تذكر أن إبليس من الجن بل هو فيها رئيس الملائكة، والكبار عندهم لا زالوا يعانون هذا التناقض الذي عانيته وأنا طفل.

وما دفعني إلى الحديث في موضوع صفات الإنسان والخوض فيه هو رغبتي في أن ألفت نظر الناس، الذين يعتقدون خطأ، أن الآيات في القرآن التي تتحدث عن أخطاء أهل الكتاب موجّهة من الله تعالى لأهل الكتاب، وليست موجهة إلينا نحن المسلمين، لأننا في زعمهم منزهون عن الخطأ لأننا أسلمنا، وذلك وهم كبير خلقناه نحن وحدنا دون غيرنا، ويجب أن نتحمل نتائج ذلك الوهم وحدنا أيضاً من دون غيرنا.

إن كتاب القرآن هو كتاب المسلمين وحدهم دون سواهم. وهو مقدس عندهم دون سواهم، فليس من أهل الكتاب أو غيرهم من يتبعه أو يعنى به، أو يقرؤه، فالمقصود بالتذكير بآيات القرآن وأخطاء أهل الكتاب هم نحن المسلمين أولاً، تلك حقيقة لا جدال فيها بدليل أن آيات القرآن الكثيرة تبرهن ذلك لكل من شاء أن يتعرّف حقائق القرآن التي لا تعد ولا تحصى.

ومن صفات الإنسان وطبائعه المشتركة بين البشر صفة يهمنا أن نتعرفها، وهي:

١ ـ الميل للتأليه:

فهناك ميل طبيعي لدى الإنسان لعبادة محبوبه، وخاصة إذا كان هذا المحبوب يتصف بصفةالغياب المادي والجسدي ولا وجود له إلا في الذاكرة أو الخيال.

والقصص على ذلك كثيرة عند كل الشعوب والأمم. مثل قيس وليلى عند العرب، وجميل بثينة، وحسن ونعيمة عند المصريين، وروميو وجولييت عند الغربيين، ففي تلك القصص نجد صفة مشتركة لا تغيب عن أي قصة منها، وهي أن الحب ينمو ويكبر في الخيال دون أن يكون له وجود واقعي على الأرض والحياة، فليس منهم من تزوج، وأنجب أطفالاً وبقيت عنده ليلى أو بثينة أو نعيمة أو جولييت، وهو ما وقع للبشر تجاه الأنبياء والرسل خاصة بعد موتهم، فلشدة تعلق الناس بهم مالوا إلى التنزيه وأسبغوا عليهم الأوصاف الفائقة المتجددة حباًبهم، فإذا لم تكبح بل ترك الناس على هواهم في المبالغة بلا حدود؛ انتهى بهم الأمر إلى التأليه، ونحن المسلمين لسنا من طينة أخرى غير طينة البشر تعصمنا عن الوقوع في تلك الخطيئة، ولولا تذكير القرآن الدائم للناس بأن الرسول محمداً ﷺ هو عبد الله، وأنه من البشر، وليست له أي صفات إلهية على الإطلاق لوقع المسلمون في مثل ما وقع فيه غيرهم بيسر، وبخاصة في عصور الانحدار الإسلامي، وخلال فترة سحيقة من الزمن، امتدت ألف سنة، دون أن يظهر فيها أدنى ملامح للنور، عصور كلها ظلمات فوق ظلمات، ارتكب الناس فيها أغلاطاً كثيرة فاحشة بحق ديننا وبحق أنفسهم، جهلاً وغفلة، وبنيّاتٍ حسنة أحياناً، لكن ذلك كله لا يعدّ عذراً كافياً لبقائنا نحن المسلمين تحت ذلك الركام الهائل من الأوهام، ونحن نعيش في القرن العشرين. إن نبشه اليوم وتسريبه لشبابنا عن قصد وخبث لا بدّ أن ينتهي إلى مصيبة تجرّ على الإسلام والمسلمين مصائب، فليس من المستحسن ونحن نعيش في القرن العشرين، أن نهيء لأطفالنا وشبابنا، الذين سيكونون قدوة للمسلمين من بعدنا، مصادر للفكر، لمواجهة حقائق الكون، تعود إلى فترة عصر الظلمات، التي دامت ألف سنة وأكثر، ونقول لهم: أبشروا، تعلموا من هذه المصادر نور الإسلام والحق، في حين أنها لا تحوي سوى أوهام وأدوية مسكّنة لآلام المسلمين المستعينين بالصبر ثم الصبر ثم الصبر، ولا شيء غير الصبر، والدعاء بالخير والشر ـ بالخير لنا وبالشر على أعدائنا، ونسيان العمل والعلم، والنشاط والرياضة تحت أشعة الشمس الحقيقية، وتحت نور الله الحقيقي باتباع منهج الله في القرآن. وفاتهم أن الدعاء وحده من دون عمل يدخل في باب التمني وهي من أفعال الشيطان. في حين أن الدعاء مع العمل إنما يدخل في باب الرجاء وهي من أفعال الرحمن.

٢ ـ الميل إلى تنزيه من نحب وبما أننا نحب أنفسنا ضمناًأيضاً نميل إلى تنزيه الذات:

من صفات الإنسان الطبيعية أيضاً الميل لتنزيه من يحب من الناس، سواء كانوا على قيد

الحياة كالأساتذة ومشايخ الطرق، وغالباًما تكون علاقتنا بهم محدودة، ممّا يسمح للوهم والخيال بتضخيم شأنهم، في حين لا تسمح صلتنا الدائمة بآبائنا الذين نعيش باستمرار معهم أو أمهاتنا وزوجاتنا بمثل هذه المبالغة، لأن مجال الخيال عندها يصبح ضعيفاً، أما إذا سافر أبونا أو غاب أو مات فيمكن أن نسبغ عليه من خيالنا صفات وهمية، وكذلك القدماء الذين عاشوا في عصر محبب إلينا جميعاًمثل عصر الرسول محمد ﷺ وعصر صحابته الكرام رضي الله عنهم، وعصر تابعيهم بإحسان، فهؤلاء بسبب بعدهم عنا، ولحبنا العظيم لهم يدخلون ضمن لائحة من نحب أن ننزهم من أخطائهم، هذا يحصل من المسلم بلا شعور، وأضرب لذلك مثلاًحقيقياً ليس غايتي منه نقد الكاتب، لا سمح الله، فنحن أغلب المسلمين نفعل ما فعله دون شعور منا لوجود ذلك الميل الذاتي فينا.

والمثل مستمد من كتاب (السنة)(*) للدكتور الشيخ مصطفى السباعي يقول: (لا يبقى بعد هذا شك في أن الكذب لم يكن على عهد رسول الله من الصحابة، ولا وقع منهم بعده، وأنهم كانوا محل الثقة فيما بينهم لا يكذّب بعضهم بعضاً).

وهذا هو الميل إلى التنزيه الذي قصدت أن أبينه، فقد جعلهم المؤلف ملائكة دون شعور منه.

وأذكر مما قرأته عن المسيح في كتب أهل الكتاب القصة القصيرة الآتية: ولأن كتبهم حصل فيها التحريف فلا نستطيع أن نجزم بصحة ما فيها فعلاً أو خطئه، فالصحيح فيها ما زال قائماً، ولكن تمييزه عسير، لا يصل إليه إلا الله وحده علام الغيوب، تقول القصة باختصار: إن اليهود أتوا إلى المسيح يريدون حكمه على زانية ويطلبون رجمها، فقال لهم: إن رجمها حق لكن فليرجمها من كان منكم بلا خطيئة أولاً فانسحب الجميع دون رجم الزانية. وما يهمني شخصياً من سرد هذه القصة قوله: (من كان منكم بلا خطيئة) فمن منّا نحن البشر في عصر الرسول وفي عصرنا وفي كل عصر من العصور، من منا بلا خطيئة؟ أهو الرسول؟ نعم لأنه معصوم من الله تعالى، ولو شاء الوقوع في الخطيئة لصرفه الله عنها. علماً أنّ ما كان معروفاً من خصائص الرسول بلا مبالغة، حتى قبل تكليفه من الله تعالى بالرسالة، الميلُ للحقّ، والابتعاد عن الأوهام، والتحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن مرذولها، لكنه مع كل ما ذكرناه يبقى إنساناً لديه كل الرغبات والشهوات الإنسانية. وهذه حقيقة لا نستطيع نكرانها أبداً.

(*) السنة: د. مصطفى السباعي ص ٧٨

ومن منا، صغيراً كان أم كبيراً، شيخاً كان في مسجد أو أباً لأطفال، يعمل في معمل أو مزرعة، من كل أصناف البشر من أكبر الناس إلى أصغرهم، من منا لا يخطىء؟ ومن منا لا يكذب؟ ولو كان من الكذب الأبيض؟ ولكي نتفهم هذه الحقائق بصورة أمثل لا بد من تفصيل:

فالله تعالى عندما خلق البشر كان يعرف مستوى قدراتهم، أي أن الله يعلم ما يطيقه وما لا يطيقه ابن آدم، ويعلم أن كل إنسان على الإطلاق معرض للخطأ، وكل إنسان على الإطلاق معرض للوقوع في الكذب، وكل إنسان معرض لأن يزني، وكل إنسان معرض لأن يقتل (ولدينا دليل من القرآن فقد ارتكب موسى نبي الله القتل قبل رسالته) ولولا وجود تلك الصفات في الإنسان أصلاً لما ركز الله على التمسك بالصراط المستقيم الذي هو الوصايا العشرة عند أهل الكتاب، وهي مذكورة عندنا تحت أسماء مختلفة في القرآن، مرّة بأنها من آيات الحكمة، ومرة بأنها هي الفرقان في سورة الفرقان، ومرة على أنها الصراط المستقيم.

مَن منا من لا يكذب على زوجته وأولاده وأصدقائه وأحبائه كذبات يسميها تجاوزاً كذبات بيضاء؟ أو بمعنى أوضح كذبات المقصود منها الخير، مع أنها قد تضر كثيراً مقابل الكذبات السوداء المقصود بها الشر، فكلنا على الإطلاق نرتكب الكذب تحت اسم جديد هو الكذبة البيضاء. ثم نبرّئ أنفسنا سلفاً فنقول: إنما الأعمال بالنيات، فهل تظنّ أنه خلا من المسلمين في أي عصر بدءاً من عصر الرسول إلى الآن مَنْ لم يرتكب كذبات بيضاء، لنعد إلى عهد الصحابة من خلال حديث للرسول يروى بأشكال مختلفة بعضهم يرويه بنصه الآتي: «من قال عليّ ما لم أقل فقد تبوّأ مقعده من النار» ورواية عن عثمان بن عفان، مع أن عثمان بن عفان من المقلين جداً في الرواية عن الرسول، علماً أنه من الذين رافقوه في كل مراحل رسالته وسمعوا منه كثيراً، وحديثه لا يعطي مجالاً حتى للكذبة البيضاء على الرسول ﷺ، وللحديث رواية أخرى عن عبد الله بن الزبير ونصّه: «مَن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار» وهذه الرواية أيضاًلا تسمح بأي كذبة بيضاء على الرسول، إذ لم يروَ عن عبد الله بن الزبير إلا القليل جداً من الأحاديث بينما روي عن أنس بن مالك أنه سمع الرسول يقول: «من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار» وثمة روايات أخرى للحديث، مثل: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، «من روى عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

إن تنوع النص في هذه الروايات الثلاث يسمح لراوي الحديث أن يجد مجالاً للتحريف أو للكذبة البيضاء بحجة النية الحسنة، وبحجة خدمة المسلمين. وهو يسوّغ فعلته بعدم تعمد الكذب على رسول الله، لا سمح الله، وإنما كانت غايته خدمة الإسلام والمسلمين. إلى آخر تلك المسوغات، لذلك نجد أن الذين رووا تلك الروايات الثلاث كانوا من المكثرين في الحديث عن الرسول، وأنا لا أقول: إنهم كذبوا لا سمح الله، لكنّي أذكّر بأنهم أناس طبيعيّون مثلنا يمكن أن يقعوا في الخطأ بحسن النية، وتحت اسم الكذبة البيضاء، كما نقع نحن فيها كل يوم ولا سيما إذا كانت مدعومة بشعار: إنما الأعمال بالنيّات.

من منا لا يخطىء؟ ومن منا لا يغتاب أخاه بما لا يحبّ أن يقوله عنه في حضوره؟ ومن منا لا ينسى إنساناً يعرفه فيلجأ إلى تذكر اسمه بوصفه لمن يحدثهم عنه كأن يقول: إنه ذلك الرجل القصير الأصلع الذي يعرج في مشيته، أو يلثغ بكلامه، فيكون قد وصف أخاه بما يكره، وسوف تجد من السامعين من يوصله إليه أيضا. لذلك فإن الناس سواء في عصر الصحابة أم في عصرنا هم الناس نفسهم الذين خلقهم الله، وهم سواء في هذا بحكم صفاتهم المشتركة، والله يدرك النقص في البشر ولذلك يقول في الآية الكريمة: ﴿إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنهون عنهُ نُكفِّرْ عنكمْ سيئاتِكم ونُدخلْكم مدْخلاً كريماً﴾[١٩] فالله تعالى يعلم أننا لا نستطيع أن نتجنب كل الصغائر، لذلك يشترط علينا بإن الشرطية ويقول: إن استطعتم أن تجتنبوا الكبائر فسوف نكفر عنكم الصغائر وندخلكم مدخلاً كريماً. ولا أعتقد أن المدخل الكريم هو نار جهنم، فليس من كرم الله أن يفعل ذلك.

والكبائر التي ينهى عنها على ما وجدناها في بحث خاص في هذا الكتاب هي مخالفة الوصايا العشر، وهي مخالفة آيات الفرقان وبنود الصراط المستقيم ولسوف أحاول في كتابي هذا أن أثبت بالآيات القرآنية أن كثيراً من أوهام المسلمين كان سببها تلك المخالفات التي أحاول شرحها في هذا الفصل.

٣ ـ الميل لاختلاق صفات جديدة لمن نحب وقدرات لهم فوق مستوى البشر لإظهار شأنهم:

وهذا الميل أيضاً من الميول البشرية التي تبرز في سلوك الناس تعبيراً عن تقديرهم من يحبونه، وقد مارسه الناس قبلنا، وفعلناه نحن أيضاً بحكم طبيعتنا البشرية، لكن كل ما

---

(١٩) سورة النساء: ٣١

فعلناه كان تحت تأثير هذه الميول الثلاثة من الأوهام، ولا يمكن أن يدخل في باب العلم والحقائق، وعندما نريد نحن المسلمين أن نبدأ بداية جديدة نبني عليها أساس انطلاقة جديدة نحو مستقبل إسلام حقيقي، علميّ وواقعي، يناسب العصر وكل عصر، نستطيع أن نواجه به العالم، ونكسب به الدنيا والآخرة، لا بد لنا من إزالة الصدأ القديم والغبار المتراكم خلال مئات من السنين الذي غطى عقيدتنا الإسلامية، لنظهر جوهرها الحقيقي الذي لا يمكن أن تكذبه الأبصار، ونستطيع آنذاك أن نبدأ بداية جديدة ـ أما أن نتوهم أنّ ما معنا الآن يصلح لأن نبدأ به انطلاقتنا، فهو الخطأ والكلام المتناقض، ولو كان ما تحدّر لنا من تلك العصور المظلمة يصلح لنهضتنا فلماذا تأخرنا؟ وقد ذكّر الله بذلك في قوله: ﴿ذلكَ بأنَّ اللهَ لمْ يكُ مغيّراً نعمةً أنعَمها على قومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[٢٠].

ودلالة الآية أوضح من الشمس، فإننا حين نغير ما بأنفسنا من الحق إلى الباطل ومن العلم إلى الجهل فإن الله يحجب نعمه كلها عنا أو يهبنا بدلاً منها ما يقابل أو يناسب جهلنا وباطلنا ووهمنا، وهي الحال التي نحن فيها الآن، أمّا إذا أردنا التغيير حقيقة، فيجب أن نستبدل بما عندنا الآن الحق والحقيقة والعلم، كي يغيّر الله حالنا، بما يلائم سعينا فنحظى برعايته بالتقدم والحضارة والسعادة في الدنيا والآخرة، وقد اشترط علينا أن نكون نحن البادئين فإن فعلنا أمدّنا بعونه، وهو أمرٌ مرتبط بنا بحكم أنه وهبنا حرية التصرف والعقل ولم يشأ أن يجعل مشيئته تسبق مشيئتنا، والله يفعل ما يريد وينفّذ ما يشاء، ولكن فعلنا لا جدوى فيه إذ لم يكن التزاماً تاماً مِنّا، وتقيداً بقوانينه ونظمه التي بلغنا إياها في القرآن:

﴿إنَّ اللهَ لايغيّر ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بِأَنفسِهِم﴾[٢١].

صدق الله العظيم.

(٢٠) سورة الأنفال: ٥٣ (٢١) سورة الرعد: ١١

٦ ـ صفات الشيطان:

أين يعيش الشيطان؟ لنبحث أولاً عنه في داخل الإنسان، هل يعيش الشيطان في داخلنا؟ كل ما نعلمه أن ليس في داخل الإنسان سوى النفس.

ولكن ماذا نعرف عن النفس؟

يقول تعالى: ﴿ونَفْسٍ وما سَوّاها * فألهمَها فُجورَها وتَقواها﴾[1] وقد مرّ بنا سابقاً الحديث في أسلوب الخلق، أنه يقوم على الزوجية وهي قانون ثابت في كل مخلوقاته، سواء أكانت خلقاً من مادة أم أشياء مجردة مثل الخير والشر. والله تعالى يبين في الآية أنه وضع في النفس الإنسانية الاستعداد لفعل الخير، والاستعداد لفعل الشر، وهو أمر واضح في نصها، فالله هو الذي ألهم النفس فجورها وتقواها، وحين يقدم الإنسان على القتل مثلاً فإن نفسه هي التي تدفع به لارتكابه، يقول تعالى: ﴿فَطَوّعت له نَفسُهُ قتلَ أخيه فقتَلَه فأَصبحَ من الخاسرين﴾[2] فالنفس إذاً تستطيع أن تأمر الإنسان بفعل السوء وارتكاب جميع ما نهى عنه الله، ومنها الكبائر مثل الشرك والقتل والزنى والفواحش والكذب، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والإساءة للوالدين، والغش والخيانة، التي ذكرت في الصراط المستقيم. ولو أنصف الإنسان لتوصل وحده إلى أن كل ما فعله كان بسبب نفسه الأمارة بالسوء. قال تعالى بلسان يوسف: ﴿وما أبرّىءُ نفسي إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ إلاّ ما رحِمَ ربّي﴾[3] والله سبحانه وتعالى الذي خلقنا يعرف كل ذلك فهو الخالق المصمّم، المنفذ كل ذلك، ولكنه فَعَلَ ذلك لهدف في نفسه تعالى ـ وهو اختبارنا ـ وصرّح بذلك الهدف في قوله: ﴿ونبلوَكُم بالشرّ والخير فِتنةً وإلينا تُرجعون﴾[4] يريد الله تعالى بذلك أن يعرف مَن منا سيختار الخير والإيمان والحق بحريته وإرادته طريقاً وأسلوباً في الحياة الدنيا، تاركاً كل الإغراءات والشهوات الدنيوية مجاهداً نفسه في حياته كلها مبقياً نفسه مع الله على الدوام، ومن منا سيتهافت على لذاته الدنيوية وينسى الله والإيمان والخير، فلا يتبع إلا نفسه الأمارة بالسوء، وبحكم أننا سنرجع إليه يوم القيامة فسيفوز أولئك على هؤلاء، ليجازى كلّ فريق بما هو أهل له. وهذا ما يخبرنا الله به: ﴿فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السّعير﴾[5] وقوله تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضّلالةُ﴾[6].

---

(١) سورة الشمس: ٧ ـ ٨ — (٣) سورة يوسف: ٥٣ — (٥) سورة الشورى: ٧

(٢) سورة المائدة: ٣٠ — (٤) سورة الأنبياء: ٣٥ — (٦) سورة الأعراف: ٣٠

وفي ذلك اليوم سوف يُحضر الله ما يُشهد على كل نفس ما قامت به من عمل شراًكان أم خيراً: ﴿يومَ تَجد كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ مُحْضَراً وما عمِلَتْ من سوء﴾[٧] لكي يجازي كل نفس بما تستحقّ دون ظلم: ﴿ليجزيَ اللهُ كلَّ نفسٍ ما كسَبَتْ إنّ اللهَ سريعُ الحساب﴾[٨]. وقد يسأل متسائل لماذا فعل الله ذلك؟ ألم يكن قادراًعلى أن يخلق كل النفوس ويهديها الطريق؟ والله تعالى يجيب عن ذلك التساؤل فيقول: ﴿لو شئنا لأتَيْنا كُلَّ نفسٍ هُداها﴾[٩] ولو أقرّ الله ذلك لكان الفضل في إيمان الإنسان لله وحده وليس للإنسان الذي قاوم كل الشهوات والمغريات أو هوى النفس الأمارة بالسوء، واختار الإيمان كفاحاً وحباً بالله وامتثالاً بما أمر، فيرجع يوم الحساب وهو فخور بنفسه بينما يجد إلى جانبه الذين اتبعوا الشهوات وأطاعوا النفس الأمارة بالسوء يقولون: ﴿أن تقولَ نفسٌ ياحَسْرتى على ما فرّطتُ في جَنْبِ الله﴾[١٠].

فهو يستحق ما ينال من جزاء حَسَن وجنة ورضوان: ﴿وأَما من خافَ مقامَ ربه ونهى النفسَ عن الهوى فإنّ الجنةَ هي المأوى﴾[١١] والله تعالى لا يطالبنا في سبيل ذلك كله بالمستحيل، فهو يذكرنا على الدوام ويقول لنا: ﴿لا يكلّف اللهُ نَفساً إلا وسعَها﴾[١٢]، ﴿لا نكلّف نَفساً إلا وُسعَها﴾[١٣].

في كل تلك الآيات وجدنا أن الله خلق في الإنسان نفساً، وأعطاها قوّتين باتجاهين مختلفين ـ قوة باتجاه الخير وعمل الخير، اصطلح عليه الناس بالخير أو الرحمن، وقوة باتجاه الشر وعمل الشر اصطلح عليه الناس بالشر أو الشيطان.

ترى هل نجد شيطان النفس هذا في القرآن؟

﴿ولكن قَسَت قلوبُهُم وزَيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يَعمَلون﴾[١٤].

وتبين لنا مما سبق من الآيات أن الذي كان يزين للإنسان فعل الشرور كلها هو النفس الأمّارة بالسوء.

والنفس هي التي تشتهي وترغب: ﴿ولكم فيها ما تَشتهي أَنفسُكم ولكُم فيها ما تدّعون﴾[١٥].

---

(٧) سورة آل عمران: ٣٠
(٨) سورة إبراهيم: ٥١
(٩) سورة السجدة: ١٣
(١٠) سورة الزمر: ٥٦
(١١) سورة النازعات: ٤٠
(١٢) سورة البقرة: ٢٨٦
(١٣) سورة الأنعام: ١٥٢
(١٤) سورة الأنعام: ٤٣
(١٥) سورة فصلت: ٣١

والنفس هي التي تهوى: ﴿إنْ يتّبعونَ إلا الظنَّ وما تَهوى الأنفُسُ﴾[١٦].

والنفس هي التي تسول السوء: ﴿وكذلك سوَّلتْ لي نَفْسي﴾[١٧].

والنفس هي التي توسوس لصاحبها وتدفعه إلى الشر: ﴿ولقد خَلقنا الإنسانَ ونَعلم ما توسوسُ به نفسُه﴾[١٨].

والنفس هي شيطاننا: ﴿ومنْ يتبعْ خطواتِ الشيطانِ فإنّهُ يأمرُ بالفَحشاء والمنكرِ﴾[١٩].

أليست الشهوات إذاً من عمل النفس الأمارة بالسوء؟: ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتَنبوه﴾[٢٠].

والشيطان هو الذي يزين للنفس أَعمالها: ﴿وإذْ زينَ لهم الشيطانُ أَعمالَهم﴾[٢١].

﴿فوكزَهُ موسى فقضى عليه قالَ هذا من عملِ الشيطان﴾[٢٢].

أليس من عمل النفس أن تسول للإنسان قتل أخيه؟.

من كل ما ذكرنا نكتشف أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء هما اسمان مختلفان لفظاً، متفقان معنى، أو أنهما اسم لشيء واحد هو النفس الأمارة بالسوء.

فالإنسان الذي يتجه للشر بكلّيته وينغمس في الشهوات ويفعل المعاصي وينسى الخير كله كأن لا وجود له يتحول إلى شيطان وهذا يؤكده الله في الآيات، يقول تعالى: ﴿وكذلكَ جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنسِ والجن﴾[٢٣]، ﴿من شرِّ الوسواسِ الخناسِ * الذي يوسوسُ في صدورِ الناسِ * من الجنّة والناس﴾[٢٤].

أي أن الشياطين الذين يوسوسون في صدور الناس هم من شياطين الجن وشياطين الإنس.

وندرك مما تقدّم أنّ شيطان الإنس هو الإنسان الذي باع آخرته بدنياه أو أنكر أن تكون هناك آخرة. (إنما حياة واحدة وهي الحياة الدنيا فانهل منها ما استطعت يا نفس وأقبل عليها لا يصدك عنها وازع ولا ضمير) فهو يتفنّن بالإتيان بالمعاصي كلها ظلماً وقتلاً وفجوراً وفاحشة، ولا يوفّر على نفسه منها شيئاً، ومثل هذا الإنسان لا يمكن أن يقال عنه إلا شيطان مريد.

---

(١٦) سورة النجم: ٢٣
(١٧) سورة طه: ٩٦
(١٨) سورة ق: ١٦
(١٩) سورة النور: ٢١
(٢٠) سورة المائدة: ٩٠
(٢١) سورة الأنفال: ٤٨
(٢٢) سورة القصص: ١٥
(٢٣) سورة الأنعام: ١١٢
(٢٤) سورة الناس: ٤ ـ ٥ ـ ٦

هذا هو شيطان الإنس، فما هو شيطان الجن؟ الجن مثلنا مخلوقات أرضية يخبرنا الله تعالى بأنه خلقها من النار: ﴿والجانَّ خلقناهُ من قبلُ من نارِ السَّمُوم﴾[٢٥]، ﴿وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نار﴾[٢٦].

ونستدل مما ورد في القرآن أنهم يتزوجون، وأن لهم ذرية، بدليل الآية الكريمة: ﴿فسجدوا إلا إبليسَ كانَ من الجنِّ ففسقَ عن أمرِ ربّهِ أفتتّخذونَه وذريتَهُ أولياءَ من دوني وهمْ لكم عدوٌ بئسَ للظالمينَ بدَلا﴾[٢٧]، ﴿فيهنّ قاصراتُ الطرفِ لم يطمِثْهُنّ إنسٌ قبلَهم ولا جانّ﴾[٢٨].

وهذه الآيات دليل على أنهم يتزاوجون، ولهم شهوات جنسية مثلنا، مثلما تدل على أن الله كلفهم، مثل الإنس، بدليل أنهم أيضاً من المخلوقات التي أُعطيت الحرية في اختيار طريق الخير أو الشر، ولكي لا يظلمهم الله تعالى بما لا يعلمون فقد أرسل لهم رسلاً تبلغهم رسالات ربهم كالبشر، بدليل الآية: ﴿يا معشَرَ الجنِّ والإنسِ ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصّونَ عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾[٢٩] فالآية تشير بوضوح إلى وجود رسل إلى الجن كالرسل إلى الإنس. وأن الله تعالى سوف يحاسبهم يوم القيامة، وسوف يعاقبون ويثابون مثلنا، وقسم منهم سوف يدخل الجنة، وآخر سوف يدخل النار، بدليل الآية: ﴿قال ادخلوا في أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنسِ في النار﴾[٣٠].

ويوم القيامة سوف يكون الجن والإنس في الحساب: ﴿فيؤمئذٍ لا يُسأل عن ذَنبه إنسٌ ولا جان﴾[٣١]، ﴿ولقد ذرأنا لجنهمَ كثيراً من الجنّ والإنسِ في النارِ﴾[٣٢].

وأعتقد أن الجن يسمعون الإنس ويرونهم، ولو كانت هذه القدرة غير متوافرة كثيراً لدى الإنس بدليل الآيات الآتية: ﴿وإذ صَرَفنا إليكَ نفراً من الجنّ يستمعونَ القرآنَ﴾[٣٣]، ﴿قل أوحيَ إليّ أنه استمعَ نفرٌ من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عَجَباً﴾[٣٤].

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن قسماً منهم أسلم وآمن بدليل أنهم قالوا: ﴿يهدي إلى الرشدِ فآمنا به ولنْ نشركَ بربّنا أَحداً﴾[٣٥].

---

(٢٥): سورة الحجر: ٢٧
(٢٦) سورة الرحمن: ١٥
(٢٧) سورة الكهف: ٥٠
(٢٨) سورة الرحمن: ٥٦
(٢٩) سورة الأنعام: ١٣٠
(٣٠) سورة الأعراف: ٣٨
(٣١) سورة الرحمن: ٣٩
(٣٢) سورة الأعراف: ١٧٩
(٣٣) سورة الأحقاف: ٢٩
(٣٤) سورة الجن: ١
(٣٥) سورة الجن: ٢

وقسم منهم كانوا قد أصبحوا من أهل الكتاب فتركوا ذلك وأسلموا: ﴿وأنه تعالى جدُّ ربّنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولَداً * وأنه كانَ يقولُ سفيهُنا على اللهِ شطَطاً * وأنّا ظنَنا أن لن تقولَ الإنسُ والجنُ على اللهِ كذبا * وأنهُ كانَ رجالٌ من الإنسِ يعوذونَ برجالٍ من الجنّ فزادُوهُم رَهَقاً * وأنهم ظَنّوا كما ظَنَنْتم أنْ لَنْ يَبعث اللهُ أحداً﴾[٣٦].

﴿وأنّا منّا الصالحونَ ومنا دونَ ذلك كُنّا طرائقَ قِدَداً * وأنا ظننّا أن لن نُعجزَ اللهَ في الأرضِ ولنْ نعجزَه هَرباً * وأنّا لمّا سمعنا الهدى آمنا به فمنْ يؤمنْ بربه فَلا يخافُ بخساً ولا رَهَقا * وإنّا منّا المسلمونَ ومنّا القاسِطون فمن أسلَمَ فأولئك تحرَّوْا رَشَداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنمَ حَطَباً﴾[٣٧].

من كل ما تقدم نستنتج أن الجن مخلوقات أخرى للّه، سبق أن خلقهم الله على الأرض قبلنا وهم مكلفون مثلنا بدليل الآية: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾[٣٨].

فالجن مثلنا أرسل الله لهم رسلاً منهم يهدونهم إلى دين الإسلام، إذ لا دين عند الله سوى الإسلام يهدي إليه، وكان منهم اليهودي ومنهم المسيحي ومنهم المسلم ومنهم الكافر، وكانت لهم شيعهم وطوائفهم واختلافاتهم مثلنا.

ومنهم من اتبع طريق الرحمن، ومنهم من كفر واتبع الشهوات، وأصبح شيطاناً من الجن، ومنهم من استكبر عن السجود لآدم وهو إبليس فتحول أيضاً إلى شيطان.

فهمنا من كل ما تقدم أن من الإنس من يتحول باتباع طريق النفس الأمارة بالسوء إلى شيطان، وكذلك فهمنا أن من الجن من يتحول باتباع طريق النفس الأمارة بالسوء إلى شيطان من الجن، ولذلك لا فرق بين الشيطانين، إلا بكون شيطان الإنس أخطر على الإنسان.

والآن بعد أن فهمنا كل ذلك يهمنا أن نعرف كيف يتم الاتصال بين شياطين الجن وشياطين الإنس: ﴿شياطينَ الإنسِ والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرفَ القولِ غروراً ولو شاءَ ربّكَ ما فعلوه فذرهُم وما يَفترون﴾[٣٩].

في هذه الآية يوضح لنا الله كيف يوحي بعضهم إلى بعض علماً بأن الجن لديهم القدرة على رؤيتنا، وإن كنا لا نستطيع أن نراهم نحن، بدليل الآية الكريمة: ﴿إنه يراكُم هو وقبيلُه من حيثُ لا ترونَهم إنّا جعلْنا الشياطينَ أولياءَ للذينَ لا يؤمنُون﴾[٤٠].

---

(٣٦) سورة الجن: ٣ - ٧
(٣٧) سورة الجن: ١١ - ١٥
(٣٨) سورة الذاريات: ٥٦
(٣٩) سورة الأنعام: ١١٢
(٤٠) سورة الأعراف: ٢٧

فإذا كان الجن يستطيع أن يرى الإنسان رأيَ العينِ ويستطيعُ أن، يوحي إليه فاتصاله بالذين لا يؤمنونَ ممكنٌ ميسور. لذلك فالطريق ممهدة لاجتماع الأشرار من كلا الفئتين، أي يمكنهم الائتلاف وإنشاء الأحزاب بين شياطين الإنسِ والجنّ. ولا بدّ هنا من ملاحظة أخرى، فعندما يتحدث الله عن الشرّ في الإنسِ والجنِ يرد ذكر الإنس قبل الجن، ربّما لأن شيطان الإنس أقوى وأقدر على فعل الشر من شيطان الجن، لتوافر أدوات الشر عند الإنسان أكثر منها لدى الجن، فيفتن في المعاصي والظلم، والله أعلم. وفي يوم الحشر يقول الله تعالى لمعشر الجن: ﴿ويوم يحشرُهم جميعاً يا معشرَ الجنّ قد استكثرتم من الإنس﴾(٤١).

وهكذا نرى أن الله يتحرى عن شياطين الإنس والجن معاً من الذين يعاندون ويكفرون ويقول تعالى: ﴿قل لئن اجتمعتْ الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله﴾(٤٢).

وقد علمنا من الله تعالى أنه مرت عهود استخدم فيها الإنسُ الجنَّ في العمل وذلك في قوله: ﴿وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنّ والإنسِ والطيرِ فهم يُوزَعُون﴾(٤٣)، ﴿ومنَ الجنّ من يعملُ بينَ يديهِ بإذنِ ربّه﴾(٤٤).

وندرك أن الشيطان الأساسي الذي يجب أن يخشاه الإنسان أول ما يخشى هو شيطانه الخاص: نفسه الأمارة بالسوء فإن ملك زمامها فلا خوف عليه من شياطين الجن كلهم، ولا سلطان لهم عليه، وقد طلب منا الله ألا نخشاهم، فقال: ﴿إنما ذلكم الشيطانُ يخوِّفُ أولياءَهُ فلا تخافوهُمْ وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾(٤٥): ﴿إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ إلا من اتبعك من الغاوين﴾(٤٦).

والله تعالى يحذرنا على الدوام من شياطين الجن والإنس وألا نقع في حبائلهم ويعلمنا أن إبليس قد حقد على كل بني البشر لأن الله فضل آدم عليه:

﴿قال فبما أغوَيتَني لأقعدنَّ لهُم صراطَكَ المستقيم * ثم لأتينّهُم من بين أيديهم ومن خلْفهم وعن أيمانِهم وعن شَمائِلهم ولا تجدُ أكثرَهُم شاكرين﴾(٤٧).

﴿ويعلمُكُم ما لم تكونوا تعلَمون﴾(٤٨).

صدق الله العظيم.

---

(٤١) سورة الأنعام: ١٢٨
(٤٢) سورة الإسراء: ٨٨
(٤٣) سورة النمل: ١٧
(٤٤) سورة سبأ: ١٢
(٤٥) سورة آل عمران: ١٧٥
(٤٦) سورة الحجر: ٤٢
(٤٧) سورة الأعراف: ١٦ ـ ١٧
(٤٨) سورة البقرة: ١٥١

٧ ـ صفات المؤمن وصفات الكافر.

صفات المؤمن: صفات الرحمن:

ـ من أولى صفات المؤمن: الصدق، ولو كان ذلك الصدق يعارض مصلحته الشخصية أو مصلحة أهله وأقاربه وعشيرته الأقربين.

ـ الصفة الثانية للمؤمن: الأمانة، فهو لا يخون الأمانة أبداً لأنه يخشى الله ويعلم أنه إذا خان الأمانة خسر آخرته عند ربه.

ـ الصفة الثالثة: أنه إذا وعد أو عاهد أو دخل في اتفاقية أو شركة ووقع فيها عقداً يحترم كلمته وتوقيعه فيلتزم كل عقوده واتفاقياته من دون حاجة إلى حثه على ذلك أو حاجة إلى دفع من يتعامل معه للرجوع إلى قاض أو محام أو محكمة. فهو يحكم على نفسه قبل أن تحكم المحكمة عليه.

ـ الصفة الرابعة: أنه يسيطر على لسانه سيطرة تامة، فلا يجهر بفحش من القول، ولا يسمح للسانه أن يفوه بغيبة أو نميمة.

ـ الصفة الخامسة: المؤمن يصون نفسه من الوقوع في الحسد، فلا يثيره زميل أو قريب رَزَقَهُ الله فَضْلاً من مالٍ أو جاه أو عز.

ـ الصفة السادسة للمؤمن: أن يتخلق بقيم القرآن، وأن تطابق أعماله أقواله على الدوام، وأن تكون أفعاله تفوق أقواله، وألا يعد بأكثر مما يستطيع أن يفعل.

صفات الكافر: صفات الشيطان:

ـ من أولى صفاته: الكذب، فلا يقول إلا كذباً.

ـ الصفة الثانية الملازمة له: إذا اؤتمن خان لأن نفسه تأمره بالسوء ولا يستطيع أن يسيطر عليها أو يقاومها، فهي التي تقود كل رغباته.

ـ الصفة الثالثة: له أنه لا وعد ولا عهد، ولا كلمة له، وإن دخل في اتفاقية كتابية اختار من المحامين من كانت صفاته من صفات الشيطان ليتحايل له بما يخدم مآربه ونواياه الشيطانية، ويمكنه من أن يأكل حقوق الآخرين في حين لا يمكّن أحداً من نيل حقوقه منه.

ـ الصفة الرابعة: أنه يستخدم لسانه بحسب الظروف والأحوال، فيمثل الطيبة والسذاجة إذا لزم الأمر، ويلبس لباس الزهد والتقوى أيضاً إذا اقتضى الحال، وكل همه تحقيق أهوائه ورغباته في النصب والاحتيال على عباد الله.

ـ الصفة الخامسة: أنه يحلل ويحرم حسب أهوائه وميوله، ولا يخاف الله ولا يخشاه في كل الأحوال.

ـ الصفة السادسة: أنه يحسد كل الناس حتى أقرب الناس إليه فلا يستطيع أن يرى ذا نعمة أبداً.

ـ الصفة السابعة والأخيرة: إن أخلاقه هي أخلاق الشيطان ويسعده أن يقول الناس عنه محتال ومخادع، وتلك الصفات ترضي غروره وتسعده.

فإذا أحببت أن تطوف في أي بقعةمن الوطن الإسلامي الكبير لتعرف أهو مجتمع يعبد الله أم هو مجتمع يعبد الشيطان فلا تلتفت إلى عدد المصلين في المساجد، وإنما قس ذلك بالمثل السائدة في ذلك المجتمع، فإذا وجدت أن الصفات التي عددناها للمؤمن هي الصفات السائدة، وهي الصفات المحمودة لدى الناس، وهي الصفات التي يحاول الناس اكتسابها والاتصاف بها، فأنت ولا شك في مجتمع مؤمن، يحب الله والإيمان.

أما إذا وجدت أن الصفات التي يتحلى بها الأفراد هي صفات الشيطان، وليست من صفات الرحمن:. فأنت في مجتمع كافر ومشرك، ولو كان من تحكم عليه يلبس الجبة والقفطان، ويتزيّي بمظهر الرسول الخارجي، فما ذلك إلا مظاهر خداعة، وتمثيل بغيض، لأن وراءها نفساً شيطانية.

٨ ـ كيف يمكن للمسلم أن يفهم كتاب الله مجدّداً؟:

إذا شئت أن تفهم كتاب الله وتتمثله تمثلاً تاماًمن دون أن تلتبس عليك معانيه أو تضل الطريق فإليك النصائح الآتية وهي ليست مني وإنما من الله تعالى ومن كتابه العزيز.

أولا: عليك أن تنطلق في دراستك للقرآن وما كتب عن القرآن من مبدأ الشك، فكل ما تعلّمته أو سمعته من القرآن أو عن القرآن، من أهلك وأساتذتك وشيوخك وأصحابك قد لا يكون صحيحاً، فقد يكون سوء فهمك أو فهمهم، وعجزك أو عجزهم حجبا عنك الحقيقة، ألم يقل الله في كتابه تعالى: ﴿ما يعبدونَ إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾[1].

﴿أَوَلَوْ كان آباؤُهُم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدون﴾[2].

لأنك لو اتبعتهم دون أن تعلم أكانوا هم في ضلال أم على صراط مستقيم فإنك يوم القيامة سوف تحشر فرداً و تحاسب فرداً، فلن ينفعك إدعاؤك أنك كنت تتبع آباءك، فهم الذين ظلموك، والله تعالى ينبّهنا ألا نقع في تلك الخطيئة في الآيات الآتية:

﴿أجئتَنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ونذرَ ما كانَ يعبدُ آباؤنا﴾[3].

﴿أَوَلَوْ جئتُكمْ بأهدى مما وجدْتُم عليه آباءَكم﴾[4].

﴿وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدْنا عليها آباءَنا﴾[5].

﴿بل وجدنا آباءَنا كذلكَ يفعلون﴾[6].

﴿لتنذرَ قوماً ما أُنذرَ آباؤهم فهم غافلون﴾[7].

فالله ينصحنا في آياته ألا نقع في خطيئة من سبقنا من الناس، لأنهم ظنوا أنهم باتباعهم آباءهم قد فعلوا الصواب، وأنت تعلم ما وقع لأبي طالب عم الرسول وحاميه من المشركين عندما فضّل أن يبقى على ما كان عليه آباؤه ولم يتّبع الرسالة. فإذا كنت تظن أن الإسلام خلال السنوات الألف الماضية من عهود الانحدار الإسلامي قد بقي على حاله، وأن المسلمين ظلوا مسلمين في الدين والعقيدة السليمة فأنت واهم، بدليل ما آلت إليه حالتهم من ضعف وتخاذل، وفسق وفجور.

---

(١) سورة هود: ١٠٩
(٢) سورة البقرة: ١٧٠
(٣) سورة الأعراف: ٧٠
(٤) سورة الزخرف: ٢٤
(٥) سورة الأعراف: ٢٨
(٦) سورة الشعراء: ٧٤
(٧) سورة يس: ٦

أما إذا حكّمت عقلك والتمست لنفسك قناعة دينية تقوم على العقل وتدبر كتاب الله، من غير أن يجرفك التقليد أو التسليم فإنك لن تخسر شيئاً، فإن تبين لك أن آباءك كانوا على حق في ضوء ما درست ومحصت سلكت طرقهم وأنت أشد ثقة بالنفس، وإن تبين لك أنهم كانوا واهمين صوبت طريقك إلى ما يرضي الله فربحت تجارتك ولم تخسر شيئاً.

فهلمّ معي نبدأْ جولتنا في كتاب الله وآياته لنجعلها تنطق بالحقيقة دون أن نفتري أو نتقول على الله ما لا نعرف فالله أعلم بما يقول، والله أعلم بما يعني، وبين يدينا النص القرآني المنزل بلغة عربية يسّرها الله للناس، ليحفظوه ويفهموه، كل حسب استعداده، وتهيئة نفسه للفهم، ورغبته وجهده في تعليم نفسه، فمن العدل ألا يتساوى من قضى السنين الطويلة وهو يبحث عن الحقيقة والعلم الصحيح، والفهم، مع من تلقّى معارفه مسلّماً بها، مؤمناً أنها العلم الذي لا شك فيه، ومن العدل ألا يتساوى هذان أبداً فأحدهما إنسان أهمل نفسه، وترك العلم كلية، فظلّ جاهلاً، إن هؤلاء لا يستوون عند الله، وإلا كان ذلك ظلماً، والله نفى عن نفسه الظلم في آيات كثيرة وكتب على نفسه الرحمة.

ولكي نخرج من جولتنا في رحاب القرآن علينا أن نطرح جانباً كل ما كوّناه من آراء وأحكام خلال حياتنا عن الإسلام وأفكار الإسلام، ونقف على الحياد ونتحلى بالموضوعية والنزاهة ونقرأ القرآن مرة واحدة قراءة تدبر فلا نفسره بالرجوع إلى مصدر خارجي وإنما نفسّر آياتِه بآياتِه، وننسى، ولو لفترة، كلّ تفاسير آبائنا الأولين وشيوخنا وأساتذتنا عسى أن نكتشف الضوء الحقيقي الصادر عن تلك الآيات، ونجلو معاني ما استغلق منها، أو نضيف إلى فهمنا إياها جديداً لم نلاحظه من قبل، لكنني أذكّر مرة أخرى و ﴿إن في ذلكَ لذكرى لأولي الألباب﴾[8] أن تبقى أفكارنا الخاصة وأحكامنا على الحياد التام، نستمع للآيات فحسب ونفكر فيها، بكل ما أوتينا من ذكاء وفطنة إلى أن تتكشف لنا أمور وتتضح، لم تكن قبل قراءتنا الواعية واضحة.

﴿فذكّر إنْ نفعتِ الذّكرى﴾[9].

﴿وذكِّرْ فإنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنين﴾[10].

﴿وما يدريكَ لعلّه يَزّكّى * أو يَذّكّر فتنفعُه الذّكرى﴾[11].

صدق الله العظيم

---

(٨) سورة الزمر: ٢١

(٩) سورة الأعلى: ٩

(١٠) سورة الذاريات: ٥٥

(١١) سورة عَبَسَ: ٣ - ٤

٩ ـ الحقيقة والوهم ـ الرحمن والشيطان:

خلق الله تعالى الإنسان، وقيّد تكوينه باستعداد فطري للاتجاه والحركة نحو طرف من طرفي ازدواجية الخلق أي ضمن مجالين كبيرين هما الحقيقة والوهم. وكلاهما بالنسبة إلى الإنسان ضروري، لأن خلق الإنسان بني عليهما، وعليه أن يسعى قدر المستطاع في الاتجاه السليم، ولن يصل مهما كان يسعى إلى الكمال والحق والحقيقة، فالحق والكمال والحقيقة الكاملة لا تتوافر إلا لله تعالى، لكن الإنسان يتجبّر وخاصة إن توافرت له إمكانات ضخمة يتألّه بها ويتحوّل إلى طاغوت يطاول الخالق ويقول للناس: أنا ربّكم الأعلى، والله تعالى يضرب لنا مثلاً على ذلك آل فرعون، وما أكثر الذين تجبّروا من البشر، أما الإنسان الضعيف أو الفقير المحبط بكل ظروف الحياة القاسية فإنه يداوي ضعفه بالوهم هروباًمن قساوة الحقيقة، بهذا يمكن أن نعلل سر انتشار المشروبات الروحية بين الطبقات الفقيرة. وكلما ازداد الضعفاء بؤساً أمسوا محتاجين إلى وهم أكبر، فتنتشر المخدرات كالنار في الهشيم بين الطبقات المعدمة. ومن يقرأ القرآن بتمعن يكتشف أن الله حق، وأن الشيطان باطل، أن ا لله علم وعقل، والشيطان جهل وهوى، ويعلم أنّ الله سيّد العقل والمالك زمامه، وأن الشيطان هو الخيال والوهم، ومالك زمام الهوى.

فإذا سمح الإنسان لوهمه أن يسيطر عليه ملكه واستعبده، ادخل إلى أي مسجد في بلاد المسلمين حالياً وفي أي عاصمة تشاء، واحضر صلاة الجمعة وخطبة الإمام فيها تجده يحارب برماح الكلمات ويستبد به الحماس في النهاية، فيسقط ملايين القنابل الوهمية فوق رؤوس الأعداء، ويحوز على النصر المبين من الله تعالى وهماً، في حين أن ملايين القنابل الحقيقية تسقط على رؤوس أطفال المسلمين الجائعين وتقتلهم، نصر من الخيال والوهم، وهزيمة في الواقع والحقيقة، ولا أعتقد أني أبالغ في كلامي هذا، جرب واحكم بنفسك ولسوف تعلم.

وإني لأرجو ألّا يفهم كلامي خطأ على أني أقصد التجريح، بل أريد أن نميّز جميعاً الحقائق من الأوهام، فأنا أيضاً واحد من المسلمين المتألمين من الواقع الذي نحن فيه.

خذ أي كتاب من كتب عصر الانحدار الإسلامي، التي تطبع الآن بالآلاف، وتنشر في الأسواق، إيهاماً للناس بأن خلاصهم مما هم فيه من بؤس وتأخر مرهون بدراسة هذه

الكتب المليئة نوراً وعلماً، وأنا لا أنتقد كاتباً منهم بالذات، فقد عاشوا جميعاً حياتهم وداوَوْا جروحهم على قدر استطاعتهم، وتوفاهم الله برحمته، فنرجو الله أن يرحمهم ويغفر لهم جميعاً.

وإني لا أنتقدهم أفراداً وأشخاصاً، ولا أزعم أن كل ما جاؤوا به وهم وغلط، ولكني أريد أن ألفت النظر إلى أننا نظلم أنفسنا من جديد حين نطلب الماء من السراب، أو نطلب العلم في غير مظانه.

خذ أي كتاب لا على التعيين، لأيّ كاتب منهم، وليكن على سبيل المثال «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي رحمه الله، تجده يطبع اليوم في ثماني مجلدات أنيقة ، على ورق أبيض مصقول، وطباعة أنيقة، فتمسك به وكلّك فرح، وتحلم أنك سوف تجد فيه ما يسعدك وينقذك أو تستفيد منه علماً ومعرفة إذا قرأت تلك المجلدات ، فلا تجد إلا سراباً ووهماً، وظنّاً، اللهم إلّا تلك الآيات القرآنية التي تتوزع فيه هنا وهناك لتكون شواهد على ما يقول المؤلف وهي وحدها التي تضيء، وما عداها مظلم ليس فيه نور. لماذا...؟

وقد أرسل الله تعالى للناس رسالة القرآن عن طريق سيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور بذلك الكتاب. ولكن الإنسان المسلم أقنع نفسه، وآمن بأن الله أيضاً أرسل كتاباً آخر ووحياً للرسول اسمه «السنة» و«الحديث» أو «الحكمة» وفيه الحقيقة كاملة، وأوهمه الشيطان أنَّ فهم الإنسان للقرآن مستحيل لأن، كلام الله شديد أو ثقيل، ومن ينشد فهمه فهماً تاماً فعليه بالكتاب الآخر، وهكذا صرف الشيطان نظر المسلم عن الكتاب الحقيقي وأعطاه الكتاب البديل، وأوهمه أن الرسول ﷺ قد قاله وعندما يسيطر هذا الوهم بمساعدة هوى النفس ويرتفع إلى درجة الإيمان بأن الرسول قد قال ذلك كله فعلاً فينتقل من تبني الوهم بدايةً إلى عبادة الوهم نهاية، وعبادة الوهم ليست بعيدة عن البشر، ولنا في أهل الكتاب مثلٌ حاضرٌ، والله قد ضرب ذلك لنا مثلاً في المسيح عيسى ابن مريم إذ ألّهته أتباعه وهماًوظلماً، واعتقدوا وآمنوا في النهاية أنه الله، تلك حقيقة حصلت مع أهل الكتاب.

وهذه حقيقة حصلت معنا نحن ولا زلنا فيها، وأملنا أن نردّ للشيطان ما أهدانا ونستعيد كتابنا الحقيقي الذي أرسله الله لنا، لكل الناس، ليخرجنا به من الظلمات إلى النور.

وهكذا استبدلنا بالحقيقة وهماً، وأقمنا ديننا على ازدواجية مزّقت المسلم، فضاع بينهما،

واستعضنا عما وهبنا الله من حرية التفكير والإبداع عبودية القيود التي تكبلنا، فلا نتنفس أو نتحرك إلا بحديث وسند، وليس لنا أن نجتهد، ونحكّم عقولنا التي وهبنا إياها الله للتفكير، ولماذا نفكر وقد رُسم لنا كل شيء وفق تقليد محكم لا يجوز تجاوزه؟ لماذا نفكر وقد جهد هؤلاء العلماء، سامحهم الله، في تعطيل آلة التفكير عندنا، وكأن من واجبنا نحن المسلمين أن نسمع ونلتزم ما رسموه لنا، دون أن نعود إلى كتاب الله عزّ وجل الذي تثير آياته فينا عوالم من الفكر والتأمل!.

لنكف عن غفوتنا واستسلامنا إلى الوهم والباطل:

أشرت فيما سبق إلى كتاب «الروح» لمؤلفه ابن قيم الجوزية رحمه الله، وهو كتاب أعيد طبعه، في مجلد أنيق، يبحث في الروح، ولنا أن نتساءل هل ورد في القرآن الكريم كلام على الروح فيه من التفصيل والتطويل ما يسمح بتأليف كتاب في هذا الموضوع؟ كل ما ورد في كتاب الله سؤال عن الروح وجواب من الله عز وجل: ﴿ويسألونكَ عن الروحِ، قل الروحُ من أمرِ ربّي وما أوتيتم من العلمِ إلا قليلاً﴾[1] هذا كل ما ورد عن الروح في القرآن، وليس لدينا علم آخر في ديننا يَضيف إلى ما ورد في كتابنا الكريم، فكيف استطاع ابن قيم الجوزية أن يجود في هذا الموضوع، ويؤلف فيه كتاباً كاملاً؟ والمعلومات الدينية المتوافرة لديه لا تعدو آية من كتاب الله؟ وهل تجاوز علمه علم الرسول ﷺ؟.

ألا يوجب عمله هذا حكماً بأنه كان يعلم أكثر من الرسول محمد ﷺ في موضوع الروح بفارق حجم المعلومات بين الآية والكتاب الذي ألفه؟ ولولا ذلك الفارق لما كان قد فكر في تأليفه أصلا.

ولكن دهشتنا تزول حين نقرأ الألقاب التي ذكرها لنفسه، والصفات الحميدة التي وصف بها نفسه. وكنت من قبل أعتقد أن تلك الأوصاف هي من صنع تلاميذه، ثم اكتشفت الحقيقة متأخراً، فقد كان هو وكل زملاء عصره ينتخبون تلك الصفات لأنفسهم، وتكتب على المستنسخات من كتبهم على أنها أوصاف من الناسخ وليست منهم بالذات، فلماذا؟ والعالم يجب أن يكون متواضعاً، لماذا نقرأ في مقدمة كتابه «حلية وطبقات الأصفياء». على سبيل المثال: «شيخ الحفاظ وفخر الصوفية زين أهل الحقائق. الحائز لعلمي الظاهر والباطن، ابن نعيم أحمد بن.... إلخ».

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥

لماذا الاغترار؟ فالجاهل معذور إذا اغتر لأنه جاهل، وقد يُظهر استعداده للتعلم، لكن المصيبة في الجاهل الذي يظن أنه يعلم، فإنه لن يصغي إليك ولو كنت تحدثه عن علم حقيقي، لأنه لا يملك إلا الوهم الحقيقي بالمقابل.

ولنفرض على سبيل المثال أننا أنزلنا شخصين في مقتبل العمر، يتقاربان سناً، من حوّامة إلى وسط غابة، ومعهما بعض الأدوات ومنها بلطة وسكّين ومعول ورفش، وطلبنا منهما التعايش مع الطبيعة، وفي هذه الغابة مياه وحيوانات وثمار ويمكن أن يتدبّرا عيشتهما في الغابة. وتركناهما خمس سنوات، على سبيل المثال، ولنفرض أن أحدهما وليكن اسمه زيداً هو إنسان عملي . وواقعي، والآخر وليكن اسمه عبيد، وهو إنسانٌ يميل للوهم والأحلام. وتركنا مع الاثنين وهما متعلمان وسائل كافية للكتابة فماذا نتوقع أن نرى بعد خمس سنوات.؟

سنجد زيد قد بنى كوخاً في الغابة من الطين الذي استخدمه ليصنع منه لِبْناً. وسقفه بأغصان الأشجار، وغطّاها بالطين أيضاً حتى لا تذروها الرياح، فإذا دخلت كوخه وجدته مرتّباً، فيه موقد للنار، ومكان لنومه صنعه من الأخشاب، وجعل له فراشاً من الحشائش اليابسة و صنع لنفسه بعض الأواني من الطين المشويّ، أي سوف نجد إنساناً يحاول أن يتلاءم مع ظروفه القاسية، يطوّعها ويجعلها أقلّ قساوة. وقد تخيّل كتاب كثيرون مثل تلك الظروف التي وضع فيها البشر، من هؤلاء صاحب قصة (روبنسون كروزو) ومؤلف حيّ بن يقظان، وماذا نجد لدى عبيد صاحب المواهب الوهمية؟ سنجده حتماً يغالب البرد والطبيعة، ويبدو مظهره الخارجي بائساً، وإذا نظرنا الآن إلى ما كتبه زيد تبين لنا أنه دوّن كلمات قصيرة مقتضبة عن الدروس المستفادة أو ما تعلمه في تلك الحياة من مُثُل، كيف تصنع آنية من الفخار؟ كيف تقطع شجرة؟ كيف تصيد أرنباً؟ إلى آخر تلك الأمور العملية التي تَغَلّبَ بها على المصاعب، ودخلت في خبراته.

وإذا رجعنا إلى ما كتبه عبيد تبين لنا أنه لم يدخل الغابة بعد، وإنما بنى قصوراً من الخيال في أمكنة كان يحبّها، وسكنها مع الحور العين، وهو على حاله البائسة يسرح ويمرح معهن في وهمه، أما الغابة التي هو فيها الآن فلا يعرف عنها شيئاً ولم يتعلم منها شيئاً. ولولا وفرة الماء من حوله ووفرة الثمار المتساقطة فوق رأسه لمات وتبعثرت عظامه خلال تلك المدة. إن مَثَلَ زيد هو مَثَلُ المسلم في عصر الرسول، ومَثَلَ عبيد هو مَثَلُ المسلم في يومنا هذا.

ولو عدنا إلى كتاب الله سبحانه وتعالى لما وجدنا فيه أي ذكر لحديث إلا حديثه تعالى، فالله ليس لديه حديثان: حديث له وآخر لرسوله، وقد بحثنا في السنة فلم نجد إلا سنة واحدة، هي سنة الله، إذ ليس عند الله سنتان، واحدة له، وأخرى لرسوله، وضرب الله لنا مثلاً في كتابه لنستفيق من أحلامنا إن نحن وقعنا تحت تأثير أوهامها، ومع علمه أن الرسول الكريم لا يكذب، إلا أن الله جل وعلا افترض ذلك افتراضاً لأنه يعلم نفوس الناس المكذّبة لكل حقيقة فقال تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل﴾، ونلاحظ أن الله بدأ مخاطبتنا بلو الشرطية التي جاء جوابها: ﴿لأخذنا منه باليمين * ثم لقَطَعْنا منهُ الوَتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين * وإنه لتذكرةٌ للمتّقين * وإنّا لنعلَم أن منكم مُكذّبين﴾[٢].

قد يتساءل إنسان لماذا فهم المسلمون آيات القرآن الكريم فهماًمعاكساً لإرادة الله وتمشوا تماماً مع إرادة الشيطان، علماً أن المسلمين كلهم يعتقدون أنما هم مع الله ومع الحقيقة؟ كيف حصل ذلك؟

الموضوع فيه سر وإلا لما وقع الناس كلهم ضحية له. والسر يمكن شرحه باختصار كما يلي: الله سبحانه وتعالى ينفرد في هذا الكون كله بصفات أَحدية ولكن كيف؟:

الله أحد قوي وليس من إله آخر سواه ويعارضه الشيطان الضعيف.

الله حق وليس من حق آخر سواه ويعارضه الباطل والوهم.

الله نور وليس من نور آخر سواه ويعارضه الظلام.

الله هدى وليس من هدى آخر سواه ويعارضه الضلال.

الله عالم وليس من علم آخر عند غيره ويعارضه الجهل.

الله غني وليس من إله عنده رزق نرجوه منه إلا هو ويعارضه الفقر.

والآن إذا جمعنا الصفات التي تجمعت في اليمين نجدها هي صفات الله، وإذا جمعنا الصفات الأخرى على اليسار نجدها كلها صفات الشيطان. وهناك آيات عديدة تثبت ذلك كله في القرآن الكريم، فهناك آيات فيها صفات الرحمن منها:

﴿اللهُ لا إلهَ إلا هوَ الحيّ القيوم﴾[٣].

﴿إنا أرسلناكَ بالحقّ بشيراً ونذيراً﴾[٤].

---

(٢) سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٩ (٣) سورة البقرة: ٢٥٥ (٤) سورة البقرة: ١١٩

﴿واللهُ يعلَم وأنتُم لا تعلمون﴾[٥].
﴿واللهُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾[٦]
﴿واللهُ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حساب﴾[٧].
﴿واللهُ يُؤتي مُلكَه من يشاء﴾[٨].
﴿واللهُ يضاعفُ لمن يشاء﴾[٩].
﴿وكانَ اللهُ غنياً حميداً﴾[١٠].
﴿واللهُ عليمٌ حكيم﴾[١١].
﴿واللهُ غالبٌ على أمره ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمون﴾[١٢].
﴿الله نورُ السمواتِ والأرض﴾[١٣].
﴿واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيل﴾[١٤].
﴿وكان اللهُ قوياً عَزيزاً﴾[١٥].

وكل هذه الصفات الإلهية يقابلها صفات للشيطان منها في القرآن الكريم:
﴿الشيطانُ يعدُكم الفَقْرَ ويأمركم بالفحشاء﴾[١٦].
﴿إنّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً﴾[١٧].
﴿يَعِدُهم ويُمَنّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلاّ غروراً﴾[١٨].
﴿ومنْ يتخذْ الشيطانَ ولياً من دونِ اللهِ فقد خَسِرَ خُسراناً مبيناً﴾[١٩].
﴿زينَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهم﴾[٢٠].
﴿وما يعدُهُم الشيطانُ إلا غُروراً﴾[٢١].

وهكذا تجد دائماً أن الباطل والكذب والوهم والشر من صفات الشيطان، وفي مختلف آيات القرآن الكريم، وهي أكثر من أن تعد في القرآن.

---

(٥) سورة البقرة: ٢١٦
(٦) سورة البقرة: ٢١٣
(٧) سورة البقرة: ٢١٢
(٨) سورة البقرة: ٢٤٧
(٩) سورة البقرة: ٢٦١
(١٠) سورة النساء: ١٣١
(١١) سورة التوبة: ١٥
(١٢) سورة يوسف: ٢١
(١٣) سورة النور: ٣٥
(١٤) سورة الأحزاب: ٤
(١٥) سورة الأحزاب: ٢٥
(١٦) سورة البقرة: ٢٦٨
(١٧) سورة النساء: ٧٦
(١٨) سورة النساء: ١٢٠
(١٩) سورة النساء: ١١٩
(٢٠) سورة الأنفال: ٤٨
(٢١) سورة الإسراء: ٦٤

والناس الذين يختارون الطريق الحقيقي، أي طريق الله، ويثبتون بسلوكهم ذلك، أو يسلكون دون أن يعرفوا أنهم مع الله، كالعالم الفيزيائي الملحد مثلاً الذي يتبع قوانين الله وسننه ويساير في مواقفه طريق الله وسننه، وإن كان في موقعه الاعتقادي ملحداً، ولا نصفه بأنه عالم مؤمن، بل هو عالم كافر بوجود الله. والكفر معناه الستر والتغطية لغةً. كما يمكن أن يعتقد شخص آخر أنه يؤمن بالله تعالى لأنه يصلي ويصوم وقد حجَّ عدة مرّات، لكنّ مواقفه كلها هي مع الطرف المعاكس لله، أي مع الشيطان، فهذا يعبد الشيطان، وهو يظن أنه يعبد الله، وهو المشرك الخفيّ الذي لن يغفر الله له أبداً لظلمه لنفسه وذريته ظلماً مضاعفاً، وسيكون غضب الله عليه أكثر من غضبه على الكفار.

كيف يسقط الإنسان في هذا النوع من الإشراك الخفي فيعبد الشيطان جهلاً وظلماً لنفسه؟.

لو قرأنا الآية الكريمة الآتية: ﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ باللهِ من الشيطانِ الرجيم﴾[٢٢] فسيكون لنا أحد ثلاثة مواقف:

١ ـ الموقف الأول: أن نفهم أن الإنسان الذي يريد أن يقرأ القرآن يجب أن ينوي إبعاد كل صفات الشيطان السابقة التي ذكرناها عن ذهنه ليتمكن من فهم القرآن بحسب الصفات الرحمانية التي ذكرناها أيضاً لله تعالى وبعد هذه النية الصادقة من طرفه، نقول طالبين العون من الله على نية انتويناها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) بمعنى: يارب إني ألجأ إليك أن توصلني إلى رغبتي بإبعاد صفات الشيطان عن أن تتدخل في فهمي للآيات وهذا كله طبعاً في النية ولا يشترط الجهر، وهذا الموقف يقفه المسلم الذي يفهم دينه بأنه دين الله.

٢ ـ الموقف الثاني: المقابل لهذا وهو موقف الكافر الذي لا يقرأ القرآن قراءة مؤمن به.

٣ ـ والموقف الثالث: هو موقف من يقرأ هذه الآية الكريمة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ويظن وهماً أن لهذه المجموعة من الكلمات قوّة سحرية تطرد الشيطان فيولي مستغيثاً إلى غير رجعة.

وهو موقف وهمي، والوهم كما رأينا من صفات الشيطان لا الرحمن، علماً أن الله تعالى لم يذكر في أية آية أن للقرآن ولآيات الله أية قوة سحرية خارقة للعادة. فكل

---

(٢٢) سورة النحل: ٩٨

تصورات الناس تأتي من أوهامهم وحدها، دون أي مَسْنَدٍ قرآني. وإليك المثال التالي: يقول الله تعالى: ﴿من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلهُم أجرُهُم عند ربّهم﴾[٢٣] وهذه الآية تختصر الدين الإسلامي كله في جملة واحدة وهي كل ما يطلبه الله تعالى من الإنسان، فالمطلوب هو: الإيمان بالله، وباليوم الآخر - وهو يوم الحساب، ثم القيام بعمل صالح كمهنة له في هذه الحياة الدنيا.

وقد حدد الله مكافأة لمن يعمل عملاً صالحاً أو أجراً، ولا يكون للعمل أجر إلا إذا كان عملاً معلناً، كأن نؤدي خدمة للناس في مجال الحرف التي نمارسها (النجارة، الحدادة) فإذا أتقنا عملنا وكأن الله يرانا، دون ضرورة لرقابة صاحب العمل، ومنحنا أجرنا، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿لهمْ أجرُهم﴾ فالمكافأة الإلهية على العمل الدنيوي الصالح، الذي نمارسه في الحياة، وليس على صلاتنا وصيامنا أبداً، وقد يقف هنا من يعترض ويقول: لا بل إن الصلاة لها أجر عند الله لأنها عمل، أقول له: لو عدت للقرآن وبحثت فيه كله فلن تجد آية واحدة تقول: إن من صلى أو صامَ أو زكى أو حجَّ أو قال بالشهادتين وحدها أو كلها معاً يدخل الجنة، لأن كل هذه الأمور من متمّمات الإيمان العملية. فقول المؤمن: آمنت بالله، قول نظري قلبي، والعبادة ممارسة عملية، ولا يكون الإيمان الكامل إلا بالجمع بين النظر والعمل، غير أن الإيمان وحده شعوراً وممارسة غير كاف لإدخال الإنسان الجنة إلا بعد أن يقرنه المؤمن بعمل إنساني منتج لصالح المجتمع الإنساني، وهذا شرط أساسي للأجر وينطبق حتى على الأنبياء والرسل. ولا يشترط في العمل مطلقاً أن يكون عملاً يدوياً، وقد يعمل الرجل قاضياً، أو حاكماً يسوس أمور الناس فيؤْجَر على عمله في الدنيا والآخرة إن كان في عمله يرضي الله، ويفي بمصالح الناس، ولكن لا بد للإنسان من عمل يؤجر عليه في الدنيا والآخرة وهو شرط أساسي في الإسلام. وآيات الله في القرآن شاهدة على ذلك. وهكذا يكون قد فهم الآية فهمها السليم بحسب الموقف الرحماني الحق.

وأما الثاني أي الكافر فيعمل بلا إيمان، لذلك يؤجر على عمله في الدنيا فحسب فيرزق فيها، وليس له في الآخرة من أجر: ﴿وليسَ له في الآخرةِ منْ خَلاقٍ﴾

والثالث هو الذي فهم الآية بأسلوب وهمي لا وجود له إلاّ في خيالاته، وهو أن كلّ حركة إذا نوى فيها المؤمن أن تكون لوجه الله فهي عمل، كأن يجلس طول النهار

(٢٣) سورة البقرة: ٦٢

وبيده المسبحة الألفية، ويهزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار، ويحرّك معه جسمه، فيظهر أنه بتلك الحركات يقوم بعمل يؤجر عليه، لأنه كان يذكر فيها اسم الله جل وعلا في كل حركة. وهذا الوهم ظهر لدى المسلمين لاحقاً فكان الزهد والتصوف، وصارت له درجات ومراتب، حتى بلغت أربعاً وأربعين منزلة، ولكل منزلة درجات، شُرحت في ثلاثة مجلدات عظيمة، وإني لأستغرب من أين كان يهبط كل ذلك العلم على هؤلاء، فإنه لم يرد أساساً في القرآن.

وهكذا تختلف مواقفنا وفهمنا لآيات الله، ولنستعرض المواقف التي يمكن أن تسلكها كل من هذه الفئات الثلاث في فهم الآيتين الآتيتين والعمل بهما:

﴿وما الحياةُ الدّنيا إلا متاعُ الغرور﴾(٢٤).

﴿قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتقى﴾(٢٥).

فالفئة الأولى تفهم الآيتين فهماً رحمانياً واقعياً، فالقرآن نزل في الأصل ليفهمه الناس فهماً رحمانياً، وهي من بعد الفهم تؤمن بالله ورب العالمين.

يقول له: ﴿وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدّنيا﴾(٢٦).

﴿وآتيناهُ أجرَهُ في الدّنيا وإنه في الآخرةِ لمنَ الصالحين﴾(٢٧).

وهم الناس الذين آمنوا بربهم وسعوا في هذه الدنيا وراء نصيبهم فيها، وكانوا يسعون للدار الآخرة أكثر فإنهم يقولون: ﴿ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسَنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النار﴾(٢٨).

وهؤلاء المؤمنون الصالحون الذين فهموا دينهم فهماً صحيحاً هم الذين فهموا القرآن فهماً سليماً يليق بالمؤمن الصحيح.

والفئة الثانية وهي فئة الكفار التي لا تريد أجر الآخرة ولا تؤمن بها: ﴿فمِنَ الناسِ من يقولُ ربّنا آتنا في الدّنيا وما لَه في الآخرةِ من خَلاق﴾(٢٩). لماذا؟ لأنها جعلت الدنيا أكبر همها وصارت تسعى إليها فقط: ﴿ومن يُردْ ثوابَ الدّنيا نُؤْتِه منها﴾(٣٠).

وأما الفئة الثالثة فهي التي فهمته فهماً وهمياً، وهم الذين اتجهوا إلى الآخرة في زعمهم، وأهملوا الدنيا، وتخلوا عن حقوقهم فيها وقعدوا عن السعي لرزقهم وعاشوا من

---

(٢٤) سورة الحديد: ٢٠
(٢٥) سورة النساء: ٧٧
(٢٦) سورة القصص: ٧٧
(٢٧) سورة العنكبوت: ٢٧
(٢٨) سورة البقرة: ٢٠١
(٢٩) سورة البقرة: ٢٠٠
(٣٠) سورة آل عمران: ١٤٥

الصدقات وإحسان الناس إليهم. ومنهم من ندعوهم: الزهاد، والزهد لغة يعني: إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية، والكلية معناها: عدم الالتفات إلى الدنيا مطلقاً، فهؤلاء عطّلوا إرادة الله في الخلق، فهل استخلف الله الناس على الأرض ليعمروها أو ليسكنوا في القبور والكهوف مع الأموات؟ وقد ذهب بعض الزهاد والمتصوفة إلى أبعد من ذلك فهم يشترطون على الزاهد أو المتصوف أن ينقل قلبه من الدنيا ويسكنه في الآخرة أي يكتب على نفسه أجلها فيميتها في الحياة قبل أن يأتي الأجل المسمى الذي حدّده الله تعالى.

وإليك مثالاً آخر يتناول قراءة القرآن، يقول تعالى: ﴿وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستمعوا له وأنصِتوا لعلكُم تُرحمون﴾[٣١].

أولاً ـ الموقف الرحماني:

يحثنا الله تعالى على الإنصات حين قراءة القرآن لنفهم ما يطلب منا تعالى تنفيذه، فهو المهمّ في القراءة، ومن أجله نزل القرآن أصلاً.

ولذلك قال تعالى:

﴿أفلا يتدبّرونَ القرآن﴾[٣٢]

﴿إن هذا القرآنَ يهدي للتي هي أَقوم﴾[٣٣].

﴿أفلا يتدبرونَ القرآنَ أم على قلوبٍ أقفالها﴾[٣٤].

﴿فإذا قرأْناه فاتَّبِعْ قرآنَه﴾[٣٥].

وهذه القراءة المتمعنة الهادفة هي قراءة المؤمن للقرآن، أما الكفار فإنهم لم يؤمنوا به لذلك لا يسمعونه ولا يقرؤونه. وأما الواهمون.. فيحسبون أن تكرار قراءته مراراً تمنحهم مزيداً من الثواب والأجر، دون عمل يقترن بالإيمان، فهم ينصحون بقراءة سورة يس مثلاً كذا مرة، أو قراءة القرآن كله في ليلة واحدة. ويؤكدون لك أنك إن فعلت ذلك بني لك قصر في الجنة، ومن يقرأ القرآن كله في ليلة واحدة تكون قراءته غير مقرونة بالفهم والإنصات الذي حث الله عليه.

المثال الخامس: الآية ﴿ونُنزّل من القرآنِ ما هوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾[٣٦].

فالموقف الرحماني يقود المؤمن الحق إلى فهم الآية على الوجه الآتي: إن القرآن،

---

(٣١) سورة الأعراف: ٢٠٤
(٣٢) سورة النساء: ٨٢
(٣٣) سورة الإسراء: ٩
(٣٤) سورة محمد: ٢٤
(٣٥) سورة القيامة: ١٨
(٣٦) سورة الإسراء: ٨٢

وبخاصة في الآيات التي تتناول الرسالة، ينظم المجتمع ويجعله عاملاً كله كخلية النحل ليس فيها عاطل عن العمل، وينظم العمل، ويزرع في داخل كل إنسان شرطياً رحمانياً يراقب العمل وإتقانه، ويقيم بالإسلام دولة لا تحتاج إلى شرطة لمراقبة الناس، ومنع الجرائم، ولا تتحمّل تكلفتهم، فكل إنسان فيها ملتزم حدوده، يعرف ما له وما عليه، ولا يحتاج إلى من يشجعه لأن كتاب الله خير معين لإيمانه وليس في المجتمع غش أو خداع ولا كذب ولا نميمة، ولا حسد أو بغضاء، ولا أحد يسيء الظن بالآخر، أي أن القرآن يعالج ويشفي كل أمراض المجتمع شفاء تاماً. هكذا يفهم أصحاب الموقف الرحماني الآية الكريمة السابقة.

أما الكافرون فلا يقرؤونها أصلاً.

وأما أصحاب الموقف الوهمي: فيَرَوْن في آيات القرآن وكلماته سحراً خاصاً، يشفي من أمراض السرطان والسل والسعال الديكي، وحتى من وجع الأسنان والرأس، وقد ينطلقون من باب الوهم والتأثير النفسي، وواقع الأمر أن ذلك لم يرد في القرآن، وإنما هو من بدع الواهمين.

وهكذا يمكن أن نتابع القرآن كله فنجد فيه مواقف الرحمن ومواقف الشيطان في مسائل مثل التوكل والقضاء والقدر والأعمار والأرزاق والأعمال، ونتابع فهم الذين قرؤوه فنسأل: أين موقعنا نحن المسلمين الذين قرأناه وفهمناه من خريطة قرائه؟ ويبدو أن جلنا ليس له نصيب من الموقف الرحماني في قراءته، إلا ما ندر والباقي يقسم إلى قسمين: قسم كفر وألحد، وقسم يعدّ نفسه مسلماً، لكنه يعبد الشيطان ولا يعلم، ذلك لأنه أشرك من دون أن يعلم، وما الفائدة في أن أعبد معبوداً أسميه الله، ولكني بعد البحث عن الحقائق أكتشف أنني كنت أعبد الشيطان، ولكي نستدل أكثر على ما حاولنا التوصل إليه في هذا البحث لننظر إلى واقع المسلمين كلهم الآن، فماذا نجد؟ الجهل والجهالة في كل مكان، والجهل ليس من صفات الرحمن أبداً. والأوهام مسيطرة على عقول الناس، كالسحر والشعوذة وعذاب القبور وشفاعة الأولياء، وظهور الكرامات، والمعجزات للصالحين، والإيمان بقراءة المستقبل ومعرفة الغيب لغير الله تعالى، والإيمان بالقوى الخفية للأرواح والأشباح والتعاويذ. إلى آخر تلك الخرافات والخزعبلات والأساطير. وكلها من الشيطان وليس فيها شيء واحد من الرحمن.

نحن في فقر تام ومن صفات الله الغنى والعطاء والرزق.

وهكذا نكتشف أن كل الصفات التي حافظنا عليها هي الصفات المؤهلة للشيطان، وليس عندنا ممّا يؤهل للرحمن شيء.

والإنسان السائر في طريق، قد يكتشف أن طريقه لا يؤدي إلى المكان الذي يقصد فيتحول عنه، وهذا هو همي في هذا الكتاب: أن أدلّ الناس الذين ضلّوا الطريق، لأني وجدته فقط في القرآن الكريم، وما من طريق سواه، والمسلمون كلهم منذ عصر الانحدار الإسلامي فقدوا الميزان الصحيح وأضاعوا جادة الصواب لأنهم تركوا ما وصّاهم به رسول الله في حجة الوداع عندما قال لهم: «لقد تركت فيكم شيئاً لن تضلوا من بعده طالما تمسكتم به: كتاب الله»(*) ولم يدَّعِ الرسول ﷺ أن له سنة واجبة الإتباعِ، وكيف تكون له سُنَّةٌ وهو الذي أمر بمحو كل ما أثر عنه من كلام غير القرآن: «مَن كتب عني غيرَ القرآن فليمْحُه» ونرى تصديقاً لهذا الكلام من صحابته كلهم، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الذين امتثلوا لهذا الأمر فأحرقوا كل ما لديهم من أحاديث، ثم يأتي من بعدهم خلف يدّعون أنهم كتبوا الأحاديث حباً بالرسول فنسألهم نحن الآن: هل كانوا يحبون الرسول محمد ﷺ أكثر من حب أبي بكر الصديق له؟ وماذا فعل أبو بكر الصديق عندما سمع ما قاله الرسول؟ طلب من ابنته عائشة بعد ليلة طويلة لم ير خلالها نوماً بأن تأتيه بالأحاديث فأحرقها كلها.

﴿يؤتي الحكمةَ مَنْ يشاءُ ومن يؤتَ الحِكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً﴾(٣٧)

صدق الله العظيم.

(*) من خطبة حجة الوداع للرسول ﷺ - تاريخ البداية والنهاية - لابن كثير الدمشقي - المجلد الثالث - الجزء الخامس ، الصفحة ١٧٩ ، طبع دار الريان ١٩٨٨.

(٣٧) سورة البقرة: ٢٦٩

١٠ ـ الموضوع الأول:
وحي واحد وكتاب واحد أم وحيان وكتابان؟

اتفقنا منذ البداية على أن نعالج المسائل كلها بأسلوب علميّ، بعيداً عن العواطف والانفعالات واللجوء للبلاغة الكلامية والتلاعب بالألفاظ.

وتقيداً منا بهذا الاتفاق نستشهد بآيات القرآن الكريم التي تعدّ أهم الشواهد الحاسمة في هذا الموضوع.

السؤال المطروح أمامنا يتناول أهم الشبهات الحالية في الإسلام العام، تلك الشبهات الخطيرة التي تسربت إلى الإسلام في فترة انحدار الفكر الإسلامي، وكان الإمامان ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية من أفضل المنظرين والمفكرين في تلك العصور، فإن أفكارهما غدت فيما بعد من أفضل الأفكار وأصوبها في العصر الذي عاشوا فيه، والذي ساد فيه الفكر الديني الواهم، ولكن هذين الإمامين لم يشربا من ماء النبع الإسلامي، حيث الصفاء والوضوح في الفكر والعقيدة، والبعد عن التعقيدات التي أدخِلَتْ على الفكر الديني فيما بعد، والتي جعلت الدين عسيراً وهو يسير وصعّبت أمره على الناس وهو سهل واضح.

لذا سوف نبدأ بطرح المشكلة تماماً كما طرحها ابن قيم الجوزية بحكم أنها لا زالت تقريباً مطروحةً من قبل أغلب رجال الدين الإسلامي في يومنا هذا(*).

وابن قيم الجوزية يقول صراحة في كل كتبه، وقبله أستاذه ابن تيمية بأن الله سبحانه أنزل وحيين وكتابين: أحدهما الكتاب أو القرآن، والثاني: الحكمة وهي أحاديث الرسول ﷺ.

الأول يتضمن حديث الله وسنة الله وكلام الله سبحانه وتعالى، والثاني يحوي حديث الرسول وسنة الرسول وكلام الرسول ﷺ.

وسنحاول في هذه الدراسة إثبات صحة هذا الكلام، أو نقضه . أهو حقيقة أم هو وهم وظنون وشبهة وقع فيها السلف اعتباراً من عصر الانحدار الإسلامي، وأن تلك الشبهة، لم تكن قائمة في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد صحابته الكرام، وإنما ابتدأت من

(*) راجع بحث (المخطط العام لهذا الكتاب).

التابعين، مستندين إلى الآيات القرآنية التي ذكر فيها الكتاب والحكمة ومنها قوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتِه ويزكّيهم ويعلّمُهم الكتابَ والحكمةَ﴾[1] وإلى الحديث الذي يقول: «أوتيتُ هذا الكتابَ ومثله معه» مرويّاً عن الرسول محمد ﷺ.

لنستقرىء الآيات التي ورد فيها ذكر الكتاب والقرآن، ومعانيها متقاربة، يقول تعالى: ﴿ربّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يَتلو عليهم آياتِكَ ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكّيهم إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيم﴾[2].

ولو سلمنا جدلاً بأن الكتاب المذكور في هذه الآية إنما يقصد به القرآن وأن الحكمة يقصد بها حديث الرسول فماذا نقول في الآية الآتية التي تتحدث عن عيسى بن مريم: ﴿ويعلّمه الكتابَ والحكْمَةَ والتَّوراةَ والإنْجيلَ﴾[3]. فهل نفهم منها أن الله سبحانه أنزل على عيسى القرآن والحديث والتوراة والإنجيل؟

وماذا نقول في معنى الآية الآتية: ﴿فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُم مُلكاً عَظيماً﴾[4].

ونحن نعلم أن إسحق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وموسى وعيسى هم كلهم من آل إبراهيم عن طريق إسحق، مثلما أن إسماعيل ومحمد بن عبد الله ﷺ كما نعلم هم أيضاً من آل إبراهيم، فهل يعني ذلك أنهم جميعاً قد تلقوا القرآن والحديث؟

ولنتأمل معنى الآية الآتية: ﴿ولما جاءَهُم كتابٌ من عندِ الله مصدّقٌ لِما معهم﴾[5] فمن الواضح بأن الله سبحانه يخاطب بها أهل الكتاب قائلاً لهم: لما جاء القرآن عن طريق محمد ﷺ الذي كان مذكوراً في كتبهم جاء مصدّقاً لما معهم من نصوص الكتاب المقدّس (لأن الذي معهم كان يبشّر به).

ولنقرأ الآية الآتية: ﴿نَزَّل عليكَ الكتابَ بالحقّ مصدقاً لما بين يدَيْه﴾[6] ففي هذه الآية إشارة من الله سبحانه بأن في الكتاب قسماً فيه الحق يصدّق لقسم آخر بين يدي القسم الأول. فلو كان الله سبحانه يقصد أن يقول إن القرآن مصدّق لما في الإنجيل أو لما في التوراة أو للاثنين معاً لقال سبحانه: (مصدقاً لما بين أيديهم) أي أيدي أهل الكتاب ولكنه قال: ﴿مصدّقاً لما بين يديه﴾ فمن الواضح أنه يشير إلى أمرٍ آخر لم ننتبه له بين يدي الكتاب نفسه.

---

(1) سورة آل عمران: ١٦٤
(2) سورة البقرة: ١٢٩
(3) سورة آل عمران: ٤٨
(4) سورة النساء: ٥٤
(5) سورة البقرة: ٨٩
(6) سورة آل عمران: ٣

ويقول تعالى: ﴿وقالَ الذين كفروا لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي بينَ يدَيْه﴾(٧) فالذين كفروا من قوم محمد ﷺ قالوا بأنهم لن يؤمنوا بالقرآن ولا بالذي بين يدي القرآن. فالرسول ﷺ لم يعرض على مشركي مكة التوراة والإنجيل، وما عرضه عليهم هو الكتاب الذي يتنزّل عليه، وهو لم ينته بعد. مما يعني أن في الكتاب نفسه آيات تتبع القرآن، وآيات أخرى لها صفة خاصة، وإلا لما قَصَدَ الله سبحانه وتعالى التمييز بينهما بكل هذا التأكيد.

ولو أردنا أن نشرح معنى : ﴿الذي بين يديه﴾ بأنه التوراة والإنجيل، في هذه الآية وآيات أخرى وردت في القرآن، لما استقام لنا المعنى إطلاقاً، ومن هنا وقع الالتباس عند كثير من أئمة المسلمين لأنهم ظنوا أن : ﴿الذي بين يديه﴾ يعني وجود كتاب مستقل آخر، ومفصول عن الكتاب الأول متخيّلين أن كلمة «كتاب» لا تطلق إلا على الكتاب المستقل، في حين أنها تطلق على قسم من كتاب وما كان يجب أن يفوت العلماء ذلك المعنى لأن كثيراً منهم كانوا يقسمون الكتاب الواحد إلى عدة كتب أخرى، مثل كتاب غزوات الرسول، وكتاب الصدقات، وكتاب الصلاة، وكتاب الصوم، وكتاب الحج، وكلها ضمن كتاب واحد وهو كتاب صحيح البخاري مثلاً.

وهكذا يتبين لنا أن الله سبحانه يتكلم عن المصحف نفسه مشيراً لهم أن فيه نوعين أو «كتابين» أو صنفين مختلفين من الآيات، ولكن لأحدهما ميزة على الآخر، ودليل ذلك ما نلحظه في الآيات الآتية:

﴿قد جاءكُم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ﴾(٨).

فالقسم الأول: نور، والقسم الثاني: كتابٌ مبين.

﴿نَزّل عليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدقاً لما بين يديهِ﴾(٩).

فالقسم الأول: فيه الحق وهو مصدق لقسم آخر ليس فيه الحقّ بمعنى (الحقائق)

﴿شهرُ رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ هدىً للناسِ وبيّناتٍ من الهدى والفرقان﴾(١٠).

فالقسم الأول فيه هدى للناس جميعاً مؤمنين وكفاراً. ما هو ذلك الهدى الذي يشمل الجميع؟ هي الآيات التي فيها الحقائق العلمية والتاريخية وهي هدى لكل الناس، والقسم

---

(٧) سورة سبأ: ٣١

(٨) سورة المائدة: ١٥

(٩) سورة آل عمران: ٣

(١٠) سورة البقرة: ١٨٥

الثاني فيه بينات من الهدى والفرقان. والهدى هنا هدى خاص لاقترانه بالفرقان لأن الفرقان كما بيّنا في هذا الكتاب في أكثر من موضع، هو آيات الصراط المستقيم، والمؤمنون فقط هم الذين يتبعون هذا الصراط ويتقيدون به، فهذه الآيات فيها هدى للمؤمنين خاصة.

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يؤكد لنا أن في القرآن الكريم نوعين من الآيات: نوعاً فيه الحق بمعنى الحقائق، وفيه النور والهدى لكل الناس، وهذا القسم يصدّق لآيات أخرى ليس فيها حقائق علمية وهي ليست لجميع الناس بل للمؤمنين، وهي آيات الدين الإسلامي، الآيات التي تشرح العقائد والإيمان والعبادات والحرام والحلال، وفيها آيات الصراط المستقيم، وفيها يبيّن الله تعالى ما يجوز للمؤمن أن يفعله وما لا يجوز فعله وما هو الطريق الذي يمكن للمؤمن أن يسلكه لإرضاء الله وكسب الدنيا والآخرة وفيها أيضاً آيات الشرع والأحكام والحقوق.

وباختصار نقول: القسم الأول يتضمن الأنباء، وبهذه الأنباء يصبح محمد ﷺ نبيّاً، والقسم الثاني يحوي الرسالة التي يجب تبليغها لكل الناس من أجل الإيمان بالله، وبه أصبح محمد ﷺ رسولاً لله تعالى. وباختصار أشدّ آيات للنبوة، وآيات للرسالة.

النوع الأول فيه آيات الإعجاز والتحدّي وهو الذي يشهد للقسم الثاني الذي ليس فيه حقائق من علم الله ومن غيبه، وكأنها تقول لكل الناس: لا يمكن أن تكون هذه المعلومات لمخلوق من مخلوقات الله، لأنها فوق مستوى معرفة كل المخلوقات ولا بدّ أن تكون إذاً من علم الله سبحانه وتعالى، ولكن سيأتي يوم يعرف فيه الناس هذه الحقائق من ملاحظاتهم ودراستهم لمخلوقات الله بحكم أنها حقائق علمية أورياضية أوتاريخية وعندها سوف يقولون: نعم لم يكن في زمن محمد ﷺ من يعرف كل هذه الحقائق العلمية والتاريخية، نذكر على سبيل المثال أن من يتبع تاريخ مصر القديم في القرآن يلاحظ أن الله سبحانه عندما يتحدث عن موسى في مصر لا يذكر إلّا فرعون، وعندما يتحدث عن يوسف في قصة يوسف لا يشير إلا إلى الملك في الإشارة إلى من كان يحكم مصر زمن يوسف، ويتبين للمؤمن أن مصر حكمها نوعان من الحكام: نوع كانوا يسمّون أنفسهم بالفراعنة، وآخرون كانوا يتلقبون بالملوك.

وبالرجوع إلى تاريخ مصر نعلم أن البطالسة الذين غزوا مصر كانوا يسمون رؤساءهم بالملوك فنستنتج من القرآن أن يوسف دخل إلى مصر في عهد البطالسة. وكذلك نرح

أخوته إلى مصر في عهد البطالسة. لكن الفراعنة عادوا وتغلبوا على البطالسة وطردوهم واستعادوا الحكم وهذا يفسر لنا كيف خضع بنو إسرائيل للعبودية في عهد الفراعنة، واضطهدوا لأنهم كانوا يعدّونهم خونة من الذين ساعدوا البطالسة عليهم: ﴿وإذْ نجّيناكم من آلِ فرعونَ يسومونكم سوءَ العذابِ يُذبِّحونَ أبناءكُم ويستَحْيونَ نساءَكم﴾(١١).

وهكذا نجد أن كل هذه الحقائق وما يماثلها من أنباء تصدّق لرسالة الرسول ﷺ وتثبت أنها ليست من عند الرسول ﷺ فمن يملك هذه الحقائق يجب أن يكون مصدَّقاً لما معه، وبأن رسالته من السماء، فهذه الآية وأمثالها تصديق لما بين يديه من آيات الرسالة التي منها على سبيل المثال:

﴿يا أيها الذينَ آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبُوه﴾(١٢).

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لاتَتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ﴾(١٣).

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتُم للصلاة فاغسلوا وجوهَكم﴾(١٤).

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تأكُلوا أموالكُم بينكُم بالباطل﴾(١٥).

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا آباءكُم وإخوانكُم أولياء إن استحبّوا الكفْرَ على الإيمان﴾(١٦).

فهذه الآيات كلها أوامر وليس فيها حقائق وهي تحتاج إلى ما يصدّقها لكي يستجيبَ لها الناس، ويقتنعوا برسالةِ الرسول، ولا سبيل إلى إقناعهم إلا ببراهين تظهر لهم علم الله ومعرفته.

والآن بعد أن اكتشف العلماء حقائق كثيرة عن الكون والعلوم بدأت الحقائق العلمية الموجودة في القرآن تضيء في أعين الناس، فبدت لهم أسرار المعرفة الإلهية في القرآن التي كانت مغيّبة عنهم، كأسرار علم الفلك والجيولوجيا أو علم الأجنة، وعلم البحار وعلم طبقات الجو، وتبين للناس بعد كشفها أن القرآن لا يمكن إلا أن يكون من عند الله، لأن هذه المعلومات حديثة جداً لم تكن معروفة، ولم تخطر في ذهن أحد من البشر في ذلك الوقت، ولا من باب التفكير المجرد، وهي تدعم آيات الرسالة وتؤكد أن القرآن كله من عند الله سبحانه وليس فيه كلمة ولا حرف من صنع البشر.

---

(١١) سورة البقرة: ٤٩
(١٢) سورة المائدة: ٩٠
(١٣) سورة المائدة: ٥١
(١٤) سورة المائدة: ٦
(١٥) سورة النساء: ٢٩
(١٦) سورة التوبة: ٢٣

إن هذا القرآن باقٍ إلى يوم الدين بين أيدي الناس، وإن دوره بين البشر قادم، ولسوف تأخذ به البشرية من جديد، لأنه لا يمكن أن تصلح حال البشرية إلّا به، وبفضل الذين يعملون به ويدعون إليه، من المؤمنين وأئمة المتقين. ولنعد ثانية إلى موضوعنا، فنتمعن بالآيةِ الآتية: ﴿وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقّ مصدّقاً لما بينَ يديهِ منَ الكتابِ ومُهيمِناً عليه فاحْكُمْ بينهم بما أنزَلَ اللهُ ولا تتّبعْ أهواءَهُم﴾(١٧).

لاحظ كيف يتدرج الله سبحانه وتعالى في إظهار الحقائق لمن يطلبها في آيات القرآن الكريم، خطوة تليها خطوة، وهكذا تجد أن المعنى يغتني بالتدريج في ذهن الباحث عن الحقيقة، فالله سبحانه وتعالى بعد أنْ علّمنا أنّ قسماً من الكتاب يصدّق القسم الآخر بل يهيمن ويسيطر عليه بآيات كلها حقّ ونور، وهدى وقوة، تهيمن على آيات ليست إلا أوامرَ ونَواهٍ من الله تعالى لعباده المؤمنين والمتّقين. وبعد أن أدركنا هذه الحقيقة يمكن في ضوئها أن نفهم الآية الآتية: ﴿هوَ الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ فأما الذينَ في قلوبهم زيغٌ فيتبعونَ ما تَشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله وما يعلمُ تأويلَه إلّا اللهُ والراسخون في العلمِ يقولون آمنا به كلٌّ من عندِ ربّنا وما يذّكّر إلا أولو الألباب﴾(١٨).

فمعنى الآية أصبح واضحاً في أذهاننا، فالكتاب الذي هو المصحف فيه نوعان من الآيات: نوع من الآيات المحكمة وهي آيات الأحكام التي بيّن الله لنا بأنها يمكن أن تنسخ وتعدل بأحكام جديدة بحسب تغيّر الزمن وتغيّر الظروف: ﴿ما نَنْسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخير منها أو مِثلها﴾(١٩).

والنسخ لا يمكن أن يكون لآيات القرآن من النوع الأول، لأن الحقائق لا تتطور مع الزمن، فهي ثابتة ولا يمكن إجراء تعديل عليها. والنوع الثاني من الآيات يتطور موضوعه مع الزمن ويمكن نسخه كالآية الكريمة الآتية مثلا:: ﴿لا تقربوا الصلاةَ وأنتُم سكارى حتى تَعلموا ما تَقولون﴾(٢٠) فقد نزلت عندما كان الإسلام في أوله ولم يكن إيمان المسلمين قد قوي لدرجة تسمح لهم أن يهجروا السكر والخمر لمجرّد النهي عنه، لأنها إدمان مستحكمٌ فيهم منذ الجاهلية، والله يعلم ذلك، فأمهلهم حتى تبدلت الظروف وأصبح إيمان المؤمنين بالقوة الكافية لترك الخمر إذا نهاهم عنه، وعند ذلك أنسى الآية

(١٧) سورة المائدة: ٤٨
(١٨) سورة آل عمران: ٧
(١٩) سورة البقرة: ١٠٦
(٢٠) سورة النساء: ٤٣

المذكورة، وأنزل بدلاً عنها آية أخرى هي: ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ﴾[٢١] وهذا النوع من الآيات كلها يشكل في المصحف قسماًيدعوه الله سبحانه «أم الكتاب» أما باقي الآيات التي يسمّيها الله سبحانه بالمتشابهات ففيها علوم وأنباء من الله سبحانه بعضها معروف من قبل أهل الكتاب من القصص القرآني، أما الحقائق العلمية فلم تكن معروفة في ذلك الوقت لأحد، لذلك يقول الله سبحانه إن بعض الناس الذين ممّن نفوسهم غير صافية من المنافقين والكفار كانوا يأخذون هذه الآيات لتأويلها حسب ظنونهم وأوهامهم فتنة وتفرقة للمؤمنين، أما الذين كان إيمانهم راسخاً ومعلوماتهم عن الله وآياته راسخة في قلوبهم فكانوا يقولون: آمنّا به، أي: يسلّمون بها دون أن يعرفوا تأويلها، لأن الله سبحانه قد أعلمهم سلفاً أن وقت تأويل الآيات هذه لم يحن بعد، وسيظهر تأويلها في المستقبل بإرادة الله: ﴿ولَتَعْلَمُنّ نبأه بعدَ حين﴾[٢٢].

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الله سبحانه لم ينزل وحيَيْن ولا كتابين بل كتاباً واحداً من قسمين: قسم يحوي القرآن، وقسم يحوي الأحكام، ولكن آيات القسمين متداخل بعضها في بعض بأسلوب إلهي: ﴿وقالَ الذينَ كفروا لن نُؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي بينَ يديه﴾[٢٣].

كذلك يتضح لنا أن القرون الطويلة التي أمضاها السلف لاهثاً وراء ذلك الكتاب الموهوم كان سعياً إلى سراب ووهم ضاعت فيه جهودهم كلها هباءً منثوراً، لماذا؟ لأنهم ضلّوا سواء السبيل فأضلّهم الله وتاه رأيهم، فوهموا أنهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿الراسخونَ في العلْم﴾ وكأن الرسول والصحابة لم يؤتوا العلم لأنهم كانوا من الأميين. وفاتهم أن الله سبحانه كان يقصد بالراسخين في العلم الرسول الكريم الذي كان علمه من الله، ولم يكن يدعي مثلهم مالا علم له به، ولم يؤلف مثلهم كتاباً عن الروح التي كان يجهل علمها، فعلوم هؤلاء كانت من الأوهام والأباطيل. فهم يتحدثون عن عرش الله، ووصف ملائكته الكرام ووصف اللوح المحفوظ ووصف الكرسي، وكيف خلق الله العالم والكون؟ وماذا خلق في يوم الأحد؟ وفي يوم الإثنين، وفي أي يوم استراح وجلس في البيت لا يعمل شيئاً، لأنه تعب من أعمال الأسبوع، وهذا كله من تخريفات اليهود أدخلت إلينا بفضل رواة الحديث بعد أن صنعوا لها سنداً وأسندوها في النهاية للرسول الكريم. كذباً وبهتاناً.

---

(٢١) سورة المائدة: ٩٠ (٢٢) سورة ص: ٨٨ (٢٣) سورة سبأ: ٣١

وقد نتساءل لماذا لم يكشف الله سبحانه وتعالى للبشر علمه ومعرفته الحقائق العلمية كأن يقول لهم مثلاً: إن الأرض كروية ولا يحملها ثور أو حوت، وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس، وهي ليست مركزاً للكون، إلى آخر تلك الحقائق...؟

أعتقد أن هناك سببين رئيسيين لإرجاء الخالق إظهار علمه للناس:

أولاً: الخلفية العلمية والمعرفية لدى الناس، فأغلبهم أميّون غير متعلمين ولا هم مهيؤون لتفهم تلك الحقائق، ولسوف يؤدي إظهار هذا العلم لهم، وهم عاجزون عن تمثله إلى ضرر يتجاوز النفع، فهم على الأقل قد ألفوا تصور وقوف الأرض على قرن ثور، وهي صورة حسية تقترب من مداركهم ويستطيعون تخيّلها فإذا فاجأناهم بأنها تسبح في الفضاء، بدت هذه الحقيقة أكبر من تصوراتهم في ذلك الحين.

أما السبب الثاني في حجب الله علمه عن الناس آنذاك فيعود إلى تقدير الله عز وجلّ أنهم غير مهيئين علمياً في ذلك الزمن لتقبل العلم، وأن نقلهم من أميين إلى متعلمين يتطلب مراحل من الزمن ودرجات من التطور، وخاصة فيما يتصل بالحقائق العلمية العامة التي لا تتصل بحياتهم اليومية المباشرة، إذ ليس يعنيهم كثيراً أو يؤثر في حياتهم اليومية أن يعرفوا مثلاً أن الأرض تدور حول الشمس أو القمر يدور حول الأرض، وأن انتزاع ما ألفوه من حقائق في عقولهم قد يعود عليهم بالضرر أكثر من النفع، ولكن ذلك لا يعني أن الله عزّ وجل أراد أن يثبتهم في الجهل، ولا يعني كذلك أن هذه العلوم الدنيوية ليست ضرورية وأن (الجهل بها لا يضر) أو (أنها من باب العلم الذي لا ينفع) كما زعم بعض علماء الدين الذين اعتبروا أن علوم الدين وحدها هي النافعة، وهو كلام خطير، لأنه دعوة لتثبيت الجهل، والله يدعونا إلى العلم ويحثنا عليه: ﴿قُلْ سيروا في الأرضِ فانظروا كيف بدأ الخلق﴾(٢٤) ذلك أن علوم الدين لا تعلم الإنسان كيف بدأ الخلق على الأرض، ولا تمكن من دراسة تاريخ البشرية، قال تعالى: ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذّبين﴾(٢٥) ففي هذه الآية دعوة صريحة لدراسة تاريخ الأمم البائدة كالفراعنة والاعتبار بمصيرها، ودواعي غضب الله عليها وإبادتها، وعلوم الدين لا تمكن من دراسة تطور المجتمعات، وما في داخل النفس الإنسانية من نزعات وأهواء وميول، وهي لا تساعد على معرفة الأمراض وأسباب انتشارها وطرق معالجتها، كمرض الإيدز الذي يهدد البشرية الآن.

---

(٢٤) سورة العنكبوت: ٢٠ (٢٥) سورة الأنعام: ١١

ولنتابع بحثنا في آيات القرآن المحكمات والمتشابهات، ونقرأ الآية الكريمة الآتية: ﴿وما كان هذا القرآنُ أن يُفترى من دون اللهِ ولكنْ تَصديقَ الذي بينَ يديه وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين﴾(٢٦).

نلاحظ أن هذه الآية قد تقدمت بناخطوة أخرى نحو الوضوح فقد حددت اسم الكتاب الذي يحوي آيات الحق (الآيات التي فيها الحقائق العلمية والتاريخية) فسمته القرآن. وأعلنت أنه يحتوي حقائق علمية وقصص تاريخية يدخل في باب العلم الإنساني، ويتناول وقائع وأحداثاً جرت لأقوام حقيقيين عاشوا فعلاً. وتشير أيضاً إلى أن هذا القرآن ما كان لأحد من خلق الله القدرة على افترائه، لأن المعلومات التي فيه هي فوق مستوى كل هذه المخلوقات وقدرتهم، فالغرض من هذا الجزء (القرآن) تصديق الجزء الثاني الذي فيه آيات الرسالة والذي يحوي آيات الأحكام والعبادات والحلال والحرام والصراط المستقيم أو الفرقان. ثم يشير الله سبحانه إلى نوع جديد من الآيات يسميها (آيات تفصيل الكتاب) وهي آيات شارحة وموضّحة لآيات القرآن الكريم: ﴿يا أهلَ الكتاب قد جاءكُم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير وجاءكُم من الله نورٌ وكتابٌ مُبين﴾(٢٧) وما يهمنا من هذه الآية هو القسم الأخير منها: ﴿وجاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ فقد جاءنا من الله نوعان من الآيات: الأول عبّر عنه بكلمة (نور) وهو القرآن الذي يحوي الحقائق، وهل بعد الحقائق نور؟ والثاني سمّاه: (كتاب مبين) أي كتاب يبين للناس أحكامهم وحقوقهم، ويبين ما هو ممنوع أو مسموح به، وهو الرسالة، وهكذا نجد أن الحقيقة واضحة في كتاب الله، فالله لم يرسل ولم ينزل إلا وحياً واحداً وكتاباً واحداً وسنة واحدة وحديثاً واحداً وكلاماً واحداً لله سبحانه، ومن اعتقد غير ذلك يكون من الذين ظلموا أنفسهم وضلوا الطريق فأضلّهم الله ألف سنة، ولسوف يضلهم ألفاً أخرى إن لم ينتبهوا لأنفسهم ويتبيّنوا كتاب الله، فإن الله سبحانه وتعالى إذا يئس من قوم استبدل بهم آخرين، وهذه سنته المعلنة لكل الناس، يعطي أرضهم لأمم أخرى تستحقها، أمة تستطيع أن تعمل وتنتج بدل أن تنام وتستسلم إلى الأحلام:

﴿وإن تتولّوا يَستبدلْ قوماً غيرَكُم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾(٢٨).

---

(٢٦) سورة يونس: ٣٧ (٢٧) سورة المائدة: ١٥ (٢٨) سورة محمد: ٣٨

﴿إن الأرضَ للهِ يورثها من يشاءُ من عباده﴾[29].

وبعد أن عرفنا الحقيقة كاملة من القرآن الكريم فيما يتعلق بالكتاب وكيف يتألف من جزأين علينا أن نبحث في القرآن عن الآيات التي فيها الحكمة التي التبست على القدماء، فماذا يقصد بها الله سبحانه؟ وماذا تعني كلمة الحكمة في القرآن الكريم؟

﴿يؤتي الحكمةَ منْ يشاء ومنْ يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً﴾[30].

﴿ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أن اشكرْ لله﴾[31].

﴿ذلك مما أوحى إليكَ ربّكَ من الحكمة﴾[32].

الآيتان الأولى والثانية توضحان معنى كلمة الحكمة تماماً، وهي لا تحتاج إلى شرح إضافي وما صار لقمان حكيماً إلا بتلك الحكمة التي آتاه الله بها.

غير أن ما يعنينا موجود في الآية الثالثة، فالله سبحانه وتعالى يتحدّث هنا عن آيات خاصة في القرآن الكريم من وحيه يسميها (الحكمة) فما هي؟

﴿لا تجعلْ مع الله إلهاً آخرَ فَتَقْعُدَ مذموماً مخذولاً﴾[33]. إلى أن قال سبحانه:

﴿ذلك مما أوحى إليك ربّكَ من الحكمةِ ولا تجعَلْ مع اللهِ إلهاً آخر فَتُلقى في جهنم ملوماً مدحورا﴾[34]. وإليكم الآيات كاملة:

﴿لا تجعلْ مع الله إلهاً آخرَ فتقعدَ مذموماً مخذولاً * وقضى ربكَ ألا تعبدُوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغَنَّ عندكَ الكبرَ أحدهُما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريماً * واخفضْ لهما جناحَ الذّل من الرحمةِ وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صَغيراً * ربكُم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً * وآتِ ذا القربى حقَه والمساكينَ وابنَ السبيل ولا تبذّرْ تبذيراً * إن المبذرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ وكانَ الشيطانُ لربّه كفوراً * وإما تعرضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربّك ترجوها فقل لهم قَولاً ميسوراً * ولا تَجعل يدكَ مغلولةً إلى عنقكَ ولا تبسطها كلَّ البسط فتقعدَ ملوماً مَحسوراً * وإنّ ربكَ يَبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * ولا تقتلوا أولادكُم خَشْيةَ إملاقٌ نحنُ نرزقهم وإياكُم وإن قتلهم كان خِطئاً كبيراً * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً * ولا تقتلوا

(29) سورة الأعراف: ١٢٨
(30) سورة البقرة: ٢٦٩
(31) سورة لقمان: ١٢
(32) سورة الإسراء: ٣٩
(33) سورة الإسراء: ٢٢
(34) سورة الإسراء: ٣٩

النفس التي حرم الله إلا بالحقّ ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرفْ في القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هيَ أحسنُ حتى يبلغَ أشدّهُ وأوفوا بالعهد إن العهدَ كانَ مسؤولاً * وأوفوا الكيلَ إذا كلتمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً * ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به علمٌ إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنه مسؤولاً * ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنكَ لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً * كل ذلكَ كانَ سَيِّئُه عند ربّك مَكروهاً * ذلكَ مما أوحى إليكَ ربكَ من الحكمةِ ولا تجعلْ مع اللهِ إلهاً آخرَ فتُلقى في جهنّم مَلوماً مدحوراً﴾(٣٥).

وهذه الآيات كلها محصورة بين آيتين للنهي عن الإشراك بالله وهماً:

١ ـ ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ وهو وصف حال المشرك والمشركين في الدنيا ثم الآية.

٢ ـ ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في نار جهنم ملوماً مدحوراً﴾ وهو وصف حال ومصير المشرك في الآخرة ومن هذين الوصفين نعلم علم اليقين من الله سبحانه بأن المشرك هو الذي يخسر الدنيا والآخرة معاً نتيجة إشراكه حتى وإن كان من غير علم بإشراكه، ومابين الآيتين مجموعة من الوصايا هي:

١ ـ عدم الإشراك بالله.

٢ ـ عبادة الله وحده.

٣ ـ الإحسان للوالدين.

٤ ـ دفع الزكاة والصدقات للفقراء والمستحقين.

٥ ـ عدم القيام بالإجهاض خوف الفقر.

٦ ـ الابتعاد عن الزنا.

٧ ـ عدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

٨ ـ عدم أكل أموال اليتامى.

٩ ـ الصدق والابتعاد عن الكذب وعدم الإخلاف بالعهود.

---

(٣٥) سورة الإسراء ٢٢ ـ ٣٩

١٠ ـ عدم الغش والكذب في المكاييل والموازين.

وهذه وصايا عشرة.

وهناك معها خمس وصايا أخرى إضافية يقول عنها سبحانه بأن سيئها عند الله مكروه: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾.

١ ـ الامتناع عن الإسراف والتبذير.

٢ ـ الابتعاد عن البخل ـ والإقبال على الكرم.

٣ ـ عدم الوقوع في الظلم بالإسراف في القتل عند أخذ الثأر.

٤ ـ لا تقف ما ليس لك به علم.

٥ ـ الابتعاد عن الكبر والتكبر: ﴿لاتمش في الأرض مرحاً﴾.

ومجموع هذه الوصايا كلها يسميها الله سبحانه بآيات الحكمة في القرآن الكريم.

هذه الآيات كما هو ظاهر من نصها ومعناها يشير إليها الله بكلمة الحكمة، ويتبين لنا مما جاء فيها أنها نزلت على كل آل إبراهيم من الأنبياء والرسل، أي نزلت على موسى وعيسى أيضاً. لذلك يقول الله سبحانه إنه آتى موسى وعيسى الكتاب والحكمة، وإذا علمنا أن موسى عليه السلام قد تلقى الكتاب ومع الكتاب تلقى الفرقان. ومن آيات الفرقان التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ في سورة الفرقان نستدلّ أن الفرقان هو الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو نفسه آيات الحكمة التي قرأناها في سورة الإسراء، ونحن نعلم من أهل الكتاب أن موسى عليه السلام قد تلقى من ربه الوصايا العشرة على الألواح عند لقائه ربه في جبل الطور، فإذا قرأنا الوصايا العشرة عند أهل الكتاب وجدناها هي نفسها آيات الصراط المستقيم، من هنا يتبين لنا أن المترادفات الآتية: الوصايا العشرة، الصراط المستقيم، الفرقان، آيات الحكمة، كلها أسماء لمسمّى واحد، وهي تعني مجموعة النواهي الثابتة التي تعدّ من الكبائر والتي ينهانا الله عنها نهياً قاطعاً.

ومن أراد مزيداً من التأكد فبإمكانه أن يعود إلى الآيات الآتية من آخر سورة الفرقان: من قوله تعالى: ﴿وعبادُ الرحمن الذينَ يمشونَ على الأرضِ هَوناً﴾ (٣٦) وحتى الآية: ﴿خالدين فيها حَسُنَتْ مُستقراً وَمُقاماً﴾(٣٧).

---

(٣٦) سورة الفرقان: ٦٣ (٣٧) سورة الفرقان: ٧٦

والفارق الوحيد بين آيات سورة الإسراء وآيات سورة الفرقان: أن الأولى كانت محض نصائح وأوامر لتصبح صفات بعد أن تشبعت نفوس المؤمنين بها في سورة الفرقان، أمست منهج الرحمن للناس في حياتهم وأمور دينهم ودنياهم.

من ذلك كله يظهر لنا أن الدعوى القديمة، والتي يدعمها بعض رجال الدين حتى اليوم، من وجود وحيين وكتابين هي دعوى باطلة لا أساس لها في القرآن الكريم، كانت مجرد التباس وظن كُبِّر وضُخِّم لغاية أو جهل، والله أعلم بما كان في نفوسهم، أجل وليس هناك أي وحي آخر سوى القرآن الكريم أرسل للرسول، ومن يزعم بوجود حديث خاص أو سنة خاصة أو كلام خاص للرسول ﷺ في الإسلام والقرآن فهو واهم، ووهمه يؤدي إلى ضلال وإضلال، وقد ظهر لنا أن كل آيات الله في القرآن شاهدة على عدم وجود ما توهمه الأقدمون والمحدثون من تصوّرٍ لوجود حديث خاص للرسول وأنه واجب الوجود لفهم القرآن، افتراء لا يدعمه شيء على الإطلاق.

﴿قل هاتوا برهانَكُم إن كُنتم صادقين﴾(٣٨).

﴿أم لكم سلطانٌ مبين. فأْتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾(٣٩).

﴿الذين يجادلون في آيات اللهِ بغيرِ سلطانٍ أَتاهم﴾(٤٠).

وهكذا نجد أن آيات الحكمة هي من صلب القرآن الكريم ومن معدود آياته التي تعهد الله سبحانه بحفظها إلى يوم القيامة عندما قال: ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(٤١).

والحمد لله الذي أعاننا على أن نبرهن بالآيات الكريمة التي كانت شاهدة على صدق دعوانا: ﴿قلْ كَفى باللهِ شهيداً بيني وبينكُم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾(٤٢) وما من شهادة أقوى من شهادة القرآن ولكي لا يكون ما بيّنت حجة لأحدهم في الكلام حول هذا الموضوع الهام سنسير في درب أطول وأصعب، فنبرهن من خلال الأوامر الصحيحة للرسول ومن خلال مواقف الصحابة الكرام أنه لا صحة لوجود كتابين أو حديث للرسول يتمم الكتاب، فقد أمر الرسول ﷺ أمراً صريحاً بعدم كتابة كلامه الخاص، وتعليقاته الخاصة، وشرحه الخاص، وفهمه الخاص لآيات الله، لكي لا يضيع على المسلمين منهج القرآن ويغريهم باتباع غيره من الكتب. وسنتعرف موقف الصحابة

(٣٨) سورة البقرة: ١١١
(٣٩) سورة الصافات: ١٥٦ - ١٥٧
(٤٠) سورة غافر: ٣٥
(٤١) سورة الحجر: ٩
(٤٢) سورة الإسراء: ٩٦

من هذا الأمر الرسولي، وكيف تلقوه، وكيف نفّذوه، وهل أخذوا به والتزموه، وسنجد أنهم كلهم قد انصاعوا لأمر الرسول ﷺ مستندين إلى صحة الحديث الذي أمرهم به، ولو أن أمر الرسول لم يكن مؤكّداً لما كان إجماع الصحابة على إحراق ما كتبوا من الأحاديث، هذا يدل على أن الأمر صدر، وأنه نُفّذ كما يجب، فالأمر والتنفيذ مرتبطان، أحدهما يصدق الآخر، وليس لأحد أن يتقوّل بأن الرسول لم يصدر هذا الأمر، إذ كيف له أن يذهب إلى ذلك الظن مع أنه يعلم أن كبار صحابة رسول الله قد استجابوا له ونفذوه وأحرقوا ما عندهم من أحاديث مدونة، فهل يعقل أنهم أقدموا على ذلك واجترؤوا عليه دون أمر من الرسول؟ لكن بعض الذين اتبعوا أهواءهم وشيطانهم الخاص تسلّحوا بأحاديث دسوها، وأدخلوها بأساليب شيطانية على أقوال الرسول، ولا يؤخذ برأيهم لأن حججهم واهية، لا يقبل بها عقل أو منطق.

وبعد أن نبين للقارىء موقف الصحابة من رواية أقوال الرسول ﷺ نطوف معه في عرض ما ترتب على سوء فهم المتأخرين لمعنى الكتاب من نتائج جعلت المسلمين يرتدون قروناً في ظلام كهف بَنَوْهُ لأنفسهم بجهلهم، وسدّوا عليهم منافذ النور، والله الموفق لكل من استعان به وهداه إلى صراط مستقيم(*).

(*) إن أسلوب استقراء الآيات القرآنية وأغلب الأفكار الواردة في هذه الفقرة مستوحاة من كتاب: (الكتاب والقرآن) للدكتور محمد شحرور، فله منا جُزيل الشكر على أسلوبه العلمي الجديد وأفكاره النيرة التي أفادت، وسوف تفيد كثيراً من المسلمين، وتفتح آفاقاً جديدة في مجال الفكر الإسلامي الحديث. وقد سبق الدكتور شحرور ليكون أول مفكر إسلامي استطاع أن ينتشل أفكار القرآن وبريق آياته من تحت الركام الانهياري نتيجة العصر الجليدي والسبات الشتوي الطويل للمسلمين دام أكثر من ألف عام، وهو أول كتاب استطاع إيصال نور الحق الذاتي الموجود في آيات القرآن إلى بصيرة القارئ مباشرة دون أن يضيع ذلك الضوء في غياهب التخبط والأوهام الخادعة.

١١ ـ الموضوع الثاني:
هل نهى الرسول الكريم عن كتابة حديثه وسنته؟

لقد بينا في مواضع كثيرة من هذا الكتاب أنْ ليس ثمة حديث رسمي للرسول أو سنّة رسمية لها مفعول في الإسلام والعقيدة الإسلامية، بحكم أن محمد بن عبد الله هو رسول الله وعبده، المأمور بإيصال رسالة محدّدة للناس وإبلاغها، دون أن يكون له حرية التصرف من عنده، فهو ملتزم التزاماً صارماً نصَّ الكتاب دون أن تكون له حرية التأويل أو التفسير كما يشاء على الإطلاق، وقد كان الرسول ﷺ تحت عين الله ومراقبته الشديدة، ليس خوفاً منه، فقد كان الرسول محباً لله ولدينه متفانياً، بل خوفاً عليه من الناس والمنافقين والشياطين، وخوفاً عليه من نفسه الإنسانية التي يعرف الله سبحانه صفاتها أفضل من أي إنسان في الوجود، فهو الذي خلق هذه النفوس وطوّرها وأوصلها إلى ما هي عليه، والله يعلم ما في النفس البشرية من ثنائية الخير والشر، ولا يريد لرسوله الذي يعدّ أسوة وقدوة للمؤمنين على الأرض أن يقع في أي أخطاء بشرية مهما كان نوعها، فكان يعصمه من أخطاء نفسه، ويعصمه من الناس ونواياهم في معارضة الإسلام والمؤمنين برسالته.

وليس للرسول ﷺ بذاته أي صفة إضافية تسوّغ له حق التصرف في مستوى العقيدة أو التبليغ، أو الاجتهاد بأي كلمة أو قول يخرج عن المنهج الإلهي الكامل والواضح والموجود بشكل تام دون نقص أو إبهام في نص القرآن الكريم.

أما تصرّف الرسول حاكماً وقاضياً ومدبّراً لشؤون المؤمنين حوله في المدينة، ومن ثم في الجزيرة العربية، وما يترتب على ذلك من مواقف وتصرفات وأقوال وأفعال، فليس لها علاقة بصلب العقيدة الإسلامية، ولا بتبليغ الرسالة التي لها صفة الديمومة بدوام القرآن والدين الإسلامي على الأرض. بينما نجد الصفات العارضة مثل صفة الحاكم لمجموعة من المؤمنين، في زمان محدّد، وبقعة محدّدة من الأرض لها سمة المحدودية الزمانية والمكانية، الظاهرتين في تلك الوظائف الدنيوية التي ليس لها علاقة بالمهمة الكبرى التي كلفه إياها الله سبحانه وتعالى.

فأوامر الرسول وتعليماته في معركة بدر أو أُحد أو حُنين، ومواقفه مع اليهود حسب

الظروف المختلفة، وأوامره ونواهيه فيما يتعلق بإدارة شؤون الناس قائداً عاماً للجيش أو حاكماً دنيوياً أو قاضياًشرعياً، كل هذه الأمور لها الصفة المحلية الزمانية والمكانية وهي تنتهي بانتهاء الزمان والمكان، وليس لها صفة الاستمرار والدوام، وليست من الدين، أما مهمته في كونه رسولاً مكلفاً التبليغ للناس كلهم وكونه اختير من الله لينزل عليه القرآن ويرتبط اسم الإسلام باسمه واسم رسالته فموضوع آخر ترتبط فيه طاعة الرسول وصفته بإطاعة الله مباشرة في كل ما ورد من القرآن الكريم بالنص. وليس للرسول أن يضيف على هذا النص أو ينقص منه إلا بمقدار ما سُمح له أو حُدّد له بالتفصيل.

وكان المسلمون الأوائل من صحابة الرسول يدركون كل هذه الأمور تمام الإدراك لذلك لم يقعوا في أية إشكالات من أي نوع يمكن أن تجر أقدام المؤمنين إلى سبيل جديد غير السبيل الصحيح الذي تعلّموه وعرفوه بشكل مباشر وأكيد من رسولهم المحبوب لديهم جميعاً ﷺ، ونذكر على سبيل المثال أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم كانوا يعلمون أن الأمر الذي سمعوه من الرسول والذي يقضي بأن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة ليس له علاقة بالرسالة ولا بالدين الإسلامي، ولا بالعقيدة الإسلامية، فهو أمر محلّي ينتهي مفعوله في اليوم نفسه، وكذلك كلّ أوامر الرسول وتعليماته وأحكامه الشرعية، كان لها صفةُ المحدودية الزمانية والمكانية على الدوام ومن هنا يعلم سبب نهيه عن كتابة أقواله وأفعاله خشية أن يصبح لهذه الأقوال والأفعال التي ليس لها صفة الثبات والديمومة لأنها جاءت في زمان ومكان محددين صفةُ الثبات والاستمرار والتعميم، فتطبق في زمان أو ظرف أو مكان لا تصلح له، ولكن النفس الأمارة بالسوء المفطورة على حب الممنوع، تنزع لكل منهيّ عنه برغبة ملحة سماها الله سبحانه في القرآن (الهوى) أو (غواية النفس) أو (غواية الشيطان)، والمؤمن الذي يقوى إيمانه تضعف بالمقابل غواية شيطانه، وقوة إيمانه تدفعه على أن يطبق ما يطلب الرحمن، أما ضعيف الإيمان فيقوى شيطانه حتى ينتصر أخيراً على الحق وأوامر الله في داخله، وهذا ما يفسر لنا أن المؤمنين الأوائل من صحابة الرسول لم يخالفوا على الإطلاق تعليمات الرسول وأوامره أبداً، ومنها ضمناً ما يتعلق بكتابة أقوال الرسول الخاصة، لأنهم كانوا يعلمون أنه نهى عنها بشدّة، فكانت قوة إيمانهم تعصمهم عن الوقوع في الخطأ، ولكن بعد مرور الزمن، جاءت أجيال ضعف إيمانها وقوي الشيطان في نفوس أفرادها وأغراها بتجاوز كل محظور ومن ذلك كتابة الحديث، وكان الذين أقدموا على كتابة الحديث يشعرون في أعماقهم بتأنيب الضمير والخوف من الله لعلمهم أنهم يقومون بشيء مُحرّمَ

عليهم، من ذلك قول الزهري (استكتبني الملوك فأكتبتهم، فاستحييت الله إذ كتبها الملوك ألا أُكْتِبَها لغيرهم)(*) فهو يتذرّع بأنه استحيا من عامة الناس بعد أن كتب الأحاديث للملوك، ولكنه في أعماقه يعلم أنه يخالف أوامر الرسول ﷺ الصريحة وأمر الرسول بعدم كتابة الحديث عنه من الأمور التي لها علاقة بالدين الإسلامي لأن الرسول ﷺ يعلم أن الله سبحانه قد نهى أن يبلغ الناس إلّا النص القرآني فحسب، ولم يطلب منه الله سبحانه أن يبلغ أيضاً أقواله المحليّة وتصرفاته الشخصية لتكون من الدين إذ ليس للدين والعقيدة أية علاقة بهذه الأمور المحلية والمحددة بالزمان والمكان.

وإن أغلب الذين أدخلوا أحاديث الرسول ﷺ وأفعاله وتصرفاته الخاصة في الدين فعلوها وهم يعلمون أنهم يفعلون الممنوع، ويقعون في المعصية، لكن الهوى والشيطان كانا أقوى من الإيمان في تلك الفترة، ففعل الشيطان ما يريد. وما نحاوله نحن الآن في هذا الكتاب هو إعادة صورة الحقيقة وكيف وقع الناس في الأخطاء في ذلك الزمان، ممّا أثر في مستقبل الإسلام والمسلمين، وما زال تأثيره السيء حتى الآن، لعدم ترك الخطأ والعودة للصواب، وهو أمر لا مصلحة للإسلام فيه ولا للمسلمين، ومن تبين له خطؤه أولى به أن يتراجع عنه، ولا يغيّر الله ما نحن فيه إلا إذا غيرنا ما في نفوسنا، فالله سبحانه وتعالى أعطانا المنهج ودلنا على الطريق، فإذا لم نستفد من ذلك كله واتبعنا ما في رؤوسنا من أوهام وكنا حلفاء للشيطان، وجنينا على أنفسنا وأولادنا والأجيال وتخلّى عنا الله وتركنا نفعل ما نشاء، ولا ينظر الله لصلاتنا وصيامنا فحسب وإنما ينظر إلى أعمالنا، فإن الله سبحانه لن يصيبه شيء إن سجدنا له أو إن كفرنا به جميعاً. لن نستطيع أن ننفعه إن أردنا، ولن نستطيع أن نضرّه إن شئنا ذلك أيضاً، فالعذاب والهوان والذل والجهل تعود نتائجها علينا. إن لم نرعو ونقبل النصيحة، ومن لا يريد أن يتّعظ بغيره ممّن سبقه، ولا يريد أن يسمع كلام الله سبحانه الذي وصله كاملاً بل آثر أن يُلحق به ما ليس منه، ويخالف أوامر الله والرسول. ولم يحاول أن يستخدم نعم الله الموجودة عنده من بصر وسمع وفؤاد وبصيرة، ولجأ بدلاً عنها للهوى، وكان وليه الشيطان وقاده ضلاله إلى الجحيم، ونال الهوان في الدنيا قبل الآخرة وهو أمر يلاحظه من كانت له بصيرة.

إن ما قدمناه من حقائق ليس فيها أوهام، نجد ما يخالفها مخالفة تامة في واقع تفكيرنا

(*) كتاب جامع بيان العلم وفضله ـ الجزء الأول ـ ص ٧٧

الديني. الذي امتد أكثر من ألف سنة، إذ نجد أوهاماً صدقناها دون أن نحتكم إلى عقولنا يوماً، فما تعليل ذلك كله؟ التعليل واضح ذلك أننا تركنا كتاب الحقائق، وهجرناه هجراً كلياً، وهو كتاب الله: القرآن الكريم واستبدلنا به كتاب الأوهام، أقصد كتاب الأقاويل والظنون والأحلام، فتحوّلت عقيدتنا الإسلامية إلى عقيدة وهمية بدلاً من أن تكون عقيدة حقيقية، ولمزيد من الإيضاح أضرب المثال الآتي:

لنفرض أن طالبين يحضّران لفحص الشهادة الثانوية، وكلاهما مسلم، ومؤمن بالله، ويقوم بالفرائض من صلاة وصوم. والطالب الأول نظّم لنفسه جدولاً زمنياً يحدد فيه ساعة استيقاظه ووقتاً لطعامه وراحته وصلواته، وحدد ما سيدرس في الصباح أو المساء، والتزم بدقة ما خططه لنفسه، وكان بعد كل صلاة يدعو الله أن يوفقه ويجعل من نصيبه النجاح.

والطالب الثاني أتاه من يوهمه ويقدّم له نصاً لدعاء ديني ويقول له: إن قرأت هذا الدعاء عشرة آلاف مرة مثلاً فأنت ناجح حتماً، فآمن الطالب بهذا الوهم ونفذه من دون أن يحضّر للامتحان، فمن يسمع ما قام به الطالبان ويفهم الدين بأسلوب القرآن يؤكد أن الطالب الأول هو الناجح بإذن الله، ومن يفهم الدين بأسلوب الوهم يقول: سوف ينجح من كتب الله له النجاح حتى من قبل أن يولد، وبما أن غالبية الناس لا زالت عقيدتهم ترتكز على الأوهام بدل ارتكازها على حقائق القرآن، فلا بد من أن نتابع الحوار والمناقشة آخذين بعين الاعتبار أن أغلب المسلمين اليوم هم على عقيدة الوهم أكثر منهم على عقيدة الحق.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دِيناً﴾[1] ونحن نعلم أن الرسول الكريم توفي بعد ذلك ولم يكن مكتوباً في القراطيس ومحفوظاً في الصدور إلّا وحي الله الذي نعرفه، أما ما عدا ذلك فلم يكن مكتوباً ولا محفوظاً في الصدور.

وإذا كانت أوامر الرسول وأقواله من الوحي كما يدّعون، فكان من الواجب أن تحفظ في الصدور على الأقل لتكتب بعد وفاة الرسول مباشرة، لأن هناك من يدعي ظلماً وبهتاناً بأن الله ورسوله وصحابته كانوا يخشون ألا يحفظ القرآن لو فعلوا ذلك، وكأن الله سبحانه عاجزٌ عن أن يفعل ذلك دون مساعدة أحد، وهو الذي يقول: ﴿إنّا نحنُ

---

(١) سورة المائدة: ٣

نزّلنا الذكر وإنا لهُ لحافظون﴾ إنهم يشركون بالله، ويجعلونَ له من يساعده في تدبير شؤونه وتنفيذ وعوده وعهوده، سبحان الله وأستغفر الله من كل ذنب عظيم، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ثم تعالوا نتابع السير معهم في طريقهم لنرى إلى أين يفضي: يقولون إن الصحابة كانوا يحفظون الحديث في صدورهم، ولو كان كلامهم صحيحاً. لكان ما رواه كلّ من رواة الحديث الذين اشتهروا بروايته، من أمثال أبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم وغيرهم كثير، متطابقاً بلفظه وروايته، في حين أننا لا نكاد نجد إلا أحاديث معدودة على أصابع اليد الواحدة اتفقت روايتها عن هؤلاء الأربعة المشهورين، فكيف إذا اشترطنا تطابق الرواية عند رواة الحديث جميعهم؟ من هنا نستدل أن دعواهم في أن الحديث كان محفوظاً في صدور الصحابة لا صحة لها، ولنتابع ما يقوله شيخ من شيوخ الإسلام عاش في القرن العشرين حول هذا الموضوع، وهو الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله: في كتابه (السنة)(*): «لا يختلف اثنان من كتاب السيرة، وعلماء السنة، وجماهير المسلمين من أن القرآن الكريم قد لقي من عناية الرسول ﷺ ما جعله محفوظاً في الصدور، مكتوباً في الرقاع والسعف وعلى الحجارة وغيرها، حتى إذا توفي رسول الله ﷺ كان القرآن محفوظاً مرتباً لا ينقصه إلّا جمعه في مصحف واحد.

أمّا السنة فلم يكن شأنها كذلك، رغم أنها مصدر هام من مصادر التشريع في عهد الرسول، لا يختلف أحد في أنها لم تُدَوّن تدويناً رسمياً كما دُوّن القرآن».

ولعل مرجع ذلك إلى أن الرسول ﷺ عاش بين الصحابة ثلاثاً وعشرين سنة، فكان تدوين كلماته وأعماله ومعاملاته تدويناً محفوظاً في الصحف والرقاع من العسر بمكان، مما يتطلب تفرّغ أناس كثيرين من الصحابة لهذا العمل الشاق، ومن المعلوم أن الكاتبين كانوا من القلة في حياة الرسول حيث يُعَدّون بالأصابع، وما دام القرآن هو المصدر الأساسي الأول للتشريع والمعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ فقد تفرّغ هؤلاء الكتاب على كتابته دون غيره من السنة كي يؤدوه لمن بعدهم محرّراً مضبوطاً تاماً لم ينقص منه حرف واحد).

الدكتور السباعي رحمه الله يحاول أن يوهمنا أن السنة دُوّنت بشكل ما، وأن تعليله

(*) طبع المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٨٥ ـ بيروت

عدم تدوين الحديث لضخامةِ مادته، وقلة الكَتَبَة بعد وفاة الرسول الكريم وانصرافهم إلى تدوين القرآن، تنقصه الدقة العلمية للأسباب الآتية:

يحدثنا الحافظ بن كثير الدمشقي في تاريخه (البداية والنهاية)(*) تحت عنوان: كتاب الوحي أسماء الذين كتبوا الوحي للرسول ويذكر أسماءهم مرتبة وفق التسلسل الهجائي لهذه الأسماء فيبدأ بأبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي الأموي. ثم يعدّ مهم ثلاثةوعشرين كاتباً نذكر من مشاهيرهم:

* أبي بن كعب.
* زيد بن ثابت.
* خالد بن الوليد.
* الزبير بن العوام.
* عثمان بن عفان.
* علي بن أبي طالب.
* معاوية بن أبي سفيان.

وينهي قائمة الأسماء بالمغيرة بن شعبة الثقفي، فلم يكن عدد هؤلاء الكتبة قليلا: ألا يتجاوزون أصابع اليد عداً؟» ولو كان تدوين الحديث مطلوباً لتم تخصيص نفر منهم يتفرغون لكتابة الحديث وقد يكتبونه على العظام فقط، كيلا يختلط بالقرآن، وأستغفر الله على هذا الكلام. ثم يعود الدكتور الشيخ السباعي رحمه الله لإتمام الموضوع فيقول: «شيء آخر إن العرب لأميتهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم وحدها فيما يودون حفظه واستظهاره. فالتوفّر على حفظ القرآن مع نزوله منجّماً على آياتٍ وسور صغيرة، ميسور وداعية إلى استذكاره والاحتفاظ به في صدورهم.

فلو دُوّنت السنّة كما دُوّن القرآن وهي واسعة كثيرة النواحي شاملة لأعمال الرسول التشريعية وأقواله منذ بدء رسالته إلى أن لحق بربه للزم إكبابهم على حفظ السنة مع حفظ القرآن. وفيه من الحرج ما فيه، عدا خوف اختلاط بعض أقوال النبي الموجزة الحكيمة بالقرآن سهواً من غير عمد. وذلك خطر على كتاب الله يفتح باب الشك فيه لأعداء الإسلام ممن يتخذونه ثغرة ينفذون منها إلى المسلمين لحملهم على التحلّل من

(*) ـ البداية والنهاية: ج٥ ـ ط دار الريان ١٩٨٨، ص ٢٩٥

أحكامه والتفلت من سلطانه، كل ذلك وغيره من أسرار عدم تدوين السنة في عهد الرسول وبهذا نفهم سر النهي عن كتابتها الوارد في صحيح مسلم. عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: (لا تكتبوا عني، من كتب عني غير القرآن فليمحه). انتهى كلام الدكتور السباعي.

وأقول لجماعة المحدّثين وكل رجال الدين وعلماء القرآن: إنكم تذكرون على الدوام أن الرسول وصحابته كانوا يخشون من اختلاط الحديث بالقرآن، ولذلك أمروا بحفظه في الصدور، وعدم كتابته على قرطاس، وأنتم تعلمون أنَّ محدثاً واحداً هو البخاري قد جمع أكثر من نصف مليون من الأحاديث، فهاتوا من كل ما اجتمع لديكم من ملايين الأحاديث عن الرسول، هاتوا حديثاً واحداً عن الرسول ﷺ يقول فيه مثلاً: (إني كنت أخشى أن يختلط حديثي بالقرآن فلا يحفظ القرآن) ذلك أن من يخشى أمراً لا بدّ أن يعبر عنه في حديث، وواقع الأمر أننا لا نجد حديثاً في هذا المعنى لسبب واضح هو أن الرسول الكريم الذي آمن بربه، وبكل ما قاله الله عز وجل لا يمكن أن يشك لحظة واحدة بقدرة الله على تمكين الناس من حفظ القرآن، وهو القادر على كل شيء، والذي كلامه الحق وهو الذي يقول: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾(٢) وهو الذي يقول أيضاً: ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وهو الذي يقول أيضاً: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ فلا يعقل أن يخشى الله عز وجل وهو الواثق من قدرته الإلهية أن يختلط كلامه بكلام نبيه، فإن ذلك الكلام من الوهم وسوء الظن ومن ضعف الإيمان، والأجدر بنا أن نحسن الظن بالله وبرسوله أكثر من ذلك.

وأحب أن أشير إلى واقعة معروفة في كتب السيرة والأحاديث وهي أن الرسول ﷺ كان يستخدم حرساً لحمايته الشخصية من أية محاولات لاغتياله من قبل أعدائه، وهو احتياط واجب ولازم لكل من كانت له بصيرة من القادة كالرسول الكريم، فكان الصحابة يتناوبون على حراسته بسلاحهم حتى نزلت الآية: ﴿واللّهُ يعصِمُكَ من الناس﴾(٣).

فعرف حراسه أن الله قد تولى بنفسه حراسته، فلن يستطيع أحد من الناس أن يؤذيه إلا بإذنه، وهذه أكبر حماية قدّمت لبشر من يوم أبينا آدم وحتى الآن، ولم يشك الرسول لحظة واحدة بحماية الله بعد نزول الآية، ولم يبدر منه أي بادرة احتياط تشعر بأنه

---

(٢) - سورة يس: ٨٢ (٣) - سورة المائدة: ٦٧

يتحسّب أي مكروه بعد أن تولى الله حمايته حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إلا تنصروهُ فقد نصرهُ اللهُ إذْ أخرجَهُ الذينَ كفروا ثانيَ اثنين إذْ هما في الغار إذ يقولُ لصاحبه لا تحزنْ إنّ اللهَ معنا فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ عليه وأيّدَه بجنودٍ لم ترَوْها وجعلَ كلمةَ الذينَ كفروا السفلى وكلمةُ اللهِ هيَ العُليا واللهُ عزيزٌ حَكيم﴾[٤].

فلا يصح أن يتبادر لأذهاننا لحظة واحدة أن الرسول شك بقدرة الله على حفظ كتابه وإنما كان خوفه من أمر آخر لم يتعهده الله، وهو أن يقلّد المسلمون مَنْ سبقهم من الأمم من أهل الكتاب في انصرافهم إلى تأليف الكتب، والانشغال عن كتاب الله بغيره، ذلك كان تخوفه الحقيقي. وقد يتصدى سائل جاهل ليقول: أليس الله بقادر على أن يمنع المسلمين من أن يفعلوا ذلك؟.

وقد أجاب الله عن ذلك السؤال مرات عديدة في القرآن، إذ لو شاء لخلق الناس أجمعين يفعلون ما يشاء دون أن تكون لهم مشيئة، ولجعلهم كالملائكة، فهم لا يستطيعون مخالفة أوامره لأنه لم يمنحهم حرية الإرادة والقدرة على الاختيار، في حين إنه منح تلك القدرة للجن والإنس، من دون بقية مخلوقاته، وأرسل لهم الرسل ليقولوا لهم افعلوا أو لا تفعلوا من غير إكراه، بل ترك ا لأمر لحريتهم وإرادتهم، فإن أصابوا كوفئوا وإن أخطؤوا عوقبوا، هذه هي سنة الله ومشيئته في خلقه، ونحن لا نستطيع أن نبدّلها، يقول تعالى: ﴿ولو شاءَ اللهُ ما اقتتلوا ولكنَّ اللهَ يفعلُ ما يُريد﴾[٥].

وهناك كثير من المسلمين الذين لم يتعمّقوا سنن الله في القرآن يفهمون مشيئة الله فهماً مغلوطاً، فهم يرتكبون المعاصي ثم يقولون: شاء الله أن نقع في المعصية، وتلك إرادة الله، فيحمّلون الله سبحانه وتعالى الذي منحهم حرية الاختيار سوء أفعالهم، وهي سذاجة منهم نجدها فاشية بين الناس مع أن مشيئة الله كما تشير إليها الآية قضت بإعطاء الإنسان حرية اختيار عمله، وأرادت أن تمتحن إرادته في مواجهة الشيطان الذي يزين له المعاصي والشرور، فالله منحنا الإرادة ليختبر إيماننا ﴿ليبلوكُم أيّكم أحسنُ عملاً﴾[٦] وكان بمقدوره أن يحكّم فينا مشيئته المطلقة: ﴿لو شاء الله ما أشركوا﴾[٧]، ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة﴾[٨]، ﴿ولو شاءَ ربّكَ لآمنَ من في الأرض كلّهم جميعاً﴾[٩].

---

(٤) - سورة التوبة: ٤٠ | (٦) - سورة هود: ٧ | (٨) - سورة النحل: ٩٣
(٥) - سورة البقرة: ٢٥٣ | (٧) - سورة الأنعام: ١٠٧ | (٩) - سورة يونس: ٩٩

ولكن الله بمشيئته الخاصة وبإذنه الخاص ولسبب يعرفه هو فقط سمح للإنسان أن تكون له مشيئة خاصة إذ قال: ﴿مَنْ شاء فَليؤمِنْ﴾[١٠].

﴿ومَنْ شاء فليكفُرْ﴾[١١].

﴿كلا إنّه تذكرةٌ فمَنْ شاءَ ذَكَرَه﴾[١٢].

﴿فمَنْ شاءَ اتخذَ إلى ربّه سبيلاً﴾[١٣].

﴿فمن شاءَ اتخذَ إلى ربّه مآباً﴾[١٤].

﴿فكُلوا منها حيثُ شئتمْ رَغَداً﴾[١٥].

﴿فاعبدوا ما شئتمْ من دونه﴾[١٦].

﴿اعملوا ما شئتُم إنه بما تعملون بصيرٌ﴾[١٧]

﴿اسكنْ أنتَ وزوجكَ الجنةَ وكُلا منها رغداً حيث شئتُما﴾[١٨]

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنةَ فَكُلا من حيثُ شئتُما﴾[١٩]

والآيات في القرآن كثيرة توضح ذلك، ولكن كثيراً من صغار العقول يسوّغون إشراكهم ويردّونه إلى قضاء الله ومشيئته:

﴿سيقولُ الذينَ أشركوا لو شاءَ اللهُ ما أشركْنا ولا آباؤنا﴾[٢٠].

﴿وقال الذين أشركوا لو شاءَ الله ما عبدْنا من دونه منْ شَيء﴾[٢١].

﴿وقالوا لو شاءَ الرحمنُ ما عبدْناهم﴾[٢٢].

وكل هذه الآيات تثبت أن الله منح الإنسان المشيئة بإرادة منه ليحاسبه بعد ذلك.

ويعود الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله فيثبت في كتابه حديثاً يقول عنه: إنه من صحيح مسلم وهو: «لا تكتبوا عني، من كتب عني غير القرآن فليمحه».

وهو أمر صريح من الرسول ﷺ واجب الاتّباع في عرف المسلمين قديماً وحديثاً، ونحن أمام هذا الحديث في مواجهة احتمالين لا ثالث لهما: فإما أن يكون الحديث

---

(١٠) ـ سورة الكهف: ٢٩
(١١) ـ سورة الكهف: ٢٩
(١٢) ـ سورة المدثر: ٥٤ ـ ٥٥
(١٣) ـ سورة الإنسان: ٢٩
(١٤) ـ سورة النبأ: ٣٩
(١٥) ـ سورة البقرة: ٥٨
(١٦) ـ سورة الزمر: ١٥
(١٧) ـ سورة فصّلت: ٤٠
(١٨) ـ سورة البقرة: ٣٥
(١٩) ـ سورة الأعراف: ١٩
(٢٠) ـ سورة الأنعام: ١٤٨
(٢١) ـ سورة النحل: ٣٥
(٢٢) ـ سورة الزخرف: ٢٠

صحيحاً كما رواه مسلم، ولا بدّ من أن يكون له صداه وردة فعله بين الصحابة الذين تلقّوه فامتثلوا له لأمر الرسول بما عرف عنهم من إطاعته لأن إطاعته من إطاعة الله، كما حثهم الله على ذلك في آيات كثيرة: ﴿قل أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ﴾[٢٣].

﴿وأطيعوا اللهَ والرسولَ لعلكم ترحمون﴾[٢٤].

﴿أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولِيْ الأمرِ منكم﴾[٢٥].

﴿فإن تنازعْتُم في شيءٍ فَردّوهُ إلى اللهِ والرسولِ﴾[٢٦].

﴿وما أرسلْنا من رسولٍ إلا لِيُطاعَ بإذنِ الله﴾[٢٧].

﴿ومن يطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾[٢٨].

وثمة آيات كثيرة غير ما ذكرت تطلب كلها وتأمر المسلمين أن يطيعوا الرسول، وتشير إلى أن في طاعته الهداية، وفي مخالفته تكون الضلالة.

فهل هناك أحاديث أخرى رويت عن الرسول ﷺ تؤيد هذا الحديث وتدعمه وتقوّيه؟ وهل هو حديث وحيد؟

في كتاب (السنة قبل التدوين) للدكتور محمد عجاج الخطيب[*] يجمع المؤلف في جهد مشكور أغلب ما روي عن رسول الله ﷺ مما يتصل بموضوع كتابة الحديث فلنستعن ببعض ما ورد فيه، يورد الدكتور الخطيب الحديثين الآتيين:

- (وقال أبو سعيد الخدري: جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتابة فأبى). وفي رواية (استأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا).

- (روي عن أبي هريرة أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال: «ما هذا الذي تكتبون؟» قلنا: أحاديث نسمعها منك، قال «أكتاب غير كتاب الله؟ أتدرون؟ ما ضلّ الأمم قبلكم إلّا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى)[**].

توافرت لدينا إذاً ثلاثة أحاديث عن إثنان من الصحابة تؤيد منع كتابة الأحاديث عن الرسول الكريم، ولكن ما زال لدينا احتمال أن تكون هذه الأحاديث غير صحيحة، وهو

(*) - السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب: دار الفكر طبعة ١٩٩٣ ، ص ١٠٣

(**) - تقييد العلم: ص ٣٤

(٢٣) - سورة آل عمران: ٣٢ (٢٥) - سورة النساء: ٥٩ (٢٧) - سورة النساء: ٦٤

(٢٤) - سورة آل عمران: ١٣٢ (٢٦) - سورة النساء: ٥٩ (٢٨) - سورة النساء: ٨٠

احتمال يساوي تمام احتمال صحتها، فلنفترض أولاً صحتها ولنحاول إثبات تلك الفرضية، (بأسلوب نقض الفرض).

وسوف نبدأ بالفرضية الأولى: (إنَّ الأحاديث الثلاثة صحيحة) وإن استطعنا إثبات ذلك فلا داعي من دراسة الاحتمال الثاني. لكننا سوف نتطرق له حتى لا نترك لأحد حجة.

وكما قلنا ومهدنا لذلك قبل قليل: إذا كانت الأحاديث هذه صحيحة سوف يكون لها رد فعل أكيد ومصدق للأحاديث، باتباع الأمر من الصحابة كلهم (والشاذ لا يقاس عليه) وإن وجدنا العكس أن الصحابة لم يلتفتوا للأمر بل كانوا يكتبون الأحاديث فمعنى ذلك أن الأحاديث الثلاثة موضوعة لا شك بدليل أن أحداً من الصحابة لم يتقيد بها.

موقف الخلفاء الراشدون:

١ ـ موقف أبي بكر الصديق:

لنبدأ بأول الصحابة وبخليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه، نبدأ به لأنه أول البالغين من الرجال الذين آمنوا لرسول الله، ودخلوا الإسلام، وأول من صدق رسول الله في كل ما قاله، حتى سمّي بالصديق وهو الذي خلفه بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فموقفه من هذا الموضوع أهم من موقف الصحابة كلهم تقريباً.

ـ روى الحاكم بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: جمع أبي (أبو بكر الصديق) الحديث عن رسول الله ﷺ وكان خمسمائة حديث فبات يتقلّب كثيراً. فلما أصبح قال: أي بنية، هلمّي الأحاديث التي عندك فجئته بها، فدعا بنار فحرقها)(*).

٢ ـ موقف عمر بن الخطاب:

(وهذا عمر بن الخطاب يفكر في جمع السنة، ثم لا يلبث أن يعدل عن ذلك) (عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق يستخير الله شهراً (لاحظ أنه يريد أن يكتب السنن مثل سنن الصلاة وسنن الزكاة وسنن الحج وليست الأحاديث، وكما يستدل من سياق الحديث أن الموضوع جرى خلال خلافته هو). ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنّن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً)(**).

(*) تذكرة الحفاظ: ص ٥

(**) جامع بيان العلم وفضله : ج١ ـ ص ٦٤

وفي رواية عن طريق مالك بن أنس أن عمراً قال عندما عدل عن كتابة السنة: (لاحظ أنه قال السنة وهذا يدل على أن اصطلاح السنة عند الصحابة كانت للسنن وليس للحديث): لا كتاب مع كتاب الله(*).

وكان خوف عمر من إقدامه على كتابة السنة (أي السنن) أن ينكب المسلمون على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله عز وجل(**) (وهذا ما حصل فعلاً في العصور المتأخرة عندما انشغل من يدعون العلم عن القرآن تحقيقاًلرغباتهم وأهوائهم فتعمّم الذي كان الرسول يشكو منه، لأنه كان يقول في حياته كما يقول تعالى عن لسانه: ﴿يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآنَ مهجوراً﴾(٢٩) وذلك بعد أن رأى الرسول بأمّ عينه كيف أن الأنصار في المدينة أيّدوه، وبنو قومه في مكة تركوه وهجروا القرآن، والآن، وبعد انشغال الناس بالحديث عن القرآن فإنّ أمّة الإسلام كلها قد هجرت القرآن إلى غيره.

ولذلك نرى عمر رضي الله عنه يمنع الناس من أن يتخذوا كتاباًمع كتاب الله، **وينكر إنكاراً شديداً على من نسخ كتاب دانيال، ويضربه ويقول له: (انطلق فامحه.. ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس فلئن بلغني عنك أن قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنّك عقوبة)**(***) فهل نشك في كلام عمر رضي الله عنه؟ وفي موقفه من الكتاب؟ وبأنه تلقى الأمر ثم أطاعه مع أننا نستخلص من نص الخطاب ومن قسم عمر (لأنهكنّك عقوبة) أن الأمر والنهي كانا بيده، أي أن الواقعة، حدثت في خلافته الراشدة، رحم الله عمراً ورحم الله الخلفاء الراشدين.

وها نحن نرى عمر يخطب بالناس فيقول (أيها الناس إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب فأحبّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف. فأتوه بكتبهم، **فأحرقها بالنار**، ثم قال «**أمنية كأمنية أهل الكتاب**»، **كما أنه كتب إلى الأمصار (من كان عنده منها شيء فليمحه)**(****).

(*) المصدر نفسه. (**) تقييد العلم: ص ٥٠

(***) انظر تقييد العلم: ص ٥٢ - وجامع بيان العلم: ص ٤٢ - ج٢ - و«الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع» - ص: ١٤٦

(****) تقييد العلم: ص ٥٣ - وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٥

(٢٩) - سورة الفرقان: ٣٠

وقول عمر: امحه أو فليمحه يعني إزالة ما كتب من الوجود، بتمزيقه أو نقعه بالماء وإزالته، ويضيف مؤلف الكتاب:

كلّ هذا يدلّ على خشية عمر أن يُهْمَلَ كتاب الله أو أن يُضاهى به كتاب غيره، ونحن نرى أن عمر نفسه يأبى أن يبقي أوامره مكتوبة ويأبى إلا أن يمحوها، فعندما طُعِنَ استدعى طبيباً، فعرف دنو أجله، فنادى ابنه قائلا: «يا عبد الله بن عمر، ناولني الكتف، فلو أراد الله أن يمضي ما فيه أمضاه، فقال له ابن عمر: أنا أكفيك محوها، فقال: لا والله لا يمحوها أحد غيري فمحاها عمر بيده»(*) (الظاهر أن عمر كان يكتب الأوامر التي يرسلها للأمصار).

وروي عن عبد الله بن مسعود كراهيته لكتابة الحديث الشريف.

عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه أنه قال: جاء علقمة بكتاب من مكة (أو اليمن) صحيفة فيها أحاديث في أهل البيت: بيت النبي ﷺ، فاستأذنا على عبد الله (بن عمر) فدخلنا عليه قال: فدفعنا إليه الصحيفة، قال فدعا الجارية، ثم دعا بطست ماء، فقلنا يا أبا عبد الرحمن، انظر فيها، فإن فيها أحاديث حساناً.

قال فجعل يميثها (أي يفركها بالماء لتذوب وتتفرق أجزاؤها فيها) ويقول: ﴿نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾(٣٠) (القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بما سواه، رحم الله أبا عبد الرحمن، ما كان أقوى منه على قول الحق).

وهناك رواية أخرى للحديث ذاته، تدل على أنه متواتر وصحيح. (المصدر نفسه) ثبت عن الأسود بن هلال أنه قال: (أتى عبد الله بصحيفة فيها حديث، فدعا بماء فمحاها ثم غسلها، ثم أمر بها فأحرقت، ثم قال: أذكر الله رجلاً يعلمها عند أحد إلا أعلمني به، والله لو أعلم أنه بدير هند لبلغتها، **بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)**(**).

إن تصرف ابن مسعود يدل على أنه خشي أن يشتغل الناس بكتابة السنة ويَدَعُوا القرآن، أو أن يشتغلوا بغير القرآن الكريم، فلو أخذنا السنة على أنها القاعدة أو القانون الذي

(*) طبقات ابن سعد: ص ٢٤٧ ـ قسم ٢ ج ٣

(**) جامع بيان العلم وفضله: ج١ ـ ص ٦٦ ـ

(٣٠) ـ سورة يوسف: ٣

يلتزمه من يسنّه ثم قرأنا عن الرسول الكريم حديثاً يقول: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ» من حديث طويل رواه العرباض بن سارية(*) وجدنا فيه كلاماً عن السنة الواجبة الاتباع، وليس الدعوة إلى كتابة الحديث، **أم أننا نحن نخشى على دين الله أكثر من أبي بكر ومن عمر رضي الله عنهما؟**

والأغرب من هذا أن الغربيين، لاتباعهم سنن الله أكثر منا، يكتشفون كل يوم أسرار العلم في الكون، فتأتي آيات القرآن مصدقة لما توصلوا إليه من العلوم الصحيحة، ونحن المسلمين الذين هجرنا القرآن والعلم وانشغلنا بـ (قال أبو هريرة) و(قال ابن مسعود) ضاعت علينا الدنيا والآخرة.

وفوق هذا كله يطالعنا هذا الرأي العجيب الذي ورد في (توضيح الأذكار ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ج ٢) يقول المؤلف: (إن النهي عن الكتابة إنما كان في أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن، فلما كثر عدد المسلمين وعرفوا القرآن معرفة رافعة للجهالة وميزوه عن الحديث، **زال هذا الخوف عنهم فنسخ الحكم الذي كان مترتباً عليه وصار الأمر إلى الجواز**).

فنحن نلاحظ أن موضوع الخوف من اختلاط الحديث بالقرآن قد تردد على ألسنة علماء الدين وكأنه حقيقة لا تقبل الشك أو الجدل، ونحن نعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يُنْسِيَ آيةً فإنه ينسخها: ﴿ما نَنسخْ من آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها﴾(٣١) أي أن الله سبحانه إذا أراد أن ينسي آية كان يرسل جبريل بآيةٍ أخرى وحياً جديداً.

وقد علمنا مما سبق أن عمر رضي الله عنه لم يكتب عن الرسول أحاديث، وإنما أحرق ما كان عنده من أوامره الشخصية التي أرسلها لولاة الأمصار قبل أن يموت، وذلك بعد عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر، وكان، كما رأينا، مايزال متقيداً ومنفذاً لأمر الرسول بعدم الكتابة، ومتشدداً فيه لدرجة أنه أحرق أوامره هو إطاعةً لأمر رسول الله.

والذي نسأله الآن لمعطي هذه الترخيص أو الإجازة في كتابة الحديث: هل كان جبريل يتنزل على علماء المسلمين، فتأتيهم أوامر بنسخ أحاديث الرسول باعتبار أنهم ذهبوا أولاً إلى أن أحاديث الرسول كلها وحي من الله تعالى، وأنها هي المقصودة بكتابي: الكتاب

(*) سنن أبو داود ج٢ : ص ٥٠٦ - الطبعة الأولى لمصطفى البابي الحلبي ١٣٧١ هـ.

(٣١) - سورة البقرة: ١٠٦

والحكمة، كما مر بنا سابقاً؟ والله، إنه الهوى وليس غير الهوى ما وقعوا فيه: ﴿إن يتّبعونَ إلا الظنّ وما تهوى الأنفس﴾[٣٢] والقول بالنسخ أحد المعنيين اللذين فهمهما ابن قتيبة من تلك الأخبار فقال: (أحدهما: أن يكون من منسوخ السنة بالسنة كأنه نهى في أول الأمر أن يُكتبَ قولُه، ثم رأى بعد لمّا علم أن السنن تكثر وتفوت الحفظ أن تكتب وتقيد)[*] ووافق على هذا الرأي كثير من العلماء، وذهب إليه العلامة المحقق الأستاذ أحمد محمد شاكر[**] فبعد أن دعم رأيه بالأخبار التي تبيح الكتابة قال: (كل هذا يدلّ على أن حديث أبي سعيد الخدري «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه» منسوخ، وأنه كان في أول الأمر حين خيف اشتغالهم عن القرآن، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن) ولعل الوحي قد نزل على العلامة المحقق وحده بأمر النسخ هذا، لأنا وجدنا أن أبا بكر وعمر لم يسمعا به، بل أحرقا كل ما كان معهما، وزاد عليهما عمر بأن أحرق هو كل وثائقه خلال حكمه، وكل أوامره للولاة والأمصار، وهما ما زالا ينفذان أمر الرسول إليهما، لأنهما يعلمان أن طاعة أوامر الرسول هي من طاعة الله تعالى.

وهذا الكلام الذي يقوله الأستاذ أحمد محمد شاكر، وأمثاله كثيرون اليوم بين المسلمين، يصدر عن هوى النفس ولا يحتاج نقضه إلى برهان، لأننا لو دققنا في أقوال الرسول ﷺ والصحابة فلن نجد عامل الخوف الذي يدعيه أمثال هؤلاء، وهو خوف اختلاط الحديث بالقرآن الكريم عند الرسول ﷺ ولا عند صحابته الكرام ولا حتى عند التابعين - وإنما جاء هذا الزعم متأخراً في عصور الانحطاط الإسلامي عندما قويت رغبة المحدثين بكتابة الأحاديث وجعلها ضمن كراريس يروجون لبضاعتهم من خلالها، فاختلقوا لأنفسهم تلك الحجة وذلك التخوف الذي لم يكن موجوداً من الأساس، بدليل أحاديث الرسول ﷺ وأحاديث كبار الصحابة، بل كان الخوف كله من أمر آخر ذكره الرسول ﷺ وذكره الصحابة أجمعين، وقد قرأناه قبل قليل في حديث أبي هريرة، وفي الحديث المروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما أراد أن يكتب السنن وهو ألا يكون إلى جانب كتاب الله كتاب آخر، وانشغال الناس بالحديث عن كتاب الله، وهذا التخوف مازال موجوداً إلى اليوم، فهل نلغي أمراً من أوامر الرسول الصريحة ومازال سبب وجود ذلك الأمر قائماً إلى يومنا هذا؟ وإن سنة النسخ في

(*) تأويل مختلف الحديث: ص ٣٦٥ (٣٢) سورة النجم ٢٣

(**) انظر الباعث الحثيث: ص ١٤٨

الإسلام فقط جائزة عند زوال السبب، والفقهاء يعلمون ذلك أفضل منا، لذلك تجاهلوا السبب الأساسي وخلقوا بدلاًعنه سبباً وهمياً لم يكن موجوداً في يوم من الأيام، ثم قالوا: لقد زال هذا السبب (الوهمي الذي اخترعوه) ليقولوا بجواز نسخ أمر الرسول ولكي يجيزوا بعد ذلك كتابة الأحاديث كما يشاؤون.

٣ ـ رأي علي بن أبي طالب:

(وهذا علي، رضي الله عنه، يخطب الناس قائلا: (أعزم على كلّ من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم)(*).

ماذا نستنتج مما نقل عن علي في خطبته، ومن مواقف الخلفاء الراشدين وأقوالهم قبله؟.

إجماع على منع كتابة الحديث خوفاً من انشغال المسلمين بغير القرآن.

إجماع من كل واحد منهم على حرق أو إتلاف ما سبق أن كتبه.

إجماع على قول الرسول ﷺ: «أكتاب غير كتاب الله؟ ـ أتدرون ـ ما ضلّ الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله».

٤ ـ موقف باقي الصحابة:

لننتقل الآن إلى موقف باقي الصحابة:

هذا ابن زيد بن ثابت يأبى أن يكتب عنه مروان بن الحكم ويقول له: (إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئاًمن حديثه).

وهذا أبو هريرة يقول: (لا نَكْتُب ولا نُكتِب)(**).

ولْنلاحظ أيضاً أنه ليس بين الصحابة من يشير إلى خشية من اختلاط الحديث بالقرآن، وإنما خشيتهم كانت بالإجماع من انشغال الناس بالحديث عن كتاب الله الذي هو الأساس.

وقد تمسك أبو سعيد الخدري بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه في النهي عن كتابة غير القرآن، وأبى أن يكتب أبا نضرة حين قال له هذا: ألا تكتبنا فإنّا لا نحفظ؟ فقال أبو سعيد: لا إنا لن نكتبكم ولن نجعله قرآناً. ولكن احفظوا عنا كما حفظنا نحن عن رسول الله ﷺ(***).

(*) جامع بيان العلم وفضله: ص ٦٣ - ج١ (**) جامع بيان العلم: ص ٦٦ - ج١

(***) تقييد العلم: ص (٣٦ - ٣٨). وسنن الدرامي: ص ١٢٢ ج ١. وجامع بيان العلم: ص ٦٤ ج ١

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري أنه قال: (أتريدون أن تجعلوها مصاحف؟ إن نبيّكم ﷺ كان يحدّثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ)(*).

وكره أبو موسى أن يكتب ابنه عنه مخافة أن يزيد أو ينقص ومحا ما كتبه بالماء، وفي رواية قال (احفظوا عنّا كما حفظنا).

وفي رواية عنه أنه قال (إن بني إسرائيل كتبوا واتّبعوه وتركوا التوراة)(**).

وهكذا، كما ترون، فقد وفّقنا بمعونة الله إلى البرهان بالحجج الدامغة التي لا تردّ، مستندين إلى أحاديث صحيحة عن الرسول والصحابة والتابعين، وأحاديث من ينطبق عليهم أن طاعتهم من طاعة الله ورسوله، لأنهم كانوا من أولي الأمر من بعده، وتبينّ لنا، والحمد لله، أن موقفهم بالإجماع من هذا الأمر كان موقف الطاعة والانصياع، كما يجب أن يكون بل وكما يتوقّع منهم، رضي الله عنهم أجمعين.

ورأينا أيضاً من خلال عرضنا كيف حاول أصحاب الأهواء والغايات أن يلفّوا ويدوروا محاولين التماس ترخيص أو جواز لما هم فيه من البدعة لكي لا تكسد بضاعتهم، فهم يتباهون بعدد الأحاديث التي يحفظونها، وعدد الغريب الذي يعرفونه منها، والمنقطع، وهم على ما هم عليه جمعان: جمع جاهل مقلّد، لا يعرف إن كان ما قام به من الدين، وجمعٌ ماكر وخبيث يدرك ما أقدم عليه، ويعلم أنه تاجر بضاعته الحديث، فإن كسدت بضاعته خشي ألا يجد إلى العيش سبيلاً، وهذا من ضعف إيمانه، وقُرْبه من الشيطان الذي أغواه فوقع واتبع هواه، وحبه لدنياه، وتوقّع بُعد الموت عنه، ولم يستجب لنداء ضميره في الرجوع إلى توبة نصوح عسى أن يغفر الله له، هكذا يفعل الطمع والهوى، وهكذا ييسر الشيطان أمره للناس.

أما أن يأتينا بعد ذلك شخص فرد مثل عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث غريب شاذ يعارض ما سبقه أو لحق به من الأحاديث في هذه المسألة فيزعم أن رسول الله ﷺ قد سمح له وحده أن يكتب الحديث دون غيره من الناس، وأنه سمح له أن يحدّث الناس عن بني إسرائيل ولا حرج، أي أن رسول الله ﷺ قد سمح له بممنوعين عن أمة الاسلام كلّها، فهذا من العجب العجاب!.

وإني لأعجب والله كيف قَبِلَ من دَوَّنَ الحديث مثل هذا الكلام، ثم سوّغه بأنَّ لدى

(*) المصدر نفسه: ص ٦٥

(**) تقييد العلم: ص ٥٦، وجامع بيان العلم: ص ٦٦

ابن عمرو شيئاً خاصاً غير الرواية، إنما هو الصحيفة الصادقة.

والصحيفة الصادقة بحسب رواية ابن الأثير تضم ألف حديث (طبقات ابن سعد) إلا أن إحصاء أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو لا يبلغ خمسمائة حديث (انظر مسند عبد الله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص ٧٦١: فكانت ٤٣٦ حديثاً) بينما نرى الإمام أبو هريرة يقول سابقاً إن ابن عمرو كان أكثر رواية منه لأنه كان يكتب وهو لا يكتب، ثم نجد أن المنسوب من الأحاديث لأبي هريرة يساوي ٥٣٧٤ حديثاً، وفي هذا الكلام تناقض فاضح يذكرنا بقوله تعالى: ﴿ولو كانَ منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾[٣٣].

ولننتقل الآن إلى عكس الفرضية الأولى ونقول:

لنفرض جدلاً بأن الرسول ﷺ لم يأمر أحداً بعدم كتابة أحاديثه، ولنفرض أنه لم يتعرّض لموضوع الكتابة كله على الإطلاق، لا بالنهي ولا بالتحبيذ، بل ترك الأمر للناس. ولو صحت هذه الفرضية، مع ما نعلم من كتب السيرة كلها من حب الصحابة الكرام كلهم لرسولهم الكريم، وجمع كل ما يتعلق بشخصه من الأشياء، فماذا يمكن أن يكون موقفهم خاصة من الذين يلمون بالقراءة والكتابة منهم، وما عرف عن بعضهم بأنهم لازموا الرسول ﷺ في أغلب أيامه وحروبه وغزواته من بعد الرسالة خاصة، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين؟

من البدهي أننا كنا سنجد عند كل واحد منهم كتاباً كاملاً يضم أقوال الرسول الكريم وأحاديثه وأفعاله بالتفصيل المملّ، لكنّ عدم وجود حرف واحد بين يدي هؤلاء الخلفاء الأربعة، وحدهم مع علمنا بأن كل من كان عنده من ذلك قد قام بحرقه وإتلافه، يدل على إجماع هؤلاء الخلفاء الأربعة، وموقفهم الموحّد من أمر النهي وصحته، ثم رأينا أنه لم يشذ من كل الصحابة أجمعين على كثرتهم إلا شخص واحد من معاصري الرسول ﷺ ادعى بأن الرسول قد سمح له بممنوعَيْن عن كل المسلمين، من دون أن نجد من يشهد له من الصحابة، بأن يقول: لقد سمعت رسول الله ﷺ يبيح لفلان الكتابة عن الرسول كما يشاء. أو أن يحدّث عن بني إسرائيل ولا حرج.

والأغرب من ذلك أن تجد بين من يدّعون العلم في العالم الإسلامي اليوم من يعد هذا الحديث صحيحاً، ومن ثم يسمّون ما مع هذا الصحابي بالصحيفة الصادقة، لأن أغلب

---

(٣٣) سورة النساء: ٨٢

المسلمين اليوم يسلّمون بمسلمة غير صحيحة، وهي أن الشيطان كان قد مات في عصر الرسول، ولم يكن له وجود بين صحابة الرسول، فقولهم وحده لم يعد يحتاج إلى شهادة، لأنهم فوق الشبهات وهم كلهم معصومون من الخطأ، ألا تجدون أن هذا الكلام قد زاد عن حد السذاجة بكثير؟.

فقد تبين لنا أن كل الأوامر الصريحة التي وصلتنا عن الرسول بعدم الكتابة أوامر صريحة وصحيحة، ولا زالت واجبة الاتباع لأن السبب الذي كان يتخوف منه الرسول وهو أن يكون بين أيادي الناس كتب مع كتاب الله فيهجرون كتاب الله إلى غيره، مازال موجوداً إلى اليوم، وهذا السبب وحده مُلزِمٌ بعدم كتابة الأحاديث إلى يوم يبعثون ـ ولا يمكن لهذا الأمر أن ينسخ أبداً، ولن يعجب هذا الكلام كل الذين تشدهم أهواؤهم إلى أحاديث الرسول المحبوبة لديهم، ولكننا نذكرهم أن هذه الأحاديث لن تكون أحبّ إلى قلوبهم منها إلى قلب أبي بكر، وقد أحرق بيديه كلّ ما جمعه عن الرسول من الأحاديث بعد أن سمع أمر الرسول بعدم الكتابة وبإحراق ما قد كُتِب.

٥ ـ موقف التابعين:

هذا ما كان من رأي الصحابة في الكتابة، فلنقف الآن على رأي التابعين:

جاء في «جامع بيان العلم وفضله» (وقد يظن الباحث أن كراهة الكتابة قد ولت وانهزمت أمام إباحتها ولم تعد هذه الإباحة مجرد رأي، بل انتقل الرأي إلى التطبيق فعلاً وتبنّت الدولة الإشراف على الكتابة، ولكننا لا نلبث أن نسمع أصوات من يتحرّج من الكتابة تعلو من جديد، وكان بعض هؤلاء من نفس جيل التابعين الثاني: (أواسطهم) ومن صغارهم، فقد راعهم أن يروا الحديث في كراريس ودفاتر، وأن يعتمد طلاب الحديث والعلماء على الكتب، ويهملوا الحفظ فتمسّكوا بالآثار التي لا تبيح الكتابة، وأبوا أن ينكب أهل الحديث على دفاترهم ويجعلوها خزائن علمهم، ولم يعجبهم أن يخالف سبيل الصحابة في الحفظ والاعتماد على الذاكرة، وحقّ لهم أن يكرهوا الاتكال على الكتب، لأن في الاتكال على المكتوب وحده إضعافاً للذاكرة وانصرافاً عن العمل به.

وها هو ذا الضحاك بن مزاحم الذي أباح الكتابة سابقاً، والذي أملى مناسك الحج (لاحظ أن ما أملاه هو مناسك الحج، وهي من السنة الواجبة الاتباع، وليست من الحديث مع ذلك لخشيته من الله وخوفه أن يرتكب خطيئة بحق الرسول والإسلام أو

يخالف أوامر الرسول لأنه يعرف الحق) ها هو ذا يقول: (يأتي على الناس زمان تكثر فيه الأحاديث حتي يبقى المصحف بغباره لا يُنظر إليه) وفي رواية عنه أنه قال: (يأتي على الناس زمان يعلّق فيه المصحف حتى يعشعش عليه العنكبوت، لا ينتفع بما فيه، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث). ألا نعيش في هذا العصر نحن الآن؟

لقد تصوّر عاقبة هذا الإقبال على الكتابة، وجَعلِ الحديث في دفاتر وكراريس فأعلن إنكاره مدوياً (لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف)(*).

ويمكننا أن نحمل قول الزهري: (كنا نكره كتاب العلم (الحديث) حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين)(**).

وكان الزهريّ لا يكتب الحديث وكان من أفضل الحفظة، لكنه رحمه الله كان على اتصال بالملوك، والملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، فطلب منه هشام بن عبد الملك أن يملي على أبناء الخليفة (وأمرُ الملوك مطاع وإلّا حصل الانقطاع) فأملاهم وحصل المحظور.

وإذا استطاع الشيطان أن يجرّ قدم العبد الصالح مرة واحدة إلى معصية فإن ذلك العبد الصالح لا يحتاج إلى شيطان ليجرّ قدمه في المرات القادمة، وهكذا نرى الزهري يسوّغ فعلته قائلاً. (استكتبني الملوك فأكتبتهم، فاستحييت الله إذ كَتَبها الملوك ألا أكتبها لغيرهم). مع أن الزهري أول من يعلم بمنع الكتابة عن الرسول، وصحّة منعها، فهو من أفضل من حفظ أحاديث الرسول وأحاديث الصحابة، وما كان لهذا الشيخ الجليل أن يخطىء تلك الخطيئة القاتلة في حين أن سعيد بن عبد العزيز بالمقابل يفخر بحفظه ويقول: (ما كتبت حديثاً قط)(***).

ونرى الإمام الأوزاعي بعد أن كان يملي على طلابه ويصحّح لهم ما يكتبونه عنه ليجيزهم بروايته، ينفر من الاعتماد على الكتابة. ويتشاءم مما سيؤول إليه الحفظ، فلا يسره الميل عن طريق السلف الذين كانوا يتلقون الحديث من أفواه العلماء فيقولون (كان هذا العلم شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه، ويتذاكرونه فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إليه غير أهله)(****).

(*) تقييد العلم: ص ٤٧

(**) المصدر نفسه: ص ١٠٧، وطبقات ابن سعد: ج ٢ ص ٣٥

(***) جامع بيان العلم وفضله: ص ٧٧ ج ١

(****) المصدر نفسه: ج ١ ص ٦٨، وتقييد العلم: ص ٦٤

ونرى بعض من كره الكتابة في هذا العصر يعتمد عليها في حفظ الحديث ثم يمحو ما كتبه بعد أن يحفظه، وقد فعل غير واحد من السلف من أمثال سفيان الثوري (١٦١ هـ) وحمّاد بن سلمة (١٦٧ هـ) وغيرهما ويروى في هذا عن خالد الحذّاء (١٤١ هـ): (ما كتبت شيئاً قط إلّا حديثاً طويلاً فإذا حفظته محوته)(*) وكان كثير من التابعين يمحون كتبهم قبل وفاتهم أو يوصون بكتبهم إلى من يثقون به، ليفيد منها، خشية أن تقع في غير مواضعها فقد أوصى أبو قلابة بكتبه إلى أيوب(**) وأوصى شعبة بن الحجاج ابنه بغسل كتبه بعد موته.

إن محاولة هؤلاء المانعين من الكتابة لم تخفّف من نشاط الكتابة، ولم تقف أمام هذا الجيل الذي نشأ عليها، فقد كان تيار إباحة الكتابة أقوى بكثير من تيار كراهتها(***) ولا نستغربنّ ما حصل، فهناك بضاعة هي الحديث، وهي بضاعة نافعة أوهمت رجال الدين العامة أن العلم فيها، فكان الناس يريدون لأبنائهم العلم ويريدون أن يستكثروا الخير، فكان العلماء يبيعون ويقبضون، ولكنهم نسوا أنهم باعوا آخرتهم بدنياهم بمخالفة أوامر النبي الصريحة، ونسوا أن طاعة الرسول من طاعة الله وانطبقت بحقهم آيات الله التي كانت تنطبق قبل ذلك على بني إسرائيل والنصارى: ﴿فويل للذينَ يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولونَ هذا من عندِ اللهِ ليشتروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهمْ مما يَكسِبون﴾(٣٤) هل يعتقد هؤلاء الكتبة أنهم بعيدون عن هذه الآية؟ ألم يقولوا على الله ما لا يعلمون؟ ألم يقولوا إن الرسول تلقّى وحييْن، وحي فيه القرآن، ووحي فيه الحديث، واستدلوا على ذلك بالآيات التي فيها الكتاب والحكمة، مقررين لهوى في نفوسهم أن آيات الحكمة هي الحديث؟ مع أنهم يعلمون أنه لم يسبق أن قال بهذا أحد من السلف قبلهم. ولكي يبعدوا عن أنفسهم مسؤولية منع الرسول كتابة أحاديثه احتجوا بالنسخ، وقالوا: هذا نسخ، ثم تعلّلوا بغير ذلك فقالوا: لقد كتب الرسول كتباً إلى قيصر الروم وإلى كسرى وإلى ملوك عصره، وهذه إباحة بالكتابة، كأنهم يريدون أن يوهموا الناس أن الرسول منع الكتابة في أمة الإسلام، في حين أن أول الآيات التي تلقاها من ربه تأمر بالكتابة والقراءة، أم فاتهم أن أول ما نزل على الرسول الكريم كان: ﴿اقرأ باسم ربكَ الذي خلقَ * خلقَ الإنسانَ من علق * اقرأ وربكَ الأكرم الذي علَّم بالقلم * علم الإنسان ما لمْ يعلم﴾(٣٥).

(*) تقييد العلم: ص ٥٨ ـ ٦٠
(**) طبقات ابن سعد: ص ١٣٥ ج ٧
(***) تذكرة الحفاظ: ص ٨٨ ج ١
(٣٤) سورة البقرة: ٧٩
(٣٥) سورة العلق: ١ ـ ٥

وقال تعالى: ﴿وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدْل﴾[٣٦].

وقال تعالى: ﴿إذا تداينتُم بدَيْن إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوهُ﴾[٣٧].

﴿ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتبَ كما علَّمهُ الله﴾[٣٨].

لقد تناسوا ما رأيناه من أمر الرسول الصادق الوعد الأمين، إلى كل المسلمين المأمورين باتباع سنته إلى يوم الدين، هذا الأمر الصريح الذي لا لبس فيه بالنهي عن كتابة أحاديثه مهما كانت الأسباب، وقد بيّن الرسول وصحابته الكرام أن **سبب المنع هو كي لا يحصل معنا مثل ما حصل مع أهل الكتاب الذين ألّفوا الكتب واتبعوها ورموا كتاب الله خلف ظهورهم.**

﴿نبذ فريقٌ من الذينَ أوتوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراءَ ظهورِهم كأَنهُمْ لا يعلمون﴾[٣٩].

﴿وما اختلفَ الذين أوتوا الكتابَ إلاّ من بعدِ ما جاءهُم العلمُ بَغياً بينهم﴾[٤٠].

﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتابِ يشترونَ الضلالةَ ويريدونَ أن تضلّوا السبيل﴾[٤١].

﴿من الذين هادوا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعِهِ ويقولونَ سَمعْنا وعَصيْنا﴾[٤٢].

هؤلاء إذاً هم أئمة المسلمين يسمعون رسول الله يقول لهم: لا تكتبوا، ومع ذلك يتّبعون أهواءهم، ويعصون أوامر النبي الكريم ويحاولون أن يجدوا العُذر والترخيص والجواز بحجج واهية، لأنهم مازالوا يكتبون، ومازالوا يروّجون لبضاعتهم من أجل دراهم معدودات يجود بها عليهم أهل السلطة لكي يُفْتُوا لهم بأمور لم يسبقهم إليها إنس ولا جان، وكلها تنتهي إلى مصالح. لقد سعوا وراء الدنيا الغرورة والحياة الفانية، وباعوا آخرتهم بأرخص ثمن وبئست تجارتهم التي كانت حالهم فيها كحال اليهود الذين قالوا: ﴿سمعنا وعصينا﴾ مع أنهم عرفوا موقف الصحابة وإجماعهم على كراهة الكتابة خوفاًمن انصراف الناس عن القرآن إلى كتابة الحديث، ولم ينفرد عنهم إلا صحابي واحد عزا خوفه إلى اختلاط الحديث بالقرآن. وهو قول لم يأت من السلف الصالح الذي فهم القرآن والسنة، بل أتى من المتأخرين الذين ضيعوا دينهم ودنياهم بعد أن ضاعت نفوسهم، وشقّوا عصا الطاعة التي قال فيها تعالى: ﴿ومن يُطع اللهَ والرسولَ

---

(٣٦) سورة البقرة: ٢٨٢
(٣٧) سورة البقرة: ٢٨٢
(٣٨) سورة البقرة: ٢٨٢
(٣٩) سورة البقرة: ١٠١
(٤٠) سورة آل عمران: ١٩
(٤١) سورة النساء: ٤٤
(٤٢) سورة النساء: ٤٦

فأولئكَ مع الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رفيقاً﴾[٤٣] وصدق فيهم الحديث الآتي إن ثبتت صحته: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلا واحدة قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي» سبحان الله، كأن هذا الحديث الذي رووه يتحدث عنهم فهم الذين اتبعوا أهواءهم، وخالفوا أوامر رسول الله الصريحة، ورووا عنه قوله: «كلهم في النار ما عدا فرقة واحدة هم الرسول وصحبه» أولئك الذين سمعوا أوامره فأطاعوه بلا تردد، وكذلك من الذين أحسن إليهم الله من التابعين الذين اتبعوا ما كان عليه الرسول وصحبه، رضوان الله عليهم أجمعين. قال تعالى: ﴿وإذا قيلَ لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبُنا ما وجدْنا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾[٤٤].

وقال تعالى: ﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرت * وإذا الجنةُ أُزلِفتْ * عَلمتْ نفسٌ ما أَحضرَتْ * فلا أقسم بالخُنّسِ * الجوارِ الكنّسِ * والليلِ إذا عسعسَ * والصبحِ إذا تنفّسَ * **إنّه لقولُ رسولٍ كريمٍ** * ذي قوةٍ عند ذي العرشِ مكينٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ﴾[٤٥] فهل هذا القول الذي سمعوه هو قول الرسول بمعنى حديثه أم هو القرآن الكريم؟!

وإليكم هذه الآية الكريمة: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكُمْ عنه فانتهوا﴾[٤٦].

ماذا آتانا الرسول؟

ماذا كان عنده حتى يعطينا؟

أكان شاعراً فيقدّم لنا أشعاراً؟ إننا لم نسمع عنه ذلك.

أكان ساحراً؟ نتعلّم السحر منه؟ إنا لم نعرف عنه ذلك.

أكان يعلّمه كاهن أو راهب؟ لم يستطع حتى من ادّعى أن يثبت ذلك.

ليس هناك من شيء آتانا به الرسول وكنا محتاجين إليه سوى (القرآن العظيم) الذي نزل بأمر الله على قلبه وحياً فأنطقه الله به، وحفظناه في صدورنا قبل أن نحفظه في كتبنا، وهو هبة الله لا للعرب فحسب بل لكل الإنسانية جمعاء وحتى تقوم الساعة، وهو معجزة المعجزات، والمعجزة المتجددة في كل يوم وعصر، فهو الكتاب الوحيد في العالم الذي يعيش مع الزمن دون أن يصيبه القدم: ﴿وما نهاكم عنه فانتهوا﴾: إنه نهانا من

(٤٣) سورة النساء: ٦٩
(٤٤) سورة المائدة: ١٠٤
(٤٥) سورة التكوير ١٢ - ٢١
(٤٦) سورة الحشر: ٧

ضمن ما نهى عن كتابة حديثه فهل انتهينا؟ أعتقد أننا إذا قلنا نعم كنا من الكاذبين بدليل مساجد الدنيا كلها وعليها أئمة مازالوا إلى اليوم يقولون: قال أبو هريرة وقال ابن مسعود، وقال ابن عباس، أكثر مما يقولون: قال الله تعالى. ادخلوا بيوت المسلمين تجدوا في أغلبها مصاحف ولكنها لا تُفتَح إلا في المناسبات، وما تلك المناسبات؟ عند الوفاة، يختمون القرآن على نفس الميت ويطلبون له الرحمة، والقراء لهم أسعارهم، فمن كان حفظه أفضل وتجويده أحسن لا يصح أن ينال أجرة تعدل من دونه فناً ومقدرة، وكلها تجارة في تجارة، وكلهم يطلب الدنيا، ولا أحد يفكر في الآخرة، ومن فكر فيها عاش على الأمل فأمامه فسحة من الوقت والتوبة جائزة في كل وقت، ومنجية من العذاب والنار. هو واقع أليم نعيش فيه، ولا خلاص منه إلا إذا بدّلنا ما في نفوسنا. أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم وأتوب إليه، وأقول: هل أرسل الله تعالى هذا القرآن لاستخدامه بمراسيم الموت والزواج وتزيين الجدران؟ ألم يرسله تعالى دستوراًنتقيد به ونسير بموجبه؟

وهل فهم المسلمون الأوائل أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم الإسلام كما فهمناه؟ انتصروا في معارك مثل بدر واليرموك والقادسية، واستطاعوا أن يسودوا العالم ويرفعوا عن قبائلهم التي كانت تتصارع ويغزو بعضها بعضاً ظلمات الجاهلية بنور الحق والإيمان.

إن أفضل كلام نختتم به ما بدأناه قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربهم ثم تلينُ جلودُهُم وقلوبُهم إلى ذكر اللهِ ذلك هدى اللهِ يهدي به من يشاءُ ومن يُضلِلِ الله فما لهُ من هادٍ﴾[٤٧].

وقيل عن سبب نزول هذه الآية:

أخبرنا عبد القادر بن طاهر البغدادي منتهياً بـ سعد:

قالوا: يا رسول الله: لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿اللهُ نزَّلَ أحسنَ الحديث كتاباً...﴾.

فالله تعالى يفصل الخطاب بقوله: إن أحسن الحديث هو القرآن الذي نزل على محمد، ما لكم من حديث غيره.

---

(٤٧) سورة الزمر: ٢٣

ويقول ابن قيم الجوزية في كتاب الفوائد(*): (دخل الناس النار من ثلاثة أبواب:

١ ـ باب شبهة أورثت شكاً في دين الله.

٢ ـ باب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته.

٣ ـ باب غضب أورث العدوان على خلقه).

فالأبواب الثلاثة كما نلاحظ، تظهر دور الهوى وأثره في جنوح الإنسان عن العقل، وما من مسلم إلا يحب رسوله ﷺ ولكننا لا نريد أن يودي بنا حبنا للرسول إلى تجاوز أوامره وعصيانها، ولا مبالغتنا في هذا الحب إلى لون من الإشراك بالله.

﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشركوا بِهِ شيئاً﴾(٤٨).

صدق الله العظيم

الخلاصة:

انتهينا في الفصل السابق من مناقشة موضوع نهي الرسول عن الكتابة بأسلوب علميّ، وبرهنّا فيه بالدليل الثابت بآيات القرآن، وبالدليل التاريخي من موقف الرسول ﷺ ثم موقف الصحابة والتابعين من بعدهم، وتوصلنا إلى أن النهي عن كتابة الحديث جاء بسبب الخوف من ألّا يصيب المسلمين ما أصاب أهل الكتاب فينشغلون بكتب الحديث، ويتركون القرآن مهجوراً وهو الأساس، فحصل المحظور ليس لأنه كتب الله لنا ذلك أو شاءه لنا، وقد شرحنا هذه الشبهة مستعينين بآيات من القرآن تجنباً لكل لبس، وأوضحنا أن ما نحن فيه من تأخر وتقهقر لا يعود إلى ظلم من الله الذي بين لنا في محكم كتابه أنه لا يظلم مثقال ذرة، وإنما هو ظلم من أنفسنا لأنفسنا، وأننا إن كنا نريد التغيير للأفضل فإن القرآن منهج فعّال يصلح لكل زمان ومكان، فبإمكاننا العودة إليه، وقد وعدنا الله إن نحن بدأنا وغيرنا ما بأنفسنا، وعُدنا لمنهج القرآن، أن يغير ما بنا كما فعل من قبل.

وتبين لنا أننا إن أحسنّا أحسنّا لأنفسنا، وإن أسأنا أسأنا على أنفسنا، ولن نضرّ اللهَ مهما أسأنا لأنفسنا أو للمنهج: ﴿إن الذينَ كفروا وصدّوا عن سبيل اللهِ وشاقّوا الرسولَ من

(*) الفوائد: ابن قيم الجوزية ص ٨٩ طبعة دار الهدى ١٩٩٤

(٤٨) سورة النساء: ٣٦

بعد ما تبينَ لهمُ الهدى لن يضرّوا اللهَ شيئاً وسيُحْبَطُ أَعمالَهم﴾(٤٩).

وما مضى قد مضى، وليس لنا منه، إن كنا أذكياء، إلا أن نتعظ بما حصل كي لا نقع في أخطاء الذين سبقونا، والمستقبل ماثل أمامنا، فعلينا أن نحدد الطريق: فإما أن نختار طريق آبائنا وأجدادنا ومشايخنا السالف؛ الذي قد عرّفنا قبل قليل بالبرهان القاطع أننا ضللنا به حين تركنا منهج القرآن، وتركناه حتى نسج عليه العنكبوت خيوطه، واختلفنا فيما بيننا فأصبحنا فرقاً وشيعاً وطوائف لا حد لها ولا حصر؛ وكلها في النار عدا واحدة، وإما أن نلغي كل قديم آمنا بخطئه، وإن كان عزيزاً على بعضنا. لنعود كلنا نحن المسلمين، ولا فرق في ذلك بين من كان منا في أفغانستان أو إيران أو تركيا أو مكة أو موريتانيا، أو مراكش فالله إلهنا، ومحمدٌ رسولنا، والقرآن كتابنا وسنتنا وحديثنا، وعباداتنا واحدة، وإيماننا واحد، ولن يكون آنذاك مسلم سنّي، ومسلم شيعي، وإنما مسلم واحد، وإسلام واحد:

﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقّ ليُظهِرَه على الدِّينِ كلِّه﴾(٥٠).

صدق الله العظيم

---

(٤٩) سورة محمد: ٣٢

(٥٠) سورة الفتح: ٢٨

١٢ ـ رواية الحديث:
معنى الآية الكريمة: (لقد كانَ لكُم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ)[١]:

لقد وردت كلمة «أسوة» في ثلاث آيات فقط من القرآن الكريم:

﴿قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والذينَ معه﴾[٢].

﴿لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ لمنْ كانَ يرجُو اللهَ﴾[٣].

والآية الأولى وردت في العنوان أعلاه.

ومن سياق الآيات الثلاث نجد أن معنى «أسوة» هو القدوة من الاقتداء، والقدوة الحسنة، فبماذا نقتدي عادة؟ بأقوال المقتدى به أم بأفعاله؟.

هب أنك كنت تدرس الزراعة في معهد زراعي، وبعد أن أنهيت دراستك النظرية في المعهد بُعثتَ بأمرِمن مدير المعهد إلى قرية زراعية لتعيش مع فلّاح وأسرته يعملون في الزراعة، لتطبق ما درسته من معلومات نظرية وردت في كتابك المقرر عن المزروعات الحقلية، وتبين لك من الزيارة أن الفلاح نفسه متخرّج من المعهد ذاته، ولديه الكتاب ذاته الذي درسته نظرياً في المعهد، وقد نصحك المدير أن تستفيد من خبرة ذلك الفلاح فيكون قدوة حسنة لك، فماذا تفهم من جملة مدير المعهد؟ قد تفهم منها إن كان موقفك وهمياً أنه يريد منك أن تتعلم من الفلاح كيف يلبس، وكيف يمشي، وكيف يتكلم، وما الجمل التي يفضلها وكيف يحادث زوجته وأولاده، وكيف يتسامر مع أصحابه، إلى آخر تلك الأمور الشخصية، وإن كان موقفك رحمانياً فإنك تفهم منها أن مديرك يريد منك أن تتعلم من هذا الفلاح مبادىء الزراعة العملية: متى يصحو؟ وفي أي ساعة يستيقظ؟ ومتى يطعم دوابه وكيف يطعمها؟ وما الأدوات التي يستخدمها في الزراعة؟ وكيف يحضر نفسه للخروج إلى الحقل، أو كيف يحضر الأرض وينتقي البذار المناسب وكيف يباشر بالزرع، ومتى يسقي كل نوع؟ أي أن تتعلم منه الأفعال والأعمال، لأنه مزارع جيّد، يعرف ماذا يفعل وهو جدير بأن يكون قدوة حسنة لكل مزارع مبتدىء يحب أن يتقن عمله. فاسأل نفسك الآن: ماذا أريد أن أتعلم من الرسول ﷺ وبم أقتدي به؟ والجواب أنك تريد أن تتعلّم الدين، وتعرف علاقتك بالذي خلقك، إن لديك القرآن الكريم وفيه كلّ المعلومات النظرية،

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١ (٢) سورة الممتحنة: ٤ (٣) سورة الممتحنة:٦

وأنت تحتاج إلى تطبيقها عملياً. فالكتاب يقول لك يجب أن تصلي لله خمس مرات في اليوم، ويحدّد لك الأوقات، لكنه لا يحدد لك عدد الركعات، وما يجب أن تقول في كل ركعة وكيف تركع وكيف يكون السجود الصحيح، وقبل الصلاة كيف يتم الوضوء عملياً، فالقرآن يقدم لك نظرياً كل ما يهمّك، والرسول ﷺ هو قدوتك في الممارسةالعملية، وهو الذي يعلمك ذلك كله، فأنت تعلمت الصلاة والصيام والزكاة وأصول أداء مناسك العبادات من أبيك أو من جدّك، وجدك تعلمها من أبيه أو من جده... إلى أن نصل إلى الشخص الأول الذي أخذ هذا كله عن الرسول محمد ﷺ مباشرة، إذاً أنا لا أخشى على صلاتي ونسكي أن ينحرفا لأنهما متواتران بالممارسة العملية الموروثة ومتصلان ومسنودان دون حاجة إلى سند مكتوب، فالسند متواتر بالممارسة التي اختارها الله ـ وليس في القرآن كله كلمة واحدة تقول إن للرسول ﷺ حديثاً يجب أن نتعلمه منه، وليس في القرآن كله كلمة واحدة عن سنة للرسول يطلب الله فيها أن أتعلمها منه، كل ما يطلبه مني أن يكون لي قدوة حسنة، فأتعلم منه الأشياء العملية، لأن الأشياء النظرية كلها واضحة وتامة غير منقوصة إطلاقاً في القرآن، فالله لا يقول شيئاً لا يعنيه إطلاقاً، ولو كانت المعلومات الواردة في القرآن الكريم ناقصة لما قال أبداً: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾[٤]. فما الحديث المذكور في القرآن الكريم إذاً؟ يقول تعالى: ﴿اللهُ نَزّلَ أحسنَ الحديثَ كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرّ منها جلودُ الذينَ يخشونَ ربَّهم ثم تلينَ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ذلك هدى اللهِ يهدي به منْ يشاءُ ومن يضللْ اللهُ فما لَه من هادٍ﴾[٥] ويقول تعالى: ﴿تلك آياتُ اللهِ نتلوها عليك بالحقّ فبأيِّ حديثٍ بعدَ اللهِ وآياتِه يؤمنون﴾[٦].

والله تعالى يعلم الغيب ويعلم المستقبل، وهو يدرك أن الناس سوف يقعون في مشكلة الحديث في الإسلام، ولذلك أنزل لنا نحن هذه الآيات حتى نتفهمها ونتدبرها.

وكأن الله يخاطبنا بهذه الآية ويقول لنا: أبعد آياتي وحديثي في القرآن تبحثون عن أحاديث وتروون عن أبي هريرة وابن عباس (رضي الله عنهما)؟ والله يدرك أن موقف الناس لن يكون موحّداً، لذلك يقول سبحانه: ﴿ومنَ الناسِ من يشتري لَهْوَ الحديثِ ليضلَّ عن سبيلِ اللهِ بغيرِ علمٍ﴾[٧].

---

(٤) سورة المائدة: ٣
(٥) سورة الزمر: ٢٣
(٦) سورة الجاثية: ٦
(٧) سورة لقمان: ٦

أما وقد عرفنا حديث الله، فما هي سنة الله إذاً؟ قال تعالى: ﴿سنةَ من قدْ أرسلنا قبلكَ من رسلنَا ولا تجدُ لسنّتنا تحويلاً﴾[٨].

﴿سنة اللهِ في الذينَ خلَوا من قبلُ ولن تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً﴾[٩].

﴿فلن تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجدَ لسنةِ الله تحويلاً﴾[١٠].

هذه هي سنن الله وليس في القرآن كله سنة للرسول.

فالله تعالى لم يرسل كتابين ولا سنّتين وإنما ذلك وهم من أنفسنا ومن شياطيننا.

إذا كان هناك إنسان يرى الشمس وهو لا يزال يصرّ على أن الشمس غير موجودة عناداً وظلماً لنفسه فليس أمامنا إلا أن نقول له كما قال الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببتَ ولكنّ اللهَ يهدي من يشاء﴾[١١]. أو نقول له: ﴿أفأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ أو تَهدي العُمي ومن كانَ في ضلالٍ مُبين﴾[١٢].

وقد يعترض علينا معترض من المسلمين فيقول: كيف تحجب السنن عن الرسول ﷺ وكيف تزعم أن القرآن كامل من دون سنة الرسول؟ وكيف يمكننا نحن المسلمين مثلاً أن نعرف عدد الركعات في كل صلاة؟ وكيف يمكننا نحن المسلمين لولا سنة الرسول أن نعرف الحد الأدنى للزكاة وغيرها من الفرائض وكلها غير موجودة في القرآن؟

وهو اعتراض وجيه وكلام مقبول، ولكن الله صادق ولا نستطيع أن نشك في صدقه، والله لا ينسى، ولا نستطيع أن نشك في ذلك: ﴿وما كانَ ربّكَ نَسِيّاً﴾[١٣] أي أن الله لا ينسى ولا يسهو أبداً.

وكذلك يقول الله سبحانه في الكتاب: ﴿ما فرّطْنا في الكتابِ من شيءٍ﴾[١٤] أي أن الله سبحانه لم يترك شاردة ولا واردة إلا وحسب حسابها في القرآن الكريم، فإذا كنا نؤمن بالله وبكتابه القرآن، وبكل ما قاله فيه فيجب أن يكون تفسير هذا الموضوع موجوداً في القرآن نفسه، لأنه ليس من كتاب آخر لله سواه نستطيع أن نلجأ إليه لنجد الجواب الشافي والمقنع.

ونحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى يعلم السرائر وما تخفي الصدور، ويعرف أيضاً

---

(٨) سورة الإسراء: ٧٧
(٩) سورة الأحزاب: ٦٢
(١٠) سورة فاطر: ٤٣
(١١) سورة القصص: ٥٦
(١٢) سورة الزخرف: ٤٠
(١٣) سورة مريم: ٦٤
(١٤) سورة الأنعام: ٣٨

حب الرسول ورحمته للمؤمنين جميعاً، وقد أعلن سبحانه معرفته هذه في الآية الآتية: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم﴾[١٥] وهو أعظم مدح يمكن أن يتلقاه إنسان مخلوق من ربه الذي خلقه فسوّاه فعدله، حتى ولو كان رسولاً نبياً.

وقد حثّنا الله عز وجل على تقديم الطاعة للرسول، كما يتبين لنا من الآيات الآتية:

﴿ومن يُطعِ اللهَ ورسولَه يُدخلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾[١٦].

﴿ومن يُطعِ اللهَ ورسولَهُ فقد فازَ فوزاً عظيماً﴾[١٧].

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرّسول﴾[١٨].

وفي القرآن الكريم تسع عشرة آية فيها حثٌّ على إطاعة الرسول مع إطاعة الله دائماً إلا في آية واحدة من سورة النور ورد فيها: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسولَ لعلكم تُرحمون﴾[١٩] وفي هذه الآية الوحيدة يطلب تعالى من المؤمنين أن يطيعوا الرسول ولم يرد ذكر إطاعة الله فيها: فما تعليل ذلك؟

والجواب أن الآية المشار إليها تتناول موضوعاً محدداً وهو الصلاة والزكاة.

وبدافع من حرص الله عز وجل على التخفيف عن المؤمنين والرحمة بهم ترك لرسوله أن يحدّد بنفسه كما يشاء عدد الركعات في كل صلاة، والحد الأدنى من الزكاة، فاختار الرسول الكريم جزءاً من أربعين جزءاً ليكون الحد الأدنى للزكاة، كي لا يحمّل المسلمين فوق طاقتهم، وكان الرسول منصفاً في تحديده عدد ركعات الصلاة والحد الأدنى للزكاة، ورؤوفاً ورحيماً بالعباد، إذ لم يحملهم ما لا طاقة لهم به. وهذا كله من فضل الله وفضل رسوله الكريم، ورحمة من رب العالمين.

وهكذا سوف يجد من يبحث بصدق وإخلاص، وإيمان بالله، في القرآن الكريم كل الأجوبة عن كل الأسئلة التي يطرحها إذ لا مورد لعلم المسلمين سوى القرآن، ومن تركه ضل وما هداه الله أبداً.

ولكي لا يظن بعضنا أن الله سبحانه وتعالى قد ترك أمر الصلاة والزكاة كله للرسول وحده، فإن الله سبحانه حريص على أن لا نقع في الظنون، فقد أنزل أيضاً آيتين في

---

(١٥) سورة التوبة: ١٢٨ (١٧) سورة الأحزاب: ٧١ (١٩) سورة النور: ٥٦

(١٦) سورة النساء: ١٣ (١٨) سورة النساء: ٥٩

القرآن الكريم تتعلّقان بالصلاة والزكاة يطلب فيهما الطاعة لله والرسول معاً. واحدة للرجال وأخرى خاصة بالنساء:

﴿فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا اللهَ ورسولَه﴾[20].

﴿وأقمنَ الصلاةَ وآتينَ الزكاةَ وأطعنَ اللهَ ورسولَه﴾[21].

صدق الله العظيم

---

(٢٠) سورة المجادلة: ١٣ (٢١) سورة الأحزاب: ٣٣

١٣ ـ رواية الحديث:

تبين لنا فيما سبق وناقشناه من إدعاءات وافتراءات أن الله سبحانه وتعالى اصطفى محمداً ﷺ اصطفاء قديماً بدليل أن الله بشّر به بالاسم والوصف وبما سيقوم به في كتب أهل الكتاب، فلا يعقل بعد ذلك إلا أن يكون حائزاً على كل الصفات التي تؤهله لهذه المهمة التي ستوكل إليه، من صفات خَلقيه وخُلقية، وذكاء وحكمة، وبُعد نظر ودهاء وفطنة، ولكن ضمن المقاييس الإنسانية المقبولة كيلا يتخذها أحد ذريعة للغلو في صفاته ونقله من الصفات البشرية إلى الصفات الإلهية. والله تعالى أيضاً بإرادة ومشيئة منه أراد أن يكون الرسول أميّاً فكان يجهل القراءة والكتابة، ولم يعلّمه أحد أي علم أو فن كيلا تكون لأحد حجة في الطعن على الإسلام أو ادعاء أن الرسول تعلّم من فلان أو قرأ في الكتاب الفلاني وما إلى ذلك من إدعاءات، ولم يعرف عنه أنه قال الشعر أو الخطابة أو سعى إلى زعامة أو عمل بالسحر، وهو بما يتمتع به أيضاً من الصفات الأولية يملك بما أوتي من مواهب حباه بها الله القدرة الذاتية على الحكم بين الناس، وقيادتهم بالحسنى، والعدل بينهم، وقد عرف عنه قبل الرسالة أنه (إنسان حقّاني) يميل بفطرته إلى الحق، ولا يجنح إلى الهوى، فلما احتكم إليه قبل الإسلام عمه حمزة ويهودي لا يعرفه، وكان الحق لليهودي، حكم لليهودي ولم يحكم لمن هو أقرب إليه، ولذلك كان الناس الذين يعرفون أنهم على غير حق يتحاشون تحكيمه، لقناعتهم أنه سيحكم لمن له الحق دون النظر لأي اعتبارات أخرى، وكذلك كان مع الوحي، فإن صفاته الشخصية هذه كانت تمنعه من الكذب، أو قول ما تهواه نفسه، وقد عرفت هذه الصفات بشكل مبكر في الرسول ﷺ حتى سمي بالأمين قبل الرسالة وهو أمر معروف. وفي هذا الإطار يجب أن نفهم الآية الكريمة: ﴿وما ينطق عن الهَوى * إنْ هو إلّا وَحيٌ يوحى﴾[1] أي أن رسول الله لا يقول ما تهوى نفسه وإنما يبلّغ عن ربه وحياً، وقد أساء كثير من المسلمين في عصر الانحدار الإسلامي فهم هذه الآية فظنوا أن كل ما يقوله الرسول هو وحي منزل، وهم لا يحسنون للرسول ﷺ بهذا الادعاء بل يسببّون له الأذى حين يرفعونه من مستواه البشري الذي أراده الله إلى مستوى التأليه، وهو أمر لم يُرِدْه الله ولا أراده الرسول نفسه، كما لا يصح

(١) سورة النجم: ٣ ـ ٤

أن نعطل قدراته كلياً، ونزعم أنه كان يتلقى كل ما ينطق به من علاقاته مع الناس ومع أصدقائه ومع زوجاته وأقربائه كلها وحياً من الله، أي وكأنه لا يملك أي قدرة ذاتية على التصرف إلا بعلم من الله، وفي هذا القول إساءة للرسول الكريم، وسوء ظن به لا يستحقه. فكان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن منجَّماً لغاية قَصَدَها الله تعالى: ﴿كذلكَ لنثبّتَ به فؤادكَ ورتّلْناهُ ترتيلا﴾[٢] لكي يحفظ الرسول كل القرآن بالتدريج، وكان جبريل عليه السلام يقرئه: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾[٣] ليتأكد من حفظ الرسول للقرآن. أما أن نتصور جبريل يجلس مع الرسول وكأنه تلميذ في كُتّاب يشرح له معاني آيات الرسالة التي أنزلها الله باللسان العربي المبين، لسان الرسول الكريم ولغته، فهذا سوء ظن بفهم الرسول وقدراته وذكائه وملكاته الأخرى. وآيات الكتاب تتحدث في أمور وضّحها الله في كتابه ليبلّغها الرسولُ ﷺ للناس في كل ما يتعلق بالحلال والحرام والعبادات والحدود والعلاقات فكان الرسول يتصرف قائداً ومعلماً وقاضياً وزوجاً وصديقاً ورفيقاً وصاحباً من خلال علاقاته بالناس معتمداً على رأيه واجتهاده، وهذا الرأي وهذا الاجتهاد أصبحت لهما منابعهما الأصيلة كما مرّ بنا فلم يعد ينقصه ﷺ إلا الكتابة بيده، فالعلم الذي يريد الله من رسوله أن يعلمه قد علمه إياه عن طريق القرآن، ولا يصح بحال من الأحوال أن نتصوّر رسولَ الله في حياته أشبهَ بآلةٍ لا حياةَ فيها تستجيب لما تلقنه، فنلغي بذلك شخصيته وذاتيته من لحظة بداية الوحي عليه، فهذا سوء ظن بالرسول الكريم، لكن للرسول صفتان يجب عدم الخلط بينهما وهما:

١ ـ الصفة الأولى: الصفة العالمية:

الصفة الأولى لرسول الله ﷺ هي من الله تعالى، وهي إبلاغ العالم كلِّه دينَ الله الذي هو الإسلام، وعلى أساسها يُشترط على كل مسلم أن يشهد، عند إيمانه بالإسلام، بالشهادتين وهما: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. من هذه الشهادة تأتي الصفة العالمية للرسول ﷺ، ومن هذه الشهادة تبدأ أيضاً إطاعة المؤمن الرسول مع إطاعة الله فهما طاعتان موصولتان غالباً:

﴿وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ فإنْ تولّيتُم فإنّما على رسولنا البلاغُ المبين﴾[٤].

﴿وأطيعوا اللهَ ورسولَهُ ولا تَنازَعوا فتفشَلوا﴾[٥].

---

(٢) سورة الفرقان: ٣٢
(٣) سورة الأعلى: ٦
(٤) سورة التغابن: ١٢
(٥) سورة الأنفال: ٤٦

ونحن نعلم أن كل رسول مقيّد بنص ما يحمل من رسالة من قبل من أرسله، ولا يستطيع أن يتجاوز ذلك النص إلا بالرجوع إلى الذي أرسله أساساً، وكذلك الرسول محمد ﷺ مقيّد بنص رسالته التي هي القرآن، وبالوحي الذي يتنزل عليه، فلا يستطيع أن يتجاوزه على الإطلاق خاصة في شؤون الدين والعقيدة والحلال والحرام والعبادات والحدود، ليس له حرية التصرف على الإطلاق فيها إلا بما سمح له به النص في القرآن.

هذه هي الصفة الأساسية الأولى للرسول ﷺ التي تهمنا نحن المسلمين اليوم أكثر من أية صفة أخرى له.

٢ ـ الصفة الثانية: الصفة الزمانية المحدودة بالمكان:

وللرسول صفة أخرى وهي صفة القائد العام للمؤمنين الذين كانوا معه، وله صفة المعلم الذي يرشدهم، وصفة القاضي والحاكم السياسي أيضاً. وله صفة الزوج بالنسبة لزوجاته، وصفة الصاحب والرفيق لأصحابه، ومن كل هذه الصفات يتبين لنا أن له مواقف دائمة ومتجددة بحسب الظروف المستجدة كل يوم على المسلمين من حرب وسلم وعمل وراحة. ومهمات مستجدة بحسب قوة الإسلام، وعدد المسلمين المتزايدين كل يوم. وشاء الله أن يفصل بين هاتين الصفتين وأن يربط الصفة الأولى بالقرآن والرسالة، بحكم دوامها واستمرارها مع الزمان، وأما الثانية فمحددة بالمكان الذي عاش فيه الرسول ﷺ وبالعصر الذي كان فيه وبحياة الرسول القصيرة التي لا بد أن تنتهي بالموت، فكل ما قام به الرسول ﷺ بهذه الصفة الثانية ليس لها أن تربط بالصفة الأولى، فكما أن حياته محدودة بحسب الصفة الثانية وتنتهي بموته، كذلك أحكامه واجتهاداته وكل أوامره ونواهيه المتعلقة بظروف المسلمين أيضاً تنتهي معه. أما أوامره وتعليماته في شؤون الصفة الأولى فتبقى سارية المفعول مع بقاء القرآن واستمرار الدين الإسلامي، كالصلاة والزكاة والحج أو أي أوامر أساسية لها صفة مباشرة بالقرآن والدين مثل: «لا تكتبوا عني ..... ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»، «من قال عني ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار».

وهي أمور تهم المسلمين، وتهم مستقبل الإسلام وتتبع الصفة الأولى.

أما الحديث الذي يقول: «معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله» فلا علاقة له بعقيدة الإسلام بالإضافة إلى أنه ليس بحقيقة علمية ولا دينية، وكذلك الأحاديث: «خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود، وأبي، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة».

أو: «لا يبقى على سطح الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة».

أو: «لا يصلّينَّ أَحَدٌ العصرَ إلا في بني قريظة».

أو: «يا براء: كيف تقولُ إذا أخذتَ مضجعَك؟».

أو «يا زيد تعلم لي كتابَ يهود فإني والله ما آمن يهودَ على كتابي».

كل هذه الأقوال لاعلاقة لها بالصفة الأولى للرسول ﷺ فلا يحق لنا أن نخلط الصفة الثانية بالأولى، فالصفة الدائمة تبقى دائمة، والصفة الزائلة تزول مع الحياة والزمن، هكذا فهم الإسلام صحابة الرسول الذين قد يكونون أميين من ناحية القراءة والكتابة، لكن أفكارهم ترسخت في نور الله الحقيقي، ففهموا الصحيح من الخطأ، ومن دون أن يخلطوه بالباطل والأوهام، وهكذا يجب أن نتعلم الإسلام ونفهمه كما فهموه. كانوا يعلمون أن العلم كله في القرآن، وليس في اي مكان آخر، ولكن الله سبحانه وتتعالى الذي يعلم الغيب ويعلم بالإنسان وأحواله، والشيطان وأفعاله، يعلم أن الخلف الذي سيأتي من بعد المسلمين الأوائل سوف يهجرون القرآن إلى كتاب آخر كله وهم وظنون وأباطيل ولذلك قال تعالى بلسان الرسول محمد ﷺ في القرآن الكريم: ﴿يا ربِّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآنَ مهجوراً﴾(٦).

ولا بد لي أن أستشهد في هذا المقام برأي الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله الذي يقول في كتابه «الفوائد»(*):

هجر القرآن أنواع:

أحدهما: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم (هكذا كان يقول علماء الحديث في عصره).

والرابع: هجر تدبّره وتفهّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به) انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

---

(٦) سورة الفرقان: ٣٠

(*) المصدر السابق نفسه: ص ١٢٣ طبعة دار الهدى ١٩٩٤

وكل هذا داخل في قوله: ﴿وقالَ الرسولُ يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآنَ مهجوراً﴾.

فالرسول ﷺ كان يجتهد برأيه من خلال العلم الذي تلقاه، والمعرفة التي تكونت عنده، ويقول به، ويعمل به، والله تعالى يراقبه لأنه رسوله، تاركاً له حرية التصرف، فهو أولاً لن يخطىء فيما سبق وأوحي إليه به لأنه فهم الوحي، فهو سوف يطيع الله وينفذ أوامره، وإن تعرض لموقف لم يتطرق إليه الوحي بعد، فهو أيضاً سيجتهد ويتخذ موقفاً، فإن جاء موقفه موافقاً لمشيئة الرحمن ووحيه أيده الله تعالى بالوحي، وثبّته على ما فعل ووافق عليه، وإذا اجتهد واتخذ موقفاً يخالف لما سيأتي من الوحي به فلا نقول إن الرسول قد أخطأ. لأن الخطأ لا يكون إلّا لمن يعلم مسبقاً بالأمر ويعرفُ وَجْهَ صوابه ويفعل عكسه، والرسول لم يتلق المنهج بكامله بعد، من ذلك على سبيل المثال (موقفه من الصلاة على عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين عندما مات، وموقف عمر بن الخطاب من ذلك، وكيف أن الله أيّد موقف عمر على رأي الرسول بعدم الصلاة على المنافقين).

ولكن لا نقول إن محمداً ﷺ أخطأ وأصاب عمر كما يقول البعض، فالرسول ﷺ لم يخطىء، لأن الآية التي تأمر بعدم الصلاة على المنافقين كانت لم تنزل بعد، ولذلك رأينا جواب الرسول لعمر وقتها بأنه قد خُيّر، بإمكانه أن يصلي عليهم وبإمكانه ألا يصلي، عملاً بالآية الكريمة: ﴿استغفرْ لهُم أو لا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعينَ مرة فلن يغفرَ اللهُ لهم...﴾(٦).

ثم أضاف رسول الله ما معناه: لو يعلم أن الله سيغفر له، إذا لَدَعى له أكثر من سبعين مرة، وهذا التصرف من الرسول نابع من طبيعته وأخلاقه وشخصيته، فهو كما قال الله تعالى عنه: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ والرسول ﷺ لم يخطىء في هذا الموقف وإنما تصرف ضمن حدود علمه ومعرفته حتى تلك اللحظة، لكن الله أرسل بعدها أمراً بعدم الصلاة على المنافقين، وبعد نزول الآية، اختلف الموقف كلياً، ولن يصلي الرسول على أحد منهم بعدها، هذا ما قصدت أن أبينه للذين يقولون خطأً بأن الرسول الكريم قد أخطأ. أو كان يخطىء، ويصحّح له الله الخطأ.

وعندما نقول: إن الرسول لم يخطىء لا نقصد أنه كإنسان غير معرض للخطأ كلية، فكل إنسان معرض للخطأ، والرسول إنسان، فهو إذاً معرض للخطأ، ولكن علينا ألا

---

(٧) سورة التوبة: ٨٠

نسي موضوع عصمة الله لرسوله، وهنا يجب أن نميز أيضاً بأن الرسول غير معصوم من الخطأ بذاته، ولو قلنا غير ذلك لأشركنا بالله، وجعلنا للرسول صفات إلهية غير موجودة فيه، لكن الله يحميه من الوقوع في الخطأ، حتى إن ذلك حدث له قبل الرسالة حيث نجد في السيرة النبوية أنه ﷺ عندما بلغ ورأى أترابه ينزلون لمكة للهو أراد هو أيضاً أن ينزل ويرى ماذا هناك، فترك أغنامه التي كان يرعاها مع زميل له، ونزل ليلتين إلى مكة، لكن الله جعله ينعس وينام حتى لا يرى ولا يفعل شيئاً، لأن الله يعلم ماذا كان يهيأ لذلك الفتى، أما هو فلم يكن يعلم شيئاً.

وأحب أن أؤكد أن حالة الرسول هذه حالة خاصة، ليس لأحد من الناس أن يقيس عليها فإن ارتكب مسلم معصية على سبيل المثال، ولم يكن يعلم أنها معصية، لأن أحداً لم يرشده إلى ذلك فقد أخطأ، لأن نص القانون الإلهي موجود وينص على أن ما يفعله الجاهل من إثم يعدّ معصية، وجهله ليس حجة له بل عليه.

أما الرسول فوضعه خاص، لأن القوانين الإلهية كانت تتنزل عليه بالتدريج، فكيف نطالبه بتطبيقها قبل أن تتنزل عليه ويعرفها؟ وهو لم يخالف قط ما أنزل عليه فلا يجوز القول بأنه كان يخطىء وأن الله كان يصحّح له.

بعد هذا التمهيد ندخل للموضوع مع الصحابة لنرى موقفهم من رواية أحاديث الرسول، وموقفهم من السنة.

من كل الأحاديث الصحيحة المروية عن الصحابة خلال بحثنا السابق نستنتج أن كل الصحابة كانوا يفهمون السنة على أنها اتباع السنن والأوامر والأحكام التي يصدرها الرسول في ضوء القرآن. أما حديث الرسول في جلسات تعليمه وسمره فلا يرونه داخلاً في الموضوع. وإنهم لم يمانعوا من رواية تلك الأمور التي ذكرناها، لكنهم كانوا يشترطون الشهادة أو القسم على الصحابي الذي يدعي بأنه سمعها من الرسول حتى لا يصبح التقول على رسول الله مباحاً لكل من عنَّ له ذلك.

موقف الخلفاء الراشدين:

١ ـ موقف أبي بكر الصديق من رواية الحديث:

ولنعد إلى موقف أبي بكر رضي الله عنه من رواية الحديث.

كان أبو بكر الصديق قدوةً للمسلمين في المحافظة على السنة (القاعدة) ولم يكن

الصحابة أيام الرسول يفهمون السنة على أنها تعني الحديث ضمناً، بدليل أنهم كانوا يتبعون السنة (القاعدة) مع اتباع أساليب شديدة للتثبت من صحة ما يروى بأنه سنة (قاعدة) (أي الأحكام والأوامر والقرارات التي أصدرها الرسول ﷺ خلال حياته مع الصحابة) اجتهاداً.

أما عن الحديث بشكل مطلق فكان أبو بكر متشدداً يأمر بمنع الرواية عن الرسول. قال الحافظ الذهبي(*): كان أبو بكر رضي الله عنه أول من احتاط في قبول الأخبار فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه.

وكما روى الذهبي(**): أن الصدّيق جمع الناس بعد وفاة نبيّهم فقال: (إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً فإن سألوكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرموا حرامه).

والدليل على أن الخلط بين السنة والحديث حدث متأخراً ما يقوله الذهبي تعليقاً على الرواية السابقة:

قال الحافظ الذهبي: (يدلّك أنّ مراد الصدّيق التثبت في الأخبار والتحري، لا سدّ باب الرواية، ألا تراه لمّا نزل به أمر الجدة ولم يجده في الكتاب كيف سأل عنه في السنن فلما أخبره ما اكتفى حتى استظهر بثقة آخر ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقول الخوارج).

فسؤال الصدّيق كان عن موضوع يتعلّق بالسنن، وهو موضوع أصدر به الرسول أمراً ولا نصّ له في القرآن وهو اجتهاد من الرسول، فلما وجد من بين الصحابة اثنين يشهدان بأنهما سمعا الرسول أنه كان يعطيها السدس حكم لها بذلك، ولو لم يشهدا لاجتهد بنفسه.

هذا نمط من الرواية في صدر الإسلام، تتعلق بحكم شرعي، وهو أشبه بشهادة تدعم

(*) تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٣، والحديث يعدّ حالة حكم شرعي كما مرّ بنا.

(**) تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٤

أوامر الرسول. فماذا عن الأحاديث التي رويت فيما بعد؟ إن تسعة وتسعين بالمئة منها روايات تتناول التنبؤ بالغيب وما سيقع في المستقبل، وروايات عن قصص إسرائيلية وأخبار الأمم القديمة وأمور ليست لها علاقة بالسنن لا من قريب ولا من بعيد، هذه الروايات التي عبر عنها أبو بكر بقوله: (أحاديث تختلفون فيها) نهاهم عنها نهياً قاطعاً لا لبس فيه: (فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً) ولم يقل: سنن: لأن السنن كانت تروى ولا تكتب وهذا ما يجعل الالتباس واقعاً حتى اليوم لأن اصطلاح «سنة» عند الصحابة كان يعني شيئاً، وأصبح عند المتأخرين يعني شيئاً آخر فقد اتسع مدلول السنة ليكون من ضمنها الحديث أيضاً.

٢ ـ موقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه من رواية الحديث:

روى الشعبي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قالوا: نعم نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا، فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالحديث فتشغلوهم، جوّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ وامضوا وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا. قال: نهانا عمر بن الخطاب.

فهذا هو الخليفة الثاني ينهى عن الحديث والرواية.

ومهما يكن من إكثار بعض الصحابة التحديث عن رسول الله. فقد كان ذلك قليلاً في عصري الشيخين أبي بكر وعمر.

قيل لأبي هريرة: أكنت تحدث في زمن عمر هكذا؟ قال: (لو كنت أحدّث في زمن عمر مثل ما أحدّثكم لضربني بالدرة) جامع بيان العلم ١٢٠/٢ وروي عن طريق الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد: أن أبا موسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاثاً فلم يؤذن له فرجع، فأرسل عمر في أثره قال: لم رجعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سلّم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع قال: لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك...! فجاءنا أبو موسى ممتقعاً ونحن جلوس فقلنا ما شأنك؟ فأخبرنا وقال فهل سمع أحد منكم؟ فقلنا: نعم، كلنا سمعه فأرسلوا معه رجلاً منهم فأخبره. والحديث في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري.

فهذا حديث صحيح عاديّ من الرسول ﷺ من آداب حسن التصرف، ومع ذلك لم يهن على الفاروق أن يقول به صحابي عاش مع الرسول وهو يقولها بنفسه وليس قال

عن قيل، مع ذلك هدّده وطلب بيّنة على ادعائه، ولو كانت في موضوع حكم قضائي أو شرعي كما رأينا في قضية أبي بكر الصديق مع الجدة لطلب الفاروق شاهدين ولم يكتف بواحد. علماً أن شهادة الصحابي صاحب القضية هو شاهد عن نفسه بسماعه للحديث، والذي أيّده يُعَدُّ شاهداً ثانياً وليس بشاهد واحد كما ظنّ رواة الحديث عندما قالوا يمكن الاكتفاء بشاهد واحد ونسوا الصحابي وشهادته بالسماع عن نفسه.

وفي كتاب السنة للشيخ مصطفى السباعي رأي يقول: «فهم بعض الباحثين من هذه الآثار أنّ خطة أبي بكر وعمر في الحديث ألا يقبلا حديثاً إلا ما رواه اثنان فأكثر، وأن خطة علي تحليف الراوي، وانتقل هذا الفهم إلى كثير من كتب تاريخ التشريع الإسلامي، وتاريخ السنة في العصر الحديث، فأصبح عندهم قضية مسلّمة لا يذكرون غيرها، ومعه ذهب إلى هذا أساتذتنا الأجلّاء، مؤلفو مذكرة تاريخ التشريع الإسلامي في كلية الشريعة بالأزهر فقد ذكروا في باب شروط الأئمة للعمل بالحديث أن هذا كان شرط أبي بكر وعمر وعلي للعمل بالحديث».

قال ابن قتيبة: (كان عمر شديد الإنكار على من أكثر من الرواية، أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يُقلّلوا الرواية، يريد بذلك ألّا يتسع الناس فيها ويدخلها الشوب، ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابيّ، وكان كثيرٌ من جلّة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله ﷺ، كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة، والعباس بن عبد المطلب يقلّون الرواية عنه، بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة)(*).

والتزم الصحابة في الخلافة الراشدة منهاج عمر رضي الله عنه فهم لا يكثرون من الرواية حتى أن منهم من كان لا يحدث حديثاً في السّنة، ونرى من تأخذه الرعدة، ويقشعر جلده، ويتغيّر لونه، وربّما احتراماً (ورهبة) لحديث رسول الله ﷺ ومن هذا ما رواه عمر بن ميمون قال: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال فما سمعته يقول بشيء قطّ: «قال رسول الله ﷺ» فما كان ذات عشية؟ قال: «قال رسول الله ﷺ. قال فنكس، قال فنظرت إليه فهو قائم محلّلة أزرار قميصه، قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه، قال أو دون ذلك أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك».

وهذا نص الحديث المذكور آنفاً نذكره برواية أخرى:

(*) تأويل مختلف الحديث: ص ٤٨ ـ ٤٩

(بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا إلى موضع قرب المدينة يقال له صرار، قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله ﷺ ولحق الأنصار قال: لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم: إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل، فإذا رأوكم مدّوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد، فأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم).

وروى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ(*) (عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه أن عمر حبس ثلاثة: ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصاري قال لهم: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله).

ولا شك أن عمر بن الخطاب بحكم مسؤوليته، كان متشدداً في تطبيق هذا المنهاج، فحمل الناس على أن يتثبتوا مما يسمعون، وأن يتروَّوا فيما يروون، فكان له فضل لا يُنكر في حفظ الحديث وصونه من التدليس والكذب، ومن الشوائب والدخل، ولكن الصحابة أنفسهم كانوا يفهمون ذلك فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ليس العلم بكثرة الحديث ولكن العلم الخشية(**).

بينما يحاول البعض أن يصوروا أنّ أبا هريرة رضي الله عنه كان يخاف من درّة بن الخطّاب أكثر ممّا يخاف الله في حديث عنه، قال أبو سلمة يسأل أبا هريرة: أكنت تحدّث في زمن عمر هكذا؟ فقال لو كنت أحدّث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقته(***).

وفي رواية أخرى (لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربني عمر بالدّرّة)(****).

ولا يشك أحد في أن غاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تشدّده على هذا الأمر لم يكن عن كراهية للرسول ولحديثه فقد كانا أحب شيء إلى نفسه، ولكن كان هدفه الإبقاء على المنهج، منهج الله: القرآن الكريم، لأنه رحمه الله كان يخشى أن ينشغل الناس بالرواية وبالأحاديث عن القرآن الكريم وهو دستور الإسلام وعماده

(*) تذكرة الحفاظ: ج١ ص ٧

(**) مختصر كتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول ص ٦

(***) تذكرة الحفاظ: ج١ ص ٧

(****) جامع بيان العلم: ج ٢ ص ١٢١

ومنهجه إلى يوم الدين. ولكي يتبين لكم صدق ما ذهبنا إليه تذكروا ما قاله لأفراد بعثته للكوفة، نصحهم ألا يلهوا الناس هناك بالأحاديث وأمرهم أن يركزوا اهتمامهم على القرآن، ولأنه يعرف الحق قال لهم إذا كان في نفوسكم أيّ شك في أنكم لا تعملون الواجب والمطلوب وأن الله سيحاسبكم لأنكم لم تحدّثوا عن الرسول فأنا شريككم في ذلك. وهل ثمة شاهد أوضح من هذا على منع نشر الأحاديث بين الناس عن طريق الرواية؟.

٣ ـ موقف عثمان بن عفان رضي الله عنه من رواية الحديث:

روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه اتبع منهج الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومنع الإكثار من الرواية: قال محمود بن لبيد سمعت عثمان على المنبر يقول: لا يحل لأحد يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ ولم أسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر فإنه لم يمنعنا أن نحدّث عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى لأصحابه عنه، إلا أني سمعته يقول:

«من قال عليّ ما لم أقل فقد تبوأ مقعده من النار»(*) رحم الله عثمان بن عفان فقد وعى ما سمع، وطبق ما فهم، غفر الله له وأسكنه فسيح جنانه آمين.

وها نحن نقرأ بأنه أعطى المسلمين درساً في نقل السنة بالتواتر عملاً، خاصة فيما يتعلق بالمناسك والعبادات.

عن بسر بن سعيد قال: أتى عثمان المقاعد، فدعا بوضوء، فتمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه ثلاثاً ثلاثاً ثم مسح برأسه، ورجليه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ هكذا يتوضأ، يا هؤلاء أكذلك؟ قالوا نعم، لِنَفَرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ عنده(**).

لا يستطيع أحد أن يدعي أن عثمان كان يشك بطريقة وضوئه فأراد أن يستوثق من ذلك من صحابة الرسول، لأن عثمان عاش مع الرسول فترة بعثة الرسول كلها، فرأى الرسول ﷺ يتوضأ أمامه آلاف المرات، لكنه أراد أن يعطي الصحابة درساً في طريقة نقل السنن: أي تعليم الناس بشكل عملي، المناسكَ والعبادات من وضوء وصلاة وصوم وحجّ.

(*) قبول الأخبار: ٢٩، ومسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٦٣

(**) مسند الإمام أحمد: ج ١ ص ٣٧٢

٤ ـ موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه في رواية الحديث:

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: (إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فلأن أخرّ من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه)(*).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه. وإذا حدثني غيره استحلفته فإذا حلف لي صدقته.

وأن أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر، أنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له»(**).

ومن منا إذا حدثه أبو بكر الصديق لا يصدقه فيطلب منه أن يحلف له؟ هذا ليس بدليل على أن علي بن أبي طالب إذا حدثه غيره من الصحابة أمثال ابن عباس أو ابن مسعود أو أبي هريرة لا يستحلفهم ليتأكد من صدقهم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله(***).

وهكذا نجد أن موقف الأئمة الأربعة بعد الرسول فيما يتعلق برواية الحديث موقفاً موحداً، وهو المنع إلا فيما يتعلق بالسنة التي كانوا يفهمونها غير متضمنة لحديث الرسول والا لما قال أبو بكر في خطبته كما مرّ بنا: (فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً) وهو أمر واضح وقاطع يمنع التحدث عن الرسول. لأن أبا بكر رضي الله عنه فهم سنة الله أنه لا حديث للرسول بعد وفاته، ولكنه عندما سأل الناس في موضوع وراثة الجدة فإنه كان يسأل عن حكم شرعيّ حكم به الرسول لا عن حديث، بل عن فعل وحكم قضائي لا عن حديث قيل في مجلس من المجالس. ومن حديث المجالس الذي لا صحة له (سمعت رسول الله ﷺ يقول: سوف تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) فراوي الحديث يعلم أنه يفتري على رسول الله أمام كل الناس بهذا الحديث حيث تبين أن الإسلام تفرق إلى أكثر من ألف فرقة، وفي كل يوم فرقة جديدة وما أبعد الفرق بين هذا الحديث وسؤال أبي بكر الصديق عن حكم شرعي ليس له نص مرجعي في القرآن. والفرق واضح لمن أراد أن يرى الاختلاف ولم يكن لديه هوىً يغلبه.

وكان موقف الصحابة موحداً أيضاً فيما يتعلق بنقل السنة (أي الأحكام والسنن وليس

(*) المصدر نفسه: ج٢ ص ٤٠ (**) المصدر نفسه: ج٢ ص٤٠ (***) تاريخ ابن كثير الدمشقي.

الحديث) وهو التثبت من الرواية ببيّنة وإحضار شهود وإلاّ فلا. وكان هذا موقف الشيخَيْن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أما علي فقد روي أنه كان يحلّف الرواي ويكتفي برواية الواحد للسنة أو الحكم القضائي الشرعي.

وكان عثمان بن عفان يقتدي بالشيخين تماماً إلى حدّ أنه كان يمنع رواية أي سنة لم يسمعها في زمن الشيخين.

٥ ـ موقف باقي الصحابة رضي الله عنهم جميعاً من رواية الحديث:

عن كتاب السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب(*).

وعن ثابت البناني أن بني أنس قالوا لأبيهم: يا أبانا. ألا تحدثنا كما تحدث الغرباء؟ قال: أي بنيّ إنه من يُكثِر يَهجُر(**).

قال مجاهد: صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة (رحلة كانت على الجمال تأخذ أكثر من عشرة أيام) فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث «مثل المؤمن مثل النخلة»(***).

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: (أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد ﷺ، ما منهم يحدث بحديث إلا ودّ أنّ أخاه كفاه إياه، ولا يُستفتى عن شيء إلا وَدَّ أنّ أخاه كفاه إياه) وفي رواية: (يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول)(****).

وقال السائب بن يزيد أنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة قال: فما سمعته يحدّث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع(*****)

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قلنا لزيد بن أرقم: حدثنا عن رسول الله ﷺ قال: كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد(******).

وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: كفى بالمرء كذباً ان يحدّث بكل ما سمع(*******).

(*) السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب ص٩٥ ـ طبعة دار الفكر ١٩٨١
(**) طبقات ابن سعد ج٧ ص١٤ (***) صحيح مسلم: ج٤ ص٢١٦
(****) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول: ص ١٣ (*****) طبقات ابن سعد: ص ١٠٢ ج٣
(******) السنن لابن ماجه ج١ ص٨، والسنن للبيهقي: ج١٠ ص١١
(*******) صحيح مسلم: ج١ ص١٠

وعن معاوية رضي الله عنه كان يقول: اتقوا الروايات عن رسول الله ﷺ إلا ما كان يذكر منها في زمن عمر، فإن عمر كان يخوّف الناس في الله تعالى. وبعد أن مات عمر ارتفعت تلك الخشية(*).

روى الحافظ الذهبي: عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه أن عمر حبس ثلاثة من الصحابة (ابن مسعود، وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري قال لهم: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ)(**) أليس هذا بدليل كاف على أن خلفاء الرسول كانوا يمنعون الحديث وروايته عن الرسول حتى لا ينشغل الناس بذلك عن القرآن أم هل يشك أحد أن رسول الله لم يكن أحب إليهم من أنفسهم؟

وقال أبو سلمة يسأل أبا هريرة: أكنت تحدّث في زمان عمر هكذا؟ فقال: (لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بالدّرّة).

فإذا كان هذا الحديث صحيحاً فهل يعني أن أبا هريرة كان يخشى عصا عمر قبل أن يفكر في خشية الله ورسوله، وهو يعلم أن عمر إنما يمتثل لطاعة الله ورسوله في هذا الأمر، فإطاعة عمر، وهو ولي الأمر تأتي بعد طاعة الله ورسوله: ﴿وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم﴾.

وإليك حديثاً آخر روي على أشكال مختلفة، وصنف على أنه حديث متواتر:

- عن عبد الله بن الزبير قالك (من ضمن حديث) «من كذب عليَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار».

- ومن رواية أخرى عن عبد الله بن الزبير ذاته: سمعته يقول: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار»(***).

أو:

- «من روى عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(****).

- وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال من ضمن حديث: «من قال عليّ ما لم أقل فقد تبوأ مقعده من النار».

(*) تذكرة الحفاظ: ج١ ص٧ (**) المصدر نفسه: ج١ ص٧

(***) السنن لابن ماجه: ج١ ص١٠، وفتح الباري: ج١ ص٢١٠

(****) مقدمة التمهيد لابن عبد البر: ص١١

فلدينا لهذا الحديث عدة روايات عن الصحابة، منها روايتان لعبد الله بن الزبير وأخرى لعثمان بن عفان والروايتان الأولى والثانية متشابهتان معنى، وإن اختلفتا قليلاً في اللفظ، غير أنه لا يعقل أن يكون عبد الله بن الزبير قد روى بنفسه روايتين مختلفتين عن الرسول، ولكن يبدو أن أحد الرواة ممن جاء بعده أضاف كلمة (متعمداً) في متن الحديث الصحيح المروي عن شخص لا يمكن أن يشك بروايته وهو عبد الله بن الزبير، وقد درس رجال الحديث الرواة دراسة بشرية، وأثبتوا أمانة عبد الله بن الزبير في الرواية ثم كانت إضافة كلمة (متعمداً) إلى الحديث فيما بعد إضافة مقصودة لأنها تعطي إجازة لكل الناس أن يرووا الأحاديث، وتسوّغ للرواة أن يتحرروا من الخوف من الخطأ والسهو والنسيان.

وهكذا استطاع الرواة بهذه الإضافة أن يجدوا لهم مخرجاً، وبكلمة واحدة أضافوها قضوا على سنة التشدد في الرواية التي اتبعها الخلفاء الراشدون، والغريب أن علماء الحديث يزعمون أنهم يقولون: قد أحصينا كل شيء وأحطنا علماً بكل شيء واحتطنا لكل شيء، أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم وأتوب إليه.

الخلاصة:

وهكذا بعد هذه الدراسة المستفيضة تبين لنا أن حديث الرسول كان منهياً عنه ليس خوفاً بالاختلاف والوقوع في الخطأ والكذب على رسول الله دون عمد، سهواً أو خطأً أو عجزاً عن فهم مقصد الرسول تماماً، أو نسياناً لبعض الكلمات المهمّة، ولكن خوفاً من إيجاد كتابٍ ثانٍ مع كتاب الله، روايةً أو كتابة. فهل التزم المسلمون بعدم الكتابة أو الرواية؟.

من الملاحظ أن كثيراًمن الصحابة والتابعين لم يلتزموا ذلك، فغلبهم هواهم وحبّهم للمال وللاشتهار إلى رواية الحديث عن الرسول. وقد يقول قائل: كيف تقول على صحابة رسول الله هذا الكلام فهم منّزهون صادقون؟ أقول له وَفِّر على نفسك، وسأذكّرك بقصة تبرهن أنه يمكن للصحابي المؤمن أن تغلبه نفسه الأمارة بالسوء لأن الشيطان موجود، فتصدر منه أعمال أخطر من رواية أحاديث كاذبة عن الرسول قد تصل إلى حد الخيانة العظمى:

ورد في كتاب أسباب النزول للإمام الواحدي النيسابوري الذي توفي عام ٤٦٨ هجرية(*):

(***) أسباب النزول: نشر دار القبلة ط٣ سنة ١٩٧٨، ومسند أحمد ج٣ ص٤٥٣ - ٤٥٤ طبع الحلبي.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾.

لاحظ الخطاب من الله تعالى غير موجّه للكفار ولا للمشركين وإنما للمؤمنين: يا أيها الذين آمنوا:

(نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا، من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصراً لهم، لأن ماله وعياله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة، ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا).

قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمنا أن قد خنت الله ورسوله. فنزلت فيه الآية: فلما نزلت شدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليّ. فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله تعالى عليه فقيل له يا أبا لبابة: قد تِيبَ عليك فقال: لا والله، لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّني. فجاء، فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ يجزيك الثلث أن تتصدّق به». (مسند أحمد: ج٣ ـــ ٤٥٣/٥٤).

وقد تبين لنا أن حديث الرسول كان منهياً عنه، لأن الصحابة من أمثال الخلفاء الراشدين كانوا على مستوى من العقل والدراية والإدراك حيث نستطيع أن نقول إنهم من الذين فهموا الرسالة الإلهية التي وصلت إليهم عن طريق الرسول محمد ﷺ، وفهموا أن الاجتهاد أساس من أسس الإسلام لا بد منه، وفهموا أيضاً أن لا ثبات للأحكام مع تبدل الزمان والمكان. وفهموا أن كل أحكام الرسول ﷺ لها صفة المحلية للزمان والمكان، فأمروا بعدم كتابتها لكي ينساها الناس مع مرور والزمن لأن في كتابتها وتثبيتها ظلم وإشراك بالله ولا يجوز أن تكون ثابتة مطلقاً. ولكن النفس الأمارة بالسوء موجودة، والشيطان موجود ولم يمت، والممنوع مرغوب، فحصل المحظور من التابعين وبدأت كتب الأحاديث تظهر اعتباراًمن المئة الثانية للهجرة فحصل ما كان يخشى منه

الرسول محمد ﷺ والخلفاء الراشدون، وصار للمسلمين كتب مع كتاب الله، وأحاديث مع حديث الله وسنن مع سنة الله، فلحق الناس هذه الكتب وتركوا القرآن مهجوراً وبعد أن كان دستوراً لحياة المسلمين حُنِّط وحُفظ في زوايا البيوت لتعشش عليه العناكب، كما توقع له كثيرون من مفكري المسلمين المبكرين الذين رأوا إقبال الناس على الغث وترك الثمين.

وأحب أن يعلم الجميع كما علم الرسول والصحابة الكرام أيام الرسول الكريم أن سبب دعوتي الآن إلى التمسك بالقرآن، وترك الأحاديث ليس لأن الحديث قد أصبح كله من الظنون والأوهام، وحتى ولو كان حديث الرسول مدوناً على أفضل المسجلات الصوتية بالصوت والصورة من أيام الرسول ﷺ ولم يتسرب إليه أي تحريف أو تزوير، حتى لو تم هذا فلا قيمة شرعية أو قضائية له لأن ما ينطبق ويحكم به على الناس في القرن السابع الميلادي لا يمكن أن يصلح عقلاً للحكم به في القرن العشرين، لذلك فقيمته تبقى قيمة تاريخية وتراثية فقط، للاطلاع والاعتبار، لأن سنة القانون أصلاً موجودة في القرآن ومن فهم سنة الله في القوانين كما فهمها الصحابة الكرام من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم بإمكانه أن يستنبط الأحكام من القرآن مباشرة دون الحاجة إلى أي كتاب مساعد آخر، لأن الحدود موجودة في القرآن، والقاضي أمامه القضية فيختار بعقله وحكمته الحكم المناسب للزمان والمكان بحسب الظروف وملابسات القضية، عدلاً ولوجه الله، من دون تحيز لعبد على عبد آخر من عباد الله.

وهكذا نرى أن الموضوع الذي تناولناه بالبحث كان موضوعاً خطيراً يجب ألا ننظر إليه نظرة عاطفية سطحية ــ وهو من أهم مشكلات المسلمين المعاصرة بشكل عام، ومن أهم مشكلات أهل السنة منهم بشكل خاص.

لذلك يجب أن ننظر لهذا الموضوع بعين مفتوحة وعقل واع مدرك، مع الابتعاد عن السذاجة وطيبة القلب التي إن زادت تصل إلى حد الغفلة.

بل يجب أن ننظر بعين الشك والريبة لكل من يحاول أن يبعدنا عن المنهج الأساسي للإسلام وهل ثمة أي منهج أساسي للمسلمين بعد القرآن الكريم؟

يجب أن ندرك ما الذي حصل للحديث في فترة نومنا الطويل خلال القرون العشرة التي قضيناها في كهف الغفوة الإسلامية التي لا زلنا فيها حتى الآن. علينا أن نعترف

نحن المسلمين بغفلتنا التي استمرت حتى الآن، وندرك بالمقابل يقظة أعداء الإسلام وتربّصهم به، فلا نُحسِنُ الظن أكثر من اللازم، لأن ذلك يدخل في حدود المذموم - وعلينا أن ندرك ما ترتب على غفلتنا من نتائج، لكي نستعيد صحوتنا، وفي هذا المجال علينا أن نعلم أن الأحاديث وإن كانت صحيحة أساساًمن الرسول ﷺ عندما قالها أول مرة فإن من ينوي الكذب والتدليس لا يعدم وسيلة، فقد يعبث عابث بحديث فيزيل منه ألفاً ولاماً فيتغير المعنى من الأرض إلى السماء، أو يزيل كلمة واحدة أو يضيف كلمة واحدة فتقع الكارثة. وقد يحتاج إلى إضافة جملة كاملة للحديث وهذا كله قائم، وقد حدث فعلاً في الأحاديث الصحيحة المروية عن الرسول ﷺ.

وسوف أضرب لذلك مثلاً كي نفهم الموضوع بشكل أوضح.

ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، وحدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

فهذا الحديث له أصل صحيح في روايات أخرى، تجده صحيحاً على صورته الأساسية إذا رجعت إلى رواية عبد الله بن الزبير: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار».

وقد أضيف إليه في الرواية التي ذكرتها أولاً: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهذه الإضافة حوّلت الدين الإسلامي كله من عقلية علمية قرآنية إلى عقلية تلمودية وهمية، لأن هذه الإضافة سمحت بإدخال التلمود كله للدين الإسلامي، وباسم الرسول كذباً.

كذلك فإن إضافة كلمة (متعمّداً) إليه في رواية أخرى غيّرت معني الحديث كله، وقد دعمت هذه الرواية بحديث آخر منحول عن الرسول وهو: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى» وهكذا حرّف الحديث الأصلي وانحرف معناه ومفعوله، وصار الكذب في الدين الإسلامي مباحاً لمن يشاء من أصحاب المآرب للوصول إلى مآربهم، وتسربت كل الأفكار الهدامة للدين الإسلامي تحت شعار حسن النية وجمع ما أثر عن الرسول، وليست غايتي من هذا الكلام الدعوى إلى فصل الأحاديث الصحيحة والمكذوبة فإني أرى أن الحديث انتهى زمانه بعد وفاة الرسول ﷺ وهو ما أدركه الصحابة الكرام لكن الشيطان وبعض صغار العقول لم يريدوا ذلك.

رحم الله الإمام البخاري عندما وجد مما جمع من الأحاديث ما يزيد عن ستماية ألف حديث فألغى تسعة وتسعين بالمائة منها بنسبة واحد من كل مئة، أي ما يعادل ستة

آلاف حديث - ولو أنه استغنى عن ذلك الواحد من المائة وقال: لم أجد في الحديث كله أي صحيح لم يلحقه ظن أو شبهة لوجود روايات مختلفة لكل حديث، والظن لا يمكن اعتماده علماً أصلاً لأن الله تعالى يعلمنا ذلك مبدأً أساسياً في العلوم كلها، ويقول لنا في القرآن الكريم لنعتمده في حياتنا: ﴿وما يتبعُ أكثرهُم إلا ظناً وإنَّ الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئاً﴾[٨] لأراح واستراح بدلاً من الذي فعله في إيجاد كتاب آخر مع كتاب الله اسمه «صحيح البخاري» مخالفاً بذلك أمر الرسول الصريح الدائم والذي إطاعته فيه من إطاعة الله وقوله: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه».

وقوله: «أكتاب غير كتاب الله ـــ أتدرون ـــ ما ضلّ الأمم قبلكم إلّا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله».

إن من يؤمن بالله وباليوم الآخر ويؤمن بآيات القرآن الكريم ويخشى الله سبحانه ويوم الحساب وقرأ الحديثين السابقين لا يمكن أن يسمح لنفسه الأمارة بالسوء بأن يكتب حرفاً واحداً عن الرسول ﷺ لأنه أمر صريح واضح لا لبس فيه والغاية من عدم الكتابة أيضاً واضحة جلية في الحديث الثاني وهو الإبقاء على دستور الإسلام الذي هو القرآن الكريم عاملاً وفعالاً بين الناس، لأن الحق والخير والنور والهداية كله في ذلك الكتاب، ومن تركه إلى غيره ضل السبيل، وسوف يبقى بضلاله، خاصة وأن الله لن يرسل من بعد الرسول محمد ﷺ الذي هو خاتم الرسل والأنبياء أيَّ رسول أو نبي حتى ينبه الناس من جديد ويدعوهم لسبيل الرشاد: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾[٩].

صدق الله العظيم.

السنة التي يجب على المؤمن اتّباعها:

مرّ بنا أن ليس في الإسلام سنة بالمعنى الذي فهمه منها المتأخرون في العصور الإسلامية، وبحسب التعريف الذي التمسوه لها، وهو تعريف لا يطابق مفهومه الذي كان سائداً في زمن الصحابة الأوائل في الإسلام. وتبين لنا من خلال دراسة الأحاديث، ومواقف الصحابة منها، أنّ كلمة السنة كانت تعني السنن، والسنة والسنن في مفهوم الصحابة هي من الله تعالى، وقد توصلوا إلى مفهومها وطبقوها مستندين إلى النص القرآني فقدموا أفضل النتائج، ثم أتى بعد ذلك من الحكام من يفضل الحياة الدنيا على الآخرة، ويفضل

(٨) سورة يونس: ٣٦ (٩) سورة الأنبياء: ١٠٧

العاجلة على الآجلة، فاستعانوا بفقهاء وعلماء يعرفون الحق لكن لديهم الاستعداد لتحريفه لمرض في أنفسهم، أو لحبهم الدينا أكثر من الآخرة، فقدّموا خدماتهم للحكام، وحرموا الناس الحق والنور الذي في كتاب الله، وقدموا بدلاً منه الأوهام والضلالات، مدعين وحياً آخر لله تعالى باسم السنة والحديث، أقاموه على التناقض ليكون مرناً في أيديهم يستنبطون منه الأحكام لمصلحة أصحاب السلطة ليتسلطوا ما شاء لهم التسلط في رقاب عباد الرحمن يدعمهم في تنفيذ مصالحهم أحاديث وأحكام نسبت للرسول الكريم زوراً يناقض بعضها آيات الله في القرآن مناقضة صريحة، حتى أمست السنة بالمفهوم الذي ابتدعه لهم أتباعهم من العلماء سلاحاً دينياً لا اعتراض عليه. في حين أن السنة الواجبة الاتباع استناداً للآية الكريمة: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ﴾(١٠) هي أن نحب الرسول محمداً ﷺ، ونحب صفاته التي ذكرها لنا الله سبحانه وتعالى في القرآن، أو وصلت إلينا عن طريق السيرة النبوية كالصدق والأمانة والإخلاص والوفاء بالعهد، ومكارم الأخلاق، والعفو عند المقدرة والشجاعة والكرم، التي أجملها الله سبحانه وتعالى في قوله الكريم: ﴿وإنكَ لعلى خلقٍ عظيم﴾.

والسنة أن نبتعد عن الصفات المرذولة التي كان الرسول يبتعد عنها مثل: الكذب والرياء، والنفاق والحسد، والحقد والغضب والظلم، والجبن والبخل، وخيانة الأمانات والنميمة، والإخلاف بالوعد أو العهد. وبهذا نكون على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن ثم نتبع الرسول في أهم سنة له وهي:

كيف فهم هو وصحبه القرآن الكريم وأحكامه فطبّقوها على حياتهم في الجزيرة العربية، وعلى زمانهم في القرن السابع الميلادي؟ وكيف نقل القرآن الناس من عقلية جاهلية كانت تؤمن بالسحر والأوهام والأباطيل إلى عقلية إسلامية علمية لا تؤمن إلّا بالحق والحقائق والعقل بعد أن كانت حياتهم الأولى في الجاهلية بسبب اتباعهم نزوات النفس الأمارة بالسوء، فقادتهم نفوسهم إلى الخمر والميسر والزنى والكذب، والسرقة، وأكل أموال الناس بالربا والباطل، وقتل الناس ظلماً في غزوات وحروب تقوم على الظلم والعدوان، فتحولوا بعد أن حوّل الإسلام ما في نفوسهم إلى حقائق القرآن ونوره وأحكامه، إلى محاربة النفس الأمارة بالسوء وصرفها عن الشهوات، والابتعاد عن الفسق والفساد والإفساد في الأرض، والسير بهدي من الله على صراطه المستقيم أكثر

---

(١٠) سورة الأحزاب: ٢١

فأكثر بالصلاة والزكاة والصيام وباقي العبادات، والسخاء بالمال في الصدقات، وبالنفس في القتال في سبيل الله فغير الله تعالى ما كان في أحوالهم من ضعف إلى قوة وجاه وسلطان، ومن ذل وهوان على الناس إلى عز ونصر من الله مبين، ومن فقر وجوع إلى غنى وصحة في النفس والجسد، ومن جهل وضلال وأوهام وإشراك إلى علم وهدى وحق وتوحيد، وذلك كله بفضل رسالة الله للناس في القرآن الكريم.

وبينا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب بأن الله سبحانه أمرنا في القرآن الكريم بأن يكون للرسول ﷺ وحده طاعة خاصة ورد ذكرها غير مقترنة بطاعة الله سبحانه وتعالى في آية واحدة هي: ﴿وأَقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلّكم ترحمون﴾(١١).

وبموجبها أمرنا أن نطيع الرسول فيما فوّضه بتحديد عدد الصلوات والحد الأدنى من الزكاة، وأوضحنا أن صحابة الرسول محمد ﷺ في عصره والخلفاء الراشدين من بعده تصرفوا بموجب فهمهم لهذه السنة.

وعلى أساس هذا الفهم علينا أن نعلم أن كل أوامر الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الواردة في القرآن الكريم وهي أيضاً أوامر للرسول محمد ﷺ ولا سيما تلك الأوامر المقرونة بكلمة: (قل) التي أتت غالباً نتيجة سؤال من الناس وجواب من الله سبحانه وتعالى عن كل التساؤلات من المشركين والكفار وأهل الكتاب والمؤمنين:

﴿يَسألونكَ ماذا ينفقونَ قُلْ ما أنفقتُم من خير فللوالدين والأقربينَ واليتامى والمساكينَ وابنِ السبيلِ وما تفعلوا من خيرٍ فإنّ اللّهَ به عليم﴾(١٢).

﴿يسألونكَ عن الخمرِ والميسرِ قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ وإثمُهما أكبرُ من نفعِهما﴾(١٣).

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساءَ في المحيضِ ولا تَقْرَبوهُنَّ حتى يَطهُرنَ فإذا تَطَهّرْنَ فأتوهُنَّ من حيثُ أمركمُ الله﴾(١٤).

ومن ذلك أيضاًالأوامر التي وردت في القرآن الكريم بعد صيغة: يا أيها الذين آمنوا: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عليكُم الصيامُ كما كُتبَ على الذينَ من قبلكم﴾(١٥).

(١١) سورة النور: ٥٦ — (١٢) سورة البقرة: ٢١٥ — (١٣) سورة البقرة: ٢١٩ — (١٤) سورة البقرة: ٢٢٢ — (١٥) سورة البقرة: ١٨٣

﴿يا أيها الذين آمنوا كتبَ عليكُم القِصاصُ في القتلى﴾[١٦].

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتِكم بالمَنّ والأذى﴾[١٧].

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتُم بدينٍ إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوه﴾[١٨].

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا فَريقاً منَ الذينَ أوتوا الكتابَ يَردّوكم بعدَ إيمانكم كافرين﴾[١٩].

وهناك أوامر شاملة لكل بني الإنس أتت تحت صيغة يا أيها الناس: وهي تشمل المؤمنين والكفار على حد سواء:

﴿يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكم الذي خلقَكم﴾[٢٠].

﴿يا أيها الناس كُلوا ممّا في الأرضِ حلالاً طيباً﴾[٢١].

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسولُ بالحقّ من ربِّكم﴾[٢٢].

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهانٌ من ربّكم﴾[٢٣].

﴿يا أيها الناس إنّي رسولُ اللهِ إليكُم جميعاً﴾[٢٤].

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظةٌ من ربّكم وشفاءٌ لِما في الصّدور﴾[٢٥].

هذه الآيات وغيرها من الأوامر التي وردت على لسان الرسول في القرآن تعد من الأوامر التي يجب على الإنسان الذي ينتقل إلى مرحلة الإيمان بمحض إرادته أن يطيعها طاعة متصلة بطاعة الله:

﴿قل أطيعوا اللهَ والرسولَ﴾[٢٦].

﴿وأطيعوا اللهَ والرسولَ لعلكم تُرحمون﴾[٢٧].

وهناك طاعة منفصلة للرسول كما في الآية:

﴿أطيعوا اللهَ وأَطيعوا الرسولَ وأُولي الأمرِ منكم﴾[٢٨].

وهي طاعة منفصلة عن طاعة الله ومتصلة مع طاعة أولي الأمر وهي طاعة الحاكم

---

(١٦) سورة البقرة: ١٧٨
(١٧) سورة البقرة: ٢٦٤
(١٨) سورة البقرة: ٢٨٢
(١٩) سورة آل عمران: ١٠٠
(٢٠) سورة البقرة: ٢١
(٢١) سورة البقرة: ١٦٨
(٢٢) سورة النساء: ١٧٠
(٢٣) سورة النساء: ١٧٤
(٢٤) سورة الأعراف: ١٥٨
(٢٥) سورة يونس: ٥٧
(٢٦) سورة آل عمران: ٣٢
(٢٧) سورة آل عمران: ١٣٢
(٢٨) سورة النساء: ٥٩

حسب الزمان والمكان، فمن كان الرسول حاكمه من الصحابة فقد أطاعه، ومن عاصر أبا بكر الصديق من المؤمنين بعد وفاة الرسول ﷺ أطاع أبا بكر خليفة رسول الله وهكذا.

فأمام المؤمن إذا ثلاثة أنواع من الطاعة:

١ ـ إطاعة الأوامر المفروضة من الله وحده والطاعة فيها لله سبحانه وللرسول طاعة متصلة، وخاصة ما يتصل منها بالعبادات والعقائد، قال تعالى: ﴿من يطع الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ ومن تولّى فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً﴾[٢٩] ولكي يؤكد الله تعالى أن القرآن هو الأساس في العقيدة والعبادة وإطاعة الله ورسوله يقول تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿أفلا يتدبرونَ القرآنَ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾[٣٠] فالقرآن هو السنة ولا سنة سواه ولو كان ثمة سنة سواه لوجد المؤمنون فيها اختلافاً كثيراً كما قال تعالى.

٢ ـ وهناك طاعة منفصلة وهي إطاعة ما أمر به الرسول بتفويض من الله فيما يتصل بتطبيق الأحكام وتنفيذها على الناس، فللرسول إطاعة خاصة من الناس منفصلة عن الإطاعة الأولى فيما يتعلق بتطبيقه هذه الأحكام، فمن يسرق تُطَبّق عليه عقوبة جريمة السرقة، ومن يَقْتُل يُقْتَل... وهذه الطاعة زمانية تنتهي بعد وفاة الرسول وتنتقل من بعده إلى أولي الأمر من المسلمين: ﴿أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم﴾[٣١].

٣ ـ وهناك طاعة ثالثة وهي طاعة للرسول لوحدها وهي التي شرحناها في بداية هذا الفصل وأتت هذه الآية مؤذنة للرسول بالأمر وتحديد عدد ركعات الصلاة لكل وقت من الأوقات الخمسة للفرض والسنة، وكذلك تحديد الحد الأدنى من قيمةالزكاة من أموال المؤمنين في كل عام، إذا فالباحث عن الحقائق في القرآن الكريم يجدها دائماً تنتظره هناك لتفسر كل شيء. وهذا هو الذي قصده الله عندما قال : ﴿قُل هاتوا برهانَكم إنْ كنتم صادقين﴾[٣٢] فالطاعة المطلوبة من قبل المؤمن هي لكل أوامر الرسول محمد ﷺ التي وصلتنا من الأثر شريطة أن تتوافر في تلك الأوامر الشروط الآتية:

١ ـ مطابقة نص الأمر لنصوص آيات القرآن الكريم وعدم مناقضتها له بأي شكل من الأشكال.

---

(٢٩) سورة النساء: ٨٠
(٣٠) سورة النساء: ٨٢
(٣١) سورة النساء: ٥٩
(٣٢) سورة البقرة: ١١١

٢ ـ أن تتماشى هذه الأوامر مع روح الإيمان والإسلام في دين الله الواضح في كل آيات القرآن الكريم.

٣ ـ أن يصدق موقف الصحابة من أمر الرسول بامتثالهم له وإطاعتهم إياه وتنفيذهم للأمر مما يثبت أنه صحيح، وليس فيه مجال للظن أو الوهم، لأن موقف الصحابة خاصة الأربعة الكبار من الأمر سيصدقه أو يكذبه وهذا مهم جداً. كما تبين لنا من موقفهم من أمر الرسول الذي قال فيه: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه».

فإجماع الصحابة عليه وامتثالهم لتنفيذه بعد وفاة الرسول محمد ﷺ وخلال حياة كل منهم قد عزّز صحة هذا الأمر.

فالرواية وحدها لا قيمة لها، لأنها تبقى ضمن مجال الظن والاحتمال فإذا توافر الدليل في موقف الصحابة من الأمر فهو الفصل وإزالة كل شك أو ظن، والله هو الذي ينهانا عن اتباع الظن حيث يقول في الآية: ﴿وما يتّبعُ أكثرُهم إلّا ظناً إنّ الظنّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً﴾(٣٣) فكل أوامر الرسول التي أثرت عنه أو التي ما زالت في موقف الظن لا قيمة لها، وقد يحسب بعض البسطاء أن السند كافٍ، ولكننا نذكر باحتمال تزوير السند عمداً أو من غير عمد، أو بنية حسنة أحياناً بحجة خدمة الإسلام والمسلمين، وما دام الاحتمال يرد في الموضوع فقد دخل الأمر في مجال الظن. ولا يُخرج الأمر من موقف الاحتمال إلى موقف اليقين، إلا موقف الصحابة المقرّبين من الرسول والمعروفين بفهمهم وتفهمهم لآيات وأحكام القرآن الكريم، ومن أفضلهم جميعاً خلفاء الرسول الأربعة، فموقفهم وشهادتهم كافية لتصديق أو تكذيب أي أمر من الأوامر المنسوبة للرسول محمد. من ذلك الحديث الآتي الذي يبيح للناس أن يكتبوا ما يشاؤون من الأقوال عن الرسول وهو حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ. أريد حفظه فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلي وقال: «أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق» فراوي الحديث يدّعي أنه سمع من الرسول ﷺ ما يجيز له الكتابة، ولكننا نعلم أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما كانا يشترطان شهادة شاهدين تثبتان سماع هذا الأمر من رسول الله، وليس مع ادعاء عبد

(٣٣) سورة يونس: ٣٦

الله أحد، ولا شاهد إلا نفسه. فكيف نقبله نحن اليوم؟ وأهم من ذلك كله فيما يتعلق بهذا الحديث هو موقف الصحابة، وخاصة الأربعة الكبار الذي امتثلوا لأمر الرسول طوال حياتهم وسمعوا عنه، فلم يكتبوا أي حديث بل نهوا عن ذلك فأحرق أبو بكر رضي الله عنه خمسماية حديث كان قد جمعها، وكان عمر رضي الله عنه يحرق كل الأحاديث التي كانت تقع تحت يده من بعض الصحابة، وهو نفسه أو ابنه عبد الله لم يكتبا الأحاديث كما لم يكتب عثمان بن عفان أو علي بن أبي طالب أية أحاديث عن الرسول الكريم، مع أن الخلفاء الراشدين كلهم كانوا يلمّون بالقراءة والكتابة ولم يكن أحد منهم أمياً.

وهذا الإجماع من موقف هؤلاء الصحابة على الأمر الأول بمنع الكتابة يبرهن أن مثل هذا الحديث وأمثاله عن كتابة الحديث تبقى في موقف الاحتمال والظن إن لم نقل إنها كاذبة توقيراً للصحابة فحسب، لكن بقاءها في موقف الظن والاحتمال يجعلها استناداً إلى قوله تعالى في الآية السابقة عديمة القيمة.

ومقابل ذلك فإن الأوامر الرسولية الآتية صحيحة تمام الصحة: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

«خذوا عني مناسككم».

«لا تُطْروني كما أَطْرت النصارى عيسى بن مريم».

وهي واجبة الإطاعة على كل مؤمن بدليل موقف كل الصحابة منها، وتصديقهم بتطبيق هذه الأوامر، والامتثال لها بشكل عملي وفعلي وواقعي، مما يجعل تلك الأوامر حقائق يقينية لا مجال للشك فيها.

وبتطبيق هذا المبدأ يمكن فرز كل أوامر الرسول التي وردت في كل الصحاح ومعرفة اليقيني منها، وإلغاء مفعول ما يثبت منها أن الصحابة لم يمتثلوا لتطبيقها أو تنفيذها. وليس لنا أن نحكم في ذلك هوى النفس، فلسنا أحرص على الدين وعلى أوامر الرسول ﷺ من الخلفاء الراشدين، ولسنا أكثر حباً للرسول وتقديراً لأوامره من الذين عاشوا معه في السراء والضراء طوال فترة الرسالة على الأقل ولا سيما الأربعة الراشدون.

ثم علينا ألا نعتقد أن كل رواية فيها صيغة أمر أو نهي من أوامر الرسول هي واجبة الاتباع والإطاعة، مثل الحديث التالي: «لا يصلينّ أحدكم العصر إلّا في بني قريظة» فهذا الأمر لا يخصّ المسلمين عامة، وإنّما يخص مسلمي عصر الرسول،وهي من الإطاعة

الواجبة في عصر معين، وقد انتهى مفعول هذا الأمر بعد صلاة ذلك العصر في ذلك اليوم أيضاً، حتى بالنسبة إلى مسلمي ذلك العصر، والغريب أننا ما زلنا نرويه على أنه من الأوامر الواجبة الإطاعة للرسول في كل عصر وفي كل مصر: ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصرُوه واتّبعوا النورَ الذي أنزل معه أولئكَ همُ المفلحون﴾[٣٤]. إن الله سبحانه يشير في هذه الآية الكريمة إلى أنه أنزل مع الرسالة التي أنزلها لمحمد ﷺ وفيها دين الإسلام مفصّلاً آياتٍ أخرى فيها نور، والنور هو العلم والحقائق، مشيراً بذلك إلى النوع الثاني من الآيات التي نزلت على سيدنا محمد في كتاب الله من الآيات المتشابهة التي فيها الحقائق العلمية عن الكون والخلق والتطور والأحياء وباقي العلوم مع الحقائق التاريخية في القصص القرآني.

نهاية وتعقيب على الرواية والحديث والتحديث:

تبين لنا مما سبق من دراستنا أوامر الرسول الصحيحة، ومواقف الصحابة من تلك الأوامر أنها كانت تتضمن توجيهات شفوية أو مواقف تطبيقية، وأن صحابة الرسول الكريم التزموا تلك التوجيهات والمواقف، ونهوا عن كتابة الحديث إلا إذا كان حكماً قضائياً أو سنة من سنن الصلاة والزكاة والحج والعبادات، وعرفنا أن الخليفة عمر بن الخطاب سجن ثلاثة من المحدثين لروايتهم الحديث عن رسول الله ﷺ وذكرنا من قبل الأسباب الداعية للتحرج من كتابة الحديث، والاحتياطات الشديدة التي اتخذت للتثبت من صحته، ثم استعرضنا صفات الرسول: صفته العالمية بحكم رسالته. وصفاته الأخرى بحكم أنه إنسان لكنه إنسان متميّز بالخلق والعقل، حاكماً للمسلمين وقاضياً شرعياً لهم يطبق تعاليم القرآن تطبيقاًعملياً في بقعة معينة من الأرض وزمان معين، وهذه الصفة لا ترتبط بصفته الرسولية.

ثم تحدثنا عن أسباب النهي عن رواية الحديث وبينا أن ذلك النهي لا علاقة له بالتخوف من اختلاط الحديث بالقرآن الكريم، وإنما كان مردّه الخوف من انصراف الناس عن القرآن الكريم مرجعاً لهم إلى كتاب آخر يشغلهم، وأوضحنا كيف وقع المسلمون بالمحظور، بالرغم من كل ما اتخذ من تدابير، بسبب ضعف بعض النفوس أمام مغريات الدنيا، وبدافع من رغبتهم في تعظيم الرسول نبيّاً وعظيماً، شأن كل الشعوب التي توقر الآباء، وتهافت الرواة على رواية الحديث، واختلط الصحيح بالمكذوب، وكثرت

(٣٤) سورة الأعراف: ١٥٧

الأحاديث إلى حدّ يفوق التصور، واتُخذت وسيلة للكسب، أو معبراً لترويج الأفكار الدخيلة على الإسلام، وتشويه صورته، وتوصلنا إلى نتيجة حاسمة مفادها أنّ لا صلاح للإسلام إلا باستبعاد هذه التركة التي أثقلت كاهله،وكبلت عقول المسلمين، والتزام سنة الخلفاء الراشدين في منع روايته، والرجوع عنه إلى كتاب الله وتجاوز الخطأ الذي وقع فيه السلف، ونحن لا زلنا حتى اليوم نعاني من الأخطاء الفاحشة التي ارتكبها السلف بحق أنفسهم وبحق كل من أتى بعدهم حتى الان. لكن أجدادنا لم يكونوا هم أول من ارتكبوا أخطاء بحق أنفسهم وبحق أبنائهم ولن يكونوا آخر من يفعل ذلك أيضاً، لكن ذلك لا يعني نهاية العالم واليأس وفقدان الأمل. فالرجوع عن الخطأ متوافر لكلّ إنسان منا يستخدم عقله وبصيرته كل يوم.

إلا إذا أصررنا على الخطأ عنداً وجهلاً.

﴿بلى من كَسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيأتُه فأولئكَ أصحابُ النار همْ فيها خالدون﴾(٣٥)

صدق الله العظيم.

---

(٣٥) سورة البقرة: ٨١

١٤ ـ شبهات في الدين الإسلامي:

نشأت شبهات خطيرة في صلب العقيدة الإسلامية بسبب جهل المسلمين بالدين عامة، وبالقرآن خاصة، وكان لها تأثيرات سلبية على المسلمين كافة، مما أضعف فعالية الدين وحدّ من قوة تأثيره في الناس، ودوره في حياة المؤمنين اليومية بالإضافة إلى إهمالهم شؤون آخرتهم.

هذه الشبهات كانت مؤثراً سلبياً وعاملاً من عوامل تأخّر المسلمين،وتعطيل مصالحهم، وإيقاف تقدّمهم بعد الصحوة التي تمت لهم في صدر الإسلام، فتوقفت مسيرتهم، ودفعتهم إلى السير في الاتجاه المعاكس لسنة الله، وهل يكون الاتجاه المعاكس لإرادة الله إلا السير باتجاه الشيطان مصدر الشرور والأوهام الذي أوقع المسلمين في إشراك خفي من دون أن يعلموا واستحقوا نتيجة ذلك غضب الله الشديد لأنهم لم يتجهوا إلى القرآن الكريم الذي فيه الحق والحقيقة. لقد بدأ المسلم يظلم نفسه منذ أن توهم بمساعدة الشيطان أن القرآن لا يمكن فهمه إلا بمساعدة رجل الدين، مع أن كتاب الله واضح وضوح الشمس. وحين نجح الشيطان في غرس هذه الفكرة بعقل المسلم خسر الإسلام أكبر مزية من مزاياه مع أن الله جعل رسالة الإسلام رسالة مباشرة بين العبد وربه، دون كاهنٍ أو حِبْرٍ أو شيخ أو وسيط، لكن الشيطان استطاع أن يخلق رهبانية في الإسلام، كما هي الحال في الأديان الأخرى التي استطاع الرهبان والكهنة فيها أن يحوروا ما شاؤوا، والمسلم اليوم يردّد بطيبة: (لا رهبانية في الإسلام) وفاته أن رجال الدين الإسلامي من مختلف رتبهم، ووظائفهم واختصاصاتهم لم يكونوا أقلّ من الرهبان خطراً على الإسلام لأن مهنة رجل الدين هي الدين، ومنها يرتزق. وكذلك الراهب، فليس بين الاثنين من فرق إلا في الاسم وشكل اللباس، أما في الجوهر فكلاهما رجل دين وكلاهما وسيط بين الله والناس في الإفتاء، وشرح كتاب الله، وإن اختلفا ببعض التفاصيل الصغيرة الثانوية.

والله سبحانه صمّم لنا الدين الإسلامي بحيث لا نحتاج إلى وسطاء، أو رجال دين. فكل مؤمن يستطيع الاتصال بربه مباشرة عن طريق القرآن الكريم حيث يفهم كل مسلم منه ما يحتاج إليه، ويصل إلى ما يريد، يضاف إلى ذلك أن المسلم لا يعيش وحده منقطعاً عن مجتمع المسلمين، بل يعيش في وسطهم فكل مسلم له أب وجد

وأعمام وأخوال وأقران وأصحاب يعيش معهم، ويحتكّ بهم يومياً ويتعلّم منهم في كل لحظة، ويعلمّونه أيضاً في كل حين علوماً ومعارف جديدة تتعلّق بالحياة وشؤون الدين،فمن يجهل شأناً يسأل عنه مَنْ هو أفقه منه، وهكذا تزداد خبرته في الحياة والدين كلّ يوم، فيتعلم مناسك الدين والعبادات دون الحاجة للدخول إلى مدرسة أو إلى فقيه متخصص في الدين. فالإسلام كله دين يسر وليس بدين عسر. ودينُ عقلٍ ومنطق، فكل ما يقبله العقل والمنطق هو من الدين القويم. وكل ما يرفضه العقلُ والمنطق السليم أيضاً ليس من الدين. وإمام المسجد لا يشترط فيه أن يكون فقيهاً متخصصاً في الدين بل ينتخب من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿يُؤتي الحكمةَ مَنْ يشاءُ ومَنْ يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً﴾[1] شريطة أن يمتاز مع تلك الميزة بطلاقة اللسان.ومعرفة آيات القرآن ولاسيما السهلة الواضحة المفهومة من كل الناس تقريباً وهي التي تتعلق بالأحكام والعبادات والصراط المستقيم. فيما يهم المؤمنين منهم والمتقين. ولا دور للإمام يتجاوز ذلك، فهو واحد من الناس له مهنة خاصة به يرتزق بها كما كان بعض السلف من رجال العلم والدين، ولا يتخذ الدين وسيلة كسب، ذلك أن كل ما نسميه اليوم علوماً في الدين من أحاديث وسنة أو علم الحديث والسنة وما يتفرع عنها من علوم كثيرة أخرى، كلها علوم وهميّة أوجدها المتاجرون بالدين لهم أو لأسيادهم على مر العصور الإسلامية، وليس فيها علم ولا مصلحة لأي مسلم أو مؤمن إلا الإشراك الخفيّ بالله، يظلم بها نفسه في الدنيا والآخرة. وكتاب الله عز وجلّ كتاب كامل لا يحتاج إلى حديث يكمله أو يوضحه، وهو يجيب عن كل ما يخطر ببال المؤمن من شؤون دينه ودنياه، ذلك أنه لم يترك شاردة أو واردة من جوانب حياتنا إلا وضّحها، حتى الجوانب الصغيرة التي لا تخطر على بال، من ذلك على سبيل المثال موضوع التفسّح في المجالس، يقول تعالى: ﴿وإذا قيلَ لكُم تفسّحوا في المجالسِ فافْسَحوا﴾[2] أي إذا كنتم في مكان كالمسجد مثلاً، وضاق المجلس على الناس لكثرتهم فليحاول كل إنسان أن يضيّق ما استطاع من المكان الذي يحتله لكي يفسح للآخرين فرصة الجلوس معه وإلى جانبه. فلنتصور كيف لم يغفل الله في القرآن الكريم هذه الواقعة الصغيرة في نظرنا لكنها كبيرة في حياتنا لأنها تعلمنا التراحم والتضامن والإيثار.

أجل، ليس في الدين الإسلامي من حاجة إلى وسيط بين العبد وربه فكلٌّ مؤمن يستطيع

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٩ (٢) سورة المجادلة: ١١

الاتصال بربه مباشرة عن طريق القرآن، فيفهم به من الله ما يشاء، ويصل عن طريق الرجاء والدعاء بعد العمل إلى ما يريد.

هذه الفكرة الأساسية في الإسلام يجب أن لا يضيّعها المسلم أبداً، وقد أضاعها الذين أحبوا أن يكونوا وسطاء بين العبد وربّه لا حرصاً على مصلحة عبيده من المؤمنين بل سعياًوراء منافع دنيوية.

هذه إحدى الشبهات التي لا يريد أحد أن يشير إليها، وهي ليست الشبهة الوحيدة، وأجد من الوفاء الايماني أن أتعرض لثمانٍ معها في هذا الكتاب وهي:

١ ـ هل نغلو نحن المسلمين اليوم في ديننا كما فعل أهل الكتاب ذلك من قبل؟

٢ ـ هل الرسول محمد ﷺ معصوم من الخطأ؟

٣ ـ هل القاعدة الشرعية التي تقول إن الإجماع معصوم من الخطأ صحيحة؟

٤ ـ هل يجوز للمؤمن أن يضيف كما يشاء للرسول ﷺ؟ مثل شفيع الله، حبيب الله، خليل الله، كليم الله.

٥ـ هل كان رسول الله ﷺ يعلم الغيب وهل أذن له الرحمن بذلك؟

٦ ـ هل كان للرسول ﷺ معجزات خاصة لم ترد في القرآن الكريم وكلها وردت في الأحاديث؟

٧ ـ مَن الذي سمح بإدخال الإسرائيليات إلى الدين الإسلامي؟

٨ ـ الإسراء والمعراج.

وهناك شبهات أخرى كثيرة مثل:

١ ـ شبهة أن الدنيا للكفار والآخرة للمؤمنين.

٢ ـ شبهة الروح.

٣ ـ شبهة عذاب القبر.

٤ ـ شهبة شفاعة الملائكة.

٥ ـ شبهة الأولياء الصالحين ورجاء الشفاعة منهم.

٦ ـ شبهة حياة البرزخ.

٧ ـ شبهة تعطيل أوامر الله وأوامر الرسول بحجة النسخ والإلغاء.

٨ ـ وشبهات كثيرة أخرى.

١ ـ هل نغلوا نحن المسلمين اليوم في ديننا كما فعل أهل الكتاب ذلك من قبلنا:

في القرآن الكريم آيتان فقط ورد فيهما إشارة إلى الغلو في الدين:

الآية الأولى: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقّ إنما المسيحُ عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمِنوا با لله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهُوا خيراً لكم إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ سبحانَه أن يكونَ له ولدٌ له ما في السموات وما في الأرضِ وكفى باللهِ وكيلاً * لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربونَ ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرهُم إليه جميعاً﴾[٣].

وهنا نجد أن معنى الغلو واضح لا يحتاج إلى شرح فالغلو هو المبالغة، وتجاوز الحد، والإفراط أي أن أهل الكتاب غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام، فأضافوا إلى طبيعته البشرية طبيعة إلهية، والطبيعتان متحدتان كما قرر مجمع رؤسائهم الذي انعقد إثر تفرقهم إلى شيع حول هذه المسألة فقادهم ذلك إلى أن كفروا وقال فيهم تعالى: ﴿لقد كفرَ الذين قالوا إنّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريم﴾[٤] والله سبحانه لا يغفر الكفر للإنسان بسهولة فالمسيح لن يستنكف أن يكون عبدالله وهو يعرف حقيقة نفسه ويعلم أن ما يقوله أتباعه يغضب الله، ولن يغفر لهم ذلك أبداً. وهؤلاء لم يحسنوا لأنفسهم بالرغم من ظنهم أنهم إنما فعلوا خيراً، فقد وقعوا في الكفر الذي نهى عنه الله نهياً شديداً. وورث أبناؤهم عنهم هذه الفكرة وتحجرت في أذهانهم حتى لم يعد من السهل إقناعهم، أو اقتلاع تلك الفكرة التي زرعت في نفوسهم. فإذا ناقشتهم بالعقل والمنطق قالوا لك: إنهم هكذا وجدوا آباءهم يؤمنون وهم لن يغيروا ما كان عليه آباؤهم ورجال دينهم ولذلك نرى الله سبحانه وتعالى يقول لهم ولنا إذا وقعنا في مثلِ ما وقعوا فيه: ﴿أوَ تقولوا أنّما أشركَ أباؤنا من قبلُ وكنّا ذريةً من بعدهم أفتُهلِكنا بما فعلَ المُبطِلون﴾[٥]. أو يقولون:

﴿أَتنْهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا﴾[٦]. أو يقولون:

﴿أجئتَنا لِنعبدَ اللهَ وحدَهُ ونَذَرَ ما كانَ يعبدُ آباؤُنا﴾[٧].

ولكنّ ذا العقل والبصيرة يتبصر لنفسه في الآية الكريمة التالية: ﴿أوَلوا كانَ آباؤُهم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدون﴾[٨].

---

(٣) سورة النساء: ١٧١ ـ ١٧٢
(٤) سورة المائدة: ١٧
(٥) سورة الأعراف: ١٧٣
(٦) سورة هود: ٦٢
(٧) سورة الأعراف: ٧٠
(٨) سورة البقرة: ١٧٠

فمن الخطأ أن نظن ونحن نقرأ هذه الآيات أن الله يقصد بهم فقط أهل الكتاب. الله سبحانه يعلم أن أهل الكتاب لم يعترفوا بالقرآن كتاباً من الله ولا بالرسول محمد ﷺ رسولاً من عند الله بعد. وهذه الآيات موجهة أيضاً إلى المسلم والمؤمن حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره من أهل الكتاب.

على المسلم أن يعيد النظر في كل معتقداته بنداً بنداً ويقارنها أيضاً بنداً بنداً بما ورد في القرآن الكريم فما تطابق من معتقداته مع القرآن تطابقاً لا شك فيه على الإطلاق قبل بها وظل على اعتقاده القديم. وإن وجد تضارباً بين ما كان يعتقد وما ورد في القرآن الكريم تمسّك بما في القرآن وألغى ما سواه، لأنه وهم وضلال ومن الجهل والشيطان. هذه هي غاية هذه الآيات وآيات كثيرة عن أهل الكتاب في القرآن الكريم أن يكون دائماً لديه الميزان جاهزاً حتى ينبذ من الأفكار كل ما يناقض أفكار القرآن الكريم، ومن استطاع أن يفعل ذلك كان من المؤمنين الأقوياء الذين يقول الله عنهم:

﴿خذوا ما آتيناكُم بقوةٍ واذكروا ما فيه﴾[٩].

﴿خذوا ما آتيناكُم بقوةٍ واسمعوا﴾[١٠].

﴿فَخُذْها بقوةٍ وأْمُرْ قومَك يأخذوا بأحسنِها﴾[١١].

﴿خذوا ما آتيناكُم بقوةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون﴾[١٢].

هذه هي القوة التي يتحدث عنها الله في هذه الآيات، قوة المؤمن الذي يستطيع أن يقرأ القرآن، ويقرر لنفسه الصواب، وينبذ كل الأفكار الوهمية الخاطئة التي أتته عن طريق آبائه، وهماً منهم، أما الضعيف فهو الذي يقول إذا كان آبائي الأقوياء الأشداء لم يعرفوا ذلك فكيف لي أنا الضعيف أن أعرف ما لم يعرفه آبائي؟ ويظل يقتدي بهم وهو لا يعلم أنهم قد يقودونه إلى الضلال وإذا سألت المسلم اليوم هذا السؤال، وضربت له مثلاً أهل الكتاب فسوف يفهم فوراً لماذا سيعاقب الله تعالى أهل الكتاب، لكنه لن يكون سريع الفهم والتقدير والتقرير إذا ذكرته بأوهام آبائه هو وأباطيلهم لأنه لا زال يعتقد بأن تلك الأباطيل والأوهام صحيحة ولا زال يدرجها في لائحة معتقداته السليمة، وهكذا في النتيجة العامة نجد أن المسلم العادي والمسيحي العادي واليهودي العادي أو حتى البوذي العادي كلهم متشابهون من ناحية معتقداتهم وإيمانهم بأن أوهامهم كلها

(٩) سورة البقرة: ٦٣
(١٠) سورة البقرة: ٩٣
(١١) سورة الأعراف: ١٤٥
(١٢) سورة البقرة: ٦٣

صحيحة، ومن الصعب تحويلهم عن تلك المعتقدات مهما كانت ضالة.

ولكن التذرع بمحاكاة الآباء لا يعد عذراً، والله تعالى لن يقبله من أحد يوم القيامة لأن الله قد خلق الإنسان فرداً، وسوف يتوفاه فرداً، وسوف يبعثه ويحشره يوم القيامة فرداً، وسوف يحاسبه ويحكم له أو عليه فرداً.

وكيلا تختلط الأمور على هذا الفرد فقد أعطاه الله عقلاً خاصاً مستقلاً عن عقول الآخرين ومنح ذلك العقل القدرة على التفكير بصورة مستقلة إذا شاء الإنسان أن يستقل بعقله، فعقله الذي معه مستقل عن عقل أمه وأبيه، وله بصر وسمع وبصيرة مستقلة أيضاً، لذلك سوف يحاسبه الله لأنه أعطاه مواهب لم يستغلها، أعطاه عقلاً ليصل إلى الحق والصواب وينبذ الخطأ ويتغلب على الجهل، والجهل لا يحمي الإنسان من تطبيق القوانين عليه ولسوف يذكره الله تعالى بأنه إن كان يطبّق ذلك في قوانينه الأرضية فلماذا يحاول الآن أن يستبعدها من القوانين؟

الآية الثانية: ثم بعد ذلك ننتقل للآية الثانية في القرآن والتي قلنا أنه ورد فيها كلمة الغلو الثانية:

﴿قل يا أهلَ الكتاب لا تغلوا في دينكُم غيرَ الحقّ ولا تتّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلّوا من قبلُ وأضلّوا كثيراً وضَلّوا عن سواءِ السبيل﴾(١٣).

هذه الآية تحمل تقريباً معاني الآية الأولى نفسها لكن موضوعها يختلف من وجهة النظر التالية: في الآية الأولى كان الله تعالى يوجه لأهل الكتاب أمراً عاماً مباشراً منه: ﴿يا أهلَ الكتاب لا تغلوا في دينكُم ولا تقولوا على اللهِ غير الحق﴾.

أما في هذه الآية التي تبدأ بكلمة (قل) فيخاطب بها الله رسوله محمداً ﷺ وسوف يقولها من بعده كل من يقرأ القرآن من المسلمين:

﴿قل يا أهلَ الكتابِ لا تَغْلوا في دينِكم﴾... إلى آخر الآية.

هذه الآية لها جانبان: الجانب الأول أن من واجب المسلمين عامة، ومن واجب كل مسلم فرداً أن ينبه أهل الكتاب إلى هذا الخطأ الذي وقعوا فيه بمغالاتهم في عيسى بن مريم عليه السلام والله تعالى، يدعوهم في الوقت ذاته ألا يفعلوا ما فعل أهل الكتاب ويقعوا في الخطأ نفسه.

---

(١٣) سورة المائدة: ٧٧

وما دمنا مكلفين أن ننصح إخواننا من أهل الكتاب فمن باب أولى أن ننصح بها أنفسنا قبل ذلك ولا نقع نحن أيضاً في مثل ما وقعوا فيه، وقديماً قال الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عظيمُ

وفي كل ما أثر عن الرسول هناك أحاديث كثيرة كان ينهى صحابته عنها بأوامر صريحة خوف الوقوع في خطيئة الغلو في الدين، فكان لا يقبل أن يبالغ الناس في تقديره كالوقوف له إذا دخل، أو تقبيل يديه أو قدميه، أو السجود له أو الركوع، من الأمور التي اعتاد الناس قديماً أن يفعلوها لعظمائهم وملوكهم، فالشبهة الأولى في أننا غلونا في رواية الحديث عن الرسول الكريم ونسينا كتاب الله بهذا الغلو.

وقد آليت على نفسي في هذا الكتاب ألا ألجأ للأحاديث إلا إذا كان الموضوع الذي أناقشه هو موضوع أحاديث الرسول نفسها.

٢ ـ الشبهة الثانية: هل الرسول ﷺ معصوم من الخطأ:

هل الرسول ﷺ معصوم من الخطأ؟

أفردت لهذا الموضوع بحثاً خاصاً لما له من تأثير على عقائد الناس ولما له من الأهمية في تصور علاقة الله سبحانه وتعالى برسوله الكريم الذي اختاره واصطفاه من بين كل الناس ليكون خاتم الأنبياء والرسل ﷺ.

ما معنى العصمة؟:

العصمةُ لغةً المنعة. وأفضل وسيلة لفهم معنى كلمة العصمة أن نستقرىء مدلولها من آيات الله الكريمة.

ولو عدنا إلى القرآن لوجدنا الآيات الآتية تشير إلى العصمة في سياقات مختلفة من النص القرآني:

يقول تعالى:

﴿واللهُ يعصِمُكَ منَ الناسِ﴾[١٤] خطاب موجه للرسول الكريم.

﴿قل منْ ذا الذي يعصِمُكم من اللهِ إنْ أرادَ بكم سوءاً﴾[١٥].

﴿قال سآوي إلى جبلٍ يعصِمُني من الماء﴾ ابن نوح عليه السلام.

---

(١٤) سورة المائدة: ٦٧ (١٥) سورة الأحزاب: ١٧

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصَموا باللهِ وأَخْلَصوا دينَهُم لّلهِ فأولئك مع المؤمنين﴾[١٦].

﴿فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيُدخِلُهم في رحمة منه﴾[١٧].

﴿ومن يعتصِم بالله فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم﴾[١٨].

﴿فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصموا باللّه هو مولاكم﴾[١٩].

﴿ولقد راوَدَتْهُ عن نفسهِ فاستَعْصَم﴾[٢٠].

﴿وتَرهقُهم ذلّةٌ ما لهم منَ اللهِ من عاصم﴾[٢١].

﴿قال لا عاصمَ اليومَ منِ أمرِ اللهِ إلاّ من رحِمَ﴾[٢٢].

﴿يوم تولّونَ مدبرينَ مالكُم من اللهِ من عاصم﴾[٢٣].

﴿ولا تمسكُوا بعِصَمِ الكَوافر وسئلوا ما أنفقتم﴾[٢٤].

﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرقوا﴾[٢٥].

والعصمة على ما تبدو بمعناها من الآيات الكريمة هي المَنَعَةُ.

ونفهم من الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى قد حمى رسوله من الناس فكان دائماً تحت إشرافه المباشر، لا يسمح لأحد أن يؤذيه أذية مباشرة فلن يستطيع أحد قتله حتى وإن أراد، هذه حالة خاصة لا تنطبق على باقي الناس، لأن الرسول أيضاً حالة خاصة وعليه رسالة يجب أن يبلغها وهي إيصال القرآن للناس. ويؤيد هذا الكلام ما ورد في كتاب أسباب النزول للإمام الواحدي النيسابوري[*] بأن الرسول ﷺ صرف حرسه الخاص مباشرة بعد نزول هذه الآية. فلم يعد لهم بعدها من لزوم فعصمة الرسول ﷺ ليست عصمة من ذاته بل هي من الله ولم يرد في القرآن نصاً ما يشير إلى أي عصمة ذاتية للرسول.

تعالوا نقرأ هذه الآية: ﴿وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبي إلاّ إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أمنيّتِهِ فينسخُ اللهُ ما يُلْقي الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياته﴾[٢٦] فالله سبحانه وتعالى الذي خلق البشر يعلم ما في نفوسهم أكثر مما يعلمون هم أنفسهم عنها، ويعلم أن من

(*) أسباب النزول للواحدي: مؤسسة علوم القرآن ١٩٨٧ ـ ص ٢٣٣ رقم ٦٧

(١٦) سورة النساء: ١٤٦
(١٧) سورة النساء: ١٧٥
(١٨) سورة آل عمران: ١٠١
(١٩) سورة الحج: ٧٨
(٢٠) سورة يوسف: ٣٢
(٢١) سورة يونس: ٢٧
(٢٢) سورة هود: ٤٣
(٢٣) سورة غافر: ٣٣
(٢٤) سورة الممتحنة: ١٠
(٢٥) سورة آل عمران: ١٠٣
(٢٦) سورة الحج: ٥٢

طبع البشر المغالاة، وقد أرسل الله الرسول ﷺ للناس كافة وحمّله أمانة الدعوة لكتاب سيبقى كتاباً للناس كافة إلى يوم الدين منهجاً ربانياً وهو فوق ذلك كله خاتم الأنبياء والرسل فلا رسول ولا نبيّ بعده، ولذلك أكد تعالى أن ما يأتينا به محمد ﷺ من القرآن وحياً هو أمر لم يكن بمشيئة الرسول ﷺ إذ ليس له من الأمر شيء، وأنه كان من الممكن أن يخطيء لولا مراقبة الله له، ومراقبته حال الشيطان الذي يحاول أن يوقعه بالزلل فيشاء الله أن يسمح للشيطان أن يجول جولة ويلقي على لسان الرسول كلمات يبلّغها الرسول على أنها من عند الله وليست من عنده والرسول بالطبع لا يعلم شيئاً عن امتحان الله له، فالله تعالى هو الذي يدبّر تجريبه، كما جرب قبله كثيراً من الأنبياء وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نتهم الرسول بالزلل لأنه أمين وصادق وهذا لا شك فيه.

وقد ورد شرح ذلك في كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: «لما رأى رسول الله ﷺ تولّي قومه عنه، وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به، وتمنى في نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب به بينه وبين قومه، وذلك لحرصه على إيمانهم، فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثر أهله، وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله تعالى شيء ينفرون عنه وتمنى ذلك، فأنزل الله تعالى سورة: ﴿والنَّجْم إذا هَوَى﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ: ﴿أفرأيتُم اللاّتَ والعُزّى، وَمَناةَ الثّالثةَ الأُخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمناه: (تلكَ الغرانيقُ العلى، وإن شفاعتَهُم لَتُرتَجى) فلما سمعت قريش ذلك فرحوا، ومضى رسول ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها، وسجد في آخر السورة، فسجد المسلمون بسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين. فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبو أُصيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها، لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا، وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يُحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه. فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال: «ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله سبحانه، وقلت ما لم أقل لك» فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كبيراً، فأنزل الله تعالى الآية، فقالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله، فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه»(*).

(*) تفسير الطبري: ج٧ ص١٣١، والدر المنثور: ج٤ ص٣٦٧، والفخر الرازي: ج٦ ص١٥٦، وطبقات ابن سعد: ج١ ص٢٠٥.

وفي رواية أخرى: «أخبرنا أبو بكر الحارثي قال: أخبرنا أبو بكر بن حيان قال: حدثنا أبو يحيى الرازي قال: حدثنا سهل العسكري(*) قال: أخبرنا يحيى، عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أفرأيتُم اللّاتَ والعزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه «تِلكَ الغَرانيق العُلى وإنَّ شفاعتَهُنَّ تُرتَجى» ففرح المشركون بذلك وقالوا قد ذكر آلهتنا بخير. فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال: اعرض علي كلام الله، فلما عرض عليه قال: أما هذا فلم آتك به، هذا من الشيطان، فأنزل الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبيٍ إلا إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أُمنيته﴾».

وهكذا نرى أن الله سبحانه برهن للناس أن الرسول معصوم من الخطأ بقدرة من الله ورحمة منه، وليس للرسول عصمة من ذاته فهو بشر له صفات باقي البشر لكن الله اصطفاه لمهمة قاسية شاقة وفيه من الصفات البشرية والإنسانية ما يؤهله لها، أمّا أن تكون له صفات إلهية فلا شيء له من ذلك أبداً.

٣ ـ هل يخطىء الرسول؟:

«حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الواعظ إملاء، أخبرنا عبد الله بن محمد بن نصر أخبرنا يوسف بن عاصم الرازي، حدثنا العباس بن الوليد النّرسي حدثنا يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، وقال أعطني قميصك حتى أصلي عليه، فآذنه، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر بن الخطاب، وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فأجابه الرسول ﷺ. أنا بين خيرتين أستغفر لهم أو لا أستغفر(**)، فصلى عليه، ثم نزلت الآية: ﴿ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تقمْ على قبره﴾ فترك الصلاة عليهم»(***). «لاحظ أسلوب الحقد الظاهر في تصوير علاقة الرسول مع الصحابة تلفيقاً من الرواي».

- ﴿ولا تطردِ الذينَ يدعونَ رَّبُهمْ بالغداةِ والعشيِّ يريدون وجهَهُ﴾(٢٧)

(*) تفسير الطبري: ج١٧ ص ١٣٣، والدر المنثور: ج٤ ص٣٣٦، والخازن ج٥ ص١٩

(**) الرسول الكريم في قوله يشير إلى الآية الكريمة: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدي القوم الفاسقين» سورة التوبة: ٨٠

(***) الدر المنثور: ج٣ ص٢٦٦، وتفسير الطبري: ج١٤ ص٤٠٧، وتفسير ابن كثير:ج٢ ص٣٧٨، وصحيح البخاري: ج٢ ص٧٦، وصحيح مسلم: ج٨ ص١٢٠

(٢٧) سورة الأنعام: ٥٢

«أخبرنا أبو عبد الرحمن قال: أخبرنا أبو بكر بن أبي زكريا الشيباني قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن عبد الرحمن، قال: حدثنا أبو صالح الحسين بن الفرج، قال: حدثنا محمد بن مقاتل المروزي، قال: حدثنا حكيم بن زيد قال: حدثنا السّرّي، عن ابن سعيد، عن أبي الكنود، عن خباب بن الأرت قال:

فينا نزلت، كنا حنفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشي فعلمنا القرآن والخير وكان يخوفنا بالجنة والنار، وما ينفعنا، وبالموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعُيَيْنَة بن حصن الفزاري، فقالا: إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك قال: نعم، قالوا لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً. فأتى بأديم ودواة، فنزلت هؤلاء الآيات: ﴿ولا تطردِ الذين يدعون ربّهم بالغداةِ والعَشي يريدونَ وجهَهُ ما عليكَ من حسابهم من شيءٍ وما من حسابِكَ عليهم من شيء فتطردَهم فتكونَ من الظالمين * وكذلك فتّنا بعضَهمْ ببعضٍ ليقولوا أهؤلاءِ منَّ اللهُ عليهم من بيننا أليسَ اللهُ بأعلَمَ بالشاكرين﴾(٢٨).

وهذه الآيات تبين أسلوب عصمة الله لرسوله من الخطأ.

فالرسول كأي إنسان وكأي بشر طبيعي، ولم يغير الله طبيعته لأنه لو أراد ذلك لأرسل ملكاً رسولاً، ولكن هذه مشيئة الله في الرسل فإنه يرسل البشر من الناس رسلاً للبشر مزوّدين بالوحي. فعندما يهم الرسول، بصفته البشرية الإنسانية، أن يجتهد في ضوء ما أنزل عليه فقد يصيب فإن لم يصب أتى الوحي مصححاً لموقفه، لكن لا نقول إنه أخطأ لأن الله لم يبلغه منهج الصح والخطأ بعد، فالله يعلم الرسول المنهج القرآني بالتدريج آية بعد آية.

ولنمثل لذلك بهذه الآية من سورة يوسف: ﴿ولقد همّتْ به وَهَمَّ بها لولا أَنْ رأى برهانَ ربّهِ كذلكَ لِنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ إنهُ من عبادِنا المُخْلَصين﴾(٢٩).

وابن كثير في تاريخه يحدثنا كيف أن الله سبحانه عصم الرسول محمداً في صغره من الأخطاء، وتعهده بعنايته، لأنه كان يهيئه لمهمته العظيمة.

قال محمد بن إسحق: فشبّ رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً،

---

(٢٨) سورة الأنعام: ٥٢ ـ ٥٣ (٢٩) سورة يوسف: ٢٤

وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزّهاً وتكرماً، حتى ما سمّاه في قومه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة، وكان رسول الله ﷺ فيما ذُكر لي عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال:

«لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال شدّ عليك إزارك، قال فأخذته فشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي» وهذه القصة شبيهة بما ورد في الصحيح عند بناء الكعبة أنه كان ينقل هو وعمه العباس (الحجارة).

«قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو وقالا أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحاق الصاغاتي حدثنا محمد بن بكير الحضرمي حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي حدثنا عمر بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة وكانت النساء تنقل الشّيد قال: فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس ائتزرنا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي قال فخرَّ وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حَجَري وهو ينظر إلى السماء فقلت ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره قال: «إني نُهيت أن أمشي عَرياناً» قال: «وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا «مجنون»». وروى البيهقي أيضاً من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحق حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدّه علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله عزّ وجل فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال بلى. قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير فقلت: ما هذا. قالوا: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت لا شيء ثم أخبرته الخبر بالذي رأيت ثم قلت له ليلة أخرى أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل فدخلت فلمّا جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة: فسألت فقيل لي نكح فلان فلانة، فجلست أنظر وضرب

الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته»(*).

وهكذا نجد كيف كان الله يعصم الرسول من أيام طفولته عن أفعال ستبلغ للناس بأنها من المعاصي، لما يحضّر له من جليل الأمر، وهذه سنة الله في رسله يفعل ما يريد، وإنه على كل شيء قدير لا إله إلا الله ولا شريك له: ﴿يا أيها النبي لِمَ تُحرِّمْ ما أَحلَّ اللهُ لك تبتغِي مرضاةَ أزواجِك واللهُ غفورٌ رحيم﴾ ﴿وإذْ أَسرَّ النبيُّ إلى بعضِ أزواجِه حديثاً فلمّا نبّأَتْ به وأظهرَه الله عليه عَرَّفَ بعضَه وأعرضَ عن بعض فلمّا نبّأَها به قالت مَنْ أنبأَكَ هذا قال نبّأني العليمُ الخبير﴾(٣٠).

أخبرنا أبو إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ، قال أخبرنا بشر بن أحمد بن بشر أخبرنا جعفر بن الحسن الغرباني، قال منجاب بن الحارث، حدثنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه. فدخل على حفصة بنت عمر، واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فَعَرِفتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عُكة عسل، فسقت منه النبي ﷺ شُربة، قلتُ: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك إذا دخل عليك، فقولي له: يا رسول الله أكلت مغافير «بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة فيها حلاوة»؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي. جَرَسَتْ نحلُهُ العُرفُط (أي أكلت نحله نباتاً له رائحة كرائحة الخمر) وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك، قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فكدت أن أبادئه بما أمرتني به، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلْتَ مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريح (الرائحة) التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل، فقالت: جَرَسَت نحلُه العُرفُط. قالت: فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي فيه. تقول سودة: سبحان الله لقد حرّمناه، قلت لها: اسكتي. رواه البخاري في صحيحه(**).

(*) تاريخ ابن كثير: البداية والنهاية - طبعة دار الريان ١٩٨٨ - ج٢ ص٢٦٦ - ٢٦٧
(**) صحيح البخاري: ج٧ ص٤٤، وصحيح مسلم: ج٤ ص١٨٥
(٣٠) سورة التحريم: ١ - ٣

وهكذا نجد أحياناً أن الرسول يقع في مكيدة بسيطة ولكن الله لا يسكت عنها وإنما يرسل الوحي لتصحيح ما حصل ولو كان صغيراً فالله سبحانه وتعالى لا يحب أن يسكت عن الشرود عن منهج القرآن فكان ما حصل درساً لنسائه وللمسلمين كلهم.

إذ نزل قوله تعالى: ﴿إنْ تَتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريلُ وصالح المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهيرٌ * عسى ربُّهُ إن طلّقكنَّ أنْ يُبدِلَه أزواجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيّباتٍ وأبكاراً﴾(٣١).

أخبرنا أبو منصور المنصوري، أخبرنا أبو الحسن الدارقُطني، حدثنا الحسين بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدت في كتاب أبي، عن الزهري، عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: وجدت حفصة رسول الله ﷺ مع أم إبراهيم (ماريا القبطية جاريته) في يوم عائشة (اليوم المخصص لعائشة) فقالت لأخبرنَّها، فقال رسول الله ﷺ: هي عليّ حرام إن قربتها (يقصد ماريا) فأخبرت عائشة بذلك، فأعلم الله رسوله ذلك فَعَرَّف حفصة بعض ما قالت، فقالت له: من أخبرك؟ قال: ﴿نبأني العليم الخبير﴾. فآلى رسول الله ﷺ من نسائه (هجرهن) شهراً، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إن تتوبا فقد صغت قلوبكما...﴾(*) وهكذا نجد أن الله سبحانه يتدخل دائماً لتصحيح أي سهو ممكن الحصول من الرسول فتكون تصرفاته وأقواله دائماً تحت المراقبة، لأنه رسول الله، وحامل رسالته والذي عليه المعوّل في تبليغ هذه الرسالة، وليكون رسولاً من أولي العزم. وأسوة وقدوة لكل المسلمين من بعده في أخلاقه وكرمه وتصرفاته، فلا تشوبها شائبة ولا عيب. ليعود الله سبحانه ويمنحه أعظم شهادة نالها إنسان من الله عندما يقول الله له: ﴿وإنكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيم﴾(٣٢).

ـ ﴿وإن يكادُ الذينَ كفروا ليزلقونَكَ بأبصارِهِمْ لَمّا سمعوا الذكْرَ ويقولونَ إنه لَمجنون﴾(٣٣).

نزلت حين أراد الكفار أن يَعينُوا (يصيبوا بالعين) رسول الله ﷺ فيصيبوه بالعين، فنظر إليه قوم من قريش فقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وكانت العين في بني أسد حتى إن كانت الناقة السمينة والبقرةالسمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها (ينظر إليها عيناً صائبة) ثم

(*) تفسير ابن كثير: ج٤ ص٣٨٨ ـ ٣٨٩

(٣١) سورة التحريم: ٤ ـ ٥ (٣٢) سورة القلم: ٤ (٣٣) سورة القلم: ٥١

يقول: يا جارية خذي المكتل والدرهم (المكيال والنقود) فأتينا بلحم من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل (من العرب) يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب خبائه فتمرّ به النّعَم، فيقول: ما رُعِيَ اليومَ إبلٌ ولا غنمٌ أحسن من هذه فما تذهب إلا قريباً حتى يسقط منها طائفة وعدة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله تعالى نبيه وأنزل تلك الآية(*).

ـ قال تعالى: ﴿عبسَ وتولَّى * أنْ جاءَهُ الأعمى﴾.

وهو ابن مكتوم، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام. وعباس بن عبد المطلب وأبيّاً وأمية ابنَي خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فقام ابن مكتوم وقال: يا رسول الله، علّمني مما علمك الله. وجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغلٌ مقبلٌ على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والسّفَلة والعبيد. فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه وأقبل على القوم يكلمهم. فأنزل الله تعالى هذه الآيات. فكان رسول الله ﷺ ـ بعد ذلك ـ يكرمه وإذا رآه قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي(**).

فماذا نجد في هذه القصة؟ نجد أن العبرة للإيمان وليس للمظهر، وأن الرسول إنسان مثلنا، له مشاعر وأفكار وأحاسيس مثلنا، واجتهاده الإنساني يمكن أن يخالف منهج القرآن مع أن سلوكه من الناحية البشرية الإنسانية لا غبار عليه، لكنه بحكم تكليفه يختلف عنا، فهو معصوم بقدرة من الله، فإن خالف المنهج يصحح الله له بالوحي، فهذا ما يجب أن نتعلمه من كل تلك الآيات والأمثال التي أوردناها من القرآن العظيم، وفقنا الله به وحببه إلينا ليظل كتابنا الوحيد في علاقتنا بربنا.

ولنلاحظ على الدوام أن تصرف الرسول المخالف لمنهج الله القرآني يقع دائماً قبل نزول المنهج لا بعد نزوله، لذلك لا نستطيع أن نتهم الرسول بالخطأ أو بالمعصية.

ولو قرأنا قوله تعالى: ﴿وإنّه لقول رسول كريم * وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون *

(*) الطب النبوي: ص١٢٧ ـ ١٣٦، والأحكام النبوية للكحال: ج١ ص٥٥ ـ ١٥٢ ـ ١٥٤، وتفسير القرطبي: ج٨ ص٢٥٤ ـ ٢٥٥

(**) تفسير الطبري: ج٣ ص٣٠، والقرطبي: ج١٩ ص٢٠٩، وابن كثير: ج٤ ص٤٧٠

ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكرون * تنزيلٌ من ربّ العالمين * ولو تقوّلَ علينا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمين * ثمّ لقَطَعْنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾[٣٤].

وفهم هذه الآيات لا يحتاج منّا إلى أكثر من معرفتنا للغة العربية دون رجوع إلى أسباب النزول أو تفسير المفسرين.

فمعناها بكل بساطة: لو أن الرسول ﷺ تقوّل على الله بعض الأقاويل لأخذه سبحانه بقوة أخذ عزيز مقتدر، وقطع له نياط قلبهه ولن يستطيع أحد من الجن أو الإنس أن يحجزه عن الله عند ذلك.

حاشا للرسول أن يتقول على الله، ولم يتقول عليه قط، ولكن من جاؤوا بعد الرسول تقولوا عليه كثيراً ولا يزالون حتى اليوم يفعلون ذلك.

والخلاصة أننا شرحنا بعون الله تعالى فكرة عصمة الله تعالى لرسوله وبينا الأبواب التي جاءت منها الشبهات للمسلمين في عهد الانحدار الإسلامي حول مفهوم العصمة، فظنوا من باب الغلو في الدين بأن الرسول الكريم لم يعد عبد الله ورسوله، وظنوا من عند أنفسهم أنه كانت لديه قوى ذاتية يعصم بها نفسه، متناسين أنه لن يكون لعبد من عباد الله فضل لنفسه إلا ما آتاه الله، وبيّنه في كتاب. وكتاب الله شاهد على صدق دعوانا وكذب دعواهم ودعوى كل من يتوهم الحق في غير كتاب الله سبحانه: ﴿قلْ أيّ شيءٍ أكبرُ شهادةً قلْ اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾[٣٥].

وهل الله يشهد إلا من خلال كتابه العظيم.

﴿وآخرُ دعواهم أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾[٣٦].

اللهم فاجعل آخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

٣ ـ الشبهة الثالثة: هل القاعدة الشرعية التي تقول إنّ الإجماع معصومٌ من الخطأ صحيحة؟ وهل قولنا «لا يمكن الإجماع على خطأ» صحيح؟:

إن هذه القاعدة تعد من أكبر أوهام المسلمين وأخطرها عليهم عامة، لأن الأُمة تتألف من أفراد، والأفراد من أناس، والناس كلهم خطّاؤون نسّاؤون وإجماع الخطائين على أمر لا يجعل منهم معصومين عن الخطأ، لا فرق في ذلك بين رأي الفرد الواحد والجماعة.

(٣٤) سورة الحاقة: ٤٠ ـ ٤٧ (٣٥) سورة الأنعام: ١٩ (٣٦) سورة يونس: ١٠

فالإجماع على رأي لا ينفي أن يكون إجماعاًعلى الخطأ. وما من معصوم عنه سوى الله سبحانه وتعالى: ﴿إنا آمنّا بربّنا ليغفرَ لنا خطايانا﴾(٣٧).

نذكر على سبيل المثال أن الناس جميعهم فيما سبق كانوا يؤمنون بأن الأرض مسطّحة، وقد تبين اليوم أن إجماعهم كان على غلط مثلما أجمع الناس قبل اكتشاف دوران الأرض على أنها كانت مركز الكون وكل شيء يدور حولها، وهذا أيضاً ضرب من الإجماع على الغلط.

والمؤمنون اليوم في شبه إجماع على أن للإنسان روحاً ولو تصفحنا آيات القرآن الكريم لظهر لنا أن للإنسان نفساً ولكن ليس له روح، فإجماع المسلمين على وجود روح للإنسان؛ وهو إجماع على خطأ؛ يشبه إجماعهم على أن الله أرسل كتابين ووحيين أحدهما القرآن والثاني الحكمة وهي أحاديث الرسول.

فالمسلمون اليوم يصرّون بالإجماع على أن للرسول سنة خاصة غير سنة الله. والقرآن يثبت أن لا سنة لأحد غير الله سبحانه، وهو إجماع منهم على خطأ.

والمسلمون اليوم على شبه إجماع بأن الله قد كتب لكل إنسان عمراً وحدّده قبل ولادته، وأنه لا يمكن لأحد أن يزيد ذلك الأجل يوماً أو ينقصه يوماً وهو إجماع على خطأ كبير. دون أن ينتبهوا أن للإنسان أجلين في القرآن ﴿ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمىً﴾(٣٨).

والمسلمون اليوم على شبه إجماع بأن الله كتب لكل إنسان رزقه قبل أن يولد وقدّره له بالتحديد، وهو أيضاً وهم وخطأ كبير لا يشفع له الإجماع.

والمسلمون اليوم على شبه إجماع تام بأن أعمال الإنسان مقدّرة عليه سلفاً وهو وهم وباطل وإجماع خاطىء من المسلمين.

والمسلمون اليوم على شبه إجماع أن معنى الآية الكريمة: ﴿وإذْ أَخَذَ ربُّكَ مِنْ بني آدمَ من ظُهورهِمْ ذُرِيَّتهُم وأشهَدَهُم على أَنفسِهِمْ أَلَسْتُ بربّكُم قالوا بَلى﴾(٣٩) أن المؤمنين سيمثلون أمام الله، ببشرة بيضاء يوم القيامة وفي الجهة المقابلة سيمثل الكفار ببشرة سوداء! وفات من وضع الحديث أن يجعل مكاناً للمشركين في حين أن الآية تعني أن الله قد جعل من فطرة الإنسان الطبيعية فطرة الإيمان، لكنّ تقليد الآباء والأجداد يتدخل في الموضوع فيجعل من الابن إما مشركاً أو كافراً أو مؤمناً، كلّ بحسب دين أبيه الذي

---

(٣٧) سورة طه: ٧٣ (٣٨) سورة الأنعام: ٢ (٣٩) سورة الأعراف: ١٧٢

يوجهه إليه، والقرآن الكريم يدعو فيها كل إنسان إلى عقله ليناقش ما ورث من تقليد خاطىء، لأن عقله سيقوده إلى اتباع القرآن ويطيع الله ورسوله، وليس ما تحدر إليه من تقليد خاطىء ولو كان موروثاً عن السلف.

الشبهة الرابعة: هل يجوز للمسلم المؤمن الذي يخشى الله ويخشى يوم الحساب أن يضيف صفات من عنده للرسول الكريم لم يذكرها الله في القرآن مثل: شفيع الله، حبيب الله، خليل الله، كليم الله؟

وهل يحق للمسلم أن يؤلف قصصاً أو يختلق أحاديث على لسان الرسول، يقول فيها ما يشاء ثم ينسبها لشخصه الكريم، ويحيطها بهالة من القداسة تعدل قدسية الدين مسوغاً فعلته بصفاء نيته لخدمة الإسلام؟.

وجواباً على ذلك التساؤل الذي يثير مشكلة من أخطر المشكلات التي يعانيها المسلمون نقول: لا شك في أن كل مسلم مؤمن بالله يحبّ الله ورسوله، لكن كل حب أو ميل زاد عن حدّه انقلب إلى ضده ولكي نوضح هذا الكلام نقول:

كل مسلم وأنا منهم يؤمن أن عيسى بن مريم رسول الله، وأنه عبد الله، وأنه إنسان خلق بمعجزة إلهية من عذراء دون توسط أب ما، ليكون آيةً للناس. هكذا شاءت إرادة الله.

ونحن لا نشك في أن كل المسيحيين يحبّون عيسى عليه السلام، ولكنّهم عندما غلوا في ذلك الحب فأسبغوا على طبيعته صفات إلهية لم يشأ الله أن يصفه بها. إنما فعلوا ذلك بنية حسنة إذا أخذنا بقاعدة الأعمال بالنيات، لكنهم خرجوا عن المنهج الإلهي الذي رسمه الله لهم. فغضب الله عليهم لدخولهم في باب الإشراك دون أن يعلموا، ولكن الله لا يغفر ذلك لأحد من خلقه.

وقد نددهم الله تعالى في كتابه الكريم، وبين إساءتهم لعيسى بن مريم في آيات كثيرة: ﴿قل يا أهلَ الكتابِ لا تَغلوا في دينكم غيرَ الحق﴾(٤٠).

﴿وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتّخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليسَ لي بحقّ إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمتَه تَعلَمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسكَ إنكَ أنتَ علامُ الغيوب﴾(٤١).

﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا اللهَ ربّي وربكم﴾(٤٢).

(٤٠) سورة المائدة: ٧٧ (٤١) سورة المائدة: ١١٦ (٤٢) سورة المائدة: ٧٢

﴿لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله﴾[٤٣].
﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريم﴾[٤٤].

فإذا قرأنا هذه الآيات تبين لنا أن النصارى بمبالغتهم وغلوهم في دينهم أساؤوا للمسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام.

ومن يعتقد من المسلمين أن الله تعالى قد ذكر كل تلك الآيات ليتوجه بها إلى النصارى مذكّراً إياهم بالخطأ الذي وقعوا فيه فإنه واهم لأن النصارى حتى الآن لم يعترفوا بالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً ونبياً، والله يعلم أن هذا هو موقفهم وموقف اليهود من الإسلام، وهناك آيات كثيرة في القرآن تثبت ذلك فالغاية الوحيدة من وجود تلك الآيات في القرآن الكريم هي تحذير المسلمين من أن يقعوا بما وقع فيه أهل الكتاب من أخطاء قاتلة وصلت للإشراك بالله.

والله تعالى يعلم أن النصارى بشر مثلنا من خلق الله، ونحن أيضاً معرضون للخطأ مثلهم وإن كانوا قد أخطأوا فنحن أيضاً أخطأنا وقد يمتد خطؤنا إلى أكبر مما هو عليه إن لم نتراجع عنه ونحترس من نتائجه.

فكثير من المسلمين، حبّاً بالرسول الكريم، يبالغون في وصفه بكلمات تضاف إليه لم تكن موجودة في الأصل، ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون صنعاً، ويعدونه من باب البدع الحسنة، أي من باب «إنما الأعمال والأقوال بالنيات»، وهذه سذاجة ضارّة بالإسلام والمسلمين وبالرسول الكريم.

ولأنه لا يحق لي، أو لأحد سواي، أن يتقوّل أو يصدر أحكاماً على الرسول بما لا يعلم، لذا أحب أن يكون جوابي من خلال آيات الله وشهادتها من القرآن الكريم وحدها، لأنه ليس بين أيدينا نحن المسلمين كتاب صحيح ومعتمد لا ريب فيه سواه، وأعتقد أننا لسنا محتاجين إلى سواه لنفهم ديننا والحمد لله.

فلنبحث إذاً في القرآن الكريم عن صفات الرسول التي وردت في كتاب الله دون أن نتجاوزها فنقع في المحظور. قال تعالى: ﴿ومبشّراً برسولٍ من بعدي اسمهُ أحمد﴾[٤٥].

ولكي نفهم معنى هذه الآية يجب أن نعود إلى ما يماثلها في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿إنّ الله يبشرُكِ بكلمةٍ منه اسمهُ المسيحُ عيسى ابن مريم﴾[٤٦] وكلمة (اسم) في اللغة

(٤٣) سورة النساء: ١٧٢
(٤٤) سورة المائدة: ١٧
(٤٥) سورة الصف: ٦
(٤٦) سورة آل عمران: ٤٥

العربية مصدرها السمة. والسمة هي الصفة والعلامة: فالآيات تخبر عن عيسى ابن مريم بصفته، وهو المسيح ولذلك قال تعالى: ﴿إسمه المسيح﴾ ووصف محمد بن عبد الله ﷺ فقال: اسمه أحمد، أي وصفه وسمته «أحمد» ونقول في لغة القرآن: ينادى محمد ولانقول: اسمه محمد.

لذلك عند ورود ذكر الرسول في سورة الفتح ٢٩ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء﴾ لاحظ لم يقل سبحانه اسمه قبل ذكر الآية وكذلك إذا لاحظنا في القرآن الكريم فقد ورد ذكر «موسى» عليه السلام ١٣٦ مرة ولم يسبقها أبداً لفظ اسمه، وكذلك عند ذكر باقي الأنبياء. مثل:

نوح أو لوط أو هود أو صالح أو إسحق أو إبراهيم أو غيرهم عليهم السلام. وذلك كله من أجل التمييز بين ألفاظ النداء التي نقول عنها بلغتنا اليوم (اسم العلم). أن المسيح وأحمد ليسا اسمَيْ علم وإنما هما صفتان وسمتان خاصتان.

قال تعالى يخاطب محمداً ﷺ: ﴿وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾[٤٧].

وهذا أعلى وسام يناله عبد من الله تعالى ، فيكفي الرسول محمد ﷺ هذا الوسام وحده الذي خصّ الله به رسوله، أما تلك الألقاب الأخرى التي ألصقت بشخصه الكريم في عصور لاحقة من مثل حبيب الله وشفيع الله فهي لون من المبالغة، ولم يرد في القرآن آية واحدة تقول مثلاً: أحبوا الرسول، أو أحبوا النبي باستثناء آية واحدة ذكر فيها حب الرسول مقروناً بحب الله: ﴿قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفْتُموها وتجارةٌ تخشونَ كسادَها ومساكنُ ترضَوْنَها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولهِ وجهادٍ في سبيلهِ فتربّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقين﴾[٤٨].

وفي القرآن آيتان في الدعاء للرسول: ﴿إن اللهَ وملائكتَهُ يصلّون على النبي﴾[٤٩] أي يدعون له ويَصِلونَهُ.

﴿يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً﴾[٥٠] أي ادعوا له. وصِلُوه.

وفي اعتقادي أن الرسول ليس محتاجاً إلى صفات أعلى وأهم وأفضل من تلك الصفات التي وصفها به الله تعالى وخصه بها وليس لنا أن نضيف إلى تلك الأوصاف شيئاً من

---

(٤٧) سورة القلم: ٤
(٤٨) سورة التوبة: ٢٤
(٤٩) سورة الأحزاب: ٥٦
(٥٠) سورة الأحزاب: ٥٦

عندنا لِئلا نغلو في الوصف فنقع بما وقع به سوانا، وقد وصف الله تعالى رسوله بعبده أكثر من مرة في القرآن لكي لا يدفعنا حبنا للرسول وإعجابنا بشخصه إلى الغلو في إسباغ الألقاب عليه.

﴿إن كنتُم آمنتم باللهِ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾(٥١).

﴿سبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً﴾(٥٢).

﴿الحمدُ لله الذي نزَّلَ على عبدهِ الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجاً﴾(٥٣).

﴿تباركَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكونَ للعالمينَ نذيراً﴾(٥٤).

﴿أليسَ اللهُ بكافٍ عبدَه﴾(٥٥).

﴿فأوحى إلى عبدِه ما أوحى﴾(٥٦).

﴿هو الذي يُنَزِّل على عبده آياتٍ بينات﴾(٥٧).

﴿وإن كنتم في ريَبٍ مّما نزلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثلِه﴾(٥٨).

فلا وجود في القرآن لصفات نطلقها على الرسول من مثل محمد شفيعي أو شفيع المسلمين يوم القيامة، وإنما هو من تصورات الناس الدنيوية عن وجود شفاعة في يوم القيامة، وهو إشراك، بدليل قوله تعالى:

﴿أَنفِقوا مما رزقْناكم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ﴾(٥٩) فلا شفاعة في ذلك اليوم إلا لله.

﴿قل لله الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السمواتُ والأرضِ﴾(٦٠).

والله تعالى لا يظلم أحداً: ﴿إن اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرة﴾(٦١) فكيف يمكن أن يقيم الله عدله إذا كان يستجيب للشفاعة؟ وهو رحيم ليس محتاجاً إلى من يذكره برحمته ليمارسها، لنتصور أن مذنباً قام بجرائم كثيرة يأتي يوم القيامة ويدخل الجنة بشفاعة، وآخر كانت ذنوبه أقل من ذلك الشخص غير أنه لم يستطع الحصول على شفاعة الرسول، فيدخل النار! فهل ذلك من العدل الإلهي. وكل تصورات المسلمين عن الشفاعة آتية من الآيات المتشابهة: مثل الآيات الآتية: ﴿يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلاّ مَنْ

(٥١) سورة الأنفال: ٤١
(٥٢) سورة الإسراء: ١
(٥٣) سورة الكهف: ١
(٥٤) سورة الفرقان: ١
(٥٥) سورة الزمر: ٣٦
(٥٦) سورة النجم: ١٠
(٥٧) سورة الحديد: ٩
(٥٨) سورة البقرة: ٢٣
(٥٩) سورة البقرة: ٢٥٤
(٦٠) سورة الزمر: ٤٤
(٦١) سورة النساء: ٤٠

أَذِنَ له الرحمن﴾(٦٢) لم يأت تأويل هذه الآية بعد، ولم يوضح الله تعالى قوله: ﴿إلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن﴾ وليس لنا أن نخترع أو نؤلف على الله سبحانه.

إن موضوع الشفاعة من الموضوعات الهامة في الإسلام وعلى المسلم أن يفهمها تماماً لأن عدم فهمها يؤدي إلى الشرك والعياذ بالله. فمشركو مكة مثلاً كانوا يعترفون بوجود الله بدليل آيات كثيرة في القرآن نفسه، ولكن كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى مثل هبل ونسر ويعوق (يرجون شفاعتها لهم عند الله) لاحظ (يرجون شفاعتها) وحين نردد نحن المسلمين: محمد شفيعنا فإنما نشرك بالله ولو كنا لا نعلم ذلك، إن قسماً كبيراً من الأحاديث المنحولة كان الهدف من وضعها إرضاء التصورات السيئة وتوجيهها لمصلحة السلطة أو إرضائها أياًكان واضعها.

وإذا كان الإمام البخاري كما أسلفنا قد اختار ستة آلاف حديث صحيح ورمى بالباقي على أنه مكذوب وغير صحيح فإن الإمام ابن تيمية ذهب إلى أن كثيراً من الأحاديث التي اختارها الإمام البخاري غير صحيحة أيضاً، وهذا ما سنحاول إثباته في هذا الكتاب، فكل الأحاديث التي تشير إلى علم الرسول بمستقبل الإسلام والتي تعد في علم الله الذي هو علم الغيب تعد غير صحيحة بدليل آيات الغيب في القرآن التي تصرح أن الله لا يشارك في علم الغيب مخلوقاً. والله صادق، وكل الرواة، يكذبون، لأن الرسول أيضاً صادق أمين.

وكل الأحاديث التي تنسب إلى الرسول عن وصف العرش والكرسي واللوح المحفوظ وغيرها كثير من آيات غيب الله وأسراره في الكون ولم يخبرنا بها في القرآن الكريم. كلها على الإطلاق غير صحيحة بشهادة آيات الغيب في القرآن. وأعتقد أن لا شهادة تطلب بعد شهادة الله فالله لا ينزل للناس ليشهد، وإنما يشهد بآياته القرآنية الثابتة.

﴿قل أَي شيءٍ أكبرُ شهادةً قلْ اللهُ شهيدٌ بيني وبينكُم﴾(٦٣).

﴿أَوَلَمْ يكفِ بربكَ أَنّهُ على كلِّ شيءٍ شهيد﴾(٦٤).

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكُم إنّهُ كانَ بعبادِه خبيراً بصيراً﴾(٦٥).

هناك آلاف الأحاديث يرويها المسلمون على أنها من رسول الله، وكلها مدسوسة لأن فيها أنباءً من الغيب غير موجودة في القرآن، لا شهادة لصحتها كالأحاديث الآتية:

---

(٦٢) سورة طه: ١٠٩

(٦٣) سورة الأنعام: ١٩

(٦٤) سورة فصلت: ٥٣

(٦٥) سورة الإسراء: ٩٦

ـ الأحاديث المروية عن الرسول عن موضوع انشقاق القمر في عهد الرسول فصار القمر فلقتين وكل فلقة على جبل، ثم قال لهم الرسول ﷺ: اشهدوا (أي هل تشاهدون المعجزة؟) وهذا من أحلام الأطفال الذين يتوهمون أن القمر هو مصباح لإنارة مكة وجبالها، والرسول ﷺ يستحيل أن يقول مثل هذا الكلام بالعكس للرسول موقف معاكس وصحيح حول موضوع مشابه وأعتقد أن تلك الرواية صحيحة بدليل عدم تناقضها مع آيات القرآن ومع العقل والمنطق.

صادف يوم وفاة ابن الرسول ﷺ إبراهيم كسوف الشمس، فقالت الصحابة أو بعضهم عن جهل هل ترون أن الله تعالى قد حزن على موت إبراهيم فكسف الشمس فسمع الرسول ﷺ ما يقولون فوقف على المنبر غاضباً لموقف أصحابه وقال ما في معناه: إن الشمس والقمر آيتان لله، يسبحان بأمر الله، ويطيعان أوامره، لا يتأثران بموت أحد من الناس، وقد شاهدت أحد رجال الدين المسيحي من الذين دخلوا الإسلام وأعلنوا إسلامهم يستشهد بهذه الحادثة (وهو كندي الأصل) فيقول لو كان محمد ﷺ نبياً كاذباً وليس مرسلاً من عند الله لاستغل تلك الحادثة وقال لهم: اشهدوا (أي هل ترون أن الله يؤيدني).

ولو انشق القمر فعلاً لذكر مؤرخو الفرس والروم واليونان والمصريون والصينيون في كتبهم، وهم أصحاب حضارات وعلوم قامت قبل عصر الرسول تلك الواقعة وكتبوا عنها، لكن هذا لم يحصل إلا في خيال الرواة، والآية موجودة في القرآن والأسلوب الذي يتحدث به القرآن عنها أسلوب الماضي: ﴿انشق القمر...﴾ كأن الشيء قد حدث قبلاً، وهو أسلوب قرآني من البلاغة العربية يقوم على استخدام صيغة الماضي بدل المضارع أي أن القمر سوف ينشق كعلامة من علامات قيام الساعة التي لا يعلم ميعادها إلا الله، في حين أن الرواة الذين صدقوا هذا الكلام بادروا فأصدروا حديثاً آخر نسبوه إلى الرسول جاء فيه: (بعد مائة سنة لن يبقى على وجه الأرض نفس منفوسة) وقد مرت مئات من السنين ولم يحدث شيء، فظهر كذبهم وتزويرهم، وهناك على سبيل المثال (إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن).

أو حديث «لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» فكيف يمكن أن يقول الرسول ﷺ هذا القول وقد مرّ بنا قبل قليل أنه صحح وَهْمَ أصحابه الذين قالوا بكسوف

الشمس من أجل ابنه، على مرأى من الناس، وأكد لهم أن لا علاقة لكسوف الشمس بالحزن على أحد من الناس حتى لو كان ابنه.

وثمة أحاديث لا تعد ولا تحصى عن الإسراء والمعراج، منها ما جاء في وصف الكرسي، مثل (الكرسي في العرش كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض).

ومنها ما قالوا في اللوح المحفوظ الذي يعدّ من علم غيب الله الخفيّ للغاية حسب تعبيراتنا الأرضية: (إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه من نور، وكتابه نور لله، فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء. إن في صدر اللوح (لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة).

و«اللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء. وقلمه نور وكلامه معقود بالعرش وأصله في حِجْرِ مَلَك» وهذا الحديث عن أنس بن مالك.

وحديث آخر يقول إن اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل! وأغلب هذه الأحاديث نجدها في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

أما الأحاديث الموضوعة فهي لا تعد ولا تحصى، لكنها مستخدمة والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه من قبل أئمة المساجد، يأتون بها وفق المناسبات.

وقد توقع الله سبحانه وتعالى لعلمه الغيب أن كثيراً من الناس سوف يتقولون عليه كلام كثير وينسبونه إليه كذباً بإسنادها لرجال عرف عنهم الصدق أي أنهم كذبوا على الرسول وعلى كل من أتى ذكرهم من رجال السند. فكانوا يحرفون نص الحديث الصحيح الأساسي بمعونة الشيطان، فللشيطان أيضاً أساليبه، وقد هدّدهم الله تعالى لو كانوا يرعوون: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ سبحان الله.

والآيات واضحة جداً، وقد فصّلنا في الحديث عنها سابقاً. وقلنا في شرحها لو أن محمداً ﷺ تقوّل على الله بما لا يعرف، لأخذ الله منه باليمين، ثم لقطع منه شريان قلبه، ولن يستطيع أحد أن يمنع الله عن فعل ذلك به. لا ولم ولن يفعل ذلك رسول الله، ومن سيفعله هم المكذبون والله يعلم بوجود المكذبين. فهل هناك آيات شاهدة من الله

تعالى تفصح عن حقيقة ما حصل أكثر من هذه الآيات؟ لكن العمل بها يحتاج إلى قلب مؤمن يعي حقيقتها.

﴿أفأنتَ تَهْدي العُميَ ولو كانوا لا يُبصرون﴾(٦٦).

﴿أفأنتَ تُسمِعُ الصمَّ أو تَهدي العُميَ ومَنْ كانَ في ضلالٍ مبين﴾(٦٧).

صدق الله العظيم..

الشبهة الخامسة: هل كان رسول الله ﷺ يعلم الغيب بإذن الله ويخبر عن أنباء ستحصل في المستقبل؟:

لنستعرض الآيات الكريمة الآتية أولاً:

﴿إني أعلَمُ غيبَ السمواتِ والأرض﴾(٦٨).

﴿ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيه إليك﴾(٦٩).

﴿قل لا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلَم الغيبَ﴾(٧٠).

﴿قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾(٧١).

وقال تعالى عن الجن:

﴿أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين﴾(٧٢).

﴿عالم الغيبِ لا يظهرُ على غَيبه أحدا﴾(٧٣).

فالله تعالى يطلب من رسوله أن يبلغ الناس جميعاً في رسالته ما يأمره الله تعالى: ﴿لا أقولُ لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾.

وفي الآية التي تليها يأمر رسوله أن يقول للناس إن علم الغيب لا يعلمه الملائكة في السموات ولا يحيط به من في الأرض من جن أو إنس، ثم خصّ الله تعالى في الآية التي تليها الجن بكلامه فأكد أنهم يجهلون الغيب ولو علموه ما لبثوا في الذل والهوان لسليمان وجنوده.

أكد في الآية التي تليها أنه لا ينفذ إلى أسراره أحد من المخلوقات.

---

(٦٦) سورة يونس: ٤٣
(٦٧) سورة الزخرف: ٤٠
(٦٨) سورة البقرة: ٣٣
(٦٩) سورة آل عمران: ٤٤
(٧٠) سورة الأنعام: ٥٠
(٧١) سورة النمل: ٦٥
(٧٢) سورة سبأ: ١٤
(٧٣) سورة الجن: ٢٦

فموضوع الغيب إذاً خاص به سبحانه، لم يسمح بالإطلاع عليه إلا بوحي أو بإذن خاص لملاك أو جن أو إنس لا سابقاً ولا لاحقاً، وليس لنبي أو رسول أن يدّعي مشاركة الخالق سبحانه في موضوع الغيب، فمن السذاجة بعد هذه الآيات البينات أن نصدق الأحاديث والإسرائيليات المبثوثة فيها والتي تؤكد أن رسول الله ﷺ كان يتنبأ، أو يقول كذا وكذا عن المستقبل، واهمين أن كلمة نبي جاءت من تنبأ أي أتى بأخبار المستقبل، وهذا وهم كبير لا وجود له في الإسلام، فكل الأحاديث المنسوبة للرسول الكريم التي تشير إلى تنبؤ الرسول بالمستقبل وما سيقع في الأيام القادمة من مثل قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» فالحديث يشير إلى قدرة الرسول على معرفة ما لم يقع، وهو علم كما رأينا في الآيات لا يشارك فيه أحد ربّ العالمين ونحن نقول لكل من يحب هذا الحديث إنه يناقضُ صريحَ آيات الله، فإما أن نلغي ما قاله الله أو نلغي ما نظن أن الرسول قد قاله، ولا أعتقد أن الرسول يصرح أو يفكر بما يغضب الله - بل إن الله سبحانه وتعالى أشار ثلاث مرات في ثلاث مناسبات إلى إرساله رسوله «بالهدى ودين الحق» فحدّد بذلك مهمّة الرسول: ﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كلِّهِ﴾(٧٤).

وأمّا ما ورد في القرآن من آيات تشير إلى النبأ والأنباء من مثل: ﴿ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيهِ إليك﴾(٧٥).

﴿كذلكَ نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ ما قد سَبَقَ﴾(٧٦).

فهي تشير بكلمة النبأ والأنباء إلى الأخبار الماضية، وهذه الأخبار كلها من الغيب أوحاها الله لرسوله. وهي كلها موجودة في كتاب الله الذي هو القرآن الكريم.

ونجد كلمة النبأ فيما قاله عن يوسف عليه السلام: عند تأويله الحلم: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله﴾ فتأويل المنامات ليس علماًبالغيب إنما هو حل لرموز يحتمل الصحة والغلط وكل ما دخل في باب الاحتمال خرج من باب العلم بالغيب. والغريب أن واضعي الأحاديث وملفقيها على لسان الرسول لم يفطنوا إلى تناقض ما يلفقونه مع ما ورد في كتاب الله فلنقرأ الحديث الآتي(*):

(*) أخرجه الطبري في معجمه والديلمي في الفردوس

(٧٤) سورة التوبة: ٣٣ (٧٥) سورة يوسف: ١٠٢ (٧٦) سورة طه: ٩٩

(إن الله منّ عليّ فيما مَنَّ عَلَيّ أن أعطيتك فاتحة الكتاب وهي من كنوز عرشي قسمتها بيني وبينك نصفين).

فكيف ترد مثل هذه الشراكة واقتسام كنوز العرش في وحي الله مع أن الله تعالى قال: ﴿ما فرّطنا في الكتابِ من شيء﴾[77] وبدت عنايته بنزول الوحي في أشياء وأمور أقل شأناًمن موضوع هذا الحديث، منها معاتبة الله الرسول في موضوع ابن أم مكتوم (عبس وتولى) وإنزاله آية في موضوع ما شربه الرسول من ماء العسل عند أحد زوجاته: ﴿لِمَ تحرم ما أحل الله﴾ وموضوعات أخرى كثيرة ذكرها الله في القرآن أصغر بكثير من موضوع شراكة بينه وبين رسوله أو تقسيمه كنوز عرشه بينه وبين الرسول، والله إن القوم فقدوا الحياء بعد أن تعودوا على الكذب! وهذا حديث آخر من صحيح البخاري ومسلم جاء فيه: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

فموضوع الحديث يدخل في باب أنباء الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ولم يشارك بها أحداً، كما تثبت الآيات السابقة ذلك، ونصه بهذا الشكل يناقض الحقيقة العلمية التي توصل إليها عصرنا عن تطور اكتمال الجنين وزمن ذلك النمو، وكأننا نتهم الخالق بأنه لا يعرف الحقيقة، وهذا لا يجوز عقلاً، فالحديث ليس من الرسول بل هو موضوع بلسانه ومكذوبٌ عليه.

ولو سلمنا جدلاً أن هذا الحديث لا يناقض العلم في يومنا هذا فإن نصه يناقض القرآن كله إذ لم يبق بموجبه للإنسان أي حرية للتصرف أو الاختيار فقد حدد الله رزقه وأجله وعمله فهو إذا مسير غير مخير ولو صح ذلك فلماذا يعاقب الله إنساناً لم يكن له حرية الاختيار أصلا؟ في حين أن كل آيات القرآن تنفي عن الله الظلم بينما القول بهذا الحديث يوجب الظلم على الله، وهذا لا يقبله العقل أيضاً، وكل الآيات في القرآن تشير إلى مشيئة الإنسان الأولى في الاختيار وهناك دليل مادي على أن الحديث موضوع وهي كلمة ينفخ فيه الروح، لأن الذي وضع الحديث لم يدرس آيات القرآن ليتوصل إلى أن الله لم يذكر في كتابه روحاً للإنسان بل اشار إلى نفس له، وسوف نتعرض لهذا الموضوع عند الكلام عن الروح، وإنما أحب أن أشير هنا إلى أن الله تعالى

(٧٧) سورة الأنعام: ٣٨

نفخ روحه مرتين فقط لا ثالث لهما في القرآن الكريم، وقد أشار إلى الأولى في قوله تعالى: ﴿فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي فَقَعوا له ساجدين﴾(٧٨) ويقصد به آدم إذ خلقه من دون أب أو أم: ﴿والتي أحصنتْ فرجَها فنفخْنا فيه من روحنا﴾ ويقصد به عيسى ابن مريم الذي خلقه من دون أب.

فالله تعالى يستخدم نفخ الروح عند الخلق الأول فقط، ويتوهّم الناس خطأ بسبب اختلاط قراءتهم القرآن بتفسير معتمد على كتبِ أهلِ الكتاب التي تذكر الروح على الدوام بدل النفس، علماً أن الله لم يذكر كلمة روح للإنسان مطلقاً، وإنما يشير أبداً إلى النفس فهذا دليل مادي يثبت أن الذي نصَّ الحديث هو غير الله، وغير الرسول المعصوم من الله، والذي لا يمكن أن يتقول كذباً على الله.

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب على نفسه كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

إن الذي نحل هذا الحديث وتقوّله على الله تعالى يظن أن الله تعالى يضع شعارات يرفعها على جدرانه ليزين بها قاعة العرش، وفي هذه التصور رائحة الكذب والوضع فكل ما ورد فيه يخالف القرآن ونصوصه مخالفة تامة، ولو روي الحديث بشكل آخر كأن يقول فيه الرسول وهو يعظ الناس: (أيها الناس والله كأن آيات الله تعالى تقول لنا جميعاً: إن رحمتي تغلب غضبي) لاختلف الموضوع كلياً، لأن هذا الكلام لا يناقض قوله تعالى: ﴿كَتَبَ على نفسهِ الرحمة﴾(٧٩).

وأخرج أبو داوود في سننه عن أبي هريرة: «ما من رجل يسلّم علي إلا رد الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام».

والدليل المادي على أن هذا الحديث موضوع وجود كلمة (روحي) في الحديث لأن الله من سوء حظ واضع الحديث لم يذكر في كتابه كلمة الروح للإنسان، بل استخدم كلمة النفس، وكتاب الله يشهد بذلك كما ذكرنا. بالإضافة إلى أن موضوع الحديث يدخل في باب علم الله كما ذكرنا وهو علم لا يعطى لأحد غير الله. ولو كان هذا الحديث صحيحاً لكان معناه أن نفس الرسول لم تغادر جسده من يوم وفاته إلى اليوم، لأن المسلمين في جميع أنحاء العالم يصلّون على النبي ويسلّمون عليه في كل صلاة

(٧٨) سورة الحجر: ٢٩ (٧٩) سورة الأنعام: ١٢

وهذه الصلاة دائمة لاتنقطع عن الأرض لحظة واحدة بحسب التوقيتات المحلية لكل بلد إسلامي أو بلد فيه مسلمون.

ومثل ذلك حديث: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء» فموضوع الحديث يدخل في باب أنباء الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما أن الله يشير في كتابه إلى أنه لا يغيّر سنة ولا يبدلها من أجل أحد ولن نجد لسنة الله تبديلاً، وسنة الله في خلقه من الإنس والحيوانات والنباتات أن تتحول إلى تراب بعد الموت. وأسلوب القرآن في ذلك أن يقول:

﴿إذا متُّم وكنتم تُراباً﴾(٨٠).

﴿أإذا مِتْنا وكنّا تراباً﴾(٨١).

ومثلها آيات كثيرة.

ولو استعرضنا آيات الأرض في القرآن لوجدناها تبلغ ٤٥١ آية، ومنها الآيات التالية:

﴿ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَفَسدتِ الأرض﴾(٨٢).

﴿يودُ الذينَ كفروا وعصَوْا الرسولَ لو تُسوّى بهم الأرض﴾(٨٣).

﴿وقيل يا أرضُ ابْلعي ماءَكِ﴾.(٨٤)

﴿أَفَأَمِنَ الذينَ مَكَروا السيئاتِ أنْ يَخسفَ بهم الأرض﴾(٨٥).

﴿ويومَ نسيّرُ الجبالَ وترى الأرضَ بارزةً﴾(٨٦).

﴿يُخرجُ الحيَّ من الميّتِ ويُخرجُ الميّتَ من الحيّ ويُحيي الأرضَ﴾(٨٧).

﴿ويا قوم هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةٌ فذروها تأكلُ في أرض الله﴾(٨٨).

وليس فيها آية واحدة تقول إن الأرض تأكل لحوماً، فالتعبير الذي ورد في الحديث: الأرض لاتأكل لحوم الأنبياء تعبير غير قرآني وهذا الحديث ثابت التزوير والوضع بهذه الأدلة.

ولو بحثنا في كتب الحديث لوجدنا آلافاً من هذه الأحاديث الكاذبة نصاً وموضوعاً. ومن حسن حظنا وسوء حظ واضعيها أنهم كانوا يجهلون أسرار النصوص القرآنية

---

(٨٠) سورة المؤمنون: ٣٥
(٨١) سورة المؤمنون: ٨٢
(٨٢) سورة البقرة: ٢٥١
(٨٣) سورة النساء: ٤٢
(٨٤) سورة هود: ٤٤
(٨٥) سورة النحل: ٤٥
(٨٦) سورة الكهف: ٤٧
(٨٧) سورة الروم: ١٩
(٨٨) سورة هود: ٦٤

المحكمة التي يصعب تقليدها «فكل كلمة عاشقة لموضوعها في كتاب الله وكل موضوع فيه جاذب لكلمته»(*).

الشبهة السادسة: هل كانت للرسول معجزات خاصة لم ترد في القرآن الكريم؟:

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل والرسالات من قبل إلى الأمم، واصطفى رسله منها وحدثنا عنهم وعن رسالاتهم بالتفصيل فيما ذكر لنا منهم في القرآن بدءاً من نوح عليه السلام ثم يأتي بالترتيب هود، صالح، شعيب، لوط، إبراهيم، إسماعيل، إسحق، يعقوب، يوسف، يونس، أيوب، موسى، هارون، داوود، سليمان، زكريا، يحيى، ذو الكفل، إدريس، إلياس، اليسع، عيسى، محمد ﷺ، ويبلغ عدد الرسل منهم ثلاثة عشر رسولاً أما بقيتهم فمن الأنبياء: فالرسل هم: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، يونس، إبراهيم، إسماعيل، إلياس، يوسف، موسى، عيسى، محمد ﷺ.

وقد لقي كل رسول جاء لقومه برسالة من ربه الناس مقاومة منهم، فكانوا يعارضون رسالته ويكذبونه، وقد عَلَّمَ يوسف عليه السلام: تأويل الرؤيا، وتأويل الأحلام ليس علماً بالغيب، لأن العلم بالغيب علم قائم بذاته، محصور بالله تعالى، لا يشاركه فيه أحد، قد شرحنا ذلك سابقاً.

إلى أن كان موسى فأيّده الله بتسع آيات بيّنات حتى لا يكذبه قومه، وهذه الآيات كلها مذكورة في القرآن الكريم، ثم كان عيسى عليه السلام وولادته المعجزة من العذراء ابنة عمران ثم تَكَلُّمُهُ وهو صبي في المهد، ثم معجزاته التي قام بها بإذن الله فكان يحيي الموتى، ويشفي المرضى، ويبصر الأعمى، ليؤمن الناس بأنه رسول من رب العالمين، لكن كل تلك المعجزات لم تُجدِ مع الناس، فلم يؤمن به إلاّ الحواريون الذين آمنوا به بوحي خاص من الله: ﴿وإذْ أوحيتُ إلى الحواريّينَ أن آمنوا بي وبرسولي﴾(٨٩) إذ نظر الناس إلى هذه المعجزات على أنها ضرب من السحر، ثم شاء الله أن يرسل خاتم الأنبياء محمد ﷺ معجزة خالدة فكان خاتم الأنبياء، وشاء الله عز وجل أن يجعل معجزته الخالدة لإقناع الناس هي القرآن، فما معنى ذلك؟.

من المعلوم أن المعجزة تأتي من التحدي، فعلى قدر التحدي تكون قوة العمل الخارق وشدته وإعجازه، مثل ذلك مثل حامل الأثقال الذي يطمح أن يقهر خصمه، فإن كان

(*) تعبير للشيخ متولي شعراوي

(٨٩) سورة المائدة: ١١١

خصمه قادراًعلى حمل ثقل لا يختلف وزنه كثيراً عما يمكن أن يحمله الرياضي الطامح من ثقل، فإن ذلك يعزز أمل هذا الرياضي بالتغلب على منافسه الذي هو أقوى منه، ولكن حين يكون الفارق كبيراً بين طاقات الرجلين، فإن ذلك الطامح يرى في قوة خصمه ضرباًمن المعجزة التي يتعذر تحقيقها، فلا يجرؤ على تحديه، ذلك أن التدريب الطويل والمضني يمكن أن يصل بالمتحدي إلى تجاوز فارق لايتحاوز وزنه كيلو غرامات معدودة، أما أن تكون قوة خصمه خمسة أضعاف قوته، فهذا أمر يحبط لديه أي أمل بالتحدي، إن ذلك المتحدي الذي رأى قوة خصمه تفوق قوته بخمسة أضعاف مثلاً يتأثر بما رأى بعينه، لكنه إن روى عن قوة خصمه للناس عدّوا ذلك مبالغة، ولم يتأثروا بمقدار ما أحسّ هو، وتمر الأيام فيصبح خبر ذلك البطل الخارق مدار حديث الناس زيادة وتهويلاً وتحريفاً، حتى تصبح قوته الخارقة المعجزة أخيراً مدار تندّر الناس أكثر مما تثير تقديرهم، فيصبح ضرر المعجزة أكثر من فائدتها بسبب ما لحق بها من مبالغات لا يقبلها العقل فتدخل باب الأسطورة والأساطير.

ولعلّ هذا المثل الذي ذكرت ينطبق على تلك المبالغات وضروب الخيال التي تم نسجها حول ثلاثة موضوعات تناولها القرآن الكريم وهي: الإسراء، والمعراج، والشجرة الملعونة.

وقد أُلِّفَ حول هذه الموضوعات مجلدات، تتجاوز الآلاف، ما أنزل الله بها من سلطان، واختلف علماء الدين فيها اختلافاً كبيراً، فقال كل فريق ما لم يقله الآخرون، وضاع المسلم في ركام هذه الاختلافات.

لكن دعونا نلجأ إلى سندنا الأساسي في ديننا وهو القرآن، لكي لا نتقول على الله ما لا نعلم، لأن آياته تتكلم عن نفسها، وتقول لنا الحق فننجو من الضلال والإضلال.

وما يقول الله تعالى: ﴿وما مَنعَنا أن نرسلَ بالآيات إلاّ أنْ كذّبَ بها الأولون﴾[٩٠] وكان المشركون وأهل الكتب يسمعون بظهور نبي من بني هاشم من قريش فيقولون له: ﴿لن نؤمنَ حتى نؤتى مثلَ ما أُوتيَ رُسُلُ الله﴾[٩١] فيقول لهم الرسول الكريم أمراً من ربّه الكريم: ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلا بإذنِ الله﴾[٩٢] ولكن الله يعود فيذكر نبيّه بأن الذي يمنعه من تدعيمه بالمعجزات كما فعل مع موسى وعيسى أن أكثر الناس لن تؤمن بهذه الطريقة: ﴿وما منعنا أن نرسلَ بالآياتِ إلاّ أن كذّبَ بها الأولون﴾[٩٣]

---

(٩٠) سورة الإسراء: ٥٩
(٩١) سورة الأنعام: ١٢٤
(٩٢) سورة الرعد: ٣٨
(٩٣) سورة الإسراء: ٥٩

لهذا السبب قرر الله تعالى بعد هذه الآية ألا يتبع أسلوب المعجزات مع الناس، وبخاصة أن النبي محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل، فرسالته سوف تبقى للعالمين، فأسلوب الدعوة لهذا الدين سوف يختلف عن أسلوب الدعوة لما سلف من الديانات والرسل لأسباب يشرحها الله تعالى قائلاً:

﴿سَل بني إسرائيلَ كم آتيناهم من آيةٍ بينة﴾(٩٤).

لقد أرسل لهم عن طريق موسى تسع آيات (معجزات) بيّنات. ذكرت كلها في القرآن الكريم، مثلما أشار إلى أثر تلك المعجزات فيهم:

﴿وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربّهم إلاّ كانوا عَنها مُعرِضين﴾(٩٥).

كذلك بيّن القرآن ما وقع لموسى وهارون مع أنه أيّدهم بالمعجزات:

﴿فأوحينا إلى موسى أنِ اضربْ بعصاكَ البحرَ فانفلقَ البحرُ فكانَ كلُّ فرقٍ كالطودِ العظيم * وأزلفنا ثَمّ للآخرين * وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إنَّ في ذلك لآيةً وما كانَ أكثرهم مؤمنين﴾(٩٦) وبعد ذلك فصّل لنا قصة موسى وكيف سبق قومه فذهب إلى موعده مع ربه في الجانب الأيمن من الطور، ثم كيف فتنهم السامريّ عن دينهم، ورجوع موسى إليهم وقد تلقى الوصايا العشرة من ربّه، فوجدهم قد تركوا عبادة الله الذي أنقذهم منذ مدة قصيرة بتلك المعجزة الخارقة التي لم يسبق لها من مثيل قبل ذلك لكنهم عبدوا العجل الذهبي الذي صنعه لهم السامري، ومع أن بني إسرائيل قد شاهدوا أغلب المعجزات التي حصلت مع موسى عياناً غير أن تلك المعجزات لم تقرّبهم من الله لفسادٍ في فطرتهم ونفوسهم. ولذلك قال الله عنهم:

﴿وإن يَروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها﴾(٩٧).

ولأن الناس من حول محمد ﷺ ومن المؤمنين به كانوا يعارضون الدعوى، ويهزؤون باتباعها، ويطلبون من الرسول معجزة أو يرون فيه شاعراً أو مفتريا: ﴿بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بلْ افتراهُ بل شاعرٌ فليأتنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأوّلون﴾(٩٨).

لذلك كله قدَّرَ الله ألا يبعث مع هذه الرسالة أية معجزات حسية لأن الله أعلم بعباده من العباد، فخاطب الرسول يواسيه ويثبته على ما هو عليه قائلاً: ﴿لعلّك بَاخعٌ نفسكَ ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السّماء آيةً فظلّتْ أعناقُهم لها خاضعين﴾(٩٩) لكن

---

(٩٤) سورة البقرة: ٢١١ (٩٦) سورة الشعراء: ٦٣ ـ ٦٧ (٩٨) سورة الأنبياء: ٥
(٩٥) سورة الأنعام: ٤ (٩٧) سورة الأنعام: ٢٥ (٩٩) سورة الشعراء: ٣ ـ ٤

الناس كانوا لا يتركون الرسول يرتاح فكانوا يلحّون عليه بطلب المعجزة، وكان المسلمون الذي يخالطون أبناء بني إسرائيل من بني النضير وبني قريظة في المدينة فكانوا يهزؤون بالرسول ويقولون للمؤمنين: إذا كان رسولكم صادقاً ورسالته من الله فيجب أن يُؤَيَّدَ بمعجزات كي يصدقه الناس، أما ما يفوه به من آيات القرآن فما ذلك إلا من أساطير الأولين، اقتبسها من كتبنا القديمة، ويثبت رب العالمين رسوله ثانية، فيقول له وللعالمين: ﴿قد نَعلمُ أنهُ ليحزنكَ الذي يقولونَ فإنهم لا يكذّبونكَ ولكنَّ الظالمينَ بآيات الله يجحدون * ولقد كُذّبتْ رسلٌ من قبلكَ فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرُنا ولا مبدّلَ لكلماتِ اللهِ ولقدْ جاءَكَ من نبأ المرسلين * وإن كان كبرَ عليكَ إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاءَ الله لجمعهُم على الهدى فلا تكونَنّ من الجاهلين * إنما يستجيبُ الذينَ يسمعون والموتى يبعثهم اللهُ ثم إليه يُرْجَعون﴾[١٠٠] لكن المشركين ما فترت همتهم، وظلوا يطالبونه أن يأتيهم بمعجزة: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه قل إنّ اللهَ قادرٌ على أن يُنزِّلَ آيةً ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون﴾[١٠١] فينزل عليهم آية تعد من الحقائق العلمية في يومنا: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطيرُ بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثمّ إلى ربهم يحشرون﴾[١٠٢] والآية أو المعجزة الثانية أن الله سبحانه لم يفرط في القرآن بشيء، فالقرآن كتاب كامل يجيب عن كل التساؤلات الإنسانية ضمن المعلومات المسموح لهم بها في الحياة الدنيا وحسب مصادر معلوماتهم المعتمدة على الحواس من بصر وسمع وفكر وإدراك.

لكن الله سبحانه أعطاهم المعجزتين من القرآن، وكان الله يعلم أن هاتين المعجزتين لن تتبينهما الأجيال السابقة، لكن الأجيال اللاحقة التي قصدها الله بأن تتفهم هذه الآيات هي الأجيال الإسلامية التي ظهرت في القرن العشرين، والتي ستظهر في المستقبل، سوف ترى من معجزات القرآن أكثر وأكثر حتى يرث الله الأرض وما عليها.

والله تعالى أعلم بعباده من العباد، لذلك كان بين الفترة والأخرى يثبت الرسول ويدعوه للصبر والاطمئنان، ويبلغه أن المعجزات لن تغيّر من موقف الناس: ﴿وإن تُطع أكثرَ من في الأرض يضلّوكَ عن سبيلِ الله إنْ يتّبعونَ إلا الظنَّ وإنْ همْ إلاّ يخرُصونَ﴾[١٠٣].

وفي الآية يخاطب الله رسوله قائلاً: قالو لك إنهم سيؤمنون إن أتيتهم بمعجزة، فإنهم كاذبون وأنا الذي خلقتهم وأعرفهم أفضل منك، فلا تتعب نفسك بتصديق دعواهم:

---

(١٠٠) سورة الأنعام: ٣٣ - ٣٦
(١٠١) سورة الأنعام: ٣٧
(١٠٢) سورة الأنعام: ٣٨
(١٠٣) سورة الأنعام: ١١٦

﴿وأقسموا بالله جَهدَ أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنَنّ بها قل إنما الآياتُ عندَ الله وما يشعركُم أنها إذا جاءَتْ لا يؤمنون... ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يَشاءَ اللهُ ولكنَّ أكثرهُم يجهلون﴾(١٠٤).

وبعد معركة بدر الكبرى أنزل الله على المؤمنين الآية الآتية ليثبتهم أكثر: ﴿قد كان لكم آيةٌ في فئتينِ التقتا فئةٌ تقاتلُ في سبيلِ الله وأخرى كافرةٌ يرونَهم مِثلَيْهم رأيَ العين واللهُ يؤيدُ بنصره من يشاءُ إنَّ في ذلكَ لعبرةً لأولي الأبصار﴾(١٠٥).

وبين لنبيه محمد ﷺ أن أهل الكتاب لن يؤمنوا برسالته: ﴿ولئن أَتَيْتَ الذين أوتوا الكتابَ بكل آيةٍ ما تبعوا قبلَتَك﴾(١٠٦) وهكذا يتبين لنا من الآيات أن الله تعالى لم يفرط في القرآن بشيء وأنه اتبع في رسالة خاتم الأنبياء والرسُلْ أسلوباً جديداً، فشاء أن تكون معجزة هذا الدين معجزة حية متجدّدة هي القرآن يشاهده كل إنسان في الوجود، معجزة خالدة على مدى الدهر، تقوم على حقائق تؤيدها المكتشفات العلمية الحديثة. فكل ما فيه صحيح، وليس فيه من تناقض، وكل كلمة فيه لا يمكن أن يستبدل بها أي مؤلف لغوي كلمة أخرى وإلا فسد المعني. كتاب معجز لكل العصور، ولكل الأزمنة، وليس للعرب وحدهم، وإنما لكل أمم الأرض، والمعجزات الجديدة في القرآن ليست معجزات بلاغية فحسب بل حقائق علميةٌ دقيقةٌ منتهى الدقة.

ويذكر أن أحد العلماء المتخصصين في الفلك وعلوم الفضاء استمع إلى الحقائق الفلكية الواردة في القرآن الكريم كطريقة تشكل النجوم فقال: اعتدنا نحن العلماء أن نرى الفضاء أبداًمن مناظير مكبرة جداً إلى حد أننا لا نرى فيها إلا زوايا ضيقة جداً في حين أن ما ذكرتم من وصف للكون في القرآن لم نكن نعرفه إلا في يومنا هذا، ومن غيرُ الله تعالى يملك القدرة على هذه الإحاطة بالرؤية، ولكن في العصور التي دخل فيها المسلمون كهفهم ليرقدوا ألف سنة تسربت إلى ديننا شوائب كثيرة، لكن القرآن ظل نقياً شفافاً كالماسة البيضاء يحفظ حقائقه وينير لنا دربنا لنزيل عن تراثنا كل الشوائب التي علقت به، ونبدأ ثانية وعمدتنا القرآن يوجه دفة سفينتنا فلا نضل إلا إذا تركناه وتمسكنا بغيره، هذه حقيقة يجب أن نؤمن بها كلنا من جديد، وقد يَسّر الله سبحانه لنا حفظه، وهذه إحدى معجزاته التي تصونه من التحريف وتجعله دستوراً للمسلمين يقودهم إلى الأمام.

(١٠٤) سورة الأنعام: ١٠٩ - ١١١ (١٠٥) سورة آل عمران: ١٣ (١٠٦) سورة البقرة: ١٤٥

﴿ولقد يسّرنا القرآنَ للذّكر فهل من مُدَّكرٍ﴾[١٠٧].

يظن كثير من الناس أن الإسراء والمعراج هما معجزتان، والمعجزة كما يفهم من الكلمة هي ضرب من التحدي، تحدي المكابرين والضالين، ومن خصائص المعجزة تكون بادية للناس معلنة، يرونها حقيقةً لا وهماً كما هي الحال في السحر ففي قصة موسى مع سحرة فرعون بعد أن رموا نجد هؤلاء السحرة يلقون عصيهم وحبالهم فتتراءى للناس وكأنها أفاع، لأن هؤلاء السحرة سحروا عيون المشاهدين ومنهم موسى، فأوجس خيفة، فثبته الله فرمى موسى عصاه فإذا هي أفعى حقيقية، فلما رأوا عصا موسى تحوّلت إلى أفعى حقيقية ابتلعت كل ما ألقوا به على الأرض سجدوا لله، وآمنوا، هذه إذاً معجزة موجهة للناس رأوها في أبصارهم، أما الإسراء فلم يره أحد من الناس وإنما هو فعلٌ إلهي بين الله ورسوله، فهو لا يدخل ضمن المعجزات، وقد يكون المقصود منه تثبيت إيمان النبي والله أعلم، لكنّ المقصود به هو النبي حصراً، وكذلك المعراج، وأنا مؤمن بكل ما وَرَدَ في القرآن الكريم عنهما، لكن ما وَرَدَ في كتب الحديث كله مناقض للعلم والحقيقة، إذ كيف نقبل أن يكون الله سبحانه في منتهى العلم في القرآن، في حين يبدو من خلال الأحاديث التي ذكرت عن الإسراء والمعراج في منتهى الجهل في علمه للرسول، والصحيح أن تلك الأحاديث ليست إلا أوهاماً وتخيلات وظلماً للرسول وشخصه، وانتقاصاً من قيمة الدين الإسلامي كعقيدة عالمية.

الشبهة السابعة: من الذي أدخل الإسرائيليات إلى الدين الإسلامي؟:

من طبيعة الشعوب في فترات الانحطاط والتدهور من عز وقوة إلى ذل وضعف، ومن علم وغنى إلى جهل وفقر، أن تتحول أيضاًمن النشاط والعمل إلى الكسل والكلام. وهكذا يصبح الكلام وسيلة لقتل وقت من لا عمل له، فيكثر الرواة والقصاصون، وتصبح بضاعتهم رائجة، مطلوبة من الناس جميعاً، والجاهل يهمل بطبيعته أمور المنطق والعقل ليناقش ما يسمع، وتصبح الغفلة من صفاته، فيصدق كل ما يسمع، خاصة إذا قُرِىء له من كتاب تراثي يقدره لأنه يظن أنه من كتب الدين فيتوهم الصدق في الكتب كلما بدت عليها آثار الزمن. واليهود هم أهل الكتاب أصلاً، لكنهم أصيبوا خلال أيام السبي البابلي بالضعف والانحدار فتحولوا إلى تأليف كتب كثيرة اختلطت فيها أمور دينهم بالخرافات والأساطير واستطاع تراثهم أن ينفذ إلى رجال الدين الإسلامي في فترة

(١٠٧) سورة القمر: ١٧

انحدار مماثلة كان فيها علماء الدين هم الواسطة بين الله والمسلمين مع أن شرائع الإسلام لا مكان فيها لرجل دين، فكل مسلم معلم ومتعلم ومرشد لنفسه.

وقد بيّنا سابقاً أن للقرآن في سرد الحقائق التاريخية من خلال القصص القرآني أسلوباً خاصاً يقوم على إهمال التفصيلات التي لا ضرورة لها، واختصار القصة بأقل ما يمكن من الكلام للوصول إلى الغاية من سرد القصة، وهي العبرة التاريخية الدينية، هذا الأسلوب المعجز في التاريخ لم يلتفت إليه العلماء إلا منذ زمن قريب.

وفي فترة الانحدار الإسلامي تحول الناس من رغبتهم في سماع القصص القرآني المعجز والهادف فالتفتوا إلى القصص الموجود في كتب أهل الكتاب وخاصة ما يتعلق بالموضوعات المتشابهة مثل أخبار الأنبياء وقصصهم فدخلت كل قصص التوراة والتلمود المتعلقة بهذه الموضوعات التي ذكرناها إلى كتب الحديث على أنها حقائق لا تناقش ومع التقادم كان لرواة الحديث وسائلهم الخاصة لإدخال هذه القصص على لسان الرسول الكريم ليعطوها صفة القدسية، فلا يستطيع أحد أن يكذبها أو ينكرها، فهم يدؤونها بتعبير قال رسول الله ﷺ بعد أن يذكروا رجال السند وهناك إلى يومنا هذا من رجال الدين من ينكر ويدعي استحالة أن يكون هؤلاء الرواة المذكورون في السند قد كذبوا ـ أولاً. ولو كانوا واقعيين وعلميين وعقلانيين في أحكامهم لسلّموا بأن الكذب غير مستبعد عن إنسان وبخاصة إذا كان هناك مصلحة لسلطان يدفع بسخاء مقابل ذلك، وكان علي بن أبي طالب يستوثق من صحة الرواية بتحليف الراوي إلا في قصة رواها له أبو بكر الصديق فلم يطلب منه الحلف أو القسم لأسباب واضحة لا تحتاج إلى شرح، فأبو بكر الصديق منزه عن الكذب على الرسول أما أن ننفي الكذب عن الناس أجمعين لأنهم مؤمنون مسلمون فذلك أمر لا يقره المنطق. إذ لم يخلق الله الناس كاملين، والنفس أمّارة بالسوء والشيطان لم يمت، وفي كل لحظة يجرّ الإنسان للغواية والفتنة، فمن الغفلة أن نتصور أن فئة من الناس قد تحولت إلى ملائكة لا تخطىء أو تخالف أوامر الله الصريحة لكونها آمنت بل قد يدفعها إيمانها أحياناً ومشاعرها الصادقة إلى المبالغة أو التهويل. وثمة احتمال آخر أن يكذب الرواي ويتسلح بالسند لتصديقه ولو سألت أي مسلم اليوم عن سيدنا إبراهيم عليه السلام وقصته فسيروي قصته من التوراة دون أن يعرف أنه ينقل عنها لا عن القرآن، (لأن كل ما أضيف إلى قصة إبراهيم القرآنية من معلومات منها أن زوجته هي سارة، وأن هاجر مصرية كانت جارية لسارة.. كل هذه المعلومات مستمدة من التوراة ولا يعلم بصحتها إلا الله وحده

علّام الغيوب، فنحن نعلم من الله أن أهل الكتاب حرّفوا كتبهم كما يشاؤون ـ فكيف نقتبس المعلومات منها على أنها حقائق مقدسة، بحجة أننا نؤمن بالله ورسله وكتبه. نعم نؤمن بالله وبرسله التي أخبرنا عنها في القرآن وبكتبه التي أخبرنا عنها في القرآن، أما أن نؤمن بحرف واحد زائد عما ذكر لنا في القرآن فهو تجاوز لمرجعيته ومصداقيته ـ وهذه الحقيقة غابت بقصد أو من غير قصد عن ذهن المسلمين، فأغلبهم إن ذكّرتهم بهذه الحقيقة كابروا ووقعوا بما وقع به السلف من الأقوام وقالوا كما قال الذين قبلهم:

﴿قالوا أَجئتنا لتلفتنا عَما وجدنا عليه آباءَنا﴾(١٠٨).

﴿قالوا بل نتّبعُ ما وجدْنا عليه آباءَنا﴾(١٠٩).

ولتأكيد ما ذهبنا إليه تعالوا نقرأ من سفر التكوين في الإصحاح رقم ١٦ (الفقرات من ١ ـ ٦).

«وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له.. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساراي لأبرام: هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة: ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها، فقالت ساراي لأبرام: ظلمي عليك أنا دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك. فقال أبرام لساراي: هو ذا جاريتك في يدك افعلي ما يحسن في عينيك، فأذلّتها ساراي...».

يقول الدكتور عبد العظيم المطعني معلّقاً على النص(*):

«نحن نتهم التوارة بهذه المبالغة فإبراهيم (عليه السلام) كان نبياً رسولاً وصفاته في القرآن أجل من أن يطعن فيها حيث تحدثت عنه التوراة بهذه الوقائع، ومقام الأنبياء والرسل أجلّ من أن يسكتوا عن ظلم فضلاًعن أن يكونوا دعامته والمحرضين عليه».

ثم تمضي التوراة ـ بعد ـ في إتمام القصة:

«فهربت من وجهها ـ أي هربت هاجر من وجه ساراي ـ فوجدها ملاك الرب علىعين الماء في البرية.. وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟

فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب: تكثيراً أكثّر نسلك فلا يعدّ من الكثرة.

(*) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي: الدكتور عبد العظيم المطعني ـ دار الوفاء ـ القاهرة ١٩٨٧

(١٠٨) سورة يونس: ٧٨ (١٠٩) سورة لقمان: ٢١

وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابناً، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك، وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن..

فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل. كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام»(*).

يعلّق الدكتور عبد العظيم على النص فيقول:

«إذا تجاوزنا أمر ملاك الرب لهاجر بالرجوع إلى مولاتها والخضوع ـ هكذا ـ تحت يديها، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز محرّفي التوراة على إسماعيل حيث وصفوه بأنه:

(يكون إنساناً وحشياً)؟! فهذا تحريف ـ قطعاً ـ لا يحتمل أي دفاع فالتوراة أصلها باللغة العبرية وقد نص كثير من الباحثين علماً أن أصل العبارة في التوراة العبرانية هكذا (فرء آدم) والتي معناها : القوي)».

المهم. أحببت بهذا المثال فقط أن أضرب مثلاً على تحريفات التوراة وهي أكثر من أن تعد وتحصى، ثم يقولون إن الذي باركه الله من نسل إبراهيم هو إسحق وإن الذي فداه الله بكبش من الرب هو إسحق.

هناك قصة أخرى أريد أن أذكرها أيضاً من المصدر السابق.

(إن إسحق بن إبراهيم أخي إسماعيل ـ عليهم السلام ـ ولد ولدين في بطن واحدة، من زوجه رفقة بنت بنوئيل، وسمى إسحق أول الولدين نزولاً من البطن: عيسو (وهذا مهم عند اليهود في تقاليدهم القديمة سوف أشرحه بعد قليل) وسمى الثاني يعقوب. فأحب إسحق عيسو وأحبت رفقة يعقوب.

وحين شاخ إسحق وكبر قال لابنه عيسو: إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي. فالآن خذ عدّتك وجعبتك وقوسك، واخرج إلى البريَّة وتصيد لي صيداً، واصنع لي أطعمةً كما أحب، وأْتِني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت، وكانت رفقة سامعة لما قاله زوجها إسحق لابنه الأكبر عيسو الذي كان إسحق يحبه، فأرادت أن تكون البركة ليعقوب الذي تحبه هي.. فأعلمت يعقوب بالخبر، وأمرته أن يذهب إلى الغنم، ويأتيها بجديين جيدين من ولد المعزى... فصنعت منهما أطعمة لإسحق كما

(*) المصدر نفسه: (٧ ـ ١٦) بإيجاز

يحب، وهو لا يعلم، وأعطت الأطعمة إلى يعقوب ليقدمها إلى أبيه على أنه عيسو، ولما كان عيسو أشعر، خشن الملمس، ويعقوب أملس، وخشي يعقوب أن ينفضح أمره عند أبيه فتحلّ عليه اللعنة بدل البركة فإن أمه رفقة ألبسته جلد المعزى لتوهم إسحق بأن الذي يقدم الطعام له هو عيسو الأشعر الخشن الجلد..

فتقدم يعقوب من أبيه، وكان إسحق قد كفّ بصره، وقدّم له الطعام قائلاً له: ها أنذا ابنك الأكبر عيسو أقدم لك الطعام الذي طلبته. قم وكل وباركني. وحين تحسس إسحق يدي يعقوب قال: الصوتُ صوتُ يعقوب واليدان يدا عيسو؟! ثم باركه.. ثم قدّم له يعقوب خمراً فشرب، ثم قال إسحق وهو يكلّل يعقوب بالنبوة ظناً منه أنه عيسو محبوبه: فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكنزه حنطة وخمراً، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين)(*).

وإليكم تعليق الدكتور عبد العظيم على النص.

(بهذا الخداع والدجل والغش صار يعقوب نبياً. وبهذا التضليل والحيلة والمكر اغتصب يعقوب بمعونة أمه النبوة من عيسو محبوب أبيه، فيعقوب محبوب أمه قد هزم عيسو محبوب الأب. إن يعقوب على حسب التوراة المقدسة نبي مزوّر، حاشى لله ولكن هكذا تقول التوراة. ومع هذا التزوير في أخطر الوثائق الرسمية أو قل: الربّانية، يصبح يعقوب التوراة أباً لجميع أسباط إسرائيل وأنبيائهم - يا للهول..؟).

وتمضي التوراة المقدسة المصونة بيد من أنزلهاكما يدعي محرّفو نصّها، تمضي فتقص علينا ماذا فعل عيسو حين علم بخيانة أخيه (المحترم الأمين) بمعونة أمهما وإليك نص التوراة المقدس:

«فصنع هو أيضاً - يعني عيسو - أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه: ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك فقال له إسحق أبوه: من أنت؟ فقال أنا ابنك (الضرير يميز الأصوات فلا يحتاج أن يسأل) بكرك عيسو، فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً. فقال: فمن الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته، نعم ويكون مباركاً، فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرّة جداً؟ وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي فقال:

(*) سفر التكوين: الإصحاح ٢٧ الفقرتان ٢٨ ـ ٢٩

قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك..؟!!».

(اعتقد كثير من واضعي الأحاديث أن هذا الأسلوب هو أسلوب إلهي في المعاملات فألّفوا فيها أحاديث مثل: سبقكم إليها الغلام الدوسي، وسوف نتعرض لها في نهاية هذا الموضوع).

ثم قال ـ أي عيسو ـ أما بقيت لي بركة؟ فأجاب إسحق وقال لعيسو: إني قد جعلته سيداًلك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً، وعضدته بحنطة وخمر فماذا أصنع إليك يا بني؟!.

فقال عيسو لأبيه: ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضاً. ورفع عيسو صوته وبكى..؟

فأجاب إسحق أبوه وقال له: «هوذا: بلا دسم الأرض يكون مسكنك؟! وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش، ولأخيك تُستعبد».

هذه هي خلاصة القصة التي انتهت إلى أن إسحق بارك الذي غش وخدع ولعن الذي صدق ووفى، ثم نحن المسلمين نعتقد من غفلتنا أن هذه التوراة هي المنزلة من الله، وننهل منها نهل الظمآن في الصحراء للماء.

ولا أريد التعليق بأكثر من مقارنة نصوص القرآن بنصوص التوراة فأول ما يطالعنا تفاوت النصين تفاوتاً لا يمكن أن نقتنع معه أنهما صادران عن مصدر رباني واحد من صفاته الأحدية لا التعددية بحيث يصدر عنه تعالى أسلوبان في الوحي متناقضان؟؟؟ والحق أنّ تحريفاً دخل على كتب أهل الكتاب لدوافع بشرية. فأين عظمة الله وعدله ليوقع رسوله إسحاق في الخطأ في قصة التوراة فيبدو عاجزاً عن تصويبه؟ وأين منطق الحق والرحمة الذي تعودنا عليه في نصوص القرآن؟.

وفي النص التوراتي إشارة إلى تقاليد بني إسرائيل بالنسبة للابن الأول: حسب الأعراف اليهودية القديمة فالابن الأكبر في العائلة يرث كل شيء عندما يموت أبوه، ويكون له الأمر والنهي والأموال والحقوق حتى النساء، كل شيء يؤول إليه بالإرث، وتصبح أفراد الأسرة عبيداً له يتصرف بهم بما يشاء.

ويبدو أثر هذه القصة التوراتية واضحاً (عن الغلام الدوسي) في حديث لأبي هريرة: ورد فيه: جاء رجل إلى زيد بن ثابت فسأله عن شيء، فقال له زيد عليك أبا هريرة، فإني بينما أنا (والكلام لزيد بن ثابت) وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى

ونذكره إذ خرج علينا النبي ﷺ حتى جلس إلينا، فسكتنا فقال: «عودوا إلى الذي كنتم فيه» قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة، وجعل رسول الله ﷺ يؤمّن (أي يقول آمين) - على دعائنا ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إني أسألك ما سألك صاحباي وأسألك علماً لا ينسى، فقال ﷺ: آمين فقلنا: يا رسول الله ونحن نسأل الله علماً لا ينسى. فقال: سبقكم بها الغلام الدوسي). وأبو هريرة من قبيلة دوس.

يفهم من الحديث أن القرار الإلهي صدر، ولا يمكن مراجعة الله، فقد حكم لأبي هريرة بما سأل، ولا مجال بعد لمنح السائلين علماً لأنهما تأخرا في طلبهما عن أبي هريرة، وهذا الأسلوب ليس أسلوباً قرآنياً ولا هو بالأسلوب الإسلامي الذي يمكن أن ينسب إلى نبي الإسلام محمد ﷺ والتشابه واضح بين أسلوب هذا الحديث وأسلوب النص التوراتي الذي قرآناه قبل قليل.

وأكتفي إلى هذا الحد من الأمثلة من نصوص الكتب القديمة لأهل الكتب لأن غايتي هي معرفة الحقيقة الحاصلة وليس نقد النصوص التوراتية ودراستها.

وأنتقل إلى موضوع الإسراء والمعراج لأبين ما زيد عليه مما أخذ من مصادر يهودية تجاوز كل ما ورد في الإسرائيليات المقتبسة من قبل رواة الحديث إلى إضافات أخرى من هؤلاء الرواة أو من مصادر أخرى غير الإسرائيليات.

الشبهة الثامنة: شبهة الإسراء والمعراج:

مر بنا أن رواة الأحاديث كانوا يتَفَنَّنون في التماس مصادر للخيال لاختلاق قصص وأوهام يسلون بها الناس العاطلين عن العمل والقابعين في الكهف الإسلامي أو يضلونهم لمصلحة السلطة وعلى حساب الدين.

وحين نَفَدَ ما في جعبة الرواة من قصص بني إسرائيل التوراتية أو التلمود التي استنسخت بالجملة وأدخلت للدين الإسلامي، وجد الرواة في الإسراء والمعراج باباً مفتوحاً دون قيد أو شرط للخيال والتلفيق، وإذا كانت الإسرائيليات بنصوصها في الكتب الإسرائيلية تقيّد راوي الحديث عند نقلها فإنه في موضوع الإسراء والمعراج يملك مطلق الحرية في تصور ما يشاء أو يختار ثم يخترع بسهولة سنداً لحديثه فيذكر أسماء معينة للسند جرت العادة في استخدامها للإسناد إلى أبي هريرة، أو ابن مسعود، أو ابن عباس، وهكذا تلصق باسم الرسول كذباً وظلماً وعدواناً وافتراءً، ودليلنا في كشف هذه الأحاديث المزورة هو العقل والمنطق لا الهوى وسندنا هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل وهو

ميزاننا في الحكم فكل ما يخالف ذلك الميزان كذب وافتراء، وليس في العلم مسايرة أو مصالحة وليس فيه لون رمادي أو بين بين، أو أنّ للمسألة وجهين أو روايتين أو رأيين.

ولعلّ الاستشهاد ببعض الأحاديث وهي غيض من فيض يوضح لنا ما تفتق عنه خيال بعض من كتب تلك الأحاديث وقلة أمانتهم. من ذلك الحديث الذي يروى عن مساومة حصلت بين الرسول محمد ﷺ والله سبحانه فيما يتعلق بأهم ركن من أركان الإسلام هو ركن العبادات، وقد بينا كيف فوض الله الرسول في تحديد عدد الركعات في كل صلاة. أما راوي الحديث فيصور ما جرى وكأنه مساومة بين تاجرين من اليهود اختلفا على ثمن جارية في سوق النخاسة، ولا نَنْسَ أن الرواي قد اختار أن يكون الوسيط في هذه المساومة موسى عليه السلام، ومن قراءة نص الحديث نستنتج أن المساومة الحقيقية كانت بين الله سبحانه من طرف وموسى من طرف آخر، وبينهما محمد ﷺ صاحب الشأن كله يترك له الراوي دوراً ثانوياً ويصوّره عاجزاً لا حول له ولا قوة، ينقل كلام الله تعالى إلى موسى، وموسى يرد ما لا يعجبه إلى الله سبحانه، وهكذا نستنتج في نهاية هذه المفاوضة العجيبة أنه بفضل موسى وحده وبفضل ذكائه وقدرته على التفاوض ومعرفته بأسلوب مقاوضة الله ربما لكونه من اليهود، تمكن من التوصل إلى شروط لاتفاقية ترضي المسلمين ويفرح بها رسولهم محمد ﷺ البدوي الطيب الساذج ﴿انظر كيفَ يفترونَ على الله الكذبَ وكفى به إثماً مبيناً﴾(١١٠) وكأن الله تعالى لم يخلق موسى عليه السلام ومحمد ﷺ، وليس بينه وبينهم حاجز لمعرفة ما يسرّون وما يعلنون! وهكذا يفرض واضع هذه الرواية حديثه على أمة المسلمين ظلماً وكأنها حقيقةٌ مسلمٌ بها، لا يمكن الحوار حولها ولو فحص قارىء الحديث بعين ناقدة، دون أن يكون ممن استهوتهم الأحاديث فسلموا بها دون نقاش، لاكتشف أن أسلوب رواية الحديث ليس بالأسلوب الإلهي المعروف عند المسلمين في القرآن الكريم، ففي أسلوب روايته لون من الهزء والسخرية، وهما ليسا من أساليب الله تعالى في التعبير الإلهي في القرآن، بالإضافة إلى بعد ما ورد في نصه عن صفات الرسول الكريم المعروف لدى المسلمين بقوة الشخصية والعزم والرأي والشجاعة والشرف والكرم والمروءة والأمانة وحسن الخلق والصدق، وهي حقائق مجمع عليها من المسلمين وليست مدائح شاعر يتمسّح بالممدوح لينال ما يحلم به من أعطيات، ولسوف أعتمد على رواية للبخاري من صحيحه حتى لا يتقول علينا أحد بأننا نختار من الأحاديث

---

(١١٠) سورة النساء: ٥٠

الضعيفة أو الغريبة. فرّق الإمام البخاري بين الإسراء والمعراج فجعل لكل منهما باباً في صحيحه، وورد في باب المعراج الحديث الآتي:

حدّثنا هدبة بن خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك: أن النبي حدثهم عن ليلة أسري به قال: (لاحظ أن الحديث مسنود لأنس حتى لا يشك فيه مسلم) بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت، فقال وسمعته يقول: «فشقّ ما بين هذه إلى هذه» فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ فقال من نقرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: «من قصته (عظم القص) إلى شعرته» فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبي ثم حشى ثم أعيد (وكأن الرسول ﷺ يظن ويتوهم أن الإيمان مادة يمكن وضعها في إناء أو يمكن أن تُحشى به القلوب) ثم أتيت بدابةٍ دون البغل وفوق الحمار أبيض (وهذا المخلوق ليس له ذكر في الدين الإسلامي بل موجود ومصور عند أهل الكتاب وله قرن وحيد في جبهته) فقال الجارود: وهو البراق (البراق لا زال في غيب الله لم يصفه لنا الله سبحانه في القرآن) يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم: يضع خطوة عند أقصى طرفه، فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى إلى السماء الدنيا، فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلّمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: قد أرسل إليه؟ قال: نعم:. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهما فردّا ثم قالا مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبرائيل قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم:. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال هذا يوسف فسلّم عليه فسلمت عليه فردّ. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم:. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت إذا إدريس قال هذا إدريس فسلّم عليه فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال:

محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم:. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت إذا موسى قال هذا موسى فسلّم عليه فسلّمت عليه فردَّثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزت بكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر من يدخلها من أمتي (وهذه صفة حسد لا يعقل أن تكون في رسول الله موسى عليه السلام يتبرع بها الراوي من عند نفسه ظلماً جديداً!) ثم صعد بي إلى السماء السابعة (لاحظ أن الراوي نسي وقفز عن السماء السادسة) فاستفتح جبرائيل قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم:. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت إذا إبراهيم قال هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردَّ ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم رفعت إلى سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران، ونهران باطنان فقلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من عسل، فأخذت اللبن قال هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك (لاحظ أنه خيّر بين الخمر والعسل فاختار اللبن بينما المنطق يقول أن المخير بين شيئين يختار أحدهما لا شيئاً ثالثاً لا وجود له بين الخيارات) «المؤلف».

ثم فرض علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم (لاحظ أن الرسول ﷺ قيل له خمسون فقدّم التحية واستدار راجعاً دون أن يتكلم حتى يسأله موسى عليه السلام ويحدّثه عن ذلك) قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم. وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك (لاحظ مرة أخرى أن الله سبحانه الذي يقول في القرآن في مواقف عديدة لا يكلف الله نفساً إلا وسعها هو نفسه الإله الذي يفرض على الإنسان نفسه خمسين صلاة في اليوم. هذا هو منطق الراوي الذي يستهزىء بنا مسلمين وبديننا إسلاماً وهو ظلم منه لنا لكننا ظلمنا أنفسنا إذ قبلنا وصدقناه واعترفنا بما لفّق لنا من أكاذيب على الله سبحانه وعلى الرسل كلهم عامة وعلى رسول الإسلام خاصة) فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى

موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت بخمس صلوات كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك قال: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلّم، قال: فلما جاوزت ناداني مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي».

هكذا روى البخاري هذا الحديث وله روايات أخرى أوردها مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي، وكل رواية تختلف عن الأخرى ولكن كلها تُجمع أن إبراهيم عليه السلام في السابعة وموسى يكون تارة في السماء الخامسة وتارة في السماء السادسة، ولكن، لماذا اختار الذي وضع الحديث أن يكون الوسيط هو موسى عليه السلام دون إبراهيم عليه السلام علماًأن المنطق السليم يفرض أن يقوم بهذا الدور إبراهيم فهو أبو إسماعيل، وجد الرسول عن طريق إسماعيل، وهو كذلك خليل الرحمن، فلماذا لم يكن هو الوسيط في هذه المفاوضة العجيبة؟.

وأما عن الآية القرآنية التي تتحدث عن المعراج وهي:

﴿وما جعلْنا الرؤيا التي أريْناكَ إلا فتنةً للناس﴾(١١١).

فالناس مختلفون فيها ولا سيما رواة الحديث وعلماؤهم فمنهم قسم يذكر أن الإسراء والمعراج تمّا ببدن الرسول وروحه معاً، وفي رواية عن شريك، عن أنس، يقول فيها الرسول ﷺ: «ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر».

وقد حكى ابن إسحق فقال: بعض آل أبي بكر عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه.

وقال: حدثني يعقوب بن عتبة: أن معاوية كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

قال ابن إسحق: فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن إن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناس﴾(١١٢) قال ابن إسحق: فالله أعلم أيّ ذلك كان.

وهو يريد بالله أعلم أن كل ما أورده لا يتجاوز مرحلة الظن في كل شيء والله تعالى ما يفتأ يذكرنا فيقول: ﴿وما يتبعُ أكثرُهم إلا ظناً إنَّ الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً﴾(١١٣)

---

(١١١) سورة الإسراء: ٦٠ (١١٢) سورة الإسراء: ٦٠ (١١٣) سورة يونس: ٣٦

تلك هي الحقيقة الناصعة التي يجب علينا نحن المسلمين التمسك بها بعد أن نطرح كل ظنوننا وأوهامنا، لأننا خلقنا من تلك الظنون والأوهام علوماً، وكأن للظنون والأوهام علوماً يمكن أن يركن إليها. فتعبت في سبيلها النفوس، وتقطعت لتحصيلها الأنفاس، وماذا حصّلنا في نهاية المطاف؟ سراب لا ينفع لشيء بل يحصل به الضرر ولا نزال نتضرر به إلى اليوم.

ثم اختلف من يدعون العلم، ويسمون أنفسهم علماء فقالوا: إن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة. وفريق منهم قال بل كلّ حَدَثَ في ليلة مستقلّة.

وفريق آخر زعم أن الإسراء حصل في اليقظة، مرةً وببدن الرسول، وفريق زعم أن المعراج حصل في المنام بروحه، وذهبت طائفة إلى أن الإسراء حصل مرتين مرة بروحة مناماً ومرة ببدنه وروحه يقظة.

ومنهم من يقول: بل كانت أربع إسراءات، وقد حاول الشيخ شهاب الدين أبو شامة رحمه الله أن يوفّق بين الآراء ويلتمس حلاً وسطاً في روايات حديث الإسراء والمعراج بالجمع المتعدد فجعل ثلاث إسراءات. مرةً: من مكة إلى بيت المقدس فقط على البراق ومرةً من مكة إلى السماء على البراق أيضاً لحديث حذيفة ومرةً من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السموات: صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ولو كان من عندِ غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(١١٤).

وتبيّن لنا من رواية أنس السابقة أن الرواي لم يطلق العنان لخياله، بل كان يكرر كلماته في كل فقرة، وكأنه آلة ناسخة، وفاته أن أسلوب الكلام في نص الحديث ليس بأسلوب الرسول محمد ﷺ في الكلام والحديث ولاهو بأسلوب الله في القرآن الكريم.

وإليكم حديثاً آخر اختصرته لأنه طويل جداً واكتفيت منه بذكر بعض الأوصاف التي وردت فيه جاء مثلاً في وصف جبريل:

ورأى هناك جبريل عليه السلام له ستماية جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض(*).

في حين أن ما ورد في الحديث نفسه يشير إلى أن الرسول وجبريل كانا معاً وهما

(*) اعتمدت في هذه الفقرة على مصادر أبرزها كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير الدمشقي ـ طبعة دار الريان للتراث ١٩٨٨ ـ المجلد٢ ج٣ ص١١٢ ـ ١١٥

(١١٤) سورة النساء: ٨٢

يطرقان باب كل سماء على حدة، فحجم جبريل بأجنحته هذه تساوي ارتفاع ستماية سماء، لأن المسافة ما بين كل جناح وآخر هو المسافة ما بين كل سمائين!.

فكيف يحشر جبريل نفسه ضمن سماءين مع أن حجمه الخيالي هذا لايحوجه إلى الطيران أو الحركة من مكانه، فباستطاعته أن يقود محمداً ﷺ بيده ويرفعه إلى كل السماوات دفعة واحدة!.

يا له من خيال أين منه خيال الأطفال!.

واختلف العلماء مرة أخرى فيما إذا كان الرسول ﷺ قد رأى ربه رؤية العين حين قابله في سدرة المنتهى، فزعم فريق منهم أن الرسول رأى ربه رؤية نورانية وذهب فريق آخر إلى أنه رآه رؤية مباشرة بالعين الفانية؟.

والغريب أن يختلف من يدعون العلم، ولو كان لديهم علم حقيقي بآيات القرآن الكريم لما اختلفوا في مسألة يحسمها لهم القرآن الكريم، وهي تعد من البدهيات التي لا تقبل المناقشة فقد ورد فيها نصوص قرآنية صريحة:

﴿وما كان لبشر أن يكلّمه اللهَ إلا وحياً أو من وراءِ حجاب﴾(١١٥).

﴿قال ربّ أرني أنظرْ إليكِ قالَ لن ترَاني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانَكَ تبتُ إليكَ وأنا أولُ المؤمنين﴾(١١٦).

لقد قرأت شخصيا هذه القصص مرات عديدة في الحديث وقرأت أيضاً الآيات القرآنية وأحب أن أقول: لو أن القرآن الكريم ذكر قصة منها لآمنت بها كما وردت في القرآن، لأني لا أشك بقدرة الله، ولا بكتابه، لا سمح الله، ولكن في الروايات المتضاربة في الأحاديث وتشعب كل رواية ومناقضتها للروايات الأخرى جعلها في موقع الظن، فليس فيها خبر يقيني واحد، بالإضافة إلى أنها تناقض المنطق والعقل السليم وآيات القرآن الكريم والحقائق العلمية التي وردت فيه، مثلما تناقض أسلوبه الإلهي، ولا أريد أن أضيف رأياً إلى جملة الآراء التي بلبلت المسلمين، وأفضّلُ حسماً لكل الخلافات وتنزيهاً لنفسي وللمسلمين من الحيرة والشك أن ألتزم ويلتزم المسلمون حديث الرسول ﷺ: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه».

---

(١١٥) سورة الشورى: ٥١ (١١٦) سورة الأعراف: ١٤٣

وأعتقد أن قراءتنا أحاديثه المروية بعد هذا الأمر الصريح صارت حراماً علينا لأننا إن فعلنا فإننا نعصي بها آيات الله في القرآن الكريم التي تقول: ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ والواردة في مواضع عديدة في القرآن الكريم، فكتابة أحاديثه وروايتها والاستشهاد بها دخلت في باب معصية أوامر الرسول الكريم الصريحة للمسلمين والمؤمنين تحت حجج واهية لا أساس لها من الصحة، وكلها لمصلحة الطواغيت لا لمصلحة المسلمين وكُتُبٌ جلّها لمصالح دنيوية يكتشفها المسلم الواعي بتمعن نصوصها، فمن مصلحة المسلمين الاعتماد على آيات القرآن فقط.

ليس المهم أن يكون الرسول أسري بجسده أو كان بروحه فقط ولا يهم كثيراً أن يكون ﷺ صعد إلى السماء أو لم يصعد، وإنما المهم ألا نختلف في الميزان الذي يوضح لنا الحق من الباطل وميزاننا هو القرآن وحده. فما ورد فيه هو الصواب الذي لا اختلاف فيه وهو الصحيح الوحيد، وما لم يرد فيه فلنطرحه جانباً وبهذا نوحد صفوفنا ونقطع الطريق على من يسعى للتفرقة بيننا، وعلى سبيل المثال أذكر أن الله سبحانه يقول في القرآن الكريم جواباً لسؤال الناس للرسول عن الخمر: ﴿يسئلونكَ عن الخمرِ والميسرِ قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس﴾[117] ومع أن الله سبحانه وتعالى يقر بأن فيها بعض المنافع للناس إلا أن قراره النهائي بشأنها في حياة المسلم نجده في قوله تعالى: ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[118].

وقد نجد في الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ بعض الأحاديث الصحيحة النافعة، لكن أغلبها تدخل في باب إشراك المسلمين بالله بإضافة كتاب آخر لكتاب الله، فعلى المسلمين أن يكونوا من الشجاعة وسعة الفكر والعقل ليتخذوا قراراً جريئاً، كما اتخذ أبو بكر الصديق قراره بعد أن سمع أمر الرسول الواجب بالإطاعة، إذ طلب من ابنته عائشة الأحاديث المجموعة وكانت خمسماية حديث فأحرقها جميعاً، فهل نستطيع أن ندعي نحن المسلمين اليوم أننا نحب الرسول ﷺ أكثر مما كان أبو بكر الصديق يحب الرسول؟ هل نستطيع أن ندعي أن أحاديث الرسول ﷺ أغلى على قلوبنا منها إلى قلب الصدّيق؟ لا أظن أن بيننا من يدعي ذلك صادقاً.

وقد حللنا قصص الإسراء وبينا أنها تناقض الأسلوب الإلهي الذي تعودنا عليه في

---

(١١٧) سورة البقرة: ٢١٩ (١١٨) سورة المائدة: ٩٠

الوحي الرحماني في القرآن، مثلما تناقض ما فيها من معلومات، الحقائق العلمية المكتشفة اليوم من تصور البراق، والصعود به إلى السموات وإلى وصف جبريل وعرش الرحمن والكرسي، والوعول الذهبية التي تحمل ذلك العرش، وتخيل أن الله جالس على ذلك الكرسي، يخف وزنه إذا فرح ويثقل وزنه على حملة العرش إذا غضب، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حديث مرفوع للرسول ﷺ(*): «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه وإن مقدار كل يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار أو اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطلع منها على بعض ما يكره، فيغضبه ذلك، فأول مَن يعلم بغضبه الذين يحملون العرش، يجدونه يثقل عليهم، فيسبّحه الذين يحملون العرش وسرادقات العرش والملائكة المقرّبون وسائر الملائكة المقربين وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلا الثقلين الجن والإنس، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمة (هل كان الرحمن قبلها خالياً من الرحمة؟) فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فيصورّكم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم فتلك تسع ساعات ثم ينظر في أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم ثم قرأ: ﴿كلَّ يومٍ هُو في شَأن﴾(119) ثم قال عبد الله بن مسعود:

هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدارمي) انتهى الحديث.

ولو سألت الرواي من أين لك هذا العلم بغيب الله لقال لك إنه من الرسول ﷺ الذي أصبح بعد الإسراء حبيب الله وشريكه في غيبه وفي أسراره سبحانه، وأذن له بكل شيء فهو يفعل ما يشاء ويأتي بالمعجزات التي يرغب فيها، لا بل إن الأشجار تطيعه وتأتي إليه وتكلمه، بل تبكي وتشكي بين يديه، كما أذن له الله سبحانه وتعالى بأن يكون شفيعه الوحيد يوم القيامة.

وعن أبي هريرة قال: وضعت بين يدي رسول الله ﷺ قصعةٌ من ثريد ولحم فتناول الذراع، وكان أحبّ الشاة إليه، فنهش نهشة وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، ثم نهش أخرى وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، فلما رأى أصحابه لا يسألونه قال: ألا تقولون

(*) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ابن قيم الجوزية ـ دار الهدى ١٩٩٤ ـ ص٤٢١

(١١٩) سورة الرحمن: ٥٥ ـ ٢٩

كيف؟ قالوا كيف يا رسول الله؟ قال يقوم الناس لرب العالمين فيسمعهم الداعي وينقذهم البصر فذكر حديث الشفاعة بطوله وقال في آخره فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي فيقيمني رب العالمين مقاماً لن يقيمه أحداً من قبلي ولن يقيمه أحداً بعدي فأقول يا رب أمتي، فيقول: يا محمّد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر)(*).

وإذا سألت الرواي كيف علمتّ وعلم رسول الله ﷺ بهذا الغيب الذي هو من غيب الله؟ قال: لقد علمها الرسول بعد الإسراء.

وهكذا صار الإسراء والمعراج باباً للتقول على الرسول بما نشاء دون أي حاجز أو خوف أو تردد، وفي اعتقاد سذج المسلمين أن الحديث وحي من الله مثل القرآن تماماً.

ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً؟.

وهل يمكن أن يكون إلا الله سبحانه وتعالى؟

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب: عن النبي ﷺ قال: ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداًعبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية.

وهذا الحديث الذي نجد من أمثاله في كتب الصحاح بكثرة يناقض ما ورد في القرآن الكريم، لماذا؟.

أولاً: لأن القرآن وآياته كلها لا تعدّالعبادات من الأعمال.

ثانياً: إن العمل الذي يحث عليه الله سبحانه كما بينا سابقاًهو العمل النافع الذي يمتهنه الإنسان خدمة للناس والمجتمع، والله سبحانه يعدّ هذا العمل تصديقاً للعبادات فإذا لم يقترن الإيمان بالعمل فإن الله سبحانه لا ينظر في كل العبادات ولا يعدها سبباً لدخول أي إنسان للجنة، وآيات القرآن تشهد على صدق هذه الكلام، وكل الأحاديث التي رويت في عصر الكهف الإسلامي، وهو عصر تراخ وكسل وقعود عن السعي، لا يقيم للعمل وزناً مع أن العمل هو الأساس في استخلاف آدم في الأرض لإعمارها، وهو أساس الاختبار، فالمسلمون نسوا ذلك

(*) حادي الأرواح: ابن قيم الجوزية ص٨٩

الموضوع الهام أو تناسوه بعد أن تركوا القرآن وأصبحوا يعتمدون في ثقافتهم الدينية على مثل هذه الأحاديث التي وهموا أنها وحي آخر من الله لها قيمة القرآن ذاته بل وقد تفوقها عندهم لأن علماءهم نالوا ألقابهم العلمية وأصبح يشار إليهم بالبنان بتوجيه أنظار المسلمين إلي ميدان فيه نفعهم ومصلحتهم وإظهار ثقافتهم الدينية التي كانت جهلاً وتجهيلاً، بمثل تلك العلوم.

وهذا حديث آخر من صحيح مسلم يقول عن الرسول ﷺ : «اتقوا الدنيا واتقوا النساء».

وفي مسند محمد بن إسحق السرّاج، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمر» فنحن نعلم أن نصف أمة المسلمين من النساء والنصف الآخر من الرجال، فالحديث يتهم نصف أمة المسلمين ويعكس واقع المرأة في عصور الانحدار وموقف الرجل منها. وكأن الله سبحانه وتعالى والرسول ﷺ يعدان النساء سلعة أو متاعاً كالخمرة وأن المرأة وجدت للمتعة والتسلية. وهذه النظرة التي ألصقت بالدين الإسلامي ليست صحيحة أبداً ففي القرآن الكريم لا يفرّق رب العالمين بين النساء والرجال إلا بأن يجعل للرجال على النساء درجة، وتفضيل الرجال على النساء في الإرث كانت له أسباب وجيهة من ناحية كون الرجل هو المسؤول المالي عن الأسرة دون المرأة، سوف أشرح هذا الموضوع بالتفصيل في بحث المرأة وحقوقها في الإسلام في كتابي الثاني (دين السلطان).

أما أن تحوّل المرأة إلى سلعة للمتعة، ومخلوق يحذَّرُ منه في حديث صحيح عن الرسول فهو أمر يناقض القرآن جملة وتفصيلاً. ونحن نتكلم عن صحيح البخاري وصحيح مسلم. فإذا كان الصحيح يضمّ مثل هذا الحديث الذي يعارض القرآن فلم يبق أمامنا إلا أن نشك بكل شيء ولا نعترف إلا بكلام الله الذي قال فيه تعالى في كتابه: ﴿الله نزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً﴾(١٢٠).

صدق الله العظيم.

---

(١٢٠) سورة الزمر: ٢٣

١٥ ـ كيف حوّلنا من منهج الرحمن إلى منهج الشيطان؟

في كل العهود الإسلامية ظهر نوع من القادة الذين اتسمت قيادتهم بنزعة فردية استبدادية يصح وصفها بالطغيان أو الطاغوت ورمزت إليها في كتبي بالسلطان.

وهذا النوع من القيادة يسعى لتبديل مناهج الحكم بما أمر الله الذي انتهجه الخلفاء الراشدون، إلى حكم يستند إلى هوى النفس الأمارة بالسوء، حكم الطاغية الذي يفعل ما بدا له، بلا قيودٍ تحدّ من نزواته وشهواته وتسلطه وظلمه، وهو الشرك عينه، لأن الحاكم المطلق ينصب نفسه إلهاً بدل الله، ويفرض قوانينه بدلاً من قانون الله وشرعه. مع أن الحاكم الدنيوي يجب أن يستمد أحكامه من كتاب الله ونوره، وهؤلاء الحكام بشكل عام يعلمون دور رجال الدين ومدى تأثيرهم في توجيه الشعب بسبب سلطان الدين الذي صادروا مكانته في النفوس واستغلوه لمصالحهم، فكل حاكم دنيوي لا بد له من الاستعانة برجال دين يساعدونه على فعل ما يشاء لبلوغ ما يسعى إليه، خيراً كان أم شراً. فإذا كان الحاكم من الحكام الذين يريدون أن يحكموا بأهوائهم لا بحكم الله وشريعته بحث عمن يؤيده في مواقفه ومصالحه، فاكتشفه بالخبرة والتجربة والإغراء حتى يصبح لعبة بيده يصدر له الفتاوى الشرعية التي تسوغ ظلمه وانحرافه، إن ارتباط طبقة رجال الدين بالسلطة أمر معروف منذ أيام الفراعنة وغيرهم من الشعوب القديمة فقد كان حكامها يستخدمون رجال الدين لمثل هذه الغايات، ورجال الدين ليسوا من الملائكة فهم بشر مثلنا، فجببهم وقفطاناتهم لا تحميهم من الشيطان وإغوائه، لذا يجب أن نتوقع أن يكون منهم الصالح المصلح الذي يخشى الله، ولا يحيد عن منهجه في السعي لآخرته أكثر مما يسعى لدنياه، وليس هذا بغريب لأنه أعلم بشرع الله وبحرامه وحلاله وحدوده وصراطه. وفيهم الطالح المفسد الذي باع نفسه للشيطان فهو من الذين يعرفون ويحرفون، وأغلبهم يؤمن بالله وباليوم الآخر وبكل ما ورد في الإسلام، لكنه لضعف فيه وقع في مكيدة الشيطان الذي سهل له طريق الخطأ والذي أغراه بأن يعيش في هذه الدنيا على هواه، وقبل أن يغادرها يتوب لله توبة نصوحاً، زاعماً أن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وتلك أمنية إبليس في الجنة. وبيننا الآن للأسف الشديد، وفي كل وقت، فئة من رجال الدين من هذا النوع وهؤلاء من أخطر الناس على الأمة، لأنهم قبل كل شيء يعرفون ويحرفون،

والحاكم الطاغية لا يبحث إلا عن هؤلاء، أما الآخرون فلا نصيب لهم من الحظوة لدى السلطان، لأنهم لا يسايرونه إن انحرف ولا يبيعون دينهم بدنياهم كالآخرين الذين يحظون بنعمه ويشربون من كأسه.

ويجهد صاحب السلطة في تمكين أعوانه من رجال الدين فيفرقهم في مختلف المناصب كالقضاء والإفتاء والمؤسسات الدينية والمساجد يخطبون باسمه، ويدعون له من على المنابر، ويصبحون من جنود السلطان بدلاً من أن يكونوا جنوداً للرحمن. فأكبر خشية لهم هي خشية السلطان وأعظم رضىً يرجونه هو رضى السلطان، أما خشية الله ورضاه فلديهم فسحة من الأمل، ومن الوقت، يرجؤون توبتهم لله إلى قبيل وفاتهم، إنهم في نظر نفوسهم أذكى خلق الله لأنهم يكسبونها دنيا وآخرة. وبسبب هؤلاء وسادتهم تنقلب الموازين، وتزداد المظالم، ويزداد الناس فقراً وجهالة. ويضيع نور الحق ويختفي أثره، ويقوى الشيطان وجنوده، وتضيع القيم الإنسانية المحمودة، وترتفع شعارات الشيطان وتعمّ، وينسى كتاب الله فلا يمس بل يبني عليه العنكبوت بيوتاً، ويعم الزنا والقتل والسرقات وشرب الخمر والقمار، فتصبح الكبائر صغائراً، ويعم الفساد بدل الإصلاح، وينتصر الظالم القوي على المظلوم الضعيف في القضاء وفي كل مجال. ويلقّب بعد قلب الموازين الظالمُ بالعادل، والطالحُ بالصالح، والمفسدُ بالمصلح، وتتحول دورُ القضاء إلى دور للمظالم وأكل حقوق الناس والحاكم يسوق المعارضين لساحات الإعدام. كما كان يفعل قياصرة الروم عندما يطلقون الوحوش الكاسرة الجائعة على بعض المساجين الذين يريد قيصر التخلص منهم، فيهلل الشعب المتفرّج على ساحة الملعب أمام النظارة للوحوش وهي تنتصر على فريستها وتلتهمه في لحظات.

وإذا لجأ بعض الناس ممن بقيت فيهم ذرة من ضمير وبعض القوة لقول الحق والاحتجاج إلى رجال الدين من جنود السلطان أجابوهم: اتقو الله هذه مشيئة الله، وتلك إرادته، فهل تعترضون على قضاء الله وقدره؟ استغفروا الله وتوبوا إليه، إن الله يفعل ما يشاء. إنهم يعرفون ويحرفون. ومن هنا تأتي المصائب والخرائب فيشك الناس في دينهم ومعبودهم، وهذا ما يسعى إليه الشيطان. فيظن الناس أن الله يظلمهم. ولو عادوا إلى الكتاب الذي هجروه ونفضوا عنه الغبار والأحزان وقرؤوا من نوره وفهموا ما فيه لوجدوا أن الله تعالى يقول لهم، وهو أصدق القائلين:

﴿إنّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرة﴾[١].

﴿إنّ اللهَ لا يظلمُ الناسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفسهم يظلمون﴾[٢].

﴿فقل سلامٌ عليكُم كَتَبَ ربُّكم على نفسِه الرحمَة﴾[٣].

لم يظلمنا الله، وإنما ظلمنا أنفسنا حين ضيعنا المنهج الإلهي، منهج القرآن، وتركناه إلى منهج سواه، كما فعل أهل الكتاب قبلنا، ولذلك أرسل الله لنا القصص في القرآن لكي نتعظ بما حصل للشعوب والرسالات التي سبقتنا، فالناس تأتيهم رسالة لتخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكن نفراًمن أعوان الشيطان، باسم الدين يستولون على الرسالة يحرفون فيها كيفما شاءوا: ﴿وقدْ كانَ فريقٌ منهمْ يسمعونَ كلامَ اللهِ ثمَّ يحرّفونَهُ من بعدِ ما عَقلوه﴾[٤].

ويكتبون بدلاً عنها أشياء ترضيهم وتخدمهم:

﴿فويلٌ للذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثُمَ يقولونَ هذا من عندِ الله﴾[٥].

﴿فويل لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم مما يَكسبون﴾[٦].

وقد يحاول بعض جنود السلطان أن يوهم عامة المسلمين أن هذه الآيات نزلت في بني إسرائيل ولسنا المقصودين بها، فنقول لهم: إنكم واهمون ـ فالقرآن نزل لنا لنتّعظ به نحن المسلمين ولم ينزل لأهل الكتاب فهو كتابنا نحن المسلمين، وآياته تنطق بالحق علينا في كل يوم. وأهل الكتاب لم يعترفوا به إلى اليوم ولم يقرؤوه عن إيمان.

القرآن كتاب حي يعيش معنا إلى يوم الدين، تتجدد آياته ومعانيه في كل عصر، كتاب معجزاته لا تعد ولا تحصى. كتاب لا تحتاج كي تفهمه إلى رجل دين من رجال السلطان ليفك لك رموزه، ليس في القرآن رموز تحتاج لفك، إن دين الإسلام دين يسر وليس بدين عسر، يستطيع أعرابي بسيط أن يفهمه بكلمات.

إننا ظلمنا أنفسنا عندما عقّدنا الأمور بعد أن كانت سهلة مسهّلة من قبل الله سبحانه. إننا ظلمنا أنفسنا عندما تركنا القراءة. وأتينا بالذين يعرفون ويحرفون ليقرؤوا عنّا ولا يقرؤون لنا ما فيه من نور ومن هدى ومن هداية.

الشيء الوحيد الذي لم يتحقق لجنود السلطان عندنا أنهم لم يستطيعوا تحريف حرف

---

(١) سورة النساء: ٤٠
(٢) سورة يونس: ٤٤
(٣) سورة الأنعام: ٥٤
(٤) سورة البقرة: ٧٥
(٥) سورة البقرة: ٧٩
(٦) سورة البقرة: ٧٩

واحد من كتاب الله الذي حفظه بقدرته وحده لا بمعونة من البشر، وقد أشرك من يقول بذلك، فالله ليس محتاجاً إلى من يساعده ليبرّ الله بقسمه إذ قال: ﴿إنّا نحن نزّلْنا الذِّكَر وإنّا له لحَافظون﴾.

وحين استحال على أولئك تحريفه عمدوا إلى حرف الناس عنه إلى أحاديث اختلقوها على لسان الرسول بالآلاف المؤلفة، وكتب التراث اليوم بين أيدي الناس تشهد بما أقول.

ولكن لجنود السلطان خطتهم في إبعاد كتاب الله خدمة لأولياء نعمهم، وإتقاء لغضبهم، ومن بنودها:

أولاً: إبعاد كتاب الله عن أيدي الناس بحجة أنه كتاب مقدّس لا يمسّه إلا المطهّرون. وإذا قرأت فيه وأخطأت في لفظ كلمةٍ منه فالعياذ بالله، فإن من يقع له ذلك سوف يحرقه الله بنار جهنم خالداً فيها أبداً!. والناس من جهلهم وسذاجتهم كانوا ولا زالوا يصدقونهم في دعواهم تلك، فهل يعقل أن ينزل الله القرآن للناس كافة ويأمر رسوله بإبلاغه للناس كافة، وهو يعلم أن الرسول في حياته القصيرة غير قادر على إبلاغ كل الناس في العالم ثم يحول بين الناس، ويمنعهم من قراءة كتابه المنزل في حين أنه يدعوهم جميعاً للإيمان؟ فكيف يمكن أن نبلغ الأمريكي والياباني وسواهما رسالة القرآن إذا لم يقرؤوا نصه؟ وكيف نقودهم إلى الإيمان إذاكان الله عز وجل يمنع غير المسلمين المطهرين من الإطلاع عليه ومسّه؟ وهل نطلب من هؤلاء أن يغتسلوا ويتطهروا وفق تفسيرهم الوهمي للآية القرآنية التي تقول: ﴿في كتابٍ مكنون لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾ وليس هذا ما قصده تعالى منهم، فهو يخبرنا من عنده بأن القرآن محفوظ في اللوح المحفوظ عنده في السماء، وجنود الله المطهرون في السماء كما نعلم من القرآن هم الملائكة الذي يحفظونه في السماء لا جنود السلطان، والملائكة كما نعلم خلقهم الله لا يحسنون إلا فعل الخير والطاعة لماذا؟:

لأن الله شاء ذلك، أراد أن يخلق الملائكة ولا يستطيعون فعل الشر والعصيان فسماهم لذلك بالمطهرين، وهو يخلق ما يريد.

وهؤلاء الملائكة المطهّرون الذي يحفظون القرآن في كتاب مكنون لا يخشى أن يخونوا، فهم ليسوا مثلنا نحن البشر، ولن يحرّفوا ذلك الكتاب المكنون، من هنا اتضح معنى الآية بأنه سبحانه يتكلم عن كتاب خاص به موجود في السماء بين أيدي هؤلاء الملائكة المطهرين.

وقد استغل جنود السلطان هذه الآية واستخدموها للحصول على مآربهم بإبعاد الناس عن الحق الموجود داخل الكتاب، وأنت إذا جهلت ما لك وما عليك سهل ضياع حقك. فالإنسان الذي يستطيع أن يقنعك أن بيتك الذي تسكنه أنت وأولادك ليس بيتك يمكنه أن يخرجك من دارك برضاك دون أن تقاوم. وهذا ما كان يسعى إليه جنود السلطان. فحصلوا عليه، ونالوا بذلك رضاه وشفاعته وعطاياه، وهو كل ما يسعون إليه إلى اليوم. ومن يتخيل أن ذلك حصل حديثاً فهو واهم. لقد ابتدأ منذ العصور الأولى للإسلام واستمر حتى اليوم. ومن كان يظن أن الشيطان قد مات في عصر الصحابة فهو أيضاً واهم، لأن الشيطان بأنواعه حي يرزق في جميع تلك العصور، مع جنود السلطان الذين باعوا أنفسهم للشيطان.

وهناك آيات كثيرة في القرآن تحث على طاعة الناس لله ورسوله وأولياء الأمر:

﴿يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم﴾(٧).

﴿وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولا تَنازَعوا فتفشَلوا﴾(٨).

﴿أطيعوا اللهَ ورسولَه ولا تَوَلَّوا عنه وأَنتم تسمعون﴾(٩).

ونحن المسلمين نعلم أن محمداً قبل الرسالة كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم من أحد، فلو أنَّ رجلاً طلب منه قبل الرسالة أن يعلمه فماذا نتوقع أن يكون جواب الرسول؟.

نتوقع بحكم أنه إنسان صادق وأمين كما عرف عنه، أن يكون جوابه: ليس عندي ما أعلمك إياه. لكن لو سأله الرجل ذلك بعد الرسالة لاختلف جوابه لأن الله سبحانه أنزل عليه القرآن ليبلغه للناس، والقرآن يحوي حقائق علمية وقصصاً سمّاها الله تعالى بأنباء الغيب، وصلت إلينا عن لسان الرسول الصادق الأمين الذي استحق بصدقه النبوة، فأصبح نبي الإسلام. وفيه أيضاً آيات الأحكام والحدود والحلال والحرام وغيرها من الأمور التي تتعلق بالدين وكلها نزلت بأسلوب ميسر يمكن فهمه، وتلك هي آيات الحكمة والرسالة، وبها أصبح محمدٌ رسول الله للناس كافة.

وقد علّمنا الرسول كيف نتعامل مع آيات القرآن علماً موحى به من الله عن طريق جبريل، علّمنا أن النوع الأول من الآيات (الحقائق العلمية) لا نفسره ولا نؤوله للناس إلا

(٧) سورة النساء: ٥٩ (٨) سورة الأنفال: ٤٦ (٩) سورة الأنفال: ٢٠

إذا أظهر الله تعالى تأويله: ﴿ولَتعلَمنَّ نبأَهُ بعد حين﴾(١٠) فلا نستبق مشيئة الله ونبادر إلى تأويله. أما ما ورد فيه من قصص فيها العبرة التاريخية والدرس التاريخي الذي يشاء الله أن يعلمنا إياه من خلال تلك القصص فهو موجود في القرآن للعظة والاعتبار وليس لنا أن نحوّره أو نبدّله من عندنا، وما يتصل بالأحكام الدينية التي هي الرسالة فقد فهمها الرسول، وأفهمها لصحابته، وهي مفهومة في كل عصر، وفي كل مصر، لكل من يعرف العربية ولا يحتاج إلى وسيط أو مفسر مؤول:

﴿إنّما حرمَ عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله﴾(١١).

وشرح لهم الرسول طريقة الوضوء عملياً.

وشرح لهم الرسول طريقة الصلاة عملياً.

وشرح لهم الرسول طريقة الحج عملياً (وكلها وصلتنا متواترة من الآباء عن الأجداد).

وقال لهم: خذوا عني مناسككم، والإسلام متواتر لم ينقطع، وصلنا كل ذلك بالتواتر العملي وليس بالنقل والحديث.

وأصدر الرسول خلال حياته أوامر ونواهي مطبقاً منهج الله الذي هو القرآن.

فكانت أوامره ونواهيه واجبة الإطاعة على المسلمين المعاصرين له فقط. وهي عبارةٌ عن كلامه وحديثه ومواعظه ونصائحه وأوامره للمسلمين وكلامه لزوجاته وفي حياته الخاصة فقد أمر الناس بعدم كتابتها وأمر من كتبها بمحي ما قد كتب منها إذ لا علاقة لها بعقيدة الإسلام العامة وقد بينا سابقاً كيف تجاوب المسلمون من الصحابة لهذا الأمر، فنفذوا جميع ما أمروا به، وأحرقوا ما قد كتبوا سابقاً. إلى أن أتى جنود السلطان فلم يجدوا فيما بين أيديهم ما يمكنهم من خدمة السلطان إلا إذا شجعوا على كتابة الأحاديث من جديد بحجج واهية منها أن الرسول نسخ أمره الأول بعدم الكتابة فعاد وسمح بها من جديد. ثم اختلقوا حجة جديدة بقولهم إن غاية الرسول كانت: ألا يختلط القرآن بالحديث أما نحن فنختلف عن صحابة الرسول، فلن نجعل الحديث يختلط بالقرآن أبداً. هكذا كانت ذرائعهم الواهية.

وهكذا وجدوا أن باب الكذب في الحديث والتدليس فيه أسهل من تحريف كتاب الله

---

(١٠) سورة ص: ٨٨ (١١) سورة البقرة: ١٧٣

الذي استعصم عليهم، فأرضوا السلطان، ووصلوا إلى مبتغاهم، حتى صار حديث الرسول المروي عنه كله متناقضات فيه كل القول ونقيضه ليختاروا ما يناسب الحالة التي يريدون تأييدها. وعلماء الحديث وكتّابه الذين تجنّدوا للسلطان في العصر الأول للإسلام تعبوا أكثر بكثير من اللاحقين الذين وجدوا كل شيء مهيئاً.

وقد يظن بعضٌ من البسطاء أن ما أقوله هو من باب المبالغة، لكن شواهد التاريخ ماثلة أمامنا، انظروا متى بدأ الخلاف يدب في صفوف المسلمين وظهر الشيطان يتخيّر جنوده من بينهم؟ قد يكون بعض االذين يجهلون التاريخ الإسلامي يعتقدون ظلماً بجهلهم أن ذلك حصل بعد مئات السنين من وفاة الرسول الكريم. لا أن قسماًمن صحابة رسول الله الذين قاتلوا معه في أغلب غزواته وحروبه، عليه الصلاة والسلام، كانوا ضمن إحدى الفئتين المتقاتلتين من المسلمين، ومنذ تلك اللحظة بدأ الشيطان وجنوده بالنشاط لتأسيس حصون في دفاعات المسلمين، وضمن تراتيب قتالهم تعمل لصالح الشيطان ومن أجل تخريب وبلبلة صفوف المسلمين.

فإن من كان يتخيل أن الشيطان قد مات في ذلك العصر يكون واهماً. نعم منذ ذلك الوقت ومنذ تلك الأيام لعب الناس بحديث الرسول إضافة وتدليساً وتغييراً وحذفاً وكذباً بأساليب شيطانية بعيدة عن أساليب السذج الذين بلعوا الطعم وهم لا يدرون ماذا يبلغون.

فإن كل من يتوهم أن ما يسمعه من بعض رجال الدين يقصد به وجه الله وخشيته يكون أيضاً من الذين فيهم غفلة وسذاجة أكثر من اللازم بل إن رجال الدين الغيورين يعلمون أن منهم فئة باعت نفسها للشيطان في كل عصر وتعرف أن كل ما قد قيل بحقها هو الحق لكنهم يؤثرون السكوت لرهبة أو مداراة أو ضعف وجبن.

وفي ختام هذا الكلام علينا أن نعلم أن الخير لا يأتي إلا من مصدره وما كان مصدر الخير من جنود السلطان يوماً حتى نتوقعه هذا اليوم؟ وإذا كنا ننتظر حتى يستفيق ضميرهم ليقولوا الحق فإننا واهمون وعلينا ألا نتوقع الخير إلا من مصدر الخير كله وهو الله. وما بين أيدينا منه هو القرآن الكريم، فالخير كله في ذلك الكتاب المنزل وحده ولا سواه فلنقرأه ولنتذكر أن أول كلمة أنطقها الله محمداً ﷺ كانت كلمة اقرأ، فبالقراءة تبدأ المعرفة، وأفضل كتاب يُقْرأ هو كتاب الله سبحانه وتعالى: القرآن العظيم.

﴿إنَّ الذينَ يكتمونَ ما أنزلْنا من البيناتِ والهدى من بعدِ ما بيّنّاهُ للناسِ في الكتابِ أولئك يلعنهُمُ الله﴾(١٢).

وخير ما أختم به هذه الفقرة قول ابن قيم الجوزية رحمه الله يصف لنا جنود السلطان تحت اسم (عالم السوء):

(كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراًما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشهوات فإنهم لا تتم لهم اغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً. فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلّا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى، فيخفي الصواب، وينطمس وجه الحق. وإن كان الحق ظاهراً لا خفاءبه ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة وفي هؤلاء وأشباههم قال الله تعالى: ﴿فخلفَ من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتّبعوا الشهوات﴾(١٣) وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿فخلفَ من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرَضَ هذا الأدنى ويقولونَ سيُغْفَرُ لنا وإنْ يأتِهِم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه ألم يؤخَذْ عليهم ميثاق الكتاب أنْ لا يقولوا على اللهِ إلاّ الحقَّ ودرسوا ما فيه والدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتّقون أفلا تعقِلون﴾(١٤).

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون وتاره يقولون عليه ما يعلمون بطلانه)(*).

ولنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قال في الآية الأولى: ﴿أضاعوا الصلاة﴾ ولم يقل: تركوا الصلاة. لأنهم لا زالوا يقيمون الصلاة صورة بعد أن ضيعوا روح الصلاة الحقيقية.

﴿إنّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكَر﴾ والذي يصلي بعد أن تفقد صلاته تلك الروح فلن تنهاه صلاته بعد ذلك عن أي منكر ويكون قد أضاع الصلاة وأضاع قيمتها الروحية الأساسية.

(*) من كتاب الفوائد: طبعة دار الهدى ١٩٩٤ ص ١٤٩

(١٢) سورة البقرة: ١٥٩ (١٣) سورة مريم: ٥٩ (١٤) سورة الأعراف: ١٦٩

من كانت له المصلحة الأولى في تحويل المسلمين كلهم عن باب الحقائق والنور والهداية إلى باب الأباطيل والظلم والضلال والأوهام؟:

المؤمن كيانه إيمانه بالله، وسلاحه كتاب الله القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل، ولا يستجرّ إلى النزوات، ولا خوف على المسلم ما دام متمسكاً بمنهج الرحمن، وكلنا يعلم كيف وقف الأعرابي الذي عرف بالقرآن ما له وما عليه أمام الناس في المسجد وحاسب عمر دون مداجاة أو خوف لأن سلاحه كتاب الله فحاسب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في المسجد وأمام الناس.

لكن مع مرور الأيام قلّ تمسك المسلمين بمنهج الرحمن وظهر من أتباع الشيطان مَن يفضّل الحياة الدنيا على الآخرة من الحكام الدنيويين الذين كما أشرت وضعوا كتاب الله وراء ظهورهم، وحاول الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز أن يطبق أحكام الكتاب منهجاً لحكمه، وهدفاً لخلافته فكان ظاهرة فريدة في تاريخ الإسلام في العصر الأموي.

وقد بينا في الفقرة السابقة كيف توافر لهؤلاء الحكام من رجال الدين من آزرهم ونفذ مآربهم وساعدهم على التحول من مكلفين بايعهم الناس على التزام كتاب الله إلى حكام مستبدين طغاة، والطاغية لا يبزغ في حياة المجتمع مثلما ينبت الشجر في الطبيعة وإنما تسمح بظهوره ظروف عقلية واجتماعية عامة، فكل قوم يخلقون قيصرهم وكسراهم وفرعونهم بتقاعسهم عن تقويم انحرافه أو مؤازرتهم إياه على الطغيان والضلال، والطغاة جميعاً في مختلف الأمكنة والأزمنة يشتركون بصفات واحدة تقريباً، ولم يكن من المصادفة ظهور حكام مستبدين طغاة في شرقنا الإسلامي منذ أربعة عشر قرناً وحتى يومنا هذا لأن تخلف المسلمين كان وراء ذلك الاستمرار في ظهورهم.

وقد شهد العالم حالات خاصة من الطغيان قبل بها الناس زمناً وبالطاغوت في حالات خاصة، في الأزمات والحروب عادةً، فيظهر طغاة مثل: ستالين في روسيا، وهتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا، وفرانكو في إسبانيا، لكنهم يزولون مع زوال الأسباب التي كانت داعية لوجودهم، أما نحن في الشرق الإسلامي فمهيؤون على الدوام كما قال المرحوم مالك بن نبي: أن الاستعمار يجد فينا إستعداداً ذاتياً للخضوع له والقبول به نتيجة ما نحمله في رؤوسنا من أوهام وأباطيل بدل الحق والنور الإلهي مما يعلل استمرار الاستبداد، وتواصل طغيان السلطة في مجتمعاتنا بشكل متصل، لأن كل أفكارنا ومعتقداتنا ليست من الله ولا من الإسلام، بل من الشيطان وحده، فنحن نذكر الله بلساننا ونعبد الشيطان من دون أن

نعلم، وهو من أشد أنواع الظلم للذات، بل هو إشراك بالله لا شكَّ فيه لأن الطغاة وبدءاً من أول طاغية، سحبوا كتاب الحقائق والعلم والنور من أيدينا وأعطونا بدلاً عنه كتاباً نسبوه ظلماً بواسطة فقهاء السلطان وعلمائهم، إلى الله ورسوله، والله والرسول بريئان منه فكل ما فيه يناقض كتابَ الله(*)، ولأن القرآن أمسى مهجوراً معطلة أحكامه. وفي هذا كله ظلم شديد للنفس، وهكذا نجد أن الحكام بكل هذه البساطة استطاعوا أن يجعلوا الناس هم الأساس في خلق الطاغية بعقولهم المشركة التي حشوها بالأوهام والأباطيل كالإيمان بالسحر والمعجزات والشفاعة مما لم يرد ذكره في القرآن، وإهمال ما فيه من علم ونور وهدي، ومن هنا نستطيع أن نفهم غضب الله الشديد على المشرك الذي ظلم نفسه من غير وجه حقّ، ولا مسوّغ، فيشاء الله تعالى بأن يرسل له حاكماً طاغوتاً يذيقه من ألوان العذاب والذل والهوان والعنت الشديد في الحياة الدنيا جزاء وفاقاً لما اختارت نفسه من الباطل، والابتعاد عن الحق، واتباع فقهاء الدين، من زبانية الطغاة المستبدين الذين يصيدون السذج وعامة الشعب ويصرفونهم عن العمل بأوامر الله سبحانه، إلى تنفيذ أوامر الشيطان، كما كان يقع في أثناء حكم الفراعنة لمصر القديمة، أو لملوك أوربا الذين كانوا يحكمون بسلطة الكنيسة فيستعينون بفقهاء الدين المسيحي وعلمائهم، وكذلك وقع الأمر ذاته مع غالبية الخلفاء في العصر الأموي والعباسي، والعصور الإسلامية المتأخرة، والخلفاء والسلاطين في أيام الخلافة العثمانية. فكانوا على الدوام يستعينون بفقهاء وعلماء الدين الإسلامي لتوطيد سلطانهم وتنفيذ مصالحهم.

وأجد نفسي مضطراً إلى تذكير القارىء الكريم بفقرة ذكرتها في فصل (المخطط العام لهذا الكتاب) كتبها ابن قيم الجوزية في كتابه الفوائد وقال فيها بلسان أستاذه ابن تيمية: (إذا كان الله ورسوله في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر.. وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يَعُدُّهُ الناس ناقص العقل سيء الاختيار لنفسه وربما نسبوهم إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل فإنهم نسبوه إلى الجنون... ولكن من وطن نفسه على ذلك إنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه... ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الآخرة بحيث تكون الآخرة أحبّ إليه من الدنيا... ويكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما).

(*) في كتابي الثاني (دين السلطان سوف أبرهن على ذلك إن شاء الله).

والسلطان يعرف كيف يختار أعوانه فهو ينظر أولاً لإخلاصهم له قبل أن يشترط الكفاءة والجدارة فيهم، فيتحولون مع الزمن إلى ملكيين أكثر من الملك، لعلمهم أن مصلحتهم مقرونة بدوام السلطان واستمراره، وهذه الفئة، من خلال ممارستها لطقوس العبادة وأداء المناسك، تجعل السلطان يتحول من إنسان عاديّ إلى إله يُعبد في الأرض، ويتوقّع عبادته من كل الأفراد الخاضعين لحكمه مع الأيام.

وهذه الفئة من زبانية السلطان تصبح مع مرور الزمن الفئة الوحيدة المستفيدة من وجوده، ويكون أفرادها عادة من الناس الذين يعتقدون بأنفسهم الذكاء، ومن الناس الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة إن آمنوا بالآخرة، وهم يعلمون تماماً أن بقاءهم وقوتهم رهن ببقاء السلطان وقوته، فهم يدعمون حكمه لا حباً به، وإنما حباً بمصالحهم ودوام نعيمهم في الدنيا، ولا تخلو حياتهم من منغصات، وهموم تخلقها ظروف هذا الجو المريض من النفاق والرياء والكذب والحسد والغيرة والتنافس، فيعيشون في جو من الدسائس والمؤامرات، ويتسابقون على التقرب من السلطان ونيل الحظوة منه.

وهذه الفئة تعزل الحاكم عن الشعب، وتعزل الشعب عن كل الحقائق، وتعزل فيما تعزل، الفئة المخلصة من رجال الدين المتمسكة بمثلها وكتابها، ممن يعرفون الحقيقة ويخشون أن يجهروا بها فيودعون في السجون كما حصل مع شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الشيخ ابن قيم الجوزية، والطبقة الحاكمة التي تحرص على الدوام ألا يصل للناس سوى الأوهام تبعد الناس عن كل الحقائق فالصحف تنطق باسم السلطان فقط، وكل من يقول الحقيقة يسجن أو يقتل، أو يبعد، وحرية الكلام والرأي تكون مصادرة لأنها من أخطر الحريات على الطغاة. وإني إذ أبين هذه الحقائق لا أهدف من ورائها إلى أي غرض سياسي، وإنما أردت عرضها ليعي المسلمون هذه الحقائق ويعملوا بكتاب الله لا بنزوات المضلّلين من رجال الدين منهم:

﴿إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلا بالله﴾(١٥).

ترقّب باب الفرج والخلاص من عذاب الدنيا:

إن غالبية المسلمين لسذاجة ناجمة عن جهلهم وأوهامهم، ينتظرون من فقهاء السلطان، ومن الطغاة الذين تعبوا في تدجين الأمة بزرع أوهام أدخلوها في دين الإسلام باسم

(١٥) سورة هود: ٨٨

الرسول ﷺ وسنته وحديثه كذباً وظلماً ينتظرون أن يأتيهم الفرج من أولئك الذين سدوا عليهم أبواب الفرج ومنعوا عنهم النور، وهيؤوهم وجندوهم لنوع من الاستسلام المطلق وتصديق ما يقولون حتى أصبح يتعذر على المسلم سماع كلمة الحق التي يجهر أو جهر بها مفكرون مسلمون اكتشفوا نور الله، وسعوا إلى إصلاح شأن المسلمين.

بل بات من الطبيعي أن يعارض السذج من المسلمين هؤلاء المفكرين لأن عقولهم دُجِّنَتْ وتم تأطيرها بلون من التفكير الديني المتوارث الذي زرعه أعداء الدين وعملاء السلطان وغذاه أصحاب المصالح من المستعمرين والصهاينة وما زالوا يغذونه لضرب الإسلام والسعي لتخلف المسلمين بتدعيم سلاح التضليل الذي اعتمدوه وهو الأحاديث الموضوعة التي بها أَطَّروا الفكر الديني وجمدوه، فليس من العجب أن يقف أحد أئمة المسلمين من أتباع السلطان والشيطان فيخطب في الناس قائلاً: (هؤلاء المفكرون أعوان الصهيونية غايتهم تشكيكنا في ديننا، وهذا دليل واضح وصريح على نيتهم الخفية لضرب الإسلام ورسالة المسلمين التي كلف بها أشرف الخلق محمد ﷺ لتبليغه للناس فكلام الله في القرآن مقدس، وكلام الرسول وحديثه الشريف مقدّس في الصحيحين، وكلاهما وحي من الله واجب الإتباع وواجب التقديس) (تصفيق حاد).

لقد أجاد الخطيب وبلغ ما يريده كل الطغاة والمنافقين الذين يتباكون على الإسلام والمسلمين وهم أبعد الناس عن الإسلام، إنهم كلهم قد باعوا آخرتهم بدنياهم. ونجحوا للأسف في استقطاب الجهلة من المسلمين وكأنهم منوّمون ولا يدرون إلى أين هم سائرون؟ ولو علموا جزءاً من هول الحقيقة لاستداروا من فورهم وهم يرتجفون، وولوا منهم فراراً هاربين، لأنهم يرشدونهم إلى عذاب الدنيا وغضب الله وعذاب الآخرة خالدين في جهنم وبئس المصير:

﴿أفأنتَ تَهدي العُمْيَ ولو كانوا لا يُبصرون﴾(١٦)

والله سبحانه وتعالى يعتبر الذين لايسمعون للحق عندما يُقرأ عليهم القرآن بمثابة الأموات تماماً، فيقول سبحانه:

﴿إنَّما يستجيبُ الذينَ يسمعونَ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يُرجَعون)(١٧).

صدق الله العظيم.

---

(١٦) سورة يونس: ٤٣ (١٧) سورة الأنعام: ٣٦

١٦ ـ هل يمكن للمسلم المؤمن بالله أن يضلّ السبيل بحسن نية ودون أن يعلم فيضل ويشرك بالله ثم يضل غيره من الناس فيحاسبه الله على ذلك؟:

للإجابة عن هذا السؤال الهام أضرب مثلاً حياً مما وقع لي هذا الأسبوع لكي لا يكون جوابي معتمداً على الخيال والظن، فأضل السائل بدل أن أرشده.

في خطبة الجمعة تطرّق الإمام لشرح الآية الكريمة الآتية: ﴿إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنهون عنه نكفّر عنكمْ سيئاتِكم ونُدخلْكم مُدْخلاً كريماً﴾(١) وجرياً على عادة أئمة المساجد في بلاد الإسلام اليوم، لم يتطرق لشرح هذه الآية بآية أخرى من القرآن ظناً منه أن السنة تقضي أن يكون الشرح بالحديث، وهو أول خطأ في المنهج، وهو خطأ أصبح سلوكاً في خطب الأئمة، فأورد للناس حديثاً وذكر فيه سبع كبائر، وكنت أحصي وراءه الكبائر فلاحظت أنه أسقط منها: الزنى والكذب وتفرق السبل، ثم أورد حديثاً صحيحاً آخر عن الرسول ﷺ ذكر فيه أن الكبائر تسع وليست سبعاً، ثم عدّ الكبائر التسع فأسقط منها أيضاً الزنى والكذب وتفرق السبل.

ولكي لا أتهم الرجل بالنسيان فإنه كان يقرأ الأحاديث من ورقةٍ أحضرها، ثم أضاف وهناك حديث صحيح عن الذهبي يقول فيه: بل الكبائر سبعون. ثم عدّدها ولم يسقط منها شيئاً، بل أضاف إليها كثيراً من الصغائر، وانتقل إلى حديث آخر قال عنه إنه صحيح عن الرسول ﷺ فنسب إليه أنه قال: بل هي سبعمائة كبيرة.

فكيف يمكن أن أتصرف كمسلم عندما أعود للبيت فيسألني ولدي أو زوجتي أو ابنتي عن خطبة الجمعة فأحدثهم عن الكبائر ولو سألني أحدهم: كيف يكون كل ذلك صحيحاً وفي كل قول ما ينقض الآخر؟ فإن قلنا أنها سبع عنينا أن الكبائر معدودة، وليست كثيرة، ولو قلنا أنها سبعمائة فذلك يعني أنها لا تعد ولا تحصى، ونكون قد نقضنا ما قلناه سابقاً فهل يمكن عقلاً أن يكون رسولنا ضعيف الذاكرة إلى حد أنه كان ينسى ما يقوله في الصباح لينقضه في المساء؟! ثم ماذا استفدت أنا من خطبة الجمعة؟ هل استفدت علماً لا يناقض بعضه بعضاً إذ كيف يمكن أن يكون مثلاً جمع اثنين

---

(١) سورة النساء: ٣١

واثنين في الصباح أربعة ثم يكون في المساء ثلاثة أو خمسة؟ فالحقيقة العلمية ثابتة لا تتغير مع تغير الزمن.

نعم، أنا لم أستفد علماً، فما الذي استفدته؟ إضاعة وقت تجاوز الساعة في أحاديث متضاربة مبنية على الظن لم تقدم لي في آخر المطاف إلاّ التشتت والاضطراب وضياع الحقيقة، فالكبائر سبعاً صحيحة، وهي تسعاً صحيحة وهي سبعين صحيحة وهي سبعمائة صحيحة، فما الصحيح في هذا الصحيح؟.

أنا لا أنتقد ذلك الإمام بالذات وأنا أعلم أنه رجل مؤمن ولا أشك في إيمانه ولا بحبه دينه ورسوله، لكنه يتبع شيخه فيما قال له دون أن يناقش، فهو ينهج نهج التقليد الأعمى، ومن واجب كل إنسان أن يتوقف عند تلقي العلوم والأخبار فيزنها بالميزان. ولهذا أوجد الله كل الميازين. عليه أن يعرض الموضوع على عقله ليكتشف مكامن الوهم والخطأ فيما يرويه الناس، ولماذا لم يلجأ إلى القرآن لتفسير الآية الكريمة العظيمة التي تطرّق لشرحها؟

واستكمالاً للمثل الذي بدأت به، أحاول البرهان على أن كل من يلجأ للقرآن لتفسير الآيات سوف يجد أبداً الحقيقة الناصعة، ولن يتوه أو يضل، وكل من من يلجأ إلى غير القرآن لتفسير القرآن أو تأويله يضل السبيل على الدوام. يقول تعالى:

﴿والذينَ يجتنبونَ كبائرَ الإثم والفواحش﴾(٢).

﴿قل إنّما حرّمَ ربيَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ﴾(٣).

﴿اجتنبوا كثيراًمن الظنّ إنّ بعضَ الظنِّ إثم﴾(٤).

﴿ومن يُشركْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾(٥).

﴿ومن يكسِب إثماً فإنّما يكسِبهُ على نفسه﴾(٦).

﴿ومن يكسِب خطيئةً أو إثماً ثم يَرْمِ به بريئاً فقد احتَمَل بُهتاناً وإثماً مبيناً﴾(٧).

من قراءة الآيات السابقة يتبيّن لنا دون الحاجة إلى قاموس أن معنى كلمة الإثم فيها هو الخطيئة التي يرتكبها الإنسان في حق نفسه، وفي حق الله، مخالفاً ما نهى الله عنه، ونفهم أيضاً أن من أكبرها الشرك بالله، والظلم باتهام بريء بخطيئة ارتكبها هو. كأن

---

(٢) سورة الشورى: ٣٧
(٣) سورة الأعراف: ٣٣
(٤) سورة الحجرات: ١٢
(٥) سورة النساء: ٤٨
(٦) سورة النساء: ١١١
(٧) سورة النساء: ١١٢

يزني إنسان بفتاة فتحمل منه، فيتهم الزاني زميلاًله حتى يحمّله نتيجة فعله، فيجعله أباً للولد ظلماً وكذباً.

ونفهم من كلمة الفواحش في الآية الثانية من سورة الأعراف وفي قوله تعالى:

﴿واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم﴾(٨).

﴿ولا تقربوا الزنى إنهُ كان فاحشةً وساءَ سبيلا﴾(٩).

﴿ولوطاً إذ قالَ لقومه إنكم لتأتونَ الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * أإنكم لتأتون الرجال﴾(١٠).

أن معنى الفاحشة هو:

- الزنى تقوم به المرأة أو يقوم به الرجل.

- فالعمل الجنسي الشاذ عن الطبيعة سواء بأن يأتي الذكر ذكراً أو الأنثى أنثى أخرى بالمساحقة فهي من الفواحش.

﴿فإذا تَطَهّرنَ فأتوهنَّ من حيثُ أَمَركُم الله﴾(١١).

أي أن الله تعالى يأمرنا أننا إذا أتينا زوجاتنا اللاتي هن حلائلنا فلا يجوز أن نأتيهن إلا من حيث أمرنا الله، أما أن نأتيهن شذوذاً من مدخل آخر فهذه فاحشة تدخل تحت الفواحش الباطنة.

ولذلك حدد الله تعالى الفواحش بما ظهر منها وما بطن، فالإنسان إذا رأى رجلاً يختلي بزوجته لا يعيبه ذلك فهي له وحلاله من الله...

وما بطن من الفواحش هو ما لم يعرفه الناس، منها على أن يعاشرها في حدود ما أمر الله، لأنها تمت بالستر والخفاء والله يعرفها: يتبين لك كيف توضحت بدليل الآيات الكريمة معاني كانت غامضة علينا ولم نلجأ للقاموس المحيط، ولا إلى تفسير ابن كثير أو غيره وما دمنا نعرف المقصود من كلمات الله فبمقدورنا أن نتابع البحث فيها في جملة ما ورد عن الكبائر من آيات كقوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرّمَ ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحنُ نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ولا تقتلوا النفسَ التي حرمَ اللهُ إلا بالحق

---

(٨) سورة النساء: ١٥
(٩) سورة الإسراء: ٣٢
(١٠) سورة العنكبوت: ٢٨ - ٢٩
(١١) سورة البقرة: ٢٢٢

ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغَ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلفُ نفساً إلا وسعَها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبِعوا السبل فَتَفرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون﴾[١٢].

وهكذا نجد أن كل ما نبحث عنه من الكبائر حددها الله ووضعها تحت عنوان: (ما حرمه ربكم عليكم). وبعد أن عددها سبحانه ذَكَّرَنا بأَمْرٍ آخر نردده في كل صلواتنا لله حين ندعوه ونرجوه تعالى في سورة الفاتحة فنقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فالله تعالى يقول لنا هل تحبون أن تتبعوا الصراط المستقيم؟ إنكم عليه إن اجتنبتم الوقوع في الكبائر التي أحصيتها لكم.

وهنا نعلم ما هذه الكبائر كما ذكرها الله تعالى في الآيات (١٥١ - ١٥٣) من سورة الأنعام لا بالرجوع إلى أحاديث متضاربة لا ضرورة للرجوع إليها لبيان مقاصد الله في كتابه، فليس مثل اللجوء إلى الله مباشرة في كتابه لمعرفة ما يريد أن يقول لنا، ويصح ذلك حتى في حياتنا أيضاً فإن كتبت أنت كتاباًولم أفهم أنا بعض مقاصدك فيه فمن الأفضل ألا ألجا لفهمه إلى أبيك وأمّك وأهلك بل أتوجه إليك مباشرة لتشرح لي وجهة نظرك، كذلك الأمر في تدبر ما يريده الله منّا، والحق بيّن واضح، لكن لا يهتدي إليه من لم يستخدم الأدوات الصحيحة للاهتداء: كالعقل والمنطق ونبذ الهوى والظن. ولنتابع موضوع الكبائر فنسأل: ما عدد الكبائر التي نهانا الله عنها في الآية؟ سبع أم سبعمائة؟ يقول تعالى: ﴿إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْن عنه نكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ونُدخِلْكم مُدخَلاً كريماً﴾[١٣] فنجد أن الكبائر التي ينهانا عنها هي:

١ - (الإشراك بالله). ﴿ألا تشركوا به شيئا﴾

٢ - ثم (الإساءة للوالدين أو عدم الإحسان لهما): ﴿وبالوالدين إحسانا﴾.

٣ - ثم (الإجهاض والإسقاط بعد الحمل خوفاً من الفقر): ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾.

٤ - ثم (الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ويدخل تحتها - زنى الرجل وزنى المرأة والشذوذ الجنسي للرجال، والشذوذ الجنسي للنساء. وأن يأتي الرجل زوجته من غير طريق باب الرحم. ﴿ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن﴾.

---

(١٢) سورة الأنعام: ١٥١ - ١٥٣ (١٣) سورة النساء: ٣١

٥ ـ ثم (قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق). ﴿ولاتقتلوا النفس التي حرّم اللهُ إلاّ بالحق﴾

٦ ـ ثم (أكل مال اليتيم): ﴿لا تَقْربوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن﴾.

٧ ـ ثم (الغش بالميازين والمكاييل والمقاييس): ﴿وأَوْفوا الكَيلَ والميزان﴾.

ويراعي الخالق أوضاعنا في تكليفنا تجنب هذه الكبائر فيقول: ﴿لا يكلّفُ اللهُ نفساً إلا وُسعَها﴾.

أي أن الله لا يحملنا ما لا طاقة لنا به في كل هذه الأمور التي ذكرناها فقد طلب منا أن نحسن لوالدينا، فإن كنا ذوي سعة وغنى نتمكن من أن نحسن للوالدين أفضل مما لو كنا فقراء، لكن حتى الفقير الذي لا يملك شيئاً يمكن أن يكون إحسانه لوالديه بالكلام الحسن والمعاملة الحسنة، والابتسامة الحلوة والطاعة فكل حسب استطاعته).

٨ ـ ثم يأتي الكذب في باب الكبائر: ﴿إذا قلتمْ فاعدِلوا ولو كان ذا قُربى﴾. وفي موضوع الكذب يندرج (القسم الكاذب) وشهادة الزور.

ويدخل تحت الكذب الظلم أيضاً كأن نتهم غيرنا بخطايانا كما رأينا في مقدمة هذا الكلام أو نتستر على قبيح.

٩ ـ ثم: الخيانة: ﴿وبعهدِ الله أوفوا﴾ فإذا عاهدنا أحداً وأعطينا وعداًبعهد لا يجوز لنا أن نخونه مهما كان السبب.

١٠ ـ ثم العاشر من الكبائر: وهو الانحراف عن سبيل الله الواحد ونصبح شيعاً وأحزاباً ومذاهب وطرقاً مختلفة ﴿ولاتتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾

ثم يختتم الله تلك الكبائر أو المحرمات التي نهانا عنها فيقول: ﴿ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون﴾.

والله سبحانه لا يغير هذه الكبائر أو هذه المحرمات أو هذه الوصايا في كل أديانه السماوية التي أرسلها للبشر بدليل أنه أرسلها لموسى وطلبها من عيسى عليهما السلام تحت بند الفرقان أو الوصايا العشر أو الحكمة.

وهكذا نرى أننا لمّا اهتدينا بالنور الحقيقي نور القرآن ورجعنا إليه لم ننحرف يمينا او يساراً، ولم نتقول على محمد ﷺ كلاماً ربما قاله وربما لم يقله، أو ربما قاله فأسقط الذين نقلوه بعضه أو زادوا عليه بتواتر الرواية من جيل إلى جيل حتى دونه البخاري بعد

أكثر من مئتي سنة أو بتحريفه عن قصد لأننا إذا افترضنا أن الشيطان قد مات وأن الكذب والتدليس قد انتهى من الأرض وامتنع عن أمة محمد ﷺ فإننا واهمون فالشيطان موجود مع كل الأمم ولن يموت إلى يوم الميقات المعلوم، لذلك يجب أن يكون اعتمادنا وتوكلنا على الله وحده، وهدينا بنور كتاب الله وحده، لأننا إن لجأنا إلى غيره تفرقنا وضاعت بنا السبل وإن اتبعنا هدي الله وحده لا شريك له فلا مجال للاختلاف ولا للتحزب والتشيع، فلن يستطيع أحد أن يأتي بقرآن آخر أو يقول غير الكلام الذي ورد فيه وهو أنه الصحيح الوحيد الذي حفظ بقدرة من الله رحمة بنا نحن البشر أجمعين، لنهتدي به، ونخرج من ظلمات العصور، ومن غضب الله، ونطهر أنفسنا من الأمراض التي ابتلينا بها لخروجنا عن منهج الله إلى غيره. وفق الله أمة المسلمين إلى ما فيه خيرنا وهداها إلى الصراط المستقيم.

لأنه سبحانه هو الموفق إلى كل خير ويهدي من يشاء ويختار الهداية دائماً إلى الصراط المستقيم.

﴿أفَمَن يهْدي إلى الحق أحقُّ أن يُتَّبَعَ أَمَّن لايَهْدي إلاّ أن يُهْدي فما لكم كيف تحكمون﴾(١٤).

صدق الله العظيم

(١٤) سورة يونس: ٣٥

١٧ ـ هل تعمى بصيرة الإنسان إن آمن بالباطل والوهم؟:

لقد اخترت دفعاً للتشعب والضياع موضوع الروح لأبرهن على حقيقة ضلال الإنسان حين يستسلم للباطل والوهم.

لنستعرض أولاً كل آيات القرآن الكريم وما قال تعالى في الروح:

١ ـ ﴿ولا تيأسوا من روحِ اللهِ إنه لا ييأسُ من روحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون﴾(١).

٢ ـ ﴿فأما إنْ كان من المقربين فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم﴾(٢).

٣ ـ ﴿وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيّنات وأيدناهُ بروحِ القدس﴾(٣).

٤ ـ ﴿وأتينا عيسى ابنَ مريمَ البيّناتِ وأيدناهُ بروحِ القدس﴾(٤).

٥ ـ ﴿وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٍ منه﴾(٥).

٦ ـ ﴿اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتِك إذ أيّدتُك بروحِ القدس﴾(٦).

٧ ـ ﴿ينزلُ الملائكةَ بالرُّوحِ من أمره على من يشاءُ من عبادِهِ أَنْ أَنذِروا أَنهُ لا إلهَ إلاّ أنا فاتّقونِ﴾(٧).

٨ ـ ﴿قل نزلهُ روحُ القدس من ربّك بالحقِّ ليثبتَ الذينَ آمنوا﴾(٨).

٩ ـ ﴿ويسألونكَ عن الروحِ قل الروحُ من أمرِ ربّي وما أوتيتمْ من العلمِ إلاّ قليلا﴾(٩).

١٠ ـ ﴿نزلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِك لتكونَ من المنذرين﴾(١٠).

١١ ـ ﴿يلقي الروحَ من أمره على منْ يشاءُ من عباده لينذرَ يومَ التلاق﴾(١١).

١٢ ـ ﴿أولئكَ كتبَ في قلوبهم الإيمان وأيدهُم بروحٍ منه﴾(١٢).

١٣ ـ ﴿تعرجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كانَ مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة﴾(١٣).

١٤ ـ ﴿يوم يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً﴾(١٤).

١٥ ـ ﴿تنزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربّهم من كلِّ أمر﴾(١٥).

---

(١) سورة يوسف: ٨٧
(٢) سورة الواقعة: ٨٩
(٣) سورة البقرة: ٨٧
(٤) سورة البقرة: ٢٥٣
(٥) سورة النساء: ١٧١
(٦) سورة المائدة: ١١٠
(٧) سورة النحل: ٢
(٨) سورة النحل: ١٠٢
(٩) سورة الإسراء: ٨٥
(١٠) سورة الشعراء: ١٩٣
(١١) سورة غافر: ١٥
(١٢) سورة المجادلة: ٢٢
(١٣) سورة المعارج: ٤
(١٤) سورة النبأ: ٣٨
(١٥) سورة القدر: ٤

١٦ - ﴿وكذلكَ أَوحينا إليكَ روحاً من أمرنا﴾[١٦].

١٧ - ﴿فأرسلنا إليها روحَنا فَتَمَثَّلَ لها بشراً سوياً﴾[١٧].

١٨ - ﴿والتي أحصنَتْ فرجها فنفَخْنا فيها من رُوحنا﴾[١٨].

١٩ - ﴿ومريم ابنةَ عمرانِ التي أحصنت فرجَها فنفخنا فيه من روحنا﴾[١٩].

٢٠ - ﴿ثم سّواه ونفخَ فيه من روحه﴾[٢٠].

٢١ - ﴿فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقِعوا لهُ ساجدين﴾[٢١].

٢٢ - ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا لهُ ساجدين﴾[٢٢].

فقد ورد ذكر الروح في اثنتين وعشرين آية من آيات القرآن الكريم وورد ذكرها مرتين، في آيتين منها فيكون مجموع ما ذكرت أربعاً وعشرين مرة.

المعنى الموجود في هذه الآيات للروح:

في الآيات: ﴿وآتينا عيسى ابنَ مريم البيناتِ وأيدناه بروحِ القدس﴾ و: ﴿قل نزّله روحُ القدس من ربّك ليثبّت الذين آمنوا﴾ و: ﴿نزله به الروحَ الأمين على قلبِك لتكون من المنذرين﴾.

في هذه الآيات الثلاث معنى الروح واحد والمقصود به هو الملاك جبريل عليه السلام، رسول الله إلى رسله وأنبيائه وأحياناً يرسل الله تعالى سواه، فالأمر له سبحانه وتعالى.

وفي الآيات: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ و: ﴿ينزّلُ الملائكةُ بالروح من أمره على مَنْ يشاء من عبادِه أنْ أنذِروا أنّه لا إله إلاّ أنا فاتقونِ﴾ و: ﴿يُلقي الروح من أمرِه على من يشاء من عبادِه لينذرَ يومَ التلاق﴾.

في كل هذه الآيات يشرح الله تعالى كيف يتم الوحي للرسل عن طريق الملائكة (الروح من أمره) شيء خاص بالله تعالى لم يشأ أن يفسره في القرآن الكريم بدليل أن بعض الناس سألوا الرسول عنه، فأجابهم الله تعالى جواباً مقتضباً يشير به أنه لا يود التحدث عنه، لأنهم لن يفهموه ولو حاولوا: كما في الآية: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروحُ من أمرِ ربّي وما أُوتيتُم من العلمِ إلاّ قليلاً﴾ ثم إن الله تعالى يتحدث عن نفس الروح في الآيات الآتية:

---

(١٦) سورة الشورى: ٥٢
(١٧) سورة مريم: ١٧
(١٨) سورة الأنبياء: ٩١
(١٩) سورة التحريم: ١٢
(٢٠) سورة السجدة: ٩
(٢١) سورة الحجر: ٢٩
(٢٢) سورة ص: ٧٢

﴿وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٍ منه﴾.

﴿أولئكَ كتبَ في قلوبهم الإيمان وأيدّهم بروحٍ منه﴾.

﴿فأرسلنا إليها روحَنا فَتَمَثَّلَ لها بشراً سوياً﴾.

﴿ومريم ابنة عمران التي أحصَنْت فرجَها فنفخْنا فيه من روحنا﴾.

﴿والتي أحصنَتْ فرجَها فنفخْنا فيه من روحنا﴾.

﴿ثم سوّاه ونفخَ فيه من رُوحه﴾.

﴿ولا تيأسوا من رُوح الله﴾.

﴿فإذا سويته ونفخْتُ فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين﴾.

وهكذا نجد في هذه الآيات الثمان: روحنا، روحي، روح منه (أي من الله) روحه، روح الله، ويتعذر بيان المقصود بالروح تماماً في هذه الآيات في القرآن الكريم، فالروح من غيب الله تعالى ولا يعرفه إلا هو، كذلك لا نستطيع أن نتقول بالظن الأقاويل، فالله تعالى لم يذكر أكثر من الموجود أمامكم، وهذا كل ما ذكر في القرآن الكريم بالحرف بلا زيادة أو نقصان.

وهناك الآيتيان التاليتان: الآية الأولى التي تقول: ﴿تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة﴾ وأعتقد أن هذه الآية هي التي التبست على الناس وشغلت خيالهم، فألّفوا حولها الأحاديث والأقاويل ظناً منهم أن الروح المذكورة هنا هي الروح التي تغادر جسد الإنسان لتعود إلى ربها، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً فمن الأجدر بهؤلاء أن يبحثوا جيداً في القرآن ليجدوا الآية الثانية التي تقول: ﴿تنَزَّلُ الملائكةُ والروح فيها بإذنِ ربّهم من كلِّ أمر﴾ ليجدوا أن المعنى الذي فهموه غير وارد في هذه الآية، لأن الروح إن كانت صاعدة في المرة الأولى فها هي تعود مرة أخرى فتنزل مع الملائكة كما تشير الآية الثانية فمن هي هذه الروح التي ترافق الملائكة، ثم نجدها أيضاً في الآية التالية: ﴿يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً﴾.

ليس في آيات القرآن الكريم أي جواب عن ذلك إلا الجواب الذي أتى على لسان الرسول: ﴿قل: الروحُ من أمرِ ربي﴾ ولا نعلم أكلها في معنى واحد أم أن لكل فئة من هذه الفئات التي ذكرناها معنى مخصّصاً عند الله تعالى.

لكن الشيء الأكيد الذي نستطيع أن نقوله، أنه ليس بين هذه الأنواع من الأرواح التي

بحثناها أي صلة بموضوع روح للإنسان والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يقل ولم يحدد لأي مخلوق من مخلوقاته روحاً في كل آيات القرآن الكريم هناك آية وحيدة بقيت لم نذكرها بعد وهي الآية: ﴿فأمّا مَنْ كان من المقرّبين فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم﴾.

ويستخلص من سياق الآية أن معناها أقرب للراحة والسعادة والسرور، إذاً نستطيع جزماً أن نقول: ليس في هذه الآيات روح إنسانية كما نتخيّل ونظن.

بل قال الله تعالى: إن النفس هي التي تسكن في الجسد وهي التي تفارقه عند الموت وتعود إلى ربها.

﴿يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربكِ راضيةً مرضيةً﴾(٢٣).

﴿ونفسٍ وما سواها فألهمَها فجورَها وتَقواها﴾(٢٤).

﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ ونبلوَكُم بالشرّ والخيرِ فتنة﴾(٢٥).

﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ ثمَّ إلينا ترجعون﴾(٢٦).

﴿ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها﴾(٢٧).

﴿وما أبرىءُ نفسي إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوء إلاّ ما رحمَ ربي﴾(٢٨).

﴿ثم تُوفّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهمْ لا يظلمون﴾(٢٩).

﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ إنما تُوفَّونَ أجورَكم يومَ القيامة﴾(٣٠).

﴿يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ مُحضَراً﴾(٣١).

﴿اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلمَ اليوم﴾(٣٢).

وأمامي مئات من هذه الآيات وكلها يرد فيها كلمة النفس لا الروح مطلقاً.

من ذلك نعلم أن القرآن يفرق بين الروح والنفس ولكل منهما مدلوله الخاص به.

فلننتقل إلى الأحاديث التي تروى عن الرسول ﷺ في موضوع الروح:

وسوف أختار من علماء الإسلام أفضلهم علماً وإطلاعاًوهو الإمام ابن قيم الجوزية الذي

(٢٣) سورة الفجر: ٢٧ + ٢٨
(٢٤) سورة الشمس: ٧
(٢٥) سورة الأنبياء: ٣٥
(٢٦) سورة العنكبوت: ٥٧
(٢٧) سورة السجدة: ١٣
(٢٨) سورة يوسف: ٥٣
(٢٩) سورة آل عمران: ١٦١
(٣٠) سورة آل عمران: ١٨٥
(٣١) سورة آل عمران: ٣٠
(٣٢) سورة غافر: ١٧

يعد مع أستاذة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية من أفضل علماء عصرهما في عصور الانحدار الإسلامي وكانا رحمهما الله من الذين بدؤوا يتلمسون بعض ملامح الأضواء التي تتراءى لفاقدي البصر عادةً قبل أن يستعيدوا أبصارهم، ومن هذا الباب يمكن اعتبارهما من أوائل المفكرين الإسلاميين الذين حاولوا الإصلاح ومن المصلحين الثوريين أو التقدميين الإسلاميين بتعبير هذا العصر. ثوريين بالنسبة إلى عصرهما فقط وليس بمقياس عصرنا ولا نظلمهما فإن الظروف التي كانت تحيط بهما في عصرهما الذي كان عصر وَهم وضياع وعمى كامل، وفرص التنوير لم تكن متوافرة عندهم كتوافرها عندنا، فلا طباعة ولا كتب ولا مكتبات تحصّل منها المعلومات بوسائل عصرية، ولا تلفاز أو فيديو، وتسجيلات لملايين الوثائق على الحاسبات الألكترونية يمكن استخدامها وسائلَ ومصادرَ للمعلومات، وإن كنا لا نلومهما فالأولى أن نلوم أنفسنا نحن مسلمي القرن العشرين بعد توافر كل تلك الوسائل أن نرضى لأنفسنا وبلا مسوغ معقول أن نبقى في عصر الظلمات دون الخروج إلى نور الله وضيائه وشمسه وحقائقه التي خلقها لنا في هذه الحياة الدنيا ليختبرنا بها، لنعد إذاً إلى كتاب الروح لابن قيّم الجوزية لنرى ما فيه من حقائق عن الروح يمكن أن نستفيد منها علماً أو أوهام لا فائدة منها(*):

المسألة الأولى:

(هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا؟)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا: (صفحة ٢٤ نفس المصدر): «نعم يسمع الميت في الجملة، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يسمع خفق نعالهم حيث يولون عنه،...» وقد ثبت أنه ﷺ كان يأمر بالسلام على أهل القبور ويقول: «قولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين المسلمين... الحديث» فهو خطاب لهم وإنما يخاطب من يسمع(**)...

ولكن قال مالك بن أنس: «بلغني أن الأرواح مرسلة تذهب حيث شاءت».

وورد في الصفحة ٢٥ من كتاب الروح ذاته: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ: «إذا مر الرجل بقبر أخيه فسلّم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مرّ بقبر لا يعرفه

(*) كتاب الروح: لابن قيم الجوزية ط٥ دار العربي - بيروت - ص ٢٢ - ٢٤

(**) راجع أيضاً في ذلك مجموع الفتاوي (٢٤/ ٣٦٣ - ٣٦٤) حيث يؤكد ابن تيمية بأن الأرواح تكون في أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لاتفارقه.

فسلم عليه رد عليه السلام» وعن ابن تيمية أنه قال(*): (اللهم رب الأجساد البالية والأرواح الفانية).

وفي الصفحة ٢٨ من كتاب الروح ورد:

(وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحيّ من أقاربه وإخوانه... عن أبي أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به..).

لا أحب أن أعلق على ما تقدم من هذا الفصل إلا بالآية الكريمة التالية من القرآن الكريم: ﴿وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ إنّ اللهَ يُسمِعُ مَنْ يشاء وما أنتَ بِمُسمِعٍ مَنْ في القبور﴾(٣٣).

المسألة الثانية والثالثة:

هل تتلاقى أرواح الموتى وتتزاور وتتذاكر؟

ولا أحب أن أدخل بالتفاصيل في هذه الموضوع وإنما أود أن أذكر حديثاً واحداً يروى عن الرسول ﷺ جاء في كتاب الأرواح للمؤلف نفسه:(أما عن اجتماع روح الموتى بأرواح أقاربهم وأهليهم فيقول ابن تيمية «روى أبو حاتم في الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الميت إذا عرج بروحه تلقّته الأرواح يسألونه عن الأحياء، فيقول بعضهم لبعض دعوه يستريح... إلى نهاية الحديث» وتكملة الحديث لا تعنيني هنا، وورد أيضاً في الكتاب ذاته مسألة التقاء الأرواح وتزاورها وتذاكرها بعد الموت.

قال ابن عباس: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله لها فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل الأحياء إلى أجسادها(**).

المسألة الرابعة:

أتموت الروح أم الموت للبدن وحده؟

(*) تأويل مختلف الأحاديث ص ١٤٩ ـ ١٥٤

(**) الجامع لأحكام القرآن: ١٥ ص٢٦٣، ولا أدري إن كان ابن عباس يرويها عن نفسه أم نقلاً عن الرسول ﷺ، فقد ورد نص الحديث هكذا في الكتاب

(٣٣) سورة فاطر: ٢٢

اختلف العلماء في هذا فقالت طائفة تموت الروح.. وقال الآخرون لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء.

ومن مسند الإمام أحمد الحديث التالي: وقد أخبر النبي ﷺ بأن نسمة المؤمن وهي روحه طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسده(*).

وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل الطير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة.

وقد قال الإمام القرطبي: «أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء؟... إلى أخر الحديث» رواه مسلم وابن ماجة.

وأريد أن أعلق بآية واحدة من القرآن الكريم: ﴿ولا تحسبنَّ الذينَ قُتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربهم يُرزقون﴾(٣٤) فهل في حوصلة الطير غير طعام الطير وكيف تتسع لتكون جنة للشهيد؟

المسألة الخامسة:

هل تعاد الروح إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟:

وعن كلام الميت في قبره يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى: نعم يتكلم الميت وقد يسمع أيضاً من كلمه لقوله ﷺ: «إنهم يسمعون قرع نعالهم» وثبت أنه قال في الصحيح: «إن الميت يسأل في قبره...».

ثم يقول ابن قيم الجوزية: «يتكلم المنافق فيقول: آه!! آه!! لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان» فهل ترون إلى أي حد من الوهم قد وصلوا، ولكني أعذرهم ولا أعذر من يتوهم الآن.

ويقول ابن قيم الجوزية في الصفحة ٨٠ في الموضوع ذاته: فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس بحيث صرّح بإعادة الروح إليه، فقال البراء بن

(*) كتاب الأرواح: لابن قيم الجوزية، ومسند الإمام أحمد ٣/٤٥٥، وابن ماجه ص١٤٤٩
(٣٤) سورة آل عمران: ١٦٩

عازب: كنا في جنازة في بقيع الفرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد إذا كان في إقبال الآخرة وانقطاع عن الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجد على وجه الأرض قال: فيصعدون بها فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى. فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له مَن ربك؟ فيقول ربّي الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك بهذا! فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ من السماء لو صدق عبدي فافرشوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره قال ويأتيه رجل حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت؟ فوجهك الذي يجيء بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي وهكذا في قصة طويلة نمر فيها على العبد الكافر الذي يكون استقباله بما يليق به... إلى آخر تلك القصة.

المهم أن في القصة نفسها تناقضات لم يلاحظها الذي تخيلها وهي:

١ ـ إنه يقول إن روح الميت تصعد للسماء السابعة ثم تعود للقبر في اليوم ذاته، بينما يذكر لنا الله تعالى أن صعود الملائكة للسماء السابعة تأخذ مدة حددها الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ولا يعلم كاتب القصة أن سنن الله وقوانينه ملزمة للملائكة ولكل المخلوقات فلا تبديل ولا تحويل لتلك السنن فيقع في هذه الخطيئة الأولى من باب أن الله على كل شيء قدير، فيظن أن قدرته غير ملزمة له بالقوانين التي يسنّها في الكون.

٢ ـ يظن الكاتب أن الله يسكن في السماء السابعة، ولا يعلم أن الله موجود في كل مكان، وليس في الكون مكان لا وجود لله فيه، فيظن لذكر الكرسي والعرش في القرآن أنهما مثل عرش الملك وأن الله مخلوق مادي له بدن ورأس ويدان، وأنه يجلس فوق الكرسي، لتخيله هذه الأشياء حسب ظنه مع أنها لا زالت في غيب الله فلا نعلم عنها شيئاً، فالملاك الذي يصعد إلى السماء السابعة يقابل الله ويجده فيها، والذي يصعد للسماء الأولى يجده فيها ونحن على الأرض والله معنا أيضاً على الأرض فالله موجود في كل مكان، وقد غابت هذه الحقيقة عن الكاتب.

٣ ـ اعتقاده أن النفس التي تخرج من الجسد لها مادة ملموسة ويمكن رؤيتها وكأنها روح الملح أو روح الليمون، فهي في نظره مادة مقطرة من مادة ما، وكذلك زعم أن نفسه تسيل كقطرة في السقاء. ثم يخلط بعد ذلك فيظن أن الجنة موجودة قبل يوم البعث، لما قرأ في القرآن من آيات بأسلوب الله الذي يجعل المستقبل ماضياً، وحاضراً كنوع من أساليب التعبير الإعجازي في القرآن، فيتوهم أن الجنة والنار موجودتان فعلاً الآن في السماء، وكل هذه الأمور التي يتحدث عنها من غيب الله ولا يجرؤ أي رسول أن يفتري على الله تعالى هذا الافتراء فكيف برسول الله محمد ﷺ النبي الصادق الأمين، الذي لم يعرف عنه الكذب قبل الرسالة فيأتي بعد أن منّ الله عليه وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين أجمعين فيكذب على الله؟ ولماذا؟.

ـ ويهمنا أخيراً ما علق به شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية على هذه الأحاديث إذ قال: (الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عودة الروح إلى البدن وقت السؤال وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور (أي رأي الأغلبية مع رأي عودة الروح للبدن) وقابلهم آخرون فقالوا السؤال للروح بلا بدن وهذا قاله ابن مرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة تردّه ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص).

في صحيح مسلم عن أبي هريرة(*): «إن النبي ﷺ قال إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنةالمسيح الدجّال».

ونقول إن عذاب القبر لا ذكر له في القرآن، ولا يمكن أن يتقوله الرسول وأما فتنة المسيح

(*) كتاب الروح: ص٩٨

الدجال فهي من علوم اهل الكتاب وليس لدينا نحن المسلمين في القرآن أي ذكر له، فهو مستعار ومنقول من الإسرائيليات المدسوسة علينا، وهكذا نجد أن نصف الحديث لا يمكن للرسول أن يقوله. وفي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت: إن أهل القبور يعذّبون في قبورهم، قالت: فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها، قالت: فخرجت ودخل عليّ رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذّبون في قبورهم: قال: صَدَقَت، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها، قالت فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوّذ من عذاب القبر».

وهذا كلام لا يقبله العقل ولا المنطق السليم أن يتعوذ الرسول من عذاب القبر بعد أن سمع حديث العجوز اليهودية وكان قبلها لا يفعل ذلك. لماذا؟.

هل كان الرسول ﷺ غافلاً عن الموت وعن عذاب القبر فذكرته اليهودية بذلك؟ ما أبعد ذلك عن الرسول ﷺ وأسلوب تفاعله مع الإسلام فقد كان ﷺ يمتثل لتعليمات الله ولا تثيرها في نفسه المصادفات والحوادث اليومية.

ومن الملائم بعد أن كوّنّا فكرة عما ورد في كتاب الروح أن نلمح إلى عناوين فصوله الرئيسية وما فيها من الأوهام المركبة، ذلك أن الحقيقة تخلق حقائق والأوهام تخلق أوهاماً جديدة ومنها ما ورد فيه (ص ١١٨) تحت عنوان (الأمر الخامس والسادس) أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها إنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا). والتساؤل البدهي هنا من أين أتاهم هذا العلم الذي انهمر عليهم هكذا فجأة وهم ما زالوا على قيد الحياة؟ ثم يتمّ الموضوع قائلاً: (بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النار ولا يصل حرها إلى جاره وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره).

(وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً من وفقه الله وعصمه).

ماذا نكتشف من الكلام السابق؟ نكتشف أنه فُقِد الميزان الصحيح للأمور. وأفضل

وصف له يأتي من الله: ﴿قد ضلّوا وما كانوا مهتدين﴾[٣٥].
﴿الذين ضلّ سعيهُم في الحياةِ الدنيا﴾.[٣٦]

وما سمعنا من آراء كان رداً على الزنادقة الذين (قالوا: فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً صماًيضربون الموتى بمطارق من حديد ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيراناً تأجج ولو كشفنا حاله في حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لوجدناه على حاله وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟.

قالوا: ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه ناراً ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان ومدارج الرياح كيف تُسأل أجزاؤه مع تفرقها وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه؟) وهذا الكلام من نفس المصدر تحت عنوان جوانب للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وكون الملك لا يجلس ولا يقعد فيه).

المسألة السادسة:

وهي ما ورد في المصدر نفسه (ص ١٣١) حول قول السائل: ما الحكمة من كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟
فالجواب من وجهين مجمل ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى: ﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمة﴾[٣٧]، وقال تعالى: ﴿هو الذي بعثَ في الأميينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِهِ ويُزكّيهم ويُعلّمهم الكتابَ والحكمةَ﴾[٣٨] والكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة باتفاق السلف وما أخبر به الرسول ﷺ عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان

(٣٥) سورة الأنعام: ١٤٠
(٣٦) سورة الكهف: ١٠٤
(٣٧) سورة النساء: ١١٣
(٣٨) سورة الجمعة: ٢

به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم وقد قال النبي: «إني قد أوتيت الكتاب ومثله معه».

أما الجواب المفصل: (فلا حاجة للخوض فيه يكفينا أننا تعرفنا على الموضوع جملة).

المسألة السابعة: (وهي قول السائل ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور):

جوابها من وجهين مجمل ومفصل:

أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت لأمره واجتنبت نهيه ولا بدناً كانت فيه أبداً.

فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة وأثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب... إلخ) وهذا الكلام يناقض آيات القرآن.

المسألة الثامنة:

الأسباب المنجية من عذاب القبر.

المسألة التاسعة:

وهي أن السؤال في القبر (القبور) هل هو عام أم يخص المسلم والمنافق؟.

المسألة العاشرة:

وهي أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها؟.

المسألة الحادية عشرة:

وهي أن الأطفال هل يمتحنون في قبورهم؟.

المسألة الثانية عشرة:

وهي قوله هل عذاب القبر دائم أم منقطع؟.

المسألة الثالثة عشرة:

هل الروح قديمة أم حديثة مخلوقة؟.

المسألة الرابعة عشرة:

هل تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخّر خلقها عنها.

وهكذا تتوالى عناوين الكتاب على هذا النمط المتماثل، فماذا نحصّل من قراءتنا الكتاب؟

أولاً: نكتشف من الكتاب أن ابن قيم الجوزية قرأ الكثير ومعلوماته غزيرة ومتنوعة، لكن المشكلة الأساسية عنده وعند كل من درس مسائل الدين قبله أنهم يرتكزون على حجر زاوية أساسي في كل تصوراتهم وأبنيتهم، وحجر الزاوية هذا الذي اعتمدوه كان من الأساس وهماً لا وجود له إلا في رؤوسهم، فليس له وجود حقيقي خارج تلك الرؤوس فكل ما بنوه من أبنية كلها من الملح تذوب وتضمحل مع أول موجة ماء حقيقية.

وما يبنى على الوهم لا يدوم. والوهم ظن.

﴿إن نظنُّ إلا ظَنّاً وما نحنُ بمستيقنين﴾[٣٩].

﴿وما لهم بذلك من علمٍ إن همُ إلا يظنون﴾[٤٠].

﴿إن الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً﴾[٤١].

﴿وما يتبع أكثرهُم إلا ظناً﴾[٤٢].

﴿إن يتبعونَ إلا الظنَّ وما تهوى الأنفس﴾[٤٣].

فأول الظن وأكبره أتى من اعتقاد الذين دخلوا كهف الإسلام من بداية عصر الانحدار الإسلامي إلى اليوم أن الله أرسل للإسلام كتابين ووحين أحدهما اسمه الكتاب وهو المصحف الذي معنا والثاني هو الحكمة وهي أحاديث الرسول، واعتبروا الكتابين ملزمين، فتركوا العمل بالأول وعملوا بالثاني. ولا نستغرب أن يتوهّم هؤلاء وجود كتاب آخر مع كتاب الله فكتاب الله تعالى عملي فعّال وُجِدَ لأناس عمليين فعالين من أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وأمثالهم، ليس فيهم واهم ولا حالم، كلهم رجال حقيقيون، يتحركون بالحق ومع الحق وللحق، أما الذين دخلوا إلى كهف الإسلام فلم يدخلوه للعمل والفعل وإنما دخلوه للنوم والكسل والاسترسال للخيالات والأوهام،

---

(٣٩) سورة الجاثية: ٣٢
(٤٠) سورة الجاثية: ٢٤
(٤١) سورة النجم: ٢٨
(٤٢) سورة يونس: ٣٦
(٤٣) سورة النجم: ٢٣

وكتاب الله لا يناسبهم لأنه لا يجاريهم في أحلامهم بل إنه يقرع آذانهم ويبهر أبصارهم الكليلة، التي لم تتعود على شدة الضياء، فوجدوا ضالّتهم المنشودة في ملايين من الأحاديث التي ليس فيها من الصحيح إلا النادر جداً. وأنا لا أبالغ ولا أتجنّى، فالبخاري نفسه اعترف أنه جمع ستمائة ألف حديث بجهده الشخصي اختار منها واحداً في المائة: أي ستة آلاف وتخلص من ٩٩٪ منها، والذي يبحث بدقة في أحاديث البخاري وصحيحه من جديد حسب معطيات العصر وعلومه يستطيع أن يتخلص من ٩٩٪ منها أيضاً بكل سهولة(*). وهكذا لما لجأ الناس إلى أحاديث الرسول على أنها وحي كامل له من القيمة ما للقرآن ابتعدوا عن الحقائق الكاملة الموجودة في القرآن إلى الأوهام الكاملة الموجودة في الأحاديث التي ظنوها صحيحة، وهي ليست كذلك. فلماذا نقول إنّها غير صحيحة؟

لو كان كاتب كتاب الروح أقرب للقرآن وآياته من الأحاديث التي كانت عزيزة على قلبه لاكتشف مثل ما اكتشفنا الآن في مقدمة هذا البحث أن الله لم يقل في القرآن مرة واحدة كلمة روح وهو يقصد بها روح الإنسان وإنما قال على الدوام «النفس» ولو كان الكاتب يعلم بهذه الحقيقة البسيطة التي تعد لنا بدهية الآن بعد أن تأكدنا أن الله لم يقلها ونحن على يقين حقيقي، لسمّى كتابه «النفس» بدل الروح ولما وقع في هذا الوهم من الأساس.

ولأنه كان بعيداً عن آيات الله، ولم يكن محيطاً بها إحاطة كاملة ربما لنقص في منهج البحث العلمي الذي لم يكن قد اكتمل في عصره، فلم تكن لديه وسائل لكشف ما يناقض القرآن من الأحاديث. ولذلك وقع في تناقضات واضحة وصريحة لا يجوز أن يقع فيها المسلم القريب من القرآن الحافظ آيات الله، المتفهم مقاصده وغاياته من ذلك مثلاً:

توهّم أصلاً بوجود عذاب للميت في القبر، ولو قرأ آيات القرآن لاكتشف منها أن الميت لا يتألم وذلك عندما يتحدث عن أهل النار: ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها﴾(٤٤) لماذا لا يموتون؟

لأنهم إن ماتوا توقّف العذاب، لأن الله يعلم أن الميت لا يتعذّب وإن كنا نحن لا نعلم،

(*) لقد برهنت على ذلك في كتابي الثاني (دين السلطان) بشكل علمي بعد أن طرحت الأحاديث وقابلتها بآيات القرآن الكريم. فظهر تناقضها.

(٤٤) سورة فاطر: ٣٦

فالله في كتابه يقدم حقائق لا أوهاماً، فالله تعالى عندما يضرب مثلاً يختار مثله بحيث يكون المثل نفسه من حقائق العلم، وليست أمثاله قابلة للتناقض كما في حديثنا نحن البشر ففي قوله تعالى على لسان يوسف على سبيل المثال: ﴿إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين﴾(٤٥) قد يتبادر إلى ذهننا أن عدد الكواكب قابل للزيادة أو النقص لأنه ورد رمزاً لإخوة يوسف الأحد عشر لكنه تعالى يقدم معلومة علمية دقيقة أيضاً فكما أن عدد أخوة يوسف أحد عشر وكذلك عدد الكواكب في المجموعة الشمسية أيضاً فهي أحد عشر وليس سبعة كما كان يعتقد في القرن العاشر الميلادي، يوم لم يكن علم الفلك متطوراً، وفي القرن العشرين، في عصر الفضاء علمَ الإنسان أن عددها فعلاً أحد عشر كوكباً لا سبعة، وهكذا غاب عنهم مصدر الحق والحقائق لأنهم جعلوا الأوهام التي تروى بلسان أبي هريرة وعن ابن عباس وعن ابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين توازي حقائق القرآن. لم يظلمهم الله ولم يظلمهم أحد إلا أنهم ظلموا أنفسهم ولن نستطيع أن نغطي نور الشمس في وضح النهار بكل القش الموجود في العالم ـ الحقيقة تبقى حقيقة والوهم يبقى باطلاً.

لذلك قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثالُ نضربُها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾(٤٦) بل لو قرؤوا القرآن لوجدوا أكثر من ذلك: ﴿كلما نَضِجَتْ جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرها﴾(٤٧) وهذه حقيقة علمية من حقائق القرن العشرين وهي إحدى معجزات الله وآياته في القرآن الكريم.

الله تعالى يقول لنا: إنَّ مركز الألم في الإنسان موجود في الجلد بحيث إذا زال الجلد عنه لسبب ما كالحرق مثلاً في هذا المثال توقف الألم. هذه حقيقة لم يعرفها الإنسان حتى هذا العصر. ونحن نبحث عن عذاب الأموات في القبر والله تعالى يعلمنا في كتابه العزيز عن مركز الألم أصلاً وهو جلد الإنسان لذلك يبدله لعباده في جهنم ليذيقهم العذاب الدائم.

إذاً لا يشترط أن يتألم الحي إذ يمكن أن يفقد الوعي فلا يتألم، ويمكن أن يفقد جلده فلا يتألم، ونحن نصر على أن الميت يتعذب في القبر. لقد استغربت لمّا قرأت رأي الشيخ في الزنادقة إذ وجدت أنهم لا زالوا يملكون منطق العلم السليم، فهم على الأقل لم يضيعوا ضياعاً تاماً، ولا زال لديهم بقية من عقل يستندون إليه ويحتكمون له على الأقل.

---

(٤٥) سورة يوسف: ٤ (٤٦) سورة العنكبوت: ٤٣ (٤٧) سورة النساء: ٥٦

وكذلك نجد أن الله تعالى يقول: ﴿إنه من يأت ربهُ مجرماً فإنَّ لهُ جهنمَ لا يموتُ فيها ولا يحيى﴾(٤٨) لماذا لا يموت؟ حتى لا يتوقف العذاب. ولماذا لا يحيى؟ وهل تسمي الاحتراق في النار حياة؟. إنه عذاب مستمر لاحظ هذا الوصف لجهنم في القرآن الكريم: ﴿ومن ورائه جهنمَ ويسقى من ماءٍ صديد * يتجرّعهُ ولا يكادُ يسيغهُ ويأتيه الموتُ من كل مكان وما هو بميتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظ﴾(٤٩) إن الله تعالى لا يخادع عباده فيقول لهم ظنوناً، إنه سبحانه لا يخافهم ولا يخشاهم بل يقول لهم الحقيقة كاملة، وبما أنه يعلم أن الميت لا يتألم فإنه يخبرهم بذلك: يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت، لماذا؟

لكي لا يموت فيرتاح من عذاب الله. وهذا هو المقصود بالعذاب الشديد. ولننتقل الآن إلى استعراض ما بين أيدينا من آيات العذاب في القرآن الكريم وهي تعد بالمئات، لنتأكد إن كان فيها بعض الآيات التي إذا أسيء تأويلها يمكن للواهم أن يستنتج منها بعض الأوهام:

﴿سنعذّبهم مرتين ثم يُردّون إلى عذابٍ عظيم﴾(٥٠).

فالعذاب يتم أحياناً في أثناء الحياة الدنيا، ففي قوله تعالى: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوءَ العذاب﴾(٥١) تشير الآية إلى نوع من عذاب الدنيا، في أثناء الحياة، فالعبوديةُ عذابٌ وعذاب النفس في الذل عذاب شديد.

ثم يأتي الله بغضب على قوم بعد عذابهم فيدمرهم فيكون العذاب الثاني كما في الآيات:

﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابُ اللهِ بَغتةً أو جَهرةً هل يُهلك إلا القوم الظالمون﴾(٥٢).

كما يحدثنا الله تعالى في القصص القرآني كيف عذب قوم نوح وقوم لوط وعاد وثمود، وهذا أيضاًهو من العذاب الذي في الدنيا.

وقتل المشركين على أيدي المسلمين في بدر كان عذاباًللمشركين، العذاب الثاني قبل الموت ولذلك نرى أن العذابين هنا كانا في الحياة الدنيا وليس العذاب الأول في الدنيا والثاني في القبر والبرزخ كما قد يتوهم المتوهمون.

وإليكم الآية التالية:

---

(٤٨) سورة طه: ٧٤ (٥٠) سورة التوبة: ١٠١ (٥٢) سورة الأنعام: ٤٧

(٤٩) سورة ابراهيم: ١٦ ـ ١٧ (٥١) سورة الأعراف: ١٤١

﴿ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾[٥٣].

وفي هذه الآية قد يتوهم الإنسان أن الله يقصد أن يعذب الناس في الدنيا ثم يعذبهم أيضاً بعد الموت إلى يوم القيامة وهمأمن عند نفسه وهذا خطأ. فالله تعالى يخاطب في هذه الآية قوماً من الناس سوف يعذبهم في هذه الحياة ثم يعذب من بعدهم أحفادهم مثل آبائهم وهكذا حتى يوم القيامة. ومن لا زالوا ضالين كآبائهم، ويجب أن لا نبحث بعيداً، فنحن الآن ينطبق علينا نص الآية اعتباراً من ألف وأربعمائة سنة وحتى اليوم، لا يكف الله عن تعذيبنا ليس ظلماً منه سبحانه وتعالى إنما ظلم من أنفسنا نتيجة ما زرعوه في جماجمنا من أوهام لا نستطيع أن نتخلص منها بجهلنا، ولسوف نظل نتعذب حتى نتخلص منها فنعود للحق والحقيقة وإلى صراط الله المستقيم. أما أن نحلم أننا على الصّراط ونحن على الضلال فهذا لا يستقيم إلى يوم يبعثون.

ومن يقرأ الكتاب كله يصاب بصداع أليم عذاباً من الله على هذا الوهم العقيم ولو كان فهمنا المغلوط لآيات العذاب سليماً فذلك يعني أن الله سبحانه وتعالى قد نقل مكان اهتمامه واختباره للإنسان من الحياة الدنيا إلى القبر مفتتاً هو وملائكته الكرام باختراع أشد أنواع التعذيب والتنكيل بالموتى وكأنّ الله تعالى قد تحول إلى دراكولا مصاص للدماء ليس له من همّ ولا تسلية إلا تعذيب الأموات، وسماع صراخهم الذي يُسمِعُ كلَّ شيء، وهذه الصورة المشوهة عن الله تعالى هي عكس الصورة الموجودة في آيات القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ على نفسه الرحمة﴾[٥٤].

﴿إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنه نُكفّر عنكم سيئاتكم﴾[٥٥].

﴿إن اللهَ لا يظلِمُ مثقالَ ذرة﴾[٥٦].

﴿فإن انتهَوْا فإن الله غفورٌ رحيم﴾[٥٧].

﴿إلاّ الذينَ تابوا وأصْلحوا وبيّنوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التوابُ الرحيم﴾[٥٨].

﴿والذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربكَ من بعدها لغفورٌ رحيم﴾[٥٩].

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمةِ الله﴾[٦٠].

صدق الله العظيم.

---

(٥٣) سورة الأعراف: ١٦٧
(٥٤) سورة الأنعام: ١٢
(٥٥) سورة النساء: ٣١
(٥٦) سورة النساء: ٤٠
(٥٧) سورة البقرة: ١٩٢
(٥٨) سورة البقرة: ١٦٠
(٥٩) سورة الأعراف: ١٥٣
(٦٠) سورة الزمر: ٥٣

خاتمة للبحث:

لكي نخرج من الكهف الذي اخترناه ظلماً لأنفسنا وحشرنا أنفسنا فيه منذ أكثر من ألف عام لا بدّ أن نتراجع عن خطئنا ليغفر لنا الله فنجدد رسالته إلى العالم، ونُستخلف في الأرض التي خلقها لنا رب العالمين لتكون مقاماً ومعاشاً لنا، وأتقن رب العزة خلقه، وسخر لنا الشمس والقمر، وجعل لنا الأرض ذلولاً، وسخر لنا البحر لتجري فيه السفن، وسخر لنا الرياح لتأتينا بالأمطار والرزق الوفير، وخلق لنا من الثمار ما نشتهي، وجعلها لنا جنة على الأرض لنصلح فيها، ولا نقوم على إفسادها، وشكرنا الله على نعمه. ولكن الإنسان دائماً عجولٌ كفورٌ لا صبر له، إن خاف وجزع رفع يديه إلى السماء وإن أنعم عليه.. تكبر وتجبر ونسي الله وقال: ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً.

ويعلم الله أن نفس الإنسان أمارة بالسوء، يحب الشهوات والمال والأملاك وزينة الحياة الدنيا، وأن قسماً كبيراً منا نحن البشر سوف يكفر، وقسماً آخر سوف يكون من عباده المخلصين الذين سيرضى عنهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وهيأ للكافرين عذاب جهنم إن لم يتوبوا ويرجعوا آخر الأمر إلى ربهم مستغفرين ـ كل هذه الأمور تمر طبيعية لأنها من الأشياء الطبيعية المتوقعة ـ أما أن يشذ عن هؤلاء قسم لا من الكفار الذين أعلنوا كفرهم وتحديهم لله، ولا هم من المؤمنين العاملين النشيطين الذين يعملون الصالحات ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

قسم يرفض سنة الله في التطور والتقدم والتغير التي هي سنته في كل شيء ولكل مخلوق إلا وجهه فهو الوحيد الذي لا يتغيّر ولا يتحول.

هؤلاء الذين يثبتون على حال واحدة والثبات على حال واحدة غير جديرة إلا بالله وحده سبحانه وتعالى، فيصبح هذا التوقف نوعاً من الإشراك بالله تعالى يرفضه الله أشد الرفض ليس تحسساً، ولا لأن ذلك سوف يضرّ الله، لا لن يستطيع أن ينفعَ اللهَ مخلوقٌ كما لن يستطيع أن يضرّه مخلوق. وإنما غضبه يأتي مثل غضب الوالد على ابنه لأنه اختار طريقاً مسدوداً.

آمنا بالله وبرسوله وغالينا حباً له وإكراماً وأتانا الشيطان وأقنعنا أن مع كتاب الله كتاباً آخر بالرغم من تنبيه الرسول الصريح لنا بعدم كتابة ذلك الكتاب، فما أطعنا الله ولا الرسول بل أطعنا أهواءنا وشياطيننا، ثم تركنا كتاب الله إلى ذلك الكتاب الذي كله أوهام وظنون وليس فيه حديثٌ يطابق حديثاً آخر حتى ولو كانا في معنى واحد، وربما

دفعنا أعداء ديننا إلى الإيمان بوجود وحي آخر للرسول ﷺ في كتاب آخر هو حديثه، بل إن الله نهانا وينبهنا إلى ما وقع فيه سوانا ونصحنا ألا نقع فيه فقال تعالى: ﴿فبأي حديثٍ بعده يؤمنون﴾(٦١).

﴿الله نزّل أحسَنَ الحديث﴾(٦٢).

﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهونَ حديثاً﴾(٦٣).

ولكنه لم يقل أبداً إنه سمح للرسول أن يتحدث باسم الله فوق القرآن بحرف واحد. فعلمُ الرسول كله من الله ولم يأت من الله إلا القرآن، والقرآن وحده كافٍ ليس لمحمد ﷺ فقط بل إن القرآن يكفي علماً للبشرية كلها حتى يوم الدين، وهل تستقلون القرآن؟ إنه بحر لا يحيط بمداه إنس ولا جان بل كل إنسان يدرك منه ما تيسر له بحسب قدرته على الفهم ولم يُسأل النبي سؤالاً إلا أرسل الله جبريل ومعه جواب له، وهي أجوبة تبدأ بكلمة قل: قل يا محمد... قل للناس... قل....

ولم يحدث أن وقع الرسول في مشكلة إلا حلها الله بآيات مرسلة من لدنه إن كان في غزو أو جهاد أو حلّا لقضية، أو استفساراً عن مسألة فالرسول لم يتصرف ولم يُعطَ حقَّ التصرف مطلقاً، لأن الأمر لله وحده فإن لم يعرف الرسول أمراً اجتهد، وكان اجتهاده حكماً، يؤيده الله فيه، أو ينهاه عنه إن كان يخالف مقاصد الله، وقد حدث هذا مراراً، وهو أمر لا يعيب الرسول فنحن نعرف أنه كان أمياً، ولكنه كان على خلق عظيم، ولذلك ينبهنا الله أن الرسول لا يستطيع أن يتصرف وحده بالرغم من أنه لم يفعل ذلك، وكيف يفعل ذلك والله يقول: ﴿ولو تقوّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحدٍ عنهُ حاجزين * وإنه لَتذكِرةٌ للمتقين * وإنّا لنعلَمُ أنّ منكم مكذّبين﴾(٦٤).

والله تعالى يقول لنا بصراحة تامة أنه يعلم أن بين المسلمين مكذبون سوف يقولون على الرسول أقوالاً لم يقلها، ولم تخطر في ذهنه، وهو أمر سوف يقع، فإذا وقع فعلى ذوي العقول منهم أن ينبّهوا الناس مستعينين بالآيات الكريمة التي تنكر التقول على الله حتى من رسوله، وتهدده إن فعل ذلك كأن يتحدث في غيب الله مثلاً كالروح والعرش والكرسي ومعجزات لم تحصل لأنه لا حديث بعد حديث الله: ﴿فبأيِّ

---

(٦١) سورة الأعراف: ١٨٥

(٦٢) سورة الزمر: ٢٣

(٦٣) سورة النساء: ٧٨

(٦٤) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٩

حديثٍ بعدَه يؤمنون﴾ فمن واجبنا أن ننبه الناس إلى ما قام به الذين ظلموا الرسول ونسبوا إليه زوراً وبهتاناً أحاديث يظهر اليوم أنها غير صحيحة لأنها تناقض العلم والقرآن كالحديث الذي نسبوه إلى الرسول والذي ينص على أنه لن يبقى فوق الأرض بعد مئة سنة نفس منفوسة، لماذا؟ لأنهم ظنوا من آية: ﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمر﴾ أن الساعة قريبة فاخترعوا حديثاً قدّروا فيه قيام الساعة بعد مئة سنة! وظهر الكذب، فماذا كسب الذي كذب بالحديث؟ والله تعالى يعلم بأن سيكون بيننا مكذبون، أما رجال الدين عندنا فمصرّون على أنه ليس بين رجال السند من يكذب أبداً، وكأنهم يقولون: إن الشيطان قد مات والنفس الأمارة بالسوء تطهرت، ولم يبق من شر فوق الأرض - فكان مثلنا في ذلك مثل أهل الكتاب من إخواننا الذين اتهموا عيسى ابن مريم ظلماً وبهتاناً بأنه ابن الله بل ذهبوا إلى أنه الله وأن أمه كانت إلهة، وقد يرى بعضنا في ذلك تعبيراً عن حبهم لعيسى ابن مريم، وأنه صدر عن نية حسنة وأن الأعمال بالنيات لكننا نؤكد أنهم تجاوزوا الحدود بهذا ودخلوا في الممنوع والمحظور: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابنَ مريمَ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمتَه تَعلَمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسكَ إنكَ أنتَ علامُ الغيوب * ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا اللهَ ربي وربكُم وكنتَ عليهم شهيداً﴾(٦٥) وهكذا رسولنا الكريم، سوف يتبرأ من كل الأكاذيب التي ألصقناها به ظلماً وبهتاناً ونحن نظن أننا إنما كنا نحسن لرسولنا ونرفع من شأنه هكذا وهماً وباطلاً.

لذلك لا نستطيع أن نلوم أحداً، ولومنا لن يفيدنا، علينا بأنفسنا وإن قلنا لله يوم القيامة: ﴿وجدنا آباءَنا كذلك يفعلون﴾(٦٦).

أو قلنا له تعالى: ﴿بل نتبعُ ما وجدنا عليه آباءَنا﴾(٦٧).

أو قلنا: ﴿إنا وجدنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنا على آثارهم مهتدون﴾(٦٨).

فإن ذلك كله لن يفيدنا في شيء لأن الله سوف يقول لنا: ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلونَ عما كانوا يعملون﴾(٦٩).

﴿قل لا تُسأَلون عما أجرمنا ولا نُسأَل عما تعملون﴾(٧٠).

---

(٦٥) سورة المائدة: ١١٦ - ١١٧
(٦٦) سورة الشعراء: ٧٤
(٦٧) سورة لقمان: ٢١
(٦٨) سورة الزخرف: ٢٢
(٦٩) سورة البقرة: ٢٤١
(٧٠) سورة سبأ: ٢٥

لماذا؟ لأن: ﴿كل نفسٍ بما كسبتْ رهينة﴾[٧١].

ولأن الله تعالى يقول: ﴿ثم توفّى كل نفسٍ ما كسبتْ وهمْ لا يُظلمون﴾[٧٢].

فنحن إذا كنا سوف نلوم أحداً يجب أن نلوم أنفسنا فقط ليس لمجرد اللوم، فهذا اللوم لا ينفع في شيء وإنما لتغيير الخطأ الحاصل قديماً حتى لا نتحمل نحن وزر الذين كذبوا على الرسول الكريم، ولا وزر الذين ابتدعوا بدعة ظنوها حسنة فنتج عنها تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً بإيجاد كتابين لله، بينما لم يكن ولن يكون له إلا كتاب واحد، فما أعتقد أن البخاري رحمه الله أحسن للمسلمين بإيجاد صحيح ولا مسلم أيضاً، ولا أي من كتب الأحاديث عن الرسول غفر الله لهم جميعاً، وأحسن مثواهم.

إن ما حدث لنا من جراء تحويلنا من كتاب الله تعالى إلى كتاب آخر وهمي كان أكبر كارثة تحصل للإسلام، أو لأي أمة في التاريخ كله، إنها مصيبة دامت أكثر من ألف سنة وما تزال قائمة. إن كوارث الحروب تنتهي وينساها الجيل الثاني والثالث أما هذه الكارثة فقد استمرت أكثر من ألف سنة بكثير. وأثرت في عقول أمة تعدادها مليار نسمة. إنها أكبر من مصيبة الطوفان.

وهكذا قبلنا تطوعاً وتوهماً أن نبقى في كهفنا دون الخروج منه إلى ضياء الله ونوره، وحقائقه وعلومه التي خلقها لنا الله في هذه الحياة الدنيا، ليختبرنا بها، فإن نجحنا في هذه الحياة الدنيا بنى لنا هناك عنده في الآخرة جنة أسكن فيها من كان في هذه الدنيا يؤمن به ويعمل صالحاً يرضاه سبحانه . والله تعالى لم يقصِر في توجيه أوامره ونصائحه وتحذيراته لنا: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[٧٣].

﴿قل سِيروا في الأرض فانظروا كيف كانَ عاقبةُ المجرمين﴾[٧٤].

﴿قل سِيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذّبين﴾[٧٥].

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾[٧٦].

﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[٧٧].

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾[٧٨].

﴿انظر كيفَ يفترون على الله الكذب﴾[٧٩].

---

(٧١) سورة المدثر: ٣٨
(٧٢) سورة آل عمران: ١٦١
(٧٣) سورة العنكبوت: ٢٠
(٧٤) سورة النمل: ٦٩
(٧٥) سورة الأنعام: ١١
(٧٦) سورة الأنعام: ٩٩
(٧٧) سورة يونس: ١٠١
(٧٨) سورة الأعراف: ٨٦
(٧٩) سورة النساء: ٥٠

﴿انظر كيفَ كذبوا على أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾[٨٠].
﴿انظر كيف نصرفُ الآياتِ لعلّهم يفقهون﴾[٨١].
هذه هي أوامر الله وهي نفسها أوامر الرسول، لأن الله تعالى يقول لرسوله قل يا محمد: للناس وهذه هي الأحاديث الصحيحة حقاً التي يجب أن نبحث عنها في القرآن وليس في صحيح مسلم ولا البخاري ولا الإمام أحمد ولا ابن ماجة، ولا يهمنا ما قاله أبو هريرة ولا ابن مسعود ولا ابن عباس رضي الله عنهم.
إن دلائل غضب الله واضحة في كل ما حولنا، ولا تحتاج إلى دليل فليس لنا إلا أن نخرج من مرقدنا ونعود للعمل، ونقوم بالدور الذي أوكل إلينا من الله تعالى، أناساً فعّالين مصلحين في الأرض غير مفسدين، ولا يعيبنا أن نخرج من ذلك الكهف فرادى لأن الباقين سيتبعوننا بعد أن يدركوا أننا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ولو في هذه الحياة الدنيا، لأن الله تعالى قد وعدنا فيها بالرزق والخير والجنات والنعيم وإن كانت الجنة الأخرى هي الأفضل، وإليها نسعى.
﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[٨٢].
﴿إنَّ اللهَ لايغيّرُ ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٨٣].
صدق الله العظيم.

---

(٨٠) سورة الأنعام: ٢٤
(٨١) سورة الأنعام: ٦٥
(٨٢) سورة القصص: ٥٦
(٨٣) سورة الرعد: ١١

١٨ ـ من نحن (المسلمون)؟ وماموقعنا في العالم؟

آثرنا في بحثنا هذا أن نعتمد على الحقائق القرآنية فقط وإبعاد ماعداها، وأن نتدرج في عرض حقائقه توخياً للوضوح بعيداً عن الظنون والأوهام:

مَنْ هو الله سبحانه وتعالى؟ ولماذا يمثل الله الحق والقوة؟

من الشيطان؟ ولماذا يمثل الشيطان الوهم والضعف؟

ما الإيمان؟ ومن المؤمن؟

ما الكفر؟ ومن الكافر؟

ما الإشراك؟ ومن المشرك؟

﴿إنّه من يُشركْ باللّه فقد حرمَ اللهُ عليه الجنّة﴾(١)

﴿إنّ اللهَ لايغفرُ أنْ يشركَ به ويغفرُ مادونَ ذلك لمن يشاء﴾(٢)

﴿ومنْ يُشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾(٣)

لماذا عدّ الله تعالى الإشراك به أعظم من الكفر به؟

من هو الله سبحانه وتعالى؟ ولماذا يمثل الله القوة؟

وردت كلمة الله في القرآن الكريم (٢٦٩٨) مرة دون أن نضيف إليها باقي أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والعزيز والقوي..، ومن تلك الأسماء نستطيع أن نتعرف سبحانه وتعالى:

﴿الله لا إلهَ إلا هوَ الحيُّ القيومُ لاتأخذه سِنَةٌ ولانوم﴾(٤) هذه هي الحقيقة الأولى عن الله تعالى:

- هو إله حيّ قيوم، ولا إله غيره في الوجود، لايتعب ولاينعس ولاينام ولايسهو.

﴿الله واسع عليم﴾(٥) فالله واسع فهو يسع كل شيء وموجود في كل مكان ﴿وَسِعَ كرسيُّه السمواتِ والأرضَ﴾(٦)

---

(١) سورة المائدة: ٧٢
(٢) سورة النساء: ١١٦
(٣) سورة النساء: ٤٨
(٤) سورة البقرة: ٢٥٥
(٥) سورة البقرة: ٢٤٧
(٦) سورة البقرة: ٢٥٥

﴿وسعَ ربيّ كلَّ شيءٍ علماً أفلا تذكرون﴾[7]
وعلمه واسع فليس خارج علمه علم آخر، فكل علم هو مصدره، وكل حقيقة هي من عنده، وكذلك رحمته مثل علمه تسع كل شيء.
﴿رَّبنا وَسعتَ كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفِرْ للذين تابوا﴾[8]
والله تعالى الذي خلقنا بشراً يعلم أننا مخلوقات محدودة فيعاملنا على قدر عقلنا وفهمنا وطاقتنا المحدودة.
﴿لايكلّفُ اللهُ نفساً إلا وُسعَها﴾[9]
وهو يعرف سبحانه مدى قوتنا:
﴿وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾[10]
ويعرف مدى صبرنا:
﴿وكانَ الإنسانُ عجولاً﴾[11]
ويعرف مدى قوة إيماننا:
﴿إنَّ الإنسانَ لكفور﴾[12]
﴿إنّ الإنسانَ لكفورٌ مبين﴾[13]
ويعرف مدى شجاعتنا
﴿إنّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً﴾[14]
ويعرف أن لساننا هو أقوى شيء فينا
﴿وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً﴾[15]
وخلقنا وهو يعرف ماتوسوس به نفوسنا
﴿ولقد خَلَقْنا الإنسان ونعلَمُ ماتُوسوِسُ به نفسُه﴾[16]
وليس في علم الله كله وهم وظن بل كله حق وحقائق. ومن هنا يجب أن نعلم: أن

(٧) سورة الأنعام: ٨٠
(٨) سورة غافر: ٧
(٩) سورة البقرة: ٢٨٦
(١٠) سورة النساء: ٢٨
(١١) سورة الإسراء: ١١
(١٢) سورة الحج: ٦٦
(١٣) سورة الأحقاف: ١٥
(١٤) سورة المعارج: ١٩
(١٥) سورة الكهف: ٥٤
(١٦) سورة ق: ١٦

العلم حرب للظن والوهم فلا يجتمعان، وبعد أن استعرضنا أبعاد علم الله لنتحدث عن قوته وبأسه من خلال ماورد من آيات عنهما في الكتاب:

﴿والّله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلا﴾(١٧)

﴿والّله عزيزٌ حكيم﴾(١٨)

﴿والّله غالبٌ على أمره﴾(١٩)

﴿وكان الّلهُ قوياً عزيزا﴾(٢٠)

﴿والّلهُ قدير﴾(٢١)

﴿إنَّ الّلهَ بالغُ أمرِهِ قد جَعَلَ لكلِّ شيءٍ قَدْرا﴾(٢٢)

﴿الّله الصّمد﴾(٢٣)

﴿إنّ الّلهَ شديدُ العقاب﴾(٢٤)

﴿إنّ الّلهَ عزيز ذو انتقام﴾(٢٥)

﴿إنّ الّلهَ لَقوِيٌّ عزيز﴾(٢٦)

وعن خلقه:

﴿وخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَه تقديرا﴾(٢٧)

﴿خلقَ الإنسان من نطفة﴾(٢٨)

﴿خلقَ كلَّ دابّةٍ من ماء﴾(٢٩)

﴿ومن كلِّ شيءٍ خلَقْنا زوجَيْن لعلكم تذكرون﴾(٣٠)

﴿وماخَلقْنا السماءَ والأرضَ ومابينَهما باطلا﴾(٣١)

هنا في هذه الآية الكريمة ينبه الله تعالى إلى أن كل شيء صادر عن الله حق لايمكن أن يكون باطلاً أو وهماً. الحقائق مطلقاً لاتتماشى مع الأباطيل والأوهام والظنون.

---

(١٧) سورة النساء: ٨٤
(١٨) سورة الأنفال: ٦٧
(١٩) سورة يوسف: ٢١
(٢٠) سورة الأحزاب: ٢٥
(٢١) سورة الممتحنة: ٧
(٢٢) سورة الطلاق: ٣
(٢٣) سورة الإخلاص: ٢
(٢٤) سورة المائدة: ٢
(٢٥) سورة إبراهيم: ٤٧
(٢٦) سورة الحج: ٧٤
(٢٧) سورة الفرقان: ٢
(٢٨) سورة النحل: ٤
(٢٩) سورة النور: ٤٥
(٣٠) سورة الذاريات: ٤٩
(٣١) سورة ص: ٢٧

وعن صفاته تعالى:

﴿وكانَ اللّهُ عفواً غفوراً﴾[٣٢]

﴿وكانَ اللّهُ غنياً حميداً﴾[٣٣]

﴿وكانَ اللّهُ شاكراً عليماً﴾[٣٤]

﴿وكانَ اللّهُ سميعاً عليماً﴾[٣٥]

﴿وكانَ اللّهُ عزيزاً حكيماً﴾[٣٦]

﴿واللّهُ خيرُ الماكرين﴾[٣٧]

﴿واللّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾[٣٨]

﴿آللهُ خيرٌ أمّا يشركون﴾[٣٩]

﴿وكانَ اللّهُ عليماً حليماً﴾[٤٠]

﴿اللّه لطيفٌ بعباده﴾[٤١]

والله فعّال لما يريد:

﴿واللّه يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ﴾[٤٢]

﴿واللّه يَهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾[٤٣]

﴿اللّه يبدأُ الخلقَ ثمّ يعيدُهُ ثمّ إليه تُرجعون﴾[٤٤]

﴿الله الذي يرسلُ الرياحَ فتثيرُ سحاباً فيَبْسُطُهُ في السماء﴾[٤٥]

﴿واللّه يقولُ الحقَّ وهو يَهدي السبيل﴾[٤٦]

﴿وعدَ الله لايخلفُ اللهُ الميعاد﴾[٤٧]

﴿ومااللّه يريدُ ظلماً للعباد﴾[٤٨]

﴿اللّه الذي سخَّرَ لكم البحرَ لتجريَ الفلكُ فيه بأمره﴾[٤٩]

---

(٣٢) سورة النساء: ٩٩
(٣٣) سورة النساء: ١٣١
(٣٤) سورة النساء: ١٤٧
(٣٥) سورة النساء: ١٤٨
(٣٦) سورة النساء: ١٥٨
(٣٧) سورة الأنفال: ٣
(٣٨) سورة التوبة: ٢٧
(٣٩) سورة النمل: ٥٩
(٤٠) سورة الأحزاب: ٥١
(٤١) سورة الشورى: ١٩
(٤٢) سورة النور: ٣٨
(٤٣) سورة البقرة: ٢١٣
(٤٤) سورة الروم: ١١
(٤٥) سورة الروم: ٤٨
(٤٦) سورة الأحزاب: ٤
(٤٧) سورة الزمر: ٢٠
(٤٨) سورة الزمر: ٣١
(٤٩) سورة الجاثية: ١٢

﴿أحصاه الله﴾[٥٠]
﴿واللهُ على كل شيء شهيد﴾[٥١]
﴿واللهُ لايهدي القومَ الفاسقين﴾[٥٢]
﴿واللهُ لايهدي القومَ الظالمين﴾[٥٣]
وأفضل مانختم به هذه الآيات الكريمة التي بها تعرفنا صفات الله تعالى هي الآية التالية:
﴿الله نورُ السمواتِ والأرض﴾[٥٤]

من كل الآيات الكريمة التي رأينا فيها صفات الله نكتشف حقيقة مهمة وهي أن الله تعالى يتعامل مع الحق والحقائق والعلم والمعلومات، والخلق والمخلوقات، بنور الله الذي يوضّح كل ذلك وضوحاً لامجال فيه لوهم أو ظن أو خيال أو احتمال. وننتقل الآن إلى البحث عن صفات الشيطان لنكتشف أن كل الصفات المعاكسة لصفات الله والمناقضة له هي صفات الشيطان. وجواباً عن الشطر الثاني من المسألة: لماذا يمثل الله القوة؟

نقول: إن القوة تقع في الحقائق، والله يعتمد على الحق والحقائق، ولما كانت كل مخلوقاته حقائق فإن فيها قوة في الجانب الحقيقي منها، والله خلق النقائض فخلق الحق وجعل فيه القوة، وخلق الباطل وجعله ضعيفاً لايستطيع الوقوف أمام الحق ﴿وقل جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إن الباطلَ كانَ زهوقا﴾[٥٥]
﴿بل نقذفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[٥٦]
والزهق هو الموت والزوال والاضمحلال، كما يتضح من قوله تعالى:
﴿إنّما يُريدُ اللّهُ أنْ يُعذِّبَهم بها في الدنيا وتزهَقَ أنفسهم﴾[٥٧]

من الشيطان؟ ولماذا يمثل الضعف؟

نتعرف صفات الشيطان في القرآن الكريم ومنها نستنتج حقيقته:
﴿إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفا﴾[٥٨]
فالشيطان له كيد ولكن كيده ضعيف

(٥٠) سورة المجادلة: ٦
(٥١) سورة المجادلة: ٦
(٥٢) سورة الجمعة: ٥
(٥٣) سورة الصف: ٧
(٥٤) سورة النور: ٣٥
(٥٥) سورة الإسراء: ٨١
(٥٦) سورة الأنبياء: ١٨
(٥٧) سورة التوبة: ٨٥
(٥٨) سورة النساء: ٧٦

﴿يَعِدُهُم ويمنّيهم ومايَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غروراً﴾(٥٩)
ووعود الشيطان أكاذيب وأباطيل ليس فيها حقائق.
﴿إنّما يريدُ الشيطانُ أن يوقعَ بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ﴾(٦٠) وغايته إيقاع العداوة والبغضاء بين العباد عن طريق الخمر والميسر.
﴿إنَّ الشيطانَ للإنسان عدوٌّ مبينٌ﴾(٦١)
وهو عدوّ لدود للإنسان فكل نصائحه على الاطلاق لضرر الإنسان وليس لفائدته.
﴿وإذ زَيّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم﴾(٦٢)
ولكن ما الأفعال التي يمكن للشيطان أن يزينها لعدوه الإنسان؟
إنها كل فعل يقرّبه من الشر أكثر، وهذا التحالف المعقود بين الشيطان والإنسان مرحلي، فالشيطان سيتخلى بعد التغرير به:
﴿وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خذولا﴾ (٦٣)
فإذا انتهت مهمة الشيطان في الحياة الدنيا وجاء يوم الحساب فلن ينجد الإنسان مهما صرخ، لأن مصيره معه إلى النار:
﴿وقال الشيطان لما قُضيَ الأمرُ إنّ اللهَ وَعَدَكم وعدَ الحقّ ووعدتُكم فأخْلفْتُكم وماكان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دَعوتُكم فاستجبتُم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم ماأنا بمُصرِخكم وما أنتم بمُصرِخي إنّي كفرتُ بما أشركتموني من قبل إنّ الظالمين لهم عذابٌ اليم﴾(٦٤)
نذكر بعض صفات أخرى للشيطان ثم ننتقل للفقرة التي بعدها
﴿ألاَ إنّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون﴾(٦٥)
لماذا؟
﴿استحوذَ عليهم الشيطانُ فأنساهم ذِكْرَ اللهِ أولئكَ حزبُ الشيطان﴾(٦٦) والذي ينسى حقائق الله ويتيه في أوهام الشيطان لابد خاسر.
﴿الشيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ويأمرُكم بالفحشاء﴾(٦٧)

(٥٩) سورة النساء: ١٢٠
(٦٠) سورة المائدة: ٩١
(٦١) سورة يوسف: ٥
(٦٢) سورة الأنفال: ٤٨
(٦٣) سورة الفرقان: ٢٩
(٦٤) سورة ابراهيم: ٢٢
(٦٥) سورة المجادلة: ١٩
(٦٦) سورة المجادلة: ١٩
(٦٧) سورة البقرة: ٢٦٨

وقد شرحنا في فقرة سابقة أن الشيطان عندما يأمر بالفحشاء يقودنا إلى اتباع خطواته بأسلوب غير مباشر، ولذلك ينبهنا الله تعالى إلى حِيَله: ﴿ولاتتّبعوا خطواتِ الشيطان﴾[٦٨].

﴿وإمّا يَنْزَغَنَّكَ من الشّيطانِ نَزغٌ فاستعِذْ باللّه﴾[٦٩]

﴿ومن يَعْشُ عن ذكرِ الرحمنِ نُقيّضْ لهُ شيطاناً فهو له قرين﴾[٧٠]

وهكذا نجد من كل الصفات التي رأيناها في هذه الآيات أن الشيطان وقف موقف الباطل وموقف الوهم، وموقف الضعف. فهو ضعيف وهو غدار وهو خذول وهو كذاب وهو خائن كل مالديه وهم وظنون. يدعو إلى الفحشاء والمنكر علماً بأنه لايملك سلطة على الإنسان إلا باغرائه، وبوعوده الكاذبة. ومن تولاه خسر نفسه إلى الأبد.

ما الإيمان؟ ومن المؤمن؟

الإيمان بدليل آيات القرآن الكريم مشتق من آمن، وآمن يأتي معناها: صدق وأظهر في العلن، دون خوف، كما في الآيات:

﴿قالوا آمنّا واشهدْ بأننّا مسلمون﴾[٧١]

أي: صدقنا وأعلنا دون خوف من أحد بأننا مسلمون.

فالإيمان على الدوام يأتي بمعنى الإعلان والإظهار.

لكن بماذا يكون الإيمان؟

يمكن أن يكون الإيمان بالحق عندها يكون الإيمان بالله والعبادة لله، ويمكن أن يكون بالباطل، وعندها يكون الإيمان بالشيطان والعبادة للشيطان، أما الايمان بالحق فقد ورد في عدد من آيات في القرآن الكريم:

﴿قولوا آمنّا بالله وماأنزلَ إلينا وماأنزلَ إلى ابراهيم﴾[٧٢]

﴿ربّنا آمنّا بما أنزلتَ واتّبعنا الرسولَ﴾[٧٣]

﴿فألقى السحرةُ سجّداً قالوا آمنّا بربّ هارون وموسى﴾[٧٤]

﴿ويقولون آمنّا باللّهِ وبالرّسولِ وأَطَعْنا﴾[٧٥]

---

(٦٨) سورة البقرة: ٢٠٨
(٦٩) سورة فصلت: ٣٦
(٧٠) سورة الزخرف: ٣٦
(٧١) سورة المائدة: ١١١
(٧٢) سورة البقرة: ١٣٦
(٧٣) سورة آل عمران: ٥٣
(٧٤) سورة طه: ٧٠
(٧٥) سورة النور: ٤٧

﴿قل هو الرحمنُ آمنّا به وعليه توكّلْنا﴾[٧٦]

وهذا الإيمان جعله الله اختياراً وطوعاً من الإنسان لاإكراهاً:

﴿وقل الحقُّ من ربّكم فمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومن شاءَ فليكفرْ﴾[٧٧]

ولذلك فهناك من يؤمن بالباطل بدل الإيمان بالحق:

﴿والذين آمنوا بالباطلِ وكفروا باللهِ أولئكَ همُ الخاسرون﴾[٧٨]

﴿أفبالباطل يؤمنونَ وبنعمةِ اللّه هم يكفرون﴾[٧٩]

﴿وقل جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ﴾[٨٠]

﴿ومن يتبدلِ الكفرَ بالايمانِ فقد ضلَّ سواءَ السبيل﴾[٨١]

﴿إن استحبوا الكفرَ على الإيمان﴾[٨٢]

وفي قوله تعالى:

﴿قال الذين أوتوا العلمَ والإيمانَ لقد لَبِثتُم في كتاب الله﴾[٨٣]

إشارة صريحة إلى الذين أوتوا العلم والإيمان.

وهذا يوضّح أن إيتاء العلم وحده ليس معناه إيتاء الإيمان، فقد يكون العالم متبحراً بأحد العلوم وقد أوتي من الله علماً غزيراً غير أنه قد يكون مؤمناً بالله وقد لايكون.

﴿ولكن قولوا أسلمنا. ولمّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبكم﴾[٨٤]

ومن هذه الآية يتبين لنا أن حالة الإيمان لاتأتي إلا مع التصديق الكامل، فإن لم يبلغ الإنسان تلك المرحلة بعدُ يكون مسلماً لكن الإيمان لم يتمكن من قلبه بعد..

والإيمان قد يزيد أو يتناقص:

﴿وإذا تُلِيَتْ عليهم آياته زادتْهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون﴾[٨٥]

﴿فمنهم من يقولُ أيّكم زادَتْه هذه إيماناً﴾[٨٦]

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوبِ المؤمنين ليزدادوا إيماناً﴾[٨٧]

---

(٧٦) سورة الملك: ٢٩

(٧٧) سورة الكهف: ٢٩

(٧٨) سورة العنكبوت: ٥٢

(٧٩) سورة النحل: ٧٢

(٨٠) سورة الإسراء: ٨١

(٨١) سورة البقرة: ١٠٨

(٨٢) سورة التوبة: ٢٣

(٨٣) سورة الروم: ٥٦

(٨٤) سورة الحجرات: ١٤

(٨٥) سورة الأنفال: ٢

(٨٦) سورة التوبة: ١٢٤

(٨٧) سورة الفتح: ٤

ومن الناس من يدّعون الإيمان وماهم بمؤمنين لأنهم كفروا وهم يعلمون:
﴿قل بئسما يأمرُكُم إيمانُكم إنْ كنتم مؤمنين﴾(٨٨)
﴿والّله أعلمُ بإيمانكم بعضكم من بعض﴾(٨٩)
﴿كيف يهدي اللّهُ قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾(٩٠)
وهكذا ظهر لنا في القرآن نوعان من الذين يدّعون الإيمان:

نوع يؤمن بالله وبالحق وبالنور والعلم ويكفر بالباطل والظلام والجهل والوهم والظن، فهو المؤمن الحقيقي - والمنعَم من الله الذي سوف تظهر نعمة الله عليه، وآخر يظن أنه على الإيمان، ويدّعيه لكنه لايعلم أنه مشرك ويظن الجهل علماً والظلام نوراً والباطل حقاً، فهو يتبع الشيطان ويحسب أنه يتبع الله، فقد وقع في الشرك من حيث لايعلم، وسوف تظهر دلائل نقمة الله وغضبه عليه، في أحواله في الدنيا، وهذا المبدأ ينطبق على الفرد والجماعات فإن كانت أمة مؤمنة إيماناً حقيقياً فسوف تظهر نعمة الله عليها قوة وغنى وعلماً ووحدة وعزاً وكرامة.

وإن كانت أمة مشركة بالله، تعبد الشيطان وتظن أنها تعبد الله، فسوف تظهر أيضاً دلائل غضب الله ونقمته عليها ضعفاً وفقراً وجهلاً وتفرقاً وذلاً ومهانة من الله والناس أجمعين وبامكانك من هذه الدلائل أن تعرف من أي الحزبين نحن أمة المسلمين اليوم دون جهد كبير، وبحسبك أن تلاحظ الأمور العامة التي أشرنا إليها من دلائل النعمة أو النقمة.

ما الكفر؟ ومن الكافر؟

الكفر بحسب آيات القرآن الكريم نقيض الإيمان تماماً، فهو الكذب والإنكار والجحود علناً دون خوف كما في الآيات الآتية:
﴿مَنْ كفرَ باللّه﴾ أي: كذب وأنكر وجوده
﴿من كفرَ باللّهِ من بعدِ إيمانه﴾(٩١)
والكفر أنواع: فمثلاً من يؤمن بالله ويكفر بآياته:
﴿أفرأيتَ الذي كَفَرَ بآياتنا وقالَ لأوتينَّ مالاً وولداً﴾(٩٢)
﴿لقد كفرَ الذين قالوا إنّ اللّهَ ثالثُ ثلاثة﴾(٩٣)

---

(٨٨) سورة البقرة: ٩٣ (٩٠) سورة آل عمران: ٨٦ (٩٢) سورة مريم: ٧٧
(٨٩) سورة النساء: ٢٥ (٩١) سورة النحل: ١٠٦ (٩٣) سورة المائدة: ٧٣

﴿زُيِّنَ للّذينَ كفروا الحياة الدّنيا ويسخرونَ من الذينَ آمنوا﴾(٩٤)
﴿والذينَ كفروا أولياؤُهم الطاغوت﴾(٩٥)

ولنلاحظ هنا في الآية الأخيرة دقة الله في التعبير حيث قال سبحانه: ﴿أولياؤهم الطّاغوت﴾ ولم يقل الذين كفروا أولياؤهم الشيطان. والطاغوت هو الإنسان الطاغية الذي يسن قوانين وشرائع من عنده يطبقها على الناس وتناقض قوانين الله وشرائعه، ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الكافر ليس بالضرورة هو الإنسان الواهم. الذي يعيش ضمن الخرافات والخيالات، فقد يكون إنساناً يؤمن بالعلم والحقائق العلمية، لكن بأسلوبه الخاص، فهو لايؤمن بالله، ولاباليوم الآخر، وإنما يعتقد أن كلّ شيء موجود في هذه الدنيا الفانية وليس بعدها إلا الفناء، فالكافر من هذا النوع إنسان فعال في الدنيا، نشيط ظالم، قاسٍ لارحمة في قلبه، شعاره: (أنا أولاً وليكن من بعدي الطوفان) فهذا الإنسان يعبد الذات، وحياته اللذات، فإن غبَّ منها حتى سئم أو عجز عن مداومتها لجأ غالباً للانتحار، لاعتقاده أنه لم يبق لديه شيئ ينتظره في هذه الحياة. وهذا الإنسان إذا استطاع رؤية نور الإيمان الصحيح وتعرّف الحقيقة الكاملة وتاب وآمن بالله انقلب إلى مؤمن فعال نشط ومارس دوراً هاماً بين أقرانه من المؤمنين.

﴿ولَئِنْ كفرتُم إنَّ عذابي لَشَديد﴾(٩٦)
﴿ذلكُم بأنّه إذا دُعِيَ اللّهُ وحدَهُ كَفرتُم﴾(٩٧)

وهكذا نجد من هذه الآيات أن الذين ينطبق عليهم الكفر هم دعاة الانصراف إلى الدنيا دون سواها من أهل الغرب حالياً، يؤمنون بالعلم والعلوم ويكفرون بالله، ولايؤمنون غالباً باليوم الآخر، فهم كفار يؤمنون بالطاغوت ويطبقون أحكامه ولايطبقون شرائع الله، فإن ذكر الله لم يوحّدوه، والآيات الآتية تبرهن بما لايدع مجالاً للشك صدق ماذهبنا إليه آنفاً ﴿وإذْ أخذْنا ميثاقَكُم ورفَعنا فوقكُم الطوّر خذوا ماآتيناكم بقوّةٍ واسمعوا قالوا سَمعنا وعَصَينا وأُشْربوا في قلوبهم العِجلَ بكفرهِم قل بئسما يأمرُكم به إيمانُكم إنْ كنتم مؤمنين﴾(٩٨)

وفي هذه الآية يبرهن لهم الله تعالى أنهم قد كفروا بعد أن تركوا عبادة الله واتجهوا لعبادة العِجْلِ - ثم يقول لهم في الآية التي بعدها لعلم الله أن الكفار هم أشد الناس

---

(٩٤) سورة البقرة: ٢١٢ (٩٦) سورة إبراهيم: ٧ (٩٨) سورة البقرة: ٩٣
(٩٥) سورة البقرة: ٢٥٧ (٩٧) سورة غافر: ١٢

تعلقاً بالحياة وليثبت لهم أنهم لايؤمنون بالدار الآخرة وإنما يؤمنون فقط بالحياة الدنيا، وإن كانوا يقولونها كذباً بألسنتهم والله أعلم بسرائرهم:

﴿قل إن كانت لكم الدارَ الآخرةَ عندَ الله خالصةً من دونِ الناس فتمنّوا الموتَ إن كنتم صادقين﴾(٩٩) والله تعالى يعلم ماذا في سرائرهم، فهم لن يتمنوا الموت ابداً:

﴿ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمتْ أيديهم واللهُ عليمٌ بالظالمين﴾(١٠٠) ولكي يبين لنا الله تعالى أن الكفار أشد تعلقاً من المشركين بالحياة الدنيا يقول تعالى:

﴿ولَتجِدنَّهم أحرصَ الناسِ على حياةٍ ومن الذينَ أشركوا﴾ وهنا وقفة إجبارية في الآية لفهمها ثم يتابع الله بعدها:

﴿يَودُّ أحدُهم لو يُعمَّر ألفَ سنةٍ وماهو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّرَ واللّهُ بصيرٌ بما يعملون﴾(١٠١)

وهكذا نجد أن الكفار هم أشد الناس تعلقاً بالحياة، لأنهم يؤمنون بالحياة الدنيا ويكفرون بالآخرة.

ما الإشراك؟ ومن المشرك؟

والإشراك في القرآن من: أشرك، وشارك:

﴿وشارِكْهُم في الأموالِ والأولادِ﴾(١٠٢)

﴿لكنا هو اللّهُ ربّي ولاأشركُ بربّي أَحداً﴾(١٠٣)

والإشراك أعلى درجة من الكفر لذلك قال تعالى:

﴿تدعونني لأكفرَ باللّه وأُشركَ به ماليَس لي به علم﴾(١٠٤)

﴿واعبدوا اللّهَ ولاتشركُوا به شيئاً﴾(١٠٥)

﴿ماكانَ لنا أن نُشركَ باللّه من شيء﴾(١٠٦)

﴿ومن يُشركْ باللّه فقد افترى إثماً عظيماً﴾(١٠٧)

﴿ومن يُشركْ باللّه فقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً﴾(١٠٨)

---

(٩٩) سورة البقرة: ٩٤
(١٠٠) سورة البقرة: ٩٥
(١٠١) سورة البقرة: ٩٦
(١٠٢) سورة الإسراء: ٦٤
(١٠٣) سورة الكهف: ٣٨
(١٠٤) سورة غافر: ٤٢
(١٠٥) سورة النساء: ٣٦
(١٠٦) سورة يوسف: ٣٨
(١٠٧) سورة النساء: ٤٨
(١٠٨) سورة النساء: ١١٦

فلنوضح قليلاً موضوع الإشراك:

خلق الله تعالى الخير والشر والصدق والكذب والأمانة والخيانة، وعندما خلق البشر أعطاهم العقل والحرية ليختاروا وهو يتوقع أن فئة منهم سوف تختار الإيمان وفئة أكبر ستختار الكفر والشر لأن المغريات في طرفه أكثر ففيه تهوى النفس الأمارة بالسوء، من الشهوات، ومن وراء ذلك الشيطان، لذلك لم يقل تعالى أبداً إن من يكفر قد حرّمْتُ عليه الجنة، أو: لن أغفر لمن يكفر أبداً، وإنما قالها عن المشرك والإشراك فقط.

وحتى عندما خيّرنا سبحانه قال: ﴿فمَنْ شاءَ فليؤمن ومن شاءَ فليكفر﴾[١٠٩] ولم يقل أبداً في أي موطن من القرآن الكريم: ومن شاء فليشرك وإنما قال ﴿إنّ الله لايغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ مادونَ ذلكَ لمن يشاء﴾[١١٠]

﴿يابنيّ لاتشركْ باللهِ إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم﴾[١١١]

فما سبب غضب الله الشديد على المشرك بالذات دون الكافر؟

للجواب عن هذا السؤال المهم، يجب أن نتفهم دور الله في الموضوع ـ فإنه سبحانه لامصلحة له في إيمان المؤمن، وإيمانه لن يزيده شيئاً ولن ينتفع به، إنما نفع الإيمان للمؤمن ذاته ـ وكذلك الكافر فإن كفره لن يؤذي الله بشيء، إنما أذيته تأتي على الكافر نفسه، وعلى شعبه وأمته. وكذلك المشرك، لن يؤذي الله في شيء، غير أن الله تعالى الذي خلقنا، وإن كان لاينتفع منا مباشرة يحبّ لنا الخير ومثلما يحب أن يبعدنا عن الشر، لذلك رعانا بعنايته تعالى وأرسل لنا الرسل والأنبياء. منذرين ومبشرين، والله تعالى رأى المؤمن ففرح به وله، ورأى الكافر فحزن عليه، لكنّه عندما رأى المشرك غضب، لماذا؟ لأن المشرك يظلم نفسه أشد الظلم بوهم مركّب، فهو من جهة يؤمن بالله ولايحب أن يغضبه، ومن جهة أخرى لجهله واعتقاده بأوهام وخيالات وظنون، يبتعد عن الحق والحقيقة والنور الإلهي ويسقط فريسة سهلة للشيطان دون أن يتعبه في إغرائه إياه قدر تعبه مع الكافر الذي لايكون صيده سهلاً كالمشرك.

الكافر إنسان يدّعي العقلانية ويعرف مصلحته الآنية ويسعى إليها ويعبد الشهوات، فيأتيه الشيطان من نقطة ضعفه بأن يجعله يتبع خطواته، فيجعله عبداً مطيعاً له، لأنه يفضل الدنيا على الآخرة، ويحب اللذات العاجلة على الآجلة، ويجعل صبره قصيراً،

---

(١٠٩) سورة الكهف: ٢٩ (١١٠) سورة النساء: ٤٨ (١١١) سورة لقمان: ١٣

فلا يستطيع أن ينتظر نعم الله الآجلة أمام مغريات الشيطان فيبيع آخرته بدنياه، ويجعل الشيطان ولياً له. أما المشرك ففيه لون من السذاجة: يأتيه شيطان من الأنس فيقول له، لغاية في نفس يعقوب، إن القرآن كلام الله المقدس فإن قرأناه وأخطأنا في القراءة فالعياذ بالله أحرقنا الله بناره، وإذا قرأناه وأخطأنا في فهمه فالعياذ بالله، أحرقنا بناره، وإذا لمسناه بأيدينا دون أن نكون طاهرين مطهرين فالعياذ بالله أحرقنا الله بناره، حتى يترك المسكين كتاب الله ورسالته إليه التي يهديه بها، فيدله الشيطان على كتاب آخر، يجد فيه الحق كما يريد الشيطان لاكما يريد الله، ولاكما كان ذلك المسكين يرغب، وإن كان لايعرف مايريد لجهله، ولكن لماذا لجأ شيطان الإنس إلى هذه الوسائل؟ لأنه يعلم أن كتاب الله فيه الحقيقة الكاملة التي سيفهمها الإنسان إن قرأها مهما كان ساذجاً فيعرف حقوقه كاملة. آنذاك لن يستطيع الشيطان أن يوقعه في حبائله ولا أن يبتزه فيأكل ماله وحقوقه. سوف يعلم ماله وماعليه، وهذا ليس من مصلحة هذا الرسول الجديد الذي يلقنه مايجب أن يفعل ومايجب ألا يفعل، فيصبح من أتباعه وهو يتوهم أنه من أتباع الله، ومن هنا يأتي الظلم الشديد الذي يؤكد عليه الله في آيات كثيرة جداً بينما لايقول تعالى أبداً إن الكفر ظلم شديد مثلاً، لأن الكافر يظلم نفسه وهو يعلم ماذا يفعل. أما المشرك فيظلم نفسه وهو يظن أنه يعبد الله، بعبادته الشيطان دون علم وهذا هو الفرق.

ثم يأتيه هذا الرسول الجديد رسول الشيطان بكتاب آخر، لمسه مسموح، وقراءته مسموح بها، فإن أخطأ فيه فلن يحرقه أحد، وهكذا يقع المشرك فريسة ظلم مضاعف، ظلم من الشيطان وظلم من نفسه، لأنه لم يحاول أن يتبين الحقيقة قبل أن يصدق الشيطان. ولم يعلم أن كل مافي الكتاب الجديد لايتعدى الظن والوهم والاحتمال، وكل مافيه لايرقى لمستوى العلم؛ وكل مافيه أو أغلبه يناقض بعضه بعضاً وهكذا، أقنعنا الذين يدعون الوصاية على الدين أن للرسول سنة كما لله سنة، فهجرنا كتاب الله إلى سواه، دون أن نتثبت من زعمهم. فأصبح المسلمون كلهم بذلك يعبدون الشيطان ويطيعونه، وهم يعتقدون أنهم إنما يعبدون الله ويطيعونه، ويطيعون الرسول صلى الله عليهة وسلم. والمسلمون لطيبة في قلوبهم لم يكتشفوا خلال ألف سنة أن الكتاب الجديد الذي أتاهم به الشيطان يشبه قبعة الحاوي، فيه الشيء ونقيضه، وهو قادر على برهنة الحق والباطل معاً كما شاؤوا له أن يكون، أما كتاب الله فليس فيه إلا الحق، لذلك حرصوا على إبعاده عن الناس بكل الوسائل. وهكذا نجد أن المشرك ظلم نفسه في الدنيا فخرج منها صفر اليدين، وظلم نفسه أيضاً لأنه أشرك بالله، فحرمه الله أيضاً

الآخرة، فلم يعد له دنيا ولا آخرة.

ويؤسفني أن أعترف لكم ولنفسي أننا جميعاً نحن المسلمين اليوم من هذه الفئة، فلا دنيا لنا ولا آخرة. وهل هناك ظلم أشد من ذلك خاصة إذا كان هذا الظلم من النفس، وليس من أحد أجبرنا عليه؟.

﴿إنه من يشركْ باللهِ فقدْ حَرّمَ اللهُ عليه الجنةَ﴾(١١٢)

﴿ومن يُشرك بالله فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾(١١٣)

﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فَتخطفهُ الطير﴾(١١٤)

لماذا شبّه الله المشرك بالفريسة تتخطفها الطيور الكاسرة؟ لأنه تخلى عن ربّه الذي يدافع عنه، فأمسى أضعف من عصفور أمام الجوارح، وتخلى عن عقله الذي ينتفع به، فهو ليس من المؤمنين بربهم، ولامن الكافرين الذين يدعون أنهم يحكمون عقولهم في مواجهة الإيمان فعلى من يعتمد المشرك بعد هذا؟ لا على نفسه ولا على الله.

والمشرك من النوع الذي يتحول مع الأيام إلى إنسان سلبي، منسحب من الحياة، فيترك بذلك المهمة الأساسية التي كلفه الله تعالى إياها وهي استخلافه في الأرض لإصلاحها، فيصبح عالة على الحياة، بدلاً من أن يكون عضواً فعالاً فيها، فلا يسعى للرزق لاعتقاده وهماً بأن الأرزاق مقسومة ـ وأن ماقسم له سوف يصله، بالبريد الجوي! ولايسعى إلى دعوة للخير والايمان، لأنه اعتقد أن الله شاء وانتهى ووزع الجنة والنار، من يوم كان نطفة في ظهر أبيه آدم!

فإذا مرض ابنه تركه في مكانه دون أن يسعى إلى طبيب أو دواء لأنه يعتقد وهماً أن أجله محتوم، فإن كان له عمر سيعيش، وإن كتب له أن يموت فسوف يموت، وهو لايسعى إلى علم لأن كل علم سوى ماعلّمه شيطانه لاضرر من هجره، والعلم به لاينفع. لاتستغرب أن يطول رقاده ورقاد نسله الذين اتبعوا نهجه ألف سنة في كهف عظيم مظلم، يتسع لمليار نسمة، فهل نستغرب بعد ذلك أن يغضب الله منه؟ أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم وأتوب إليه. إنه أشد وأشد وأشد مايمكن أن يتصوره إنسان من الظلم للنفس، أن يكون كتاب الله الذي فيه النور الحقيقي على بعد خطوة واحدة من كل مسلم منا، فلا نفتح ذلك الكتاب الذي نزل ليرينا النور الالهي فيه كي نصحو من كابوسنا العظيم.

---

(١١٢) سورة المائدة: ٧٢ (١١٣) سورة النساء: ١١٦ (١١٤) سورة الحج: ٣١

تبين لنا إذاً لماذا عدّ الله تعالى الشرك أعظم بكثير من الكفر وقد يسأل متسائل: هل نحن المسلمون المشركون الوحيدون في العالم؟ أعتقد أن الشرك ليس ملك أمة بالذات، فكل أمة معرضة لأن تقع فيه، لكن للشرك بالله علامات تظهر على الأمة. سواء أكانت على دين المسيح أم بوذا أم كانت لاتؤمن بدين. ومن هذه العلامات الإيمان بالأوهام أولاً، والبعد عن العلم والعلوم ثانياً، والجهل ثالثاً، والوقوع في المعاصي رابعاً، والابتعاد عن الله الحقيقي خامساً، فيعم الكسل والاتكال والخيال دون العمل. ويسود الفقر والمرض والمصائب، فالأمة التي تظهر عليها هذه المعالم تكون مشركة بالله وهناك أمم كثيرة في الأرض تنطبق عليها هذه الأعراض المرضية، لكننا نحن المسلمين في المقدمة. وليس لنا من أمل يسقط من السماء. إن الأمل الوحيد أن نجد أيدينا فنتناول القرآن من جديد لنقرأ رسالة ربنا مباشرة دون وساطة الشيطان لنا مرة أخرى، وإلا ضاع كلّ أمل لنا في الدنيا والآخرة، على أنني بيّنت فيما سلف أن مايبدو لنا من رزق وغنى وجاه تتمتع به أمم الغرب ليس دليلاً على رضا الله عنها فإن هذه الأمم تعاني من أمراض وشرور استجرها غضب الله عليها لكفرها بالله، من مظاهر انحلال في الأسرة، وعلى صعيد الفرد، وأمراض فتاكة سببها الفحشاء والمنكر، فالله عزّ وجل لايهب نعمه كاملة إلا لمن آمن به واتّقى.

دعونا إذاً نخرج من هذا الكهف، كفانا نوماً ألف سنة، دعونا نحظ بنعم الله كلها بإيماننا الكامل به وبرسوله.

وقد يسأل المسلم نفسه السؤال الآتي: هل يتساوى الناس في فهمهم للقرآن؟ والجواب أنَّ الله يعلم بأن الناس غير متساوين في العقل والعلم والمعرفة، وبالتالي فهم غير متساوين بالقدرة على الفهم والاستيعاب، فجعل رسالته ملائمة لطبيعة إدراك كل فرد منهم، فكل فرد على حدة يفهم منها على قدر علمه ومعرفته وقدراته على الفهم والاستيعاب، لكن كل فرد في النهاية يحصل على النور الكافي من المعرفة الإلهية بحسب تلك القدرات أيضاً، وهذه المعجزة موجودة فعلاً في القرآن الكريم. ولكننا عاهدنا الشيطان ألا نقرأ القرآن الكريم والقرآن الكريم فيه من صفات الله فهو واسع شامل وكلي، ولايمكن لإنسان مهما كان ذكياً أو واسع العلم والمعرفة أن يستوعبه، فمن يستطيع أن يشرب ماء البحر كله؟

والقرآن كتاب حي يتجدّد مع كل عصر، وفيه حقائق علمية تظهر في كل عصر على

حدة، فهو باستثناء القسم الخاص فيه الذي يحتوي على الرسالة وفيها الأحكام والأوامر والتعليمات بأفعل كذا ولاتفعل كذا، أو الحدود (حدود الله) أو العبادات والمناسك الذي يُفسَّر، نجد الباقي لايُفسّر وإنما يُؤَول بحسب كل عصر، وبحسب معرفة الناس وعلومهم في ضوء كشوف العلم وحقائقه، أما القصص القرآني فيمكن فهمه كما ورد في القرآن دون زيادة أو نقصان، لأن المهم في القصة العبرة القرآنية المحصلة فيها وليس إضافة أسماء ووقائع وأماكن مستعارة من التراث العبراني.

وقد يسأل المسلم نفسه أيضاً: كيف ينزل لنا الله كتابه والمطلوب إبلاغه لكل انسان على حده ثم يَنهى من أرسل إليهم أن يمسّوه. قبل أن يتطهروا؟ والسائل عن ذلك على حق إذ كيف يمكن للانسان أن يتطهر قبل أن يقرأ الرسالة أولاً، فيتعلم منها الطهارة والتطهر، ثم بعد أن يقرأها ويؤمن بمضمونها يتعلّم الوضوء والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج. وهذا هو المنطق السليم، أما أن نخيف الناس من القرآن بدل أن نحببهم به. وكأن فيه غولاً سوف يفترسهم. فهو أمر مخالف للمنطق، فالله لم يقل هذا، وإنما أشار كما بينت إلى كتاب محفوظ في السماء تحرسه الملائكة، والملائكة هم المطهرون.

وبعد، فإن كان ثمة من يتشكك بما قرأ وسمع من آيات القرآن الكريم، ولايصدق أنه هو وآباءه يمكن أن يكونوا ضحية الإشراك من دون علم منهم، فإلى هؤلاء سوف أعود لأسرد لهم المثل الذي ضربه الله تعالى في القرآن الكريم ليبين للناس كافة كيف يمكن للانسان أن يقع في الاشراك إذا لم يكن حريصاً. وذلك في القصة التي وردت في سورة الكهف:

﴿واضربْ لهما مثلاً رجلَيْن جعلْنا لأحدِهما جنّتَيْن من أعنابٍ وحَففناهُما بنخلٍ وجعلْنا بينهُما زرعاً * كلتا الجنّتَيْن أتتْ أكلَها ولم تظلم منه شيئاً وفجّرنا خلالَهما نهراً * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاورُه أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نفراً * ودخل جنّته وهو ظالمٌ لِنفسه قال ماأظنُّ أن تَبيدَ هذه أبداً * وماأظنُّ الساعةَ قائمةً ولئِنْ رددتُ إلى ربي لأجِدَنَّ خيراً منها منقَلَبا﴾(١١٥)

ونحن ننصح أبداً من يقرأ القرآن أن لايقرأه كأي كتاب بل أن يتمعن بكل كلمة يقرؤها لأن الله عز وجل يعبّر عن مقاصده بكل دقة وبلون من الإعجاز الذي يجب على قارئه أن يكون لماح الذكاء ليدركه.

---

(١١٥) سورة الكهف: ٣٢ - ٣٦

في مطلع سورة الكهف ذكر الله الرجلين وأشار إلى أنَّ أحدهما يملك جنتين لاجنة واحدة، وأخبر أن بين الجنتين حاجزاً نهرياً ﴿فجرنا خلالهما نهرا﴾ وفي سرد القصة لم يذكر سوى جنة واحدة، وأضرب عن ذكر الثانية. فماذا يريد الله أن يرمز بذلك؟ وما ذلك النهر الحاجز بينهما؟ يريد أن للمؤمن عند الله جنتين: جنة في الدنيا وله فيها نعيم إن عرف كيف يستفيد من كل ماوهبه الله فيها له من عقل وقوة وشباب وبما سخر له الله في الأرض. لكن الرجل اغتر بقوته وبماله، ودخل الشيطان إلى قلبه ليوحي له أن جنّته على الأرض خالدة، وأنها لن تفنى بل ستبقى إلى الأبد. فخسر الجنة الأخرى التي استحقها بإيمانه الأول وهي جنة الله في السماء بعد يوم الحساب.

وقد يتبادر للذهن أن في ذلك كفراً لا إشراكاً، فمن أين جاء إشراك الرجل في هذه القصة؟ أولاً إن الله تعالى يقول لنا في القرآن: كل شيء فانٍ في هذا الوجود الذي خلقه الله لنا أزواجاً إلا الله المنزه عن الزوجية، فهو فرد صمد لاشريك له، وهو خالد لايحول لايزول فإن قلنا إن الدنيا خالدة مع الله ولن تفنى فإننا نشرك مع الله شريكاً في البقاء، ومن هنا جاء إشراك الرجل في القصة لقوله ﴿ما أظنّ أنْ تَبيدَ هذه أبدا﴾ وهو يقصد جنته والأرض التي عليها طبعاً وشك في اليوم الآخر وقال: ﴿وما أظنّ الساعة قائمة﴾ فكفر باليوم الآخر.

ولنتابع بقية القصة من آيات القرآن الكريم بعد ذلك:

﴿قال له صاحبه وهو يحاورُه أكفَرْتَ بالذي خلقَكَ من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوّاكَ رجلاً* لكنّا هوَ الله ربّي ولاأشركُ بربّي أحدا * ولولا إذْ دخلْتَ جنّتكَ قلتَ ماشاءَ اللهُ لاقوةَ إلا بالله إن تَرَنِي أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً * فعسى ربّي أن يؤتَيني خيراً من جنّتكَ ويرسِلَ عليها حُسباناً من السماء فتصبحَ صعيداً زلقاً * أو يصبحَ ماؤها غوراً فلَنْ تستطيعَ له طلباً * وأُحِيطَ بثمرِهِ فأصبحَ يقلّبُ كفَّيْه على ما أنفقَ فيها وهي خاويةٌ على عروشِها ويقولُ ياليتني لم أشركْ بربّي أحدا﴾(١١٦)

وهكذا نجد أن الله حرمه جنته التي على الأرض وجنته الأخرى التي كانت له في السماء تنتظره لو لم يقع في الاشراك بالله. والنهر هو نهر الزمان الجاري دائماً وهو الفاصل بين الدنيا والآخرة ونلاحظ من خلال الحوار كله أنه تعالى لم يعد يذكر الجنتين إنما الجنة التي دارت عليها أحداث القصة، أما الجنة الأخرى فقد ضاعت باشراك الرجل

(١١٦) سورة الكهف: ٣٧ - ٤٢

بالله ونحن المسلمين نعيب ونستغرب كيف وقع أهل الكتاب في الإشراك وقالوا إن المسيح هو الله أو قالوا إنه ابن الله، في حين أننا وقعنا في شر من ذلك، فجعلنا كتاباً مع كتاب الله تعالى لم يأمر به الله ولا الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإليك هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة التي تروى عن الرسول الكريم:

عن أبي هريرة أنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث، فقال «ماهذا الذي تكتبون» قلنا أحاديث نسمعها منك. قال «كتابٌ غير كتاب الله!؟ أتدرون؟ ماضل الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى»(*)

هكذا زين لنا الشيطان أن نفهم من قوله تعالى:

﴿وأَنزلَ اللّهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلّمكَ مالم تَكنْ تعلَم﴾(١١٧)

إن الكتاب هو القرآن، والحكمة هي أحاديث الرسول مع أنه تعالى يؤكد أن الكتاب والحكمة هما كتاب واحد هو القرآن:

﴿ونزّلْنا عليكَ الكتابَ تبياناً لكلّ شيءٍ وهدىً ورحمةً﴾(١١٨)

وأولئك الذين زعموا ذلك وضعوا إلى جانب كتاب الله كتباً لاكتاباً آخر، تجاوزت المئة، فكتاب للفرائض، وآخر للصلاة وثالث للصوم ورابع للوضوء وخامس لمفاسد الوضوء وسادس لمفسدات الصوم وسابع للحج ولم يستغربوا ذلك مع أن الله يقول: ﴿وما أهلَكْنا من قريةٍ إلا ولَها كتابٌ معلوم﴾(١١٩) ولم يقل: كتب معلومة أو كتابان: كتاب الله وكتاب الرسول الذي أنزل عليه الكتاب، فهو يؤكد وحدانية الكتاب الذي يحوي داخله القرآن والحكمة أي العلوم وأنباء الغيب وأحكام الرسالة.

﴿وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلا لتُبيّنَ لهُم الذي اختلفوا فيه﴾(١٢٠)

﴿الر كتابٌ أنزلْناه إليكَ لتُخرجَ الناسَ من الظّلماتِ إلى النّورِ﴾(١٢١)

ولم يأمر رسوله أن يستبدل بكتاب الله كتاباً آخر له ـ لكنه قال تعالى:

﴿الحمد للّه الذي أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عِوَجاً﴾(١٢٢)

(*) تقييد العلم: لأبي بكر أحمد علي ـ دمشق ١٩٤٩ ص ٣٤

(١١٧) سورة النساء: ١١٣ (١١٨) سورة النحل: ٨٩ (١١٩) سورة الحجر: ٤

(١٢٠) سورة النحل: ٦٤ (١٢١) سورة إبراهيم: ١ (١٢٢) سورة الكهف: ١

ولكن الناس دائماً هم الناس، عندهم الاستعداد للضلال واتباع الشيطان سريعاً بدل اتباع الله:

﴿ومِنَ النّاس من يُجادلُ في الله بغير علمٍ ولاهدىً ولاكتابٍ منيرٍ﴾(١٢٣)

أما كتاب الله فلا سبيل للشيطان أن يدانيه ﴿اللّهُ الذي أنزلَ الكتابَ بالحقّ والميزان﴾(١٢٤)

وقبل أن ينزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن قد رأى كتاباً في حياته:

﴿ماكُنتَ تدري ماالكتابُ ولا الإيمانُ﴾(١٢٥)

﴿وماكنتَ تتلو من قبلِه من كتابٍ ولاتَخطّهُ بيمينكَ﴾(١٢٦)

هكذا نحن بني الإنس، نعرف ونحرف ونكابر. وتلك من صفات الجاهل، ولاتجد عالماً يكابر إلا أن يكون من أدعياء العلم ومن أئمة الجهل. بل قال الله تعالى للرسول أن يخاطب أهل الكتاب ويقول لهم:

﴿قلْ فأْتوا بكتابٍ من عندِ اللهِ هو أهدى منهما أَتّبِعْهُ﴾(١٢٧) والضمير في (منهما) يعود على القرآن والتوراة لأنه كان يخاطب بها أهل الكتاب.

بل لعلَّ مايصيب الناس من فرقةٍ هو من سنة الله في عباده لأنه يقول سبحانه:

﴿وماتَفرّق الذينَ أوتوا الكتابَ إلا من بعدِ ماجاءتْهُم البيّنةُ﴾(١٢٨)

لأنه نفض يديه منهم، ومن كل المشركين أجمعين فقال فيهم:

﴿إنّ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ في نارِ جهنّم خالدينَ فيها﴾(١٢٩)

ولانظن أننا نحن بعيدون جداً عن إدراك مقاصد الله تعالى في هذه الآية، وقد نكون أولهم لما نرى من غضب الله ونقمته علينا في الدنيا قبل الآخرة، وفي كل يوم تنزل فوق رأس المسلمين محن، حتى صرنا مضرب المثل والذلّ والمهانة والجهل والجهالة.

أبعد هذا ياعباد!! تنتظرون الدليل؟

---

(١٢٣) سورة الحج: ٨
(١٢٤) سورة الشورى: ١٧
(١٢٥) سورة الشورى: ٥٢
(١٢٦) سورة العنكبوت: ٤٨
(١٢٧) سورة القصص: ٤٩
(١٢٨) سورة البينة: ٤
(١٢٩) سورة البينة: ٦

١٩ ـ هل القرآن كتاب عاديّ لايختلف عن باقي الكتب؟

كثير من الناس الذين يشاهدون القرآن الكريم كتاباً مطبوعاً على الورق كبقية الكتب الدنيوية تتشابه عليهم الأمور، فيظنون أنه يشبه تلك الكتب من حيث الطباعة والحروف ولايختلف عن باقي الكتب إلاّ بفارق وحيد وهو أن المسلمين يؤمنون بأنه منزل من الله تعالى، فهو كتابهم المقدس. فإن سألتهم عن الصفات التي تميز كتاب الله من باقي الكتب عجزوا عن الجواب. وانطلاقاً من حقيقة كون القرآن كلام الله ورسالته إلى كل الناس على لسان خاتمة الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم. فإن كتاب القرأن له أسلوب وصفات سماوية وإلهية، صفات خاصة غير متوافرة في باقي كتب البشر أجمعين. ولايستطيع انسان أن يقلد القرآن في أي لغة كانت أو في أي موضوع كان. ومن أول تلك المزايا التي ذكرناها في فصل الأسلوب الإلهي في الابداع والخلق هي:

الإحصاء: وقد برهنا هذه السمة في هذا الكتاب تحت عنوان: الإعجاز العددي في القرآن، وهي من المزايا التي يلتزمها القرآن في بنيته: ﴿وكلّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مبين﴾[١]

وإذا كان الله عز وجل قد أحصى كل شيء ويحصيه من مخلوقاته، أفلا يحصي أحرف وكلمات وآيات قرآنه؟

ـ الله حي باقٍ، وكلامه أيضاً حيّ باق، ليس بمعنى أن القرآن مخلوق يتنفس ويعيش فهو حي. وإنما بالمعنى الرمزي أيْ أنه وجد ليكون له صفة الدوام بارادة الله ومشيئته، وهو بذلك ليس كباقي الكتب التي تموت بموت أصحابها بعد فترة طويلة أو قصيرة. ذلك أن من أوحى القرآن وبعثه رحمة بالناس حيّ لايموت، وكذلك كتابه فهو يحوي دقائق وليس من السهل الإحاطة بها، كلها دقائق في أسلوبه المعجز، ومثلها في محتواه ومعانيه، وهو قابل للتفسير المتجدد مع كل عصر، ولكي نفهم هذا الموضوع الدقيق لابد لنا من إيضاحه بمثل واقعي:

إن وليم شكسبير كاتب إنكليزي يعده قومه من أعظم كتّابهم، وكذلك باقي الأمم، ولكننا نعلم أن كتبه لن تخلد مع الزمن وإنما أصبحت من التراث الانكليزي. ولغة

---

(١) سورة يس: ١٢

شكسبير التي هي في الأساس لغة عصره ماتت الآن، في حين أن اللغة الانكليزية بقيت حية وتطورت إلى اليوم، واللغة الإنكليزية في عصرنا غيرها زمن شكسبير، وذلك يعني أن الإنكليزي لن يقرأها إلا مستعيناً بالمعجم والدراسات التي تعالج خصائصها.

ويصدق ذلك على اللغات كلها فهي تتطور وتموت.

فالهيروغليفية مثلاً كانت لغة المصريين القدماء المقدسة، وهي اليوم لغة ميتة، بسبب اندثارها وانصراف أهلها عنها في التعامل والثقافة، واللغة اللاتينية القديمة أيضاً لغة ميتة بسبب تطورها إلى لهجات مختلفة حلت محلها في مختلف بلاد الغرب كالفرنسية واليونانية والإيطالية، ولايستخدمها اليوم إلا رجال الثقافة ورجال الدين في الطقوس الدينية.

وكل لغة حية تعيش مع الناس وتستخدم يومياً في كلامهم وقراءتهم ومسرحياتهم وسمرهم وبيعهم وشرائهم، وتكتب في عقودهم ومعاهداتهم وقصصهم ورواياتهم، فهي تنمو وتتطور مع تطور الحياة، فتدخلها كلمات جديدة وتموت منها أخرى مع الزمن لعدم حاجة الناس إليها. فالفلاح يعرف كل أسماء الآلات والأدوات والتعابير الزراعية، فإذا نزح إلى المدينة نسي تدريجياً هذه المفردات وإن لم ينسها أسقطها أبناؤه من بعده بسبب العيش في بيئتهم المدنية، والكلمات تتطور دلالاتها، فقد يكون لها معنى في عصر ثم تتحول إلى معان أخرى مع الزمن، وتطور معاني الكلمات صفة مشتركة لجميع اللغات الحية على الأرض، لايستثنى منها لغة خاصة.

ومثلما تتطور اللغة يتطور الذوق الإنساني، وأفق الابداع، فالكاتب مهما كان موهوباً، لايستطيع أن يخاطب أبعد من أهل زمانه، لأن عقولهم وحاجاتهم تتطور ومفاهيمهم كذلك.

فلو قرأنا كتاب الحيوان للجاحظ مثلاً، وهو كاتب مسلم عربي الثقافة، ويقرأ القرآن، نجد مع ذلك أن كتابه قد مات مثلما ماتت مؤلفات العصور الوسطى، لأنها لم تعد تلبي حاجات الناس المتطورة ولاتساير التطور العلمي أو لغة العصر ومن منا اليوم لايحتاج إلى معجم ليفهم شعر طرفة وزهير وذي الرمّة واصحاب المعلقات المشهورة، لابدّ أن يكون متخصصاً في اللغة أو الأدب علماً أن عصر المعلقات ليس بالعصر البعيد زمنياً عن عصر الاسلام ولغة القرآن.

فبماذا يمتاز القرآن عن لغة باقي الكتب الدنيوية؟

١ ـ هو أولاً كلام الله الحي وليس من كلام أحد من مخلوقاته.

٢ ـ وهو يحوي كلام الله وعلمه الكلي ويحيط بكل احتمالات التغير في الزمان والمكان علماً كلياً شاملاً كل الأزمنة والأمكنة الحالية والمستقبلية.

٣ ـ هو يعكس قدره الله على الرؤية الشاملة التي تتجاوز كثيراً قدرة الإنسان ورؤيته المحدودة الجزئية والضيقة.

وانطلاقاً من هذه الحقائق الثلاث شاء الله القادر على كل شيء أن يخاطب الناس بكلمات راعى فيها تلك الاعتبارات التي شرحناها سابقاً، مختاراً كلماته حيث يمكن فهمها في كل زمان بحسب مستوى التطور في كل عصر ومدارك الناس ووعيهم وحاجاتهم، حسب علمهم ومعرفتهم المتطورة مع الزمن. وفي ذلك إعجاز عظيم لايستطيع أن يفكر فيه إلا خالق كل شيء ومدبره، لذلك لم يتوقع الناس أن يكون في كتاب الله الذي طبع على الورق ذلك الإعجاز العظيم، والإعجاز في القرآن حقيقة يمكن البرهان عليها من ضمن آيات القرآن الكريم. علماً أن القرآن المعجز هو النص الإلهي المثبت توقيفاً بشكل أحرفه وكلماته وليس هو الورق ولا الحبر. لنستمع للآية الكريمة التالية: ﴿ثم خلقْنا النطفةَ عَلَقةً فخلقْنا العَلَقَةَ مُضغةً فخلَقْنا المُضغةَ عظاماً فكسونا العظَام لحماً ثم أنشأناهُ خَلقاً آخرَ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين﴾[٢]

إن نص الآية دوّن في زمن الرسول بكلمات عربية، ولم يكن نصها ولاكلماتها مفهومة زمن الرسول كما لم يتوفر لدى من عاصر في تلك الأيام مستوى الفهم الذي توافر لنا مع التقدم العلمي، وهذه حقيقة علمية ثابتة. ففي النصف الثاني من القرن العشرين بدأ العلماء يدرسون حقائق الخلق العلمية ففهم الناس الآية فهماً شمولياً لم يكن ميسراً لمن سلفنا من المسلمين، ولاسيما مايتعلق بتشكل الجنين في بطن الأم، مثلما أدركنا اليوم دلالة الآيات القرآنية التي تبحث في عمليات التطور التي مرت بها الأرض من عصر إلى عصر، استناداً إلى دراسات علماء الأنتربولوجيا والجيولوجيا الذين اعتمدوا على المستحاثات والرسوبيات في دراسة العصور الجيولوجية، وقد جاءت هذه الدراسات مؤيدة ما ورد في القرآن كما نجد في الآيات الآتية:

﴿كما بدأنا أولَ خلقٍ نعيدُه﴾[٣]

﴿إنّه هو يُبدِئ ويُعيد﴾[٤]

---

(٢) سورة المؤمنون: ١٤ (٣) سورة الأنبياء: ٣٨٤ (٤) سورة البروج: ١٣

﴿إنه يَبدأ الخلقَ ثمَّ يُعيدُه﴾[٥]

﴿قل هل من شُركائكم من يَبْدأُ الخلقَ ثمَّ يُعيدُه﴾[٦]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كيفَ يُبدئُ اللهُ الخلقَ ثمَّ يُعيدُه﴾[٧]

﴿وهو الذي يَبدأ الخلقَ ثم يعيده وهوَ أهونُ عليه﴾[٨]

علماء الأجنة اليوم يقولون إن أفضل وصف لفترة من فترات مراحل تطور الجنين هو أن نصفه بالعلقة، لأن شكل الجنين وأسلوب تعلقه على جدار الرحم يشبه العلقة شبهاً يبلغ حد التطابق، وكذلك في باقي وصف مراحل الجنين الأخرى. فالإعجاز هنا ليس مجرد الإعجاز العلمي، وإنما الإعجاز اللغوي بحيث تكتب العبارة بلغة العصر الذي سوف تكشف فيه تلك الحقيقة العلمية، أي بلغة العرب في القرن العشرين وحسب مفاهيم ذلك القرن.

ومن ذلك أيضاً الآية الآتية

﴿لايعزُبُ عنهُ مثقالُ ذرّةٍ في السمواتِ ولافي الأرض﴾[٩]

فالذرة من الأمور التي تطور مفهومها، فكان لها معنى معين في عصر الرسول، وهي أصغر الأجزاء المرئية. مثل ذرة التراب مثلاً، لكن الذرة بهذا المفهوم أصبح لها دلالة هامة في عصرنا اليوم، يطابق مفهومها كلام الله، فالله قد خلق مخلوقات من بعض الحشرات لاترى بالعين المجردة إلا بصعوبة، فهي بالتقدير العيني ذرة، أما إذا رؤيت بالمكبرات فهي مخلوقات حية وكاملة لها كل الأجهزة المتوفرة في باقي المخلوقات من بصر وسمع وأرجل وفم وجهاز هضم، وهي تسعى لرزقها مثلنا مع أنها لاتُرى بالعين البشرية لصغر حجمها، لذلك نرى أن فهمنا كلمة الذرة في القرآن قد تطور إلى معناها في العصر الذي نحن فيه، وهجر معناها القديم الذي كان يفهمه منها القدماء. وهذا ماقصدته بشمولية الدلالة في كلمات القرآن.

ولمزيد من الإيضاح لنقرأ الآية الآتية: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾[١٠]

هذه الآية مثل الآية الأولى التي تناولت تكوين الجنين، فهي لم تكتب لعصر الرسول، لذلك لم يفهمها أحدهم، حتى جاء العصر الحديث وفي القرن العشرين قرن

---

(٥) سورة يونس: ٤

(٦) سورة يونس: ٣٤

(٧) سورة العنكبوت: ١٩

(٨) سورة الروم: ٢٧

(٩) سورة سبأ: ٣

(١٠) سورة الأنبياء: ٣١

الاكتشافات العلمية حيث تبين للعلماء أن القارات على سطح الأرض تشبه إلى حد ما حاملات الطائرات الضخمة التي تطفو على سطح سائل ناري منصهر من شدة الحرارة، نراها حقيقة عند تفجر البراكين فيسيل ذلك السائل كالأنهار على الأرض وعندما تبرد تصبح صخوراً. فهنا في هذه الآية، الله تعالى يشبه القارات بالسفن ويشبه الجبال برواسي السفن التي تلقيها عادة السفن الصغيرة والكبيرة لتثبيت حركة السفينة على سطح الماء فتستقر. فالله تعالى في هذه الآية يصرح لنا بحقيقة علمية ضخمة وهي أن القارات لولا وجود الجبال رواسي لها مثل باقي السفن لمادت أي تحركت، ونحن نعلم أن الحركات البسيطة التي تسببها الزلازل تحدث دماراً قاتلاً فلولا تثبيت الجبال للقارات لما كانت لنا حياة على الأرض، هذه حقيقة علمية من مكتشفات علماء اليوم، لكنها ليست من مكتشفات الله بل من صنع الله الذي أتقن صنع كل شيء:

﴿صُنعَ الله الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ إنّه خبيرٌ بما تفعلون﴾(١١) ومثل هذه الآيات أكثر من أن تعد في القرآن الكريم، كما تصادفنا آيات أخرى لانجد لها أي معنى وعبثاً نحاول تفسيرها لأنها جاءت لتفسّر في زمان لاحق لزماننا ولسوف يأتي الزمان الذي يكتشف فيه معناها، فتبدو معجزة جديدة من معجزات القرآن لذلك الزمان، وهكذا القرآن، فيه المعجزات والمعلومات، بلغة كل عصر، وبحسب معلومات ذلك العصر، علماً ومعرفة، ولنقرأ الآية الآتية:

﴿إنّ الصلاةَ كانتْ على المؤمنينَ كتاباً موقوتاً﴾(١٢)

فإذا فهمنا منها أن الله كتب على المؤمنين الصلاة وفرضها فرضاً نكون قد تخطينا المطلوب ودخلنا في المحظور، لأن الله عندما يفرض أو يكتب شيئاً يدخل تحت بند: كن فيكون، فالمؤمن عندها سوف يصلي في المواقيت شاء أم أبى. بينما يبيّن الدين كله ومعاملة الله للإنسان لكلمة سبقت منه مع مشيئة سابقة، بأنه قد أعطى مطلق الحرية للإنسان في كل تصرفاته، ولذلك فالمؤمن يثاب أو يعاقب وفق اختياره لتصرفاته الدنيوية وليس لأن الله قد كتب عليه.

وبتطبيق القاعدة التي شرحناها سابقاً نلتمس معنى كلمة (كتاباً) في الآية الكريمة في دلالاتها المعاصرة:

فعندما نقول اليوم مثلاً إن المحافظ أصدر كتاباً. نفهم من الكلام أنه أصدر أمراً أو قراراً

(١١) سورة النمل: ٨٨ (١٢) سورة النساء: ١٠٣

يتعلق بشؤون المحافظة وذلك لايعني أن الناس كلهم سيلتزمون ماجاء فيه، لكن المحافظة سوف تتبع أساليب معينة لجعل القرار نافذاً قدر الإمكان.

وكذلك إذا فهمنا كلمة كتاباً في الآية على أنها أمر للمؤمن فإن امتثل له كوفئ وإن لم يمتثل له عوقب بفصله عن المؤمنين، أو بأي عقوبة أخرى، فالأمر منوط بحرية الإنسان ومشيئته في تنفيذه أو الامتناع عن تنفيذه، وندرك من الآية أن الصلاة كانت على المؤمنين (أمراً) من الله تعالى يشترط لتنفيذه التزام الأوقات المخصصة لكل صلاة، والتقيد بمواعيدها إلا إذا كانت هناك أسباب خاصة. ومن ذلك أيضاً معنى كلمة: أحصى في قوله تعالى:

﴿لايغادرُ صغيرةً ولاكبيرةً إلاّ أحصاها﴾(١٣)

فكلمة (أحصى) لم يكن لها المعنى المعاصر الجديد الذي أصبح لها في القرن العشرين، بدليل أن وسائل الاحصاء لم تكن متوافرة فيما مضى، فكل ماكانوا يعرفونه هو العد بالحصا، وكانت كلمة الاحصاء مرادفة لكلمة العد، علماً أن الفرق كبير اليوم بين المفهومين، فالإحصاء اليوم علم واسع قائم بذاته وله قوانينه، والله تعالى الذي يعرف المستقبل لم يضعها هكذا اعتباطاً، وإنما لعلمه أن هذه الكلمة سوف يكون لها تمييز خاص عن العد، فرقها عن العد وأظهر لنا الفرق بمعلومات إحصائية من عنده ﴿ويعلم مافي البَرِّ والبحرِ وماتسقطُ من ورقةٍ إلاّ بعلمِه ولاحبّةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولارطبٍ ولايابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين﴾(١٤) فجمع هذه المعلومات ليست عملية عد، بل عملية إحصائية تستند إلى قوانين هي من اختصاص علم الإحصاء.

وهكذا إذا بحثت في آيات القرآن سوف تكتشف كل يوم معجزة جديدة لم تكن تعرفها، والمهم قبل ذلك أن تركز اهتمامك بعد أن تعلم أن هذا الكتاب من الله تعالى وهو يدعو إلى تطبيق منهج الله في الأحكام الذي هو الأساس في القرآن.

لذا يجب ألا ننظر للقرآن على أنه منهج للاكتشافات العلمية، وإنما منهج للهدى حتى لانضل الطريقَ وتتفرق بنا السبل، ونظن أننا مهتدون ونحن من الضالين ولذلك قال تعالى عن القرآن الكريم

﴿هذا بيانٌ للناس وهدىً وموعظةٌ للمتقين﴾(١٥)

---

(١٣) سورة الكهف: ٤٩ (١٤) سورة الأنعام: ٥٩ (١٥) سورة آل عمران: ١٣٨

القرآن فيه أنباء وعلوم هي بيان لكل الناس مؤمنهم وكافرهم وفيه الرسالة التي هي هدى للمؤمنين والمتقين، الذين قبلوا به منهجاً وطريقاً وموعظة من رب العالمين لهم.

هل نحتاج لفهم آيات القرآن إلى معجم؟

كل إنسان يفهم العربية ويلم بالقراءة والكتابة بالعربية يفهم من القرآن مايكفيه لاتّباع المنهج، وإذا شاء أن يفهم أكثر فبإمكانه السؤال ممن يعرف أكثر منه، أو الاستعانة بآيات القرآن المتقاربة، والتي تحوي الموضوع ذاته ليفهم دلالة الكلمة التي يبحث عنها في سياقاتها المختلفة، وبذلك يتوصل إلى هذه الكلمات، ويدرك أبعاد الموضوعات، وإن كان هذا الأمر عسيراً عليه، يستطيع أن يستعين بمرشد مفهرس لكلمات القرآن ومعجم لغوي يوضح له الكلمات الصعبة.

ولكنني لاأنصح مطلقاً الاستعانة بأي تفسير للقرآن، فإن القرآن لايفسر، وإذا قرأت التفسير فأنت لاتقرأ القرآن، وإنما تقرأ رأي المفسر، وكل إنسان بما فيهم المفسرون معرضون للخطأ، وهم يفسرون كل آية دون النظر إلى صلتها بالآيات الأخرى، بالاضافة إلى أن تفسيرهم كان يلائم عصرهم وعقولهم وهو لايناسب العصر الذي يليه، لذلك لابد من تأويل لآيات القرآن وفهمها حسب كل عصر. إن لم نتعامل مع القرآن بمثل هذه الأساليب فإننا بسهولة نقع مرة أخرى في الضلال وتفرق السبل الذي نحن فيه الآن..

أسلوب الله في التعبير:

لنقرأ الآية الآتية: ﴿فإذا تطهّرنَ فأتوهنَّ من حيثُ أَمرَكُم اللّه﴾[١٦] لاشك في أن الله لايستحيي من قول الحق، لكن له أسلوبه الإلهي الخاص لقول الحق. ففي هذا الجزء من الآية المعجز باختصاره، والمعجز بأسلوبه، ينصّ على أمرين تهم معرفتهما المسلمين والمسلمات لأنهما يتعلقان بحياتهم الزوجية، وسلامة علاقتهم المقدسة.

الأمر الأول: ألا يأتي المسلمون نساءهم شذوذاً من الخلف على أسلوب قوم لوط من المكان غير الطاهر.

والأمر الثاني: تجنب مداناة النساء في أثناء فترة الحيض حتى يطهرن.

أسلوب استخدام الكلمات:

---

(١٦) سورة البقرة: ٢٢٢

وعندما يكتب الناس يستخدمون الكلمات التي يعتقدون أنها تخدم المعنى، ولكن إعجاز القرآن يتجلى بدقة استخدام الكلمة لتدل على معنى يقصده تعالى بالذات، والناس لعدم تعمقهم في فهم آيات القرآن ولغته لايلاحظون ذلك، ويظنون أن تلك الكلمات اختيرت اعتباطاً.

فنحن نقول مثلاً بشكل عفوي: رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وأحياناً أخرى نقول: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولاندرك الفرق بين الاستخدامين أما القرآن فيفرق بدقة بين المعنيين، فكلمة الرسول لايستخدمها إلا عندما يتحدث الله عن موضوعات تتعلق بتكليفه بالرسالة. وتبليغها الناس . وفي باقي الآيات التي يخبرنا فيها الله عن معلومات وحقائق علمية من السموات والأرض أو عن حقائق تاريخية في القصص، وكلها من علوم الغيب بالنسبة إلينا، فالله يستخدم فيها مصطلح النبيّ، لأن كلمة نبي مشتقة من كلمة أنباء وكلمة رسول مشتقة من كلمة الرسالة أو من كلمتي أنبأ وأرسل.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد في القرآن الكريم لمن شاء أن يتأكد، ثم هناك حالة ثالثة وهي الحالة التي خاطب فيها الله محمداً صلى الله عليه وسلم في شؤونه الشخصية وزوجاته ووصايا الله لرسوله وهي تتعلق بشخصه، فالله يتوجه فيها بالخطاب بعبارة: ياأيها النبي: أما إذا كانت نصائح خاصة بالرسالة فيأتي الخطاب بـ: يا أيها الرسول.

وهذا مثال آخر يؤكد دقة التعبير القرآني: فإن أكثر الكلمات وروداً في القرآن الكريم كلمتا: الله، الربّ فكلمة الله وردت فيه: ٢٦٩٨ مرة وكلمة الرب وردت فيه: ٩٦٩ مرة، غير أن كلا من الكلمتين لاتستخدمان بشكل اعتباطي في القرآن وإنما تردان في سياقهما وفق تمييز دقيق:

ففي الفاتحة يقول تعالى: ﴿الحمدُ لّله ربّ العالمين﴾. وهذه الفاتحة لايرددها إلا المسلم فقط الذي آمن بالاسلام ديناً وبالقرآن منهجاً؟ المسلم يحمد الله الذي هداه إلى صراطه ليعبده ويعترف به إلهاً لايشرك به أحداً، ولكن ماصفة الإله الذي اختاره المسلم لعبادته؟ إنه رب العالمين لاإله إلا هو أصلاً وحقيقةوكل إله غيره هو إله خلقه الوهم وهكذا نرى أن لله صفتين:

ـ صفة الألوهية بالاختيار: وعبادته لذاته بعد الاختيار أي بعد اختيار المسلم بإرادته

الحرة الله إلهاً له يعبده فإنه يقول: ـ الله إلهي ولايقول ربي، لأن ذلك يعني أن اختياره الله لم يتم بمحض إرادته. فالرب تعبير عن الله مفروض الاعتراف به جميعاً على العالمين لذلك يقول ﴿ربّ السموات والأرض ومابينهما﴾(١٧) ﴿وربّ العرش العظيم﴾(١٨) ﴿فأتيا فرعونَ فقولا إنّا رسولُ ربّ العالمين﴾(١٩) ﴿ربّ المشرق والمغرب﴾(٢٠) ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت﴾(٢١) ﴿قلْ أعوذُ بربّ الفلَق﴾ ﴿قلْ أعوذُ بربّ الناس﴾(٢٢) ﴿قلْ أغيرَ اللّه أبْغي ربّاً وهو ربُّ كلّ شيء﴾(٢٣) لكن المؤمنين يمتازون على البقية بالرغم من أنه ربهم شاؤوا ذلك أم أبوا بأنه أصبح إلههم بالاختيار والعبادة، هذه الميزة فقط للمؤمنين، لكن ليس من الخطأ أن يقول المسلم «الله، ربي» لأن ذلك اعترافاً منه بأنه اختار الله بإرادته للعبادة وهو يعترف بأن الله ربه شاء ذلك أم أبى، وهذا المعنى ينطبق على كل آيات القرآن التي فيها كل تلك الآيات على عددها الهائل ولاتشذ واحدة عنها. والقرآن في يد كل مسلم وبمقدوره أن يتأكد من تلك الحقيقة. لذا وجب على المسلم أن يراعي ذلك في كلامه، ويلتزم بما التزمه القرآن في ذلك، فالله هو إله أبي بكر ورب أبي جهل.

ولو قلنا: إله أبي جهل فذلك يعني إيمان أبي جهل، وهذا لم يقع، وأول من نبه إلى هذه الأمور في القرآن الكريم كما ذكرت سابقاً في هذا الكتاب هو المفكر الإسلامي المعاصر الدكتور محمد شحرور في كتابه: الكتاب والقرآن. ولم ينتبه لذلك القدماء كثيراً، ربما لأنهم اهتموا بأحاديث الرسول أكثر من اهتمامهم بالقرآن، ظناً منهم أنها تغني عن القرآن، مع أن أحاديث الرسول تشرح القرآن بوحي سماوي آخر.

ولنأخذ مثلاً: كلمة هبط ـ يهبط ـ اهبطْ، فالله لم يستخدمها في القرآن بمعنى النزول من السماء أبداً، وإنما استخدمها بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان آخر على الأرض والدليل على ذلك في الآيات الآتية:

﴿قيل يانوحُ اهبِطْ بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليكَ﴾(٢٤)

﴿اهبِطوا مِصراً فإنَّ لكم ماسألتم﴾(٢٥)

قال تعالى موجهاً كلامه لبني آدم وإبليس وذريته:

---

(١٧) سورة الصافات: ٥
(١٨) سورة المؤمنون: ٨٦
(١٩) سورة الشعراء: ١٦
(٢٠) سورة المزمل: ٩
(٢١) سورة قريش: ٣
(٢٢) سورة الناس: ١
(٢٣) سورة الأنعام: ١٦٤
(٢٤) سورة هود: ٤٨
(٢٥) سورة البقرة: ٦١

﴿اهبِطوا بعضُكم لبعضٍ عدوّ ولكمْ في الأرض مُستقرّ ومَتاعٌ إلى حين﴾[٢٦]

وكما تعلم فإن آدم خلق من طين هذه الأرض ومائها لا في السماء، والجن وأبوهم إبليس هم معنا أيضاً، في الأصل، على هذه الأرض.

كذلك نلاحظ الفرق بين (خلق وجعل) في القرآن الكريم فالله تعالى قد استعمل كلمة (الخلق) لموضوع متكامل، له هدف وغاية من الخلق، لذلك نقول، ويعدّ قولنا هذا قاعدة عامة:

لله في كل عملية خلق موضوع، ومن كل عملية خلق هدف وغاية، فخلق الإنسان مثلاً: موضوعه

هو الإنسان، والهدف منه هو معرفة من سيعبد اللّهَ حباً واختياراً، ومن سيكفر به ظلماً وإشراكاً.

لنقرأ في ضوء ذلك الآيات الآتية:

﴿وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحق﴾[٢٧]

﴿وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نار﴾[٢٨]

﴿خلقَ الإنسانَ من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين﴾[٢٩]

﴿وخلقْنا لهم من مثلِهِ مايَرْكبون﴾[٣٠]

﴿ومِنْ كلِّ شيءٍ خلَقْنا زوجَيْن لعلّكُم تذكرون﴾[٣١]

فكل ماقلناه عن موضوع الخلق ينطبق على كل هذه الآيات، وعلى كل آيات القرآن الأخرى التي تتكلم على الخلق.

في حين إنّ كلمة (جعل) تأتي فقط لإضافة صفات جديدة للمخلوق مثلاً:

﴿واللهُ جعلَ لكُم مما خَلقَ ظلالاً وجعلَ لكُم من الجبالِ أَكْناناً﴾[٣٢]

فالظل والظلال هي من الأشياء التي تتبع المخلوق، فالشجرة يصبح لها ظل بعد أن تتلقى أشعة الشمس بأوراقها، والجبل تصبح له مغاور وكهوف نتيجة دورة المياه من البحر إلى السحاب: المطر فالأنهار، فالعودة مرة أخرى للبحار.

﴿وجَعْلنا في الأرض رواسيَ أنْ تَميدَ بكم﴾[٣٣]

---

(٢٦) سورة الأعراف: ٢٤
(٢٧) سورة الأنعام: ٧٣
(٢٨) سورة الرحمن: ١٥
(٢٩) سورة النحل: ٤
(٣٠) سورة يس: ٤٢
(٣١) سورة الذاريات: ٤٩
(٣٢) سورة النحل: ٨١
(٣٣) سورة الأنبياء: ٣١

فموضوع الخلق هنا هو الأرض، والجبال من الأرض جعلها الله لخدمة الأرض، لتكون رواسي كرواسي السفن لمنعها من الحركة، والشمس مخلوقة، لكن النور الذي فيها إضافة جديدة، من الله أوجده لسبب آخر غير الخلق، لذلك يقول ﴿وجَعلْنا سِراجاً وهّاجاً﴾[٣٤] ولايقول وخلقنا سراجاً وهاجاً.

﴿ياداوودَ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرض﴾[٣٥]

فداوود هو المخلوق والإضافة الجديدة هي جعله خليفة في الأرض ﴿إنّا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون﴾[٣٦]

هنا يبين الله لنا أن لغة القرآن الأساسية ولغة الله ليست العربية أو أي لغة أخرى نعرفها، وإنما أضاف عليها صفة جديدة فجعلها العربية. لعلكم تعقلون، أي حتى تفهموا ماتقرؤون.

﴿ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياتُه﴾[٣٧] يقول لنا: لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: نريد تفسيراً بالعربية لهذه لأنها غير مفهومة لنا، وهي بهذه اللغة الأعجمية.

﴿إنّا خلَقْنا الإنسان من نطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلْناهُ سميعاً بصيراً﴾[٣٨] في هذه الآية يشرح لنا الله بأنه خلق الإنسان بداية من نطفة، ويذكر الهدف من خلقه، فيقول: لنبتليه، أي لنختبره، ثم يضيف صفتين جديدتين وهما السمع والبصر ولذلك عندما نقرأ الآية: ﴿ثم خَلقْنا النطفةَ عَلَقَةً فخلَقْنا العَلقةَ مُضغةً فخلَقْنا المضغةَ عظاماً فكَسَوْنا العظامَ لحماً﴾[٣٩]

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدُوا لآدم﴾[٤٠] إذاً فالله تعالى مَرَّر الإنسان بمراحل خلق عديدة، حتى أوصله للصورة الحالية، وأعطاه الميزات الجديدة بنفخة الروح، وصار قادراً على النطق والتعلم والاختيار، فاختار وقبل أن يتحمل المسؤولية نتيجة اختياره، وأسجد له الملائكة بعد أن تميز الإنسان عليهم بتلك الميزة وهي الحرية، وإمكانية الاختيار بنفسه، لأن هذه الميزة غير متوافرة في الملائكة، فهم خلقوا ليطيعوا فقط ولايستطيعون أن يعصوا.

---

(٣٤) سورة النبأ: ١٣
(٣٥) سورة ص: ٢٦
(٣٦) سورة الزخرف: ٣
(٣٧) سورة فصلت: ٤٤
(٣٨) سورة الإنسان: ٢
(٣٩) سورة المؤمنون: ١٤
(٤٠) سورة الأعراف: ١١

لكن ما الأسلوب الذي اتبعه الله في عمليات الخلق المتكررة؟ إن الله يبين لنا ذلك بأسلوب الخلق ثم إعادته من جديد عن طريق التوالد الذاتي أولاً ثم عن طريق التزاوج، لكن المخلوق الجديد الذي سيخلف القديم يمر من جديد بكل مراحل الخلق التي مرّ بها الذي سبقه بالكامل لكي يضيف الله تعالى مايريدُ أن يضيف لمخلوقه﴿ يزيدُ في الخلق مايشاءُ إن اللهَ على كلّ شيء قدير﴾(٤١)

فإذا أعيد خلق المخلوق أضيف إلى خلقه خصائص معينة تغدو هذه الخصائص موروثة للخلف من السلف وقد عبر عن ذلك علماء الطبيعة بعد أن انتبهوا لتلك الزيادة فسموها الطفرة، واعتبروا ذلك لجهلهم وعدم إيمانهم بالله أن ذلك يتم بالصدفة العمياء دون أن يكون وراءها مدبر مخطط فبئس ماكانوا يتوهمون.

والله تعالى يريدنا أن ننتبه إلى مايحصل في رحم الأم. إنّ تكَوّن الجنين بأطواره المختلفة هو إعادة لما يجري في الطبيعة منذ آلاف وملايين السنين، لاحظوا الآية التالية:

﴿وقد خَلَقَكُم أَطواراً﴾(٤٢)

﴿يَخلُقكُم في بطونِ أمهاتكُم خَلْقاً من بعدِ خلقٍ في ظُلماتٍ ثلاث﴾(٤٣)

فكلام الله في تشكل الجنين وصلته بما يجري في الطبيعة واضح، فالظلمات الثلاث مفهومة فهو ينبهنا إلى أن ماتم في الطبيعة يعاد مرة ثانية لكن بسرعة هائلة وخلال تسعة أشهر وبضعة أيام، ويذكرنا بالظلمات الثلاث وهو لم يذكر.. الظلمات سابقاً للرحم وإنما ذكرها للبر والبحر، وهي ثلاثة أنواع من الظلمات وأولها ظلمات البحر ثم ظلمات الغابة ثم ظلمات البراري. ونعرف أن بني آدم عاشوا في الغابات حتى غضب عليهم الله وأخرجهم مع ذريتهم إلى البر ليعملوا ويشقوا في الزراعة والعمل، وقبلها كانوا بلا عمل، وربما شاءت إرادة الله أن يعلّم الإنسان العمل لأنه لايمكن أن يستخلف في الأرض إذا لم يعمل. ولكنه تعالى صاغها بشكل قصة رمزية تفهم من الجميع بحسب مداركهم. هذه القصة قصة تطور الإنسان وكيف خلقه الله هي من الأشياء التي يركز عليها الله، ويذكّر الإنسان أن يسعى لمعرفتها، ولذلك أحببت باختصار شديد أن أمر على مراحلها للتذكر، ﴿وذَكِّرْ فإنّ الذكرى تنفعُ المؤمنين﴾(٤٤)

ـ إذاً يجب أن نميز القرآن من باقي الكتب كلها، فهو لايشبهها في شيء إلا بالحبر

---

(٤١) سورة فاطر: ١
(٤٢) سورة نوح: ١٤
(٤٣) سورة الزمر: ٦
(٤٤) سورة الذاريات: ٥٥

والورق وحروف اللغة العربية وكلماتها، وفيما عدا ذلك فهو مختلف في كل شيء، ولايشبهه ولايقاربه كتاب، وإعجازات القرآن لاتعد ولاتحصى، فهو رحمة للعالمين في كل يوم، وفي كل عصر، اعتباراً من لحظة نزوله على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ونطق لسانه به أول مرة.

إنه رحمة لأنا نحن البشر جربنا كل الطرق الضالة، وظلمنا أنفسنا ظلماً لأشد ولأقسى، وفي النهاية يبقى لنا أمل وحيد، أمل العودة إلى رسالة رب العالمين لنعود إلى الصراط المستقيم بعد أن ضل البشر في عصرنا سواء السبيل غرباً وشرقاً، ولانجاة لهم إلا بالعودة إلى القرآن الذي حفظه الله بعد أن أعلن لنا أن لارسل بعد الآن، ولايمكن للبشرية المعذبة أن تتخلص من حمامات الدم ومجازر الظلم التي يرتكبها المفسدون في الأرض تحت شعارات وأهداف كاذبة:

﴿وإذا قيلَ لهم لاتُفسدوا في الأرضِ قالوا إنّما نحنُ مصلِحون﴾(٤٥)

صدق الله العظيم

---

(٤٥) سورة البقرة: ١١

٢٠ ـ الأسلوب الإلهي في الإبداع والخلق

قبل أن نباشر بموضوع هذه الفقرة لابد لنا أن نتفاهم حول معنى بعض الكلمات مثل: الأسلوب، الإبداع، الخلق.

الأسلوب:

عندما يرى ناقد فني لوحة فنية في متحف من متحفات العالم يقرر أن للوحة أسلوبها الفني وقد يردّها إلى مبدعها: ليوناردو دافنشي أو بيكاسو مثلاً، فما الذي مكن الناقد من معرفة صاحب اللوحة أي مبدعها؟ عرفها من أسلوب الفنان في الرسم.

الإبداع:

ولنفرض أن مزوّراً رسم تلك اللوحة نقلاً عن نسختها الأصلية ثم استبدل باللوحة الأصلية لوحته المزورة، فلو عرضت اللوحة المزورة على ناقد متمرس لاكتشف من فوره أن اللوحة الأصلية قد سرقت لأن كل السحر والإبداع اللذين كانا في اللوحة الأصلية غابا في نسختها المزورة، ويصدق ذلك أيضاً على القطع الموسيقية وقصائد الشعر، فالفرق بين اللوحتين هو فرق بين التقليد والإبداع، إذاً فما المقصود بكلمة الإبداع هنا؟

سئل ميكائيل آنجلو وهو فنان ايطالي من الفنانين المبدعين الذين عاشوا في فترة عصر النهضة الأوربية: كيف تستطيع أن تنحت تماثيلك بكل هذا الإبداع، وكأنها حية تريد أن تنطق وتفصح عما كنت تريد أن تقوله؟ فأجاب بكل تواضع صادق وبساطة، شأن كل فنان صادق: أنا لاأنحت تماثيل من الصخر: بل أخرج التمثال السجين داخل الصخرة لأني أراه رأي العين داخلها، وهذا هو الإبداع. أن يصل المبدع إلى مرحلة رؤية عمله الفني في مخيلته قبل إظهاره لعالم الواقع والحقيقة، وهناك نحاتون كثيرون لايملكون هذه الموهبة في الإبداع، فينحتون من الصخر تمثالاً لآدمي مستخدمين مقاييس هندسية وأدوات قياس، ثم يحاولون تخيّل الموضوع بعد أن يكون شكل التمثال قد تحدّد، وصار بين أيديهم، ثم يحاولون إخفاء أخطائهم التي ارتكبوها هنا وهناك في فترة النحت التي سبقت عملية التخيل أصلاً، وهذا الكلام يصدق على مختلف الفنون إجمالاً. كالشعر والموسيقا.

أما الخلق: فهو كل عمل إبداعي له موضوع وهدف، نقول مثلاً: إن الله خلق شجرة

فالشجرة موضوع خَلقي متكامل ذو هدف، وفيه الإبداع أو الأسلوب الذي يشير إلى المبدع أو الخالق. وقلّما تشير الشجرة إلى فوائدها القريبة والبعيدة مثل استفادة الإنسان وباقي الكائنات الحية منها وإعادة التوازن للجو بالتبادل اليخضوري، وإعادة الأكسجين الضروري للهواء، وبذلك تعمل الأشجار وكأنها رئة الكرة الأرضية، فالله خلق الشجرة ولانقول الله خلق الحطبة إذا استحالت الشجرة بعد موتها إلى حطب، علماً أن الحطب من الشجرة، لكن الحطبة جزء من الشجرة فهي لاتشكل خلقاً إبداعياً ذا أسلوب وموضوع متكاملين.

كذلك الإنسان له جسم وعقل فهو خلق إبداعي له موضوع هو ذاته الإنسانية، وأهداف من خلقه منها: الاستخلاف في الأرض ـ ولكن يد الإنسان وحدها أو رأسه لاتشكل خلقاً كاملاً لأن الله لايخلق كما رأينا إلا الخلق الكامل ذا الموضوع والهدف ومن أهداف الخالق من خلق الإنسان غير استخلافه في الأرض عبادته الخالق والخضوع للاختبار.

﴿وماخَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ﴾(١)

﴿وماخلَقْنا السماءَ والأرضَ ومابينهما لاعبين﴾(٢)

أي أن هناك هدفاً مقصوداً من عملية الخلق.

﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتركَ سدىً﴾(٣)

﴿ونَبلوكُم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعون﴾(٤)

﴿إنّا جعَلْنا ماعلى الأرضِ زينةً لها لِنَبلوَهُم أيّهُم أحسنُ عَمَلاً﴾(٥)

تلك كلها من أهداف الله في خلق الإنسان، وهو يخبرنا بذلك عنها في القرآن الكريم، والله تعالى الخالق المبدع المصور خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأودع فيه سرّاً من أسراره بنفخة الروح الأولى التي نفخها في آدم، ونفخة الروح هذه هي هبة إلهية تنتقل من آدم إلى ذريته بالتتابع عن طريق التناسل والتجدد وبالولادة (يبدئ الخلق ثم يعيده) فكل مخلوق بشري تلقى تلك الهبة عن طريق أمه وأبيه وبالولادة، وأعتقد أن مركزها في الجملة العصبية أي في دماغ الإنسان لأنه ليس في الإنسان مكان أنقى وأشرف وأطهر وأفضل من دماغ الإنسان المحفوظ ضمن صندوق عظمي مغلق ومصون بأسلوب

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦
(٢) سورة الأنبياء: ١٦
(٣) سورة القيامة: ٣٦
(٤) سورة الأنبياء: ٣٥
(٥) سورة الكهف: ٧

إلهي خاص يحميه من الارتجاج والاهتزاز مع تعرض الرأس لذلك أحياناً.

وهذه الهبة الإلهية هي التي تجعل من الإنسان كائناً قادراً على الخلق والإبداع والتصور. هكذا كانت مشيئة الله عندما خلق الإنسان ليستخلفه في الأرض، شاء أن يعطيه بعضاً من صفاته، ومامنحه للإنسان منها لايقاس بما عند الله، لكن شاء الله تعالى أن يعطيه بعضاً منها، وقد يسأل سائل لماذا لانلاحظ تلك القدرة غير متساوية بين مخلوقات الله من البشر؟

من الأشياء التي باتت معروفة أو متعارفاً عليها أن مايهمله الإنسان من بدنه يضمر ويتلاشى، ومايوليه اهتمامه يكبر ويظهر، ويلاحظ ذلك بالعين المجردة عند رياضيي الجمال الجسماني، فحين يلاحظون ضمور عضلة معينة لديهم يقومون بتمارين خاصة بتلك العضلة لإنمائها بالقدر المطلوب، وإبرازها بحجمها الجمالي المقصود. في حين أن الناس الذين يهملون الرياضة منذ الطفولة تبقى عضلات جسمهم كلها ضامرة.

وقد يتساءل آخر: لماذا ضمر عدد المخترعين والمبدعين والفنانين والمفكرين والعلماء المتخصصين بشتى علوم الحياة في شرقنا الإسلامي بالقياس إلى سواه من البلدان؟ والجواب أن أول كلمة من رسالة الاسلام التي بعثها الله تعالى لنا عن طريق جبريل إلى خاتم الأنبياء والرسل إلى محمد صلى الله عليه وسلم كانت كلمة (اقرأ) وهي فعل أمر، ثم اتبعها الله تعالى بالحث على التعلم عن طريق ماهو مدون من كتاب، والكتابة بالقلم، لايمكن للإنسان أن يتقدم للمهمة التي وكله الله تعالى بها وهي مهمة الاستخلاف على الأرض إلا بالعلم، وبالعلم المستند للعقل يُعَمِّرُ الأرضَ بالعمل الصالح.

وقد بين الله تعالى بصريح الآيات أن من لم ينفذ هذه المهمة فسوف يعزله عنها ويكلف غيره من القادرين عليها.

﴿وإن تَتولَّوا يستبدلْ قوماً غيرَكُم ثمَّ لايكونوا أمثالكم﴾(٦)

﴿وإذا شِئنا بدّلنا أمثالَهم تَبديلا﴾(٧)

﴿وأورثكُم أرضَهُم وديارَهُم وأموالَهُم﴾(٨)

﴿أنّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون﴾(٩)

---

(٦) سورة محمد: ٣٨

(٧) سورة الإنسان: ٢٨

(٨) سورة الأحزاب: ٢٧

(٩) سورة الأنبياء: ١٠٥

وهذا مانراه في الأرض كلَّ يوم، ونظن ذلك ظلماً من الله، بل هو ظلم لأنفسنا لو حاولنا أن نتفهم ذلك.

فالمعرفة الإنسانية التي منها العلوم تبدأ عن طريق الحواس بالملاحظة المباشرة أي بالبصر والسمع لكنها لاترتقي وتثمر إلا عن طريق القراءة والكتابة.

فعن طريق القراءة يمكن جمع المعلومات من خبرات ملايين الناس لفكر إنسان واحد الذي يملك القدرة على الاستنتاج والابتكار، وهذه القدرة هبة من السماء، من الله مباشرة، ولم يعطيها لباقي مخلوقاته غير البشر. والإنسان قد يرتكب أخطاء لكن عن طريق اكتشاف الخطأ والصواب تتقدم العلوم كنظرية داروين التي تستند إلى مشاهدات من الواقع، لكن الزمن كشف مكمن الخطأ فيها، فقد كان تصور داروين أن أصل الإنسان قرد. لكن بعدما تبين للعلماء من دراسة المخ البشري وجود احتياطي هائل من القدرات في دماغ الإنسان لم يستخدمه إنساننا بعد، وسوف يستخدمه مستقبلاً علموا أنهم قد أخطأوا الاستنتاج وإن لم يخطئوا أنَّ تطور المخلوقات كلها تمّ من بدايات خلوية أساساً. وكثير من الناس في الشرق فهموا كلمة القراءة خطأً كما فهموا معنى العلم والعلوم خطأً أيضاً، فالقراءة ليس قراءة النصوص وحشو الدماغ بالمعلومات دون تمييز، أو حشو الدماغ بأوهام لاصلة لها بالحقيقة، وتسمية ذلك الحشو علماً، ثم نسمي حامل تلك الأوهام في دماغه عالماً.

والحقيقة التي لاشك فيها أن الدماغ الإنساني من أعقد الأجهزة التي يتكون منها جسم الإنسان، وسيبقى العلماء قروناً طويلة قبل أن يكتشفوا الكثير عن ذلك العضو، وللإجابة عن السؤال نقول: نحن في الشرق أهملنا القراءة بشكل عام فلم نعرف ماذا نقرأ، فأغلب الكتب التي تعودنا قراءتها هي التي تحوي القصص والحكايات، ابتداء من سيرة بني هلال وعنترة بن شداد إلى قصص نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، وأنا لاأنتقدهما فنانين مبدعين أجادا في فنيهما، لكني أقصد القول أننا اكتفينا بالقصص والروايات، والاقتصار على هذا النوع من القراءة الذي ينمي الخيال والحلم والوهم عند الإنسان. وقد استسلمنا نحن الشرقيين للراحة والكسل والحلم حتى في اليقظة فضمرت على حساب مركز الخيال النظري الذي نميناه المراكز التي أهملناها وهي مراكز الخلق والإبداع، وبخاصة مركز النفخة الالهية التي تميز بها الإنسان من باقي المخلوقات، ولم نعرف قيمة ماوهبنا الله من نعم فأهملناها، وهذا ذنبنا نحن وليس ذنب الخالق المبدع الذي خلقنا وكوننا في أحسن صورة وأحسن تقويم.

والموضوع الآخر الذي أحب الاشارة إليه هو مايقع فيه مؤلفو الكتب عندنا والمفكرون من أخطاء في منهج تأليف الكتاب واسلوبه، فهم يظنون منطلقين من ذواتهم وأن قرّاءهم في مستواهم.

فهم يعدّون مايقدمونه للقراء مفهوماً كله لأنهم تمثلوا هم ماكتبوا، ولذلك لايفكرون في تبسيط الأفكار ومحاولة التوضيح، واعتماد أسلوب قريب من ذهن القارئ، وهي أنه ينسى فترة الألف سنة التي قضاها الشرق الاسلامي في الظلام من غير علم أو تعلم بالنسبة إلى جمهور الناس، فلم تتعود عيناه إلا على الظلام، حتى أمسى كل نور يزعج عينيه. الكاتب الذي يقدم أفكاره حيث تكون درجة إنارتها شديدة تبهر قارئه الذي لم يتعود بعد على نور الفكر الساطع الذي اخترق عينيه بعد ظلام، ولذلك يترك القارئ الكتاب الصريح لعدم ارتياحه لتلك الدرجة من الاضاءة، وقد يلعن الكاتب أو يتهمه قبل أن يتمثل مايريد.

وقد يقدم المؤلف في كتاب واحد أفكاراً ومعلومات مكثفة وعميقة تتجاوز مايستطيع قارئه هضمه من الفكر لأن عقله المتحجر بسبب الركود عاجز عن استيعابها، فيصاب بعسر فكري يدفعه إلى طرح الكتاب أيضاً دون أن يفهم مايريد الكاتب أن يقول له.

لذلك أعتقد أن الأفكار المعتمدة على فلسفة العلوم وفلسفة الأديان يجب أن نراعي في تقديمها كل الظروف التي مر بها المسلم في تاريخه الطويل، لأن غاية أي كاتب مفكر هو إيقاظ الناس من غفلتهم ونومهم الطويل، ومن أوهامهم، وخيالاتهم وخرافاتهم ودجلهم واساطيرهم وطلاسمهم، التي استمرت زمناً أطول من اللازم. فران الوهم والجهل على النفوس. ومهمة المفكرين في كل أمة إخراج الناس من الوهم إلى الحقيقة، ومن الظلمات إلى النور، هكذا شاء الله أن تكون مهمتهم أشرف المهمات على الإطلاق، فهم لايبغون من وراء ذلك مالاً ولاجاهاً ولاسلطاناً في الأرض. وهؤلاء هم العلماء الذين عناهم الله تعالى في قوله:

﴿إنّما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾(١٠) ومهمة الكاتب ليست سهلة إلى حد أن أي بشر يمكن أن يقوم بها أو يتهيأ لها في عطلة صيف على شاطئ بحر بل هي مهمة عسيرة تحتاج إلى سنين طويلة من الاعداد، وحتى ذلك الاعداد الطويل لايجدي إذا لم يهتد المفكر بنور الله، فيرشده الباري إلى الطريق القويم الذي لايضل السائر فيه ولايضل غيره من الناس بدل أن يهديهم إلى صراط مستقيم.

---

(١٠) سورة فاطر: ٢٨

كيف بدأ الله الخلق؟

لقد دعانا الله للإبداع مستلهمين إبداعه. وآياته في الخلق، وطريق الإبداع هو العلم والمعرفة اللذان حثّنا الله على اتّباعهما مقتدين بعلمه ومعرفته: ﴿قُلْ سيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ بَدَأَ الخلق﴾[11] وهي دعوة صريحة ومباشرة من الله تعالى للإنسان كي يبدأ ويتعلم ويفكر ويبحث ليكتشف حقائق الكون وقوانين الله في الخلق والطبيعة، وفي كل شيء، وبعد أن يحثنا الله على البحث يعلمنا كيف بدأ خلق الإنسان.

﴿إنّا خلقناهُم من طينٍ لازِبٍ﴾[12]

﴿وبدأَ خلقَ الإنسانِ من طِينٍ﴾[13]

فقد بدأ خلق الإنسان من طين له صفة خاصة (طين لازب)، فإذا بحثنا أكثر لنعرف صفات هذا الطين كما وردت في آيات القرآن، وجدنا ذلك في قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنسانَ من صَلصالٍ كالفَخّارِ﴾[14]

أو في قوله تعالى ﴿ولقَدْ خلَقْنا الإنسانَ من صلصالٍ من حَمَأٍ مسنونٍ﴾

وهكذا تتجمع عندنا المعلومات عن الطين فهو لازب، وهو من صلصال كالفخار والصلصال من حمأ مسنون.

ولو تابعنا جمع المعلومات المتوافرة لدينا في القرآن كله عن الموضوع لوجدنا أن الله سبحانه يبين أهمية الماء بعد ذلك فيقول لنا:

﴿وهو الذي خلقَ من الماء بَشَراً فجعلهُ نَسَباً وصِهراً﴾[15]

وفي ذلك يبين لنا أن كل حياة لكل المخلوقات تعتمد على الماء أساساً

وبدونه لاحياة على الإطلاق:

﴿وجعلْنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حي﴾[16]

فيبرز لنا من أهمية الماء، فالأرض بعد موتها لم يحييها غير الماء، الذي أُنْزِلَ عليها من السماء أول مرة بإرادة الله ﴿والّله أنزلَ من السماءِ ماءً فأحْيا به الأرضَ بعد مَوتِها﴾[17]

---

(11) سورة العنكبوت: ٢٠
(12) سورة الصافات: ١١
(13) سورة السجدة: ٧
(14) سورة الرحمن: ١٤
(15) سورة الفرقان: ٥٤
(16) سورة الأنبياء: ٣٠
(17) سورة النحل: ٦٥

فمن ذلك الطين الذي وصفه سابقاً بدأ الله تعالى خلق الإنسان في أول مرحلة من مراحله خلقه من خلية واحدة مفردة هي النطفة

﴿خلقَ الإنسانَ من نطفة﴾[١٨]

ثم يشير تعالى إلى تطور النطفة إلى علقة:

﴿يزيد في الخلق مايشاءُ إنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾[١٩]

وتأتي مرحلة الخلق الثانية:

﴿خَلقَ الإنسانَ من علق﴾[٢٠]

فتتحول الخلية الأحادية إلى علقة (أو شيء يشبه العلقة)

﴿ثم كانَ علقةً فخَلَقَ فسّوى﴾[٢١]

ثم يتحدث بعد ذلك عن مرحلة تحديد جنس المخلوق:

﴿والّله خلقكُم من ترابٍ ثمَّ من نطفةٍ ثم جعلكُم أزواجاً﴾[٢٢]

وهكذا يستعرض الله مراحل الخلق بدءاً من تشكّل الخلية في التراب والماء:

﴿ولقد خَلقْنا الإنسانَ من سُلالَةٍ من طين﴾[٢٣] وتدرجاً بمراحله المتعاقبة في الرحم، التي هي إعادة وتسجيل سريع لكل ماتمّ في مليارات السنين من التطور على الأرض.

﴿ثمّ خَلْقنا النطفةَ علَقةً فخلَقْنا العَلقةَ مضغةً فخلَقْنا المُضغةَ عظاماً فكَسَوْنا العظامَ لحماً﴾[٢٤]

من هذا يتبين لنا بما لايدع أي مجال للشك أن عملية تحول النطفة إلى علقة لم تتم بفعل الطبيعة كما يعتقد علماء الطبيعة اليوم، وإنما تمت بتدخل إلهي مباشر ومقصود بعملية خلق جديدة لولاها ماكان لهذه النطفة وحدها أن تتطور إلى علقة، ففي هذه الطبيعة لاشيء يتم بالمصادفة وإنما بالحكمة والتدبير والتفكير الإلهي، فهناك مشيئة وفعل إلهيان، يربطان خلق الحياة على الأرض بخلق الجنين فيما بعد.

فالإرادة الإلهية في تحويل العلقة إلى مضغة تدخلت في تكوين الإنسان.

ويشرح لنا تعالى بعد ذلك كيف شكّل من المضغة عظاماً وكيف كسا العظام لحماً.

(١٨) سورة النحل: ٤
(١٩) سورة فاطر: ١
(٢٠) سورة العلق: ٢
(٢١) سورة القيامة: ٣٨
(٢٢) سورة فاطر: ١١
(٢٣) سورة المؤمنون: ١٢
(٢٤) سورة المؤمنون: ١٤

ولو عدنا إلى دراسة الأحياء في البحار قبل تحديد جنس المخلوق ذكراً أو أنثى، وهي من خلق الله أيضاً، لوجدنا منها قنفذ البحر وهو حيوان شوكي صغير، لازال في مرحلة من مراحل تشكله الأولى، فهو يحوي الأعضاء الأنثوية والذكرية، فيتلقح ذاتياً ليتوالد، وهذا الحيوان لم يصل بعد إلى مرحلة الخلق التي يتم فيها التمايز بفصل الذكر عن الأنثى في كيانين مستقلين، وهي مرحلة من مراحل خلق الله وأسلوبه.

وهذه المرحلة مرّ بها الإنسان، وقد حدد لنا سبحانه ذلك في الآية الكريمة:

﴿هو الذي خَلَقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وجَعَلَ منها زوجَها لِيَسْكُنَ إليها﴾ (٢٥)

﴿خلقَكم من نفسٍ واحدة ثم جَعَلَ منها زوجَها﴾ (٢٦)

﴿خلقَ الزوجَينِ الذَّكَرَ والأنثى﴾ (٢٧)

﴿وهو الذي خلَقَكُم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم يُخرِجُكُم طِفلاً ثم لتبلغوا أَشُدَّكُم ثم لتكونوا شُيوخاً ومنكم منْ يُتوفّى مِنْ قَبل لِتبلُغوا أَجَلاً مُسمىً لعلّكم تعقلون﴾ (٢٨)

وأقتبس في هذا المجال فكرة قرأتها للشيخ محمد متولي شعراوي الذي يقول: إن كل كلمة في القرآن الكريم إنما هي كلمة عاشقة لموضوعها، وكل موضوع في القرآن جاذب لكلمته.

أي أن الكلمات في القرآن الكريم لاتأتي كما تعودنا في بعض كتبنا اعتباطاً أو ترتب أو تحذف لأغراض إيقاعية وجمالية ولغوية فحسب، فكل حذف له معنى، وكل إضافة كلمة جديدة لها معنى آخر، فقارئ القرآن يجب أن يملك القدرة والدقة في ملاحظة ذلك ففي آية غافر: ٦٧ يتكلم الله تعالى عن مراحل الخلق التي يمر بها كل إنسان ابتداء من لحظة اتصال الأبوين إلى أن يعيش عمره كله، ثم يموت، أي يصف لنا دورة حياتية كاملة لايستخدم فيها كلمة الخلق إلا مرة واحدة، فالإنسان لم يخلق سوى مرة واحدة. لكن في بداية تشكله مرّ بمراحل خلق متعددة، ولذلك استخدم الله كلمة الخلق للإشارة إلى كل مرحلة من مراحله كما سيمر بنا.

ولكي لايظن بعض الناس أننا نقرر ذلك اجتهاداً دون سند من حقائق علمية أو رجوع إلى آيات الله نشير إلى أن العلماء لبوا دعوة الخالق للبحث، فبحثوا كيف بدأ الخلق ولو

---

(٢٥) سورة الأعراف: ١٨٩
(٢٦) سورة الزمر: ٦
(٢٧) سورة النجم: ٤٥
(٢٨) سورة غافر: ٦٧

عادوا إلى آيات القرآن في الخلق التي لم ينتبهوا لمضمونها واستقرؤوها لوفروا عليهم جهداً، لأن حقائق الخلق موجودة فيها، ولكن وعي الناس أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لم يسمح بفهم الأبعاد العلمية للآية، وكيف تطور الإنسان عبر ملايين السنين إلى شكله الحالي الذي نعرفه اليوم، حتى إنهم عندما قرؤوا في القرآن أن الله خلق آدم من تراب ظنوا لسذاجتهم أن الله صنع تمثالاً من الفخار لآدم ثم نفخ فيه من روحه فأصبح إنساناً، متأثرين بما ورد في كتب اليهود من تصورات حول ذلك، فأخذوا ماعندهم وألصقوه بالرسول الكريم ظلماً وكذباً في أحاديث ملفقة منقولة تناقض العلم والواقع، ومنها قصة خلق حواء في التراث العبري، وأن الله خلقها من ضلع آدم، هكذا تخيلها علماء أهل الكتاب وهكذا نقلها بعض علماء الحديث منسوبة لأبي هريرة، ولعل أبا هريرة بريء منها أيضاً لأنه يصعب تصور أنه تقول على رسول الله كذباً، وهو يدرك أن مايرويه يناقض العلم وسيكتشف العلم ذلك فمن المرجح أن ذلك نسب إليه زوراً .

قال تعالى ﴿ولَتَعْلَمُنَّ نبأَه بعدَ حين﴾[٢٩]

وقد قال تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسانَ من عَجَل﴾[٣٠]

﴿وكانَ الإنسانُ عجولا﴾[٣١]

فالإنسان يتعجّلُ في الحكم، ويقرّر خلق حواء من ضلع آدم في حين يقول تعالى: ﴿وقد خَلقكم أطواراً﴾[٣٢]

وقد نتساءل عن سرّ امتداد فترة الخلق في هذا الزمن الطويل فنجيب مشيرين إلى مابيناه في بحث سابق أن الله تعالى متحرر من موضوع البعد الرابع الذي هو الزمن، فنحن من مخلوقاته التابعين للزمن، حيث بتأثير الزمن نكبر ونشيخ ونموت، ليأتي بعدنا أولادنا وحفدتنا في دورات حياتية متجددة، أما بالنسبة لله فهذا القانون غير مطبق عليه، فبعد المليارات من السنين لايمكن أن نقول مثلاً أن الله قد كبر وشاخ، فالله لايتأثر بالزمن، لذلك فهو ثابت سرمدي لايتحول، وهو يختار أسلوب الخلق بمشيئته ووفق مقاصده الخفية علينا والتي نتعجل في معرفتها، والمخلوقات كلها بالفطرة تسعى أن تكون صفات الله من صفاتها إلى حد أن بعض أهل الكتاب حين يرسمون صورة الله والمسيح إلى يمينه يشخصونهما، فإذا كانوا أوربيين رسموهما بيضاً وشقراً وبعيون زرقاء، وإذا كانوا

(٢٩) سورة ص: ٨٨
(٣٠) سورة الأنبياء: ٣٧
(٣١) سورة الإسراء: ١١
(٣٢) سورة نوح: ١٤

من الصين واليابان رسموهما من العرق الأصفر، وإذا كانوا من أفريقيا تخيلوهما من العرق الزنجي، وأنا شخصياً رأيت أيقونات بهذه الأشكال التي وصفتها لكم، فهذه طبيعة بشرية قائمة، وهي السعي للتوحد مع الله في صفاته وفق تصوراتنا لها، لكن إدراك صورة الله المجردة يتطلب من البشر مرحلة راقية من التفكير، والله سبحانه قادر على الخلق من الطين بشكل مباشر كما فعل مع رسوله عيسى بن مريم عندما أذن له في ذلك ليرى الناس كيف يخلق الله ﴿وإذْ تَخلُقُ من الطّينِ كهيئةِ الطّيرِ بإذني فتنفُخُ فيها فَتكونُ طيراً بإذني﴾[٣٣] لكن ماقام به عيسى عليه السلام ليس أسلوب الله في الخلق، فهذه حالة خاصة وهي معجزة لرسوله أمام الناس، ولكن الله يوضّح في القرآن أسلوب خلقه كما مر بنا في تلك الآيات التي تؤكد ماتوصل إليه علماء الأحياء حتى اليوم من تدرج عملية الخلق في مراحل مستندين إلى دراسة خلق الكائنات وتطورها بمشيئة الله، ونوضح الفكرة بالمثال الآتي: في الولايات المتحدة شركات ضخمة متخصصة في بناء المدن والأحياء السكنية الكبيرة دفعة واحدة وهي تتنافس فيما بينها، والشركات لانجاز هذا العمل الضخم تستخدم أسلوب عمل مبرمج ومنظم، يتم على مراحل فكلما انتهت مرحلة رحل عمالها مع آلاتهم ليأتي غيرهم مع آلاتهم لإتمام المرحلة التالية، وهكذا حتى تنتهي من عمليات البناء، وتجهز المصارف الصحية، وتمديدات الماء والكهرباء، والتلفونات وتعبيد الطرق، وفتح الأسواق التجارية، وكل مستلزمات الحي الكبير، إن مشروعاً سكنياً مثل هذا المشروع يتطلب من الشركة وقتاً قد يتجاوز ستة أشهر أو سنة وقد شاهدت مرة عرضاً حياً لإحدى هذه الشركات على سبيل الدعاية، تناول بناء بيت واحد متكامل، فيه كل الخدمات وهو مكون من ثلاث غرف نوم وصالة، وتناول العرض مراحل البناء بدءاً من حفر الأساس حتى زرع الحديقة بالحشيش والأشجار الكبيرة الجاهزة، وتسليم البيت للسكن مفروشاً، قد تم ذلك كله في ساعات إذ حشدت الشركة كثيراً من العمال المدربين، وكل فريق متخصص في نوع معين من العمل ومارأيته يعدّ في نظر الكثيرين معجزة، لكنه في الواقع صورة متطورة عن أسلوب العمل واختصار الزمن، وقد لايفهم كثير من الناس التفاصيل الدقيقة لأسلوب عمل هذه الشركة، فلا نرى إلا الغاية أي البيت المنجز، وكذلك أسلوب الله في خلقه، فهو أسلوب أكثر تعقيداً من عمل أي شركة وهو يتطلب فهما تقصر دونه عقولنا ومن السذاجة أن نعتقد نحن المسلمين كما اعتقد سوانا أن حواء خلقت بهذه البساطة من

(٣٣) سورة المائدة: ١١٠

ضلع آدم فالله لم يشأ أن يكشف عن أسلوبه في الخلق إلا بصورة متدرجة، وعلى مراحل، وليس لنا أن نحشو عقولنا بأوهام حول أسلوب الخلق الإلهي، وكان القدامى يقولون إن العلم بهذه الحقائق لاينفع والجهل بها لايضر، أما الآن فقد انقلبت الآية فالعلم بها ينفع والجهل بها يضر ضرراً بالغاً، لأنها تبقينا في الأوهام، فالله لايستعجل في أموره إنما الإنسان هو العجول.

مراحل تطور الإنسان حسب ماتنص بها آيات القرآن

﴿يَخلُقكُم في بطونِ أمهّاتِكم خَلقاً من بعدِ خَلْقٍ في ظُلماتٍ ثلاث﴾[٣٤]

في هذه الآية يشير الله تعالى أن مايحصل في بطون الأمهات خلال فترة الحمل والمراحل التي يمر بها الجنين، هو تسجيل سريع جداً للمراحل التي مَرَّ بها خلق الإنسان، بداية من النطفة، وهي هنا ترمز للخلية الواحدة التي خلقها الله في «الطين اللازب» ومروراً في «ظلمات ثلاث» وقد ظن المفسرون قديماً أنها ظلمات الرحم، لكن الله يشير في الآية إلى عمليات خلق متكررة حدثت في الماضي في أثناء الإضافات التي أضافها الله لمخلوقه قصداً لكي يجعله في أحسن تقويم، وهي مراحل لم تقع مصادفة كما يعتقد علماء الطبيعة، وإنما كان وراءها إرادة جبارة هي إرادة الله تعالى، تضيف للمخلوق الذي خلقه أول مرة إضافات جديدة لنقله من مرحلة إلى أخرى، والظلمات الثلاث لاعلاقة لها بالرحم:

تعالوا نقرأ هذه الآية مرة ثانية في سورة الأنعام:

﴿قل من ينجيكم من ظلماتِ البرِّ والبحر﴾

إن لدينا ظلمات في البر وظلمات في البحر.. وبما أن الله بدأ بخلق الإنسان في الطين وفي الماء، فقد كانت المرحلة الأولى من تكوينه وتجهيزه في ظلمات البحر.

ثم نقل الله تعالى مخلوقه ليصبح إنساناً إلى ظلمات أخرى في البر هي هذه الغابات: والله يسمي هذا المخلوق في مراحل كثيرة باسم واحد هو آدم دعونا نستمع للآية التالية:

﴿وإذا قالَ ربُّكَ للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾[٣٥]

ولم يكن الله قد غضب على آدم بعد، وإبليس لم يحسده بعد، وهذا دليل أن آدم وجد على الأرض ولم يكن في السماء فهو من الأساس مخلوق أرضي. أما عندما ينصح الله آدم أن يحذر من الشيطان فيقول له:

---

(٣٤) سورة الزمر: ٦ (٣٥) سورة البقرة: ٣٠

﴿فلا يُخرجنّكُما من الجنة فتشقى﴾(٣٦)

فذلك يعني أن آدم موجود في مكان سماه الله الجنة، والله تعالى في القرآن سمى قبل ذلك البساتين المثمرة في قصة الرجلين المتحاورين الجنة حين أشار للجنتين اللتين يملكهما أحد هذين الرجلين وهما من نخيل وأعناب، فالجنة هنا على الأرض وهي حديقة أو غابة كبيرة فيها أشجار مثمرة كثيرة بدليل أن الله يقول له:

في سورة طه ١١٨ ﴿لك ألا تجوعَ فيها ولاتَعرى﴾ أي ستجد فيها ماتأكل وماتستر به جسدك ومايظلك فلا تظمأ أو تضحى.

﴿وإنكَ لاتظمأُ فيها ولاتضحى﴾(٣٧)

ولاصحة لظن بعض الناس أن تلك الجنة كانت في السماء بدليل الآية:

﴿قُلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ فإن الله تعالى استخدم العباراة ذاتها في قوله: ﴿قيل يا نوحُ اهبطْ بسلام منّا وبركاتٍ عليك﴾ فنوح لم يهبط من السماء، وكذلك في قوله لبني اسرائيل: ﴿اهبِطوا مِصراً فإنّ لكم ماسألتم﴾ فبنو إسرائيل لم يهبطوا من السماء، فالقرآن يستخدم فعل هبط بمعنى نزل وحلّ ولايستخدمه بمعنى الهبوط من السماء.

فآدم إذاً كان في الغابة، وليس في جنة السماء، عندما غضب الله وطرده من تلك الغابة التي كان يعيش فيها دون عمل أو شقاء، إلى ظلمات أخرى من ظلمات البر حيث كتب عليه أن يعمل ليأكل، فعلمه الزراعة وتربية الحيوان.

﴿فلا يُخرجنّكُما من الجنةِ فتشقى﴾(٣٨)

ولماذا سيشقى ويتعب؟ لأنه سوف يكون في أرض سهلية جرداء عليه أن يمارس فيها الصيد والزراعة كي يقتات وقبل ذلك كان كل شيء حوله ميسراً وكان يعيش في كسلٍ دائم، والله تعالى يهيئه لمهمة صعبة، لذلك يدربه على العمل وتحمل المشاق، وكانت إرادة الله في شقاء الإنسان وخلق الشيطان لاختباره، ولذلك قال تعالى:

﴿فنَبذْناه بالعَراءِ وهوَ سَقيم﴾(٣٩)

وهكذا نفهم أن الله مرر الإنسان بظلمات ثلاث وهو يهيئه لها: ظلمات البحر، وظلمات الغابة، وظلمات البر خارج الغابات، والله يعيد لنا كل ذلك سريعاً خلال فترة

(٣٦) سورة طه: ١١٧
(٣٧) سورة طه: ١١٩
(٣٨) سورة طه: ١١٧
(٣٩) سورة الصافات: ١٤٥

الحمل. التي تستمر تسعة أشهر بداية من الخلية الأولى وحتى الجنين مكتملاً.

﴿لقد خَلَقْنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم﴾(٤٠)

﴿وصوّركم فأحسنَ صُورَكُم وإليه المصير﴾(٤١)

أسلوب الله تعالى في الخلق:

يقرر الله تعالى أن من أحد أساليبه خلق زوجية الأجناس:

﴿ومن كلّ شيء خَلقْنا زوجَيْن لعلّكُم تذكرون﴾(٤٢)

﴿ومن كلّ الثمراتِ جَعَلَ فيها زوجَيْن اثنين﴾(٤٣)

﴿فيهما من كلّ فاكهةٍ زوجان﴾(٤٤)

﴿والذي خلقَ الأزواجَ كلَّها﴾(٤٥)

﴿وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخْرَجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتى﴾(٤٦)

﴿وخلقناكم أزواجاً﴾(٤٧)

فالله تعالى يسمي مخلوقاته أزواجاً قد يظن الإنسان لأول وهلة أن معنى الزوج هو الذكر والأنثى لأن كلمة زوج في اللغة العربية تطلق على المثنى وليس على الفرد فنقول «زوج من القفازات» أو «زوج من الأحذية» نقصد به قفازين. ولكن لماذا نطلق كلمة زوج على الرجل لوحده وزوج على المرأة لوحدها أيضاً؟ وماسر هذه الزوجية؟

الزوجية الأولى في كل شيء من مخلوقات الله الأرضية الحية التي تتوالد حتى يستمرّ بقاؤها وهي التي نفهمها ونلاحظها في النبات والحيوان والإنسان، فلدينا ذكر وأنثى من أجل التلقيح والتوالد، ولكن هل نفهم من الزوجية معنى آخر؟

لنقف أمام المرآة ونلاحظ أنفسنا لنتخيل خطأوهمياً محورياً مستقيماً يقسمنا من قمة رأسنا إلى مابين قدمينا قسمين متناظرين:

فماذا نلاحظ؟ نلاحظ عيناً تقابل عيناً وأذناً تقابل أذناً.. حتى الأسنان ذاتها يناظر مايقع في النصف اليساري مايقع في النصف اليميني منها. وبتكرار العملية نفسها على

---

(٤٠) سورة التين: ٤
(٤١) سورة التغابن: ٣
(٤٢) سورة الذاريات: ٤٩
(٤٣) سورة الرعد: ٣
(٤٤) سورة الرحمن: ٥٢
(٤٥) سورة الزخرف: ١٢
(٤٦) سورة طه: ٥٣
(٤٧) سورة النبأ: ٨

الحيوانات كلها بأسلوب التخيل سنجد أن المبدأ ينطبق عليها كالبشر ولاتشذ حالة واحدة عن القاعدة.

لنأخذ بيضة، ونقسمها بالأسلوب ذاته فنجد أن نصفها الأيمن يناظر الأيسر وكذلك الكرة الأرضية فالخط المار بقطبيها يقسمها إلى قسمين متناظرين.

قد يأتيك شخص لم يفهم الفكرة تماماً، ويقول لك: هذه كتلة من الصخر فأين قطباها مثلاً أو هذه قطعة من الخشب فأين قطباها وأين التناظر بين نصفيها؟ وقد أشرنا في البداية أن المقصود بالمخلوق الكامل هو الذي لخلقه موضوعٌ وهدف. أما كتلة الصخر فهي جزء من الأرض التي هي مخلوق كامل، والخشبة أساساً جزء من شجرة كانت مخلوقاً متكاملاً. والشجرة يمكن أن تقسم إلى قسمين متناظرين تماماً.

القرآن كلام الله، والله له هدف من كلامه، ولا أقصد بالقرآن المصحف المطبوع من ورق وحبر وغلاف جلد أو المطبوع على كاسيت أو فيديو كاسيت، إنما أقصد النص المقروء، النص الإلهي المحفوظ في الصدور حفظاً لايحتاج معه لكتابة. هذا النص المتكون من كلمات وأحرف محددة تنطبق عليه أساليب الله في الإبداع نفسها، لماذا، لأنه أسلوب الله في الكلام وهو يطابق أسلوبه في الخلق. ففي القرآن تتوافر الزوجية الكاملة: فعدد سوره ١١٤ سورة ٥٧ × ٢ والرسول الكريم كان يقول (أوتيت القرآن ومثله معه)، وكان الصحابة يعرفون مايقصده الرسول لأنه طلب منهم ألا يسألوه عن القسم الأول لأن الله نبهه إلى أن هذا القسم لايفسر ولايؤول إلا في حينه ﴿ولَتعلَمنّ نبأهُ بعد حين﴾.

فقط كانوا يسألونه عن آيات الرسالة أو آيات الأحكام. لكن المتأخرين خاصة بعد أن دخلوا إلى ظلمات الجهل في عصر الانحطاط غرقوا في الأوهام والظنون، وتوهموها علوماً ثم أوّلوا آيات مثل ﴿يتلو عليهم آياتِكَ ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ﴾[٤٨] متوهمين أن الكتاب هو القرآن، والحكمة هي حديث الرسول، غير عالمين بسرّ خلق الله، وأن الله تعالى أرسل هذا الكتاب زوجاً يحتوي القرآن والحكمة كتابين أساسيين، هذا من سنن الله في خلقه كله، قد يفاجأ بعض المسلمين من قولي بأن القرآن مخلوق. إن الخلاف القديم الذي حصل حول هذا الموضوع كان بسبب الجهل، لأنه من البدهي أن القرآن من موجودات ومخلوقات الله ولها هدف وغاية هي إرشاد المخلوقات الأخرى مثل الإنس والجن إلى طريق الحق في الحياة الدنيا فقط، وفي الآخرة لايعود لها أي لزوم لأنه

(٤٨) سورة البقرة: ١٢٩

لاهداية بعد الحياة الدنيا. وإن قلنا إنها قديمة وباقية أشركنا بالله شيئاً والعياذ بالله. وهذا هو أسلوبه في خلق كل شيء، وإن أسلوب الله في الكلام لايناقض أسلوبه في الخلق، والله تعالى أرسل لباقي الرسل أيضاً وكتبهم وفيها الزوجية ذاتها الكتاب والحكمة وفي الآية التي يتكلم فيها عن عيسى بن مريم يقول:

﴿ويُعَلِّمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل﴾

علماً أن الله تعالى أشار في أماكن عديدة إلى هذه الزوجية في رسالته من السماء ﴿وأنزلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بينَ يدَيْهِ من الكتابِ ومُهيْمِناً عليه﴾(٤٩)

قسم من الكتاب يصدّق القسم الآخر ويهيمن عليه، والقسم الأول نزل بالحق، والآخر لم يذكر الله أنه أنزله بالحق.

وقد شرحنا سابقاً هذا الموضوع بما فيه الكفاية ونوجز هنا لنقول: إن هذين القسمين من الكتاب هما: قسم النبوة من الكتاب، والقسم الثاني هو قسم الرسالة.

فقسم النبوة هو الذي يحوي أنباء العلوم من علوم الله (الحق)، وقسم أحكام الله للإنسان وعباداته ومحرماته، القسم الأول له وجود ذاتي حقيقي خارج الإنسان، القسم الثاني ـ عبادات وأحكام وحدود الله، وهي خاصة بالإنسان وليس لها أي وجود ذاتي خارج الإنسان ولولا وجود الإنسان لما كان لها أي معنى مثلاً (لاتقتل ـ لاتزن ـ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم) لامعنى لها خارج وجود الإنسان.

أما إذا قلنا (الشمس والقمر بحسبان) فلهما وجود ذاتي حقيقي حتى لو أن الإنسان انقرض من الوجود.

ولنتفهم أكثر هذه الزوجية التي تحدثنا عنها حتى الآن نقول:

إن مخلوقات الله الزوجية المتناظرة هذه ليس لها وجود إفرادي، أي لايمكن فصل البيضة إلى نصفيها وتبقى بيضة، ولايمكن فصل الإنسان إلى جزئيه ويبقى إنساناً، فوجود القطبية والتناظر شرط من شروط وجود الكائن أو المخلوق الإلهي، ولأنها حية قال عنها الله إنها تسبّح الله ولكننا لانفقه تسبيحها:

﴿تُسبّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومن فيهنَّ. وإنْ من شيءٍ إلاّ يسبّحُ بحمدِه ولكنْ لاتفقهونَ تسبيحَهُم إنّه كان حليماً غفوراً﴾(٥٠)

---

(٤٩) سورة المائدة: ٤٨ (٥٠) سورة الإسراء: ٤٤

وكذلك القرآن كتاب حيّ بدليل أنه يصلح لكل زمان ومكان على الأرض، وليس كباقي الكتب الأرضية التي لايمكن أن تعيش وتبقى فعالة أكثر من أجيال محدودة.

والله تعالى يحاول أن يفهمنا أن القرآن المكون من جزأين غير قابل للقسمة بأسلوب مادي ﴿كما أنزلْنا على المقتسمين * الذين جَعلوا القرآنَ عِضِين﴾(٥١)

لنفرض أن رجلاً توفي تاركاً ولدين فورثا عن أبيهما مصحفاً، فاقتسما القرآن نصفين، كل ولد أخذ قسماً منه حصة له من الميراث، فالله تعالى ينبهنا إلى أن القرآن لايمكن تقسيمه، وإنما الحلّ أن يأخذ ولد منهما القرآن والثاني يأخذ مقابله شيئاً ما، والله في هذه القصة ينبهنا إلى أن في القرآن قسمين من الآيات: نبوة ورسالة لايجوز فصلهما، فلا وجود للقرآن إلا كما قاله الله بجزأيه معاً، مثل الإنسان يبقى كاملاً بزوجيته الخاصة، ولايفصل إلى جزأين لأنه لن يبقى بعد ذلك إنساناً. والقرآن كلام الله، وإذا فصل بعض القرآن عن بعض لم يبق قرآنا. ومن أساليب خلق الله في مخلوقاته المعرضة للموت بتأثير الزمن أوجد الله أسلوب أو قانون البدء والإعادة. فمن أجل المحافظة على النوع، وحتى يكون المخلوق الجديد له صفات المخلوق الأساسي وصفاته يمرره الله تعالى بكل مراحل التطور التي مر بها المخلوق حتى وصل إلى ماهو عليه في تلك اللحظة، وإن شاء الله أن يطور الإنسان في مراحل قادمة في المستقبل أضاف إليه زيادات جديدة. هذه الزيادات التي حصلت قديماً انتبه لها العلماء: (علماء الأحياء) لكنهم سموها الطفرات، أي أن الطبيعة وحدها بالمصادفة تعطي طفرات للأنواع حيث تجعلها تتقدم، مثلاً عندما نطق الكائن البشري أول مرة وتعلم الرموز والأسماء فإن علماء الطبيعة يعدون ذلك طفرة، وهي في الواقع زيادة أضافها الله إلى خصائص مخلوقه البشري: ﴿نزيدُ في الخلقِ مانشاءُ إنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾(٥٢) وذلك بقصد تطويره وتحضيره لمهمات جديدة تتصل بموضوع استخلافه في الأرض، ولكي نفهم موضوع البدء والاعادة لابد أن نستمع إلى بعض آيات الله في الموضوع ذاته:

﴿إنّه يبدأُ الخلقَ ثم يُعيدُه﴾(٥٣)

﴿قُل اللّهُ يبدأُ الخلقَ ثم يُعيدُهُ فأنى تُؤفكون﴾(٥٤)

﴿قُلْ هل من شركائِكم من يبدأُ الخلقَ ثم يُعيدُه، قلِ اللّه يبدأُ الخلقَ ثم يُعيدُه فأنّى تُؤفكون﴾(٥٥)

---

(٥١) سورة الحجر: ٩١
(٥٢) سورة فاطر: ١
(٥٣) سورة يونس: ٤
(٥٤) سورة يونس: ٣٤
(٥٥) سورة يونس: ٣٤

ففي الآية ٣٤ من سورة يونس يتحدث الله سبحانه إلى بني الإنسان الذين يشركون به ويقول: هل في استطاعة أحد منكم أو ممن تشركونه معي القدرة على محاكاة أسلوبي في الخلق، ويبين لهم أن لله القدرة الذاتية على تجديد المخلوق بعد هرمه، وقبل موته بإعادة خلقه مرة أخرى في رحم الأنثى عن طريق التزاوج.

فهل يستطيع صانع السيارة مثلاً أن يصنع سيارة تستطيع بعد ان تهرم وتصبح قديمة أن تحمل كالكائنات الحية وتلد سيارة جديدة قبل أن تهرم وتطرح في مقبرة السيارات.

ليس للبشر القدرة على مجاراة الخالق في أسلوب خلقه؟ ليس لأحد القدرة على ذلك لأن خلق الله يمتاز بخصيصة اعادة الخلق وتكراره وهي من خصائص خلق الله وحده.

ولإثبات نظرية الخلق والإعادة في الطبيعة والتي تتم في نظر العلماء مصادفة، فقد بحث العلماء طويلاً في المستحاثات وعظام الأحياء التي انقرضت لمعرفة المراحل التي مر بها الكائن الحي في تاريخ تطوره الطويل، ولكن الله يؤكد لهم تلك الحقيقة دون أن يتعبوا في البحث بعيداً، فلو انتبهوا إلى أن كل كائن حي يريدون دراسة مراحل تطوره، والمراحل التي مر فيها خلال عصور طويلة، يخضع في أسلوب خلقه إلى ناموس الإعادة والتكرار مثلما تفقس الدجاجة من البيضة ثم تبيض الدجاجة البيضة فلو درسوا تَشَكّلَ مراحل الجنين لكان في استطاعتهم معرفة كل تطورات الكائن من البداية حتى النهاية، فالمرحلة الجنينية هذه تسجيل حي وسريع يعيد كل تلك المراحل في الدجاج خلال ٢١ يوماً، وفي الإنسان خلال تسعة أشهر وبضعة أيام، لماذا فترة حمل جنين الإنسان أطول؟ لأنه مر بمراحل أطول وخضع لزيادات أكثر، لكي يستطيع أن يتلاءم مع مهمته في استخلاف الأرض، فتهيئة الدجاجة للحياة ليست كتهيئة البشر، بالاضافة إلى أن قيمة الإنسان عند الله ليست مثل قيمة الدجاجة. فالله أَسْجَدَ كل مخلوقاته الذكية لآدم تكريماً.

الإحصاء:

ومن خصائص الأسلوب الإلهي في الخلق نجد العدّ والإحصاء:

والإحصاء أشمل وأعم من كلمة العدّ. فعندما تقول عرفت عدد الأشجار في البستان فكل معرفتك اقتصرت على معرفة عدد مافيه من شجر فقط.

لكن عندما تقول أحصيت مافي البستان من الشجر فذلك يعني أنك أصبحت تعرف

كل شيء عن أشجار البستان: عددها، أعمارها، أنواعها، عدد أوراق كل شجرة منها، مقدار ماتحمل كل شجرة من الثمار كل سنة، الكمية اللازمة للماء من أجل سقي كل شجرة، وهكذا، معلومات لانهاية لها عن الأشجار، وعلم الله علم إحصائي يشمل كل شيء وليس علماً عددياً فقط لنستمع للآيات التالية:

﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمام مبين﴾[56]

﴿وكلَّ شيء أحصيناه كتابا﴾[57]

﴿لايغادر صغيرةً ولاكبيرةً إلاّ أحصاها﴾[58]

(وأحاطَ بما لديهم وأحصى كلَّ شيء عَددا﴾[59]

﴿وخلقَ كلَّ شيء فقدّره تقديرا﴾[60]

هذه الآيات الخمسة تدل على أن الله لايخلق أي شيء إلا ويحصيه ويقدره، فإن كان شجرة أحصى فيها كل شيء: أوراقها، أغصانها، حجمها، وزنها، ثمارها، دودها، كل شيء عنها.

والإنسان خاضع للإحصاء الإلهي حتى كل شيء فيه، وكل شيء محسوب.

والقرآن أيضاً خاضع للإحصاء بسوره وآياته وحروفه ومعانيه وكل شيء فيه.

لنستمع للآية التالية:

﴿وعنده مفاتيحُ الغيب لايَعلمُها إلاّ هوَ ويعلمُ مافي البرّ والبحر وماتسقطُ من وَرقةٍ إلاّ يَعلَمُها ولاحَبةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولارطبٍ ولايابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين﴾[61]

بعد هذه الآية ليس هناك جدال أن علم الله علم رياضي إحصائي رقمي ليس عنده شيء إلا بالأرقام والإحصاء، وكل في كتاب مبين.

هذه الآية دليل آخر صادق على أن كلمات الله في القرآن أيضاً معدودة وواقعة تحت الاحصاء، بدليل الإعجاز العددي فيها الذي لايمكن أن يحصل بالمصادفة مطلقاً، وهو إعجاز موجود في كل خلق الله، لايشذ عنها أحد.

هنا قد يتساءل القارئ كيف توصلت إلى معاني الآيات القرآنية؟

أقول للمتسائل بكل صراحة.

---

(٥٦) سورة يس: ١٢
(٥٧) سورة النبأ: ٢٩
(٥٨) سورة الكهف: ٤٩
(٥٩) سورة الجن: ٢٨
(٦٠) سورة الفرقان: ٢
(٦١) سورة الأنعام: ٥٩

من لجأ منا لفهم القرآن إلى غير القرآن ضلّ، ومن اهتدى به وحده ومستعيناً بالله وصل.

هذه حقيقة قرآنية إلهية.

فالآيات وحدها تتحدث عن نفسها، وبالتدريج توصل القارئ للحقائق كلها، تلك مشيئة الله. لكن السنوات الألف من الظلمات التي مرت علينا ولازلنا فيها تركت فينا أوهاماً كثيرة، من تلك الأوهام أنك لن تفهم القرآن إلا بوساطة حديث الرسول، وهذا غير صحيح مطلقاً، فأنتم لاحظتم حتى الآن أنني لم أستند إلى الأحاديث في شرح الآيات. والحقيقة الثانية أن القرآن لايفسر، واللجوء إلى كل التفاسير القديمة لمعرفة معاني الآيات تجعلك ضائعاً تائهاً لاتعرف الحق من الباطل، وكلها ضارة في هذا المجال ولاتنفعك إذا اعتمدت عليها، فالله سبحانه أرسل هذا الدين ومعه القرآن حتى يفهم كل فرد مسلم حسب إمكانياته واحتياجاته وعلمه، ولن يستطيع إنسان في الكون كله أن يفهم القرآن كله إلا بقدر علمه وعقله وإمكانياته طبعاً، ومن يزعم أنه فهم القرآن كله كمن يقول شربت البحر كله فأرجو من القارئ أن يستفيد من هذه النصيحة، وأن يحاول استقراء معاني الآيات بعد تجميع كل الآيات التي تتناول موضوعاً ما، وعندها سوف تتوضح له الحقائق التي كانت غامضة قبل ذلك. لأن الله كان يعلم أساساً أن من سيفعل ذلك سيفعله من أجل أن يفهم مايريد الله أن يقول له، فيصل علم الله إليه بعد أن يجمع الآيات المتقاربة ويستقرئها أما الذي يمر على الآيات مرور الكرام فلن يصل إلى أي علم، ولاذنب لله تعالى في عجزه عن الفهم.

الخلق من الماء:

ومن خصائص أسلوب خلق الله أنه خلق الأحياء كلها من الماء، حيث الماء فيها هو العنصر الأساسي للحياة، ويشكل الماء نسبة أكبر من باقي العناصر التي يتكون منها المخلوق.

﴿واللهُ خلقَ كلَّ دابةٍ من ماء﴾[٦٢]

﴿وهو الذي خلقَ من الماءِ بشراً، فجعلَه نسباً وصهراً﴾[٦٣]

---

(٦٢) سورة النور: ٤٥ — (٦٣) سورة الفرقان: ٥٤

الأجل:

ومن خصائص خلق الله: الأجل

فقد خصص لكل مخلوق أجلاً محدداً محتوماً ومعيناً أي «أجلاً مسمىٰ»

وقد يُفهَم أن الأجل المسمّى للأحياء فقط من مخلوقات الله وهو فهم خاطئ لأن الأجل ينطبق على كل شيء، كل مخلوق في الكون له أجل مسمّى.

مثلاً الأمم لها أجل مسمّى:

﴿لكل أمة أجلٌ إذا جاءَ أجلُهم فلا يستأخرون ساعةً ولايستقدمون﴾[٦٤]

والشمسُ والقمرُ لهما أيضاً أجل مسمىٰ:

﴿الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجل مسمّى﴾[٦٥]

﴿ونُقرّ في الأرحامِ مانشاءُ إلى أجلٍ مسمّى﴾[٦٦]

﴿ماخلَقْنا السمواتِ والأرضَ ومابينهما إلاّ بالحق وأَجلٍ مسمّى﴾[٦٧]

﴿ولنْ يؤخّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أَجَلُها﴾[٦٨]

﴿فإذا جاءَ أجلُهم لايَستأخِرونَ ساعةً ولايَستقدِمون﴾[٦٩]

﴿وماكانَ لنفسٍ أنْ تموتَ إلاّ بإذن اللهِ كتاباً مؤجّلا﴾[٧٠]

من تلك الآيات نفهم أن كل مخلوقات الله لها أجل مسمّى.

الموت:

ومن خصائص خلق الله: الموت، فكل مخلوق حيّ سيموت.

إذاً كل مخلوقات الله الحية تموت قبل لحظة البعث، أي يموت منها من بقي إلى ذلك الوقت حيّاً، في نفخة الصور الأولى.

﴿كلّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ وإنّما تُوفَّوْن أجورَكُم يومَ القيامة﴾[٧١]

﴿أينما تكونوا يُدْرِكْكُم الموتُ ولو كنتُم في بُروجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[٧٢]

---

(٦٤) سورة يونس: ٤٩
(٦٥) سورة الرعد: ٢
(٦٦) سورة الحج: ٥
(٦٧) سورة الأحقاف: ٣
(٦٨) سورة المنافقون: ١١
(٦٩) سورة النحل: ٦١
(٧٠) سورة آل عمران: ١٤٥
(٧١) سورة آل عمران: ١٨٥
(٧٢) سورة النساء: ٧٨

﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنةً﴾(٧٣)
﴿قل لن ينفعكُم الفرارُ إن فَرَرْتُم من الموتِ أو القَتل﴾(٧٤)
﴿فأحيا به الأرضَ بعد موتِها﴾(٧٥)

التحلّل:

ومن خصائص خلق الله أن أجساد المخلوقات تتحلل بعد موتها وتعود كل العناصر إلى أصلها، فما كان من الماء يعود للماء وماكان من التراب يعود للتراب دون أن يترك تلوثاً أو ضرراً في الطبيعة، ولولا تلك الخاصة التي جعلها الله من صفات خلق الأحياء، لكانت جثث الأموات تغطي الطبيعة، وليس لها مكان فيه، لكن من رحمة الله بعباده أن أوجد تلك الخاصة بشكل تعود فيه كل العناصر لأصلها في فترة زمنية قصيرة نسبياً، وكما أوجد الله وسائل مساعدة لإتمام هذه العملية من عمل النمل والذباب والديدان التي تنهي العملية بسرعة كبيرة.

﴿ومن آياته أنْ خَلَقكُم من ترابٍ ثم إذا أنتم بَشرٌ تنتشرون﴾(٧٦)
﴿أيعدِكم أنكّم إذا متّم وكنتم تراباً وعِظاماً أنّكم مُخرجون﴾(٧٧)

الإبداع الإنساني الذي بدأ بنفخة الروح للإنسان:

إن الله اصطفى من البشر آدم لينفخ فيه من روحه ويجعله الإنسان الأول بتلك النفخة، فالأسلوب الإبداعي للإنسان ونظرته الجمالية مأخوذتان أصلاً من نفخة الله التي نقلته من مستوى بهيمي إلى مستوى إنساني، والإنسان بدون شعور منه بدأ يطبق قوانين الله في الخلق والإبداع في الصناعة والفنون.

تعالوا نستعرض مبتكرات الإنسان الفنية من رسم ونحت وفنون تشكيلية وصناعية، من أدوات وأوانٍ من الفخار والمعدن أو فن العمارة، نلاحظ أنه يتبع الأسلوب الثنائي الزوجي المتناظر حيث يركز في الفن والشعر على علاقات التقابل والتكرار والتناظر، ويستنبط منها علاقات جمالية فهو يتخيل الشيء وكأنه يقوم على مبادئ التقابل والتناظر والتوازن، ويسبغ على الكائنات الجامدة صفات الأحياء، ليحقق لها ذلك التقابل، وقد ظهر حديثاً بعض الفنانين مثل بيكاسو خالفوا تلك القواعد الفطرية كلها عن قصد وإرادة فرسموا الوجه بعين

(٧٣) سورة الأنبياء: ٣٥
(٧٤) سورة الأحزاب: ١٦
(٧٥) سورة البقرة: ١٦٤
(٧٦) سورة الروم: ٢٠
(٧٧) سورة المؤمنون: ٣٥

واحدة، والرأس في الأسفل، والقدم في أعلى الصورة، لكن أغلب الناس لم يستسيغوا هذا الفن لتناقضه مع فطرة الإنسان التي خلق عليها. لذلك نجد أن الإنسان خاضع شئنا أم أبينا للأسلوب الإلهي في الخلق، وهذا بديهي فالله تعالى قد خلق للإنسان كل النماذج تقريباً ليقلّدها ويتخذها أنماطاً لمبتكراته، فصنع السفن والغواصات مقلداً الحوت والسمكة، وصنع الطائرة مقلداً الطيور، وصنع الحوامة مقلداً اليعسوب: (حشرة تشبه الحوامة بحجم الجرادة تطير بأسلوب الحوامات لها أربعة أجنحة وتتوجه عن طريق الذيل).

وصنع بعدها أشياء لم يكن لها نماذج مثل التلفزيون والتلفون والفاكس والحاسبة الإلكترونية والصاروخ وغيرها، ولكن حتى هذه المخترعات راعى فيها أسلوب الله في الخلق لتكون مقبولة من الناس وأذواقهم التي انطبعت بأسلوب الخلق، وقد التزم الإنسان في صنعها قوانين الله في الأقوى والأنسب، مستخدماً التناظر والخطوط الانسيابية بدل الخطوط المتكسرة حادة الأشكال. فالله مثلاً لم يخلق البطيخة بشكل مكعب لأن شكلها الكروي له من الميزات التي لاتتوافر في المكعب.

يروى أن فلاحين كانا يستريحان تحت شجرة جوز ويأكلان بطيخة، فسقطت جوزة من الشجرة أصابت أحدهما على رأسه فنظر إلى أعلى وقال:

ماأحكم الرب فيما خلق، قال رفيقه: ماتقصد؟

فقال: تصوّر لو أن البطيخ كان يثمر على الشجر، فما الذي كان يحصل لو أن بطيخة سقطت على رأسي بدلاً من تلك الجوزة!؟

ولو أخذنا كل الفنانين التشكيليين ومعهم كل مهندسي الدنيا، وأعطيناهم كلّ إمكانيات التشكيل والصنع وطلبنا منهم تصميماً آخر أفضل من شكل البيضة الحالي، مستخدمين الكمية ذاتها من الكلس الموجود في البيضة لأخفقوا واعترفوا في آخر المطاف أن ليس ثمة شكل أفضل من شكلها الذي خلقه الله، وهذا الكلام يصدق على خلايا النحل وشبكة العنكبوت. وأشياء أخرى كثيرة جداً،حاولْ مثلاً أن تعرض لوحة جدارية على عدد من الناس، واعمد أن تعلقها بشكل مائل على الجدار فسوف تجد أن أغلب المشاهدين يحاولون أن يميلوا برؤوسهم مع اتجاه ميلان اللوحة حتى يعيدوا التوازن المفقود في اللوحة لمخيلتهم، كل هذه الأمور تدل على أن الإنسان مخلوق يميل إلى أن يقلد خالقه الذي وهبه بعض صفاته في أسلوب خلقه الإبداعي، دون أن يعطيه كل أسرار الخلق، ولكن الإنسان يفعل ذلك من دون شعور أو معرفة، ويظن أنها طبيعة إنسانية دون أن يعرف

مصدرها. ولكن بقي على الإنسان أن يتعلم أشياء كثيرة، فالإنسان الذي كثرت صناعاته ومخترعاته لم يحسب حتى الآن أي حساب للأضرار التي تلحقها بالطبيعة، ومايصيب الأرض من تلويث للبيئة. فمخلوقات الله تتحلل بشكل طبيعي لتعود إلى أصلها ماء وتراباً. بينما صناعات الإنسان تبقى دون أن تتحلل ملوثة الطبيعة، فنفايات صناعاته غير قابلة للتحلل.. فالإنسان خلال ربع القرن الماضي قام بحجم من التلوث إن استمر على هذه الحال ثلاثمائة سنة لما بقي على سطح الأرض مكان للزراعة، ولما بقي على الشواطئ مكان للاستلقاء، ولزالت طبقة الأوزون التي تحمي كوكبنا ونفذت الأشعة الضارة إليه فوقعت كوارث كثيرة. ناهيك عن تلوث البحار الذي يسبب أضراراً كبيرة للحياة فيه، من انسكاب النفط على سطح البحار، إلى رمي بعض الدول نفاياتها، حتى الذرية منها فيها، وهذه النفايات تسبب إشاعاتها أمراضاً خطيرة للإنسان، وتعرض حياة الناس لخطر الموت، غير الأخطار الرهيبة لباقي الأحياء وقد نبه الله تعالى كثيراً في القرآن إلى موضوع التلوث لأنه يعلم الغيب فتوقعه من الناس:

﴿ولاتفسدوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها﴾[٧٨]

ولكن أغلب الناس لم يستمعوا للنصيحة، وحصل التلوث في الأرض والبحر فقال تعالى:

﴿ظهرَ الفسادُ في البرّ والبحر بما كسبتْ أيدي الناس لِيُذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا﴾[٧٩]

وهكذا فالناس وحدهم، وليس الله، هم الذين سوف يذوقون ويقاسون من ذلك التلوث الذي حصل من الإنسان طمعاً ببعض المكتسبات المادية وسوف يجد البشر أن ماخسروه كان أكبر مما ربحوه من تلك الصناعات التي أدت إلى تلوث البر والبحر، فكل حضارة لاتستند لمنهج الله ستؤول إلى دمار، لأنها تفتقر إلى التوازن وبفقدان التوازن ينهار كل مابنيناه. فإذا لم نتعلم مما علمنا الله فالذنب ذنبنا، فقد أرسل المنهج لكل الناس لكنهم تعاموا عنه وأغلقوا كل مصادر السمع على أنفسهم، غير أنهم لن يضروا الله شيئاً، ولن يظلموه، ولكنهم سوف يضرون أنفسهم ويظلمون أنفسهم، وسوف يقاسي أبناؤهم نتيجة فعلهم، ولو أحسنوا الاستماع لاستفادوا وأفادوا ولكنهم لايعلمون.

﴿فإنها لاتَعمى الأبصار، ولكنْ تعمى القُلوبُ التي في الصدور﴾[٨٠]

«صدق الله العظيم»

---

(٧٨) سورة الأعراف: ٨٥ (٧٩) سورة الروم: ٤١ (٨٠) سورة الحج: ٤٦

٢١ ـ الإعجاز العددي في القرآن الكريم

هناك في القرآن الكريم إشارتان إلى الاحصاء في سورة المطفّفين الآيات: (٩ ـ ١٠ ـ ٢٠ ـ ٢١)

﴿وما أَدراكَ ماسجّين * كتابٌ مرقوم﴾

﴿وماأدراك ماعِليّون * كتابٌ مرقوم﴾

وفي القرآن الكريم آيات أخرى عن الإحصاء والعدد: منها على سبيل المثال ﴿وأحاطَ بما لديهم وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً﴾[١]

وللإحصاء مظهر عددي لكنه كما قلنا أرقى بكثير من العدّ والعدد والأعداد، فهو عملية عددية معقدة يعرفها ويعرف دقائق أكثر عنها علماء الإحصاء حالياً، خاصة بعد أن استخدموا الحاسبات الإلكترونية للحصول على معلومات لم تكن موجودة سابقاً، وفي عصرنا حالياً هناك أكثر من شركة عالمية تستطيع أن تغتني بفضل تلك المعلومات التي تردها عن طريق الإحصاء فتستخدمها في التسويق والدعاية والتصنيع والتمويل والاستثمار ﴿أحصاهُ اللّه ونَسوهُ واللّهُ على كلِّ شيءٍ شهيد﴾[٢]

﴿لايُغادرُ صغيرةً ولاكبيرةً إلاّ أحصاها﴾[٣]

﴿لقد أحصاهُم وعَدَّهم عدّا﴾[٤]

﴿وكلّ شيءٍ أحصيناه في إمام مبين﴾[٥]

﴿وكلّ شيءٍ أحصيناه كتاباً﴾[٦]

وهناك إشارات واضحة في القرآن الكريم بأن فواتح السور يعدّها الله سبحانه وتعالى من آيات الكتاب، وكلمة آية وآيات تأتي غالباً في القرآن بمعنى التحدّي والإعجاز: ﴿الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيم﴾[٧] ﴿المر تلك آياتُ الكتاب﴾[٨] ﴿طسم. تلك آياتُ الكتابِ المبين﴾[٩]، وهذه الآيات وغيرها إشارة لهذا الإعجاز، وتشير هذه الآيات، وغيرها كثير في القرآن، إلى أن رب العالمين علمه رياضي عددي إحصائي. وهو اليوم

(١) سورة الجن: ٢٨
(٢) سورة المجادلة: ٦
(٣) سورة الكهف: ٤٩
(٤) سورة مريم: ٩٤
(٥) سورة يس: ١٢
(٦) سورة النبأ: ٢٩
(٧) سورة يونس: ١
(٨) سورة الرعد: ١
(٩) سورة الشعراء: ١ ـ ٢

من أرقى أنواع المعارف الإنسانية التي توسّع البشر في استخدامها بعد اكتشاف الحاسبات الالكترونية وتعميمها، فما الذي يمنع أن يكون القرآن الكريم كتاباً مرموقاً آياته وأحرفه وكلماته أي محصيّ وفق نظام قصده الرحمن الذي أرسله وأنزله. وهذه الأفكار حملها كثير من المسلمين المؤمنين دون أن يعلموا أن للقرآن أسراراً إحصائية لم يكشفها الله سبحانه وتعالى إلا في أوانها.

وفي نهاية القرن العشرين، قرن التقدم العلمي والتكنولوجيا في العالم، حيث صارت الحاسبات الالكترونية في متناول الجميع وضمن مسخّراتهم، قام شاب مسلم مثقف من مصر، مغترب في الولايات المتحدة، هو الدكتور محمد رشاد خليفة، باكتشاف حقائق عددية تتصل بحروف القرآن وكلماته وآياته وسوره، وبرهن أن هذه الحقائق لايمكن أن تتم بالمصادفة وإنما هي ناجمة عن قصد إلهي.

ويحدثنا الدكتور خليفة كيف وقع له هذا الاكتشاف مؤكداً أن المصادفة ليست وراء ذلك التصميم. وقد شرع يستقرئ آيات سورة المدثر. وأول مالفت نظره في تلك السورة آيات قصيرة تكاد لاتتجاوز الكلمتين أو الثلاث، تتتابع بنفس النَفَسْ حتى الآية الثلاثون منها التي تقول: ﴿عليها تسعةَ عَشَر﴾. ثم الآية الحادية والثلاثين، وهي طويلة جداً بشكل غير مألوف في السورة، وكأنها تقول لك انظر إليَّ أنا أختلف عن الآيات التي سبقتني وغيرها التي ستأتي بعدي في السورة، والتي هي قصيرة تذكر بأسلوب الآيات الأولى، والآية التي لفتت نظره هي: ﴿وماجعلنا أصحابَ النار إلاّ ملائكة وماجعلنا عدّتهم إلا فتنةً للذين كفروا لِيَستيقِنَ الذين أوتُوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولايرتاب الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أرادَ اللّهُ بهذا مثلاً كذلك يضلُّ اللّه مَنْ يشاءُ ويَهدي من يشاء ومايعلمُ جنود ربّك إلاّ هو وما هي إلاّ ذكرى للبشر﴾(١٠).

يقول الدكتور خليفة إنه وجد الآية ملفتة للنظر بمعانيها أكثر من حجمها بعد أن قرأها. ثم يقول إنه عاد للتفاسير القديمة والحديثة وإلى أسباب النزول، وتسلسل النزول للآيات، لكنه لم يستفد منها سوى أن الرقم تسعة عشر يقصد به عدد زبانية جهنم، ولم يجد ذلك مقنعاً، فوجد من تاريخ تسلسل الوحي والنزول، أن مانزل بعد الآية التي سبقتها ﴿عليها تسعة عشر﴾ كانت سورة الفاتحة مبتدئة بـ ﴿بسم الله الرحمن

---

(١٠) سورة المدثر: ٣١

الرحيم﴾ وحتى نهاية السورة دفعة واحدة، فعد أحرف ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، كما تكتب في القرآن عادة فوجدها تساوي تسعة عشر حرفاً فقال في نفسه ربما وقع ذلك مصادفة.

ثم عاد للحاسب الالكتروني واكتشف مايلي:

عدّ كلمات (بسم) في كل القرآن فوجدها ١٩ مرة.

ولابد أن أنوه بأنه ذكر أنه لاحظ أن المرة الوحيدة التي تعد البسملة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من صلب السورة هي في سورة الفاتحة فقط أما في باقي السور فقد طلب جبريل وضعها في أوائل السور وبداياتها ولكن بدون أن تعدّ من صلب الآيات الخاصة بالسورة، ومايدل على هذا في أغلب المصاحف أنا نجد في سورة الفاتحة أن الآية الأولى في سورة الفاتحة هي ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ والآية السابعة هي ﴿غيرِ المغضوبِ عليهم ولاالضّالّين﴾ بينما الآية الأولى في سورة البقرة هي ﴿ألف لام ميم﴾ وتكتب مجموعةً ألم وتقرأ ألف لام ميم).

تبين أن لفظ الجلالة (الله) ذكر في القرآن ٢٦٩٨ مرة ١٤٢ × ١٩

وكلمة الرحمن وردت فيه: ٥٧ مرة ٣ × ١٩

وكلمة الرحيم وردت فيه: ٩٥ مرة ٥ × ١٩

ثم يتابع الدكتور خليفة اكتشافه بأنه لفت نظره الأحرف التي تتصدر السور والتي يقال عنها: فواتح السور (ألف لام ميم). (حاء ميم) - (قاف) - (صاد) - (ياء سين) إلى آخر تلك الفواتح فجرّب عليها عمليته الإحصائية فاكتشف الآتي: يقول: إن النتائج التي توصلتُ إليها تؤكد أن الكتاب مصمم على الرقم ١٩ وبأسلوب متداخل إلى حد أنه لو قصد أحداً من البشر اليوم أن يؤلف كتاباً حول أي موضوع بحيث تتطابق فيه الأرقام في الكلمات والأحرف كالتطابق الموجود في القرآن لعجز عن ذلك حتى لو استعان بكل الحاسبات الالكترونية الموجودة. وهذا يؤيد الآية الكريمة:

﴿قلْ لئن اجتمعتْ الإنس والجنّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآن لايأتون بمثلِه﴾(١١)

ولكي نفهم فكرة الدكتور خليفة لابدّ لنا أن نبدأ بالجانب السهل منها:

مثلاً: في سورة ق تتألف فاتحتها من حرف واحد، فلو عددنا في هذه السورة أحرف

---

(١١) سورة الإسراء: ٨٨

القاف الواردة فيها لتبين لنا أنها وردت ٥٧ مرة، فلو قسمنا العدد على ١٩، ٥٧ ÷ ١٩ = ٣ وفي فواتح السور كلها لانجد الحرف ق إلا مرة ثانية في سورة الشورى حيث فواتح السور أو الأحرف المقطعة فيها هي (حاء ميم) في الاية الأولى ثم (عين سين قاف) في الآية الثانية أي تكتب حم، عسق، فإذا عددنا حروف القاف فيها وجدناها أيضاً ٥٧ أي ٥٧ ÷ ١٩ = ٣

وإذا جمعنا كل تلك الأحرف معاً وجدنا ٥٧ + ٥٧ = ١١٤

وهي عدد سور القرآن وكأن حرف القاف يرمز إلى عدد سور القرآن

لنتأمل الآن ماذا حصلنا عليه من الأرقام، والأرقام في القرآن ترمز أبداً لحقائق، فإلى ماذا ترمز هذه الأرقام والأحرف؟

أولاً إلى ماذا يرمز حرف القاف؟ (ق والقرآن المجيد) فالحرف ق يرمز للقرآن الكريم الذي يشكل النصف الأول من آيات الكتاب.

لنقرأ سورة (ق) كلها نجد أنها كلها آيات قرآنية ليس فيها آية واحدة من آيات الأحكام، والعدد ٥٧ يمثل النصف الأول من الكتاب بينما نجد سورة الشورى فيها أيضاً ٥٧ ق وهي تشكل النصف الثاني من الكتاب على أساس أن الرسول أوتي بالقرآن ومثله معه.

لنتأمل آيات سورة الشورى فأغلب آياتها من الأحكام مثل:

﴿وما اختلفتُم فيه من شيءٍ فحكمُه إلى الله، ذلكم اللّهُ ربّي عليه توكّلتُ وإليه أُنيب﴾(١٢)

﴿فلذلكِ فادعُ واستقمْ كما أُمِرتَ ولاتّتبع أهواءَهم وقلْ آمنتُ بما أَنزلَ اللّهُ من كتاب وأمِرتُ لأعدِلَ بينكم اللهُ ربُّنا وربُّكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم لاحُجّةَ بيننا وبينكم اللّه يجمَعُ بيننا وإليه المصير﴾(١٣)

في أول السورة الله سبحانه يصف نفسه فيقول:

﴿اللّه العزيز الحكيم﴾ والحكيم من الحكمة والإحكام ليدلنا على القسم الثاني من آيات الكتاب وهي آيات الحكمة والرسالة والأحكام وكذلك (حم) فيها حرفان من كلمة الحكمة أو الأحكام لتكون إشارة لتلك الآيات، ﴿ويعلَمُ الذين يُجادلون في آياتنا مالَهم من مَحيص﴾(١٤) من آيات الحكمة والأحكام ﴿والذين يَجتَنبون كبائرَ الإثم والفواحش

(١٢) سورة الشورى: ١٠ (١٣) سورة الشورى: ١٥ (١٤) سورة الشورى: ٣٥

وإذا ماغضبوا هم يغفرون﴾[١٥] ومنها أيضاً، وقد بينا سابقاً الصراط المستقيم ـ كما تشير الآيات الآتية من سورة الشورى نفسها.

وقد بينا سابقاً أن كبائر الإثم هي أن يسير الإنسان عكس الوصايا العشر وعكس الصراط المستقيم.

﴿فإنْ أعرضوا فما أرسلْناك عليهم حفيظاً إنْ عليك إلاّ البلاغُ وإنّا إذا أذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً فَرح بها وإن تُصِبْهُم سيئةٌ بما قدّمَتْ أيديهم فإنّ الإنسانَ كفور﴾[١٦]

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلْناه نوراً نهدي به مَنْ نشاءُ من عبادنَا وإنك لَتهدي إلى صراطٍ مستقيم* صراط الله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمور﴾[١٧]

وهكذا بعون الله تعالى تمّ كشف الرموز التي يريد منا الله أن ننتبه إليها داخل القرآن، فكتاب الله مكون من قسمين، ويؤيد ذلك قول الرسول: (أوتيت القرآن ومثله معه) فآيات القرآن هي القسم الأول وآيات الأحكام والرسالة هي القسم الثاني، وليست هي أحاديث الرسول كما ظن وتوهم كثير ممن سموا أنفسهم علماء المسلمين ولو جمعنا حرف الألف الوارد في كل سورة من السور وأضفنا مجموعها إلى مجموع حرف الألف الوارد في السورة الثانية وهكذا حتى نهاية سورة السجدة وقسمنا الناتج على ١٩ نفاجأ أن عدد حرف الألف فيها يقبل القسمة على ١٩ ، وهذه العملية الإحصائية لايمكن أن يقوم بها بدون خطأ أو نسيان أو سهو إلا الآلة الحاسبة الإلكترونية اليوم.

وكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا ان نعلم أن إعجازه الإلهي لم يتم مصادفة وإنما بقصد من الله سبحانه القادر على كل شيء.

والله سبحانه وتعالى يريد للناس أن يعرفوا ذلك الإعجاز الإحصائي في القرآن من خلال إشارات في القرآن ترشد المتأمل فيها إلى رموزها، حين يشاء الله، وعلى ما قد يتوافر للناس من النضج الفكري والعقلي فالناس يسعون نحو الأفضل، وهذه سنة من سنن الله، وقد لفت الله انتباه الباحث كلمة «بكة» المذكورة في القرآن مرة واحدة في الآية الآتية من سورة آل عمران ﴿إنّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للنّاس لَلّذي بِبكّةَ مُباركاً وهدى

(١٥) سورة الشورى: ٣٧ (١٦) سورة الشورى: ٤٨ (١٧) سورة الشورى: ٥٢ ـ ٥٣

للعالمين﴾[١٨] ونحن نعلم أن سورة آل عمران تبدأ مثل سورة البقرة بـ ألم.

يرد اسم مكة بالميم لا بالباء في آية الفتح مرة واحدة فقط: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطنِ مكّة﴾[١٩] وكلاهما يدلان على مدينة مكة، ولكن ورودها بالباء بدافع الحرص على ورودِ حرف الميم في السورة عدداً من المرات يسمح بقسمته على ١٩ ، ذلك أن سورة آل عمران تبدأ كما قلنا بـ: ألف لام ميم أي أن الألفات معدودة واللامات معدودة والميمات معدودة وداخلة في الإحصاء ولو زادت الميم واحدة كما قلنا لكسرت القاعدة وهو الإعجاز الذي يقصد الله سبحانه أن يرينا إياه بالنظر. ففي تلك السورة لو كتبت مكة لزاد عدد الميمات واحدة.

وقد لاحظ الباحثون أن كلمة (بسطة) وردت مرتين فقط في القرآن الكريم: مرة في سورة البقرة في الآية:

﴿قال لهم نبيّهم إن الّله قد بعثَ لكم طالوتَ ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يُؤتَ سعةً من المال قال إنّ الّله اصطفاهُ عليكم وزادَه بَسطةً في العِلم والجِسم والّله يُؤتي ملكَه من يَشاءُ والّله واسعٌ عليم﴾[٢٠]

وفي سورة الأعراف: ﴿أوَ عَجِبتُم أن جاءكم ذِكرٌ من رّبكم على رجلٍ منكم لِينذرَكم، واذكروا إذْ جعَلكم خلفَاءَ من بعدِ قومِ نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاءَ الّله لعلّكم تفلحون﴾[٢١]

ونلاحظ أنها وردت مكتوبة بالسين في سورة البقرة في حين أنها كتبت بالصاد وفوقها س في سورة الأعراف، فإذا راجعنا أسبابَ النزول نجد أنّ أحدَ كتبة الوحي يقول للرسول الكريم: إنّ العرب تكتُبها بالسين وليس بالصاد، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:

إنّ جبريل يأمرني أن تُكتب بالصاد وتُقرأ بالسين، فاكتبها بالصاد وضع فوقها حرف س حتى تلفظ بالسين.

والآن إذا عدنا لسورة الأعراف نجد الأحرف المقطعة أو فواتح السور فيها هي ألمص، ألف لام ميم صاد فلو كتبت بصطة بالسين بدل الصاد في سورة الأعراف لنقص عدد الصادات فيها واحداً ولم تقبل القسمة على ١٩ كما هي الحال بالنسبة إلى لفظ مكة وبكة.

---

(١٨) سورة آل عمران: ٩٦
(١٩) سورة الفتح: ٢٤
(٢٠) سورة البقرة: ٢٤٧
(٢١) سورة الأعراف: ٦٩

وفي القرآن آيات كثيرة يخاطب الله تعالى فيها لوطاً أو «آل لوط» وهم أهله المقربون وفيه آيات أخرى يخاطب فيها: «قوم لوط» ولو استعرضنا الآيات التي وردت في القرآن في خطاب «قوم لوط» لتبين لنا أنها عشر آيات هي:

﴿قالوا لاتَخَفْ إنّا أَرسَلْنا إلى قومِ لوط﴾[٢٢]

﴿يُجادِلُنا في قوم لوط﴾[٢٣]

﴿وماقومُ لوطٍ منكم ببعيد﴾[٢٤]

﴿وقوم إبراهيم وقوم لوط﴾[٢٥]

﴿كذّبتْ قومُ لوط المرسلين﴾[٢٦]

﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأَيكة أولئك الأحزاب﴾[٢٧]

﴿كذّبتْ قوم لوط بالنّذر﴾[٢٨]

﴿ولوطاً إذْ قال لقومه أَتأتونَ الفاحشةَ ماسبقَكم بها من أحدٍ من العالمين﴾[٢٩]

﴿ولوطاً إذْ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تُبصرون﴾[٣٠]

﴿ولوطاً إذْ قال لقومه إنكم لتأتونَ الفاحشةَ ماسبقَكم بها أحدٌ من العالمين﴾[٣١]

وبالمقابل فإنه تعالى يخاطب «آل لوط» في قوله تعالى:

﴿إنّا أرسلنا عليهم حاصِباً إلاّ آل لوط نّجيناهُم بسحر﴾[٣٢]

وتستنتج أن آل هنا المقصود به هم المقربون والمتبعون والذين آمنوا مع لوط من أهله وليس المقصود بـ آل هنا قوم لوط وكذلك عندما نقول: اللهم صلِّ على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم أو نقول: صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد لانقصد قوم ابراهيم ولاقوم محمد بأي حال من الأحوال والآن تعال معي واقرأ الآية التالية:

﴿كذّبت قبلَهم قومُ نوح وأصحابُ الرّسّ وثمود﴾[٣٣] من سورة ق ﴿وعادٌ وفرعون وإخوان لوط﴾[٣٤] ماالمقصود بإخوان لوط؟ أهم آل لوط الذين آمنوا معه ووعدهم الله

---

(٢٢) سورة هود: ٧٠
(٢٣) سورة هود: ٧٤
(٢٤) سورة هود: ٨٩
(٢٥) سورة الحج: ٤٣
(٢٦) سورة الشعراء: ١٦٠
(٢٧) سورة ص: ١٣
(٢٨) سورة القمر: ٣٣
(٢٩) سورة الأعراف: ٨٠
(٣٠) سورة النمل: ٥٤
(٣١) سورة العنكبوت: ٢٨
(٣٢) سورة القمر: ٣٤
(٣٣) سورة ق: ١٢
(٣٤) سورة ق: ١٣

أنه سوف ينجيهم، أم أن المقصود بهم كما هو مفهوم من سياق الآيات أنهم قوم لوط؟ لاشك أن المقصود هنا هم قوم لوط بالتحديد، الذين ورد ذكرهم عشر مرات كما أسلفنا في الآيات السابقة فلماذا كنى عنهم الله هذه المرة بإخوان لوط؟

إن الله تعالى يشير بدليل الأحرف الواردة في أول السورة إلى أنها واقعة تحت الاحصاء، وكلها إذا أحصيت تقبل القسمة على ١٩ بدون باق تماماً فالآية من سورة ق، أي أن أول السورة يبدأ بالحرف (قاف) ولو عددنا تكرار حرف القاف في هذه السورة لتبين لنا أنها وردت ٥٧ مرة.

والرقم ٥٧ يقبل القسمة على ١٩ بدون باقي

ولو أن كلمة (إخوان) في قوله: اخوان لوط في الآية استعيض عنها وجاء مكانها كلمة (قوم) لزاد عدد تواتر الحرف (ق) في السورة قافاً واحدة فيصبح العدد

٥٧ + ١ = ٥٨

والرقم ٥٨ لايقبل القسمة على ١٩ بدون باقٍ وبهذا تشذ السورة عن القاعدة. وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى كان حريصاً على التزام تصنيف إحصائيي معجز له مقاصده في حروف القرآن الكريم وكلماته وسوره، وقد أظهر لنا تعالى بعض مقاصده من هذا الإحصاء ولم يظهر لنا بعد أسراره كلها، ولابدّ أن يعرفها البشر حين يحين أوانها، ومن أبرز أغراض هذا التصنيف التي عرفناها هو: حفظ القرآن الكريم من التحريف لأن أي تحريف يقع في نصه سيتم كشفه بسبب اختلال الإحصاء فيه.

لقد أدركنا سرّ العدد ١٩ في الآية ٣٠ من سورة المدثر، ولو أعدنا قراءة الآية ٣١ من السورة نفسها مرة أخرى بتمعن أكثر، وكأننا نلتمس جواباً لكل الرموز التي كانت مبهمة وغامضة قبل ذلك. فربما كان لفواتح السور هذه سر آخر سوف يبينه الله تعالى في وقته لمن يشاء مع أن هذا السر وحده كان عظيماً، ولقد بدأ الأستاذ رشاد خليفة بحثه مابين عامي ١٩٧٦ - ١٩٧٧ وأتيح لي أن أهاجر بعدها لأمريكا فسألت عن الرجل وحزنت عندما علمت أن موضوع اكتشافه قد طمس، وقام من اتهمه بالنبوة، ولم أصدق ذلك ولكنني أعتقد أن قصته واتهامه يحتاجان إلى تحقيق، وأنا أجد أن اكتشافه هذا من أهم الاكتشافات العلمية في القرآن، ومن أهم إعجازاته، وهو تحدّ لكل الأمم ولجميع اللغات. لوضع كتاب كالقرآن يلتزم فيه ماالتزم في القرآن من التصميم والنظام العددي والإحصائي مع التغيير بالمعاني، مستعينين بكل حاسباتهم الالكترونية.

وخلال جولاتي في أغلب الولايات الأميركية والاجتماع ببعض المسلمين فيها، حاولت معرفة ماوصلهم عن بحث رشاد خليفة، فوجدت أن أغلب الناس لم يسمعوا به، وأذكر أني شرحت الموضوع لمسلم ياباني وكنا نتدارس: لماذا اختار الله سبحانه الرقم الأصم ١٩ ، فهناك أرقام صماء أخرى كثيرة مثل الرقم ١٧ و ٢٣ و ٢٩ و ٣١ وغيرها كثير، وأذكر أن ذلك المسلم الياباني لفت نظري لموضوع لم أكن قد التفت إليه سابقاً: حيث قال ببساطة معهودة في اليابانيين:

إن الرقم (١٩) يحوي الرقم واحد الذي هو الأول في الأرقام المفردة مثلما يحوي الرقم (٩) الذي هو الأخير بين الأرقام المفردة أي أنه يحوي البداية والنهاية، الأول والأخير بالنسبة للأرقام ﴿وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ﴾(٣٥)

وقد تأكدت شخصياً من المعلومات التي أوردها رشاد خليفة وأخذت مني وقتاً طويلاً وأنا أفكر في أبعاده حيث يمكن للإنسان إذا فكر فيها أن يكتشف أشياء جديدة لها معنى، وإليك بعض هذه الخواطر مختصرة:

كنا فيما سبق قد عددنا أحرف بسم الله الرحمن الرحيم فوجدناها ١٩ × ١ = ١٩

عدد أحرف البسملة ١٩ × ١ = ١٩

عدد كلمات بسم ١٩ × ١ = ١٩

وعدد كلمات الله ١٩ × ١٤٢ = ٢٦٩٨

وعدد كلمات الرحمن ١٩ × ٣ = ٥٧

وعدد كلمات الرحيم ١٩ × ٥ = ٩٥

فإذا جمعنا ذلك كله يكون لدينا رقم يساوي حاصل ضرب ١٩ × ١٥٢ = ٢٨٨٨

أي وكأننا نقول إن البسملة التي تكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم) والتي عدد أحرفها ١٩ حرفاً بدون زيادة أو نقصان هي من مضاريب الرقم ١٩ وأن الرقم الناتج من جمع تلك الأرقام كلها لايقبل القسمة على ١٩ بدون باق مرة واحدة فقط، بل يقبل القسمة مرتين وبدون باق، وهذا هو عين إعجاز الإعجاز ولكن كيف؟

إن المجموع العام الذي وجدناه هو الرقم ٢٨٨٨

فإذا قسمناه على ١٩ يكون الناتج ٢٨٨٨ ÷ ١٩ = ١٥٢ وبدون باق وإذا قسمنا

---

(٣٥) سورة يوسف: ٧٦

الناتج على ١٩ مرة أخرى يكون الناتج ١٥٢ ÷ ١٩ = ٨ وبدون باقٍ

ولاحظ أن الرقم ٨ هو رقم متكون من مضاريب رقم مزدوج هو ٢ (٢ × ٢ × ٢ = ٨)

والرقم ٢ الزوج هو قانون الخلق!

لأن الله سبحانه هو الذي أوجد ذلك القانون الذي يعدّ الآن من أهم الاكتشافات العلمية ويسمونه قانون ازدواجية المادة

﴿ومن كلِّ الثمرات جَعلْنا فيها زوجَيْن اثنين﴾(٣٦)

﴿ومن كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زوجَيْن لعلّكم تذكرون﴾(٣٧)

﴿سبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها ممّا تُنبِتُ الأرض﴾(٣٨)

﴿والذي خَلَقَ الأزواجَ كلها وجَعَلَ لكم من الفلكَ والأنعامِ ماتركبون﴾(٣٩)

﴿وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخْرَجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى﴾(٤٠)

ويمكن أن نلفت الانتباه إلى موضوع آخر له علاقة بموضوعنا، فقد تبين لنا أن جملة: بسم الله الرحمن الرحيم وردت في القرآن في أول سورة الفاتحة، ولكن جبريل أمر الرسول أن يضع في أول كل سورة من السور جملة بسم الله الرحمن الرحيم، توقيفاً لأصلاً من القرآن، أي عندما تعدّ الكلمات والآيات المتعلقة بالقرآن الكريم لاتدخل البسملة ضمن الاحصاء لأنها في الأصل ليست من السور، فجملة البسملة مثلاً في أول سورة الصمد لاتعد الآية الأولى في السورة، وإنما الآية الأولى جاءت بعدها وهي: قل هو الله أحد.

فإذا أحصينا عدد (بسم الله الرحمن الرحيم) على أساس أن عدد سور القرآن ١١٤ سورة فسوف نجد أن عددها يساوي ١١٣ فقط لأن سورة التوبة لاتتصدرها البسملة وقد اختلف العلماء حول هذه القضية ولازالوا، فريق قال بأن جبريل أمر الرسول ألا يضع أمامها بسم الله الرحمن الرحيم وفريق آخر يدعي أنها ليست سورة مستقلة، وإنما هي تتمة لسورة الأنفال، لكن مع كل الادعاءات لم يستطع أحد أن يمس القرآن بإضافة بسم الله الرحمن الرحيم إلى أول سورة براءة، أو سورة التوبة، وللسورة هاتان التسميتان

---

(٣٦) سورة الرعد: ٣
(٣٧) سورة الذاريات: ٤٩
(٣٨) سورة يس: ٣٦
(٣٩) سورة الزخرف: ١٢
(٤٠) سورة طه: ٥٣

منذ نزولهما ولازالتا، والباحث عن الإعجاز الرقمي يفاجأ إذ يجد خروجاً عن القاعدة إذ يصبح عدد البسملات بموجب هذا ١١٣ لا ١١٤ وهو عدد لايقبل القسمة على الرقم ١٩ بدون باق، وهو مخالف لما توصل البحث إليه. لكن الدكتور رشاد خليفة أشار إلى هذا الموضوع وقال:

هناك مرة واحدة ذكر فيها بسم الله الرحمن الرحيم في متن سورة النمل لا في أولها ﴿إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم﴾(٤١) فإذا أضفنا هذه البسملة إلى العدد يكتمل عدد البسملات إلى ١١٤ بسملة كاملة في القرآن وهي تقبل القسمة على ١٩ فلا شذوذ إذاً في القاعدة التي توصل إليها.

وعلينا أن نتساءل: لماذا لم يبدأ الله سورة التوبة بالبسملة؟

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد بذلك أن يؤشر لنا إشارة خاصة فما هي هذه الإشارة؟ لنتأمل الآية الآتية:

﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزّلت سورةٌ فإذا أُنزلت سورة مُحكَمَة وذُكر فيها القتال رأيتَ الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت﴾(٤٢) في هذه الآية إشارتان:

الإشارة الأولى: إلى أن الله سبحانه ربما استجاب لطلب من المؤمنين الذين سألوا الرسول في مطلع الآية: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ وكأن المؤمنين قالوا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم لو أن الله تعالى أنزل سورة محكمة تامة ليس فيها آيات من القرآن أي ليس فيها من الحقائق العلمية والحقائق التاريخية بل تتعلق بأحكام الرسالة. والظاهر أيضاً من الآية بأن الله استجاب لطلب المؤمنين فأنزل سورة كلها من الأحكام (سورة محكمة) لكنه تعالى أنزل في تلك السورة آيات تطلب من المؤمنين القتال في سبيل الله. فأصبح الذين في قلوبهم مرض ينظرون إلى الرسول نظر المغشي عليه من الموت خوفاً وفزعاً.

فإذا عدنا إلى سورة التوبة وقرأناها وجدنا كل آياتها من الآيات المحكمة، وليس فيها أية حقيقة علمية من الحقائق الكثيرة المنتشرة في باقي سور القرآن، وليس فيها أيضاً أية قصة من قصص التاريخ القديم عن الأقوام السابقة يمكن أن نقول إنها حقيقة تاريخية. إذاً فسورة التوبة سورة محكمة آياتها كلها من آيات قسم الرسالة، ولندقق الآن في سورة

---

(٤١) سورة النمل: ٣٠ (٤٢) سورة محمد: ٢٠

التوبة: ماذا ذكر الله سبحانه وتعالى فيها من آيات القتال؟

لنستعرض الآيات وفق تسلسلها في السورة.

﴿فقاتلوا أئمةَ الكفرِ إنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون﴾(٤٣)

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسولِ وهم بَدءوكم أولَ مرة أتخشَوْنَهم فاللّه أحقّ أن تخشَوْه إن كنتم مؤمنين﴾(٤٤)

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ويَنصرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين﴾(٤٥)

﴿قاتلوا الذين لايؤمنون باللّهِ ولاباليومِ الآخر ولايحرّمون ماحرّم اللّهُ ورسولُه ولايدينون دينَ الحقّ من الذين أوتوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وَهُم صاغرون﴾(٤٦)

﴿...وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونَكم كافّة واعلَموا أنّ الله مع المتقين﴾(٤٧) وفي هذه السورة يبين لنا الله تعالى ظهور فئة جديدة بين صفوف المؤمنين وهم المنافقون، والمنافق لايكون له وجود في فترة ضعف الدعوة، لأن الضعيف لا يخشاه أحد، وبالتالي ليس من حاجة تدعو للنفاق له، والنفاق يظهر في فترة قوة الدعوة، فضعاف النفوس يبدؤون عندها بالنفاق، خشية بأس وقوة صاحب الدعوة.

﴿يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفرِ وكَفروا بعد إسلامِهِم...﴾(٤٨)

﴿...فإن يتوبوا يَكُ خيراً لهم وإن يتولّوا يعذّبْهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ومالهم في الدنيا من وَليّ ولانصير﴾(٤٩)

﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾(٥٠)

﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا وتولوا وهم معرضون * فأعقبناهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون﴾(٥١)

ثم يتحدث الله سبحانه عن بعض المنافقين من الذين تخلفوا عن القتال:

﴿فإن رجعكَ الله إلىٰ طائفةٍ منهم فاستأذنوكَ للخروجِ فقلْ لن تخرُجوا معي أبداً ولن

---

(٤٣) سورة التوبة: ١٢
(٤٤) سورة التوبة: ١٣
(٤٥) سورة التوبة: ١٤
(٤٦) سورة التوبة: ٢٩
(٤٧) سورة التوبة: ٣٦
(٤٨) سورة التوبة: ٧٤
(٤٩) سورة التوبة: ٧٤
(٥٠) سورة التوبة: ٧٥
(٥١) سورة التوبة: ٧٦ ـ ٧٧

تقاتِلوا معي عدّواً إنّكم رضيتُم بالقعودِ أولَ مرةٍ فاقعدوا مع الخالِفينَ﴾[٥٢]

﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات أولئك هم المفلحون﴾[٥٣]

﴿يا أيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار لِيَجدوا فيكم غِلظَةً واعلَموا أنّ الّله مع المتّقين﴾[٥٤]

وهكذا نجد أن هذه هي السورة التي أشار الله إليها في الآية رقم ٢٠ من سورة محمد وقال عنها إنها سورة محكمة وفيها آيات عن قتال الكفار والمشركين وفيها آيات عن المنافقين.

وقد وردت في القرآن الكريم بعض الأرقام مثلاً إن كلمة الدنيا وردت ١١٥ مرة وكلمة الآخرة وردت ١١٥ مرة في القرآن الكريم، وظن الكاتب أن الله سبحانه وتعالى يقصد فقط أن يلفت النظر إلى التساوي بين العددين ١١٥ = ١١٥ بينما العدد ١١٥ لايقبل القسمة على ١٩ بدون باقي لأن الرقم ١١٥ ÷ ١٩ = ٦ والباقي واحد كما أن العدد ١١٥ لايساوي عدد سورالقرآن التي تساوي ١١٤ سورة ولو انتبه الكاتب واستخرج كل آيات القرآن الكريم التي فيها كلمات الدنيا والآخرة لوجد مايلي: ﴿إذا أنتم بالعُدوة الدنيا وهم بالعُدوة القصوى والرَّكبُ أسفلَ منكم﴾[٥٥]

فالله سبحانه وتعالى يصف في الآية ساحة المعركة أمام المسلمين وليس لمعنى (العدوة الدنيا) أية علاقة بالحياة الدنيا.

وكذلك الآية: ﴿ماسمعنا بهذا في المِلّةِ الآخرة إن هذا إلاّ اختلاق﴾[٥٦] فإنّ كلمةَ الملة الآخرة فيها لاتعني الآخرة، فإذا استبعدنا هاتين الكلمتين نجد أنّ عدد كلمات الدنيا والآخرة تساوي ١١٤ = ١١٤

أحببت أن ألفت النظر إلى هذه الظاهرة الدقيقة في القرآن مؤكداً أنها لم ترد مصادفة كما يبدو للمتبصر المدقق وإنما جاءت وفق تصميم إلهي مقصود.

وثمة أمثلة كثيرة في القرآن الكريم تؤكد صحة مانقول منها على سبيل المثال: عدد

---

(٥٢) سورة التوبة: ٨٣ (٥٤) سورة التوبة: ١٢٣ (٥٦) سورة ص: ٧

(٥٣) سورة التوبة: ٨٦ ـ ٨٨ (٥٥) سورة الأنفال: ٤٢

كلمة (ربّ) ومشتقاتها في القرآن، فسوف نفاجأ بأنه في سورة يوسف بالذات وردت أربع آيات من دون القرآن كله حيث كلمة رب ومشتقاتها لاتعني رب العالمين كما في الآيات التالية ﴿وقال للّذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما اذكُرني عند ربّك﴾[٥٧]

أو في الآية ﴿فلما جاءَه الرسولُ قال ارجِعْ إلى ربِّكَ فاسألْه مابالُ النسوة اللاتي قطَّعنَ أيديَهنّ﴾[٥٨]

أو في الآية ﴿ياصاحِبيَ السجن أمّا أحدُكما فَيسقي ربَّه خمراً﴾[٥٩]

أو في الآية ﴿فأنساه الشيطان ذِكْرَ ربّه فلبث في السجن بضع سنين﴾[٦٠]

أي أن السجين بعد أن عاد إلى سيده لم يتذكر رجاء يوسف وطلبه في أن يذكره لسيده، وهكذا تجد بعد حذف هذه المرات الأربع أن مشتقات رب في القرآن الكريم تساوي ٩٦٩ مرة وهي تساوي ١٩ × ٥١ بالتمام والكمال.

لذلك فالمدقق في آيات القرآن الكريم سوف يكتشف باستمرار مثل تلك الحالات ومما يمكن أن نذكره مثالاً ورود اسم الرسول في القرآن الكريم ١١٦ مرة فإذا دقق الإنسان ضمن الآيات ومعانيها يتبين أن كلمة الرسول في الآية الآتية:

﴿فلما جاءَه الرسول قال ارجِعْ إلى ربّك فاسأله مابالُ النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيديهن﴾[٦١] لاتعني الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم أو أي رسول لله مثلما أن كلمة رب في الآية التي قبلها (ربك) لاتعني الله سبحانه، كذلك كلمة رسول لاتعني رسول الله في الآية ﴿فقَبضْتُ قبضةً من أثرِ الرسول فَنبذْتُها﴾[٦٢] فإذا استبعدنا هاتين الكلمتين من إحصائنا للآيات التي فيها كلمة الرسول تبين لنا أن كلمة رسول بمعنى رسول الله وردت ١١٤ مرة وهي قابلة للقسمة على ١٩ - ١١٤ ÷ ١٩ = ٦ وهي تساوي ايضاً عدد سور القرآن الكريم وكل هذه الأمور لاتتم بالمصادفة وإنما بقصد قاصد هو الله سبحانه وتعالى لكي ينتبه وكذلك يقتنع المسلم باعجاز كتابه ويتخذه مرجعاً له دون سواه من باقي المصادر التي ليس فيها إلا الأوهام والظنون والاختلافات التي لاتغني من الحق شيئاً، فيزيد إيمانه بالله وبكتابه كل يوم أكثر فأكثر.

وإذا سأل سائل: ماهي مواقع السور. وكم مرة وردت؟ ومن كم حرف تتكون؟يمكن أن نحيلهم إلى محاضرة للدكتور رشاد خليفة فيجيب عن كل تلك التساؤلات وفي نهاية

---

(٥٧) سورة يوسف: ٤٢
(٥٨) سورة يوسف: ٥٠
(٥٩) سورة يوسف: ٤١
(٦٠) سورة يوسف: ٤٢
(٦١) سورة يوسف: ٥٠
(٦٢) سورة طه: ٩٦

المحاضرة جداول تثبت بالأرقام صحة ماتوصل إليه الباحث وفي القسم الأخير منها دراسة وتدقيق قام به الأستاذ صدقي البيك تحت عنوان (تحقيقات وهوامش على الإعجاز العددي)، وهذان الموضوعان مقتبسان من كتاب: تفسير مفردات القرآن الكريم للأستاذ سميح عاطف الزين(*).

يجدها القارئ كلها في ملحق الإعجاز العددي والحسابي في القرآن.

(*) دار الكتاب اللبناني - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٤

ملحق: الإعجاز العددي والحسابي في القرآن(*)

الإعجاز اللفظي والعددي والحسابي في القرآن الكريم:

منذ القرون الأولى للهجرة والمسلمون دائبون على دراسة ألفاظ القرآن الكريم، منهم من تفرغ لمعاني ألفاظه ومنهم من تفرغ لعدد آياته وعدد كلماته وحروفه، وعلى امتداد العصور امتد هذا البحث وانتشر أمره وخاصة في عصرنا هذا عصر الأرقام والعد والإحصاء، وقامت دراسات على الإعجاز العددي للقرآن الكريم في مختلف نواحيه، وقيّض الله سبحانه وتعالى في عصرنا هذا بعض الدعاة للإسلام من بينهم الدكتور عبد الرزاق نوفل والدكتور محمد رشاد خليفة.

إليكم ماقدمه الدكتور محمد رشاد خليفة في محاضرة ألقاها في الولايات المتحدة ومما قاله: إن الزمن الذي نحياه هو زمن مادي، ويشاء الله أن تنكشف بالقرآن الكريم معجزات مادية ملموسة ونحن الليلة في هذه القاعة سوف نشهد معجزة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الخالدة المستمرة، سوف نشهدها بطريقة مادية ملموسة، تماماً كما شهد بنو إسرائيل والسحرة وفرعون معجزات موسى عليه السلام وتماماً كما شهد الحواريون معجزات عيسى عليه السلام. هذه المعجزات المادية القرآنية تكمن في الآية القرآنية الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم، فأنت إذا عددت حروف هذه الآية لوجدتها تسعة عشر. هذه حقيقة مادية ملموسة لايستطيع أحد أن يجادلك فيها، إنها ليست تفسيراً وليست تخميناً أو استنتاجاً. فقد اكتشف أن كل كلمة في هذه الآية تتكرر في القرآن الكريم كله عدداً من المرات هو دائماً من مكررات الرقم تسعة عشر.

الآية القرآنية الأولى بسم الله الرحمن الرحيم تتكون من تسعة عشر حرفاً وكل كلمة تتكرر في المصحف الشريف كله عدداً من المرات دائماً من مكررات الرقم تسعة عشر.

فكلمة «اسم» تتكرر في المصحف تسع عشرة مرة بالضبط. لفظ الجلالة «الله» تتكرر في القرآن الكريم كله (٢٦٩٨) مرة (١٩ x ١٤٢)

كلمة «الرحمن» تتكرر في المصحف الشريف كله ٥٧ مرة = ٣ أضعاف الرقم تسعة عشر.

(**) مقتبس من كتاب تفسير مفردات القرآن الكريم للأستاذ عاطف الزين.

وكلمة «الرحيم» تتكرر (١١٤) مرة = ستة أضعاف الرقم /١٩/(*)

هذه كما ترون حقائق مادية ملموسة لاتقبل الجدل. ويجدر بي الآن أن أنبه إلى أن الشيطان لابدَّ وأن يتدخل في هذه اللحظة ويوسوس في صدرك قائلاً: مايدريني أن هذه الأرقام صحيحة؟ إنني أقول لكم الأرقام السليمة. ولكي نطرد الشيطان من أول المحاضرة بطريقة نهائية أذكركم أيها الإخوة والأخوات أن هذه الأرقام سجلت مرات كثيرة في الماضي، كثير من العلماء الأفاضل قاموا بعدّ كلمات وحروف القرآن الكريم، وسجلوها في كتب كثيرة، ومعي أحد هذه الكتب. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وفيه هذه الأرقام مسجلة.

باختصار مرة أخرى الآية الأولى في القرآن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تتكون من تسعة عشر حرفاً، وكل كلمة تتكرر أضعاف الرقم تسعة عشر، وفي الوقت المناسب سأذكر لكم لماذا استعمل كلمة «بسم» وليس (اسم) ستجدون أن حرف الباء له إعجاز خاص به.

وتعلمون طبعاً ان سور القرآن الكريم هي ١١٤ سورة = ستة أضعاف الرقم ١٩ . ماذا تعني هذه الملاحظات، هذه الحقائق المادية الملوسة.

إن هناك ثلاثة استنتاجات فقط نستطيع أن نستخلصها من هذه الملاحظات.

الاستنتاج الأول: أن هذا حدث عن طريق المصادفة، المصادفة البحتة. ونستطيع جميعاً أن نفرض هذا الاستنتاج على أساس أن المصادفة تحدث مرةً واحدةً وربما مرتين، ولكن ليس ثلاث مرات أو أربع مرات، كما نجد في هذه الحالة. بمعنى أنك إذا أخذت أي كتاب عادي وعددت الحروف في جملته الأولى. إن احتمال أن الكلمة . كلمة واحدة . في هذه الجملة تتكرر في الكتاب كله عدداً من المرات له علاقة بالجملة بعدد حروف الجملة، احتمال جائز ممكن، يحدث عن طريق المصادفة، أما أن تكون كلمتان في الجملة تتكرران في الكتاب كله عدداً من المرات له علاقة بعدد حروف الجملة، فهذا احتمال ضعيف جداًوتتفق معي أن احتمال أن ثلاث كلمات تتكرر بهذه الطريقة في الكتاب مستحيلة.

الاستنتاج الثاني: إن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام الذي كتب القرآن

(*) الرحيم موجودة في القرآن ٩٥ مرة وكلمة رحيماً موجودة ١٩ مرة أضافهما الدكتور رشاد لتشكل ١١٤ وأنا أبقيت الرقم ٩٥ (المؤلف).

وصممه بهذه الطريقة الحسابية، هذا هو الاحتمال الثاني الذي يمكن أن نستخلصه من ملاحظات، وهذا الاجتهاد طبعاً هو مايصدقه غير المسلمين إذ إنهم لو علموا أو آمنوا بأن القرآن الكريم هو رسالة خالقهم لأصبحوا مسلمين، ومايقول هذا الاحتمال الثاني هو أن رجلاً أمياً يعيش في القرن السابع الميلادي بين البدو في الصحراء، ودون أن يتعلم علوم الحساب المتقدم، النسبة المئوية والمكررات الخ. هذا الرجل الأمي قال لنفسه: إنني سأكتب كتاباً كبيراً تتكوَّن الجملة الأولى فيه من / ١٩/ حرفاً وتتكرر كل كلمة فيه عدداً من المرات هو من أضعاف الرقم /١٩/ ثم مضى هذا الرجل الأمي يكتب الكتاب من آيات متباعدة في الزمان والمكان، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وتستطيعون في الحال أن تدركوا استحالة هذا الاحتمال، بل وحماقته. وأؤكد لكم أنه بالرغم من ذلك فإن بعض المعاندين سيصر أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو كاتب القرآن، وفي هذه الحالة نستطيع أن نسألهم: إذا كان سيدنا محمد رجلاً بارعاً، وإذا كان هو الذي كتب القرآن فلماذا لم يتفاخر بين صحابته وأبناء جيله على هذه العملية؟ لماذا لم يجن ثمار جهوده؟ لقد وصلتنا مئات الأحاديث الصحيحة وعشرات الألوف من الأحاديث المزيفة، وليس هناك أي ذكر لمثل هذه العلاقات الحسابية. إذن هذا الاحتمال الثاني لايجوز.

الاحتمال الوحيد المتبقي هو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل القرآن الكريم.

هل للرقم /١٩/ ذكر أو دلالة خاصة في القرآن الكريم، نعم إننا نجد الرقم /١٩/ في سورة المدثر، ونجده مذكوراً بالنسبة لأولئك الذين يدعون أن القرآن من قول البشر، فدعوني أقرأ هذه الآيات من سورة المدثر:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم: ذرني ومنْ خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنينَ شهوداً، ومهدت لهُ تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلاً إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ أي لم يتقبل آيات الله، ﴿سأرهقهُ صعوداً إنهُ فكّرَ وقدرَ﴾ لقد فكر عن القرآن، ﴿فقتل كيفَ قدّرَ﴾

﴿ثم نظرَ﴾، نظر إلى رسالة الله ﴿فعبسَ وبسرَ﴾ لم تعجبه ﴿ثم أدبرَ واستكبرَ فقال إن هذا إلاّ سحرٌ يؤثر، إن هذا إلا قولُ البشر﴾، كأن هذا مااستخلصه بعد أن فكر ونظر ودرس القرآن، قال: إنه من قول البشر، ماذا يحدث لهذا الشخص؟ ﴿سأصليه

سقَر، ومأأدراكَ ماسقر، لاتُبقي ولاتَذَر، لواحةٌ للبشر، عليها تسعةَ عَشَر﴾، إذن هذا الشخص يقرر أن القرآن الكريم من قول البشر وسيكون عذابه تحت إشراف تسعة عشر.

التفسير القديم لهذه الآية الكريمة ﴿عليها تسعةَ عَشَر﴾ أن التسعة عشر هم حراس وزبانية جهنم، إلا أننا في ضوء الآية التالية وفي ضوء المعلومات الجديدة هو أن التسعة عشر هي حروف البسملة، حروف الآية القرآنية الأولى، لأن هذه الحروف التسعة عشر تقدم الدليل الدامغ على أن القرآن الكريم لايمكن أن يكون من قول البشر، ماذا تقول الآية التالية؟ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ هذا الجزء من الآية قدم للأجيال الماضية التفسير المتقبل لهذه الأجيال لأن التسعة عشر، ربما يكون زبانية جهنم ولكن الآية تستمر فتقول ﴿وماجعلْنا عدتهم إلاّ﴾ أي ماجعلنا العدد تسعة عشر يختار إلا للأسباب التالية:

١ ـ فتنة للذين كفروا أي إزعاجاً لهم وهذه الحقائق فعلاً أزعجت وستزعج الذين كفروا، وماجعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا.

٢ ـ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، فهناك من أهل الكتاب من يرى أن القرآن الكريم كتاب لاغبار عليه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكنهم ليسوا متأكدين أنه من عند الله سبحانه وتعالى، فهذا هو السبب الثاني. لِيَستَيْقِنَ الذين أوتوا الكتاب.

٣ ـ ويزداد الذين آمنوا إيماناً فنحن نؤمن أن القرآن الكريم هو كلام الله وأنه رسالة خالقنا إلينا، ولكن بعد معرفة هذه الحقائق، يزداد الذين آمنوا إيماناً، يزداد إيماننا ويقوى.

٤ ـ ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، تزول كل الريبة ويزول كل الشك، من قلوبنا.

٥ ـ والسبب الأخير، ليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً.

وأنتم ستجدون هذه الحالة أنتم أنفسكم ستقابلون بعض الناس الذين سيقولون: وماذا يعني؟

وهذا السبب الخامس يصف الكافرين والمنافقين ويصف طبيعتهم العمياء، كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، ثم نجد الآية تقول: ﴿ومايعلمُ جنود ربّك إلاّ هو﴾، فهو فقط يعلم عدد زبانية جهنم، إذن العدد تسعة عشر ليس هو عدد زبانية

جهنم ولايعلم جنود ربك إلا هو وماهي إلا ذكرى للبشر. هذا مايظهر لنا في القرآن الكريم عن الرقم تسعة عشر. ومن الدلائل التي تؤيد هذا التفسير أن التسعة عشر وهي حروف البسملة مراجعتنا لترتيب نزول الوحي فأنتم تعلمون أن سيدنا جبريل عليه السلام عندا جاء بالوحي لأول مرة جاء بالآيات الأولى من سورة العلق(*)، ﴿اقرأْ باسم ربّكَ الذي خلقَ﴾ فهذه السورة هي برقم ١٩ من نهاية القرآن الكريم وتتكون هذه السورة من تسع عشرة آية فيكون جبريل عليه السلام قد احضر في المرة الأولى الآيات من سورة العلق وفي المرة الثانية أحضر الآيات القليلة الأولى من سورة القلم(**): ﴿ن والقلم ومايسطرون﴾. وفي المرة الثالثة.. أحضر الآيات القليلة الأولى من سورة المزمل(***): وفي المرة الرابعة أحضر هذه الآيات من سورة المدثر من قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾. حتى في السورة تجد فاصلاً واضحاً جداً بين هذه الآيات هذه حتى ﴿عليها تسعةَ عَشَر﴾ وبقية السورة. وفي المرة الخامسة. أتدرون ماذا أحضر الوحي الأمين؟ لقد أحضر التسعة عشر حرفاً ﴿بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم﴾، في إجماع العلماء. جاء الوحي الأمين في المرة الخامسة بسورة الفاتحة وكانت الفاتحة هي أول سورة كاملة ينزل بها سيدنا جبريل عليه السلام، إذن في ترتيب الوحي: الآية ﴿عليها تسعةَ عَشَر﴾ جاءت مباشرة بتسعة عشر حرفاً ﴿بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم﴾.

كما ترون فإن هذه الحقائق التي سمعناها حتى الآن تكفي لأن تثبت بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون من قول البشر، هذه واحدة، وأنه جاءنا سليماً كاملاً بدون أي تحريف أو تحوير أو زيادة أو نقصان، إنك عندما تقول ﴿قلْ هو اللّهُ أحدٌ﴾. كلمة «الله هنا معدودة، ومحسوبة، إنها واحدة من ٢٦٩٨ من كلمات الله التي نجدها في القرآن الكريم، وعندما تستمر قائلاً ﴿اللّهُ الصمدُ﴾ كلمة الله هنا أيضاً معدودة ومحسوبة. إذن إذا حدث أي تحريف أو تغيير في الـ/١٤٠٠/ سنة الماضية لكلمة مثل اسم أو باسم أو الله أو رحيم أو رحمن لاختل هذا النظام.. وفي القرآن

(*) فلو عددنا أحرف الآيات من (إقرأ باسم ربك الذي خلق... إلى علّم الإنسان مالم يعلم) لوجدنا أحرف هذه الآيات الكريمة ٧٦ حرفاً، من مكررات الرقم ١٩

(**) والآيات القليلة الأولى من سورة القلم، فلو عددنا أحرفها من (ن والقلم وما يسطرون) إلى (وهو أعلم بالمهتدين) لوجدناها ١٣٣ حرفاً فهي من مكررات الرقم ١٩

(***) والآيات الأولى من سورة (المزمل) من (ياأيها المزمل... إلى قوله تعالى ومهلهم قليلاً).. فعدد أحرف هذه الآيات ٢٦٦ حرفاً فهي من مكررات الرقم ١٩

نجد آية تقول ﴿لايؤاخذكمُ اللّهُ باللّغوِ في أيمانِكم ولكنْ يؤاخذِكُم بما كسبتْ قلوبُكم واللّهُ غفورٌ حليم﴾ والآية التي بعدَها مباشرة ﴿للّذين يُؤلونَ من نسائِهم تربص أربعة أشهر فإنْ فاؤوا فإنّ اللّهَ غفورٌ رحيم﴾ فتجد في آية ﴿غفورٌ حليم﴾ وفي التي بعدها ﴿غفورٌ رحيم﴾. هذه في هذا العصر نقول: «غفور رحيم» «غفور حليم» كلها أسماء الله ولكن في القرآن الكريم كلمة «رحيم» هنا معدودة إذا حدث أي تحوير يختل النظام. وبدل ١١٤ كلمة «رحيم» نجد ١١٥ أو ١١٣ . وهذا النظام حساس جداً لأن الـ ١١٥ أو ١١٣ ليست من مكررات الرقم /١٩/ فتجدون أن القرآن حفظ رغم أنه نزل بين البدو الذين لم يدرسوا علم المكتبات أو علم التنسيق ولم يتعمقوا في البحث العلمي، كان كاملاً غير منقوص، ورغم أن هذه الحقائق تكفي لإثبات أن القرآن لايمكن أن يكون من قول البشر، وأنه حفظ بعناية الله فإن الله سبحانه وتعالى يأبى إلا أن تكون حجته بالغة. ويتضح أن هذه الحقائق ليست إلا نقطة من محيط هذه المعجزة المادية إذ نجد ارتباطاً كاملاً تاماً بين بسم الله الرحمن الرحيم والحروف فواتح السور.. الحروف النورانية، أو فواتح السور أو الحروف الغامضة التي تبدأ بها بعض السور، فأعتقد أن هذا هو الوقت الذي أستطيع فيه ان أذكر العلاقة بين (اسم وبسم) في ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الكلمة «بسم» كانت أساساً هي «باسم» ولكن الألف غير موجودة، وهذا طبعاً كما أن الرحمن تكتب بدون الألف وهذا يؤثر على عدد الحروف في ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ونلاحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تتركب فقط من حروف نورانية . والحروف النورانية هي التي استعملت في فواتح السور، ماعدا الحرف (ب).

فباسم: فالحرف (أ) هو الحرف الأساسي. ولكن الباء ضرورية من أجل المعنى. ونجد أن كلمة باسم تتكرر في القرآن الكريم ثلاث مرات وكلمة «بسم تتكرر تسعة عشر مرة، ونجد أن الحروف المستعملة في فواتح السور عددها أربعة عشر، ولاتدخل في تركيب أربعة عشر فاتحة، وهذه الفواتح تتواجد في تسع وعشرين سورة. ١٤ حرف و١٤ فاتحة و٢٩ سورة نجمعها ٥٧ = ١٩ x ٣ . ١٩ عدد كلمات باسم. وهناك علاقة كما سنرى في المحاضرة.

فلنبدأ بحرف واحد من الحروف النورانية.. فواتح السور وليكن حرف القاف.

كما تعلمون: هذا الحرف يتواجد في سورتين اثنتين في القرآن الكريم «سورة ق وسورة الشورى حمعسق». وأنت إذا عددت الحرف ق في سورة «ق» لوجدته يتكرر ٥٧ مرة = ثلاثة أضعاف الرقم ١٩ .. ثلاثة أضعاف حروف البسملة. ثم إذا عددتم الحرف «ق» في السورة الوحيدة الأخرى التي تبدأ بهذا الحرف كفاتحة سورة الشورى ستجدون العدد أيضاً ٥٧ . نفس العدد ١٩ x ٣ وهذا بالرغم أن سورة الشورى أطول من سورة ق مرتين ونصفاً.

هذه المعجزة تلمسونها وترونها، ولتوضيح هذا الإعجاز بأن من الذي علم أن بين هذه الـ ١١٤ سورة، سورتي قاف والشورى يتواجد فيهما الحرف ق بعدد متساوٍ ٥٦ و ٥٦ لأن الله سبحانه وتعالى أضاف الحرف ق في بداية هاتين السورتين كرمز أو علامة أنه سبحانه وتعالى يعلم توزيع الحروف الأبجدية في رسالته ٥٧ و ٥٧ وإذا أضفت ٥٧ حرف (ق) في سورة ق إلى ٥٧ في سورة الشورى فإن المجموع ١١٤ عدد سور القرآن الكريم. فإذا كان الحرف ق يرمز إلى القرآن، وهذا احتمال قوي، فإن هذا يعني أن ١١٤ سورة هي القرآن كل القرآن ولاشيء غير القرآن، للتوضيح لأعطيكم مثالاً عن التحكم والإحكام في توزيع الحروف الأبجدية في القرآن الكريم سأسرد لكم آية قصيرة من سورة ق. الآية رقم ١٣ ﴿وعادٌ وفرعون وأخوان لوط﴾ هذه الآية قصيرة جداً نمر عليها مر الكرام، إلا أننا بدراستها نجد أن قوم لوط موجودون في القرآن الكريم ١٢ قوم لوط.. قوم لوط.. ماعدا سورة «ق» فإنهم يسمون إخوان لوط ﴿وعادٌ وفرعون وإخوان لوط﴾ وتستطيعون أن تدركوا مايحدث لو أن كلمة «قوم» استخدمت كما هي العادة في القرآن الكريم. طبعاً سيزداد الحرف ق في سورة ق ويصبح العدد ٥٨ ولايكون بعدها من مكررات الرقم ١٩ ، ويصبح غير مساوٍ لعدد الحرف ق في السورة الوحيدة الأخرى التي تفتتح بهذا الحرف أي يختل النظام ويختفي.

في خلال الألف وأربعمائة سنة الماضية. ترون أنه إذا حدث أي تحريف أو تحوير في كلمة واحدة: قد، قال، يقول قول، في سورة الشورى أو في سورة ق يختل النظام وتختفي هذه الظواهر الإعجازية.

ننتقل إلى حرف آخر النون ونجد هذا الحرف فاتحة في سورة واحدة في القرآن الكريم هي سورة القلم. وإذا عددتم الحرف ن في هذه السورة ستجدونه ١٣٣ . هذا الرقم

أيضاً من مكررات الرقم ١٩ . ١٣٣ = ١٩ x ٧

حرف (ص)

نجده في ثلاث سور: سورة الأعراف المص

- سورة مريم كهعيص وفي: سورة ص.

وإذا عددت الحرف ص في السور الثلاث. عدد مكررات الحرف في ثلاث سور تجد أن مجموعها ١٥٢ وهذا الرقم أيضاً من مكررات الرقم ١٩ ويساوي ١٩ x ٨ ويجدر بي هنا أن أضرب مثالاً آخر لنرى الإحكام في توزيع الحروف الأبجدية في القرآن الكريم، ﴿كتاب أحكمت آياته ثمّ فصّلت منْ لدنِ حكيم خبير﴾ وفي الآية ٦٩ من سورة الأعراف نجد التعبير ﴿وزادَكُم في الخلقِ بَصطَة﴾ بصطة بالصاد، ويعلمنا العلماء أن كلمة «بصطة» بالصاد توقيفية أي أنها بامر من الله سبحانه وتعالى، عندما جاء سيدنا جبريل بهذه الآية فإنه قال لسيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام: قل لكتاب الوحي يكتبوا هذه الكلمة بالصاد وليس بالسين: وزادكم في الخلق بصطةً بالرغم من أن اللغة العربية لاتحوي كلها كلمة بصطة بالصّاد كما أنه يوجد كلمة بسطة في سورة البقرة مكتوبة بالسين فتكون كلمة بصطة توقيفية اذن لاتستطيعون أن تدركوا ماذا يحدث مرة أخرى إذا كتبت بالسين كما نكتبها نحن أو كما هي في اللغة العربية، ١٥٢ حرف صاد ستصبح ١٥١ ويختل النظام مرة أخرى، وتلاحظون أن هذه الكلمات الخاصة كلمات لايحدث بها اي التباس ونجد أيضاً على سبيل المثال ﴿إن أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للنّاس لَلّذي بِبَكّة﴾ نعرف أنها مكة ولانلاحظ أن هذه الكلمة «بكة» توجد في سورة تبدأ بالحرف م، كسورة آل عمران الم، ونجد أن عدد الحرف م عدد حرج ويتبع هذه القاعدة، فهذا يعطينا فكرة عن الإحكام والتحكم في كل حرف من حروف القرآن الكريم، عندما ننتقل إلى السور ذات الفواتح المتعددة الحروف نجد ظاهرة غاية في الإعجاز، إذ نجد أن الحروف عندما نجمعها ليس فقط في نفس السورة نجدها من مكررات الرقم ١٩ . ولكن أيضاً في السور المختلفة التي يوجد فيها نفس الحرف مثلاً الحرف (ألف) موجود في ١٣ سورة، وإذا جمعت هذا الحرف في الـ ١٣ سورة لوجدت العدد من مكررات الرقم ١٩ . حرف اللام موجود في ١٧ سورة إذا جمعته تجده من مكررات الرقم ١٩ . كذلك الحرف (ا) إذا جمعت من خلال السورة نفسها تجد العدد من مكررات الرقم ١٩ فهذه الظاهرة متشابكة تعني إعجازاً لاأستطيع التعبير

عنه، مثلاً في سورة «طه» هذه أول سورة ذات حرفين ط وه إذا عددت الحرف ط والحرف هـ في هذه السورة لوجدت المجموع ٣٤١ = ١٩ x ١٨ ولكنك أيضاً إذا جمعت الحرف ط في جميع السور التي يتواجد فيها هذا الحرف كفاتحة وهي سورة «طه» الشعراء طسم، والنمل طس والقصص طسم وجدت العدد ١٠٧ ويضاف إليه الحرف هـ في السورتين سورة طه وسورة مريم كهيعص تجد مجموع الهاء ٤٨٢ ومجموع الاثنين: كل الـ ط وكل هـ = ٥٨٩ = ١٩ x ٣١

وهكذا فإنك إذا جمعت ط + هـ في سورة طه تجده من مكررات الرقم ١٩ وتجمع كل الـ ط في كل السور التي يأتي فيها وكل الهاء في السور التي فيها حرف الهاء تجدهما أيضاً ١٩.

نفس الشيء في الحرفين ي س . تجد إذا عددت الحرف ياء + س في سورة يس تجد المجموع ٢٨٥ = ١٩ x ١٥ . وأيضاً إذا جمعت الياء في السور التي تبدأ بها مثل مريم ويس، وأضفت هذا إلى السور التي يتكرر فيها الحرف س مثل يس والشعراء طسم والنمل طس والقصص طسم والشورى حمعسق كل السينات في السور التي يتواجد فيها إذا جمعت ي + س تجد أيضاً المجموع من مكررات الرقم ١٩.

وهكذا فإنّ هذه القاعدة تسري على جميع الحروف بلا استثناء، والفواتح بدون استثناء، ارتباط الرقم ١٩ عدد حروف البسملة وجميع الفواتح، وأذكر الحرفين حم. نجد هنا أن الحرفين في سبعة سور كما تعلمون وإذا عددنا حرف الحاء + حرف الميم نجد أن مجموع الحاء وحدها من مكررات الرقم ١٩ ومجموع الميم من مكررات الرقم ١٩ وطبعاً مجموع الاثنين حم نجده ٢١٦٦ مجموع الحاء + الميم بسبع سور ورقم ٢١٦٦ يقسم على رقم ١٩ مائة وأربع عشرة مرة أي ١١٤ . ورقم ١٩ يساوي عدد حروف البسملة x ١١٤ عدد سور القرآن، ولعل هذا له دلالة خاصة أن الـ حم نحن نعلم أن دعاء النصر لسيد الخلق عليه الصلاة والسلام كان قراءة الـ حم سبع مرات ثم يقول: حم الأمر وجاء النصر فعلينا لاينصرون، وهكذا أيها الأخوة نجد مصداقاً لقوله تعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾ ونستطيع أن ندرك معنى آيات مثل ﴿قلْ لَئِن اجتمعت الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لايأتونَ بمثلِهِ ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً﴾ ونستطيع أن ندرك بعض الإدراك معنى الآية ﴿لو أنزلْنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشيةِ اللّه﴾ والتوقيت لظهور هذه

المنجزات القرآنية التي شاء الله سبحانه وتعالى أن يشهدها جيلنا والأجيال المستقبلية توقيتٌ موفق لأن المستشرقين والمبشرين واليهود حتى منظمة علمية مثل منظمة اليونسكو يهاجمون القرآن ويقولون إنه من قول البشر أو من تأليف اليهود الخ، فهذه الحقائق ترد عليهم بالدليل الدامغ الذي لايقبل النقاش، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن تظهر هذه النتائج في أمريكا بين العالم المادي وباستخدام أحدث مخترعاتهم المادية وضعها الله سبحانه وتعالى في خدمة رسالته، وهم أناس يؤمنون بالماديات، وهذه الحقائق أيضاً تثبت أن القرآن الكريم رسالة الله سبحانه وتعالى إلى جميع الناس كافة لأن هذه الحقائق لاتتطلب معرفة اللغة العربية، كل مايريده وكل مايحتاجه الإنسان الأمريكي أو الياباني أو الفرنسي هو معرفة مثلاً الحرف (ق) حرف واحد ثم يعده في سورة (ق) أو في سورة الشورى ويجد نفس العدد ٥٧ و٥٧ وهي من مكررات ١٩ .

هذا لايحتاج إلى اللغة العربية، ثم يستطيع أن يدرك أن هذا لايمكن أن يكون من تصميم البشر، فندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى الاستجابة إلى هذه الحقائق بالعمل على دراسة هذه الرسالة العظيمة، رسالة الله سبحانه وتعالى إلينا والائتمار بأوامرها والانتهاء عن نواهيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنتهى قول الدكتور محمد رشاد خليفة جزاه الله سبحانه وتعالى عنا وعن المسلمين خيراً.

ونحن نضيف هنا جدولاً لافتتاحية السور المبتدئة بالأحرف النورانية التسعة والعشرين كي أوضح وأسهل على القارئ الكريم.

ومن المشاهد المحسوس من الأحرف النورانية التي هي في أوائل السور التسعة والعشرين جميعها مكررة ماعدا حرفين اثنين هما الكاف والنون.

والكاف والنون لو ضمتا إلى بعض، لكونتا كلمة «كن» وكن هي أمر الله سبحانه وتعالى لكل شيءٍ أو فعل يريد أن يوجده، ولايمكن أن يتكرر هذا الأمر من أجل وجود الشيء. بل يصدر مرة واحدة فقط فتكون النتيجة حتمية بوجوده، قوله تعالى:

﴿إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ له كنْ فيكون﴾

وأما بالنسبة للأشياء التي أوجدت نتيجة أوامر الله سبحانه وتعالى فإنها مكررة، لأنك ترى الأشياء المخلوقة متعددة الأنواع والألوان والأجناس وحتى من الجنس الواحد واللون الواحد، والجنس الواحد كالإنسان والحيوان والجماد والأجرام السماوية الخ..

وهكذا بالنسبة لبقية الأحرف المتكررة

جدول السور التسع والعشرين

الأحرف النورانية	السورة	العدد (٢٩)
أ ل م	البقرة	١
أ ل م	آل عمران	٢
أ ل م ص	الأعراف	٣
أ ل ر	يونس	٤
أ ل ر	هود	٥
أ ل ر	يوسف	٦
أ ل م ر	الرعد	٧
أ ل ر	ابراهيم	٨
أ ل ر	الحجر	٩
ك هـ ي ع ص	مريم	١٠
ط هـ	طه	١١
ط س م	الشعراء	١٢
ط س	النمل	١٣
ط س م	القصص	١٤
أ ل م	العنكبوت	١٥
أ ل م	الروم	١٦
أ ل م	لقمان	١٧
أ ل م	السجدة	١٨
ي س	يس	١٩
ص	ص	٢٠
ح م	المؤمن	٢١
ح م	فصلت	٢٢
ح م ع س ق	الشورى	٢٣
ح م	الزخرف	٢٤
ح م	الدخان	٢٥
ح م	الجاثية	٢٦
ح م	الأحقاف	٢٧
ق	ق	٢٨
ن	القلم	٢٩

فيكون المجموع ٧٨ حرفاً.

ولذا تراها مكررة على الشكل التالي:

حرف م مكرر	١٧
حرف ا مكرر	١٣
حرف ل مكرر	١٣
حرف ح مكرر	٧
حرف ر مكرر	٦
حرف س مكرر	٥
حرف ص مكرر	٣
حرف ط مكرر	٤
حرف ع مكرر	٢
حرف ق مكرر	٢
حرف هـ مكرر	٢
حرف ي مكرر	٢
حرف ك مكرر	١
حرف ن مكرر	١

فيكون المجموع ستة وسبعين حرفاً ماعدا الكاف والنون، والرقم «٧٦» مقسوم على الرقم (١٩).

لاتستطيع أيها القارئ الكريم بعد هذه الجولة المباركة التي جلناها معاً في ألفاظ القرآن الكريم وفي حروفه وفي عد وإحصاء هذه الحروف إلا أن تقر وتعترف بأنه أمر أراده الله وكلما تعمقت في هذا البحث يزداد إعجابك من هذه القدرة الفائقة لأن التساوي العددي والتوازن الرقمي والتناسب الحسابي في كل موضوعات القرآن الكريم أمرٌ لاتستطيع الطاقة البشرية أن تحيط به ذكراً ولا أن تستوعبه توضيحاً وتبياناً، لأنه أمر أعمق وأوسع وأكبر من قدرة الإنسان، وهذا ظاهر وليس بخافٍ، فالقرآن الكريم كلام الله فمن يمكنه الإحاطة بأمره والإلمام بشأنه والوقوف على سيره؟

وإليكم بعض ماذكره الدكتور عبد الرزاق نوفل حول الإعجاز العددي في القرآن الكريم.

يقول من حيث الخلق

يتساوى في القرآن الكريم عدد مرات ذكر الدنيا وعدد مرات ذكر الآخرة.

١ ـ إذ تكررت كل منهما ١١٥ مرة في القرآن الكريم رغم اختلاف معظم الآيات التي وردت فيها الدنيا عن تلك التي وردت فيها الآخرة.

٢ ـ يتساوى عدد ذكر الملائكة وعدد ذكر الشياطين إذ وردت كل من اللفظتين ٨٨ مرة.

٣ ـ يتساوى ذكر الحياة والموت ١٤٥ مرة.

٤ ـ يتساوى عدد ذكر الناس مع ذكر الرسل ٣٦٨ مرة.

٥ ـ يتساوى لفظ قالوا وهو جمع ماقاله الخلق جميعاً من بشر وملائكة وجنٍ في الدنيا والآخرة مع لفظ (قل) وهو الأمر من الله لكل من خلقه ٣٣٢ .

الحساب:

ورد ذكر لفظ الشهر ١٢ مرة أي عدد أشهر السنة.

ورد ذكر لفظ اليوم ٣٦٥ مرة أي عدد أيام السنة.

من حيث الأفعال والمنافع والمساوئ:

١ ـ الصالحات ذكرت ١٨٠ مرة بقدر ماتكررت السيئات

٢ ـ والنفع ذكر ٥٠ مرة بقدر ماتكرر لفظ الفساد

٣ ـ والصبر ذكر ١٠٢ مرة بقدر ماذكرت الشدة

٤ ـ والهدى ذكرت ٧٩ مرة بقدر ماذكرت الرحمة

٥ ـ والجزاء تكرر ١١٧ مرة ولكن المغفرة وردت ضعف هذا العدد أي ٢٣٤ مرة.

٦ ـ ولفظ (العسر) تكرر ١٢ مرة ولكن لفظ (اليسر) ثلاثة أضعاف هذا العدد أي ٣٦ مرة.

ونختم هذا البحث: بلفظ الإيمان ومشتقاته تكرر ٨١١ مرة والعلم ومشتقاته والمعرفة ومشتقاتها ٨١١ مرة.

ولكن الكفر ومشتقاته والضلال ومشتقاته تكرر ٦٩٧ مرة أي أن الفارق بين الإيمان من جهة والكفر والضلال من جهة أخرى هو ١١٤ أي بعدد سور القرآن الكريم ومقسوم على عدد رقم ١٩ .

وهذا يدل دلالة راسخة لاريب فيها ولالبس لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، إن الذي قضى هذه السموات سبعاً وجعل فيها بروجاً وشمساً وقمراً منيراً، وأقام دورانها كلها على الرقم ١٩ * هو هو الذي أنزل هذا القرآن المجيد وأقام أحرفه على الرقم ١٩ *، ألم تر أن الذي خلق عين الإنسان هو هو الذي خلق الشمس والقمر، فهذا الضياء عبث لولا هذه العين، وهذه العين عبث لولا هذا الضياء فتدل حاجتهما لبعضهما بالنسبة للرؤيا أن خالقهما واحد، كالمفتاح وقفله اتساقاً يدل على أن صانعهما واحد. فالمفتاح عبث لولا هذا القفل، والقفل عبث لولا هذا المفتاح، وهكذا نستخلص العبرة من الرقم ١٩ * الذي جعله الله سبحانه وتعالى فتنة للذين كفروا ليستقين الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً أنه هو الذي جعل الشمس والقمر يقترنان بدورانهما كل ١٩ * سنة.

وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿يسألونكَ عن الأَهِلّةِ قلْ هي مواقيتُ للناس﴾

﴿الشمسُ والقمرُ بِحُسبان﴾

﴿وجعلْنا الليلَ والنهارَ آيتَيْن فمحَوْنا آيةَ الليل وجعلْنا آيةَ النهار مبصرةً لِتَبتغوا فضلاً منْ ربِّكم ولِتعلَموا عددَ السنين والحساب وكلّ شيء فصّلناه تفصيلا﴾

تحقيقات وهوامش على الإعجاز العددي:

يقول الأستاذ صدقي البيك

١ ـ لاحظت قبل كل شيء أن الدكتور محمد رشاد خليفة اعتمد في عمله على الحروف المرسومة في البسملة لا الملفوظة، فالحروف الملفوظة في البسملة ١٨ حرفاً، بينما المرسومة ١٩ حرفاً، وهذا يعني أنه ينطلق من أن رسم القرآن توقيفي عن الله عز وجل، وبذلك يقول عدد كبير من العلماء.

٢ ـ إن الدكتور رشاد خليفة اعتمد في احصائه كلمات البسملة على أن البسملة آية من الفاتحة فقط، ولذلك لم يحص كلمات البسملات الواردة في أوائل السور الأخرى وعددها ١١٢ . وهو في ذلك يتابع المصاحف المتعددة التي رقمت الآيات فيها، كما يتابع في ذلك الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي صاحب كتاب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».

ولكنه في احصائه للحروف النورانية في السور المبدوءة بهذه الحروف عد البسملة جزءاً من السورة.

وهكذا فهو عندما تعامل مع القرآن بشكل كامل وأحصى الكلمات الواردة من كلمات البسملة نظر إليه ككل وحسب البسملة في أوله فقط (في أول سورة منه وهي بسملة سورة الفاتحة) وعندما كان يتعامل مع السورة الواحدة من سور القرآن كان يحسب البسملة في تلك السورة ويحصي حروفها.

ومن المعروف أن للعلماء ثلاثة آراء في البسملة، فهناك من يرى أنها آية في أول الفاتحة فقط، وهناك من يرى أنها ليست أية في أول أية سورة بما في ذلك الفاتحة، وهناك رأي ثالث يرى أنها آية في كل السور التي وردت في أولها، وكأن الدكتور رشاد خليفة أخذ بالرأيين الأول والأخير معاً.

٣ ـ ولكي أتأكد من صحة الاعداد التي ذكرها عن كلمات البسملة، عدت إلى المعجم المفهرس كما أشار هو في محاضرته، وإلى كتاب (المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته) لمحمد فارس بركات طبع دمشق، وبعد التوفيق بين الكتابين (لما بينهما من اختلافات في مناهج العمل) وجدت أن كلمة (الرحمن) وردت فعلاً ٥٧ مرة كما ذكر الدكتور.

وأما كلمة (الله) فقد وجدت أنها وردت في ثلاث مجموعات (٨٩٠) مرة في حالة الرفع و (٥٩٢) مرة في حالة النصب و (١١٢٥) مرة في حالة الجر والمجموع (٢٦٩٧) وهذا أقل من العدد الذي ذكره الدكتور بمرة واحدة، فافترضت أن هناك خطأ في عملية احصاء صاحب المعجم، ولكن كيف يمكن اكتشاف هذا الخطأ في ثنايا أكثر من ألفي موضع؟ إلا أن الله هداني إلى معرفة مكان هذا الخطأ، فقد تبين لي أن صاحب المعجم سها عن احصاء «الله» في حالة الجر وبما أنه أحصى كلمات البسملة بسم، الرحمن، الرحيم فلا بد من إحصاء كلمة الله أيضاً.

وبذلك يكتمل العدد الذي ذكره الدكتور ٢٦٩٨ وهو من مضاعفات ١٩ .

وأما كلمة الرحيم فقد لاحظت أنها واردة في المعجم في مجموعتين: الرحيم ٩٥ مرة، ورحيماً ٢٠ مرة والمجموع ١١٥ مرة وهذا يزيد عما ذكره الدكتور بمرة واحدة، فقدرت أن الذي يحقق المضاعفات هو العدد ٩٥ وهو مرات ورود كلمة الرحيم ورحيم، والأَوْلىٰ عدم إدخال كلمة «رحيماً» في الاحصاء لأن صورتها مغايرة للكلمة

الواردة في البسملة «الرحيم» بزيادة ألف تنوين النصب.

ولكنني عندما اتصلت بالدكتور رشاد خليفة برسالة أرسلتها إليه في أمريكا، وسألته فيها عن كل الاستفسارات التي حاكت في النفس سواء وجدت لها تفسيراً أو تعليلاً أم لم أجد.. رد على رسالتي برسالة جوابية أجابني فيها مشكوراً عن بعض الاستفسارات، ومنها كلمة «الرحيم» ذكر في إجابته أن العدد هو ١١٤ مرة واما المرة التي لم يحصها فهي كلمة «رحيم» الورادة في الآية ١٢٨ من سورة التوبة في قوله تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فهذه الكلمة صفة للرسول صلى الله عليه وسلم وليست اسماً من أسماء الله تعالى، فيجب أن لاتحصى، وبذلك يبقى العدد ١١٤ .

وأما كلمة «اسم» فقد وجدت أنها واردة في مجموعتين «غير كلمة اسمه» اسم ١٩ مرة و: بسم ثلاث مرات والمجموع ٢٢ مرة وهذا مغاير لما ذكره الدكتور، وقد علل ذلك في رسالته الجوابية «وذلك موجود في المحاضرة أيضاً» بالشكل التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم كل حروفها نورانية «من الحروف المقطعة في أوائل السور ماعدا الباء، وكلمة اسم «بالألف» هي الكلمة الرسمية، ولذلك أحصى كلمات «اسم» الواردة في القرآن بهمزة في أولها فكانت ١٩ مرة، وأما كلمة «بسم» بدون همزة وصل، فقد وردت ثلاث مرات، اسم ١٩ مرة x ٣ بسم = ٥٧ وهذا العدد يساوي مجموع مايلي:

١٤ حرفاً عدد الحروف النورانية + ١٤ سورة لفواتح السور + ٢٩ مرة عدد السور التي افتتحت بحروف مقطعة =٥٧ ومع ذلك فقد خرجت القضية تخريجاً آخر.

فنحن وجدنا ٢٢ مرة وردت فيها كلمة اسم، منها كلمة «الاسم» وهو ليس من الألفاظ الدالة على اسم الله وذلك في قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ولاتنابزوا بالألقاب بئسَ الاسم الفسوقُ بعد الإيمان﴾ ومنها مرتان أيضاً وردت فيهما كلمة اسم الله منفية وذلك في قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿ولاتأكلوا مّما لم يُذكَرُ اسمُ اللهِ عليه وإنّه لَفسقٌ﴾ ١٢١ وقوله تعالى ﴿وأنعام لايذكرون اسمَ اللهِ عليها..﴾ ١٣٨ من السورة ذاتها. فإذا حذفنا هذه المرات الثلاث يبقى ١٩ وهو العدد الموافق لما ذكره الدكتور.

وهكذا يطمئن القلب إلى صحة أرقام الدكتور ونتائجه.

٤ ـ وعندما وصلت إلى الحروف المقطعة في أوائل السور، وبدأت باحصائها. وجدت

مشقة كبيرة في الاحصاء لصعوبته، وكان ذلك يقتضي مني عدة عمليات للحرف الواحد حتى أتأكد من صحة الأعداد، وفي كل عمليات الاحصاء الأولية تقريباً كنت أصل إلى نتائج أقل مما ذكره الدكتور، ومع التكرار تتكشف الحروف التي نسيت احصاءها. ولقد أحصيت حرف الراء في السور التي ورد فيها ووجدت نقصاً عندي عما ذكره الدكتور في كل سورة بحرفين، وهذا النقص في العدد عندي ناشئ من عدم احصاء حرفي الراء في البسملة من كل سورة؛ فإذا ضممت «ر» الرحمن و «ر» الرحيم للعدد الذي وصلت إليه اكتمل العدد. مثلاً الرعد ١٣٥ ر و ٢ ر من البسملة = ١٣٧ مطابق لما ذكره الدكتور في جدوله. وكذلك في سورة ابراهيم:

١٥٨ ر + ٢ ر من البسملة = ١٦٠ وهكذا.

٥ ـ أحصيت حروف النون في سورة القلم مع الاعتماد على النون فقط؛ أما التنوين فلم يحسب «والنون المشددة ومثل ذلك كل الحروف الأخرى المشددة» حسبت حرفاً؛ وبعد تكرار العملية عدة مرات وفي مصاحف متعددة لم أصل إلا إلى العدد ١٣١ وهذا يقل حرفين عما ذكره الدكتور ١٣٣ ولايمكن تعويض هذا النقص لا بالنون المشددة ولابالتنوين لأن هناك أكثر من عشرين نوناً مشددة ثم أحصيت النون الثانية من قولنا في مطلع السورة «نون» وقد وافقني الدكتور خليفة على احصاء النون الثانية هذه وقال في رسالته الجوابية عندما سألته عن هذه النقطة: إن الفواتح تكتب هكذا: ألف لام ميم، وتحصى فيها الألف، واللام مرتين والميم ثلاث مرات.

وأما النون الأخيرة فهي نون كلمة الرحمن من البسملة في أول القلم، لأن الدكتور خليفة كما أعلمني، يعد البسملة جزءاً لايتجزأ من السورة التي ترد البسملة في أولها، عند احصائه للحروف.

٦ ـ وفي احصاء الحروف الثلاثة في سورة الشورى: عسق وجدت أن عدد هذه الحروف مفصلة: ٩٨ ع + ٥٣ س + ٥٧ ق = ٢٠٨ . وهذا يقل عما ذكره الدكتور بحرف واحد، فإذا أحصينا السين من كلمة اسم في البسملة اكتمل العدد ٢٠٩ . ولكنني أنبه هنا إلى أن الدكتور في جدوله ذكر ٩٩ ع + ٥٣ س + ٥٧ ق = ٢٠٩ وأما أنا فأجد ٩٨ ع زائد ٥٤ س زائد ٥٧ ق = ٢٠٩

٧ ـ في سورة (يس) وجدت عدد حروف السين (٤٧) وأما الياء فقد ضممت إليها الألف المقصورة والياءات التي رسمت عليها الهمزة (طائركم. أئن، لئن، الأرائك) ولم

تحسب همزات (شيئاً، يستهزئون، متكئون، يسئلكم) لأنها لم ترد في هذه السورة ولافي غيرها مرسومة على ياء وإنما وردت هكذا (شيئاً، يستهزؤون متكؤون، يسئلكم) فكان عدد الياءات (٢١٢) ي والألفات المقصورة (٢٠) والياءات المرسوم عليها همزة ٤ المجموع ٢٣٦ ياء.

ولابد هنا من التنبيه إلى أن هناك كلمتين اختلف رسمهما بين طبعة المصحف في القاهرة وطبعته في دمشق وطهران واستنبول، وهما كلمتا (نحيي، يحيي) الواردتان في هذه السورة آية ٦٢ وآية ٧٨ ، فإنهما كتبتا بياء واحدة بعد الحاء في طبعة القاهرة التي اعتمد عليها الدكتور هكذا نحي، يحي بينما رسمتا في طبعات غير القاهرة بياءين بعد الحاء هكذا (نحيي، يحيي)، واحصائي المذكور معتمد على طبعة القاهرة، فإذا ضممنا إليه السين من كلمة اسم والياء من كلمة الرحيم في البسملة صار العدد كالتالي:

٤٧ زائد ١ س زائد ٢٣٦ زائد ١ ي = ٢٨٥ حرفاً.

وهذا يوافق عدد الدكتور جملة وتفصيلاً

٨ - وفي احصاء حرف الياء في سورة مريم وجدت عدد الياءات هو ٣٤٣ داخلاً فيه ياء الرحيم، مع التنبيه إلى شمول الياءات للألفات المقصورة أيضاً والياءات التي رسمت عليها همزة، والتنبيه إلى احصاء (ياء) واحدة فقط في (النبيين، ورائي) لأنهما وردتا هكذا (النبيّن) في كل طبعات المصاحف و (وراءي) في طبعة القاهرة المعتمدة، وكذلك لم تحسب ياء همزة (اسرائيل ورئيا) لأنهما وردتا هكذا «اسراءيل، رءيا»، وهناك كلمة (أوصاني) رسمت في غير طبعة القاهرة بألف قبل النون، بينما رسمت في طبعة القاهرة بدون هذه الألف وبدون سِنَّة للياء أيضاً هكذا (أوصٰني) فلم أحسبها ياء.

أما الهاء فقد ضممت إليها التاء المربوطة وحسبتها هاء، وعند سؤال الدكتور خليفة عن هذا الرأي وافقني عليه. وقال لي: التاء المربوطة = هاء. وضممت إليها هاء (الله) من البسملة فكان المجموع ١٧٥ وهذا العدد يزيد عما ذكره الدكتور في الجدول (١٦٨)، ولكن يقابله نقص عندي في احصاء حرف العين، فهو عنده ١٢٢ وعندي بعد تكرار العد مرات ومرات ١١٧ ع وبذلك يصبح العدد عندي كالتالي:

١٣٧ ك + ١٧٥ هـ + ٣٤٣ ي + ١١٧ ع + ٢٦ ص = ٧٩٨

وهو موافق في مجموعه لما ذكر الدكتور.

٢٢ ـ رسالة موسى عليه السلام بدليل القرآن وهل التوراة كتاب موسى؟

ماهي رسالة موسى عليه السلام بدليل القرآن؟ وهل كانت رسالته هي كتابه؟ وهل كتاب موسى هو كتاب التوراة؟ أم كتاب آخر؟

إن الآيات التي تتحدث عن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم أكثر من أن تعد، وبحسبنا أن نذكر أن اسم موسى ورد في القرآن الكريم: ١٣٦ مرة، وفي كل القرآن لم يرد أن الله تعالى أرسل التوراة إلى موسى، والغريب أن نرى لدى المسلمين عندنا اعتقاداً شبه جازم أو يقيني بأن التوراة هي كتاب موسى.

لو أحصينا الآيات التي وردت فيها إشارات لكتاب موسى في القرآن لوجدناها الآتية:

﴿وإذْ آتينا موسى الكتابَ والفُرقانَ لعلّكم تهتدون﴾(١)

﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعدِه بالرّسل﴾(٢)

﴿وما أُوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيّون من ربّهم﴾(٣)

﴿وماأوتي موسى وعيسى والنّبيّون من ربّهم﴾(٤)

﴿قلْ من أنزَل الكتابَ الذي جاءَ به موسى نوراً وهدىً للنّاس﴾(٥)

﴿ثمّ آتينا موسى الكتابَ تماماً على الّذي أحسن﴾(٦)

﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِفَ فيه﴾(٧)

﴿وآتينا موسى الكتابَ وجعلْناه هدىً لبني إسرائيل﴾(٨)

﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفُرقانَ وضياءً وذكراً للمتّقين﴾(٩)

﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ لعلّهم يهتدون﴾(١٠)

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلْنا معه أخاه هارونَ وزيراً﴾(١١)

---

(١) سورة البقرة: ٥٣
(٢) سورة البقرة: ٨٧
(٣) سورة البقرة: ١٣٦
(٤) سورة آل عمران: ٨٤
(٥) سورة الأنعام: ٩١
(٦) سورة الأنعام: ١٥٤
(٧) سورة هود: ١١٠
(٨) سورة الإسراء: ٢
(٩) سورة الأنبياء: ٤٨
(١٠) سورة المؤمنون: ٤٩
(١١) سورة الفرقان: ٣٥

﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعدِ ماأهلَكْنا القرونَ الأولى﴾(١٢)
﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ فلا تكن في مرْيةٍ من لقائِهِ﴾(١٣)
﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورَثْنا بني إسرائيل الكتابَ﴾(١٤)
﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِفَ فيه﴾(١٥)
﴿ومن قبلِه كتاب موسى إماماً ورحمة﴾(١٦)
﴿إن هذا لَفي الصُّحفِ الأولى * صُحفِ إبراهيم وموسى﴾(١٧)

فالآيات السابقة كلها تشير إلى مصحف أو صحف أو كتاب وهي سبع عشرة آية، وكلها تنعت ماأنزل على موسى بالكتاب إلا الآية الأخيرة التي تسميه صحف موسى، مثل صحف إبراهيم. أما التوراة فلم تذكر مرة واحدة مقرونة باسم موسى عليه السلام.

كيف ورد اسم التوراة في القرآن الكريم؟ لنقرأ الآيات الآتية:

﴿وأَنزلَ التوراةَ والإنجيل﴾(١٨)
﴿ويعلّمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل﴾(١٩)
﴿ومصدقاً لِمَا بين يديَّ من التوراةِ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم﴾(٢٠)
﴿ياأهلَ الكتاب لِمَ تُحاجّون في إبراهيم وماأُنزِلَتْ التّوراةُ والإنجيل إلاّ من بعدِه﴾(٢١)
﴿إلاّ ماحرّم إسرائيل على نفسِهِ من قبل أنْ تنزلَ التّوراة﴾(٢٢)
﴿قلْ فأتوا بالتوراةِ فاتْلوها إن كنتم صادقين﴾(٢٣)
﴿وكيف يحكمونك وعندَهم التوراةُ فيها حُكمُ الله﴾(٢٤)
﴿إنّا أنزلْنا التوراةَ فيها هدىً ونورٌ﴾(٢٥)
﴿وقَفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريمَ مصدّقاً لما بين يَدَيْه من التوراة﴾(٢٦)

---

(١٢) سورة القصص: ٤٣
(١٣) سورة السجدة: ٢٣
(١٤) سورة غافر: ٥٣
(١٥) سورة فصلت: ٤٥
(١٦) سورة الأحقاف: ١٢
(١٧) سورة الأعلى: ١٨ ـ ١٩
(١٨) سورة آل عمران: ٣
(١٩) سورة آل عمران: ٤٨
(٢٠) سورة آل عمران: ٥٠
(٢١) سورة آل عمران: ٦٥
(٢٢) سورة آل عمران: ٩٣
(٢٣) سورة آل عمران: ٩٣
(٢٤) سورة المائدة: ٤٣
(٢٥) سورة المائدة: ٤٤
(٢٦) سورة المائدة: ٤٦

﴿وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ ومصدّقاً لما بين يَدَيْه من التوراة﴾[٢٧]

﴿ولو أنّهم أقاموا التوراةَ والإنجيل ومأأنزلَ إليهم من ربّهم لأَكَلوا من فَوقِهِم ومن تحتِ أرجلِهِم﴾[٢٨]

﴿قلْ ياأهلَ الكتاب لستم على شيءٍ حتى تُقيموا التّوراةَ والإنجيلَ﴾[٢٩]

﴿وإذْ علمتكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ﴾[٣٠]

﴿وعداً عليه حقّاً في التّوراة والإنجيلِ والقرآن﴾[٣١]

﴿ذلك مثلُهم في التوراة﴾[٣٢]

﴿إنّي رسولُ الله إليكم مصدّقاً لِمَا بين يديّ من التوراة﴾[٣٣]

﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾[٣٤]

وهكذا نجد أن التوراة لم تُذْكَرْ إلا بصيغتها كتاباً لأهل الكتاب علّمه الله تعالى بعد ذلك لرسوله عيسى بن مريم عليه السلام.

إذا لم تكن التوراة كتاب موسى عليه السلام فما هي إذاً؟

إذا عدنا إلى الكتاب المقدس الذي يسميه أهل الكتاب بالعهد القديم وجدنا مايرادف قولنا التوراة في القرآن. ومن هذا الكتاب نكتشف أننا نحن المسلمين فقط من وقع في الالتباس، فالكتاب المقدس الذي يسمّى العهد القديم مؤلف من عدة أسفار منها سفر عنوانه: سفر الخروج، يشرح قصة موسى مع فرعون وكيف خرج بنو إسرائيل من مصر إلى سيناء. وماورد فيه عن هذا الموضوع مطابق لما جاء في القرآن من حيث المحتوى لامن حيث الأسلوب، لأن اليهود أعادوا كتابة هذا السفر نقلاً عن الروايات المدونة بالعبرية القديمة[*] وهي لغة غير مشكولة قابلة لعدة قراءات، وقد ورد في قصة الحضارة الجزء الثاني ص ٣٦٦ مايلي:

«فدعا عزرا، وهو كاهن عالم، اليهود إلى اجتماع خطير، وقد أخذ يقرأ عليهم هو وسبعة من الكهان سفر شريعة موسى من مطلع النهار إلى منتصفه، ولما فرغوا من قراءته

(*) كما ورد في مقدمة الكتاب المقدس ص ٥٣ الطبعة اليسوعية، تحت عنوان ج: تشويه النصوص.

(٢٧) سورة المائدة: ٤٦
(٢٨) سورة المائدة: ٦٦
(٢٩) سورة المائدة: ٦٨
(٣٠) سورة المائدة: ١١٠
(٣١) سورة التوبة: ١١١
(٣٢) سورة الفتح: ٢٩
(٣٣) سورة الصف: ٦
(٣٤) سورة الجمعة: ٥

أقسم الكهان والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم..» بينما نجد في الكتاب المقدس أسفاراً أخرى لعدد من الأنبياء مثل حزقيال.. ومنهم مَنْ يتجاهل من التوراة عدداً من الأسفار ولايعترف إلا بالأسفار التي تتضمن شريعة موسى، وهكذا نرى أن التوراة التي بين أيدي اليهود حالياً هي أكبر بكثير من تصورنا نحن المسلمين، فكتاب موسى إن وافقنا التقليد اليهودي هو خمسة أسفار من ٣٩ سفراً وردت في العهد القديم، إذا استبعدنا سفر الخروج وهو يمهد لشريعة موسى ولايدخل فيها. فإن الأسفار الخمسة الأولى منه تشكل التوراة وهي كتاب موسى أما باقي الأسفار فليست من التوراة لذا من المستحيل أن نقول عن العهد القديم الحالي إنه توراة موسى، ولم يرد ذلك في القرآن الكريم قطعاً.

ومن المستغرب حقاً كيف لم ينتبه المسلمون طوال كل هذه القرون إلى هذه الحقيقة التي تبدو لي الآن بديهية ولاتقبل المناقشة؟

وبعد هذا تجد من يجادلك ويقول إن الأمة لايمكن أن تجمع على خطأ. إذاً كيف أجمع كل سكان الأرض وهم ليسوا أمة واحدة فقط بل أمماً على أن الأرض مركز الكون وأن كل النجوم والمجرات والشموس تدور حول مركزها؟ إلى أن جاء كوبرنيكوس العالم الأوربي في علم الفلك ليقول لهم إنكم واهمون لأن الأرض تدور حول نفسها وهي ليست مركزاً لأيّ شيء في الكون.

ولو انتبهنا للآيات قبل ذلك فإن هناك ما يشير إلى هذه الحقيقة، حقيقة كتاب موسى:

﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وقَفّينا من بعدِه بالرّسل﴾(٣٥)

﴿وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتيَ النّبيّون من ربِّهم﴾(٣٦)

﴿ومِنْ قبلِه كتابُ موسى إماماً ورحمةً﴾(٣٧)

ونجد في هذه الآيات توضيحاً لما أتينا على ذكره خاصة الآية الأخيرة منها التي تقول إن كتاب موسى كان بمثابة الإمام، وهل الإمام الذي يؤم المؤمنين في الصلاة إذا صلّى وحده يسمى إماماً؟

وكتاب موسى كما رأينا كان في الصدارة من التوراة، وكان بالنسبة لبقية أسفار التوراة مثل الإمام أو القاعدة يتصدرها جميعاً. هدى ورحمة.

---

(٣٥) سورة البقرة: ٨٧ (٣٦) سورة البقرة: ١٣٦ (٣٧) سورة الأحقاف: ١٢

ومن سنة الله في رسله أنه كلما أرسل رسولاً أيّده بآيات (معجزات) تصدق مابين يديه من الرسالة.

لأن الرسالة عادة تتكون من أحكام بافعل ولا تفعل ووصايا ومواعظ للناس حتى لايضلوا عن الصراط المستقيم. والناس على الدوام هم الناس في كل وقت، ولايمكن أن يأتيهم شخص ويدعي أنه أتاهم برسالة من السماء فيصدقونه ويتبعونه بسهولة، لم يقع هذا في تاريخ الأنبياء والرسل ولو مرة واحدة.

فإن أتى الرسول بما لايستطيعه أي إنسان على الأرض كان ذلك دليلاً على صدقه بأن الله أيده بتلك الآية أو المعجزة التي هي من قدرة الله وليست من قدرة البشر، فيصدق بعض الناس، وبعضهم يكابر لهوى ومصلحة في نفسه لايريد أن يعلن عنها ـ فيرفض الرسالة وهكذا كان كتاب موسى مكوناً من أنباء وعلوم ومعها شريعة وأحكاماً، وهذا كله يشكل الكتاب والحكمة، ولكي يؤمن بموسى بنو اسرائيل فقد أيده الله بتسع آيات حسية بصرية شاهدها بنو اسرائيل فكانت يقيناً لهم أن موسى رسول من الله وليس مدعياً. فما هي آيات موسى التسع؟ هي التي ورد ذكرها في القرآن كما يلي: ﴿ولقد آتَيْنا موسى تِسعَ آياتٍ بيّنات﴾(٣٨)

﴿ولقد أرسلْنا موسى بآياتِنا وسلطانٍ مُبين﴾(٣٩)

﴿فلما جاءَهُم موسى بآياتِنا بيّناتٍ قالوا ماهذا إلاّ سحرٌ مُفترَىً﴾(٤٠)

والناس في زمن موسى لم يقولوا ذلك عن شريعة موسى وإنما قالوها عن تلك الآيات التسع التي كانت حسية تمكن رؤيتها عن طريق البصر دون باقي الحواس: وقد عبر عنها تعالى بكلمة البصائر: كما في الآيات الآتية:

﴿هذا بَصائِرُ مِنْ ربِّكم وهدى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون﴾(٤١)

لأن المعجزات التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن هي معجزات قابلة لأن ترى من جميع الناس وفي كل العصور والأزمان بينما آيات موسى كانت بصائر للذين حضروها فقط.

ولذلك يقول الله تعالى:

---

(٣٨) سورة الإسراء: ١٠١
(٣٩) سورة هود: ٩٦
(٤٠) سورة القصص: ٣٦
(٤١) سورة الأعراف: ٢٠٣

﴿ولقد آتَيْنا موسى تسعَ آياتٍ بيّناتٍ فَسْأَلْ بني إسرائيلَ إذْ جاءَهُم فقال له فرعونُ إنّي لأظنُّكَ ياموسى مسحوراً * قال لقد عَلِمْتَ ماأنزَلَ هؤلاءِ إلاّ ربُّ السمواتِ والأرض بصائِرَ وإنّي لأظنُّك يافرعونُ مثبوراً﴾(٤٢)

وهذه هي البصائر التي قام بها موسى ـ كما وردت في القرآن الكريم:

الآية الأولى: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مُبين﴾(٤٣)

الآية الثانية: ﴿ونزعَ يدَه فإذا هي بيضاءُ للنّاظرين﴾(٤٤)

الآية الثالثة: طوفان النيل في غير وقته.

الآية الرابعة: إرسالُ الجراد عليهم.

الآية الخامسة: (القُمّل) وهي حشرات صغيرة قسمٌ منها يصيب الزرع، وقسم يصيب الإنسان.

الآية السادسة: (الضفادع) وهي خروج الضفادع من النيل بمئات الملايين.

الآية السابعة: (الدم) وبعضهم يرى أنه الرعاف، وآخرون يرون أنه ظهور ماء النيل بلون الدم وهذه الآيات الخمس مذكورة في الآية التالية:

﴿فأرسلْنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمّلَ والضفادعَ والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مُجرِمين﴾(٤٥)

الآية الثامنة ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرِبْ بعصاكَ البحرَ فانفلَقَ فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطّودِ العظيم﴾(٤٦)

الآية التاسعة ﴿وإذْ استسقى موسى لقومِهِ فقُلْنا اضربْ بعصاكَ الحَجَرَ فانفَجَرَتْ منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مشربَهم كُلُوا واشربوا من رزقِ اللّه ولاتعثَوْا في الأرضِ مفسدين﴾(٤٧)

وقد كانت هذه المعجزة مزدوجة بدليل أن الله يقول لهم: كلوا واشربوا من رزق الله، وهذه هي آية الشرب، أما آية الرزق فوردت في قوله تعالى: ﴿وأوحَيْنا إلى موسى إذِ استسقاهُ قومُه أن اضربْ بعصاكَ البحرَ فانبجَسَتْ منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مشربَهم وظَلّلْنا عليهم الغمامَ وأنزَلْنا عليهم المَنَّ والسّلوى كُلوا من طيّباتِ

(٤٢) سورة الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٢
(٤٣) سورة الأعراف: ١٠٧
(٤٤) سورة الأعراف: ١٠٨
(٤٥) سورة الأعراف: ١٣٣
(٤٦) سورة الشعراء: ٦٣
(٤٧) سورة البقرة: ٦٠

مارزقناكم وماظلمونا ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلمون﴾[٤٨] وهكذا نجد في القرآن كل آيات موسى التي هي معجزات حصلت بقدرة الله تعالى وبإذنه على يد موسى ليؤيد الله بها رسوله أمام الناس، ولكن الناس، تركوا كل ذلك، وآمنوا بالسامري وعبدوا العجل لأنه سمح لهم بأن يفعلوا مايشاؤون وماتمليه غرائزهم الحيوانية وشهواتهم وأهواؤهم دون وازع، فاتبعوه سريعاً وذلك قبل أن يعود موسى من موعد لقائه بربه عند جبل الطور في سيناء.

فما هي شريعة موسى بدليل القرآن الكريم؟

ـ لقد أرسل الله تعالى آيات الفرقان أيضاً إلى موسى بدليل الآية:

﴿وإذْ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾[٤٩]

وهكذا يمكننا أن نسجل آيات الفرقان في القرآن على أنها نفس الآيات التي تلقاها موسى مكتوبة على الألواح في الوصايا العشر، هي مواعظ وأوامر وتعليمات من الله تعالى للمؤمنين في الإسلام والله لم يرسل أدياناً متعددة بل أرسل ديناً واحداً: ﴿وعبادُ الرحمن الذينَ يَمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبَهُم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يَبيتونَ لِربِّهم سُجَّداً وقياماً * والذين يقولون ربَّنا اصرفْ عنّا عذابَ جهنَّم إنّ عذابَها كانَ غراما * إنّها ساءَتْ مستقرّاً ومُقاماً * والذين إذا أَنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتُروا وكانَ بين ذلك قَواماً * والذين لايَدْعونَ مع اللّه إلهاً آخرَ ولايقتلونَ النَّفْسَ التي حرَّمَ اللهُ إلّا بالحقّ ولايَزنون ومَنْ يفعلْ ذلك يَلْقَ آثاماً * يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامة ويَخلُدْ فيه مُهاناً * إلاّ من تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئكَ يُبدِّلُ اللّهُ سيئاتِهِم حسناتٍ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً * ومن تابَ وعَمِلَ صالحاً فإنّه يتوبُ إلى اللّه مَتاباً * والذين لايَشهدون الزّورَ وإذا مرّوا باللّغوِ مرّوا كِراماً * والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم لم يَخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً * والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا من أزواجِنا وذرّيتِنا قرةَ أعينٍ واجعلْنا للمتّقين إماماً * أولئك يُجزَوْنَ الغرفةَ بما صَبَروا وَيُلَقَّوْنَ فيها تحيةً وسلاماً﴾[٥٠]

وماذا حرم الله على اليهود من المأكولات؟

﴿فَبِظُلم من الذين هادُوا حَرَّمْنا عليهم طيّباتٍ أحلّت لهم وَبِصَدِّهم عن سبيلِ اللّهِ كثيراً﴾[٥١]

والربا يؤكل حراماً، لذلك دخل فيما يؤكل:

---

(٤٨) سورة الأعراف: ١٦٠

(٤٩) سورة البقرة: ٥٣

(٥٠) سورة الفرقان: ٦٣ ـ ٧٥

(٥١) سورة النساء: ١٦٠

﴿وأَخْذِهم الرّبا وقد نُهُوا عنه وأَكلِهم أموالَ الناسِ بالباطل وأعتَدْنا للكافرينَ منهم عذاباً أليماً﴾(٥٢)

﴿وعلى الذين هادُوا حَرّمنا كلّ ذي ظُفر ومنَ البقرِ والغنم حرّمنا عليهم شحومَهما إلاّ ماحملَتْ ظهورُهُما أو الحوايا أو ما اختلَطَ بعظمٍ ذلك جزَيناهم ببغْيهم وإنّا لَصادقون﴾(٥٣)

ثم يتابع الله تعالى بعد ذلك على لسان الرسول ويأمره أن يذكر المسلمين بما حرمه الله عليهم قائلاً:

﴿قل تعالوا أَتلُ ماحرّم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادَكم من إملاقٍ نحن نرزقُكم وإياهم ولاتقربوا الفواحشَ ما ظَهَرَ منها ومابَطَن ولاتقتلوا النفس التي حرّم اللهُ إلاّ بالحقِ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون * ولاتقرَبوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلُغَ أَشُدَّه وأوفوا الكَيلَ والميزانَ بالقسطِ لانكلف نفساً إلا وُسعَها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كانَ ذا قربى وبعهدِ الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون * وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتتّبعوا السبلَ فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون﴾(٥٤)

وهي آيات الفرقان نفسها والله تعالى يسميها الصراط المستقيم لأنها لاتتغير في الأديان كلها فهو أرسلها مع موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وبعد هذه الآية مباشرة يذكر لنا الله أنه اتبعها رسالة موسى مباشرة كما في الآية:

﴿ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على الّذي أَحسنَ وتفصيلاً لكلّ شيءٍ وهدى ورحمةً لعلّهم بلقاءِ ربّهم يؤمنون﴾(٥٥)

ثم يقول لهم الله تعالى بعد ذلك:

﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتّبعوه واتّقُوا لعلّكم تُرحَمون * أن تقولوا إنّما أُنزِلَ الكتابُ على طائفَتيْن من قبلِنا وإنْ كنّا عن دراستِهم لغافلين * أو تقولوا لو أنّا أُنزِلَ علينا الكتابُ لكنّا أهدى منهم فقد جاءَكُم بيّنةٌ من ربّكم وهدى ورحمةٌ فَمَنْ أظلَمُ ممّنْ كذّبَ بآياتِ الله وَصَدَفَ عنها سَنَجْزي الذين يصدِفون عن آياتِنا سوءَ العذاب بما كانوا يَصدِفون﴾(٥٦)

وهكذا تجد بما أن الدين واحد في الأساس هو الإسلام، فكل ماهو محرم علينا في

(٥٢) سورة النساء: ١٦١ (٥٤) سورة الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣ (٥٦) سورة الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧
(٥٣) سورة الأنعام: ١٤٦ (٥٥) سورة الأنعام: ١٥٤

القرآن هو أيضاً محرم عليهم في شريعة موسى، من أكل الدم والميتة ولحم الخنزير. وما أُهِلَّ به لغير الله. وحرم عليهم الخمر مع أن كتبهم المحرفة لاتتورع عن ذكر أن الأنبياء أنفسهم كانوا يشربونها، وسنتطرق إلى هذا الموضوع قبل نهاية هذا البحث. ثم تعالوا نقرأ هذا النص من القرآن الذي يقول عنه سبحانه في نهايته: ﴿إنّ هذا لَفي الصُّحفِ الأولى * صُحُفِ إبراهيمَ وموسى﴾.

﴿سبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى * الذي خَلَقَ فسوّى * والذي قدَّرَ فهدى * والذي أخرجَ المرعى * فجعَلَه غُثاءً أحوى * سنُقرِئكَ فلا تنسى * إلّا ماشاءَ اللّهُ إنّه يعلَمُ الجهرَ ومايخفى * ونُيَسِّرُكَ لليُسرى * فَذَكِّرْ إنْ نَفعتِ الذّكرى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخشى * ويَتَجَنَّبُها الأشقى * الذي يَصلى النارَ الكبرى * ثمّ لايموتُ فيها ولايَحيى * قد أفلَحَ مَنْ تَزكّى * وَذَكَرَ اسمَ ربِّهِ فصلّى * بل تُؤثرونَ الحياةَ الدنيا * والآخرةُ خيرٌ وأبقى * إنّ هذا لفي الصُّحفِ الأولى * صُحُفِ إبراهيمَ وموسى﴾(٥٧) وهي تسع عشرة آية.

ماذا نفهم من هذا النص الذي قرأناه من القرآن الكريم؟

هل نفهم أن هذا النص بالذات كان في كتاب موسى عليه الصلاة والسلام أو في صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

نعم، ورد في كل منهما بلغة كانت تختلف عن اللغة العربية، لكن مايهمنا حقاً هو مافي هذه الآيات القصيرة من موضوعات مشتركة بين الأديان والرسالات السماوية الثلاث التي أرسلها الله لعباده؟

١ ـ أمر تسبيح الله: ﴿سبّح اسمَ ربِّكَ الأعلى﴾ والتسبيح هو الطاعة مع التسليم.

٢ ـ التسليم بأنه خالق الكون ومدبره: ﴿الذي خَلَقَ فسوّى﴾ والإيمان به.

٣ ـ الاعتقاد بأنّه خَلَقَ الإنسانَ وحمّله الأمانةَ، وخلق الخير والشر فتنة واختباراً: ﴿والذي قدَّر فهدى﴾.

٤ ـ وهو مُرسِلُ الماء، وخالق النبات: ﴿والذي أخرجَ المرعى﴾

٥ ـ وهو سيد دورة الطبيعة في الحياة والموت والتجدد: ﴿فجَعَلَه غُثاءً أحوى﴾

٦ ـ وهو الذي يسّر للناس الدين ولم يعسّره: ﴿ونُيسِّرُكَ لليسرى﴾

٧ ـ وهو الذي أرسل الرسل والأنبياء لتذكير الناس: ﴿فذكِّرْ إنْ نَفعتِ الذكرى﴾

---

(٥٧) سورة الأعلى.

٨ ـ وهو الذي آمن به الناس واتبعوا صراطه المستقيم: ﴿سَيَذَّكَّر مَنْ يخشى﴾

٩ ـ ومنهم من كفر وشقي بكفره وشركه: ﴿ويَتَجنَّبُها الأشقى﴾

١٠ ـ وسيلقى هؤلاء بفعل ذلك جزاءهم في نار جهنم عند الحساب: ﴿الذي يَصلى النارَ الكبرى﴾

١١ ـ وأما الذين يزكون أنفسهم بدفع الزكاة من أموالهم فسوف يكونون من الرابحين الناجحين: ﴿قد أفلَحَ مَنْ تَزَكّى﴾. وتزكية النفس، تطهيرها من كل الأدران والأوساخ، مادية أو معنوية.

١٢ ـ والذين لاينسون الله فيصلون الصلوات المطلوبة المفروضة عليهم منهم المفلحون: ﴿وذَكَرَ اسمَ ربّه فصلّى﴾

١٣ ـ لكن الناس أبداً هم الناس، يحبون الدنيا ويفضلونها على الآخرة: ﴿بل تُؤثِرونَ الحياةَ الدنيا﴾

١٤ ـ وكذلك وهم لجهلهم لايعلمون أن الآخرة هي التي تدوم لاالدنيا الفانية: ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾.

وهذا هو الدين، بالمختصر المفيد، ولا أكثر أو أعقد من ذلك، ولو قلّبت الرسالات الثلاث لأدركت أن جوهرها واحد، وإن كان للدين الاسلامي امتياز خاص لكونه خاتم الديانات، ولأنه يستند إلى كتاب سماوي لايستطيع البشر أن يحرفوه، كما فعلوا بما قبله من الكتب، وسيجد اليهودي في القرآن جوهر دينه. الذي أرسله الله إليه تماماً وكذلك المسيحي يجد فيه جوهر إنجيله فيه قبل أن تمتد إليهما يد التحريف.

كثير من علماء المسلمين بيننا، وكثيرٌ من المسلمين، كانوا ولازالوا يعتقدون أن التوراة هي كتاب موسى في حين أنه لايشكل إلا جزءاً يسيراً منها كما أسلفنا، لايتجاوز خمسة أسفار من أصل ٣٩ سفراً. لكن أهل الكتاب الذين لم يتركوا شيئاً من دون تحريف وتبديل أيضاً في أسفار موسى، وزادو فيها، فكشف البعض نفسه وأظهر جريمته عن غير قصد وهذا مايحاول الدكتور عبد العظيم المطعني إظهاره في كتابه:

(الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي)

ويقول لهم:

كيف يدّعون أن هذه الأسفار الخمسة هي كتاب موسى؟ ثم يثبت لهم إضافاتهم

الواضحة للعيان. (الإصحاح ٣٤) ـ الآيات ٥ ـ ١٢

«فمات هناك موسى عبد الربّ في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنهُ في الجواءِ في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسانٌ قبرهُ إلى هذا اليوم، وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكلَّ عينهُ، ولاذهبت نضارتهُ، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات مؤاب ثلاثين يوماً، فكملت أيام بكاء مناحة موسى»(*)

ثم يعلّق الدكتور مطعني على النص فيقول:

(كيف يكتب موسى قبل أن يموت تاريخ اليوم الذي مات فيه.. ويحدد المكان الذي دفن فيه.. ويصف بكاء بني إسرائيل عليه الذي امتد بعد موته ثلاثين يوماً، أمر عجيب والله. أم يقولون إن موسى كتبه بعد موته؟) وهكذا يتبين لنا من تعليق الدكتور أن كتبة التوراة من بعد الأسباط كما يشير القرآن الكريم هم الذين حرفوا في أسفار التوراة، ومنها سفر التثنية الذي اقتبس منه الدكتور النص، وهو من كتاب موسى، بينما نجد إن أغلب المسلمين، إن لم يكن جلّهم يعدون أسفار التوراة كلها إلى الآن كتاب موسى عليه السلام وكما أننا نجد أن هذه الأسفار كلها بما فيها أسفار موسى الخمسة تباين في أسلوبها أسلوب القرآن كما يتضح من النصوص الآتية التي اقتبستها من كتاب الدكتور مطعني، ومنها يتضح الفرق بين أسلوبها وأسلوب القرآن، بسبب التحريف الذي أصابها والإضافات التي أدخلت على جوهرها بالترجمة، كان قبل التحريف جوهراً صحيحاً من الله تعالى أرسل إلى أنبياء كانوا يخافون الله ويخشونه ويتقون غضبه ويرجون رضاه. ولنقرأ من مختلف أسفار التوراة مع الإيجاز:

ويسكنونَ في الأرض التي أعطيتُ عبدي يعقوبَ إياها التي سكنها آباؤكم. ويسكنون فيها، هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد. وعبدي داوود رئيسٌ عليهم إلى الأبد. وأقطع معهم عهد سلام، فيكون معهم عهداً مؤبّداً. وأقرهم وأكثرّهم، وأجعل مقدسي في وسطهم إلى الأبد. ويكون مسكني فوقهم وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً فتعلم الأمم أني أنا الذي مقدِّس إسرائيل إذ يكونُ مقدسي في وسطهم إلى الأبد»(**)

«متى أتى بك الربّ إلهكَ إلى الأرض التي أنتَ داخل إليها لتملكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك.. ودفعهم الربّ إلهك أمامك. وضربتهم فإنكَ تحرمهم.

(*) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي: د. عبد العظيم المطفي، طبعة دار الوفاء ١٩٧٨ ص٧٠
(**) سفر حزقيال: الإصحاح ٣٧: فقرة ٢٥ ـ ٢٨

لاتقطع لهم عهداً ولاتشفق عليهم ولاتصاهرهم. بنتك لاتعطِ لابنه وبنته لاتأخذ لابنكَ.

ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمونَ مذابحهم، وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم، وتحرقون تماثيلهُم بالنار، لأنك أنت شعب مقدسٌ للربّ إلهك، إياكَ قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذينَ على وجه الأرض.

ليسَ من كونكم أكثرَ من سائر الشعوب التصقَ الربّ بكم واختاركُم لأنكُم أقلّ من سائر الشعوب. بل من محبّة الربّ إياكم»(*)

«وسمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الربّ الإلهُ آدمَ وقال: أين أنتَ يا آدم؟

فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاختبأتُ. فقال: من أعلمك أنكَ عريان؟ هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتكَ أن لاتأكلَ منها؟»(**)

«اسكتوا يأكل البشر قدام الربّ، لأنه استيقظَ من مسكن قُدسه»(***)

«فرجع موسى إلى الرب وقال: آه قد أخطأ هذا الشعبُ خطيّة عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب. والآن إن غفرتُ خطيتّهم. وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت»(****)

«فقال الربّ امسحوا عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السّماء، لأني حزنت أنّي عملتهم»(*****)

«فرفع عينيه (يعني ابراهيم عليه السلام) ونظرَ وإذا ثلاثة رجال (يعني الملائكة) واقفون لديه. فلما نظرَ ركض لاستقبالهم من باب الخيمة. وسجدَ إلى الأرض، وقال ياسيد: إن كنت قد وجدتُ نعمةً في عينيك فلا تتجاوز عبدكَ ليؤخذ قليل ماء، واغسلوا أرجلكم واتكوا تحت الشجرة فآخذ كسرة خبز فتسندون بها قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عَبدكم. فقالوا: هكذا تَفعل كما تكلمتَ.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرعي بثلاث كَيلات دقيقاً سميداً. اعجني واصنعي خبز ملّة. ثم ركَض إبراهيم إلى البقر وأخذَ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام

(*) سفر التثنية: الإصحاح ٧ فقرة: ١ ـ ٨ مع الإيجاز
(**) سفر التكوين: الإصحاح ٣: فقرة: ٨ ـ ١١
(***) سفر زكريا: الإصحاح ٢: فقرة ١٣
(****) سفر الخروج: الإصحاح ٣٢ ـ فقرة ٣٠ ـ ٣٢
(*****) سفر التكوين: الإصحاح ٦ فقرة ٥ ـ ٨

فأسرع ليعمله، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عَمله ووضعها قدامهم. وإذا هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا»(*)

نكتفي بهذا المقدار من نصوص التوراة، ونقول تعليقاً عليها: لاشك في أن هنالك مصدراً صحيحاً نقلت عنه النصوص لكن ترجمة المترجم الحرفية دون مراعاة لطبيعة اللغة العربية مما جعل الصياغة ركيكة، أضعفت النص المقدس الأصلي وحولته إلى نص عادي، مع إضافة تفاصيل من المترجم يراها ضرورية وسوف أنهي هذه الجولة بأن أسجل النص القرآني المقابل الذي يروي قصة النبي إبراهيم عندما زارته الملائكة:

﴿ولقد جاءَتْ رُسُلُنا إبراهيمَ بالبشرى، قالوا سلاماً قالَ سلام فما لَبثَ أنْ جاءَ بعجْلٍ حَنيذٍ * فلمّا رأى أيديَهُم لاتَصِلُ إليه نَكِرَهُم، وأوجَسَ منهم خِيفةً قالوا لاتَخَفْ إنّا أُرسِلنا إلى قومِ لوطٍ * وامرأتُه قائمةٌ فضحِكَتْ فبَشّرناها بإسحقَ ومن وراءِ إسحق يعقوب * قالتْ ياويلتي أألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شَيْخاً إنّ هذا لَشيءٌ عجيبٌ * قالوا أتعجَبينَ من أمرِ الله رحمةُ اللّهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيت إنّه حميدٌ مجيدٌ * فلما ذهبَ عن إبراهيم الرَّوْعُ وجاءَتْه البشرى يُجادِلُنا في قومِ لوطٍ * إنّ إبراهيمَ لَحليمٌ أوّاهٌ مُنيبٌ * يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا إنّه قد جاءَ أمرُ ربِّكَ وإنّهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود﴾(٥٨).

نلاحظ أن النص التوراتي جاء في عشرة أسطر وأن النص القرآني جاء في سبعة أسطر، وأن النص التوراتي أشار إلى ثلاثة ملائكة استضافوا سيدنا إبراهيم. أما النص القرآني ففيه معلومات كثيرة غير موجودة في النص الأول منها ذكره أن الملائكة لاتأكل، ولذلك لم تمتد أيديهم للطعام، فخاف منهم إبراهيم، لأنه أدرك أنهم ليسوا من البشر، وبشروه هو وزوجته بإسحاق ومن بعد إسحاق بحفيد اسمه يعقوب، وأعلموه أن مهمتهم الأساسية هي القضاء على قوم لوط، ومحاولة إبراهيم التوسط لأنه لايحب العنف بطبعه، فالنص التوراتي مقتبس من نص أصلي آخر مقدس لكن الذي اقتبس أفسده، لأنه لم يلتزم ماورد فيه، أو اعتمد على الذاكرة والرواية الشفهية، في حين أن النص القرآني كان أميناً لأنه جاء من الله لا من روايات الناس:

﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظون﴾(٥٩)

صدق الله العظيم

(*) سفر التكوين: الإصحاح ١٨ - فقرة ١ - ٨
(٥٨) سورة هود: ٦٩ - ٧٦ (٥٩) سورة

٢٣ ـ رسالة عيسى عليه السلام بدليل القرآن

إن الآيات القرآنية التي تتحدث عن عيسى بن مريم بحكم أنه أحد الأنبياء والرسل الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام كثيرة، وقد أحصيتها فوجدتها خمساً وعشرين آية، يضاف إليها ثماني آيات سمّي فيها عيسى المسيح أو المسيح بن مريم، فيكون مجموع الآيات التي ورد فيها ذكره ٣٣ آية. ونحن نعلم أن الله رفع عيسى بن مريم بعد أن توفّاه وعمره ٣٣ سنة، حمل اسم عيسى خمساً وعشرين سنة ثم بعد الرسالة حمل اسم المسيح ثماني سنوات. وقد يظن القارئ العادي أن المطابقة بين عدد الآيات التي ذكر فيها في القرآن وعدد سنوات عمره من المصادفة، ولكن إذا انتبه إلى أن الله قد أشار في القرآن مرتينِ لِعيسى بن مريم في قوله تعالى: ﴿وَجَعلْنا ابنَ مريمَ وأُمَّه آيةً وآوَيناهُما إلى ربوةٍ﴾(١)

﴿ولَمّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلاً إذا قَومُك منه يَصُدّونَ﴾(٢) دون ذكر عيسى أو المسيح فإنه يصبح للأرقام دلالتها إذ تؤكد الروايات التي تذهب إلى أن عيسى بن مريم بعث رسولاً في الخامسة والعشرين من عمره ومات وعمره ٣٣ سنة أي ظل يُدعى (عيسى) خمساً وعشرين سنة، أي بعدد المرات التي ذكر فيها عيسى ابن مريم.

وسمي في القرآن (المسيح) ثماني مرات أي بعدد سنوات رسالته في القرآن الكريم، في حين أن المسيح هي صفته بعد الرسالة واسمه.

وورد ذكر مريم وحدها في القرآن دون أن يقترن بذكر عيسى أو إسم المسيح إحدى عشرة مرة.

ـ ولادته عليه السلام: لنستمع للآيات الآتية من سورة مريم:

﴿واذكُرْ في الكتابِ مريَمَ إذ انْتبذَتْ من أهلِها مكاناً شَرقياً * فاتَّخذَتْ من دونِهم حجاباً فأرسلْنا إليها روحَنا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سويّاً * قالت إنّي أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كُنتَ تَقِيّاً * قال إنّما أنا رسولُ ربِّكِ لأَهَبَ لك غلاماً زَكيّاً * قالت أنّى يكونُ لي غلامٌ ولمْ يمسَسْني بشرٌ ولم أَكُ بَغِيّاً * قالَ كذلك قالَ ربُّكِ هوَ عليَّ هَيِّنٌ ولنَجْعَلَهُ آيةً للناسِ

(١) سورة المؤمنون: ٥٠ (٢) سورة الزخرف: ٥٧

ورحمةً مِنّا وكان أمراً مَقضِيّاً * فحملَتْه فانتبَذَتْ به مكان قَصيّاً * فَأَجاءَها المخاضُ إلى جذعِ النخلةِ قالت ياليتَني مِتّ قبلَ هذا وكنتُ نَسياً منسيّاً * فناداها من تحتها ألّا تحزني قد جَعَلَ ربُّكِ تحتَكِ سَرياً * وهزّي إليكِ بجذعِ النخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنياً * فكلي واشربي وقَرّي عيناً فإما تَرَيِنَ من البشر أحَداً فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً فلن أكلّمَ اليومَ إنسيّاً * فأَتَتْ به قومَها تحملُه قالوا يامريمُ لقد جِئتِ شيئاً فَرِياً * يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانتْ أُمُّكِ بَغيّاً * فأشارَتْ إليه قالوا كيف نكلّمُ مَنْ كانَ في المهدِ صَبيّاً * قالَ إنّي عبدُ الله آتانيَ الكتابَ وجَعَلني نبيّاً * وجعلَني مباركاً أينَ ما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ مادُمتُ حيّاً * وَبرّاً بوالدتي ولم يجعلْني جبّاراً شَقيّاً * والسلامُ عليّ يومَ وُلدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعثُ حيّاً * ذلك عيسى بنُ مريمَ قولَ الحَقِ الذي فيه يَمْتَرون * وما كانَ للّه أنْ يَتّخِذَ من ولدٍ سبحانَه إذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له كنْ فيكونْ * وإنّ اللّهَ ربّي وربُّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾[٣]

رسالته عليه السلام:

﴿وآتينا عيسى ابنَ مريَم البيناتِ وأيَّدْناه بروح القُدسِ﴾[٤] وكانت طريقة اتصال الله تعالى بعيسى عن طريق الوحي بدليل الآية التي يخاطب فيها الله الرسول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم فيقول:

﴿إنا أَوحَيْنا إليكَ كما أوحَيْنا إلى نوح والنبيّين من بعده(ج) وأَوحَيْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارونَ وسليمانَ وآتَيْنا داوودَ زبوراً * ورُسُلاً قد قَصَصْناهُم عليك من قبلُ ورُسلاً لم نقصُصْهم عليك وكلّمَ الله موسى تكليماً﴾[٥]

ورسالة عيسى ابن مريم عليه السلام كانت رسالة مصدقة للرسالات التي سبقته إلى بني إسرائيل بدءاً بكتاب موسى الذي تحدثنا عنه والذي عدّه الله إماماً للرسالات التي أتت من بعده على يد الأسباط من الرسل والأنبياء كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل في الآية ١٦٣ من سورة النساء والتي شكلت في مجموعها كتاباً كاملاً سماه الله تعالى التوراة كما في الآية:

﴿إنّا أَنزلْنا التوراةَ فيها هدىً ونور يحكمُ بها النبيّون الذين أسلموا لّلذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتابِ الله وكانوا عليه شهداء فلا تَخْشَوا الناسَ واخشوني

(٣) سورة مريم: ١٦ ـ ٣٦ (٤) سورة البقرة: ٨٧ (٥) سورة النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤

ولاتَشتَروا بآياتي ثمناً قليلاً ومَنْ لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الكافرون﴾[٦]

كيف كانت شريعة موسى والأسباط من بعده؟

لقد كانت شريعة حدّية ثابتة على الصراط المستقيم، لأن الله بعده كان عن طريق الرسل الذين جاءوا بعده يجري التعديلات اللازمة في نصوص رسالاتهم حسب تغير الزمن كي يعلمهم أن ذلك من الضروريات، لكنه لم يسمح لهم أن يقوموا بذلك بأنفسهم، حتى كانت رسالة الاسلام فجعلها الله حدودية أي ان الأحكام فيها لها حد أقصى وحد أدنى، لكي يستطيع الحاكم أو القاضي المسلم أن يتحرك ضمن الحدود، بحسب الزمن ووفق المشكلة المعروضة أمامه، وهو مطلق الرحمة في القضاء.. لنستمع إلى أسلوب الشريعة التوراتية الحدية في الآيات التالية التي يحدثنا فيها القرآن عن بني اسرائيل يقول تعالى: ﴿وكَتَبْنا عليهم فيها أنّ النَفْسَ بالنَّفْس والعَينَ بالعَينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنِ بالأذنِ والسّنَّ بالسّنِّ والجُروحُ قَصاصٌ فَمَنْ تَصدَّقَ به فهو كفّارةٌ له ومن لَمْ يَحكُمْ بما أنزلَ اللّه فأولئكَ همُ الظالمون * وَقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى ابن مريَمَ مُصدِّقاً لما بَينَ يدَيْه من التوراةِ وآتيناه الإنجيلَ فيه هدىً ونورٌ ومُصدّقاً لما بينَ يدَيْه من التوراة وهدىً وموعِظةً للمتّقين * ولْيَحكمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزلَ اللّهُ فيه ومَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنزلَ اللّهُ فأولئك هُمُ الفاسِقون﴾[٧]

وهاتان الآيتان من أهم الآيات التي يُعتمد عليهما لفهم مايجري الآن بين أهل الكتاب. ولابد لفهمهما أن نضيف آية أخرى وردت قبلهما وهي على لسان عيسى بن مريم: ﴿ومُصدِّقاً لِمَا بين يديّ من التوراةِ وَلِأُحِلَّ لكمْ بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم وجِئتُكم بآيةٍ من ربِّكم فاتّقوا الله وأطيعونِ﴾[٨]

فهذه الآية تشرح مهمة عيسى عليه السلام باختصار وتقول:

إن الله تعالى أرسل الرسل والأنبياء الذين بأسفارهم تتشكل التوراة وماجاء في التوارة أي أن (شريعة اليهود) هي رسالة أهل الكتاب جميعاً، وأطلق عليه تعالى اسم التوراة واستثنى منهم داوود وسمى كتابه الزبور.

وأرسل عيسى عليه السلام مؤيداً لذلك الكتاب الذي هو التوراة ومعدلاً فيه بعض التعديلات اللازمة، لتحليل بعض ماحرم عليهم سابقاً كما ذكرنا ذلك نتيجة بغيهم،

---

(٦) سورة المائدة: ٤٤ (٧) سورة المائدة: ٤٥ ـ ٤٧ (٨) سورة آل عمران: ٥٠

ولذلك نجد أن كتاب الإنجيل فيه أنباء ولاتحتوي على شريعة، وهذا طبيعي لأن الدين الواحد لايمكن أن تكون له إلا شريعة واحدة، وهي موجودة في التوراة وقد قرأنا قبل قليل نصاً منه، ورأينا أنها شريعة حدّية: العين بالعين والسن بالسن وليست كشريعة الإسلام الحدودية ـ التي جاءت رحمة من الله للناس لكي يستطيع المسلمون الاجتهاد بالأحكام حسب الزمان والمكان، وهذا من حقهم الشرعي الذي منحه الله تعالى للمسلمين، ولم يمنحه سابقاً لأهل الكتاب، وهذا مايفسّر كثرة الأنبياء والرسل عند أهل الكتاب. لكي يتم الله تلك التعديلات والاجتهادات المطلوبة التي كان الله تعالى يقوم بها بدلاً عنهم، ربما لأن الناس قديماً لم يكونوا قد تطوروا كفاية حتى يستطيعوا تكليفهم بهذه المهمة، أو لأن الله كان ينوي أن يجعل تلك السنة فقط في الرسالة الخاتمة، والله أعلم.

المهم بعد أن فهمنا مهمة عيسى عليه السلام وأن كتابه الانجيل ليس فيه رسالة للناس غير الوصايا العشر تبين الحلال والحرام مفصلين، أما الأحكام الضرورية اللازمة في حل مشكلاتهم الدنيوية وخلافاتهم في المال والإرث والجرائم والجنح والأخطاء والآثام وتفصيلات الحلال والحرام. هذه الأمور لا وجود لها في الإنجيل وأنا شخصياً قرأت كل الأناجيل لأتأكد من هذا الموضوع فثبت عندي أن فهمي للآيات القرآنية كان صحيحاً دون أي تحييز أو تجنّ لأحد أو على أحد.

والآن لنعد للآيتين المذكورتين آنفاً: واللتين قلنا إن فهمهما يساعد على فهم اليهودية والمسيحية.

فرسالة عيسى بما فيها إنجيله كانت خطوة أخيرة في مجموعة رسالات سبقتها ابتداءً من موسى عليه السلام الذي كانت آياته هي معجزاته البصرية (البصائر) التي سمح بها الله، وقد شاهدها الناس الذين عايشوه لكي يؤمنوا بأنه رسول الله علماً أن ولادته كلها كانت إعجازية كما ورد في سورة مريم، وكان كتابه الذي يحوي أنباء من غيب الله تصديقاً لمهمته ولرسالته الحقيقية التي كانت تكليفاً من الله لمهمة محددة.

وكان الناس في زمانه قد تفرقوا شيعاً وأحزاباً وضلت بهم السبل.

﴿وماختلفَ الذين أُوتوا الكتابَ إلاّ من بعدِ ماجاءَهُم العلمُ بَغياً بينَهم﴾[٩] فأخذ الأحبار يغيرون في الكتاب ويحرفون فيه، ويضيفون نصوصاً جديدة، وقد عبر الله

(٩) سورة آل عمران: ١٩

تعالى عن ذلك في القرآن الكريم في قوله:

﴿فويلٌ للّذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمّ يقولونَ هذا من عندِ اللّه فَوَيلٌ لهم مّما كَتَبتْ أيديهم وَوَيل لهم ممّا يكسِبون﴾(١٠)

﴿مِنَ الذينَ هادُوا يُحرّفونَ الكَلِمَ عن مواضِعِه﴾(١١)

﴿وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلامَ اللّهِ ثم يُحرّفونَه من بعدِ ماعَقَلوهُ وهم يَعلمون﴾(١٢)

ولكي يتمكن عيسى عليه السلام من القيام بمهمته وهي إعادة الناس إلى الطريق السليم بعد أن انحرفوا وزاغوا مع الشيطان فقد علّمه الله ﴿ويُعلّمُهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ﴾(١٣)

لأنه من غير ذلك العلم لن يستطيع أن يعيد الناس إلى الطريق الصحيح، فكان علمه بالتوراة أساساً لرسالته، فالله تعالى يتوجه في بعض هذه الآيات إلى الذين يؤمنون بالانجيل فحسب دون الكتاب والحكمة والتوراة التي سبقتهن وهي مصادر الشريعة والأحكام ويحثهم على التمسك بها لكي لايظل دينهم مبتوراً لاشريعة له ولاإلمام لأتباعه بالحلال والحرام والله سبحانه وتعالى أحب أن يعلمهم خاصة للذين يتبعون المسيح اليوم أن كل مايفعله المؤمنون الأتقياء منهم لايساوي شيئاً دون تطبيق الشرع والأحكام المطلوبة في الرسالة، فقال لهم في القرآن الكريم مصححاً لأوضاعهم وإيمانهم ومعتقداتهم:

﴿قُلْ يا أهلَ الكتاب لَستُم على شَيءٍ حتّىٰ تُقيموا التّوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكُم منْ ربّكمْ﴾(١٤).

والقرآن الكريم يستثني منهم فئة صغيرة هم النصارى الذين يؤمنون بالمسيح كما ورد في القرآن تماماً على أنه عبدالله ورسوله، وأنه ولد بمعجزة من الله، ومن أمه العذراء مريم التي اصطفاها الله على نساء العالمين، وأنه قام بكل المعجزات بإذن الله، ويؤمنون بالحلال والحرام، فيحرمون ماحرم الله في التوراة، ويحللون ما أحله لهم عيسى بن مريم بإذن الله في الإنجيل، ولايشركون بالله، ولايقولون عن المسيح أنه ابن الله، وعن هؤلاء النصارى قال الله في كتابه العزيز:

---

(١٠) سورة البقرة: ٧٩ (١٢) سورة البقرة: ٧٥ (١٤) سورة المائدة: ٦٨

(١١) سورة النساء: ٤٦ (١٣) سورة آل عمران: ٤٨

﴿ولتجدنّ أقربَهم مودّةً للّذينَ آمنوا الذينَ قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قِسّيسينْ ورهباناً وأنّهم لايستكبرون * وإذا سَمِعوا ماأُنزلَ إلى الرسولِ ترى أعينَهم تفيضُ مِنَ الدّمع ممّا عرَفوا من الحقّ يقولونَ ربَّنا آمنّا فاكتبْنا مع الشاهدين * ومالَنا لانؤمِنُ باللّه وماجاءَنا من الحقّ ونطمَعُ أنْ يُدخِلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين * فأثابَهُم اللّه بما قالوا جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلك جزاءُ المحسنين﴾(١٥)

كيف كانت نهاية المسيح عليه السلام بدليل القرآن؟

﴿إذ قال الله ياعيسى إنّي متوفّيكَ ورافعُكَ إليّ ومُطهِّرُكَ من الذينَ كَفروا وجاعلُ الذينَ اتّبعوكَ فوقَ الذين كفروا إلى يومِ القيامة ثمّ إليّ مرجِعُكم فأحكُمُ بينكم فيما كنتمْ فيه تَختلِفون﴾(١٦)

وفي هذه الآية يؤكد الله تعالى أن وفاة عيسى قد حصلت وأنه رفعه إليه تعالى أي رفع النفس دون الجسد كما هي سنة الله في خلقه التي لن نجد لها تبديلاً ولاتحويلاً.

﴿وبِكُفرهِم وقولِهم على مريمَ بُهتاناً عظيماً * وقَولِهم إنّا قَتَلْنا المسيحَ ابنَ مريمَ رسولَ اللّهِ وماقَتلوه وماصَلبوه ولكنْ شُبِّهَ لهم وإنّ الذين اختلَفوا فيه لَفِي شكٍّ منه ومالَهُم بهِ من علمٍ إلاّ اتّباعُ الظّنّ وماقَتَلُوه يَقيناً * بل رَفَعَه اللّهُ إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾(١٧)

إن الله سبحانه لم يَنْفِ في هذه الآية سوى القتل، فظن كثير من سذّج المسلمين أن الله لم يتوفّاه أيضاً بل رفعه حياً إلى السماء.

ولكن الآية (٥٥) من آل عمران توضح كما رأينا أن الوفاةَ حصلت بإذن الله وأنه رفع نفسَه الطاهرة طبعاً كما هي سنة الله مع كل النفوس الإنسانية.

هذه الآيات تبين أن كل افتراءات أهل الكتاب ظلم على العذراء مريم عليها السلام وكل أقوالهم عن المسيح كانت ظناً، وليست في مستوى اليقين. لأن الله كما رأينا توفاه ورفعه إليه كما ورد في الآية السابقة.

ولا أحب التوسع في الموضوع كثيراً، لأن هدفي من البحث كله هو إظهار الحقيقة الكاملة عما في دين أهل الكتاب، وأنه مذكور في القرآن سليماً من الشوائب أو التحريف ونقياً طاهراً كما نزل إليهم أول مرة، وقد لاأبالغ إذا قلت إن جوهر المسيحية الحق في الإنجيل جاء كله في القرآن وجوهر التوراة السليم أيضاً ورد في القرآن ولاأقصد

---

(١٥) سورة المائدة: ٨٢ ـ ٨٥ (١٦) سورة آل عمران: ٥٥ (١٧) سورة النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨

طبعاً نصوصهما الحرفية وإنما أقصد أساس المعتقد والأمور الهامة والأساسية في كلا الكتابين.

لنستعرض آيات عيسى بن مريم التي وصفها الله تعالى بأنها بينات وأيده بها لتكون بصائر، تصدق مابين يديه من الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، والتي تمت على يديه بإذن الله. قال تعالى:

﴿ويُعلّمهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيلَ إنّي قد جِئتُكُم بآيةٍ من رّبِكم إنّي أخلقُ لكم من الطينِ كهيئةِ الطير فأنفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذنِ الله وأبرئُ الأكْمَهَ والأبرصَ وأُحيي الموتى بإذن اللّه وأنّبئكُم بما تأكُلونَ وماتدّخِرون في بيوتِكم إنّ في ذلك لآيةً لكم إنْ كنتمْ مؤمنين﴾[١٨]

فهذه المعجزات جاءت لتثبيت إيمان الناس بأن عيسى رسول من الله إليهم، مهمته إتمام مابدأ به موسى عليه السلام:

﴿ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ولِأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم، وجِئتُكُم بآيةٍ من رّبِكم فاتّقوا الله وأطيعونِ﴾[١٩]

﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفرَ قال مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحنُ أنصارُ اللّه آمنّا باللّه واشهدْ بأنّا مُسلِمون﴾[٢٠]

ومن معجزات عيسى بن مريم:

﴿إذْ قال اللّهُ ياعيسى ابنَ مريم اذكُرْ نعمتي عليكَ وعلى والدتِك إذْ أيّدْتُكَ بروحِ القُدسِ تُكلّمُ الناسَ في المهدِ وكَهلاً وإذْ علّمْتُكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ وإذْ تخلقُ من الطينِ كهيئةِ الطيرِ بإذني فتنفخُ فيها فتكونُ طيراً بإذني وتُبرئُ الأكْمَهَ والأبرصَ بإذني وإذ تُخرِجُ الموتى بإذني وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيلَ عنك إذْ جِئتَهُم بالبيّناتِ فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاّ سِحرٌ مُبينٌ﴾[٢١]

﴿إذْ قال الحواريون ياعيسى ابنَ مريم هل يستطيعُ ربُّك أنْ ينزِّلَ علينا مائدةً من السماءِ قال اتّقوا اللّهَ إن كُنتمْ مؤمنين * قالوا نريدُ أن نأكُلَ منها وتطمئِنَّ قلوبُنا ونعلَمُ أنْ قد صَدَقْتَنا ونكونَ عليها من الشاهدين * قال عيسى ابنُ مريم اللّهم ربَّنا أنزِلْ علينا مائدةً من السماء تكونُ عِيداً لأوّلِنا وآخرِنا وآيةً منكَ وارزُقْنا وأنتَ خيرُ الرازقين * قالَ اللّهُ إنّي

(١٨) سورة آل عمران: ٤٨ - ٤٩
(١٩) سورة آل عمران: ٥٠
(٢٠) سورة آل عمران: ٥٢
(٢١) سورة المائدة: ١١٠

مُنزِلُها عليكم فمَنْ يكفُر بعدُ منكم فإنّي أُعذِّبُه عذاباً لاأعذِّبُه أحداً من العالَمِينَ﴾[٢٢]
ومن خلال هذه الآيات نكون قد ألممنا بالمعجزات التي يسميها الله البينات التي تمت على يد عيسى بن مريم وكانت غايتها كما بينا هو تصديقه والاطمئنان إليه كما قالها الحواريون بصراحة.

﴿ولما جاء عيسى بالبيّنات قال جئتُكم بالحِكمةِ ولأبيّنَ لكم بعضَ الذي تختلفونَ فيهِ فاتّقوا اللّهَ وأطيعونِ * إنّ اللّه هو ربّي وربُّكم فاعبدُوهُ هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾[٢٣]

ونستنتج من الآيات الكريمة أنه بعد أن تمت المعجزات على يد عيسى ابن مريم عليه السلام جاءهم بالحكمة، والحكمة كما برهنا عليها سابقاً في القرآن هي آيات الصراط المستقيم نفسه أي آيات الفرقان ذاتها الذي نزل على موسى وهي كما قلنا مراراً الوصايا العشر أو ألواح موسى عليه السلام، والدليل على صحة ماذهبنا إليه أن الآية الكريمة تقول بعدها هذا صراط مستقيم، بينما لم يشر القرآن الكريم قبل هذه إلى أن عيسى عليه السلام أوتي الحكمة، وهذه إشارة صريحة من القرآن الكريم مباشرة بأن آيات الحكمة هي آيات الصراط المستقيم نفسها.

والدليل على عدم وجود آيات الحكمة في الإنجيل ظاهر في الآية:

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾[٢٤]

والله سبحانه لم يقل آتيناه الحكمة. بل قال: يُعَلِّمُهُ، لأن آيات الوصايا العشرة أو الفرقان كانت موجودة في مانزل على موسى وتعلمه المسيح عليه السلام من الله سبحانه مباشرة.

(٢٢) سورة المائدة: ١١٢ ـ ١١٥ (٢٣) سورة الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤ (٢٤) سورة آل عمران: ٤٨

٢٤ ـ رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بدليل القرآن

ماهي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بدليل القرآن الكريم؟

ورد اسم محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن أربع مرات في الآيات الآتية:

﴿ومامحمدٌ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِهِ الرّسلُ أفإن ماتَ أو قُتِلَ انْقلبتُم على أعقابِكُم ومَنْ ينقلِبْ على عَقِبَيْهِ فلنْ يَضُرَّ اللّهَ شيئاً وسيَجزي اللّهُ الشاكرينَ﴾(١)

﴿ماكان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكُم ولكن رسولَ اللّهِ وخاتَمَ النّبيّينَ وكانَ اللّهُ بكلّ شيءٍ عليماً﴾(٢)

﴿والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كَفَّرَ عنهم سيّئاتِهِم وأصْلَحَ بالَهُم﴾(٣)

﴿محمدٌ رسولُ اللّهِ والذينَ معه أشدّاءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم تَراهُم ركّعاً سُجّداً يَبتغونَ فَضلاً من اللّه وَرِضواناً سِيماهُم في وجوهِهِم من أَثَرِ السجودِ ذلكَ مَثَلُهُم في التوراة(ج) ومَثَلُهُم في الإنجيل كَزَرعٍ أخرجَ شَطْئَهُ فآزَرَهُ فاستغلَظَ فاستوى على سوقِهِ يُعجِبُ الزُّرّاع لِيغيظَ بِهِمُ الكفّارَ وَعَدَ اللّهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾(٤)

في هذه الآية يعطينا الله تعالى معلومتين جديدتين وهما: أن الله تعالى قد ضرب مثلاً عن صفة المسلمين وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم استمده من التوراة في صدر الآية ومثلما استمد مثلاً لهم من الإنجيل في المثال الثاني والأخير من الآية.

وورد مرة واحدة اسم أحمد في الآية الآتية:

﴿ومُبَشِّراً برسولٍ يأتي منْ بَعدِي اسمُهُ أحمد﴾(٥)

والاسم في اللغة العربية من الوسم، وهو العلامة أو الصفة، فأحمد صفة للرسول والقرآن يقول عن ذلك إسم ولكن القرآن عند ذكر عيسى وموسى ونوح ويونس لايقرن ذلك

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤
(٢) سورة الأحزاب: ٤٠
(٣) سورة محمد: ٢
(٤) سورة الفتح: ٢٩
(٥) سورة الصف: ٦

بكلمة الإسم لأنها كما قلنا هي صفة، ومن الاسم أيضاً تسمية عيسى بالمسيح.
كأن نقول مثلاً: ذلك سَعيدٌ الذي إسمه «الناجحُ»
وكذلك الله تعالى حين يذكر محمداً رسول الله ويريد أن يصفه يقول «إسمه أحمد» وهذا صفة أو اسم تفضيل من الحمد.

وهكذا ورد اسمه في الإنجيل أحمد، وقد ترجم من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية فوضع المترجمون لفظ (الفارقليط) بدل أحمد، وهو من مشتقات الحمد أيضاً، لكن بعض المغرضين الذين لهم هدف بالتمويه على ذلك الاسم حين ترجموه إلى العربية من اليونانية عادوا فترجموه بالمُعزّي، والمعزّي لاتعطي دلالة الحمد في لغة من لغات العالم فهي ليست مرادفة للحمد من قريب أو بعيد.

كيف تم تكليف الرسول الكريم الرسالة:

أول ماتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم الوحي كان جبريل يأتيه بشكل مشخص كي لايحسب الرسول أنه واهم أو أن به مسّاً فكان يرى جبريل رأي العين، وأول مانزل عليه قوله تعالى:

﴿اقرأْ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَق * خَلَقَ الإنسانَ منْ علقٍ * اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ الذي علّمَ بالقلم * علّمَ الإنسانَ مالَمْ يعلَم﴾(٦)

ثم أتاه الوحي مرة أخرى وطلب منه أن ينذر:

﴿ياأيّها المُدّثّر * قُمْ فأنذِرْ﴾(٧)

وشرع الله يوحي إليه، ويعظه بعد ذلك، ويعلمه كيف يجب أن يتصرف ويتحلى بالصبر الجميل: ﴿واصْبِرْ على ما يقولونَ واهْجُرهُم هَجْراً جميلاً﴾(٨)

أما المكذبون من الأغنياء وأثرياء قريش فيوصيه أن يتركهم لله

﴿وذَرْني والمكذّبين أولي النّعمة ومَهِّلْهُم قليلاً﴾(٩)

ثم يذكّر الله تعالى الناس أنه إنما أرسل لهم رسولاً كما بعث لآل فرعون قبل ذلك موسى رسولاً:

﴿إنّا أرسلْنا إليكُم رسولاً شاهداً عليكُم كما أَرسلْنا إلى فرعونَ رسولاً﴾(١٠)

---

(٦) سورة العلق: ١ - ٥
(٧) سورة المدثر: ١ - ٢
(٨) سورة المزمل: ١٠
(٩) سورة المزمل: ١١
(١٠) سورة المزمل: ١٥

﴿وأوحِيَ إليّ هذا القرآن لِأُنذِرَكُم بهِ﴾(١١)

﴿يأَيّها الرسولُ بلّغْ ماأنزلَ إليكَ من ربِّكَ﴾(١٢)

وهكذا نرى أن الله تعالى يطلب من رسوله أن يبلغ رسالته للناس، وماعليه إلا البلاغ وإن انصرفوا عنه أو أداروا ظهورهم له:

﴿وإنْ تَوَلّوْا فإنّما عليكَ البلاغُ﴾(١٣)

﴿وقل للّذينَ أُوتُوا الكتابَ والأميّين أأسلمتُم فإنْ أَسلَمُوا فقد اهتَدوْا وإنْ تَوَلّوا فإنّما عليكَ البلاغُ واللّهُ بصيرٌ بالعبادِ﴾(١٤)

﴿فإنْ تَولّيتُم فاعلَموا إنّما على رسولِنا البلاغُ المبينُ﴾(١٥)

﴿هذا بلاغٌ للناس وَلِيُنذَروا بهِ﴾(١٦)

﴿وماعلى الرسولِ إلاّ البلاغُ المبينُ﴾(١٧)

﴿فإنْ أعرَضوا فما أرسلْناك عليهم حَفيظاً إنْ عليكَ إلاّ البلاغُ﴾(١٨)

وهكذا نجد أنّ مهمة الرسول تنتهي بإبلاغ الناس رسالة الرحمن وليس على الرسول أن يكون حفيظاً عليهم، لأن الله أساساً عندما قرر خلق الإنسان قرّر أن يعطيه نفخة من روحه، وفي تلك النفخة بعض صفاته، ومنها القدرة على التفكير، واتخاذ القرار بحرية تامة، وهو المخلوق الوحيد بحسب علمنا القادر على ذلك طبعاً بإذن الله وتقديره، ولذلك قال لهم الله تعالى ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾(١٩)

﴿لا إكراهَ في الدّينِ قد تبيَّنَ الرشدُ من الغيّ﴾(٢٠)

﴿أفأنْتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾(٢١)

ولذلك فالله تعالى لايحب أسلوب الإكراه في الدين، أو في سواه، بل يحب للإنسان أن يستخدم عقله، ومن خلال عقله يختار مايصلح له، ثم يتحمل مسؤولية اختياره وهذا مطلق العدل.

---

(١١) سورة الأنعام: ١٩
(١٢) سورة المائدة: ٦٧
(١٣) سورة آل عمران: ٢٠
(١٤) سورة آل عمران: ٢٠
(١٥) سورة المائدة: ٩٢
(١٦) سورة إبراهيم: ٥٢
(١٧) سورة النور: ٥٤
(١٨) سورة الشورى: ٤٨
(١٩) سورة الكهف: ٢٩
(٢٠) سورة البقرة: ٢٥٦
(٢١) سورة يونس: ٩٩

والله تعالى يذكرنا على الدوام أنه لغايةٍ في نفسه، أراد أن يختبر الإنسان فأعطاه حريه الاختيار ولو شاء لخلقه مؤمناً.

كما فعل ذلك مع الملائكة، فلم يعطهم إمكانية العصيان، فهم لايعرفون إلا قول: نعم، وليسوا بقادرين على قول: لا، كذلك الحيوانات على الأرض تطيع الله بالغريزة ولاتعرف معنى عصيان قوانين الله لأنه لم يعطها القدرة العقلية أو حرية الاختيار

﴿ولو شِئْنا لآتَيْنا كلَّ نفسٍ هُداها﴾[٢٢]

﴿ولو نشاءُ لجَعلْنا منكم ملائكةً في الأرضِ يخلفُون﴾[٢٣]

أي ليست لهم القدرة على العصيان.

﴿إنْ نَشَأْ نَخسِفْ بهِمُ الأرضَ﴾[٢٤]

﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرض كلّهمُ جميعاً﴾[٢٥]

من كل ماسبق نستنتج أن الله لم يشأ ذلك، وإنما شاءت مشيئته أن تتأخر عن مشيئتنا وقد فعل ذلك أيضاً في موضوع آخر:

﴿ذلك بأنّ اللّهَ لم يَكُ مغيّراً نعمة أنعمَها على قومٍ حتى يغيّروا مابأنفسِهِم﴾[٢٦]

﴿إنّ اللّهَ لايُغيّرُ مابقومٍ حتى يغيّروا مابأنفسِهِم﴾[٢٧]

فالله تعالى في هاتين الآيتين يعلن لكل الناس أنه لن يغير ساكناً في هذين الحالين حتى يبدأ الناس أولاً بالتغيير، فإن بدلوا بالحسن السيّء تدخّل وبدّل لهم بالنعمةِ نقمةً، وبالرضى غضباً، وإن تحولوا من سيء إلى حسن تدخل وبدل بما يلائم ذلك، ولكن تدخله يكون نتيجة لجهدهم وعملهم في طلب الصلاح والإصلاح، أو النكوص عن التطور إلى الجمود والتخلف، أي أن الله يطالب الناس أن يتحركوا مع الزمن ومع التاريخ دون أن يناموا على الطريق، فمن يفهم ويتحرك ويعمل صالحاً أفاد واستفاد ونفع أمته، واستفاد شخصياً، والله تعالى يقول لنا:

﴿وماتَشاؤونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللّهُ﴾[٢٨] فيجب ألا نخجل أو نتواضع. ونقول: كيف يمكن أن نشاء نحن قبل أن يشاء الله؟ لاحرج في ذلك مادمنا ندرك أن الله قد سمح بذلك،

---

(٢٢) سورة السجدة: ١٣
(٢٣) سورة الزخرف: ٦٠
(٢٤) سورة سبأ: ٩
(٢٥) سورة يونس: ٩٩
(٢٦) سورة الأنفال: ٥٣
(٢٧) سورة الرعد: ١١
(٢٨) سورة التكوير: ٢٩

لغاية في نفسه، فعلينا أن ننفذ رغبته تعالى، ومعنى الآية واضح، فهو يشير إلى أن الإنسان إذا شاء ورغب في الإيمان، بعد أن سمع الإنذار والبلاغ، فإن الله يرحب به فيؤيده بمشيئة لاحقة مباشرة لمشيئة الإنسان السابقة. ولايتم ذلك بالرغم من مشيئة الله ولايجوز أن نفهمها فهماً مغايراً لمعناها كما يتوهم بعضهم، فيظنون أن مشيئتنا رهن بمشيئة الله، والسبيل القويم وهو الصراط المستقيم ألاّ نطيع كل أولئك لأنهم جميعاً من الذين ضلوا الطريق، فإطاعتهم تعني أن نتبع سبلهم. وسبلهم كلها ضالّة. وأنّى للضال أن يهدي غيره؟ بل علينا أن نقول لهم:

﴿قلْ لاأتّبع أهواءَكُم قد ضللت إذاً وما أنا مِنَ المهتدينَ﴾ وهو مبدأ بديهي فمن ضل لايهدي سواه. وإنما يحتاج إلى من يعيده إلى الطريق السوي ويهديه إلى ذلك.

الحرام والحلال في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم:

في كل دين سماوي لابدّ من الوصايا العشر أو الفرقان أو آيات الحكمة، أو آيات الصراط المستقيم، وهي كلها تسميات لموضوع واحد.

﴿قل تعالوا أتلُ ماحرّم ربُّكم عليكم ألاّ تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتُلوا أولادَكُم من إملاقٍ نحن نرزُقكم وإياهُم ولاتقرَبوا الفواحشَ ماظَهَرَ منها ومابَطنَ ولاتقتلوا النفسَ التي حرّمَ اللّهُ إلاّ بالحقِّ ذلكُم وصّاكم به لعلّكم تعقِلون * ولاتقربوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلُغَ أشدَّهُ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسطِ لانكلّفُ نفساً إلا وُسعَها وإذا قلتمْ فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهدِ الله أوفوا ذلكُم وصّاكُم به لعلّكم تذكرون * وإنْ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتّبعوا السّبلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيلِهِ ذلكُم وصّاكم به لعلّكم تتّقون﴾(٢٩)

﴿ويُحلّ لهم الطيباتِ ويحرّمُ عليهم الخبائثَ﴾(٣٠)

هذا هو مبدأ التحريم والتحليل في الإسلام:

﴿قل لاأجدُ فيما أوحِيَ إليّ محرّماً على طاعم يطعمهُ إلاّ أن يكونَ ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحمَ خنزيرٍ فإنه رجسٌ أو فسقاً أُهلَّ لغيرِ اللّه به فمن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولاعادٍ فإنّ ربّكَ غفورٌ رحيم﴾(٣١)

فالمحرمات التي تتعلق بالطعام كلها وردت في هذه الآية، ولكن يجب أن لاننسى

(٢٩) سورة الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣ (٣٠) سورة الأعراف: ١٥٧ (٣١) سورة الأنعام: ١٤٥

موضوع العرف والعادة عند الناس، فكل أمة بحسب أعرافها وتقاليدها لاتميل إلى أكل لحم حيوان معين، ليس من باب التحريم وإنما من باب العرف والعادة فإن العادة تتحكم بنفوس الناس فلا يميلون لأكل حيوان معين بالذات، فهم أحرار في ذلك وليس من إكراه عليه، ولهم إذا سألناهم لماذا لاتأكلون لحم الضبع أو الحمار مثلاً أن يجيبوا : هي عادة درجنا عليها، ونحن المسلمين تعودنا بحسب تقاليدنا ألا تميل نفوسنا لأكل لحميهما، ولكن لانقول إن الله حرمهما علينا. والله في موضوع التحريم والتحليل، لم يحب أن يترك الأمر للاجتهاد أو لمشيئة الرسول بل يؤاخذ رسوله إن مال إلى إساءة فهم هذا الموضوع بالذات، ﴿ياأيها النبي لِمَ تحرّمُ ماأحَلّ اللهُ لكَ تبتغي مرضَاة أزواجِكَ واللّهُ غفورٌ رحيم﴾(٣٢). والرسول لم يحرم شرب العسل على الناس كلهم بل حرمه على نفسه، اعتقاداً منه أنه يعقب رائحة كريهة، ومع ذلك فإن الله لم يسكت عنه لأنه يتعلق بموضوع الحرام والحلال، وبما أن الرسول سيكون قدوة للمسلمين جميعاً، صحح الله تعالى تصرّفه الناجم في الأصل من مكر النساء، وقد شرحنا ذلك سابقاً في هذا الكتاب.

كما أن موضوع التحريم والتحليل الذي يتعلق بالزواج أيضاً مشروع من قبل الله وبأسلوبه الالهي في سورة التحريم:

﴿ولا تنكحُوا مانكَحَ آباؤكم من النساءِ إلاّ ماقد سلفَ إنّه كانَ فاحشةً ومقْتاً وساءَ سبيلاً * حرمتْ عليكم أمهاتكم وبناتُكم وأخواتُكم وعمّاتُكم وخالاتُكم وبناتُ الأخ وبناتُ الأختِ وأمهاتُكم اللاتي أرضعْنَكم وأخواتُكم من الرّضاعة وأمهاتُ نسائكم وربائبُكم اللاتي في حجوركم من نسائِكم اللاتي دخلتُم بهنَّ فإنْ لم تكونوا دخلْتُم بهنّ فلا جناحَ عليكم وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابِكم وأن تجمعوا بين الأختَيْن إلاّ ماقد سلفَ إنّ اللهَ كان غفوراً رحيماً * والمحصنّات من النساء إلاّ ماملكَتْ أيمانُكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراءَ ذلكم أن تبتغوا بأموالِكم محصنينَ غيرَ مسافِحينَ فما استمتَعْتُم به منهنَّ فآتوهنّ أجورَهنَّ فريضةً ولاجناحَ عليكم فيما تراضيتُم بِهِ من بعدِ الفريضة إنّ الله كان عليماً حكيماً﴾(٣٣)

ومن المحرمات أيضاً الربا:

﴿وأحلّ الله البيعَ وحرّمَ الرّبا﴾(٣٤)

(٣٢) سورة التحريم: ١ (٣٣) سورة النساء: ٢٢ ـ ٢٤ (٣٤) سورة البقرة: ٢٧٥

﴿وحرّم عليكم صيدَ البرّ مادمتم حُرُماً﴾[٣٥]

﴿الزاني لاينكحُ إلاّ زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لاينكحُها إلا زانٍ أو مشركٌ وحرّم ذلك على المؤمنين﴾[٣٦]

والمقصود بالزانية والزاني في هذه الآية ليس المسلم المؤمن الذي وقع في المعصية ثم تاب دون أن ينكشف أمره توبة نصوحاً فحسب، بل الذين يجعلون الزنا وعمل الفاحشة عملاً لهم أيضاً سواء أكان رجلاً أم امرأة، ويرتزقون منه ومن هذه الفئة نجد في كل المدن حالياً الكثير.

﴿قل أرأيتم ماأنزلَ اللهُ لكم من رزقٍ فجعلتُم منه حراماً وحلالاً قل آالله أذنَ لكم أم على اللهِ تفترونَ﴾[٣٧]

وفي هذه الآية ختام المسك، لأن الله تعالى يعلمنا فيها أن موضوع التحليل والتحريم خاص به وحده، ولايسمح لأحد أن يتصرف فيه باجتهاد أو حديث إلا بنص وفي كتاب، ولذلك أرسل عيسى بن مريم عليه السلام كما يقول تعالى: ﴿ولأحلّ لكم بعضُ الذي حُرّم عليكم وجئتكم بآيةٍ من ربكُم فاتقوا اللهَ وأطيعونِ﴾[٣٨]

إما أن نتقول بعد ذلك على الرسول كلاماً كله أوهام دون علم أو كتاب مبين ففي ذلك تجنّ على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الناس، نقول: وفي ذلك ظن غير مؤيد إلا بحدين يحتمل الصدق والكذب، ومامن يقين نركن إليه، أما آيات الله اليقينية فتؤكد وتصرح بأن ذلك ليس من حق أحد إلا الله تعالى. وهو أصدق القائلين ومادام كتابه بين أيدينا فلا بد أن نتبع كتابه ولانتبع الظن.

﴿ومايتبعُ أكثرُهم إلاّ ظنّاً إنّ الظّنَّ لايُغني من الحقِّ شيئاً﴾[٣٩]

﴿الحقّ من ربّك فلا تكنْ من الممتَرينَ﴾[٤٠]

وبعد أن عرضنا المحرمات ننتقل إلى موضوع لايقل عنها أهمية:

﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلّكم تفلحونَ﴾[٤١]

وأعتقد أننا نحتاج اليوم: إلى الاجتهاد في موضوع الميسر، فنضيف إليه المراهنات واليانصيب وإن كانت كلمة الميسر تعني لوناً من الرهان بأنواعه المختلفة إذ لايمكن أن

---

(٣٥) سورة المائدة: ٩٦
(٣٦) سورة النور: ٣
(٣٧) سورة يونس: ٥٩
(٣٨) سورة آل عمران: ٥٠
(٣٩) سورة يونس: ٣٦
(٤٠) سورة آل عمران: ٦٠
(٤١) سورة المائدة: ٩٠

نحل (اليانصيب) لأنفسنا بأن نسميه (يانصيباً) خيرياً، فلا خير في (اليانصيب) ولعل الله تعالى أدرجه تحت بند الاجتناب لا لأنه في الأصل ضربٌ من المحرمات بل ليتيح للناس أن يضيفوا لبابه كل مايستجد من ألوانه، لأنه لو كان في باب الحلال والحرام لما كان لنا الحق بالإجتهاد فيه أبداً.

وبعد أن تفهمنا من الآيات معنى الحرام والحلال وحدد لنا الله الأمور الواجبة الاجتناب لايصح أن نعطي أنفسنا رخصةً فنبيح لأنفسنا إباحة مفتوحة، ونضيف ونجتهد ماشاء لنا الاجتهاد في موضوع مايجب أن يجتنب، فأوامر الله مقدسة ويجب تنفيذها، ضمن الحدود التي رسمها لنا ودون أن نتجاوزها، فما هي حدود الله؟

حدود الله:

يقول تعالى:

﴿تلكَ حدودُ اللّهِ فلا تعتَدُوها﴾[٤٢]

﴿تلك حدودُ الله فلا تَقْربوها﴾[٤٣]

وقد تتضح حدود الله إن أوردنا قوله تعالى كاملاً بشأنها:

﴿الطلاق مرّتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ ولايحلُّ لكم أن تأخُذوا مما آتيتموهنّ شيئاً إلاّ أن يخافا ألاّ يُقيما حدودَ اللهِ فإنْ خِفتُم ألا يقيما حدودَ الله فلا جناحَ عليهما فيما افتدتْ به تلكَ حدودُ الله فلا تَعتدوها ومن يتعدَّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون * فإنْ طلّقَها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكحَ زوجاً غيره فإنْ طلّقَها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يُقيما حدودُ الله وتلكَ حدودَ الله يبيّنُها لقوم يعلَمون * وإذا طلّقتُم النساءَ فَبَلغْنَ أجلَهُنّ فأمسِكوهنّ بمعروفٍ أو سَرّحوهنّ بمعروف(ج) ولاتمسكوهنّ ضراراً لِتعتَدوا ومن يفعلْ ذلك فقد ظَلَمَ نفسَهُ ولاتتّخذوا آياتِ اللّه هُزَواً واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم وما أنزلَ عليكم من الكتابِ والحكمةِ يَعظِكم به واتّقوا اللهَ واعلَموا أنّ اللهَ بكلِّ شيء عليم * وإذا طلّقتُم النساءَ فبَلَغْنَ أجَلَهنَّ فلا تعضِلوهنّ أنْ ينكحْنَ أزواجَهنَّ إذا تَراضَوا بينهُم بالمعروفِ ذلك يوعظُ به مَنْ كانَ منكم يؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخرِ ذلكم أزكى لكم وأطهرُ واللّه يعلَمُ وأنتم لاتعلَمونَ﴾[٤٤]

ففي هذه الآيات الكريمة يبين لنا الله أهمّ علاقة إنسانية، وهي علاقة الرجل بالمرأة

---

(٤٢) سورة البقرة: ٢٢٩ (٤٣) سورة البقرة: ١٨٧ (٤٤) سورة البقرة: ٢٢٩ - ٢٣٢

زواجاً، ومايتعرض له ذلك الزواج من خلل ينجم عن عدم الاتفاق ويفضي إلى طلاق لابد منه، فحدد الله الطلاق مرتين، وبين أن على المسلم أن ينتبه فلا يتسرع، لأنه إن طلق الثالثة، فقد خرجت الأمور من أيديهما، لأنهما قد تعديا حدود الله، وكأن ذلك الحد يشبه الحدود الفاصلة بين الدول في عصرنا، فما دام المرء داخلها تطبق عليه قوانين الدولة التي هو فوق أرضها، فإن تعداها ودخل في حدود دولة أخرى طبقت عليه قوانين أخرى خاصة بتلك الدولة التي دخل إليها، وهكذا في هذا المثال فإن بقي الزوج داخل الحدود المسموح بها فإن بإمكانه التراجع وعقد النكاح على زوجته مرة أخرى إذا رأت القدرة على التلاؤم، أو لمصلحة الأطفال، أو لأمور أخرى يراجع فيها الطرفان نفسيهما لاستمرار العلاقة الزوجية ومحاولة العيش معاً، أما إذا وقع الطلاق ثالثة فلا يحق للزوج أن يعيد زوجه، لكن إن وقع أن تزوجت المطلقة وطلّقت بشكل طبيعي لعدم انسجام آخر،ورأت أن العودة لزوجها الأول أنسب لها وارتأى الزوج الأول مثل ذلك فلا بأس أن يتم القران ثانية لكن الله تعالى ينبهنا هنا ألا نتخذ آيات الله الكريمة هزواً وسخرية وظلماً، فنعمد إلى تمثيلية كالتي يسميها بعضهم بالتجحيش، إذ يزوجون المطلقة لشخص مأجور يطلقها بعد أن يدخل فيها ليلة أو من غير أن يدخل فيها، وهذه العملية أحرم من الزنى لأن فيها استهزاء بآيات الله التي وضعها لأسباب وجيهة، فنعمد نحن بجهلنا أن نتعامل مع تلك الآيات بمثل هذه الطريقة، والله تعالى هو الذي يقول ذلك كما رأينا سابقاً.

﴿أحلّ لكُم لَيلةَ الصيام الرَفَثُ إلى نسائكُم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ علمَ اللهُ أنكمْ كنتمْ تختانونَ أنفسكم فتابَ عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ماكتب الله لكمْ وكلوا واشربوا حتى يتبينَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ ثم أتموا الصيامَ إلى الليل ولاتباشروهنّ وأنتم عاكفونَ في المساجدِ تلكَ حدودُ اللهِ فلاتقربُوها كذلكَ يبينُ اللهُ آياتهِ للناسِ لعلّهمْ يتقونَ﴾(٤٥)

وفي هذه الآية يتبين لنا عن الطلاق جانب جديد لم يتبين لنا في الآيات السابقة: حيث بين في الآية السابقة حدود الله في الطلاق ولم يقل: لاتقربوها بل قال تعالى: لاتعتدوها بلا الناهية لأنه في حال التعدي تصبح العلاقة الزوجية محرّمة، فيجب أن يحصل التفريق كما مرّ بنا.

---

(٤٥) سورة البقرة: ١٨٧

أما في هذه الآية فإن الله تعالى يحدد لنا حدود الصلة المسموح بها للمؤمن في علاقته بزوجته في شهر الصوم: من بعد الإفطار إلى لحظة الإمساك بحيث لايقرب هذين الحدين بداية من بعد المغرب ونهاية قبل الإمساك في الصوم أي خلال هذه الفترة بين الحدين، فللمؤمن والمؤمنة حدود للتواصل، ولكن الله تعالى لم يقل: لاتعتدوها، لأن المؤمن إذا تعدى الحد في الحالة الأولى عمداً وهو يعلم تعديه لحدود الله يكون قد كفر بالله وبشرعه كما تصبح امرأته محرّمة عليه، أما في هذه الحالة الثانية فإنه إذا تعدى الحد، دخل في مجال المعصية، والمؤمن الذي ينوي الصيام يكون قد عاهد نفسه والله على الصيام، وبتعديه الحد يرتكب إثماً لتعديه حداً غير مسموح تجاوزه أصلاً، وارتكب كبيرة من كبائر الإثم لأنه أخلف ما عاهد الله ونفسه عليه بالصيام، مع علمه أن تلك المخالفة عمل خطير منه لايستهان به أبداً. وقد ذكرها الله في آيات الصراط المستقيم: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾. ١٥٢ ـ آل عمران.

وكما قال تعالى:

﴿ومن يعص اللّه ورسولَه ويتعدّ حدودَه يُدخِلْهُ ناراً خالداً فيها﴾(٤٦)

﴿ومَنْ يَتعدّ حدودَ اللّه فقد ظَلَمَ نفسَه﴾(٤٧)

ويقول تعالى في المعنى ذاته ﴿ألَمْ يعلَموا أنّه مَنْ يحادِدِ اللّهَ ورسولَه فأن له نارَ جهنّم خالداً فيها﴾(٤٨) ومعنى يحادد هنا يتجاوز حدود الله ورسوله.

﴿تلكَ حدودُ الله ومَنْ يُطِع اللّهَ ورسولَه يُدخِلْه جناتٍ﴾(٤٩)

أي أن من لم يتجاوز تلك الحدود ويبقى ضمنها بين حديها الأدنى والأعلى من ذلك مثلاً أن حدود الله في السرقة هي قطع اليد، وهي العقوبة القصوى الممكن تنفيذها بجريمة السرقة، لكن الله لم يلزم القاضي إن وجد إنساناً سرق عن حاجة فليس عنده مايأكل أن يقطع يده بل يخصص له من بيت المال بعضاً من المال يصونه عن السرقة، أو يلتمس له عملاً، أو يعفو عنه، أو يعاقبه بعقوبة يختارها كالحبس عشرة أيام مثلاً أو الجلد عشر جلدات، إذ ليس من عدل الله أن تقطع يد من سرق بيضة مثلما تقطع يد من سرق أسرار الدولة ففي ذلك ظلم واضح، وجهل بحقوق الله والناس، والقاضي أصلاً يجب أن يكون من الذين قال عنهم تعالى: ﴿يؤتي الحكمةَ مَنْ يشاءُ ومَنْ يُؤتَ الحِكمةَ

---

(٤٦) سورة النساء: ١٤
(٤٧) سورة الطلاق: ١
(٤٨) سورة التوبة: ٦٣
(٤٩) سورة النساء: ١٣

فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً﴾[٥٠] ولنضرب مثلاً آخر من المواريث، فلدينا حدود منها مثلاً: ﴿يوصيكُم اللّه في أولادِكم للذّكَرِ مثلُ حظِّ الأنثَيَيْنِ﴾[٥١]

أي أن للذكر ٥٠٪ من الميراث حداً أعلى وللأنثى منهن ٢٥٪ حداً أدنى.

ولو فرضنا أن القاضي الشرعي عرضت عليه حالة ذكر وأنثيين ورثوا أباهم، وعلم من مصادر مختلفة، وحصل على مايثبت أن الذكر منهم ثريّ، ووضعه المادي ممتاز، وأختيه نقيض ذلك ليس لديهما شيء يذكر، فإن اجتهد القاضي وأعطى الذكر ٣٣٪ من الميراث وأعطى كل بنت منهما أيضاً ٣٣٪ من الميراث فإن حكمه لايزال ضمن حدود الله، فهو لم يتجاوز الـ ٥٠٪ ولم ينزل عن ٢٥٪

وهذا هو معنى التحرك اجتهاداً ضمن حدود الله دون تجاوزها.

ويمكن تطبيق هذا المثال الذي ضربناه على حالات مماثلة في توزيع الحقوق والمواريث ضمن حدود الله.

ولننتقل بعد أن فهمنا حدود الله إلى العبادات:

العبادات:

قال تعالى: ﴿وماخلقْتُ الجنّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ﴾[٥٢]

فالعبادات ركنٌ من الأركان الأساسية التي لايمكن للدين أن يقوم إلا بها، ﴿إنْ كنتمْ في شكٍّ من ديني فلا أعبدُ الذينَ تعبدون من دونِ اللّهِ ولكن أعبدُ اللّهَ الذي يتوفّاكُم﴾[٥٣]

ماهي العبادة؟

العبادة هي طاعة الله إطاعة خالصة لوجهه مع تمثل الموقف من مخلوق صغير ضعيف محتاج إلى إلهٍ عليٍّ قديرٍ قويٍّ عزيز، طاعة ممزوجة بالخشية والخوف من هذا الخالق العظيم. وأهم العبادات ماكانت دائمة ومستمرة تتكرر كل يوم، والله سبحانه يضع على رأس هذه العبادات:

عبادة التلاوة للذكر الحكيم الذي هو القرآن الكريم. علماً أنّ الله لم يفرض علينا وقتاً أو أوقاتاً لأدائها بل تركها لنا بحسب اختيارنا مع تنبيهنا أن أفضل القراءات ماكان منها في

---

(٥٠) سورة البقرة: ٢٦٩

(٥١) سورة النساء: ١١

(٥٢) سورة الذاريات: ٥٦

(٥٣) سورة يونس: ١٠٤

الفجر من الصباح الباكر.

﴿وقرآن الفجر إنّ قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً﴾.(٥٤)

والآيات التي تأمر بعبادة التلاوة هي:

﴿وَأُمِرْتُ أن أكونَ من المسلمين * وأنْ أتلو القرآنَ﴾(٥٥)

وبحسب هذه الآية فإن التلاوة للقرآن الكريم فرض عين على كل مسلم ومسلمة

﴿رجالٌ لاتُلهيهم تجارةٌ ولابَيْعٌ عن ذكرِ اللّهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاء الزكاةِ﴾(٥٦)

﴿اتلُ ما أُوحِيَ إليكَ من الكتابِ وأَقِمِ الصلاةَ إنّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ ولَذِكْرُ اللّهِ أكبرُ﴾(٥٧).

﴿إنني أنا اللهُ لا إله إلا أنا فاعبدْني وأقِمْ الصلاةَ لِذِكْري﴾(٥٨) والذكر هو القرآن وآياته:

﴿أَءُنْزِلَ عليه الذِّكر من بيننا بلْ همْ في شكٌّ من ذِكْري..﴾(٥٩).

وآيات الذكر كثيرة جداً في القرآن ومعنى الذكر في القرآن كما يلي:

القرآن كتاب مكتوب في قرطاس يمكن أن يتركه المسلم مهجوراً في ركن من الأركان كما هو شأن القرآن معنا اليوم.

أما الذكر هو القرآن متلوّاً من عبدٍ من عباد الرحمٰن مع تلازم التلاوة للتطبيق. أكتفي بهذا القدر من المعلومات عن هذه العبادة في كتابي الأول لأني قد شرحت هذه العبادة الهامة من عبادات الاسلام التي أجبرنا على نسيانها في كهفنا كهف الظلمات بعد أن أُدخلنا إليه لأكثر من ألفِ سنة.

وسوف نجد التفصيل في كتابي الثالث (دين الرحمن ـ الذي سيصدر قريباً إن شاء الله)

﴿ومالي لاأعبدُ الذي فَطَرني وإليه تُرجعون﴾(٦٠)

﴿قلْ إني أُمرتُ أنْ أعبدَ اللّهَ مخلِصاً له الدينَ﴾(٦١)

﴿قلْ أتعبدونَ من دونِ اللّه مالايملكُ لكم ضرّاً ولانَفعاً﴾(٦٢)

﴿واسجدُوا للّهِ الذي خلقَهُنَّ إن كنتم إياه تعبدونَ﴾(٦٣)

---

(٥٤) سورة الإسراء: ٧٨
(٥٥) سورة النمل: ٩١ ـ ٩٢
(٥٦) سورة النور: ٣٧
(٥٧) سورة العنكبوت: ٤٥
(٥٨) سورة طه: ١٤
(٥٩) سورة ص: ٨
(٦٠) سورة يس: ٢٢
(٦١) سورة الزمر: ١١
(٦٢) سورة المائدة: ٧٦
(٦٣) سورة فصلت: ٣٧

﴿إيّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ﴾(٦٤)

﴿ياأيّها الذين آمنوا اركعوا واسْجدوا واعبُدوا ربَّكُم﴾(٦٥)

وهكذا نرى أن الله يشير بأن الصلاة، وهي الوحيدة التي تحتوي على الركوع والسجود، من أهم العبادات، ويركز بالذات على السجود في العبادة ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾(٦٦)

﴿قلْ لعباديَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاةَ﴾(٦٧)

وكما يقول الله تعالى مخاطباً إبليس وذريته معه.

﴿إنّ عباديَ ليس لكَ عليهم سلطانٌ﴾(٦٨)

﴿نبّئْ عبادي أني أنا الغفورُ الرّحيم﴾(٦٩)

﴿وقلْ لعبادي يقولوا التّي هي أحسنُ﴾(٧٠)

﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾(٧١)

﴿ولقد كَتبْنا في الزّبورِ من بعدِ الذّكر أنّ الأرضَ يَرِثُها عبادي الصالحون﴾(٧٢) وقال تعالى للنفس المتوفاة:

﴿ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً * فادخلي في عبادي﴾(٧٣)

لننتقل إذاً إلى ثاني العبادات وأهمها من بعد عبادة التلاوة للذكر الحكيم.

الصلاة:

﴿وذكَرَ اسمَ ربِّه فصلّى﴾(٧٤)

﴿فنادَتْه الملائكةُ وهو قائمٌ يصلّي في المحرابِ﴾(٧٥) عن النبي زكريا عليه السلام

﴿هو الذي يُصلّي عليكم وملائكتُه لِيُخرِجَكُم من الظّلماتِ إلى النور(ج) وكانَ بالمؤمنينَ رحيماً﴾(٧٦)

﴿إنّ اللّه وملائكَته يُصلّونَ على النبيّ ياأيها الذينَ آمنوا صلّوا عليْهِ وسلّموا تسليماً﴾(٧٧)

---

(٦٤) سورة الفاتحة: ٥
(٦٥) سورة الحج: ٧٧
(٦٦) سورة النجم: ٦٢
(٦٧) سورة إبراهيم: ٣١
(٦٨) سورة الحجر: ٤٢
(٦٩) سورة الحجر: ٤٩
(٧٠) سورة الإسراء: ٥٣
(٧١) سورة الكهف: ١٠٢
(٧٢) سورة الأنبياء: ١٠٥
(٧٣) سورة الفجر: ٢٨ ـ ٢٩
(٧٤) سورة الأعلى: ١٥
(٧٥) سورة آل عمران: ٣٩
(٧٦) سورة الأحزاب: ٤٣
(٧٧) سورة الأحزاب: ٥٦

وليس معنى هذه الآية تعظيم المؤمنين للنبي فإننا إن فهمناها كذلك نكون قد أسأنا لأنفسنا وللنبي، بل هي صلة ورحمة من الله تعالى لعبده، وبما أن المؤمن قد أصبح الآن بإرادة من الله حراً يختار مايشاء، وبما أن الله رحيم رؤوف غفور يحب لعباده أن ينجحوا في الاختبار، ويختاروا الطريق السليم، ويفرحه أن نكون من المهتدين بدل أن نكون من الضالين المضلين إخوان الشياطين، فإنه تعالى لاينظر إلينا نظرة المرابي الجشع الذي يريد من دائنه الإفلاس حتى يبيع مالرتهن عنده فيشتريه منه بأبخس الأثمان، بل ينظر الله إلينا نظرة الرحمة، صحيح أنه لايريد أن يسهل الاختبار علينا فيفتننا بالشيطان والشهوات وغيرها، ولكن كل ذلك لمصلحتنا لكي نختار الحق والنور عن بصيرة وهداية لاعن تقليد موروث أو مكتوب، فلا بد من العبد أن يستخدم عقله وكل قواه حتى يعقل الحق ويفهمه، ويتبع الهدى ومنهج الرحمن عن فهم وبصيرة . فالعبد الذي لايستطيع بعد ان يهتدي بنور الرحمن فيغير مابنفسه ويخرج نفسه من الظلمات إلى النور لم يفهم الإسلام، وإنما يتوهم أنه قد فهم، وهو أبعد الناس عنه، لابد أن تظهر دلائل الهداية على العبد إذا اهتدى، ولابد أن يتغير في كل شيء نحو الأحسن، وإلا فإنه لايسير على الصراط المستقيم أصلاً، ولذلك ضرب الله عن المؤمنين مثلين في التوراة والإنجيل ذكرهما الله لنا، ولابأس من أن نتذكرهما مرة أخرى في هذا المقام ﴿محمدٌ رسولُ الله(ج) والذين معه أشداءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم تَراهُم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من اللهِ ورضواناً سيماهُم في وجوهِهم من أثرِ السجود ذلك مَثَلُهم في التوراة ومَثَلُهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أخرجَ شَطْئَه فآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سوقِه يُعجبُ الزُرّاعَ ليغيظَ بهم الكفّارَ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾(٧٨)

﴿واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين﴾(٧٩)

﴿وأَقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وارْكعوا مع الراكعين﴾(٨٠)

﴿ياأيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ﴾(٨١)

وهكذا نجد أن الله تعالى يذكرنا بالصلاة ويبين لنا أنها من الأمور الهامة التي تساعد المؤمن على تجاوز المحن والصعاب والمصائب مقرونة بالصبر.. الصبر الجميل. وليس صبر

---

(٧٨) سورة الفتح: ٢٩
(٧٩) سورة البقرة: ٤٥
(٨٠) سورة البقرة: ٤٣
(٨١) سورة البقرة: ١٥٣

اليائس الذي لاأمل له، بل صبر الإنسان الذي كله أمل بالله تعالى إيماناً واحتساباً. ويذكرنا تعالى بأنها ليست سهلة بل هي من أصعب الأمور إلا على الذين خشعت قلوبهم لله. وفي أول الإسلام لم ينه الله تعالى عن المشروبات بل اكتفى أن قال:

﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاةَ وأنتم سكارى﴾(٨٢)

لأن النهي عن الخمور في عهد الإسلام الأول كان سيكون فريضة قاسية على المسلمين الذين لم يكن إيمانهم قد ترسخ إلى حد كاف يجعل الله يُنْسِئ الآية السابقة بآيات أفضل منها فيما بعد ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾(٨٣)

﴿وإذا ضربتُم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تَقصروا من الصلاةِ إنْ خِفتُم أنْ يفتنَكم الذين كَفَروا﴾(٨٤)

وهكذا نجد أن قصر الصلاة في هذه الآية مشروط بالخشية من فتنة الذين كفروا ولايجوز قصر الصلاة في غير ذلك الشرط وكذلك يشرح الله لنا كيف نصلي في الحروب وعند ترقب هجوم العدو ومباغتته. ﴿ولتأتِ طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلوا معك وليأخذوا حِذْرَهُم وأسلحَتَهُم﴾(٨٥)

الصلوات الخمس مذكورة في القرآن الكريم:

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾(٨٦)

ويعتقد كثير من المسلمين أن الله تعالى لم يحدد في القرآن عدد الصلوات في اليوم، وأوقاتها، وهم واهمون، لأنها مذكورة كلها في القرآن بدليل الآيات الآتية:

﴿وأَقمْ الصلاةَ طرفَيْ النهار وزلفاً من الليل﴾(٨٧)

أي أن الله ذكر ثلاث صلوات ولم يحدد أسماءها في هذه الآية، وهي: الصلاة الأولى في أول طرف النهار وهي صلاة الصبح.

الصلاة الثانية: في آخر طرف النهار وهي صلاة المغرب.

الصلاة الثالثة: في زلف من الليل، وهي صلاة العشاء.

﴿أقِمْ الصلاةَ لِدُلوكِ الشمسِ إلى غسقِ الليلِ﴾(٨٨)

---

(٨٢) سورة النساء: ٤٣
(٨٣) سورة المائدة: ٩٠
(٨٤) سورة النساء: ١٠١
(٨٥) سورة النساء: ١٠٢
(٨٦) سورة هود: ١١٤
(٨٧) سورة هود: ١١٤
(٨٨) سورة الإسراء: ٧٨

ويذكر في هذه الآية أيضاً أكثر من صلاتين: واحدة لدلوك الشمس أي وقت غروب الشمس، وهي صلاة المغرب. ثم إلى غسق الليل أي عند أول إقبال الليل وهي العشاء، ﴿ومن الليل فتجهد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾(٨٩)

وهي صلاة النافلة بعد العشاء، وهي ليست من الفروض.

﴿ليستأذنَكُم الذين ملكَتْ أيمانكُم، والذين لم يبلُغوا الحلمَ منكم ثلاثَ مراتٍ من قبلِ صلاةِ الفجر﴾(٩٠)

فالله تعالى إذاً سمى الصلاة الأولى التي حددناها بأول النهار وقلنا عنها صلاة الصبح، وحدد لها اسماً من عنده تعالى وسماها صلاة الفجر. فلا جدال فيها، وقد أصبحت ثابتة.

﴿وحين تضعونَ ثيابَكم من الظهيرة ومن بعدِ صلاةِ العشاء﴾(٩١) وهذه الصلاة التي حددها الله لنا بدليل الآية الأولى ﴿زَلَفاً من الليل﴾ قد سماها الله تعالى: صلاة العشاء.

والصلاة عند الظهيرة هي صلاة الظهر، والصلاة الثانية التي ذكرناها سابقاً عند غروب الشمس هي صلاة المغرب وهكذا تعرفنا في القرآن أربعاً من الصلوات، والخامسة وردت أيضاً في قوله تعالى:

﴿وحافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى﴾(٩٢)

فلايمكن للصلاة الوسطى التي هي الخامسة أن تكون وسطاً بين خمس صلوات إلا إذا كان قبلها صلاتان وبعدها صلاتان، أي قبلها صلاتا الفجر والظهر، وبعدها صلاتا المغرب والعشاء

﴿وسّبحْ بحمدِ ربّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغروب﴾(٩٣) فهما صلاة الفجر والعصر.

﴿إنّما يؤمنُ بآياتِنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمدِ ربِّهم﴾(٩٤)

وعلمنا من هذه الآية أننا عندما نسجد يجب أن نسبح لله:

﴿سبحانَ ربّيَ الأعلى﴾ وعندما نركع نسبح لله ﴿سبحانَ ربّيَ العظيم﴾

---

(٨٩) سورة الإسراء: ٧٩
(٩٠) سورة النور: ٥٨
(٩١) سورة النور: ٥٨
(٩٢) سورة البقرة: ٢٣٨
(٩٣) سورة ق: ٣٩
(٩٤) سورة السجدة: ١٥

. ﴿وأَقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وارْكعوا مع الرّاكعين﴾[٩٥]

إذاً طقوس الصلاة فيها ركوع وفيها سجود

﴿يا أيّها الذين آمنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعبُدوا ربَّكم﴾[٩٦]

والصلاة فيهامع الركوع سجود أيضاً كما في هذه الآية. وقد كانت صلاة الذين قبلنا فيها الركوع والسجود أيضاً بدليل الآية الآتية:

﴿يامريم اقنِتي لرّبكِ واسجُدي واركعي معَ الراكعين﴾[٩٧]

﴿وظن داوود أنما فتنّاه فاستغفرَ ربّه وخرَّ راكعاً وأنابَ﴾[٩٨]

﴿وعهدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتي للطائفينَ والعاكفين والرّكّع السجّود﴾ ومن الآية نتبين أيضاً ان عادة الاعتكاف في المساجد كانت موجودة أيضاً من أيام إبراهيم وإسماعيل.

﴿سيماهُم في وجوهِهم من أثرِ السّجودِ﴾[٩٩]

﴿الرّاكعونَ السّاجدون الآمرونَ بالمعروف والنّاهُونَ عن المنكرِ﴾[١٠٠]

﴿وإنّ المساجد لّله فلا تَدْعوا مع اللهِ أحداً﴾[١٠١]

فالآيات السابقة تثبت أن كل المعلومات عن الصلاة واردة في القرآن من ركوع وسجود وتسبيح الله في أثنائهما، حتى أن الله عز وجل يبيّن لنا مانقول في أثناء الصلاة في الآية الآتية: وكان الرسول وبعض الصحابة ممن يصلون صلاة النافلة، وهم يدعون الله ويقرؤون القرآن في أثناء الصلاة فنزلت هذه الآية فيهم:

﴿إنّ ربَّكَ يعلَمُ أنّكَ تقومُ أدنى من ثُلُثَيِ الليلِ ونصفُه وثلثهُ وطائفةٌ من الذين معكَ واللهُ يقدرُ الليلَ والنهار علم أنْ لنْ تحصوهُ فتابَ عليكم فاقرؤوا ماتيسّرَ من القرآنِ علمَ أنْ سيكونُ منكم مرضى وآخرون يضربونَ في الأرضِ يبتغونَ من فضلِ اللهِ وآخرونَ يقاتلونَ في سبيلِ اللّهِ فاقرؤوا ماتيسّرَ منه وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأقرضوا اللّهَ قرضاً حسناً وماتُقدّموا لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عندَ اللّه هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إنّ اللّهَ غفورٌ رحيم﴾[١٠٢] والله تعالى طلب منا أيضاً، في كل صلواتنا ، أن نصلي على

---

(٩٥) سورة البقرة: ٤٣
(٩٦) سورة الحج: ٧٧
(٩٧) سورة آل عمران: ٤٣
(٩٨) سورة ص: ٢٤
(٩٩) سورة الفتح: ٢٩
(١٠٠) سورة التوبة: ١١٢
(١٠١) سورة الجن: ١٨
(١٠٢) سورة المزمل: ٢٠

النبي محمد صلى الله عليه وسلم بدليل الآية ﴿ياأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً﴾(١٠٣)

فليس محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي وضع ذلك في الصلاة وإنما وضعه ربّ العالمين.

﴿وإذا قُرئَ القرآنُ فاستمعوا له وأنْصِتوا لعلّكم تُرحمونَ﴾(١٠٤)

إنها عبادة القراءة للقرآن. وسوف أشرحها لاحقاً إن شاء الله بالتفصيل.

ومن الآيات التي تثبت أن الله أمر في القرآن بعبادة (قراءة القرآن) لتفهّم مقاصد الرحمن من عباده قوله تعالى:

﴿أَقِمْ الصلاةَ لِدُلوكِ الشمسِ إلى غسقِ الّليلِ وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كانَ مَشهوداً﴾(١٠٥)

ليس المقصود بقرآن الفجر مانقرأ من الآيات في صلاة الفجر، فالله يعلم أن أغلب المسلمين لايحفظون القرآن غيباً، لكنّ المقصود هو قراءة القرآن بعد صلاة الفجر مباشرة، وذلك بالجلوس وفتح القرآن وتلاوته، والله يعلم أن أفضل وقت لفهم آيات الله هو هذا الوقت المبكّر من النهار.

﴿ياأيها المزّمّل * قُم الّليلَ إلاّ قليلاً * نصفَهُ أو انقصْ منه قليلاً * أو زِدْ عليه وَرَتِّلْ القرآنَ ترتيلاً﴾(١٠٦)

ذلك هو الأمر بالصلاة الذي تلقاه الرسول الكريم من الله، لأن الله تعالى كان يهيئه لأمر معين. ويعلم بأن رسوله يحفظ آيات القرآن كلها وهذا الأمر لم يكن عاماً لكل المسلمين.

﴿إنّا سنُلقي عليكَ قولاً ثقيلاً﴾(١٠٧) وقد كان هذا سبب ذلك الأمر.

هل فرض الله الصلاة؟

في كل الآيات القرآنية التي ورد فيها كلمة الفرض لم يذكر الله تعالى أن العبادات فرض أي إلزام من الله للإنسان لأن الفعل (فرض) في القرآن الكريم جاء بمعنى: حدد وعيّن، كما في الآيات التالية

﴿فمنْ فرضَ فيهنَّ الحجّ فلا رفَثَ ولافُسوقَ﴾(١٠٨)

---

(١٠٣) سورة الأحزاب: ٥٦
(١٠٤) سورة الأعراف: ٢٠٤
(١٠٥) سورة الإسراء: ٧٨
(١٠٦) سورة المزمل: ١ ـ ٤
(١٠٧) سورة المزمل: ٥
(١٠٨) سورة البقرة: ١٩٧

أي فمن حدّد وعيّن فيهن الحجّ

﴿وإنْ طلّقتموهنّ منْ قبلِ أن تمسُّوهُنّ وقد فرضْتُم لهنَّ فريضةً﴾(١٠٩)

أي عينتم لهن وحددتم مبلغاً معيناً من المال

﴿فَنِصْفُ مافرضتُم إلّا أنْ يَعفُونَ﴾(١١٠)

أي: تدفعون نصف المبلغ المحدد والمتفق عليه بين الطرفين: هذا واضح

وإذا كان الله تعالى إذاً لم يفرض العبادات فما موقفه منها؟

﴿ومَنْ يُطعْ اللّهَ ورسولَه يُدخلْهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ﴾(١١١)

﴿ومَنْ يُطعْ اللّهَ والرسولَ فأولئكَ مع الذين أنعمَ اللّهُ عليهم﴾(١١٢)

﴿ومنْ يُطع الرسولَ فقد أطاعَ اللّه﴾(١١٣)

﴿ومَنْ يُطعْ اللّهَ ورسولَه ويخشى اللّهَ وَيَتّقهِ فأولئكَ همُ الفائزون﴾(١١٤)

﴿ومَنْ يُطِع اللّهَ ورسولَه يُدخلْهُ جناتٍ-تجري من تحتها الأنهارُ﴾(١١٥)

﴿قلْ أطيعوا اللّهَ والرّسولَ﴾(١١٦)

﴿وأطيعوا اللّهَ والرّسولَ لعلّكُم تُرحمون﴾(١١٧)

﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلّكم ترحمون﴾(١١٨)

﴿ياأيّها الذين آمنوا أَطيعوا اللَّهَ﴾(١١٩)

في كل الآيات السابقة، ومئات مثلها في القرآن، يستخدم الله تعالى مع الناس في كل تعليماته مشتقات الفعل: طاعَ . الذي مصدره الطوع والتطوع، والتطوع هو عمل يقوم به الإنسان بمحض إرادته دون أن يكون فرضاً عليه كالسخرة مثلاً ومن يتطوع بمحض إرادته لعمل ما وينجزه بصورة أفضل ممن سخر له، ومن هنا ندرك عظمة الإسلام.

لأن الدين كله في أساسه جعله الله اختياراً من الإنسان، يختاره بعقله ويحبه بقلبه، ويتطوع للعمل به وله حباً بالله ورسوله لاكرهاً وفرضاً وتسخيراً. ومن لم يفهم ذلك لم يفهم الإسلام، وفي ضوء ذلك نعلم أن كل أعمال المؤمن يقوم بها تطوعاً ولافرضاً. فلا

---

(١٠٩) سورة البقرة: ٢٣٧

(١١٠) سورة البقرة: ٢٣٧

(١١١) سورة النساء: ١٣

(١١٢) سورة النساء: ٦٩

(١١٣) سورة النساء: ٨٠

(١١٤) سورة النور: ٥٢

(١١٥) سورة الفتح: ١٧

(١١٦) سورة آل عمران: ٣٢

(١١٧) سورة آل عمران: ١٣٢

(١١٨) سورة النور: ٥٦

(١١٩) سورة محمد: ٣٣

فروض عليه وإنما طاعات، وقد يقول قائل لنا أنا أحب الله ورسوله لكني لاأحب أن أصلي وأصوم، أو أدفع الزكاة للفقراء، لمثل هذا نقول: إنك تدعي الحب والإيمان كذباً، فالمحب يحب أن يرضي محبوبه على الدوام، ورضى المحبوب لايناله المحبّ بالعصيان بل بالطاعة، فإن ادعيت حب الله ورسوله فمن واجبك أن ترضيهما. وإلا فإنك من المنافقين، والله لايستحيي من الحق ولامن قوله ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ فهل نستطيع أن نقول عن هذه الطائفة التي أشارت إليها الآية إنها تحب الله والرسول؟ لا، إنهم من الكاذبين والمنافقين.

﴿ومنْ تطوّعَ خيراً فإنّ اللهَ شاكرٌ عليم﴾(١٢٠)

لاحظ روعة قوله في الآية الكريمة: ﴿فإنّ اللّهَ شاكرٌ عليم﴾

أي: إن الله شاكر لعبده الذي تطوع خيراً، وهذا مايسعى إليه المؤمن بكل أعماله تطوعاً وحباً لافرضاً وإكراهاً.

والفعل: (استطاع) مشتق من الطوع والتطوع. ولذلك قال تعالى ﴿ولّلهِ على الناسِ حجُّ البيتِ من استطاعَ إليه سبيلاً﴾(١٢١)

أي من تطوع بالنية والعمل للقيام بالحج ولم يقف بينه وبين تحقيق رغبته حاجز ومانع من أيّ نوع، ولم يفرضه على الناس فرضاً.

وقد ذكر الله تعالى مع الصلاة كلمة الزكاة في عدة مواطن من القرآن، فما هي الزكاة في الإسلام؟

الزكاة في الإسلام:

لنحاول فهم معنى كلمة (زكّى) من آيات القرآن نفسها، ومن الخير لناان نستمد معلوماتنا من كتاب الله أبداً:

﴿فلا تزكوا أنفسكُم هو أعلمُ بمَنْ اتّقى﴾(١٢٢)

ولفهم هذه الآية علينا أن نقرأ الآية التي سبقتها بآيتين وهي: ﴿إنّ ربَّكَ هو أعْلمُ بمَنْ ضَلَّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بمَنْ اهتدى﴾(١٢٣)

ولما كان الله يعلم كل شيء عنا فهو ليس محتاجاً إلى أن نقدم أنفسنا له ونعدد صفاتنا

(١٢٠) سورة البقرة: ١٥٨
(١٢١) سورة آل عمران: ٩٧
(١٢٢) سورة النجم: ٣٢
(١٢٣) سورة النجم: ٣٠

الحميدة ونزكي أنفسنا عنده وفي قولنا: زكى فلانٌ نفسه أي رفع من قدره وعدّد صفاته الحميدة.

ولذلك قال تعالى: ﴿قد أفلحَ من زكّاها﴾[١٢٤] أي أفلح من زين نفسه بالصفات الحميدة، لكن بالفعل والعمل وليس بالكلام المجرد عن الأفعال.

﴿يتلو عليهم آياتِكَ ويعلّمُهم الكتابَ والحكمةَ ويزكّيهم﴾[١٢٥] ومعنى الآية الكريمة: أن الرسول يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة. وهو بهذا التعليم ينقلهم من الجهل إلى العلم، وكان المؤمن لايعلم فأصبح يعلم، وبعد التعليم يمتنع عن فعل الخبائث، فلا يسلك إلا بما يرضي الله، ومثل المؤمن في ذلك مثل الماء إذا اختلط فيه شوائب كثيرة ثم صفّيناه بوسائل مختلفة، وأزلنا عنه الشوائب والخبث، وبهذا نزكيّه، أي نطهره من الشوائب. فالتزكية تكتسب معنى التطهير من الدنس والشوائب، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿ذلكُم أزكى لكم وأطهَرُ واللّه يعلم وأنتمْ لاتعلمون﴾[١٢٦]

فمن كل ماسبق نستطيع أن نفهم معنى الزكاة في الإسلام، فهي تقديم مبلغ من المال الحلال لتطهير النفس من الدنس والشوائب. فالزكاة إذاً تطهير للنفس من الدنس، وفي القرآن نجد آيات تقرن الصلاة بالزكاة؟ من ذلك على سبيل المثال الآيات:

﴿والمقُيمينَ الصلاةَ والمؤتون الزكاةَ والمؤمنونَ باللّهِ واليومِ الآخر أولئك سَنُؤتيهمْ أجْراً عظيماً﴾[١٢٧]

﴿لئن أقمتُم الصلاةَ وآتيتُم الزكاةَ وآمنتم بِرُسُلي وعزّرتُموهُم وأَقْرَضْتُم اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفّرَنّ عنكم سيئاتِكم﴾[١٢٨]

﴿مَنْ آمنَ باللّه واليومِ الآخر وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يخْشَ إلاّ الله﴾[١٢٩]

ولفهم هذه الآيات الثلاث، وآيات عديدة مثلها في القرآن، ومعرفة سبب قرن الصلاة بالزكاة، علينا أن نستدل على معنى الصلاة بالآية الآتية: ﴿إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ﴾[١٣٠]

---

(١٢٤) سورة الشمس: ٩
(١٢٥) سورة البقرة: ١٢٩
(١٢٦) سورة البقرة: ٢٣٢
(١٢٧) سورة النساء: ١٦٢
(١٢٨) سورة المائدة: ١٢
(١٢٩) سورة التوبة: ١٨
(١٣٠) سورة العنكبوت: ٤٥

فللصلاة وظيفة كما تشير الآية وهي تطهير النفس من الشوائب، كالفحشاء والمنكر، تطهيراً نفسياً وسلوكياً ولكن بأسلوب نظري.

وكذلك الزكاة فالأموال التي ندفعها في الزكاة تطهر نفوسنا وتزكيها، فينعكس ذلك على سلوكنا، كأن نمتنع عن المال الحرام والربا والغش، بالصلاة والزكاة وتزكيتها من الداخل، عملان مترابطان لأنهما في الأصل عمل واحد وهو تطهير النفس وتزكيتها من الداخل والخارج. لكن التزكية الحقيقية تتم داخل النفس التي أطاعت ودفعت الزكاة، وليست الزكاة تطهيراً للمال كما يظن بعض المسلمين المعتمدين على الأحاديث في فهم هذا الموضوع دون القرآن.

ولذلك قال الله تعالى لئلا تلتبس الأمور علينا:

﴿خُذْ من أموالِهِم صدقةً تُطهّرهُم وتُزكّيهِم بها﴾(١٣١)

إن دفع المال هو عملية حسية مادية لتطهير نفس صاحب المال لا المال الذي يملكه، فالله يبحث عن تطهير النفوس وليس عن تطهير الأموال، ولكي نفهم أن الصلاة هي عملية تطهير مباشرة للنفس ونتأكد وتطمئن قلوبنا لنستمع للآية الكريمة التالية:

﴿ياأيّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاةِ فاغسلوا وجوهَكُم وأيديكُم إلى المرافقِ وامسحوا برؤوسِكُم وأرجُلِكم إلى الكَعبيْن وإن كنتم جنباً فاطهرُوا وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامستُمُ النّساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً فامسَحوا بوجوهَكُم وأيديكم منه مايريدُ اللّهُ ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكنْ يريدُ لِيُطهرّكُم وليتمَّ نعمتَهُ عليكم لعلّكم تشكرون﴾(١٣٢)

وهذه الآية الكريمة توضح لنا أن الطهارة متجانسة شاملة فلا يمكن لإنسان أن يطهر نفسه بالصلاة وهو يصلي بجسد غير طاهر . فالطهارة النفسية المعنوية تستلزم طهارة أخرى مادية بغسل مايتوجب غسله من الأعضاء الملوثة أو البدن كله إذا تلوث بفعل جنسي، مع التيسير في الدين دون التعسير، ولذلك سمح الله بالتيمم في الحالات الموجبة لذلك، وهكذا نرى أن الصلاة في الإسلام تطهير للبدن والنفس معاً وأن الزكاة تطهير للنفس. عن طريق دفع المال زكاة وصدقة، وهما في الجوهر عمل واحد يستهدف نقاء النفس والجسد.

---

(١٣١) سورة التوبة: ١٠٣ (١٣٢) سورة المائدة: ٦

وقد نتساءل كيف تسنى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن يحدد لنا عدد الركعات في كل صلاة، من التي نسميها اليوم اصطلاحاً: (الفروض) أي عدد الركعات في كل صلاة، أو المبلغ المحدد حداً أدنى ليدفعه المؤمن عن أمواله زكاةً لنفسه. ولو عدنا الآن إلى الآيات القرآنية التي استخرجناها في موضوع إطاعة المؤمن الله ورسوله لوجدنا بينها آية واحدة تقول:

﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلّكم ترحمون﴾(١٣٣)

ففي هذه الآية وحدها يطلب منا تعالى طاعة الرسول وحده، دون ذكر لإطاعة الله معه، وهي المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي لاتقترن فيها طاعة الله بطاعة الرسول. في حين نجد آيات أخرى في موضوع الصلاة والزكاة تقرن إطاعة الرسول بإطاعة الله ﴿ويُقيمونَ الصّلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ ويُطيعونَ الَّله وَرسولَه﴾(١٣٤)

﴿وأَقِمْنَ الصّلاةَ وآتِينَ الزكاةَ وأطِعْنَ اللّهَ ورسولَهُ﴾(١٣٥)

فمن الواضح أن الله سبحانه وتعالى لم ينسّ أن يضيف في آية النور السابقة إطاعة الله إلى إطاعة الرسول إنما أشار إلى أنه سمح لرسوله في هذه الآية بأن يحدد للمؤمنين مايطيقونه من عدد الصلوات، ومايطيقونه أيضاً من دفع الأموال وفق حدود تتصف بالرأفة والرحمة، والله تعالى يعلم أن الرسول رؤوف رحيم بالمؤمنين، فسمح له بأن يقرر ذلك. ولكي لاتلتبس علينا الأمور ونظن أن أمور الصلاة كلها حددت من قبل الرسول فإن الله وضع آيتين مماثلتين في القرآن ورد فيهما ذكر الصلاة والزكاة، وفيهما أيضاً أمر للمؤمنين بإطاعة الله والرسول، واحدة عامة، والأخرى خاصة بالنساء. وبهذا منع الله الالتباس وأعلم المسلمين بأن الشيء الوحيد الذي سمح للرسول بتحديده كما رأينا كان تحديد ركعات الصلوات والحد الأدنى للزكاة حصراً، والآية التي يصف بها الله سبحانه رسوله بالرحمة وهي من صفات الله: ﴿عزيزٌ عليه ماعَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾(١٣٦)

وهي من أعظم الأوسمة التي منحها الله سبحانه وتعالى لرسوله، وهي تغنيه عن كل الصفات التي منحها الله سبحانه لباقي الرسل، ونحن المسلمين لانحاول جهلاً منا أن نصف بها رسولنا الكريم ونبرزها فوق الصفات الأخرى التي اختارها الله تعالى نفسه للرسول الكريم فنقول جهلاً وإشراكاً ـ شفيع الله وحبيب الله وكليم الله ـ.

---

(١٣٣) سورة النور: ٥٦

(١٣٤) سورة التوبة: ٧١

(١٣٥) سورة الأحزاب: ٣٣

(١٣٦) سورة التوبة: ١٢٨

الصوم:

﴿فمَنْ تَطَوَّعَ خيراً فهو خيرٌ له وأنْ تصوموا خيرٌ لكم﴾[١٣٧]

﴿ياأيّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكمُ الصّيامُ﴾[١٣٨]

وقوله تعالى ﴿كُتِبَ﴾ يعني استحب الله للمؤمنين الصوم، وسيمر بنا لاحقاً شرح هذا الترتيب القرآني في بحث خاص. وكذلك قوله تعالى ﴿فمن تطوّع﴾ فهو بمعنى استحب لنفسه ماأحبه الله له واختاره لخيره، ومن لم يتطوع لذلك فقد كفر بنعمة الله وبما استحب الله له، ودخل في فئة الكفار ولم يعد في فئة المؤمنين، فأن تكون مؤمناً بالله باختيارك معناه أن تحب أيضاً مايختاره الله لك ويستحبه لك، وهو المقصود بالآية الأولى التي تقول:

﴿فمَنْ تطوّع خيراً فهو خيرٌ له وأن تصوموا خيرٌ لكم﴾ ومن الخطأ بعد أن فهمنا الموضوع أن نقول بعد ذلك إن الله فرض الصيام لأن (الفرض) يلغي مجال الاختيار والحرية، مثلما يلغي مجال التطوع.

﴿فَمَنْ شَهِدَ منكُم الشّهرَ فَليَصُمْهُ﴾[١٣٩]

والخطاب هنا موجه للمؤمنين الذي اختاروا الإيمان بالله دون إكراه أو إلزام بل حباً وتطوعاً من أنفسهم، لكن المؤمن الملتزم صارت له حقوق عند الله سبحانه وتعالى، وعليه الطاعة، طاعة الله ورسوله، ومن باب هذه الطاعة تأتي أوامر الله ورسوله لتكون واجبة التنفيذ من قبل المؤمن، ومن هذه الأوامر الخاصة بالمؤمنين. ﴿فمَنْ شهدَ منكم الشهرَ فليصمْهُ﴾.

﴿ولّله على الناسِ حجُّ البيتِ من استطاعَ إليه سبيلاً﴾[١٤٠]

وقد يتبادر للذهن ولأول وهلة بسبب صيغة الأمر في الآية الأولى أن الله تعالى يفرض الصيام على المسلمين كافة، لكن الله سبحانه يريد أن يتم ذلك من العبد تطوعاً كباقي العبادات، بدليل قوله تعالى في الآية الثانية في الحج ﴿لمن استطاع إليه سبيلاً﴾ فيضع شرط الاستطاعة، المشتقة أصلاً من التطوع والعمل الاختياري. ولو كان الله سبحانه يعني بكلمة الاستطاعة فقط الكفاءة المالية والجسدية للقيام بالحج لقال سبحانه (لمن يقدر عليه) ويقدر من القدرة، مالاً وقوةً بدنية، لكنه ربط ذلك بالاستطاعة ليكون الحج

---

(١٣٧) سورة البقرة: ١٨٤
(١٣٨) سورة البقرة: ١٨٣
(١٣٩) سورة البقرة: ١٨٥
(١٤٠) سورة آل عمران: ٩٧

عبادة تطوعية من العبد، فالله سبحانه لم يقلِ أبداً في القرآن الكريم: صلوا لله أو صوموا لله أو زكوا لله أو حجوا لله، فرضاً وإلزاماً. ولو شاء لفعل سبحانه.

﴿وأَتمّوا الحجَّ والعمرةَ للّه﴾(١٤١)

﴿الحجُّ أشهُرٌ معلوماتٌ﴾(١٤٢)

﴿فمن فرضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ ولافسوقَ ولاجدالَ في الحج﴾(١٤٣)

﴿وأذّنْ في النّاس بالحجّ يأتوكَ رجالاً وعلى كلِ ضامرٍ﴾(١٤٤)

﴿فمنْ حجّ البيتَ أو اعتمَرَ فلا جناحَ عليه أن يطوفَ بِهما﴾(١٤٥)

أي لاجناح عليه أن يطوف حول البيت في الحج أو في العمرة.

﴿فإذا أمنتُمْ فمن تمتَّع بالعمرةِ إلى الحجّ فما استَيْسَرَ من الهَدي﴾(١٤٦)

أي عليه أن يضحي بما استيسر من الهدى.

﴿فمَنْ لم يَجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجّ وسبعة إذا رجعتُم﴾(١٤٧)

وفي مناسك العبادات علينا أن نقتدي بما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وشاهده الناس، والاسلام لم ينقطع، لذلك نحن نأخذ مناسكنا بالتواتر العملي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم موصولاً إليه صلى الله عليه وسلم. علماً أن الحج لم ينقطع عن البيت منذ أيام ابراهيم عليه السلام وإلى اليوم ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾(١٤٨)

﴿قل إنّ صلاتي ونُسُكي ومحيَايَ ومماتي للّهِ ربِّ العالمين﴾(١٤٩)

وهذا ليس فرضاً وإنما حباً وتطوعاً واختياراً.

﴿ولكلِّ أمةٍ جعلْنا منسكاً لِيذكروا اسمَ اللّهِ على مارزقَهُم﴾(١٥٠)

﴿فإذا قضيتُمْ مناسِكَكُم فاذكُروا اللّه﴾(١٥١)

﴿وأَرِنا مناسِكَنا وتبْ علينا إنك أنتَ التوابُ الرحيم﴾(١٥٢)

﴿لن ينالَ اللّهَ لحومُها ولادماؤها ولكنْ يناله التقوى منكم كذلك سخَّرَها لكم لِتُكبِّروا

(١٤١) سورة البقرة: ١٩٦
(١٤٢) سورة البقرة: ١٩٧
(١٤٣) سورة البقرة: ١٩٧
(١٤٤) سورة الحج: ٢٧
(١٤٥) سورة البقرة: ١٥٨
(١٤٦) سورة البقرة: ١٩٦
(١٤٧) سورة البقرة: ١٩٦
(١٤٨) سورة الحج: ٦٧
(١٤٩) سورة الأنعام: ١٦٢
(١٥٠) سورة الحج: ٣٤
(١٥١) سورة البقرة: ٢٠٠
(١٥٢) سورة البقرة: ١٢٨

الله على ماهَداكُم وبَشِّر المحسنين﴾[153]

﴿أَلَمْ تَرَ أنّ اللّهَ يسجُدُ له مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُ وكثيرٌ من الناسِ وكثيرٌ حَقَّ عليهِ العذابُ ومنْ يُهِنِ اللّهُ فما له من مُكرِمٍ إنّ اللّهَ يفعلُ مايشاءُ﴾[154]

الإيمان بالله:

﴿منْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر وعملَ صالحاً فلهم أجرُهم﴾[155]

﴿...ولكنّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليوم الآخر والملائكة والكتابِ والنبيّينَ وآتى المالَ على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفونَ بعهدِهِم إذا عاهَدوا والصابرينَ في البأساءِ والضّرّاءِ وحين البأس أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هُمُ المتّقون﴾[156]

في هاتين الآيتين الكريميتين من سورة البقرة يعدد لنا الله سبحانه وتعالى الشروط التي بموجبها نصبح من المؤمنين، المحبين لله ورسوله والمطيعين لهما، حباً وتطوعاً، في كل الأمور التي يجب أن يسلكها المؤمن لفائدته الشخصية، إذ لافائدة لله مباشرة من كل أعمال المؤمن ولامن عبادته، بل كلها كانت لنفع ذات المؤمن وإنقاذه من الضلال والضياع.

﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزلَ إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمَنَ باللّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورُسُلِهِ لانفرّقُ بين أحدٍ من رُسله وقالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غفرانَكَ ربّنا وإليكَ المصير﴾[157]

﴿لايُكلّفُ اللّهُ نفساً إلا وُسعَها لها ماكسَبتْ وعليها مااكتسَبتْ ربّنا لاتؤاخِذْنا إنْ نَسينا أو أخْطأنا ربّنا ولاتحمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتَه على الذين من قبلِنا ربّنا ولاتحمِّلْنا مالاطاقةَ لنا به واعْفُ عنّا واغْفِرْ لنا وارحَمْنا أنتَ مولانا فانْصُرْنا على القومِ الكافرين﴾[158]

وفي القرآن آيات كثيرة تشرح الإيمان وظروفه وملابساته، ومتى يقبله الله، ومتى يرفضه، وكل تلك الآيات مفهومة لمن قصد الفهم مع صدق النية، وأحبّ التزود مباشرة من كتاب الله ـ الذي هو نور الإسلام ومنهجه الدائم. ورحمته لكل الناس.

---

(١٥٣) سورة الحج: ٣٧
(١٥٤) سورة الحج: ١٨
(١٥٥) سورة البقرة: ٦٢
(١٥٦) سورة البقرة: ١٧٧
(١٥٧) سورة البقرة: ٢٨٥
(١٥٨) سورة البقرة: ٢٨٦

ماهي آيات محمد صلى الله عليه وسلم التي أيده الله بها؟

كل رسول يرسله الله تعالى برسالة للبشر يؤيده سبحانه بآيات بينات لكي يصدق الناس أنه رسول الله إليهم.

وقد رأينا فيما سبق آيات موسى التسع التي سماها الله (بصائر) لأنها يمكن أن ترى من الناس الذين حضروا المعجزة لتؤكد لهم أن كتاب موسى وشريعته من الله، وكذلك رأينا آيات عيسى عليه السلام لتؤكد للناس أنه رسول الله إليهم وأنه ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم سابقاً، ولظلمهم وأكلهم أموال الناس بالباطل. ثم إن الله تعالى أرسل رسالة أخيرة مع خاتم الأنبياء، أرسل محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، فبماذا أيده الله ليصدق الناس رسالته وماذا كانت آياته البينات؟

رأينا في الرسالتين السابقتين أن الله تعالى يسمّي الآيات البينات (بصائر) بدليل أنها كانت إعجازات عيانية يمكن مشاهدتها من الناس.

﴿سَلْ بني إسرائيلَ كم آتيناهُم من آيةٍ بيّنةٍ﴾(١٥٩)

﴿ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتابَ بكلِ آيةٍ ماتبعوا قِبلتَكَ﴾(١٦٠)

﴿وإن يروا كلّ آيةٍ لايؤمنوا بها﴾(١٦١)

﴿وماكان لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلاّ بإذن الله﴾(١٦٢)

﴿بل هو شاعرٌ فليأتِنا بآيةٍ كما أرسلَ الأوّلون﴾(١٦٣)

﴿إنْ نشأْ ننزلْ عليهم من السماءِ آيةً فظلتْ أعناقُهم لها خاضعين﴾(١٦٤)

ولكن ماذا كان موقف الناس من الآيات البصائر؟

﴿فلما جاءتْهم آياتُنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مُبينٌ﴾(١٦٥)

هذا هو الموقف العام من الآيات لقد رأوا فيها سحراً.

وماذا قال الناس عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم يأت الناس بمثل تلك الآيات الحسية التي يمكن أن يبصرها الناس؟

لقد قالوا إنه شاعر:

---

(١٥٩) سورة البقرة: ٢١١
(١٦٠) سورة البقرة: ١٤٥
(١٦١) سورة الأنعام: ٢٥
(١٦٢) سورة الرعد: ٣٨
(١٦٣) سورة الأنبياء: ٥
(١٦٤) سورة الشعراء: ٤
(١٦٥) سورة النمل: ١٣

﴿بل هو شاعرٌ فليأتِنا بآيةٍ كما أرسل الأوّلون﴾(١٦٦)
أو قالوا إنه مجنون:
﴿ياأيّها الذي نزل عليه الذّكر إنّك لمجنون﴾(١٦٧)
أو جمعوا بين الأمرين، أو وصفوه بالكاهن:
﴿أئنّا لَتَاركو آلهتنا لشاعرٍ مجنون﴾(١٦٨)
﴿فذكر فما أنتَ بنعمةِ رّبكَ بكاهنٍ ولامجنون﴾(١٦٩)
وكل ذلك لأنه لايأتيهم إلا بالقرآن، فما الذي معه في القرآن مما يناظر البينات التي دعم بها الله عيسى وموسى؟

لم يشأ الله أن يقف الناس من رسالة محمد الموقف ذاته الذي اتخذوه من موسى وعيسى

﴿وما كانَ هذا القرآنُ أن يُفترى من دونِ الّله ولكن تصديقَ الذي بين يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لاريبَ فيه من ربِّ العالمين﴾(١٧٠)

وفي هذه الآية يبين الله أن القرآن هو تصديق للرسالة التي بين يدي القرآن نفسه أي أن الكتاب يحتوي على قسم من الآيات فيها حقائق تصدق لآيات أخرى ليس فيها حقائق بل أوامر، وهذا هوَ أسلوب الرحمن في الإبداع، انظر إلى مخلوقاته تجد أنها تتألف من أجزاء، كالرأس واليدين والقدمين لكن كلها ملتحمة مع بعض وتشكل كلاً كاملاً لاينفصل بعضه عن بعض، وكذلك القرآن فهو مكون من جزأين ملتحمين لاينفصلان كما يحوي أيضاً بدليل الآية على آيات أخرى يسميها هنا تفصيل الكتاب.

إذا فلا بد أن يحوي القسم الذي يسميه (القرآن) الآيات التي تصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

﴿لقد كان في قَصصِهِم عبرةٌ لأُولي الألباب ماكان حديثاً يفترى، ولكن تصديقَ الذي بين يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾(١٧١)

ونحن نعلم أن العرب في تلك الفترة كانت أمة أمية ليس فيها مدارس أو جامعات، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة قلة، فاختار الله تعالى رسوله أمياً، لم يقرأ من

(١٦٦) سورة الأنبياء: ٥
(١٦٧) سورة الحجر: ٦
(١٦٨) سورة الصافات: ٣٦
(١٦٩) سورة الطور: ٢٩
(١٧٠) سورة يونس: ٣٧
(١٧١) سورة يوسف: ١١١

كتاب، ولم يكتب قبل ذلك بيمينه على قرطاس، فالقصص القرآني يعدّ تاريخاً صحيحاً لإيمان الأمم السابقة وأخبار هذا الإيمان هي من غيب الله وعلمه، ولايعلمها بهذه الدقة إلا الله تعالى فالقصص القرآني كله كان إعجازاً كاملاً مصدقاً لما بين يدي القرآن من الأحكام، وفي عصر الألف سنة من الانحطاط الاسلامي وقع المسلمون في الأوهام، فحوّلوا هذا القصص المعجز في القرآن إلى إسرائيليات تخلو من الإعجاز والعبرة معتقدين أنهم أفادوا بإدخال تفصيلات من القصص العبراني إلى الدين الاسلامي تحت ستار أحاديث للرسول، وكان عملهم جريمة لاتغتفر، ولازالوا يتبنون ذلك بالعناية والحفظ والحب. (ومن الحب ماقتل).

فإذا تجاوزنا القصص القرآني وصلنا في القرآن إلى إعجاز من جانب آخر:

﴿هو الذي أنزلَ من السماءِ ماءً لكمْ منه شرابٌ ومنهُ شجرٌ فيه تُسِيمونَ * يُنبِتُ لكم به الزّرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومنْ كلِّ الثمراتِ إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرون﴾(١٧٢)

ففي هذه الآية نرى أن الله تعالى قد طور أسلوبه في إقناع الناس، فكان يستخدم من قبل البصائر والآيات المعجزة يريها للناس ليؤمنوا فلم تكن تعطي نتائج طيبة مرضية، أما في القرآن فعمد إلى الاقناع العقلي. بمخاطبة عقول الناس؟ ﴿إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون﴾

﴿وسخّرَ لكمْ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾(١٧٣)

﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانُه إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يَذّكّرونَ﴾(١٧٤)

﴿وهو الذي سخّرَ البحرَ لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونَها وترى الفلكَ مواخرَ فيه ولِتبتَغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾(١٧٥)

كل هذه الظواهر الطبيعية آيات للذين يفكرون ويكتشفون بعقولهم أنها من صنع خالق مدبر لكن مع كل ذلك قد يأتيك شخص يذهب مذهب الطبيعيين فيزعم أن الطبيعة تدبر ذاتها بذاتها، فالأرض من طبيعتها أن تخرج الزرع أنواعاً مختلفة، وهو لايرى في ذلك إعجازاً أو خلقاً، ونحن نقول لأمثاله: إن الطبيعة العمياء المسلوبة الإرادة والقصد

(١٧٢) سورة النحل: ١٠ - ١١
(١٧٣) سورة النحل: ١٢
(١٧٤) سورة النحل: ١٣
(١٧٥) سورة النحل: ١٤

لايمكن أن تدبر نفسها بنفسها، أنها منفعلة لافاعلة، وهي أعجز من أن تدرك الغايات أو تربط بين الأسباب والنتائج البعيدة التي يجري وفقها الكون المخلوق بنظام محكم دقيق لايقدر على تصميمه إلا الخالق، ولكن الناس فُطروا على الجدل والمكابرة.

﴿وإذا قِيلَ لهم ماذا أنزلَ ربُّكم قالوا أساطيرُ الأوّلينَ﴾(١٧٦)

ولنستمع للآية التالية كيف يعبر الله تعالى عن قدرته بإعجاز قرآني خاص:

﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرةً نَسقيكُم ممّا في بطونِهِ من بينِ فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشّاربين﴾(١٧٧)، فإن التفكر في هذه الآية وحدها يكفي ليكون دليلاً للإيمان بالله وبقدرته سبحانه وتعالى. ومثلها الآية الآتية:

﴿وأَوحى ربُّكَ إلى النّحلِ أن اتّخذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشّجر وممّا يَعرِشونَ * ثم كُلي من كلِّ الثمراتِ فاسلُكي سُبُلَ ربّك ذُلَلاً يَخْرج من بطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناسِ إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون﴾(١٧٨)

﴿أوَلم يروا إلى الأرض كم أَنبتْنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم﴾(١٧٩)

فلا يجحد حقائق الخلق، وأن الله خلق المزروعات الشجر والنباتات أزواجاً، إلا كافر منكر نِعَمَ الله عليه.

وقد أشرنا في فصل سابق إلى لون آخر من الإعجاز القرآني هو الجانب العددي أو الإحصائي في القرآن

﴿الر تلك آيات الكتابِ الحكيم﴾(١٨٠)

﴿طس تلك آياتُ القرآنِ وكتاب مبين﴾(١٨١)

ففي القرآن الكريم إشارة دائمة إلى الأحرف المقطعة على أنها هي من آيات القرآن المعجزة، وقد بينا الإعجاز العددي فيها مما يدل على تصميم الله القادر على كل شيء، وقد صمم القرآن وأخرجه للناس بصورة معجزة لايستطيع الإنسان مجاراتها حتى مع التطور العلمي ووجود الحاسبات الالكترونية من غير أن يؤثر ذلك في إعجاز المعاني والتعابير والصور القرآنية والمحتوى، وأشرنا أيضاً إلى جانب آخر من الاعجاز وهو ورود حقائق علمية في القرآن لم يشأ الله أن يكشفها للناس إلا في وقت معلوم:

---

(١٧٦) سورة النحل: ٢٤
(١٧٧) سورة النحل: ٦٦
(١٧٨) سورة النحل: ٦٨ - ٦٩
(١٧٩) سورة الشعراء: ٧
(١٨٠) سورة يونس: ١
(١٨١) سورة النمل: ١

﴿وأنزلْنا من السماءِ ماءً بقدر فأسكنّاه في الأرض﴾(١٨٢)

ففي الآية السابقة إشارة إلى أن الماء ليس من أصل الأرض وإنما هو من السماء. وهذه حقيقة علمية دوّخت علماء القرن العشرين، إذ اكتشفوا بعد دراسة تاريخ تطور الأرض أنه لايمكن أن يتشكل الماء عليها. لأن كل التطورات تشير إلى تعذر إمكانية تشكل الماء عليها، وهذه آية تثبت للناس والعلماء أن ماذكر في الآية عن نزول الماء من السماء إلى الأرض هو حقيقة علمية معجزة.

وفي قوله تعالى: ﴿وأنزَلْنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد﴾(١٨٣) حقيقة علمية أخرى، فالحديد لايمكن أن يتشكل في الأرض بل يحتاج تشكله إلى طاقة خاصة حيث يجب أن تكون كتلة الأرض أكبر من كتلتها الحالية، ليكون مجموع الضغط في المركز مساوياً للقدرة اللازمة لتشكيل ذرة الحديد، والله تعالى يثبت في كتابه هذه الحقيقة المعجزة وأنه أتى بالحديد من مكان آخر ولم يتشكل على الأرض.

ويقول تعالى: ﴿وفي الأرض آياتٌ للمؤمنين وفي أنفسِكُم أفلا تُبصرون﴾

فهي دعوة من الله ليدقق الإنسان في نفسه كيف خلق، فخلقه آية معجزة ﴿يا أيها الناسُ إنْ كُنتم في ريبٍ من البَعثِ فإنّا خلقناكُم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مخلّقةٍ وغيرِ مخلّقة لنبيّنَ لكم ونُقرّ في الأرحام مانشاءُ إلى أجلٍ مسمّى ثم نخرجُكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدَّكُم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذَل العمر لكيلا يعلمَ من بعدِ علم شيئاً وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلْنا عليها الماءَ اهتزّتْ وربتْ وأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بَهيج * ذلك بأنّ اللّهَ هو الحقُّ وأنّه يُحيي الموتى وأنّه على كلِّ شيءٍ قدير﴾(١٨٤)

ففي الآية الخامسة حقيقة علمية كبيرة فالله يوضح لنا فيها بدقة متناهية مراحل تطور الإنسان التي مر بها اعتباراً من بدء خلقه من التراب ومروراً بملايين السنين من التطور. وبما أن الله له أسلوبه الخاص في الخلق فإنه، من أجل استمرار الحياة على الأرض، يعيد في أرحام الأمات والأمهات أسلوب الخلق ذاته التي مرّت بها الكائنات في تطورها عبر ملايين السنين، ولكن بصورة مختزلة وبزمن وجيز. وهكذا فالجنين يمرّ بما مرّ به الإنسان خلال مراحل تطوره في الظلمات الثلاث: ظلمات البحر. الغابات. وظلمات البر. لكن الإنسان لايلاحظ ذلك، فمراحل تطور الجنين في الرحم كما يصفها الله تعالى بدقة

(١٨٢) سورة المؤمنون: ١٨ (١٨٣) سورة الحديد: ٢٥ (١٨٤) سورة الحج: ٥ ـ ٦

يؤكدها حالياً علماء الأجنة في العالم ويبدون دهشتهم بما ورد حولها في القرآن في حين لم يتوصلوا بعد إلى مثل هذه الدقة في رؤية مراحل الجنين وهذه الشمولية.

﴿قلْ سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأَ الخَلْقَ﴾(١٨٥)

وهي دعوة صريحة من الله تعالى لنكتشف حقائق الكون ونتعرف بدء الخلق على هذه الأرض ﴿ثم استوى إلى السماءِ وهي دخان فقالَ لها وللأرضِ ائتيا طَوْعاً أو كرهاً﴾(١٨٦)

وماجاء في هذه الآية يعدّ من الحقائق العلمية التي عرفها العلماء اليوم، فقد كان الكون أول خلقه غازات مادية (دخان) والله تعالى وصفها بدقة لأن ذرات المادة من الفحم محمولة على الغازات وهي تشكل الدخان، ومع تجمع تلك الذرات بدأت النجوم والكواكب تتشكل.

﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبينٍ﴾(١٨٧)

وهذه الآية كتبت لغيرنا، فقد يفهمها من يأتي بعدنا من الناس.

ولكن الناس لم يكن تعجبهم أن يسمعوا آيات لايفهمونها، فكانوا يطالبون الرسول بمعجزة من السماء.

﴿وقالوا لولا أنزلَ عليه آياتٌ من ربّهِ قلْ إنّما الآياتُ عند الله وإنما أنا نذير مبين * أَوَلَم يكفهم أنّا أنزلْنا عليكَ الكتابَ يُتلى عليهم إنّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلمُ مافي السمواتِ والأرض والذين آمنوا بالباطلِ وكفروا باللهِ أولئكَ هُمُ الخاسرون﴾(١٨٨)

﴿الله الذي رَفَعَ السماوات بغيرِ عمدٍ تَرَوْنَها ثم استوى على العرشِ وسخّر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مسمّى يدبّرُ الأمرَ يفصل الآياتِ لعلّكم بلقاءِ ربّكم تُوقنون﴾(١٨٩)

والمعلومات الموجودة في هذه الآية تعد اليوم من الحقائق العلمية ﴿هو الذي مدّ الأرضَ وجعلَ فيها رواسيَ وأنهاراً ومِن كلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾(١٩٠)

---

(١٨٥) سورة العنكبوت: ٢٠
(١٨٦) سورة فصلت: ١١
(١٨٧) سورة الدخان: ١٠
(١٨٨) سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢
(١٨٩) سورة الرعد: ٢
(١٩٠) سورة الرعد: ٣

ولبيان الإعجاز العلمي في هذه الآية يقول الشيخ محمد متولي شعراوي في شرح: (والأرض مددناها)(*)

﴿والأرض مَدَدْناها﴾ يحمل الدليل الإعجازي على كروية الأرض ويستبعد أن تكون الأرض مسطحة بل إن الآية الكريمة ﴿والأرض مدَدناها﴾ لاتصح إلا إذا كانت الأرض كروية كيف ذلك؟

فالله تعالى قال ﴿والأرض مددناها﴾ أي بسطناها، ولكن هل قال الله أو حدد أي أرض تلك التي مددناها أو بسطناها؟ لا لم يحدد ولكنه ذكر لفظ الأرض على إطلاقها أي أنك إذا نزلت على أي أرض على سطح الكرة الأرضية ترى الأرض مبسوطة أمامك، سواء كان المكان الذي نزلت فيه في خط الاستواء أم في القطب الشمالي أم الجنوبي، أو في نصف الكرة الجنوبي أو في نصف الكرة الشمالي، إذن الأرض ممدودة حيثما ذهبت وأينما كنت، فإذا كانت الأرض مربعة أو مسدسة أو مثلثة أو على أي شكل هندسي آخر فلا بد أن تصل فيها إلى حافة أي أنك لابد أن تصل فيها إلى أرض غير ممدودة تصل فيها إلى نهاية به إذاً، فلا بد أن تكون الأرض كروية حتى لايتنافى مع الحقيقة القرآنية في قول الله سبحانه وتعالى والأرض مددناها أي بسطناها لأنك لن تصل فيها إلى مكان تكون فيه الأرض غير ممدودة أمامك، لأنَّ الأرض كروية فعلاً وهكذا خلقها الله سبحانه.

ويشرح الشيخ متولي الآية: ﴿قلْ سِيرُوا في الأرض﴾ بقوله:

(ولنضرب لذلك مثلاً.. كنا ندرس ونحن في المدرسة أن الأرض كروية وكنا ندرس ذلك بأدلة يرويها العلم.. ولكن العلم الآن ليس محتاجاً إلى أدلة لأن الإنسان رأى الأرض كرة.. وليس مع العين دليل آخر ثم عرفنا الغلاف الجوي حول الأرض وأنه يتبع الأرض ويدور بها.. إذن الغلاف الجوي جزء من الأرض وأنه يتبع الأرض ويدور معها.. إذن فالغلاف الجوي جزء من الأرض.. والذي يطير في الغلاف الجوي بالطائرة.. لانقول إنه خرج من الأرض.. بل إنه يطير في الأرض وكنا نقرأ قديماً قول الله سبحانه وتعالى ﴿قلْ سيروا في الأرض﴾ فنأخذها على أن الأرض ظرف للسير.. ولكن بعد أن عرفنا أن الغلاف الجوي جزء من الأرض.. اتضح لنا أننا لانمشي فوق الأرض.. أو على الأرض ولكننا نمشي في الأرض أي بين الغلاف الجوي والقشرة الأرضية.. وإلا لو كنا

(*) اللواء الإسلامي: ٤ شباط ١٩٨٢ الحلقة الثانية ص ٦

نمشي على الأرض لوجب أن نمشي فوق الغلاف الجوي.. ولو كنا قد أجهَدْنا الأسلوب حتى نفهم في الماضي.. ماعرفنا المعنى ولكن الحقيقة الكونية التي كشفها الله لعباده.. قربت لنا المعنى.. وجعلتنا أكثر فهماً له.. فعندما يقول الله سيروا في الأرض كان يقصد أن الغلاف الجوي جزء من الأرض لاينفصل عنها وأنني حينما أسير.. أسير فوق القشرة الأرضية وتحت الغلاف الجوي إذن فأنا أسير في الأرض وليس على الأرض.(*)

﴿ومنْ يرد أنْ يضلّهُ يجعل صدرهُ ضيقاً حرجاً كأنّما يصعدُ في السماءِ﴾(١٩١)

إن وصف شعور الضال بهذا الوصف، لم يحدده إنسان حتى القرن العشرين بعد إن اكتشف الناس الطائرات، خاصة في البداية عندما لم تكن الامكانيات التكنولوجية متوافرة، فكان الطيار يشعر بهذا الضيق والحرج في صدره في أثناء صعوده للسماء بالطائرة، وهذه حقيقة علمية تثبت للناس أن الذي صمم القرآن هو الله تعالى الذي يعلم كل شيء، ولو كان إنساناً لما كان في مقدوره أن يصف إلا بقدر معلوماته، وهكذا نرى أن الآيات البينات التي دعم بها الله سبحانه آخر أنبيائه بصائر دائمة، يستطيع أن يراها كل إنسان وفي كل لحظة، وهي ليست معجزات حدثت في بقعة صغيرة من الأرض وشاهدها بعض الناس، وانتهت ومات من شاهدها ثم مات الرواة بالتتابع، فوصلتنا وليس لها أية قوة لإقناع السامع، فالمعجزة ليس لها قوة إلا لحظة وقوعها أمام الناس. وذهاب بعض المسلمين إلى أن معجزات كثيرة حدثت على يد الرسول منها أن الماء كان ينبع من بين أصابعه، فشرب القوم وتوضؤوا، وأنه أكثر الطعام فأكل الجميع حتى شبعوا، أي محاولة جعله مسيحاً آخر هي من الأمور التي تؤذي الرسول الكريم، ولو كانت غاية من يقولها أو نيته الخير، فالنية الحسنة وحدها لاتشفع أن نسيء للرسالة وطبيعة بيّناتها، يجب أن نفهم القرآن وآياته جيداً، ونستبعد مايناقضها، فالرسول لايمكن أن يفكر لحظة واحدة أن يقول كلاماً يناقض القرآن، ويناقض أقوال الله الصريحة فيه. وأنقل هنا رأي الشيخ محمد متولي شعراوي في هذا الموضوع، يقول:

(والقرآن فيه من عطاء الله ماتحبه النفس البشرية ويستميلها.. إنه يخاطب ملكات خفية في النفس لانعرفها نحن.. ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى.. وهذه الملكات تنفعل حينما يُقرأ القرآن.. ولذلك كان حرص الكفار على ألا يسمع أحدٌ القرآن.. حتى الذين لايؤمنون بالله.. ذلك أن كل من يسمع القرآن سيجد له تأثيراً وحلاوة.. قد لايستطيع

(*) اللواء الإسلامي: الحلقة الأولى ص٤ (١٩١) سورة الأنعام: ١٢٥

تفسيرها.. ولكنها تجذبه إلى الأيمان.. ومن هنا كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه.. ولو كان القرآن لايعطي شيئاً من هذا.. ولايخاطب الملكات الخفية في النفس لما اهتم الكفار أن يسمع أحد القرآن أو لايسمعه.. ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن الكريم على النفس البشرية جعلهم لايمنعون سماع القرآن فقط.. ويعتدون على من يتلوه في الأماكن العامة.. بل قالوا فألغوا فيه.. ومعناها (شوشروا عليه).. ولايمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك طريقتهم إلا خوفاً مما يفعله القرآن الكريم في النفس البشرية.. كيف يستطيع أن يوثر فيها وأن يجذب النفس الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان.. وتلك من معجزات القرآن الكريم التي يتميز بها عن أي كتاب في هذا العالم.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك القرآن.. فيما عدا التكليف بافعل ولاتفعل، تركه ليبين الزمن معجزاته.. فالقرآن هو كلام الله، والكون هو خلق الله، وفي القرآن آيات.. وفي الكون آيات الله.. وآيات الكون تفسر لنا آيات القرآن الكريم في الخلق.. في خلق السموات والأرض.. وفي الليل والنهار.. والشمس والقمر.. وكل الآيات..

وهذه الآيات الأرضية لها ميلاد تكشف فيه للإنسان.. هذا الميلاد يأتي مع باحث عن آيات الله في الأرض.. فيثيبه الله سبحانه وتعالى على جهده بكشف آية من الآيات الأرضيه له.. فإذا لم تصادف الآية التي جاء موعد ميلادها الكوني.. إذا لم تصادف هذه الآية عالماً يبحث عنها.. كشفها الله سبحانه وتعالى لعالم أو مجد يبحث عن شيء آخر.. ولذلك فنحن نسمع كثيراً عن بحث بدأ إلى شيء وانتهى إلى شيء آخر ونسمع كثيراً عن أشياء يقول العلماء إنهم اكتشفوها بالمصادفة.. والحقيقة أنه ليس هناك شيء اسمه المصادفة في الكون.. ولكن لكل شيء أجل وميعاد.. وعندما يأتي الأجل يكشف الله عن آية من آياته في الأرض بما نسميه نحن المصادفة وبما نراه كل يوم في حياتنا...)

وخير ماننهي به هذا البحث عن معجزات الرسول أن نقول: إنها ليست معجزات بصرية من النوع الذي سماها الله بصائر، وأيد بها كثيراً من رسله إلى أهل الكتاب فلم تعط أية نتائج إيجابية، ولذلك قرّر الله سبحانه بعدم تأييد رسوله محمد، خاتم الأنبياء، بمثل تلك المعجزات التي لن تقرب الناس للإيمان ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكُم تسؤكُم﴾(١٩٢)

(١٩٢) سورة المائدة: ١٠١

﴿قد سألها قومٌ من قبلِكُم ثم أصبحوا بها كافرين﴾(١٩٣)

أي أن الناس طلبوا آيات ومعجزات ولم يكن طلبهم في مصلحتهم. إذ بعد أن بينها الله لهم عادوا وكفروا، والله سوف يشدد العقاب عليهم في الدنيا والآخرة لأنهم رأوا آيات الله ثم عادوا وكفروا بها، كما حصل لأهل الكتاب مع الرسول عيسى عليه السلام بعد أن طلبوا منه أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء:

﴿قال الله إنّي منزلُها عليكم فمنْ يكفر بعد منكمْ فإنّي أعذّبُه عذاباً لاأعذّبُه أحداً مِنَ العالمين﴾(١٩٤)

صدق الله العظيم

(١٩٣) سورة المائدة: ١٠٢ (١٩٤) سورة المائدة: ١١٥

٢٥ ـ كيف يجب على المسلم أن يفهم القرآن؟ وكيف يتعامل مع كلام الله؟

لنضرب المثل التالي ولله المثل الأعلى:

لنفرض أن رجلاً مزارعاً كان له ولدان، كبرا وتزوجا، وصار لكل منهما أطفال، فوزع الرجل الأرض بينهما بالتساوي، وانتقل إلى المدينة ليعيش فيها فعلم من صديق له هناك يعمل في الأرصاد الجوية أن أمطاراً شديدة سوف تهطل في المنقطة التي يقيم فيها ولداه، فأحب أن ينذرهما فأرسل برقية مستعجلة لكل منهما وتسلم الولدان البرقية في وقتها. وأحب الوالد بعد مرور أسبوع من إرسال البرقية الإطمئنان على أحوالهما بعد تلك الأمطار التي هطلت لأن الفترة كانت فترة جني للمحصول، فسافر إليهما ودخل أولاً إلى بيت الأكبر منهما سناً، فعلم منه ماحصل، وقال الولد لأبيه شكراً جزيلاً ياأبي على برقيتك وإنذارك إياي، لأني لولاها لفقدت المحصول كله.

أما الآن فالحمد لله والشكر له على الرزق الوفير الذي مَنَّهُ علينا هذه السنة فإن أحوالنا والحمد لله طيبة، ففرح الأب وترك ابنه الكبير وذهب إلى الابن الأصغر ليطمئن على أحواله أيضاً.

فقابله الولد الأصغر باشّاً هاشّاً وقال للأب: هل تعلم يا أبي أني قد حفظت البرقية التي أرسلتها لي حرفاً حرفاً، أَمسكْ بنص البرقية وأنا أقرؤها لك عن ظهر قلب، وأمسك الأب بورقة البرقية ويداه ترتجفان غضباً، والولد يقرأ له البرقية. فلما فرغ الولد من قراءتها قال: أنا لا أسألك هل حفظت البرقية بل ماذا فعلت بالمحصول؟ فقال الولد لأبيه بسذاجة الأطفال: لكنك يا أبي لم تشر فيها إلى المحصول، فكل مافيها أن أمطاراً ستهطل وفعلاً هطلت كما نصت البرقية بعد ثلاثة أيام وكان توقعك صحيحاً تماماً. فقال الأب وقد نَفَذَ صبره. وماذا فعلت أنت بالمحصول؟ فأجاب الولد أيضاً بسذاجة . إن الأمطار قد جرفت المحصول كله ولم أتمكن من تلافي هذه المصيبة. فَمَثَلُ الولد الأكبر هو مثل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فَهِمُوا رسالة اللهِ فَهْمَ ذلك الابن رسالة أبيه، أما نحن فمنذ ألف سنة وإلى اليوم نفهم القرآن كما فهم الولد الأصغر رسالة أبيه ونحن نظن أن الله يظلمنا ولانعلم أننا الذين نظلم أنفسنا، بسبب

جهلنا وعدم استخدام عقولنا. وعدم استفادتنا من نص الإنذار (وأُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لِأُنذرَكُم به ومَنْ بَلَغَ)[1]

﴿قلْ إنّما أُنذِرُكُم بالوَحي ولايسمَعُ الصُّمُّ الدّعاءَ إذا مايُنذَرونَ﴾[2]

وماأكثر الذين وقفوا من الرسالة موقفاً سلبياً أو لامبالياً ولم ينفذوا ماطلب الله تعالى منهم في القرآن الكريم؟

﴿الشيطانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ﴾

ومعنى الآية: أنّ الشيطان يَطلبُ من الإنسان الاعتمادَ على الأوهام بدل الاعتماد على الحقائق النورانية، ويدفعه إلى اتخاذ موقف سلبي من أوامر الله سبحانه. ويغريه بالتوقف عن السعي ويوهمه أن الدنيا ليست دار سعي للمؤمن وان على المؤمن أن يعمل لآخرته فحسب، والشيطان يزهده بالحياة الدنيا ولايسمح له أن يتبصر بالحقائق الموجودة في القرآن الكريم، ويوهمه أن اتّباعه الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو مايريده الله سبحانه، وبعد أن تتحقق للشيطان الخطوة الأولى، يعود إلى وهم آخر فيعلمه كيف تكون العبادات وكيف تكون قراءة القرآن بأسلوب الشيطان لابأسلوب الرحمن الذي يطلب منا تطبيق التعليمات الواردة في القرآن، فنفهم عكس ذلك أن النصوص المقدسة هي مجرّد نصوص للتعبير والترديد دون تطبيقها في سلوكنا والتزامها، فيتحول المجتمع كله بعد فترة إلى مجموعة كبيرة من العاطلين عن العمل والتفكير، بمحض إرادتهم، فيصبحون محتاجين إلى من يعيلهم ويطعمهم ويكسوهم، ويستسلمون إلى تلك الحياة الذليلة، ظناً منهم بأن الذل أسلوب مقبول للتقرب من الله أكثر، ولو كان فيهم من يعصي أوامر الشيطان ويقرأ القرآن بأسلوب الرحمن ولو مرة لفهم الحقيقة كاملة وادرك أن أعوان الشيطان كبّلوا عقله ويديه، بحجة أنهم يدافعون عن حدود الدين ولايعلمون أنهم يدافعون عن رغبات الشيطان الذي سكن في قلوبهم من دون علم، لجهلهم وضعفهم، واعتمادهم أساساً على الأوهام والظنون والأباطيل.

المؤمن بالأسلوب الشيطاني يرمي بكتاب الله وراء ظهره، ويتبع كتب الحديث التي تحجبه عن معرفة مافي القرآن الكريم وتمثل كلام الله مباشرة من الله تعالى دون وساطة، إنه الآن للأسف إن قرأ القرآن وأراد أن يفهم المعنى لجأ إلى أحد التفاسير القديمة أو الحديثة ليأخذه المفسر إلى معان ماأنزل الله بها من سلطان، فيفهم القرآن كما شاء له

(١) سورة الأنعام: ١٩ (٢) سورة الأنبياء: ٤٥

الشيطان لا كما شاء الله سبحانه وتعالى، ويتوهم أن الصلاة والصوم والزكاة أعمال في حين أنها عبادات وسلوك ودليلها في القرآن. موجود لمن يبحث عنه في كتاب الله سبحانه.

وهو يفهم التوكل تواكلاً، ويعتقد أنه مُسَيّر من الله وهو مُخَيَّر بمشيئة الله، ويفهم كل آيات المشيئة الخاصة بالله سبحانه كلها فهماً معكوساً، وهو يرفع صوته باسم الله، ولايعلم بأن كل عبادته وطاعته موجهة لطاعة الشيطان وعبادته. والمؤمن بالأسلوب الرحماني يتمثل أوامر الله سبحانه كلها من القرآن مباشرة، فيطيع تلك الأوامر بمحض إرادته ويجنب نفسه الأمارة بالسوء الوقوع في المعاصي، ويلتزم الصراط المستقيم، ويفعل مايأمر به الله من قيم كالصدق والوفاء والكرم والجهاد، وحب الناس عامة والوالدين خاصة، ويمتنع عما حرم الله من أكل الربا، والمحرمات، فلا يتعدى حدود الله، جاعلاً الرسول الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم قدوة له في دينه وإيمانه وعمله وحسن خلقه وحبه المؤمنين والله تعالى، فإن لم يَرْقَ إلى مستواه فإنه يصبح على الأقل من أتباعه المقتدين به في هذه الحياة الدنيا الغرورة الفانية، ولايزهد في دنياه أو يجعلها أكبر همه، فهو بين الأمرين منزلة، حتى يتسلم الله تعالى نفسه وهو راض عنه، فيفوز بالدنيا والآخرة، ولسان حاله يقول ﴿ربنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وَقِنا عذابَ النار﴾[٣]

﴿وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستَمِعوا له وأنصتوا لعلّكم تُرحمون﴾[٤]

فالله تعالى يطلب منا الاستماع إلى قراءة القرآن والإنصات، والاستماع يعني تركيز الذهن وتوجيهه كلياً لفهم المقروء، والإنصات، والإنصات استماع مقرون بمحاولة تمثل المقروء وفهمه

﴿هذا بصائرُ من ربّكم وهدىً ورحمة لقومٍ يؤمنون﴾[٥]

﴿وننزلُ من القرآنِ ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾[٦]

فالقرآن الكريم رحمة للناس، والاستماع لقراءته والإنصات الكلي لآياته عصمة للناس من الوقوع في حبائل الشيطان، والرحمة تقع عند تفهمنا القرآن، ثم سلوكنا في ضوء هذا الفهم سلوكاً رحمانياً فإن قرأناه قراءة شيطانية لم نستفد شيئاً ولاوصلتنا رحمة

---

(٣) سورة البقرة: ٢٠١
(٤) سورة الأعراف: ٢٠٤
(٥) سورة الأعراف: ٢٠٣
(٦) سورة الإسراء: ٨٢

الله. فالرحمة لمن يقرأ القرآن وينصت له وهي ليست متحققة إلا بعد الإنصات والفهم والتطبيق، ومن المتوقع أن يكون العبد في قراءته القرآن في أحد موقفين:

ـ أن يستمع لما يقرأ بأذنيه لابعقله وقلبه، وهذه هي القراءة الشيطانية.

ـ أن يصغي بقلبه وعقله ويطبق ما عَقِلَ منه فتتحقق له الرحمة، وهذه هي القراءة الرحمانية، فيشكر العبد ربه على نعمه التي أرسلها له في القرآن.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿فإذا قَرأناهُ فاتّبعْ قرآنَهُ﴾[٧]

أي أن القرآن لايقرأ عليك للقراءة فحسب بل لاستيعابه وتنفيذ توجيهاته.

ومثل أولئك الذين يقرؤون القرآن ولايفهمون مايقرؤون مثل رجل يحفظ قانون السير بنداً بنداً لكنه لايحسن تطبيقه إذ قاد سيارة، ولايعرف كيف يتصرف ومتى، فقانون السير وجد للعمل به وليس لاستظهاره، وكذلك القرآن أنزل إلينا للعمل به وليس للاستظهار فقط. وأنا لاأنتقد بهذا من يحفظ القرآن حبذا حفظه من الناس جميعاً، وتطبيقه في حياتهم آية آية، أما أن نستظهره لإظهار قدرتنا على الحفظ دون أن نظهر قدرتنا على تطبيق مافيه فلا جدوى منه بل يكون مثلنا كمثل الحمار يحمل أسفاراً كما يقول تعالى: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾[٨].

ولذلك يعجب الله تعالى من الذين أنزل لهم القرآن لكنهم لايتدبرونه ولايفيدون منه منهجاً إلهياً:

﴿أَفَلا يتدبّرون القرآنَ﴾[٩]

لماذا؟ لأن هذا القرآن سوف يرشد أبداً للأصوب والأحسن والأفضل.

﴿إنّ هذا القرآن يَهدي للّتي هي أقومُ ويُبَشّر المؤمنينَ﴾[١٠]

ويحثنا تعالى على قراءة القرآن مع طلوع الفجر

﴿وقرآن الفجرِ. إنّ قرآنَ الفجرِ كانَ مشهوداً﴾[١١]

إن أفضل وقت لتفهم المعاني الرحمانية لآيات الكريم هي إذن فترة الفجر، وهي الفترة التي يكون فيها جهاز الفكر عند الإنسان مرتاحاً، ويستمع العبد للقرآن وينصت بقلبه

---

(٧) سورة القيامة: ١٨
(٨) سورة الجمعة: ٥
(٩) سورة النساء: ٨٢
(١٠) سورة الإسراء: ٩
(١١) سورة الإسراء: ٧٨

للمعاني العظيمة فلا يشوش تفكيره حركة الناس والكائنات في فترة الركود، ويتاح للقارئ أن يركز تفكيره، فتتنزل المعاني ظاهره على قلب المؤمن كما أرادها الله سبحانه.

﴿وننزلُ من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين﴾(١٢)

ومن فهمنا الوهمي للقرآن أن نحسب أن في آياته وحروفه سحراً إلهياً يشفي من الأمراض كالسرطان والسل والجذام ويفتح الشرايين المسدودة بسبب تراكم الكولسترول، وهو فهم شيطاني وهمي لايقصده الله تعالى، وإنما يقصد أن يكون موقفنا من آياته رحمانياً ونفهم أنّ للنفس أمراضاً كما للجسد، منها: الكذب والرياء والنفاق والخيانة وسوء الظن بالناس وحب الزنى إلى آخر تلك الأمراض التي تصيب النفوس، فآيات القرآن إذا فُهمت بأسلوب رحماني تعلّم الإنسان الحقائق بدل الأوهام، فتضيء نفسه وتتفتح بصيرته، فيبدأ يرى حقائق جديدة لم يكن يراها قبل ذلك، فيكتشف مقدار ظلمه لنفسه عندما كان يكذب على الناس، أو يرائي أو ينافق، فبعد أن يتمثل كتاب الله يتحول عن تلك الصغائر، فيتركها واحدة بعد أخرى، وهكذا تشفى نفسه من تلك الأمراض وهذا هو المعنى الرحماني للآية الكريمة السابقة.

والإنسان مع تأثره بالقرآن يتأثر أيضاً من الآخرين الذين يعيشون معه في محيطه وتأثره هذا يختلف بحسب موقفه منهم، فقد يكون لنا صديق من الأصدقاء نصاحبه، ونأنس إليه، لكن معرفتنا به تبقى سطحية مع طول معاشرتنا له لماذا؟ لعلمه أننا لانستمع لما يقوله فيختصر الحديث وقد يمتنع عنه في المستقبل لأننا لم نشجعه ولم نحاول أن نسبر غوره لأننا نتخذ منه موقفاً وهمياً، نسمعه يتحدث، بآذاننا دون عقولنا وقلوبنا؟ لأننا نعتقد أننا نعرفه، ونعرف مايمكن أن يقوله فحكمنا سلفاً عليه والإنسان بطبعه يحتاج إلى التشجيع، لذلك تجد أن نجاح المبدعين غالباً مرتبط بتشجيع المشجعين لهم من محبي إبداعهم وعلمهم، ولولا ذلك التشجيع لما برزوا. ونحن نصادف أناساً كثيرين من أصحاب أو أزواج لايفهم بعضهم بعضاً بعمق للسبب ذاته، وقد يفهمهم الغريب أكثر من فهم العشير، والمثل يقول «لاكرامة لنبي في قومه» لماذا؟ لأن قومه لألفتهم له يستبعدون النبوة عنه، لأنهم حكموا عليه سلفاً بمحدوديته كإنسان، فلا يتوقعون منه أي شيء خارق للعادة.

﴿ولقد يَسّرْنا القرآنَ للذّكرِ فهل منْ مذّكِر﴾(١٣)

ويُسْرُ القرآن حقيقة إعجازية فيه، ومن نوى وقصد حفظ آيات القرآن الكريم وفهمها

---

(١٢) سورة الإسراء: ٨٢ (١٣) سورة القمر: ٣٢

فلن يجد ذلك عسيراً إن الله تعالى صاغها بأسلوب ميسر لكل الناس فهو كما يقول طه حسين: «ليس شعراً ولانثراً وإنما هو نمط أسلوبي خاص به».

﴿إنّه لقرآنٌ كريم * في كتابٍ مكنون﴾[١٤]

﴿وجعلَ لكم من الجبالِ أكْناناً﴾[١٥]

والأكنان هي الكهوف التي سكنها الإنسان الأول قبل أن يتعلم البناء لتحفظه من الوحوش في أثناء نومه ليلاً، والقرآن الكريم كتاب مكنون أي محفوظ عند رب العالمين يقول تعالى:

﴿بل هو قرآنٌ مجيدٌ * في لوحٍ محفوظٍ﴾[١٦]

فالقرآن محفوظ في اللوح عند رب العالمين، وهو مصدر القرآن أي الجزء الذي يحوي أنباء الغيب من معلومات علمية أو تاريخية (قصص).

ولكن ما مصدر القسم الثاني من الكتاب إذاً؟

﴿هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أُمّ الكتابِ﴾[١٧]

فالله تعالى يعلمنا في هذه الآية أن الآيات المحكمات (الرسالة) هي أم الكتاب، كما يسميها فمن أين مصدر أم الكتاب إذا لم يكن من اللوح المحفوظ الذي يحوي غيب الله؟

﴿يمحو اللهُ مايشاءُ ويُثبتُ وعندَه أُمّ الكتابِ)[١٨]

ففي هذه الآية يقرر الله تعالى مصدر أم الكتاب ﴿وعندَه أمُّ الكتاب﴾ لكنه تعالى لايحدد أين يحفظها، فهذا الحفظ من غيب الله. ﴿عالم الغيبِ فلا يُظهرُ على غيبِهِ أحداً﴾[١٩]

وغيب الله وقف على الله وحده، لايعلمه ملائكة الله المقربون، ولارسله كلهم، ولامخلوقات الله كلها، وكل مايناقض هذه الحقيقة الكبرى خطأ من أساسه، ولايستحق منا إضاعة الوقت بسماعه، لأنه هراء وباطل ووهم.

﴿ذلك هدى الله يهدي بهِ من يشاءُ منْ عبادِهِ﴾[٢٠]

صدق الله العظيم

---

(١٤) سورة الواقعة: ٧٧ ـ ٧٨
(١٥) سورة النحل: ٨١
(١٦) سورة البروج: ٢١ ـ ٢٢
(١٧) سورة آل عمران: ٧
(١٨) سورة الرعد: ٣٩
(١٩) سورة الجن: ٢٦
(٢٠) سورة الأنعام: ٨٨

٢٦ ـ الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم

لايمكن للإنسان أن يعرف الله حقيقةً إلا من آمن به عن طريق العقل بداية ثم قرأ وأنصت وتفهم مايقرأ ومن خلال آياته سبحانه يمكن أن يتعرف بالتدريج على صفات الله تعالى. أما من يريد أن يحيط علماً بالله وبأحواله وعلمه ونوره وشكله وعرشه وكرسيه كما حاول بعض من يسمون أنفسهم العلماء ومصدرهم للعلم غير آيات الله فعلومهم كلها من باب الظن والتخمين والتخيل، وهذه كلها لاتدخل في باب العلم أو العلوم وإنما من باب الأوهام والأباطيل والظنون لأن الإنسان المحدود لايمكن أن يحيط علماً بالله أبداً.

﴿ومايَتَّبع أكثرُهم إلاّ ظناً إن الظنّ لايغني من الحقِّ شيئاً﴾[١]

فكل مصدر لمعرفة الله عز وجل من غير القرآن الكريم يعرض طالب المعرفة للضلال فإن لجأنا إلى كتب الله الأخرى كالتوراة والإنجيل مصدرين للمعرفة والعلم فإنهما لاينفعاننا لما أصابها من التحريف حتى اختلط فيها الوهم بالصواب وضاع أتباعها ولم نكن أقل منهم ضياعاً حين انصرفنا عن كتاب الله إلى ماسميناه أحاديث الرسول وفيها من الظن والخطأ الذي اختلط ببعض ما أثر عنه حقيقة، حتى في كتب الصحيح نفسها، فلم تعد تنفع باباً للعلم الصحيح، فليس لنا إذاً إلا القرآن. والقرآن لايَستقل مافيه من علم إلا الجاهل. يقول تعالى:

﴿اللّهُ لاإلهَ إلاّ هو الحيُّ القيومُ لاتأخذُهُ سِنةٌ ولانومٌ له مافي السمواتِ ومافي الأرض مَنْ ذا الذي يشفَعُ عندَه إلاّ بإذنه يعلَمُ مابين أيديهم وماخلفَهُم ولايُحيطونَ بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاءَ وَسعَ كرسيّهُ السمواتِ والأرض ولايَؤُدُه حفظُهُما وهو العليّ العظيم﴾[٢]

وصف معجز مختصر من الله سبحانه وتعالى نفسه، ليس بعده كلام أبلغ ولاوصف أدق فمن هذه الكلمات النورانية من كتاب نور الله: القرآن الكريم. يمكن للباحث أن يتعرف على خالقه وتزداد معرفته لله إذا قرأ مزيداً من آيات القرآن الكريم الذي ورد فيه لفظ الجلالة (الله) أو إلهكم ومشتقاتها: (٢٨٥٠ مرة) يضاف إليها لفظ (رب) ومشتقاتها: (٩٦٩) مرة فيكون المجموع (٣٨١٩) مرة.

---

(١) سورة يونس: ٣٦ (٢) سورة البقرة: ٢٥٥

ومن هذه الآيات نعرف صفات الله دون الحاجة للبحث عنها في أي كتب أخرى، فقد أغنانا الله عنها بفضله، ومن خلال آيات القرآن الكريم يتبين لنا أن اسم الله بالذات يستخدم من قبل مخلوقات الله العاقلة التي آمنت به اختياراً وتطوعاً، فعكفت على عبادته حباً وتقرباً وطاعة، فهؤلاء الله ربهم بالاختيار، وهناك من المخلوقات العاقلة من كفر به وأنكر أن يكون إلهاً، فهو سبحانه بالنسبة إليهم ربهم، من حيث أن الله رب العالمين ورب كل شي لأنه هو الخالق المدبر لكل شيء.

أسماء الله الحسنى

(ولله الأسماء الحسنى) ويمكن أن نتعرف كثيراً من صفات الله من خلال هذه الأسماء، فكل اسم له في القرآن يحمل صفة مخصوصة من صفاته.. وهو سبحانه وتعالى لايتحدد بأي من هذه الصفات لأنه غير محدود، وأكثر مايهمنا في هذا البحث من صفات الله هي الصفات الآتية:

﴿اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القَهّارُ﴾(٣)

﴿واللهُ يعلَمُ ماتُسرّونَ وماتُعلِنون﴾(٤)

﴿واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم﴾(٥)

﴿وكانَ اللّهُ قوياً عزيزاً﴾(٦)

﴿اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ﴾(٧)

إن دين الإسلام نور على نور، والله يهدي من عباده الذين يؤكدون رغبتهم بذلك النور بصلاحهم وإصلاحهم واتجاههم للخير مع الابتعاد عن الشرور:

﴿نورٌ على نور يهدي لنورِهِ منْ يَشاءُ﴾(٨)

﴿اللهُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾(٩)

والله سبحانه قويّ يحب المؤمن القوي وحكيم يحب المؤمن العاقل الذي يستخدم عقله:

﴿واللّهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾(١٠)

---

(٣) سورة الرعد: ١٦
(٤) سورة النحل: ١٩
(٥) سورة النور: ٣٥
(٦) سورة الأحزاب: ٢٥
(٧) سورة النور: ٣٥
(٨) سورة النور: ٣٥
(٩) سورة النور: ٤٦
(١٠) سورة الأنفال: ٦٧

والله سبحانه مع قوته رحيم رؤوف بعباده ويغفر الذنوب كلها لمن تاب وعاد إلى طريق الحق:

﴿واللّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾[١١]

والله سبحانه لا يحدّه مكان ويحيط بكل شيء وله كل شيء وإليه يعود كل شيء:

﴿وكانَ اللّهُ بكلِ شيءٍ محيطاً﴾[١٢]

﴿وكانَ اللّهُ غنياً حميداً﴾[١٣]

والله لم يخلق الناس ليظلمهم وإنما ليمتّعهم بالخيرات والنّعم إن فكّروا وتدبّروا آياته:

﴿ومااللّهُ يُريدُ ظلماً للعالمين﴾[١٤]

الإنسان على الأرض إمّا يعمل صالحاً أو يعمل مفسداً والله رقيب عليه يرى عمله وسوف يحاسبه:

﴿ومااللّهُ بغافلٍ عمّا تعملونَ﴾[١٥]

﴿واللّهُ خبيرٌ بما تعملون﴾[١٦]

والله هو الذي يهب الحياة وهو الذي يسحبها إذا شاء بالموت وهو شديد البأس إذا فجر عبده:

﴿واللّهُ يُحيي ويُميتُ﴾[١٧]

﴿واللّهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً﴾[١٨]

والله سبحانه له الأسماء والصفات الحسنى وهو الذي خلقنا وجعل من بعد ضعف فينا قوة. ويقول لنا الحق في كتابه العزيز:

﴿اللّهُ لا إله إلاّ هو له الأسماءُ الحسنى﴾[١٩]

﴿اللّهُ يبدأ الخلقَ ثم يُعيدُهُ ثمّ إليه ترجعُون﴾[٢٠]

﴿اللّهُ الذي خلقَكُم منْ ضعفٍ ثمّ جَعَلَ من بعدِ ضعفٍ قوة﴾[٢١]

﴿واللّهُ يقولُ الحقّ وهو يَهدي السبيل﴾[٢٢]

---

(١١) سورة التوبة: ٢٧
(١٢) سورة النساء: ١٢٦
(١٣) سورة النساء: ١٣١
(١٤) سورة آل عمران: ١٠٨
(١٥) سورة آل عمران: ٩٩
(١٦) سورة آل عمران: ١٥٣
(١٧) سورة آل عمران: ١٥٦
(١٨) سورة النساء: ٨٤
(١٩) سورة طه: ٨
(٢٠) سورة الروم: ١١
(٢١) سورة الروم: ٥٤
(٢٢) سورة الأحزاب: ٤

والله سبحانه صادق الوعد أمين:

﴿وعدَ اللّهِ لايُخلِفُ اللهُ الميعادَ﴾[23]

والله لم يخلق العباد ليظلمهم ويعذبهم ولكن الناس من جهلهم يعذبون أنفسهم:

﴿وماالّلهُ يريدُ ظلماً للعباد﴾[24]

والله سبحانه ييسّر الرزق لمن يسعى لتحصيله من أبوابه المشروعة دائماً:

﴿الّله لطيفٌ بعباده يرزقُ منْ يشاءُ وهو القويُّ العزيز﴾[25]

ولايفعل الإنسان شيئاً من خير أو شر إلا وكان الله شاهداً على مافعل:

﴿والله على كلِ شيءٍ شهيد﴾[26]

إن دين الإسلام سوف يعمّ العالم بالرغم من كل الكافرين ومن أجل هذا حفظ الله القرآن:

﴿والّلهُ مُتِمُّ نورِهِ ولو كَرِهَ الكافرون﴾[27]

لكن الله لاييسّر الإيمان للذين يظلمون الناس أو يظلمون أنفسهم جهلاً وجهالةً:

﴿والّلهُ لايهدي القومَ الظالمين﴾[28]

وهنا يجب أن نفهم أن الظالمين صفة لا تنطبق فقط على من يظلم غيره، فإن من يظلم نفسه جهلاً ووهماً ويتخيل الحق باطلاً والباطل حقاً هو أشد ظلماً ممن يظلم الناس، ولن يهديه الله حتى يترك أوهامه وأباطيله وقد قالها لنا الله بصراحة تامة في الآية الكريمة:

﴿إن الله لايغير ما بِقَومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[29]

وقد بيّن لنا الله مايحب في الآيات الآتية:

﴿وأَحسِنوا إنّ الّلهَ يحبُّ المحسنين﴾[30]

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحْبِبكُم الّلهُ ويغفرْ لكم ذنوبَكُم﴾[31]

﴿فإذا تطهّرْن فأْتوهُنَّ منْ حيثُ أَمَرَكُم الّلهُ إنَّ الّلهَ يحبُّ التّوّابينَ ويحبُّ المتطهّرينَ﴾[32]

---

(٢٣) سورة الزمر: ٢٠
(٢٤) سورة غافر: ٣١
(٢٥) سورة الشورى: ١٩
(٢٦) سورة المجادلة: ٦
(٢٧) سورة الصف: ٨
(٢٨) سورة الجمعة: ٥
(٢٩) سورة الرعد: ١١
(٣٠) سورة البقرة: ١٩٥
(٣١) سورة آل عمران: ٣١
(٣٢) سورة البقرة: ٢٢٢

﴿بلى من أوفى بعهدِهِ واتّقى فإنّ اللّهَ يحبُّ المتقين﴾[٣٣]
الله سبحانه يعلّم عبده المؤمن كرم الأخلاق وحسن السلوك والإحسان للناس:
﴿والكاظمينَ الغَيظ والعافينَ عن الناسِ واللّه يحبّ المحسنين﴾[٣٤]
سبحانه يحب المؤمن القوي الشديد في الحق الصابر على الشدائد:
﴿وماضعفُوا وما استكانوا واللّه يحبّ الصابرين﴾[٣٥]
وكما يحب المؤمن الثابت على قراره بلا تردد وإذا عَزَمَ حَسَمَ وتوكّل على الله:
﴿فإذا عزمتَ فتوكّل على الله إنَّ اللّه يحبّ المتوكّلين﴾[٣٦]
وإذا حكم المؤمن بين الناس يأمره أن يكون عادلاً يقسم ويوزع الحقوق بالميزان والحساب:
﴿وإن حكمْتَ فاحكم بينهم بالقِسطِ إنَّ اللّهَ يحبُّ المُقسِطين﴾[٣٧]
وإذا وقع المؤمن على عقد وتعهد على نفسه بشيء عليه أن يلتزم بعقده إلى مدته:
﴿فأتمّوا إليهم عهدَهم إلى مدّتِهم إنّ اللّهَ يحبُّ المتّقين﴾[٣٨]
وإذا قاتل المؤمن قتالاً شرعياً دفاعاء عن نفسه وعرضه وماله وعقيدته قاتل مع باقي المؤمنين بقلب واحد وعزيمة واحدة راجياً النصر من رب العالمين:
﴿إن الله يحبّ الذين يُقاتِلون في سبيلِهِ صفاً كأنّهم بنيانٌ مرصوصٌ﴾[٣٩]
وقد بيّن الله سبحانه وتعالى ما لايحب في الآيات الآتية:
إن الله لايحب المؤمن الذي يعتدي على جيرانه في أموالهم وأعراضهم وعقيدتهم:
﴿ولاتعتدوا إنّ اللّهَ لايحبّ المُعتَدين﴾[٤٠]
وإذا واتته الظروف وأصبح آمراً للناس بيده زمام أمورهم فيتحول إلى وحش مفسد في الأرض:
﴿وإذا تولّى سَعى في الأرض ليُفسِدَ فيها ويُهلكَ الحَرْثَ والنسلَ واللّهُ لايحبّ الفسادَ﴾[٤١]

---

(٣٣) سورة آل عمران: ٧٦ (٣٦) سورة آل عمران: ١٥٩ (٣٩) سورة الصف: ٤
(٣٤) سورة آل عمران: ١٣٤ (٣٧) سورة المائدة: ٤٢ (٤٠) سورة البقرة: ١٩٠
(٣٥) سورة آل عمران: ١٤٦ (٣٨) سورة التوبة: ٤ (٤١) سورة البقرة: ٢٠٥

والله لايحب لعبده أن يجعل الربا باباً من أبواب الربح والكسب، وإن فعل ظلم نفسه وظلم الناس ونال غضب الله عليه:

﴿يمحقُ اللهُ الربا ويُربي الصدقاتِ واللهُ لايحبّ كلّ كفارٍ أثيم﴾[٤٢]

والله لايحب عبده الذي لايطيعه ولايطيع رسوله بما يأمره به من خلال أوامر الله في القرآن:

﴿قُلْ أَطيعوا اللهَ والرسولَ فإن توَلوا فإنّ اللهَ لايحبّ الكافرين﴾[٤٣]

والله لايحب من عباده الظالمين ولا من كان منهم مختالاً فخوراً وكأن الأرض لم يمشِ عليها أحد مثله من قبل:

﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورَهم واللهُ لايحبّ الظالمين﴾[٤٤]

﴿إنّ الله لايحبّ من كان مختالاً فخوراً﴾[٤٥]

والله لايحب الخيانة ولا من كان خائناً من عباده أبداً:

﴿ولاتجادلْ عن الذين يَختانونَ أنفسَهُم إنّ اللّهَ لايحبّ من كان خوّاناً أثيماً﴾[٤٦]

والله لا يغفر أن يجهر بالسوء أحد من عباده إلا إذا كان مظلوماً فيغفر له ويحب أن ينتصر لظلمه هو أو ينتصر المؤمنون معه ليزيلوا الظلم عنه:

﴿لايحبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَولِ إلاّ مَنْ ظُلِمَ﴾[٤٧]

والله لا يحب المفسدين في الأرض ولا المسرفين المبذرين لأموالهم:

﴿ويسعونَ في الأرضِ فساداً واللّهُ لايحبُّ المُفسدين﴾[٤٨]

﴿وآتوا حقّه يومَ حصادِهِ ولاتُسرفوا إنّ الله لايحبّ المسرفين﴾[٤٩]

﴿وكُلوا واشربوا ولاتُسرفوا إنّ اللهَ لايحبّ المسرفين﴾[٥٠]

وكما ذكرت فإن أبعد الناس عن الله من عباده الخونة والمستكبرين في الأرض

﴿فانبِذْ إليهم على سواءٍ إنّ اللهَ لايُحبُّ الخائنين﴾[٥١]

﴿لاجرمَ أنّ اللّه يعلَمُ مايُسِرّون ومايعلنون إنه لايحبّ المستكبرين﴾[٥٢]

---

(٤٢) سورة البقرة: ٢٧٦
(٤٣) سورة آل عمران: ٣٢
(٤٤) سورة آل عمران: ٥٧
(٤٥) سورة النساء: ٣٦
(٤٦) سورة النساء: ١٠٧
(٤٧) سورة النساء: ١٤٨
(٤٨) سورة المائدة: ٦٤
(٤٩) سورة الأنعام: ١٤١
(٥٠) سورة الأعراف: ٣١
(٥١) سورة الأنفال: ٥٨
(٥٢) سورة النحل: ٢٣

﴿إنّ اللهَ يدافِعُ عن الذين آمنوا إنّ اللهَ لايحبّ كلّ خوانٍ كفورٍ﴾(٥٣)

ولكي نفهم الله أكثر، ونتعلم من صفات ربنا مايقربنا إليه أكثر نقرأ الآيات الآتية من القرآن الكريم عن قصة قارون:

﴿إنّ قارونَ كان من قوم موسى، فبغى عليهم، وآتيناهُ من الكنوز ما إنَّ مفاتحَه لتنوءُ بالعصبةِ أولي القوّة، إذْ قالَ له قومُه لاتفرح إنّ اللهَ لايحبُّ الفَرِحين * وابتغِ فيما أتاك الله الدارَ الآخرة، ولاتنسَ نصيبَك من الدنيا وأحسِنْ كما أحسَنَ اللهُ إليكَ ولاتبغِ الفسادَ في الأرض إنّ اللهَ لايحبُّ المفسدين * قالَ إنّما أوتيتهُ على علمٍ عندي أوَلَم يعلمْ أنّ اللهَ قد أهلكَ من قبلِهِ من القرونِ من هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعاً ولايُسئَلُ عن ذنوبهم المجرمون * فخرجَ على قومِهِ في زينتِهِ قال الذين يُريدونَ الحياةُ الدنيا ياليتَ لنا مثلَ ماأوتيَ قارونُ إنه لذو حظٍّ عظيم * وقال الذين أوتوا العلمَ ويْلَكم ثوابُ اللهِ خيرٌ لمن آمنَ وعَمِلَ صالحاً ولايُلقَّاها إلاّ الصابرون * فخسَفْنا به وبداره الأرضَ فما كانَ له من فئةٍ ينصرونَه من دونِ اللّهِ وماكان من المنتصرين * وأصبحَ الذين تمنّوا مكانَه بالأمسِ يقولون وَيْ كأنّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده وَيقدِرُ ولولا أنْ مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا وَيْ كأنّه لايُفلِحُ الكافرون * تلك الدارُ الآخرةُ نجعلُها للّذينَ لايريدونَ عُلوّاً في الأرض ولافساداً والعاقبةُ للمتّقين﴾(٥٤)

المؤمن الذي يعلم فضل الله عليه وأن كل مايتنعم به من حياة وصحة وعقل وبصر وسمع ومتع من الطيبات في الأرض يشكر الله ويحمده ويقول:

﴿الحمدُ للّه ربِّ العالمين﴾(٥٥)

والمؤمن يحب أن يعلم حقيقةً أن هدى الله الذي في القرآن هو الهدى الحقيقي الوحيد، وعلى أسس ذلك الهدى يحب أن يعلن الإنسان إسلامه للّه وليس عن طريق أيّ هدى آخر سواه:

﴿قلْ إنّ هدى اللهِ هو الهدى وأمرنا لنسلمَ لربِّ العالمين﴾(٥٦)

﴿قل أغيرَ الله أبغي ربّاً وهو ربُّ كلِّ شيءٍ﴾(٥٧)

﴿وهو ربّ العرشِ العظيم﴾(٥٨)

(٥٣) سورة الحج: ٣٨
(٥٤) سورة القصص: ٧٦ - ٨٣
(٥٥) سورة الفاتحة: ٢
(٥٦) سورة الأنعام: ٧١
(٥٧) سورة الأنعام: ١٦٤
(٥٨) سورة التوبة: ١٢٩

والله هو رب السموات والأرض وليس من ربّ سواه ولاشفيع لنا في الدنيا والآخرة غيره:

﴿ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السمواتِ والأرضِ بصائر﴾(٥٩)

﴿فقالوا رّبنا ربّ السمواتِ والأرض﴾(٦٠)

﴿قل من ربّ السمواتِ السبع ربّ العرشِ العظيم﴾(٦١)

﴿فأْتِيا فرعونَ فقولا إنّا رسولُ ربِّ العالمين﴾(٦٢)

ولأن فرعون لم يؤمن بعد فقد طلب الله من موسى وهارون أن يقولا: إنا رسولا رب العالمين.

﴿قال فرعون وما ربُّ العالمين * قالَ ربُّ السمواتِ والأرض ومابينهما إنْ كنتم موقنين * قال ربّكم وربُّ آبائكم الأوّلينَ * قال ربّ المشرقِ والمغربِ ومابينَهما إنْ كنتم تعقلون﴾(٦٣) وهكذا نجد في هذه الآيات أن الله سبحانه لم يستخدم في مناقشة الكفار اسم الله وإنما يكلمهم باسم الرب.

﴿سبحانَ رّبِكَ ربِّ العزّةِ عما يَصِفونَ﴾(٦٤)

﴿لاإله إلا هو يُحيي ويُميتُ ربّكم وربُّ آبائِكم الأوّلين﴾(٦٥)

ولأن الله خالق كل شيء فهو أيضاً ربّ المخلوقات التي تسبح باسمه ولانفقه تسبيحها.

﴿تسبّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومنْ فيهنّ وإنْ منْ شيءٍ إلاّ يسبّحُ بحمدِهِ ولكنْ لاتفقهونَ تسبيحَهُم إنّه كان حليماً غفوراً﴾(٦٦) ولانتوهم فنظن أن الحجر حي يفهم ويدرك وأن له لساناً خاصاً يسبّح الله، فهذا الظن وهم بعيد عن الحق والحقيقة، وإلا آمنا أن للحجر عقلاً وأنه يؤمن ويعبد الله، وإنما نفهم من ذلك أن الحجر الصلد الذي نراه أمامنا كتلة جامدة لاحركة فيها هو في الحقيقة كونٌ قائم بذاته، وفي داخله ذرات تعد بالمليارات، ولكل ذرة نواة هي بمثابة الشمس بالنسبة لنا تدور حولها، فالذرة تتركب من إلكترونات وبوزيترونات ولها أفلاك منظمة ومنتظمة وكل منها يعرف الفلك الذي يدور فيه فلا يخطئه إلا بأمر من الرب، إن حركة هذه الأجزاء والذرة حول أفلاكها هو تسبيح الحجر والصخر الذي لايدركه الشخص العادي، وإذا كانت طاعة الحجر آلية

---

(٥٩) سورة الإسراء: ١٠٢
(٦٠) سورة الكهف: ١٤
(٦١) سورة المؤمنون: ٨٦
(٦٢) سورة الشعراء: ١٦
(٦٣) سورة الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨
(٦٤) سورة الصافات: ١٨٠
(٦٥) سورة الدخان: ٨
(٦٦) سورة الإسراء: ٤٤

عمياء لاتصدر عن إرادة، فإن طاعة المؤمن ربه طاعة حرة تصدر عن إرادة حرة:

﴿ربّ السمواتِ وربّ الأرضِ ربّ العالمين﴾(٦٧)

﴿فوربّ السماءِ والأرضِ إنّه لحقّ مثل ماأنتم تَنطِقون﴾(٦٨)

﴿ربّ السموات والأرض ومابينَهما الرحمنُ﴾(٦٩)

﴿قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ﴾(٧٠)

﴿قل أعوذُ بربِّ الناسِ﴾(٧١)

والله رب الناس كلهم مسلمهم وكافرهم شاؤوا ذلك أم أبوا.

ولكن لانقول عنه رب المتقين أو رب المؤمنين. بل نقول عنه كما يصف نفسه: إله المتقين، وإله المؤمنين.

﴿وإله آبائك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ إلهاً واحداً﴾(٧٢)

﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لاإله إلاّ هو﴾(٧٣)

فإن الله رب كل شيء، فالمؤمن يقول: الله ربي، طوعاً، والكافر ربه الله شاء أم أبى لأنه خالقه، وسيميته ويحاسبه ويعذبه بعد حين، فالله سبحانه وتعالى هو المتصرف به وإن كان الكافر لايعلم ذلك حقيقة.

﴿ربّ اجعلني مقيمَ الصلاةِ ومن ذُرّيّتي رّبنا وتقبّلْ دعاءِ﴾(٧٤)

وهكذا كلما قرأنا آيات الله أكثر تقربنا من الله أكثر، وابتعدنا عن الباطل والوهم والشيطان أكثر.

وقد يسألنا سائل بعد ذلك كله عن كنه الله تعالى فنجيب:

الله سبحانه هو خالق كل شيء والقادر على كل شيء.

وهو المحيط بكل شيء.

وهو حقّ وكلماته كلها حقائق، كلماته هي الشمس والأرض والسموات والقمر والكواكب والنجوم، والبحر والجبال والريح والسحاب، والطير والحوت والإنسان... وأبعد الناس عن الله شعراء الوهم والباطل، لكن ذلك لايمنع أن يكون بين الشعراء

---

(٦٧) سورة الجاثية: ٣٦
(٦٨) سورة الذاريات: ٢٣
(٦٩) سورة النبأ: ٣٧
(٧٠) سورة الفلق: ١
(٧١) سورة الناس: ١
(٧٢) سورة البقرة: ١٣٣
(٧٣) سورة التوبة: ٣١
(٧٤) سورة إبراهيم: ٤٠

شعراء للحقيقة والحقائق. وأقرب الناس لله العلماء: علماء الحقيقة والحقائق ﴿إنّما يخشى اللّهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾(٧٥)

﴿لكِنِ الراسخونَ في العِلمِ منهم والمؤمنونَ يؤمنونَ بما أُنزِلَ إليكَ﴾(٧٦)

فالراسخون بالعلم لايقصد بهم علماء الدين فليس من المفروض أن يكونوا من المؤمنين، قال تعالى:

﴿وليعلم الذينَ أوتوا العلمَ أنّه الحقُّ من رّبك فيؤمنوا به﴾(٧٧)

ومعنى الآية واضح فالعلماء الذين وجدوا منهم الحقائق العلمية في القرآن آمنوا بالله من فورهم دون تريث.

فمن الراسخين في العلم مثلاً والذين أوتوا العلم علماءُ الطبيعة الذين آمنوا بعد أن تبينوا عظمة الخالق في الخلق وليس مَنْ يدّعون بأنهم أوصياء على الدين وعلمهم وَهْمٌ وباطل، أو من أصحاب الخيال الذين يقول فيهم تعالى:

﴿والشعراءُ يَتّبِعُهم الغاوونَ﴾(٧٨)

وقد يكون بعض الشعراء من أتباع الوهم وقد يكون بعض رجال الدين من العلماء لامن المتوهمين الحالمين، وهؤلاء يعرفون الله حق المعرفة، ويخشونه ويتقونه، ولهم مقامهم عند ربهم بإيمانهم وعملهم الصالح، ومنهم المقربون. ومن العلماء الراسخين في العلم والمعرفة مَنْ هم غير مسلمين من أتباع الديانات السماوية:

﴿ولَتَجِدَنَّ أقربَهم مودّةً للّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قِسّيسينَ ورُهباناً وأنّهم لايستكبرون * وإذا سَمِعوا ماأنزلَ إلى الرسولِ ترى أعينَهم تفيضُ من الدمعِ ممّا عرفوا من الحقِّ يقولون رّبنا آمنّا فاكتُبْنا مع الشاهدين﴾(٧٩)

﴿وماعلّمناهُ الشعرَ وماينبغي له إنْ هو إلاّ ذِكرٌ وقرآنٌ مبينٌ﴾(٨٠)

فهذا هو ردّ الرحمن لمن قال عن القرآن إنه شعر، وإن الرسول شاعر مجنون..

﴿ويقولون أئنا لَتارِكو آلهتَنا لشاعرٍ مجنونٍ﴾(٨١)

﴿وماهُوَ بقولِ شاعرٍ قليلاً ماتُؤمنون﴾(٨٢)

---

(٧٥) سورة فاطر: ٢٨
(٧٦) سورة النساء: ١٦٢
(٧٧) سورة الحج: ٥٤
(٧٨) سورة الشعراء: ٢٢٤
(٧٩) سورة المائدة: ٨٢ - ٨٣
(٨٠) سورة يس: ٦٩
(٨١) سورة الصافات: ٣٦
(٨٢) سورة الحاقة: ٤١

والله سبحانه لايذكر كلمتي الوهم والخيال في القرآن الكريم إنما يُضَمِّنُهُما ويَقْرِنُهما سبحانه وتعالى بأعمال الشيطان الرجيم، والشيطان نقيض الحق في القرآن الكريم.

﴿ولاتلبسوا الحقّ بالباطل وتكتُموا الحقّ وأنتم تعلَمون﴾(٨٣)

والله سبحانه جعل التجارة من الأعمال، والربح فيها محلّل، وجعل الربا من الباطل والربح فيه محرّم، لأن الربا تجارة وهمية غير حقيقية فحرّمه الله سبحانه.

﴿وأَحَلَّ اللّهُ البيعَ وحرّمَ الرِّبا﴾(٨٤)

﴿وأَكْلِهِم أموالَ الناسِ بالباطلِ﴾(٨٥)

﴿وقلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ﴾(٨٦)

فخلْقُ الله كلّه حقائق، وقد زرع في خلائقه الحية.. مسؤولية المشاركة في إعادة الخلق عن طريق التزاوج والإنجاب، ولكن جعل الله ذلك تحت سيطرته، ولم يتركها لحرية المخلوق، غير أنه تعالى أمدّه بالغرائز الطبيعية.

﴿قل جاء الحق وما يُبدئُ الباطلُ ومايُعيدُ﴾(٨٧)

وليس في خلق الله كله وهم ولاباطل بل كله حقائق:

﴿ربّنا ماخلقْتَ هذا باطلاً سبحانَكَ فَقِنا عذاب النارِ﴾(٨٨)

﴿وَيَمْحُ اللهُ الباطلَ ويُحقُّ الحقَّ بكلماتِه﴾(٨٩)

صدق الله العظيم

الصورة الوهمية والسلبية لله بدليل الوحي الثاني كتاب الحكمة (أحاديث الرسول):

بعد أن تعرفنا في عرضنا السابق الله الحقيقي الذي يخلق ويحيي ويميت، ويحب ويكره، ويعلم ويميز بين الحق الذي خلقه والباطل الذي يدعو إليه الشيطان، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. لابد أن نعرض صورة الله الوهمية التي صنعناها نحن لأنفسنا من الوهم والخيال، وعبدناها على أنها صورة الله الحقيقية، جهلاً منا فأشركنا بالله العلي القدير:

فما هي صورة إلهنا الوهمي بدليل آيات القرآن الكريم؟

لقد نبهنا تعالى إلى أن الإشراك يمكن أن يقع فيه المؤمن وهو لايعلم أو يعلم ويتجاهل:

---

(٨٣) سورة البقرة: ٤٢
(٨٤) سورة البقرة: ٢٧٥
(٨٥) سورة النساء: ١٦١
(٨٦) سورة الإسراء: ٨١
(٨٧) سورة سبأ: ٤٩
(٨٨) سورة آل عمران: ١٩١
(٨٩) سورة الشورى: ٣٤

﴿ومايؤمنُ أكثرُهم باللّه إلاّ وهم مشركون﴾[٩٠]
والله تعالى لم ينعت الكفار بأنهم نجس بل نعت المشركين:
﴿إنّما المشركون نجسٌ﴾[٩١]
ولأن المشركين أشد ظلماً لأنفسهم من الكفار نهى تعالى عن الشرك بلسان لقمان الحكيم:
﴿يابنيّ لاتُشرك باللّه إنّ الشّركَ لَظُلمٌ عظيم﴾[٩٢]
﴿ولاأخافُ ماتشركونَ به إلاّ أنْ يشاءَ ربّي شيئاً﴾[٩٣]
﴿إنّه منْ يشركْ باللّه فقد حرّمَ اللّهُ عليه الجنّة﴾[٩٤]
﴿ ومن يشركْ باللّه فقد ضَلّ ضلالاً بعيداً﴾[٩٥]
﴿ومن يشرِكْ باللّه فقد افترى إثماً عظيماً﴾[٩٦]
﴿فيكشفُ ماتدعون إليه إنْ شاءَ وتنسونَ ماتُشركون﴾[٩٧]
﴿سيقولُ الذين أشركوا لو شاءَ اللهُ ماأَشْرَكْنا﴾[٩٨]
﴿وقال الذين أَشَركوا لو شاءَ الله ماعبدْنا من دونِه من شيء﴾[٩٩]
فما هي صفات الله الوهمي الذي نعبده اليوم؟ كما تصوره أحاديث الرسول (في الصحيحين).

إله وهمي يسكن في السماء السابعة، وعنده كرسي، وفوق الكرسي عرش عظيم، قوائمه كارتفاع السماء عن الأرض، يحملها ثمانية من الوعول الذهبية، وكل وعل منهم ارتفاعه ارتفاع السماء عن الأرض، وهو جالس فوق العرش العظيم. وهو إله ظالم يحب التعذيب ويتلذذ بحرق العباد وتعذيب الأموات في القبور، يرسل عليهم ملائكة يضربون الموتى بفؤوس من حديد، ويحرقونهم بالنار دون رحمة ولاشفقة، هكذا حتى يأتي يوم الحساب!

وهذا الإله كاذب لاوعد له ولاميثاق، وعد الناس أولاً بأنهم أحرار ثم عاد وسحب

---

(٩٠) سورة يوسف: ١٠٦
(٩١) سورة التوبة: ٢٨
(٩٢) سورة لقمان: ١٣
(٩٣) سورة الأنعام: ٨٠
(٩٤) سورة المائدة: ٧٢
(٩٥) سورة النساء: ١١٦
(٩٦) سورة النساء: ٤٨
(٩٧) سورة الأنعام: ٤١
(٩٨) سورة الأنعام: ١٤٨
(٩٩) سورة النحل: ٣٥

كلامه، وقال أنا أعرفكم أكثر مما تعرفون أنفسكم، ومنذ اليوم الذي خلق فيه آدم أخذ الذرية من ظهره. ففرقهم قسمين ـ قسم كان كاللؤلؤ الأبيض فقال لهم: أنتم أحبائي وسكان جنتي، وقسم أسود كالفحم، قال لهم: أنتم سكان جهنم، ابعدوا عني، (وهكذا يتبين لنا أن هذا الإله عنده عقدة التمييز العنصري أيضاً فهو يفضل البيض على السود).

وهذا الإله الوهمي كتب لكل إنسان مقدار مايعيشه من الأيام، وما يكون عمله في الدنيا، وكتب له أيضاً كم سيحصل من الرزق. وكم ولداً سيولد له وكم بنتاً ومن ستكون زوجته!

والإنسان في نظره مسيّر يتحكم به ويلهو به كما يشاء وليس له دور في كل مارسمه له إلا الإذعان والتنفيذ، فإن لم ينفّذ عذبه الله عذاباً شديداً، وأحرقه بالنار الأبدية!

من أين جاءت هذه الصورة الوهمية لله، والقرآن بريء من كل تفاصيلها؟ لاشك في أنها رسمت بأحاديث مفتراة ومن أراد التفاصيل عليه أن يعود إلى آلاف الصفحات من كتابي البخاري ومسلم المسميَّين بالصحيحين والمباعين في الأسواق واهمين أنها النور الحقيقي من الرحمن والمرشد، وليس فيها من نور إلاّ بعض آيات القرآن المذكورة في تلك الكتب، ونقول بعد هذا إننا نعبد الله! وهل يمكن أن تكون صورة الله كما وصفت لنا، تلك الصورة التي تجلت لنا في القرآن الكريم وآياته. وأحسب أن من آتاه الله ذرةً من عقل يدرك أن هذا الإله الوهمي ليس إله القرآن أبداً، فكيف نعبد صورته هذه وندعوه ليستجيب لنا منذ ألف عام، وبأعلى أصواتنا، ومن كل مساجدنا، ونطلب منه أن يساعدنا ويثبّتنا وينصرنا على أعدائنا؟ ولاعون ولاغوث ولانصر حتى الآن. أنتوقع من هذا الإله الذي لاهم له إلا أن يسحق ويمحق ويحرق ويعذب ولافرق عنده بين الأحياء والأموات الرحمة والحب والمؤازرة؟ ألهذا الإله نسجد ونركع ومن ثم ندعو، لاشك في أننا، نطلب الماء من السراب والماء بين يدينا في كتاب الله فلا نراه، لأن الله سبحانه وتعالى قد أعمى بصيرتنا لظلمنا لأنفسنا وضلالنا، وقد يكون لمن سلف من آبائنا بعض العذر، أما نحن فما عذرنا وكتاب الله بين أيدينا، ولايطلب منا إلا أن نفتحه لنرى مافيه من حقائق ونور وهدى حقيقي؟ إن كل كتب السلف التي خرجت إلينا من مرقدها في الكهف العظيم لاتقدم لنا سوى صورة الإله الوهمي الذي وصفناه قبل قليل، أما الإله الحقيقي فما زال كما كان موجوداً في الكون ينتظر منا أن نتحرك نحن

كما وعدنا، وهو سبحانه ليس عجولاً كالإنسان، إنه يمهلنا لنمد نحن أيدينا لرسالة السماء، ونحن نَرْكُنُها على الرف دون أن نفتحها لنعلم مايريد الله أن يقول لنا فيها ومايريد أن يحذرنا منه، أو يبشرنا به.

﴿إنَّ اللهَ لايغيّرُ مابقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾(١٠٠)

فإن لم نغير نحن ما بأنفسنا ومافي رؤوسنا من ضلال ووهم وأباطيل فلا أمل لنا، وأملنا في أن نبدأ الخطوة الأولى: أن نقرأ رسالة الإنذار التي وصلتنا من السماء قراءة رحمانية ونطبق مانقرأ في حياتنا وسلوكنا.

إن الوصف السابق للإله الوهمي كان بالاستناد إلى أحاديث صحيحة من (صحيح مسلم والبخاري) بالكامل، وسوف نبرهن على ذلك بالتفصيل مع الاستشهاد بالاحاديث النبوية التي استندت إليها من الصحيحين في كتابي الثتني (دين السلطان).

---

(١٠٠) سورة الرعد: ١١

٢٧ ـ الرسول بدليل آيات القرآن الكريم:

مَنْ الرسول صلى الله عليه وسلم بدليل آيات القرآن الكريم؟

الرسول هو من أُرسل من الله سبحانه وتعالى إلى الناس بمهمة محددة:

﴿وما نُرسِلُ المُرسَلينَ إلاّ مبشّرينَ ومُنذرينَ﴾[١]

﴿تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحقّ وإنّكَ لَمِنَ المرسَلين﴾[٢]

فما صفات هؤلاء المرسلين من الله سبحانه وتعالى؟

إنها تتوقف على المهمات التي يكلفها الله الرسول، كأن تكون الاتصال بالناس وإبلاغهم رسالة معينة، أو معاقبة قوم وتدميرهم لضلالهم، والله تعالى قد يرسل من الملائكة من ينفذون المهمة بسرعة ويعودون من حيث أتوا:

﴿قالوا يالوطُ إنّا رُسلُ ربّك لنْ يَصِلوا إليكَ فَأَسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ من اللّيلِ ولايَلتفِتْ منكم أحدٌ إلاّ امرأتَكَ إنّه مُصيبُها ماأصابَهم إنّ موعدَهم الصبحُ أليس الصّبحُ بقريبٍ * فلمّا جاءَ أمرُنا جعلْنا عالِيَها سافِلَها وأمْطَرْنا عليها حجارةً من سِجّيلٍ منضودٍ * مُسوَّمةً عندَ ربِّكَ وماهي من الظالمين ببعيدٍ﴾[٣]. فهؤلاء الملائكة الذين أرسلهم الله هم رسلٌ بُعِثوا لمهمة سريعة لا لنَشْر رسالة، أما إذا أراد الله تعالى نشرَ رسالة في كتاب فإنه يختار رسُلَه على الدوام من الإنس ومن صنف الرجال دون النساء:

﴿وماأرسلْنا من قبلِكَ إلاّ رجالاً نوحي إليهم﴾[٤]

كذلك يحدد الله سبحانه وسيلة اتصاله بالرسول، فهي تتم بالوحي:

﴿وماأرسلْنا من قبلِكَ من رسولٍ إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدونِ﴾[٥]

وللرسول صفات يختارها الله له قبل إرساله سبحانه؟

﴿وما أرسلْنا من رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِهِ ليُبيّنَ لهم﴾[٦]

ولايتميز الرسول عن البشر العاديين إلا بالخلق القويم

---

(١) سورة الأنعام: ٤٨
(٢) سورة البقرة: ٢٥٢
(٣) سورة هود: ٨١ ـ ٨٣
(٤) سورة يوسف: ١٠٩
(٥) سورة الأنبياء: ٢٥
(٦) سورة إبراهيم: ٤

﴿وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيم﴾(٧)

وكل الرسل من البشر: ﴿وماأرسلنا قبْلَكَ من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعامَ ويمشونَ في الأسواق﴾(٨)

وهكذا يبين الله تعالى بوضوح تام ليس فيه غموض سنته وأسلوبه وقانونه في إرسال الرسل للناس ويؤكد أنه لن يغير هذه السنة سبحانه من أجل أحد بل سوف يثابر عليها، لأنها سنته في الرسالة:

﴿سُنَّةَ مَنْ قَد أَرسلْنا قبلَك من رُسُلِنا ولاتجدُ لِسُنَّتِنا تحويلا﴾(٩) وينهي تعالى هذا الموضوع بالآية الآتية:

﴿ومامحمدٌ إلا رسولٌ قدخَلَتْ من قبله الرُسلُ أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلَبْتُم على أعقابِكُم ومن ينقلبْ على عَقِبَيْه فلنْ يضرَّ اللهَ شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾(١٠)

والناس يميلون إلى تقديس المرسلين والمبالغة في تمجيدهم لصلتهم بالله واعتقادهم بشفاعة الرسل فينسبون إلى الرسول صفات إلهية قدسية وهماً وتعبيراً عن حبهم الرسول حباً عظيماً يفوق حب الذات والولد فيسيء المؤمن لدينه ولرسوله أشد الاساءة، وهو ماوقع لقسم كبير من أهل الكتاب، فنبهنا الله إلى ذلك كثيراً، لكننا وقعنا في أشد مما وقعوا به، فالرسول مبعوث مكلفٌ وناقلٌ رسالةً وليس له أي صفةٍ خاصة ممن كلفه، شأن مَنْ يحمل رسالة شفوية أو تحريرية لإبلاغها، وليس له صلاحية أو رأي شخصي فيها إلا في حدود تبليغ الرسالة المنقولة، وكذلك رسل الله إلى بني البشر مهمتهم جميعاً حمل رسالة معينة ذات محتوى محدد، وإبلاغها الناس، وهو محتوى يبلّغ بلغة قوم الرسول وبلسانه نفسه، تجنباً لأي خطأ أو تحوير أو سوء فهم، والله سبحانه وتعالى يعبّر عن نص رسالته بالحديث لأنه يتضمن أخباراً وقصصاً فيها عظة واعتبار:

﴿الله نزّل أحسَن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الّله ذلك هدى الله يهدي بهِ منْ يشاء﴾(١١)

﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَ اللهِ وآياتِه يؤمنون﴾(١٢)

﴿فلعلّكَ باخعٌ نفسَكَ على آثارِهم إنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أَسَفاً﴾(١٣)

---

(٧) سورة القلم: ٤
(٨) سورة الفرقان: ٢٠
(٩) سورة الإسراء: ٧٧
(١٠) سورة آل عمران: ١٤٤
(١١) سورة الزمر: ٢٣
(١٢) سورة الجاثية: ٦
(١٣) سورة الكهف: ٦

﴿هل أتاكَ حديثُ الجنود * فرعونَ وثمود﴾[١٤]

﴿هل أتاك حديثُ الغاشية * وجوهٌ يومئذ خاشِعَة﴾[١٥]

﴿فَذَرْني ومَنْ يكذبُ بهذا الحديث﴾[١٦]

﴿أفبِهذا الحديثِ أنتم مدهنون﴾[١٧]

﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إنْ كانوا صادقين﴾[١٨]

﴿هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرمين﴾[١٩]

فكل آيات القرآن الكريم تعبر عن كلام الله بالحديث أو حديث الله، وليس من أي ذكر لحديث خاص بالرسول الكريم في القرآن إطلاقاً.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى سُنَّة الله وكلمة سنة في القرآن الكريم:

﴿سُنَّةَ من قد أرسلنا قبلك من رُسُلِنا ولاتَجِدُ لِسُنَّتِنا تحويلا﴾[٢٠]

﴿سُنَّةَ اللهِ التي قد خلَتْ من قبلُ ولن تجدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تبديلا﴾[٢١]

﴿يُريدُ اللّهُ ليبيّنَ لكم ويهديكُم سُننَ الذين من قبلِكُم﴾[٢٢]

وليس في آيات القرآن الكريم من سنة أو سنن إلا لله تعالى، لا لأحد من رسله، وهذه حقيقة ثابتة: والله عز وجل لايشير إلى كلام الرسول، ولايورد أي آية تنسب للرسول كلاماً، مع أنه تعالى يتحدث عن كلامه وكلام الأنبياء:

﴿ولما جاءَ موسى لميقاتِنا وكلَّمه ربُّه قالَ ربّ أرِني أَنظر إليكَ﴾[٢٣]

﴿ولو أنّنا أنزلْنا إليهم الملائكةَ وكلّمهم الموتى وحشرْنا عليهم كلّ شيء قُبُلاً ماكانوا ليؤمنوا﴾[٢٤]

﴿قالَ آيتُكَ ألّا تكلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلاّ رَمزا﴾[٢٥]

﴿قالوا كيف نكلِّم مَنْ كانَ في المهدِ صَبيّا﴾[٢٦]

﴿وماكان لبشرٍ أن يُكلِّمه اللهُ إلاّ وَحياً أوْ من وراءِ حِجابٍ﴾[٢٧]

---

(١٤) سورة البروج: ١٧ ـ ١٨
(١٥) سورة الغاشية: ١ ـ ٢
(١٦) سورة القلم: ٤٤
(١٧) سورة الواقعة: ٨١
(١٨) سورة الطور: ٣٤
(١٩) سورة الذاريات: ٢٤
(٢٠) سورة الإسراء: ٧٧
(٢١) سورة الفتح: ٢٣
(٢٢) سورة النساء: ٢٦
(٢٣) سورة الأعراف: ١٤٣
(٢٤) سورة الأنعام: ١١١
(٢٥) سورة آل عمران: ٤١
(٢٦) سورة مريم: ٢٩
(٢٧) سورة الشورى: ٥١

﴿وقد كان فريقٌ منهم يسمعونَ كلامَ الله ثم يحرفونَهُ﴾(٢٨)

وثمة عشرات من الآيات الكريمة تتحدث كلها عن كلام الله وكلام الأنبياء والرسل لكن الله سبحانه وتعالى يتحاشى أن يذكر آية واحدة فيها كلام للرسول الكريم أو أي كلمة مشتقة منها منسوبة للرسول الكريم. لماذا؟ لأن حديث الله هو القرآن وسنة الله هي في القرآن مع سنته، وكلام الله هو القرآن. فلم يشأ سبحانه أن ينسب أحداً منها للرسول حتى لايقع الناس في أوهام لها أول وليس لها آخر ولكي نتفهم الأسباب لنضرب المثال التالي.

في كل دولة جيش، ولكل جيش قائد عام، وفي كل جيش ضباط وجنود، وليس لأي فرد من أفراده قواعد وأنظمة وسنن خاصة، وإنما هي سنن وقواعد وأنظمة صادرة عن القيادة العامة، ولايستطيع أي فرد أن يضيف إليها حرفاً واحداً، أو يتجاوزها وليس لأي ضابط كلمة خاصة به أو كلام خاص به أو حديث خاص به إلا أن تكون أوامر صدرت إليه من القيادة العليا يبلغها لجنوده وينفذها معهم بحذافيرها، وليس له حتى حق المناقشة وابداء الرأي. إذ ليس للضابط رأي خاص فيما يتعلق بالأنظمة والقوانين الأساسية للقيادة العامة.

وكذلك الله سبحانه وتعالى هو السلطة العليا للإنس والجن، ومصدر التشريع والأوامر، والرسول قائد ممتثل لأوامر الله التي تصل إليه وحياً. فعليه التبليغ والتنفيذ، ومن هنا نجد أن ليس للرسول الكريم حديث ولاسنة ولاكلام بل حديثه وسنته وكلامه حديث الله وسنن الله وكلام الله. فكل حديث يُروى اليوم عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويناقض الحقائق الموجودة في القرآن الكريم باطل شرعاً، من ذلك مثلاً ماروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم أمرين لن تَضِلّوا ماتَمسكْتُم بهما: كتابُ الله وسُنَّتي)(*).

بينما تجد الحديث نفسه في خطبة الوداع دون أن ترد فيه كلمة سنتي.

وهكذا توضح لنا بالدليل القاطع من القرآن الكريم الذي ليس بعده من مصدر أعلى للرجوع إليه لمعرفة الحقائق، والمؤمنون الصادقون كلهم يؤمنون أن كلام الله في القرآن هو الحق الذي لايعلى عليه، لذلك أعتقد جازماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخالف الله ولم يناقض القرآن بل ألقى أوامر، ونقل تعليمات عن ربه مطابقة لما معه من

---

(٢٨) سورة البقرة: ٧٥

(*) جامع بيان العلم وفضله: ج٢ ص ١٨٠

القرآن الكريم، وإنما حرفت هذه الأحاديث لأسباب شتى، فمن المؤكد أن نص الحديث الذي أوردناه هو (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما: كتاب الله وسنته) فبدلت الهاء الأخيرة في سنته إلى ياء، وهو أمر ممكن الحدوث جداً، لأن الحديث المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يروى من الذاكرة فترة طويلة كافية لإدخال أي تغيير عليه حسب مصلحة السلطان الآمر بالتغيير.

وقد وجدت في كتاب (السنة قبل التدوين) للدكتور محمد عجاج الخطيب شرحاً وافياً ودقيقاً لهذا الموضوع(*) جاء فيه:

(كان مصدر التشريع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وسنة رسوله: ينزل الوحي، فيبلغه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة، ويبين مقاصده، ثم يطبق أحكامه، فكان صلى الله عليه وسلم المرجع الأعلى في جميع أمور الأمة، في القضاء والفتوى، والتنظيم المالي والسياسي والعسكري: يعالج الأمور على مرأى من أصحابه رضي الله عنهم، وعلى ضوء القرآن الكريم، فإن وجد حكماً للقضية فصل فيها وإن لم يجد اجتهد فيها حيناً، أو انتظر الوحي أحياناً، ليعرف حكم الله تعالى، وقد يجتهد فينزل الوحي مصححاً لاجتهاده، لأن الله عز وجل لايقرّ رسوله على الخطأ).
وهكذا يفهم من شرح الدكتور خطيب الواقعي أن اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم هو فهمه الشخصي الإنساني للوحي أو للوضع القائم أمامه بحسب المنطق السابق للوحي الذي تجمع لديه من القرآن، فإن أصاب ثَبَّتَ الله كلامه، وإن اجتهد فخالف اجتهاده مقاصد الله صَحَّحَ الله له اجتهاده لأن الله سبحانه وتعالى تَعَهَّدَ أن يراقب نبيه الأميّ الذي ليس لديه علم خاص به يقدمه للناس إلا أن يكون وحياً من الله قد أوحي إليه، لذا يجب أن نراعي في الحسبان أن الله عز وجل قال عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنه كان أمياً ولكنه لم يقل إنه كان ثقيل الفهم أو صعب التفهم والتعلّم. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ذكياً لمّاحاً، لكن في حدود المستوى الإنساني للذكاء، وفي ضوء ذلك يجب أن نفهم الآيات الآتية فهماً جديداً:

﴿وابتغِ فيما آتاكَ اللّه الدارَ الآخرةَ﴾(٢٩)

﴿ولو شاءَ اللّهُ لجعلَكُم أمةً واحدةً ولكن ليبلوَكُم فيما آتاكُم﴾(٣٠)

(*) السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب ـ دار الفكر ط ١٩٩٣ ص ٧٧
(٢٩) سورة القصص: ٧٧ (٣٠) سورة المائدة: ٤٨

﴿رفع بعضكُم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليبلوَكم فيما آتاكُم﴾[٣١]

﴿وآتوهم من مالِ اللّه الذي آتاكُم﴾[٣٢]

﴿لكيلا تأسوا على مافاتَكُم ولاتفرحُوا بما آتاكُم﴾[٣٣]

ومثلها كثير من الآيات تؤكد أن الله وحده وهو المؤتي ولا يعطي سواه لاشريك له، كذلك يجب أن نفهم الآية الآتية في ضوء ماأسلفنا:

﴿وما آتاكُم الرسولُ فخذوه ومانهاكُم عنه فانتهوا﴾[٣٤]

لاحظ أن الله سبحانه أرسل الرسالة عن طريق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولو فكرنا بالمنطق المباشر لتوصلنا إلى أن أي رسول في العالم هو وسيط بين الله والناس، وناقل رسالته، التي يحمله إياها، وليس لدى رسوله الأميّ مايقدمه للناس غير رسالة ربّه، فهو ينهى الناس عما نهى الله سبحانه وتعالى في الرسالة، ولايضيف إليها جديداً، ولو كان مطلوباً منه أن يقدم تعليماً لنقله الله إلى السموات وعلمه سنين عديدة ليستوعب علم الله، وأعاده ليعلمنا مما علّمه الله، ولم يحصل ذلك على الإطلاق.

لذلك يقول تعالى أنه هو وحده الذي يؤتي ويعطي

﴿ولقد آتيناكَ سَبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾[٣٥]

﴿وخُذُوا ماآتيناكُم بقوةٍ واذكروا مافيه لعلّكم تّتقون﴾[٣٦]

﴿ومن قُدِرَ عليه رزقه فليُنفِقْ ممّا آتاهُ اللّه﴾[٣٧]

فالمؤتي أبداً هو الله، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها تفويض الرسول بالتبليغ جاء في سورة الحشر السابعة: بمعنى أن محمداً صلى الله عليه وسلم فُوّضَ بتسلم الرسالة ونقلها أي إبلاغها للناس. فالطرف المتسلم لايرى الله مباشرة وإنما يرى شخص الرسول مع الرسالة التي ينقلها لذلك استخدم الله سبحانه هذا التعبير لمرة واحدة في القرآن الكريم في الآية المذكورة:

﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فخُذوه ومانَهاكُم عنه فانْتَهُوا﴾[٣٨]

لكن الشيطان لم يترك حتى هذه الفرصة الوحيدة تفوته لكي يُضل الناس به ويوهمهم بأن الرسول الكريم قد أتى من عنده بشيء خاص، فآمن شيوخ عظام بأن ذلك حقيقة

---

(٣١) سورة الأنعام: ١٦٥
(٣٢) سورة النور: ٣٣
(٣٣) سورة الحديد: ٢٣
(٣٤) سورة الحشر: ٧
(٣٥) سورة الحجر: ٨٧
(٣٦) سورة البقرة: ٦٣
(٣٧) سورة الطلاق: ٧
(٣٨) سورة الحشر: ٧

مُسَلَّمٌ بها كالشمس لاتقبل النقاش، ومنهم شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وكل معاصريهم من شيوخ الإسلام كانوا يؤمنون بأن هناك كتابين ووحيين: كتاب لله، وكتاب للرسول، حديث لله، وحديث للرسول، سنة لله، وسنة للرسول، وهكذا جعلوا الرسول صلى الله عليه وسلم شريكاً كاملاً لله ليس بالألوهية كما فعل أهل الكتاب من المسيحيين ولكن بالرسالة، وهذا كله إشراك واضح بالله لايحتاج إلى جدال. فمن انتبه إليه وعاد فاستغفر وتاب ورجع إلى الصواب غفر له الله وإلا كان جزاؤه في القرآن الكريم عقوبة المشرك.

﴿إنَّه مَنْ يُشْرك بالله فَقَد حَرَّمَ اللهُ عليه الجنّة﴾(٣٩)

والحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت له مهمة محددة عليه تنفيذها،

﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدينِ كلِّه﴾(٤٠)

فالرسول يحمل من الله الهدى ودين الحق، من كتاب الله، وليس محتاجاً إلى كتاب آخر، إلا إذا رضينا أن نتبع الشيطان فيما يهوى بأن نؤمن معه وهماً وظناً بوجود كتاب آخر.

والرسول حتى في تبليغه للرسالة حدد له الله سبحانه حدوداً يتصرف ضمنها مثل

﴿إنّا أرسلناكَ بالحقّ بشيراً ونذيراً﴾(٤١)

والله تعالى يعلم أن الناس جميعاً لن يتبعوا الرسالة. ويتوقعه أصلاً ﴿ومنْ تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾(٤٢)

فالناس أحرار بعد التبليغ إن شاؤوا آمنوا، وإن شاؤوا كفروا، وحسابهم على الله سبحانه وليس على الرسول صلى الله عليه وسلم ولاعلى المؤمنين في أي زمان أو مكان أيَّة مسؤولية تجاه من يختار الكفر منهجاً أو طريقاً ﴿وما أرسلْناك عليهم وَكيلاً﴾(٤٣)

﴿وبالحقّ أنزلناهُ وبالحقّ نزلَ وما أرسلْناك إلاّ مبشِّراً ونذيراً﴾(٤٤)

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾(٤٥)

وكما طلب سبحانه من الناس أيضاً أن يعاملوا رسوله بما يليق به، لأنه رسول من الله تعالى:

﴿وما أرسلْنا من رسولٍ إلاّ ليطاعَ بإذنِ اللّهِ﴾(٤٦)

---

(٣٩) سورة المائدة: ٧٢
(٤٠) سورة الفتح: ٢٨
(٤١) سورة البقرة: ١١٩
(٤٢) سورة النساء: ٨٠
(٤٣) سورة الإسراء: ٥٤
(٤٤) سورة الإسراء: ١٠٥
(٤٥) سورة الشورى: ٤٨
(٤٦) سورة النساء: ٦٤

﴿لقد كانَ لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ﴾(٤٧)

﴿وماكان لكم أن تُؤذوا رسولَ اللّهِ ولاأن تنكحُوا أزواجَه من بعدِه أبداً﴾(٤٨)

﴿إنّ الذين يؤذونَ اللّهَ ورسولَه لعنَهُم اللّهُ في الدنيا وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾(٤٩)

﴿إنّ الذين يغضّونَ أصواتَهُم عندَ رسولِ اللّهِ أولئكَ الذين امتحَنَ الله قلوبَهم للتّقوى﴾(٥٠)

﴿وإذ قالَ موسى لقومِهِ ياقَوْمِ لِمَ تُؤذونَني وقد تعلَمون أَنّي رسولُ اللّهِ إليكم فلّما زاغو أزاغَ اللّهُ قلوبَهم واللهُ لايهدي القومَ الفاسقين﴾(٥١)

﴿ولاتجعلوا دعاءَ الرسولِ بينكم كدعاءِ بعضِكُم بَعضاً﴾(٥٢)

﴿ياأيها الذين آمنوا لاترفَعوا أصواتَكم فوقَ صوتِ النّبيّ ولاتجهرُوا له بالقولِ كَجهرِ بعضِكم لبعض﴾(٥٣)

فالرسول صلى الله عليه وسلم يمثل من الله تعالى أعظم قوة في الكون، فطاعته واجبة على كل المؤمنين الذين آمنوا حباً وتطوعاً من دون إجبار ولاإكراه بالله سبحانه.

وبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتابع تنفيذ أوامر الله وأوامر قيادته السماوية العليا، فإن الله تعالى يطمئن الناس أن رسوله موثوق مأمون عند ربه، ويؤكد أن إطاعة الرسول من إطاعته، من ذلك قوله تعالى:

﴿من يُطِعْ الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾(٥٤)

والرسول الكريم لن يخون الأمانة وثقة الله به، فلا يمكن أن يطلب أن يطيعوه في آرائه الشخصية ولو فعل ذلك لمنعه الله لأنه ليس بغافل عنه لحظة واحدة.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا ذلك كما شرحنا ذلك في قصة الغرانيق. وكيف ألقى الشيطان في أمنية الرسول وعلى لسانه كلاماً ليس من الوحي، بدون أن يشعر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فعاد جبريل وصحح له ليرينا الله سبحانه الناس أنه لوحدث خطأ من هذا القبيل فالله ليس بغافل عنه بل سيصحح ذلك الخطأ مباشرة، ليكون الناس على ثقة من أن كل ماوصلهم من الوحي بلسان الرسول صلى

---

(٤٧) سورة الأحزاب: ٢١
(٤٨) سورة الأحزاب: ٥٣
(٤٩) سورة الأحزاب: ٥٧
(٥٠) سورة الحجرات: ٣
(٥١) سورة الصف: ٥
(٥٢) سورة النور: ٦٣
(٥٣) سورة الحجرات: ٢
(٥٤) سورة النساء: ٨٠

الله عليه وسلم من عند الله سبحانه وتعالى وليس فيه حرف واحد منه شخصياً بل كله من الله.

﴿وماأرسلْنا منْ قبلِكَ من رسولٍ ولانبيّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّتِهِ فينسخ اللهُ مايُلقي الشيطانُ ثم يُحكمُ اللّه آياتِه واللهُ عليمٌ حكيم﴾(٥٥)

﴿ياأيّها الرسولُ بلغْ ما أُنزلَ إليكَ من رّبكَ﴾(٥٦)

ولو فكر الرسول أن يضيف إلى الوحي حرفاً فماذا يمكن أن يفعل به سبحانه؟ لنستمع إلى هذا الوصف الذي يضربه الله تعالى مثلاً للاتعاظ فقط، وليس تهديداً أو تنبيهاً له، لأنه سبحانه يعلم أن رسوله مطيع أمين لايخشى جانبه، ولكن الله تعالى يخشى جانب الناس الذين بعد أن أعطاهم حرية الإرادة والمشيئة في اختيار الكفر أو الإيمان فلم يسعهم عقلهم بعد ذلك فصاروا يَفْتَنّون في الكفر والإلحاد والفسوق والإشراك فإلى هؤلاء فقط وإلى باقي المسلمين يتوجّه الله تعالى بقوله:

﴿إنه لقولُ رسولٍ كريم * وماهو بقول شاعرٍ قليلاً ماتؤمنون * ولابقولِ كاهنٍ قليلاً ماتذكّرون * تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾(٥٧)

والله سبحانه وتعالى يذكر في هذه الآية كلمة قول وينسبها إلى الرسول الكريم (إنه لَقَوْلُ رسول كريم) والقول هنا لايعني أن الرسول هو القائل إذ لايشترط في القول أن يكون صادراً عن القائل، فإن نقلت أنا عن زيد قالوا نقل فلان عن زيد فقال، والقول كله منقول عن زيد، بينما إذا قلنا كلام زيد نقصد أن مصدر الكلام من زيد وليس من غيره، وهذه آيات الله في كتابه شاهدة على ذلك ويمكن الرجوع إليها للتمييز بين معنى القول ومعنى الكلام: لم يذكر الله سبحانه وتعالى تعبير «كلام الرسول» مطلقاً في القرآن، ليؤكد أن كل مايصلنا من الرسول ليس منه إنما هو من الله ولو جاء في الآية: «إنه لكلام رسول كريم» بدل «إنه لقول رسول كريم» لكان ذلك يعني أن الكلام من الرسول وليس من الله سبحانه، وهو عكس المراد.

أحببت أن أشرح تلك النقطة الهامة لكي لايقع فيها إشكال من مؤمن وهو يقرأ القرآن الكريم.

والله سبحانه يتابع الآيات الكريمة فيقول:

---

(٥٥) سورة الحج: ٥٣ (٥٦) سورة المائدة: ٦٧ (٥٧) سورة الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣

﴿ولو تقوّلَ علينا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمين * ثم لقَطَعْنا منه الوَتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين * وإنّه لتذكرةٌ للمتّقين * وإنّا لنعلَمُ أنّ منكم مكذّبين * وإنّه لحسْرةٌ على الكافرين * وإنّه لحقّ اليقين * فسبح باسم ربّكَ العظيم﴾(٥٨)

يؤكد الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة ماقلناه من أن الرسول الكريم لو فكر في أن يتقول على الله لأمسك به باليمنى، وذبحه قاطعاً الشرايين الموصلة إلى قلبه، ولن يستطيع أحد من الناس آنذاك أن ينقذ الرسول من يد الله، ثم يتابع الله بأنه يعلم بأن بينهم مكذبين، ولكن يطمئنهم أن القرآن كله حقّ اليقين فليسبحوا الله.

ولذلك يجب أن نعلم علم اليقين أن كل من يظن أن الرسول أتانا بحرف واحد من عنده لايطابق ماهو موجود في القرآن إنما يصدر عن الشيطان في قوله، وكتاب الرحمن الذي حفظه بقدرته إلى اليوم سليماً يشهد لله وللرسول على صدقهما، ويكذب كل ماوضع وأضيف على الرسول كذباً وبهتاناً فيما لم يرد ذكره في القرآن.

وليس لنا أن نزعم إنَّ الله نسي أن يذكر ذلك في القرآن. لأن الله لاينسى.

لنتابع بعد ماورد عن الرسول في القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم﴾(٥٩)

فالقائد الأعلى المطلق في السماء، والقائد الأعلى على الأرض، والقادة الأدنى رتبة: قادة المسلمين وأولي الأمر منكم. مطلوب من الناس إطاعتهم بالتسلسل.ولدينا الأوامر العليا التي تنقل بالتسلسل للناس، لكي ينفذ الناس الأوامر على الأرض خضوعاً وعبادة وجهاداً وزكاة وصلاة وتقيداً بحدود الله.

فالرسول يأخذ من الله بالوحي، ويعطيه بلسانه للناس، الذين يسمعونه فينفذون، ويكتبه كتبة الوحي لكافة الناس في العالم ولجميع الأزمنة والأمكنة، وهنا نفهم تماماً معنى الآية

﴿وما آتاكُم الرسولُ فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا﴾(٦٠)

وهناك عشرات من الآيات في القرآن الكريم تحث على إطاعة الناس الرسول:

﴿وأطيعوا اللّهَ والرسولَ لعلّكم تُرحمونَ﴾(٦١)

﴿ومَنْ يُطِعِ اللّهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللّهُ عليهم﴾(٦٢)

---

(٥٨) سورة الحاقة: ٤٤ - ٥٢
(٥٩) سورة النساء: ٥٩
(٦٠) سورة الحشر: ٧
(٦١) سورة آل عمران: ١٣٢
(٦٢) سورة النساء: ٦٩

﴿ومَنْ يُطِعْ الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾[٦٣]

﴿وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذَروا﴾[٦٤]

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ قالوا حسبُنا ماوجدْنا عليه آباءَنا﴾[٦٥]

هذه الآية تنطبق على من يقرأ الحقائق في هذا الكتاب والتي يدعمها كتاب الله وآياته شواهد على مانقول فَيَسْتَكبر ويقول: حسبنا ماوجدنا عليه آباؤنا ومشايخنا ونحن نرد عليهم بقول الله تعالى في القرآن.

﴿أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدْتُم عليه آباءَكم﴾[٦٦]

وهذا الرد يفحمهم، فإن كابروا ذكرناهم بالآية الكريمة الآتية:

﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نَتّبعُ ماوجدْنا عليه آباءَنا أوَلَوْ كانَ الشيطانُ يدعوهُم إلى عذابِ السعير﴾[٦٧]

والله سبحانه وتعالى يتوقع أن نميل مع الشيطان والوهم تاركين الحق الذي في القرآن:

﴿يا أيّها الذين آمنوا لاتخونوا اللهَ والرسولَ﴾[٦٨]

وهل من خيانة أكبر من أن نقول على الرسول كلاماً لم يقله ولم يفكر فيه؟ ومن تلك الخيانات ضد الرسول: كل كلام نتقوله عن الرسول بحدوث المعجزات على يديه نقلاً من أحاديث الوهم، وكلها لم تحصل. وقد رأينا أن القرآن لم يغفل عن أي معجزة من معجزات موسى إلاّ ذكرها في القرآن أيضاً، ومعجزات عيسى كلها ذكرها في القرآن، فلماذا يغفل عن معجزات محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن؟ هل نقول إن الله نسي ذلك أم سهى عنه؟ أي الحلين عندكم أفضل؟ لن يستطيع أحد منا أن يتقول من عنده على الرسول لأنه واحد مثلنا، ليس عنده علم يأتينا به إن لم يكن من القرآن نفسه والله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿وماكانَ لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلاّ بإذنِ اللّه﴾[٦٩]

وماذا نفهم من الآية الكريمة التالية:

﴿واعلَموا أنّ فيكم رسولَ الله لو يُطيعكم في كثيرٍ من الأمر لَعَنِتُّم﴾[٧٠]

---

(٦٣) سورة النساء: ٨٠
(٦٤) سورة المائدة: ٩٢
(٦٥) سورة المائدة: ١٠٤
(٦٦) سورة الزخرف: ٢٤
(٦٧) سورة لقمان: ٢١
(٦٨) سورة الأنفال: ٢٧
(٦٩) سورة الرعد: ٣٨
(٧٠) سورة الحجرات: ٧

من هذه الآية الكريمة نفهم أن المؤمنين يطالبون النبي محمد ﷺ بشيء معين.

ومن الآية أيضاً نفهم أن الرسول لايطيع المؤمنين فيه لأنه يعلم سلفاً من الله تعالى بأن مايطلبه المؤمنون ليس في مصلحتهم بل سيكون سبباً في عنتهم وشقائهم فهماً للآية:

﴿إذْ قال الحَواريّون ياعيسى ابنَ مريمَ هل يستطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السماءِ قال اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾[٧١]

إن الحواريين يطلبون معجزة من السماء والرسول عيسى عليه السلام يقول لهم:

«اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين» لأن المسيح يعلم من ربه أن هذا الطلب وكل طلب مشابه من الأمور التي تجعل غضبه يزداد على طالبي المعجزة لصغر عقولهم وقلة إيمانهم.

﴿قالوا نريدُ أن نأكُلَ منها وتَطمئنَّ قلوبُنا ونعلمُ أنْ قد صَدَقْتَنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابنُ مريم اللّهمّ ربَّنا أنزلْ علينا مائدةً من السماءِ تكونُ لنا عِيداً لِأوَّلِنا وآخِرِنا وآيةً منك وارزُقْنا وأنتَ خيرُ الرازقين﴾[٧٢]

وهكذا نرى أنه بعد إلحاح الحواريين لم يجد المسيح إلا أن يَنْزِلَ عند رغبتهم فيدعو ربه بأن تتم المعجزة. فماذا قال الله جواباً لذلك سبحانه وتعالى؟ ﴿قالَ اللّه إنّي منزلُها عليكم فمنْ يكفرْ منكم فإني أعذّبُه عذاباً لاأعذّبُه أحداً من العالمين﴾[٧٣]

وهل هناك عَنَتٌ أكبر من هذا في العالم؟ والرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كان يعلم ذلك فلم يكن يطيع المؤمنين بل كان يُسَوِّفُ طلبهم لأنه كان كما يقول الله عنه:

﴿لقد جاءَكُم رسولٌ من أنفسِكُم عزيزٌ عليه ماعَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾[٧٤]

ولكن المؤمنين كانوا لا يكفون عن طلب المعجزات والآيات من الرسول الكريم لجهلهم

﴿وقال الذين لايعلَمون لولا يكلّمنا اللهُ أو تأتينا آية﴾[٧٥]

وكذلك أهل الكتاب كانوا يلحون على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات مثل معجزات عيسى بن مريم ومعجزات موسى عليهم السلام، فقال الله سبحانه إنهاءً للموضوع

﴿ولئن أَتَيْتَ الذين أوتوا الكتابَ بكلِ آيةٍ ماتبعوا قِبْلَتَك﴾[٧٦]

---

(٧١) سورة المائدة: ١١٢
(٧٢) سورة المائدة: ١١٣ - ١١٤
(٧٣) سورة المائدة: ١١٥
(٧٤) سورة التوبة: ١٢٨
(٧٥) سورة البقرة: ١١٨
(٧٦) سورة البقرة: ١٤٥

بل يطلب تعالى من الرسول الكريم أن يسأل بني إسرائيل:

﴿سلْ بني إسرائيل كم آتيناهم من آيةٍ بيّنةٍ﴾[٧٧]

وليس من حاجة لسؤالهم لأن القرآن يجيب عنهم بآيات الله في القرآن الكريم ﴿وإن يروا كلّ آيةٍ لايؤمنوا بها﴾ والمسلمون لم يتوقفوا عن طلب المعجزات ﴿وأَقْسَموا باللّهِ جَهْدَ إيمانهم لَئِنْ جاءتْهم آيةٌ ليؤمِنُنّ بها ...﴾[٧٨]

فماذا كان موقف الله سبحانه وتعالى منهم، لنسمع بقية الآية الكريمة.

﴿... قل إنّما الآياتُ عند الله ومايُشعرُكُم أنّها إذا جاءَتْ لايؤمنون﴾[٧٩]

﴿ونقلّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرهُم في طغيانِهِم يَعْمَهون﴾[٨٠] ثم يقول الله تعالى كلمة الفصل فيهم وفي الموضوع كله

﴿ولو أنّنا نَزّلْنا الملائكةَ وكلّمهُم الموتى وحشَرْنا عليهم كلّ شيءٍ قُبُلاً ماكانوا لِيُؤْمِنوا إلّا أنْ يشاءَ اللّهُ ولكنّ أكثرَهُم يَجْهلون﴾[٨١]

أرجو أن لايفهم أحد هذه الآية العظيمة فهماً وهمياً بل فهماً حقيقياً مع تفهم كل الحقائق السابقة. فالله سبحانه لم يغير رأيه ومازال الإنسان هو الذي يقرر اختياره ومشيئته وهو وعد سبق أن أعطاه الله للإنسان. إذاً كيف تفهم الآية المعجزة ضمن هذه المعطيات.

يقول لنا الله بصراحة إن المعجزات لايمكن أبداً أن تكون سبباً لإيمان العبد إلا إذا كان هناك سعي وإرادة ذاتية من العبد بحثاً عن الإيمان، فيعرف أين يبحث، فمن اتبع الحق والحقائق ووسائل الحق من عقل ومنطق فهو لابد واصل للإيمان، والله شاء أن يكون طريق الإيمان يمر على كل تلك المعالم.

وللذين يطالبون بالمعجزات يقول تعالى لهم: هذه معجزة عملية تحدث أمامكم لماذا لاتروها

﴿قد كان لكم آية في فئتين التقَتَا فئة تقاتلُ في سبيلِ اللهِ وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأيَ العينِ واللهُ يؤيدُ بنصرهِ منْ يشاءُ إنّ في ذلكَ لعبرةً لأولي الأبصار﴾[٨٢]

والله سبحانه يدلهم على المعجزات إذا كانوا يريدون أن يروا معجزات قائلاً سبحانه

---

(٧٧) سورة الأنعام: ٢١١ — (٧٩) سورة الأنعام: ١٠٩ — (٨١) سورة الأنعام: ١١١

(٧٨) سورة الأنعام: ١٠٩ — (٨٠) سورة الأنعام: ١١٠ — (٨٢) سورة آل عمران: ١٣

﴿إنّ الله فالقُ الحَبّ والنوى يُخرج الحي من الميت ومخرج الميّتَ من الحيّ ذلكم اللهُ فأنّى تؤفكون * فالقُ الإصباحِ وجعلَ الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعلَ لكم النجومَ لتهتدُوا بها في ظلماتِ البرّ والبحرِ قد فصّلنا الآياتِ لقومٍ يعلمون * وهو الذي أنشأكُم من نَفْسٍ واحدةٍ فمستقرٌ ومستودعٌ قد فصّلنا الآياتِ لقومٍ يفقهون * وهو الذي أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرَجْنا به نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرجْنا منهُ خَضِراً نُخرجُ منه حَبّاً متراكِباً ومن النَّخلِ من طَلْعِها قِنوان دانية وجنات من أعنابٍ والزيتونَ والرمانَ مشتبهاً وغيرَ متشابه انظروا إلى ثمرِهِ إذا أثمرَ ويَنْعه إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾(٨٣)

ومافائدة المعجزات إن كان من سبقهم قد اتهم الرسل بالسحر والشعوذة حين رأوا معجزات الله، فالله يعلم أن المعجزات لن تفيد في نشر الإسلام والدعوة للإيمان. فقد قدّم من قبل لبني اسرائيل تسع آيات بينات، رآها بنوا اسرائيل بالعين ولكن عندما تركهم موسى عليه السلام أربعين ليلة للقاء ربه في موعده، فتنهم السامري، فعبدوا العجل، فهل بعد هذا برهان على أن المعجزات لاتفيد. فالله الذي خلقنا يعرف نفوسنا ومانميل إليه أكثر مما نعرف نحن أنفسنا لذلك فضل الاكتفاء بالمعجزات المذكورة في القرآن الكريم من أخبار عن الأقوام السابقين وإيمانهم الذي يعد معجزة بحد ذاته.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾(٨٤)

وآيات في هذه الآية بمعنى معجزات.

وفعلاً في الآية معجزات علمية شرحتها سابقاً وهي أن يوسف وإخوته الأحد عشر مع أمه وأبيه ضرب عليهم مثلاً رب العالمين بالشمس والقمر والكواكب الأحد عشر وهذه حقائق علمية لم يعلمها البشر إلا في القرن العشرين لأن الاعتقادات القديمة كانت بأن الأرض هي مركز الكون والشمس والقمر من الكواكب وهي ليست كذلك. وأن عدد الكواكب سبعة تدور حول الأرض مشكّلة السموات السبع وهذه كلها تخمينات ليس فيها حقيقة واحدة بينما نجد الحقيقة كاملة في مَثَلِ الله ـ الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً بما فيها الأرض ـ وهي تشكّل المجموعة الشمسية في مجرّة درب التبان.

---

(٨٣) سورة الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩ (٨٤) سورة يوسف: ٧

٢٨ ـ النسخ والإنساء في القرآن الكريم

ماذا نعني بالنسخ؟ وماذا نعني بالإنساء؟ بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿مانَنسخْ من آيةٍ أو نُنسِهَا نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها﴾[١]

﴿فينسخُ اللّه مايُلقي الشيطانُ ثم يُحكِمُ اللّهُ آياتِهِ﴾[٢]

ليس في القرآن الكريم كله سوى هاتين الآيتين في موضوع النسخ والإنساء.

ولكي نفهم النسخ والإنساء منهما لابدّ من الرجوع إلى أسباب نزول الآية الأولى منهما، وهي الآتية:

بعد نزول الآية: ﴿أفرأيتم الّلاتَ والعزّى﴾ من سورة النجم ألقى الشيطان نتيجة لتمنّي الرسول صلى الله عليه وسلم ألا ينزل الله تعالى مايغضب قومه من قريش لأنه كان يطمع بإسلام بعض وجهائهم، فألقىَ الشيطان في أمنية الرسول وفي ذهنه بعض الكلمات فاعتقد أنها من الوحي فطلب من كتبة الوحي تسجيله وكتابته في نص القرآن الكريم وكانت كما يلي: ﴿أفرأيتم الّلاتَ والعزى * تلك الغرانيق العلى * وإن شفاعتهنّ لترتجى﴾ فسرّ القرشيون من المشركين بذلك وسجدوا مع الرسول في الصلاة، ولكن بعد فترة نزل جبريل وعاتب الرسول وصحح الآية ناسخاً ما ألقى الشيطان، وذلك بمشيئة من الله، فأصبح نصها هو:

﴿أفرأيتُم الّلاتَ والعزّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى * ألكم الذَّكَرُ وله الأنثى﴾[٣]

وهو نصها في القرآن إلى اليوم، وسيبقى كذلك إلى يوم الدين.

ونزلت الآيتان الآتيتان في توضيح ماوقع:

﴿وما أرسلْنا من قبلِكَ من رسولٍ ولانبيّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّتهِ فينسخُ اللهُ مايُلقي الشيطانُ ثم يُحكِمُ الله آياتِه والّلهُ عليمٌ حكيم * ليجعلَ مايُلقي الشيطانُ فتنةً لّلذِين في قلوبِهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهم وإنّ الظالمينَ لَفي شِقاقٍ بعيدٍ * وليعلَمَ الذي أُوتوا العِلمَ أنّه الحقُّ من رّبِكَ فيؤمنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم وإنَّ الّلهَ لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولايزال الذين كفروا في مِريَّةٍ منه حتى

---

(١) سورة البقرة: ١٠٦ (٢) سورة الحج: ٥٢ (٣) سورة النجم: ١٩ ـ ٢١

تَأْتِيَهُم الساعة بغتةً أو يَأتِيَهُم عذابُ يومٍ عقيمٍ﴾(٤)

ونفهم من الآية وأسباب نزولها: ﴿فينسخُ اللّهُ مايُلقي الشيطانُ﴾ بأن معنى النسخ هو إلغاء من الله تعالى وإزالة لنص من القرآن الكريم وإيراد نص بديل يحل محله إلى الأبد. وهذا لم يحدث في تاريخ الإسلام كله إلا مرة واحدة هي التي مرّ ذكرها آنفاً.

وأما الإنساء المعبر عنه بالفعل نُنْسِئ في الآية ذاتها ﴿مانَنسخُ من آيةٍ أو نُنْسِها نأت بخيرٍ منها أوْ مثلِها﴾ فنفهمه إذا قرأنا الآية الآتية:

﴿لاتَقرَبوا الصلاةَ وأنتم سكارى حتى تَعْلَموا ماتقولونَ﴾(٥) فالله يعلمنا أن القوانين الإسلامية التي تنظم الحياة والعلاقات، والحقوق والواجبات الإنسانية يجب أن تتلاءم وعقلية الناس ومفاهيمهم وظروفهم، ومراعاة تبدل الزمان والمكان وتطور المفاهيم باستمرار، ومن هنا فلا بد أن تكون القوانين متغيرة بشكل دائم ولايجوز ثبات القانون على الإطلاق. لأن في ثباته ظلماً شديداً للناس، هذا الكلام الذي سمعناه آنفاً لايزال غامضاً ويحتاج إلى شرح وتوضيح. ففي الآية السابقة من سورة النساء رقم ٤٣ يعلمنا الله أن لكل مقام وزمان مقالاً، وكان المسلمون عند نزولها لازالوا في أول إسلامهم، وإيمانهم لم يقوَ كما يجبُ أن يَكونَ في النفوس.

لذلك شاء الله تعالى أن يتناول الأمور بالعقل والمنطق.

فلو قال الله للناس آنذاك في بداية الإسلام: اتركوا الخمر أو هي محرمة عليكم وهو يعلم أن قسماً كبيراً منهم قد تعود شربها، والخمرة من العادات القسرية التي تستحكم في النفس بالإدمان، وليست من الأمور التي يسهل تركها على الإنسان المعتاد عليها أو المدمن على شربها، لو طلب ذلك لوجدت بعض الناس يفضلون الانصراف عن الايمان. فذلك أسهل عليهم من ترك الخمرة وشربها، لذلك وضعها الله سبحانه ضمن خطته البعيدة وفي المستقبل الآتي من الزمان، فبعد أن قوي الإيمان في قلوب المؤمنين وتأكد من صلابة عزيمتهم ومن حبهم لله وللرسول أرسل الآية الثانية لاغياً مفعول الآية الأولى دون أن يزيلها من القرآن وهو الإنساء الذي قصده الله تعالى في الآية التي نبحث فيها وفي معانيها الآن، فالانساء كما يفهم من معناه اللفظي تعطيل مفعول نص مذكور في القرآن بنص آخر جاء بعده يلغي مفعوله. فالنص البديل للآية المعطّلة أو المنساة هو:

(٤) سورة الحج: ٥٢ ـ ٥٥ (٥) سورة النساء: ٤٣

﴿إنّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلام رجسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلّكم تُفلحون﴾(٦)

والله سبحانه وتعالى يختار كلماته بدقة بحيث تعطي المعاني التي يقصدها تماماً، فأسلوب الله تعالى هو الأسلوب المختصر المفيد.

فلو قال الله تعالى: لاتشربوا الخمر أو قال حرمت عليكم الخمرة لصار المعنى محدوداً وناقصاً ولم يفِ بالمطلوب ولذلك آثر أن يبين رجس الخمرة وشرها، وكونها من عمل الشيطان، ثم طلب من الناس أن يجتنبوها لأن الاجتناب يتضمن عدم شربها وعدم مجالسة من يشربها ويتضمن أيضاً اجتناب صناعتها وبيعها أو الإتجار بها.

فالله تعالى لم يخطئ في الآية الأولى ثم يصححها في الثانية، إذاً فما هو الذي يسعى الله إليه لكي يعلمنا من موضوع الإنساء وإلغاء مفعول بعض الآيات بمرور الزمن؟

أولاً يجب أن نعلم علم اليقين أن آيات الإنساء والإلغاء لم تقع في القسم الأول من القرآن الذي قلنا إنه يحوي آيات النبوة أي آيات الغيب من علوم وقصص الأنبياء والأولين، وإن الله لايمكن أن يُنَزِّل آيةً مثل:

﴿ألم نجعلْ الأرضَ مهاداً * والجبالَ أوتاداً﴾(٧)

ثم يعود ويغير رأيه في آية أخرى. أو أن يحدثك تعالى عن قوم لوط بقصة وفي القصة التالية يقول هذه الرواية تُنْسي الرواية الأولى. هذه الأمور لم تحصل أبداً في قسم أنباء الغيب من القرآن أبداً.

فالإنساء والالغاء وقعا في القسم الثاني منه الذي يتناول الرسالة (رسالة محمد صلى الله عليه وسلم) ومادام الإنساء لم يقع إلا في قسم الرسالة فما الذي يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا إياه من خلال ذلك؟

ظل الناس آلاف السنين وهم يعتقدون أن الكون كله له أبعاد ثلاثة فقط، وهندسة الأبعاد الثلاثة هي الهندسة المستوية، ودرج الناس على أن يقولوا عنها هندسة إقليدس، نسبة إلى العالم الرياضي اليوناني إقليدس. وبحسب هذه الهندسة تخيلوا خطأً أن الأرض مستوية ووضعوا بديهيات آمنوا بها، وعدوها من الأمور التي لاتحتاج إلى برهان. فالخط المستقيم مثلاً هو أقصر مسافة بين نقطتين بحسب تلك الهندسة.

---

(٦) سورة المائدة: ٩٠ (٧) سورة النبأ: ٦ ـ ٧

وظل الناس آلاف السنين لايستطيعون تصور البعد الرابع في الهندسة الذي هو بعد الزمن فكان تخيل هذا البعد من أصعب الأمور عليهم لأنه يتطلب قفزة فكرية ورياضية، وحضارية. فالبعد الرابع لم يعرف إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ولولا إدخال هذا البعد الرابع للهندسة لما كان بالإمكان دراسة الفضاء ولما كان من الممكن إرسال أي مركبة فضائية للكون. ولما كان بالإمكان فهم النظرية النسبية والفيزياء النووية، ولما كان بالإمكان تصحيح كل المفاهيم الرياضية الأساسية المتواترة من القرون السابقة.

ولم يفكر المسلمون بتطوير هندسة إقليدس الثلاثية، وإضافة عامل الزمن أو البعد الرابع، وبالتالي تعذّر عليهم تصور أي حقيقة تاريخية أو إنسانية من هذا المنظور.

ولم يكن التوصل إلى البعد الرابع في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ميسوراً لأن الخلفية الحضارية والثقافية والمعرفية للناس كانت تساوي الصفر تقريباً.

فلعامل الزمن أثر لاينكر في تطور الأحياء والأفكار فما من قانون بشري ثابت إلا ولابد أن يتغير مع الزمن، وهذه حقيقة كحقيقة وجود الشمس فوق رؤوسنا في وضح النهار. فليس مع الزمن أي شيء ثابت أو دائم إلا الله وهو مايقول به القرآن الكريم نفسه:

﴿كلّ مَنْ عليها فانْ * ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام﴾[٨]

فهاتان الآيتان توضحان القانون بشكل صريح، فكل المخلوقات تخضع لعامل الزمن فتفنى به إلا الله سبحانه الذي لايتأثر بالزمن ولايخضع للبعد الرابع فلا يخضع للفناء على الإطلاق، وهو خارج حدود الزمان والمكان.

والاعتقاد بثبات الأوضاع والأحوال كالعادات والتقاليد والأعراف والقوانين هو إشراك بالله ومخالفة لنواميسه، لأننا ننسب إلى الأشياء والقوانين أو العادات صفة الديمومة والثبات. وعدم التغير مع الزمن، وهي صفة خاصة بالله سبحانه وتعالى لايشاركها فيها أحد من مخلوقاته، ولذلك يقول بلسان لقمان في القرآن الكريم:

﴿يابُنيَّ لاتُشركْ باللّهِ إنّ الشِّركَ لَظُلمٌ عظيمٌ﴾[٩]

فمن فهم هذه الآية بأن الشركَ ظلمٌ عظيمٌ لله يكون من أكبر الواهمين، لأن كل مخلوقات الله إن آمنوا أو أشركوا فلن يفيدوا الله بشيء ولن يضروه أيضاً بشيء فكيف

---

(٨) سورة الرحمن: ٢٦ - ٢٧ (٩) سورة لقمان: ١٣

إذاً يظلمون الله سبحانه؟ إن الظلم واقع فقط على نفس المشرك الذي يظلم نفسه، فتغيير القوانين بشكل دائم مع الزمن رحمةٌ للناس وعدم تغيير القانون وجعله ثابتاً فيه منتهى الظلم للناس أيضاً وحتى نفهم ذلك لنضرب المثال التالي:

إن قانون تثبيت الأسعار والأجور للناس يقتل المجتمع ويحوله إلى مجموعة أفراد من الأموات. لأنه يقتل الحافز للابتكار والطموح والتطلع للأفضل، فكل الأحكام والقوانين الالهية الموجودة في القرآن الكريم قابلة للتغير وهذا ماحاول الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا إياه من خلال آيات الإنساء بتبديل بعض النصوص والاستعاضة عنها بنصوص جديدة. والمسلمون الأوائل كلهم فهموا ذلك تماماً بدليل أنهم تصرفوا بشكل يمكن أن تفهم من تصرفاتهم أنهم فهموا مقصد الله تعالى تماماً. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن أصبح من أولي الأمر وصار له من السلطة مايمنحه حق سن القوانين الجديدة، يتصرف مجتهداً في تطبيق قوله تعالى ﴿إنّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبهم وفي الرّقابِ والغارمين وفي سبيلِ الّله وابنِ السبيل فريضة من الّلهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾[١٠]

هذه الآية طبقها الرسول الكريم بحذافيرها، وكذلك أبو بكر الصديق فعل ذلك. ثم أتى عمر بن الخطاب واجتهد في هذه الآية التي فيها نص واضح وألغى فيه بند المؤلفة قلوبهم، ويعود السبب في اجتهاده إلى تغير ظروف المسلمين من ضعف إلى قوة، ومن قلة إلى كثرة، فلم يعد الإسلام ولا المسلمون مضطرين لشراء نفوس بعض الناس بالمال وتحبيبهم بالإيمان والإسلام، كما أن الزمن وحده قد أنسى وألغى بنداً آخر منها هو مايتصل بالعبيد ﴿وفي الرقاب﴾ إذ لم يعد في عصرنا رق، ولا فك للرقاب من الرق. لكن الله سبحانه وتعالى لم يترك باب الاجتهاد مفتوحاً للناس في موضوع آخر هو:

أولاً آيات الصراط المستقيم وهي آيات لايجوز تبديلها ولاتعديلها فهي ثابتة لذلك سماها الصراط المستقيم. أي لا يوجد تأثير للبعد الرابع عليها وهو الزمن.

ولدينا آيات الحرام والمحرمات وهي ثابتة في الصراط، ولدينا الحدود وقد وضع لكل الأمور حداً أدنى وحداً أعلى وعلى المجتهد أن يتحرك ضمن الحدود، ولايسمح للمجتهد أبداً تعدي هذه الحدود، فمن يفهم هذه الأمور الثلاثة يكون قد فهم الفقه الاسلامي وعرف حقوق الفقيه وحقوق الله، وأين يجب على الفقيه أن يجتهد،

---

(١٠) سورة التوبة: ٦٠

والاجتهاد يجب أن يظل مستمراً دون توقف لأن في توقف الاجتهاد تثبيتاً لقوانين أوجب الله أن لاتكون ثابتة. وشرح لنا الله أن ثباتها إشراك به وظلم شديد للناس. لايجوز الوقوع فيه، ونحن المسلمين من ألف سنة لم نعد نفكر في الاجتهاد ولابتغيير القوانين الواجب تغييرها، وبسبب ثبات هذه القوانين وقعت مظالم كثيرة للناس جميعاً، عاناها المسلمون ويعانونها الآن، ولاحياة لمن تنادي. وهذا هو ماعناه لقمان الحكيم عندما قال لابنه: إن الشركَ ظلم عظيم.

المسلمون جعلوا لأحكام القرآن صفة الثبات الدائم، وهذا فهم ناقص لآيات القرآن الكريم. ثم جعلوا لأقوال الرسول الخاصة ولشرحه الآيات الكريمة للناس من حوله صفه رسمية منذ أن دونوا مانسبوه إليه في كتب سموها كتب الحديث أو السنة أو السنن وكلها أوهام لاوجود لها، بدليل القرآن، ثم جعلوا لكل هذه الأوهام والظنون صفة الثبات والديمومة مع الزمن. ثم توقفوا عن الاجتهاد بعد الأئمة الأربعة. وكله إشراك بالله تعالى، إننا بكل هذه الأمور خالفنا الحقيقة وخالفنا إرادة الله الواضحة في القرآن الكريم، وخالفنا حقائق القرآن الكريم واتبعنا الباطل، ولايمثل الباطل إلا الشيطان. لأن الباطل والحق يتنافران تنافر قطبي المغناطيس، ولايجتمعان ولايشتركان على الإطلاق.

ونحن حين نقرأ في سورة الفاتحة فنقول: ﴿اهدِنا الصراطَ المستقيم﴾

علينا أن نبحث في القرآن الكريم ما هو الصراط المسقيم؟

﴿قل تعالوا أتلُ ماحرَّم ربُّكم عليكم لاتُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادَكم من إملاقٍ نحن نرزقُكم وإيّاهُم ولاتَقربوا الفواحشَ ماظَهَرَ منها ومابَطن ولاتَقتُلوا النّفسَ التي حرَّمَ اللّهُ إلاّ بالحقّ ذلكم وصّاكُم به لعلّكم تعقلون * ولاتَقْربوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدَّه وأوفوا الكيلَ والميزان بالقسطِ * لانكلّفُ نفساً إلا وسعَها وإذا قلتُم فاعدِلوا ولو كانَ ذا قربى وبعهدِ اللهِ أوفوا ذلكُم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتّتبعوا السّبلَ فتَفَرَّقَ بكم عن سبيلِهِ ذلكُم وصّاكُم به لعلّكم تّتقون﴾(١١)

لماذا يسمي الله تعالى هذه الآيات بالصراط المستقيم؟

فما الذي يعنيه بالاستقامة؟

---

(١١) سورة الأنعام: ١٥١ - ١٥٣

لنقرأ الآية الآتية:

﴿مامن دابة إلاّ هو آخذٌ بناصيتِها إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم﴾(١٢)

فقوله في الآية ﴿إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم﴾ لايعني فحسب أن الله تعالى لايقرب الفواحش ماظهر منها ومابطن ولايقتل النفس ولايقرب مال اليتيم ولايشرك بنفسه أحدا إلى آخر تلك الآيات، وإنما يعني أن الله ثابت لا يتَغَيَّر فعامل الزمن لايؤثر فيه أما دواب الأرض وكائناتها فتفنى بمشيئته، ولتوضيح ذلك دفعاً للبس، نشير إلى أننا شرحنا قبل قليل أن هندسة اقليدس كانت ترى الكون كله سطحاً مستوياً له ثلاثة أبعاد: طول وعرض وارتفاع تقاس بخطوط مستقيمة دون وجود البعد الرابع وهو عامل الزمن الذي يجعل كل الخطوط منحنية، ويلغي الاستقامة، فمع وجود الزمن تنحني كل الخطوط.

والله سبحانه يعلم أن الناس بتصورهم الساذج السابق كانوا على خطأ باستبعادهم البعد الرابع الذي هو الزمن، وكان يعلم أيضاً أن الناس لابد لهم يوماً من أن يكتشفوا تلك الحقيقة، حقيقة وجود بعد رابع هو عامل الزمن، وهو يعلم أن الخط المستقيم لاوجود له في الكون إلا في تصوراتهم، لكن الله أراد أن يستفيد من ذلك الاعتقاد القديم للوصول إلى فكرة يريد أن يوضحها للناس. هذه الفكرة توضحت الآن. فإن تصورهم الله على خط مستقيم يلغي البعد الرابع. وهو الزمن، وهذا مايقصد الله أن يفهمنا إياه، فهو ولذلك سرمدي أي أبدي وأزلي لايحول ولايزول ولاتأثير للزمن مهما طال عليه.

فالكون خلال آلاف الملايين من المليارات من السنين شهد تبدلات كثيرة، وقد يستمر آلاف الملايين من المليارات من السنين، وهذا علمه عند الله، وسيتغير باستمرار وكان الله مع الكون وقبله، لكن الله لايتبدل ولايفنى ولايتحول من حال إلى حال لأنه تعالى لايتأثر بالزمن إذاً فهو على صراط مستقيم.

وقد نتساءل لماذا سمى الله الآيات التي قرأناها الآن والتي فيها الفرقان والوصايا العشرة والتي هي آيات الحكمة بالصراط المستقيم؟

لأنها أيضاً ثابتة لاتتغير مع الزمن، وبالتالي فهندسته هي الخط المستقيم.

باستطاعتنا بعد هذا التوضيح أن نفهم معنى الآية الآتية فهماً جديداً.

﴿كلُّ مَنْ عليها فان * ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام﴾(١٣)

---

(١٢) سورة هود: ٥٦ (١٣) سورة الرحمن: ٢٦ - ٢٧

فهي تعني أنه ما من مخلوق إلا ويتأثر بعامل الزمن إلا الله فهو الباقي الوحيد الذي لايتأثر بالزمن، ولايفنى.

الفناء إذاً نتيجة طبيعية لعامل الزمن الذي يؤثر في مكونات كل الكون المادي الحالي، من مجرات ونجوم وشموس وكواكب، ومن مخلوقات وأشياء على كوكب الأرض، ومن هذه النتيجة التي توصلنا إليها يمكن أن نستنتج الحقيقة الآتية:

إن الله يصف الحياة الآخرة بالخلود وذلك يعني أن الآخرة لاتخضع لعامل الزمن. ومادامت لاتتأثر بعامل الزمن، فمادتها تختلف عن مادة الدنيا الحالية الفانية المتأثرة بالزمن، ويمكن أيضاً أن نستنتج حقيقة أخرى هي أن الحقائق العلمية الواردة في القسم الأول من القرآن الكريم، كالقصص والتاريخ وأخبار الأمم التي عاشت ثم بادت لاتتأثر بالزمن لأنها أصبحت معلومات ثابتة (تاريخ).

وأن القسم الثاني الذي يحوي الرسالة والتي فيها الأحكام والحدود والعبادات والحلال والحرام لايمكن أن تقول عنها إنها من أنباء الحق، إذ لولا وجود الإنسان لما كان لكل تلك الأمور من وجود، ومادام وجودها مرتبطاً بالإنسان فذلك يعني أن لاوجود لها لذاتها، أي ليس هناك شيء في الوجود اسمه صلاة أو صيام أو حج إلا مرتبط بوجود الإنسان، ولانستطيع أن نقول: كفر وشرك وعدل وشفاعة واستغفار وغير ذلك من معان إلا بوجود الإنسان، وبما أن الإنسان نفسه متغير مع الزمن وفان بحد ذاته كذلك قوانينه ونظمه أيضاً تتبعه وتتغير وتفنى معه على مر الزمن، إذاً لابد من إيجاد قوانين جديدة تُنسي القوانين القديمة كل فترة حسب الزمان المتجدد دائماً.

ولكن من الذي سوف يسن لنا هذه القوانين الجديدة؟

هل وعدنا الله بأنه سيرسل لنا رسولاً يُنسي لنا مالايلائم من قوانين أصبحت بالية لسن قوانين تلائم الزمن الجديد في كل فترة من الزمن؟

إن الله أخبرنا أنه أرسل آخر الأنبياء وخاتمهم ولن يكون بعد محمد صلى الله عليه وسلم أي رسول أو نبي، فمن يتولى سن هذه القوانين التي تلائم التطور؟

الإنسان نفسه الذي فهم قوانين الكون، وفهم القانون الإلهي العام وهو القرآن، أصبح الآن قادراً على سن قوانينه استناداً لمفاهيم وتعاليم خاصة أخذها من القرآن. فما هي تلك المفاهيم والتعاليم الخاصة التي هي في القرآن؟

أولاً الصراط المستقيم ثابت، لأن الله إذ منحه صفة الاستقامة حدد أن عامل الزمن

لايؤثر فيه، فالأخلاق العامة والوصايا المذكورة في تلك الآيات واجبة التنفيذ والتقيد بها دون أدنى تغيير مهما تغير الزمن، فلن يصبح القتل مباحاً ولا الفواحش ماظهر منها ومابطن يمكن أن تستباح في مجتمع الإنسان مهما تطور الكون.

وهناك أيضاً كل المحرمات المذكورة في القرآن تدخل تحت بند الاستقامة وعدم قبول التغير وهي:

﴿إنّما حرّمَ عليكم الميتةَ والدّمَ ولحمَ الخنزير وماأُهِلّ بهِ لغيرِ الّله﴾(١٤)

﴿حرمتْ عليكم أمهاتُكم وبناتُكم وأخواتُكم وعماتُكم وخالاتُكم وبناتُ الأخ وبناتُ الأختِ وأمهاتُكم اللاتي أرضعْنَكم وأخواتُكم من الرّضاعة وأمهاتُ نسائِكم وربائِبُكم اللاتي في حجورِكم من نسائِكم اللاتي دخلْتُم بِهنَّ فإنْ لَمْ تكونوا دخَلْتُم بهنَّ فلا جناحَ عليكم وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابِكم وأن تجمَعوا بين الأختَيْنِ﴾(١٥)

﴿لاتنكحُوا مانكحَ آباؤكم من النّساءِ﴾(١٦)

﴿ولاتنكحُوا المشركاتِ حتى يُؤمنَّ﴾(١٧)

﴿الزّاني لاينكح إلاّ زانية أو مشركة﴾(١٨)

﴿والزانية لاينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك﴾(١٩)

﴿لاتنكحوا المشركينَ حتى يؤمِنوا﴾(٢٠)

فالآيات الخمس الأخيرات فيها نهي ولم يدخلها الله تحت اسم الحرام الثابت، ومثلها: ﴿والمحصنات من النساءِ إلاّ ماملكتْ أيمانُكم﴾ فهي تدخل تحت بند لاتنكحوا. والمفروض أن كل هذه المحرمات تدخل تحت بند الصراط المستقيم الذي لايتغير مع الزمن إلا إذا تغير الوضع. مثلاً بعد إلغاء الرق في العالم يعد الجزء من الآية ﴿ماملكت أيمانكم﴾ (بحكم المنسي أو الملغى) ويدخل ضمن المحرم أيضاً:

- صيد البر مادمتم حرما

- الأشهر الحرم: ولايجوز فيها الصيد والقتال إلا إذا هوجم المسلمون فيقاتلون عندئذ بشدة دفاعاً عن النفس.

---

(١٤) سورة البقرة: ١٧٣
(١٥) سورة النساء: ٢٣
(١٦) سورة النساء: ٢٢
(١٧) سورة البقرة: ٢٢١
(١٨) سورة النور: ٣
(١٩) سورة النور: ٣
(٢٠) سورة البقرة: ٢٢١

بعد هذه المحرمات يجب على المسلم ألايخترع من عنده محرمات ويضيفها إلى ذلك فالله هو الذي يحلل ويحرم والمحللات والمحرمات من الثوابت ولم يعط ذلك الحق لأي عبد من عباد الله سبحانه جناً أو إنساً أو ملاكاً.

فإذا تجاوزنا موضوع المحرمات والمحللات وهي من الثوابت، نعود إلى موضوعنا وهو: من سيكلف بالاجتهاد فيما هو مسموح به مراعياً سنن التغير والتطور؟ لابد من وجود لجنة أو هيئة في كل دولة إسلامية من العلماء ولكن ليس من علماء السنة والحديث والمذاهب الأربعة، بل من علماء القرآن وعلومه وأصول الشريعة الإسلامية، ومن علماء متخصصين في علوم النفس والاجتماع والتربية والسياسة والاقتصاد والعلوم الأخرى ليجتهدوا حسب احتياجات الناس بقوانين لاتناقض أحكامها القرآن وسنة الله سبحانه في المواضيع الثابتة، بحيث يظل اجتهادهم ضمن حدود الله التي بينها في القرآن وقيدها. إما أنْ نَثْبُتَ على أحكام الرسول وأحكام الأئمة الأربعة دون مراعاة لنواميس التطور كما ثَبَتْنا ألف عام فذلك إشراك بالله، وظلم للناس، وسوف أوضح فيما يلي بمثال يبين كيف يصبح التوقف والثبات على شيء متغيراً أصلاً إشراكاً بالله:

من الآيات المنسوءة قوله تعالى (بمعنى الإنساء):

﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر﴾[٢١]

فقد أنستها وألغتها الآية الآتية:

﴿لاإكراه في الدّين قد تبيَّن الرشدُ من الغيّ﴾[٢٢]

ووضحتها الآية الآتية دون أن تترك أي مجال للتأويل:

﴿وقل الحقّ من رّبكم فمنْ شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فَليَكْفُر﴾[٢٣]

لفهم هذا الموضوع لابد لنا من العودة إلى مثل صاحب الجنّتَيْن في القرآن الكريم:

﴿واضرب لهم مثلاً رجلَيْن جعلْنا لأحدِهما جنَّتَيْنِ من أعنابٍ وحَفَفْناهُما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتَتْ أكلَها ولم تظلمْ منه شيئاً وفجّرنا خلالَهما نهراً * وكان له ثمرٌ فقال لصاحبه وهو يحاورُه أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزّ نفراً * ودخَلَ جنّتَه وهو ظالمٌ لنفسِه قال ماأظنُّ أن تبيدَ هذه أبداً * وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولَئِنْ رُددتُ إلى ربيّ لأجِدَنَّ خيراً منها مُنقَلباً * قال له صاحبه وهو يحاوِرُه أكفَرْتَ بالذّي خلقَكَ من ترابٍ ثمّ من

(٢١) سورة التوبة: ٢٩ (٢٢) سورة البقرة: ٢٥٦ (٢٣) سورة الكهف: ٢٩

نطفةٍ ثمّ سّواكَ رَجُلاً * لكنّا هو اللهُ ربّي ولاأشرِكُ بربّي أحداً * لولا إذ دخلتَ جنّتَكَ قلتَ ماشاء الله لاقوةَ إلاّ بالله إن تَرَنِ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً * فعسى ربّي أن يُؤتَيني خيراً من جنّتِكَ ويرسلَ عليها حُسباناً من السماء فتُصبحَ صعيداً زلقاً * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيعَ له طلباً * وأحيطَ بثِمرِهِ فأصبحَ يقلّبُ كفّيهِ على ماأنفَقَ فيها وهي خاوية علىعروشِها ويقولُ ياليتني لمْ أشرِكْ بربي أحداً. ولم تكنْ له فئةٌ ينصرونَه من دونِ الله وماكانَ منتصِراً﴾[٢٤]

في هذه الآيات الكريمة يقص علينا القصةَ بأسلوب قرآني للعبرة، لاأسماء فيها ولامكان محدد ولاتأريخ لها، لأن ذلك كله ليس مهماً في القصة، فصاحب الجنتين أشرك بالله. كيف؟ تعالوا نتابع نص القصة لنرى كيف وقع هذا الرجل في الشرك بالله.

قال صاحب الجنتين في الآية الأولى لصاحبة: ﴿أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نفراً﴾ وهذا ليس إشراكا بالله بل كفر وقال: ﴿ما أظن الساعةَ قائمةً﴾ وهذا أيضاً من الكفر ولذلك يقول له صاحبه أكفرت بالذي خلقك؟

فأين وقع صاحب الجنة بالإشراك بالله؟ وقع بالإشراك بالله عندما قال في نفسه: ﴿ماأظن أن تبيد هذه أبداً﴾

أي أعطى صفة الخلود لجنته علماً أننا نعرف من القرآن أن كل شيء فانٍ مع الزمن إلا الله تعالى، فإعطاء صفة الخلود لأي شيء سوى الله هو الإشراك بالله. لذلك عندما أفناها الله له وهو يرى بعينه قال أيضاً في نفسه: ياليتني لم أشرك بربي أحداً.

فالإشراك بالله هو أن تعتقد أو تبقي صفة الديمومة والثبات على أمور فانية، ولو كانت حديثاً للرسول أو أحكاماً للرسول أو أحكاماً للصحابة أو أحكاماً للأئمة الأربعة أو أي شخص أو إعطاء صفة الديمومة والخلود لأي شيء آخر أو شخص آخر فهو أيضاً إشراك بالله.

وحتى قولنا إن الأحكام الواردة في القرآن يجب أن تبقى ثابتة كما وردت دون تغيير هو أيضاً إشراك بالله، فماذا نفعل إذاً؟ إن الله تعالى عندما أرسل الدين الاسلامي كان في علمه أنه سيكون آخر الأديان وهو يعلم أن كل شيء متغير مع الزمن فأحبّ أن يجعل لنا أحكاماً ويبين لنا حدود الله ماحلّل لنا وماحرم علينا، وعلماء المسلمين في الدولة الاسلامية لهم مطلق الخيار بحسب فهمهم الصحيح للقرآن وفهمهم لمصالح الناس ومصلحة المجتمع أن يحكموا ضمن حدود الله فإن أصابوا فلهم

---

(٢٤) سورة الكهف: ٣٢ - ٤٢

حسنتان وإن أخطأوا فلهم حسنة واحدة فقط.

أما أن نفهم أحكام القرآن ثباتاً وجموداً استمر مايزيد عن ألف سنة فذلك منتهى الظلم من الناس للناس، وليس ظلماً من الله لأن الله بيّن حدوده تماماً. ومن يتوهم أن السلطان وجنود السلطان لم يكتشفوا أن مافعلوه حتى الآن هو منتهى الظلم يكن ذا غفلة أو سذاجة، فهم يعرفون ويحرفون، ولايريدون للناس أن تعرف حقوقها، لماذا؟ لأن لهم مصلحة مشتركة في بقاء الناس تجهل مالها وماعليها لأن الذي يعرف حقه يطالب به، وهذا مالايريدونه.

يقال إن طبيباً شديد الطمع كان يطبب عين أحد المرضى فيعطيه كلما أتاه بعض المسكنات، إلى أن وصل المرض إلى حد لم يعد يحتمل فيه الألم، فأتى إلى عيادة الطبيب في وقت لم يكن فيه الطبيب موجوداً، وطلب من مساعده أن يفعل له أي شيء لأنه لم يعد يحتمل الألم، فأجلسه المساعد على كرسي الكشف، وأحب أن يقلد رئيسه، فأحضر العدسة المكبرة ونظر في عين الرجل فاكتشف أن شوكة صبار عالقة في جفنه، فأسرع بلهفة وأحضر الملقط واستخرج الشوكة. فقال له المريض:

شكراً يا أخي أرحتني أراحك الله من كل هم وغمّ، وذهب المريض، وفرح المساعد لما فعل من خير للرجل، وعندما عاد الطبيب أخبره بما حصل، فقال له الطبيب الجشع: لاأعطاك الله العافية على مافعلت أكنت تظنني لم أر تلك الشوكة بعينه، لكنني كنت أمهل نزعها لأكسب مزيداً من ماله. وأنا أقول إن السلطان وجنوده كانوا يعاملون الشعب المسكين بعقلية ذلك الطبيب الجشع.

وقبل نهاية هذا البحث أحب أن أثبت معنى النسخ والإنساء ثانية:

النسخ: هو إلغاء النص المقدس من قبل الله سبحانه وإزالته من القرآن الكريم وإحلال نص آخر محله يلغي مفعوله. وهذا حدث مرة واحدة وتوقف النسخ بعد ذلك.

الإنساء: نزول آية جديدة تتعلق بحكم آية قديمة مع تعديل الحكم القديم بحكم جديد يناسب الزمان والمكان فتحل الآية الجديدة مكان الأولى التي تبقى في النص المقدس وتكون بحكم المنسية حيث يتوقف العمل بها.

واستناداً لهذا الفهم الجديد لموضوعي النسخ والإنساء فليس في القرآن الكريم نسخٌ أبداً إلا ماذكرته عن قصة الغرانيق. وكل ماحصل بعد ذلك فهو إنساءٌ فقط ولا يجوز أن نقول عنه نسخ.

لأن النسخ كما علمنا يتطلب إزالة المنسوخ من النص. وليس من حقنا نحن البشر على أن نحرك أيدينا لإزالة حرفٍ واحد من القرآن الكريم.

إذاً فسلطتنا تتوقف بالإنساء بحسب القوانين الجديدة التي يسنها المشرعون الإسلاميون في المستقبل تماماً مثلِ مافعل الفاروق عمر بن الخطاب لموضوع المؤلفة قلوبهم أيام كان الأمر بيده وكان أميراً للمؤمنين في عصره. أو ماحصل لموضوع الرق وما ملكت أيمانكم بتأثير عامل الزمن والتطور الذي غير أعراف الناس من العبودية إلى الحريّة. وهذه أمور طبيعية يجب أن تحصل، لأن التطور والتغيير من سنن الله سبحانه وتعالى في الأرض.

٢٩ ـ الدين الإسلامي دين يسر لا دين عسر

لنتأكد من هذه المقولة بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿ولقد يَسّرنا القرآنَ للذّكر فهل من مدّكرٍ * كذّبتْ عادٌ فكيف كانَ عذابي ونُذُر﴾[١]

﴿ولقد يَسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكرٍ * كذّبَتْ ثمودُ بالنُّذُر﴾[٢]

﴿ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذّكرِ فهل من مدّكرٍ * كذّبَ قومُ لوطٍ بالنُّذُر﴾[٣]

إن أول تيسير بدأ به الله سبحانه رحمة بالعالمين أنه يسّر القرآن للحفظ والذاكرة بعكس الكتب النثرية الأخرى مع أنه ليس شعراً إلا أن الله سبحانه صاغه بأسلوب خاص يسهل حفظ آياته، ويجعله كتاباً مميزاً، ويدرك جماله وسحره إذا قرئ باللغة التي نزل فيها، لأن الترجمة تقتل النص الحي . وتسقط جماله وبعض قدرته على الاتصال ولولا هذا التيسير لما استطاع إنسان محدود أن يفهمه من كتاب غير محدود المعاني على الاطلاق خاصة في القسم الذي يدعى منه بالقرآن. والتيسير الثاني كان بأن يَسَّره على لسان الرسول الكريم الذي أتى بالرسالة من عند الله للناس كافة:

﴿فإنما يسّرناهُ بلسانِكَ لتُبشِّرَ به المتّقينَ وتُنذِرَ به قوماً لدّاً﴾[٤]

﴿فإنما يسّرناهُ بلسانِكَ لعلّهم يتذكّرون﴾[٥]

وبما أن الله سبحانه قد انتوى رسالته الاسلامية رسالة يُسر رحمة بالعالمين فقد قال سبحانه: ﴿ونيسّرُكَ لليُسرى. فذكّر إنْ نَفَعتِ الذّكرى﴾[٦]

وبما أن هذا الدين دين يسر فإن من ينتوي أن يسلك طريق الخير ويختاره فالله سبحانه يشرح صدره للاسلام وييسره للدين الحق. إن المسلم الذي يريد أن يتدرج في مدارج الإيمان ليصل إلى مرحلة إمام للمتقين التي يصفها رب العالمين في كتابه لابد أن يداوم على تلاوة القرآن، تلاوة فهم وتفهّم للأحكام وليس تلاوة خَتْم للقرآن. والذي يفهم كتاب الله لابد أن يتغير إذا كان مؤمناً بالله، فإن كان قبلَ ذلك بخيلاً لابد أن يحوله إيمانه إلى كريم، لأن البخل أصلاً نابع عن كفر بالله

---

(١) سورة القمر: ١٧ ـ ١٨
(٢) سورة القمر: ٢٢ ـ ٢٣
(٣) سورة القمر: ٣٢ ـ ٣٣
(٤) سورة مريم: ٩٧
(٥) سورة الدخان: ٥٨
(٦) سورة الأعلى: ٨ ـ ٩

وعدم ثقة بأن رزق الله دائم على العبد الذي يداوم على شكر الله وحمده مع عدم انقطاع منه عن السعي الدؤوب للرزق والعمل الصالح.

فمن أول شروط الإيمان بالله هو العطاء. والعطاء يجب أن لانفهمه عطاءً مادياً للمال فقط ـ فهذا نوع واحد من أنواع العطاء.

فالإنسان يمكن أن يعطي بشكل دائم محبةً ـ ومع المحبة رحمةٌ وعنايةٌ وعطفٌ على المحتاجين لهذا النوع من العطاء. كالأيتام وكبار السن والمرضى من الناس المقطوعين من الأهل والأقارب.

والعطاء يمكن أن يكون بحسن الكلام وحُسن السلام، وحسن اللقاء مع الناس. العطاء يمكن أن يكون بالمساعدة، بالإسهام بالعمل من المرأة لمرأة أخرى عندها أطفال صغار، لجارة لها تساعدها في شؤون إعداد الطعام أو تنظيف البيت أو الملابس.

الرجل يمكن أن يساعد أيضاً جيرانه وأهله في أمور كثيرة ـ شعور الإنسان بالوحدة والانعزال لايزول إلا إذا وُجِدَ حوله أناس يهتمون لهمّه ويفرحون لفرحه ويساعدونه وقت الشدة، ويقفون إلى جانبه في الأفراح والأتراح ـ يقول الله عنه:

﴿فأمّا من أعطى واتّقى * وصدقَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى﴾[٧]

أما الإنسان الذي يختار أن يسلك طريق الشر والكفر متبعاً هوى نفسه الأمارة بالسوء المتعاطفة مع هوى الشيطان فهو كالشوك لايقترب منه إنسان إلا وتأذى به هذا من كلامه وذاك من تصرفاته وهذا من خداعه وآخر من غشّه أو من كذبه وغيبته للناس والكلام في أعراض الناس من غير حق ولا دليل ـ ويبخل بالعطاء على المحتاجين بخلاً يشمل المال مع كل أنواع العطاء الأخرى يقول عنه سبحانه وتعالى:

﴿وأما من بخلَ واستغنى * وكذّبَ بالحسنى * فسنيسّرهُ للعسرى﴾[٨]

والمؤمن الصادق الذي عرف الله من خلال آيات القرآن الكريم ويحادثه كل يوم عندما يتلو القرآن وهو متفكّر بكلمات الله وكلّ آية من آياته تشفي من نفسه مرضاً كان بحاجة إلى ذلك الدواء ـ يدعو ربه ويقول:

﴿قال ربِّ اشرحْ لي صدري * ويسّر لي أمري﴾[٩]

كما قالها موسى عليه السلام عندما كلّفه ربه مهمّة شاقّة.

---

(٧) سورة الليل: ٥ ـ ٧ (٨) سورة الليل: ٨ ـ ١٠ (٩) سورة طه: ٢٥ ـ ٢٦

وبما أن قراءة القرآن يسيرة على اللسان واللفظ قال تعالى:

﴿فاقرءوا ماتيسّرَ من القرآنِ﴾[١٠]. وأسلوب الدين كله يسر

﴿فإنْ أُحصِرتُم فما استَيْسَر من الهدي﴾[١١]

ولايعسرها الله علينا كما عسرها على الذين من قبلنا الذين كانوا يجادلون الرسول في نوع البقرة التي يذبحونها، وهم يسألون رسولهم عليه السلام بأن يبين لهم الله. لون البقرة وشكلها وعمرها وصفاتها، بينما طلب الله منهم أن يذبحوا بقرة لاعلى التعيين، وبمماحكتهم لرسولهم عسر الله الموضوع عليهم، وهي القصة المشهورة في سورة البقرة عن أهل الكتاب، بينما تُيَسِّر الآية الآتية الهَدْيَ في الحج فهو مقبول من المسلم مهما كان. (والهَدْيُ هو مايذبح من الأضاحي في الحج).

﴿فمَنْ تمتَّعَ بالعُمرةِ إلى الحجّ فما استَيْسَرَ من الهدي﴾[١٢]

﴿يريدُ اللّهُ بكم اليسرَ ولايريدُ بكمُ العُسرَ﴾[١٣]

والإنسان المؤمن الذي يتقي ربه ييسر الله له أموره

﴿ ومن يتّقِ اللّه يَجعلْ له من أمرِهِ يسراً﴾[١٤]

وإذا شعر المؤمن أحياناً بأن بعض أموره في الحياة تعسّرت يذكره الله في القرآن أن لايقنط من رحمة الله فإنه سوف يجد بعد العسر يسراً. والمؤمن يزداد يقيناً أنه ليس وحده، فالله سبحانه معه وهو تحت رعايته الدائمة، وهو ليس وحده فهو دائماً مع إخوانه المؤمنين من حوله.

﴿سيجعل اللّهُ بعد عُسرٍ يسراً﴾[١٥]

﴿فإنّ مع العُسرِ يسراً إنَّ مع العُسرِ يسراً﴾[١٦]

ولكن بقدر ما يَسَّر الإسلام وسهّله على المؤمنين الصالحين فإنه سوف يحاسب الكفار والمشركين يوم البعث حساباً عسيراً. لأنهم كفروا بالحق لما جاءهم وتنكروا له وظنّوا أن لاحياة بعد الموت، وفرصتهم الوحيدة هي الدنيا، فإن لم ينهلوا منها ما يستطيعون وهم قادرون على ذلك فإنها تذهبُ منهم ويخسرون كل شيء، هذه

(١٠) سورة المزمل: ٢٠
(١١) سورة البقرة: ١٩٦
(١٢) سورة البقرة: ١٩٦
(١٣) سورة البقرة: ١٨٥
(١٤) سورة الطلاق: ٤
(١٥) سورة الطلاق: ٧
(١٦) سورة الشرح: ٥ ـ ٦

هي نظريتهم الخالدة في الحياة.

﴿فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ * على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾[17]

وأما المؤمنون الذين يسّر لهم دينهم أيضاً فسوف ييسّر آخرتهم يوم الحساب:

﴿فأما من أوتي كتابَه بيمينه فسوفَ يُحاسَبُ حِساباً يسيراً﴾[18]

﴿وأما من أوتيَ كتابه وراءَ ظهرِهِ * فسوفَ يدعوا ثُبوراً * ويَصلى سعيراً﴾[19]

فالتيسير من الله مقدّم على التعسير دوماً وفي كل الأمور:

﴿وإن كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسرةٍ﴾[20]

صدق الله العظيم

---

(١٧) سورة المدثر: ٩ ـ ١٠

(١٨) سورة الإنشقاق: ٧ ـ ٨

(١٩) سورة الإنشقاق: ١٠ ـ ١٢

(٢٠) سورة البقرة: ٢٨٠

٣٠ ـ النفس بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿واتّقوا يوماً لاتجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولايقبلُ منها شفاعةٌ﴾[١]

﴿واتّقوا يوماً لاتجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولايقبلُ منها عدلٌ﴾[٢]

﴿ووفيتْ كلّ نفسٍ ماكسبتْ وهم لايظلمونَ﴾[٣]

ماهي مخلوقات الله سبحانه وتعالى على الأرض؟

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾[٤]

وماهي الدواب من المخلوقات؟

﴿فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وبثّ فيها من كلِّ دابة﴾[٥]

هل الطيور من الدواب؟

﴿ومامن دابّةٍ في الأرض ولاطائر يطيرُ بجناحَيْه إلاّ أمم أمثالُكم﴾[٦]

إذاً الطيور لها تمييز خاص وهو الطيران بالجناحين.

﴿فلمّا قضَيْنا عليهِ الموت مادَلّهم على موتِهِ إلاّ دابةُ الأرض تأكلُ من منسأته﴾[٧]

تشير هذه الآية أن الدود والحشرات تدخل تحت تصنيف دابة.

﴿وكأيّنْ من دابةٍ لاتحمِلُ رزقَها اللّهُ يرزقُها وإيّاكم﴾[٨]

﴿ولو يؤاخذ اللّهُ الناسَ بما كسبوا ماتركَ على ظهرِها من دابّةٍ﴾[٩]

من هذه الآية نستدل أن كل الناس الذين يعيشون على سطح الأرض يسميهم ويدرجهم الله سبحانه وتعالى تحت اسم دابة.

ثم من الدواب أصناف: الأنعام. والخيل والبغال والحمير.

﴿زينَ للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنينَ والقناطير المقنطَرة من الذّهب والفضة والخيل المُسوَّمَة﴾[١٠]

---

(١) سورة البقرة: ٤٨
(٢) سورة البقرة: ١٢٣
(٣) سورة آل عمران: ٢٥
(٤) سورة فاطر: ٢٨
(٥) سورة البقرة: ١٦٤
(٦) سورة الأنعام: ٣٨
(٧) سورة سبأ: ١٤
(٨) سورة العنكبوت: ٦٠
(٩) سورة فاطر: ٤٥
(١٠) سورة آل عمران: ١٤

﴿والخيل والبغال والحمير لِتركبوها ويخلقُ مالاتعلَمون﴾[11]

أما مخلوقات البحر سبحانه وتعالى فلم يذكرها بل قال:

﴿هو الذي سخّرَ البحرَ لتأكُلوا منه لحماً طرّياً﴾[12]

ولم يميز سبحانه من مخلوقاته في البحر إلا الحوت وسمى السمك أيضاً الحوت:

﴿نَسِيا حُوتَهُما فاتخذ سبيلَه في البحرِ سرباً﴾[13]

﴿فالتَقَمَهُ الحوتُ وهو مُليم﴾[14]

هل لباقي المخلوقات من غير الانسان نفس؟

والله سبحانه وتعالى لايجعل إلا للإنسان نفساً، أما باقي الحيوانات والمخلوقات فلم يذكر في القرآن الكريم أن لها نفساً لذلك قال في قتل الإنسان: ﴿ولاتقتلُوا النّفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحق﴾[15]

ولم يجعل للصيد نفساً ﴿يا أيّها الذين آمنوا لاتقتُلوا الصيدَ وأنتم حُرمٌ﴾[16]

﴿ومن قَتَلَهُ منكم متعمّداً فجزاءٌ مثلُ ماقتلَ من النِعَم﴾[17]

والجسد كله في القرآن آلة النفس، التي تتحكم النفس فيه وتسيطر عليه وهي مسؤولة عنه في كل ما أوكل إليها بشأنه ولانجد في القرآن ذلك التمايز بين النفس والجسد وسيادة النفس على الجسد لدى الحيوانات الأخرى، ذلك أن الله سبحانه وتعالى لايجعل لباقي المخلوقات نفساً أصلاً.

والنفس الإنسانية هي التي تؤمن:

﴿وماكانَ لنفسٍ أن تؤمنَ إلاّ بإذنِ اللّه﴾[18]

وهي التي تأمر بالسوء

﴿وما أبرئُ نفسي إن النفس لَأَمارّةٌ بالسوء إلاّ ما رحمَ ربّي﴾[19]

والنفس هي التي تُجزى:

﴿ليَجزي اللهُ كلّ نفسٍ ماكسبتْ إنّ اللّهَ سريعُ الحساب﴾[20]

---

(١١) سورة النحل: ٨
(١٢) سورة النحل: ١٤
(١٣) سورة الكهف: ٦١
(١٤) سورة الصافات: ١٤٢
(١٥) سورة الأنعام: ١٥١
(١٦) سورة المائدة: ٩٥
(١٧) سورة المائدة: ٩٥
(١٨) سورة يونس: ١٠٠
(١٩) سورة يوسف: ٥٣
(٢٠) سورة إبراهيم: ٥١

والنفس هي التي تجادل عن نفسها

﴿يوم تأتي كلّ نفسٍ تجادلُ عن نفسِها﴾[٢١]

والنفس هي التي تنال الجزاء

﴿وتُوفّى كلُّ نفسٍ ماعملتْ وهم لايظلمون﴾[٢٢]

والنفس هي التي تذوق الموت

﴿كلُّ نفس ذائقةُ الموت ونبلوَكُم بالشّرّ والخيرِ فتنةً﴾[٢٣]

ولاتعلم النفس الغيب والمستقبل

﴿وماتدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وماتدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت﴾[٢٤]

والنفس هي التي تهتدي

﴿ولو شئنا لآتَيْنا كلَّ نفسٍ هُداها﴾[٢٥]

والنفس هي التي تعود لبارئها

﴿يا أيتُها النفسُ المطمئنة * ارجِعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً﴾[٢٦]

والنفس هي التي تكلف من الله سبحانه وتعالى:

﴿لايكلّفُ الّلهُ نفساً إلا وسعَها﴾[٢٧]

﴿لايكلّفُ اللهُ نفساً إلا ما آتاها﴾[٢٨]

والنفس هي التي تخفي:

﴿وتخفي في نفسِكَ ما الله مُبدِيه﴾[٢٩]

والنفس هي التي تتحسر

﴿فلاتذهب نفسُكَ عليهم حسرات﴾[٣٠]

والنفس هي التي تَظْلُمُ وتُظْلَمُ:

﴿ومن يفعلْ ذلك فقد ظلمَ نفسَه﴾[٣١]

(٢١) سورة النحل: ١١١
(٢٢) سورة النحل: ١١١
(٢٣) سورة الأنبياء: ٣٥
(٢٤) سورة لقمان: ٣٤
(٢٥) سورة السجدة: ١٣
(٢٦) سورة الفجر: ٢٧ ـ ٢٨
(٢٧) سورة البقرة: ٢٨٦
(٢٨) سورة الطلاق: ٧
(٢٩) سورة الأحزاب: ٣٧
(٣٠) سورة فاطر: ٨
(٣١) سورة البقرة: ٢٣١

والنفس هي التي تستعصم:

﴿ولقد راودَتْه عن نفسِه فاستعصمَ﴾[٣٢]

والله سبحانه وتعالى ميز نفسه وقال بأن له نفساً:

﴿ويُحذِّرُكُم اللهُ نفسَهُ﴾[٣٣]

﴿قلْ اللّهُ كتبَ على نفسِهِ الرحمةَ﴾[٣٤]

﴿ويُحذِّرُكُم اللّهُ نفسَه واللّهُ رؤوفٌ بالعباد﴾[٣٥]

والنفس البشرية هي التي تذوق طعم الموت:

﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت﴾[٣٦]

والموت هو فصل النفس عن الجسد وعودة النفس للخالق وعودة الجسد للتراب. ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ثمّ إلينا تُرجعون﴾[٣٧]

﴿فيمسك التي قضى عليها الموتُ ويرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمّى﴾[٣٨]

فالله سبحانه وتعالى اشتق اسم النفس من التنفس، وجعل نفس الإنسان مرتبطة به، لكن ليس ذلك أن كل من يتنفس من باقي الدواب والمخلوقات الأخرى له نفس - ولم يجعل للمخلوقات الأخرى نفساً ولو جعل لذكرها لنا في القرآن الكريم، فآيات النفس تعد بالمئات في القرآن الكريم وليس فيها واحدة تشير إلى نفس كائن آخر غير الإنسان.

ماالصفات المميزة لنفس الإنسان في القرآن الكريم؟

النفس هي التي تدرك وتفهم وتعقل وتجادل وتعلم وتجهل. وماالجسد المادي سوى آلة هذه النفس، ينفذ أوامر تلك النفس الأمارة بالسوء، التي ألهمها الله سبحانه وتعالى فجورها وتقواها، وأعطاها القوة للاتجاه نحو الرحمن ونحو الشيطان، كما تشاء وترغب وترضى من دون إكراه، وتتوقف فعاليتها عند النوم ﴿الله يتوفى الأنفسَ حين موتِها والتي لم تمتْ في منامِها فيمسكُ التي قضى عليها الموتُ ويرسِلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمّى﴾[٣٩]

ولو عدنا للقرآن الكريم واستخرجنا منه آيات الصراط المستقيم أو آيات الحكمة أو آيات

---

(٣٢) سورة يوسف: ٣٢ (٣٥) سورة آل عمران: ٣٠ (٣٨) سورة الزمر: ٤٢
(٣٣) سورة آل عمران: ٢٨ (٣٦) سورة آل عمران: ١٨٥ (٣٩) سورة الزمر: ٤٢
(٣٤) سورة الأنعام: ١٢ (٣٧) سورة العنكبوت: ٥٧

الوصايا وهي كلها مسميات لاسم واحد. لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: ﴿ولاتقتلوا أولادكم من إملاق﴾[٤٠] ولم يذكر للأجنة قبل الولادة نفساً، بينما يقول تعالى بعد ذلك ﴿ولاتقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلّا بالحق﴾[٤١]

ولايشير تعالى بكلمة نفس لأجنة الأمهات عند إجهاضي أنفُسَهنَّ.

﴿ولايسرقنَ ولايزنينَ ولايقتلنَ أولادهنّ﴾[٤٢]

لأنه مامن أم عاقلة تقتل أولادها بعد الولادة وإنما يحصل في حالة الإجهاض فقط.

﴿لاتقتلوا أولادَكم خشيةَ إملاق نحنُ نرزقُهُم وإياكُم﴾[٤٣]

فالله في حديثه عن قتل الأم أولادها يشير إلى حالة خاصة هي قتل الجنين داخل الرحم وقبل أن يمنحه الله تعالى النفس بعد حصول الولادة وبداية التنفس للمخلوق.

وهناك بعض المفسرين يحاولون أن يقولوا إن سبب نزول هذه الآية يعود إلى انتشار عادة وأد البنات في الجاهلية، ولو سلمنا جدلاً بصحة ذلك لكان الله قد أرسل تنبيهاً خاصاً للمسلمين في النهي عن ذلك، لكن النهي عن القتل ورد في آيات الصراط وأحكامها ثابتة غير قابلة للتبديل، وهي موجهة إلى جميع الأمم على الأرض وبلسان كل الأنبياء. والإنسان يحب أولاده بالفطرة ولا يقتلهم بعد الولادة.

ولايمكن أن يكون المقصود بهذه الآيات هو البنات فقط، فالمعنى لايستقيم ولو أراد الله ذلك المعنى لقال لاتقتلوا بناتكم، وقد ميز هذا النوع من القتل بآية خاصة لكي لاتختلط الأمور علينا:

﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾[٤٤]

ومن الحقائق العلمية الثابتة الآن أن تطور الطب قد سمح بإعادة الدورة الدموية إلى العمل بعد توقفها زمناً وجيزاً، وأصبح من الممكن أن يستأنف القلب حركته، والجهاز الرئوي عملية التنفس، وهذا يعني أن ملك الموت الموكول بنقل النفس إلى الله مجتازاً بها الحدود الحاضرة بين الحياة والموت، وهو مايسميه الله سبحانه بالبرزخ أي بالحاجز، لم ينفذ تلك المهمة.

﴿ومن ورائِهم برزخٌ إلى يومِ يُبعثونَ﴾[٤٥]

---

(٤٠) سورة الأنعام: ١٥١
(٤١) سورة الأنعام: ١٥١
(٤٢) سورة الممتحنة: ١٢
(٤٣) سورة الإسراء: ٣١
(٤٤) سورة التكوير: ٩
(٤٥) سورة المؤمنون: ١٠٠

ومن هذه الدراسة لهذه الآيات يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يقصد موضوعاً هاماً يشغل عصرنا، ويخص الرجال والنساء من الآباء والأمهات وهو موضوع الإجهاض قبل الولادة، ويبين لنا أنه ممنوع فقط إذا كان السبب اقتصادياً:

﴿ولاتقتلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحن نرزقُهم وإياكُم﴾(٤٦)

أما الأسباب الأخرى كوجود خطر يهدد حياة الأم من الحمل، فلم يذكر القرآن سوى سبب واحد ممنوع هو الخوف من عجز الأبوين عن إعالة الأطفال لفقرهما. فيبين الله سبحانه وتعالى أن رزقهم على الله، وهو داخل ضمن حساباته عند إرسال المطر الذي هو رزق عام للبشر جميعاً، فالرزق محسوب وموجود إلا إذا ظلم الناس بعضهم وأخذ بعضهم رزق الآخرين ظلماً وعدواناً واستيلاء.

وقد جعل الله للإنسان المظلوم الحق بان ينتصر لنفسه ويدافع عن حقه ويحميه من العدوان.

لذلك نجد أن الله على الدوام يحب المؤمن القوي ويميزه على المؤمن الضعيف:

﴿وأعدّوا لهم ما استطعتُم من قوةٍ﴾(٤٧)

﴿خذوا ما آتيناكُم بقوةٍ واذكُروا مافيهِ﴾(٤٨)

﴿ثم جعلَ من بعدِ ضَعفٍ قوة﴾(٤٩)

﴿وقالوا مَنْ أشدُّ منا قوة﴾(٥٠)

ولذلك يقول الله سبحانه عن نفسه

﴿إنّ اللّهَ قويّ﴾(٥١)

﴿ولينصرنّ اللهَ من ينصرُهُ إنّ اللهَ لقويٌّ عزيز﴾(٥٢)

﴿كتبَ اللّهُ لأغلِبَنّ أنا ورُسُلي إنّ اللّهَ قويٌّ عزيزٌ﴾(٥٣)

وماذا يقول الله سبحانه وتعالى عن الضعيف والضعفاء؟

﴿فإنْ كانَ الذي عليه الحقّ سَفيهاً أو ضعيفاً﴾(٥٤)

فشمل الضعيف مع السفيه.

---

(٤٦) سورة الإسراء: ٣١
(٤٧) سورة الأنفال: ٦٠
(٤٨) سورة البقرة: ٦٣
(٤٩) سورة الروم: ٥٤
(٥٠) سورة فصلت: ١٥
(٥١) سورة الأنفال: ٥٢
(٥٢) سورة الحج: ٤٠
(٥٣) سورة المجادلة: ٢١
(٥٤) سورة البقرة: ٢٨٢

﴿فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعفُ جُنداً﴾[55]
فالذي يكون مكانه من مكان الجنود الضعفاء يكون ضعيفاً.
والله يحب للمظلوم أن ينتصر لظلمه من الظالم:
﴿ولمن انتصرَ بعد ظلمِهِ فأولئك ماعليهم من سبيلٍ﴾[56]
﴿وذَكَروا اللّهَ كثيراً وانتصَروا من بعدِ ماظُلِموا﴾[57]
صدق الله العظيم

(٥٥) سورة مريم: ٧٥ (٥٦) سورة الشورى: ٤١ (٥٧) سورة الشعراء: ٢٢٧

٣١ ـ التفكّر في خلق الله بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿كذلك يبيّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلّكم تتفكّرون﴾(١)

﴿فيه شفاءٌ للنّاس إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون﴾(٢)

﴿وتلك الأمثال نضرِبُها للنّاس لعلّهم يتفكّرون﴾(٣)

﴿الذين يذكرون اللهَ قياماً وقُعوداً وعلى جنوبِهم ويتفكّرون في خَلْقِ السمواتِ والأرض﴾(٤)

كل هذه الآيات وآيات كثيرة مثلها في القرآن الكريم تدعو الإنسان أن يتفكر في خلق الله؟ لماذا؟ لأنه لو تفكر وكان ذا بصيرة فسوف يرى الله في مخلوقاته ومن أسلوب الخلق الموحد المنسجم سوف يكتشف أن الله واحد أحد لاشريك له.

قد يظن بعضنا أن ذلك يحتاج إلى علم وتخصص وليس ذلك ضرورياً. يكفي الإنسان أن يتفكر بما هو أمام عينيه مباشرة. يستطيع أن يتأمّل الشجرة المثمرة في تبدل حالها كل يوم وكل فصل وتجدد الحياة فيها كل ربيع. وتوقفها في كل شتاء. ومن راقبها في الربيع لاحظ براعمها ثم أزهارها والنحل المحوّم حولها يجمع العسل وقد لا يلاحظ الملاحظ العادي أن تنقل النحلات بين كل تلك الزهور أنها تحمل بأرجلها من غبار الطلع، ودورها ودور الريح في التلقيح، وسقوط قسم من الأزهار ثم انعقاد زهرها الجميل وتحوله إلى ثمار صغيرة، وسقوط بعض براعمها حتى لايبقى على الشجرة إلا أقوى الثمار وأقدرها على تحمل عوامل الطبيعة ومقاومتها، فلا يبقى على الشجرة إلّا ماتقدر على حمله وتغذيته لينضج، فإذا حان القطاف كان من الثمار ماهو صغير ومتوسط وكبير الحجم، وهو أسلوب موحد وسائد في خلق الله، فلن تجد أحجاماً متساوية شكلاً ولوناً وحجماً أبداً. شأن ماتقدمه المصانع، وتنضج الثمار بصورة متدرجة لادفعة واحدة شأن أعمار الكائنات الحية الأخرى، مما يدل على وحدة أسلوب الخالق في كل مخلوقات الله، يصدق ذلك على الأشجار والحشرات والحيوانات والإنسان. فقوانين الخلق تشير لله تعالى.

---

(١) سورة البقرة: ٢١٩
(٢) سورة النحل: ١٦
(٣) سورة الحشر: ٢١
(٤) سورة آل عمران: ١٩١

ولو أن رجلاً لايعيش مع الأشجار بل يسكن المدينة أحبّ أن يتأمل خصائص الخلق لاكتشفها من عنقود العنب الذي يشتريه فحباته متفاوتة، وهو لايشتري العنب على مدار الفصل لأن نضجه متفاوت وسوف يجد في العنقود حبات لم تنضج بعد وبعضها في طريق النضج، وبعضها نضجت تماماً.

وإذا راقب أنواع العنب الذي يشتريه سوف يجد منه الأحمر والأبيض والأسود وقسماً منه لابذور في حباته، بينما يجد في أنواع أخرى بذوراً واضحة.

وهكذا بإمكان ذلك الشخص الذي يتفكر في خلق الله اكتشاف أسلوب الله في الخلق وفي تفاوت مخلوقاته نوعاً وشكلاً، وهذا الأسلوب في الخلق يشير على الدوام إلى خالق واحد له أسلوب واحد في الخلق.

٣٢ ـ معنى: «لاينظر الله إليهم يوم القيامة» بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿لايُكلِّمُهم اللّهُ ولاينظُرُ إليهم يومَ القيامة﴾[١]

قلنا في مواقف وآيات سابقة: إن الله سبحانه وتعالى يكلم الناس على قدر أفهامهم لأنه يريد أن يكون كلامه مفهوماً من قبل الجميع دون غموض، وان الله سبحانه وتعالى وهو الذي خلق كل شي فإنه يعرف صفات كل مخلوق، والإنسان مخلوق من مخلوقات الله أيضاً له صفات وميزات تميزه من باقي المخلوقات، ومنها أسلوب تفكيره وتصرفاته وردود أفعاله، أي كيف يسلك حين يكون مسروراً أو في حالة غضب. وكيف يظلم وكيف يعفو وكيف يغفر؟ كل هذه الأمور يعرفها الله سبحانه وتعالى تمام المعرفة، ونحن حين نغضب نتوقف عن النظر أو الحديث أو الكلام مع الشخص الذي غضبنا منه، كذلك الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿لايُكلِّمُهُم اللّهُ ولاينظُرُ إليهم يومَ القيامة﴾[٢] والإنسان الذي يسمع هذه الآية يعلم أن الله قد غضب عليه لسوء فعله، علماً لا أحد يعرف كيف يعبر الله عن غضبه عليه يوم القيامة، لأن تصرفات الله سبحانه وتعالى وردود أفعاله ليست إنسانية، فالله سبحانه ليس إنساناً مثلنا إذا غضب على أحد منا يتوقف عن تكليمه أو النظر إليه، المهم أن ندرك سبب غضب الله علينا ونتوقف عما يغضب الله تعالى الآن وفي المستقبل وفي كل حين، هذا هو الفهم المطلوب لقارئ القرآن الكريم وليس المطلوب الفهم الحرفي لنص الآية، دون تمثّل ماوراء الحروف والكلمات من معان، ومن يفهم القرآن الكريم بالأسلوب الحرفي فلن يفهم الرسالة ولا الدين، ولم يفهم لماذا خلقنا الله واستخلفنا على الأرض.

﴿ويستخلِفُكم في الأرضِ فينظر كيفَ تعلمون﴾[٣]

إن عمل الإنسان الصالح وإطاعته وخضوعه لله هي من أهم العبادات، ففي آيات الكتاب الكريم يقرن الله دخول الجنة بالإيمان والقيام بالعبادات المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج وبالعمل الصالح أيضاً:

---

(١) سورة آل عمران: ٧٧ (٢) سورة آل عمران: ٧٧ (٣) سورة الأعراف: ١٢٩

﴿من آمنَ باللّه واليومِ الآخر وعَملَ صالحاً فَلهُم أجرُهم﴾[٤]
﴿إلاّ من تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً فأولئكَ يدخلون الجنَّةَ﴾[٥]
ومن آمنَ بربّهِ منذ البداية وعمل صالحاً ضاعف الله له أجره
﴿إلّا من آمنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئكَ لهم جزاءُ الضّعفِ﴾[٦]

والنظر هو من أولى وسائل الوصول إلى الإيمان، لذلك يحث الله سبحانه عباده على استخدام العلم والمعرفة والتفكير:

﴿أَوَلَم ينظروا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ﴾[٧]
﴿أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قَبلِهم﴾[٨]
﴿أوَلَم يسيروا في الأرض فَينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدَّ منهم قوةً﴾[٩]
﴿قل سِيروا في الأرض فانظروا كيفَ بَدأَ الخلقَ﴾[١٠]

صدق الله العظيم

---

(٤) سورة البقرة: ٦٢
(٥) سورة مريم: ٦٠
(٦) سورة سبأ: ٣٧
(٧) سورة الأعراف: ١٨٥
(٨) سورة يوسف: ١٠٩
(٩) سورة الروم: ٩
(١٠) سورة العنكبوت: ٢٠

٣٣ ـ معنى «كن فيكون» بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿وإذا قَضى أمراً فإنّما يقولُ له كُنْ فيكون﴾(١)

﴿إنما أمرُه إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كنْ فيكون﴾

﴿إنما قولُنا لشيءٍ إذا أردْناه أن نقولَ له كنْ فيكون﴾

من هذه الآيات الثلاث التي صيغت بأساليب مختلفة لتعطي المعنى ذاته يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى إذا شاء أن يقوم بعمل أو خلق أو تبديل أو إنهاء أو موت لأي مخلوق تكون مشيئته هذا فيكون مايريده سبحانه من خلق أو تبديل أو إلغاء بأسلوبه الإلهي.

ولكننا نحن البشر افترضنا في تصوراتنا أن الله مثلنا يفكر بأساليبنا، وهو عجول مثلنا أيضاً، فتصورنا أن قدرة الله في الخلق لابدّ أن تكون أسرع من قدراتنا وأكثر إنجازاً بما لايقاس فقدرنا أنه يخلق مايشاء بأجزاء من الثانية علماً أنه سبحانه وتعالى لم يحدد الزمن وأن الزمن بالنسبة إليه لاوجود له لذلك لايمكن أن نقول إن الله قديم أو حديث، وبعد مئات الملايين من السنين لن تستطيع أن تقول إن الله ازداد عمره كذا مليون سنة، فالله تعالى لاعمر له ولازمن هو هكذا موجود دائم خارج حدود الزمن، ولايقيده زمان أو مكان، فكل من له عمر ينتهي بعد زمن محدد تربطه بالمكان علاقة زمنية، مثل كل مخلوقات الله من الأحياء والجمادات، كالأرض بما فيها من جبال وأنهار وبحار، والسماء بما فيها من نجوم وكواكب ومجرات وشموس. ﴿كلُّ مَنْ عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾(٤)

وقد وقع أهل الكتاب في الخطيئة نفسها فأشاروا في بعض كتبهم المقدسة تحريفاً منهم أن عمر الكون بضع آلاف من السنين حسب تصوراتهم البدائية في ذلك الزمن، غير عالمين أن تلك الآلاف من السنين التي كانت ولازالت كثيرة بالنسبة للناس لاتساوي شيئاً بالنسبة لله ـ فليس من الضروري حين يشاء الله أن يخلق أرضاً أو شمساً أو يفنيهما أن يتقيد بأي زمن إنساني، قد يكون خلق الشمس أو الأرض بالنسبة لله امتد ملايين السنين بحسب مقاصد الخالق، ونحن نفهم أن (كن فيكون) بالنسبة إلى الله هي

---

(١) سورة البقرة: ١١٧

(٢) سورة يس: ٨٢

(٣) سورة النحل: ٤٠

(٤) سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧

نفسها بالنسبة إلينا فلا نعجب إذ عرفنا أن خلق الله للشمس يتطلب مئات الملايين من السنين، وأن هناك بين مجرة ومجرة أخرى مئات المليارات من السنين الضوئية، يجب ألا نتعجب لأن ذلك الخلق يمثل مشيئته، أمّا صورة هذا المخلوق هي من تصوراتنا، فيجب أن لانخلط هذا بذاك، وكثير من المسلمين يقعون في هذا الوهم ويتصورون أن خلق الله للكون كله استغرق ستة أيام من أيامنا، هي أيام الأسبوع ثم استراح الله في اليوم السابع أي أنهم تصوروا الله إنساناً له كل صفات الإنسان، ولكي يكون إلهاً في نظرهم تصوروه ضخماً للغاية وتخيلوا حجمه وفق تفكيرهم البشري، مع أن الله بعيد جداً عن كل تصوراتنا وتشخيصاتنا، ومامن قدرة بشرية تستطيع تخيله أو تصوره أو حتى رؤيته، وكل هذه الأمور ثابتة في آيات القرآن الكريم ﴿قالَ ربِّ أرني أَنظُرْ إليكَ قال لن تراني ولكن انظرْ إلى الجبل فإنْ استقرَّ مكانَه فسوفَ تراني فلمّا تجلّى ربُّه للجبل جعلَهُ دكّاً، وخرَّ موسى صَعِقاً فلما أفاقَ قالَ سبحانَكَ تُبتُ إليكَ وأنا أوّل المؤمنين﴾(٥) وكل تلك التصورات السابقة دخلت إلينا من كتب أهل الكتاب عن طريق الأحاديث الإسرائيلية.

وقد أشرنا من قبل أن لله تعالى عهود ومواثيق وقوانين يلتزمها دون أن يلزمه إياها أحد من خلقه، فلا يتراجع جل وعلا عن وعد قطعه أو أجل حدده، مثلنا نحن البشر، حيث ترتبط أفعالنا بانفعالاتنا إن غضبنا ألغينا عهودنا ومواثيقنا وإن رضينا التزمناها، وأغلب سوء فهمنا يأتي من خلطنا بين صفاتنا وصفات الله. والله تعالى يقول لذلك في القرآن الكريم ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماتركَ عليهم من دابةٍ ولكن يؤخرّهُم إلى أجلٍ مسمّى فإذا جاءَ أجلُهم لايستأخِرونَ ساعةً ولايستقدمون﴾(٦)

ولأنه تعالى سَمَحَ بمشيئة وإرادة إلهية بأن يمنح الإنسان الحرية والاختيار فيما يتعلق بالهداية وعمل الخير أو اتباع الشيطان وعمل الشر، فإنه لايتدخل حتى ذلك الأجل المسمى حيث سيجمع عندها النفوس ليحاكمها يوم القيامة. فكلمة كن في مثل الآيات الآتية لها معنى آخر يختلف عن معنى (كن) في آيات الخلق في الخلق:

﴿فَخُذْ ما آتيتكَ وكنْ من الشاكرينَ﴾(٧)

﴿فسبّح بحمدِ ربِّكَ وكنْ من الساجدينَ﴾(٨)

---

(٥) سورة الأعراف: ١٤٣

(٦) سورة النحل: ٦١

(٧) سورة الأعراف: ١٤٤

(٨) سورة الحجر: ٩٨

﴿بَلِ اللّهَ فاعبدْ وكُنْ من الشّاكرينَ﴾[9]
ففي هذه الآيات وأمثالها نلاحظ أن فعل الأمر (كن) موجه للإنسان، وهو لايعني مشيئة إلهية تجبر الإنسان على الشكر والسجود إكراهاً، فمعنى الأمر هنا مختلف عن معناه في الخلق والتكوين، وقد بيّنْتُ مراراً أن الله التزم عدم التدخل في حرية الإنسان خلال حياته الدنيوية، لكنه واجهه بالكتب والرسالات وهيأه ليوم حساب عسير لاتساهل فيه، فكن هنا تعني توجيهاً من الله لا أمراً، فإن شاء الإنسان عمل به وإن شاء العمل ليحاسب يوم الحساب، والشيطان نفسه يغري الإنسان بالفعل ﴿ثمّ يقولَ للناس كونوا عباداً لي من دونِ اللهِ﴾[10] وهذا هو توجيه من الشيطان ويقابله توجيه الله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين للّه شهداءَ بالقسطِ﴾[11]
صدق الله العظيم

---

(٩) سورة الزمر: ٦٦ (١٠) سورة آل عمران: ٧٩ (١١) سورة المائدة: ٨

٣٤ ـ الفرق بين «التمني والرجاء» بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿يَعدهُم ويمنّيهم ومايَعدهُم الشيطانُ إلاّ غروراً﴾(١)

﴿لعنه الله وقال لأتخذنّ من عبادِكَ نصيباً مفروضاً * ولأُضِلّنّهُم ولأُمنّينَّهُم ولآمرنّهم فَلَيُبَتِّكُنّ آذانَ الأنعام ولآمرنّهم فليُغيّرُنّ خلقَ الله.. ومن يتخذْ الشيطانَ ولياً من دون الله فقد خَسِرَ خُسراناً مبيناً﴾(٢)

فالأماني والتمني والأمنيات الوهمية التي تأتي إلى قلب الإنسان من نفسه الأمارة بالسوء ومن الشيطان، لأن التمني آنذاك يكون بالقلب دون أن يرافقه سعي وعمل من الإنسان، كأن تتمنى أن تنتصر على عدوك فتدعو الله تمنياً من غير عمل ومن غير سعي وتحضير النفس للقتال وحمل السلاح والصبر على الحرب وملاقاة الموت، هذا هو الجانب الحقيقي من الدعاء، فإذا ألغينا العمل لتحقيق التمني تحول الرجاء إلى حلم ووهم لايتحقق، ولذلك جعله الله سبحانه من طرف الشيطان. وسماه سبحانه بالتمني تمييزاً عن الرجاء.

ومن هذا الباب نجد أن كل دعائنا في المساجد من ألف وأربعمائة سنة إلى اليوم يدخل في باب التمني الحالم لأن شرط التحقق هو السعي والعمل، ونحن المسلمين توقفنا عن السعي والعمل منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، لنستمع لآيات التمني في القرآن الكريم:

﴿وما أرسلْنا من قبلِكَ من رسولٍ ولانبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته﴾(٣)

ولم يَسْلَمْ حتى رسول الله من إغراء الشيطان في تمنيه:

﴿أم للإنسان ماتمنّى * فلله الآخرة والأولى﴾(٤)

﴿ولاتتمنّوا مافضَّلَ اللهُ به بعضَكُم على بعض﴾(٥)

فإذا تمنى الإنسان أن يكون غنياً ولم يقرن أمنيته بسعي أو عمل ورجاء ودعاء من الله بالتوفيق فإن أمنيته من عمل الشيطان أي من الوهم والحلم، والمؤمن يسعى ويرجو أن يبعد نفسه عن الأوهام ويقرب نفسه من الحقائق. وثمة فرق بين التمني والرجاء، يقول تعالى:

---

(١) سورة النساء: ١٢٠ (٣) سورة الحج: ٥٢ (٥) سورة النساء: ٣٢

(٢) سورة النساء: ١١٨ ـ ١١٩ (٤) سورة النجم: ٢٤ ـ ٢٥

﴿إنّ الذين آمنوا والذينَ هاجَروا وجاهدَوا في سبيلِ اللهِ أولئكَ يرجونَ رحمةَ الله واللهُ غفورٌ رحيم﴾[٦]

فالمؤمنون قدموا ماعليهم من واجب العمل والصبر والجهاد. وهم يرجون رحمة الله، وهذا هو الرجاء الحقيقي، وهو بالمعنى لون من التمني إنما يرافقه أو يسبقه عمل وجهد وصبر من المخلوق الذي يريد أن يدعم ماعمل برحمة الله وهذا مايسميه سبحانه بالرجاء.

﴿فمَنْ كان يرجو لقاءَ رّبهِ فليعملْ عملاً صالحاً﴾[٧]

لاحظ أيضاً الرجاء يسبقهُ العمل الصالح.

﴿يبتغونَ إلى ربّهم الوسيلةَ أيّهم أقربُ ويرجون رحمتَهُ﴾[٨]

فهم يبتغون أولاً إلى ربهم الوسيلة ثم يرجون رحمة الله بعدها

﴿وأنفَقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً يرجون تجارةً لنْ تبور﴾[٩]

فالله تعالى يشير إلى أن المؤمنين بعد الصلاة يدعون ويتمنون فحسب، بل أنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله إياها في السر وفي العلن، أي دفعوا الصدقات سراً ودفعوا الزكاة علناً، وبعدها التمسوا من الله أن يعوضهم الله بدلاً عنها عشرة أمثالها وهي تجارة رابحة. فقال عنها سبحانه (يرجون) ـ دلالة على سبق العمل ـ اللازم لتحقق الرجاء، وإلا لتحول إلى أماني لاتتحقق أبداً.

ومَثَلُ فرق مابين التمني والرجاء مَثَل طالبين أحدهما تلّهى طوال السنة ولم يفتح كتاباً، وأوهم أهله فطمأنهم أنه لم يقصر، وأنه سينجح بمشيئة الله، وهي أمنية لن تتحقق إذ لم يقابلها عمل وسعي واجتهاد.

وآخر مجدّ، بذل كل إمكانياته في الدراسة، فطمأن أهله أنه ناجح بإذن الله، فهو عمل ما عليه لكنه يرجو العون أيضاً من الله، وسيحقق الله له رجاءه لأنه سعى.

﴿إنّهم كانوا لايرجونَ حسابا﴾[١٠]

ومن لايؤمن بالآخرة فلن يعد نفسه لها بالسعي ولن ينفعه رجاء أو دعاء، ﴿فإنّهم يألَمون كما تألَمونَ وترجونَ من اللّهِ مالايرجونَ﴾[١١]

---

(٦) سورة البقرة: ٢١٨ | (٨) سورة الإسراء: ٥٧ | (١٠) سورة النبأ: ٢٧

(٧) سورة الكهف: ١١٠ | (٩) سورة فاطر: ٢٩ | (١١) سورة النساء: ١٠٤

والكلام هنا عن المؤمنين والكفار في المعركة، فالمؤمن والكافر يتألمان من الجراح لكن الفرق بينهما في الرجاء، فالمؤمنون يرجون إحدى الحسنيين الشهادة أو النصر. والكفار يرجون الموت أو النصر، لأنهم لايرجون الآخرة ولايؤمنون بها أصلاً.

وهكذا يتبين لنا من آيات الله في القرآن الكريم الفرق بين التمني والرجاء، ولو عدنا إلى أي كتاب تفسير، أو أي أحاديث عن الرسول وجمعنا ماورد فيها عن الأمنية والرجاء لما حصدنا إلا الضياع والتشتت، ولكن حين يكون كتاب الله مرجعنا الوحيد، يظهر لنا الحق واضحاً وضوح الشمس، والله المستعان في كل أمر ومنه وحده نرجو الثواب.

٣٥ ـ لماذا ضرب الله الأمثال وأكثر منها في القرآن الكريم بدليل آيات القرآن الكريم؟

إن أفضل وسيلة لشرح وتوضيح الأفكار المجردة، للناس عامة وللذين لم يؤتوا حظاً من الثقافة من العامة خاصة، الاستعانة بالمثل لتوضيح كل مجرد أو عصي على الفهم وقد لجأ الله تعالى إلى الأمثال ليوضح للناس مقاصده ﴿مثلهمُ كمثلِ الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءَتْ ما حولَه ذهبَ اللّهُ بنورِهِم وتركَهَم في ظلماتٍ لايُبصرون﴾(١)

فالله سبحانه وتعالى كما أشرت مراراً في تعبيره، حريص على ألا يساء فهم مقاصده فقوله سبحانه في نهاية الآية:

﴿ذهبَ الّله بنورِهِم﴾ إشارة بالضمير (هم) إلى الناس وربط للمشبه بالمشبه به: أي أخذ الله ماوهبهم قبل ذلك من قدرة على الإبصار عندما وجد أنهم لم يستفيدوا من هذه القدرة ولايستحقونها فجعلهم عمياً، لايرون النار والضوء من حولهم لعيب في أبصارهم وليس لعيب في النار والضوء والله تعالى يضرب هذا المثل ليثبت للناس أن هناك نوعين من العمى:

عمى البصر وعمى البصيرة، فمن عميت بصيرته لايستطيع أن يرى هدى الله، ونور الإيمان مع أنه بين يديه في القرآن: كتاب النور الإلهي، ولكي ندرك أهمية الأمثال وأثرها في فهم مقاصد الله في القرآن واهتمامه تعالى بتوضيح مقاصده نشير إلى أن هناك أكثر من مائة مثل قدمها سبحانه للناس في القرآن الكريم.

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعَقُ بما لايَسْمَعُ إلّا دعاءً ونداءً﴾(٢)

فالله سبحانه وتعالى يشبه الكافر بالأصمّ الذي لايسمع إلا صريخاً في أذنيه:

﴿مثلُ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله كمثلِ حبةٍ أنبتَتْ سبعَ سنابل في كلِ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ واللّهُ يضاعِفُ لمنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم﴾(٣)

﴿ومثل الذين ينفقونَ أموالَهم ابتغاءَ مرضاةِ الله وتثبيتاً من أنفسِهم كمثلِ جنةٍ بربوةٍ

(١) سورة البقرة: ١٧ (٢) سورة البقرة: ١٧١ (٣) سورة البقرة: ٢٦١

أصابَها وابلٌ فأتت أكلها ضعفين فإن لمْ يصبها وابل فطلٌ والله بما تعملون بصير﴾[٤]

والله سبحانه يحب عبده أن يكون ذكياً مستخدماً لكل طاقات عقله الذي وهبه الله للإنسان وحده، هبة إلهية مع نفخته المشهورة في آدم المصطفى فالذي يسمع مثل عيسى يجب أن يستنتج وحده وجه التشابه بينه وبين آدم. آدم بدأ خلقه من الطين وعندها لم يكن له أب ولا أم ـ وعيسى بن مريم خلقه الله من أم بلا أب.

﴿إنّ مثل عيسى عند اللهِ كمثلِ آدمَ خلقَه من ترابٍ ثم قالَ لهُ كنْ فيكون﴾[٥]

وهذا المثال يدل على قصر نظر الكافر، لاحظوا هذا التشبيه الرائع:

فلاحون بذلوا كل مافي طاقتهم من جهد وعمل وعناية ورعاية وزرعوا مزروعات جيدة، وعندما أصبحت تسرّ النظر وقبل أن يحين موعد قطافها هبت عليها ريح باردة فيها صقيع، فأحرقت كل المزروعات بالبرودة، وهذه حالة يعرفها المزارعون جيداً. بينما نجد في المقابل مثال المؤمن دون أن يبذل أي جهد إضافي عما بذله الكافر فقط لأنه توجه لله الواحد الأحد وأطاعه واسترشد بصراطه وهديه في كتاب الرحمن قطف الثمار من دون أن يعرض تعبه للضياع في آخر لحظة مثل الكافر. ولو فهم الكافر هذا المثال لما تأخر عن تحويل اتجاهه وتغيير اتجاه بوصلته فوراً من الشيطان إلى الرحمن ـ لكن الكافر دائماً قصير النظر، لايرى من حياته كلها إلا المتع اللحظية وهواه، وشهواته أعمت بصيرته فلم يعد يستطيع رؤية الحق الذي أمامه في كتاب الله بين يديه.

﴿إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الّله شيئاً وأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون * مثل ماينفقونَ في هذه الحياة الدنيا كمثلِ ريح فيها صِرّ أصابتْ حرثَ قومٍ ظلموا أنفسَهم فأهلكتْه وماظلمَهُم اللهُ ولكن أنفسَهم يظلمون﴾[٦]

﴿مثل الذينَ اتّخذوا من دون اللهِ أولياء كمثلِ العنكبوتِ اتخذَتْ بيتاً وإنَّ أوهنَ البيوتِ لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾[٧]

وفي هذا المثل يريد الله تعالى أن نتفهم تماماً خطأ الإنسان الذي ترك ولاية الله واعتماده عليه واستند إلى الإنس أو الجن، ترك أقوى القوى في الوجود ليتكل على أضعف وأوهن القوى في الوجود، فضرب لنا مثلاً ببيت العنكبوت

---

(٤) سورة البقرة: ٢٦٥
(٥) سورة آل عمران: ٥٩
(٦) سورة آل عمران: ١١٦ ـ ١١٧
(٧) سورة العنكبوت: ٤١

﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾(٨)
أي أن مثل الذين أنزل إليهم التوراة، ثم لم يفهموها ولاطبقوها، كمثل الحمار يحمل كتباً كثيرة على ظهره لكنه لايفهم ولايستفيد منها إلا التعب والشقاء بحملها وقد يفهم بعض السذج من المسلمين أن الله تعالى يقصد بتلك الآية بني اسرائيل فقط، وأن المسلمين كلهم من أحباء الله المقربين، وهو فهم مغلوط لأن فينا أيضاً من يحمل القرآن ولايقرؤه أو يطبقه، فمثل المسلم هذا كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً وقد يكون أخبث من الحمار إن كان يعرف وضعه لكنه يظلم نفسه عن خبث وسوء نية.
﴿ألم ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمة طيبة كشجرةٍ طيبة أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء * تؤتي أكلَها كلّ حينٍ بإذن ربّها ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناس لعلّهم يتذكرون﴾(٩)
﴿ومثل كلمةٍ خبيثة كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثتْ من فوقِ الأرض مالها من قرارٍ﴾(١٠)
﴿اللهُ نورُ السمواتِ والأرض مثل نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ في زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّيّ يوقدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لاشرقيةٍ ولاغربيةٍ يكادُ زيتُها يضيءُ ولو لمْ تمسَسْه نارٌ نورٌ على نورٍ﴾(١١)
وهكذا نجد أن أمثال الله واقعية مستمدة من صور الحياة التي يعرفها الناس، وهي دقيقة من حيث مطابقتها للفكرة المراد إفهامها
﴿الذين كفروا أعمالُهم كسراب بِقَيْعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يجدْهُ شيئاً﴾(١٢)
﴿أو كظلماتٍ في بحرٍ لجّيّ يغشاهُ موجٌ من فوقِهِ موجٌ من فوقه سحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدَه لم يكَدْ يراها ومن لمْ يجعلْ اللهُ له نوراً فما لَه من نورٍ﴾(١٣)
وفي قوله تعالى ﴿من لم يجعلْ اللّهُ له نوراً﴾ يشير إلى عمى بصيرة الإنسان لنفسه، لأنه اختار الضلالة على الهدى.
﴿ألم تَرَ أنّ اللّهَ يسبّح له من في السمواتِ والأرض والطيرُ صافّاتٍ كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَه واللّهُ عليمٌ بما يفعلون﴾(١٤)
﴿ألم تَرَ أنّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلّفُ بينَه ثم يجعلُه رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرج من

(٨) سورة الجمعة: ٥
(٩) سورة إبراهيم: ٢٤ - ٢٥
(١٠) سورة إبراهيم: ٢٦
(١١) سورة النور: ٣٥
(١٢) سورة النور: ٣٩
(١٣) سورة النور: ٤٠
(١٤) سورة النور: ٤١

خلاله وينزِّلُ من السماء من جبالٍ فيها من بردٍ فيصيبُ به من يشاءُ ويصرِفُه عن منْ يشاء يكادُ سنَا برقِهِ يذهَبُ بالأبصار﴾[١٥]

يستهل الله تعالى الآية بقوله: ﴿ألمْ ترَ﴾ مخاطباً الإنسان أي إنسان على الأرض يرى كتلاً سوداء من السحاب تمتد فوق رأسه وتتحول إلى مطر ويرى البرق الشديد وكأنه سوف يذهب ببصره ثم يسمع رعداً عظيماً ثم يتساقط على الأرض برداً مختلفاً أحجامة ويصيب بعض المخلوقات من عباده. ولو كان الله لايتكلم عن البرق والرعد العادي والبرد العادي الذي نراه لما قال: ﴿ألم تر﴾ ولكن ماذا يقصد الله تعالى بالجبال في السماء والبرد فيها؟ إنه يقصد جبالاً من السحاب المتراكم، فقد كان الإنسان منذ القديم يتصور أن مافوقه فضاء فارغ، لأنه يسير على الأرض، وينظر للأعلى فلا يرى شيئاً إذا كانت السماء صافية سوى فضاء تنتشر فيه النجوم، والفضاء في نظره لون من الفراغ، وهو اعتقاد مغلوط يمكن أن نوضحه بالمثال الآتي:

لنفرض أن مخلوقاً ذكياً من مخلوقات الله في البحر يسير في قاع المحيط، وهو لثقله الشديد لايستطيع أن يرتفع في الماء. فعندما ينظر للمخلوقات الأخرى التي تعيش في الماء فوقه يتخيلها تطير فوقه وهو لايقدر على ذلك لأنه محاط بالماء من كل جانب ولالون للماء حوله، فلا يراه ولايحسه، فيظن أن مافوقه فضاء تطير فيه الأسماك والحيتان وكذلك الإنسان، يعيش على الأرض، لكنه لثقل جسمه لايستطيع الارتفاع في الهواء، بينما الطيور كلها تفعل ذلك بسهولة فحين نرى فوقنا طبقات أسمك وأعلى بكثير من عمق المحيطات بمئات المرات في ذلك المدى الضخم الذي نعده فضاءً فارغاً وهو سوء فهم وتقدير منا، فالله عزّ وجلّ يدرك أن كتل من السحاب هي كتل مادية أو جبال من السحاب قد تختلف صفاتها عن جبال الأرض من حيث تحركها وعدم استقرارها وهي تسبح في الهواء، لكن لاننسى أن الجبال نفسها في أرضنا التي تبدو لنا نحن البشر ثابتة وصلدة تسبح هي مع الأرض جميعاً في الفضاء الخارجي فليس من شيء ثابت بالنسبة إلى الله حتى وإن كانت بالنسبة إلينا ثابتة. والدليل على صحة ذلك موجود في القرآن:

﴿قلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظُروا كيفَ بدأَ الخَلْقَ﴾[١٦]

وفي سبعِ آياتٍ أخرى: يسيروا في الأرض:

---

(١٥) سورة النور: ٤٣ (١٦) سورة العنكبوت: ٢٠

﴿أفَلَمْ يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها﴾ - ٤٦/الحج ولم يقل سبحانه أبداً سيروا على الأرض لعلم الله الحقيقة التي ذكرتها قبل قليل. لأن الذي يسير على الأرض يجب أن يكون أعلى من أي مادة من تكوين الأرض. والهواء المحيط بالأرض هو من مادة الأرض ونحن البشر نسير فيه وليس عليه.

﴿ضَرَبَ لكم مثلاً من أنفسِكُم هل لكُم ممّا ملكَتْ أيمانُكم من شركاء في مارزَقْناكُم فأنتم فيه سواءٌ تخافونَهم كخيفتِكم أنفسَكم كذلك نفصّل الآياتِ لقومٍ يعقلون﴾[١٧]

الله سبحانه وتعالى يضرب لنا هذا المثل مخاطباً المشركين، فيقول لهم:

هل تقبلون أن يدعي أحد من عبيدكم وإمائكم أنهم شركاء لكم بالتساوي في أموالكم، ولهم قوة وسلطة في تلك الأموال وأن عليكم أن تشاوروهم في كل شيء قبل أن تتصرفوا فيها، وإلا رفعوا سيوفهم في وجوهكم فإذا كنتم لاترضون أن يكون لكم شركاء في أموالكم فكيف تنسبون لله شركاء من عبيده وخلقه؟

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١٧) سورة الروم: ٢٨

٣٦ ـ ما المعروف والمنكر بدليل آيات القرآن الكريم؟

ـ مامعنى المعروف؟ ومامعنى المنكر؟

المعروف لغةً من: عرف معرفةً

﴿ولو نشاءُ لأَريْنَاكُهُم فلعرفتُهم بسيماهُم﴾(١)

وقال تعالى عن يوسف عندما دخل عليه إخوته في مصر:

﴿فدخلوا عليه فعرفهُم وهمْ له منكرون﴾(٢)

أي تعرفهم يوسف، أما إخوته الذين كانوا يظنون أنه قد مات، فلم يعرفوه، فقال سبحانه ﴿وهم له منكرون﴾

﴿لتعرفَنَّهمْ في لحنِ القول﴾(٣) وهذا عن المنافقين، يخبر عنهم الله سبحانه رسوله الكريم.

﴿تعرف في وجوهِهِم نضرة النعيم﴾(٤) أي تظهر في وجوههم، كقولنا إن المنعم تظهر عليه دلائل النعمة.

والمعرفة تختلف عن العلم فلو سألك أحدهم عن إنسان تعرفه لقال لك هل تعرف فلاناً؟ ولايقول لك: هل تعلم فلاناً؟

فالإنسان يعرف ويتعرف ويتعارف وقد عَرِفَ، ونقول عُرْفٌ ومعروفٌ، وفي هذه المواقف التي نستخدم فيها الكلمات المشتقة من المعرفة لاستخدم الكلمات المشتقة من المعرفة والعلم، مثل: يعلم ويتعلم ومتعلم وعلم ومعلوم... ونقيض: عرف: نكر ومنها: تنكّر : أنكر وناكر ومنكر ومستنكر، ومن المعرفة نشتق كلمة العرف، والعرف هو المتعارف عليه بين الناس ومنه: المعروف.

وكلمة العرف وردت في القرآن مرة واحدة فقط في الآية: ﴿خذ العفوَ وأمر بالعرفِ وأعرضْ عن الجاهلين﴾(٥)

ونطلق اليوم العرف والأعراف على التقاليد، وهي أيضاً تعني المتعارف عليه بين الناس.

---

(١) سورة محمد: ٣٠ (٣) سورة محمد: ٣٠ (٥) سورة الأعراف: ١٩٩

(٢) سورة يوسف: ٥٨ (٤) سورة المطففين: ٢٤

والله سبحانه يستخدم كلمة المعروف التي أشرنا إليها كثيراً جداً في آيات الأحكام لعلمه سبحانه أن أعراف الناس تتطور مع تطور الزمن ومع تطور الإنسان العقلي أيضاً.

وكلمة المعروف لها مصدران أساسيان في اللغة:

أولها مشتق من عرف، فهو معروف. فإذا كنا نتكلم عن إنسان عُرِفَ بالكتابة قلنا إنه كاتب معروف، وإذا عرف بالشعر قلنا إنه شاعر معروف، والثانية مشتقة من العُرْف، فهو معروف، وهي بمعنى المتعارف عليه بين الناس. وكلمة معروف تأخذ أحياناً معنى الإحسان بحسب سياق الكلام، فنقول: فلان صنع معروفاً لفلان، أي قدّم له خدمة فيها إحسان وجميل وعكسه الإساءة.

وفي العامية الدارجة نقول (اعمل لي معروف) أي أرجوك أن تخدمني خدمة فيها جميل وإحسان، أو بمعنى قدّمْ لي هذا الجميل من فضلك. فلنستعرض مواطن كلمة المعروف في آيات القرآن الكريم:

﴿الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان﴾(٦)

فكلمة معروف في هذا الآية بمعنى: المتعارف عليه بين الناس وكذلك في الآية التي قبلها:

﴿ولهنّ مثلُ الذي عليهنّ بالمعروف﴾(٧)

وكذلك الآيات التي بعدها

﴿فامسكوهنّ بمعروف﴾(٨)

﴿أو سرّحوهنّ بمعروف﴾(٩)

﴿وعلى المولود له رزقُهنّ وكسوتُهنّ بالمعروف﴾(١٠)

﴿فلا جناحَ عليكم إذا سلمتُم ماآتيتم بالمعروف﴾(١١)

﴿فلاجناحَ عليكم فيما فعلنَ في أنفسهِنّ بالمعروف﴾(١٢)

﴿ومتعوهنّ على الموسع قدرهُ وعلى المقتر قدرهُ متاعاً بالمعروف﴾(١٣)

كل هذه الآيات فيها كلمة المعروف تأتي بمعنى المتعارف عليه بين الناس من أمور حسنة

---

(٦) سورة البقرة: ٢٢٩
(٧) سورة البقرة: ٢٢٨
(٨) سورة البقرة: ٢٣١
(٩) سورة البقرة: ٢٣١
(١٠) سورة البقرة: ٢٣٣
(١١) سورة البقرة: ٢٣٣
(١٢) سورة البقرة: ٢٣٤
(١٣) سورة البقرة: ٢٣٦

خيرة، ويجب أن نضع في تقديرنا دوماً أن المتعارف عليه بين الناس في مكة، هو غير المتعارف عليه في جاكرتا أو كراتشي أو أديس أبابا أو في دمشق وبغداد. فكل بلد يختلف عن البلد الآخر بعاداته وتقاليده وأعرافه، وإن كان هذا الاختلاف لايكون جذرياً بحيث ينقلب الخير إلى شر أو المعروف إلى منكر أو العكس، لكن تظل للأمور نسبيتها ومرونتها باختلاف الأرض والناس، وكذلك علينا أن لاننسى عامل الزمن ففي كل تلك المدن التي عددناها إذا رجعنا فيها إلى القرن الماضي نجد أن المتعارف عليه لدى الناس في البلد ذاته كان يختلف عما هو متعارف عليه بين الناس اليوم، لأن الناس اختلفوا، والعقلية اختلفت باختلاف معطيات الزمان والتطور.

والمتعارف عليه بين الناس في أمور الخير يقال عنه المعروف، وكذلك المتعارف عليه بين الناس في أمور الشر يقال عنه: المنكر

﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر﴾(١٤)

﴿تأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكر وتؤمنونَ بالله﴾(١٥)

وكلمة المنكر مصدرها كلمة نكر ينكر نكراً وإنكاراً فهو نكير ويفهم معناها من سياق الآيات كما في قوله تعالى:

﴿ومن الأحزابِ من يُنكِرُ بعضه﴾(١٦)

﴿يعرفون نعمةَ الله ثم ينكرونَها وأكثرُهم الكافرون﴾(١٧)

﴿فلما رأى أيديهم لاتَصِلُ إليه نكرهُم وأوَجَس منهم خيفةً﴾(١٨)

وذلك من قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام، عندما استضاف الملائكة وهو يظنهم من بعض الناس العاديين، فقدم لهم الطعام، فلما اكتشف أنهم لايأكلون علم أنهم ليسوا من البشر بصفاتهم المعروفة أو المتعارف عليها بين الناس. وعكس المعروف هو المنكر، لذا قال: فنكرهم ولو تعرف عليهم لقال تعالى: فعرفهم.

وهكذا نجد أن عكس كلمة عرفهم: كلمة نكرهم.

﴿قال: نكروا لها عرشَها﴾(١٩)

وذلك في قصة النبي سليمان مع الملكة بلقيس عندما أحضر عرشها قبل استقبالها

---

(١٤) سورة آل عمران: ١٠٤ (١٦) سورة الرعد: ٣٦ (١٨) سورة هود: ٧٠

(١٥) سورة آل عمران: ١١٠ (١٧) سورة النحل: ٨٣ (١٩) سورة النمل: ٤١

ليفاجئها بها، فكلمة (نكروا) في الآية تعني صعّبوا عليها إمكانية تعرف عرشها.

﴿فلمّا جاءتْ قيلَ أهكَذا عرشكِ قالت كأنّه هو﴾[٢٠]

وفعل (نكر) كما بينا نقيض فعل (عرف).

﴿فحاسبناها حساباً شديداً وعذّبناها عذاباً نكراً﴾[٢١]

فالعذاب النكر، هو العذاب الشديد الذي لايعرف مثله الناس، فالعذاب الذي يتكلم عنه تعالى هو فوق مايعرفه الناس ولذلك يصفه بالعذاب النكر.

﴿ويُريكُم آياتِهِ فأيَّ آياتِ اللّهِ تُنكرونَ﴾[٢٢]

والإنكار هنا معناه تجاهل الحقيقة وهل يمكن أن ننكر الحقائق؟ فكل آيات الله موجودات حقيقية شاهدة بنفسها على وجودها، وعلى كونها معجزة وآية من آيات الله.

وترد في القرآن الكريم كلمة (المنكر) بمعنى يناقض المعروف المتداول من الأعمال الحسنة:

﴿يأمرُهم بالمعروف ويَنهاهُم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات﴾[٢٣]

وقد بينا أن المعروف نسبي بين الناس، كذلك المنكر أيضاً فهو نسبي أيضاً، مثال ذلك: من الأعراف العربية السائدة: الزواج بابنة العم أو العمة والخال والخالة وهي من الزيجات المفضلة عرفاً وعادة، في حين تعد بعض الشعوب هذه العادة منكرة ومنها شعوب القفقاس (الشركس) مثلاً حتى بعد دخولهم الاسلام، فهم يعدّون هذا الزواج من الأمور المخالفة للعرف والمستهجنة عادة.

ومن ذلك أيضاً أن المتعارف عليه في البلاد الإسلامية العربية في منطقة الشرق الأوسط عدم أكل لحم الخيل وفي بلاد أخرى مثل فرنسا يعد وجبة مفضلة فأكله شائع في بلد ومنكر في بلد آخر.

والمسلم الذي يفهم دينه من القرآن الكريم يجب أن يعلم من آيات القرآن أن من حق الفرنسي أن يعد أكل لحم الخيل من المعروف المتداول في بلده وكذلك من حق العربي أن أكل لحم الخيول من المنكر وغير المألوف.

لو فرضنا أن جزاراً في إحدى المدن العربية الإسلامية قرر أن يبيع لحم الخيل للناس فلن

---

(٢٠) سورة النمل: ٤٢

(٢١) سورة الطلاق: ٨

(٢٢) سورة غافر: ٨١

(٢٣) سورة الأعراف: ١٥٧

يشتري منه أحد، لأن الناس لم تألف أكله فإن باعه على أنه لحم عجل مثلاً تعرض لعقوبة الغش لأنه خالف الحقيقة ولأنه باع الناس مالا يدخل في مألوف حياتهم وهكذا يتبين لنا أن ليس هناك معروف مطلق ولامنكر مطلق، فالفكرتان نسبيتان تتطوران مع الزمان والمكان، وحسب عقلية الناس ووسائل الانتاج، والحالة الاقتصادية - ومن حق الناس أن يطوروا عاداتهم شريطة ألا يدخل ذلك في مجال المحرمات كالميتة ولحم الخنزير. فمن خلال هذا الفهم يجب فهم كل الآيات القرآنية التالية:

﴿الآمرون بالمعروف والناهونَ عن المنكر﴾(٢٤)

الآمرون هنا هم المؤمنون والمعروف والمنكر هو المعروف والمنكر المتعارف عليه في ذلك المجتمع ضمن حدود الخير والشرّ العامة.

﴿يأمرون بالمنكر وينهونَ عن المعروف ويقبضون أيديَهُم﴾(٢٥)

﴿وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبَغي﴾(٢٦)

﴿الذين إنْ مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهَوْا عن المنكر﴾(٢٧)

وماذا يأمر الشيطان؟

﴿ومن يتّبع خطواتِ الشيطان فإنّه يأمرُ بالفحشاءِ والمنكَرِ﴾(٢٨)

ومن هؤلاء أن قوم لوط لأنهم كانوا يأتون الرجال دون النساء عكس المتعارف عليه بين الناس.

﴿أئنكم لَتأتونَ الرجالَ وتقطعونَ السبيلَ وتأتونَ في ناديكُم المنكرَ﴾(٢٩)

﴿إنّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر﴾(٣٠)

ذلك لأن الصلاة هي وسيلة المؤمن لتطهير النفس وتنقيتها فهي جهاز تصفية للنفس، وكل جهاز يكون فعالاً مادام يعمل فإن توقف عن فعاليته لسبب ما توقفت فعاليته، والزكاة تكشف فعالية الصلاة، ولا تذكر الصلاة في القرآن إلا مقرونة بالزكاة لأن الصلاة هي وسيلة التزكية والتطهير والتنقية النظرية للنفس البشرية، والزكاة هي وسيلة التزكية والتطهير والتنفية العملية للنفس البشرية أيضاً، وهي أيضاً التي تصدّق

(٢٤) سورة التوبة: ١١٢
(٢٥) سورة التوبة: ٦٧
(٢٦) سورة النحل: ٩٠
(٢٧) سورة الحج: ٤١
(٢٨) سورة النور: ٢١
(٢٩) سورة العنكبوت: ٢٩
(٣٠) سورة العنكبوت: ٤٥

الصلاة وتبرهن عن فعاليتها، فالإنسان الذي يواظب على الصلوات الخمس دون أن يبرهن عملياً عن أثر الصلاة فيه بالزكاة تعد صلاته عقيمة وعاجزة عن تزكية النفس وصيانتها عن الفحشاء والمنكر. وقد يسأل سائل، بماذا يزكي وهو لايملك مايزكي به؟ والجواب: أن الإحسان بالعمل من الفقير زكاة، والقول الجميل منه زكاة، والابتسامة مع بشاشة الوجه منه زكاة، وحسن معاملته زكاة، وقد عبر عن ذلك المتنبي بقوله

لاخيلَ عندكَ تهديها ولامالُ فليسعِدِ النُّطقُ إن لمْ يُسعدِ الحال

والزكاة أصلاً لتزكية النفس وليس لتزكية المال كما شرحت ذلك في موضع آخر.

﴿خذْ من أموالِهم صدقةً تطهرهُم وتزكّيهم﴾[٣١]

فالزكاة من خلال الآية لتزكية وتطهير النفوس.

لذلك يقول سبحانه:

﴿وقد أفلحَ من زكّاها﴾[٣٢]

وهكذا تصبح الآية الكريمة:

﴿إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر﴾ واضحة المعنى في ضوء ما بينا.

واليوم نشاهد كثيراً من المسلمين يصلون ويصومون لكن صلاتهم وصيامهم لاتنهاهم عن الفحشاء والمنكر.

ودفع الزكاة والصدقات لها أصول وأعراف لذلك نجد الله سبحانه يقول:

﴿قول معروف ومغفرة خيرٌ من صدقة يتبعُها أذى﴾[٣٣]

في المفاضلة بين دفع الزكاة أو الصدقة مع اتباعها بالإساءة والأذى بالتشهير والمن، وبين الكلمة الحسنة والمغفرة.

وقديماً لم تكن هناك قوانين وأنظمة مكتوبة ومسجلة في سجلات ودوائر خاصة يحاسب بها الناس على أساسها أمام محاكم متخصصة فكانت الأعراف والتقاليد السائدة هي القوانين بين الناس.

فقد كان من المعروف في البادية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أن دية الرجل الحرّ

---

(٣١) سورة التوبة: ١٠٣ (٣٢) سورة الشمس: ٩ (٣٣) سورة البقرة: ٢٦٣

المقتول خطأ مائة رأس من الابل. وهذه الأمور تتغير مع تبدل الزمان والمكان وتغير الناس وطريقة معيشتهم.

فالله سبحانه وتعالى الذي يعرف ويحيط بكل ذلك لم يطلب توحيد الأعراف (المعروف والمنكر) وإنما طلب مجاراة الأعراف بحسب الزمان والمكان وسنة التطور شريطة ألا يتعارض العرف أو العادة مع اي من المحرمات التي حرمها الله سبحانه وتعالى. أو أن تتعدى حدود الله.

فلو فرضنا أن أمة دخلت الإسلام، وكان من المتعارف عندهم قتل السارق، فلا يجوز بعد إسلامهم أن نبقي ذلك العرف لأنه يتعدى حد الله في السرقة. وهو قطع اليد عقوبة قصوى مع تعديل ذلك العرف بحيث لايتعدى حدود الله سبحانه وتعالى، وفيما عدا ذلك فالناس أحرار في أعرافهم وعاداتهم التي لاتتعدى حدود الله فليس لنا أن نلزم أحداً بأن يأكل الضب بحجة أن أكله حلال، فهو يَعرِف أنه حلال وهو حر بعد ذلك ان يأكله أو لايأكله، وكذلك الزواج لايجوز فيه تجاوز ماحلل فيه وماحرم في الشرع، والمسلم حر بعد ذلك في أن يتزوج من قريباته أو من البعيدات، فهو أيضاً حر في اختياره ضمن حدود الشرع، وليس لنا أن نلزم أهل فيتنام أو الفيلبين من المسلمين ألا يأكلوا لحوم الكلاب وقد ألفوا أكلها أو الفرنسيين من المسلمين ألا يأكلوا لحم الخيل، فلا حرام في الإسلام إلا ماحرمه الله سبحانه وتعالى بنص في القرآن الكريم، وليس هناك نص إلا عن تحريم لحم الخنزير وقد يكون أكل لحوم الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة والخيل والحمير والبغال في منطقة الشرق العربي الإسلامي من اللحوم المنكرة (لم يتعارف الناس على أكلها) بالجملة، فهذا من أعرافهم وهم أحرار في ذلك ولاأحد يستطيع أن يجبرهم على أكلها أو يمنعهم إن أكلوها.

﴿ولتكنْ منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكر وأولئكَ هم المفلِحون﴾(٣٤)

والآن بعد أن فهمنا المعروف والمنكر يمكن في ضوء هذا الفهم مراعاة أوضاع أمة المسلمين التي تحوي قوميات كثيرة وكل قومية منها يمكن أن تدعو إلى الأمر بالمعروف من الأمور الخيرة مما هو متعارف عليه عندهم، والنهي عن المنكر مما هو منكر لديهم، شريطة أن لايتعارض ذلك المعروف والمنكر مع الأخلاق العامة في الإسلام وهي

(٣٤) سورة آل عمران: ١٠٤

الصراط المستقيم، وهو مايسمى مخالفته: كبائر الاثم والفواحش، وشريطة أن لانتعدّى أيضاً حدود الله ولانقرب تلك الحدود.

وماعدا ذلك فالمسلمون أحرار ولهم مطلق الحرية في الحركة ضمن مجال أعرافهم وتقاليدهم من دون قيد ولاشرط.

وقد يسأل سائل وكيف يمكن للناس أن يتعارفوا على فعل الكبائر متخطين حدود الله سبحانه؟ نجيب المتسائل ونقول: نعم يمكن ذلك وقد حصل سابقاً ويحصل الآن وفي كل يوم مثلاً: لدى بعض شعوب بلاد التيبت شمال الهند من العرف والعادات أن يشترك الأولاد الذكور كلهم بعد البلوغ في زوجة أخيهم الكبير ـ فتصبح زوجة لكل الذكور من الأبناء في العائلة وكذلك مثال آخر: من الأعراف المتبعة منذ القديم في الهند (أن يزوجوا البنت من بعد شهور من ولادتها على أن تنتقل فعلياً إلى بيت حميها في سن السابعة أو الثامنة ليسهل عليها اكتساب عاداتهم، ومن النتائج المأساوية لهذه الممارسة ترمل بعض الفتيات قبل الزواج. الأمر الذي بحسب شَرْعَةِ مانُو يحرمهن من الزواج الفعلي مرة أخرى(*) حيث تترمل الطفلة قبل زواجها وحسب أعرافهم يحرم زواجها بعد ذلك) وهذا ظلم للمرأة وسلب لحقوقها ـ لاتقبل به شريعة الإسلام. إذ يشترط في الزواج الإسلامي شرطان أساسيان لايتوفران في هذا الزواج: وهما: قبول ورضى الطرفين الزوج والزوجة أساساً حتى يحدث الزواج وإلا فلا، والشرط الثاني: بلوغ الطرفين، وهو البلوغ الجنسي وهذا هو الحد الأدنى. أما إذا كان العرف والعادة مثلاً لايقبل بالزواج إلا بعد الثامنة عشرة أو إلا بعد الحادية والعشرين في بلاد أخرى فهذه من الأعراف التي لااعتراض للإسلام عليها مادامت لا تتعدى الحد الأدنى ـ وأنا شخصياً فوجئت عندما بحثت عن الأعراف في الولايات المتحدة في موضوع سن الزواج المقبول قانوناً في الولايات المختلفة حيث وجدت كل ولاية تختلف عن الأخرى في هذا الموضوع، فهناك ولايات تحدد سن الزواج الثانية عشرة، بينما تحدده ولايات أخرى بعد الثامنة عشرة. وأساس هذه القوانين هو الأعراف المتبعة من قبل الناس الذين كانوا يسكنون تلك الولاية منذ البداية.

وحتى قوانين الطلاق فهي تختلف من ولاية لأخرى ـ فما هو مسموح به في ولاية تراه ممنوعاً في ولاية أخرى وهكذا.

(*) كتاب الأديان الحية: أديب صعب، دار النهار للنشر، بيروت. ص٥٩

نستطيع أن نقول باختصار: إن الأعراف تتبع عادةً العقلية، فإذا كانت العقلية السائدة في المجتمع عقلية متحجرة ومتأخرة كانت الأعراف أيضاً متحجرة ومتأخرة.

وإذا كانت العقلية السائدة في مجتمع آخر متقدمة ومتطورة كذلك تتبعها الأعراف فتصبح متقدمة ومتطورة.

ومع تغيير العقلية في نفس المجتمع تتغير الأعراف والعادات فيه. والله سبحانه لعلمه هذه الأمور قبلنا فقد ركز في الشرع الإسلامي على موضوع الأعراف بكلمة (المعروف) لذلك يجب أن نعلم اننا لانستطيع تغيير ذلك المعروف إلا بتغيير العقلية.

فالمصلح الاجتماعي لايستطيع بالتالي أن يقول افعلوا كذا ولاتفعلوا كذا أبداً؛ وإنما عمل المصلح تغيير العقلية. والمجتمع وحده سوف يتوقف بعدها عن فعل كذا. وسوف يبدأ لوحده الفعل الذي كان يرغبه ويطلبه المصلح قبل ذلك. (أو بقول آخر: المجتمع سوف يفرز أعرافه):

﴿إن الله لايغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[٣٥]

صدق الله العظيم

---

(٣٥) سورة الرعد: ١١

٣٧ ـ عقدة التنزيه:

أهل الشرق عامة والمسلمون خاصة يعانون من عقدة نفسية اسمها التنزيه، كلنا نميل إليها بشكل لاشعوري، تنزيه كل شيء يخصنا، فنحن لانحب أن نعترف بأخطائنا، وعيوبنا، فكل مانسلكه أو نرضى عنه منزه عن العيب والدنس، حتى الزوج والزوجة منا يحاول كل منهما أن ينزه نفسه، لا أحد يريد أن يرى عيوبه أبداً، بل همه أن يكتشف عيوب الآخرين، والتغاضي عن عيوبه، إن مجتمعاً تسود أفراده هذه العقلية وهذا الأسلوب من التصرف لايمكن أن يتحول إلى مجتمع إيجابي تجمعه أواصر المحبة والتضامن لأنه يقوم على فردية قاتلة وتتجاذبه الصراعات والخلافات التي تنهكه. وفي واقع الحال أنه ما من فرد أو جماعة منزّهة عن الخطأ سوى الله سبحانه.

لكن الفردية وحب الذات حباً أعمى يقودان إلى المكابرة والعناد والتعصب للرأي تعصباً أعمى، ولايسلم من ذلك كله أفرادنا، وأحزابنا السياسية، ونِحَلُنا ومِلَلُنا في الشرق عامة، وبين المسلمين خاصة.

إن ولعنا بتنزيه الذات والقاء اللوم على الآخرين وتسفيههم من أكبر عيوبنا التي تجعل منا مجتمعاً متنافراً لايعرف سبيلاً للتفاهم. فلو حاول كل إنسان أن ينتبه إلى هذه المشكلة التي قد تبدو بسيطة وتافهة وهي مشكلة تنزيه الذات، وعرف كل منا نفسه ونقدها مثلما ينقد الآخرين لاكتشف فيها ألف عيب ومرض تحتاج إلى معالجة، ولو نظرنا نحن المسلمين إلى واقعنا الديني الآن لتبين لنا أنه واقع مؤلم لابدّ من إصلاحه وعلاج جوانب الخلل فيه، بسبب ماتراكم على جوهر إيماننا الديني من أوهام ومعتقدات فرضتها عهود غفوتنا وهي تتطلب تغييراً جذرياً، ولو كنا نملك النظرة الموضوعية ونقد الذات لكانت شيعنا الفكرية والسياسية والدينية التي لاتحصى شيعة واحدة، ولكان الأب في أسرتنا أباً والأم أماً والولد ولداً بدل ذلك التدهور الذي نلحظه في حياتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية.

ولو كان كل فرد منا لديه الاستعداد لمحاسبة نفسه مثلما يحاسب غيره، ولو فعل ذلك كل منا لانقلب الجحيم الذي نعانيه الآن إلى نعيم. ولزال الظلم الذي نزاوله على أنفسنا كل يوم.

فالزوجان اللذان قال فيهما الله سبحانه وتعالى:

﴿وهو الذي خلقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجَها﴾[1]

﴿ومن آياته أنْ خلقَ لكم من أنفسِكُم أزواجاً لتسكُنوا إليها وجعلَ بينَكم مودةً ورحمة﴾[2]

لايطبقان تعاليم الله في الوحدة الزوجية والحرص على التفاهم، وتجنب عبادة الذات، ومجتمعنا الإسلامي الذي دعانا الله عز وجل إلى تمتين أواصره فقال:

﴿واعتصِموا بحبلِ اللّهِ جميعاً ولاتفرّقوا﴾[3] أصبح شتاتاً تتنازعه الفرقة بسبب أثرتنا ومعاندتنا، وتعصبنا الأعمى للذات، وقد تبدو مشكلة تنزيه الذات هذه مشكلة طارئة وبسيطة ومن السهل معالجتها وإزالتها إذا انتبه إليها الإنسان والجماعات، وقد قدمتها في هذا الكتاب مثالاً لأبيّن خطرها، ذلك أن أسلوب تفكيرنا خاطئ من أساسه ولابد من تغيير عقليتنا كلياً ـ من عقلية الإنسان المتشبث بالأوهام الذي يقدس السحر والمعجزات، إلى عقلية معاكسة تماماً تؤمن بالعلم والعلوم والتجارب والموضوعية في الرأي، والبعد عن الهوى، آنذاك فقط يمكن لعبادة الذات أن تزول بقية الموروثات الأخرى التي حملناها من الأساطير والأباطيل التي أسلمنا إليها عقولنا.

فالذي يتصور إزالة عقدة التنزيه التي نعاني منها بالنصائح واهم. لأن السر في وجودها هو سيطرة العقلية الوهمية على الجميع وهي ناتجة عن الاعتقادات والمسلمات والبديهيات التي يرتكزها عقل المسلم كمبادئ وبدايات للخيوط التي تربط الأشياء ببعضها. وحتى يقتنع المسلم أن كل هذه البديهيات والمسلمات التي لايرضى التنازل عنها هي السبب في تأخره وفي تحجر فكره وبالتالي يتخلص منها كلها فن يتغير أي شيء أبداً.

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٩ (٢) سورة الروم: ٢١ (٣) سورة آل عمران: ١٠٣

٣٨ ـ كيف فهمنا مشيئة الله؟
ومامعنى مشيئته تعالى بدليل آيات القرآن الكريم؟

من أهم أسباب انحراف المسلمين عن عقيدة الإسلام الصحيحة دخول أوهام عليها مثل الجبرية، وهي معتقد دخيل على الإسلام جرّ إليه سوء فهمنا آيات المشيئة في القرآن الكريم على الوجه الصحيح، وتعزّز سوء فهمنا بأحاديث أغلبها موضوعة أو محرفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو معتقد يسلب المسلم إرادته الحرة الفعالة في الدنيا والآخرة ويدفعه إلى مواقف سلبية تجعل منه إنساناً مسلوب الإرادة والفعل، تسيطر عليه الأوهام والأباطيل، وتتوقف فعاليته في الدنيا والآخرة، ويدخل تدريجياً في مرحلة الإشراك الخفي بالله، فينال غضب الله في الدنيا والآخرة دون أن يشعر، ويظن مع ذلك أنه من أشد الناس حباً وتفانياً لله، ولايعلم أنه أصبح من أفضل أتباع الشيطان، وأنه صار يعبد الشيطان تماماً تحت اسم الله سبحانه وتعالى وهذا لم يحصل لفئة صغيرة من المسلمين بل إن غالبية المسلمين في العالم اليوم وقعت في هذا الإثم.

وقبل أن نتقول على الله سبحانه مالا نعلم دعونا نسمع ماذا يقول الله في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم ٥٧ آية وردت فيها كلمة (شاء) بمعان مختلفة وفق سياق كل آية، ومايعنينا منها أولاً الآيات التي تؤكد أن الله عز وجل منح الإنسان مشيئة وإرادة حرة.

ـ فما الآيات التي شاء فيها الله سبحانه أن يكون فيها للإنسان مشيئة خاصة دون تدخل من الله سبحانه؟

وما الآيات التي شاء فيها الله أن يحجب عن الإنسان ممارسة حريته؟ بعد أن نحدد هذه الآيات ونفهمها فهماً صحيحاً يمكن أن ننتقل إلى بقية آيات المشيئة التي تتناول مشيئة الخالق لا الإنسان بسهولة:

١ ـ ما الآيات التي شاء فيها الله سبحانه أن يكون فيها للانسان الحرية الكاملة مع المشيئة الأولى في اختيار عقيدته؟

أ ـ للإنسان الحرية الكاملة في أن يكره أو يحب كما يشاء: فماذا يحب الإنسان باختياره؟

﴿كلّا بل تحبّونَ العاجلة﴾[1] ـ أي أن الإنسان يفض الدنيا ويحبها أكثر من الآخرة، ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾[2] والذي يحب العاجلة (يحب متع الدنيا والمال)، يمكن أن يحب الكفر أكثر من الإيمان:

﴿لاتتّخذوا آباءَكم وإخوانَكم أولياء إن استحبّوا الكفرَ على الإيمانِ﴾[3]

﴿ذلك بأنّهم استحبّوا الحياةَ الدنيا على الآخرة﴾[4]

﴿ومن الناس من يتخذْ من دونِ اللّهِ أَنْداداً يحبونهم كحبِّ اللّهِ﴾[5]

﴿زيّنَ للناسِ حبّ الشهواتِ من النساءِ والبنين﴾[6]

هذا مايحبه الإنسان، ولكن ماذا عما يكرهه؟

الإنسان الذي لايختار طريق الله حباً وإيماناً يكره مايأتي:

﴿كرهوا أن يُجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ اللّهِ﴾[7]

﴿ذلك بأنّهم كَرِهوا ماأنزلَ اللهُ فاحبطَ أعمالَهُم﴾[8]

﴿ولاينفقونَ إلّا وهم كارهونَ﴾[9]

﴿لقد جئناكُم بالحقّ ولكنّ أكثركم للحقّ كارهونَ﴾[10]

والمؤمن أيضاً يمكن أن يكره أموراً لابد منها:

﴿كُتبَ عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم﴾[11]

فهل يفرض تعالى مشيئته على الناس لإلزامهم بما يحب أو يكره هو، أيكرههم سبحانه على الإيمان أم يترك لهم حريتهم الخاصة في ممارسة مايحبون عمله أو يكرهون من سبل الخير والشر؟ يقول تعالى:

﴿قالِ ياقوم أرأيتم إنْ كنتُ على بيّنةٍ من ربّي وآتاني رحمةً من عندِه فعميتْ عليكم أَنُلزِمُكمُوها وأنتم لها كارهون﴾[12]

﴿أفأنتَ تكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنينَ﴾[13]

---

(١) سورة القيامة: ٢٠
(٢) سورة الفجر: ٢٠
(٣) سورة التوبة: ٢٣
(٤) سورة النحل: ١٠٧
(٥) سورة البقرة: ١٦٥
(٦) سورة آل عمران: ١٤
(٧) سورة التوبة: ٨١
(٨) سورة محمد: ٩
(٩) سورة التوبة: ٥٤
(١٠) سورة الزخرف: ٧٨
(١١) سورة البقرة: ٢١٦
(١٢) سورة هود: ٢٨
(١٣) سورة يونس: ٩٩

﴿فمن شاءَ فليؤمن ومن شاءَ فليكفر﴾[١٤]

هكذا نرى أن الله سبحانه تعالى قد أعطى مشيئة خاصة وحرية للإنسان ليختار بها مايشاء، الإيمان أو الكفر دون أي ضغط أو إكراه لكن ذلك لايمنع أن الله سبحانه وتعالى زيّن وحبب لنفوس الناس الإيمان لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن مصلحة الإنسان تقع في إيمانه، كما أنه حاول أن يكرّه نفوس الناس بالكفر، لأنه يعلم أيضاً أن في الكفر يقع الإنسان في عذاب الدنيا والآخرة، وحاول سبحانه استخدام أسلوب الترغيب في الإيمان، والتخويف بالوعيد والتهديد لمن يختار طريق الكفر والإشراك.

﴿ولمَنْ خافَ مقامَ ربّهِ جنتان﴾[١٥]

وأسلوب الترغيب في الآية واضح، وعد الله المؤمن جنتين: جنة على الأرض وجنة في السماء. ﴿وأما من خافَ مقامَ رّبه ونهى النفسَ عن الهوى فإنّ الجنةَ هي المأوى﴾[١٦]

﴿ومن يعمل الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا يخافُ ظلماً ولاهَضماً﴾[١٧]

﴿فذكّر بالقرآن من يخافُ وعيدِ﴾[١٨]

﴿فمن يؤمن بربّه فلا يخافُ بخساً ولارهقاً﴾[١٩]

﴿ونخوفهُم فما يزيدُهم إلّا طغياناً كبيراً﴾[٢٠]

﴿ذلك يخوفُ الّله به عبادَه ياعباد فاتقونِ﴾[٢١]

﴿فمن تبعَ هُدايَ فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[٢٢]

﴿ولنبلوكُم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموال﴾[٢٣]

﴿ومن آياتِهِ يُريكم البرقَ خوفاً وطَمَعاً﴾[٢٤]

وهكذا يتبين لنا من الآيات السابقة بأن الإنسان حر الاختيار إن شاء آمن وإن شاء كفر وهكذا كانت مشيئة الله الأولى. لكن الإنسان يميل دائماً للمبالغة والشطط، فيحاول سبحانه وتعالى أن يعلمه الطريق القويم وهو بعد ذلك حر فيما يختار: إما أن يتبع نصيحة ربه وينال بذلك رضى الله أو يختار سبيل أهوائه وشهواته وينال غضب الله وعقابه.

---

(١٤) سورة الكهف: ٢٩
(١٥) سورة الرحمن: ٤٦
(١٦) سورة النازعات: ٤٠
(١٧) سورة طه: ١١٢
(١٨) سورة ق: ٤٥
(١٩) سورة الجن: ١٣
(٢٠) سورة الإسراء: ٦٠
(٢١) سورة الزمر: ١٦
(٢٢) سورة البقرة: ٣٨
(٢٣) سورة البقرة: ١٥٥
(٢٤) سورة الروم: ٢٤

فحريته المعطاة له لاتمنع من أنه سيخضع لقوانين الله الأخرى في الخلق.

ومن أهم هذه القوانين: أنه سوف يموت طوعاً أو كرهاً. وسوف يبعث مرة أخرى: طوعاً أو كرهاً. وسوف يحاسب يوم القيامة: طوعاً أو كرهاً. وسوف يلقى في جهنم حطباً: طوعاً أو كرهاً. وسوف يسجد لله طوعاً أو كرهاً، وهذا مانفهمه من الآيات الآتية: ﴿وله أسلمَ مَنْ في السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً﴾(٢٥)

﴿ولّله يسجدُ منْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً أو كرهاً﴾(٢٦)

﴿فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً قالتا أَتَيْنا طائعينَ﴾(٢٧)

ولكي لايتكبر الإنسان أن يتجبر في الحياة الدنيا، ويظن أن هذه الحرية التي منحها الله له بحريته ومشيئته واختياره هي منه لامن الله فيظن أنه يستطيع أن يتطاول على إرادة الله ويفعل مايشاء، فإن الله تعالى نبهه إلى ذلك وإلى أن مايراه ويرى نفسه فيه من حرية وإرادة ومشيئة كانت أولاً وأخيراً بمشيئة من الله سبحانه وتعالى:

﴿ولو شاءَ ربُّك لآمنَ منْ في الأرض كلُّهم جميعاً﴾(٢٨)

﴿ولو شاءَ الّلهُ ماأشركوا﴾(٢٩)

﴿ولو شاءَ الّلهُ لجمَعَهم على الهدى فلا تكونَنَّ من الجاهلين﴾(٣٠)

وإنْ فَهِمَ الناس آيات القرآن الكريم فهماً وهمياً شيطانياً لن يُفيدهم في شيء، فكل الحقائق واضحة لمن شاء أن يبحث عنها في القرآن، أما من يرغب أن يفهمها كما يشاء هو أو كما يشاء شيطانه فلن ينفعه سوء فهمه في دنياه أو في آخرته، وليس له أن يلوم الله على سوء فهمه وإشراكه بدل أن يلوم نفسه الأمارة بالسوء. ﴿وقال الذينَ أشركوا لو شاءَ الّله ماعبدْنا من دونِهِ من شيء﴾(٣١)

بل هم المسؤولون عن ذلك بحريتهم وباختيارهم السابق وليس الله سبحانه، ﴿وقالوا لو شاءَ الرحمن ماعبدْناهم مالهُم بذلك من عِلم﴾(٣٢)

فالمشرك يتذرع بآيات القرآن السابقة فيرددها محاولاً أن يوهم المؤمنين بأن مايفعله من شرك هو بمشيئة الله، متناسياً أن الله قدم مشيئة الإنسان على مشيئته حين منحه حرية الاختيار. فالله سبحانه وتعالى يقول لنا بوضوح مبيناً أن إرادتنا هي السابقة: فقد جعل

(٢٥) سورة آل عمران: ٨٣
(٢٦) سورة الرعد: ١٥
(٢٧) سورة فصلت: ١١
(٢٨) سورة يونس: ٩٩
(٢٩) سورة الأنعام: ١٠٧
(٣٠) سورة الأنعام: ٣٥
(٣١) سورة النحل: ٣٥
(٣٢) سورة الزخرف: ٢٠

إرادتنا ومشيئتنا وحركتنا باتجاه الحق أو باتجاه الباطل مرهون بنا نحن بني الإنس، وبحسب توجيهنا لمشيئتنا يأتي رد فعله سبحانه وتعالى، فإن كنا في خير ونعمة ثم اخترنا طريق الباطل والشيطان والكفر والإشراك بدّل لنا النعمة نقمةً والخيرَ شرّاً:

﴿ذلك بأنّ الله لم يكُ مغيّراً نعمةً أنعمَها على قومٍ حتى يُغيّروا مابأنفسِهِم﴾(٣٣)

والآيات الآتية من القرآن الكريم تؤكد بصورة حاسمة حرية إرادة الإنسان:

﴿لمن شاءَ منكم أن يتقدّمَ أو يتأخرَ﴾(٣٤)

فحرية اختيار التقدم أو التأخر مرهونة بإرادة الإنسان ﴿ومن يشأْ يجعلْه على صراطٍ مستقيم﴾(٣٥) (فالضمير في الفعل يشأ يعود على الإنسان) ﴿وقُلِ الحقُّ من ربّكم فمنْ شاءَ فليؤمنْ ومن شاءَ فليكفرْ﴾(٣٦)

حرية كاملة ومشيئة مطلقة للإنسان في هذه الحياة الدنيا لاختيار الكفر أو الإيمان ﴿كلّا إنّه تذكرةٌ * فمَنْ شاء ذَكَرَهُ﴾(٣٧)

﴿إنّ هذه تذكرةٌ فمنْ شاءَ اتخذَ إلى ربّه سبيلا﴾(٣٨)

﴿ذلك اليومُ الحقّ فمنْ شاءَ اتخذَ إلى ربّه مآبا﴾(٣٩)

﴿إنْ هو إلّا ذكرٌ للعالمين * لمنْ شاءَ منكم أن يستقيمَ﴾(٤٠)

﴿فاعبدوا ماشِئتُم من دونِهِ﴾(٤١)

﴿اعمَلوا ماشئتُم إنّه بما تعملونَ بصيرٌ﴾(٤٢)

﴿ويا آدمَ اسكنْ أنتَ وزوجكَ الجنةَ فكُلا من حيثُ شِئتُما﴾(٤٣)

ويقصد تعالى بالجنة الأرض لاجنة السماء ﴿ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها﴾(٤٤)

﴿وإذا شئنا بدّلنا أمثالَهم تبديلا﴾(٤٥)

ومادام الله يشاء، كما رأينا، أن تكون حريتنا وإرادتنا ومشيئتنا هي الأساس في اختيارنا طريق الحق أو طريق الباطل، الإيمان أو الكفر بالله فعلينا أن نعيد النظر في فهمنا الآية الآتية في ضوء ماشرحنا:

---

(٣٣) سورة الأنفال: ٥٣
(٣٤) سورة المدثر: ٣٧
(٣٥) سورة الأنعام: ٣٩
(٣٦) سورة الكهف: ٢٩
(٣٧) سورة المدثر: ٥٤ ـ ٥٥
(٣٨) سورة الإنسان: ٢٩
(٣٩) سورة النبأ: ٣٩
(٤٠) سورة التكوير: ٢٨
(٤١) سورة الزمر: ١٥
(٤٢) سورة فصلت: ٤٠
(٤٣) سورة الأعراف: ١٩
(٤٤) سورة السجدة: ١٣
(٤٥) سورة الإنسان: ٢٨

﴿وماتشاؤونَ إلا أن يَشاءَ الله﴾[٤٦]

فمشيئة الإنسان أولاً وما أنْ يختار الإنسان الطريق حتى يتدخل الله سبحانه بمشيئته فإن شاء الإنسان واختار طريق الإيمان، تدخل الله وسهل للعبد طريق الإيمان وأنار له الطريق، وأزال من أمامه العقبات، وذلل له الصعوبات، ورفعه على قدر سعيه واجتهاده في طريق الإيمان والعلم الحقّ مراتبَ ودرجات، وإن اختار العبد طريق الباطل والشيطان أيضاً تدخل الله فأعمى بصيرته عن نور الإيمان وحقائق الله، وأغلق له كل حواسه، فلا يستطيع أن يسمع أو يبصر الحق، فإن قرأت له القرآن عجز عن تمييز ماحدده الله من الحق والباطل، لأن الله تعالى أغلق فهمه، وأفقده الميزان الصحيح الذي يزين به الأمور.

وفي ضوء فهمنا السابق ندرك معنى قوله تعالى:

﴿يهدي لنورِهِ من يشاء﴾[٤٧]

فالضمير في الفعل يشاء يعود على الإنسان كما شرحت سابقاً فإن مشيئته هي الأولى فالله يهدي لنوره الإنسان الذي يشاء ذلك النور ويختاره بإرادته وحريته، وكذلك الآية:

﴿فإنّ الله يُضلّ منْ يشاء﴾[٤٨]

فالله تعالى يضل من يختار الضلالة أولاً ويمهد له الطريق لأنه ظلم نفسه باختياره وبمشيئته الأولى.

﴿ويهدي من يشاء فلا تذهبْ نفسكَ عليهم حسرات﴾[٤٩]

وفي الآية هنا ينصح الله الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول له إن الله يهدي من الناس من يشاء الهداية ويختارها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات هم ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم أحد.

﴿ويرحمُ من يشاءُ وإليه تُقْبلون﴾[٥٠]

فالإنسان الذي يختار الحق يكون قد اختار طريق الرحمة ضمناً ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاءُ ومن يضللْ اللهُ فما له من هادٍ﴾[٥١]

فالهداية من الناس باختيارهم، لكن الذين يختارون الضلالة ليس لهم بَعْدُ من يهديهم أبداً.

(٤٦) سورة الإنسان: ٣٠
(٤٧) سورة النور: ٣٥
(٤٨) سورة فاطر: ٨
(٤٩) سورة فاطر: ٨
(٥٠) سورة العنكبوت: ٢١
(٥١) سورة الزمر: ٢٣

﴿الله يجتبي إليه من يشاءُ ويهدي إليه من يُنيب﴾[٥٢]

فالإنسان الذي يختار الله تعالى ويلجأ إليه بداية يعده الله بتبصيره الطريق المستقيم مادام يلتجئ إليه، ويجيره ويوكله وينيبه عن نفسه وهذا الإنسان لن يكون للشيطان سلطة عليه.

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تؤكد تخلي الله عن الإنسان الذي اختار الضلالة بمحض إرادته فلم يعد مستوفياً لشروط الهداية والإيمان:

﴿والله لايهدي القومَ الظالمين﴾[٥٣]

﴿واللهُ لايهدي القومَ الكافرين﴾[٥٤]

﴿كيف يهدي اللهُ قوماً كفروا بعد إيمانِهم﴾[٥٥]

﴿والله لايهدي القومَ الفاسقين﴾[٥٦]

﴿إنّ اللهَ لايهدي من هو كاذبٌ كفّار﴾[٥٧]

﴿إنّ اللهَ لايهدي من هو مسرفٌ كذّاب﴾[٥٨]

أما إذا عاد الإنسان وتاب توبة نصوحاً، وصار في علم الله صدق نيته، وعودته إلى طريق الحق، فإن الله يقبله في فريق المؤمنين، ولذلك يقول الله تعالى في تصوير قدرته على المتجبر بلسانه نفسه:

﴿قلْ إنّي لن يُجيرَني من اللّه أحدٌ ولن أَجِدَ من دونِهِ ملتَحَداً﴾[٥٩]

وهكذا بفضل الله وبفضل نوره الموجود في آياته في القرآن الكريم استطعنا أن نفهم معاني آيات المشيئة المتعلقة باختيار الإنسان وحريته في اختيار الإيمان أو الكفر، ولكن لله مشيئات أخرى ليس لها علاقة بموضوع حرية الإنسان واختياره مثل الآيات الآتية:

﴿فصعق منْ في السمواتِ ومنْ في الأرضِ إلاّ منْ شاءَ اللهُ﴾[٦٠]

﴿ثم أماتَه فأقبرهُ ثم إذا شاء أنشرَهُ﴾[٦١]

﴿قال ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإيّايَ﴾[٦٢]

---

(٥٢) سورة الشورى: ١٣
(٥٣) سورة البقرة: ٢٥٨
(٥٤) سورة البقرة: ٢٦٤
(٥٥) سورة آل عمران: ٨٦
(٥٦) سورة المائدة: ١٠٨
(٥٧) سورة الزمر: ٣
(٥٨) سورة غافر: ٢٨
(٥٩) سورة الجن: ٢٢
(٦٠) سورة الزمر: ٦٨
(٦١) سورة عَبَسَ: ٢٢
(٦٢) سورة الأعراف: ١٥٥

﴿وتنزعُ الملكَ ممّن تشاء وتُعزُّ منْ تشاء وتذلّ من تشاءُ بيدكِ الخيرُ إنّكَ على كلِ شيءٍ قدير﴾[٦٣]

﴿قل اللهمّ مالكَ الملكِ تؤتي الملك من تشاء﴾[٦٤]

﴿وترزقُ منْ تشاءُ بغيرِ حساب﴾[٦٥]

نلاحظ في كل هذه الآيات أن المشيئة لله أولاً ولاحرية للإنسان في اختيار موعد موته مثلاً، أو نشره، وهو غير قادر أن يرد عقوبة الله بسبب معصيته، فهي أمور تخضع لمشيئة الله لالمشيئته:

والإنسان الذي يتعمق في المعاني يرى الحقائق بشكل واضح فيرى أن مامنح للانسان من حرية ومن مشيئة كان أصلاً بمشيئة الله أولاً ومن هنا نستطيع القول إن مايفعله الإنسان كله إيماناً أو كفراً لايتجاوز مشيئة الله أصلاً لأن الله كان يعلم أصلاً أنه إذا منح الحرية والمشيئة للانسان، فإن عدداً كبيراً من الناس سيختارون طريق الكفر والضلال، وعدداً ضئيلاً منهم فقط سيختارون طريق الرحمن، فلم يفاجأ، وهذه النتيجة تدخل ضمن علمه السابق ومن هنا نستطيع أن نفهم الآيات التي تشير إلى ذلك:

﴿إنْ هي إلا فتنتُك تُضلّ بها من تشاءُ وتهدي من تشاء﴾[٦٦]

﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادنا﴾[٦٧]

﴿إن نشأْ نخسفُ بهم الأرض﴾[٦٨]

﴿وإنْ نشأ نغرقْهم فلا صريخَ لهم ولاهم ينقذونَ﴾[٦٩]

﴿والله يضاعفُ لمنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم﴾[٧٠]

وهناك في القرآن الكريم آيات فيها مشيئة الله بأشكال وأساليب مختلفة تعطي أيضاً معاني مختلفة. فهناك آيات تكون دائماً مسبوقة بحرف لو الشرطية ﴿لو شاءَ اللهُ لسلّطه عليكم فلقاتلوكم﴾[٧١]

﴿ولو شاءَ الله ما أشركوا﴾[٧٢]

---

(٦٣) سورة آل عمران: ٢٦
(٦٤) سورة آل عمران: ٢٦
(٦٥) سورة آل عمران: ٢٧
(٦٦) سورة الأعراف: ١٥٥
(٦٧) سورة الشورى: ٥٢
(٦٨) سورة سبأ: ٩
(٦٩) سورة يس: ٤٣
(٧٠) سورة البقرة: ٢٦١
(٧١) سورة النساء: ٩٠
(٧٢) سورة الأنعام: ١٠٧

﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ منْ في الأرض كلّهم جميعاً﴾(٧٣)

فهذه الآيات كلها تشير إلى أن الله عز وجل لايتدخل لأنه سبق أن أعطى الإنسان مشيئة الاختيار وجعلها مقدمة على مشيئته، وأساساً لعدله ورحمته.

كثير من المسلمين ممن يؤمنون بالجبرية يفهمون هذه الآيات خطأ ويعزز فهمهم المغلوط لها أحاديث كثيرة مضلّة لايعقل أن يتفوه بها الرسول الكريم لأنها تخالف ماجاء فيه القرآن الكريم حول هذا الموضوع. ولنلاحظ أن الله سبحانه لايحاسب الطفل والمجنون لأن الإرادة النابعة من العقل وحرية الاختيار غير واضحة بعد في الطفل لعدم نضجه العقلي، وأما المجنون فقد سحبت المسؤولية عنه بحسب القاعدة الشرعية التي تقول: ﴿بأن الله إذا أخذَ ماوهبَ سقطَ ماوجب﴾ وهذا صحيح على الدوام.

ولنتابع بحثنا عن مشيئة الله في كتابه بالأسلوب التحليلي نفسه، مما يلفت الانتباه اقتران الفعل شاء في بعض آيات الكتاب الكريم بحرف الشرط إن من ذلك قوله تعالى: ﴿وإن خِفتُم عَيْلة فسوفَ يُغنيكم اللّهُ من فضلِهِ إن شاء﴾(٧٤)

﴿قال إنّما يأتيكم به اللهُ إن شاءَ وماأنتم بمعجزينَ﴾(٧٥)

﴿تباركَ الذي إن شاءَ جعلَ لك خيراً من ذلكَ﴾(٧٦)

﴿ليجزي اللّهُ الصادقينَ بصدقِهِم ويعذبَ المنافقينَ إنْ شاءَ﴾(٧٧)

﴿بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء﴾(٧٨)

هنا في الآيات السابقة نلاحظ المعنى بشكل واضح فالعمل في هذه الآيات مشروط أبداً بمشيئة الخالق.

ويختلف الوضع في الآيات الآتية:

﴿وقال ادخلوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنين﴾(٧٩)

﴿وقال ستجدُني إن شاء اللهُ صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾(٨٠)

﴿وما أريد أن أشقّ عليك ستجدني إنْ شاء الله من الصالحين﴾(٨١)

---

(٧٣) سورة يونس: ٩٩
(٧٤) سورة التوبة: ٢٨
(٧٥) سورة هود: ٣٣
(٧٦) سورة الفرقان: ١٠
(٧٧) سورة الأحزاب: ٢٤
(٧٨) سورة الأنعام: ٤١
(٧٩) سورة يوسف: ٩٩
(٨٠) سورة الكهف: ٦٩
(٨١) سورة القصص: ٢٧

﴿وقال يأبت افعلْ ماتؤمرُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[٨٢]

﴿لتدخلنّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاء الله آمنين محلقين رؤوسكُم﴾[٨٣]

فالكلام فيها يأتي بلسان عباد الله، وهي تشي بوعود مستقبلية ستتحقق، لكن تحققها مقرون بمشيئة الله، والذين يلمحون في حديثهم بهذه الوعود ألفوا أن يقرنوها بمشيئة الخالق وكأن الله يريد أن يعلمنا ألا نتحدث عن المستقبل ومايحمله لنا من الأمور إلا إذا قرنا ذلك بتعبير (إن شاء الله) كما في قوله تعالى:

﴿ولاتقولّن لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً، إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ﴾[٨٤]

ويأتي تعبير ((إن شاء الله) في موقف السخر والتهكم أيضاً:

﴿إنّ البقر تَشابَهَ علينا وإنّا إن شاءَ اللهُ لَمهتدون﴾[٨٥]

وذلك بلسان الذين يحاولون تعجيز رسولهم من بني إسرائيل على سبيل التهكم ﴿سخرَ اللهُ منهم ولهم عذابٌ أليم﴾[٨٦]

وترد صيغة (إذا شاء) مرة واحدة: ﴿ثم أماتَهُ فأقبرَهُ ثم إذا شاءَ أنشرَه﴾[٨٧]

ومعناها يطابق معنى المشيئة في المجموعة الأولى (اقتران أي عمل بمشيئة الله).

ويمكن أن نتساءل بعد هذا التصنيف لأفعال المشيئة: لماذا يقرن الله عز وجل أي فعل له في المستقبل أو عندما يتحدث عن نفسه بإن الشرطية مع الفعل شاء؟

إن قوله تعالى عن نفسه وإذا شاء هو تذكير لنا على الدوام بأنه قبل أن يفعل أمراً يفكر ويدبر، لأن الفكر والتدبير نابعان منه وحده، ويطابق قوانينه التي التزمها ففي قوله تعالى مثلاً:

﴿ليجزيَ اللهُ الصادقينَ بصدقِهم ويعذبَ المنافقين إنْ شاءَ﴾[٨٨]

نلاحظ أنه عزّ وجل سينفذ فعلين هما مكافأة الصادقين، ومعاقبة المنافقين ولتنفيذهما يشعرنا أنه سيفعل هذين، الأمرين في ضوء ما سنه من قوانين وما ألزم به ذاته من عدم الظلم ونفي الغضب والتزام الرحمة وعدم الإفراط في الثواب لكي لايظلم الناس، فقوله (إن شاء) لتذكيرنا بأنه لايتعجل في الحكم ولايستفزه غضب، فهو يمهل ويتروى قبل أن

(٨٢) سورة الصافات: ١٠٢
(٨٣) سورة الفتح: ٢٧
(٨٤) سورة الكهف: ٢٤
(٨٥) سورة البقرة: ٧٠
(٨٦) سورة التوبة: ٧٩
(٨٧) سورة عبس: ٢٢
(٨٨) سورة الأحزاب: ٢٤

يحكم فإذا حكم حكم بالعدل المطلق ولايتحقق عدله إلا إذا التزم قوانينه وسننه ووعوده كلها.

وهناك آيات أخرى في القرآن تأتي فيها كلمة شاء مسبوقة باسم الشرط أو اسم الموصول (مَنْ) ﴿وقل الحقُّ من رّبكم فمَنْ شاء فليؤمن﴾(٨٩) ﴿ومن شاءَ فليكفر﴾(٩٠)

﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلّا منْ شاء أن يتّخذَ إلى ربّهِ سبيلاً﴾(٩١)

﴿ففزع من في السمواتِ ومن في الأرض إلاّ منْ شاءَ الله﴾(٩٢)

﴿فصعقَ من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاءَ الله﴾(٩٣)

﴿إن هذه تذكرة فمن شاءَ اتخّذَ إلى ربه سبيلاً﴾(٩٤)

﴿نذيراً للبشر لمنْ شاءَ منكم أن يتقدّمَ أو يتأخّرَ﴾(٩٥)

﴿كلّا إنها تذكرةٌ * فمَنْ شاءَ ذَكَرهُ﴾(٩٦)

﴿إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالمين * لمن شاءَ منكم أن يستقيمَ﴾(٩٧)

في هذه الآيات التسع جاءت كلمة (شاء) مسبوقة بمن، ونجد في الآيات السبع أي ماعدا الثالثة والرابعة أن المعنى مشترك وهو ترك حرية الاختيار للإنسان بمشيئة مسبقة من الله، لأن الله تعالى شاء أن يمنح الإنسان تلك الحرية كما أسلفنا ليكافئ المحسن بعمله ويعاقب المسيء بسوئه بعد أن أنذر الناس وبين لهم سبل الخير والشر. وفي الآيتين الثالثة والرابعة معنى آخر مغاير ماسبق، ففي هاتين الآيتين يتكلم الله تعالى على أمور تسبق يوم البعث بالصيحة الأولى والثانية وفيهما يستثني بعض الناس (إلاّ من شاء) وهؤلاء الذي يستثنيهم من العذاب والفزع والصعق لايمكن أن يكونوا من المجرمين الكفرة بل كما عودنا الله سابقاً سوف يكونون من الذين صدقوا الله ماعاهدوه عليه ومن المؤمنين الصادقين، فمشيئته فيهما مبنية على أفعال هؤلاء في الدنيا.

وهناك سبع آيات أخرى أتت فيها كلمة شاء مسبوقة بحرف ما ومنها:

﴿قل لاأملكُ لنفسي نَفْعاً ولاضرّاً إلاّ ماشاءَ اللهُ﴾(٩٨)

﴿خالدين فيها مادامتْ السمواتُ والأرضُ إلاّ ماشاءَ رّبك إن رّبك فعّالٌ لِما يُريد﴾(٩٩)

---

(٨٩) سورة الكهف: ٢٩
(٩٠) سورة الكهف: ٢٩
(٩١) سورة الفرقان: ٥٧
(٩٢) سورة النمل: ٨٧
(٩٣) سورة الزمر: ٦٨
(٩٤) سورة المزمل: ١٩
(٩٥) سورة المدثر: ٣٧
(٩٦) سورة عبس: ١١ - ١٢
(٩٧) سورة التكوير: ٢٨
(٩٨) سورة الأعراف: ١٨٨
(٩٩) سورة هود: ١٠٧

﴿الذي خلقَكَ فسوّاك فعدَلَكَ * في أيِّ صورةٍ ماشاء رَكَّبَكَ﴾(١٠٠)

﴿سنقرِئُكَ فلا تنسى * إلاّ ماشاءَ اللهُ إنّه يعلَمُ الجهرَ ومايخفى﴾(١٠١)

﴿ولولا إذْ دخلتَ جنّتكَ قلتَ ماشاءَ اللهُ لاقوةَ إلّا بالله﴾(١٠٢)

ففي الآية الأولى تأكيد على مشيئة الله التي منها انبثقت حرية الإرادة لدى الإنسان، فالله المهيمن على كل شيء يمد الحبل للإنسان فيحسب أنه سيد نفسه إلى أن يكتشف وحده أنه لايملك لنفسه شيئاً: (لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله﴾ وهذه من إحدى حقائق الحياة الكبرى، وعلى فهمها وتفهمها تعتمد سعادة الإنسان أو شقاؤه في الدنيا والآخرة.

والمعنى ذاته نلمسه في بقية الآيات في المجموعة الأخيرة.

﴿ولولا إذ دخلتَ جنّتكَ قلتَ ماشاءَ اللهُ لاقوةَ إلاّ بالله﴾(١٠٣)

في تلك القصة من خلال حوار الرجلين يحاول الله أن يعلمنا مواعظ كثيرة. ويبين لنا كيف يمكن بكل سهولة، باعتقاد معين، أن يقع الإنسان في الشرك، مثلما يعلمنا كيف يجب على المؤمن الصحيح أن يتأدب في تعامله مع الله.

نستنتج من ذلك كله خطأ بعض المسلمين الذين يزعمون أن مشيئة الله مشيئة مطلقة ومستبدة لايحدها حدود ولاقيود، ويتوهمون أنها أقرب إلى المشيئة الإنسانية الفوضوية دون أن يحدها نظام أو قيود، وهو تخيل ساذج وباطل، وكل حقائق الكون والقرآن الكريم تكذب هذا الاعتقاد ولو صحّ ذلك لكان الله ظالماً قاسياً، بعيداً عما وصف به نفسه في القرآن من رحمة ومغفرة.

وننهي هذا البحث بآية من آيات المشيئة في القرآن الكريم يقول فيها تعالى:

﴿إنّك لاتهدي من أحببتَ ولكن اللهَ يهدي من يشاء﴾(١٠٤)

وهكذا يعلمنا الله أننا لن نستطيع أن نهدي إلى نور الله من نحب من أولادنا ولامن أزواجنا أن استحبوا الكفر على الإيمان، ولم يختاروا بحريتهم وبإرادتهم ومشيئتهم الخاصة الأولى هداية الله ونوره، لكن بإرادتهم الحرة التي وهبهم إياها الله، بها وحدها، يمكن أن يهتدوا ويجتنبوا مكر الشيطان هذه حقيقة إيمانية كبرى في الإسلام يجب أن لا ينساها المسلمون أبداً.

---

(١٠٠) سورة الإنفطار: ٨
(١٠١) سورة الأعلى: ٧
(١٠٢) سورة الكهف: ٣٩
(١٠٣) سورة الكهف: ٣٩
(١٠٤) سورة القصص: ٥٦

٣٩ ـ مامعنى (بإذن الله) بدليل آيات الكتاب؟

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿عفَا اللّهُ عنكَ لم أذنتَ لهم حتى يتبينَ لكَ﴾[١]

يعاتب الله تعالى رسوله باستعجاله بأخذ الفدية عن الأسرى دون انتظار نزول الوحي عليه، وكان الرسول على الدوام يلتزم بذلك ولايتعجل، إلا في هذا الموقف وموقف آخر حين صلى على أحد المنافقين فنهاه الله تعالى أيضاً بآية هي:

﴿ولاتصلّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولاتُقم على قبرِه﴾[٢]

من هاتين الآيتين يتعلم المسلم ألا يتسرع المؤمن فيقوم بأي عمل قبل أن يتأكد أن عمله سينال رضا الله، ويوافق منهج الخالق فمن اتبع ذلك المنهج لايمكن أن يضل وسيبقى إن شاء الله على صراط مستقيم، والرسول صلى الله عليه وسلم في هذين الموقفين لم يخالف نصاً موجود سابقاً موحى به، وإنما اجتهد لأنه لم يكن بين يديه نص يعتمده، أما نحن فلدينا كتاب الله ولانعمل به ولانستشيره ولا نسترشد به أبداً.

﴿قال فرعون آمنتُم بهِ قبلَ أنْ آذنَ لكم﴾[٣]

ومعنى آذن هنا: سمح

﴿ومنهم من يقول آئذَنْ لي ولاتفتنّي ألَا في الفتنةِ سَقَطوا وإنّ جهنّمَ لمحيطةٌ بالكافرين﴾[٤] وأذن هنا أيضاً بمعنى سمح.

وفي أسباب النزول عن هذه الآية أن أحد المسلمين سأله الرسول الاشتراك في غزو بني الأصفر جهاداً في سبيل الله، فتذرع بأن الله ابتلاه بحب النساء وبما أن (بني الأصفر) مشهورون بجمال نسائهم قال: أخاف أن أقع في فتنتهن، فأقع في المعصية وهذه لاترضي الله فنزلت الآية.

وهذه الآية تنطبق على كل إنسان يأتي بعذر أقبح من ذنب للتهرب من واجب إيماني وتتردد في الآيات عبارة (بإذن الله) من مثل: ﴿قلْ منْ كانَ عدوّاً لجبريلَ فإنّه نزلهُ على قلبِكَ بإذنِ اللّهِ﴾[٥]

---

(١) سورة التوبة: ٤٣ (٣) سورة الأعراف: ١٢٣ (٥) سورة البقرة: ٩٧

(٢) سورة التوبة: ٨٤ (٤) سورة التوبة: ٤٩

ومن المعروف عن اليهود أنهم يعدون جبريل حامل رسائل السوء من الله تعالى، فهم لايحبونه ويفضلون ميكائيل ويعدونه حامل رسائل البشرى. فالله تعالى يقول لرسوله: قل لمن كان عدواً لجبريل إن الله نزله على قلبك بإذن الله، ومعنى (بإذن الله) في الآية الكريمة واضح، فجبريل لم ينزل بمشيئته الخاصة وبرغبته الشخصية وإنما حصل ذلك بتكليف له من الله وإذن منه، وثمة آيات كثيرة في القرآن الكريم ترد فيها عبارة (بإذن الله) في المعنى ذاته.

﴿كَمْ من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله﴾(٦)

﴿إنّي أخلقُ لكم من الطينِ كهيئةِ الطير فأنفخُ فيه فيكون طيراً بإذنِ الله﴾(٧) ﴿وأبرئ الأكمه والأبرصَ وأحيي الموتى بإذنِ الله﴾(٨)

وذلك بلسان عيسى بن مريم إذ يبين لنا الله كيف تتم المعجزات على أيدي الرسل فهم وسطاء يفعلون مايؤمرون ولايعرفون كنه ماقاموا من معجزات، فالفعل الإعجازي كله يتم من الله. وهكذا نجد أن عبارة (بإذن الله) تعني هنا بمشيئة الله التي تتم ضمن قوانين الخلق وسننه.

﴿وماكان لنفسٍ أن تموتَ إلاّ بإذنِ اللهِ كتاباً مؤجّلاً﴾(٩)

وهذه الآية توضح مشيئة الله، وقد رأينا في آيات الأجل أن عمر الإنسان غير ثابت إلا في الأجل المسمى الذي لم يحدده لنا الله. فلا نستطيع أن نفترض مقدار هذا الأجل المسمى، لكن حتماً هناك حالات كثيرة شرحناها يتم فيها الموت قبل بلوغ الأجل المسمى المذكور نتيجة لأسباب كثيرة، منها الجهل والقتل الخطأ، والقتل العمد، والحروب والكوارث، وحوادث السيارات، والأمراض والأوبئة فاسباب الموت كثيرة لكنها كلها تتبع القضاء، أي أن الله لم يتدخل مباشرة ليحدث تلك المصائب عن قصد لقتل الناس، وإنما قوانين الله تسير دون توقف تهب مثلاً رياح شديدة على منطقة فيها بعض الناس فإن لم يبنوا بيوتاً قوية تقاوم الرياح الشديدة لضعف حيلتهم تعرضوا للموت، في حين أن أناساً كانوا أحرص منهم وأحكم، فحسبوا حساباً للكوارث واحتاطوا فنجوا فالله لم يكن ساخطاً على الأولين ومناصراً للآخرين، وذلك كله ضمن سنن الله وحدوده، يتم بناء على تخطيط من الله الذي أعطى فرصة لكل إنسان للعيش

---

(٦) سورة البقرة: ٢٤٩
(٧) سورة آل عمران: ٤٩
(٨) سورة آل عمران: ٤٩
(٩) سورة آل عمران: ١٤٥

حتى أجله المسمى إذا لم يتعرض لأي حادثة من حوادث القضاء فتسبب إنهاء حياته، وهذا كله لايتم إلا ضمن مشيئة الله وقوانينه التي وضعها مسبقاً للحياة والموت. ولفهم الآية أكثر لابدّ من الرجوع لآيات الأجل والمشيئة.

﴿وماكانَ لنفسٍ أن تؤمِنَ إلاّ بإذنِ الله﴾(١٠)

فتعبير (بإذن الله) جاء بمعنى بمشيئة الله في الآية، ومشيئة الله كما شرحناها ليست اعتباطية، وإنما تسير وفق نظم وقوانين صارمة وضعها الله ليطبقها على نفسه وعلى الناس، فالنفس التي تسعى لبلوغ الإيمان عليها السير وفق شروط فالمشيئة البشرية مقيدة بقوانين الله وسننه، فمن حاز على شرط الإيمان يأذن له الله بالإيمان والعكس صحيح.

﴿تؤتي أكلَها في كلّ حينٍ بإذنِ ربّها﴾(١١)

﴿ماأصابَ من مصيبةٍ إلاّ بإذنِ اللهِ﴾(١٢)

﴿وماأرسلْنا من رسولٍ إلا ليطاعَ بإذن اللهِ﴾(١٣)

﴿وماكانَ لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلاّ بإذنِ اللّهِ﴾(١٤)

فإذن الله في الآيات يعني مشيئة الله المشروطة بقوانيننه وسننه.

ولنتوقف قليلاً عند قوله تعالى:

﴿ما أصابَ من مصيبةٍ إلاّ بإذنِ اللّه﴾(١٥)

لنفترض مثلاً، أن عائلة أصيبت بفقد عائلها في حادث سيارة سببه شرب سائقها المنكر فكيف نفهم أن هذه المصيبة حدثت بإذن الله؟

لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، ووضع فيه إمكانية التفكير والابتكار، فإن ذلك كله حدث بإذن الله.

ثم إن الإنسان ابتكر السيارة للاستخدام وحدث ذلك أيضاً بإذن الله ـ ثم إن الله خيّر الإنسان إن شاء فليؤمن وإن شاء فليكفر، وحدث ذلك أيضا بإذن الله.

ثم أن الإنسان الذي كفر أو الذي لم يرض أن يسير على منهج الله اختار أن يشرب المسكرات وحدث ذلك أيضاً بإذن الله.

---

(١٠) سورة يونس: ١٠٠
(١١) سورة إبراهيم: ٢٥
(١٢) سورة التغابن: ١١
(١٣) سورة النساء: ٦٤
(١٤) سورة الرعد: ٣٨
(١٥) سورة التغابن: ١١

ثم إن الشخص بعد أن شرب كثيراً أصبحت سيطرته على السيارة أقل بإذن الله ثم حدثت الحادثة وقتلت زيداً من الناس وهو بريء وكان يعود من عمله إلى بيته أيضاً ذلك حدث بالمصادفة (القضاء والقدر) والقضاء والقدر يحدثان بإذن الله إذاً المصيبة حصلت بإذن الله وضمن مشيئته واستناداً لهذا الأسلوب من الفهم فما من خير وما من شر يصيب الإنسان إلا بإذن الله لأن الله هو الذي سمح بالأساس بإذنه - لكن إذا ناقشنا هل هذا ظلم من الله نقول لا. ولاأقول ذلك لأبرّئ الله وأدافع عنه فهو غير محتاج إلى دفاعي، لكني أقول ما أعتقده، لأن الله عندما منحنا الحرية أعطانا إياها كاملة وحملنا نتائجها فتدخله عند كل من نتائجها ينافي الحرية الممنوحة إلينا، لاشك في أن السائق الذي شرب وترك منهج الله قد ظلم نفسه وظلم القتيل، لكن ذلك لايعني أن الله منذ الأزل كتب على هذا الرجل بأن يموت بهذا الحادث بالذات، لأننا بذلك نقع في الوهم فالمقتول لايقتل، وإذا كان الله قد حكم عليه منذ الأزل بمصيره هذا فليس المقتول هو الضحية الوحيدة بل إن القاتل أيضاً هو الضحية الثانية. ومن المؤسف أن بعض الناس فينا لازالوا يفكرون بهذا الأسلوب متأثرين بما كتبه بعض كتاب عصور الظلام والانحطاط في خلال الألف سنة الماضية. وآن لنا في القرن العشرين عصر العلم والفضاء، أن ننفض تلك الأفكار المفرطة في الأوهام من أذهاننا.

﴿وما أصابَكم يومَ التقى الجمعانِ فبإذنِ اللّه﴾(١٦)

لاشك في أن كل شيء يحصل بإذن الله، لكن في معركة بدر بالذات يريد الله أن يذكر المسلمين بألا ينسوا منهج الله، ومنهج الله يقول لهم إذا ذهبتم إلى القتال لاتعتمدوا في النصر على زيد من الناس، ولأنه يقود المعركة سوف تنتصرون، وليكن اعتمادكم الوحيد على الله تعالى وعلى قوانينه وسننه.

ومنهج الله يقول لهم أيضاً: عليهم أن يطيعوا الله والرسول فيما أمر حتى يكافئهم الله بالنصر، وفي أُحُد ترك الرماة الجبل ونزلوا لسلب الغنائم وليس من صفات المؤمن أن يترك واجبه في إطاعة الله والرسول ويركض وراء غنيمة في الدنيا، هذا هو الدرس الذي يريد الله أن يعلمه للمؤمنين في الآية السابقة وكذلك يوم حنين، يومَ أعجب المؤمنين عددهم. فما حصل لهم كان بإذن الله ولذلك أخبر الله المؤمنين أنهم في معركة بدر قاتلوا بمعنويات قتالية عالية، فكان الجندي منهم يستطيع أن يقابل عشرة بينما في أُحُدْ

(١٦) سورة آل عمران: ١٦٦

أصابهم ضعف في معنوياتهم وفي عزيمتهم فصار الشخص منهم لايقدر إلا على مواجهة شخصين من المشركين فقط.

ومن المسائل المعروفة اليوم في القتال أن الطرف الذي يقاتل بعقيدة تكون معنوياته أقوى وسيكون المنتصر، والطرف الذي يقاتل بلاهدف أو عقيدة يصيبه الهلع والفزع، هذه كلها قوانين أوجدها الله. فهو الذي خلق النفوس ويعرف مافي دواخلها، إن الله لن يؤيد جنوده الذين عصوا الرسول بنصره، وتوهموا أن الله سينصرهم إن قاتلوا أو لم يقاتلوا لأنهم مسلمون فأراد الله أن يعلمهم أن النصر لايكون إلا بصدق الإيمان وصدق القتال عزماً وفعلاً مع الصدق في الصبر على مواجهة الموت. لذلك كانت مشيئته ألا ينتصر المسلمون في أُحُد.

ولذلك قال لهم الله: ﴿ولقد نَصَرَكُم اللّهُ ببدرٍ وأنتم أَذِلّة﴾(١٧)

ولذلك كان الله يذكر المؤمنين دائماً بتلك الأمور النفسية في القتال ﴿ياأيّها الذينَ آمنوا إن تَنصُروا اللّهَ ينصرْكُم ويثبتْ أقدامَكم﴾(١٨) ﴿بنصرِ الله ينصرُ منْ يشاءُ وهو العزيز الرحيم﴾(١٩)

فقوله تعالى: ﴿من يشاء﴾ يعني بها الطرف الذي ينفذ قوانين الله في الحروب فينصره الله على الطرف الآخر الذي لايراعي تلك القوانين:

﴿وماالنّصرُ إلاّ من عندِ اللهِ العزيزِ الحكيم﴾(٢٠)

---

(١٧) سورة آل عمران: ١٢٣
(١٨) سورة محمد: ٧
(١٩) سورة الروم: ٥
(٢٠) سورة آل عمران: ١٢٦

٤٠ ـ مامعنى: أراد الله، بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿قالت ماجزاءُ من أرادَ بأهلِكَ سوءاً إلاّ أنْ يُسجَنَ﴾[١]

﴿وإذا أرادَ اللهُ بقومٍ سوءاً فلا مرّد له﴾[٢]

﴿ومن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سعيَها وهو مؤمنٌ فأولئكَ كان سعيُهم مشكوراً﴾[٣]

من هذه الآيات يتبين لنا بوضوح معنى الفعل (أراد) أي شاء ورغب، ومن الفعل رغب ننطلق إلى أسرته اللغوية لنلم بمعاني جذرها اللغوي في كل ظروفها وأحوالها:

﴿لاينفعكُم نصحي إنْ أردت أن أنصِحَ لكُم إنْ كانَ الله يريدُ أن يغويكُم﴾[٤]

﴿ولاتكرهوا فتياتكم على البغاءِ إنْ أَردْنَ تحصّناً﴾[٥]

﴿ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤتِهِ منها﴾[٦]

﴿وإنْ يردكَ بخيرٍ فلا رادّ لفضلِه﴾[٧]

﴿إن يُردنِ الرحمنُ بضرٍّ لاتُغنِ عني شفاعتهم شيئاً﴾[٨]

﴿يُريدُ الّله بكم اليُسر﴾[٩]

وهذه قاعدة لابدّ من استيعابها والتزامها لفهم قوانينه وسننه.

﴿ولايريدُ بكم العُسر﴾[١٠]

وهذه قاعدة أخرى من قواعد الله يجب أن ندركها أيضاً ولكن مامعنى يريد في قوله تعالى؟

﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنّ الّلهَ يفعلُ مايريد﴾[١١]

هناك من يفهم الفعل يريد في هذه الآية خطأً على أنه تعالى يريد أن يقتل الناس. ومن يفهمه بهذه الطريقة يمكن أن يعمم فهمه على حالات مماثلة، فإن رأى كفاراً قال: أراد الله أن يكفروا، وإن رأى مشركين قال: أراد الله أن يشركوا، وإن رأى مجرمين قال: أراد الله أن يجرموا وهكذا. إن إنساناً يفهم القرآن بهذا الأسلوب هو جدير بالشفقة وليس

---

(١) سورة يوسف: ٢٥
(٢) سورة الرعد: ١١
(٣) سورة الإسراء: ١٩
(٤) سورة هود: ٣٤
(٥) سورة النور: ٣٣
(٦) سورة آل عمران: ١٤٥
(٧) سورة يونس: ١٠٧
(٨) سورة يس: ٢٣
(٩) سورة البقرة: ١٨٥
(١٠) سورة البقرة: ١٨٥
(١١) سورة البقرة: ٢٣٥

لنا إلا أن ندعو الرحمن بأن يزيده فهماً وإدراكاً، وكان الأجدر به أن يسأل نفسه: إذا كان الله يريد لنا ذلك فلماذا أتعب نفسه، وأرسل الرسل منه تعالى ابتداءً بسيدنا نوح عليه السلام ومروراً بعشرات الأنبياء والرسل لجماعة صغيرة كبني اسرائيل، لهدايتهم للطريق الصحيح، ولماذا خلق الشيطان، ولماذا نفخ الله من روحه في الإنسان؟ ولماذا أعطاه الحرية والإرادة والفكر والقدرة على التعلم بالقلم والقراءة من الكتاب واستخلف الإنسان في الأرض ليختبره بالطاعة والعبادة؟ وقال ﴿وماخلقتُ الجنّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ﴾(١٢)

فالله تعالى قصد من الفعل أراد معنى آخر في الآية يدل عليه معنى الفعل (يريد) في الآية الآتية:

﴿تلك الرُّسلُ فضّلْنا بعضَهم على بعضٍ منهم منْ كلَّم اللّهَ ورفعَ بعضَهم درجاتٍ وآتيْنا عيسى ابنَ مريمَ البيّناتِ وأيدّناهُ بروحِ القدس ولو شاءَ الله مااقتَتَلَ الذين من بعدِهِم من بعدِ ماجاءتْهُم البيّناتُ ولكنْ اختلفَوا فمنهم منْ آمَن ومنهم منْ كفَرَ ولو شاء اللّهُ مااقتتلوا ولكنّ اللّهَ يفعلُ مايريد﴾(١٣) ولتقريب الموضوع للأذهان نفرض أن الله تعالى أرسل رسولاً إلى أمّة ليُريَ أهلها الصواب من الخطأ، ويدلهم على الصراط المستقيم، فاستقام الناس وسعدوا بما عرفوا، وشكروا الله على نِعمِه بكرة وأصيلاً وعلّموا أولادهم الخير وعلموهم كيف يميزون الشر لتجنبه، فصلحت أمورهم بعد ذلك تأييداً من الله.

فإذا لم نفهم الموضوع بهذا الأسلوب لم نفهم بعد لماذا خلقنا الله وخلق معنا الشيطان وخلق فينا إمكانية التحول أيضاً إلى شيطان في كل وقت. ولكي نفهم إرادة الله تعالى لابد أن نعرف الحقائق الآتية:

إن الله تعالى خلقنا أفراداً.

وسوف يميتنا أفراداً.

وسوف يبعثنا أفراداً.

وسوف يحاسبنا أفراداً.

وبمعنى آخر: إذا اهتدى أبي أو أغلب أفراد أمتي فلن تفيدني هدايته أو هدايتهم إذا اخترت أنا طريق الضلالة وإن ضل أبي أو أفراد أمتي فلن يضرّني ضلاله أو ضلالهم أيضاً إذا كنت أنا من الذين اختاروا طريق الهداية. فأنا في هذه الحياة الدنيا مسؤول أمام الله فرداً ولاعلاقة

---

(١٢) سورة الذاريات: ٥٦ (١٣) سورة البقرة: ٢٥٣

لأحد بي، لن يفيدني أن أتذرّع يوم الحساب بأن أبي أضلني وأنا كُنْتُ أطيعه في كل الأمور. فالله تعالى يريد أن يختبر كل إنسان بمفرده، وشياطين الجن والإنس مسلطة بإرادة سابقة من الله وهنا تتجلى صعوبة الاختبار فعلى كل منا أن يبحث عن الحقيقة ويجدها بمفرده، ويهتدي للرحمن ويتبعه بدل أن يتبع الشيطان وأصحابه بمفرده، فمن استطاع ذلك نجح، وكل من لم يستطع سقط، وهذا الاختبار مستمر في كل لحظة من حياتنا ومادامت اسباب النزاع والقتال قائمة فاحتمال نشوب النزاع والاقتتال قائم أيضاً فالله عز وجل وضعنا في قلب الامتحان، ولكن ذلك لايعني أنه يريد منا أن نقتتل وإنما احتمال اقتتالنا وارد في حسابه وإرادته لأنه وهبنا الإرادة الحرة فكل مانحن فيه حدث بمشيئة من الله وبإرادته، وما فعلناه نحن ليس ظلماً منه بل ظلماً لأنفسنا، لأننا رسبنا في الاختبار الإلهي، فكل من تسلح بمنهج الله أمن العثار، وكل من تركه ضل، والله يدرك أن البشر لابد أن يصلوا بعد التجارب إلى منهج الله وفي ضوء ذلك نفهم معنى الغلبة الإلهية في قوله تعالى: ﴿كتبَ اللّهُ لأغلبنَّ أنا ورسلي إنّ الله قويٌّ عزيز﴾[١٤]

فالله تعالى يعلم أنه واصل إلى هدفه الذي يسعى إليه مع رسله في إيصال بني آدم إلى اختيار منهج الله ولو شاء لجَعَلَنا مُؤْمنين منذ أن خلقنا أول مرة، لكنه آثر أن نبلغ الإيمان بالعقل والإدراك والحرية، فنتغلب على رغبات النفس الأمارة بالسوء، وفتنة شياطين الجن والإنس، ونفرح بحلاوة انتصار إيماننا بعد مجاهدة. والله تعالى ليس في عجلة من أمره فإن استخدمنا عقولنا خففنا الآلام عن أنفسنا وعلى من يأتي بعدنا من حفدتنا، وإن وقعنا في الأوهام والأضاليل والأباطيل ضللنا وضل من بعدنا، ولن يكون لحياتنا من معنى إلا أن نزيد نار جهنم حطبة أخرى، فالطريقة السليمة في أن نتبع المنهج، والمنهج ليس إلا في القرآن وحده، ففيه الطريق إلى بر الأمان، دنيا وآخرة، فيه الحقيقة كاملة. لاتتعبوا أنفسكم وتبحثوا في مكان آخر، فلن تجدوا الحقيقة إلا فيه. هل تريدون أن تعرفوا خطيئة أبينا آدم؟ خطيئته كانت في قبوله الدخول في هذا الامتحان الإلهي العسير وليس في أكله من الشجرة المحرمة.

﴿إنّا عرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأَشفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾[١٥]

صدق الله العظيم.

---

(١٤) سورة المجادلة: ٢١ (١٥) سورة الأحزاب: ٧٢

٤١ ـ مامعنى «كتب الله على نفسه أو علينا»؟ بدليل آيات في القرآن الكريم؟

لقد ورد الفعل كَتب في صيغ مختلفة في القرآن الكريم: كُتب عليكم، كَتَبَ على - كَتَبَ عليهم، فاكْتُبْنا مع، كَتَبَ لهن، كَتَبَ الله لكم، كَتَبَ الله لنا، كَتَبَ على نفسه، كَتَبَ الله عليهم، كَتَبَ الله وكَتَبَ الله في..

وفي كل صيغة من هذه الصيغ يكتسب الفعل كَتَبَ دلالة خصوصية فلنتعرف معانيه بدليل الآيات القرآنية نفسها. ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتبَ اللهُ لكم﴾.

وفي هذا الخطاب من الله تعالى لبني إسرائيل يكلمهم عن فلسطين ﴿الأرض المقدسة﴾ كتبها الله لهم.

فإن فهمنا الفعل (كتب) هنا على أنه يشير إلى قيد عقاري من الله تعالى بتسجيل أرض فلسطين باسم اليهود للأبد فإن فهمنا لكل آيات القرآن يكون خطأ، لأن الله يعلم أن الناس تختلف مواقفهم كل يوم من إيمان إلى كفر إلى إشراك، وبالتالي من مصلح إلى مفسد، والله تعالى يتعامل مع الناس بحسب موقفهم من الإيمان والإصلاح، أو تحولهم إلى الكفر والإفساد، فيكون موقفه بحسب تغير الناس، وقد شرحت ذلك مراراً في هذا الكتاب، ولابأس بأن أذكّر بآية واحدة منها هي:

﴿ذلك بأنّ اللّهَ لم يَكُ مغيّراً نعمةً أنعَمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾(١)

فمواقف الله منا تابعة لمواقفنا منه، وهو مبدأ هام لفهم القرآن، ولما كان الناس أحراراً في اتخاذ مايشاؤون من مواقف بلا إكراه أو تقرير مسبق من الله، فالناس هم الذين يتحملون نتائج قراراتهم، فإن كانت مع منهج الله كانوا من السعداء، وإن ضلوا السبل، سحب الله منهم كل ما أعطاهم من ميزات في الدنيا والآخرة، حتى الأرض التي كتبها لهم، يأخذها منهم ويعطيها للمصلح الذي يستحقها لصلاحه، وقد يتغير الموقف بعد عدة سنوات بأن يترك الناس الله والإيمان ومنهجه فيغير الله مواقفه منهم مباشرة، ويسحب منهم نعمه، فالآية السابقة وعد من الله في المستقبل لبني اسرائيل أن يُدخِلَهم الأرض المقدسة التي ارتآها لهم إن استطاعوا أن يفوا الله ماوعدوه من الرجوع إلى الإيمان والصلاح في الأرض، فوعد الله

---

(١) سورة الأنفال: ٥٣

مشروط وغير دائم وهو يعتمد اعتماداً كلياً على موقف الناس منه، والدليل على كلامنا هذا أيضاً من القرآن، فعندما خاطب بني اسرائيل بلسان موسى وقال لهم:

﴿ياقوم ادخُلُوا الأرضَ المقدّسة التي كتبَ الّله لكم﴾(٢)

كانوا قد خرجوا من مصر إلى فلسطين وهم في وضع الإيمان بالله، ونية الإصلاح، والله يعرف سرائرهم وماتوسوس به نفوسهم. وبحسب تلك السريرة كانوا من المؤمنين.

لكن بعد أن انتهى خوف الناس من فرعون وقومه وجنوده وتخلصوا من عبوديتهم لم يثبتوا على إيمانهم هذا بل غيروا موقفهم وتحولوا عن عبادة الله: ﴿ثم اتّخذوا العجلَ من بعد ماجاءتْهم البيناتُ﴾(٣)

فماذا كان موقف الله منهم؟

﴿قال فإنّها محرمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يتيهون في الأرض﴾(٤)

من كل ماتقدم نفهم أن عبارة (كتب الله لكم) لاتعني كما يفهم الصهاينة اليوم أن الله طوّب لهم فلسطين ومنحهم قيداً عقارياً بأرضها، وأين إيمانهم وهم مازالوا يعبدون العجل الذهبي إلى اليوم. فهم لازالوا يعبدون الذهب وإن تركوا عبادة العجل. وكلاهما إشراك بالله. وفي ضوء ذلك فإن معنى الفعل كتب في الآية التالية:

﴿فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم﴾(٥)

فقد اختبر الله المؤمنين بعد فرض الصيام فلم يسمح لهم بالاقتراب من النساء ليلاً أو نهاراً، لكن الله الذي خلق الإنسان يعرف أنه ضعيف أمام الشهوات والغرائز البشرية فوقع بعض الناس في الخطأ وصاروا يقتربون من نسائهم ليلاً. فخاطبهم تعالى بقوله:

﴿أحلّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائِكم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ عَلِمَ الّلهُ أنّكم كنتم تختانونَ أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم﴾(٦)

فالفعل كتب في الآية له دلالته ذاتها في الآية التي سبق ذكرها أي ماارتآه الله تعالى من خير كنتم أهلاً له.

﴿قل لنْ يصيبَنا إلاّ ماكتَبَ الّله لنا﴾(٧)

(٢) سورة المائدة: ٢١
(٣) سورة النساء: ١٥٣
(٤) سورة المائدة: ٢٦
(٥) سورة البقرة: ١٨٧
(٦) سورة البقرة: ١٨٧
(٧) سورة التوبة: ٥١

إذا فهمنا أيضاً ﴿كتبَ الّله لنا﴾ في هذه الآية بمعنى ما اتخذه الله من قرار بشأننا نكون قد وقعنا في الخطيئة السابقة التي شرحتها في موضوع بني اسرائيل. يجب أن نعود إلى بحث الآجال لنفهم معنى (كتب الله لنا). فالله تعالى لم يقرر لنا من أجل ثابت لايمكن تجاوزه سوى الأجل المسمى، والحقيقة الثابتة في موضوع الموت أننا لن نستطيع أن نهرب من الموت إطلاقاً ولذلك قدر الله تلك الحقيقة بصراحة تامة لامجال للتخمين فيها، فالموت هو قدرنا المحتوم جميعاً، ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت﴾(٨)

والله تعالى لايتدخل في هذه العملية لأنه أوكل بالموت أحد ملائكته ﴿قلْ يتوفّاكُم مَلَكُ الموتِ الذي وكِّلَ بكم﴾(٩)

﴿قلْ إنَّ الموتَ الذي تفرونَ منه فإنّه مُلاقِيكُم﴾(١٠)

أما من يتخيل أن الله تعالى يحمل جهازاً للموت يتصيد به الناس وهم غافلون عنه فإنه واهم وبعيد عن الحق، وسوف يجد ذلك كله مشروحاً في البحث الذي أشرنا إليه.

وقد كان المسلمون الأوائل يفهمون هذه الحقائق تماماً، لكن دخل الوهم في عقول الناس خلال الألف سنة التي قضيناها في كهف انحدارنا فالآية السابقة تشرحها الآية الآتية ﴿قل هل تربصونَ بنا إلاّ إحدى الحسنيَيْن﴾(١١)

فالله كتب للمؤمنين الصادقين إحدى الحسنيين، فقوله تعالى ﴿قل لن يصيبَنا إلا ما كتبَ الّله لنا﴾ يعني ألا يصيب المؤمنين الصادقين إلاّ ماهم أهل له وهو إما الشهادة في سبيل الله وإما النصر.

فلا الموت ولا الشهادة في سبيل الله يعدّان مصيبة في نظر المؤمن بالله، وإذا فهمنا أن الله قد قرر سلفاً من سيموت ومن لايموت في المعركة قبل حدوثها كما يظن بعض المسلمين فإنه واهم، وقد شرحنا ذلك بدليل آيات كثيرة في بحث سابق.

﴿فقلْ سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُّكم على نفسِهِ الرحمة﴾(١٢)

ومعنى (كتب ربكم) في هذه الآية واضح أيضاً، فالله اختار لنفسه صفة الرحمة، وهو سيلتزمها وبما أن الله تعالى لايخلف وعده فلن يتراجع عن رحمته، فهي عهد منه إلى يوم الحساب.

---

(٨) سورة آل عمران: ٦٨
(٩) سورة السجدة: ١١
(١٠) سورة الجمعة: ٨
(١١) سورة التوبة: ٥٢
(١٢) سورة الأنعام: ٥٤

﴿ولولا أن كتبَ اللّه عليهم الجلاءَ لَعذَّبَهم في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابُ النار﴾(١٣)

ولنفهم هنا معنى الفعل (كَتَبَ) علينا أن نقرأ الآية التي قبلها:

﴿هو الذي أخرجَ الذين كفروا من أهلِ الكتاب من ديارهم لأول الحشرِ ماظننتُم أنْ يخرجوا وظنوا أنّهم مانعتُهم حصونُهم من اللهِ فأتاهم اللهُ من حيثُ لم يحتسبوا وقذفَ في قلوبهم الرعبَ يخربونَ بيوتَهم بأيديهم وليرى المؤمنين فاعْتبرُوا يا أولي الأبصار﴾(١٤)

نفهم من هذه الآية أن الله ارتأى لبني النضير من اليهود الجلاء عن بيوتهم وأراضيهم نتيجة ظلمهم وخيانتهم ولو لم يحصل ذلك لوقعوا في أخطاء أكبر لاتغتفر كما حصل مع بني قريظة عندما خانوا الرسول بعد أن عاهدوه في غزوة الخندق

﴿وأنزلَ الذين ظاهروهم من أهلِ الكتاب من صياصِيهِم وقذفَ في قلوبهم الرعبَ فريقاً تقتلونَ وتأسرونَ فريقاً * وأورثَكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تَطَئوها وكانَ اللّهُ على كلِ شيءٍ قديراً﴾(١٥)

وهكذا نرى أن الله بدل موقفه من أنفسهم عندما بدلوا هم أيضاً موقفهم من خطأ يمكن التساهل فيه، كما صدر عن بني النضير، إلى خيانة عظمى كما صدر عن بني قريظة، فغير الله موقفه بحسب تغير موقف اليهود، من إجلائهم عن الأرض إلى قتل وأسرٍ، وانتزاع أموالهم وأراضيهم، وهذا هو العذاب الذي تحدث عنه الله في الآية التي كان يشرح فيها موقف بني النضير، فكتب الله عليهم في الآية، معناه: ارتأى

﴿كتبَ اللهُ لأغلبَنّ أنا ورُسلي إنّ اللّهَ قويٌّ عزيز﴾(١٦)

يشير تعالى هنا إلى أن جهود رسله لن تضيع هباء، وسيأتي يوم يقبل فيه الإنسان رسالة رب العالمين ويرتضي الإسلام له ديناً، وسوف يكتب لدين الإسلام النجاح ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدّهُم بروحٍ منه﴾(١٧)

ولفهم معنى هذا الجزء من الآية لابد لنا أن نستعرض الآية كلها:

﴿لاتَجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليوم الآخرِ يُوادّونَ من حادّ اللّهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهُم أو أبناءَهُم أو إخوانَهُم أو عشيرتُهم أولئكَ كتبَ في قلوبهم الإيمان وأيدّهم بروحٍ منه

---

(١٣) سورة الحشر: ٣
(١٤) سورة الحشر: ٢
(١٥) سورة الأحزاب: ٢٦ - ٢٧
(١٦) سورة المجادلة: ٢١
(١٧) سورة المجادلة: ٢٢

ويُدخلُهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها رضيَ اللّه عنهم ورضَوْا عنه أولئكَ حزبُ الله ألا إن حزبَ اللهِ هم المفلِحون﴾[١٨]

فمعنى كتب هنا مرتبط بموقف المسلمين والمؤمنين، علماً أن الله تعالى نتيجة وصول هؤلاء المؤمنين إلى مراتب عالية في الإيمان أيدهم بروح منه، ولكن إن غيروا موقفهم شعرة واحدة فإن الله سوف يبدل أيضاً موقفه منهم. ولنا في صحابة الرسول وأيام الرسول شاهداً على ذلك في معركة بدر فقد كان المؤمنون شعلة من الإيمان والإندفاع في سبيل الله فضرب الله بقوتهم مثلاً إذ كانت قوة الفرد منهم تعدل قوة عشرة من الذين لم يؤمنوا لكن موقفهم تغير في غزوة أحد فغير الله موقفه تبعاً لذلك. وقال لهم الله تعالى لقد ضعفتم فالواحد منكم يقابل اثنين فقط أي تراجعوا خمسة أضعاف عن حالتهم الأولى. ومن لاينتبه لمثل هذه الأمور الدقيقة في القرآن لابدّ أن يقع في الوهم..

بعد أن استعرضنا معاني صيغة الفعل كتب المبني للمعلوم ننتقل إلى تحليل صيغته في المجهول (كُتب) فالصيغة كَتَبَ في المعلوم تدل على أن فاعل الفعل كتب هو الله عز وجل، أما صيغة المبني للمجهول فلا تشير إلى من قام بفعل، (كُتب على) (كُتِب عليه) (كُتِب عليكم) (كُتِب عليهم) وسنكتفي بمثال واحد كصيغة من الصيغ الأربع السابقة على كثرة تواترها في القرآن الكريم.

﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلِكم﴾[١٩]

قلنا سابقاً: إنّ الله تعالى لم يفرض على المؤمنين أي فرائض في العبادات بدليل القرآن الذي لايحوي أي فرض صلاة أو فرض صوم فالفرائض موجودة في الأحاديث وليس في القرآن. ونحن نناقش اليوم بدليل آيات الله وحدها لأن اليقين كله فيها، والله لايلقي كلامه جزافاً أو على سبيل الخيال كما يفعل الشعراء.

فلو أنه فرض علينا الصيام فرضاً لصمنا شئنا أم أبينا.

لذلك يجب أن نفهم أننا آمنا باختيارنا نحن وليس فرضاً، هكذا كانت مشيئة الله الأولى أراد أن يمنحنا الحرية ليختبرنا فهو تعالى الذي ارتأى لنا الصيام لما يراه من خير فيه لنا نحن المؤمنين، ونحن المؤمنين نصوم تطوعاً وليس كرهاً. ولفهم الموضوع نضرب عليه المثال التالي: لنفرض أن حزباً أو نادياً معيناً يطلب من المنتسبين له شروطاً معينة يجب التقيد بها. فعلى العضو التقيد التام بتلك الشروط. وإلا فصل من النادي أو الحزب.

---

(١٨) سورة المجادلة: ٢٢ (١٩) سورة البقرة: ١٨٣

وكذلك المؤمن عليه شروط يجب أن يتقيد بها حتى يبقى في حزب المؤمنين مثل الصيام والصلاة والزكاة وإلا لما كان من المؤمنين أصلاً.

نصوم حباً بالله وبرسوله وبدين الله، وحباً بالحق وامتثالاً له ليس بالعصا وبالخوف ـ وقد يكون صوم بعضنا طمعاً في الجنة أو خوفاً من النار، فلا بأس في ذلك مادام القرار صادراً عن حريتنا لاكرهاً، ويجب أن نفهم أن إرادة الله لو كانت إرادة قسرية فما من شيء يعجزه عن قسرنا، إذاً لكان خلقنا كلنا مؤمنين مصلين صائمين بررة لانفعل إلا الخير، ولانعرف الشر والشيطان. كان هذا أسهل علينا وعلى كل أبناء آدم، لكننا قبلنا أن ندخل الامتحان ونتحدى الشيطان فاستخلفنا الله في الأرض ليرى إن كنا جديرين بحمل تلك الأمانة، أمانة الإيمان وفعل الخير والابتعاد عن الشهوات والشيطان، والالتصاق بالحق والنور، وملازمة منهج الرحمن، والثبات على الصراط المستقيم والله تعالى لم يفقد أمله فينا بعد، بدليل الآية التي قرأناها قبل قليل ﴿كتبَ الله لأغلَبن أنا ورُسلي إنّ اللّهَ قويّ عزيز﴾ ففريق المؤمنين الذين يسيرون مع الحق يجب أن يغلبوا فريق الشيطان.

على الرغم من أننا في هذه الأيام نرى فريق الشيطان هو الأقوى والأقدر، لكن ذلك لايعني أن المباراة قد انتهت. إن صراعنا مع الشيطان وتحديه لم ينتهيا بعد، فلدينا نحن المسلمين الأمل القوي بأن يعود جنود الله أعزاء أقوياء مرة أخرى منتصرين على الشيطان، متصدين لجنوده كلهم، ولن يتم ذلك بالدعاء والتمني، بل بالعمل والفهم والعقل والعلم والتربية الصحيحة وإعداد أجيال المسلمين على فهم القرآن حق الفهم ﴿كتب على الذين من قبلكم﴾

أي أن الله لم يَدْعُنا وحدنا للصيام فقد ارتآه نافعاً وخيراً ودعا إليه من سبقونا من أهل الكتاب

ـ **اكتبنا مع:** قال تعالى:

﴿ربّنا آمنّا بما أَنزلتَ واتّبعنا الرسولَ فاكتُبنا مع الشاهدين﴾(٢٠)

فالفعل (اكتبنا) هنا: التماس من المؤمنين بمعنى: اجعلنا مع الشاهدين.

ـ **كُتب لهم، كتب لهنَّ** ـ قال تعالى:

﴿ولاينالونَ من عدوّ نيلاً إلا كُتب لهم به عملٌ صالح﴾(٢١)

---

(٢٠) سورة آل عمران: ٥٣ — (٢١) سورة التوبة: ١٢٠

﴿في يتامى النساءِ اللاتي لاتؤتونهنّ ماكتبَ لهنّ﴾(٢٢)
فالفعل (كتب لهم) في الآية الأولى يعني سجل الله لهم ثواباً في سجل المؤمن تنفيذاً لوعده بثواب المؤمن يوم القيامة. والفعل (كتب لهن) في الآية الثانية إشارة إلى ماكتب في القرآن من حق الزوجات من اليتامى، فلايجوز أكل هذا الحق ظلماً وبهتاناً، بل يجب إعادة حق اليتيمة إليها، أما أن نتزوجها حتى نضم مالها لأموالنا فهذا ظلم، واستضعاف لها بسبب يتمها، وقبل أن ننهي هذا الفصل نتعرض لآية خاصة في القرآن الكريم وهي:

﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرزَ الذين كُتبَ عليهم القتل إلى مضاجعِهِم﴾(٢٣)
ويأتي خصوص الآية من أن فهمها أيضاً من مفاتيح فهم القرآن الكريم، فقد قلنا سابقاً إن الله تعالى لم يكتب على أحد ساعة الموت ولم يقدره، وإنما ترك ذلك لملك الموت يتوفى الناس الذين يموتون عند أجلهم المسمى أو الذين يموتون بالقضاء والقدر في حرب أو حادث أو اي شيء آخر، لكن لو حدث أن الله كتب استثناء من قاعدته في الموت على انسان بالقتل أو بالموت فإنه سوف يموت سواء أكان في الحرب أم في فراشه أو كان في الأبراج المشيدة، لامفر من ذلك، فما يكتبه الله في أمر الموت واقع لامحالة، لأن الله لن يسأل ذلك الذي كَتَبَ عليه الموت وقدَّرَهُ له بعد ذلك: أتريد أن تموت طوعاً أم كرهاً؟ ثمة فرق بين موضوع الموت وموضوع العبادة كالصلاة والصوم ـ فالفعل (كتبت عليه) هنا يختلف عن الفعل (إن شاء) مثل إن شاء صام أو صلى، ففي الموت لااختيار ولاتطوع، و(كتب الله الموت) هنا يعني قرر قراراً قاطعاً لامفرّ منه أبداً.

﴿ولو نزلْنا عليكَ كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقالَ الذين كَفروا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين﴾(٢٤)

فكتاب هنا معناه: الشيء المكتوب، هو من فعل الكتابة، وقد تأتي كلمة كتاب أيضاً بمعنى الوعد قال تعالى: ﴿وماكان لنفسٍ أن تموتَ إلاّ بإذن اللهِ كتاباً مؤجّلا﴾(٢٥)
وقد تأتي بمعنى الموعد أو التوقيت
﴿إنّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾(٢٦)
صدق الله العظيم.

---

(٢٢) سورة النساء: ١٢٧
(٢٣) سورة آل عمران: ١٥٤
(٢٤) سورة الأنعام: ٧
(٢٥) سورة آل عمران: ١٤٥
(٢٦) سورة النساء: ١٠٣

٤٢ ـ مامعنى «أمر الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿ويقطعونَ ماأمرَ به أن يوصلَ ويفسدونَ في الأرضِ﴾(١)

﴿قلْ أَمَرَ ربّي بالقِسط وأقيموا وجوهَكُم عندَ كلِ مسجدٍ﴾(٢)

﴿إنْ الحكمُ إلاّ لّله أمَرَ ألاّ تعبدوا إلاّ إياهُ﴾(٣)

﴿والذين يَصِلونَ ماأمَرَ اللهُ به أن يوصَلَ ويخشونَ ربَّهم﴾(٤)

﴿ويقطعونَ ماأمرَ اللهُ أن يوصلَ ويفسدونَ في الأرض﴾(٥)

﴿أو أَمرَ بالتقوى﴾(٦)

فالفعل (أمر) يختلف معناه في هذه الآيات بحسب سياق كل آية، وقبل أن نتابع هذه المعاني نسأل: لمن يوجه الله أمره في الآيات؟ للمشركين أم للكفار أم للناس كافة أم للمؤمنين فحسب؟

إنها موجهة للمؤمنين والمتقين فحسب. وهم جنود الله الأوفياء المطيعين أوامره. ولكن الناس ليسوا جميعاً من المؤمنين، والله محيط علمه بهذا الأمر:﴿يقطعونَ ماأمرَ اللهُ أن يوصلَ ويفسدونَ في الأرض﴾ فهؤلاء الذين يتحدث عنهم هم من الكفار أو المشركين، وموقفهم يناقض تماماً موقف المؤمنين: ﴿والذينَ يصلونَ ما أمرَ اللهُ به أن يوصلَ ويخشونَ ربَّهم﴾(٧)

وقد يرد الأمر من الله لإبليس الذي عصا واستكبر السجود لله: ﴿قال مامنعكَ ألاّ تسجدَ إذ أمرتُكَ﴾(٨)

وقد ينفي الله أن يكون أصدر أمراً ما:

﴿إنّ اللهَ لايأمرُ بالفحشاءِ أتقولونَ على اللهِ مالاتعلمون﴾(٩)

وقد يقارن بين مايأمر به من عدل ومايأمر به الشيطان أو يوسوس به:

﴿هل يستوي هو ومن يأمرُ بالعدلِ وهو على صراطٍ مستقيم﴾(١٠)

---

(١) سورة البقرة: ٢٧
(٢) سورة الأعراف: ٢٩
(٣) سورة يوسف: ٤٠
(٤) سورة الرعد: ٢١
(٥) سورة الرعد: ٢٥
(٦) سورة العلق: ١٢
(٧) سورة الرعد: ٢١
(٨) سورة الأعراف: ١٢
(٩) سورة الأعراف: ٢٨
(١٠) سورة النحل: ٧٦

﴿ومن يتبعْ خطواتِ الشيطان فإنّه يأمرُ بالفحشاءِ﴾[١١]

ونلاحظ دقة التعبير في قوله تعالى ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان﴾: دقة تعابير الله تعالى في القرآن. ذلك أنه لم يقل: ﴿ومن يتبع الشيطان﴾ بل خطواته، لأن كل أنواع الإثم والفحشاء لايقبل عليها الإنسان مباشرة بل يسقط فيها تدريجياً متبعاً خُطا الشيطان فقد يكون الآثم أول أمره عازفاً عن شرب الخمرة، فيمهد له الشيطان فرصة رؤيتها، ورؤية معاقريها، ثم تذوّقها ثم شرب قليل منها حتى يبلغ الادمان عليها، وقس على ذلك الرذيلة والسرقة وكل عمل آثم يغري به الشيطان من يتبعه.. يبدأ بالاستحسان وبعدها يأتي دور اليدين ثم دور الشفتين إلى أن يقع الإنسان، وهذه المراحل التي يمرّ بها فاعل الفاحشة ذكراً كان أم أنثى هي التي يسميها تعالى خطوات الشيطان.

﴿قل بئسما يأمرُكُم به إيمانُكم إن كنتم مؤمنين﴾[١٢]

وهذه الآية قالها تعالى لبني اسرائيل بعد أن عبدوا العجل خلال غياب موسى عليه السلام وكانوا قبل ذلك مؤمنين فوقعوا في إغواء الشيطان فأذلهم، فالأمر هنا موجه إلى المشركين من الشيطان. لأن أوامر الله للمؤمنين والمتقين فقط.

﴿ثم اتخذتُم العِجلَ من بعدِه وأنتم ظالمون﴾[١٣]

وقد يأتي الفعل (أمر) بصيغة المبني للمجهول على لسان المؤمنين:

﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى وأُمِرْنا أنْ نسلّم لربّ العالمينَ﴾[١٤]

والأمر هنا من الله، وقد استجاب له المؤمنون بالتسليم المطلق. ومن ضمن ما أُمر به المؤمن أن يكفر بالطاغوت والطاغوت هو كل سلطة دنيوية أرضية منحت نفسها حق التشريع للناس والحكم عليهم في لون من المصادرة، لكن مصادرة حق الله وحده في الحكم على الناس بموجب قوانينه ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزلَ إليك وما أُنزل من قبلِك يريدونَ أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أُمروا أن يكفُروا به ويريدُ الشيطانُ أن يضلّهم ضلالاً بعيداً﴾[١٥]

وقد يرد الفعل أمر بصيغته الزائدة كالفعل (ائتمر) في قوله تعالى:

﴿قال ياموسى إنّ الملأ يأتمرونَ بِكَ ليقتلوكَ﴾[١٦]

---

(١١) سورة النور: ٢١
(١٢) سورة البقرة: ٩٣
(١٣) سورة البقرة: ٩٢
(١٤) سورة الأنعام: ٧١
(١٥) سورة النساء: ٦٠
(١٦) سورة القصص: ٢٠

ومعناه هنا: التآمر لفعل الشر، وقد يرد الفعل ائتمر بمعنى التشاور لفعل الخير: ﴿وائتمروا بينكم بمعروفٍ﴾[١٧]

وقد يرد مصدر الفعل أمر (الأمر) بمعنى الموضوع أو القضية:

﴿وقضيَ الأمرُ وإلى اللّه تَرجعُ الأمورُ﴾[١٨]

﴿ليس لك من الأمرِ شيءٌ﴾[١٩]

﴿حتى إذا فشلتُم وتنازعتُم في الأمر﴾[٢٠]

﴿إذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له كنْ فيكون﴾[٢١]

﴿ولكن ليقضيَ اللّهُ أمراً كانَ مفعولاً﴾[٢٢]

ويرد الأمر أحياناً بمعنى الرأي والكلمة:

﴿فَأَجْمِعوا أمرَكُم وشركاءَكُم﴾[٢٣]

وقد يأتي بمعنى الشأن كما في الآية:

﴿ربّنا اغفرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا وَثَبّتْ أقدامَنا﴾[٢٤]

وقد يرد الأمر بمعنى المشيئة: مشيئة الله كما في الآية:

﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتيَ اللّهُ بأمرِه﴾[٢٥]

﴿فتربّصوا حتى يأتي اللهُ بأمرِهِ واللهُ لايهدي القومَ الفاسقين﴾[٢٦]

وكذلك كلمة الأمر في الآية الآتية فهي بمعنى مشيئته التي تنتصر في النهاية ولايثبت سواها.

﴿واللهُ غالِبٌ على أمرِهِ ولكنّ أكثرَ الناسِ لايعلمون﴾[٢٧]

وقد يتضمن الفعل أمر معنى نصح ووجه:

﴿الذين يبخلُون ويأمرونَ الناسَ بالبخلِ﴾[٢٨]

---

(١٧) سورة الطلاق: ٦ | (٢١) سورة آل عمران: ٤٧ | (٢٥) سورة البقرة: ١٠٩

(١٨) سورة البقرة: ٢١٠ | (٢٢) سورة الأنفال: ٤٢ | (٢٦) سورة التوبة: ٢٤

(١٩) سورة آل عمران: ١٢٨ | (٢٣) سورة يونس: ٧١ | (٢٧) سورة يوسف: ٢١

(٢٠) سورة آل عمران: ١٥٢ | (٢٤) سورة آل عمران: ١٤٧ | (٢٨) سورة الحديد: ٢٤

أو ﴿وأمر أهلَك بالصلاةِ واصطبرْ عليها﴾[٢٩]

وقد يرد الفعل أمر بمعناه الحقيقي:

﴿إنّ الله يأمرُكم أنْ تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلِها﴾[٣٠]

﴿قل إنّما أُمِرتُ أنْ أعبدَ اللّهَ مخلِصاً له الدين﴾[٣١]

وقد توحي صيغة المبالغة من الفعل أمر، بمعنى التسلط والتحكم

﴿وما أبرئُ نفسي إنّ النّفسَ لأمارةٌ بالسوء﴾[٣٢]

وهكذا نجد أن الفعل (أمر) في القرآن الكريم غني بما يحمل من معان يتجه بعضها إلى تصوير علاقة الخالق بالمخلوق حين يعبر عن مشيئة الله التي لاتتعارض مع حرية الإنسان، ويتجه بعضها إلى تحديد علاقة المؤمن بالسلطة الدينية والدنيوية وأوامرها ودعوة المؤمن إلى رفضها إذا كانت تخالف مشيئة الله وأوامره، ويتعلق بعضها بنوازع النفس الداخلية عند تعرضها أمام التجارب ومحنة الاختيار للصراع بين مايأمر به الله ومايوسوس به الشيطان، فالأوامر هنا تتضارب داخل النفس لاخارجها، وتتجاذب الإنسان ليتخذ حيالها قراره أخيراً بحريته المطلقة، لكن أوامر الله هي الغالبة في النهاية لأنه تعالى يمسك بخيوط التجربة التي يمر بها الإنسان من طرفيها، وهو مصمّمها ومبدعها، ليمتحن ذلك المخلوق البشري الذي ميزه بحرية الإرادة، وأعطاه العقل ليكون دليله ومرشده إلى الإيمان والعمل الصالح.

---

(٢٩) سورة طه: ١٣٢

(٣٠) سورة النساء: ٥٨

(٣١) سورة الزمر: ١١

(٣٢) سورة يوسف: ٥٣

٤٢ ـ وعد الله بدليل آيات القرآن الكريم

ما من وعد إلا يقتضي وفاءً: تقول: وعد الرجل فوفى بما وعد أو أخلف وعده. والله خير الواعدين لأنه لايخلف وعده ولأن الله لايعد إلا بكل حَسَن وخَيْر ولكن لمن يعطي الله تعالى وعده؟ وبم وعد؟

﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾(١)

﴿وعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ...﴾(٢)

﴿وعَدَ الّله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ ليستخلفنّهم في الأرض ...﴾(٣)

وهكذا نجد أن وعود الله كلها لم تكن هبات سماوية فحسب بل نعماً أرضية وفيرة، والمؤمن أو المسلم يستطيع بنظرة واحدة إلى قومه أن يعلم إن كان الله راضياً عنهم وبسبب رضاه وفى بوعده فاستخلفهم في الأرض، ومنحهم نعمة فوقها وهل القوم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وممن قال فيهم تعالى ﴿ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ أنْ قد وجَدْنا ماوَعَدَنا ربُّنا حقاً فهل وجدُتّم ماوَعَدَ ربُّكم حقاً قالوا نعم...﴾(٤)

وهذه الآية من أحد إعجازات القرآن في التصوير، إذ يصور لنا الله الجنة والنار تصويراً حياً وكأنهما موجودان فعلاً ودخلها الناس بعد الحساب حيث يتبادل فيه أهل الجنة وأهل النار الحديث ويصلون إلى أن وعد الله حق وماثل للعيان، وعلمه من اليقين شأن كل علم يستند إلى الحقائق المشخصة، فماذا وعد الله المنافقين والكفار؟

﴿وعدَ اللهُ المنافقين والمنافقات والكفارَ نارَ جهنّم﴾(٥)

والله تعالى يعد ويفي وعده، لكن الشيطان هو الذي يخلف بوعوده

﴿وقال الشيطانُ لما قُضيَ الأمرُ إنّ اللّهُ وعدَكُم وعدَ الحق ووعدتُكم فأخلفتُكم وماكانَ ليَ عليكم من سلطانٍ إلاّ أنْ دعوتُكم فاستجبتُم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم﴾(٦)

وفي هذه الآية يعتمد تعالى أسلوبه المعجز في تصوير موقف الشيطان من الناس الذي يعترف بنكثه وعوده وتنصله من مسؤولية التغرير بهم، فهم الذين اتبعوه فأضلهم، ويقول

---

(١) سورة المائدة: ٩
(٢) سورة التوبة: ٧٢
(٣) سورة النور: ٥٥
(٤) سورة الأعراف: ٤٤
(٥) سورة التوبة: ٦٨
(٦) سورة ابراهيم: ٢٢

لهم لاتلوموني بل لوموا أنفسكم ويتم كلامه في نهاية الآية: ﴿ماأنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾[٧] بمعنى لست أنا بموقف من يستطيع أن يغيثكم أو ينجدكم يومها ولستم أنتم أيضاً بقادرين على نجدتي، بل يتهم الناس بأنهم هم أشركوه في الإثم والمعصية وقد كفر بكل ذلك الآن بعد أن اصطليا معاً في نار جهنم وأدرك أن وعد الله حق وأن الله وفى بما وعد.

وكان الشيطان في الحياة الدنيا يكفر بالله، ويسعى وراء الشهوات، أما الآن قد انقلبت الآية فقد كفر بكل الشهوات وبكل الأعمال التي كان يقوم بها في الحياة الدنيا لكن متى حصل ذلك؟ بعد فوات الأوان.

﴿وعدكم الله مغانمَ كثيرةً تأخذونَها فعجّلَ لكم هذه﴾[٨]

فالله تعالى يذكّر المؤمنين بأنه وعدهم مغانم كثيرة نالوا بعضها في الحياة الدنيا وأصبحت يقيناً فوفى بوعوده المعجّلة، وكذلك سيفي بوعوده المؤجّلة في الآخرة لأنه لايخلف الميعاد.

ولكن أكثرنا لايصدق وعود الله!

﴿وإذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدَنا اللّه ورسوله إلاّ غرورا﴾[٩] هذا عن وعود الله، فماذا عن وعود العباد لله في الإيمان والهدى؟

﴿فأعقبَهم نفاقاً في قلوبِهم إلى يومِ يلقونَه بما أخلفوا اللّهَ ماوعدُوه﴾[١٠]

يبيّن تعالى هنا أن العباد عندما يخلفون ماوعدوا الله به من الإيمان تزيغ قلوبهم من بعد إيمانهم فيعاقبهم الله جزاء وفاقاً لما فعلوا فيبذر في قلوبهم النفاق ويجعلهم في صنف المنافقين.

﴿وقالوا ياصالح ائتِنا بما تَعِدنا إنْ كنتَ من المرسَلين﴾[١١]

﴿فأخذتْهم الرجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[١٢] وهذا دليل على قلة إيمانهم ولذلك لو آمنوا أن رسولهم كان صادقاً في كل مايقوله لهم وأن عذاب الله قريب منهم ذلك القرب، لما قالوا ذلك ولافكروا فيه، ولكن هكذا تكون عقلية المكذبين وهذا ماوقع للرسول نوح عليه السلام مع قومه:

---

(٧) سورة ابراهيم: ٢٢
(٨) سورة الفتح: ٢٠
(٩) سورة الأحزاب: ١٢
(١٠) سورة التوبة: ٧٧
(١١) سورة الأعراف: ٧٧
(١٢) سورة الأعراف: ٧٨

﴿قالوا يانوحُ قد جادلْتَنا فأكثرتَ جدالَنا فائتِنا بما تَعِدنا إنْ كنتَ من الصادقين﴾(١٣)
فأجابهم نوح قائلاً:

﴿قال إنّما يأتيكم به اللّه إنْ شاءَ وما أنتم بمعجِزينَ﴾ وهو جواب رسول يعرف الله ويعرف نفسه وأين تنتهي قدراته. فما كان مصير قوم نوح؟ أغرقهم الله في الماء بعد أن أنقذ من رحم في الفلك المشحون.

﴿وقُضِيَ الأمر واستوتْ على الجوديّ وقِيلَ بُعْداً للقومِ الظالمين﴾(١٤)

وأعتقد أن الجودي هنا هو اسم المكان الذي وقفت سفينة نوح عنده في نهاية المطاف والله أعلم.

ولنلاحظ المقابلة الإعجازية في القرآن الكريم بين طرفي الخير والشر:

﴿الشيطانُ يَعِدكم الفقرَ ويأمرُكم بالفحشاءِ﴾(١٥)

﴿واللهُ يعدِكم مغفرةً منه وفضلاً واللهُ واسعٌ عليم﴾(١٦)

فالله يعدنا أن يغفر لنا ذنوبنا إن تبنا واستغفرنا وسوف نذوق حلاوة لانعرف وجودها من قبل هي حلاوة الإيمان وفوق ذلك يعدنا منه فضلاً ورزقاً، والله واسع الرحمة والمغفرة.

﴿قلْ أرأيتُم شركاءَكم الذين تدعونَ من دونِ اللّه أروني ماذا خلَقوا من الأرضِ أم لهم شركٌ في السمواتِ أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنةٍ منه بل إنْ يَعِدِ الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً﴾(١٧)

فالله يبرهن لنا أن العباد الذين يتحكمون بالناس ويعدونهم وعوداً كثيرة فيها الغنى والرخاء في المعيشة لن تتحقق وعودهم لأنهم لايملكون القدرة على تحقيقها وإنما يعدون غروراً بأنفسهم لأنهم ظنوا وتوهموا أنهم عظماء قادرون على الوعد:

﴿كأنّهم يوم يرون ما يوعَدون لم يلبثوا إلاّ ساعةً من نهار﴾(١٨)

فالناس في يوم البعث يقومون من الموت وهم يحسبون أن مالبثوه في القبور ساعةً من نهار، وقد تكون مدة رقودهم فيها مئات الآلاف من السنين، لكن توقف الزمن بالنسبة لهم كان لايشعرهم بمروره. وهذه من الحقائق العلمية في يومنا، بعد اكتشاف نسبية الزمن، أو إمكانية توقفه نسبياً. فليس هناك أي معنى للزمن بالنسبة

---

(١٣) سورة هود: ٣٢
(١٤) سورة هود: ٤٤
(١٥) سورة البقرة: ٢٦٨
(١٦) سورة البقرة: ٢٦٨
(١٧) سورة فاطر: ٤٠
(١٨) سورة الأحقاف: ٣٥

للميت أو النائم أو الذي غاب عن الوعي.

﴿يا أيّها الناسُ إنّ وعدَ الله حقّ فلا تَغرّنكم الحياةُ الدنيا﴾(١٩)

وهذا النداء من الله تعالى ليس موجهاً للمؤمنين ولا للمتقين ولا للمسلمين فحسب إنما لكل الناس من مختلف الفئات لكي يفيقوا من غفلتهم، ويعلموا أن وعد الله الذي أخبر عنه في القرآن وعد حق صادق لاشك فيه، وأن الحياة الدنيا التي تشغلهم ليس فيها إلا متاع الغرور، فلا يتاجروا بما يعود عليهم بالخسارة فيصبحوا على مافعلوا نادمين.

﴿وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ﴾(٢٠)

فوعد الله كان للبشر جميعاً عبر رسالاته السماوية ونوره لايراه إلا من طبق مشيئة الله في الهدى.

﴿يهدي اللّهُ لنورِهِ منْ يشاء﴾(٢١)

صدق الله العظيم.

---

(١٩) سورة فاطر: ٥ (٢٠) سورة التوبة: ١١١ (٢١) سورة النور: ٣٥

٤٣ ـ مامعنى «فرض الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿قد فرضَ اللّهُ لكم تَحِلّةَ أَيمانكم واللهُ مولاكم﴾[١]

ومعنى (فرض) في الآية: بَيّنَ، أي بَيَّنَ لكم تَحِلَّةَ أيمانكم، وأسباب النزول التي وردت عنها متضاربة وغير واضحة والأرجح أنها من فئة الآية الكريمة التالية:

﴿لايؤاخذكُم اللهُ باللّغو في أيمانِكُم﴾[٢]

﴿ولكن يؤاخذكُم بما عَقَّدْتُم الأيمانَ﴾[٣]

أي بما أقسمتم عليه هو لون من العقد والعهد واليمين كما بين الله تعالى ولم يكن العقد قديماً يوثق بالكتابة: وإنما بأساليب منها عقد طرف منديل أو ماأشبه، ولاتحل العقدة إلا بعد تنفيذ العقد أو الكفارة أي الوفاء بالوعد، ولذلك قال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم﴾ أي قد بين الله لكم ﴿تحلّة أيمانكم﴾ اي كيف تحلون عقدة إيمانكم والله مولاكم. وقد بين الله ذلك في آية أخرى من القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَكفّارتُه إطعامُ عشرةِ مساكين من أوسطِ ماتُطعِمون أهليكُم أو كِسوتُهُم أو تحريرُ رقبةٍ فمن لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيام ذلك كفارةُ أيمانِكم إذا حلفتُم واحفظوا أيمانَكم وكذلك يبيّن اللهُ لكم آياتِه لعلّكم تشكُرون﴾[٤]

فالكفارة في الآيتين هي مايقدمه مَنْ أقسم على الوفاء بعقده من فروض (شروط) نص عليها القسم.

﴿ماكانَ على النّبيّ من حَرَجٍ فيما فرضَ اللّهُ له﴾[٥]

والفرض هنا زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بعد أن طلقها متبناه زيد، فالله تعالى يقول له: لاحرج على النبي صلى الله عليه وسلم في أن يتزوج من امرأة متبناه، فالإسلام لايعد الولد المتبنى إبناً للمتبني بل هو غريب عن الأسرة كأي فرد آخر.

والفعل (فرض) بمعنى (ألزم) في الآية الآتية: ﴿إنّ الذي فرضَ عليك القرآن لَرادُّكَ إلى معاد﴾[٦]

---

(١) سورة التحريم: ٢
(٢) سورة المائدة: ٨٩
(٣) سورة المائدة: ٨٩
(٤) سورة المائدة: ٨٩
(٥) سورة الأحزاب: ٣٨
(٦) سورة القصص: ٨٥

وفي الآية تذكير مباشر من الله تعالى الذي يخاطب الرسول فيقول له (إن الذي ألزمك بالقرآن قادر على أن يردك إلى معاد، أي إلى يوم البعث، لأن الآيات التي تأتي بعد هذه الآية توضحان ماذهبنا إليه ﴿وماكنتَ ترجو أنْ يلقى إليك الكتاب إلاّ رحمةً من ربّك فلا تكونَنَّ ظهيراً للكافرين﴾[٧] وفي هذه الآية تذكير وتهديد واضحان.

﴿ولايصدنّكَ عن آياتِ الله بعد إذْ أُنزلتْ إليكَ وادعُ إلى رّبكِ ولاتكونَنّ من المشركين﴾[٨] وهذه الآية فيها تذكير ونهي مباشر للرسول ألا يكون من المشركين ﴿ولاتدعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لاإله إلاّ هو كلّ شيءٍ هالك إلاّ وجهه لهُ الحكمُ وإليه ترجعونَ﴾[٩]

فمن معاني الآيات الأربع السابقة والأسلوب الإلهي المستخدم فيها يتبين أن الله تعالى يكلم الرسول مرة أخرى عن قصة الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترجى ويوضح له كيف ألقاها الشيطان إلى لسانه فأدخلها الرسول خطأ في القرآن، إلى أن أتى جبريل ونبهه على الموضوع، فنسخ تلك الكلمات وأتى بدلاً عنها بخير منها: ﴿أفرأيتُم اللاتَ والعزّى * ومناةَ الثالثة الأخرى * ألَكُمُ الذّكَرُ وله الأنثى﴾[١٠] وبين الله تعالى أسباب ذلك في الآية:

﴿وما أرسلْنا من قبلِك من رسولٍ ولانبيّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّتِهِ فينسخُ اللهُ مايلقي الشيطانُ ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِهِ واللّه عليمٌ حكيم﴾[١١]

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة﴾[١٢]

فقوله تعالى: ﴿فرضتم لهن فريضة﴾ بمعنى: عينتم لهن مبلغاً من المال صار لزاماً عليكم دفعه، فالمبلغ المفروض يعني المبلغ المحدد، والفريضة واجبة التنفيذ، لامجال للتملص منها، فهي من حق المرأة، وقوله: ﴿من قبل أن تمسوهن) أي قبل حصول أي شكل من أشكال التواصل الجسدي بين الرجل وزوجته، وأؤكد على هذه النقطة لأن من الرجال من يدخل على زوجه فلا يقدر على امتلاكها، وهؤلاء لاتنطبق عليهم الآية بدليل أن اللمس قد حصل، فلهن الفريضة كاملة، أما إذا لم يقع لمس أو دخول فلهن نصف الفريضة وهذا ماتبيّنه باقي الآية ﴿فنصف مافرضتم إلا أن يعفون﴾

أي أن للمرأة الحق في أن تأخذ نصف الفريضة إلا أن يتنازل أحدهما عن ذلك بمعنى أن

---

(٧) سورة القصص: ٨٦ — (٩) سورة القصص: ٨٨ — (١١) سورة الحج: ٥٢
(٨) سورة القصص: ٨٧ — (١٠) سورة النجم: ١٩ - ٢١ — (١٢) سورة البقرة: ٢٣٧

يتنازل الزوج عن النصف الذي صار من حقه فيعطيها الفريضة كاملة، أو أن تتنازل الزوجة عن حقها في الفريضة كلها، وإلا لقال الله تعالى ﴿إلا أن تعفو﴾. وهو يقصد الزوجة ولكنه قال تعالى إلا أن يعفون بالجمع المذكر وهو أسلوب متبع في القرآن فحين يعبر عن الجمع الذي يشير إلى الرجال والنساء يستخدم جمع المذكر. مثل ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ فهو نداء للرجال والنساء ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿وأطيعوا الله ورسوله إنْ كنتم مؤمنين﴾(١٣)

﴿يوصيكُم اللّهُ في أولادكم للذَّكَرِ مثلُ حظٍّ الأنثيَيْنِ فإنْ كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثُلثا ماتَرَكَ وإنْ كانت واحدة فلها النصفُ ولأبويه لكلّ واحد منهما السّدسُ ممّا تَرَكَ إنْ كان له ولد فإنْ لم يكنْ له ولدٌ وورثهُ أبواه فلأمِهِ الثّلثُ فإنْ كان له إخوةٌ فلأمّه السُّدسُ من بعدِ وصيّةٍ يوصي بها أو دينٍ آباؤكم وأبناؤكم لاتدرونَ أيُّهم أقربُ لكم نفعاً فريضةً منَ اللّهِ إنّ اللّهَ كانَ عليماً حكَيماً﴾(١٤)

وهذه الآية الكريمة تقرب إلى إفهامنا معنى (فريضة من الله) إذا استبعدنا الجملة الاعتراضية ﴿آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ لنربط بين صدر الآية وختامها توضيحاً لمعنى الفريضة التي نصت عليها.

وهي تعين الحصص من قبل الله بشكل ملزم للدفع فكل حصة ذكرت لها صفة الحق الشرعي الملزم لكل طرف إلزاماً له صفة القانون الشرعي وكذلك في الآية:

﴿فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهنّ فريضةً﴾(١٥)

وأؤكد ما أشرت إليه سابقاً وهو دقة القرآن الكريم في استخدام الكلمة بحسب سياقها في الجملة.

فالله تعالى لم يقل: فآتوهن حقوقهن فريضة.

وإنما قال: فأتوهن أجورهن فريضة. والفرق واضح في معنى كل من الفعلين، فالانسان عندما يشتري شيئاً يدفع ثمنه وبذلك المبلغ تنتقل ملكية الشيء المشترى للشخص الذي دفع ثمنه.

ولما كان المبلغ الذي يدفعه الزوج ليس ثمناً للمرأة كما يظن الكثيرون جهلاً. وإنما هو مقابل قبولها أن تكون زوجة للرجل وله أي للزوج حق الاستمتاع مقابل مادفع لها من

(١٣) سورة الأنفال: ١ (١٤) سورة النساء: ١١ (١٥) سورة النساء: ٢٤

مهر، وعقد عليها من زواج، فإن حصل الطلاق يظن بعض الجهلة أن من حقه استرجاع مادفع، ولايعلم أن مادفع أصبح حقاً للمرأة ولذلك قال الله تعالى في الآية:
﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾
فكما أن المستأجر ليس له من حق في المأجور إلا حق التمتع والانتفاع به ثم يعود إلى المالك بعد نهاية العقد ودفع الأجرة كذلك المرأة، فمهرها ومؤخرها صارا من حقها فريضة ملزمة للدفع لايمكن المماطلة فيها أو المراجعة.
﴿وفي سبيلِ اللهِ وابنِ السبيلِ فريضة من اللهِ واللهُ عليمٌ حكيم﴾(١٦)
وهذه الآية في الصدقات وطريقة توزيعها بعد أن يحددها الله فهي كما يقول تعالى ﴿فريضة من الله﴾ أي أنها فرضت وعينت منه تعالى، واكتسبت حق الإلزام بالدفع.
﴿مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾(١٧)
في هذه الآية يتكلم الله تعالى عن موضوع الإرث بشكل عام فموضوع الآية حق الذكور والإناث في الميراث وهذا الحق، سواء قل أم كثر، مفروض ومعيّن وملزم للدفع والتنفيذ بقرار من الله تعالى.
﴿وقالَ لأتّخِذَنّ من عبادِكَ نصيباً مفروضاً﴾(١٨)
فلإبليس أيضاً نصيب مفروض من الله في احتياز حصة من البشر وهو يقل أو يكثر بحسب غواية الشيطان، وأعتقد أن نصيبه من البشر كثير في يومنا هذا. وهكذا تبين لنا من خلال آيات القرآن الكريم أن الله تعالى لم يستخدم كلمة فرض بمعنى الإلزام، وإنما ترك للإنسان حرية التزام مافرض الله أي أوصى به، ولم يجبره على ذلك، أما الفروض التي تشير إليها الأحاديث بمعنى الأمور المقدرة المفروضة من الله على الإنسان فرضاً فلا وجود لها، وإنما هي من سوء فهمنا كتاب الله، ذلك الفهم المغلوط الذي ترسخ في كهوف غفوتنا الطويلة.

---

(١٦) سورة التوبة: ٦٠ (١٧) سورة النساء: ٧ (١٨) سورة النساء: ١١٨

٤٤ ـ مامعنى «قضاء الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

تأخذ كلمة «قضى» بحسب ورودها في آيات القرآن الكريم معاني مختلفة منها: أتمّ ﴿فقضاهنّ سبع سمواتٍ في يومَيْن﴾(١)

أي: فأتمهن سبع سموات في يومين، وقد وردت في هذا المعنى في الآية ﴿ولكن ليقضي اللهُ أمراً كانَ مفعولاً﴾(٢)، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿ثم يَبعثكم فيه ليُقضى أجلٌ مسمّى﴾(٣)

أي ليتم أجل مسمى، وقد يرد الفعل قضى بمعنى شاء، ﴿وإذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له كنْ فيكون﴾(٤)

فقضى هنا بمعنى شاء، من المشيئة الإلهية أو الإرادة الإلهية: فالله يشاء فعل الأمر (كن) للشيء فيكون، لكن (كن) أي أمر الله بالتكوين والإيجاد وليس كما يتصور خيالنا البشري وإنما يجب أن نتصوره بحسب منطق الله وأسلوبه في الخلق ونحن لانملك حق التساؤل عن مشيئة الله، لماذا فعل الله كذا؟ ولم يفعل كذا؟ لأن علمنا لايكون إلا بمشيئة الله ومالم يشأ الله أنْ نَعلَمَهُ فإنه لايزال في الغيب بالنسبة لنا. فلنُفَكر إذاً في معنى الفعل (قضى) في الآية الآتية: ﴿وقضى ربُّك ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾(٥)

ولو فهمنا معنى الفعل قضى هنا في هذه الآية بمعنى أمر وشاء لما كان بيننا ولابين من سبقنا أي ملحد يعبد غير الله، لأن الإنسان في فهمنا هذا سحبت منه الإرادة وحرية الاختيار وأصبح مسيراً بمشيئة الخالق لابمشيئته، وفي ضوء هذا الفهم تفقد الآيات الآتية مدلولاتها: ﴿لاإكراهَ في الدين﴾(٦)

﴿وقل الحقّ من ربّكم فمنْ شاء فليؤمنْ ومن شاءَ فليكفُر﴾(٧) ويظهر الله عز وجل كأنه يناقض نفسه، والصواب أن معنى الفعل (قضى) في قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ أمر وحكم، لكن أمره وحكمه في الانصراف عن أي عبادة غير عبادة الخالق مقترن بمشيئة الإنسان. فالله تعالى قرر وحكم ألا يتقبل من عباده أي عبادة لغير الله،

---

(١) سورة فصلت: ١٢
(٢) سورة الأنفال: ٤٢
(٣) سورة الأنعام: ٦٠
(٤) سورة البقرة: ١١٧
(٥) سورة الإسراء: ٢٣
(٦) سورة البقرة: ٢٥٦
(٧) سورة الكهف: ٢٩

لكنه ترك لنا حرية الاختيار، وأكد أنه لن يتقبل من الإنسان أي عبادة غير عبادته، ولاسيما إن وقع ذلك بعد إيمان الإنسان بالله الواحد الأحد يقول تعالى:

﴿وماكان لمؤمنٍ ولامؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكونَ لهم الخيرةُ من أمرِهم﴾[٨]

فالمؤمن والمؤمنة اختارا منهج الله بإرادتهما، فليس لهما بعد أن يختارا خياراً آخر، أو الاعتراض على ما آمنا به كالاعتراض مثلاً على ما أمر به الله ورسوله من الخروج للقتال حسب أوامر الله الصريحة في آيات القتال، فليس للمؤمنين بعد ذلك إلا تنفيذ الأمر والخروج للقتال بحكم أنهم آمنوا، فإذا تقاعسوا عنه ولم يخرجوا إليه زالت عنهم صفة المؤمن، فاصبحوا من المنافقين أو من الذين كفروا وتركوا إسلامهم. وقد يرد الفعل (قضى) في القرآن الكريم بمعنى: (نال)

﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجْناكَها لكي لايكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائِهم إذا قضَوْا منهنّ وَطَراً﴾[٩]

﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾[١٠]

فالفعل قضى في الآيات الثلاث الماضية يعني «نال»

وبهذا التمييز بين معاني الفعل «قضى» في السياق يسهل علينا فهم الآيات التي وردت فيها. ﴿وقضيَ الأمر وإلى اللهِ ترجعُ الأمور﴾[١١] فالفعل قضي هنا بمعنى: تم وانتهى وفي الآية ﴿وقضيَ بينهم بالقسط وهم لايظلمون﴾[١٢]

يأخذ الفعل: قضي معنى: حُكِمَ.

وقد بحثت في آيات القرآن كلها التي ورد فيها الفعل (قضى) أو مرادفاته فلم أجد أن الفعل (قضى) ورد بمعنى ألزم وقدّر، وهو ما اتجهت إليه الأحاديث النبوية التي تُحَمِّلُ هذا الفعل معنى القضاء والقدر أي الجبر لا الاختيار، وفي ضوء ذلك لاوجود لما سمي بقضاء الله وقدره في القرآن إلا إذا أخرجنا الفعل قضى من معانيه التي أشرنا إليها، وحملناه معنى القدر الإلهي الملزم والمسير للإنسان ونكون بذلك قد ظلمنا أنفسنا، ودفعنا بكلام الله إلى التناقض والاضطراب، وهذا مايرفضه كل مسلم، ومايجب تصحيحه للناس، بعد أن استحدث من يجهل مقاصد الله تلك المعاني من خلال الأحاديث المحرفة أو المبتدعة سواء كان عن جهل أو عن قصد ومصلحة دنيوية.

---

(٨) سورة الأحزاب: ٣٦ (١٠) سورة يوسف: ٦٨ (١٢) سورة يونس: ٥٤
(٩) سورة الأحزاب: ٣٧ (١١) سورة البقرة: ٢١٠

٤٥ ـ مامعنى الفعل (قَدَّرَ) بدليل آيات القرآن الكريم؟

لنبحث الآن في الآيات الكريمة التي ورد فيها الفعل قَدَّرَ أو كلمة (القَدَرْ) فهي مرجعنا في معرفة مقاصد الله عز وجل، يقول تعالى:

﴿وذا النون إذا ذهبَ مغاضِباً فظنَّ أنْ لنْ نقدِرَ عليه﴾[١]

﴿وضربَ اللهُ مثلاً رجلَيْن أحدُهما أبكمُ لايقدرُ على شيءٍ﴾[٢]

﴿أيحسبُ أنْ لنْ يقدِرَ عليه أحدٌ﴾[٣]

ففي الآيات السابقة يأخذ الفعل قَدَرَ معنى استطاع وتمكّن أما في قوله تعالى:

﴿إنّ ربّك يبسطُ الرزقَ لمنْ يشاءُ ويَقْدِرُ﴾[٤]

﴿ومن قُدِرَ عليه رزقُه فلينفِقْ ممّا آتاه اللهُ﴾[٥]

فإن الفعل (قَدَرَ) فيهما يقابل معنى (ضاق) فهو يحمل معنى قَتَرَ أو قُتِّرَ الرزق، ويرد الفعل (قَدَّرَ) بمعنى حَسَبَ وأحصى كما في قوله تعالى:

﴿وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيام﴾[٦]

قدّر هنا بتشديد الدال، ومنه قَدَّرَ تقديراً، والتقدير من الحساب والتقويم حجماً أو عدداً أو إحصاءً..

وذلك معناه أيضاً في الآيات الآتية:

﴿إنّه فكّرَ وقَدَّرَ﴾[٧]

﴿والذي قَدَّرَ فهدى﴾[٨]

﴿والقمرَ قَدَّرْناه منازلَ﴾[٩]

﴿هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقَدَّرَه منازلَ﴾[١٠]

﴿ولم يكنْ له شريكٌ في الملكِ وخلقَ كلَّ شيء فَقَدَّرَهُ تقديراً﴾[١١]

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٧
(٢) سورة النحل: ٧٦
(٣) سورة البلد: ٥
(٤) سورة الإسراء: ٣٠
(٥) سورة الطلاق: ٧
(٦) سورة فصلت: ١٠
(٧) سورة المدثر: ١٨
(٨) سورة الأعلى: ٣
(٩) سورة يس: ٣٩
(١٠) سورة يونس: ٥
(١١) سورة الفرقان: ٢

ومن معاني الفعل (قَدَّرَ) أيضاً: سنَّ وشرّع:

﴿نحن قَدَّرْنا بينَكم الموتَ﴾[١٢]

فالله تعالى هو الذي سن الموت وشرعه قانوناً وسنَّةً تجري على الأحياء كلها، فما معنى الموت؟ وما الهدف منه في عرف الله؟ يقول تعالى ﴿الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوَكم أيّكم أحسنُ عملاً﴾[١٣]

الموت كالحياة وهو مثلها حالة مخلوقة من الله، وكل مخلوق له موضوع وهدف كما أشرنا من قبل، والموت حالة سابقة للحياة، يقول تعالى: ﴿الذي خلقَ الموتَ والحياة﴾ فقد قدّم الموت على الحياة لسبقه إياها في الخلق، ومن قوانين الله في الموت والحياة أن كل حالة تنتقل من الموت إلى الحياة لابد أن تعود لوضعها الذي كانت عليه. وهو الموت أو الفناء: يقول تعالى:

﴿كيف تكفرونَ باللّه وكنتم أمواتاً فأحياكُم ثم يُميتُكم ثم يُحييكُم﴾[١٤] فالكائنات قبل الحياة كانت في حالة الموت أو العدم والله أحياها أو يحييها ثم يردها إلى العدم ثم يحييها. ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت﴾[١٥]

﴿أينما تكونوا يُدركْكُم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مُشيَّدَةٍ﴾[١٦]

﴿قل لن ينفَعكُم الفرارُ إنْ فَررْتُم من الموتِ أو القتلِ﴾[١٧]

﴿قل إنّ الموتَ الذي تفرّون منه فإنّه مُلاقيكُم﴾[١٨]

﴿إنّك ميّتٌ وإنهم ميّتون﴾[١٩]

فالآيات السابقة تشير بوضوح إلى أن الموت سنة من سنن الله في الوجود، فكل حي لابد له من أن يتجرع الموت.

﴿وإنْ منكم إلاّ واردُها كانَ على ربِّك حَتْماً مقضيّاً﴾[٢٠]

وقد وردت الآية الأخيرة في سورة مريم بالذات ليدلنا الله ويدل أهل الكتاب الذين يقولون إن عيسى بن مريم مات وقبر ثم رفعه الله حياً إلى السماء. ولو لم أقرأ كتب النصارى التي تؤكد ذلك لظننت أن المسلمين هم الذين تخيلوا ذلك. والغريب بعد ذلك

---

(١٢) سورة الواقعة: ٦٠
(١٣) سورة الملك: ٢
(١٤) سورة البقرة: ٢٨
(١٥) سورة آل عمران: ١٨٥
(١٦) سورة النساء: ٧٨
(١٧) سورة الأحزاب: ١٦
(١٨) سورة الجمعة: ٨
(١٩) سورة الزمر: ٣٠
(٢٠) سورة مريم: ٧١

أن نجد رجال الدين الاسلامي يتناقلون أحاديث منسوبة للرسول مع سند كامل للحديث تؤكد أن الله رفع عيسى إلى السماء ولم يمت. مناقضين بذلك كل تلك الآيات السابقة ومناقضين آية صريحة أخرى أيضاً من الله تخبرهم الحقيقة الكاملة عن الموضوع. على لسان عيسى بن مريم ﴿ماقلت لهم إلاّ ماأمرتني به، أنِ اعبدوا اللّهَ ربيّ وربّكم وكنت عليهم شهيداً مادمتُ فيهم فلما توفّيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنتَ على كلِ شيءٍ شهيد﴾(٢١) وكلمة توفيتني ليس لها معنى رفعتني حياً إلى السماء في العربية.

بعد هذا الاستطراد الذي لابُد منه حول الموت نعود إلى الآية السابقة: ﴿نحنُ قدَّرْنا بينكم الموت﴾(٢٢)

فبعد أن فهمنا موضوع الموت وهدفه وعرفنا أنه من خلق الله وأن هدفه إعادة كل الأحياء بعد الأجل المسمى من الله تعالى إلى حالتهم الأولى وهي الموت ثم الحياة ثانية في الآخرة، نشير هنا إلى سلطان الموت المطلق فقد شاء الله أن يهبه قوةً وسيادة ﴿قدرنا الموت بينكم﴾ والموت بما أصبح له من قوة ذاتية صادرة عن مشيئة إلهية أصبح كل مافي الكون يخضع له.

فما من حي يثبت أمام الموت إلا الله تعالى وحده، وكل ماعداه من الأحياء خاضع له شاء ذلك أم أبى.

أما ماورد في بعض الأحاديث النبوية، وهي عديدة، من أن الله قَدَّرَ لنا أعمارنا أو أعمالنا أو أرزاقنا، أو قَدَّرَ علينا أن نكون من أهل الجنة أو من أهل النار منذ الأزل، أو من لحظة ولادتنا، فليس لذلك كله وجود في القرآن، وأنا لا أستشهد هنا إلا بآيات القرآن وحدها ﴿قلْ كفى باللّه شهيداً بيني وبينكم إنّه كانَ بعبادِهِ خبيراً بصيراً﴾(٢٣)

تلك الأحاديث تناقض ماورد في القرآن من صريح الآيات الواضحة التي لاتحتاج إلى من يفسرها، والله تعالى لايمكن أن يرسل رسالة للناس كافة إلا لتكون مفهومةً واضحة للناس، وهو لايرسل إليهم ألغازاً أو طلاسم، ولم يقل لنا في أي آية منها إن آياته تحتاج إلى من يفسرها وإنما أكد لنا أن مالم نفهمه، وخاصة من الآيات التي لاتعد من الأحكام يجب ألا نؤوله إذ سوف يأتي تأويلها في الوقت المناسب.

﴿ولتعلمنَّ نبأَهُ بعدَ حين﴾(٢٤)

---

(٢١) سورة المائدة: ١١٧
(٢٢) سورة الواقعة: ٦٠
(٢٣) سورة الإسراء: ٩٦
(٢٤) سورة ص: ٨٨

لذلك قلت سابقاً إن من يدعي أنه فهم القرآن كله كمن يقول: شربت البحر كله، ولايمكن لإنسان فرد أن يفهم من القرآن إلا في ضوء عصره ومعلومات عصره، أما مالايفهم منه فله زمن آت وعصر آخر - فلا نتعجل أو نلحّ في طلب الفهم الكامل لأن مقاصد الله فيه أبعد من مداركنا. ولكن هذا لا ينطبق على القسم الثاني من الكتاب الذي فيه الشرع والأحكام فهي مفهومة كلها.

وإذا قال الإنسان إن الله تعالى يعلم النسبة المئوية من الناس المؤمنين الذين سوف يدخلون الجنة، ويعلم أيضاً النسبة المئوية من الذين سيدخلون النار من الكفار والمشركين، وإن الله أخبرنا بذلك نقول له: نعم إنك تقول الحقيقة، وهذا مفهوم من آيات القرآن وهذا من علم الغيب الخاص بالله وحده لاشريك له. أما أن يأتينا من يدعي أن الله سبحانه كتب منذ الأزل وقدر سلفاً لزيد من الناس بأنه سيولد لأبوين هما فلان وفلانة، وأنه لن ينهي إلا دراسته الابتدائية وأنه سوف يعمل نجاراً، وسوف يتزوج بزينب ابنة الحلاق، وسوف يرزق بثلاثة أبناء من الذكور وأربع من الإناث، وسوف يُدعون كذا وكذا وأن امرأته سوف تكون من أهل النار، أما هو فسوف يكون من أهل الجنة، ففي ذلك ضرب من التفكير الساذج والوهم الذي يدل على جهل مطبق، ولو صح ذلك فما تقول في الآيات الكريمة الواضحة الناصعة التي تعارض هذا الزعم مثل قوله تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ من ربِّكم فمنْ شاءَ فليؤمِنْ ومنْ شاءَ فليَكفُر﴾[٢٥]
﴿لاإكراهَ في الدين قد تبيَّنَ الرشْدُ من الغَيّ﴾[٢٦]

إن مثل هذه الآيات الصريحة في القرآن تصبح حينئذ بلا معنى، والله تعالى لايقول كلاماً لامعنى له، ولو صحّ ذلك لما خلقنا الله، وهيأ لنا كل مارأينا، وسخر لنا ايضاً كل ماعلمنا، وأرسل لنا الأنبياء والرسل ليهدينا إلى صراط مستقيم، ولما تعب آباؤنا ممّن اهتدى منهم وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، كل ذلك لايمكن أن يكون خالياً من المعنى والهدف، لأن بعض الناس من الذين عاشوا في عصور الجهل والظلام استسلموا للوهم والظنون والباطل فخرجوا إلينا بما كتبوه في الظلام من خيالات وأوهام.

أما نحن حفدتهم من أبناء القرن العشرين فندرك معنى ماورثناه منهم من تراث فنعلم أن بعض ماتحدر إلينا من الآباء فيه كثير من الوهم والغلط لأننا نعيش في عصر النور والعلم

(٢٥) سورة الكهف: ٢٩ (٢٦) سورة البقرة: ٢٥٦

ولاعذر لنا أن نهرب للكهوف لنتخيل أن الشمس غير موجودة، لن ينفعنا ذلك الهرب وقد آن لنا أن نعرف أن العلم والنور والحقيقة والرسالة وكل مايريده الله والرسول موجود في القرآن، ومن اهتدى به وصل، ومن اهتدى بغيره ضل وضاع عليه السبيل، وصارت له سبل هي التي نحن عليها اليوم.

﴿فمن تبعَ هدايَ فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزَنون﴾[٢٧]

﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كلّه﴾[٢٨]

﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى وأُمِرنا لنُسْلِمَ لربِّ العالمين﴾[٢٩]

﴿ذلك هدى الله يهدي بهِ منْ يشاء﴾[٣٠]

﴿ومن الناسِ مَنْ يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ولاهدىً ولاكتابٍ منير﴾[٣١]

والآيات الكريمة التي توضح ذلك في القرآن أكثر من أن تحصى لكنها تنتظر عقولاً تحسن التلقي، وبغير هذه العقول تبقى الآيات كلمات خرساء لاتفصح، من غير التلقي والفهم والعمل وفق تلك الآيات لن يكون للقرآن ماكان له من قوة وفعل أيام الرسول والصحابة والمجاهدين من الذين جاهدوا في سبيل الله ونشر دينه في العالم - ونحن نريده مرجعاً ومنهجاً في الهداية، فلانقع في أخطاء الأمم التي سبقتنا أو أخطاء آبائنا حين تحولوا عن القرآن إلى أحاديث موضوعة تنافي ماجاء في كتاب الله ﴿وَيْلَكُم لاتفتروا على اللهِ كذباً فيسحقكُم بعذابٍ وقد خابَ منْ افترى﴾[٣٢]

ونتابع حديثنا عن القضاء والقدر فنقول: إن الله لم يخلقنا هكذا عبثاً، وهو يعرف سلفاً كل شيء عنا، بل أعطانا الحرية والإرادة والعقل وجعل لنا الأرض مهاداً لكي يختبرنا ويعرف من منا سيختار الله والإيمان بحرية ومن سيختار الشيطان، وكيف سيكون تصرفنا بعد أن أعطى لنا هذه الحرية.

﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سدى﴾[٣٣]

﴿وماخلقْنا السمواتِ والأرضَ ومابينهما لاعبينَ﴾[٣٤]

﴿أم حسبتُم أنْ تدخلُوا الجنةَ ولما يعلم اللهُ الذين جاهَدوا منكم ويعلمُ الصابرين﴾[٣٥]

﴿ياأيّها الذين آمنوا ليبلوكم اللهُ بشيءٍ من الصيدِ تنالُه أيديكُم ورماحُكم ليعلمَ اللهُ منْ

---

(٢٧) سورة البقرة: ٣٨
(٢٨) سورة الصف: ٩
(٢٩) سورة الأنعام: ٧١
(٣٠) سورة الزمر: ٢٣
(٣١) سورة لقمان: ٢٠
(٣٢) سورة طه: ٦١
(٣٣) سورة القيام: ٣٦
(٣٤) سورة الدخان: ٣٨
(٣٥) سورة آل عمران: ١٤٢

يخافُه بالغيبِ فمنْ اعتدى بعدَ ذلك فله عذابٌ أليم﴾(٣٦)

أعتقد أن الله لايقول لنا إلا الحقيقة في هذه الآيات الكريمة، فهو يريد أن يعلم بالتحديد وبالأسماء من منا الذي سوف يجاهد في سبيل الله حق جهاده ومن منا يستطيع الصبر على ذلك، ومن منا الذي سوف تضعف نفسه ويخذله الشيطان فيصبح من المنافقين. ومن منا سوف يخشى الله وعقابه بالغيب فينفذ ما أمر ويحرّم ماحرّمَ الله بمحض إرادته الخاصة، والله ترك الحرية للناس، ولو عصوه وخالفوا مشيئته لن يفلتوا من عقاب الله في الآخرة:

﴿ولقد خلقْنا الإنسانَ ونعلمُ ماتوسوسُ به نفسُه﴾(٣٧) طبعاً الله تعالى أعلن لكل الناس أنه يعلم: ﴿والله يعلَمُ ماتُسرّونَ وماتُعلِنون﴾(٣٨) ولكن ذلك العلم ينتهي في اللحظة التي نقول عنها (الآن).

إذاً فهو يعلم ماتوسوس به نفس الإنسان هو إغراء الإنسان بالمعصية، لكنه لم يقل أبداً ولافي أي مكان إنه يعلم ماسوف توسوس به نفس أي إنسان له في المستقبل. لاضعفاً من الله تعالى بل تنفيذاً لإرادته ومشيئته، أما مايقوله بعضهم عن معرفة الله بما سيفعله الإنسان في كل حياته مستندين إلى الأحاديث المنسوبة عن الرسول ظلماً، ومناقضة لما ورد في القرآن من الآيات الصريحة، فذلك من قبيل خلط علم الله بالكليات بالجزئيات الخاصة بزيد وعمرو وزينب وفاطمة التي سوف تحصل في المستقبل، وهذا افتراء على الله والرسول معاً. وقد يستندون إلى آية قرآنية يؤولونها حسب مزاجهم مثل:

﴿وإذ أخذَ ربّكَ من بني آدم من ظهورِهِم ذرّيتهم وأشهدَهم على أنفسِهِم ألستُ بربّكم قالوا بلى شهدْنا أن تقولوا يومَ القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾(٣٩)

فهذه الآية بالعكس تماماً تشرح لنا أن الله سبحانه قد خلق الإنسان وفيه بذرة وفطرة الإيمان بالله. إلا إذا أتى الإنسان بعد ذلك بالتربية والتعليم فطغى على تلك البذرة وقتلها بأفكار أخرى مخالفة، فجعل ابنه مشركاً إنْ كان الآباء مشركين أو جعله كافراً إنْ كان الآباء من الكافرين. واليوم اكتشف العلماء من دراستهم للقبائل البدائية التي تعيش في أستراليا ولازالت على الفطرة أنهم يتوجهون في عبادتهم

(٣٦) سورة المائدة: ٩٤
(٣٧) سورة ق: ١٦
(٣٨) سورة النحل: ١٩
(٣٩) سورة الأعراف: ٧٢

مباشرة إلى إله في السماء يطلبون منه مايحتاجونه من مساعدة ولايدعون إله الشمس أو القمر أو الشجر وهذا دليل أن ماورد في الآية صحيح، بدليل أن الفطرة الإنسانية لازالت فيهم سليمة كما خلقها الله من دون تدخل من أحد ومن دون تشويه.

وكل من لاحظ قطة أثناء ولادتها سوف يلاحظ أن القطط الصغيرة تولد عمياء مطبقة العينين إلا أن الله ركب في فطرتها بصيرة تهتدي به إلى ثدي الأم دون أدنى تعب، هكذا فالذي زرع في القطط البصيرة تلك قادر على زرع فطرة الإيمان في الإنسان؟ لكن الإنسان بعد ولادته يتعهده أبواه بالتعليم والتربية، فيعلمان الطفل دينهما، فيتعزز ماكان عليه الطفل من فطرة بالتعلم وهناك حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم إن صح فهو يؤكد ماذهبنا إليه (مامن مولود إلا ويولد على الفطرة ثم يأتي أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه) وأعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقصد أن يقول إن الإنسان يولد على فطرة التوحيد وهو يشرح معنى الآية الكريمة التي نحن بصددها الآن.

وفي كتاب علم الحديث للامام ابن تيمية قرأت عبارة جميلة أحب أن أنقلها من مناظرة بين رجلين من رجال الدين، يسأل أحد المتناظرين الآخر سؤالاً يعتقد أنه سيفحم به من يناظره فيقول:

نشدتك الله! أترى الله يحب أن يُعصى؟ (يقصد كيف يعطي الله مشيئة الكفر والإيمان للإنسان) فيجيبه الآخر

نشدتك الله! أتُرى يُعصى قسراً؟

يعني في جوابه أيُعْصى الله قهراً وضعفاً منه، وقلة حيلة له أم تراه يُعصى لأن مشيئته كانت في منح حرية الاختيار للإنسان لإختباره.

رحم الله ابن تيمية فإن من يفهم أمثلته يفهم القضاء والقدر.

لأن هذا الجواب يفترض ثلاثة أمور هي:

أولاً: أن الله قادر على كل شيء لاشك في ذلك مطلقاً.

ثانياً: أن الله يفعل مايشاء ولاشك في ذلك أيضاً.

ثالثاً: أن الله فعال لما يريد وليس لمؤمن أن يشك في ذلك أيضاً. والله تعالى يقول:

﴿وماخلقْنا السماءَ والأرضَ ومابينَهما لاعبين﴾(٤٠)

فالله سبحانه وتعالى اختار من هذا الكون العظيم الكبير من المجموعة الشمسية الكرة الأرضية ببعد ملائم عن الشمس مستخدماً تقديراً وحسابات فوق مستوى التصور البشري بملايين المرات، تقديرات في مستوى الخالق الواحد الأحد، المفكر المدبر الفعال لما يريد. والقادر على كل شيء، وأنزل من السماء ماءً لم يكن سابقاً على الأرض ولافي باقي الكواكب من المجموعة الشمسية نفسها، وصرح بذلك في الآية التي تقول ﴿وأنزلْنا من السماءِ ماءً بقدر فأسكنّاه في الأرض﴾ ولما علم أن الإنسان الذي سيستخلفه في الأرض سيحتاج في صناعاته إلى معدن خاص أنزل له الحديد من السماء أيضاً لعدم توافره على الأرض وصرح لنا بذلك في الآية:

﴿وأنزلْنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ﴾(٤١)

وقد خصص لها سورة خاصة في القرآن ليلفت نظر العلماء إلى أهمية مايصرح به الله. وعلماء اليوم اكتشفوا نتيجة الظروف التي مرت على تشكل الكرة الأرضية بأنه لايمكن أن يتشكل عليها الماء، وكما أن طاقة الضغط التي تشكلها كتلة الأرض على مركزها غير كافية لتشكل معدن الحديد فقد عرفوا أن تشكيل ذرة الحديد تحتاج إلى قوة ضغط أكبر من طاقة الكرة الأرضية بأربع مرات فاستنتجوا من ذلك أن هناك استحالة من تشكل معدن الحديد على الأرض، فعللوا وجود الحديد على الأرض بسقوط النيازك الكثيرة التي كانت تصطدم بها، وكانت تحوي معدن الحديد، وهؤلاء العلماء لم يسمعوا بعد أن القرآن يحدثنا عن ذلك قبل اكتشافاتهم بألف وأربعمائة من السنين، ثم خلق تعالى على الأرض النباتات والأشجار وآلاف الأنواع من المخلوقات في البحر، وآلاف الأنواع من الحيوانات والحشرات، ولكل نوع منها مهمة وهدف خاص موكل إليه في سلسلة الخلق الذي لم يكن عبثاً ولعباً، بل حفاظاً على التوازن الطبيعي في الحياة على الأرض، ثم خلق الإنسان وهيأ له كل ذلك وسخر له باقي المخلوقات حوله لخدمته:

﴿وسخّر الشمسَ والقمرَ﴾(٤٢)

﴿وسخّر لكم الأنهارَ﴾(٤٣)

﴿وسخّر لكم الليلَ والنهارَ﴾(٤٤)

---

(٤٠) سورة الأنبياء: ١٦

(٤١) سورة الحديد: ٢٥

(٤٢) سورة الرعد: ٢

(٤٣) سورة إبراهيم: ٣٢

(٤٤) سورة إبراهيم: ٣٣

﴿هو الذي سخّرَ لكم البحرَ لتأكلوا منه لحماً طريّاً﴾[٤٥]

﴿ألم ترَ أنّ اللّهَ سخّرَ لكم مافي الأرض * إن اللهَ بالناسِ رؤوفٌ رحيم﴾[٤٦]

ثم خلق له من الحيوانات ماهيأها الله له وجعلها قابلة للاستئناس، لتسخيرها لخدمة الإنسان مباشرة للاستفادة منها، مثل البقر والغنم والماعز والابل، ومن لحومها وشحومها وشعرها وحليبها، والاستفادة من الابل للعمل له رواحل للتنقلات، وحمل الأثقال والبضائع للتجارة والسفر وغيرها، وسخر له حيوانات أخرى قابلة للاستئناس كالحمر الأهلية والخيل والبغال لاستخدامها للركوب في التنقلات والحرب ونقل الأثقال وغيرها. وخلق حيوانات أخرى غير قابلة للاستئناس لها وظائف أخرى في التوازن البيئي لكنه شاء أن يخلق حمراً وحشية مخططة حتى لاتختلط بباقي الحمر ليبرهن للناس أن وراء كل هذا مدبراً عاقلاً يخطط ويسخر مايشاء ولمن يشاء فجعل تلك الحمر الوحشية غير قابلة للاستئناس(*). لكي نعرف أن الذي استأنسها أصلاً ليس هو الإنسان وإنما الذي زرع فيها قابلية الاستئناس قصداً وهو الله تعالى ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلقُ اللهُ مالاتعلمون﴾[٤٧]

وراعى الله تعالى في خلقه قوانين التوازن الطبيعي التي وضعها. فلم يسمح لنوع معين أن يطغى على نوع آخر أو يتكاثر على حساب أنواع أخرى. وقدر الله عز وجل الأرزاق لكل المخلوقات ﴿وقدّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيام﴾[٤٨]

هنا يخبرنا الله تعالى أنه في أثناء عملية التخطيط لإسكان الأرض وإعماره قد حسب وأحصى الأقوات والأرزاق اللازمة لاستهلاك كل مخلوقات الأرض في أربعة أيام من أيامه، ولايعرف طولها الحقيقي إلا هو، وقد يكون إعلامنا عنها في القرآن بالتمثيل في قوله تعالى: ﴿وإنّ يوماً عند ربّكَ كألفِ سنةٍ مما تعدّونَ﴾[٤٩] للتقريب لا للتحديد، بدليل أنه في أماكن أخرى يقول: ﴿في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ﴾[٥٠]

وبما أنّ الماء هو العنصر الأساسي لكل حياة نباتية كانت أم حيوانية فالسيطرة على المياه

(*) رأيت مرة في استانبول رجلاً يعرض على السواح حماراً وحشياً مستأنساً فلم أصدق ما أرى، واقتربت من الحمار أتفحصه والرجل لا يعرف ماذا أريد حتى لمست شعر الحمار، فتلوثت يدي بالصباغ الأسود الذي استخدمه الرجل لتخطيط حماره المسكين، ليجعله أعجوبة القرن العشرين.
فضحكت وتركت الجمع المحتشد وأنا أقول في نفسي: لا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

(٤٥) سورة النحل: ١٤ (٤٧) سورة النحل: ٨ (٤٩) سورة الحج: ٤٧
(٤٦) سورة الحج: ٦٥ (٤٨) سورة فصلت: ١٠ (٥٠) سورة المعارج: ٤

تعني السيطرة على مصادر الأرزاق. إن الأمطار هي التي تتحول في واقع الأمر إلى أرزاق حقيقية لنستمع إلى الآيات التالية:

﴿وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار﴾[٥١]

﴿وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ عندَنا خزائنُهُ ومانُنزلُه إلا بقدرٍ معلومٍ﴾[٥٢]

﴿ولكنْ ينزّل بقدرٍ مايشاءُ إنّه بعبادِهِ خبيرٌ بصيرٌ﴾[٥٣]

﴿وما أنزلَ اللهُ منَ السماءِ من ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها وبثَّ فيها من كُلِّ دابةٍ﴾[٥٤]

﴿وما أنزلَ اللهُ منَ السماءِ من رزقٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها﴾[٥٥]

والآيتان من سورة (الجاثية: ٥) و (البقرة: ١٦٤) تتماثلان نصاً باستثناء كلمة (الرزق) في الأولى و(ماء) في الثانية.

فالرزق الحقيقي من الله هو الماء، والآيات كلها هنا تؤكد أن كل شيء نراه يقع بالمصادفة إنما هو من عمل مدبر مقرر، يحسب لكل شيء حسابه، ومن الغفلة أن نظن بأن هذا النظام الدقيق المحسوب بدقة متناهية يتم مصادفة أو خبط عشواء وكيفما اتفق. فلا يقدر على ذلك إلا الله وحده ولنتأمل معنى الآية الآتية:

﴿ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعبادِهِ لبَغَوْا في الأرضِ﴾[٥٦]

فالله عز وجل ينزل الماء بمقدار لكي لايفسد الله فطرة الناس فيظلم بعضهم بعضاً ويطغى بعضهم بسبب وفرة رزقهم على الآخرين.

ولو تفكرنا في الآية التي تقول إن الرزق هو الماء وأن الله يرزق كل المخلوقات الحية عن طريق ذلك الماء الذي ينزل إليهم بمقدار محسوب لاكتشفنا أن ذلك حقيقة من حقائق الواقع، فنحن لانتنبه لذلك، لأن الله رحمةً بمخلوقاته لايقطع ذلك الخير من السماء ولو فعل لانتهى كل شيء، فما نفع الذهب والفضة والدولارات والاسترليني إذا لم تنتج الأرض الحبوب والفواكه والأعشاب التي يقتات منها الإنسان والحيوان، فالماء مصدر الحياة على الأرض، ولولاه لما توفر لنا على الإطلاق مايؤكل ولولا توفر المال الفائض من اثمان ذلك الرزق لتطوير حياة الإنسان لما كان صناعةً أو تجارةً، فالرزق الحقيقي مفتاحه

(٥١) سورة الرعد: ٨
(٥٢) سورة الحجر: ٢١
(٥٣) سورة الشورى: ٢٧
(٥٤) سورة البقرة: ١٦٤
(٥٥) سورة الجاثية: ٥
(٥٦) سورة الشورى: ٢٧

الماء كما صرح بذلك الله تعالى. ولكن هذا لا يمنع أن كثيراً من الناس لا يستخدمون تلك المياه المتوفرة لديهم ليتحول عن طريق سعيهم وعملهم إلى رزق كما يقع في أغلب البلاد الإسلامية الآن. وهذا ظلم من الناس لأنفسهم بسبب إشراكهم وعدم فهم قوانين الله في الرزق والعلم والعمل.

- مامعنى الآية الكريمة التالية؟

﴿ومامن دابةٍ في الأرض إلاّ على اللهِ رزقُها﴾(٥٧)

إن كل نملة أو دودة أو حيوان، وكل شجرة أو سمكة هي في عناية الله وحسابه، فالرزق الذي ينزل من السماء إلى الأرض رزق موجّه إلى الكائنات الحية كلها.

- ﴿وعنده مفاتيحُ الغيبِ لايعلمُها إلاّ هو ويعلمُ مافي البرّ والبَحْرِ وماتسقطُ منْ ورقةٍ إلاّ بعلمِهِ ولاحبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولارطبٍ ولايابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين﴾(٥٨).

وهذا يدل أن عناية الله وحسابه أدق من تصورات البشر كلهم، ولكن ذلك لايعني كما يتوهم بعض الناس السذج أن الله قد تعهد بأن يرسل لكل كائن حي نصيبه من الرزق دون أن يسعى لتحصيله أو السعي له، فيحسبون خطأ ووهماً أن الرزق مقسوم من الله ولاينال الإنسان فيه إلا ماقدر الله مهما جهد وسعى. وهي فكرة سقيمة تؤدي إلى التواكل، والقعود، والتسليم بالواقع والكسل.

ومرد ذلك كله إلى قصور في فهمهم الآيات السابقة التي تجري ضمن قوانين وسنن إلهية في الأرض وفي الوجود.

فالله تعالى الذي خلق الإنسان بمشيئة وإرادة وأهداف خاصة يعرفها ويعرف دواعيها إنما خلقه ليسعى واستثناه من مخلوقاته كلها إذ سخر له كل ما في الأرض، ثم زاد على ذلك بأن نفخ فيه من روحه، فأعطاه بتلك النفخة بعضاًمن صفاته، فإن الإنسان أخذ العقل وأسلوب التفكير والمنطق والضمير وأساليب الإبداع وتقدير الجمال والتطلع إلى المعرفة والتعلم ومنحه القدرة على التقدير، والحكم على الأمور، والحكمة والتدبير، وكلها صفات تلتقي في جوهرها مَعَ صفات الخالق، وهيأه للتكاثر والاستمرار على الأرض، وآيات القرآن تبرز ماوهب الله الإنسان من صفات حسنة وقبيحة كما في الآيات الآتية:

---

(٥٧) سورة هود: ٦ — (٥٨) سورة الأنعام: ٥٩

خلق الإنسان من ضعف، لكنه إن شعر بالقوة والجاه والمال نسي ضعفه وتجبَّر:
﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾(٥٩)
كثير من الناس إذا خسروا أموالهم انتحروا يأساً لضعف إيمانهم:
﴿ولئنْ أذقْنا الإنسانَ منّا رحمةً ثم نزَعْناها منه إنّه ليؤوسٌ﴾(٦٠)
والإنسان إذا صارت بيده سلطة سرعان مايتجبر ويظلم ويكفر ويفجر:
﴿إنّ الإنسانَ لظلومٌ كفارٌ﴾(٦١)
والإنسان صدره ضيّق - عجول - لا صبر له - يريد كل شيء خاصة من الخيرات والطيبات:
﴿وكانَ الإنسانُ عجولاً﴾(٦٢)
والإنسان يحب الجدال والخصام ولايقنع بالحق حتى لو رآه بعينه ويميل مع هواه للكفر أكثر:
﴿وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً﴾(٦٣)
﴿خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ﴾(٦٤)
﴿إنّ الإنسانَ لكفورٌ﴾(٦٥)
والإنسان من جهله رضي بحمل الأمانة، والأمانة هي الاختبار في حرية الاختيار للكفر أو للإيمان:
﴿وحملَها الإنسانُ إنّه كانَ ظلوماً جَهولاً﴾(٦٦)
والإنسان يحب الخير لنفسه ولايشبع من الرزق والمال ولا يسأم أو يتعب في طلبه:
﴿لايسأمُ الإنسانُ من دعاءِ الخيرِ﴾(٦٧)
﴿إنّ الإنسانَ لكفورٌ مبينٌ﴾(٦٨)
والإنسان من طبعه الخوف والهلع من الموت والشدائد، ولايزيل تلك الصفات إلا الإيمان بالله الواحد الأحد:
﴿إنّ الإنسانَ خلِقَ هَلوعاً﴾(٦٩)

---

(٥٩) سورة النساء: ٢٨
(٦٠) سورة هود: ٩
(٦١) سورة إبراهيم: ٣٤
(٦٢) سورة الإسراء: ١١
(٦٣) سورة الكهف: ٥٤
(٦٤) سورة الأنبياء: ٣٧
(٦٥) سورة الحج: ٦٦
(٦٦) سورة الأحزاب: ٧٢
(٦٧) سورة فصلت: ٤٩
(٦٨) سورة الزخرف: ١٥
(٦٩) سورة المعارج: ١٩

والإنسان ناكر للنعمة، لا يحب الشكر والحمد، ولايغير تلك الصفات إلا الإيمان بالله الواحد الأحد:

﴿إنّ الإنسانَ لربّه لكَنود﴾(٧٠)

فالإنسان يملك صفات تميزه من باقي الكائنات وتجعله قادراً على الاستخلاف في الأرض إذا التزم المنهج الإلهي الذي هو القرآن.

ولكي نتفهم المنهج الإلهي علينا أن ندرس القرآن دراسة عميقة ومستفيضة لنفهم من كل آية مايريد الله أن يقول لنا نحن البشر بالذات، فإن لم نفهم الرسالة ضاعت علينا الأولى والآخرة، وضاع المنهج كله. وبما أن الله قد أحاط علماً بالإنسان بحكم أنه خالقه، فهو يعرف صفاته الجيدة والسيئة وهو أيضاً يعلم من البداية أن سعي الناس وراء الرزق سوف يكون متفاوتاً، فشاء الله أن يرزق منهم من يشاء بغير حساب.

ولكي نفهم الآيات القرآنية فهماً عميقاً علينا أن نضع أسساً ومبادئ نطبقها على الدوام لفهم كل آية، من ذلك مثلاً أننا نقرأ قوله تعالى ﴿إنّ اللهَ لايظلِمُ مثقالَ ذرةٍ﴾(٧١) ثم نقرأ قوله تعالى ﴿واللهُ يرزقُ منْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ﴾(٧٢)

فيخيل إلينا أن الآية الأولى تناقض الآية الثانية وأن علينا أن نلتمس تفسيراً يوفق بين الآيتين لأن كلام الله لايمكن أن يكون متناقضاً، ولنضرب المثال التالي للتوفيق بينهما: إنسان سعى في هذه الحياة وبرع في تحصيل الرزق وجمعه براعة جنبته كل احتمالات الخسارة أو الإخفاق، فطبق في كل مشروع من مشاريعه القواعد والأسس العلمية الصحيحة للكسب، وهي أساساً مبادئ إلهية مصدرها الله، ﴿وما أوتيتُم من العلمِ إلاّ قليلاً﴾(٧٣)

وقد تيسر لذلك الإنسان فهم آيات التسخير كلها من القرآن أو من مصادر أخرى علمية كما يجب، وعرف ماعليه ومَالَه، فمن المؤكد أن نجاح مشاريعه محتملٌ في حدود ٩٩٪ وإنسان آخر بالمقابل له قدرة مادية معادلة قدرة زميله، لكنه لم يتعلم ولم يؤسس نفسه وفق مبادئ للربح وهو يتصرف بما يناقض منطق الكسب، فمهما توقعنا لهذا الإنسان من المصادفات السعيدة والحظ السعيد فلن تزيد إمكانيات نجاحه عن ١٪ ، فعلى هذين الرجلين تصدق الآية: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي أن مشيئة الله سبحانه تكون أبداً مع من يتفهم قوانين الله تعالى في الوجود فيرزقهم من غير

---

(٧٠) سورة العاديات: ٦

(٧١) سورة النساء: ٤٠

(٧٢) سورة البقرة: ٢١٢

(٧٣) سورة الإسراء: ٨٥

حساب ولايكون الله مع الذين لايحاولون تفهم تلك القوانين والاستفادة منها، فمن يقرأ ظاهر الآيتين يتوهم أن بينهما تناقضاً، ولو فكر قليلاً لأدرك المعنى المقصود، فالله لايظلم أحداً لكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، وهذا المبدأ الذي توصلنا إليه تؤثر فيه أسس أخرى مثل: ﴿ولو بَسَطَ اللهُ الرّزقَ لعبادِهِ لبغَوْا في الأرض﴾(٧٤) فبالرغم من سعينا وعلمنا فإن الله يجعل لرزقه حداً فلا يزيده كثيراً حتى لايشتَدَّ البطر، وبطر الناس يؤدي إلى مظالم للعباد كثيرة. علينا إذاً أن نُحَكِّمَ عقولنا ونحن نقرأ القرآن لندرك أسراره وإلا وقع الإنسان بسبب جهله في الشرك من دون أن يعلم فتضيع عليه آخرته، ويخفق أيضاً في الدنيا، فالجهل مصدر الشرور كلها، وهو أول عدو يجب أن نركز عليه جهودنا لأننا إذا لم ننتشل أنفسنا من وهدته فلا أَمَلَ لنا في الخلاص، وأول سبيل لتحرير أنفسنا من الجهل التمسك بالقرآن الكريم والتزام الصراط المستقيم:

﴿إنّ اللهَ لايغيّر مابقومٍ حتى يغيّروا مابأنفسِهِم﴾(٧٥).

فالله تعالى ينتظر منا أن نبدأ ذلك فننبذ طرق الوهم كلها رامين كلّ بوصلاتنا التي أكلها الصدأ فتعطلت إلى البحر، لأنها لم تعد تنفع لهدايتنا، جاعلين القرآن الكريم منهجنا الإلهي، لا للتنغم بقراءاته السبع، وإنما ليكون دستوراً عملياً لنا نسير بموجبه، لأنه الدستور الوحيد المتكامل للحياة والآخرة، وهو رسالة الله لجميع الناس وليس لأمة دون أمة، ومن اهتدى به منهم فلن يضل الطريق أبداً ومن اتبع غيره من السبل ضاع:

﴿فمنْ اتّبعَ هدايَ فلا يضلّ ولايشقى﴾(٧٦)

﴿فمن اهتدى فلنفسهِ ومنْ ضلّ فإنما يضلّ عليها﴾(٧٧)

﴿ويستخلف ربّي قوماً غيرَكم ولاتضرونَه شيئاً﴾(٧٨)

﴿إنّهم لن يضرّوا اللهَ شيئاً﴾(٧٩)

﴿إنّك لا تهدي من أحببتَ ولكنّ اللهَ يهدي من يشاءُ﴾(٨٠)

فإن خالفنا هدى الله لن نضره بشيء وإن اتبعنا هداه أيضاً فلن ننفعه بشيء. وهل هناك هدى لله غير كتابه القرآن أتانا به الرسول الكريم رحمةً للعالمين؟

---

(٧٤) سورة الشورى: ٢٧
(٧٥) سورة الرعد: ١١
(٧٦) سورة طه: ١٢٣
(٧٧) سورة الزمر: ٤١
(٧٨) سورة هود: ٥٧
(٧٩) سورة آل عمران: ١٧٦
(٨٠) سورة القصص: ٥٦

٤٦ ـ «الأجل» و «الآجال» في كتاب الله:

﴿فلمّا قضى موسى الأَجل وسارَ بأهلِه آنسَ منْ جانبِ الطّورِ ناراً﴾[١]

﴿ولمّا جاءَ موسى لميقاتِنا وكلّمه ربّهُ﴾[٢]

من هاتين الآيتين اللتين تتحدثان في موضوع الأجل، نفهم أن الأجل يعني الموعد المحدد في زمن ما.

كأن يأتي إليك من يطالبك بدين له عليك.. فتقول له: أَجّلني ثلاثة أيام أي: أمهلني إلى أجل آخر أو وعد آخر لأدفع لك بعد ثلاثة أيام، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إذا تداينتُم بدينٍ إلى أجلٍ مسمّى فاكتبُوهُ﴾[٣]

فالأجل المسمى هو الموعد المحدد الذي لايجوز تأخيره عن الموعد المسمى أي الموعد الذي سبق تحديده.

ولكن يمكن تقديمه كأن يفي المدينُ دينَه قبلَ موعدِ الدّفع، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وسخّرَ الشمسَ والقمرَ كلّ يجري لأجلٍ مسمّى﴾[٤]

أي أن الله قد حدد سلفاً موعداً زمنياً للشمس والقمر سينتهيان عنده فلا يستطيعان تجاوزه فإذا حان ذلك الموعد انتهى أمرهما. ومنه قوله تعالى:

﴿ونقرُّ في الأرحامِ مانشاءُ إلى أجلٍ مسمّى﴾[٥]

أي أن الله تعالى حدد موعداً زمنياً لبقاء الجنين داخل الرحم. وهو بعد تسعة أشهر من الحمل فلا تتأخر ولادة الطفل عن ذلك الموعد. لكن من المعروف جداً أن ولادات كثيرة تحصل قبل ذلك بعد سبعة أشهر ثمانية أشهر أو ربما حصل إسقاط للجنين قبل ذلك بكثير. إذن فالأجل المسمى بمعنى الأجل الذي سبق تحديده بزمن لايتجاوزه.

واستناداً للآيات الماضية نقول: إن الأجل المسمي لعمر الإنسان لايمكن تجاوزه، ويعني ذلك أن هناك حداً أعظمياً لعمر الإنسان عموماً لايمكن تجاوزه، فمنهم من يعيش مئة وخمسين عاماً ومنهم من يموت طفلاً لكن لايمكن لأي إنسان أن يتجاوز الأجل

(١) سورة القصص: ٢٩
(٢) سورة الأعراف: ١٤٣
(٣) سورة البقرة: ٢٨٢
(٤) سورة الرعد: ٢
(٥) سورة الحج: ٥

المسمى للبشر، والذي لايعرفه إلا الله، فذلك في علم وغيب الله لأنه لم يخبرنا بعد مقدار الأجل المسمى للبشر، والله تعالى يفرق بين أجل القضاء والأجل المسمى وهو الحد الأعلى للعيش ﴿هو الذي خلقكم من طينٍ ثمّ قضى أجلاً وأجلٌ مسمّى﴾(٦) فلدينا في الآية أجلان أي موعدان: أجل بقضاء، وأجل مسمّى.

فما هو أجل القضاء؟ يقول تعالى:

﴿اللّه يتوفّى الأنفسَ حين موتِها والتي لم تمتْ في منامِها فيمسكُ التي قضى عليها الموتُ، ويرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمّى﴾(٧) فقوله تعالى: ﴿التي قضى عليها الموت﴾ يدل على دقة في التعبير دفعاً لأي التباس، ذلك أنه تعالى لم يقل (قضى عليها الله) وإنما قال (قضى عليها الموت) وهذا يعني أن الموت بالقضاء غير الأجل المسمى، فالموت بالقضاء هو موتنا أفراداً لأسباب مختلفة، وهو موت قد يقع قبل الأجل المسمى من الله، كأن يموت الإنسان بأن تدهسه سيارة مثلاً قبل أجله المسمى أو يمرض مرضاً قاتلاً أو يموت شهيداً في حرب. أو كارثة طبيعية - زلزال - إعصار.

قضى عليه الموت، فتوفاه الله، ولكن لم يبلغ أجله المسمى بعد، ولايبلغ الإنسان أجله المسمى إلا إذا مات دون أي مرض معين أو أي قضاء خارجي بسبب الهرم والكبر فنقول توفاه الله لبلوغه أجله المسمى، هذا مايعلمنا إياه القرآن وهو الحق، على نقيض مايتوهم بعض المسلمين الذين تعودوا أن يعتقدوا ويقولوا نقيض ماعلّمنا القرآن وماهو موجود فيه. فما الذي رسّخ هذا الوهم في عقول الناس؟

قلنا: إنّ الإسلام خلال السنوات الألف والأربعمائة الماضية مرّ بعهود طويلة من الظلم والظلام، حيث كان الأمراء والملوك والسلاطين والخلفاء يبحثون عن مصالحهم، فلا يهتمون بشعوبهم بل يستغلّونهم لكسب الثروة، ويسخرون أفراد الشعب أو يستخدمونهم وقوداً لحروبهم الكثيرة، فكان من مصلحتهم ترويج فكرة الأجل المقدر لتهوين موت من يموت على أهله وذويه، فغرسوا فكرة أن الله جعل لكل إنسان يوماً محدداً يموت فيه، وهو أجل لايمكن تجاوزه، وفي ذلك عزاء للناس من فقد المفقود وأنه لارادّ لقضاء الله، وقد روج جنود السلطان من رجال الدين هذه الفكرة في المساجد والأماكن العامة: هذا قضاء الله وقدره، انتهى أجلهم، رحمهم الله وغفر لهم وأسكنهم فسيح جناته، ماتوا شهداء في سبيل الله، وخدمة السلطان الذي هو خليفة الله على

---

(٦) سورة الأنعام: ٢ (٧) سورة الزمر: ٤٢

الأرض، فإن سألهم أحد من أين أتيتم بهذه الفتوى؟ ومامصدرها تعذر عليهم أن يردّوها إلى كتاب الله، لأنه لم يَذْكر ذلك، فيلجؤون إلى الحديث الذي استغلّوه ووضعوا فيه كل مايخدمهم كجعبة الحاوي، فيدعمون به ماذهبوا إليه، ولايعرف العامة من الناس أن مايقال لهم هو افتراء وظلم على الله والرسول.

وهؤلاء لازالوا يستغلون جهل الناس بالحقيقة ومايملأ أذهانهم من أوهام رسخت منذ القدم حول هذه الأمور، ومن أمثلة ذلك أن يهمل طبيب يعمل في مشفى رسمي مريضه المحتاج للإسعاف، لأنه يتناول الغداء هو والممرضات، فإن مات المريض تذرع الطبيب بأن الله توفاه وهو قضاؤه وقدره، وإن غلط الطبيب في شرقنا ومات تحت العملية، أعلم أهله بأنه بذل جهده، لكنّ قَدَرَهُ أن يموت، وهكذا كل هؤلاء يتذرعون بقدر الله والله بريء منهم، لأنه لايظلم الناس كما يظلمونهم والله تعالى يقول لهم في كتابه ﴿إنّ اللهَ لايظلمُ مثقالَ ذرةٍ﴾[8] ﴿وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسَهم﴾[9]

وهل من حاجة بعد ذلك كله إلى التساؤل عن مصدر الظلم الذي نحن فيه؟ فلا نلومنّ الله بل أولئك الذين يستغلون جهلنا، ولنلم أنفسنا أولاً إذ نسلم أمورنا لهؤلاء الظالمين بدل أن نضع حداً لاستغلال سذاجتنا، فإن صحونا وحكّمنا عقولنا ارتدعوا، والناس في الغرب بعد أن سئموا رجال الدين وأوهامهم وخرافاتهم هجروهم إلى غير رجعة، ليس كرهاً للدين بل لتصرفات القائمين عليه، والطبيب في الغرب لايجرؤ أن يقول ماقاله طبيبنا إذا تسبب بوفاة أحد المرضى فإنه يخضع لتحقيق قد يخسر به عمله إلى الأبد، أو يدخل السجن على أنه مجرم حقيقي، والنتائج الإحصائية أي الأرقام هي التي تقول الحقيقة دائماً ـ أقصد الحقيقة العلمية، ولو أحصينا في أي بلد شرقي نسبة وفيات الأطفال لدينا من الذين تراوح أعمارهم بين يوم وخمس سنوات لقاربت ٣٣٪ في حين نجد نسبة وفيات الأطفال من الفئة العمرية ذاتها في بلد غربي متطور لاتتجاوز الواحد من الألف. ١,٠٪ فهل كتب الله بقضائه وقدره أن تموت الأجيال عندنا وهم أطفال؟؟ وهل يستطيع رجل دين مسلم أن يقول إنَّ اللهَ شاء أن يظلم الشرقيين وينصف الغربيين! بل لعله يدعي أن مشيئة الله شاءت أن يستبدل بأطفال الشرق خيراً منهم؟! فما أضل هؤلاء الذين يقول فيهم تعالى:

﴿يشترونَ الضلالةَ ويريدونَ أنْ تضلّوا السبيلَ﴾[10]

---

(٨) سورة النساء: ٤٠ (٩) سورة هود: ١٠١ (١٠) سورة النساء: ٤٤

ولنقرأ بعد هذا الآية الكريمة الآتية:

﴿وماكانَ لنفسٍ أن تموتَ إلاّ بإذنِ الله كتاباً مؤجّلا﴾[11]

إنها تنسجم مع بقية الآيات السابقة التي مرت بنا، ولكنها صيغت بأسلوب مغاير فهي توضح مشيئة الله في إيجاد الموت وسلطانه على الأحياء سلطاناً مطلقاً، فما من أحد إلا واردها بمشيئة الله.

وقد عرفنا أن عمر الإنسان غير ثابت إلا في الأجل المسمى، فهو واحد لكل الناس مثلما أن الأجل المسمى للحمل أيضاً موحد لكل الناس. وتذكر التوراة بأن عمر الإنسان محدد بمائة وعشرين سنة، بالنسبة لكل الناس، ولاأدري إن كان ذلك العمر هو الأجل المسمى الثابت في كتابهم أم هو من بعض إضافاتهم على التوراة، والله تعالى لم يحدد لنا في القرآن رقماً محدداً للأجل المسمى، وإنما تركه في غيب الله، وكلنا يلاحظ في حالات كثيرة يتم فيها الموت قبل بلوغ الأجل المسمى المذكور نتيجة لأشياء وأسباب كثيرة، منها الجهل والقتل الخطأ والقتل العمد والحروب والكوارث وحوادث السيارات والأمراض والأوبئة، أسباب الموت كثيرة لكنها كلها تتبع القضاء أي أن الله لم يتدخل مباشرة عن قصد وعن سابق تصميم وتقدير وعمد لقتل الناس، إنما قوانين الله في مخلوقاته تسير ويتم تنفيذها كما أُمِرَ دون توقف، وأحب أن أوضح ذلك بمثال، ففي أثناء وجودي في لوس أنجلوس وقع زلزال بقوة ٧,٣° - ريختر في لوس أنجلوس، فحصلت أضرار بسيطة بسببه، علماً أن الزلزال كان في منطقة سكنية، وبعد فترة وقع زلزال آخر في بلد مجاور في مكسيكوستي بشدة أضعف من شدة زلزال لوس انجلوس وذهب ضحيته عشرات الآلاف من الناس من القتلى والجرحى، فبم نعلل ذلك؟! أنقول إن الله كان مع الأمريكان أو أنه لم يكن مع سكان المكسيك؟ لاأعتقد ذلك فكلنا عباد الله، لكن الذي وقع أن لوس أنجلوس مدينة ضمن ولاية غنية ومتطورة فالأبنية فيها حديثة صممت على أساس مقاومة الزلازل، فكان أثر الزلزال الذي أصابها أقل على شدته، ولو وقع في بلد كالمكسيك بقوته نفسها لما بقي فيها حجر على حجر، ففي مثل تلك الحالة التي تكون فيها شروط الموت مهيأة لابد أن يقع لأن الله قد أذن مسبقاً للموت أن يتدخل إن توافرت له الأسباب لكن الله يذكرنا في هذه الآية أن ذلك يقع بإذنه، لأن كل ماحصل وتم كان ضمن مشيئة الله وقوانينه التي وضعها سابقاً.

---

(١١) سورة آل عمران: ١٤٥

فلا يمكن أن يتم أي شيء إلا بإذنه، فمع الجهل يمكن أن تزيد الوفيات بإذن الله، ومع العلم يمكن أن تقل الوفيات أيضاً بإذن الله، وليس بإذن الأطباء والأخصائيين فمعنى (كتاباً مؤجلاً) أن الموت إذا لم يحصل في القضاء الأول (في حادث مثلاً لم يؤد إلى الموت، فإن الله يؤخر الأجل من قضاء إلى قضاء آخر، حتى يأتي قضاء ما يسمح للموت بممارسة سلطانه فيتوفاه الله سبحانه، أو قد لايتعرض الرجل لأي قضاء، فيؤجل حتى يصل إلى أجله المسمى فيموت عندها الإنسان دون أن يكون له فرصة تخطي ذلك الأجل بأي حال من الأحوال. وقد عبر عن هذا الكلام الشاعر زهير بن أبي سلمى عندما قال:

رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ ومَنْ تُخطِئْ يُعمَّرْ فَيَهْرَمِ

ويقول لك أحد الناس: فلان مات وتوقف قلبه ثم عاش بعد ذلك، ولكن لايمكننا أن نحكم على إنسان بالموت لتوقف قلبه، لأن الإنسان الذي نقول عنه مات لابد أن يكون قد اجتاز مرحلة بينها الله تعالى في الآية:

﴿وماكانَ لنفسٍ أن تموتَ إلاّ بإذنِ اللّهِ كتاباً مؤجّلاً﴾[١٢]

لأن للموت قوانينه الخاصة، فإذا تم الموت وفق قوانينه الخاصة، أذن الله بعودة النفس إلى بارئها، ولارجعة لها بعد الموت إلى الحياة، هذه سنة من سنن الله. قد تقع هذه الحالة في فترة دقائق معدودات بعد توقف القلب فإذا أسعف الشخص بسرعة واجريت له الاجراءات والاسعافات اللازمة عاد للتنفس والوعي مرة أخرى، وهذا دليل على أن الله لم يتوفّ نفسه بعد بل ردها إلى الحياة مثلما تردّ بإذنه بعد كل عملية نوم، أما إذا تأخر الإسعاف عن الوقت المحدد فلا أمل في مباشرة الإنسان الحياة، وهو أمر مجرب معروف عند الأطباء يعرفونه ولكن قد يستطيع الأطباء أحياناً اعادة تشغيل القلب ولو بعد فترة أطول فيربطون الإنسان إلى جهاز للتنفس صناعي فتعود الدورة الدموية للجسد، لكن مع عدم امكانية إعادة الإنسان إلى وعيه وتنفسه الطبيعي وما إن يتوقف جهاز التنفس حتى يتخامد القلب ويقف أيضاً. وأعتقد أن النفس المشتقة من التنفس، تكون قد غادرت الجسد ولايمكن إعادة النّفْس مرة أخرى لذلك الجسد، ولو شغلنا القلب بوساطة الجهاز الصناعي للتنفس سنوات. وهذا هو ماتؤكده الآية القرآنية التالية:

---

(١٢) سورة آل عمران: ١٤٥

﴿ولن يؤخّرَ اللّهُ نَفْساً إذا جاءَ أجلُها﴾(١٣)
ننتقل الآن إلى شرح معنى الفعل (زهق) الذي يقترن عادة بكلمة النفوس.
يقول تعالى: ﴿وقلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كان زهوقاً﴾(١٤)
ومعنى الآية أن الباطل يكون له وجود وحضور في حال غياب الحق فقط، أما إذا ظهر الحق ووجد فالباطل يختفي بقوة الحق الذاتية.
وفي المعنى ذاته يقول تعالى ﴿بل نقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدمغُهُ فإذا هو زاهقٌ﴾(١٥)
أي أن الحق، إذا قذف على الباطل، فالقوة الذاتية للحق تخفي الباطل فوراً فإذا هو زاهق، أي يتبدد لاوجود له وكأنه لم يكن ﴿إنّما يريدُ اللهُ ليعذبَهُم بها في الحياةِ الدنيا وتزهَقَ أنفسُهُم﴾(١٦)
والحديث عن الكفار، وتزهق هنا بمعنى تُزال وتُخرَج.
أما المؤمنون الذين يقتلون على أيدي المشركين فيقول الله فيهم:
﴿ولاتحسبنّ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربّهم يُرزقونَ﴾(١٧)
﴿ويعلمُ ماجرحتُم بالنهار ثم يبعثُكم فيه ليقضى أجلٌ مسمّى﴾(١٨)
﴿ومن ورائِهم برزخٌ إلى يوم يُبعثونَ﴾(١٩)
﴿فيمسكُ التي قضى عليها الموتَ﴾(٢٠)
صدق الله العظيم.

---

(١٣) سورة المنافقون: ١١
(١٤) سورة الإسراء: ٨١
(١٥) سورة الأنبياء: ١٨
(١٦) سورة التوبة: ٥٥
(١٧) سورة البقرة: ١٦٩
(١٨) سورة الأنعام: ٦٠
(١٩) سورة المؤمنون: ١٠٠
(٢٠) سورة الزمر: ٤٢

٤٧ ـ مامعنى «علم الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

كلمة (العلم) من الكلمات التي تواترت في القرآن الكريم كثيراً، فقد وردت هذه الكلمة ومشتقاتها ٨١٧ مرة. وهذا دليل على اهتمام الله سبحانه وتعالى بموضوع العلم اهتماماً خاصاً، فما نوع العلم الذي يدعو إليه تعالى.

أهي علوم الدين؟ أم هي العلوم الدنيوية كالرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ والاجتماع وعلم النفس، وعلم البحار وعلم الزراعة وعلم الذرة؟ يقول تعالى:

﴿قد علمنا ماتنقصُ الأرض منهم وعندَنا كتابٌ حفيظٌ﴾[١]

﴿قالَ ألم أقلْ لكم أني أعلَمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ﴾[٢]

﴿ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ ومامَسَّني السّوءُ﴾[٣]

﴿ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللّهِ ولاأعلمُ الغيبَ﴾[٤]

﴿ولتعلمنّ نبأه بعدَ حين﴾[٥]

﴿ذلك لتعلموا أنّ اللهَ يعلَمُ مافي السمواتِ ومافي الأرض﴾[٦]

﴿وقدرهُ منازلَ لتعلَموا عددَ السنينِ والحساب﴾[٧]

﴿لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عددَ السنين والحساب﴾[٨]

﴿وعندهُ مفاتحُ الغيب لايعلَمُها إلاّ هو ويَعْلَمُ مافي البرّ والبَحْرِ﴾[٩]

﴿ويعلمُ مستقرّها ومستودعَها﴾[١٠]

﴿اللّه يعلم ماتحملُ كلُّ أنثى وماتغيض الأرحامُ وماتزدادُ﴾[١١]

﴿يعلمُ ماتكسبُ كلّ نفسٍ وسيعلم الكفارُ لمن عقبى الدارِ﴾[١٢]

﴿يعلمُ مابينَ أيديهم وماخلفَهم ولايُحيطونَ به عِلماً﴾[١٣]

---

(١) سورة ق: ٤
(٢) سورة البقرة: ٣٣
(٣) سورة الأعراف: ١٨٨
(٤) سورة هود: ٣١
(٥) سورة ص: ٨٨
(٦) سورة المائدة: ٩٧
(٧) سورة يونس: ٥
(٨) سورة الإسراء: ١٢
(٩) سورة الأنعام: ٥٩
(١٠) سورة هود: ٦
(١١) سورة الرعد: ٨
(١٢) سورة الرعد: ٤٢
(١٣) سورة طه: ١١٠

﴿ألم تعلم أنّ اللهَ يعلَم مافي السماءِ والأرضِ إنّ ذلكَ في كتابٍ﴾[١٤]
﴿إنّ الله عندَه علمُ الساعةِ وينزلُ الغيثَ ويعلمُ مافي الأرحامِ﴾[١٥]
﴿ويَعْلَمُ مافي البر والبحر وما تَسقُطُ من ورقةٍ إلاّ يعلَمُها ولاحبّةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولارَطْبٍ ولايابسٍ إلاّ في كتابٍ مبينٍ﴾[١٦]
﴿وهو الذي يتوفّاكم باللّيلِ ويعلَمُ ماجَرَحْتُم بالنهارِ ثم يبعثُكم فيه لِيُقضى أجلٌ مسمّى ثم إليه مرجِعُكم ثم يُنَبّئكم بما كنتم تعمَلونَ﴾[١٧]
﴿وماتحملُ من أنثى ولاتضعُ إلاّ بعلمِهِ﴾[١٨]

فليس بين هذه الآيات أي إشارة إلى مايسمى علوم الدين، علماً بأن الله ليس لديه علوم دينية أصلاً، فعلوم الدين كلها من انتاج البشر ولاوجود لها عند الله على الإطلاق وكتاب الله شاهد على ذلك.

مايعلمه الله عن الإنسان بدليل الآيات:

﴿وأَعلم ماتُبدونَ وماكنتم تكتمونَ﴾[١٩]
﴿إنا نَعْلَمُ مايُسرّونَ ومايُعلنون﴾[٢٠]
﴿ولقد خلقْنا الإنسانَ ونعلَمُ ماتوسوسُ به نَفْسُه﴾[٢١]
﴿وإنّا لَنَعْلَمُ أنّ منكم مكذّبين﴾[٢٢]
﴿ويعلمُ سرَّكم وجَهرَكُم ويعلَمُ ماتَكْسِبون﴾[٢٣]
﴿يعلمُ خائنةَ الأعينِ وماتُخْفي الصّدورُ﴾[٢٤]
﴿وهو أَعلَم بمن اهتدى﴾[٢٥]
﴿إن ربكَ هو أَعلَم بمن ضلّ عنْ سَبيله﴾[٢٦]
﴿فلا تزكّوا أنفسَكم هو أَعلَمُ بمن اتقى﴾[٢٧]
﴿يعلمُ مابين أيديهم وماخلفَهم ولايُحيطونَ به علماً﴾[٢٨]

---

(١٤) سورة الحج: ٧٠
(١٥) سورة لقمان: ٣٤
(١٦) سورة الأنعام: ٥٩
(١٧) سورة الأنعام: ٦٠
(١٨) سورة فاطر: ١١
(١٩) سورة البقرة: ٣٣
(٢٠) سورة يس: ٧٦
(٢١) سورة ق: ١٦
(٢٢) سورة الحاقة: ٤٩
(٢٣) سورة الأنعام: ٣
(٢٤) سورة غافر: ١٩
(٢٥) سورة النجم: ٣٠
(٢٦) سورة النجم: ٣٠
(٢٧) سورة النجم: ٣٢
(٢٨) سورة طه: ١١٠

مايحب الله أن يعلمه من الإنسان نفسه بدليل الآيات:

ذكرنا سابقاً أن الله شاء أن يمنح الإنسان فرصة لاختباره ولذلك خلقه وركب فيه العقل والإرادة وحرية الاختيار مع القدرة على النطق، والقراءة والكتابة، كل هذه الصفات الجديدة أضافها الله إليه بنفخة الروح في آدم المصطفى: ﴿إنّ اللّهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ ابراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمين﴾(٢٩)

واستخلفه في الأرض وسلمه مقاليد أمورها، بعد أن سخر له كل شيء فيها ليختبره، فمن آمن بالله فيها وعمل صالحاً أدخله الجنة التي وعد إياها يوم البعث بعد الحساب، ولو كان يعلم سلفاً من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار لما كان من ضرورة لكل عملية الخلق ونفخة الروح ولكان معنى ذلك بأن الله يسيرنا حسبما يشاء، وهذا يناقض كلامه تعالى الصريح في القرآن ﴿وماخلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينَهما لاعبينَ﴾(٣٠)

وخلق الإنسان يدخل في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ومابينهما﴾ لأن كل مخلوقات الله تعالى واقعة بينهما.

﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُتركَ سدىً﴾(٣١)

﴿ونُفخَ في الصُّورِ فجمعناهم جَمْعاً﴾(٣٢)

ومن الأساليب البيانية المعجزة في القرآن الكريم أن الله تعالى أحياناً تَحدَّثَ عن الأمور القادمة وكأنها حدثت فعلاً، لأن الإخبار عن حدثٍ حصلَ له تأثير علم اليقين، بينما يكون التكلم عن المستقبل له تأثير الاحتمال، ولكي يجعل الله المستقبل يقيناً يحدثنا عنه وكأنه حصل فعلاً، وقد جر ذلك الأسلوب بعض الناس الذين لم يفهموا أسلوب الله إلىالاعتقاد بأن هذه الوقائع جرت في الماضي فعندما قرؤوا ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ذهبوا إلى أن الله دعم رسوله بمعجزة من السماء فشق له القمر، فأصبح الشق الأول على جبل كذا والشق الثاني على جبل آخر (جبلان في مكة).

ونحن نعلم من القرآن أن الله تعالى لم يشأ أن يعزز دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات البصرية كسابقيه، بل دعمهما بأسلوب أقوى يبقى خالداً على مدى الدهر ليعترف به الناس جميعاً وذلك الأسلوب هو الإعجازات العلمية الواردة في القرآن الكريم والتي لم تكن معروفة زمن الرسول:

---

(٢٩) سورة آل عمران: ٣٣
(٣٠) سورة الدخان: ٣٨
(٣١) سورة القيامة: ٣٦
(٣٢) سورة الكهف: ٩٩

﴿وليعلمَ الذين أُتوا العِلمَ أنه الحقُّ من رّبكَ فيؤمنوا به﴾(٣٣) فهذه الآية لها شهادتان في نظرنا:

الشهادة الأولى: أن الذين أوتوا العلم ليسوا من علماء الدين لأنهم لايدركون هذه الإعجازات وإنما المقصود أصحاب الاختصاص العلمي الذين يعلمون أن هذا العلم لايمكن أن يكون إلا من عند الله، لأنهم يعلمون علم اليقين بأن المعلومات الواردة في القرآن لم يكن يعرفها أحد في زمن نزول القرآن على محمد ﷺ وقد عرفت من قبل بعض هؤلاء العلماء أنفسهم حديثاً، فيؤمنون بالله حين يرون أن ما في القرآن قد سبق علمهم، وقد حدث هذا مع سحرة فرعون الذين سجدوا لله فوراً لأنهم علموا أن الأفعى التي ابتلعت حبالهم وعصيهم لم تكن سحراً. بل حقيقة واقعة، وهذا التبس على فرعون لأنه لم يفرق بين السحر والحقيقة، والسحرة علماء، ولو كان علمهم من العلوم الضارة التي ينهى عنها الله سبحانه.

والشهادة الثانية أن هؤلاء العلماء آمنوا بعد رؤية المعجزات العلمية في القرآن وأنا شخصياً لاأنكر أنني كنت من العلمانيين الملحدين وإن لم أكن من العلماء إلى أن شاهدت بنفسي وتأكدت من الإعجاز العددي في القرآن، فكان ذلك سبباً في توبتي وعودتي لله مستغفراً تائباً على مافرطت في نفسي قبل ذلك، ولاأنكر أنني من أسرة مسلمة، وكنت أصوم قبل ذلك، وصليت في شبابي لكن إيماني لم يكن وثيقاً، وإنما كان أشبه بعادة متوارثة من أسرتي لاأكثر ولاأقل وكان الإفطار في رمضان أمام الناس من أكبر المعيبات في المجتمع عندنا، فكنت أصوم من غير نية للصيام بل مجاراة للناس وأعتقد أن الاعتراف بالخطأ فضيلة.

ومن خلال ماتقدم حتى الآن نكون قد فهمنا لماذا أراد الله وشاء أن لايعلم بعض الأمور عن الإنسان بل شاء أن يعلمها بعد أن يفعلها الإنسان أو في أثناءِ ولحظةِ فعلها، لأن الله تعالى أخبرنا أنه يعرف الجهر ويعرف ماتوسوس به النفوس.

﴿إنّه يعلَمُ الجهرَ من القولِ ويعلمُ ماتكْتمونَ﴾(٣٤)

﴿ويعلمُ خائنةَ الأعينِ وماتُخفي الصدورُ﴾(٣٥)

---

(٣٣) سورة الحج: ٥٤ (٣٤) سورة الأنبياء: ١١٠ (٣٥) سورة غافر: ١٩

﴿ولقد خلقْنا الإنسانَ ونعلمُ ماتوسوسُ به نفسُه﴾(٣٦)

فالله يريد أن تقتصر معرفته للإنسان على اللحظة التي هو فيها ذلك الإنسان، دون التدخل في مستقبل الإنسان الآتي من الزمان وهل سيختار الإيمان؟ وهل سيتوب ويرجع؟ وهل سيبقى كافراً حتى يموت؟ أو سيبقى مومناً حتى يموت؟ هل سيكفر المؤمن قبل أن يموت؟

كل هذه الأمور تركها الله لمشيئة الإنسان يقدرها هو بنفسه وعلى أساسها يكون الاختبار والمكافأة ثواباً أو المعاقبة جزاء لما فعلت يداه، أما إذا قلنا بما يقول به الجبريون من أهل السنة وهم القسم الأكبر منها أن الله قد كتب على الإنسان قبل ولادته، إن كان سيؤمن أو سيكفر، وإن كان من أهل الجنة أو من أهل النّار مستندين إلى أوهام وظنون من أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان وليس فيها ذرة من علم ولا ذرة من منطق سليم، فإننا نسعى إلى الضلالة ونخالف مشيئة الله والقرآن.

يقول الله تعالى: ﴿أم حَسِبتُم أنْ تدخلوا الجنةَ ولمّا يعلم اللهُ الذينَ جاهَدوا منكُم ويعلمُ الصابرين﴾(٣٧)

﴿وماجعلْنا القبلةَ التي كنتَ عليها إلاّ لنعلمَ من يتبعَ الرسولَ ممّن ينقلبُ على عَقِبَيْهِ﴾(٣٨)

﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾(٣٩)

﴿وليَعْلَمَ الذين نافَقوا وقيلَ لهم تعالَوا قاتِلوا في سبيلِ اللّهِ أو ادْفَعوا قالوا لو نَعلمُ قتالاً لاتّبعناكُم هم للكفرِ يومئذٍ أقربُ منهم للإيمانِ يقولونَ بأفواهِهِم ما ليسَ في قلوبِهِم واللّهُ أعلمُ بما يكتُمون﴾(٤٠)

﴿تناله أيديكُم ورماحُكم ليعلمَ اللّهُ منْ يخافهُ بالغَيبِ﴾(٤١)

وقد جاء قبل هذه الآية الأخيرة وبعدها قوله تعالى:

﴿ياأيّها الذين آمنوا ليبلونّكُم اللّهُ بشيءٍ من الصيدِ تناله أيديكُم ورماحُكم ليعلمَ اللّهُ منْ يخافه بالغيبِ فمنْ اعتدى بعد ذلك فلهُ عذابٌ أليم * ياأيها الذينَ آمنوا لاتقتلوا الصيدَ وأنتم حرمٌ ومن قتلَه منكم متعمّداً فجزاءٌ مثلُ ماقتلَ من النَّعَمِ يحكم به ذَوَا عدلٍ منكم

(٣٦) سورة ق: ١٦
(٣٧) سورة آل عمران: ١٤٢
(٣٨) سورة البقرة: ١٤٣
(٣٩) سورة آل عمران: ١٤٠
(٤٠) سورة آل عمران: ١٦٧
(٤١) سورة المائدة: ٩٤

هَدْياً بالغَ الكعبةِ أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلك صِياماً ليذوقَ وبالَ أمرِهِ عفا اللّهُ عمّا سلفَ ومن عادَ فينتقِمُ اللّهُ منه واللّهُ عزيز ذو انتقام﴾(٤٢)

﴿أمْ حسبتُمْ أن تُترَكُوا ولمّا يعلم اللّهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتّخذوا من دونِ اللهِ ولارسولِهِ ولاالمؤمنينَ وَليجةً واللهُ خبيرٌ بما تعملونَ﴾(٤٣) ومعنى الوليجة هنا: أنهم لم يتخذوا من المشركين أولياء وأصحاباً يخالطونهم ويتبادلون معهم المودة.

وهكذا تجد أن الله يعترف بأنه شاء ألا يعلم من مستقبل المسلمين وتصرفهم في أمورهم المقبلة بل حدد أن معرفته تنتهي إلى لحظة وسوسة الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء أو اختيارهم للرحمن وللصراط المستقيم طريقاً بمحض حريتهم ودون تدخل الله في ذلك مطلقاً.

وكما مر بنا في آية سابقة أيضاً أن الله شاء أن تكون مشيئة الإنسان هي الأولى فإن غيّر الإنسان ما في نفسه من كفر إلى إيمان عزّز الله إيمانه ونَصَره:

﴿إن الله لايغيّر مابقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٤٤) فشرط الله علينا أن نبدأ نحن بتغيير مافي أنفسنا ليغيّر بعد ذلك من أحوالنا.

ونحن المسلمين على سبيل المثال ضللنا منذ أكثر من ألف عام واتبعنا الشيطان والوهم، وفي اعتقادنا أننا نتبع الله، فلم يغير الله مابنا إلا نحو الأسوأ، لأنا كنا نغرق مع الشيطان ونزداد ضلالاً وضياعاً، وسوف نبقى على تلك الحال إلى أن نبدأ بالتغيير للأحسن، وإن محاولتي المتواضعة في هذا الكتاب هي واحدة من محاولات تسعى لتغيير مافي نفوس المسلمين من الوهم وردهم إلى الحقيقة مرة أخرى عسى أن يرضى الله عنا ويغير مابنا من بؤس وجهل وفقر إلى علم وقوة واتحاد ومحبة وعز ونصر.

﴿ولاتلبسُوا الحقَّ بالباطلِ وتكتُموا الحقَّ وأنتم تعلمونَ﴾(٤٥)

ونحن منذ ألف وأربعمائة عام نلبس الحقّ بالباطل والوهم والظن نقول عنهما العلم.

﴿إنّ الظّنّ لايُغني من الحقِ شيئاً إنّ اللّه عليمٌ بما يفعلونَ﴾(٤٦)

﴿مالهم بِهِ منْ علمٍ إلا اتّباعُ الظّنّ﴾(٤٧)

﴿فَلمَ تُحاجّونَ فيما ليس لكمْ به علمٌ﴾(٤٨)

﴿نبئوني بعلم إنْ كنتم صادقين﴾(٤٩)

---

(٤٢) سورة المائدة: ٩٤ ـ ٩٥
(٤٣) سورة التوبة: ١٦
(٤٤) سورة الرعد: ١١
(٤٥) سورة البقرة: ٤٢
(٤٦) سورة يونس: ٣٦
(٤٧) سورة النساء: ١٥٧
(٤٨) سورة آل عمران: ٦٦
(٤٩) سورة الأنعام: ١٤٣

﴿فمن أظلم ممّنْ افترى على اللهِ كذباً ليضلّ الناس بغيرِ علمٍ﴾[٥٠]

﴿قل هل عندَكُم من علمٍ فتُخرجوهُ لنا﴾[٥١]

وهكذا نجد أن كثيراً مما ورد في صحيح البخاري ومسلم والأحاديث الأخرى ماهي إلا ظنون تعبت في تحصيلها النفوس، وماكان تعبها إلا عذاباً من الله سبحانه، لأنها كانت ضلالاً وبدعة، كانت من أسوأ ما ابتدع في الإسلام لأنها حولت المسلمين إلى كتاب آخر غير القرآن. مع أن النبي الكريم يلح علينا قائلاً: «لاتكتبوا عني غير القرآن» ـ «أكتاباً مع كتاب الله».

«من كتب عني غير القرآن فليمحه» «من كذب علي فليتبوأ مقعده في النار» ولكن لاحياة لمن تنادي، كانت الشياطين قد أبرمت عقودها وتم تنفيذ الأمر كما شاء الشيطان ـ لاكما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ونحن نردد اليوم مارردده أهل الكتاب قبلنا حين حرفوا كتبهم فنقول: (هي مشيئة الله) متهمين الله تعالى بمسؤولية ماوقع لنا، متبرئين مما فعلته أيدي من سلفنا.

﴿وقالَ الذين أشركوا لو شاءَ اللّهُ ماعبدْنا من دونِهِ من شيء﴾[٥٢]

ولكن الله تعالى يعلم علم اليقين من الذي أشرك، ومن الذي ضلّ، ومن الذي اهتدى، وكله حصل بإرادة الإنسان شخصياً وليس بتدخل مباشر من الله لأنه يعلم أنه سمح لهم بتلك الحرية ﴿إنّ ربّكَ أعلمُ بمَنْ ضلّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بِمَنْ اهتدى﴾[٥٣]

﴿فلا تُزكّوا أنفسَكم هو أعلمُ بمَنْ اتّقى﴾[٥٤]

﴿إنّ ربّكَ هو أعلمُ بمنْ ضَلّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بالمهتدينَ﴾[٥٥]

والله تعالى أعلم بسرائر النفوس الشريرة والمنافقة والكاذبة

﴿ومن الناس من يشتري لهوَ الحديثِ ليضلّ عن سبيلِ اللهِ بغيرِ علمٍ﴾[٥٦]

والعاقل من يطلب النور والحق والعلم من الله تعالى ﴿وقلْ ربّي زِدني علماً﴾[٥٧]

وأما من سخف عقله فأضلّه الشيطان فهو من اتبع الظن وماليس له به علم ولاكتاب منير.

---

(٥٠) سورة الأنعام: ١٤٤ (٥٣) سورة النجم: ٣٠ (٥٦) سورة لقمان: ٦
(٥١) سورة الأنعام: ١٤٨ (٥٤) سورة النجم: ٣٢ (٥٧) سورة طه: ١١٤
(٥٢) سورة النحل: ٣٥ (٥٥) سورة القلم: ٧

﴿ولاتَقْفُ ماليسَ لكَ به علمٌ إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلّ أولئكَ كانَ عنه مسؤولاً﴾[٥٨]

إن آيات الله واضحة وصريحة، وكلها نور وهداية، فتفسيرها بأحاديث ـ كثير منها لايركن إلى صحته ـ معناه إلغاء كلام الله تعالى وتغطية نور الله بنصوص يحتمل أن تكون موضوعةً ليس فيها علم أو تعليم، وأغلبها يخالف حقائق القرآن والمسلم حين يُسلّم نفسه إليها يفقد ميّزة القدرة على المنطق، ووزن الأمور بالعقل، وتختلط الأمور عنده، ويضيع الحق بالباطل، ويفقد المؤمن القدرة على التمييز، وهذه حالة واقعية نعيش فيها نحن المسلمين اليوم، وأضرب لذلك مثلاً واقعياً من حياتنا نحن المغتربين الشرقيين والمسلمين في الولايات المتحدة، ففي هذا البلد الشاسع تجد جاليات من كل أمم الأرض تعيش كل جالية شبه مستقلة بعقليتها الخاصة الموروثة عن الآباء، فالجاليات الأوربية تتمتع بعقل علمي سليم فإن فكر أحد أفرادها بمشروع استثماري أو مصنع أو معمل أو محل للبيع مصدراً لرزقه اتبع كل الأساليب العلمية من دراسة وتخطيط وتنظيم، واستفاد من كل الخبرات المتوافرة من إحصائيات لسكان المنطقة ـ ونوعيتهم ومستوى دخولهم، والأفكار والعقائد المنتشرة بينهم، وعدد المنافسين في المنطقة، وإمكاناتهم المادية الخ، ونتيجة لتلك الدراسة يستطيع في ضوئها البدء بالمشروع أو إلغاء الفكرة من أساسها عن علم وخبرة، بينما تجد أن الأغلبية العامة من المسلمين لازالوا على أوهامهم القديمة الموروثة لايؤمنون بهذه الأساليب الغربية، ويعدونها ضرباً من عدم الإيمان بالخالق الذي يهب الرزق لمن يشاء ولو كانت مصادره غير مدروسة، ويعتقدون أن الأعمال بالنيات، فيركنون إلى نياتهم الحسنة معتقدين أن الله سيكتب لهم النجاح، لمجرد أنهم يقولون بلسانهم بأنهم مسلمون، وهكذا نجد أن اعتمادهم الحقيقي على أمل واهم بينما يعتمد غيرهم أسلوب الحق والحقائق التي مصدرها الله، فترى الغربيين ينجحون بينما يخفق أغلب المسلمين ويخسرون أموالهم، فيأتي متوهم جديد من المسلمين ليشرح لهم ويقول إن الله يفعل معنا ذلك غضباً منه علينا، لأننا نعيش في مجتمع غير مسلم، إلى آخر هذه الأوهام التي تسندها أوهام أخرى، فالله يطلب من العبد أن ينهض لينهض معه، لا أن يستسلم لأمل طلب العون منه دون سعي.

فعقلية المسلم العامة اليوم هي الابتعاد عن العلم والعلوم التي هي هبة الله لنا، حتى

(٥٨) سورة الإسراء: ٣٦

المتعلمون منهم ممن يحملون الشهادات العلمية لازالت المفاهيم الوهمية هي المسيطرة على تفكيرهم.

والمسلم اليوم أحوج مايكون إلى التوقف، وإعادة النظر والتفكير في كل مايحمله من أفكار موروثة ليس مصدرها القرآن، فإذا لم يغير ويهجر تلك الأساليب التي غرسها الشيطان في العقول فإنه يخسر الدنيا لبعده عن الواقع والمنطق ويشرك بالله دون علم منه فيخسر الآخرة أيضاً. ولماذا نخسر نحن المسلمين الدنيا والآخرة وكتاب الله بين أيدينا يدعونا إلى التفكير والسعي إلى المعرفة والتحلي بالعقلية العلمية، والتدبر؟.

والغربيون يؤمنون بالعلم ويحترمون حقائقه، فإذا قيل للغربي إن نسبة إصابة المدخن بسرطان الحنجرة، أو سرطان الرئة أكبر من نسبة إصابة غير المدخن بعشرين مرة، وهي حقيقة علمية، كافيةٌ لتكون حافزاً للغربي ودافعاً كافياً لترك التدخين، فالذكور من الغربيين على الغالب قد تركوا التدخين الآن، وأما المدخنات في الغرب فعددهن أكبر من عدد الذكور، لأن المستوى العلمي للرجال أعلى من مستوى النساء، ولأن النساء أيضاً لايحكّمْنَ عقولهن دائماً بل يشركن العاطفة مع العقل في المواقف السلوكية - وهي حقيقة لاتنكر.

بينما تجد غالبية المدخنين من المسلمين الشرقيين يصرون على تعاطي التدخين بأشكاله المختلفة من السيجارة إلى النرجيلة لأنهم يفهمون الدين خطأ، ويقولون لك: (لكل إنسان أجل محتوم) ﴿لنْ يصيبَنا إلاّ ماكتبَ الله لنا﴾ فالتدخين لاينقص من عمر الفرد وعدمه لايزيد فيه، ثم يضربون لك مثالاً فيقولون فلان عاش مائة سنة وكان يدخن، وفلان لم يعش مثله ولم يكن يدخن، ولو آمنوا بالعلم وبقانون الاحتمالات وهو قانون علمي سليم، وسنة من سنن الله لبدلوا قناعاتهم.

﴿ومنْ لمْ يجعلْ اللّهُ له نوراً فما له من نورٍ﴾(٥٩)

صدق الله العظيم.

---

(٥٩) سورة النور: ٤٠

٤٨ ـ مامعنى (هدى الله) بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿ذلك الكتابُ لاريبَ فيه هدىً للمتقينَ﴾[١]

﴿وماأنزلْنا عليكَ الكتابَ إلاّ لتبيّنَ لهم الذي اختلفُوا فيه وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ﴾[٢]

فكلمة (هدى) في الآيتين تعني معرفة الإنسان الحق والخير واتباعهما، فالهدى اختيار الإنسان طريق الرشاد والحق لا الباطل والضلال، وطريق الهدى يلتبس على الإنسان بالضلال أحياناً، فقد يأتي من يزعم أنه يقودك إلى الرشاد، وهو في واقع الأمر يضلّلك ويقودك إلى الشيطان. قال تعالى:

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى فما ربحَتْ تجارتُهم﴾[٣]

وبعد أن فهمنا معنى الهدى، لنبحث عن معاني هدى الله:

﴿قلْ إنّ هدى اللّهِ هو الهدى﴾[٤]

أي أن الهدى الحقيقي هو هدى الله واثبات صراطه المستقيم. ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذابَ بالمغفرة﴾[٥]

﴿شهرُ رمضان الذي أُنزلَ فيه القرآنُ هدىً للناسِ وبيّناتٍ من الهدىَ والفُرقانِ﴾[٦]

وهذه الآية تشير إلى مايحتويه الكتاب: فيه (القرآنُ: هدىً للناس)

لأن القرآن هو الجزء الذي فيه غيب الله من علوم وحقائق علمية ومعجزات مختلفة ومن قصص قرآني فيها حقائق تاريخية ثابتة، وليس فيها ظن ولاتخمين ولاتضارب روايات، هذا القسم هو هدى لكل الناس مؤمنهم وكافرهم.

ثم يقول الله في الآية: ﴿وبيّنات من الهدى﴾ وهي الأحكام في الآيات البيّنات التي فيها الحرام والحلال، وفيها حدود الله، وفيها الحقوق وتوزيعها في الميراث، وفيها العبادات وكل مايهم المؤمنين معرفته من شرائع وأمور حياتية، ثم يذكر تعالى: الفرقان، وقد وجدنا أن الفرقان كما ثبت من آيات القرآن أنه الصراط المستقيم أو هو أيضاً

---

(١) سورة البقرة: ٢
(٢) سورة النحل: ٦٤
(٣) سورة البقرة: ١٦
(٤) سورة البقرة: ١٢٠
(٥) سورة البقرة: ١٧٥
(٦) سورة البقرة: ١٨٥

الوصايا العشر التي نزلت على موسى باسم الفرقان وهكذا نجد في هذه الآية شرحاً مفصلاً لمحتويات الكتاب، كتاب المسلمين الذي يدعى عندهم المصحف، أو يطلق اسم الجزء منه على الكل وهذا معروف في الشرق، كأن تقول الشام وأنت تقصد دمشق وبلاد الشام أو أن تقول مصر وأنت تقصد القاهرة أو بلاد مصر كلها.

فالقرآن هو المصحف كله أيضاً، من قبيل إطلاق الجزء على الكل، وهو الجزء الأهم والأبرز في كتاب المسلمين، وهو المصدق لما بين يديه من آيات الرسالة التي ليس فيها علوم ولاحقائق علمية، ولاحقائق تاريخية بل هي مجموعة من الآيات والتعليمات والمواعظ للناس حتى يعيشوا في هذه الدنيا سعداء دون أن يضلوا الطريق فيضيعوا مع الشياطين.

﴿هذا بيانٌ للنّاس وهدىً وموعظةٌ للمتّقين﴾(٧)

وفي هذه الآية ينبهنا الله ثانية إلى وجود قسمين في الكتاب القسم الأول يدل عليه قوله:

﴿هذا بيان للناس﴾ فالقرآن وهو يحوي العلوم يعدّ بياناً للناس أما الأحكام فليست لكل الناس، لأن الناس جميعاً لم يؤمنوا بالله بعد ولم يصبحوا من الأتقياء، لذلك نلحظ دقة التعبير القرآني في قوله تعالى:

﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾

أي أن الجزء الثاني منه فيه الهدى والموعظة وتعليمات للمتقين من المؤمنين ﴿ولو شاءَ اللّهُ لجَمَعَهُم على الهدى﴾(٨)

ويعطيهم حرية الإرادة والعقل أي لو شاء الله أن يكون الإنسان مسلوب الإرادة كباقي مخلوقاته لخلقه يفعل كمايريد الله ولجمعهم على الهدى طوعاً أو كرهاً، والهدى كالإيمان يزيد ويقل، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿ويزيدُ اللهُ الذين اهتَدوا هدىً﴾(٩)

وقد ترد كلمة هدى في الآيات بمعنى دليل أو حجة ﴿ومن الناسِ منْ يجادلُ في اللّهِ بغيرِ علمٍ ولاهدىً ولاكتابٍ منيرٍ﴾(١٠)

---

(٧) سورة آل عمران: ١٣٨
(٨) سورة الأنعام: ٣٥
(٩) سورة مريم: ٧٦
(١٠) سورة الحج: ٨

أما (الضلال والضلالة) فهما يقابلان الهدى: ﴿ومن أضلّ ممّنْ اتبعَ هواهُ بغيرِ هدىً من اللّهِ﴾(١١)

وقد يكني الله تعالى عن الضلال فيستخدم مايدل عليه كالعمى:

﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى﴾(١٢)

والعمى هنا عمى البصيرة، لأن أعمى البصر له وسائل يستهدي بها، أما أعمى البصيرة فهو في ظلام من الجهل والباطل. ﴿قل هو للّذين آمنوا هدى وشفاءٌ﴾(١٣) والهدى هنا للنفوس، والشفاء للنفوس أيضاً وليس للأبدان، فالله يتحدث عن النفس الأمارة بالسوء.

﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقّ ليظهرَهُ على الدينِ كلِّهِ﴾(١٤)

والهدى في الآية يقصد به آيات القرآن من غيب الله، ودين الحق: آيات الرسالة، لأن الدين والعقيدة لانجدهما في الآيات التي تتناول الحقائق العلمية وإنما نجد فيها الاقناع، أما الدين فنلمسه في آيات العبادات والحدود والصراط المستقيم.

---

(١١) سورة القصص: ٥٠
(١٢) سورة فصلت: ١٧
(١٣) سورة فصلت: ٤٤
(١٤) سورة الفتح: ٢٨

٤٩ ـ مامعنى «نور الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿اللّهُ نورُ السمواتِ والأرضِ﴾(١)

ولكي ندرك الفرق بين النور والضياء علينا أن نلاحظ نص الآية الآتية:

﴿هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً﴾(٢)

فجعل للشمس ضياء لأنها مصدر الضوء أساساً، وجعل للقمر نوراً: لأنه ليس مصدراً للضياء أو النور بل هو يعكس نور الشمس

﴿قد جاءَكُم منَ اللّهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ﴾(٣)

فالله تعالى يخبرنا في هذه الآية أنه أرسل لنا أمرين: النور والكتاب المبين: أما النور فهو كما يفهم من القرآن الكريم الحق والحقيقة التي تنير عقولنا وبصائرنا وعكسه، الظلام وهو الأوهام والظنون أو الباطل. ويقصد بالنور القسم الأول من المصحف وهو يحوي الحقائق العلمية والتاريخية أما الكتاب المبين فهو القسم الثاني من المصحف الذي يحوي على (افعل ولاتفعل) وفيه خطاب للناس (يا أيّها الذين آمنوا افْعلوا كذا ـ ولاتفعلوا كذا) وهذا القسم من القرآن الكريم هو قسم الرسالة، أو هو كتاب مبين ليميزه الله تعالى عن الكتاب كله أو المصحف بكامله الحاوي على الجزأين، والكتاب لايضيء بهذا النور بذاته وإنما يجب قراءته وتفهمه واستيعاب كل مافيه من حقائقه النورانية والعلمية، قبل استيعاب القسم الثاني الذي يأتي واجب فهمه بعد إيمان المؤمن بما ورد في القسم الأول.

﴿اللّهُ نورُ السمواتِ والأرض مَثَلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ في زجاجةٍ الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرّيٌّ يُوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لاشرقيةٍ ولاغربية يكادُ زيتُها يضيءُ ولو لم تمسَسْه نارٌ نورٌ على نورٍ يهدي اللّهُ لنورِهِ من يشاءُ ويضربُ اللّهُ الأمثالَ للناسِ واللّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾(٤)

﴿ومنْ لمْ يجعلْ اللّهُ له نوراً فما له من نورٍ﴾(٥)

فالإنسان الذي ظلم نفسه واختار طريق الشيطان وطريق الظلام والضلال، أو الإنسان

---

(١) سورة النور: ٣٥
(٢) سورة يونس: ٥
(٣) سورة المائدة: ١٥
(٤) سورة النور: ٣٥
(٥) سورة النور: ٤٠

الذي ظلم نفسه ظلماً أشد فاختار الأوهام والظنون بدل النور والحق الحقيقي يحرمه الله نوره، ولايرشده إلى السبيل الصحيح المؤدي إلى الحق والنور الأساسي. لأنه لم يحسن ممارسة حريته وإرادته الحرة في الاختيار. لذلك قال تعالى:

﴿ومايستوي الأعمى والبصير. ولاالظلماتُ ولاالنورُ﴾(٦)

﴿أفمنْ شرحَ اللّهُ صدرَه للإسلامِ فهو على نورٍ من رّبهِ﴾(٧)

﴿ومن يرد أن يضلّه يجعل صدرهُ ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعّدُ في السماء﴾(٨) ولنلاحظ دقة التعبير الإلهي: في قوله تعالى ﴿يَصَّعَّدُ في السماء﴾ ولم يقل إلى السماء، لأن السماء التي يقصدها هي طبقات الجو القريبة المحيطة بالكرة الأرضية، ولو قال سبحانه (إلى) لكان المعنى المقصود الصعود خارج هذه الطبقات، وهذه حقيقة علمية يشعر بها الطيارون الذين يصعدون بطائراتهم في السماء. من دون أجهزة خاصة فإنهم يشعرون بضيق في التنفس بسبب نقص الأكسجين كلما زاد ارتفاعهم في طبقات الجو العليا فإذا تجاوزوا الغلاف الأرضي عسر عليهم أن يتنفسوا لفقدان الهواء، وكل كتاب علمي وسيلة لتمييز الحق من الباطل والظلام من النور وبما أن رسالات السماء تحوي حقائق ولاباطل فيها لذلك يقول سبحانه:

﴿هو الذي ينزلُ على عبدهِ آياتٍ بيّناتٍ ليخرجَكُم من الظلماتِ إلى النورِ﴾(٩) ﴿فآمنوا باللهِ ورسولهِ والنورِ الذي أنزلْنا﴾(١٠)

والقسم الأول من الكتاب الذي حددنا موضوعه قبل قليل يحتاج من العبد إلى إيمان أما القسم الثاني فلا يحتاج إلى إيمان، وإنما يتطلب تنفيذاً وعملاً لأنه جملة من الأوامر والنواهي (افعل ولاتفعل).

﴿يا أيّها الناسُ قد جاءَكُم برهانٌ من رّبكم وأنزلْنا إليكم نوراً مبيناً﴾(١١)

فالبرهان في الآية يقصد به القسم الأول من الكتاب الذي يحوي الحقائق والغيب الذي لم يكن يعلمه في وقت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلا الله وحده، ولذلك طلب الله من أوائل المؤمنين أن يؤمنوا بها تسليماً، لأنهم لم يفهموا معنى تلك الآيات، لكنها مع الزمن بدأت تتوضح بعد اكتشاف العلماء حقائق الكون، فصارت برهاناً لكل من يقرأ القرآن على أن هذا الكتاب بالذات من دون جميع كتب الأرض يحوي

(٦) سورة فاطر: ٢٠
(٧) سورة الزمر: ٢٢
(٨) سورة الأنعام: ١٢٥
(٩) سورة الحديد: ٩
(١٠) سورة التغابن: ٨
(١١) سورة النساء: ١٧٤

المعلومات العلمية والتاريخية التي يكتشفها العلماء تباعاً وكلها براهين على أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب هذا الكتاب لأنه ليس بين البشر والجن من يستطيع أن يدعي الغيب إلا الّله وحده.

وإليكم هذه الآية التي توضح حقيقة النور الإلهي في القرآن، وهو هنا إشارة إلى الحق والإيمان والهدى، مثلما يدل على القسم الأول من الكتاب الذي يحوي حقائق الله.

﴿يوم ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورُهُم بين أيديهم وبأيمانِهم بُشراكُم اليومَ جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ذلك هو الفوزُ العظيم * يومَ يقولُ المنافقون والمنافقاتُ للّذين آمنوا انْظُرونا نقتبسْ من نورِكم قيلَ ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً فضربَ بينهم بسورٍ له بابٌ باطنهُ فيه الرحمةُ وظاهرهُ من قِبَلِهِ العذابُ ينادونهم ألم نكنْ معكم قالوا بلى ولكنّكم فَتَنتُم أنفسَكم وتربّصتم وارتَبْتُم وغَرّتكُم الأماني حتى جاءَ أمرُ اللهِ وغرَّكُم باللهِ الغَرورُ * فاليوم لايُؤخَذُ منكم فديةٌ ولامنَ الذين كفروا مأواكُم النارُ هي مولاكُم وبئسَ المصيرُ﴾(١٢)

﴿لَبئسَ المولى ولبئس العشيرُ﴾(١٣)

صدق الله العظيم.

---

(١٢) سورة الحديد: ١٢ ـ ١٥ (١٣) سورة الحج: ١٣

٥٠ ـ مامعنى «كلام الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿قالَ آيتُكَ ألاّ تكلّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سوياً﴾[١]

﴿ويكلّم الناسَ في المهدِ وكهلاً ومن الصالحينَ﴾[٢]

﴿ولما جاءَ موسى ليمِقاتِنا وكلّمه ربهُ قالَ ربّ أرِني أنظرْ إليكَ﴾[٣]

فالكلام كما هو واضح من الآيات هو التعبير باللسان، أما القول فيقع في مواطن أخرى من التعبير لايقع فيها الكلام ولاسيما في مواقف الأمر.

﴿قلْ: هو اللهُ أحدٌ * اللهُ الصمدُ﴾[٤]

﴿فإمّا تَرَيِنَّ من البشرِ أحداً فقولي إنّي نذرْتُ للرحمنِ صَوْماً﴾[٥]

في حين يقع فعل «كلّم» في مواطن أخرى كقوله تعالى:

﴿وماكانَ لبشرٍ أن يكلّمَه اللهُ إلاّ وَحياً أو من وراءِ حجابٍ﴾[٦]

وقال سبحانه يكلم موسى عليه السلام:

﴿إنّي اصطفيتُكَ على الناس برسالاتي وبكلامي﴾[٧]

وقد يرد الاسم (كلمة) بمعنى الوعد كما في قوله تعالى:

﴿أنّ اللهَ يُبشّرك بيحيى مصدِّقاً بكلمةٍ من اللّهِ﴾[٨] أي وعد من الله وقد تكون كلمةُ الله فعلاً وخَلقاً كما في الآية الكريمة:

﴿إنّ الله يبشّركِ بكلمة منه اسمُه المسيحُ عيسى ابن مريمَ﴾[٩]

وأحياناً تأتي «كلمة» بمعنى حَلٍّ كما في الآية التالية:

﴿قل يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم﴾[١٠]

وأحياناً ترد (كلمة) بمعنى مشيئة أو إرادة كما في الآية: ﴿وتمتْ كلمةُ ربّك صدقاً وعدلاً لامبدّل لكلماتِهِ وهو السميعُ العليم﴾[١١]

---

(١) سورة مريم: ١٠
(٢) سورة آل عمران: ٤٦
(٣) سورة الأعراف: ١٤٣
(٤) سورة الإخلاص: ١ ـ ٢
(٥) سورة مريم: ٢٦
(٦) سورة الشورى: ٥١
(٧) سورة الأعراف: ١٤٤
(٨) سورة آل عمران: ٣٩
(٩) سورة آل عمران:٤٥
(١٠) سورة آل عمران: ٦٤
(١١) سورة الأنعام: ١١٥

وقد ترد بمعناها اللغوي الحقيقي: أي الوحدة من الكلام الإنساني:
﴿يحلفونَ باللّه ماقالوا ولقدْ قالوا كلمةَ الكفرِ﴾[12]
وأحياناً تأتي بمعنى القرار والرأي. كما في الآية التالية:
﴿ولولا كلمة سبقَتْ من ربّك لقضيَ بينهم فيما فيه يختلفون﴾[13]
فهي هنا بمعنى (رأي) أو (قرار) ومثل ذلك في قوله تعالى:
﴿كذلك حقّتْ كلمةُ رّبِكَ على الذين فسقوا أنّهم لايؤمنون﴾[14]
ويأتي التعبير (حقت كلمة ربك)، بمعنى صدق قراره وأمره كما في قوله تعالى:
﴿إنّ الذينَ حقتْ عليهم كلمةُ رّبك لايؤمنون﴾[15]
﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربّك لقضيَ بينهم﴾[16]
﴿وتمت كلمةُ ربّك لأملأنّ جهنّمَ من الجِنَّة والناسِ أجمعينَ﴾[17]
وقد ترد (كلمة) بمعنى قول أو عبارة أو حديث:
﴿ألمْ ترَ كيف ضربَ اللهُ مثلاً كلمةٌ طيبةٌ كشجرةٍ طيبةٍ﴾[18]
فهي تعني هنا مانعنيه من قولنا: فلان ألقى كلمة أي حديثاً في موضوع معين، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:
﴿ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرة خبيثة اجتثتْ من فوقِ الأرضِ﴾[19]
لأن الكلمة المفردة لاتحمل معاني إلا بصورة محدودة أغراض الفكر. أما اذا تحولت إلى مقال عن موضوع طيب أو خبيث فإنها تحمل معنى كبيراً.
أما في الآية الآتية ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾[20]
فالله سبحانه وتعالى يقصد بالكلمة هنا: الآية التي قبلها: ﴿قالوا اتخذَ اللهُ ولداً﴾[21]
كذلك تأتي (كلمة) بمعنى الكلام الباطل كما في قوله تعالى:
﴿كلاّ إنه كلمة هو قائلُها ومن ورائِهم برزخٌ إلى يوم يبعثونَ﴾[22]

---

(١٢) سورة التوبة: ٧٤
(١٣) سورة يونس: ١٩
(١٤) سورة يونس: ٣٣
(١٥) سورة يونس: ٩٦
(١٦) سورة هود: ١١٠
(١٧) سورة هود: ١١٩
(١٨) سورة إبراهيم: ٣٤
(١٩) سورة إبراهيم: ٢٦
(٢٠) سورة الكهف: ٥
(٢١) سورة الكهف: ٤
(٢٢) سورة المؤمنون: ١٠٠

فالحديث يعود إلى آية سبقتها عن الإنسان الذي فرط بحق نفسه فسقاً وعصياناً وكفراً، فإذا جاءه الموت قال: إن مددت يارب عمري فسوف أتوب وأعمل الصالحات منذ الآن، لكن الله الذي خبره في حياته يعلم أنه غير صادق بل يقول ذلك كذباً ولو أعاده الله للحياة لعاد إلى سابق ضلاله.

وقد ترد (كلمة) في القرآن بمعنى: مهمة كما في قوله تعالى:

﴿وإذْ ابتلى إبراهيم ربهُ بكلماتٍ فأتمهنّ﴾(٢٣)

ففي هذه الآية تأتي (كلمة) بمعنى التكليف بمهمة نفذها النبي إبراهيم هي بناء البيت: الكعبة المشرفة.

﴿وإذا جعلْنا البيتَ مثابة للناسِ وأمناً واتّخذوا من مقام إبراهيمَ مُصلّى﴾(٢٤)

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بَيتي للطائفينَ والعاكفينَ والرّكعِ السّجودِ﴾(٢٥)

وأحياناً تدل (كلمات) على أسماء الموجودات المخلوقة التي لاتحدّ: ﴿قلْ لو كانَ البحرُ مِداداً لكلماتِ ربّي لَنَفَدَ البحرُ قبلَ أن تنفدَ كلماتُ ربّي ولو جئنا بمثلِه مَدَداً﴾(٢٦). أي لو أراد إنسان أن يسجّل أسماء مخلوقات الله كلها وكان البحر مداده لنفد ماء البحر وعجز عن تسجيل موجودات الكون التي خلقها الله من كثرتها.

وأنتم تلاحظون من خلال سرد كل الآيات التي فيها كلام ـ وكلمة ـ وكلمات، أنه لايوجد كلام خاص بالرسول محمد ﷺ في القرآن، حتى لايقع المسلمون بما وقعوا فيه حين أوهمهم شياطين الإنس أن للرسول كلاماً وحديثاً خاصاً في دين الإسلام.

وسوف أتعرض لذلك كله بالتفصيل في كتابي الثاني:

«دين السلطان»

---

(٢٣) سورة البقرة: ١٢٤

(٢٤) سورة البقرة: ١٢٥

(٢٥) سورة البقرة: ١٢٥

(٢٦) سورة الكهف: ١٠٩

٥١ ـ معنى «آيات الله» بدليل آيات القرآن الكريم:

(الآية) بمعنى المعجزة مثل المعجزات التي تمت على يد موسى عليه السلام في القرآن الكريم:

﴿ولقد أرسلْنا موسى بآياتِنا وسلطانٍ مبينٍ﴾[١]

﴿فلما جاءتْهم آياتُنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين﴾[٢]

﴿وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنهامعرضِينَ﴾[٣]

وترد (آية) أيضاً بمعنى المعجزة العلمية: أو الحقيقة التاريخية كقوله تعالى:

﴿واللهُ خلقَ كلّ دابةٍ من ماءٍ﴾[٤]

﴿وخلقَ كلّ شيءٍ فقدّرهُ تقديراً﴾[٥]

﴿سبحانَ الذي خلقَ الأزواجَ كلَّها ممّا تنبتُ الأرضُ ومن أنفسِهم وممّا لايعلمونَ﴾[٦]

﴿اللهُ الذي خلَقكُم من ضعفٍ ثم جعلَ من بعدِ ضعفٍ قوةً﴾[٧]

﴿ولقد خلَقْنا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ﴾[٨]

﴿ثم خلَقْنا النطفةَ علقةً، فخلقْنا العلقةَ مضغةً، فخلقْنا المضغةَ عظاماً فكسَوْنا العظامَ لحماً﴾[٩]

﴿ومن كلِ شيءٍ خلقْنا زوجَيْن لعلّكم تذكرونَ﴾[١٠]

﴿ألمْ نخلقْكُم من ماءٍ مهينٍ﴾[١١]

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يحوي حقائق علمية كثيرة منها ماأكتشفه العلماء ومنها ماينتظر كشفه في المستقبل.

ومن الآيات الكبرى المعجزة العددية في القرآن ﴿طسم* تلك آيات الكتاب المبين﴾ ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾ أي إن هذه الأحرف تعتبر من معجزات

---

(١) سورة هود: ٩٦
(٢) سورة النمل: ١٣
(٣) سورة الحجر: ٨١
(٤) سورة النور: ٤٥
(٥) سورة الفرقان: ٢
(٦) سورة يس: ٣٦
(٧) سورة الروم: ٥٤
(٨) سورة المؤمنون: ١٢
(٩) سورة المؤمنون: ١٤
(١٠) سورة الذاريات: ٤٩
(١١) سورة المرسلات: ٢٠

القرآن الكريم وقد بيّنا ذلك كله في الإعجاز العددي في القرآن. وقد شرحناها في فصل كامل.

ومن آيات الله أيضاً القصص القرآني الذي هو أيضاً حقائق من غيب الله تعالى:

﴿ولقد أرسلْنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً أن اعبدُوا اللّهَ فإذا هم فريقان يختصمون* قالَ ياقوم لم تستعجلونَ بالسيئة قبلَ الحسنةِ لولا تستغفرونَ اللّهَ لعلّكم ترحمونَ * قالوا اطيّرنا بكَ وبمنْ معكَ قالَ طائرُكم عندَ اللهِ بل أنتم قومٌ تفتنونَ * وكان في المدينةِ تسعةُ رهط يفسدونَ في الأرضِ ولايُصلِحون * قالوا تقاسموا باللّهِ لنبيتنّه وأهلَه ثم لنقولنّ لوليّهِ ماشهِدْنا مَهْلِكَ أهلِه وإنا لصادقونَ* ومكروا مكْراً ومكرْنا مكْراً وهم لايشعرونَ* فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهم أنا دمرّناهم وقومهُم أجمعينَ* فتلكَ بيوتُهم خاويةٌ بما ظلموا إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعلمونَ﴾(١٢)

فهذه الآيات في القرآن تتضمن حقائق تاريخية من خلال القصص القرآني، وهناك نوع ثالث من آيات الله، وهي معجزات الخلق التي يوردها القرآن لتكون لنا براهين للإيمان وورد منها في سورة النحل والشعراء أمثلة كثيرة من مثل قوله تعالى:

﴿وأوحى ربُّكَ إلى النحلِ أن اتّخذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشجرِ وممّا يعرشونَ ثم كُلي من كلِ الثمراتِ فاسلُكي سبلَ رّبكِ ذللاً يخرجُ من بطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناسِ إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون﴾(١٣)

وبغض النظر عن أن هاتين هما من الحقائق العلمية عن النحل التي لم يعرفها الإنسان إلا حديثاً، ونلاحظ أن الله عز وجل يعبر عن النحل بضمير المؤنث (اتخذي، كلي...) في حين يعبر عن النمل بضمير المذكر في قوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوْا على وادِ النملِ قالت نملةٌ يا أيها النملُ ادخُلوا مساكِنَكم لايحطمنكم سليمانُ وجنودُه وهم لايشعرون* فتبسّم ضاحكاً من قولِها وقالَ ربّ أوزعْني أنْ أشكرَ نعمتَكَ التي أنعمتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ وأدخِلْني برحمتِكَ في عبادِكَ الصالحين﴾(١٤)

ونحن نعلم أن مفرد النمل في العربية: نملة بالمؤنث، ومفرد النحل: نحلة بالمؤنث ومفرد الجراد جرادة، وكذلك الفراش فراشة. فلماذا يخاطب رب العالمين النحل بصيغة المؤنث في الآيات السابقة ثم يخاطب بلسان النملة النمل بصيغة المذكر؟ هذه قضية تحتاج إلى ملاحظة وتدقيق، فقد بينا في مناسبات كثيرة مرت بنا أن الله سبحانه وتعالى يعد العمل

(١٢) سورة النمل: ٤٥ - ٥٢ (١٣) سورة النحل: ٦٨ - ٦٩ (١٤) سورة النمل: ١٨ - ١٩

من أهم التكاليف التي كلفها الإنسان، إذ رأى فيه أساساً وقاعدة لوجود الإنسان على الأرض، فهو لايقبل من عبده عبادة غير مقترنة بالعمل والسعي، ومن المعروف اليوم أن النحل من أنشط مخلوقات الله على الأرض عملاً وتنظيماً، لكن العمل والنظام كله مطلوب في ذلك المجتمع من الإناث فقط دون الذكور، فالذكور من النحل أدوراها محددة في الخلية لاتتعدى تلقيح الملكة من قبل أحد هذه الذكور مرة كل سنة، ومن شرائع مجتمع النحل التخلص من الذكور بقتلهم بعد حصول التلقيح للملكة مباشرة إذ لاضرورة لوجودهم أصلاً، فالله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه الحقيقة الكونية والعلمية فيتكلم عن النحل بصيغة التأنيث بينما في مجتمع آخر مماثل له في النظام والعمل هو مجتمع النمل يتكلم عنهم بصيغة المذكر ليرشدنا إلى تلك الحالة الشاذة في مجتمع النحل التي لاتجد لها نظيراً في مجتمع النمل، فالنمل يعمل جميعاً ذكوره وإناثه دون تفريق، ومجتمع النمل يشبه مجتمع البشر الذي يعمل فيه الرجال والنساء، كما أن الله يكلمنا نحن البشر بصيغة المذكر إلا إذا قصد الإناث حصراً، فهل كان الرسول ﷺ يعلم هذه الحقائق العلمية عندما نزلت عليه تلك الآيات؟

﴿هو الذي أنزلَ من السماءِ ماءً لكم منهُ شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تسيمونَ* ينبتُ لكم به الزرع والزّيتون والنّخيل والأعناب ومن كلِّ الثمراتِ إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾(١٥)

وهي كلها حقائق علمية نراها كل يوم ولانتنبه لها ﴿وسخّر لكم اللّيلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخّراتٍ بأمرِهِ إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلونَ﴾(١٦)

﴿وماذرأَ لكم في الأرضِ مختلفاً ألوانه إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يذكرونَ﴾(١٧)

﴿وهو الذي سخّر البحرَ لتأكُلوا منه لحماً طرّياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونَها وترى الفلكَ مواخرَ فيه ولتبتغُوا من فضلِهِ ولعلّكم تشكرون﴾(١٨)

وهناك آيات كثيرة في هذه السورة من هذا النوع وكلها حقائق علمية تحتاج فقط لمن يتأملها ويستخرج منها قوانينها العلمية، ونجد مايماثلها في سورة الشعراء من مثل قوله تعالى: ﴿أولم يَرَوْا إلى الأرض كمْ أنبتْنا فيها من كل زوجٍ كريمٍ * إنّ في ذلك لآية وماكانَ أكثرُهم مؤمنينَ﴾(١٩)

---

(١٥) سورة النمل: ١٠ - ١١

(١٦) سورة النحل: ١٢

(١٧) سورة النحل: ١٣

(١٨) سورة النحل: ١٤

(١٩) سورة الشعراء: ٧ - ٨

ثم تتحول الآيات في سورة الشعراء إلى القصص فتروي قصة سيدنا إبراهيم ثم قصة سيدنا نوح مع قومه، وهكذا يبين لنا الله سبحانه وتعالى أسلوبه الجديد في المعجزات، فالمعجزات في القرآن أعظم من معجزات البصائر التي لاتدوم إلا لحظة، يراها من يراها ثم يزول أثرها، وحتى الذين يشاهدونها يضلّون بعدها لأنهم يعدون مارأوه نوعاً من السحر والضلال، أما آيات القرآن الكريم فهي معجزات تنم عن حقائق دائمة مستمرة موجهة لكل الناس في كل زمان، ومصدرها الله وحده الذي عنده علم بالمعارف المتنوعة المخبر عنها في القرآن الكريم، وهكذا بحكمته تعالى وبابتعاده عن المعجزات الزائلة من البصائر، اختار سبحانه للدين الذي سوف يظهره على الدين كله، معجزات وآيات دائمة، يمكن لكل من يعقل ويتفكر ويتذكر أن يدركها ويفهمها، ﴿كذلك يبيّنُ اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلّهم يتّقونَ﴾[٢٠]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وهو الذي سخّرَ البحرَ لتأكُلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونَها وترى الفلكَ مواخرَ فيه ولتبتغوا من فضلِهِ ولعلّكم تشكرونَ﴾[٢١]

حاولت أن لاأشرح لأترك للقارئ أن يختبر قوة ملاحظته. هل لاحظ كل شيء في هذه الآية وفهمها كلها أم أن هناك معاني أخرى في الآية لم يلاحظها القارئ؟ منها ماجاء في آخرها ﴿ولتبتغوا من فضلِهِ ولعلّكم تشكرون﴾ وذلك في مجال الحديث عن تسخير البحر للإنسان والخيرات التي تقدمها البحار له، ومنها:

١ ـ أكل لحوم المخلوقات التي تعيش في البحر.

٢ ـ استخراج مافيه من لآلئ زينة للنساء.

٣ ـ استخدام البحر كوسيلة نقل وسفر.

٤ ـ ابتغاء فضل البحر: وهو الماء الذي يتبخر من سطحه ثم ينزله الله أمطاراً ورزقاً للناس، وهو أهم ماذكر عن البحر لأنه لولا ذلك الفضل لتعذرت الحياة على الأرض. ولو توقف تبخر ماء البحار لسببٍ من الأسباب لأحدث كارثةً بتوقف الرزق عن كل المخلوقات الأرضية فجأة وبدأت الحياة بالتوقف على سطح الكرة الأرضية (المخلوقات البرية من نباتات وحيوانات).

---

(٢٠) سورة البقرة: ١٨٧ (٢١) سورة النحل: ١٤

٥٢ ـ ما معنى «حلّل الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

الحلال والحرام:

القاعدة والأساس في دين القرآن والإسلام هو الحلال:

﴿اليَومَ أُحِلَّ لَكُم الطَّيبات﴾(١)

﴿يا أَيها الذينَ آمنُوا كُلوا من طَيِّبات مارَزَقناكُم واشكُروا اللّهَ﴾(٢)

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللّهِ التي أَخرجَ لعبادِهِ والطَّيباتِ من الرّزق﴾(٣)

وهكذا نرى أن الأشياء في الأصل محلّلةٌ، والحرام والمحرمات حالة طارئة لها من الله هدفٌ وغاية.

أما أن نفهم أن الحرام والمحرمات هي القاعدة بحيث يكون كل شيء محرم إلا ماحلّل الله فبذلك نكون قد حاولنا أن نفهم الأمور بالمقلوب.

إن الفعل حُرِمَ في العربية يأتي بمعنى امتنع وهو نقيض: حلّ بمعنى جاز، ومنه الفعلان: أحِلَّ لكم وحلّل لكم في القرآن الكريم وهما يقابلان «حُرّم عليكم» في المعنى، أما الفعل حلّ: يَحُلّ، في المكان فمعناه: أقام أو نزل، ولاعلاقة له بالتحريم أو التحليل.

قال تعالى: ﴿وإذا حَلَلْتم فاصطادوا﴾(٤)

أي: حلَّ لكم الصيد وجاز، في غير الأشهر الحرم، أما قوله تعالى: ﴿تُصيبهُم بما صَنعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من دارِهِم﴾(٥) فالفعل (تَحُلُّ) هنا بمعنى تنزل. وفي قوله تعالى ﴿فإن طلقها فلا تَحِلّ له من بعد حتى تَنْكِحَ زوجاً غيرَهُ﴾(٦) فتحل هنا بمعنى يجوز شرعاً أن تكون زوجاً له.

﴿ولايحلُّ لهنّ أن يكتمْنَ ماخلقَ الله في أرحامهنّ﴾(٧) أي لايجوز لهن ومثله في مخاطبة الرجال:

﴿ولايَحلّ لكم أن تأخذُوا مما أتيتموهنّ شيئاً﴾(٨)

---

(١) سورة المائدة: ٥
(٢) سورة البقرة: ١٧٢
(٣) سورة الأعراف: ٣٢
(٤) سورة المائدة: ٢
(٥) سورة الرعد: ٣١
(٦) سورة البقرة: ٢٣٠
(٧) سورة البقرة: ٢٢٨
(٨) سورة البقرة: ٢٢٩

﴿ياأيها الذين آمنوا لايحلّ لكم أن ترثوا النساءَ كَرهاً﴾(٩)
﴿لاهنّ حِلّ لهم ولاهم يحلّون لهنّ﴾(١٠)
هذا الجزء من آية طويلة تشرح أن المؤمنات لايجوز تزويجهن بكافر مشرك وكذلك المؤمن لايجوز أن يتزوج مشركة
﴿وأحلّ اللهُ البيعَ وحرّم الرّبا﴾(١١)
﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتُحِلّوا شعائرَ اللّهِ ولا الشهرَ الحرامَ﴾(١٢)
﴿ويُحلّ لكم الطيباتِ ويحرّمُ عليكم الخبائثَ﴾(١٣)
﴿أحلّ لكم ليلةَ الصيامِ الرفثُ إلى نسائِكُم﴾(١٤)
﴿وأحلّ لكم ماوراءَ ذلك أن تبتغوا بأموالِكم محصنينَ غيرَ مسافحينَ﴾(١٥)
فالفعل (يحل) مع النفي في الآيات معناه لايجوز أو لايحق أو حرّم عليكم، ليبين مايحلّ للمسلم من النساء، فكل امرأة غير ماذكر يحل له الزواج بها إلا أن تكون متزوجة، ومن شروط التحليل أن يسبقه عقد زواج مع دفع المهر، شريطة أن يكون لغير الزنى، فلا زواج للمتعة، أو عقد القران ودفع المهر مع وجود نية مسبقة للتمتع فقط لفترة معينة يعقبها الطلاق ـ فهذا اللون من الزواج يدخل في باب المسافحة. المهم في الزواج الإسلامي أو في أي عمل إسلامي النية، وهذه النية يعرفها الله الذي يعلم مافي الصدور، فإذا كانت نية الإنسان أن يتزوج امرأة يريد اتخاذها زوجاً له إلى أجل غير مسمى من الزمن جاز ذلك فهو زواج شرعي إسلامي حتى وإن أعقبه بعد فترة قصيرة أو طويلة طلاق. المهم ألا تكون وراء العقد نية مسبقة من أحد الطرفين بالانفصال.
﴿أُحِلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلاّ مايُتلى عليكُم غيرَ مُحِلّي الصيدِ وأنتم حُرُمٌ﴾(١٦)
﴿يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾(١٧)
فالمقصود بهاتين الآيتين أن بعض الناس قبل الإسلام كانوا يحلّون الصيد في الأشهر الحرم عاماً ثم يحرمونه عاماً آخر، فينبههم الله تعالى إلى أن ذلك لايجوز فالأشهر الحرم الأربعة محرمة في كل عام. وفهم المسلمين للأشهر الحرم اليوم كله خاطئ سببه عدم تطابق السنة القمرية مع السنة الشمسية لأن المسلمين قد نسوا حكمة الله في الشهر

---

(٩) سورة النساء: ١٩
(١٠) سورة الممتحنة: ١٠
(١١) سورة البقرة: ٢٧٥
(١٢) سورة المائدة: ٢
(١٣) سورة الأعراف: ١٥٧
(١٤) سورة البقرة: ١٨٧
(١٥) سورة النساء: ٢٤
(١٦) سورة المائدة: ١
(١٧) سورة التوبة: ٣٧

النسيء وقد شرحت هذا الموضوع بالتفصيل في كتابي الثاني.

﴿قلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وماعلّمتُم من الجوارحِ﴾(١٨)

قوله تعالى: ﴿وماعلمتم من الجوارح﴾ يشير إلى أن الناس كانوا يعلّمون في العادة الطيور والكلاب عملية الصيد، وهذا الصيد الذي تجرحه هذه الجوارح فيموت قبل أن يصل إلى صاحب الصيد أكله محلّل.

---

(١٨) سورة المائدة: ٤

٥٣ ـ مامعنى «حرَّم الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

يأتي فعل حرم كما قلنا بمعنى: منع ونهى كما في الآيات التالية:

﴿قلْ إنّما حرّمَ ربّي الفواحشَ ماظهرَ منها ومابطنَ﴾[١]

﴿ولاتقتلوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ﴾[٢]

﴿إنّما حرّمَ عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهلّ لغيرِ اللهِ بهِ﴾[٣]

﴿وقد فصّلَ لكم ماحرّمَ عليكم إلاّ مااضطُرِرتُم إليه﴾[٤]

﴿قلْ تعالَوْا أَتلُ ماحرّمَ رُّبكم عليكُم﴾[٥]

ويأتي الفعل حرّم بمعنى منع دون نهي كما في الآية:

﴿إنّه منْ يُشرِكْ باللّهِ فقد حرّمَ اللهُ عليه الجنةَ ومأواهُ النارُ﴾[٦]

وغالباً مايجتمع في معناه المنع والنهي إذا اتصل بضمير المتكلم (نا): (حرّمنا)، أو (ها) الغائب:

﴿فَبِظُلمٍ من الذين هادُوا حرّمْنا عليهم طيباتٍ أُحِلّتْ لهم﴾[٧]

﴿وعلى الذين هادوا حرّمْنا كلّ ذي ظفرٍ﴾[٨]

﴿ومن البقرِ والغنم حرّمنا عليهم شحومَها﴾[٩]

﴿إنما أمرتُ أن أعبدَ ربَّ هذه البلدة الذي حرّمها وله كلُّ شيءٍ﴾[١٠]

أي: منعها ونهى عن الاعتداء فيها أو عليها. ويشرح الله تعالى سبب التحريم والتحليل في الآية التالية:

﴿ويُحلّ لهم الطيباتِ ويُحرّمُ عليهمُ الخبائثَ﴾[١١]

لكن الله تعالى أحياناً يحرم عقوبة لا لأن المحرِم من الخبائث كما في الآية السابقة (فبظلمٍ من الذين هادُوا حرّمْنا عليهم طيباتٍ أُحِلّتْ لهم﴾[١٢]

---

(١) سورة الأعراف: ٣٣
(٢) سورة الإسراء: ٣٣
(٣) سورة النحل: ١١٥
(٤) سورة الأنعام: ١١٩
(٥) سورة الأنعام: ١٥١
(٦) سورة المائدة: ٧٢
(٧) سورة النساء: ١٦٠
(٨) سورة الأنعام: ١٤٦
(٩) سورة الأنعام: ١٤٦
(١٠) سورة النمل: ٩١
(١١) سورة الأعراف: ١٥٧
(١٢) سورة النساء: ١٦٠

وليس للإنسان أن يتدخل فيحلل ويحرم لأن التحريم والتحليل ليسا من سلطة البشر ولو كانوا من الأنبياء والرسل:

﴿وحرّموا مارزقَهم اللّهُ افتراءً على اللّهِ﴾(١٣)

ونهى الله الرسول محمداً عن ذلك:

﴿ياأيّها النّبيّ لِمَ تحرّم ماأحلّ اللهُ لكَ﴾(١٤)

وأنا أستغرب كيف يتجرأ بعض رجال الدين والأئمة فيقولون: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم دون نص قرآني، كل ذي ناب وكل ذي ظفر، فهذا افتراء على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وإنما جاء ذلك إلينا من الاسرائيليات لأنها كانت محرمة عليهم فالله تعالى ينهى المؤمنين عن تحريم ماأحل لهم:

﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتحرّموا طيباتِ ماأَحَلَّ اللهُ لكم﴾(١٥)

ولايعني السماح إلزام المؤمن على أكل كل ماهو حلال فهو حرٌ في أكل مايشاء، إن عدداً من البشر لا يأكلون الضفادع أو الأرانب أو لحم الإبل أو لحوم السحالي، مع أنها غير محرمة، فلا إلزام أو إكراه في ذلك.

والمحرمات أنواع كما في الآيات التالية:

﴿حُرّمتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير وما أُهِلَّ لغيرِ اللّهِ بهِ﴾(١٦)

﴿حرّمت عليكم أمهاتُكم وبناتُكم وأَخواتُكم﴾(١٧)

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لاتقتلوا الصيدَ وأنتم حُرُمٌ﴾(١٨)

ومن الأشهر أربعة حرم:

﴿منها أربعةٌ حُرُمٌ ذلك الدينُ القيّمُ﴾(١٩)

﴿وحُرّمَ عليكم صيدُ البرّ مادمتُم حُرُماً﴾(٢٠)

﴿ولاتقاتلوهم عندَ المسجدِ الحرامِ حتى يقاتلوكُم فيهِ﴾(٢١)

ولكن الله عز وجل يذكر الناس على الدوام أن موضوع الحلال والحرام خاص به، فلا يجوز التحليل والتحريم هكذا جزافاً، فلا نحرم شيئاً لأننا نكرهه ولانحلل شيئاً

---

(١٣) سورة الأنعام: ١٤٠ (١٦) سورة المائدة: ٣ (١٩) سورة التوبة: ٣٦
(١٤) سورة التحريم: ١ (١٧) سورة النساء: ٢٣ (٢٠) سورة المائدة: ٩٦
(١٥) سورة المائدة: ٨٧ (١٨) سورة المائدة: ٩٥ (٢١) سورة البقرة: ١٩١

لأننا نحبه، يقول تعالى:

﴿ولاتقولوا لِما تَصِفُ ألسنتُكم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ﴾(٢٢)

﴿قلْ أرأيتُم ما أنزلَ اللهُ لكم من رزقٍ فجعلتُم منه حراماً وحلالاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لكم﴾(٢٣)

هذه الآية صحيحة في كل وقت، ويمكن أن توجه لكل إنسان، وليس لأهل الكتاب فقط، كما يظن بعض المسلمين الذين يوقفون عمل الآيات فقط على أسباب النزول فيقولون نزلت في بني كذا، فالمقصود بالآية هم بنو كذا فقط، وهذا غير صحيح لأن القرآن لكل الناس ولكل الأزمنة والأوقات وليس لوقت معين. وعلينا أن نلتزم حرمات الله ونقدرها ونقدّسها:

﴿ذلك ومَنْ يُعظِّمْ حرماتِ اللّه فهو خيرٌ له عندَ رّبِهِ﴾(٢٤)

والربا من المحرمات كما مرّ بنا، يقول تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرَّم الرّبا﴾(٢٥)

﴿الذين يأكلونَ الرّبا لايقومون إلاّ كما يقومُ الذي يتخبّطُه الشيطانُ من المَسّ﴾(٢٦)

﴿يمحقُ اللّهُ الرّبا ويُربي الصدّقاتِ﴾(٢٧)

﴿وما آتيتُمْ من رِبا ليَرْبُو في أموالِ الناسِ فلا يَرْبُوا عند الله﴾(٢٨)

صدق الله العظيم.

---

(٢٢) سورة النحل: ١١٦
(٢٣) سورة يونس: ٥٩
(٢٤) سورة الحج: ٣٠
(٢٥) سورة البقرة: ٢٧٥
(٢٦) سورة البقرة: ٢٧٥
(٢٧) سورة البقرة: ٢٧٦
(٢٨) سورة الروم: ٣٩

٥٤ ـ مامعنى «حدود الله» بدليل آيات القرآن الكريم

﴿ومن يعصِ اللّه وَرَسُولَهُ ويتعدَّ حدودَه يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها﴾[١] فما معنى حدّ ـ وحدود، وحدود الله؟

عندما نتحدث عن أي دولة مستقلة بعد ذكر اسمها ونظامها السياسي ننتقل إلى تحديدها، أي ذكر حدودها الجغرافية، فالحدود هي الفواصل التي تقام بين الدول وبها تعرف سيادة الدولة على أراضيها، وتنتهي هذه السيادة عند الحدود المشتركة بينها وبين الدولة أو الدول المجاورة لها.

وأما بالنسبة إلى الأفراد، فلكل فرد على الإجمال علاقات محددة كعلاقات القربى والنسب والصداقة والتعارف والتعامل، وهذه العلاقات تحدد وضعه الاجتماعي، وهي تخضع لتكوينه النفسي وعلمه وثقافته ومركزه الاجتماعي وعمره، فهو يحدد تلك العلاقات ولايسمح لأحد أن يتخطاها، لكن هذه الحدود ليست على الأرض وليست على الورق ولاتذكر بالكلام وإنما هي أمور تفهم من سلوك الفرد وأسلوب علاقاته بالناس، والفرد عادة يُخْضِعُ علاقاته لحدود، ويُلْزِمُ الآخرين على احترامها والتقيد بها ولايسمح لهم بتجاوزها.

وكذلك الشركات والدول، فإن لها أيضاً شخصياتها الاعتبارية التي بموجبها تتعامل مع باقي الشركات.

والله سبحانه وتعالى أيضاً يتعامل مع الإنسان من منطلق هذا المنطق الذي لايتعدى حدود الواقع والحق والعقل.

فالله سبحانه وتعالى من حيث القوة هو أقوى قوة في الوجود، وخالق كل شيء. ومن حيث الملكية هو مالك كل شيء، ووارث كل شيء في النهاية، وكل مخلوقاته تدخل في ملكه يتصرف بها كيف يشاء ـ فهي ضمن حدود مشيئته وإرادته.

وكل مخلوق عاقل تكون له علاقة بخالقه ومدبر شؤونه، وهي علاقة لها حدود لايجوز تجاوزها على الإطلاق، من هنا ندرك معنى حدود الله:

ذلك أن طبيعة العلاقة بين خالق عظيم وسيد للأكوان وأحد مخلوقاته الصغيرة وهو

---

(١) سورة النساء: ١٤

الإنسان غير متكافئة، فطرفها الأول هو الله، الآمر الناهي المتصرف وطرفها الثاني هو الإنسان المأمور، المتصرَّفُ به، فسؤاله وموقفه ومخاطبته لله تكون في مختلف المواقف طاعة وخضوعاً ودعاءً وتضرعاً ورجاء وسؤالاً، والله سبحانه يريد أن يرى الإنسان في موقف عبادة له وخضوع، تعبيراً عن نعمه التي أسبغها على عبده، ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وماخلقتُ الجنّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ﴾[٢] ومعنى العبادة هو الخضوع والطاعة.

والله تعالى لايسمح لعباده أن يتعدّوا حدودهم في علاقتهم به سبحانه لذلك يقول ﴿لاتجدُ قوماً يؤمنونَ باللّهِ واليوم الآخرِ يُوادّونَ من حادَّ اللّهَ ورسولَه﴾[٣] فالمؤمنون إيماناً صحيحاً بالله تعالى لايمكن لهمَ أن يستمروا في علاقة ودية مع أناس تجاوزوا حدود الله تعالى، وإنما نجدهم قد قطعوا تلك العلاقة الودية فوراً ﴿ألمْ يعلموا أنه مَنْ يُحادِدْ اللّهَ ورسولَه فأَنَّ له نارَ جهنّمَ خالداً فيها﴾[٤]

﴿إنّ الذين يُحادّون اللّهَ ورسولَه أولئكَ في الأذلّينَ﴾[٥]

هذه الحدود التي هي لله عدّها الله تعالى أيضاً حدوداً لممثّله على الأرض في شخص رسوله صلى الله عليه وسلم فمن يتعدَّ حدود الرسول يتعد حدود الله أيضاً، وهو بدهي، ففي معاملاتنا على الأرض تَعُدّ كل دولة ممثلها الرسمي ممثلاً لتلك الدولة فيجب على الطرف الآخر احترام ذلك الممثّل، لأن احترامه يعني احترام دولته، لاشخصه بصفته إنساناً.

ولكن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا حدوداً أخرى غير هذه الحدود فما هي:

﴿أحلّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثَ إلى نسائِكم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ عَلمَ اللهُ أنكم كنتم تختانونَ أنفسَكم فتابَ عليكم وعفا عنكم فالآنَ باشروهنّ وابتغُوا ماكتبَ اللهُ لكم وكُلوا واشربوا حتى يتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر ثم أتمّوا الصيامَ إلى الليلِ ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفونَ في المساجدِ تلكَ حدودُ اللهِ فلاتقربُوها كذلك يبيّنُ اللهُ آياتِهِ للناسِ لعلّهم يتّقونَ* ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطلِ وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموالِ الناسِ بالإثم وأنتم تعلمونَ﴾[٦]

فالله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان يعرف أفضل من البشر الشريعة المناسبة له،

---

(٢) سورة الذاريات: ٥٦
(٣) سورة المجادلة: ٢٢
(٤) سورة التوبة: ٦٣
(٥) سورة المجادلة: ٢٠
(٦) سورة البقرة: ١٨٧ - ١٨٨

دون أن يكون هناك تعد من فريق على فريق آخر، لذلك يبين لنا الله هذا الشرع وتلك الأحكام والحدود التي تحدد علاقات الناس بعضها ببعض دون أن يكون ذلك مخالفاً للحق الذي شرعه الله لهم فلا يجوز تخطي تلك الحدود من أحد. ففي الآيتين الكريميتين السابقتين يحدد الله سبحانه حقوق الصائم وأين تبدأ حدود هذه الحقوق وأين تنتهي:

سمح الله سبحانه أن يمارس الصائم علاقته الجنسية الطبيعية بزوجته في الليل من بعد المغرب وإلى ماقبل صلاة الفجر، علمنا أن بداية الحد هو المغرب ونهاية الحد هو صلاة الفجر، ثم عرفنا أن ذلك محرّم على من اعتكف في المسجد.وعلمنا أيضاً أن الأكل والشرب في الليل، أي ليلة الصيام، مسموح بها من المغرب وحتى تتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر أي مانسميه أول ضوء، وعلّمنا أيضاً أن الرشوة التي نقدمها للحكام والقضاة ليسهل لنا الحاكم والقاضي أكل أموال الخصم في المحاكمة من دون وجه حق (بالباطل) هي ممنوعة أيضاً لأننا نفعل ذلك ظلماً وإثماً. وشبه الله تعالى أكل أموال الناس بالباطل وأكل الربا بأكل الطعام محرماً في رمضان أو أكل الطعام المحرّم كالخنزير مثلاً في كل الأوقات.

ومن حدود الله في المواريث مايبينه تعالى في الآية الآتية:

﴿ولكم نصفُ ما تركَ أزواجُكم إنْ لم يكن لهنّ ولدٌ فإن كان لهنّ ولدٌ فلكم الربعُ... * تلكَ حدودُ اللهِ ومَنْ يُطِعِ اللّهَ ورسولَه يُدخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلك الفوزُ العظيمُ﴾(٧)

وهناك آيات كثيرة في القرآن من هذا النوع تبين أين تبدأ حقوق الإنسان وأين تنتهي، وقد ترك لنا الله حرية التصرف ضمن هذه الحدود، مع تحذيرنا من تخطيها ـ علاقة الرجل بزوجته، يسمح للزوج حرية الاستمتاع بها في كل الأوقات في إطار الحدود التي لايجوز تخطيها وهي هنا:

إلاّ: إذا كان صائماً.

إلاّ: إذا كان معتكفاً.

إلاّ: إذا كانت زوجته في فترة الحيض. فينتظر حتى تطهر.

---

(٧) سورة النساء: ١٢ ـ ١٣

إلاّ: إذا طلب من زوجته أن يأتيها بأسلوب شاذ من غير طريق الإنجاب الأساسي وهو الرحم، لأن الهدف من العلاقة الجنسية هو الانجاب في الأصل وليس الاستمتاع، فمن فهم هذه الحدود وتفهّمها جيداً، ونفّذها، فَهِمَ حدودَ الله وتصرف ضمنها وإلا فإنه يتخطى حدود الله فكل الحدود لله وحده فقط. لأن القرآن الكريم لايفرق بين حدودٍ لله وأخرى لرسوله:

﴿ومَنْ يعصِ اللّهَ ورسولَه ويتعدّ حدودَه يُدخِلْه ناراً خالداً فيها﴾(٨)

ولم يقل الله سبحانه أبداً (ويتعد حدودهما) وإن قالها الله لكان ذلك اعترافاً من الله بأن الرسول شريكه في الدين والإيمان.

(٨) سورة النساء: ١٤

٥٥ ـ مامعنى «إطاعة الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

إطاعتنا لله تعني انصياعنا لأوامره وتوجيهاته، نية وعملاً، من منطلق أن الله عز وجل لايريد لنا إلا الخير، فهو الذي خلقنا، وهيأ لنا سبل العيش، فنحن نثق به ونطيعه لأنه صادق، ولايريد لنا إلا السعادة في الدنيا والآخرة، مثلما نطيع رسوله لأنه صادق أمين، تحمّل العناء لتبليغنا رسالة الله، لينقلنا من عالم الضلالة والجهل إلى عالم الإيمان والنور، فالطاعة تنبع من المحبة والثقة، فنحن نثق بالله لأنه صادق فنطيعه ونثق بأن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق وأمين فنطيعه، ونثق بأن والدنا جدير بالطاعة إن كان يريد نفعنا فنطيعه، فالإطاعة تأتي بشكل عام من الثقة والمحبة المستندتان للعقل والتفكير. فالمسلم الذي يثق بالله عن إيمان مستند للعقل والمنطق يسلم أموره لخالقه ويطيعه لثقته أنه سبحانه ليس له من مصلحة في طاعته ولافي عصيانه إلا أنه يريد منفعة العبد ولايحب له الضرر. وهناك الكثير من المؤمنين يستندون للعاطفة والحب كقاعدة.

وتلك لها مضارّها وأخطارها الجسيمة، فالله سبحانه ينبهنا في القرآن الكريم أنها قاعدة خاطئة يجب تعديلها، لأنها تخلق من المؤمن إنساناً ساذجاً يتبع كل المخادعين والمنافقين بسهولة من دون حذر، بينما من واجب المؤمن الحرص والسير على مبدأ الشك واستخدام وسائل العقل للتبصر والتفكير والحذر من كل من يدّعي ويجعل من نفسه واعظاً ناصحاً محباً، يجب أن لانسلمه أمرنا ونثق به حكماً بالظواهر قبل أن نتأكد تماماً بالمعاشرة والتعامل الحقيقي معه ولفترة طويلة بالدرهم والدينار لنتأكد من صدقه وحقيقة أمره.

﴿وإنْ تُطع أكثرَ منْ في الأرض يضلّوكَ عن سبيلِ اللّهِ﴾(١)

وليس لنا أن نطيع أي إنسان مالم نثق به بعد تحكيم العقل فإن إطاعته قد تتعارض وإطاعة الله.

فالله ينبهنا إلى الكذاب الذي يؤكد صدقه بالقسم، وإطاعة الكذاب لاتؤدي في النهاية إلا إلى الضلالة.

﴿ولاتُطِعْ كلّ حلافٍ مهينٍ﴾(٢)

فالله تعالى يوصينا بطاعة الوالدين إلا إذا زينوا لنا الإشراك بالله، أما إطاعة الله فتؤدي إلى نفع الإنسان على الدوام:

---

(١) سورة الأنعام: ١١٦ (٢) سورة القلم: ١٠

﴿وإنْ جاهداكَ لتشركَ بي ماليس لك به علم فلا تُطِعْهُما﴾[3]
﴿وإن تُطيعوه تهتدوا وماعلى الرسولِ إلاّ البلاغُ المُبينُ﴾[4]
والرسول الكريم يقول للناس في القرآن الكريم:
﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾[5]
فطاعة الله فيها الهداية، والرسول يطلب من البشر إطاعة الله لا إطاعته ﴿ياأيّها الذينَ آمنوا أَطِيعوا اللّهَ﴾[6] والإطاعة هي استجابة لتنفيذ الأوامر والتعليمات والمواعظ والنصائح في القرآن الكريم. وإطاعة الرسول هي دائماً إطاعة الله بما أمر به في كتابه فقط.
ومخلوقات الله غير العاقلة كلها تطيع الله طوعاً أو كرهاً، دون أن تكون مخيرة:
﴿وله أَسْلَمَ منْ في السمواتِ والأرضِ طوْعاً وكرْهاً﴾[7]
ويدخل في هذه الطاعة التي تشير إليها الآية الإنسان، على الرغم من أن الله استثناه وأعطاه العقل والحرية والإدراك وترك له حرية المشيئة والاختيار، لكن عليه أيضاً أن يخضع ويسجد ويتقبل كل أمور الله طوعاً أو كرهاً في أمور أخرى. فهو لايستطيع مثلاً أن يرفض الموت أو البعث ﴿ولّله يسجدُ منْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً أو كرْهاً﴾[8]
﴿فقال لها وللأرضِ ائْتِيَا طوعاً أو كَرْهاً﴾[9]
ومن صور الإطاعة التطوّع:
﴿ومن تطوَّعَ خيراً فإنّ اللهَ شاكرٌ عليمٌ﴾[10]
وعلينا أن نعلم أن طاعة الإنسان لله هي الطاعة الوحيدة التي تكون تطوعاً وليس كرهاً، هكذا شاء الله أن تكون، ولو شاءها بالإكراه لخلق الناس جميعاً مؤمنين:
﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآَمَنَ منْ في الأرضِ كلُّهم جميعاً﴾[11]
ولكن لايصح أن نقول: إن شاء الله يؤمن فلان، لأن ذلك يعني أن الله عز وجل لم يعط الفرصة لذلك العبد من عباد الله أن يؤمن أو يكفر بإرادته الحرة بل فرض الله عليه بمشيئته مايريد.

---

(٣) سورة العنكبوت: ٨
(٤) سورة النور: ٥٤
(٥) سورة النور: ٥٤
(٦) سورة النساء: ٥٩
(٧) سورة آل عمران: ٨٣
(٨) سورة الرعد: ١٥
(٩) سورة فصلت: ١١
(١٠) سورة البقرة: ١٥٨
(١١) سورة يونس: ٩٩

وهو فهم خاطئ لله، ولارادته ولمشيئته، ذلك أن الله عز وجل هو أول الملتزمين وفاءً لوعوده وكلامه ومواثيقه وعهوده، وأسلوبه في التعامل مبني على الصدق، مع مخلوقاته. وهذا مانجده في كل القرآن الكريم - وليس من حالة شاذة واحدة تخالف مبدأ صدقه.

ومن الإطاعة والتطوع الاستطاعة: فللإنسان قدرة محدودة، فما يستطيع تنفيذه، أو مايقع ضمن قدراته يعدّ استطاعة، فإذا أمرت إنساناً أن يقفز عشرة أمتار وليس له القدرة على ذلك تعذر عليه إطاعتك، لأن طلبك تجاوز حدود استطاعته، فهو لايرفض الطاعة ولا يقول لك: لاأطيع، بل لاأستطيع، فهو يُحب لكن قدراته لاتسمح، والله يعرف حدود استطاعتنا، فلا يكلفنا ما لانستطيع. ﴿لايُكلّفُ اللّهُ نفساً إلا وسعَها﴾(١٢)

﴿ولنْ تستطيعوا أنْ تعدلوا بينَ النساءِ ولو حرصتُم﴾(١٣)

حقيقة يعرفها الله فيخبر بها البشر لاتتعبوا أنفسكم فلن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم على تحقيق العدل بينهن (في حال كونهن زوجات لرجل واحد).

لذلك بما أن الله تعالى يعرف قدراتنا فلن يؤاخذنا إلا ضمن هذه القدرات فالطاعة مطلوبة ضمن ما نستطيع فقط.

﴿سأُنبئكَ بتأويلِ مالَمْ تستطعْ عليه صبراً﴾(١٤)

﴿إن الذين ارتدوا على أدبارِهم من بعدِ ماتبيّنَ لهم الهدى الشيطان سوّلَ لهم وأملى لهم* ذلك بأنّهم قالوا للذينَ كرهوا مانزّلَ اللهُ سنُطيعكم في بعضِ الأمرِ واللهُ يعلمُ إسرارَهُم﴾(١٥)

وفي الآيتين ٢٥ و ٢٦ من سورة محمد يعرض تعالى لنا قصة بعض المؤمنين الذين تركوا الإيمان بعد أن تبين لهم الهدى، وهكذا ارتدوا كفاراً بعد إيمانهم لأنهم أطاعوا الشيطان بدل إطاعة الله.

---

(١٢) سورة البقرة: ٢٨٥
(١٣) سورة النساء: ١٢٩
(١٤) سورة الكهف: ٧٨
(١٥) سورة محمد: ٢٥ - ٢٦

٥٦ ـ مامعنى «أطيعوا الله والرسول» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿يا أيّها النبيّ اتقِ اللّهَ ولاتُطعِ الكافرينَ والمنافقينَ﴾(١)

﴿فلاتُطِع الكافرينَ وجاهِدْهُم به جِهاداً كبيراً﴾(٢)

﴿ولاتُطِع الكافرينَ والمنافِقينَ ودعْ أذاهم وتوكّلْ على اللهِ﴾(٣)

﴿فلاتطع المكذّبين ودّوا لو تدهنَ فيدهنونَ﴾(٤)

﴿فاصبرْ لحكمِ ربِّكَ ولاتُطع منهم آثِماً أو كفوراً﴾(٥)

إن كل الآيات القرآنية التي ورد فيها نهي عن الطاعة موجهة في الأصل للرسول محمد صلى الله عليه وسلم على أنها تعليمات وأوامر مباشرة من الله تعالى له، فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم تحت مراقبة الله المباشرة له، في كل أفعاله وتصرفاته وأقواله وحركاته وسكناته، لماذا؟ لأن الرسول قدوة لكل المؤمنين، فكل شيء يصدر عنه يجب أن يكون مطابقاً للمنهج الإلهي. وإلا صحح الله له ونبهه، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم يؤمن بالله ويحبه ويطيعه في كل شيء حباً وتطوعاً، ولايريد أن يغضب الله أبداً، من هنا نعلم أن أوامر الرسول وتعليماته كلها على الإطلاق مطابقة تطابقا تاماً مع آيات القرآن الكريم. وعلينا أن نتذكر أن الله تعالى اختار الرسول أمياً لم يتعلم من كتاب ولم يخطّ بيمينه، وهو اختيار له دلالة خاصة فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليس عنده معلومات خاصة به غير المعلومات التي أتته من السماء، ولأنه لايعلم كان إذا سئل انتظر الإجابة من الله، التي تنزل عليه بصيغة: قل، وهي صيغة تكررت مئات المرات في القرآن الكريم. يتساوى عدد المرات التي وردت فيها كلمة (قالوا) والله يعني بذلك ماقاله الناس والجن مع عدد المرات التي وردت فيها كلمة قل جواباً لكلمة قالوا في القرآن وهي تساوي ٣٣٢ مرة: قالوا و ٣٣٢ قل بدليل أن الله قد أجاب على تساؤلات مخلوقاته دون أن يترك منها واحدةً والدليل هو تطابق العددين، الذي لم يحصل مصادفةً بدليل تطابقات كثيرة مثلها في القرآن.

---

(١) سورة الأحزاب: ١
(٢) سورة الفرقان: ٥٢
(٣) سورة الأحزاب: ٤٨
(٤) سورة القلم: ٨
(٥) سورة الإنسان: ٢٤

فليس لمخلوق أن يدعي بعد هذا أن أوامر الرسول يمكن أن تتعارض مع أوامر الله في القرآن، وقد أوضح ذلك للصحابة بأسلوبه الشخصي محاولاً توضيح الأمر لهم، ونحن إذ نركز على هذه الحقيقة إنما هدفنا أن نزيل من ذهن القارئ الذي قد يتوهم أن حديث الرسول أو كلامه قد يكون له أهمية خاصة في فهم الإسلام بحيث إذا ألغيناه أو أبعدناه عجزنا عن فهم القرآن، وهو وهم لاحقيقة له للأسباب الآتية:

لو كان الحديث ضرورياً لنبه إلى تلك الضرورة سبحانه وتعالى في آية من آياته في القرآن الكريم، لكن الله تعالى لايتحدث في القرآن إلا عن حديثه وحده وليس عن حديث آخر سواه:

﴿اللّه نزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربَّهم﴾(٦)

في ضوء ذلك علينا أن ندرك من الآيات الآتية أن إطاعة الرسول المطلوبة هي في الحقيقة إطاعة الله إذ ليس مع الرسول إلا القرآن، والقرآن من الله، فمن أطاع الرسول أطاع الله.

وهذا تماماً ما يقوله الله تعالى في الآيات الآتية:

﴿منْ يُطِعِ الرسّولَ فقد أطاعَ اللّهَ﴾(٧)

﴿ومن يُطع اللّهَ ورسولَه يُدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾(٨)

﴿ياأيّها الذين آمنوا أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم﴾(٩)

﴿وأطيعوا اللّه وأطيعوا الرسولَ واحذَروا﴾(١٠)

﴿وأَطيعوا الرسولَ لعلّكم تُرحمون﴾(١١)

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ ولاتبطلُوا أعمالكم﴾(١٢)

﴿إنّي لكم رسولٌ أمينٌ فاتّقوا اللّه وأطيعونِ﴾(١٣)

وهذه الآية تتكرر في سورة الشعراء.

في كل هذه الآيات يتبين لنا أن أوامر الرسول للناس وتعليماته هي التي وردت إليه من الله تعالى في القرآن، وكلها تعني ما يقول للناس، والناس لايرون الله تعالى وإنما

---

(٦) سورة الزمر: ٢٣
(٧) سورة النساء: ٨٠
(٨) سورة النساء: ١٣
(٩) سورة النساء: ٥٩
(١٠) سورة المائدة: ٩٢
(١١) سورة النور: ٥٦
(١٢) سورة محمد: ٢٣
(١٣) سورة الشعراء: ١٠٨

يسمعون كلامه من رسوله، وكلامه منزل للرسول، وليس لدى الرسول كلام سواه ليقوله للناس، ولو أدرك المسلمون هذه الحقيقة لشُفوا من أوهامهم، فحديث الرسول لايتعدى مافي القرآن، وتعليماته لاتتجاوز القرآن، وأوامره في ضوء القرآن، وتعليماته مستمدة من القرآن، وليس عنده كتاب آخر يأخذ منه أو يتعلم منه غير القرآن. أما إذا كنا نقصد بالحديث استنتاجات الرسول صلى الله عليه وسلم من فهمه القرآن والدين الإسلامي واجتهاده واستنباطه للأحكام لتطبيقها على الناس في عصره من الذين عاشوا معه صلى الله عليه وسلم، فهذا موضوع آخر ليس له علاقة بالمسلمين عامة، وهذا الموضوع أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة، فمنع كتابة ماأوضحه للناس من أمور دينهم، من كتب عني غير القرآن فليمحه أو قال: أكتاب مع كتاب الله؟ أتدرون: ماضل الأمم من الذين قبلكم إلا بما اكتتبوا مع كتاب الله فالتزم كبار الصحابة من الخلفاء الراشدين هذا الأمر، والتزموا أيضاً بعدم رواية الأحاديث إلا ماكانت أحكاماً في زمانهم، وقد شرحنا ذلك كله في أبحاث سابقة، ولو كان وجود الحديث من الضرورة بمكان لما أمر النبي بإتلاف الأحاديث، وهل يمكن أن يتلف الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً له ضرورته بالنسبة إلى المسلمين؟ لقد أدرك صلى الله عليه وسلم أن باب الحديث سيكون مجالاً للدس والكذب والتدليس عليه وعلى الإسلام، إن شأن الحديث كشأن الخمرة فقد أمرنا الله أن نتجنبها مع مافيها من منافع، لأن مضارها أكبر من منافعها، وكذلك الحديث إذا كانت فيه بعض المنافع فمضارها على الإسلام والمسلمين أكبر، بسبب مادخلها من تحريف ووضع، لذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث، وهو نهي واجب الاتباع حتى يوم القيامة.

﴿يسألونَكَ عن الخمرِ والميسرِ قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنّاس وإثمُهما أكبرُ من نفعِهما﴾(١٤)

لكنّ الله مع إقراره أن فيها بعض المنافع بيّن أن ضررها أكبر من نفعها ولذلك عدّها رجساً من عمل الشيطان.

﴿إنّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ﴾(١٥)

قد يقول بعض المسلمين: إن هناك بعض الأحاديث المروية عن الرسول الكريم لها منافع للناس مثل قوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١٤) سورة البقرة: ٢١٩ (١٥) المائدة: ٩٠

(لايؤمن أحدُكم حتى يحبّ لأخيه مثل مايحب لنفسه)

وقوله صلى الله عليه وسلم: (النظافة من الإيمان)

وقوله صلى الله عليه وسلم: (الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)

وقوله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) شرط أن نفهم العلم على أنه العلم وليس الفقه أو الحديث.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: من صدقه جارية أو علم ينتفع به بعده أو ولد صالح يدعو له).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء) شرط أن يكون العلماء علماء حقيقيين، لأنه صلى الله عليه وسلم جعلهم ورثة الأنبياء والنبي ينقل أنباء الله من حقائق نورانية وعلوم صحيحة وردت في القرآن أو علوم تاريخية (قصص) كل مانقله النبي من الله هو من العلوم، ومانقله الرسول هو الرسالة والأحكام، ومن الأحكام الفقه (خير دينكم أيسره). (علموا ويسروا ولاتعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت).

وكلها أحاديث صحيحة ولايستطيع أن ينكرها عاقل، وكلها لاتحتاج إلا سند أو إسناد لأنها مستمدة من القرآن، وتطابق ماورد فيه، وليس فيها من تناقض أو تنافر معه، لكن هذه الأحاديث النافعة التي لاتتعدى العشرات يقابلها مئات الألوف من الأحاديث الأخرى التي تناقض القرآن والنصوص القرآنية، وتكذب الله والرسول، فحكمنا على هذه الأحاديث هو ضرب من الطاعة لله ورسوله في أمر واضح وصريح قاله الرسول للمسلمين، وثبتت لدينا صحته بالبرهان من خلال تقيد الصحابة بتنفيذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (من كتب عني غير القرآن فليمحه) فلا يجوز أن ننسخ أمره بكل بساطة وندعي أنه سمح لنا أن نكتب عنه ثم قرأنا بعد ذلك أن الخلفاء الراشدين كلهم تقيدوا بهذا الأمر، إلى أن جاء عصر تبدلت فيه أحوال المسلمين، ودفعت المصالح الدنيوية بعض المنتفعين وأصحاب السلطة إلى الترويج لكتابة الأحاديث ووضعها مثل (وحدثوا عن بني اسرائيل ولاحرج) وماكان ممنوعاً أمس صار مسموحاً اليوم. ونحن نقول لهؤلاء المروجين من أعطاكم السلطة لإصدار حكم فقهي في قضية فقهية فمن الذي منحكم السلطة لإلغاء القاعدة الأساسية التي بنى الله سبحانه عليها الإسلام، بأن جعل القرآن نهجاً له؟ ومن جعلكم تضعون مع كتاب الله كتاباً آخر ومع حديث الله حديثاً آخر ومع سنة الله سنة أخرى؟ ومع كلام الله كلاماً آخر غير كلامه في القرآن؟

إنكم تدعوننا لأن نشرك بالله وبمنهجه، والرسول وصحابته الكرام لم يقعوا في هذه الخطيئة.

وهل من مصلحة المسلمين أن نجعلهم فرقاً وشيعاً على عدد مافي الأحاديث من اختلاف وتضارب؟

قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: حدثنا يارسول الله، فأنزل الله سبحانه وتعالى الآية التالية:

﴿اللهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ذلك هدى اللهِ يهدي به منْ يشاءُ ومنْ يضللْ الله فما له من هادٍ﴾[١٦]

صدق الله العظيم.

(١٦) سورة الزمر: ٢٣

٥٧ ـ مامعنى «فضل الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

لنتعرف معنى (فضَّلَ) و(فضل) من آيات القرآن الكريم دون اللجوء إلى معجم كما تعودنا في هذا الكتاب، حيث يشير تعالى في الآية إلى فضّل الرجال ببعض الأمور ﴿الرجالُ قوّامونَ على النساءِ بما فضّلَ اللهُ بعضَهم على بعض﴾[١]

﴿فضّل الله المجاهدين بأموالِهم وأنفسهم على القاعدين درجةً﴾[٢]

﴿وفضّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾[٣]

﴿والله فضّلَ بعضَكم على بعضٍ في الرزقِ﴾[٤]

وليس في ذلك ظلم للناس، بل عدل للأسباب الآتية:

١ ـ إن سعي الناس للرزق متفاوت، وكسبهم نتيجة لذلك متفاوت.

٢ ـ إن استعداد الناس لتحصيلِ الرزق من علم ومعلومات وخبرات مكتسبة بالجهد محصلة من الآباء متفاوت أيضاً ويترتب عليه تفاوتهم في الرزق.

٣ ـ ولو كان الناس كلهم أغنياء لتوقفت الحياة وتوقف الناس عن العمل وخدمة بعضهم بعضاً، لذلك يهب رب العالمين الرزق بقدر، لكي يجعل الناس تسعى لتحصيله باستمرار فيعمر الدنيا بسعي من فيها في شتى المجالات، ولو أصبح الناس كلهم أغنياء دفعةً واحدةً لتوقفوا عن العمل وظلموا بعضهم بعضاً، يقول تعالى:

﴿ولو بسَطَ الله الرزقَ لعبادِهِ لبَغْوا في الأرض ولكنْ يُنزِّلُ بِقَدَرٍ مايشاءُ إنّه بعبادِهِ خبيرٌ بصيرٌ﴾[٥]

ويرد في الآيات تعبير «فضَّلَ الله» ﴿تلك الرسل فضّلْنا بعضَهم على بعضٍ منهم من كلّمه الله ورفعَ بعضَهم درجاتٍ﴾[٦]

﴿فلولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه لكنتم من الخاسرين﴾[٧]

﴿إنّ الله لذو فضلٍ على الناس ولكنّ أكثرَ الناسِ لايشكرون﴾[٨]

---

(١) سورة النساء: ٣٤
(٢) سورة النساء: ٩٥
(٣) سورة النساء: ٩٥
(٤) سورة النحل: ٧١
(٥) سورة الشورى: ٢٧
(٦) سورة البقرة: ٢٥٣
(٧) سورة البقرة: ٦٤
(٨) سورة البقرة: ٢٤٣

فعلينا أن نقابل فضل الله بشكره، فالفضل يقابل بالشكر، والفضلُ نعمةٌ يقدمها صاحب الفضل للمُتَفَضّل عليه، قد تكون عطاء مادياً، أو مساعدة من نوع ما كأن يسقط رجل في واد فينزل إليه آخر فينقذه من الموت، فيقول له: إنك ذو فضل علي، وفي ذلك قال تعالى:

﴿قلْ إنّ الفضلَ بيدِ اللّهِ يؤتيه منْ يشاءَ﴾(٩)

والرحمة فضل من الله وفي ذلك يقول تعالى:

﴿يَختصُّ برحمتِهِ منْ يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ﴾(١٠)

والعفو أيضاً من فضل الله وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ولقد عَفا عنكم واللهُ ذو فضلٍ على المؤمنين﴾(١١)

والنعم أيضاً من فضل الله لذلك يقول تعالى:

﴿يستبشرونَ بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ﴾(١٢)

﴿فانقلبوا بنعمةٍ من اللّهِ وفضلٍ لم يمسَسْهُم سوءٌ﴾(١٣)

﴿ومن يُطعِ اللّهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيّين والصدّيقينَ والشهداءَ والصالحينَ وحَسُنَ أولئك رفيقاً * ذلك الفضلُ مِنَ اللهِ وكفى باللهِ عليماً﴾(١٤)

﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتّبعتُم الشيطانَ إلا قليلاً﴾(١٥)

فعلى الإنسان في كل لحظة أن يحذر الشيطان فإن الله سوف يختبر إيمانه وقوة ارتباطه بالله، فمن غفل وقع، ومن وقع في يد الشيطان فلن يتوقع من الله رحمة أو هداية أو صراطاً مستقيماً بل سوف يجعله يستحق الجحيم عن جدارة.

﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكَ ورحمتُه لَهمَّتْ طائفةٌ منهم أن يضلّوكَ﴾(١٦)

ومثل هذه الآيات يجب أن يقرأها المؤمن اليوم وكأنها تتنزل عليه مباشرة من الله تعالى، لتظل حية متجددة تعيش معنا، لا أن يقرأها على أنها نزلت منذ قرون يبحث عن أسباب نزولها فإن البحث عن أسباب النزول يجعل الآية تموت في الزمن، ويتوهم

---

(٩) سورة آل عمران: ٧٣
(١٠) سورة آل عمران: ٧٤
(١١) سورة آل عمران: ١٥٢
(١٢) سورة آل عمران: ١٧١
(١٣) سورة آل عمران: ١٧٤
(١٤) سورة النساء: ٦٩ - ٧٠
(١٥) سورة النساء: ٨٣
(١٦) سورة النساء: ١١٣

إنسان اليوم أنها قيلت في بني فلان وفي عهد الرسول، وكأننا غير مقصودين بها وهو خطيئة نرتكبها نحن المسلمين اليوم، فلا حدود زمانية أو مكانية لآيات الله، كأن نظن أن الآية الآتية مثلاً موجهة لأهل الكتاب فحسب ﴿فويلٌ للذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عندِ الله فويلٌ لهم ممّا كتبَتْ أيديهم وَوَيْلٌ لهم ممّا يكسبونَ﴾(١٧)

لأن أهل الكتاب لايعترفون حتى اليوم بالقرآن ولايقرؤونه، لقد أنزلت في القرآن كي يقرأها المسلمون أصحاب الرسالة فيعتبروا، وقد خرج منهم فعلاً من فعل كأهل الكتاب وكتب كتاباً غير القرآن لم يأمر به الله ولا الرسول، وادعى أنه من عند الله، واستدل على آيات من القرآن ليثبت دعواه قائلاً: إن كل كلام الرسول وحي يجب كتابته، وحتى أحاديثه التي يحدث بها زوجاته في الليل هي وحي يجب أن يسجل في كتاب: والله تعالى يقول:

﴿وما ينطقُ عن الهوى * إنْ هو إلّا وَحيٌ يُوحى﴾(١٨)

وهو عز وجل يقصد بقوله آيات القرآن الكريم، أما الشيطان فيريد أن يفهم الناس بأن كل أقوال الرسول الخاصة حتى مع نسائه أيضاً من الوحي، ويجب أن يسجل في كتاب، والغريب أن الشيطان نجح في إقناعنا أكثر من ألف سنة ولازال يغرس فينا هذا الوهم، بينما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه يتبع ما أمره به ربه:

﴿قلْ إنّما أتبعُ مايوحى إليّ من ربّي﴾(١٩)

وهل أوحي للرسول غير القرآن؟

﴿قل إنّما يوحى إليّ أنّما إلهكُم إلهٌ واحدٌ فهل أنتم مسلمونَ﴾(٢٠)

﴿قل إنّما أنا بشر مثلُكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إلهٌ واحد﴾(٢١)

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينِهِ فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبّهم ويحبونَه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ولايخافون لومةَ لائمٍ ذلك فضلُ اللهِ يؤتيه منْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾(٢٢)

فكيف نعد أنفسنا اليوم بعيدين عن متناول هذه الآية ومعانيها العميقة، فتبصروا يا أولي الألباب.

---

(١٧) سورة البقرة: ٧٩
(١٨) سورة النجم: ٣ ـ ٤
(١٩) سورة الأعراف: ٢٠٣
(٢٠) سورة الأنبياء: ١٠٨
(٢١) سورة فصلت: ٦
(٢٢) سورة المائدة: ٥٤

والله تعالى لا يولي فضله الناس كيفما اتفق وإنما يهبه ضمن قوانين وسنن يتبعها لاتتبدل:

﴿ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه﴾(٢٣)

﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه في الدنيا والآخرة لَمسّكُم في ما أَفضْتُم فيه عذابٌ عظيمٌ﴾(٢٤)

﴿ولولا فضلُ الله عليكُم ورحمتُه مازَكَى منكُم من أحدٍ أبداً﴾(٢٥)

﴿سابقوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنةٍ عرضُها كعرضِ السماءِ والأرض أُعِدَّتْ للذينَ آمنوا باللّه ورسلِهِ ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ﴾(٢٦)

﴿فانتشروا في الأَرض وابتغُوا منْ فَضْلِ اللّهِ﴾(٢٧)

فالرزق إذاً من فضل الله.

﴿وآخرونَ يَضرِبونَ في الأرضِ يبتغونَ من فضلِ اللّهِ﴾(٢٨)

والنهار جعله الله منيراً ليسعى فيه الناس إلى رزقهم ﴿وجعلْنا آيةَ النهارِ مُبْصِرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم﴾(٢٩)

﴿يبتغونَ فضلاً من اللّهِ ورضواناً وينصرونَ اللّهَ ورسولَهُ﴾(٣٠)

﴿ولايَحْسَبَنَّ الذين يَبخَلُونَ بما آتاهُم اللّهُ من فضلِهِ هو خيراً لهم﴾(٣١)

فكل ما يطلبه العبد من ربه هو من فضل الله، فإن سأل التوبة فهو فضل، وإن سأل المغفرة فهو فضل، وإن سأل العفو فهو فضل، وإن سأل الشهادة فهو فضل، وإن سأل المال فهو فضل، وإن سأل الزواج الصالح فهو فضل، وإن سأل الذرية الصالحة فهو فضل:

﴿ذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ واللّهُ ذو الفضلِ العظيم﴾(٣٢)

صدق الله العظيم

---

(٢٣) سورة هود: ٣
(٢٤) سورة النور: ١٤
(٢٥) سورة النور: ٢١
(٢٦) سورة الحديد: ٢١
(٢٧) سورة الجمعة: ١٠
(٢٨) سورة المزمل: ٢٠
(٢٩) سورة الإسراء: ١٢
(٣٠) سورة الحشر: ٨
(٣١) سورة آل عمران: ١٨٠
(٣٢) سورة الجمعة: ٤

٥٨ ـ مامعنى «تقوى الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

يرد الفعل (وقى) في القرآن الكريم بمعنى: حمى وصان وجنّب:

﴿فمنّ الله علينا ووقانا عذابَ السمومِ﴾[١]

أي حمانا وصاننا من عذاب السموم

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئاتِ مامَكروا وحاقَ بآلِ فرعونَ سوء العذابِ﴾[٢]

﴿لايذوقونَ فيها الموتَ إلّا الموتة الأولى ووَقاهم عذابَ الجحيم﴾[٣]

﴿وجعلَ لكم سرابيلَ تَقيكُم الحرَّ وسرابيلَ تَقيكُم بأسكُم﴾[٤]

أي لباساً يقيكم من الحر وآخر من زرد يحميكم من السيوف والرماح

﴿ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وَقِنا عذابَ النارِ﴾[٥]

أي: جنّبنا عذاب النار.

ومثله قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذينَ آمنوا قُوا أنفسَكُم وأهلِيكم ناراً﴾[٦]

أي جنّبوا أنفسكم وأهليكم عذاب النار.

وكذلك في: ﴿ومن يوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئك هم المفلِحونَ﴾[٧]

أي يجنب نفسه حب الذات والأثرة، ويرد الفعل (اتقى) من الوقاية، أي: حمى نفسه وأبعدها عن الشيطان: ﴿فمنْ اتّقى وأصلَحَ فلا خوفٌ عليهم ولاهُم يحزنونَ﴾[٨]

وكذلك في (اتقوا): ﴿والذينَ اتّقوا فوقَاهم يومَ القيامةِ﴾[٩]

﴿للّذين أحسنوا منهم واتّقوا أجرٌ عظيمٌ﴾[١٠]

فالتقوى إذاً هي من مشتقات الفعل (وقى) وقد وردت كثيراً في القرآن بمعنى حماية النفس من الشر وإبعادها عنه، فتغدو عادة للمؤمن يثبت بها أمام اختيار الشيطان وغوى

---

(١) سورة الطور: ٢٧
(٢) سورة غافر: ٤٥
(٣) سورة الدخان: ٥٦
(٤) سورة النحل: ٨١
(٥) سورة البقرة: ٢٠١
(٦) سورة التحريم: ٦
(٧) سورة التغابن: ١٦
(٨) سورة الأعراف: ٣٥
(٩) سورة البقرة: ٢١٢
(١٠) سورة آل عمران: ١٧٢

النفس فيغدو محصناً بالتقوى، قوي الإرادة لاينجرف وراء أهوائه كغيره من الذين لاتقوى عندهم، فالتقوى عِدّةُ المؤمن أمام التجارب:

﴿فإنّ خيرَ الزادِ التّقوى﴾[11]

ومن خصائص التقوى الصفح والعفو ﴿وأن تعفُوا أقربُ للتقوى﴾[12]

ومن سماتها التعاون في عمل الخير ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تَعاوَنوا على الإثمِ والعدوانِ﴾[13]

ومن مظاهرها العدل والابتعاد عن الظلم: ﴿اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتّقوا اللّهَ﴾[14]

وقد وردت الآية الأخيرة: (المائدة: ٨) مختومة بقوله تعالى: اتقوا الله، فما معنى تقوى الله؟

إنّ الله لايحبّ أن يرانا فريسةً بين فكي الشيطان أو صيداً لنفوسنا الأمارة بالسوء. فقوله تعالى: (اتقوا الله) أي احموا أنفسكم من غضب الله، وأبعدوها عن نقمته باجتناب المعصية والشر، فتقوى الله تعني تجنب فعل مايغضب الله.

يقول تعالى: ﴿وَلِباسُ التّقوى ذلكَ خيرٌ﴾[15]

أي أن التقوى تصبح عادة ملازمة للمؤمن فكأنه قد لبسها ولايتخلى عنها مثلما يلازم لباسه، وكذلك في قوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التّقوى من أولِ يومٍ أحقّ أن تقومَ فيه﴾[16]

أي إن المسجد الذي أسس من مؤمنين يخشون غضب الله فلا يفعلون مايغضبه، ويقربون أنفسهم دائماً إليه بفعل الخير وتنفيذ أوامره تعالى وإطاعته بما يرضيه أحق بالقيام والصلاة فيه من مسجد آخر لم يؤسس على تلك المبادئ وفيه أناس من المنافقين الذين يفعلون مايغضب الله ولايتقون الله في شيء.

﴿لن ينالَ اللّهَ لحومُها ولادماؤها ولكنْ ينالُه التّقوى منكُم﴾[17]

والآية تشير إلى الأضاحي التي تقدم لله ولكنه تعالى لاينال من لحومها ولامن دمائها، فالله ليس كما وصف في العهد القديم يحب رائحة اللحم المشوي على النار ولذلك كانوا يحرقون له الأضاحي، وإنما يسعده كما تقول الآية: أن يرى عبده يتبع المناسك

(١١) سورة البقرة: ١٩٧
(١٢) سورة البقرة: ٢٣٧
(١٣) سورة المائدة: ٢
(١٤) سورة المائدة: ٨
(١٥) سورة الأعراف: ٢٦
(١٦) سورة التوبة: ١٠٨
(١٧) سورة الحج: ٣٧

طاعة لله، فهذه الطاعة نفسها هي التي يطلبها الله من عباده، والطاعة عبادة لله، وقد ترد كلمة فجور لتقابل كلمة التقوى، وتناقضها في المعنى:

﴿ونفسٍ وما سوّاها * فألْهمَها فجورَها وَتَقْواها﴾[18]

﴿ولاتشتروا بآياتي ثمَناً قليلاً وإيايَ فاتّقونِ﴾[19]

والفعل: اتقوني هنا بمعنى: اخشوني إذا وَسْوَسَتْ لكم نفسكم بسوء. ويأتي اسم التفضيل: الأتقى: بمعنى الأكثر تقىً أو تقوى: أي الأكثر خشية.

﴿سيُجَنَّبُها الأتقى * الذي يؤتي مالَه يتزكّى﴾[20]

والتقوى درجات ﴿وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقيّاً﴾[21]

أي: أصبحت التقوى من صفاته

﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾[22]

فالله تعالى ينبهنا أن لانقع في غضب الله بممارسة التقوى عن إيمان واندفاع وليس بأداء الفروض وكأنها عبء ثقيل علينا من دون أن يكون في نفوسنا ما يقابل ذلك من خشية الحقيقة لله أو الخوف من عذابه وعقابه يوم القيامة من بعد حسابه.

---

(١٨) سورة الشمس: ٧ - ٨
(١٩) سورة البقرة: ٤١
(٢٠) سورة الليل: ١٧ - ١٨
(٢١) سورة مريم: ١٣
(٢٢) سورة آل عمران: ١٠٢

٥٩ ـ مامعنى «صَدَقَ الله» بدليل القرآن الكريم؟

يرد الفعل (صدق) في الآيات الكريمة وفاعله لفظ الجلالة أو الرسول الكريم أو بقية المرسلين بمعنى التزم وعده أو كلمته أو الحق أو الحقيقة:

﴿قلْ صدقَ اللّهُ فاتّبِعوا مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾(١)

ومن أصدق وعداً من الله ومن رسوله الصادق الأمين؟

﴿قالوا هذا ما وعَدَنا اللّهُ ورسولُهُ وصَدَقَ اللّهُ ورسولُهُ﴾(٢)

﴿هذا ماوعدَ الرحمنُ وصدَقَ المرسلونَ﴾(٣)

والمؤمنون الذين يقولون الصدق، ويعملون صدقاً بعد أن صدقوا رسولهم بالرسالة وآمنوا بالله واتبعوا هديَ الرحمن في كتاب القرآن أولئك هم المتقون:

﴿والذي جاء بالصّدقِ وصدّقَ به أولئك هم المتّقونَ﴾(٤)

وآل إبراهيم وبنيه من إسماعيل وإسحق ويعقوب وهبهم الله الحكمة وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، ورفعهم وجعلهم قادة وأنبياء ورسلاً:

﴿وقلْ ربّي أَدْخِلْني مُدْخَلَ صدقٍ﴾(٥)

أي مدخل حقيقة وليس مدخل وهم

﴿وأخرجْني مُخْرَجَ صدقٍ﴾(٦)

﴿ووهبْنا لهم من رحمتِنا وجعلْنا لهم لسانَ صدقٍ﴾(٧)

والمؤمن يجب أن تكون دعوته الدائمة لرب العالمين أن يجعل لسانه لسان صدق في الآخرين:

﴿واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخِرينَ﴾(٨)

فالكذب وهم، والصدق حقيقة.

﴿وتمّتْ كلمةُ ربّكَ صِدْقاً وعَدلاً لامبدّل لكلماتِهِ﴾(٩)

---

(١) سورة آل عمران: ٩٥
(٢) سورة الأحزاب: ٢٢
(٣) سورة يس: ٥٢
(٤) سورة الزمر: ٣٣
(٥) سورة الإسراء: ٨٠
(٦) سورة الإسراء: ٨٠
(٧) سورة مريم: ٥٠
(٨) سورة الشعراء: ٨٤
(٩) سورة الأنعام: ١١٥

﴿إنّه كانَ صادقَ الوعدِ وكان رسولاً نبيّاً﴾ قالها الله وصفاً للرسول إسماعيل عليه السلام:

﴿واذكُرْ في الكتابِ إسماعيلَ إنّه كانَ صادقَ الوعدِ وكان رسولاً نبيّاً﴾(١٠)

﴿ومنْ أَصْدقُ من اللّهِ حديثاً﴾(١١)

فالله صادق الحديث، وحديث الله هو الذي لايدخله وضع أو تحريف، وهذه الآية نتوجه بها إلى أولئك الذين يحدثون عن الرسول الكريم أحاديث مستمدة من الإسرائيليات، ونسبتها كذباً وبهتاناً وظلماً إلى الرسول، ونقول لكل من هو مغرم برواية أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم نقول له:

﴿ومن أَصْدَقُ مِنَ اللّه قِيلاً﴾(١٢)

وقد يأتي الفعل (صدّق) بمعنى أيدّ ودعم:

﴿وأنزلْنا إليكَ الكتابَ بالحقّ مصدِّقاً لما بَيْنَ يديهِ من الكتابِ﴾(١٣)

وهذه الآية الأخيرة في الأصل موجهة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم يقول له الله تعالى ولكل المسلمين من بعده أن جزءاً من الكتاب معجز لكل الناس لأنه ليس من علمهم ولامن قدرتهم، بل هو من غيب الله ومن قدرته، ومعلومات هذا القسم المعجز يصدق للقسم الآخر من الكتاب الذي فيه الرسالة وفيه الحدود والعبادات، فالأنباء الواردة في القسم الأول من قصص وحقائق علمية ومعلومات تفوق قدرة البشر تؤيد القسم الثاني من الكتاب الذي يخلو من الحقائق والعلوم.

---

(١٠) سورة مريم: ٥٤

(١١) سورة النساء: ٨٧

(١٢) سورة النساء: ١٢٢

(١٣) سورة المائدة: ٤٨

٦٠ ـ مامعنى: «أتقن الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

يقول تعالى: ﴿صُنْعَ اللّهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ إنّه خبيرٌ بما تفعلونَ﴾[١] فالفعل أتقن من الإتقان ومثله تَقَنَ الذي أخذ من التقنية، وفي الغرب يطلق عليها اليوم التكنولوجيا، فبين المصطلحين العربي والأجنبي وجه شبه في اللفظ والمعنى.

المهم أن معنى الكلمة معروف ولكن ماذا يريد أن يعلمنا الله بهذه الآية؟ فالله عز وجل كما تشير الآية يقوم أسلوبه الرحماني في العمل على الإتقان، فماذا نقصد بالإتقان؟ سأمثل له بمثال من حياتي وتجربتي الشخصية: هاجرت وأسرتي إلى الولايات المتحدة بعد احتلال الجولان، وكنت مضطراً لكسب قوتي أن أتقن (حرفة) لأن الغرب لايطعم من لايعمل فتعلمت تكنولوجيا صناعة الأسنان، لتكون لي مصدراً للرزق، وكانت تلك حرفة لجأت إليها هناك بدايةً، وصناعة الأسنان من الصناعات التي تتطلب إتقاناً عملياً دقيقاً وأذكر أنني جهدت مرة في صنع جسر الأسنان بذلت فيه ساعات طويلة، وأنا دقيق في عملي، فحاولت أن أظهر الدقة والمهارة في ذلك العمل. ولما رأى مدير المعمل الأمريكي عملي استدعاني، وأراني أخطاء صغيرة جداً لايمكن ملاحظتها إلا بمكبر، ثم قال لي نصيحة لن أنساها أبداً، وكان يكبرني سناً وخبرة في الحياة وعاش فترة في الشرق الأوسط قبل ذلك:

(اسمع يانيازي أنا أعلم أنك حاولت جهدك، ولا أنكر أن عملك جيد، ولكن يجب أن تعرف حقيقة ولاتنساها مادمت في امريكا. ثم أضاف: تعودتم في الشرق أن ترددوا تعبير (ماشي الحال) ونطقها بالعربية، ثم أضاف وهو يمسك بجسر الأسنان: هذا التعبير ليس له وجود عندنا في أمريكا ـ فإما أن يكون العمل ممتازاً أو يطرح في القمامة. (ثم رمى جسر الأسنان في القمامة) وهو يقول: (ليس عندنا حل وسط، اسمه جيد).

أعتقد أن الرجل الذي قال لي تلك النصيحة، مهما كانت عقيدته الدينية، هو ينهج منهج الله فيما يتعلق بإتقان العمل، وهو الإتقان الذي يسعى الله أن يعلمه للمسلم. وأذكر أنني عندما كنت في دمشق كان يعمل لدي مستخدم تقي يعمل بأمانة وإتقان وكأن الله تعالى يقف فوق رأسه مراقباً له، وأدركت من سلوكه آنذاك أن المؤمن إذا

(١) سورة النمل: ٨٨

عرف منهج الله لايحتاج إلى من يراقب عمله، كان يعمل وكأن الله يراه فلا يتهاون في أي مهمة أكلفه بها مع أني أعلم أنه لم يكن يتقن عمله لإرضائي أنا أو لنيل مكافأة، بل كان يعمل لإرضاء الله، فإذا أنجز عمله على أكمل وجه استراح، وذهب ليصلي صلاته في أوقاتها ـ فكنت أقول لأصحابي حين أقدمه لهم: إنه مسلم ومن غير عصرنا فقد جاء إلينا من عهد صحابة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ولم يرد الفعل (أتقن) في القرآن الكريم إلا مرة واحدة فأكتفي بهذا القدر من شرح معناه في القرآن الكريم.

﴿إنْ أُرِيدُ إلاّ الإصلاحَ ما استَطَعْتُ وما توفيقي إلّا باللهِ﴾(٢)

صدق الله العظيم.

---

(٢) سورة هود: ٨٨

٦١ ـ ماذا يعني «رضى الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

لكي نعرف مدلول رضى الله علينا أن نوضح معنى رضى العبد أولاً، فالله عز وجل يخاطب الناس في القرآن بحسب قدراتهم التي قد أودعها فيهم من عقل وفهم وإدراك هبة من الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَسَوفَ يُعطيكَ ربُّكَ فترضى﴾(١)

ونفهم من هذه الآية أن الإنسان يرضى بالعطاء، فهو يحب العطاء، وبه يُسترضى.

﴿فلَنُولِّيَنَّكَ قبلةً ترضاها﴾(٢)

أي: قبلة تناسب ميولك وحبك وهواك، وإلا لما رضي بها، فالعبد إذا خير بين حلالين، أشار على الدوام إلى ماتميل إليه نفسه ويهواه قلبه، أما إذا كانت من الحرام والمعاصي ابتعد عنها المؤمن طاعة لله وغالَبَ هوى نفسه.

﴿فإنْ ترضَوْا عنهم فإنَّ اللهَ لايرضى عن القومِ الفاسقينَ﴾(٣)

فإذا رضي العبد عن إنسان لمحبة له في قلبه فإن الله لايرضى عنه إذا كان فاسقاً، والفاسق هو كل إنسان لايسير على منهج الله الذي هو القرآن، أما المؤمن فهو الذي التزم التزاماً كاملاً كل مانهى عنه الله في القرآن، وبذلك نال رضى الله.

ـ ﴿ومساكنَ ترضَوْنَها أحبَّ إليكُم من اللهِ ورسولِهِ﴾(٤)

أي: تميلون إليها وتختارونها برضاكم

من كل ماتقدم من الآيات يتبين أن رضى العبد يقع عندما يتحقق له ماتشتهي نفسه، ومايميل إليه هواه، ومن هنا يتضح الفرق بين رضى الفاسق الذي يتبع أهواء نفسه الأمارة بالسوء، فيكون من الذين قال عنهم الله سبحانه ﴿إنَّ الذينَ لايرجونَ لقاءَنا وَرَضُوا بالحياةِ الدنيا واطمأنّوا بِها﴾(٥)

أما رضى المؤمن فيكون بالتزام منهج القرآن فيبعد نفسه عن كل مالايرضى الله قانعاً بما يرضيه من الحلال فيكون من الذين قال فيهم تعالى ﴿رَضِيَ اللهُ عنهم وَرَضُوا

---

(١) سورة الضحى: ٥ (٣) سورة التوبة: ٩٦ (٥) سورة يونس: ٧
(٢) سورة البقرة: ١٤٤ (٤) سورة التوبة: ٢٤ (٦) سورة المائدة: ١١٩

عنه ذلك الفوزُ العظيمُ﴾[٦]

بعد أن استعرضنا معنى رضى العبد ننتقل إلى شرح معنى رضى الله

﴿رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك لمن خَشِيَ ربَّه﴾[٧]

رضي الله عمن كان من حزبه:

﴿رضيَ اللهَ عنهم ورضُوا عنه أولئكَ حزبُ الله﴾[٨]

والعمل الصالح يرضي الله:

﴿وأنْ أعمَلَ صالحاً ترضاهُ﴾[٩]

واللهُ يُرضيه شكرُ العبد: ﴿وإنْ تشكرُوا يُرضِهِ لكم﴾[١٠]

والله يرضيه إحسان العبد، وهو يحب المحسنين:

﴿وأحسِنوا إنَّ اللهَ يحبُّ المحسنينَ﴾[١١]

والله يرضيه أن يرى العبد التائب، ويحب التوابين:

﴿إنَّ اللّهَ يحبُّ التوّابينَ﴾[١٢]

والله يرضيه النقاء والنظافة والتطهر ويحب المتطهرين ﴿ويحبُّ المُتطهّرينَ﴾[١٣]

والله أيضاً يرضيه أن يرى العبد الذي يتقي غضب الله عليه ويحب المتقين: ﴿بلى من أوفى بعهدِهِ واتقى فإنَّ اللّهَ يحبُّ المتّقينَ﴾[١٤]

وكذلك يرضيه أن يرى من عباده الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والمحسنين: ﴿والكاظمين الغيظ والعافينَ عن الناسِ واللهُ يحبُّ المحسنينَ﴾[١٥] والله يرضيه أن يرى عبده الصبور الذي لايصبر عن ضعف واستكانة ﴿وماضَعفوا وما استكانوا واللّهُ يحبُّ الصابرينَ﴾[١٦]

والله يرضيه أن يرى العبد إذا عزم على شيء توكل على الله، وقام بكل ماعليه خير قيام دون أي اتكال: ﴿فإذا عَزَمْتَ فتوكّلْ على الله إنَّ اللّهَ يحبُّ المتوكّلينَ﴾[١٧]

والله يرضيه أن يرى قاضياً أو حاكماً يحكم بين الناس بالعدل والقسط ﴿وإنْ حكمْتَ

(٧) سورة البينة: ٨
(٨) سورة المجادلة: ٢٢
(٩) سورة الأحقاف: ١٥
(١٠) سورة الزمر: ٧
(١١) سورة البقرة: ١٩٥
(١٢) سورة البقرة: ٢٢٢
(١٣) سورة البقرة: ٢٢٢
(١٤) سورة آل عمران: ٧٦
(١٥) سورة آل عمران: ١٣٤
(١٦) سورة آل عمران: ١٤٦
(١٧) سورة آل عمران: ١٥٩

فاحكُم بينهم بالقِسطِ إنَّ اللّهَ يحبُّ المقسطينَ﴾[١٨]

والله يرضيه أن يرى عباده، وهم يقاتلون في سبيله مُتَّحدين ﴿إنَّ اللّهَ يحبُّ الذين يقاتلونَ في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوصٌ﴾[١٩] والله يرضيه أن يرى عباده يطعيون أوامره ويتبعون سنته ولايعصونه:

﴿قلْ إنْ كنتم تحبّونَ اللّهَ فاتّبعوني يُحبِبْكُم اللّهُ﴾[٢٠]

هذه هي المواقف التي ترضي الله من عبيده كما صورها القرآن، ويقابلها مواقف من الناس تثير غضب الله، فيجدر بنا أن نعرفها لنتجنبها:

فالله لن يرضيه أن يرى عباده من المعتدين:

﴿ولاتَعتَدُوا إنَّ اللّهَ لايحبُّ المعتدينَ﴾[٢١]

والله لن يرضيه أن يرى عباده قد كفروا بعد أيمانهم

﴿فإنْ تولّوا فإنَّ اللّهَ لايحبُّ الكافرينَ﴾[٢٢]

والله يغضبه أن يرى عباده يقعون في ظلم الناس أو ظلم أنفسهم ﴿واللّهُ لايحبُّ الظالمينَ﴾[٢٣].

مثلما يغضبه أن يسمع من عبده الجهر بالسوء من القول إلا إذا كان مظلوماً:

﴿لايحبُّ اللّهُ الجهرَ بالسوءِ من القولِ إلّا من ظُلِمَ﴾[٢٤]

والله لايحب أن يرى عباده يفسدون في الأرض:

﴿ويسعونَ في الأرضِ فساداً واللّهُ لايحبُّ المفسدينَ﴾[٢٥]

كذلك فإن الله لن يرضيه أن يرى خيانة تقع من أحد عباده:

﴿إنَّ اللّهَ لايحبُّ منْ كانَ خوّاناً أثيماً﴾[٢٦]

إن الله لايرضيه أن يرى عبده وقد وقع في الإسراف

﴿ولاتُسرِفوا إنَّ اللّهَ لايحبُّ المسرفينَ﴾[٢٧]

﴿وكُلوا واشْربوا ولاتُسرفوا إنَّهُ لايحبُّ المسرفينَ﴾[٢٨]

---

(١٨) سورة المائدة: ٤٢
(١٩) سورة الصف: ٤
(٢٠) سورة آل عمران: ٣١
(٢١) سورة البقرة: ١٩٠
(٢٢) سورة آل عمران: ٣٢
(٢٣) سورة آل عمران: ٥٧
(٢٤) سورة النساء: ١٤٨
(٢٥) سورة المائدة: ٦٤
(٢٦) سورة النساء: ١٠٧
(٢٧) سورة الأنعام: ١٤١
(٢٨) سورة الأعراف: ٣١

والله لايرضيه أن يرى عبده متكبراً:

﴿إنَّهُ لايحبُّ المستكبرينَ﴾(٢٩)

والله لايرضيه أن يرى عبده مختالاً مزهواً يمشي متكبراً ولاتعرف نفسه التواضع:

﴿ولاتَمشي في الأرضِ مَرَحاً إنَّ اللّهَ لايحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾(٣٠)

وهكذا نكون قد تعلمنا من القرآن الكريم مايرضى الله من عباده ومالايرضيه ولايرضاه لهم، وهؤلاء الذين لايرضى عنهم الله لايهديهم إلى نور الإيمان، ماداموا في ضلالهم ﴿ومِنَ الناسِ منْ يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ولاهدىً ولاكتابٍ منيرٍ﴾(٣١)

صدق الله العظيم.

(٢٩) سورة النحل: ٢٣ (٣٠) سورة لقمان: ١٨ (٣١) سورة الحج: ٨

٦٢ ـ مامعنى «غضب الله» ومامعنى «لعنة الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

يمكن دمج الغضب واللعنة تحت عنوان واحد لترابطهما في المعنى، ولأنهما يردان مقترنَيْن معاً على الأغلب في آيات القرآن الكريم.

﴿وغضبَ اللّهُ عليه ولعَنَهُ وأعدَّ لَهُ عذاباً عظيماً﴾(١)

﴿منْ لَعَنَهُ اللّهُ وغضِبَ عليهِ وجعَلَ منهمُ القردَةَ والخنازيرَ﴾(٢)

﴿وغضبَ اللّه عليهم ولعَنهم وأعدَّ لهم جهنَّمَ﴾(٣)

فغضب الله في هذه الآيات، وهذه اللعنة قد تحل على العبد في أحد الدارين في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما معاً وحين تحيق اللعنة في موعدها بعد يوم الحساب، يأتي غضب الله أولاً في الآيات وتليه اللعنة. ولكن الله شاء أن يبين لنا أن لعنته يمكن أن تكون سابقةً لغضبه وفي الآية الثانية اللعنة جاءت قبل الغضب، في قوله تعالى:

﴿ومن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾ فهذه اللعنة تمت في الدنيا لافي عذاب الآخرة، ويعقبها عذاب الآخرة في النار، والله تعالى يشرح للناس أن المعصية والوقوع في الخطأ لايستحق بهما العبد غضب الله مالم يرتكب الإنسان كبيرة من الكبائر. يقول تعالى:

﴿منْ كَفرَ باللهِ من بعدِ إيمانِهِ إلّا منْ أكْرِهَ وقلبُه مطمئنٌ بالإيمانِ ولكن من شرحَ بالكفرِ صدراً فعليهم غَضَبٌ مِنَ اللهِ ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾(٤)

ثم يشرح الله تعالى أسباب الغضب فيقول:

﴿ذلك بأنّهم استحبّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ وأنَّ اللهَ لايهدي القومَ الكافرين * أولئكَ الذينَ طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسَمْعِهم وأبصارِهم وأولئك هم الغافلون * لاجرمَ أنّهم في الآخرةِ هم الخاسرونَ﴾(٥)

ويقول تعالى: ﴿كُلوا من طَيباتِ مارزقْناكم ولاتَطْغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ومنْ يَحللْ عليه غضبي فقد هوى﴾(٦) والآية في الأصل موجهة لبني إسرائيل، وبما أن آيات

---

(١) سورة النساء: ٩٣
(٢) سورة المائدة: ٦٠
(٣) سورة الفتح: ٦
(٤) سورة النحل: ١٠٦
(٥) سورة النحل: ١٠٧ ـ ١٠٩
(٦) سورة طه: ٨١

القرآن موجهة لكل الناس أيضاً في كل زمان ومكان فهي موجهة إلينا لئلا نطغى في الدنيا، وإن فعلنا استحققنا غضب الله علينا، وَهَوَينا في الهاوية، والذين يتبعون صراط الله هم الذين اتقوا غضب الله:

﴿صراطَ الذينَ أنعمْتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم﴾(٧) من هنا نفهم أن لله موقفَيْن متقابلين من العباد، فهو تعالى يلعن من يغضب عليهم، وينعم على من يرضى عنهم، فنعلم من ذلك أن اللعنة تلازم الغضب، والنعمة تلازم الرضى.

﴿والخامسةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إنْ كانَ من الصادقينَ﴾(٨)

﴿والخامسةُ أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إنْ كان من الكاذبينَ﴾(٩)

وهاتان الآيتان معروفتان عند المسلمين بآيتي الملاعنة تبينان الفرق بين غضب الله ولعنة الله تماما، من ذلك مثلاً:

رجل يتهم زوجته بالزنى وهي تهمة عظيمة يتوقف عليها سمعة الزوجة وحياتها، فلدينا احتمالان:

الأول: أن يكون صادقاً، فلا إثم عليه وتقبل شهادته بأربع شهادات.

الثاني: أن يكون كاذباً، عندها تصبح جريمته مضاعفة لاتهامه امرأة بريئة وتدمير حياتها، وهي جريمة أشد من القتل العمد ظلماً وبهتاناً، لذلك يستحق لعنة الله لاغضبه فحسب:

﴿والخامسةُ أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إنْ كانَ من الكاذبينَ﴾(١٠)

فموقفه موقف المتعدي والمهاجم والبادئ. والله يرينا أن من يبدأ بالسيئة يكون أظلم، قال تعالى:

﴿وهمّوا بإخراجِ الرسولِ وهم بدؤوكُم أوّلَ مرةٍ﴾(١١)

أما موقف المرأة فموقف المدافع عن النفس ولذلك اكتفى تعالى بقوله:

﴿والخامسةُ أنَّ غضبَ اللهِ عليها إنْ كانَ من الصادقين﴾(١٢)

فلم يلعنها بل أظهر غضبه عليها، فلاحظ دقة الله في أحكامه وكيف يلتزم تنفيذها بالعدل:

﴿إنَّ اللهَ لايظلمُ مثقالَ ذرةٍ﴾(١٣) ﴿واللهُ يهدي منْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾(١٤)

صدق الله العظيم

---

(٧) سورة الفاتحة: ٧
(٨) سورة النور: ٩
(٩) سورة النور: ٨
(١٠) سورة النور: ٨
(١١) سورة التوبة: ١٣
(١٢) سورة النور: ٩
(١٣) سورة النساء: ٤٠
(١٤) سورة البقرة: ٢١٣

٦٣ ـ ماهي «رحمة الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

الصيام على غير المؤمن من أشق الأمور أما المؤمن فإن تعالى حين يعلم صدق إيمانه ونيته في الصيام يسهله عليه وكذلك الصلاة في أوقاتها فهي صعبة على غير المؤمن، وعلى الأخص صلاة الفجر، لكن الله تعالى يسهلها للعبد المؤمن رحمة منه.

ولعل القتال في سبيل الله في حمأة الحر والعطش وقلة الطعام من أصعب ماأمر الله عبده المؤمن أن يفعله، لكن إيمانه يجعل كل عسير ميسراً بإذن الله ورحمة منه، فرحمة الله واسعة لاحدود لها. ويأتي بعد القتال في التدرج بالصعوبة (الجهاد في سبيل الله) وهو الجهد الذي يبذله المؤمن بلا عنف أو قتال.

﴿قال لا عاصمَ اليوم من أمرِ الله إلّا منْ رَحِمَ﴾(١)

والحديث الإلهي عن نوح وابنه إذ ناداه قائلاً ﴿يابني اركبْ معنا ولاتكُنْ مع الكافرين﴾ فأجابه ابنه ﴿قال سآوي إلى جبلٍ يعصِمني من الماء﴾ فالله يخبرنا أنه سينجي الذين آمنوا فحسب، فهم الذين يستحقون رحمة الله، وأنه سوف يغرق الآخرين ويفهم من الآية أن رحمة الله تصيب الذين يستحقونها بجدارة إيمانهم وعملهم فحسب.

﴿إنَّ النفسَ لأمّارَةٌ بالسوء إلّا منْ رَحِمَ ربّي﴾ فإن أدركنا أبعاد معنى الرحمة في الآية أدركنا تقريباً معنى رحمة الله.

إن الله خلق الإنسان وخلق فيه الخير والشر، وجعل نفسه تختار بينهما، وخلق له في الحياة ماتشتهي تلك النفس وترغب، وأوجد له الشيطان من الإنس والجن ليغري تلك النفس ويختبرها. وجعل لنا عقلاً وقدرة على تمييز الحق من الباطل، واختيار الإيمان بالله تعالى والطريق المستقيم والرغبة في إطاعة الله، وهجر المعاصي جملة، فإذا اختار المؤمن طريق الإيمان، ومجاهدة الشر والمعصية، وهو طريق قاس على النفس أمدّه الله برحمته الواسعة، فثبت إيمانه وسهل له صعوبات الطريق المستقيم الذي اختاره، وفي ضوء ذلك يمكن فهم الآيات الآتية:

﴿قلْ إنّي أخافُ إنْ عصيتُ ربّي عذابَ يومٍ عظيمٍ * من يُصْرَفْ عنه يومئذٍ فقد رَحِمَهُ

(١) سورة هود: ٤٣

وذلك الفوزُ المبينُ * وإن يَمسَسْكَ اللهُ بضرٍ فلا كاشِفَ له إلّا هو وإن يَمسَسْكَ بخيرٍ فهو على كلِ شيءٍ قديرٍ﴾(٢)

﴿يعذّب منْ يشاءُ * ويرحَمُ من يشاءُ وإليه تُقلَبونَ﴾(٣)

فالله تعالى حين يخبرنا أنه يفعل مايشاء ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لايعني أنه يتصرف بمشيئته اعتباطاً أو تحكماً بعبده، لأنه لايسلك وفق هوى أو نزوة، إن تصرفه صادر عن وعي لانستوعبه فهو لايظلم ولايخلف وعده وقد كتب على نفسه الرحمة والتزم سننه وقوانينه التي أوجدها، وسبقت كلمته فيها فلا يتراجع عنها، وعلى هذا الأساس نفهم علاقته بنا نحن عبيده، وعلاقة الإنسان به مهما كان، فقوله تعالى: (يعذب من يشاء) و(يرحم من يشاء) يعني أن مشيئته مشروطة ولايجوز أن نفهم المشيئة على أنها فعل اعتباطي لأننا نعزو بذلك الظلم إلى الله، وهو يذكرنا على الدوام في آيات عديدة في القرآن بأنه لايظلم مثقال ذرة، وهو بحكم علمه الواسع يعرف من منا يستحق الرحمة ومن منا يستحق العذاب بحسب نيّاتنا وأفعالنا السابقة بإرادتنا.

﴿ربُّكم أعلمُ بكم إنْ يَشَأْ يرحمْكُم أو إن يَشَأْ يُعذّبْكمْ﴾(٤)

ومن لم يفهم الآية بهذا الأسلوب يكون قد ابتعد عن مقصد الله، فالله عز وجل يعلمنا في كتابه حقائق دينه، ولايقصد أن يرهبنا ويرفع سيفَ انتقامه بلا قانون أو سُنّة أو نظام.

ونحن حين ندعوه قائلين:

﴿وقلْ ربِّ اغفرْ وارحَمْ وأنتَ خيرُ الراحمينَ﴾(٥)

فإنما نطلب منه الرحمة ونلتمس أن يسهل لنا أمورنا ويمدنا بالعزم على مقاومة النفس الأمارة بالسوء، والشيطان المتربص بنا الذي لايغفل عن أي عبد من عباده، حتى عن الأنبياء والرسل. لكن رحمة الله تقي كل أولئك عندما يصدقون النية بالإيمان اتجاهاً وتوجهاً لله وحده لاشريك له: ﴿أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ﴾(٦)

وأولئك الذين يستحقون صلوات من ربهم ورحمة هم من عاهدوا الله وصبروا وصابروا وقاتلوا في سبيل الله، ونفذوا كل ماأمر به الله، وأطاعوه فلم يعصوه فيما نهى عنه وهم أولئك الذين يقول فيهم تعالى:

---

(٢) سورة الأنعام: ١٤ - ١٦ (٤) سورة الإسراء: ٥٤ (٦) سورة البقرة: ١٥٧
(٣) سورة العنكبوت: ٢١ (٥) سورة المؤمنون: ١١٨

﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ إنَّ اللهَ مع الصابرين * ولاتقولوا لِمَنْ يُقتَلُ في سبيلِ اللهِ أمواتٌ بل أحياءٌ ولكنْ لاتشعرون * ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوفِ والجوع ونقص من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبشّرِ الصابرينَ * الذين إذا أصابتْهُم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلواتٌ من رَبِّهِم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾(٧)

وهم الذين يخاطبون ربَّهم كل يوم قائلين:

﴿ربّنا لاتُزِغْ قلوبَنا بعد إذ هَدَيْتَنا وهَبْ لنا من لدْنكَ رحمةً﴾(٨)

فهم يسألونه تعالى بقولهم: (ربنا لاتفتنا وتجعل قلوبنا تهوى طريقاً غير الذي هديتنا إياه وساعدنا وكن معنا لكي لانضل الطريق يارب العالمين) وأولئك سيحظون برحمة الله الواسعة:

﴿فأمّا الذين آمنوا باللهِ واعتَصموا به فسيُدْخِلُهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ويهديهم إليه صِراطاً مستقيماً﴾(٩)

ويؤكد عز وجل رحمته ووعده بأن يشمل المؤمنين بهذه الرحمة يوم القيامة:

﴿كتبَ على نفسِه الرحمةَ ليجمعنّكُم إلى يومِ القيامةِ لاريبَ فيه﴾(١٠)

فيقطع عهداً على نفسه بتقديم الرحمة والمساعدة لكل أولئك الذين يستحقونها، والله لايستفزه غضب أو نزوة، أو إساءة من العبد:

﴿فإنْ كذّبوكَ فقُلْ ربُّكم ذو رحمةٍ واسعة﴾(١١)

فإن غضبه لايخرجه عن طوره، ولايدفعه إلى تجاوز ماوعد به من رحمة لمن اختاروا طريق الإيمان والتزموه، ولو أساء بعض البشر إليه، وهو يدرك ضعف الإنسان لأنه هو الذي خلقه ويدرك فجوره وكفره بالنعمة التي أسبغها عليه، فلا يصغي إلى كلام الرسل ولايستجيب لدعوتهم: ﴿وإذا أذقْنا الناسَ رحمةً من بعدِ ضرّاءِ مسّتْهُم إذا لهم مَكرٌ في آياتِنا قل اللهُ أسرعُ مَكْراً إنَّ رسلَنا يكتبونَ ماتمكرون﴾(١٢)

والإنسان إذا مسته الشدة استنجد بربه حتى إذا رحمه وأزالها عنه كفر بنعم الله ونسي فضله عليه، فطغى واستكبر لكن طغيانه يعود على نفسه بالضرر

---

(٧) سورة البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧ (٩) سورة النساء: ١٧٥ (١١) سورة الأنعام: ١٤٧
(٨) سورة آل عمران: ٨ (١٠) سورة الأنعام: ٥٤ (١٢) سورة يونس: ٢١

﴿هو الذي يُسيّرُكم في البرّ والبحر حتى إذا كنتمُ في الفلكِ وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءَتْها ريحٌ عاصفٌ وجاءَهُمُ الموجُ من كلِ مكانٍ وظنّوا أنّهم أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصِينَ له الدينَ لَئِنْ أنجيْتَنا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين * فلما أنجاهُم إذا هم يبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحقّ يا أيّها الناسُ إنّما بَغيُكم على أنفسِكم﴾(١٣)

صدق الله العظيم.

---

(١٣) سورة يونس: ٢٢ - ٢٣

٦٤ ـ مامعنى «غَفَر الله» و «يغفر الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

(غفر الله) ويغفر الله. في الماضي من التعبيرات النادرة في القرآن الكريم فلم ترد إلا لماماً في القرآن الكريم على لسان شخص لم يذكر اسمه في معرض القصص الديني:

﴿وجاءَ من أقصى المدينةِ رجلٌ يسعى قالَ يا قومُ اتّبعوا المرسَلينَ﴾[(١)]

والله تعالى يسرد لنا قصته وكأنها من أخبار الماضي. وذلك من إعجاز التصوير القرآني، فالقصة ضرب من المثل الذي ينطبق على كل إنسان، لكن الله عز وجل يقدمها وكأنها جرت، لأنه تعالى يرى المستقبل على أنه داخل في علم الغيب والاحتمال، وفي فكر الإنسان أن ماوقع ومضى هو الحق واليقين، والله يحب أن يضع عبيده في مواقف تصويرية يقينية لايخالجهم فيها شك أو احتمال عدم وقوعها، فمثلنا في الحياة الدنيا مثل ذلك الإنسان الذي يتحدث عنه تعالى في كتابه فيقول على لسان الرجل:

﴿اتّبعوا منْ لايسألُكم أجْراً وهم مهتدونَ * وما لي لا أعبدُ الذي فَطَرني وإليه تُرجَعونَ * أأتّخِذُ من دونه آلهةً إن يُرِدْني الرحمنُ بِضُرٍّ لا تُغني عني شفاعتُهم شيئاً ولا يُنقِذون * إنّي إذاً لفي ضلالٍ مبينٍ * إنّي آمنتُ بربّكم فاسمعونِ * قيلَ ادخُلِ الجَنّةَ قالَ ياليتَ قومي يعلمونَ * بما غَفَرَ لي ربّي وجعلَني من المُكْرَمينَ﴾[(٢)]

في هذه الآيات يتحدث تعالى عن حياة ذلك الرجل المؤمن في الدنيا ثم ينقلنا في هذه الآيات بأسلوب تصويري رائع إلى مصيره يوم البعث الذي لم يقع بعد فيقول:

﴿قيلَ ادخُلِ الجنّةَ قالَ ياليتَ قومي يعلمونَ * بما غَفَرَ لي ربّي وجَعَلني من المُكْرَمِينَ﴾[(٣)]

فالله تعالى يصور لنا هذا الرجل الصالح وكأنه حضر يوم البعث وغفر له وأدخله وجعله من المكرمين فاستخدم الله تعالى فعل غفر في الماضي، وكأن الغفران قد حصل وانتهى ومن هذه الآية الكريمة نستدل أن الغفران لايتم إلا يوم القيامة لأن الله تعالى لم يقل مرة واحدة في القرآن من أي عبد استغفر ربه بأنه غفر له ذلك، بل يستخدم صيغة المضارع (يغفر) أو المضارع المستقبل من الزمن (سيغفر) والمرة الثانية التي ذكر فيها تعالى الفعل

(١) سورة يس: ٢٠   (٢) سورة يس: ٢١ - ٢٧   (٣) سورة يس: ٢٦ - ٢٧

(غفر) بالماضي كانت على لسان العباد في قوله: ﴿ولمن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمورِ﴾[٤]

وهو في الآية ينصح عباده أن يصبروا ويغفر بعضهم لبعض، ويرد الفعل (غفرنا) بصيغة الماضي في القصة الآتية:

﴿اصبرْ على ما يقولون واذكُر عبدَنا داوودَ ذا الأيدِ إنه أوّاب * إنّا سخّرنا الجبالَ معه يُسبّحْنَ بالعشيّ والإشراق﴾ إلى قوله تعالى ﴿وهل أتاكَ نبأُ الخَصم إن تسوّروا المحراب * إذ دخلوا على داوودَ ففزعَ منهم قالوا لاتَخَفْ خَصمانِ بغى بعضُنا على بعضٍ فاحكم بينَنا بالحقِّ ولاتُشطِطْ واهدِنا إلى سواءِ الصراطِ * إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولي نعجةٌ واحدة فقال أكْفِلْنيها وعَزّني في الخِطابِ * قال لقد ظلمَكَ بسؤالِ نعجَتِكَ إلى نِعاجِهِ وإنّ كثيراً من الخلطاءِ لَيبغي بعضُهم على بعضٍ إلّا الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وقليلٌ ماهم وظنَّ داوودُ أنّما فتنّاه فاستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعاً وأنابَ * فغفرْنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحُسْنَ مَآبٍ * ياداوودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ فاحكُمْ بين الناسِ بالحقّ ولاتتبعْ الهوى فيضلّكَ عن سبيلِ اللهِ إنّ الذين يضلونَ عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسوا يومَ الحساب﴾[٥]

يتبين لنا من قراءة الآيات أن داوود ظن أن ماحصل له كان فتنة من الله علماً أنه حكم بالحق، وقال للذي يريد أن يأخذ نعجة أخيه الوحيدة ليضيفها إلى نعاجه التسع والتسعين: أنت الظالم، وللأخ الآخر بأنه المظلوم، لكن داوود عليه السلام سجد لله واستغفر ربه، فقال له: غفرنا لك وهكذا نرى أن الفعل غفر ورد في صيغة الماضي ثلاث مرات: الأولى كانت في معرض التصوير الفني المعجز للمستقبل، ولم تكن حقيقة واقعة لذنب يستحق العقاب، والثانية جاء الفعل على لسان الناس، في معرض نصح الله أن يغفر العبد لأخيه، والثالثة ورد الفعل للدلالة على غفران الله ذنب داود، وهو ذنب ظني لاحقيقي، إذ قال الله له بعد استغفاره: غفرنا لك، وذلك عن ذنب لايستحق أي عقاب وقد أوردت هذه الحالات لأبيّن أن الله تعالى دقيق في استخدام الكلمات، فهو عز وجل يرجئ موضوع الغفران على الدوام إلى مابعد يوم الحساب، والآيات القرآنية التي تثبت ذلك أكثر من أن تعدّ فهي كثيرة جداً في القرآن.

﴿إنْ تَغفر لهم فإنَّك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾[٦]

---

(٤) سورة الشورى: ٤٣ (٥) سورة ص: ٢١ - ٢٦ (٦) سورة المائدة: ١١٨

﴿إنْ لم تغفرْ لنا وترحمْنا لنكونَنَّ من الخاسرينَ﴾[7]
﴿وإلّا تغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرينَ﴾[8]
﴿وادخُلوا البابَ سجّداً وقولوا حِطّةٌ نغفرْ لكم خطاياكُم﴾[9]
﴿وإنْ تبدُوا مافي أنفسِكُم أو تخفُوهُ يُحاسبكمْ به اللهُ فيغفر لِمَنْ يشاءُ ويعذّبُ من يشاءُ﴾[10]
﴿إنّا آمنّا بربّنا ليغفرَ لَنا خطايانا﴾[11]
﴿يُصلِحْ لكُم أعمالكُم ويغفرْ لكم ذنوبَكُم﴾[12]
﴿والذينَ إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبِهِم﴾[13]
﴿غافرِ الذنبِ قابلِ التوبِ شديدِ العقابِ ذِي الطّوْلِ﴾[14]
﴿فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الغافرينَ﴾[15]
﴿واعلَموا أنّ اللهَ يعلَمُ مافي أنفسِكُم فاحذَروهُ واعلَموا أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[16]
﴿وإنّي لغفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً ثم اهتدى﴾[17]
﴿وقالوا سَمِعْنا وأطَعْنا غفرانَك ربَّنا وإليكَ المصيرُ﴾[18]
﴿أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى والعذابَ بالمغفرةِ﴾[19]
﴿وماكانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلّا عن موعدةٍ﴾[20]
﴿الصابرينَ والصادقينَ والقانتينَ والمنفقينَ والمستغفرينَ بالأسحارِ﴾[21]

أما كل مانقرؤه في الأحاديث التي نرويها عن الرسول ﷺ ظلماً من أن الله سبحانه غفر لفلان وفلان، وأن فلاناً غفر الله له ذنوبه وبشره بالجنة، ونعد أسماء عشرة من الصحابة.. كل ذلك ظن وظلم لايقين فيه ولاشهادة له من القرآن على صحته أبداً. ولاصحة في الإسلام إلا لما شهد له القرآن.

﴿قل أيّ شيء أكبرُ شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾[22]

صدق الله العظيم

---

(٧) سورة الأعراف: ٢٣
(٨) سورة هود: ٤٧
(٩) سورة البقرة: ٥٨
(١٠) سورة البقرة: ٢٨٤
(١١) سورة طه: ٧٣
(١٢) سورة الأحزاب: ٧١
(١٣) سورة آل عمران: ١٣٥
(١٤) سورة غافر: ٣
(١٥) سورة الأعراف: ١٥٥
(١٦) سورة البقرة: ٢٣٥
(١٧) سورة طه: ٨٢
(١٨) سورة البقرة: ٢٨٥
(١٩) سورة البقرة: ١٧٥
(٢٠) سورة التوبة: ١١٤
(٢١) سورة آل عمران: ١٧
(٢٢) سورة الأنعام: ١٩

٦٥ ـ مامعنى «منَّ الله» بدليل آيات القرآن الكريم:

﴿لقد منّ اللهُ على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسِهم﴾[١]
﴿قال أنا يوسفُ وهذا أخي قد منّ اللهُ علينا﴾[٢]
﴿لولا أنْ منّ اللهُ علينا لخَسَفَ بِنا﴾[٣]
﴿فمنَّ اللهُ علينا ووقانا عذابَ السّموم﴾[٤]
﴿ولقد مَنَنّا على موسى وهارونَ﴾[٥]

يتبين لنا من الآيات أن جملة (منّ الله) تعني تذكير الله عباده بخير فعله لهم، وهو تذكير محمود، يقصد منه إظهار فضل الله على البشر لكي لايجحدوا فضله، وهو على نقيض منّ العبد على خالقه أو على البشر، كأن يمنّ الإنسان على خالقه إن صلى وصام، أو يمنّ على البشر إن تصدق أو زكى أو قدم لهم أي مساعدة، يقول تعالى:

﴿يمنّونَ عليكَ أن أسلموا قلْ لاتمنّوا عليَّ إسلامَكُم﴾[٦]
﴿ولكن الله يمنّ على من يشاءَ من عبادِهِ﴾[٧]
﴿بل اللهُ يمنُّ عليكم أنْ هداكُم للإيمانِ إن كنتم صادقينَ﴾[٨]

وقد يمنّ الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ألمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى * ووجدَكَ ضالاً فهدى * ووجَدَكَ عائلاً فأغنى﴾[٩]

فمنّ الله على عباده محمود، ليذكروا نعمه أما إذا تم بين العبد وأخيه فإنه يزيل أثر كل الخير الذي فعله العبد لأخيه فكأنه لم يفعل شيئاً.

﴿يا أيّها الذين آمنوا لاتُبطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي ينفقُ مالَه رئاءَ الناسِ ولايؤمنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفوانٍ عليه ترابٌ فأصابَه وابلٌ فترَكَهُ صَلداً لايَقدرونَ على شيءٍ ممّا كَسَبوا واللهُ لايهدي القومَ الكافرينَ﴾[١٠]

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤
(٢) سورة يوسف: ٩٠
(٣) سورة القصص: ٨٢
(٤) سورة الطور: ٢٧
(٥) سورة الصافات: ١١٤
(٦) سورة الحجرات: ١٧
(٧) سورة إبراهيم: ١١
(٨) سورة الحجرات: ١٧
(٩) سورة الضحى: ٦ ـ ٨
(١٠) سورة البقرة: ٢٦٤

وعلى نقيض ذلك من يفعل الخير ويكتمه ولايذكّر به:

﴿الذين يُنفقونَ أموالَهم في سبيلِ اللهِ ثم لايتبعونَ ما أنفقوا منّاً ولا أذىً لهُمْ أَجرُهُم عندَ رَبِّهم﴾[11]

ويكون المنّ بأن يشهّر فاعل الخير بالقول أو التلميح بما فعل سواء في حضور من قدم له الإحسان أم في غيابه: وقد يصل المنّ إلى الأذى حين يؤدي التذكير بفعل الخير أو إعلانه إلى الإساءة لمن وقع عليه، كأن يذكر محسن في حديثه أمام الناس أنه كسا فلاناً لأنه كان عارياً أو أعطاه مالاً أو طعاماً لأنه كان جائعاً أو عائلاً، أو أن يصرح أمام المحسن إليه أو أمام الناس مثلاً أن الثوب الذي يلبسه فلان كان لي فتصدقت به عليه، فهذا كله يدخل في باب المن والأذى والإحراج وهو محرم على المؤمن قطعاً.

﴿وكفى بربِّكَ بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾[12]

صدق الله العظيم.

---

(١١) سورة البقرة: ٢٦٢ (١٢) سورة الإسراء: ١٧

٦٦ ـ مامعنى «أعبد الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

إنّ فعل العبادة مقصور من العبد لله تعالى، فلا إله يعبد سواه:

﴿إنْ كنتمُ في شكٍّ من ديني فلا أعبدُ الذين تعبدونَ من دونِ اللهِ﴾[1]

﴿ولكنْ أعبدُ اللهَ الذي يتوفاكُم﴾[2]

﴿قلْ إنّما أُمرتُ إن أعبدَ اللهَ ولا أشرك بهِ﴾[3]

﴿قلْ إنّي أُمرتُ أَن أَعبدُ اللهَ مُخلِصاً له الدينَ﴾[4]

﴿قلْ أَفَغَيرَ اللهِ تأمروني أعبدُ أيّها الجاهلونَ﴾[5]

فالعبادة لاتكون إلا لله من الإنس، محبة به، وعرفاناً بنعمه، وإن حدث أن عبدنا غيره غضب علينا جميعاً.

﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلّا إياهُ﴾[6]

فالله لن يقبل من أي عبد من عباده الذين خلقهم أي عبادة إلا إذا كانت خالصة له، لاإشراك فيها لأحد سواه.

فإن أشرك العبد بعبادة الله نبياً أو رسولاً أو ملاكاً أو أشرك بكتابه كتاباً آخر لم يقبل منه ذلك مطلقاً، بل إنه سبحانه يعد ذلك من أكبر الكبائر التي لاتغتفر:

﴿إنّ اللهَ لايغفِرُ أنْ يُشركَ بِهِ ويغفرُ ما دونَ ذلك لِمَنْ يشاءُ﴾[7]

﴿وما لكُم من دونِ اللهِ من وليٍ ولانصيرٍ﴾[8]

﴿ومنَ الناسِ منْ يتّخذُ من دونِ اللهِ أنداداً يحبّونَهم كحبِّ اللهِ﴾[9]

وفي آخر الآية نفسها يؤكد تعالى أن الذين آمنوا بالله وحده هم الذين يحبون الله وحده، وأن الآخرين ظلموا أنفسهم وسوف ينالون عذاب الله مقابل مافعلوا ﴿والذينَ آمنوا أشدّ حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذْ يرونَ العذابَ أنَّ القوةَ للّهِ جميعاً وأنَّ اللهَ شديدُ العذابِ﴾[10]

---

(١) سورة يونس: ١٠٤
(٢) سورة يونس: ١٠٤
(٣) سورة الرعد: ٣٦
(٤) سورة الزمر: ١١
(٥) سورة الزمر: ٦٤
(٦) سورة الإسراء: ٢٣
(٧) سورة النساء: ٤٨
(٨) سورة البقرة: ١٠٧
(٩) سورة البقرة: ١٦٥
(١٠) سورة البقرة: ١٦٥

وعلينا أن ندرك أن الفعل (قضى) في قوله تعالى: ﴿وقضى ربّك ألّا تعبدُوا إلا إياهُ﴾ يعني أنه أمر، لكن مشيئته تعالى لاتعني هنا الإلزام أو الإكراه، بل تعني إقبال الإنسان على عبادة ربه بملء حريته لأن الله سبق أن منح الإنسان الحرية في أن يختار من يعبد. لكي يختار العبد الصالح الله حباً لاكرهاً، أما إذا قلنا إن الإنسان لن يستطيع أن يعبد غير الله ولو شاء، وأن الله قد قضى ذلك فإننا نكون قد فهمنا الآية فهماً مغلوطاً لأن الله تعالى وعد الإنسان بأن يكون حراً في تصرفه ولن يتراجع عن وعده ولو أشرك في عبادته وجحد خالقه.

﴿وإذا أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل لاتعبدونَ إلا الله﴾(١١)

﴿إيّاكَ نعبُدُ وإياكَ نستعينُ﴾(١٢)

وكان المشركون يقولون: إننا نؤمن بالله، ونؤمن أنه خلقنا لكننا نعبد هذه الآلهة أيضاً لتقربنا إلى الله ـ وليكونوا شفعاء لنا عنده:

﴿مانعبدُهم إلّا ليقرّبونا إلى اللهِ زلفى﴾(١٣)

﴿أتنهانا أنْ نعبدَ مايعبدُ آباؤنا﴾(١٤)

﴿تريدونَ أن تصدّونا عمّا كانَ يعبدُ آباؤنا﴾(١٥)

وتلك هي المشكلة فالأبناء على الدوام يتذرعون بأنهم وجدوا آباءهم على ملة وأنهم يقتفون خطاهم:

﴿إنّا وجدْنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارِهم مقتدون﴾(١٦)

﴿قالوا حسبُنا ماوجدْنا عليه آباءَنا﴾(١٧)

﴿قالوا بل نتبعُ ما أَلفَيْنا عليه آباءَنا﴾(١٨)

وقد يتذرع من لايدركون جوهر مشيئة الله بأنه تعالى لو شاء لآمن به الناس جميعاً دون سواه:

﴿سيقولُ الذينَ أشرَكوا لو شاءَ اللهُ ما أَشرَكْنا ولا آباؤنا﴾(١٩)

أي أنهم أشركوا لأن مشيئة الله وإرادته شاءت ذلك فعبدوا من دونه ومادونه:

---

(١١) سورة البقرة: ٨٣
(١٢) سورة الفاتحة: ٥
(١٣) سورة الزمر: ٣
(١٤) سورة هود: ٦٢
(١٥) سورة إبراهيم: ١٠
(١٦) سورة الزخرف: ٢٣
(١٧) سورة المائدة: ١٠٤
(١٨) سورة البقرة: ١٧٠
(١٩) سورة الأنعام: ١٤٨

﴿ويعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لايضرُّهم ولا ينفعُهُم﴾[٢٠]

وأشير هنا إلى وقوع بعض من يشرح هذه الآية بالغلط حين يفسرونها بأن المشركين أو الكفار عبدوا مايضرهم وهو غلط، لأن الذي يضر ويملك القدرة على الضرر يملك القوة ولو كانت شريرة، كأن يقول بعض الناس إننا نعبد الشيطان اتقاء لشره وضرره، والشيطان عبد مخلوق لله ـ ليس له قوة ذاتية للضرر إلا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي سمح للشيطان بالدور الذي يقوم به ولو شاء الله لأزاله من الوجود كما خلقه أول مرة.

فالله هو الذي وظف الشيطان لهذا الدور. لكن الله لم يأمره بالكفر بل هو الذي استكبر فرفض أن ينفذ أمر الله في السجود لآدم والله أيضاً هو الذي قبل أن يمهل الشيطان:

﴿قالَ فَبِما أَغوَيْتَني لأَقْعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المستقيمَ﴾[٢١]

﴿قال ربِّ بما أغويتَني لأزينَنّ لهم في الأرضِ ولأعذّبنّهم أَجمعينَ﴾[٢٢]

وهو إنما أمهله ومدّ له الحبل ليمتحن به عبيده، فضرره غير صادر عن قوة ذاتية فيه لنخشاه ونعبده، والله عازم على إيقافه عند حده حين يجد من الإنسان رفضاً لأساليبه الخبيثة. ولذلك نجد الله تعالى يصف الشيطان وكيده بالضعف:

﴿إنَّ كيدَ الشيطان كانَ ضعيفاً﴾[٢٣]

صدق الله العظيم.

---

(٢٠) سورة يونس: ١٨
(٢١) سورة الأعراف: ١٦
(٢٢) سورة الحجر: ٣٩
(٢٣) سورة النساء: ٧٦

٦٧ - معنى «تبارك الله» بدليل آيات القرآن الكريم:

بركات الله هي نعمه وخيراته، ﴿لفتحْنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرضِ﴾[١]

ومن بركات الله أن يشمل برعايته وعنايته رسله والمؤمنين:

﴿اهبطْ بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممّنْ معك﴾[٢]

وتأتي كلمة (مبارك) وصفاً للكتاب الكريم وهو كلام الله الهادي والموفق والموصل إلى الرشاد والنجاح:

﴿وهذا كتابٌ أنزلْناه مباركٌ مصدّقُ الذي بين يدَيْه﴾[٣] أي مصدّق لما بين يديه من آيات الرسالة والأحكام.

ولايرد الفعل (بارك) أو (باركنا) بصيغة الماضي إلا في معرض الحديث عن الأرض وماعليها من عمران:

﴿وجعلَ فيها رواسِيَ من فوقِها وبارَكَ فيها﴾[٤]

﴿و أورَثْنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مشارقَ الأرضِ ومغارِبَها التي بارَكْنا فيها﴾[٥]

﴿إلى المسجدِ الأقصى الذي بارَكْنا حولَه لِنُرِيَهُ من آياتنا﴾[٦]

﴿ونجّيناهُ ولوطاً إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالمين﴾[٧]

﴿وجعلْنا بينهم وبين القرى التي بارَكْنا فيها قرى ظاهرة﴾[٨]

وليس في القرآن تعبير: (بارك الله) وإنما تتكرر صيغة: (تبارك الله) كما في الآيات:

﴿تباركَ الذي جَعَلَ في السماءِ بُروجاً وجعلَ فيها سِراجاً وقَمَراً منيراً﴾[٩]

﴿ذلكم اللهُ ربُّكم فتبارَكَ اللّهُ ربُّ العالمين﴾[١٠]

﴿تبارَكَ اسمُ رّبكَ ذي الجلالِ والإكرامِ﴾[١١]

أما لفظ (مبارك) فيرد وصفاً للأماكن والأشخاص:

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦
(٢) سورة هود: ٤٨
(٣) سورة الأنعام: ٩٢
(٤) سورة فصلت: ١٠
(٥) سورة الأعراف: ١٣٧
(٦) سورة الإسراء: ١
(٧) سورة الأنبياء: ٧١
(٨) سورة سبأ: ١٨
(٩) سورة الفرقان: ٦١
(١٠) سورة غافر: ٦٤
(١١) سورة الرحمن: ٧٨

﴿إن أولَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ الذي بِبَكّةَ مبارَكاً وهدىً للعالمين﴾[12]
﴿وجعلني مبارَكاً أين ماكنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ﴾[13] وأتت مؤنثة كما في:
﴿كأنّها كوكبٌ دريٌّ يوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونة﴾[14]
﴿فسلّموا على أنفسِكُم تحيةً من عندِ اللّهِ مباركة طيبة﴾[15]
﴿إنا أنزلْناه في ليلةٍ مباركةٍ إنّا كنّا منذِرينَ﴾[16]

وهكذا نجد أن كلمة (بارك) ومشتقاتها، تأتي بمعنى الخير والتبشير بالخير الذي مصدره الله تعالى على الدوام ورحمة من الله تعالى، وعناية منه بخلقه.

﴿أفمن أسَّسَ بنيانه على تقوى اللهِ ورضوانٍ خيرٌ أم مَنْ أسَّسَ بنيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به في نارِ جَهَنَّمَ﴾[17].

صدق الله العظيم.

---

(١٢) سورة آل عمران: ٩٦
(١٣) سورة مريم: ٣١
(١٤) سورة النور: ٣٥
(١٥) سورة النور: ٦١
(١٦) سورة الدخان: ٣
(١٧) سورة التوبة: ١٠٩

٦٨ ـ مامعنى «أنعم الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

(أنعم الله) تعبير مشتق من النعمة، والنعمة هي الخير الذي يفيضه الله على مخلوقاته:

﴿فأمّا الإنسان إذاماابتلاهُ ربُّه فأكرَمه ونعّمه فيقولُ ربّي أكْرَمني﴾(١)

﴿ومَنْ يُطِعِ اللّهَ والرسول فأولئك مع الذين أنعمَ اللّهُ عليهم﴾(٢)

﴿أولئكَ الذين أنعَم اللهُ عليهم من النبيّين من ذرّيةِ آدمَ﴾(٣)

﴿وإذ تَقوْلُ للّذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعْمت عليه أمسكْ عليكَ زوجَك واتّقِ اللّهَ﴾(٤)

والنعمة بمعنى خيرات الله هي من كرمه تعالى وهبها للإنسان وأعطاه حق التمتع بها، وثمة علاقة لغوية واضحة بين النعمة والنعيم. فالنعيم هو مستقر النعم الربانية، ولذلك يقول لمن تنهال عليه النعم: إنه يعيش في النعيم، ونَعَّم عيشه: لانَ، على أن نِعم الله لاتكون نِعماً مادية فحسب، وإنما تكون نِعماً روحية أو نفسية أو معنوية ولذلك عد الله المؤمنين في سورة الفاتحة من الذين أنعم الله عليهم إذْ هداهم، إلى الصراط المستقيم:

﴿اهدِنا الصراطَ المستقيم* صراطَ الذينَ أنعْمتَ عليهم﴾(٥)

فنحن نطلب من الله أن يهدينا للسبيل المستقيم الذي هدى إليه الناس الذين أنعم الله عليهم، أي خصهم بنعمة الإيمان.

ونتبع هذا الدعاء بقوله تعالى ﴿غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

أي: استحقوا غضب الله. ولا الذين ضلوا السبيل الصحيح.

فهؤلاء لم يعرفوا نِعَمَ الهداية ولارأوا نوراً ولاحقاً، ولم يستمتعوا بطاعة الله ورضاه، وقد فُطر الإنسان على الجحود، فإذا أنعم الله عليه ظنّ أنه صاحب فضل لذاته ولذلك استحق نعمة الله، فيدفعه غروره إلى نسيان فضل الله عليه:

﴿وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ أعرضَ ونأى بجانبه﴾(٦)

والله تعالى يكون مع العبد طالما بقي العبد مستظلاً برحمة الله عليه، شاكراً فضله على نعمه، تائباً مستغفراً عابداً لله. ولن يبخل الله عليه بنعمة مادام يلتزم الصراط المستقيم.

(١) سورة الفجر: ١٥
(٢) سورة النساء: ٦٩
(٣) سورة مريم: ٥٨
(٤) سورة الأحزاب: ٣٧
(٥) سورة الفاتحة: ٤
(٦) سورة فصلت: ٥١

ولكنه إن طغى واستكبر وجحد، فإن الله تعالى أيضاً يسحب نعمه منه:

﴿ذلك بأنّ اللّهَ لم يكُ مغيّراً نعمةً أنعمَها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾(٧)

فيجب على أئمة القوم وعقلائهم إن لاحظوا تغير أحوال قومهم من حال حسنة إلى حال متردية أن يفهموا أن تراجع القوم دليل على أن الله سحب نعمه عنهم واحدة بعد أخرى وهو دليل على غضب الله، ومن واجبهم إعادة الناس إلى الصراط المستقيم الذي هجروه مرة أخرى ليرضى الله عنهم ثانية، ولذلك رب العالمين يذكر الناس في كل زمن بالمداومة على الوفاء بعهده ﴿اذكُروا نعمتي التي أنعمْتُ عليكم وأوفُوا بعهدِي﴾(٨)

والعبد الشكور هو الذي يشكر نعم الله على الدوام:

﴿قال ربّ أوزعْني أنْ أشكرَ نعمتَكَ التي أنعمْتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ وأصلحْ لي في ذرّيّتي إنّي تُبتُ إليكَ وإنّي من المسلمينَ﴾(٩)

وهؤلاء هم الذين يبحث عنهم الله ليكونوا من حزبه، أما الآخرون الذين ضلوا السبيل فهم من أولياء الشيطان ومن حزبه:

﴿وذَرْني والمكذّبينَ أولي النعمةِ ومهلْهُم قليلاً﴾(١٠)

قلت سابقاً النعمة هي الخير وهي الرزق وهي المال، وأولو النعمة تأتي بمعنى أصحاب النعمة أي من أصحاب الرزق والمال أو من أصحاب النعم الربانية الأخرى كالصحة والجاه والشهرة.. ﴿ومن يبدّلْ نعمةَ اللهِ من بعدِ ماجاءَتْه فإنّ اللهَ شديدُ العقاب﴾(١١) ونعم الله علينا وافرة منها: القرآن، ومنها: الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان بالمسلمين رؤوفاً رحيماً، وكان ذا خُلُق عظيم، ومن نعمة الله علينا الإيمان والهداية والصراط المستقيم - ومن نعم الله علينا أن جعلنا بعد الإيمان نحب الخير والإصلاح في الأرض ولانحب أن نكون من المفسدين، فإذا بدلنا هذه النعم حقت علينا نقمة الله وعقابه الشديد.

ومن نعم الله تأليف قلوب المسلمين بعد فرقتهم في الجاهلية، ﴿واذكُروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتُم أعداءً فألّفَ بين قلوبِكُم﴾(١٢)

---

(٧) سورة الأنفال: ٥٣
(٨) سورة البقرة: ٤٠
(٩) سورة الأحقاف: ١٥
(١٠) سورة المزمل: ١١
(١١) سورة البقرة: ٢١١
(١٢) سورة آل عمران: ١٠٣

﴿فأصبحتُم بنعمته إخوانا﴾[١٣]
﴿يستبشرونَ بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ﴾[١٤]
﴿وإنْ تعدّوا نعمةَ اللهِ لاتُحصوها إنّ الله لغفورٌ رحيمٌ﴾[١٥]
﴿يعرفونَ نعمةَ الله ثم ينكرونَها وأكثرُهم الكافرونَ﴾[١٦]
﴿واشكُروا نعمةَ الله إن كنتُم إياهُ تعبدونَ﴾[١٧]
﴿الَمْ تَرَ أنّ الفلكَ تجري في البحرِ بنعمةِ اللهِ ليُرِيَكُم من آياتِهِ﴾[١٨]
﴿وأما بنعمةِ رّبكَ فحدّثْ﴾[١٩]

ونعم الله تشمل الرسل والأنبياء من خلال الرسالات وعلى مر التاريخ
﴿ياعيسى ابنَ مريمَ اذكُرْ نعمَتي عليكَ وعلى والدتِكَ﴾[٢٠]
﴿اليوم أكملْتُ لكم دينَكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾[٢١]

اللهم لاتجعلنا من الذين يعرفون نعم الله ثم ينكرونها بل اجعلنا من الذين يشكرون نِعم الله يارب العالمين.

والإنسان سريع التبدل والنسيان:
﴿ولئن أذقْناه نعماءَ بعد ضَرّاَء مَسّتْهُ ليقولَنّ ذهبَ السيئاتُ عنّي﴾[٢٢]

ونعم الله ظاهرة وباطنة كما يقول تعالى:
﴿وأسبغ عليكم نِعمَهُ ظاهرةً وباطنةً﴾[٢٣]

ومن نعم الله الظاهرة: أنه خلقنا في أحسن تقويم
وأنّه جَعَلَ لنا البصرَ والسمعَ والحواس
وأنه خلق لنا الشمس ضياء والقمر نوراً والنهار معاشاً والليل سباتاً.
وأنه خلقنا على الأرض وقد سخر لنا كل شيء فيها.
وأنه جعل لنا الأرض ذلولاً نعمل فيها فنحصل على رزق الله الوفير، وأنزل لنا من

(١٣) سورة آل عمران: ١٠٣
(١٤) سورة آل عمران: ١٧١
(١٥) سورة النحل: ١٨
(١٦) سورة النحل: ٨٣
(١٧) سورة النحل: ١١٤
(١٨) سورة لقمان: ٣١
(١٩) سورة الضحى: ١١
(٢٠) سورة المائدة: ١١٠
(٢١) سورة المائدة: ٣
(٢٢) سورة هود: ١٠
(٢٣) سورة لقمان: ٢٠

السماء ماءً ليصير رزقاً للعالمين، وخلق لنا الحيوانات وجعلها لخدمتنا وسخرها لنا، منها الإبل والبقر والغنم والماعز وكذلك الخيل والبغال والحمير لحمل أثقالنا في أسفارنا وفي تنقلاتنا.

وأما نعمه الباطنة فكثيرة أيضاً: فمن نعمه الباطنة أنه هدانا إلى طريق الإيمان وأنه هدانا لمنهج القرآن الذي فيه الصراط المستقيم فإن اتبعناه ماضللنا أبداً، ومن نعمه الباطنة أنه نفخ فينا من روحه فجعلنا جديرين بأن نخلفه في الأرض، ومن نعمه الباطنة أنه أعطانا الإحساس والإدراك والعقل التي بها نميز الصواب من الخطأ، ومايضرنا مما ينفعنا.

والإنسان بعد كل هذا يغتر ويتكبر ويتجبر ويظن أن الله مخلده، ولايتذكر أن كل نفس ذائقة الموت، وأن جسده الذي أسرف عليه النعيم سيكون طعاماً دسماً للدود. ومن نعم الله الجنة التي وعد بها المؤمنين وهي نعيم في الأرض أولاً ثم نعيم دائم في جنة الرضوان.

﴿لكفّرنا عنهم سيئاتِهِم ولأَدْخلْناهم جناتِ النعيم﴾(٢٤)

﴿لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ﴾(٢٥)

﴿تجري من تحتهم الأنهارُ في جناتِ النعيمِ﴾(٢٦)

﴿إنّ المتّقينَ في جناتٍ ونعيمٍ﴾(٢٧)

﴿أولئكَ المقربونَ في جنّاتِ النعيمِ﴾(٢٨)

﴿فواكه وهم مكرَمون* في جناتِ النعيمِ﴾(٢٩)

﴿إنّ الأبرارَ لفي نعيمٍ* على الأرائك ينظرونَ﴾(٣٠)

﴿تعرف في وجوهِهم نضرةُ النعيمِ﴾(٣١)

﴿فأمّا إنْ كانَ من المقرّبينَ* فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيمٍ﴾(٣٢)

﴿أيطمعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يدخلَ جنةَ نعيمٍ﴾(٣٣)

﴿وإنْ تعدّوا نعمةَ اللهِ لاتحصوها﴾(٣٤)

صدق الله العظيم.

---

(٢٤) سورة المائدة: ٦٥
(٢٥) سورة التوبة: ٢١
(٢٦) سورة يونس: ٩
(٢٧) سورة الطور: ١٧
(٢٨) سورة الواقعة: ١٢
(٢٩) سورة الصافات: ٤٣
(٣٠) سورة المطففين: ٢٢
(٣١) سورة المطففين: ٢٤
(٣٢) سورة الواقعة: ٨٩
(٣٣) سورة المعارج: ٣٨
(٣٤) سورة النحل: ١٨

٦٩ ـ مامعنى: «آتاه الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿ومنْ قُدِرَ عليه رزقُه فلينفقْ ممّا آتاهُ اللّهُ﴾(١)

﴿ألمْ ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في رّبهِ أن آتاهُ اللهُ الملكَ﴾(٢)

﴿وقَتَلَ داوودُ جالوتَ وآتاهُ اللهُ الملكَ والحكمةَ وعلّمه﴾(٣)

من هذه الآيات الثلاث يتبين لنا أن الفعل (أتى) يرد هنا بمعني يسر الله نعمتَهُ لأولياء نِعمته. فإن كانت رزقاً جعل الرزق ميسراً، وإن كانت مُلكاً أيضاً يسر الوصول إليه بمقدار سعيه له، فالسَّعْيُ لنوال ذلك كله لابد أن يتم من العبد ولكن الله يسهل لعبده المؤمن سُبُلَ نِعمه، ويمنحنا من النعم مالانفطن أحياناً إلى أهميته، فلا يدرك نعمة البصر مثلاً إلا من حرم البصر، والإنسان يستعجل خالقه، ويريد أن يستحوذ على نعمه كلها أو يحسد جاره لنعمة ظاهرة وهو لايدرك أن الله خصه بنعم كثيرة باطنة لايقدر قيمتها ﴿أتى أمرُ اللّهِ فلا تستعجلوهُ سبحانَه وتعالى عمّا يُشركون﴾(٤) وأتى في هذه الآية بمعنى أتى ويأتي وسيأتي، فزمان الفعل مطلق، ونحن نعلم أن من الأساليب الإعجازية للقرآن أنه يتحدث أحياناً عن الأحداث الآتية بصيغة الماضي لأن صيغة الماضي عادة تأتي صيغة خبرية يقينية حدثت وشاهدها ناس كثيرون، ومن المؤسف أن كثيراً من السلف لم يلاحظ ذلك، وظن أن الله تعالى يتحدث عن أخبار حدثت فعلاً، فنسجوا حول ذلك القصص والروايات في عصور الظلام حيث يقل العمل ويسود الكسل، فلا هم للناس إلا الاستماع للأساطير والأعاجيب، فخرج من بين الناس من دلّس واختلق أحاديث كثيرة أو حرّفوا الحديث المروي بشكل صحيح فأضافوا إليه جملاً لم تكن في نصه فصار السند صحيحاً والمتن مشكوكاً فيه، من ذلك مثلاً الحديث الذي دسّ على الرسول صلى الله عليه وسلم حول الآية ﴿اقتربَتْ السّاعةُ وانشقّ القمر﴾ ونسجوا حولها كلاماً عن انشطار القمر مع أن الله تعالى يتحدث عن واقعة الانشقاق بالأسلوب الخبري وبصيغة الماضي لكنه يشير إلى قيام الساعة في المستقبل، واختلقوا حديثاً آخر على لسان الرسول يتوقعون فيه أن تقوم الساعة بعد مئة سنة، ولن يبقى على الأرض نفس منفوسة آنذاك وكذّب مرّ الزمن ماذهبوا إليه، لكن الحديث ظلّ مصنفاً بين

---

(١) سورة الطلاق: ٧

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨

(٣) سورة البقرة: ٢٥١

(٤) سورة النحل: ١

الأحاديث الصحيحة إذ لم يتجرأ أحد أن يلغيه حتى الآن.

ويرد الفعل (أتى) بمعنى (توجه) أحياناً:

﴿إلاّ من أتى اللّهَ بقلبٍ سليم﴾[٥]

ففي هذه الآية أتى بمعنى: توجه إلى

وقد يرد بمعنى بلغ أو وصل:

﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدّهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً﴾[٦]

﴿وهل أتاكَ حديثُ موسى﴾[٧]

هنا أتاك جاءت بمعنى وصلك - هل وصلك حديث موسى - وكذلك في ﴿هل أتاك حديثُ الجنودِ فرعون وثمود﴾[٨]

وكذلك في ﴿هل أتاكَ حديثُ الغاشية﴾[٩]

وقد يرد الفعل (أتى) بمعنى: حلّ

﴿قل أرأيتكم إن أتاكُم عذابُ اللهِ أو أَتتكُم الساعة بَغْتَةً﴾[١٠]

هنا أتاكم بمعنى حلّ بكم عذاب الله وماالمستموه بأحاسيسكم، ومثلها: ﴿أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلْناها حصيدا﴾[١١]

ومثلها الآيات:

﴿فلما أتاها نوديَ ياموسى﴾[١٢]

﴿فخرّ عليهم السقفُ من فوقِهم وأتاهُم العذابُ﴾[١٣]

﴿كذّب الذين من قبلِهم فأتاهم العذابُ﴾[١٤] فأتى فيها بمعنى: حلّ.

وقد يرد الفعل أتى بمعنى (باغت) وفاجأ، كما في قوله تعالى:

﴿فأتاهُمُ اللهُ من حيث لم يحتسِبوا وقذفَ في قلوبِهم الرعبَ﴾[١٥] فأتى هنا بمعنى فاجأهم الله.

وقد يرد الفعل أتى في معناه الحقيقي: (جاء) أو أقبل):

---

(٥) سورة الشعراء: ٨٩
(٦) سورة الإنسان: ١
(٧) سورة طه: ٩
(٨) سورة البروج: ١٧
(٩) سورة الغاشية: ١
(١٠) سورة الأنعام: ٤٠
(١١) سورة يونس: ٢٤
(١٢) سورة طه: ١١
(١٣) سورة النحل: ٢٦
(١٤) سورة الزمر: ٢٥
(١٥) سورة الحشر: ٢

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استَطْعَما أهلَهَا﴾[15]
أو يرد بمعنى (فَعَل)
﴿فإنْ أَتَيْنَ بفاحشةٍ فعليهنّ نصفُ ماعلى المحصناتِ من العذابِ﴾[16]
أي فعلن فاحشة
﴿أتأتونَ الفاحشةَ ماسبقَكُم بها من أحدٍ من العالمينَ﴾[17]
أي: أتفعلون الفاحشة
﴿هل هذا إلاّ بشرٌ مثلكم أفتأتونَ السّحرَ وأنتم تُبصرونَ﴾[18]
أفتأتون هنا بمعنى: أفتمارسون أو تفعلون، ولاحظ كيف أن الله تعالى خاطبهم بقوله وأنتم تبصرون وهي إشارة إلى أنهم يبصرون الحقيقة لكنهم يسترونها وغيرهم يبصر أوهامهم،
﴿قالَ كذلكَ أَتَتْكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليومَ تُنسى﴾[19]
أي كذلك وصلتك آياتنا أو بلغتك.
﴿قال عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيكَ به﴾[20] أي: أنا أحضره لك.
﴿يوم تأتي كلُّ نفسٍ تجادِلُ عن نفسِها﴾[21]
أي يوم تحضر كل نفس
﴿بل هو شاهدٌ فليأتِنا بآيةٍ كما أرسل الأوّلونَ﴾[22]
أي: فلْيُرِنا معجزة ـ ﴿واللذان يأتيانِها منكم فآذوهُما﴾[23]
أي يفعلانها منكم، من ذلك كله نستنتج غنى الفعل (أتى) وتنوع دلالاته وصيغه، فقد ورد في القرآن في أوضاع وصيغ مختلفة بلغت (١٦٥) حالة يتفرع عنها أوضاع وصيغ عديدة. وكما تأتي في سورة الدعاء:
﴿ربَّنا آتنا من لَدُنْكَ رحمةً وَهَيّء لنا من أمرنا رشدا﴾[24]
صدق الله العظيم.

---

(١٦) سورة الكهف: ٧٧
(١٧) سورة الأعراف: ٨
(١٨) سورة الأنبياء: ٣
(١٩) سورة طه: ١٢٦
(٢٠) سورة النمل: ٣٩
(٢١) سورة النحل: ١١١
(٢٢) سورة الأنبياء: ٥
(٢٣) سورة النساء: ١٦
(٢٤) سورة الكهف: ١٠

٧٠ ـ ما معنى «سنّة الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

السنة تعني القانون، والفعل (سنَّ) يعني وضع قانوناً أو شرع، ومنه (سن القوانين) وأنا أستخرج المعنى من آيات القرآن دون اللجوء للمعجمات، لأن القرآن ليس بحاجة إلى مرجع لفهم معانيه فهو يكفي ذاته بذاته.

قال تعالى ﴿ولنْ تَجِدَ لسنّةِ اللّهِ تبديلاً﴾(١)

والمعنى واضح فإن قوانين الله ثابتة في الخلق وفي الوجود، لاتتبدل ولاتتغير ومثلها:

﴿فلن تَجِدَ لسنة الله تبديلاً﴾(٢)

﴿ولنْ تَجِدَ لسنّةِ اللهِ تحويلاً﴾(٣)

﴿سنّة اللهِ التي خَلَتْ من قبل ولن تَجِدَ لسنّةِ اللهِ تبديلاً﴾(٤)

والله تعالى يؤكد أن تاريخ الأمم كلها إذا درسه الإنسان من خلال القرآن أمكنه التوصل إلى قوانين ثابتة يمكن استنتاجها من تصرفات الشعوب ومواقفها، فكل موقف من هذه الشعوب يقابله موقف من الله تعالى، فالذين يتبعون هدى الله ويؤمنون به ينالون مقابل ذلك عطف الله وعونه ونعمه، ومن يكفر بالله من الشعوب يصبه غضب الله وعذابه ونقمته وهو ماوقع ويقع اليوم وسيقع مستقبلاً حتى يرث الله تعالى الأرض، ويعود الناس إليه جميعاً يوم الحساب.

ولذلك يقول الله تعالى:

﴿سنّة منْ قد أرسلْنا قبلَك من رُسُلِنا ولاتجدُ لسنّتِنا تحويلاً﴾(٥)

﴿سنّة اللهِ في الذين خَلَوْا من قبلُ وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً﴾(٦)

تلك هي سنة الله، فهل للرسول سنة أيضاً؟ ليس في الدين، ولافي القرآن مايشير إلى سنة للرسول، فمن أين يأتي الرسول بسنة له إذا كان الله لم يفوضه بذلك، إن تعبير (سنة الرسول) من التعبيرات التي اخترعت في عهود الانحدار الإسلامي ﴿قدْ خَلَتْ من قبلكم سننٌ فَسيروا في الأرضِ﴾(٧)

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٢
(٢) سورة فاطر: ٤٣
(٣) سورة فاطر: ٤٣
(٤) سورة الفتح: ٥٣
(٥) سورة الإسراء: ٧٧
(٦) سورة الأحزاب: ٣٨
(٧) سورة آل عمران: ١٣٧

﴿وما منعَ الناسَ أن يؤمِنوا إذْ جاءَهم الهدى ويستغفروا ربَّهم إلّا أن تأتِيَهم سنّةُ الأوّلينَ﴾[٨]

نلاحظ أن القرآن يذكر (سنة الله) و(سنة الأولين) على الدوام، قانوناً يعامل به الناس حسب مواقفهم، أما باقي قوانينه وسننه في الخلق وغيرها فلا يذكرها تحت كلمة سنن، كما أن تعلمياته للبشر من خلال رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لاترد فيها كلمة (سنن) فالسنن والسنة في القرآن لاترد إلا لتدل على قانون الله عز وجل أو قوانينه الثابتة في حياة الشعوب وتاريخ إيمانها أو كفرها كما أسلفنا.

﴿سنّةُ اللهِ التي خلت في عبادة وَخَسِرَ هنالكَ الكافرون﴾[٩]

صدق الله العظيم.

---

(٨) سورة الكهف: ٥٥ (٩) سورة غافر: ٨٥

٧١ ـ من هم «جنود الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿فسيعلَمونَ منْ هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُنداً﴾[١]
﴿وإنّ جندَنا لَهُمُ الغالبون﴾[٢]
﴿فأنزلَ اللهُ سكينَتَهُ عليه وأيّده بجنودٍ لم تَرَوْها﴾[٣]

الإنسان الجاهل يتوهم أن جنود الله تماثل الجنود من البشر فهم محاربون يحملون السيوف والرماح، وليس ذلك هو المقصود، فجنود الله تعني قوة الله التي تظهر قدرته الفائقة وهي تتجلى في مظاهر كثيرة خفية ﴿وأنزلَ جنوداً لم تَروْها وعذّبَ الذينَ كفروا﴾[٤]

﴿إذْ جاءَتكُم جنودٌ فأرسلْنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَروْها﴾[٥]

﴿وَحُشِرَ لسليمانَ جنودُه منَ الجنّ والإنسِ والطّيرِ﴾[٦]: وهؤلاء هم جنود سليمان وليسوا جنود الله، فإذا كان الجند من الناس بشراً فإن قوة الله تظهر على غير صورة البشر، وذلك الأمر لايعجزه تعالى، إذ يمكن أن يخلق جنوده كما يشاء، وعلى الشكل الذي يريد ـ ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرْهاً قالتا أتَيْنا طائعينَ﴾[٧]

فمخلوقات الله طائعة له، لاترفض لله أمراً أبداً.

وفي قصة أصحاب القرية يحدثنا رب العالمين أنهم بعد عنادهم وكفرهم وسوء جدالهم وفجورهم لم يرسل عليهم ربهم جنوداً من السماء، وإنما كانت صيحة واحدة فانتهى أمرهم جميعاً:

﴿وما أنزلْنا على قومِه من بعدِهِ من جندٍ من السماء وماكنّا منزلينَ﴾[٨]

وفي قصة بني إسرائيل يحدثنا كيف أرسل سبحانه الأنبياء إليهم فبدلوا آيات الله بغيرها وقالوا على الله وعلى رسلهم غير الحق فغضب عليهم وزلزل نفوسهم وشتتهم في الأرض:

﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمونَ﴾[٩]

---

(١) سورة مريم: ٧٥
(٢) سورة الصافات: ١٧٣
(٣) سورة التوبة: ٤٠
(٤) سورة التوبة: ٢٦
(٥) سورة الأحزاب: ٩
(٦) سورة النمل: ١٧
(٧) سورة فصلت: ١١
(٨) سورة يس: ٢٨
(٩) سورة الأعراف: ١٦٢

وفي قصة العبد إذا كفر بربه وظن أنه قادر على فعل كل شيء من دون الله سبحانه يسألنا ربنا ألم تسمعوا أزيز الشياطين بعد أن سلطناهم على الكافرين ـ والله أعلم من مقصده بأزيز الشياطين:

﴿ألمْ ترَ أنّا أرسلْنا الشياطينَ على الكافرين تؤزّهم إزا﴾(١٠)

وفي قصة غزوة الخندق عندما أتى المشركون بأحلافهم وقد عزموا على التخلص من المسلمين وبأعدادٍ لم يتصوروها ولاقبل لهم بها، فاختبر الله بها قلوب المؤمنين وزلزلهم وبدأ قسم منهم يفكر بالهزيمة والهرب فأنزل الله جنوداً لم يَرَها أحد وأرسل على الكافرين ريحاً شديدة اقتلعت خيامهم وأطفأت مواقدهم فقرروا الرحيل:

﴿إذ جاءتكُم جنودٌ فأرسلْنا عليهم ريحاً وجنوداً لم ترَوْها﴾(١١)

وفي قصة سبأ عندما غضب عليهم ربهم وأرسل عليهم سيل العرمِ الذي ضرب عليهم سد مأرب وحول ربهم حدائقهم إلى حدائق لاتثمر إلا ثمراً يغص بها الآكلون ولاتسمن ولاتغني من جوع:

﴿فأعرضوا فأرسلْنا عليهم سيلَ العرمِ﴾(١٢)

وفي قصة بني عاد يخبرنا ربنا كيف كان غضبه عليهم وكيف دمرهم ودمّر ديارهم:

﴿فأرسلْنا عليهم رِيحاً صَرْصَراً في أيامِ نَحِساتٍ﴾(١٣)

﴿إنّا أرسلْنا عليهم ريحاً صَرْصَراً في يومِ نحسٍ مستمرٌ﴾(١٤)

وفي قصة ثمود يخبرنا ربنا كيف تخلص منهم بعد كفرهم وذبحهم للناقة التي طلبوها لتكون آية لهم:

﴿إنّا أرسلْنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيمِ المُحتَظِرِ﴾(١٥)

وفي قصة قوم لوط الذين كفروا وشذّوا عن العالمين فتخلص منهم بعاصفة فيها الحصى والرمال:

﴿إنّا أرسلْنا عليهم حاصِباً إلّا آل لوطٍ نجّيناهُم بِسَحَرٍ﴾(١٦)

وهكذا نجد في القرآن الكريم ذكراً لجنود الله لكننا لانستطيع أن نعرفهم أو نصفهم،

---

(١٠) سورة مريم: ٨٣
(١١) سورة الأحزاب: ٩
(١٢) سورة سبأ: ١٦
(١٣) سورة فصلت: ١٦
(١٤) سورة القمر: ١٩
(١٥) سورة القمر: ٣١
(١٦) سورة القمر: ٣٤

فالله سبحانه وتعالى فضل الاحتفاظ بسر قوته ولازال سره في غيب الله بدليل الآية التالية

﴿ومايعلمُ جنود ربّك إلّا هو﴾[17]

وهذه الآية فيها القول الفصل، إذ ليس لنا في غيب الله أي باب للمعرفة إلا من خلال القرآن الكريم، وماسمح الله لنا بمعرفته موجود فيه ولازال ومالم يسمح لنا به لاطائل في البحث عنه، ومن ذلك الأسرار الخاصة بالعرش والروح والكرسي والملائكة وأشكالها، فالمؤمن يقنع بما قدمه الله من علم ولايتطاول إلى ماهو أبعد من ذلك، وبحسبه أن يقول: ﴿اللهُ أعلمُ وما أوتيتمْ من العلمِ إلّا قليلاً﴾ ولاحرج في ذلك أو خجل، لأن الله شاء ذلك لمنفعة الناس.

على أن بعض الآيات تكشف عن مظاهر قوة الخالق، وما يستخدمه من أنواع هذه القوة عند اللزوم: ﴿ويُرسلُ الصواعقَ فيصيبُ بها منْ يشاءُ﴾[18]

﴿أَفَأَمِنتُم أنْ نخسفَ بكم جانبَ البرّ أو يرسلَ عليكم حاصِباً﴾[19]

﴿فيرسل عليكم قاصِفاً من الريحِ﴾[20]

﴿ويُرسِلَ عليها حُسباناً من السماءِ﴾[21]

﴿أم أمنتم منْ في السماء أن يرسلَ عليكم حاصِباً﴾[22]

﴿يُرسَلُ عليكُما شُواظٌ من نارٍ ونُحاسٍ فلا تنتصرانِ﴾[23]

﴿وأرسلَ عليهم طَيراً أبابيلَ * ترميهم بحجارةٍ من سِجّيلٍ﴾[24]

﴿وأمطرْنا عليهم حجارةً من سجّيلٍ منضودٍ﴾[25]

لكن الله سبحانه وتعالى لم يقل إن كل تلك الوسائل التي ذكرها في القرآن الكريم هي من جنود الله لكي ندعي ذلك. فما علينا إلا الاعتراف بأن (جنود الله) هم من غيب الله وحده.

﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[26]

صدق الله العظيم.

---

(١٧) سورة المدثر: ٣١
(١٨) سورة الرعد: ١٣
(١٩) سورة الإسراء: ٦٨
(٢٠) سورة الإسراء: ٦٩
(٢١) سورة الكهف: ٤٠
(٢٢) سورة الملك: ١٧
(٢٣) سورة الرحمن: ٣٥
(٢٤) سورة الفيل: ٣ ـ ٤
(٢٥) سورة هود: ٨٢
(٢٦) سورة النمل: ٦٥

٧٢ ـ مامعنى «غنى الله» و «الله غني» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿فجعلْناها حَصيداً كَأَنْ لَم تَغْنَ بالأمسِ﴾[١]
﴿فأصبحوا في ديارِهم جاثمينَ * كأن لم يَغْنَوا فيها﴾[٢]
﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعُكم وماكنتم تستكبرونَ﴾[٣]
﴿فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبونَ﴾[٤]
﴿ما أغنى عنهم ماكانوا يُمَتّعونَ﴾[٥]

من سياق هذه الآيات الكريمة تفهم أن الغنى من الاستغناء، فالغني بهذا المعنى: من ليس بحاجة إلى أحد، فهو مستغن عن كل الناس. وبهذا المعنى المطلق ليس هناك غَنيٌ إلا الله سبحانه وتعالى.

أما البشر فهم أحوج لله وللناس، بغض النظر عن فقرهم وغناهم فإن المال والجاه، والعلم لاتجعل الإنسان مستغنياً عن الآخرين أو عن رحمة الله، وهل من غني لايحتاج إلى عطف إذا ضعف جسمه وكبر سنه؟ وهل من غني لايحتاج إلى مساعدة طبيب يعطيه الدواء اللازم ليشفيه من مرض أو يسكن ألمه بإذن الله؟.

فليس من غني إلا الله وحده بهذا المعنى. لذلك ينبهنا الله إلى مصير الأقوام الذين سبقونا وكانوا أشد تمكناً منا فما نفعهم بأسهم ولاغناهم ﴿كانوا أكثرَ منهم وأشدّ قوةً وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبونَ﴾[٦]

﴿واذكرْ أخا عادٍ إذ أنذرَ قومَه بالأحقافِ وقد خلت النُّذر من بينِ يَدَيْه ومن خلفِهِ ألّا تعبدوا إلّا اللهَ إنّي أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم * قالوا أجئْتَنا لتأفكَنا عن آلهتِنا فأتِنا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ من الصادقين * قالَ إنّما العلمُ عندَ الله وأبلّغكم ما أُرسِلْتُ به ولكني أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوْه عارضاً مُستقْبِلَ أودِيتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم * تدمّر كلَّ شيءٍ بأمر ربّها فأصبحوا لايُرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكنّاهم فيما إنْ مكنّاكُم فيه وجعلنا لهم

---

(١) سورة يونس: ٢٤
(٢) سورة هود: ٦٨
(٣) سورة الأعراف: ٤٨
(٤) سورة الحجر: ٨٤
(٥) سورة الشعراء: ٢٠٧
(٦) سورة غافر: ٨٢

سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارهُم ولا أفئدتهُم من شيءٍ إذْ كانوا يَجحَدونَ بآياتِ اللهِ وحاقَ بهم ماكانوا به يستهزءونَ﴾[٧]

فهذا أبو لهب صار ابن أخيه رسولاً للعالمين. بدل أن يؤمن معه ويؤازره وينصره، تصدى له وتكبر وعاداه وتجبر. كان ذا مال، فماذا أفاده ماله وماذا كسب؟ كسب غضب الله:

﴿تبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتبْ * ما أغنى عنه مالُه وماكَسبَ﴾[٨]

وحين دخل شيطان الظن إلى نفوس المؤمنين فاعتقدوا أن النصر من الكثرة والعدد ماذا حصل لهم في حنين؟

﴿ويومَ حُنين إذْ أعجبتكُم كثرتُكُم فلم تُغنِ عنكم شيئاً﴾[٩]

وماذا تفيدني شفاعة الشافعين إذا غضب الله عليَّ؟

﴿أأتَّخذُ من دونه آلهةً إنْ يُردْنِ الرحمنُ بضُرٍ لاتُغنِ عني شفاعتهُم شيئاً﴾[١٠]

﴿لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادهُم من اللهِ شيئاً﴾[١١]

وماذا استفاد الكافرون من إنذار الأنبياء والرسل ومن رؤية المعجزات الإلهية؟

﴿وماتغني الآياتُ والنّذرِ عن قومٍ لايؤمنون﴾[١٢]

وهل أفاد الظن يوماً حتى يستفيد من يتبعه؟

﴿ومايتبعُ أكثرهُم إلا ظناً إنّ الظنَّ لايُغني من الحقِ شيئاً﴾[١٣]

أليس عبادة الأشياء والأصنام التي لاتبصر ولاتسمع ولاتنفع جنوناً؟

﴿لم تعبدُ ما لايسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئاً﴾[١٤]

﴿يومَ لايُغني عنهم كيدُهم شيئاً ولاهم ينصرونَ﴾[١٥]

والعاقل من يتقي يوماً لن يجد فيه من يعينه أو يحميه من اللهب:

﴿لاظليل ولايغني من اللهبِ﴾[١٦]

﴿لايُسمِنُ ولايُغني عن جوعٍ﴾[١٧]

---

(٧) سورة الأحقاف: ٢١ - ٢٦
(٨) سورة المسد: ١ - ٢
(٩) سورة التوبة: ٢٥
(١٠) سورة يس: ٢٣
(١١) سورة آل عمران: ١٠
(١٢) سورة يونس: ١٠١
(١٣) سورة يونس: ٣٦
(١٤) سورة مريم: ٤٢
(١٥) سورة الطور: ٤٦
(١٦) سورة المرسلات: ٣١
(١٧) سورة الغاشية: ٧

الإنسان سريع الفوران والتقلب والتغير. قليل من المال والجاه تراه تكبرً وتجبرً:
﴿كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى * أن رآه استغنى﴾[18]
لكن الله سبحانه في مراقبة عبده إذا نسيَ وبخل بالرزق والمال الذي أعطاه على مستحقيه فربه له بالمرصاد سوف يفتح له أبواب العسر والعذاب:
﴿وأما من بَخلَ واستغنى وكذّبَ بالحسنى فسنُيسّرُه للعسرى﴾[19]
وهكذا وجدنا أنه ليس للانسان غنى، والغنى الحقيقي لله سبحانه ﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعُها أذى واللهُ غنيٌ حليمٌ﴾[20]
﴿واعلَموا أنَّ اللهَ غنيٌ حميدٌ﴾[21]
﴿ومن كفرَ فإنَّ اللهَ غنيٌ عن العالمينَ﴾[22]
﴿وربّك الغنيّ ذو الرحمة﴾[23]
وهل هناك كفراً أكبر من أن ننسب لله ولداً؟
﴿قالوا اتّخَذَ اللهُ ولداً سبحانَه هو الغنيّ﴾[24]
ولو كفر أهل الأرض كلهم معاً فلن يؤذي ذلك رب العالمين وإنما ستكون الأذية فقط للذين كفروا:
﴿إنْ تكفروا أنتم ومنْ في الأرض فإنَّ اللهَ لغنيٌ حميدٌ﴾[25]
﴿ومن كَفَرَ فإنَّ ربّي غنيٌ كريمٌ﴾[26]
وإذا فعل الإنسان شيئاً أو عمل صالحاً أو عبد الله وأطاعه فكل ذلك لفائدة العبد فقط:
﴿ومن جاهَدَ فإنّما يُجاهِدُ لنفسِه إنَّ اللهَ لغنيٌ عن العالمينَ﴾[27]
﴿للّه مافي السمواتِ والأرضِ إنَّ اللّهَ هو الغنيُ الحميدُ﴾[28]
والناس الذين يحتاجون الله، والله غنيٌ عن العالمين:
﴿يا أيّها الناس أنتم الفقراءُ إلى اللهِ واللهُ هو الغنيُ الحميدُ﴾[29]

(18) سورة العلق: 7
(19) سورة الليل: 8
(20) سورة البقرة: 263
(21) سورة البقرة: 267
(22) سورة آل عمران: 97
(23) سورة الأنعام: 133
(24) سورة يونس: 68
(25) سورة إبراهيم: 8
(26) سورة النمل: 40
(27) سورة العنكبوت: 6
(28) سورة لقمان: 26
(29) سورة فاطر: 15

﴿ومن يبخَلْ فإنّما يبخلُ عن نفسِه واللهُ الغنيّ وأنتمُ الفقراءُ﴾[٣٠]
﴿لقد سَمِعَ اللهُ قولَ الذين قالوا إنَّ اللّهَ فقيرٌ ونحن أغنياءُ﴾[٣١]
وهكذا من آيات الله وحدها نتبين يقيناً من هو الفقير الحقيقي ومن هو الغني الحقيقي، ولكن أكثر الناس يتوهمون ويظنون ولايعلمون الحق لأنهم لايسمعون ولايبصرون.
﴿صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لايعقلونَ﴾[٣٢]
صدق الله العظيم.

---

(٣٠) سورة محمد: ٣٨ (٣١) سورة آل عمران: ١٨١ (٣٢) سورة البقرة: ١٧١

٧٣ ـ مامعنى «مكر الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

المكر، لغةً الاحتيال والخديعة، على أن الفعل (مكر) حين يسند إلى الله تعالى يقصد به القوة وسعة الحيلة والتدبير، فالمكر يقوم على الدهاء، فهو أساس كل عملية فكرية يتطلب تنفيذها تدبيراً أو تحضيراً أو تنظيماً وحذراً وسعة حيلة، وسرية تامة، ثم الانتقال لتنفيذ تلك العملية بشكل عملي وفعلي حيث تبدو مضمونة العواقب، تفاجئ الآخرين.

وبما أن الله سبحانه وتعالى لايَخْفَى عليه أَمرٌ في السموات والأرض فلا يمكن استخدام أي مكر معه، فهو عالم بكل تدبير وتنظيم وكتمان من العبد يستخدم فيه دهاءه المحدود وقوته التي لايمكن مقارنتها بقوة الخالق وتدبيره وتنظيمه، ولكن البشر لسذاجتهم يظنون أنهم يستطيعون أن يمكروا على الله، ويفاجئوه بأمور لايصل إليها علمه، لكن الله عز وجل يحبط دهاءهم ويفاجئهم بما يكشف ألاعيبهم، ويحرجهم فيما لم يتوقعوا أو يحسبوا له حساباً وهكذا يقعون في مكر الله.

فالله سبحانه وتعالى قوي منزه عن التآمر، والقوي لايلجأ للمكر أو التآمر لأن قوته تغني عن كل مكر، فالمكر حيلة الضعيف العاجز، والتعبير (مكر الله) يعني أحبط الله مكرهم، ولكي ندرك هذه الحقيقة علينا أن نتأمل في الطبيعة. فالأسد القوي لايلجأ إلى المكر ليصطاد فريسته، لأنه أقوى مخلوقات الغابة، لكن الثعلب الضعيف والمحدود القدرة يلجأ إلى المكر والخديعة في صيده ليعوض بهما عن ضعفه، لكن الثعلب مهما مَكَرَ لايستطيع أن يوقع بمن هو أقوى منه كالنمر مثلاً، لكن سذاجة الإنسان توهمه أنه قادر على أن يوقع الله بمكره، فمكر الله في الآيات الآتية تعني: إحباط الله مكرَ الإنسان بيسر وسهولة.

﴿ومَكَروا ومَكَرَ اللهُ واللهُ خَيرُ الماكرينَ﴾[1]

لاحظ أنه تعالى قدم مكر الناس في الآية على أنه سبب لنتيجة منطقية هي ردّه على هذا المكر.

﴿وقد مكرَ الذين من قبلِهم فللّه المكرُ جميعاً﴾[2]

وفي قصة المسلمين يذكرنا ربنا كيف تصدى علماء بني إسرائيل لرسولنا يقولون له

(١) سورة آل عمران: ٥٤ (٢) سورة الرعد: ٤٢

مستهزئين ما أرسل الله معك إلا أساطير الأولين، فيقول لهم الله: إن الذين سبقوكم كانوا أشد مكراً منكم فانظروا ماذا فعلنا بهم. وطالما الكلام موجّه إليهم فهو يذكرهم بما حصل بفرعون وقومه وبنيانه لقد أصبحوا كلهم في خبر كان:

﴿قد مكرَ الذين من قبلهِم فأتى اللهُ بنيانَهم من القواعدِ﴾(٣)

وفي قصة موسى وهارون يذكرنا ربنا كيف اتهم فرعون بني إسرائيل على مكر مكروه لإخراجهم من تحت سيطرته وجبروته:

﴿إنَّ هذا لمكرٌ مَكَرْتُموه في المدينة لِتُخرِجوا منها أهلَها﴾(٤)

وفي قصة ثمود كيف أرسل لهم صالحاً فقالوا له تشاءمنا منك وممّن معك، وكان في مدينتهم عصابة من تسعة مجرمين يفسدون في الأرض ولايصلحون، فمكر هؤلاء بالرسول وبأهله وأقسموا فيما بينهم على قتله مع أهله، ثم يقولون لوليه إنا لانعلم من فعل ذلك ونحن على مانقول صادقين. فدمرهم الله قبل أن ينفّذوا ماعَقدوا الأَيمان عليه:

﴿ومكروا مكراً ومكَرْنا مكْراً وهم لايشعرونَ﴾(٥)

وفي قصة المسلمين يذكر الله سبحانه موقف اليهود من دينهم متمثلاً في موقف بني النضير وبين قريظة وكيف حاكوا المؤامرات للتخلص من الإسلام والمسلمين حسداً من أنفسهم:

﴿وقد مكَروا مكرَهُم وعندَ الله مكرهُم﴾(٦)

﴿أفأَمنَ الذين مكرُوا السيئات أن يخسفَ اللهُ بهمُ الأرضَ﴾(٧)

وفي قصة موسى مع فرعون يذكرنا ربنا كيف هدم مكره السيىء فوق رأسه ونصر رسوله والمؤمنين به:

﴿فوقاه الله سيئاتِ مامَكَروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾(٨)

ويذكر الله بني إسرائيل الذين كانوا يلاحقون الرسول محمد ﷺ ويقولون له: إذا كنت رسولاً يجب أن تثبت لنا ذلك بمعجزات وآيات، فهذه سنة الله في الرسل، فيقول لهم ربهم لاتنسوا سريعاً ماذا فعلتم برسولكم بعد أن رأيتم معجزات الله، فالآن جئتم تمكرون في آيات الله، فالله أسرع وأشد مكراً منكم، وهو سبحانه يعلم كل ماتمكرون:

(٣) سورة النمل: ٢٦
(٤) سورة الأعراف: ١٢٣
(٥) سورة النمل: ٥٠
(٦) سورة إبراهيم: ٤٦
(٧) سورة النحل: ٤٥
(٨) سورة غافر: ٤٥

﴿وإنّ رسلَنا يكتبونَ ماتمكُرون﴾(٩)

وفي قصة نوح يخبرنا ربنا كيف مكر قومه به، فكان أسرع مكراً منهم فأغرقهم جميعاً بعد أن أنقذ رسوله نوح والذين آمنوا به معه:

﴿ومكَروا مكراً كُبّاراً﴾(١٠)

وهذا هو مكر المشركين وهم يحاولون قتل الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿إذْ يمكرُ بكَ الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوكَ أو يخرجوكَ﴾(١١)

﴿وكذلكَ جعلْنا في كلِ قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها﴾(١٢)

وبما أن الله تعالى محيط بالناس، بأعمالهم، فهو يصرف أمورهم فيستخدم مكرهم نفسه لضرب بعضهم بعضاً، حيث يستخدم الظالم ليعاقب ظالماً آخر ثم يسلط على الظالم المنتقم ظالماً آخر ينتقم منه لظلمه وهكذا يمكر الظالمون ببعضهم بعضاً.

﴿وما يمكرونَ إلاّ بأنفسِهم ومايشعرونَ﴾(١٣)

﴿ويمكرونَ ويمكُر اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾(١٤)

﴿أفأمنوا مكرَ الله﴾(١٥)

﴿وقد مكرَ الذين من قبلهم فللّه المكرُ جميعاً﴾(١٦)

فالله سبحانه وتعالى هو الوحيد الذي يستطيع أن يفاجئ كل المخلوقات بما دبر لهم، إذ لايطلع على سره وغيبه إلا هو، ولم يمكن أحداً من الملائكة أو الجان أو الأنس من الاطلاع على غيبه إلا إذا شاء، وبالقدر الذي يريد أن يظهره فحسب، فكل من يعتقد أن هناك مصادر أخرى غير القرآن لمعرفة غيب الله واهم، واعتقاده باطل.

﴿قل لايعلَمُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا اللهُ﴾(١٧)

﴿عالم الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبِهِ أحداً﴾(١٨)

وقد قال الله سبحانه وتعالى بلسان أحد رسله في القرآن الكريم:

﴿قل لا أملكُ لنفسي نفعاً ولاضرّاً إلا ماشاءَ اللهُ، ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من

---

(٩) سورة يونس: ٢١
(١٠) سورة نوح: ٢٢
(١١) سورة الأنفال: ٣٠
(١٢) سورة الأنعام: ١٢٣
(١٣) سورة الأنعام: ١٢٣
(١٤) سورة الأنفال: ٣٠
(١٥) سورة الأعراف: ٩٩
(١٦) سورة الرعد: ٤٢
(١٧) سورة النمل: ٦٥
(١٨) سورة الجن: ٢٦

الخير ومامسَّنيَ السوءُ إنْ أنا إلّا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنونَ﴾[١٩]

ولذلك يقرر الله سبحانه وتعالى أن كل مكر سيء من الإنسان يعود في الواقع وبالاً وعقوبة على الماكر الظالم، فيذيقه الله سبحانه مقابل مكره مكراً آخر. ﴿ولايحيقُ المكرُ السيّءُ إلّا بأهلِه﴾[٢٠]

وكل مكر وتآمر يجب إحباطه سريعاً قبل مرحلة تنفيذه لذلك يقرر الله سبحانه وتعالى:

﴿قل اللهُ أسرعُ مَكراً﴾[٢١]

رداً على مكر الماكرين، بل يتدخل أحياناً بسبب غضبه على الماكرين من الكفار فيشجعهم على مكرهم ﴿بل زيّن للّذين كفروا مكرهُم﴾[٢٢] ويشجعهم عن طريق الشيطان الذي استخدمه بعد كفره للقيام بتلك المهمة، ومكر الشيطان لايقاس بدهاء الخالق، وهو يظن أنه يمكر بالناس فيزين لهم أعمالهم الشديدة، عصياناً لله، والله سبحانه وتعالى يريد من ذلك أن يختبرهم، حتى إذا لجوا في كفرهم وأسلموا أمرهم للشيطان تكون عقوبتهم قاسية:

﴿فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهِم أنّا دَمَّرناهم وقومَهم أجمعينَ﴾[٢٣]

صدق الله العظيم.

---

(١٩) سورة الأعراف: ١٨٨
(٢٠) سورة فاطر: ٤٣
(٢١) سورة يونس: ٢١
(٢٢) سورة الرعد: ٣٣
(٢٣) سورة النمل: ٥١

٧٤ ـ مامعنى «نصر الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

لابد من حسم للصراع بين فئتين متعارضين قوة واتجاهاً، كالخير والشر، والرحمن والشيطان، والمؤمن والكافر، وحزب الله وحزب الشيطان، وإن تفوق فريق على آخر تفوقاً ساحقاً كان عندها النصر المبين، وفي كل صراع ثمة معارك تكتيكية صغيرة، تقع على الدوام، دون أن يكون لها تأثير على النتيجة العامة للحسم، ويمكن لكلا الطرفين أن ينتصرا فيها أو يخسراها فحسب بحسب التحضير لها أو سوء التدبير لكن دون أن يكون لهذه المعارك الصغيرة أي تأثير في النتائج التي تحددها عوامل أساسية. فالله سبحانه وتعالى يقرر أن النصر النهائي سيكون لصالح حزبه وأتباعه في صراعهم مع حزب الشيطان وأتباعه:

﴿واللهُ غالبٌ على أمرِهِ ولكن أكثرَ الناسِ لايعلمونَ﴾(١)

﴿واللهُ متمٌّ نوره ولو كَرِهَ الكافرون﴾(٢)

﴿ويحقّ الله الحَقّ بكلماتِه ولو كَرِهَ المجرمونَ﴾(٣)

﴿يأبى اللهُ إلّا أن يُتمّ نوره ولو كَرِهَ الكافرونَ﴾(٤)

﴿هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَهُ على الدينِ كلِّه ولو كَرِهَ المشركونَ﴾(٥)

﴿ولله يسْجدُ من في السمواتِ والأرضِ طوعاً وَكَرْهاً﴾(٦)

وفي الآية الأخيرة تتجلى الحقيقة الواضحة، فكل مخلوق يسجد لله وينصاع لطاعة الرحمن شاء أم أبى. لكن وهم الإنسان وغروره يسوقانه إلى التمرّد والتعالي، ولقد كانت آية الله الكبرى للمؤمنين في معركة بدر، حيث أظهر الله لهم بصورة واقعية مشيئته في نصرهم: ﴿إن ينصرْكُم اللهُ فلا غالبَ لكم﴾(٧)

فنصرهم الله وكانوا ضعافاً قلةً أذلةً:

﴿ولقد نصرَكُم اللّه ببدرٍ وأَنتُم أَذِلّةٌ﴾(٨)

---

(١) سورة يوسف: ٢١
(٢) سورة الصف: ٨
(٣) سورة يونس: ٨٢
(٤) سورة التوبة: ٣٢
(٥) سورة التوبة: ٣٣
(٦) سورة الرعد: ١٥
(٧) سورة آل عمران: ١٦٠
(٨) سورة آل عمران: ١٢٣

ولكن الله يتخلى عن تأييده المؤمن لكي لايغتر فيتحول إيمانه بالله إلى إيمان واهم فيعزو نصره إلى شجاعته أو تفوق حزبه عدداً دون حساب لدعم الله الكبير ﴿لقد نَصَرَكُم اللهُ في مواطنَ كثيرةٍ ويوم حنينٍ إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عَنكم شيئاً وضاقَت عَليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ ثمّ ولّيتُم مدبرينَ﴾(٩)

فالله سبحانه لاينصر أحداً إلا إذا لمس منه إيماناً حقيقياً، مع إرادة وعزيمة تكون خالصة لله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تَنصروا اللهَ ينصرْكُم ويثبّتْ أقدامكم﴾(١٠)

﴿بنصرِ اللهِ ينصرُ مَنْ يشاءُ وهوَ العزيزُ الرحيم﴾(١١)

ولعل أسوأ أنواع التصورات الباطلة لمشيئة الله سبحانه وتعالى أن نتصوره سبحانه مثلنا أي صاحب أهواء وميول ونزوات كالبشر، وصاحب الهوى يفعل مايشاء له هواه دون أن يستند تصرفه إلى مبادئ راسخة، فيفعل مايخطر على باله، ويقع في التناقض بسلوكه، ونحن حين نتصور واهمين أن الله مثل ذلك الإنسان عديم المسؤولية نرتكب خطأ فادحاً، فمشيئة الله تستند إلى مبادئ دقيقة، وقوانين وأنظمة ووعود وعهود قطعها الله سبحانه وتعالى والتزمها كلها بدقة متناهية، فلا تُعارضُ إرادتَهُ وإذنه ومشيئته تلك الوعود والعهود. فالله مثلاً لايدفعه هواه ليظلم أي كائن في الكون، لأنه تعهد سبحانه بشكل مسبق ألا يظلم مخلوقاته ﴿إنَّ اللّهَ لايظلِمُ مثقالَ ذرةٍ﴾(١٢) والله سبحانه وتعالى التزم الرحمة: ﴿كتبَ على نفسِه الرحمةَ﴾(١٣) فمشيئته محسوبة ومقدرة تقديراً دقيقاً.

والله سبحانه ليس محتاجاً إلى إعلام منا بأننا ننصره، فهو يعلم إن كنا نسعى لنَصْرِهِ أم لا. ﴿وليعلمَ اللهُ منْ ينصره بالغَيبِ﴾(١٤)

وأما الكافر فهو عاجز عن نُصرَةِ نفسه فكيف ينصُرُ سواه؟ ﴿لايستطيعونَ لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرونَ﴾(١٥)

فالإنسان الذي فهم الدين تواكلاً، وترك السعي وراء الرزق والعمل الصالح، وضاع في زهده وتصوفه وأحلامه حتى أمسى محتاجاً إلى من يطعمه ويسقيه وقد أعلن عجزه الكامل، وانسحابه من الحياة الدنيا لايمكن أن ينصره الله والمشرك الذي يعتقد بوجود شفعاء لله يتوسطون له عند الله لاينصره الله لأن شفعاءه عاجزون عن نصر أنفسهم.

---

(٩) سورة التوبة: ٢٥
(١٠) سورة محمد: ٧
(١١) سورة الروم: ٥
(١٢) سورة النساء: ٤٠
(١٣) سورة الأنعام: ١٢
(١٤) سورة الحديد: ٢٥
(١٥) سورة الأعراف: ١٩٢

﴿والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصرَكُم ولا أنفسهم ينصرونَ﴾[١٦]
وهذا هو حال الجاهل، والجهل أبو الأوهام والأباطيل كلها:
﴿وإنْ تدعوهم إلى الهدى لايسمَعوا وتراهم ينظرونَ إليكَ وهم لايبصرون﴾[١٧]
لماذا لايبصرون؟ لأن أوهامهم تستر عيونهم بغشاوة تمنعهم من رؤية الحقائق، فبصائرهم عمياء ولو كانوا مبصرين، ومداركهم معطلة بالوهم والباطل.
﴿خذْ العفوَ وأمرْ بالمعروفِ وأعرِضْ عن الجاهلينَ﴾[١٨]
ودعاؤه ربَّه يجب ألا يخلو من طلب المؤازرة والنصر في كل الأمور ﴿أنتَ مولانا فانصرْنا على القومِ الكافرين﴾[١٩]
﴿قالَ ربِّ انصرْني بما كذّبونِ﴾[٢٠]
﴿قالَ ربّ انصرني على القوم المفسدينَ﴾[٢١]
والله يحب العبد الذي ينتصر للحق ولنفسه إذا أصابه ظلم وبغي ﴿والذين إذا أصابَهم البغيُ هم ينتصرونَ﴾[٢٢]
وهو يمد المظلوم بالصبر ويثبت موقفه في مواجهة أعداء الله ﴿قالوا ربّنا أفرِغْ علينا صبراً وثبّتْ أقدامَنا وانصُرْنا على القومِ الكافرين﴾[٢٣]
صدق الله العظيم.

---

(١٦) سورة الأعراف: ١٩٧
(١٧) سورة الأعراف: ١٩٨
(١٨) سورة الأعراف: ١٩٩
(١٩) سورة البقرة: ٢٨٦
(٢٠) سورة المؤمنون: ٣٩
(٢١) سورة العنكبوت: ٣٠
(٢٢) سورة الشورى: ٣٩
(٢٣) سورة البقرة: ٢٥٠

٧٥ ـ مامعنى «يد الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿وأنّ الفضلَ بيدِ اللهِ يؤتيه منْ يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيم﴾(١)

﴿وأدخل يدَكَ في جَيبِك تخرجْ بيضاء من غيرِ سوءٍ﴾(٢)

ففي الآية الأولى إشارة إلى (يد الله) وفي الثانية إشارة إلى يد الإنسان، ونحن نعرف يد الإنسان لكننا لانتصور (يد الله) والتعبير مجاز عقلي، الهدف منه تقريب صورة عطاء الله وقوته إلى أذهاننا نحن البشر، فاليد في مفهومنا هي التي تعطي أو تمنع، وهي التي تعاقب أو تكافئ لأنها وسيلة تنفيذ ماتمليه رغباتنا وعقولنا، فأحب تعالى أن يقرب لنا صورة أعماله بالأسلوب الذي نفهمه:

﴿أو لم يروا أنّا خلقْنا لهم مما عَمِلَتْ أيدنيا أنعاماً﴾(٣)

﴿قلْ من بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ﴾(٤)

﴿قلْ إنّ الفضلَ بيدِ الله يؤتيه من يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾(٥)

﴿تباركَ الذي بيده الملكُ وهو على كل شيءٍ قديرٌ﴾(٦)

﴿بل يداه مبسوطتان ينفقُ كيف يشاءُ﴾(٧)

فالإنسان يدرك أن اليد أداة للفعل والعين أداة للبصر، والأذن أداة للسمع، ولذلك يقرب الله لنا صورته بأمثلة مستمدة من صورنا، ولكن ذلك لايعني أن نتوهم أن لله سبحانه وتعالى شكلاً مادياً، فنتصوره مخلوقاً مادياً مثلنا، لأن كل ماله جسم مادي هو فان، فالمادة تفنى ولايبقى إلا الله سبحانه. وكل مادة تخضع لعامل الزمن أما الله فلا يؤثر فيه زمان أو مكان. فيد الله وسمع الله وبصر الله تعبيرات تقريبية لأذهاننا، أما الله نفسه فلا أحد يعلم كنهه وصورته، لأن ذلك من علم الغيب الإلهي ﴿ليس كمثلهِ شيءٌ وهو السميعُ البصير﴾(٨)

أي لايشبهه شيء، ولامجال لتشبيهه بأي شيء مُبْصَرْ أو مُتَصَوَّرْ، مع أنه سبحانه وتعالى قادر على السمع والبصر، لكن لايشترط أن يكون له أذن أو عين ليتحقق له ذلك.

---

(١) سورة الحديد: ٢٩
(٢) سورة النمل: ١٢
(٣) سورة يس: ٧١
(٤) سورة المؤمنون: ٨٨
(٥) سورة آل عمران: ٧٣
(٦) سورة الملك: ١
(٧) سورة المائدة: ٦٤
(٨) سورة الشورى: ١١

فكل الكلمات التي وردت في القرآن الكريم في وصفه تعالى هي تعبيرات تقريبية مثل: ﴿بل يداه مبسوطتان يُنفقُ كيف يشاءُ﴾[٩]

(يداه) هنا على المجاز، وليس على الحقيقة، ﴿قال يا إبليس مامنَعَكَ أن تَسجُدَ لِما خَلقْتُ بيديَّ﴾[١٠]

وقد تصوّر بعض السلف أن الله سبحانه وتعالى عمل في بداية الخلق في صناعة الفخار فكان يصنع تماثيل من المخلوقات وينفخ فيها من روحه، وياليتهم توقفوا عند ذلك التصور، بل تعدّوا ذلك واختلقوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث في خلق الله تعارض ماجاء في القرآن من آيات تتصل بخلق الإنسان وتعكس تصورهم الساذج للخلق. وكل تلك التصورات مصدرها محرّفات أهل الكتاب من توراة وتلمود وإنجيل.

إن الإنسان في يوم الحساب تحصى أعماله في الحياة الدنيا من خير أو شر، وقد تكون بعض آثامه صادرة عن اللسان عن العين أو عن الأذن أو اليد، أو القدم، فكل عمل أو إثم أو كبيرة يرتكبها الإنسان مسؤول عنه أمام الله: ﴿ومن أظلمُ ممّن ذُكرَ بآياتِ ربّهِ فأعرضَ عنها ونَسِيَ ماقدّمَتْ يداه﴾[١١] ﴿ذلك بما قدَّمَتْ يداك وإنَّ اللهَ ليس بظلّامٍ للعبيدِ﴾[١٢]

﴿تبّتْ يدا أبي لهبٍ وَتب﴾[١٣]

فاليدان هنا كناية عما اقترف الإنسان من أعمال صادرة عن مختلف حواسه أو نفسه الأمارة بالسوء، فالنفس هي مصدر الشر أو الخير، وماليد والعين واللسان سوى آلات وجوارح تطيع النفس وتنفذ ماترغب، فالحواس لاتعمل الخير أو الشر من ذاتها، وإنما تشهد على فعل النفس وأوامرها، ولذلك جعلها الله تعالى شاهدة على أفعال المرء يوم القيامة: ﴿يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملونَ﴾[١٤]

﴿إنما يُبايعونَ اللهَ يدُ اللهِ فوقَ أيديهم﴾[١٥]

فيد الله لايجوز تصورها في صيغة مادية، إنها مجاز ورمز، وتجريد لاصلة له باليد البشرية المحسوسة، ومن ذلك التمثيل قوله تعالى: ﴿يخربونَ بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنينَ﴾[١٦]

---

(٩) سورة المائدة: ٦٤
(١٠) سورة ص: ٧٥
(١١) سورة الكهف: ٥٧
(١٢) سورة الحج: ١٠
(١٣) سورة المسد: ١
(١٤) سورة النور: ٢٤
(١٥) سورة الفتح: ١٠
(١٦) سورة الحشر: ١٠

فخراب البيت هنا هو خراب معنوي ولايعني هدمه بالأيدي، فمن يفهم القرآن الكريم بسذاجة وسطحية لن يصل مطلقاً إلى مقصد الله علماً أن الله سبحانه وتعالى يريد من وراء ذلك التمثيل تقريب الفكرة إلى أذهاننا، فلاحاجة لنا إلى دراسة فلسفة اللغة لندرك مقاصده البينة، وإنما نحتاج إلى عقل متأمل وقلب سليم وتروٍ في الفهم قبل أن نحكم على المعاني، ونظرة كلية شاملة من خلال متابعة الآيات في الموضوع الواحد. يقول تعالى:

﴿ماكان حديثاً يُفترى ولكن تصديقَ الذي بين يَديْه﴾(١٧)

فكلمة (يديه هنا تعود إلى القرآن وليس المقصود يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن مابين يدي القرآن أي مافيه هو حقائق وبراهين صادقة علماً وتاريخاً تصدّق آياتٍ أخرى بين يدي تلك الآيات هي آيات الرسالة التي تقول مثلاً ﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ من يومِ الجمعة فاسعَوا إلى ذِكْرِ الله﴾(١٨)

ولكي نفهم الآيات السابقة بصورة أوضح نقدم المثال الآتي:

لنفرض أن تاجراً من دمشق ذهب إلى نيويورك لمقابلة أحد مديري الشركات بهدف اتفاقية تجارية، وكان التاجر الدمشقي يجهل اللغة الانكليزية، فبحث في نيويورك عن أحد المغتربين الدمشقيين هناك ممن يتقنون اللهجة الدمشقية واللغة الانكليزية، فاستأجره ليعمل له مترجماً في هذا اللقاء الهام.

ولنفرض أن التاجر الدمشقي قال جواباً عن أحد الأسئلة التي وجهت إليه: على عيني. فليس للمترجم الحق بالترجمة الحرفية للتعبير لأنه لامعنى له بالانكليزية ولو فعل ذلك لجاءت ترجمته سخيفة مضحكة، ومثلها تعبيرات أخرى في العربية لايصح نقلها حرفياً إلى أي لغة مثل (على راسي) و(إيدي بزنارك) و(ماشي الحال) (شو في ما في).

فلكل بيئة ولكل لغة تعبيراتها الخاصة التي لايمكن أن تترجم إلى لغة أخرى حرفياً فكيف تكون الأمور - والله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء والذي لايتأثر بالزمن ولايؤثر فيه الفناء وهو خالق كل شيء يتكلم مع مخلوق من مخلوقاته محدود بحجمه وشكله وعقله وزمانه ومكانه ولغته وعلمه، وهو لايحيط بشيء من علم الله، ولابكنهه، إلا بما شاء الله أن يعلمه عن نفسه، فتصورُ الشامي بأن الأمريكي يفكر بأسلوب الشامي هو تصور خاطئ، كذلك تصور الإنسان المحدود بأن الله سبحانه وتعالى هو على صورته،

(١٧) سورة يوسف: ١١١ (١٨) سورة الجمعة: ٩

له رأس وعينان وأذنان وأنف وفم ويدان وقدمان.... فهذا التصور من أوهام الإنسان الساذج الذي يسقط صفاته هو على صفات الله، وليس من حقه ذلك، لأنه لم ير الخالق ولم يره سواه، فكل علم عن الله لم يكن مصدره الله في كتاب موثوق فيه لايصح اعتماده، وما من كتاب موثوق لم يدخله تحريف سوى القرآن.

وليس في القرآن كلّه إلا ما يؤيد كل ما ذهبنا إليه، ومع الأسف الشديد ليس في كل الصحيحين إلّا مايؤيد أن لله شكلاً كاملاً كما للإنسان من رأس وقدمين ويدين وعينين وأذنين وقلب وهكذا... ومصدرهم لكل علومهم هذه ليس القرآن وإنما مع الأسف الشديد كل الكتب التي نهى عنها الله والرسول من توراة وتلمود وأناجيل أهل الكتاب المحرفة.

إذا عدنا للأحاديث النبوية نجد مثلاً في صحيح الإمام مسلم رحمه الله الحديث (٢٨٤١ صح مسلم) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل آدم على صورته. طوله ستون ذراعاً» وهذا الكلام لن تجده في القرآن ولكننا نجده في التوراة المحرفة: (فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه). ـ سفر التكوين ـ الإصحاح الأول الفقرة ٢٧.

(ثم جبل الرب الإله آدم من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية وأمام الرب الإله جنةً في شرقي عدن ووضع فيها آدم). سفر التكوين ـ الإصحاح الثاني الفقرة ٧ ـ ٨.

(فأوقع الرب الإله آدم في نوم عميق ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسد مكانها باللحم. وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم) سفر التكوين ـ الإصحاح الثاني الفقرة ٢١ ـ ٢٢.

(وسمى آدم زوجته حواء لأنها أم كل حي) سفر التكوين ـ الإصحاح الثالث الفقرة ٢٠.

وهذه هي مصادر علمائنا من العلم بعد أن تركوا القرآن الكريم.

﴿تالله لَتُسئَلُنَّ عما كنتم تفترون﴾[١٩]

صدق الله العظيم.

---

(١٩) سورة النحل: ٥٦

٧٦ ـ مامعنى «توكلت على الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

توكل ووكل مزيدان على الثلاثي من الفعل (وكل) وقد ورد الثلاثي منه في قوله تعالى: ﴿فإنْ يكفر بها هؤلاء فقد وَكَلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرينَ﴾(١)

وورد الفعل (وكل) مبنياً للمجهول في قوله تعالى:

﴿قلْ يتوفّاكم ملكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بكم ثمَّ إلى ربِّكم ترجعونَ﴾(٢)

وأكثر صيغه وروداً في القرآن الكريم: توكل وتوكلت:

﴿فإنْ تَولّوا فقلْ حسبيَ اللهُ لا إله إلّا هو عليه توكّلتُ﴾(٣)

﴿فعلى اللهِ توكّلتُ فاجمَعوا أمرَكُم وشركاءَكُم﴾(٤)

﴿وماتوفيقي إلّا بالله عليه توكّلتُ وإليه أُنيبُ﴾(٥)

﴿إن الحكم إلّا لله عليه توكّلتُ وعليه فليتوكّل المتوكّلونَ﴾(٦)

من هذه الآيات الكريمة يمكن فهم معنى التوكل كما يقصده الله سبحانه وتعالى من سياق الآيات الكريمة:

ومن آية السجدة رقم ١١ (الآية الثانية مما ذكرنا) يتبين لنا أن ملك الموت قد وُكل بنا بأمر من رب العالمين فصارت له مسؤولية قبض النفوس عند موتها (وقد بينا من قبل أن ليس ثمة كلمة روح في القرآن بالمعنى الشائع لدينا الآن، فآثرنا استخدام كلمة النفس والنفوس مجاراة للقرآن دون الحديث) والتوكيل كما يتضح من الآية: إسناد مهمة أو عمل ماينفذه الموكل نيابة عن موكله كتوكيل محام للدفاع عن الموكل. فالمؤمن من هذا الباب يجعل الله وكيله في كل أموره، إذ يتوكل عليه لرعايته في شؤون حياته، فالمؤمن يعلم أن الله سبحانه قد حسب حسابه في الرزق من اليوم الذي ولد فيه على هذه الدنيا، فرزقه قائم من الله مادام يعيش، والمؤمن يعلم أيضاً أن هذا الرزق لابد من تحصيله، ولايتم ذلك إلا بالعمل الشريف الذي ينفع الناس وينفعه وبالسعي الدؤوب مع النشاط.

---

(١) سورة الأنعام: ٨٩
(٢) سورة السجدة: ١١
(٣) سورة التوبة: ١٢٩
(٤) سورة يونس: ٧١
(٥) سورة هود: ٨٨
(٦) سورة يوسف: ٦٧

والمؤمن الذي يعلم أن الله سبحانه وكيله في الرزق لايخاف أن يأتي يوم يموت فيه من الجوع مادام يسعى إلى رزقه طارقاً الأبواب السليمة لتحصيله. فكل عصافير الدنيا تخرج في الصباح جائعة وتعود مساء وقد شبعت من رزق الله، ولن يعود عصفور جائع مادام يسعى لتحصيل رزقه.

والله سبحانه وتعالى لايطلب إلا من المؤمن أن يتوكل عليه، لأنه يعلم أن الكافر سوف يتوكل على نفسه الأمارة بالسوء أو على الشيطان.

والعبد الذي فهم التوكل على الله تواكلاً ويجلس في زاوية المسجد أو في زاوية البيت ينتظر من الله سبحانه وتعالى أن يرسل له رزقه، فإذا تصدق عليه إنسان بحسنة ظن أن هذا هو رزقه المقسوم الذي وعده الله به، مع أنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى دعاه للعمل بصراحة تامة.

﴿ليأكلوا من ثمرِهِ وماعَمِلَتْه أَيديهم أَفَلا يشكرونَ﴾(٧)

والكسب في الدنيا الذي يأتي أيضاً من عمل اليدين، قد يتسبب بإفساد البيئة سواءٌ أكانَ كسباً حلالاً أم حراماً ﴿ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبتْ أيدي الناسِ﴾(٨)

﴿وما أصابَكُم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكُم﴾(٩)

والإنسان الذي آمن بالله خالقاً ومدبراً، وآمن بقدرته تعالى بما يراه في هذا الكون العظيم من آيات بينات شاهدات على عظمة الخالق يؤمن أيضاً أنه قادر على أن يتدبر شؤونه ويكون خير من يتوكل عليه.

﴿وما لنا ألّا نتوكّل على اللهِ وقد هَدانا سُبُلَنا﴾(١٠)

﴿وإنْ يخذلكُم فمَنْ ذا الذي ينصركُم من بعدِه وعلى اللهِ فليتوكَّلْ المؤمنونَ﴾(١١)

﴿إن الحكم إلّا للهِ عليه توكَّلتُ وعليهِ فليتوكّل المتوكّلونَ﴾(١٢)

فمن عرف قدر الله ووفاه حق قدره فلن يجد خيراً منه سبحانه وتعالى نصيراً ولا ولياً، ولامن يستحق التوكل عليه إلا سبحانه رب العالمين.

﴿وما عندَ الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلونَ﴾(١٣)

---

(٧) سورة يس: ٣٥
(٨) سورة الروم: ٤١
(٩) سورة الشورى: ٣٠
(١٠) سورة إبراهيم: ١٢
(١١) سورة آل عمران: ١٦٠
(١٢) سورة يوسف: ٦٧
(١٣) سورة الشورى: ٣٦

﴿وتوكّل على الحيّ الذي لايموتُ وسبّحْ بحمدِهِ﴾(١٤)
ولانفع في أن يتوكل الإنسان على إنسان، فالإنسان معرض للموت في كل لحظة، وهو نفسه محتاج إلى من يتوكل عليه.
﴿وتوكّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلا﴾(١٥)
أي أن من يتوكل على الله يجب أن لايبحث عن وكلاء آخرين سواه.
﴿إنْ كنتم آمنتُم باللهِ فعليه توكّلوا إنْ كنتمُ مسلمينَ﴾(١٦)
ويقاس إيمان الفرد بمدى توكله على الله، فضعيف الإيمان يبحث عن وكيل دنيوي يشاهده بالعيان لأن ضعف إيمانه بالله يبعث في نفسه الشك في الاعتماد على قوته ومشيئته غير المنظورتين عياناً، مع أن الله عز وجل يعلمنا أنه وكيلنا في أمورنا ﴿خالق كل شيءٍ فاعبدوه وهو على كلِ شيءٍ وكيل﴾(١٧). بينما لا يجوز التوكل على الرسول ﷺ.
﴿وماجعلناكَ عليهم حفيظاً وما أنتَ عليهم بوكيلٍ﴾(١٨)
أي أن الله سبحانه وتعالى له الوكالة على كل أمورنا، لايشاركه فيها مخلوق من الملائكة ولامن الإنس ولامن الجن، لذلك يأمر رسوله بأن يقول للناس:
﴿قلْ لستُ عليكم بوكيلٍ﴾(١٩) لأن الرسول نذير ومبعوث للناس وليس وكيلاً على أمورهم:
﴿إنّما أنتَ نَذيرٌ واللهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ﴾(٢٠)
﴿اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهو على كلِّ شيءٍ وكيلٌ﴾(٢١)
والوكالة هنا مسؤولية كاملة عن كل مايتعلق بالمخلوق سواء أكان كائناً حياً أم مخلوقاً من الجمادات كالشمس والأرض والنجوم والكواكب والبحر والجبال والأنهار والبحار والسحاب والرياح. وعلى هذا يدعونا أن نتوكل عليه كلما هممنا بعمل أو أقدمنا على قرار:
﴿فإذا عزمْتَ فتوكّلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكّلينَ﴾(٢٢)
صدق الله العظيم.

---
(١٤) سورة الفرقان: ٥٨
(١٥) سورة الأحزاب: ٣
(١٦) سورة يونس: ٨٤
(١٧) سورة الأنعام: ١٠٢
(١٨) سورة الأنعام: ١٠٧
(١٩) سورة الأنعام: ٦٦
(٢٠) سورة هود: ١٢
(٢١) سورة الزمر: ٦٢
(٢٢) سورة آل عمران: ١٥٩

٧٧ ـ مَن «أنصار الله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

سبق أن تحدثنا عن أنصار الله في الفقرة التي عرضنا فيها معنى (نصر الله) ولأهمية الكلمة نخصص لها هذه الفقرة. تحدثنا عن أنصار الله ومعنى أنصاره بشكل خاص: وأنصار الله هم المؤمنون الذين آمنوا بالله تطوعاً وحباً، واهتدوا إلى صراطه سبيلاً وأطاعوا الله والرسول إطاعة كاملة، وهنا التعبير يرد في القرآن في معرض التصدي لجنود الشيطان، الذين من طبعهم الظلم والطغيان، فأنصار الله يجاهدون جهاداً صادقاً لإعلاء كلمة الله وجعلها العليا.

﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللّهِ﴾[١]

﴿قالَ الحواريونَ نحنُ أنصارُ اللّه﴾[٢]

﴿لقد تابَ اللهُ على النبيّ والمهاجرين والأنصارِ﴾[٣]

والأنصار في الآية الأخيرة هم أهل المدينة الذين نصروا الله، وآووا عندهم المهاجرين من المسلمين فسماهم الله سبحانه في القرآن الكريم: (الأنصار) لنصرهم الله والمؤمنين.

﴿والسابقونَ الأولونَ مِن المهاجرينَ والأنصار﴾[٤]

﴿أهلكْناهم فلا ناصِرَ لهم﴾[٥]

والناصر هو الله أبداً.

إنَّ الله تعالى يحدثنا عن الإنسان الذي خلقه من ضعف ومن ماء دافق ثم كبر وقوي واستعلى وتكبر وتجبر، سوف يعود طوعاً أو كرهاً إلى ربه وعندها لايعود له قوةٌ ولا ناصرٌ بعد أن خذلته قوته وخذله أنصاره:

﴿فما له من قوةٍ ولا ناصر﴾[٦]

إن الله سبحانه يحدثنا في سورة الجن عنهم ويأتينا من غيبه بعلم عنهم ثم يقول لرسوله أن يبلغ الإنس والجن بأنه يدعو إلى الله من دون أن يشرك به أحداً، والرسول ليس بيده أن ينفعهم أو يضرهم أو يشفع لهم، وكما لايستطيع أحدٌ من خلق الله أن يجيره من

(١) سورة الصف: ١٤
(٢) سورة آل عمران: ٥٢
(٣) سورة التوبة: ١١٧
(٤) سورة التوبة: ١٠٠
(٥) سورة محمد: ١٣
(٦) سورة الطارق: ١٠

الله إن شاء له العذاب، والناس في يوم القيامة عندما يرون أن وعد الله حق عندها فقط سيعلمون من هو الأضعف والأقل جنداً وعدداً، الذين كانوا يعتزون بقوتهم أم الله الذي أنكروه وكفروا به؟:

﴿فسيعلمونَ منْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً﴾(٧)

إن الله سبحانه يحدثنا عن بني إسرائيل الذين قتلوا الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل والإحسان من الناس فيبشرهم بعذابٍ أليم ويخبرنا أنّ جهدهم المستميت في الدنيا بجمع الكنوز ضائع، وأنهم يجمعون مايضرهم ولاينفعهم ولن يجدوا في الآخرة التي لا يؤمنون بها ناصراً ولامعيناً:

﴿أولئكَ الذينَ حَبطَتْ أعمالُهُم في الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرينَ﴾(٨)

الله سبحانه يعظ المسلمين ويقول لهم: إن الذين ربحوا الدنيا والآخرة هم الذين آمنوا بربهم وصدقوا الرسول بما آتاهم به من ربّه، وقاتلوا معه قلباً وهم يدعونه ويقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فوفاهم الله وعده واستجاب لهم دعاءهم ورزقهم حسن ثواب الدنيا، ولم ينس أن يثيبهم من حسن ثواب الآخرة وينبههم ألا يقعوا بين أيدي شياطين الإنس من الذين كفروا، لأنهم يتربصون بهم حتى يردوهم على أعقابهم ليخسروا الثوابين وليس لكم قوةٌ ولا ناصرٌ إلا الله رب العالمين:

﴿بل اللهُ مولاكُم وهو خيرُ الناصرينَ﴾(٩)

﴿فمن يهدي منْ أضلَّ الله ما لهم من ناصرينَ﴾(١٠)

والآية الأخيرة تشير إلى أن من يضله الله بسوء اختياره فيكفر أو يشرك ويتبع الشيطان يكون قد اختار لنفسه نصيراً غير مناسب فيعاقبه الله على سوء اختياره بالضلال بدل الهداية التي يعطيها لمن اختار الله سبحانه وكيلاً، إذ يجعل طريقه نوراً لايضل من يسلكه على نقيض من اختار طريق الظلمة فإن الله يتخلى عنه ويزيده عمى، ولانجاة له إلا بالعودة الصادقة والتوبة النصوح، وليس التظاهر بالندم، لأن الله سبحانه يعلم السرائر ولايأخذ بالأقوال دون الأفعال فإن علم أن العبد صادق في نيته بالتراجع عن ضلاله غفر له سبحانه وتعالى وأعاده إلى سواء السبيل. ﴿إنْ ينصرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم﴾(١١)

صدق الله العظيم.

---

(٧) سورة الجن: ٢٤
(٨) سورة آل عمران: ٢٢
(٩) سورة آل عمران: ١٥٠
(١٠) سورة الروم: ٢٩
(١١) سورة آل عمران: ١٦٠

٧٨ ـ مامعنى «سبح لله» بدليل آيات القرآن الكريم؟

التسبيح لله هو الشكر الخالص لله وحمده على نعمه، وهو تعبير عن الاعتراف المطلق بمشيئته، والخضوع له، كما يتضح من الآيات الآتية:

﴿سبّحَ للهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ﴾(١)

﴿تُسبِّحُ لَهُ السمواتُ السبعُ والأرضُ وَمَنْ فيهنَّ﴾(٢)

﴿ويُسبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ من خِيفَتِهِ﴾(٣)

﴿وإن مِنْ شيءٍ إلّا يُسبِّحُ بِحمدِهِ ولكن لاتفقهونَ تَسبيحَهُمْ﴾(٤)

فكل مخلوقات الله العاقلة وغير العاقلة تسبّح لله بأساليب مختلفة، منها ما ندركه، ومنها ما لاتصل إليه حواسنا وإدراكنا، والتسبيح كما قلنا تعبير عن أن المخلوقات كلها أسلمت أمرها لخالقها طوعاً أو كرهاً. وهذا ما نسميه إطاعة بقوة الخلق.

﴿ولَهُ أسلمَ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طَوعاً وكَرْهاً﴾(٥)

﴿ولِلّهِ يَسجدُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طَوعاً وكَرْهاً﴾(٦)

والسجود هنا بمعنى الخضوع لمشيئة الله، بما في ذلك الكائنات غير الحية كالجبال والأنهار والرعد والبرق والنجوم والقمر والشمس... والدليل على أن السجود هو الامتثال لمشيئة الخالق أنّه أَمَرَ السماء والأرض قبل تشكلهما أن يكونا فكانتا امتثالاً لإرادته وأوامره:

﴿فقالَ لها وللأرضِ ائتِيَا طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتيْنا طائعينَ﴾(٧)

فالأفعال: أسلم له، وسجد له، وأطاعه، تعني التسليم الكامل والخضوع والانصياع التام لمشيئة الله وارادته سبحانه وتعالى طوعاً، أي دون مقاومة أو ممانعة ذاتية، وهذا هو التسبيح لله، فكل مخلوق ينفذ مشيئة الله لما خلق له، الشمس لتكون مصدراً للضياء، والقمر ليكون مصدراً للنور. والمؤمن يسبح لله حمداً وشكراً على نعم الله التي استطاع إدراكها بعقله وحمداً لله على صراطه المستقيم، وأوامر الله ونواهيه التي نظمت حياته

(١) سورة الحشر: ١
(٢) سورة الإسراء: ٤٤
(٣) سورة الرعد: ١٣
(٤) سورة الإسراء: ٤٤
(٥) سورة آل عمران: ٨٣
(٦) سورة الرعد: ١٥
(٧) سورة فصلت: ١١

في الدنيا والآخرة، والكافر أيضاً يسبح كرهاً لأنه لا يستطيع أن يهرب من قضاء الله وقدره فهو دائماً ضمن إرادة الله ومشيئته، فالله يعلم بأن الإنسان الذي خلقه متمسك بالدنيا محب للشهوات. وهو يعلم أن كثيراً من الإنس والجن تحت هذه الظروف سوف تكفر ولو شاء الله لخلقهم مؤمنين جميعاً وعلى الصراط المستقيم.

لكن كانت مشيئته أن تكون كما هي الآن. أن يؤمن قسم منا ويكفر القسم الآخر، لكن الكافر كما قلنا سابقاً تحت قبضة الله على الدوام، وضمن مجال مشيئته يسبح ويسجد لإرادة الله ومشيئته وينفذها دون أن يعلم. لأنه في قبضة الله أينما حلَّ وأينما ذهب. ولاتكون معصية إلا ضمن ما أعطي من مجال ضيق في الحرية في هذه الدنيا الفانية.

وفي ضوء فهمنا لمعنى (سبح) أي خضع وامتثل لأمر الله وشكره نفهم معناه في قوله تعالى:

﴿وسخّرنا مع داودَ الجبالَ يُسبِّحْنَ والطيرَ﴾[٨]

أي أن الجبال والطير أصبحت تطيع بإذن الله أوامر داوود.

﴿وترى الملائكةَ حافِّينَ من حولِ العرشِ يسبّحونَ بحمدِ رَبِّهِم﴾[٩]

أي يطيعونه طاعة مطلقة لامجال للعصيان فيها على الإطلاق.

﴿إنّ الذينَ عندَ ربّكَ لايستكبرونَ عن عبادتهِ ويُسبّحونَهُ ولهُ يَسجُدونَ﴾[١٠]

إن الذين عند ربك من الملائكة يعلمون مقامهم من العبودية فلا يعلمون معنى الاستكبار ولامعنى العصيان فأمره مستجاب على الفور، تسليماً وخضوعاً له.

﴿فَسبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وكُنْ مِنَ السّاجِدينَ﴾[١١]

أي كن دائماً في طوع الله، ونفذ مشيئته بالعمل الصالح، والإصلاح في الأرض، وابتعد عن المعاصي وعن كل مانهاك الله عنه، وقم بكل طقوس العبادة التي طلبها الله منك صلاة وصياماً وزكاة، واشكر الله على نعمه تكن من المسبحين بحمد ربهم، هذا هو الفهم الإسلامي الصحيح للآية، أما الفهم الشيطاني لها فهو أن نجلس طوال الليل والنهار وبأيدينا مسابح ألفية نردد مع سقوط كل حبة من حباتها: سبحان الله وبحمده ملايين المرات، وفي ذلك تعطيل لإرادتنا التي وهبنا الله وتوقفٌ عن السعي والعمل

---

(٨) سورة الأنبياء: ٧٩
(٩) سورة الزمر: ٧٥
(١٠) سورة الأعراف: ٢٠٦
(١١) سورة الحجر: ٩٨

الشريف، والإصلاح في الأرض، وفعل الخير، ومساعدة المحتاج والفقير، وبهذا كله نصبح عالة على باقي المسلمين الذين يلتزمون إطعامنا وسقايتنا، بعد أن تحولنا إلى مخلوقات سلبية لانفع منها على الإطلاق.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشمسِ وَقَبلَ غُروبِها﴾(١٢)

ماذا يفعل المؤمن قبل طلوع الشمس؟ إنه يطيع الله في مأمر، فيصلي طاعة للرحمن، ويسجد ويركع لله تسليماً وخضوعاً وإقراراً بفضله تعالى، وماذا يقول العبد المؤمن في أثناء ركوعه؟ سبحان ربّي العظيم، وماذا يقول في أثناء سجوده؟ سبحان ربّي الأعلى - وماذا يفعل المؤمن قبل الغروب أيضاً؟ يصلي لله صلاة العصر، الصلاةَ الوسطى، ويسبّح لله ركوعاً وسجوداً. وهذه هي العبادة المطلوبة منه ومن أجل ذلك خلقه الله سبحانه وتعالى من أجل إطاعة الله طوعاً لاكرهاً.

المؤمن يطيع الله طوعاً وحباً، والكافر يطيع الله في النهاية كرهاً وفوق ذلك يعاقبه على سوءاختياره في الدنيا والآخرة.

وتجد المعنى ذاته في قوله تعالى:

﴿ومِنْ آناءِ الليلِ فسبِّحْ وأَطرافِ النهارِ لَعلَّكَ تَرْضَى﴾(١٣)

﴿فَسبِّحْ باسمِ رَبِّكَ العَظيمِ﴾(١٤)

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾(١٥)

ومن قصة زكريا الواردة في القرآن الكريم نستنتج أن التسبيح لله في زمانه كان يتم من خلال صلاتين كل يوم:

﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيةً قَالَ آيَتُكَ أَلّا تُكلِّمَ الناسَ ثَلاثَ ليالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المحرابِ فأوحَى إليهم أَنْ سَبِّحُوا بُكرةً وعَشيّاً﴾(١٦)

من هذه الآية نعلم أن صلاتهم كانت مرتين: مرة في الصباح ومرة في المساء. حتى الطيور نجدها تسبح الله في الفجر مع صلاة الفجر ومع الغروب عندما تأوي إلى أعشاشها.

﴿فسُبحانَ اللهِ رَبِّ العرشِ عَمّا يَصِفُونَ﴾(١٧)

---

(١٢) سورة طه: ١٣٠
(١٣) سورة طه: ١٣٠
(١٤) سورة الواقعة: ٧٤
(١٥) سورة الأعلى: ١
(١٦) سورة مريم: ١٠ - ١١
(١٧) سورة الأنبياء: ٢٢

فكلمة سبحان هنا تدل على تنزيه الله عما يصفون، ولكنها في آيات أخرى ترد بمعنى الخضوع لله والشكر له.

﴿فَسبحانَ اللهِ حينَ تُمسونَ وحينَ تُصبحونَ﴾[18]

﴿سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلّها مِمّا تنبتُ الأَرضُ﴾[19]

﴿فُسبحَانَ الذي بيَدِهِ مَلكوتُ كُلِّ شيءٍ وإليهِ تُرجَعونَ﴾[20]

﴿قالوا سُبحانَكَ لاعِلمَ لَنا إلّا ما عَلَّمتنا﴾[21]

أي نخضع لك ونحمدك ولانعصي لك أمراً، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قالَ سُبحانَكَ مايكونُ لي أَنْ أَقولَ ما ليسَ لي بحَقٍّ﴾[22]

فسبحان هنا تعني: الخضوع لله أيضاً، ومثل ذلك في قوله تعالى:

﴿رَبَّنا ماخَلَقْتَ هذا بَاطِلاً سُبحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[23]

صدق الله العظيم.

---

(١٨) سورة الروم: ١٧

(١٩) سورة يس: ٣٦

(٢٠) سورة يس: ٨٣

(٢١) سورة البقرة: ٣٢

(٢٢) سورة المائدة: ١١٦

(٢٣) سورة آل عمران: ١٩١

٧٩ ـ مامعنى الآية الكريمة الآتية:
(وما رَميْتَ إذْ رَميْتَ ولكنّ الله رمى)[١]؟

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الكون كله وخلق فيه من كل جنس، وخلق الإنسان لغاية وهدف، فأعطاه حرية اختيار الخير أو الشر والإيمان أو الكفر دون أن يكرهه على الإيمان، وجعل المؤمنين حزبه، والكفار حزباً للشيطان. والله سبحانه هو الذي سن القوانين وجعل للحق قوة على الباطل:

﴿وَقُلْ جَاءَ الحقُّ وَزَهَقَ البَاطلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[٢]

﴿بَلْ نَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٣]

وبالحق مكّن نبيّه موسى حين رمى عصاه فوق إفك السحرة فأزال إفكهم فخرّ سَحَرَةُ فرعون ساجدين لله إيماناً و﴿هو الذي أَرسلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدينِ الحقِّ ليظهِرَهُ على الدّينِ كُلِّهِ﴾[٤]

وردت هذه الآية في ثلاثة مواضع من القرآن ليؤكد رسالة رسوله، وليثبت للناس أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لامراء فيه، وهذا يسوقنا إلى المناسبة التي نزلت فيها الآية ﴿وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى﴾ فقد كان وضع المؤمنين المعنوي قبل المعركة سيئاً فاراد تعالى أن يقوي عزائم المؤمنين ويحسم الموقف ﴿يُجَادِلونَكَ في الحقِّ بَعدَ ماتَبَيَّنَ كَأَنَّما يُسَاقُونَ إِلى الموتِ وَهُمْ يَنْظرُون * وإذ يَعِدُكم اللهُ إحدَى الطائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُم وَتَوَدُّونَ أَن غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يَحِقَّ الحَقَّ بِكلماتِهِ وَيقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾[٥]

والطائفتان هنا إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، فالناس من المؤمنين يودون غير ذات الشوكة وهي النصر ولايريدون الموت والشهادة. والله سبحانه يريد أن يحق الحق ويقطع دابر الكافرين ﴿لِيُحِقَّ الحقَّ وَيُبطِلَ الباطِلَ وَلَو كَرِهَ المجرِمُونَ﴾[٦] فإن إرادة الله سبحانه وتعالى تدخلت لتنهي الموضوع لصالح الحق ولصالح المؤمنين ﴿إِذْ تَستَغيثُونَ ربَّكُمْ فاستَجابَ لكمْ أَنّي مُمِدُّكم بأَلفٍ مِنَ الملائِكَةِ مُردِفِينَ﴾[٧]

---

(١) سورة الأنفال: ١٧
(٢) سورة الإسراء: ٨١
(٣) سورة الأنبياء: ١٨
(٤) سورة الصف: ٩
(٥) سورة الأنفال: ٦ ـ ٧
(٦) سورة الأنفال: ٨
(٧) سورة الأنفال: ٩

ولو شاء الله لخسف بجيش الكفار الأرض لكنه سبحانه شاء أن تتم الأمور على أرض الواقع دون تدخل إلهي مباشر، إلا حسب سنة الله في مثل هذه الأمور، والتي يمكن أن تتم بوجود الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبعدم وجوده مع المسلمين في المستقبل إذا واجهوا مثل هذا الموقف في المعركة وليبين أن التدخل لم يكن تدخلاً عسكرياً مباشراً من قبل جنود الله، أو ملائكة فرسان يلبسون الخوذ ويحملون السيوف والرماح، يقول تعالى ﴿وما جَعَلَهُ إلّا بُشرى وَلِتَطمَئِنَّ بِهِ قُلوبُكمُ وَما النصرُ إلّا مِن عندِ اللهِ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حكيمٌ﴾[٨]. وهنا يبين لنا تعالى كيف رفع من معنويات جنود المسلمين لأنه سبحانه شاء أن يواجهوا بأنفسهم جنود الكفر وقد قرر لهم النصر فأمدهم بقوة معنوية لامادية. ﴿إذْ يَغشيكم النعاسُ أمَنَةً مِنهُ وَيُنزلُ عَليكمْ مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطهِّرَكُم بِهِ ويُذهِبَ عَنكم رِجزَ الشيطانِ وليَربطَ عَلى قُلوبِكُم وَيُثبّتَ به الأقدامَ﴾[٩]

وفي قوله تعالى هذا: وصف رائع وتحليل لمشاعر الناس وهم مقدمون على مواجهة الموت في المعركة، وعلى الأخص حين تكون الكفّة راجحة من حيث عدد المحاربين للأعداء. لاشك أن الإيمان كان موجوداً لدى المسلمين الذين شاركوا، لكن الإيمان شيء معنوي يقابله واقع مادي ملموس يتجلى بوفرة جنود العدو وعتاده، وهي حقيقة لاتستطيع العين أن تنكرها، فيتدخل الله سبحانه بأسلوبه لأنه يملك نفوس الناس كلها، فيغشيهم النعاس حتى يشعروا بالأمن، لأن حالة النعاس تكون قريبة من التخدير لإزالة شدة الانتباه المفرطة، وتوتر الأعصاب قبل المعركة، وهي حالات قد لا يلاحظها الإنسان إذا لم يدخل حرباً، فالناس قبيل المعركة أيّ معركة، يشعرون بمثل ذلك الانفعال وإن تفاوتت ردود فعلهم.

والله سبحانه يستطيع أن يُثبّتَ أقدام من قدّر لهم النصر مثلما يستطيع أن يدب الرعب في قلوب أعداء المؤمنين، فالمحاربون من الطرفين خاضعون لمشيئته عَزَّ وَجَلَّ، وهم أدوات لتنفيذ هذه المشيئة نصراً وهزيمة ولكن بالعدل أي بحسب مايحمل كل من الطرفين من مؤهلات النصر أو ما يستحق به الهزيمة من أفكار وأعمال.

في ضوء فهمنا لمناسبة الآية ندرك معنى قوله تعالى: ﴿وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ فمن رمى هو الله ـ إذ لولا تدخله لصالح الحق. لانتصر الباطل بعَدَدِهِ وعُدَدِهِ وهذا مالايريده الرحمن، وإنما يريد أن يعلم المؤمنين درساً من هذه المعركة فيقول لهم

(٨) سورة الأنفال: ١٠ (٩) سورة الأنفال: ١١

مادمتم ثابتين على إيمانكم القوي وتقاتلون في سبيل الله فالنصر سوف يكون حليفكم، أما الذين فسروا هذه الآية بأن الله أرسل الملائكة فنزلوا إلى أرض المعركة بالسيوف والرماح فهم واهمون، فجنود الرحمن غير جنود الناس شكلاً وفعلاً وتنفيذاً ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الملائِكَةِ أنّي مَعَكم فَثَبّتوا الذين آمَنُوا﴾(١٠) تلك هي مهمة الملائكة: تثبيت الذين آمنوا، لأن كل شيء قد قُدِّرَ لصالح الذين آمنوا.

﴿سَأُلقِي في قلوبِ الذينَ كَفَروُا الرُّعبَ﴾(١١) وهذا هو العمل المطلوب في الجانب الآخر ﴿فاضْرِبُوا فَوقَ الأعناقِ واضرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ﴾(١٢) وهذا أمر للمسلمين والجنود حزب الله في الميدان، فما عليهم إلا أن يضربوا فوق الأعناق، ثم يخاطبهم تعالى معلناً أن الحسم قد تم بإرادة الله لصالح المؤمنين فيقول سبحانه:

﴿فَلَمْ تَقْتُلوهُم وَلكنَّ اللهَ قَتَلَهُم وما رَمَيتَ إِذْ رَمَيتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(١٣)

وهكذا يتبين لنا بعون الله المعنى الحقيقي لهذه الآيات لاكما شرحها المتوهمون في تفاسيرهم، ولو خرجوا من أوهامهم، وعادوا إلى كتاب الله متمعنين، لرأوا حقائق الله وشمسه ونوره دون حاجة إلى الخيال العقيم.

﴿يُريدونَ أنْ يطفئوا نورَ اللّه بأفواههم ويأْبى اللهُ إلا أَنْ يُتمَّ نورَهُ ولو كرِهَ الكافرون﴾(١٤)

صدق الله العظيم

---

(١٠) سورة الأنفال: ١٢ (١٢) سورة الأنفال: ١٢ (١٤) سورة التوبة: ٣٢

(١١) سورة الأنفال: ١٢ (١٣) سورة الأنفال: ١٧

٨٠ ـ تمهيد لنهاية المقال.

يعود الفضل الأول في إثارة اهتمامي بمشكلات المسلمين عامة، ومانعانيه من جهل وفقر وتأخر للأستاذ جودت سعيد الذي كان ولايزال يعتبر من المفكرين الذين تحرّروا من الكهف الإسلامي وتخلّصوا من أوهام السلف وعادوا إلى إسلام القرآن. وكتبه تعتبر سراجاً منيراً للذين يبحثون عن النور الحقيقي على الرغم من تواضع شكلها وحجمها إذا ماقيست بالكتب البراقة، المجلدة والأنيقة التي تغص بها الأسواق، فقد كان لها فضل الدليل المرشد. وجعلني أدرك وقتها أهمية الفكر والمفكرين، وأثرهما في أي حركة إنسانية تسعى إلى التغيير، كانت كتبه بحق ذلك المفتاحَ للدخول منه إلى باب الفكر والمفكرين الإسلاميين وهكذا بدأت أكتشف أن هناك كثيرين من الذين سبقوا وبدؤوا بالتخلص من آثار الرمد وضعف البصر الذي أصاب عيوننا نتيجة الابتعاد عن أي نور حقيقي طوال ألف سنة مرت حتى صارت عيوننا تتحسس لأي ضوء فلا تطيقه، لأننا تعودنا أن نعيش في الظلام فترة طويلة جداً، وأصبحت أبصارنا لاترتاح إلا للأضواء الخافتة الحالمة المخادعة التي تتراقص فيها الظلال كالأشباح.

ولكني، مع الأيام وبفضل ماتخيرت من كتب، بدأت أتخلص مما كان في رأسي من أباطيل وأوهام، لتحل محلها الحقائق التي لاظن فيها ولاوهم، وتبين لي بعدها بمدة ليست قصيرة كيف يمكن للإنسان أن يضل عن الحقيقة بسهولة نتيجة مايحمل في رأسه من أوهام يظنها حقائق، وكان ذلك بفضل أسلوب جديد لقراءة القرآن الكريم حيث:

صرت أقرأ آيات القرآن الكريم وكأنها تتنزّل عليَّ بالذات مباشرة من عند الله وهذه نصيحة استفدتها من الأستاذ محمد إقبال الذي كان يطبقها بنفسه على نفسه.

ـ في أثناء قراءتي للآيات الكريمة كنت أحاول أن أفهمها من خلال آيات مشابهة لها في القرآن الكريم دون الاستعانة بأي معجم أو أي تفسير للقرآن، لقناعتي أولاً أن الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء، قادرٌ على أن يرسل للناس كتاباً يمكن فهمه مباشرة دون مساعدة أحد، إذا قصد الإنسان ذلك واجتهد في قصده. فاكتشفت أني على صواب فيما ذهبت إليه وأن القرآن سهل الفهم وقريب المنال إذا نوى الإنسان فهمه

بصدق وسعى إليه. والأمر الثاني إنني لم أحاول الاستفادة من اي كتاب في التفسير لاعتقادي أن المفسر إذ يقدم رأيه الشخصي في القرآن وتفسيره قد يكون بعيداً جداً عن الصواب بل قد يسيء فهم بعض الآيات فينقل سوء فهمه الذاتي للقارئ، من هنا توصلت إلى أن القرآن، إذا قرأه قارئ واعتمد في فهمه على المفسرين فإنه يرتكب جريمة بحق نفسه، لأنه يستبدل بالمعنى الذي يقصده الله تعالى المعنى الذي يفهمه من المفسر الذي يقدمه على أنه مقصد الله تعالى، وتلك من المفسر وكالة عن الله من غير إذن منه تعالى، والحقيقة الثالثة أن القرآن الكريم كتاب معجز لايمكن فهمه كله والإحاطة به وبعلمه من قبل أي إنسان، فهو من هذه الناحية كالبحر لايمكن استيعابه، وإنما يأخذ كل إنسان منه على قدر فهمه وغزارة علمه وتعمقه في الأمور. لكن الحقيقة الكبرى أن كل إنسان يمكن أن يفهم من القرآن الكريم بالأسلوب ذاته مايهم ذلك الشخص، بحسب مداركه، وهذا الفهم يكفيه من الناحية العملية، فهو ليس محتاجاً إلى أكثر من ذلك، فكما أن البحر متدرج الأعماق كذلك القرآن الكريم يتدرج مع قدرة فهم الأشخاص، ومصمم بشكل يمكن أن يفهم منه كل شخص بحسب إمكانياته الذهنية والعلمية والمعرفية لدرجة أن الشخص الواحد يمكن أن يفهم القرآن الكريم والآيات نفسها فهماً يتنامى مع تنامي علمه على مر الأيام، فإذا فهم الحياة أكثر فهم الآيات أيضاً بشكل أفضل.

ومن فهمي الجديد للقرآن الكريم بدأت تتضح لي الأمور، فعلمت أنه لم يظلمنا أحد: لا الغرب ولا الاستعمار ولا الصهيونية ولا الله سبحانه وتعالى قدر ما ظلمنا نحن أنفسنا ومن دون شعور منا أننا نفعل ذلك. وماأقصده بالقرآن هو القسم المعجز الذي يحوي على آيات الله وأسراره وغيبه في مبادئ العلوم وتاريخ الأمم وأسرار الخلق والتطور مع أسرار العلوم المختلفة. مع إعجازات متعدّدة، ومن أهمها الإعجاز العددي، ولم أقصد آيات الرسالة والأحكام لأنها ميسّرة للفهم لمن قصد ذلك وتوجه لله لفهمها دون الاستعانة بأي كتاب مع كتاب الله أبداً. وسوف يكتشف المؤمن عندها بأنه دستور شامل للإنسان مصمَّمٌ على قدرة المسايرة لاحتياجات بني الإنس على الأرض ليكون دستوراً لكل قوانين الأرض، بحيث تكون قوانين الأمم والشعوب مستوحاةً من ذلك الدستور المعجز، القادر على إعطاء كل المشرعين جميع القوانين اللازمة لكل زمان ومكان، دون أن تتعارض مع دستور الله وحدوده وصراطه المستقيم. والله سبحانه وتعالى لايرضى لأحد بالإشراك والتوقف عن التطور. فالله سبحانه الذي خلق الناس من

أجل مهمة محددة لايقبل لهم الجمود والنوم والكسل، هذه الأمور الثلاثة تعاكس مشيئة الله في الخلق، وفيها إشراك خفي بالله، فكل من يتوهم بدل أن يرى الحقيقة، أو يحلم بدل أن يعمل، أو يتخيل بدل أن يتعلم علماً حقيقياً، يخرج من تيار الحياة الأساسي فيشرك نفسه بالله الذي لايتغير ولايتحول، ويترك مهمة الاستخلاف على الأرض، بينما هو كمخلوق يجب أن يكون من النوع الذي يتغير ويتحول بشكل دائم مع الزمن دون توقف. وماذا قال سبحانه لمن يشرك بالله فلا يواكب التطور والسير مع قانون الله في التغير والتقدم نحو الأفضل، وإلى الأمام؟

﴿إِنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحونَ﴾

فما مقياس الصلاح عند الله؟ أيستبقى الله الأرض مع الناس الذين تخلوا عنه من أصحابها الأولين خالدين فيها مادامت السموات والأرض أم يطلب سبحانه وتعالى منهم مسايرة قوانين الله وسننه في الخلق بالعمل والإصلاح في الأرض بحسب العقد الأول الذي قبله أبونا آدم أول ماقبله وهو عقد الاستخلاف في الأرض وإصلاحها؟ إن توقف الناس، أي ناس كانوا، عن تنفيذ ذلك العقد وتطبيق سنة الله، بإصلاح الأرض بل البدء بإفسادها، هذا التوقف كاف بالنسبة لله لانتزاع الأرض من أصحابها المهملين وإعطائها لمن يستطيع أن يعمل فيها ويصلحها من جديد، تلك سنة الله على الأرض، وقانونه الإلهي الدائم والمطبق من الله في كل يوم، يصارحنا به آيات القرآن الكريم، ولنا من التاريخ في ذلك عبر وعظات لمن كان منا يعتبر ويتفكر ويتدبر الله لينجو بنفسه، قبل تطبيق القانون عليه، بسبب غفلته ونومه في أي كهف من كهوف التخلف، ولابد لكل مسلم يريد تغيير الواقع الأليم الذي هو فيه الآن من أن يصل إلى إدراك واقعه، والاعتراف لنفسه على الأقل بالأخطاء الفاحشة المستمرة والتي لها تأثير مباشر على عقلية المسلم المعاصر وهو واحد منهم. ومن أهم مصادر الوهم والظن والبعيدة عن العلم والحقائق ماورثه عن آبائه وأجداده من الاعتقاد بوجود وحي ثان غير القرآن وكتاب ثانٍ هو الحاوي لآيات الحكمة بإجماع علماء السنة ـ وشفاعة للرسول ﷺ مع شفاعة الله ـ وكل ذلك كان سابقاً من أجل مصالح دنيوية لسلطان المسلمين انتهى عصره وزمانه، ومازلنا نحن المسلمين نشرك بالله تعالى بهذه الأمور تاركين كتاب الله من دون فهم ولا تدبّر أو عمل حقيقي به ولا بشرعه، ونحن نظلم أنفسنا أكبر الظلم لسكوتنا على هذا الموقف الذي يغضب الله ويبقينا بالوضع الذي ترونه من الضعف والتخلف والانقسام والجهل والفقر، مع أن عددنا يزيد عن المليار، وبلادنا من أغنى البلاد بمواردها

الاقتصادية، ولا ينقصنا إلا أن ننفض النوم والكسل عن أنفسنا ونترك أوهامنا وظنوننا ونهجرها إلى غير رجعة، لنعود إلى الحديث الصحيح من كتاب الله الذي هو القرآن، ولا حديث في الإسلام إلا حديث الله، لنعود أمةً فاعلةً نشيطة على الأرض مرة أخرى، بدل أن نكون أمة ميتة متخلفة لا يحسب أحد حسابها بشيء.

لأن ثباتنا على أوهامنا التي ورثناها من أجدادنا من أحاديث أغلبها موضوع ومكذوب على الرسول ﷺ مع تنبيهه لنا أن لا نكتب عنه إلا القرآن، ومن ثم ظننا وتوهمنا أن تلك المكتتبات قوانين وشرائع مقدسة يجب الثبات عليها تاركين دستور الله الذي يدعو إلى التطور والتغيير وعدم التجمد على حال، والسير مع الزمن ومع الأعراف في القرآن الكريم ـ فجمَّدْنا عقليتنا. وما الثبات على حال واحدة إلا إشراكٌ بالله، لأن الوحيد الذي لا يتبدل ولا يتحول هو ربّ العالمين، وماعداه يجب أن يسير مع الزمن الذي هو البعد الرابع الذي خلقه الله ليكون عامل الفناء به لكل شيء إلا الله. وقد وقع في مثل جمودنا وعدم تطورنا أمم دمرها الله قديماً، وحدثنا عنها رب العالمين وأمم أخرى قرأنا عنها في العصر الحديث مثلما وقع للهنود الحمر مثلاً حيث تخلص الله منهم ودمرهم لإشراكهم، بأن سلط عليهم شعوباً أخرى هاجرت إلى بلادهم من أوروبا أولاً ثم من جميع أنحاء العالم لبناء حضارة في نفس المكان الذي جمد فيه الهنود الحمر قبل ذلك على أوهامهم وأساطيرهم.

فأخذ منهم أراضيهم، لأنهم تجمدوا بإشراكهم وتوقفوا عن الإصلاح في الأرض، والسير بقوانين الله وبسننه، ثم أعطى تلك الأرض للشعوب التي هاجرت إليها من أوربا تريد العمل والإصلاح فيها، فنشأت في أرض الهنود الحمر الذين جمدوا عن التطور مع التاريخ حضارة جديدة أنشأها أولئك الذين عملوا في الأرض بجد ونشاط وقوة وهمية واندفاع من جديد.

والتاريخ حافل بمثل تلك القصص، ومنها قصص القرآن التي تشرح لنا ماحلّ بشعوب الأرض وأقوامها، لتكون لنا عبرة وعظة فلا ننام في أحد الكهوف ثم نجد بعد ذلك أن الله قد بدأ يوزع ماكنا نظنه أرضنا فيعطيها إلى من يستحقها من عباده فنكون من النادمين.

وكل تلك الآيات في القرآن الكريم ليست للتسلية والسمر، وإنما هي لإيقاظ العقول إن غفلت، لنستمع لآيات الله في القرآن حول هذا الموضوع بالذات:

﴿أَفَأَمِنوا مكرَ اللّه فلا يأمنُ مكرَ اللهِ إلّا القومُ الخاسِرونَ * أوَ لَمْ يهدِ للّذينَ يَرثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها أَنْ لو نشاءُ أَصَبناهُم بذنوبِهم ونَطبَعُ على قلوبِهم فهم لا يسمعونَ﴾[1]

﴿وإِذَا شِئنَا بَدَّلنَا أَمثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾[2]

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمثالَكُم وَنُنْشِئَكُم في ما لاتَعلَمونَ﴾[3]

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيراً مِنهُمْ وَمانَحنُ بِمسبوقِينَ﴾[4]

﴿وَيستَبدِلَ قَومَاً غَيرَكُم وَلاتَضُرُّوهُ شَيئَاً وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾[5]

﴿وإِن تَتَوَلَّوا يَستبدلْ قَوماً غَيرَكُم ثُمَّ لايَكُونُوا أَمثالَكُم﴾[6]

﴿وَأَورَثَكُم أَرضَهُمْ ودِيارَهُم وأَموالَهُم وأَرضَاً لَمْ تَطَؤوهَا﴾[7]

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وعُيونٍ * وَزُروعٍ وَمقامٍ كريمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانوا فيها فَاكهينَ * كذلكَ وأَورَثْناهَا قَومَاً آخَرينَ * فَما بَكَتْ عَليهِمُ السّماءُ والأَرضُ ومَاكانوا مُنْظَرينَ﴾[8]

﴿إِنَّ الأَرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ والعاقِبَةُ لِلمتَّقينَ﴾[9]

وهكذا ترون أننا إذا استمررنا في النوم في كهفنا من دون أن نصحو من جديد ونعود إلى منهج الرحمن الذي علمنا أنه موجود في القرآن، فما الذي سوف يحصل لنا في الدنيا قبل الآخرة؟!

موقف الله من الإنسان:

كان لله تعالى من الإنسان موقف خاص وفريد، فقد نفخ فيه من روحه ومنحه من ذاته ومن صفاته العقل والإدراك والحرية في الاختيار، والمشيئة والإرادة، وهي من صفات الله سبحانه وتعالى:

ومنحه أيضاً القدرة على الابتكار والخلق في مستواه الإنساني المحدود، وكل هذه الصفات أحادية لأنها من الله الواحد الأحد أما باقي صفات الإنسان المخلوق فظلت زوجية. لأن سنة الله في خلقه تطبيق قانون الزوجية في خلقه، ولايغير سبحانه قانونه من أجل أحد:

---

(١) سورة الأعراف: ٩٩ ـ ١٠٠
(٢) سورة الإنسان: ٢٨
(٣) سورة الواقعة: ٦١
(٤) سورة المعارج: ٤١
(٥) سورة التوبة: ٣٩
(٦) سورة محمد: ٣٨
(٧) سورة الأحزاب: ٢٧
(٨) سورة الدخان: ٢٥ ـ ٢٩
(٩) سورة الأعراف: ١٢٨

﴿ومِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زَوجَينِ﴾(١٠)

﴿ومِن كُلِّ الثَّمراتِ جَعلَ فيها زَوجَينِ اثنَينِ﴾(١١)

﴿فَأَنْبَتْنَا فيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ﴾(١٢)

ثم أعلن الله تعالى للإنسان أنه سوف يختبر الإنسان اختباراً خاصاً، فإن نجح فيه طائعاً أسكنه جنة الله خالداً فيها، وإن رسب فيه عذبه بمحنته بسبب عناده ومشاكسته.

ثم يأتي الله تعالى بالناس فيرمي بهم في بحر عظيم هو بحر الحياة فيسبحون فيه بكل الاتجاهات، يتخبطون دون علم ولاهدى ولاكتاب منير، فلايصلون إلى شيء ﴿ومِنَ الناسِ مَن يُجادلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ولاهُدىً وَلاكِتابٍ مُنيرٍ﴾(١٣)

فيرسل رسلاً من الملائكة إلى من يختارهم من الرسل، ويوحي إليهم، ويؤيدهم بآيات ومعجزات لكي يعلم الناس بأن رسلهم صادقون فيما يقولون، وهو الذي سماهم أنبياء ورسلاً، فيبلغون رسالتهم للناس دون إكراههم على الإيمان يقولون لهم: إن الله يقول لكم قد خلقكم أحراراً، فبإمكانكم أن تطيعوا ماسنبلغكم، وبإمكانكم أيضاً أن ترفضوا إذا شئتم، فالله سبحانه وتعالى لايكرهكم، لكنه يقول لكم إنه ناصح لكم، وهو يعلم أين تربح تجارتكم وأين تخسر فيسأل الناس الرسل: ماعندكم؟ أسمعونا؟: فيجيب الرسل: إن الله قد أرسل معنا هذه الخارطة ومعها هذه البوصلة، أما الخارطة فهي الكتاب وأما البوصلة فهي الصراط المستقيم، فمن كان منكم يريد النجاة ويصل إلى بر الأمان فعليه بطاعتنا في كل أوامر الله وفق ماورد في كتابه، ويحذرنا الله سبحانه وتعالى من وجود أدلاء كاذبين سماهم شياطين الإنس والجن، وهم أعداؤنا، فيقول: لاتصدقوهم ولاتتخذوهم أولياء فإن فعلتم خسرتم، وضللتم، وفاتكم الوصول إلى بر الأمان، بل إن الله سبحانه سوف يعاقبكم ويعذبكم جزاء عصيانكم إياه، واتباعكم الشيطان، والله سبحانه وتعالى الذي خلقنا وخلق الشياطين كلها يعلم ماذا خلق، ويعلم أن موقف الناس لن يكون موحداً بل سيتبع الحق والرحمن قليل من الناس وفئة أكبر سوف تعاند وتكابر وتتبع سبلاً كثيرة يطيعون نفوسهم الأمارة بالسوء وشياطين الإنس والجن. فأما الذين أطاعوا الرسل وأطاعوا الله فإنه يسميهم مسلمين لأنهم أسلموا أمورهم له واتبعوا الرسالة، وأطاعوا الرسول فيما أمر، وفي كل ذلك طاعة لله، لأن أوامر الرسول هي أوامر

---

(١٠) سورة الذاريات: ٤٩
(١١) سورة الرعد: ٣
(١٢) سورة لقمان: ١٠
(١٣) سورة لقمان: ٢٠

الله في أساسها، وأما الذين خالفوا وعاكسوا وشاكسوا واتبعوا أهواءهم وشياطينهم والأدلاء الكاذبين من شياطين الجن والإنس فإن الله سبحانه يسميهم بالكفار والمجرمين، فأين يقف المشركون هنا؟

في بداية الرسالة وفي حياة الرسول لم يظهر الذين أشركوا من المسلمين لحداثة عهدهم في الإشراك القديم، وكان منهم كثير من المنافقين والمسلمين الذين لم يصلوا إلى درجة الإيمان بل توقفوا عند حد الإسلام كالأعراب الذين لديهم تقاليدهم وعاداتهم القديمة وهي بمنزلة دين قديم صعب عليهم فراقه، ومع الأيام يظهر من المنافقين وضعيفي الإيمان من يكذب في الدين، ويحرف فيه ضالاً بنفسه ومضللاً غيره، لمصلحة يريدها السلطان فيتحولون إلى شياطين للإنس يجرّون الناس بالتدريج إلى الإشراك بالله فتظهر مع الأيام فئة المشركين عن علم ومصالح دنيوية ضلالاً وإضلالاً وجهلاً من الأتباع الذين لايعلمون إلا مايسمعون فهم يساقون كالأغنام إلى هلاكهم، ومن ذلك نستنتج أن المشركين الجدد فريق ثالث اختاروا الأوهام بدل الحقائق. وفهموا الكلام الذي سمعوه من رسولهم عن الله كما تشاء لهم نفوسهم الضعيفة فهمه، فتوهموا ظلماً لأنفسهم أن الله سوف يجرهم إلى بر الأمان، سعوا لذلك أو لم يسعوا إليه، لأنه سبحانه قد قرر قبل بداية الاختبار من الذي سيكسب ومن الذي سيخسر في هذا الاختبار. والتوقف هو الإشراك بالله، لأن المخلوق الحي يجب أن يسير ويتطور، وتوقفه عن التطور أو السير مع تيار الحياة يعني رفضه أول قانون أساسي من قوانين الله وعندها ترفضه الحياة ويرفضه الله. وقوانين الله لاتمنح الحي فرصة للتوقف، فإذا اختار الإنسان ذلك الموقف أغضب الله تعالى، لأنه اختار مالايجوز اختياره من هنا يتبين لنا لماذا غضب الله على المشرك أكثر من غضبه على الكافر ـ الكافر رفض أن يتوجه ببوصلة وخريطة الله لكنه لم يرفض الحركة، فهو يتحرك بنشاط وهمة وسعي، لكن من غير بوصلة تُوَجِّهُهُ وإنما يتوجه حيث أهواؤه، ولسوف يعاقبه الله لكن غضب الله عليه لايعدل غضبه على المشرك الذي يقول فيه تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ لايَغفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مَادونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ﴾(١٤)

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَليهِ الجَنَّةَ ومَأْواهُ النّارُ﴾(١٥)

﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا مِنْكُم وعَمِلُوا الصّالحِاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرضِ كَما اسْتَخْلَفَ

(١٤) سورة النساء: ١١٦ (١٥) سورة المائدة: ٧٢

الذينَ مِنْ قَبلِهم﴾[١٦]

﴿إنْ يَشَأْ يُذهبكُم وَيَسْتَخلِفْ مِن بَعدِكُم مَا يَشاءُ كَما أَنشَأكُم مِنْ ذُرّيةِ قَومٍ آخَرينَ * إنَّ ما تُوعَدونَ لآت وَمَا أَنتُمْ بِمُعجِزينَ﴾[١٧]

﴿وَيَستَخْلِفُ رَبّي قَوماً غَيرَكُم ولاتَضُرّونَهُ شَيئاً إِنَّ رَبّي عَلى كلِّ شيءٍ حَفيظٌ﴾[١٨]

﴿قالَ عَسى رَبّكُم أَن يُهْلِكَ عَدوَّكُم ويَستَخْلِفَكُم في الأَرضِ فَيَنْظُرَ كَيفَ تَعْمَلونَ﴾[١٩]

ما الحل إذاً؟ أيقول الإنسان هذا قدري، وهذا ماكتبه الله علي، وتلك مشيئة الله، وانتهى الأمر ثم ينام في كهف يختاره؟ لاشك أن ذلك الموقف يسرّ الطرف الوارث للأرض ويناسبه تماماً، لأن مايسعى إليه زرع الضعف والاستسلام والتخاذل في الطرف الآخر، الحل أن نعود جميعاً للعمل الذي تركناه، ونتمسك بالدليل الوحيد، فرداً وأمة، بالقرآن وحده ومن القرآن نتعلم أن الحقائق وحدها هي التي لها وجود في هذا الكون الذي خلقه الله، ومن هذه الحقائق: العلم البعيد عن الأوهام، ومع العلم العمل الصحيح الذي ينتج قوة، ومن القوة المال الذي يوجه باقي القوى وينظمها، ومن توفر العلم والعمل والقوة يأتي رضاء الله، ومع رضاء الله تأتي مهابة الناس لك ويصبح لك جاهاً وعزاً وكرامة، فيكثر من يخطبون صداقتك ولايهم إن كان بينهم منافقون، المهم أنك أنت الأعلى لأنك تمسكت بالأعلى الذي هو الله العلي القدير ـ عندها لن تضيع أرضك ولامالك، ولن يظلمك أحد من الناس، ويرضى الله عنك، وترضى عن نفسك، يحسدك أعداؤك ويهابونك، وهذا مايريده الله لك. فالله لايظلم أحداً لكننا بأوهامنا نظلم أنفسنا، ونحن كلنا بالنسبة إلى الله أبناء له على هذه الكرة الأرضية، فالله ليس بعربي ليحب العرب ولاهو إنكليزي ليحب الإنكليز، ولابروسي ليحب الروس، كلهم بالنسبة له أبناء آدم من خلقه وعبيده، وكلهم أمامه سواء ، المهم أن من يفهم منهم قوانينه ينجح، ومن يخفق في فهمها ويستبدل بها الأوهام ظلماً لنفسه فهو الوحيد الذي سوف يحصد أوهاماً، وهذا لن يضر الله بشيء وإنما يضر بها الإنسان نفسه وقومه وأبناؤه وحفدته من بعده.

﴿يَمُنّونَ عَليكَ أَن أَسْلَموا قُلْ لاتَمُنّوا عَلَيَّ إِسلامَكُمْ﴾[٢٠]

---

(١٦) سورة النور: ٥٥ — (١٧) سورة الأنعام: ١٣٣ - ١٣٤ — (١٨) سورة هود: ٥٧ — (١٩) سورة الأعراف: ١٢٩ — (٢٠) سورة الحجرات: ١٧

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبّي قَوماً غَيرَكُم ولاتَضرُّونَهُ شَيئاً﴾(٢١)

﴿ومَنْ يَنقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيئاً﴾(٢٢)

هذه هي الأبعاد والزوايا التي أريد من قارئ هذا الكتاب الانتباه لها، فأنا في هذا الكتاب لست مع أحد إلا مع الحق والنور والله والهدى، والتي منها العلم والعمل الصالح، ومحبة الناس، وحب الخير، والصدق والأمانة، وحب الجمال، والقوة الفاعلة للخير.

ولست معادياً لأحد إلا إذا كان حليفاً للباطل والظلام والشيطان والضلال، وأليفاً للجهل والإفساد في الأرض، والحقد على الناس، وحب الشر، والكذب والخيانة، وارتكاب القبائح والمنكرات والفواحش، والميل للعدوان والفتك والتعلق بالقوة الفاعلة للشر والشرور.

في ضوء ذلك يثيرني الفضول لأتساءل وتتساءل معي عن أمور وصفات لابد أن تكون في كل من يريد أن يصل بسفينته إلى النجاة:

هل لديك فضول وحب للمعرفة؟

وهل هذا الفضول من القوة إلى حد يجعلك تقدم على محاولة جدية ومجهدة لتتفهم معاني آيات القرآن الكريم؟

هل لديك شعور سابق بأن فهم الإنسان العادي غير المتخصص في الدين للقرآن الكريم أمر متعذر؟ إن كتابي هذا محاولة جادة ومتواضعة لمساعدة القارئ الذي لديه الرغبة لفهم آيات القرآن الكريم، وإعطائه بعض الإرشادات العملية لبلوغ ذلك الهدف ومنها:

أولاً: يجب أن تنسى كل ماسمعته وعرفته سابقاً عن كتاب مقدس اسمه القرآن الكريم، ولاتخلط أي معرفة سابقة لك في فهمك إياه ومحاولة قراءته قراءة جديدة معتمداً على نفسك.

ثانياً: أن تنطلق من أن القرآن الكريم كتاب تسلمته حديثاً على أنه رسالة إنذار من الله سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه وتعالى يقصدك أنت بالذات لهدايتك شخصياً.

ثالثاً: من قراءة النص القرآني سوف تعلم أن هذه الرسالة قد وصلت، قبل أن تصل إليك، إلى محمد ﷺ وهو الذي أرسله لك مبلغاً كل مسلم مسؤول بأن يتخذ موقفه

---

(٢١) سورة هود: ٥٧ (٢٢) سورة آل عمران: ١٤٤

الخاص من هذه الرسالة، دون أن يكون لهذا الموقف أي علاقة بموقف أبويه أو أصحابه أو أقرانه أو معلميه وأساتذته، لأنه سوف يحاسب أمام الله سبحانه وتعالى، فمسؤوليته مسؤولية فردية وليست جماعية. فطاعة الرسول من هذا الباب هي من طاعة الله في كل ماورد إليك من أوامر وتعليمات واجبة التنفيذ أو التقيد بها واحترامها والتزامها من آيات القرآن الكريم، ولاسيما ماورد منها في قسم الرسالة وماتضمن أوامر جاءت من قبيل: افعل ولاتفعل، أو تضمنت الحرام والحلال، أو التعليمات والأوامر والعبادت والحدود. عليك أن تتقيد بالنص المقدس الذي تسلمته قانوناً أساسياً في كل حياتك وعلاقاتك بالناس، وتتقيد بكل ماورد فيه، إنّ الدين كله دين يسر وليس بدين عسر. وأن الله سبحانه يعرف الإنسان وإمكانياته لذلك لايطلب منه أن يتحمل فوق طاقته ﴿لايُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلّا وُسْعَهَا﴾[٢٣]

صدق الله العظيم.

---

(٢٣) سورة البقرة: ٢٨٦

٨١ ـ خطوة للأمام لتلخيص المقال كله:

خلق الله تعالى الإنسان ومنحه عند خلقه بصراً وبصيرة، مهما تفاوتا قِلّةً وكَثرة، ليرى مايجري حوله بالبصر، وليعي ببصيرته كيف يتجه ولماذا وإلى أين؟ ألف سنة مرت إلى يومنا هذا وأحوال العالم الإسلامي في اضطراب، لاتتحسن قليلاً حتى تعود إلى التردي، وهكذا نودع ظلمات لتستقبلنا ظلمات جديدة، وأعتقد أن شبان كل أمة بشكل عام، وفي كل جيل، يمرون بمرحلة البحث عن الوسائل والأساليب الأفضل لتغيير حاضرهم إلى مستقبل أفضل، ويعتمد أساساً مقياس نجاح أي جيل من الأجيال للقيام بهذا الدور أو اخفاقه فيه على مدى فعالية الوسائل التي فكروا فيها ومدى صلاحية تلك الوسائل لمجاراة سير الزمن أو عدم صلاحها في تحقيق ذلك الهدف.

والجيل الذي يخفق في اختيار وسائله يجر على نفسه وأمته كوارث وويلات أسوأ مما كانت تعانيها أساسا، ويقودها من سيء إلى أسوأ. ومن حفرة إلى خندق، وهانحن أمة الإسلام تجرنا محاولات الأجيال السابقة خلال ألف سنة من الزمن وحتى اليوم للخلف تأخراً بدل التقدم الذي لاوجود له إلا في الشعارات وحدها، حتى بات المسلمون الذين قد بلغوا اليوم حوال المليار من الناس تتدهور أحوالهم يوماً بعد يوم ـ ولايعلمون كيف ومتى وأين يمكن أن يظهر المهدي المنتظر الذي خلقناه في أوهامنا.

العالم كله يعلم أنه لم يبق أمام المسلمين إلا تجريب الحل الإسلامي. وهو أمر لم يعد سراً، فالغرب يعرفه قبل أن نعرفه نحن، وهم يحضرون لنا قبل أن نحضر نحن لأنفسنا، ولكن المهم بالنسبة إلينا شكل الإسلام الذي يُحَضَّرُ لنا، لنتخذه وسيلة ومخرجاً للنجاة، لم يبق أمامنا أي شيء لم نجربه غير الاستسلام التام لما يشاء أولياء أمورنا الذين يحضرون لنا حلهم الإسلامي ليكون الإخفاق الأكيد نصيبنا في آخر المطاف، هذا مايخططون له بالفعل، ولكن ذلك لايعني أن نقع في الفخ، وأعتقد أن من حق القارئ علي أن أعرفه بنفسي بإيجاز ليعلم من يحاور من خلال هذا الكتاب، وأعتذر له لأني أفعل ذلك في ملخص الكتاب وليس في مقدمته. أنا فرد من ملايين هذه الأمة الإسلامية التي تؤمن أن كل شيء يتم في هذا العالم ضمن إرادة الله ومشيئته وقد شاء الله أن أولد وأعيش في طفولتي وشبابي في منطقة القلب منها، في بقعة من الأرض تسمى هضبة الجولان، وفي مدينة دمرت بأيدي أبناء صهيون في نكسة عام ١٩٦٧،

وبدأت حياتي العملية جندياً وقد اخترت الجندية تحت تأثير ماغرسه فيّ والدي، رحمه الله، من أفكار، منها أن مع الجندي، وعلى حد سلاحه، يوجد مفتاح الحرية، فإذا استخدم عقله وقوته وسلاحه عند اللزوم كان بمقدوره أبداً تحقيق التغيير نحو الأفضل والأحسن، وقد شاركت في حروب المنطقة، ومنها حرب ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف، وحرب ١٩٧٣ على الجبهة السورية، ومن خلال تلك الحروب بدأت تتوضح لي الحقائق ولمست يقيناً أن إرادة الله تعالى هي التي كانت تطبق في تلك المعارك. ولو سألني أحد هل ظلمنا الله تعالى بنكساتنا أجبته بصراحة: لا، إن الله لم يظلمنا وإنما نحن ظلمنا أنفسنا فأعطانا الله مانستحق، لم تكن هناك أي خيانة سياسية من أي شكل كما يتوهم كثيرون، بدأت تتكشف لي وأنا في الثلاثينات من عمري أننا أمة الإسلام لجهلنا ظلمنا أنفسنا فعامَلَنا الآخرون بحسب تفكيرنا، فعندما لمسوا فينا غريزة القطيع عاملونا كقطيع من الغنم يساق منذ عهد طويل جداً، تعودنا أن يكون هناك أبداً من يسوقنا، ويهشّ علينا بعصاه.

كنا ولانزال، لانرى في صورة أي قيادة لنا إلا صورة الراعي دون أن يستطيع بصرنا أن يتجاوز عصا الراعي. كنا ولانزال لانعلم أن هذا الراعي ليس سوى واحد منا حتى وإن كانت طموحاته أكبر منا لذلك فقد تَخَيَّلنا من خلال خطبه وتصفيقنا الشديد لبرامجه لأنه الشديد الوحيد الذي بقي لنا، أننا قد تحولنا إلى قطيع من السباع.

وقد توهم قادتنا أنهم استطاعوا أن يبدلوا من واقعنا فراهنوا بكل مالديهم من طموح علينا لأنهم قد توهموا أننا تحولنا إلى ماتصبو إليه نفوسهم، وذلك لم يحصل إلا في خيالهم، فنحن لازلنا كما كنا، وحتى هم كانوا مظلومين منا أيضاً ومظلومين من أنفسهم لأنهم توهموا فينا غير مانحن عليه.

أما أصحاب المصالح الكبيرة في مرعى عالمنا الإسلامي فلا يسمحون للرعية في التفكير حتى باستغلال أحلامهم التي بنوها علينا، لأن قطيعهم في الوضع الذي هو فيه من الجهل، لايشجع أي راع ذي بصيرة للمغامرة برأسه، لكي لايجعلوا منه عبرة لباقي الرعاة الذين قد يفكرون مثل تفكيره، وثمة أمثلة حية من تاريخنا المعاصر الحديث. فمن اين لنا أن نتوقع الخير؟ هل نتوقعه من الغرب الذي يريد أن نبقى كما نحن إلى يوم القيامة خرفاناً تساق كالقطيع، أم نتوقعه من الصهيونية؟ التي لها مصالح أيضاً ببقائنا على حالنا إلى يوم يبعثون. عندما نصل إلى جواب عن هذين التساؤلين البدهيين سوف

نعلم من الذي يحضر لنا إسلاماً جديداً من إخراج إبليس دون جهد كبير منه، لأنه يطابق تماما مع مافي رؤوسنا الآن عن الإسلام. وإذا كنت تعتقد أني أتوهم فإني أذكرك فقط بسؤال معترض بسيط: من هو صاحب فكرة الحلف الإسلامي؟ ومن هو صاحب فكرة المؤتمر الإسلامي؟ سوف تعلم إن أجبتني أني لاأتوهم وثالثة الأثافي أننا بأسلوب معاملتنا القائم على سوقنا كالقطيع، وبخطب أئمة المساجد فينا الذين يغذون على الدوام أوهامنا بأوهام أكبر تحولنا إلى غنم حقيقي، فلا ينقصنا فعلاً إلا أن نمشي على أربع نرعى الحشيش مباشرة من الأرض، لأننا أصبحنا لانرى من هموم الدنيا إلا رزمة البقول وربطة الخبز وزجاجة الغاز. والآن أعود فأذكر أن من كان منا يتوهم أن الحل يكون بالتخلص من الراعي، فهو أكبر الواهمين، لأن ذهابه لن يحل المشكلة وسوف يظهر آخرٌ مكانه بعصا أطول ويدٍ أشد، حتى يحتل مكانه في سوقنا إلى حيث يشاء سوق القطيع.

ومن كان منا يعتقد أن الحل بأن نتحول جميعاً إلى ذئاب لأكل الرعاة وكلابهم فهو واهم أيضاً، لأننا إن فعلنا ذلك فسوف نلتفت بعد ذلك ليأكل بعضنا بعضاً، وهو وضع أسوأ من الذي نحن فيه الآن بكثير.

ثمة حل وحيد أمامنا لم يبق غيره، فإن أضعناه أصبحنا في ذمة التاريخ بعدها، مثل أمة فرعون وعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح عبرة للتاريخ ولمن أراد أن يعتبر، ومن أجل هذا الحل الذي اقترحه أكتب هذه المجموعة من الكتب لأُبَيِّنَ وجهة نظري وقد أكون مخطئاً ولكنني لن أكون أول من أخطأ ولن أكون الأخير، لكنني أؤمن أنني على صواب إلى درجة اليقين وإلا ماكتبت، وعندما أقول قد أكون مخطئاً أقصد من وجهة نظر الآخرين فحسب، أما بالنسبة لي فإني لو كنت لا أعرف ما إذا كان الحل الذي أقترحه سليماً أو مغلوطاً فليس لي الحق في اقتراحه أصلاً، لذلك أحب أن أؤكد أنني مؤمن بما أقول في هذا الكتاب إلى درجة اليقين. وأكون بذلك قد قمت بواجبي وأديت ما أستطيع و ﴿لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وسعَها﴾(١)

من أول المفكرين الإسلاميين في هذا القرن ومن أول الذين استطاعوا أن يضعوا أيديهم على الجرح القاتل فينا، الفيلسوف الإسلامي الجزائري مالك بن نبي رحمة الله عليه وبركاته. لقد عرف هذا المفكر مبكراً في هذا القرن أن المصائب كلها تأتينا من أوهامنا وخيالاتنا

(١) سورة البقرة: ٢٨٦

التي نحملها في أشرف مكان خلقه الله تعالى ليكون مركزاً للفكر والمنطق السليم والعلم والنور الحقيقي - وسمى، رحمه الله، الشعوب التي تحمل الأوهام والخيالات بدل العلم والحقائق في ذلك المكان شعوباً تحمل في ذاتها القابلية للاستعمار، والشعوب الأخرى التي تحمل في ذلك المكان العلم والتقنية والحقائق شعوباً غير قابلة للاستعمار وضرب لنا لذلك مَثَلَيْن.

أحدهما عن الشعب الذي لديه القابلية للاستعمار حتى لو لم يُستَعمَر يوماً واحداً في تاريخه الطويل مثل شعب اليمن زمن الإمام(*) لجهله وتأخره ومايحمل من أوهام بدل العلم والحقائق. فهو مهيأ للاستعمار ذاتياً ولو لم يُستعمر كبقية الشعوب التي استعمرت فعلاً، والتي تحتج أنَّ سَبَبَ تأخّرها هو الاستعمار، وضرب مثلاً آخر للشعب غير القابل للاستعمار بالشعب الألماني فوصف لنا، رحمه الله ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد استسلام القيادة الألمانية وقد وصلت إلى نقطة الصفر في كل مجال فأصبح المارك الألماني لايساوي أكثر من قيمة الورق المطبوع عليه، ودمرت المدن والقرى والمزارع الألمانية فلم يبق فيها جدار قائم إلا كائناً واحداً بقي على حاله دون أن ينهار ولم تستطع الحرب تحطيمه؟ إنه الإنسان الألماني. الفرد الألماني.

عقل الشعب الألماني بقي سليماً كما كان، بقي يؤمن بالعلم دون الأوهام، يؤمن بالتقنية، والحقائق العلمية، لا بالأباطيل من خيالات وسحر وطلاسم وقراءة كف وفنجان وأبراج، بقي الألماني يؤمن بالعمل وباتقان العمل إرادة الشعب الألماني بقيت سليمة، ومع إرادته بقيت عزته وكرامته شامخة. لم ينسحق الألماني وينهار ويستسلم للأعداء والأوهام والقدر. لم يفقد إيمانه بقوته وبذاته وبوجوده لحظة، عاد ووقف على قدميه من جديد، لماذا؟ لأنه تعامل مع الواقع الحقيقي حوله بعلميَّة، والعلم أخو العمل وأخو التخطيط وأخو التنظيم. هذا باختصار مافعله الشعب الألماني وفي مدة قياسية رجعت ألمانيا أقوى قوة اقتصادية في العالم، هكذا نهضت من كبوتها فقامت وكأن شيئاً لم يكن، وهذا كله لم يأت من عدم، بل جاء من الثروة الرمادية الموجودة في الرأس، جاء من الإيمان بالعقل، أساس كل نهضة. والإيمان بالعقل إيمان بالله.

فإن اكتشف الإنسان أن الموجود في رأسه لايعدو نفايات ورثها إما عن أبويه، أو من

(*) أرجو ألّا يُفهم مثال مالك بن نبي خطأً. فهو يقصد أن اليمن تمتاز على غيرها من البلاد الإسلامية أنها لم ترضخ لمستعمر أبداً خلال تاريخها الطويل، لكن فيها الجهل والتأخر والأوهام كباقي البلاد الإسلامية من كازابلانكا غرباً إلى كراتشي شرقاً، ومن صنعاء جنوباً إلى غروزني شمالاً.

شيخه العزيز على قلبه، فالأفضل أن يترحم على والديه وعلى شيخه، ويطلب لهم جميعاً الغفران من الله سبحانه وتعالى، ويرمي بكل ماكان في رأسه ويتخلص منه بالجملة ولايجلس لينتقي منها لأنها كلها قد تلوثت بالعدوى وتعفنت وتفسخت. والأفضل له أن يستبدل بأفكاره كلها أفكاراً أخرى سليمة، خالية من أي عفن أو تفسخ أو ظن أو احتمال، حقائق ثابتة نورانية يقينية لامجال للشك فيها كلها علوم وحقائق ومنطق وحق وهدى ونور لم يلمسها بشر بعد بسوء ولم يدنسها شر أو شيطان رجيم.

إن من يسألك مامجموع واحد زائد واحد لن تقول له إنها مسألة فيها وجهان أو بحسب رواية فلان تساوي كذا وبحسب رواية آخر تساوي كذا، أو أظن أن لها احتمالين. ليس في هذا الأسلوب علم ولاعلوم. إنما أوهام وظنون. لاتُسمن ولاتغني عن جوع.

فمن أين لنا أن نجد المصدر الحقيقي في هذا العالم الملوث كله؟

هذا ماسنحاول التوصل إليه معاً في هذا الكتاب.

هناك كثير من الناس الذين عودوا أنفسهم. حتى صار طبعاً فيهم أن يلوموا الآخرين على الدوام ويلقون المسؤولية عليهم في كل نكسة، ويبرئون أنفسهم من أسباب الإخفاق إن أخفقوا، ومن أسباب التأخر إذا تأخروا، ومن اسباب الجهل إذا جهلوا، يلومون الآخرين، يلومون الله تعالى، يلومون الظروف، يلومون الحظ، ويلومون القدر، ويلومون أمريكا، ويلومون الاستعمار، ويلومون الصهيونية، ويلومون القيادات السياسية، ولكن لايفكرون في لوم أنفسهم أبداً.

علماًأن الحقيقة عكس ذلك تماماً. إذ نحن الملومون وحدنا دون غيرنا في كل مايصيبنا وفي كل مايحصل لنا. وكل مايحصل لنا الآن هو بسبب أخطائنا نحن وبسبب ظلمنا لأنفسنا وبسبب حملنا للأوهام بدل الحقائق، وبسبب تشبع عقولنا بالخيالات والأباطيل بدل الوقائع العلمية، وبسبب الكسل الناتج عن إيماننا بأفكار لاوجود لها إلا في رؤوسنا بدل العمل والسعي والنشاط، وبسبب العناد الناتج عن جهلنا الحقائق، ولن تَجِدَ عنيداً إلا جاهلاً أبداً.

وأرجو من القارئ الذي قَرَأ إطرائي عقليةَ الشعب الألماني العلمية، واعتماده في الحياة على العلم والحقائق بدل الوهم والأباطيل ألّا يظن أنني في هذا الكتاب أدعو المسلمين للعمل للدنيا دون الآخرة، لكنني أحب أن ألفت نظر القارئ إلى أن الموقف الصحيح

يدعو للعمل في هذه الدنيا، ويجب أن يكون في اعتبار كل مؤمن سليم الإيمان أن جنته الأولى على هذه الأرض. وأن الله سبحانه قد استخلفه فيها ليعمّرها ويصلحها، ويعمل عملاً صالحاً فيها، وأن يكون في اعتباره على الدوام أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف عند الله، وقوة المؤمن تكون في نفسه وفي بدنه وفي ماله وفي سلاحه وفي علمه وفي عقله وعقليته، إن إنساناً له عقليتنا نحن وإيماننا يشكل في مجموعه آخر الأمر أمة من المسلمين المشركين بالله لإيمانهم بالباطل والأوهام الذي هو من الشيطان، بدلاً من التمسك بالعلم والإيمان الصحيح الذي هو من الله سبحانه.

وإنسانٌ له ما للفرد الألماني من عقلية قادرٌ إذا تزين بالإيمان بالله الواحد الأحد، وبدستور الله الذي هو القرآن الكريم على أن يعطيك بمجموعِهِ مسلمين من أمثال خالد بن الوليد والقعقاع وطارق بن زياد وعمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين.

هم كانوا على طريق، ونحن على طريق آخر بعيد كل البعد عنه، بل مغاير لطريقهم تماماً، هم كانوا بأفعالهم كلها يرضون الله ونحن بكل أفعالنا نسعد الشياطين ونفرحهم بانتصارهم على الإنسان فينا الذي تَبِعَهُمْ وهو يحسب أنه يتبع الله سبحانه، ولو أن المسلمين توقفوا لحظة وأعادوا حساباتهم ورأوا شواهد غضب الله على أحوالهم لحاولوا أن يعيدوا النظر في أمورهم، ولكنهم كالمُنَوَّمين يسيرون ولايعلمون إلى أين يتجهون، أإلى الله سبحانه؟ أم إلى الشيطان والأوهام؟

ولأننا قَبِلْنا أن نعيش في الظلام ولأن عيوننا الكليلة أصبحت تخشى النور والضياء سوف نبقى نحن المسلمين كالخفافيش نعيش في الكهوف، ونخاف أن نقول الحق، بل نؤثر على الدوام أن ننافث ونرائي ونمثل ولانقول الحق أبداً، إن لم نغامر ونخاطر ونتحمل أشعة النور. إذاً إلى متى سوف نبقى هكذا تائهين في أوهامنا وأباطيلنا التي نتغذى بها من كتب الوهم والظن والاحتمال التي كتبها لنا رجال عاشوا مرغمين في كهف الانحدار الإسلامي، فلم يروا النور الحقيقي مرة واحدة، فكتبوا عن النور أوهاماً وظنوناً لأنهم لم يروه أصلاً، ولأنهم لم يكونوا قادرين بأعينهم الكليلة التي اعتادت الظلام أن ينظروا للشمس وضيائها الحقيقي، فهم معذورون.

ونحن اليوم ننادي بالعودة إلى هذه الكتب وإعادة طبعها، بمساعدة وتشجيع ممن لهم مصالح على إبقائنا في الكهف أطول مدة ممكنة، أولئك الذين حضروا لنا الحلف

الإسلامي من قبل يعودون لإهدائنا الكتب الكفيلة بإبقائنا في الكهف إلى يوم يبعثون، وليصبح أملنا في نهضة إسلامية حقيقية مستحيلاً بعد أن نحشو رؤوسنا بما في تلك الكتب فوق مافي رؤوسنا أصلاً من أوهام وأباطيل وخرافات وأساطير وخيالات تداخَلَ بعضُها ببعض، فماذا يمكن أن نتوقع ونحن نرى هذه الكتب توضع في معالف هذا القطيع الإسلامي المدجَّن صباح مساء، لتكون غذاء مقوياً وشافياً من الأمراض والعلل التي نشكو منها في كهفنا العظيم بالعفن والظلمة. هذا والحق يقال، فوق مايحتمله المنطق السليم إذا كان قد بقي لدينا ذرة منه لم يلحقها الفساد بعد. وفوق كل تصور من بقي له بعض الإدراك والتبصر.

لو كانت هذه الكتب تدعو إلى خير. أو كان فيها خيرٌ أصلاً لتوصل الذين كتبوها إلى ذلك الخير. إنهم للأسف لم يحصدوا منها سوى الأوهام، فمن يزرع الخيالات لن يحصد الحقائق، والشجرة الوهمية لايمكن أن تثمر إلا ثماراً وهمية مثلها، والشجرة الحقيقية هي التي تثمر عنباً وتيناً ورماناً وبلحاً حقيقياً. وماذا جنوا أو جَنَينا من تلك الكتب سوى الجهل والضعف والتفرق شيعاً وأحزاباً، مع الفقر والجوع والاستسلام الكامل للقدر، لماذا؟ لأنهم فهموا أو أفهمونا شؤون ديننا ودنيانا مقلوبة. فإذا كنا من ذوي البصيرة فعلينا أن نعلم أن فاقد الشيء لايعطيه، فالضائع لايستطيع أن يرشد ضائعاً، والضال لايهدي ضالاً، والسراب لن يسقينا ماءً إذا عطشنا، والوهم لايقود إلا إلى وهم أكبر، إلى سراب كبير لكنه لن يقود أبداً إلى ماء يمكن أن يروي الظمأ.

يجب أن لانفتح أفواهنا بسذاجة لكل متبرع يلقننا بأفكاره الشافية والمعافية وعلينا قبل أن نبتلع ذلك الدواء المزعوم أن نتبين طبيعته، وممّ يتكون؟ ولماذا صمم وصنع؟ وإلا نكون قد جنينا على أنفسنا جناية جديدة.

يجب أن لانحشو جماجمنا بأي كتاب يصادفنا دون أن نتبين مافي ذلك الكتاب، فإن كان مافيه علماً وحقائق ونوراً وهدى ووقائع صحيحة يقبلها العقل والمنطق السليم كأي كتاب علم: قرأناه، وإن كان مافيه لايعدو الأوهام والظنون والاحتمالات والروايات عن فلاّن وفلان وفلان، ونحن لانعلم فلاناً الأول لنعلم فلاناً الأخير، فهو كتاب وهم وأباطيل ليس فيه من علم ولاعلوم وإن هي إلا ظنون وأكاذيب ﴿ومايتّبعُ أكثرُهُم إلا ظنّاً﴾(٢) ﴿ومالَهُم بهِ من علمٍ إنْ يتبعونَ إلّا الظنَّ وإنّ الظنّ لايُغني من الحقّ

(٢) سورة يونس: ٣٦

شيئاً﴾[٣] عند ذلك أعدنا ذلك الكتاب إلى المتبرع به شاكرين فضلهُ وإحسانه.

علينا أن نعود أنفسنا أن لانحكم على أمر من خلال حكم الآخرين عليه قبل أن نتبين حقيقته ﴿يا أيّها الذينَ آمنوا إنْ جاءَكُم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أن تُصيبوا قَوماً بجهالةٍ فَتُصبِحُوا على ما فَعلتُم نادمينَ﴾[٤] فإن قالوا عن كتاب بأنه جيد تأكدنا بأنفسنا، وإن قالوا إنه سم وعلقم أيضاً تبينا بأنفسنا صحة الحكم، ومع الزمن سوف تتكون عندنا ملكة نقدية لاتخطئ نميّز بها الغث من الثمين، وسوف نكتشف ونعرف أيضاً من يحاول أن يدس السم في الدسم فيما يقدم لنا، فتَحْتَ أشعةِ الضياء الحقيقي وعلى سنا النور الكاسح للظلام لاشيء يبقى خافياً.

وإذا سمعنا من ميسور يعيش في بحبوحة من الرزق في بيته مع أهله، فيقيس العالم الإسلامي كله على وضعه ويقول لنا: (إننا أمة الإسلام بألف خير) فيجب أن نعلم إما أنه قصير النظر لايرى من أمة الإسلام إلا نفسه وعائلته، أو أنه يتعامى عن الحقيقة المرة المؤلمة، ويحاول أن يعمي الواقع الأليم. وإنّ رضى الله سبحانه وتعالى له مقاييس ومعايير لايمكن أن تخطئ ﴿ذلك بأنَّ اللهَ لمْ يَكُ مُغيِّراً نعمةً أنعَمَها على قومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[٥] فكل من يقول لنا إننا نحن المسلمين اليوم نسير على نهج الحق علينا أن نسأله عن الدليل لنعرف إن كان صادقاً في قوله:

هل ترى في كل أحوال العالم الإسلامي اليوم ظواهر قائمة تثبت أن الله تعالى راضٍ عنه وعن المسلمين؟ فالرضى كما قلنا له علامات تظهر في الواقع وكذلك الغضب.

إن الله تعالى يقول لنا في كتابه العزيز:

﴿إنَّ اللهَ لايغيّرُ مابقومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسِهِم﴾[٦]

فماذا استطاع مليار مسلم أن يفعلوا أمام كل الانتهاكات الإنسانية والمجازر الوحشية التي ترتكب بحق المسلمين في كل مكان من العالم؟ ماذا استطاع المليار من المسلمين أن يفعلوا أمام مايرتكب الآن في أوربا أم الحضارة، ومبدعة حقوق الإنسان كما تدعي، والمؤمنة كما تدعي بقول المسيح عليه السلام (من ضربك على خدك الأيمن فحول له الأيسر) أمام ماتفعله أوربا بالمسلمين في البوسنة.

وماذا استطاع المسلمون كلهم أن يقدموا لآلاف المسلمات في البوسنة، وهن يستغثن

(٣) سورة النجم: ٢٨
(٤) سورة الحجرات: ٦
(٥) سورة الأنفال: ٥٣
(٦) سورة الرعد: ١١

في أثناء اغتصابهن صائحات: «وإسلاماه»؟ ولكن هل من عادة الميت أن يغيث الأحياء؟ لماذا صمت الإسلام عن استغاثة نساء البوسنة، وتحركت جيوشه من قبل لِغَوْثِ امرأة من عمورية صاحت وامعتصماه؟ الواقع أنه صَمَتَ اليوم لأنه لم يعد موجوداً، ماتَ منذ ألفِ سَنة. وهل يغضبنا أن نسمع هذا الكلام؟ لا أعتقد ذلك، لأن الغضب في حَدِّ ذاته قوة، ولم يعد فينا القوة اللازمة للغضب، أما أن نتألم ونحزن ربما فعلنا ذلك، لأن الأسى لايزال ضمن إمكانياتنا وقدراتنا، أما إسلام الله، إسلام القرآن، إسلام النور، إسلام الحق، إسلام الهدى، إسلام الجهاد، الإسلام الصحيح الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وطبّقه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وحارب بموجبه أبطالٌ أمثال خالد، والقعقاع وطارق هذا الإسلام لم يعد له من وجود، لقد دفناه منذ ألف سنة وصار عندنا بعده مئة نوع جديد من الإسلام، وليس فيها إسلام واحد صحيح أو قريب من الصحة، كله خال من الحقائق وليس فيه إلا الأوهام والأباطيل والظنون والروايات، فكل من اراد أن يشدنا إلى وهم جديد خرج إلينا بأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وسنن خاصة له وادّعى أن كل ما أتى به من الصحيح الذي لاشك في صحته، وليس له من دليل إلا بعض الأسماء يسميها السند، ونحن لانعلم أن الحديث كله كان اختلاقاً وتأليفاً وتدليساً وكذباً على الرسول صلى الله عليه وسلم أم أن فيه بعض الحقائق فضاع إسلامُنا مابينَ قال أبو هريرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقد يكونان بريئين من كل تلك التهم براءةَ الذئب من دم يوسف. والله أعلم، ولكن الذي لاشك فيه أن كل هذه الأقاويل ليس فيها من حق ولاعلم بل كلها ظنون وأقاويل.

نعم لازال العالَم يسمينا مسلمين، ولكن أين المضمون؟ أين إسلامنا الصحيح؟ أين منهاجنا؟ أين منهج الرحمن؟ أين القرآن الذي بعد أن تعلمناه رفعنا الله به ونصرنا بعد أن كنا أذلة؟ أين إيمان المهاجرين؟ وأين إيمان الأنصار؟

﴿إنَّ اللهَ لايُغيّرُ مابقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسِهِم﴾(٧)

وهل تعتقدون أن سنة الله شيء وسنة الرسول شيء آخر؟

وهل تعتقدون أن للرسول سنةً أصلاً غيرَ سنة الله في القرآن؟

فالله سبحانه وتعالى اختار أن يكون رسوله أمياً لكي لانقول هذا الكلام عنه، لأن مهمة الرسول كما هو ظاهر من اسمه هو إبلاغ الرسالة. وإذا كان الرسول عالماً يمكن أن

(٧) سورة الرعد: ١١

نقول: إنه أضاف إلى الرسالة بعضاً من عنده إن لم يكن أميناً، أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو أولاً أميّ ليس عنده مايضيف من عنده، وهو ثانياً مطيع لربه، وأمين لايخون الرسالة التي كُلّفها، مما يمنع عقلاً ومنطقاً أن يكون قد بَلّغَ رسالتين: القرآن والحكمة كما تدعي كل تلك الكتب الصفراء ظناً ووهماً، وافتراءً على الله وعلى الرسول ـ لو لم يكن في هذه الكتب إلا هذه التهمة الخطيرة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولرسالته لوجب تحريم قراءتها على المسلمين جميعاً، ناهيك عما حُشي فيها من الافتراءات الخطيرة على الله وعلى الرسول، وكل من يحاول أن يقرأ هذه الكتب سوف يكتشف بنفسه صحة ماأذهب إليه إن كان له عقل وبصيرة، فلا يمكن للرسول صلى الله عليه وسلم عقلاً أن يكون قد أعطىٰ غير القرآن لأنه لم يتلقَّ من ربه إلا القرآن، وهو صلى الله عليه وسلم، بلّغه بالحرف لاينقصه شيئاً، والمعجزة العددية في القرآن دليل مادي وعددي يثبت بالأرقام صحة ذلك.

والرسول الكريم لم يكن عنده إلا أستاذ واحد هو الله سبحانه، ولم تكن له مدرسة إلا مدرسة واحدة هي الإسلام، فليس للرسول سنن بدليل القرآن الكريم، إنما سنن الله هي سننه، وإطاعة الرسول من إطاعة الله، لأن الذي يبلغنا الرسالة هو الرسول وليس الله، فاتصال المسلمين المباشر كان مع الرسول قبل أن يكون بالله، ومن هنا تأتي طاعته الواجبة. وإن كان ثمة اختلاف بين مايسمى بسنن الرسول والقرآن فلم يكن ذلك الاختلاف من الرسول بل ممن أضاع سنة الله فتوهم وظن وأضاف وزود وحرّف وكذب من عنده على الدين الحق، بما لم يكن فيه أساساً، فضيع الحق بالشبهات، والظن والاحتمالات وقد وقع ذلك كله إما عن جهل لايشفع له حسن النية. وإما عن علم وفجور من شياطين الإنس والجن، وهم لم يموتوا على حد علمنا حتى الآن، إذ إنّ كليهما موجود، ونستطيع أن نتلمس بصمات أصابعهم ظاهرة في كل تراثنا الإسلامي.

ومن كان يعتقد أن القيادات السياسية هي المسؤولة عن تخلفنا اليوم فهو واهم لأن مسؤوليتهم عن تخلفنا ليست بأكثر من مسؤوليتنا نحن عن ذلك، وأنا أؤكد أنني لم أجد أحداً من حكام المسلمين يمنع أي شخصٍ من أن يسير على المنهج السليم إذا شاء ﴿أتقتلونَ رَجُلاً أَنْ يَقولَ رَبّي اللهُ وَقَد جاءَكُم بالبيناتِ﴾[8]

(٨) سورة غافر: ٢٨

لم يمنع حاكم أحداً يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، أما أن يقلب المسلم الآية، ويأخذ لنفسه الجزء الذي خصص الله به نفسه منها:

﴿إنَّ اللهَ لا يغير مابقومٍ حَتى يُغيّروا ما بأنفسِهِم﴾ فيدعي في نفسه أنه سوف يغير بيده وبالسيف والقوة، وكأنه قد انتدب من السماء وكلف التحكم برقاب الناس وصار وكيلاً عاماً لله، متناسياً كل آيات القرآن التي تمنعه من ذلك ويُكفِّر من لايحب كما يشاء، ويحكم بالإعدام على من لايرضى، وهو نفسه لازال غارقاً في أوهامه وأباطيله المحشوة في رأسه من جهل وضياع ويأس وفقر فإنه لن يُحَصِّلَ شيئاً، فليس من حق أي إنسان أن يمارس العنف وارتكاب الجرائم على هواه باسم الدين، ويروع خلق الله دون قانون ولاضابط ورادع ولاميزان ولاعقل، ولاكتاب منير إلا أوهامه وتخيلاته المريضة، وهذا جنون كامل ليس من جنون بعده. ألم يقرأ ذلك الإنسان بعد تلك الآيات في القرآن الكريم التي تقول:

﴿وقل الحقُّ من ربِّكُم فَمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فليَكفُر﴾(٩)

﴿لاإكراهَ في الدينِ قد تبيَّنَ الرُشدُ من الغيّ﴾(١٠)

﴿ومن تولّى فما أَرسَلْناكَ عَليهم حَفيظاً﴾(١١)

﴿فإنْ أَعرَضوا فما أَرسَلْناكَ عَليهم حَفيظاً﴾(١٢)

﴿ولو شاءَ اللهُ ما أَشرَكُوا وَما جعلْناكَ عَليهم حَفيظاً﴾(١٣)

﴿وما أَرسَلْناك عَليهم وَكيلاً﴾(١٤)

وسوف أضرب مثالاً واحداً أبيّن الفرق بين الفهم الوهمي لآية واحدة من آيات القرآن الكريم والفهم الصحيح الحقيقي لها لنعد إلى آية سورة الرعد التي تقول:

﴿إنَّ اللهَ لا يُغيّر مابقومٍ حَتى يُغيّروا ما بأَنفسِهِم﴾(١٥)

فإما أن أفهم واهماً من الآية أن مشيئة الله في التغيير تأتي أولاً وسابقة مشيئة الإنسان. أو أفهم فهماً سليماً من نصها أن مشيئة الله تأتي لاحقة ونتيجة لمشيئة الإنسان الأولى؟

---

(٩) سورة الكهف: ٢٩
(١٠) سورة البقرة: ٢٥٦
(١١) سورة النساء: ٨٠
(١٢) سورة الشورى: ٤٨
(١٣) سورة الأنعام: ١٠٧
(١٤) سورة الإسراء: ٥٤
(١٥) سورة الرعد: ١١

فإذا كنت من الفريق الأول فذلك يعني أن الإنسان مهما حاول جاهداً لتحسين وضعه وتغيير مافيه من جهل وبؤس وفقر وذل وهوان فلن يستفيد أو يحصل على أي نتائج إيجابية، بل عليه الانتظار إلى ماشاء الله حتى تأتي مشيئة الله بالتغيير، وعلى المؤمن أن يبقى ساكناً مستسلماً لقدر الله يدعو الله صباح مساء دون أن يتحرك أي حركة إيجابية واحدة في اتجاه التغيير. إذ إنّ حركته تصبح لامعنى لها، لأنها مرهونة بإذن الله ومشيئة الله سبحانه، والله سبحانه لن يرسل جبريل لكل إنسان ضلّ الطريق، وأساء فهم آيات القرآن، ليقول له بلسانه تعالى: أنا شئت، والآن أتى دورك فابدأ بالتحرك، ولو وعد الله بذلك لفعل، لكنه لم يَعِدْ أحداً، فالذي حصل ويحصل كل يوم أن المسلمين ناموا وينامون الآن وإلى ماشاء الله ومنذ ألف عام، لاشيء لديهم غير الدعاء من دون عمل يدعمه، أو السؤال من دون سعي يؤيده، والكل ينتظر أن يرسل الله سبحانه وتعالى الإشارة بأن يبدأ المسلمون العمل في التغيير، والله سبحانه وتعالى غير مسؤول عن الناس إذا توهموا وظنوا بوجود وحي آخر وكتاب آخر اسمه الحكمة فيه أحاديث وسنن خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم غير أحاديث الله وسنن الله الموجودة في القرآن أما إذا كنت من الفريق الثاني وفهمت من الآية مشيئتك هي الأولى، لأن الله شاء ذلك وأنك المقصود بالذات بالحركة والإرادة، فلا بد لك آنذاك من أن تشمّر عن ساعديك، وتعمل مافي وسعك متكلاًعلى الله العلي القدير، فتحسن من أحوالك وتنقل نفسك من جهل إلى علم ومن فقر إلى غنى، ومن ضعف إلى قوة، ويساعدك الله سبحانه كما وعدك، أنت وقومك الذين فهموا تلك الآية كما فهمتها أنت فيغير الله سبحانه حال القوم كلهم من بؤس إلى عز وغنى وقوة ورضىً من الله، وتنالَ بذلك ثواب الدنيا والآخرة وتُكتب من السعداء.

﴿واللّهُ يَهدي مَنْ يَشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾(١٦)

﴿ذلكَ هدى الله يَهدي بِه مَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾(١٧)

﴿يَهدي اللهُ لِنوْرِهِ مَن يَشاء﴾(١٨)

أما أن نفهم أن التغيير للواقع الذي يحيط بنا سوف يحصل بأيدينا تاركين النص القرآني المذكور، متبعين مأولاً منسوباً للرسول ﷺ

(مَن رأَى مِنْكُم مُنكراً فليُغَيّرهُ بِيَدِهِ، وإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِلسانِهِ، وإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِقَلبِهِ وَهُو

---

(١٦) سورة البقرة: ٢١٣ (١٧) سورة الأنعام: ٨٨ (١٨) سورة النور: ٣٥

أَضعَفُ الإيمان) ثم نريد أن نكون بعد ذلك من نوع المؤمن القوي، فنحمل السيف، ونسلطه على رقاب الناس لنصلحهم به بالقوة، فإن ذلك كله يناقض كل آيات الله في القرآن الكريم. وكان الأَوْلَى بنا قبل ذلك أن نقرأ آيات القرآن الكريم:

﴿لاإِكراهَ في الدّين﴾[١٩]

﴿من شاءَ فليؤمِنْ ومَن شَاءَ فليكفر﴾[٢٠]

﴿عليكم أنفسكُم لايضرّكُم من ضلَّ إِذا اهتديتُم﴾[٢١]

صدق الله العظيم.

---

(١٩) سورة البقرة: ٢٥٦ (٢٠) سورة الكهف: ٩ (٢١) سورة المائدة: ١٠٥

٨٢ ـ هذا الكتاب:

هذا الكتاب ليس كتاب تفسير للقرآن، وكذلك ليس هو بكتاب تأويل لآياته وإنما هو محاولة جادة ولأول مرة في تاريخ الإسلام كله لفهم آيات الله تعالى مباشرة من الله تعالى دون مساعدة أو تدخل أو وساطة سواء بالآراء أم بكتاب معين لتفسير معاني الكلمات. لكي ينفعل بها المؤمن مباشرة، فيستنير بهديها ويطيع الله في آيات يسمع الله تعالى يخاطبه بها، ويطيع الرسول في آيات كثيرة جداً وهو يخاطبه أيضاً بها، فالمؤمن يستطيع أن يتخيل صوت الرسول الكريم وهو يقول تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى:

﴿قلْ هو اللهُ أحدٌ اللهُ الصمدُ لم يَلِدْ ولمْ يُولدْ ولمْ يكُنْ لهُ كفواً أحدٌ﴾(١)

﴿قلْ إنّ هدى اللهِ هو الهدى﴾(٢)

﴿قل أأنتم أعلمُ أم اللّه﴾(٣)

﴿قلْ لّله المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾(٤)

﴿يسألونكَ عن الأهِلّةِ قلْ هي مواقيتُ للنّاس والحجِّ﴾(٥)

﴿يسألونَكَ ماذا يُنفقونَ قلْ ماأنفقتُم من خيرٍ فللوالدَيْنِ والأقربين واليتامى والمساكين وابنِ السبيل وماتفعلُوا من خيرٍ فإنّ الله به عليم﴾(٦)

﴿يسألونكَ عن الخمرِ والميسرِ قلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنّاس وإثْمُهما أكبرُ من نفعِهما﴾(٧)

﴿ويسألونَكَ عن اليتامى قلِ إصلاحٌ لهم خيرٌ وإنْ تخالِطوهم فإخوانُكم واللّهُ يعلمُ المُفسِدَ من المُصْلِحِ ولو شاءَ اللهُ لأعْنَتَكم إنّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾(٨)

﴿ويسألونَكَ عن المَحيض قلْ هو أذى فاعتزِلُوا النساءَ في المَحيضِ ولاتقربوهنّ حتى يَطهُرنَ فإذا تَطَهّرْنَ فأتوهنّ من حيثُ أمرَكُمُ اللهُ إنّ اللهُ يحبّ التّوابينَ ويحبّ المتطهّرينَ﴾(٩)

﴿يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قلْ أُحِلّ لكم الطيباتُ وماعلّمتُم من الجوارحِ مكلِّبينَ

(١) سورة الإخلاص:
(٢) سورة البقرة: ١٢٠
(٣) سورة البقرة: ١٤٠
(٤) سورة البقرة: ١٤٢
(٥) سورة البقرة: ١٨٩
(٦) سورة البقرة: ٢١٥
(٧) سورة البقرة: ٢١٩
(٨) سورة البقرة: ٢٢٠
(٩) سورة البقرة: ٢٢٢

تُعلّمونَهنَّ ممّا علّمكُم اللهُ فكُلوا مما أمْسَكْنَ عليكُم واذكُروا اسمَ اللّهِ عليهِ واتّقوا اللهَ إنّ اللهَ سريعُ الحساب﴾[١٠]

﴿يسألونكَ عن الروح قل الروحُ من أمرِ ربّي﴾[١١]

﴿ويسألونَك عن ذي القرنَيْن قل سأتلوا عليكم منه ذِكْراً﴾[١٢]

﴿ويَسألونَكَ عن الجبالِ فَقُلْ يَنسِفُها ربّي نَسْفاً﴾[١٣]

﴿يسألونَك عن الساعةِ أَيّانَ مُرساها قل إنّما علمُها عند ربّي﴾[١٤]

وهكذا تجد أن أحاديث الرسول وتعليماته وأوامره لاتتجاوز القرآن الكريم وهو أمر بدهي جداً، لأنه حسب علمنا وحسب ماعلّمنا الله به أن محمداً كان أمّيّاً لايقرأ، ولايكتب ولم يكن من أهل العلم والمتعلّمين فمن أين له علم إلا من الله، وعلم الله أتاه وحياً ومأأتاه بالوحي سجّل حرفاً بحرف لم يسقط منه حرف واحد. وعندنا في هذا الكتاب دليل مادي عددي يثبت ذلك:

لقد ذكر الله كلمة قالوا في القرآن ٣٣٢ مرة وحتى نعلم أن الله كان حريصاً على أن يجيب على كل تلك الأقوال في القرآن الكريم فقد أجاب الله تعالى عنها أيضاً بـ ٣٣٢ كلمة قل في القرآن. هل تظن أن ذلك حدث بالمصادفة؟ لقد ذكر الله تعالى كلمة شهر في القرآن ١٢ مرة وكلمة يوم في القرآن ذكرت ٣٦٥ أي بعدد أيام السنة تماماً فهل كل ذلك مصادفة أم وراءه مدبّر حاسب هو الله؟

(١٠) سورة المائدة: ٤
(١١) سورة الإسراء. ٨٥
(١٢) سورة الكهف: ٨٣
(١٣) سورة طه: ١٠٥
(١٤) سورة الأعراف: ١٨٧

٨٣ ـ ما أنواع الإشراك الموجودة بين البشر الآن بدليل آيات القرآن الكريم؟

عرفنا الإشراك بأنه حالة تصيب المؤمن نتيجة مايترسب في نفسه من أفكار ومعتقدات دخيلة، وكلها نابعة من الوهم والباطل، وهي تلغي عمل الأفكار والمعتقدات النورانية الحقيقية الواردة في القرآن الكريم بحكم أنه الكتاب الوحيد من الكتب السماوية الخالي من أي تحريف أو تحوير أو تزوير أو تنقيص. وصون القرآن بنصه لم يحصل بفضل المسلمين، وإنما بقوة وبفضل من الله سبحانه وتعالى:

﴿إنّا نحنُ نزّلْنا الذّكرَ وإنّا له لحافظون﴾[١]

ونحن نعلم من القرآن الكريم بأن الله أرسل لكل أمم الأرض رسلاً يحملون رسالة الإسلام وأوحى إليهم بكتب فيها دين الله الصحيح الذي هو الإسلام، فالله واحد ودينه واحد: ﴿إنّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلام﴾[٢]

﴿ومنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبَلَ منه﴾[٣]

وبعث لكل أمة رسولاً: ﴿ولقد بعثْنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبُدوا اللّهَ﴾[٤]

وجعل المناسك مختلفة: ﴿ولكلِّ أمةٍ جعلْنا مَنْسَكاً ليذكُروا اسمَ اللّهِ على مارزقَهُم﴾[٥]

﴿لكلّ أمةٍ جعلْنا مَنْسَكاً هُم ناسِكُوهُ﴾[٦]

لكن الأمم كلها وقفت الموقف ذاته تقريباً أمام هؤلاء الرسل وأمام رسالاتهم:

﴿كلّ ما جاءَ أمةً رسولُها كذّبوهُ فأَتْبَعْنا بعضَهُم بَعضاً﴾[٧]

لذلك يحاسب الله يوم القيامة كل أمة بحسب كتابها الذي أرسل لها:

﴿كلّ أمةٍ تُدعى إلى كِتابِها اليومَ تُجزَوْنَ ماكنتُم تعملونَ﴾[٨]

وكل الأمم أيضاً خرجت منها فئة أشركت بالله ـ لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ومايُؤمِنُ أكثرهُمُ باللّه إلا وَهُمْ مشرِكونَ﴾[٩]

---

(١) سورة الحجر: ٩
(٢) سورة آل عمران: ١٩
(٣) سورة آل عمران: ٨٥
(٤) سورة النحل: ٣٦
(٥) سورة الحج: ٣٤
(٦) سورة الحج: ٦٧
(٧) سورة المؤمنون: ٤٤
(٨) سورة الجاثية: ٢٨
(٩) سورة يوسف: ١٠٦

والإشراك حالة مرضية لكل عقيدة، وهي حالة غير طبيعية على الإطلاق. بينما نجد أن الكفر حالة طبيعية لأن الله أعطى المشيئة الأولى مع الحرية للإنسان: ﴿فمنْ شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فَلْيكفُرِ﴾(١٠)

فلايُعقل بعد هذه الحرية أن يختار الناس كلهم الإيمان هكذا وحدهم إذا لم يتدخل الله سبحانه وتعالى بمشيئته الخاصة لجعل كل الناس مؤمنين:

﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآَمَنَ منْ في الأرضِ كلّهم جميعاً﴾(١١)

لكنّ الله لم تكن مشيئته كذلك بل كانت مشيئته: حرية الإنسان واختياره، لاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل فمن شاء فليشرك ولم يقل إن الكفر لظلم عظيم بل قال:

﴿إنّ الشِّركَ لَظُلمٌ عظيمٌ﴾(١٢)

ولم يقل الله سبحانه إنه لن يغفر لمن يكفر بالله ولكنه قال:

﴿إنّ اللهَ لايغفرُ أنْ يُشرَكَ بهِ ويغفرُ مادونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ﴾(١٣)

وظلم المشرك موجّه لذاته ولنفسه قبل أن يتوجّه لأي مخلوق آخر. ومن يظن أن الإشراك ظلم لله سبحانه واهم، لأن كل مخلوقات الله ليس في طاقتها أن تؤثر في الله سلباً أو إيجاباً وفكرة تعذيب النفس من الأفكار العريقة في إشراك الأمم، وكما نلاحظ فإن تعذيب الجسد وتحمل الآلام اختيارياً هو نوع من أنواع الظلم للذات البشرية.

فالهنود يفتنّون في تعذيب الذات وقهر النفس وإماتتها، وفي ذلك إشراك بالله لأن الله لايحب الظلم في مختلف أنواعه سواء ظلم الناس للناس أم ظلم الناس باختيارهم لأنفسهم.

بل إن الله يمكن أن يغفر الأولى ولايغفر الثانية.

ومن أنواع الظلم قتل النفس البشرية إلاّ بالحق.

أما قتل الذات وقتل الإنسان نفسه فهو أشد تحريماً من الأولى، ومن المعتقدات والأفكار والفلسفات الهندية دخلت أفكار كثيرة للمسيحية أولاً ثم للإسلام بدعاً وكلها إشراكية دلّستها شياطين الإنس والجن للإسلام ومنها: التصوف والزهد. وتجويع الجسد بحرمانه الطعام والشراب.

---

(١٠) سورة الكهف: ٢٩
(١١) سورة يونس: ٩٩
(١٢) سورة لقمان: ١٣
(١٣) سورة النساء: ١١٦

وكل محاولات إذلال الذات أيضاً من الأفكار الإشراكية. ومنها أنواع تعذيب الجسد بالضرب أو بالنار، أو بوسائل أخرى وكلها تقع تحت قائمة الإشراك بالله وكلها أفكار دخيلة على العقيدة الإسلامية، فالقرآن خال من كل هذه الأباطيل. والقرآن الكريم خال من كل تلك الأفكار التي تسمح بالقيام بأي نوع من أنواع الظلم سواء للآخرين أو للذات، لذلك نجد الآيات القرآنية صريحة واضحة أمام فكرة الظلم: وأولها أن الله لايهدي الظالم للإيمان ﴿إنّ اللّهَ لايهدي القومَ الظالمين﴾(١٤)

وحتى نتبين حدود الظلم وأين يمكن أن نقع في الظلم فقد بيّنها لنا سبحانه قائلاً:

﴿ومن يتعدَّ حدودَ اللّهِ فقد ظَلَمَ نفسَهُ﴾(١٥)

وحتى نتبين أن الذي يشرك بالله يظلم نفسه فقط قال الله تعالى:

﴿ياقوم إنّكم ظلمتُم أنفسَكم باتّخاذِكُمُ العِجْلَ﴾(١٦)

فقوم بني اسرائيل عندما أشركوا بالله وعبدوا العجل الذهبي أثناء غياب موسى عليه السلام خلال فترة بسيطة هو ظلم للنفس وظلم من القوم لأنفسهم. والناس هم الذين يظلمون أنفسهم علماً أن الله سبحانه لايظلم أحداً.

﴿وماظَلَمْناهُم ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلِمونَ﴾(١٧)

أو أنهم يظلمون غيرهم

﴿وماظَلْمناهُم ولكنْ كانوا هُمُ الظالمينَ﴾(١٨)

﴿وماظَلَمَهُم اللّهُ ولكنْ أنفسَهم يظلمونَ﴾(١٩)

بعد أن فهمنا فكرة الإشراك وفكرة الظلم إلى فكرة ملازمة للظلم هي فكرة العذاب.

والعذاب من الله، والذي يعذب هو الله سبحانه وتعالى، والعذاب عقوبة الله على الظلم.

فمن يظلم يعذبه الله سواء ظلم الناس أم ظلم نفسه، ومن يكفر أيضاً يظلم نفسه لذلك يعذبه الله سبحانه:

﴿فأمّا الذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً﴾(٢٠)

---

(١٤) سورة الأنعام: ١٤٤
(١٥) سورة الطلاق: ١
(١٦) سورة البقرة: ٥٤
(١٧) سورة النحل: ١١٨
(١٨) سورة الزخرف: ٧٦
(١٩) سورة آل عمران: ١١٧
(٢٠) سورة آل عمران: ٥٦

والله سبحانه وتعالى، في الحياة الدنيا، أحياناً يسلط الناس على بعض الناس فيعذبونهمُ لماذا؟ لأن بعض الناس في الحياة الدنيا يشركون بالله فيظلمون أنفسهم فيعاقبهم الله بالعذاب في الدنيا بأن يسلّط عليهم من يعذّبهم، ثم بعد ذلك عندما يردون إلى ربهم يعذبهم الله سبحانه يوم القيامة في جهنم العذاب الأكبر، فهذا ذو القرنين يعذب بعضاً منهم ويقول على لسان ربه:

﴿قال أمّا منْ ظلمَ فسوف نعذّبهُ ثمّ يردّ إلى ربّه فيعذّبهُ عذاباً نكراً﴾(٢١)

والنفاق والكذب من الوهم، والوهم من الشيطان، ومن يؤمن بالشيطان يشرك بالله ظلماً لنفسه لذلك فالله سبحانه يقول:

﴿ويعذّبُ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشرِكاتِ﴾(٢٢)

والتكبر والاستكبار وهم من الشيطان، لذلك يقول سبحانه:

﴿وأما الذين استنْكَفوا واستَكْبَروا فيُعذِّبهُم عذاباً أليماً﴾(٢٣) والله سبحانه وتعالى يعذب في الحياة الدنيا وفي الآخرة:

﴿إنّما يريدُ اللّهُ ليعذّبهم بها في الحياةِ الدنيا﴾(٢٤)

﴿وإنْ يتوَلّوْا يعذّبهم اللهُ عذاباً أليماً في الدّنيا والآخِرة﴾(٢٥)

والكذب أم الأوهام، وأم الأباطيل، والباطل من الشيطان، لذلك كل الكذابين إما من الكفار أو المشركين، ويعذب الله الكاذبين:

﴿ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون﴾(٢٦)

والمشرك يعذَّب في الدنيا والآخرة:

﴿لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾(٢٧)

بل يعذبه الله في الدنيا مرتين ومرة ثالثة في الآخرة:

مرة خلال حياته، فيحيا حياة الذل والفقر والجهل وهذا عذاب شديد، ومرّةً بأن يسلط عليه من يقتله وتزهق نفسه عذاباً، ثم يعذب عند الله يوم القيامة: ﴿سنعذّبهُم مرتَيْن ثم يردّونَ إلى عذابِ عظيمٍ﴾(٢٨)

---

(٢١) سورة الكهف: ٨٧
(٢٢) سورة الفتح: ٦
(٢٣) سورة النساء: ١٧٣
(٢٤) سورة التوبة: ٥٥
(٢٥) سورة التوبة: ٧٤
(٢٦) سورة البقرة: ١٠
(٢٧) سورة البقرة: ١١٤
(٢٨) سورة التوبة: ١٠١

أما الكفار فيُمتَّعون في الدنيا، لكن الله هيأ لهم عذاباً أليماً يوم القيامة:

﴿إلاّ من تولّى وكَفَر. فيعذّبُه اللّهُ العذابَ الأكبرَ﴾[٢٩]

وهذا العذاب يحصل يوم القيامة:

﴿قالَ ومنْ كفرَ فأمتّعه قليلاً ثم أضطرهُ إلى عذابِ النارِ﴾[٣٠]

كيف يعذب المشرك نفسه في الحياة الدنيا:

إن الله سبحانه وتعالى في كل الكتب السماوية يقول للإنسان إنه خلف له كل الطيبات في هذه الدنيا التي فيها جنته الأولى، وعليها سوف يتم اختباره، فيصرح له الله سبحانه بأنه سخر للإنسان كل مخلوقاته على الأرض لخدمة الإنسان المؤمن العاقل العادل وكل طيبات هذه الجنة من نعم هي أيضاً محللة له ليتنعم بها بحسب سنن الله، من دون أن يقع في الترف والإسراف، والكبر والاستكبار، وصنع القبائح من الظلم والمظالم، وعدم الوقوع بين يدي الشيطان فيحرفه عن الحق والحقائق، إلى الباطل والكذب والنفاق والرياء والحسد، وكل أمراض النفس الأخرى فيطيع الشيطان متوهماً أنه يطيع الله. فيأتيه الشيطان ويوهمه ظلماً لنفسه ويقنعه أنه إذا عذب نفسه بضرب نفسه بالسلاسل الحديدية مثلاً أو بالسياط أو بالجوع أو بأية وسيلة أخرى، أو يحرم نفسه من كل الطيبات التي على الأرض، سوف يكتفي الله بتلك العقوبة ولن يعذبه بعد ذلك يوم القيامة - فتنطلي على المؤمن الجاهل خدعة الشيطان فيتبعه معذباً نفسه كما أمره الشيطان من دون أن يتبين لنفسه ويتحقق من آيات الله إن كان كلام الشيطان صحيحاً فيظلم نفسه في الحياة الدنيا ويشرك بالله الشيطانَ من دون علم، ويوم القيامة يعذبه الله سبحانه وتعالى لظلم نفسه وإشراكه بالله، على الرغم من تحذير الله إياه في كل آياته ألاّ يقع في الإشراك وألاّ يدع الشيطان يخدعه. وكانت وصية الله الأولى له في الصراط المستقيم: ﴿أنْ لايشركَ باللهِ شيئاً﴾

والله دقيق في التعبير لذلك قال: لايشرك بالله شيئاً، ويندرج تحت هذا:

من يشرك بالله مخلوقاً كالشمس والقمر والنجوم والكواكب فهو مشرك بالله.

* من يشرك بالله ملاكاً ولو بالشفاعة. (مشركي مكة).

* من يشرك بالله رسولاً ولو بالشفاعة. (مشركي اليوم).

---

(٢٩) سورة الغاشية: ٢٣ - ٢٤ (٣٠) سورة البقرة: ١٢٦

* من يشرك بكتاب الله كتاباً آخر.

* من يشرك بسنة الله سنة أخرى.

* من يشرك بحديث الله حديثاً آخر.

* من يشرك بكلام الله كلاماً آخر.

* من يشرك بالله شيطاناً أو يتخيّل أن الدنيا خالدة غير فانية فيسعى لها كل السعي.

فكله يندرج في الآية: ﴿أنْ لايشرِكَ باللهِ شيئاً﴾

﴿وإذْ قالَ لقمانُ لابنهِ وهو يعظه يابنيّ لاتُشركْ باللّه إنّ الشِّركَ لَظُلمٌ عظيمٌ﴾(٣١)

صدق الله العظيم.

ملخص فكرة الإشراك:

من خلال آيات القرآن التي استمعنا إليها في البحث السابق يمكن فهم فكرة الإشراك بتوسع أكبر، فهي حالة وواقع فكري حياتي يقع فيه الإنسان من دون شعور منه، وتكون غالباً ثمرة ترسبات لأفكار المجتمع والتقاليد والأعراف والأفكار السائدة المؤثرة في نفسية الفرد، على أنها مبادئ ومثل ترسخت في العقل الباطن، وفي اللاشعور الفردي خلال مرحلة الطفولة غالباً، وبالتالي تتحكّم في تصرفات الفرد وردود أفعاله ومواقفه أمام مشكلات الحياة اليومية والمعاشية، وظروفها وتطوراتها المختلفة، فالإنسان الذي يفهم الحياة، ويفهم دور الزمن في التغيير والتبديل والتطوير الذي يصيب كل شيء، تصبح مواقفه مرنة، مسايرةً لتغيرات الزمن، فيفهم مثلاً أن عقلية الشبان من جيل أبنائه ومواقفهم هي غير عقلية جيله ومواقفه يوم كان في مثل سن أولاده، وكذلك سوف تكون عقلية أحفاده ومواقفهم مغايرة لعقلية أبنائه وجيلهم، وبهذا يتخلص من حالة الإشراك في حياته - فلا يجمد تفكيره ونموذجه على حال واحدة ومثال واحد، هذا الإنسان هو الإنسان الطبيعي الذي من أجله أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل والرسالات لكي يهديه الصراط المستقيم، لأن هذا الإنسان، مع شفائه من حالة الإشراك، لازال معرضاً وبخطورة لحالة الكفر والإلحاد وإنكاريوم البعث والحساب والجنة والنار.

والمشرك كما رأينا إنسان رفض سنة الله وقانونه الأساسي الذي هو التطور والتغير

(٣١) سورة لقمان: ١٣

والتبديل والفناء، وهو عكس البقاء والثبات وعدم التغير التي بيّن الله سبحانه أنها من صفات الرحمن وحده فقط.

فالإنسان الذي خلقه الله سبحانه وأَهَّلَه لإعمار الأرض، وليجعله يستخلف في الأرض لإصلاحها ليبني عليها جنته الأولى - ويعيش في نعيمها، ويذوق من سعادتها، دون أن يجعلها أكبر همه، هو الإنسان المؤمن الذي يرشده سبحانه، بعكس الكافر الذي يجعل الحياة الدنيا أكبر همه، فيسعى إليها وحدها كافراً وناكراً غير الدنيا، مما بينه الله سبحانه وتعالى عن يوم البعث والحساب والجنة والنار في الآخرة.

٨٤ ـ من هم مشركو الأمس بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿تَدعونَني لِأَكْفُرَ باللّهِ وأُشرِكَ بِهِ ما ليسَ لي بِهِ علمٌ﴾(١)

المشرك وإن كان يعترف بأن الله تعالى هو الذي خلقه وهو الذي سوف يميته، يشرك بالله بإعطائه لله صفات وهمية ليست موجودة فيه، ويأخذ أيضاً من الله سبحانه صفات حقيقية موجودة وينكرها، ونكران الشيء هو كفرانه، ومن هنا يأتي كفر المشرك من دون شعور منه، كما رأينا في قصة الرجل صاحب الجنتين الذي أنعم الله عليه لإيمانه بجنة في الدنيا، وكانت له جنة في الآخرة، فظلم نفسه أن رآه استغنى عن الله بقوة ومال وظن أنها لن تزول، فدخل الشيطان إلى قلبه يوهمه أن هذه الجنة الحقيقية التي أمامه لايمكن أن تزول، وأنها ستبقى أبداً، فأشرك بالله بشيء باق مع الله ناسياً أن الله هو الباقي الوحيد، فظلم نفسه وخسر الدنيا والآخرة في ساعة من نهار.

والمشركون في عهد النبي كانوا يؤمنون بالله بدليل الآيتين سورة العنكبوت: ﴿ولَئِنْ سألتَهم منْ خَلَقَ السمواتِ والأرض وسخّرَ الشمسَ والقمرَ ليقولُنَّ الله فأنّى يُؤفَكونَ﴾(٢)

﴿ولَئِنْ سَأَلتَهم من نزَّلَ مِن السماءِ ماءً فَأَحيا بِه الأرضَ من بَعد مَوتها ليقولُنَّ الله قلْ الحمدُ للهِ بل أكثرُهم لايعقِلونَ﴾(٣)

والله يعلم أنهم مشركون، وهم لِوَهْمِهم واتّباعهم الباطل لايعلمون، ولايعبد المشركون الله بإخلاص من دون وهم إلا ثواني أو دقائق أو ساعات عند مواجهتهم خطراً شديداً كما في الآية الكريمة التي تضرب مثلاً عنهم في ذلك:

﴿فإذا رَكِبوا في الفُلكِ دَعَوا اللّهَ مُخلِصينَ له الدِّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يُشركون﴾(٤)

فلم يذكروا الله إلا عند ثورة البحر وتعرضهم للهلاك. والإشراك بالله ليست له صورة واحدة فقط بل له صور مختلفة لكن الأساس فيه هو إدخال الوهم والباطل في تصور الله الذي هو مطلق الحق والعلم. فكل ظن ووهم وخرافة وسحر مِنْ صفات خصّها الله

(١) سورة غافر: ٤٢
(٢) سورة العنكبوت: ٦١
(٣) سورة العنكبوت: ٦٣
(٤) سورة العنكبوت: ٦٥

بالشيطان وجعلها من صفات الرحمن ظلماً وظناً هو إشراك بالله. فمشركو مكة: يؤمنون بالله كما أعلمنا القرآن ويعترفون به خالقاً ومنقذاً، فأين كان إشراكهم؟ وأين كانت مواطن وهمهم وباطلهم؟ لنستمع للآيات التالية من سورة النجم: ﴿أفرأيتُم اللات والعزّى * ومناةَ الثالثة الأخرى * ألكُم الذكَرُ ولهُ الأنثى * تلك إذاً قِسمةٌ ضِيزى﴾[5].

كان العرب في الجاهلية يعتقدون وهماً، بالاستناد إلى مصادر خرافية أو أسطورية بأن الله سبحانه يحب الإناث ولايحب الذكور، لذلك ظنوا وهماً وباطلاً وظلماً لأنفسهم أن الملائكة من جنس الإناث، ومع أنهم كانوا يؤمنون بالله إلا أنهم يشركون بعبادته آلهة من الإناث لاعتقادهم الوهمي السابق بأن الله لايحب إلا الإناث، فمن أراد الشفاعة والتقرب من الله لابد أن يكون شفعاؤه من هذه الآلهة المؤنثة، مثل اللّات، وهي صخرة بيضاء منقوشة أقاموا عليها بيتاً في الطائف، وكان للبيت أستار وسدنة كالكعبة، والعزى وهي شجرة عظيمة أقاموا عليها أيضاً بيتاً وله أستار وسدنة في مكان يقال له نخلة، ومناة: وهي صخرة كانت في مكان يقال له المشلل، بالقرب من قريد، وهو مكان بين مكة والمدينة. فالله تعالى يسخر من معتقدهم ومن تخصيصهم الإناث لله. والذكور للبشر وهي قسمة جائرة، ويتابع تعالى قائلاً:

﴿إنْ هي إلّا أسماءَ سمّيتُموها أنتم وآباؤكم ما أَنزَلَ اللهُ بها من سلطانٍ إنْ يتّبعونَ إلّا الظنَّ وماتهوى الأنفسُ ولقد جاءَهم من ربّهم الهدى﴾[6]

إن حقيقة الإشراك الذي وقع قديماً مشروح في هذه الآية الكريمة، ونبع الإشراك هو الظن والوهم والباطل - وكلها من مصدر واحد، أو هي أسماء لمسمى واحد، هو الباطل، وإليه تعود شتى الأساليب كالكذب والنفاق. والغش والخديعة والمكر والشيطان هو الذي يمثل الباطل في الكون وليس الرحمن، فالرحمن يمثل كل الحقائق التي لاوهم فيها على الإطلاق ولاباطل.

وبما أن الضلال والوهم والظن أكاذيب ليس لها سند من الحقيقة فقد ثبت أنّ ما كان في رؤوس مشركي مكة وغيرهم من المشركين، ليس إلا ضرباً من هذه الأباطيل لذلك يقول الله سبحانه وتعالى موجهاً الكلام إلى كل من وقع في الإشراك قبلهم وبعدهم، والأهم من جاء بعدهم، لأن الذي مات انتهى أمره فقد صار حسابه على الله، لكن

---

(٥) سورة النجم: ١٩ - ٢٢   (٦) سورة النجم: ٢٣

الفرصة لازالت قائمة بالنسبة للإنسان الحي الذي يقرأ الحق، وله بقية من بصر وسمع وإدراك، فيعرف أنه من الذين ضلوا، فيترك ذلك الطريق الذي لن يودي في النهاية إلا إلى جهنم وبئس المصير، فيصحو على نفسه، ويبحث من جديد عن النور الحقيقي في القرآن ليتبعه، فينجو بنفسه قبل فوات الأوان.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لايفلح المجرمون* ويعبدون من دون الله ما لايضرّهم ولاينفعهم ويقولونَ هؤلاء شفعاؤُنا عند الله قل أتنبئون اللّه بما لايعلم في السموات ولافي الأرض سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾[٧]، والآيات لاتحتاج إلى أي شرح إضافي حسبنا الاستماع والإنصات إليها بقلب سليم، يخلو من المرض والرياء:

﴿ومن الناسِ مَنْ يَقولُ آمنّا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما هم بمؤمنينَ * يُخادعونَ اللهَ والذينَ آمنوا ومايَخدعونَ إلّا أنفسَهُم ومايَشعرونَ * في قلوبِهم مَرَضٌ فزادَهُم اللهُ مَرَضاً ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيلَ لهم لاتُفسِدوا في الأرضِ قالوا إنّما نحنُ مُصلِحون ألا إنّهم همُ المفسدونَ ولكنْ لايشعرون﴾[٨] لاحظ أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أنهم مع كل ذلك الضلال يظنّون أنهم الأعلون، وأنهم المؤمنون وأنهم المصلحون وأن غيرهم هو الضال فالمشرك يؤمن: أنه على صواب وأن غيره على خطأ، وهي من صفات المشرك، الذي لايستخدم ليصل إلى الحقيقة وسائل التمييز الثلاث المتوافرة لديه: الاستماع للحق، والبصر والتبصر، والعقل والإدراك ثلاث وسائل لمعرفة الحق ليس من غيرها، فمن لايستخدمها ضل عن الحق دون شعور منه، ولذلك يصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ولكنْ لايشعرون﴾.

ثم يتم الله سبحانه آياته فيقول:

﴿وإذا قيلَ لهم آمِنوا كما آمنَ الناسُ قالوا أنؤمِنُ كما آمنَ السفهاءُ ألا إنهم همُ السفهاءُ ولكنْ لايعلمونَ * وإذا لقوا الذينَ آمَنوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينِهم قالوا إنّا مَعَكم إنّما نَحنُ مستهزءونَ اللهُ يَستهزئُ بِهم ويَمُدُّهم في طُغيانِهم يَعمهونَ * أولئكَ الذينَ اشترَوا الضلالةَ بالهدى فما رَبحَتْ تِجارَتُهُم وماكانوا مُهتدينَ * مثلهم كمثل الذي استوقَدَ ناراً فلمّا أضاءَتْ ماحولَه ذَهَبَ اللهُ بنورِهِم وتركَهُم في ظلماتٍ لايُبصرونَ * صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لايرجعونَ﴾[٩]

---

(٧) سورة يونس: ١٧ - ١٨ (٨) سورة البقرة: ٨ - ١٢ (٩) سورة البقرة: ١٣ - ١٨

وفي القرآن مواقع كثيرة يصف لنا فيها الله سبحانه وتعالى مرضى القلوب من المشركين نكتفي بالمثال السابق من سورة البقرة للاختصار فالمشركون قديماً وحديثاً هم على ماهم عليه لايتغيّرون وقد أوصلتنا القراءة المتأنية للآيات إلى حقائق عن الإشراك هامة، فالمهم ألا نقرأ القرآن وكأننا نقرأ كتاباً في التاريخ أو نقول حين نقرأ آية من آيات الله: إننا نعلم من أسباب النزول، أن هذه الآية نزلت في بني كذا وفي مناسبة كذا، فهذا الأسلوب يقتل القرآن الحي المتجدّد. وآيات القرآن الكريم ليس لها أسباب نزول وإنما يجب أن تُطبَّقُ على كل الناس، وفي كل الأزمنة وفي كل العصور، قد تكون أنت نفسك مقصوداً بآية من آيات الله، لذلك يجب أن تراعي في قراءتك القرآن الكريم أن تقرأه وكأنه يتنزّل عليك من السماء مباشرة وكأنّك المقصود به أنت أو أنا بالذات، لأُصلح أنا به عيوبي وليس عيوب جاري، فجاري عليه أن يقرأ القرآن أيضاً بنفسه ليصلح به أموره، وهكذا يكون هذا الكتاب للناس كافة ولإصلاحهم كافة، ومن لايفهم القرآن بهذا الأسلوب لم يفهم القرآن ولم يفهم لماذا أنزله الله تعالى بهذا الأسلوب الفريد، إن مهمة القرآن الحقيقية لم تبدأ بعد على هذه الأرض، إن مهمته آتية وسوف يصبح دين الإنس كلهم، ذلك اليوم آت لاريب فيه، لكن ماذا أستفيد أنا إذا آمن مَنْ في الأرض جميعاً وأشركتُ أنا وحدي وسأذهب أنا وحدي بإشراكي إلى جهنم ويذهب غيري إلى جنان الرحمن؟

على العاقل أن يتدبر نفسه قبل فوات الأوان.

وخير مانختتم به هذا الموضوع ليكون فيه القول الفصل بعد أن بيّنا من آيات القرآن الكريم كيف كان الوهم والباطل الذي دخل إلى نفوس الناس سبباً أساسياً ومباشراً لإشراكهم بتوهمهم صفات ليست لله ظلماً ومن ثم اتباع تلك الظنون بدل اتباع الحقائق العلمية الصحيحة فعلم الله كله علم حقيقي لاوهم فيه فكل قوانين الفيزياء هي من سنن الله، وكل قوانين الكيمياء هي من سنن الله، وكل قوانين الفلك، وكل القوانين التي تُسيّر هذا الكون العظيم كلّه من وضع الله سبحانه لاشريك له فمن آمن وعمل بها آمن بالله.

ومن أنكرها وآمن بغيرها كفر بالله وأشرك بالأوهام. فغضب الله عليه أشدَّ الغضب وحرمه الجنة، حيث لم يحرم الله منها حتى الكافر بل حرّمها على الذي أشرك بالله، وسوف نشرح ذلك في فصل خاص، والآن لنستمع للآية الكريمة التالية:

﴿ولقد جئتُمونا فرادىٰ كما خَلَقْناكُم أَوَّلَ مَرَّة وتركتم ما خوّلناكم وراءَ ظُهورِكُم ومانرى معكم شفعاءَكُم الذينَ زعمتُم أَنَّهُم فيكم شُرَكاء لقد تقطعَ بينكم وضَلَّ عَنكم ماكنتم تَزعمونَ﴾(١٠)

وكما قلنا سابقاً، إن القرآن الكريم يستخدم أساليب مختلفة للتعبير، ففي هذه الآية يجعل الله سبحانه المستقبل حاضراً، ويكلمنا وكأننا في يوم القيامة وبعد البعث فيتوجه إلى المشركين منا، ويستهزئ بهم قائلاً أين شفعاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم، لاأرى أحداً منهم يرافقكم، قد تكون لأسباب قاهرة عليهم وعليكم أن تقطعت الأسباب بينكم فلم تستطيعوا إعادة الاتصال بهم ولاشفعوا لكم كما كنتم تزعمون. إنه منتهى الخزي ومنتهى الخذلان والخسران للمشرك أن يقف بين يدي الله وليس له ولاعنده مايقول، فقد ظهرت الحقيقة وظهر أنه كان يعيش في الأوهام والأباطيل. فالعاقل من حمى نفسه من ذلك الموقف المخزي أمام الله يوم القيامة، والذكي من لجأ إلى الأسباب الحقيقية لمثل ذلك الموقف.

والحريص من عَلِمَ أن لاحقَّ في هذا الكون كلّه إلا كلام الله وكتاب الله في القرآن، وكل ماعدا ذلك الكتاب وهم وظن وأباطيل - ومن اعتقدَ معانداً واتباعاً لهوىً في نفسه الأمّارة بالسوء أنّ الحق والخير كلّه في تلك الظنون والأقاويل والأباطيل فهو في النهاية حر، يستطيع أن يختار مايشاء، وليس لنا أن نقول له نحن المسلمين أفراداً مؤمنين إلا (هداك الله) وذلك طاعة منا لله وللرسول الذي بلّغنا هذه الرسالة ولولاه صلى الله عليه وسلم لما وصلتنا، ونحن من الذين أنعم الله عليهم وتبلغوا هذه الرسالة التي أتى بها من عند الله ونطقها أول ناطق، وعنه وعما نطق به بما أوحي له صلى الله عليه وسلم تبلغنا القرآن العظيم، فطاعته في ضوء ذلك هي طاعة متصلة بطاعة الرحمن، ونحن من بعده صلى الله عليه وسلم مسلمين مؤمنين علينا أن نُبلّغَ مابُلّغنا، ونقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا هل بَلّغْتُ... وهنا تنتهي مهمتنا لتبدأ مهمة مَنْ قد بُلّغَ الرسالة من بعدنا وهذه سنة الله في خلقه، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسنّةِ اللّهِ تبديلاً ولن تَجِدَ لِسنّةِ اللّهِ تَحويلاً﴾(١١).

صدق الله العظيم.

---

(١٠) سورة الأنعام: ٩٤ (١١) سورة فاطر: ٤٣

٨٥ ـ من هم مشركو اليوم بدليل آيات القرآن الكريم؟

بإيجاز شديد نقول:

كل من يؤمن بأفكار وآراء وأمور لاوجود لها في القرآن الكريم هو مشرك بالله، ولو كان يردد بأعلى صوته: أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقد استمعتم إلى مشركي مكة وهم يعلنون إيمانهم بالله لكنهم قالوا: ولنا مع الله شفعاء نتقرب بهم إلى الله سبحانه، لكن الفرق بيننا وبينهم أنا نضيف لشهادتنا: أن محمداً رسول الله، هذا هو الفرق الوحيد، أما الإشراك فحاصل هناك، وحصل عندنا ولايزال يحصل إلى اليوم وقد يقول قائل هذه تهمة خطيرة فأين الدليل؟

﴿قلْ هاتوا برهانَكُم إنْ كُنتم صادقينَ﴾[1]

ـ كل من يسمح لنفسه أن يقول: إن هناك سنةً خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم يجب اتباعها مع سنة الله في القرآن يشرك بالله مصدراً آخر لمصادر الحق في الدين الإسلامي، لم يسمح به الله سبحانه وتعالى، بدليل أن القرآن كله لايحتوي على آية واحدة يقر فيها الله تعالى أن لرسوله سنةً واجبةَ الاتباع.

ـ وكل من يسمح لنفسه أن يقول إن هناك كلاماً خاصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم يجب اتباعه مع كلام الله في القرآن يشرك بالله تعالى، باختلاق مصدر آخر لمصادر الحق في الدين الإسلامي أيضاً لم يسمح الله به، بدليل أن القرآن كله لايحتوي على آية واحدة يقر فيها الله سبحانه وتعالى بأن لرسوله كلاماً خاصاً لنتبعه، والقرآن شاهد بين أيديكم لايحوي كلمة واحدة يقر فيها الله بأن للرسول كلاماً أبداً وإنما له قول بالأمر، أي يأتيه الأمر بالقول فيقول ما أمر به ويبلغه للناس. ومن أجل هذا بالذات اختار الله سبحانه وتعالى رسوله أمياً حتى لانتهمه في مستقبل الأيام بأنه أتانا بشيء من عنده، فكل ما أتانا به موجود في القرآن الكريم فقط لاغير.

ـ وكل من يسمح لنفسه بأن يقول إن هناك حديثاً خاصاً بالرسول ويجب اتباعه مع حديث الله الذي هو القرآن كما برهنا قبل ذلك يكون أيضاً قد أشرك بالله بإضافة مصدر جديد لمصادر الحق في الدين الإسلامي لم يسمح به الله سبحانه وتعالى، بدليل

---

(١) سورة البقرة: ١١١

أن القرآن كله لايحوي ولو إشارة صغيرة، أن لرسوله حديثاً خاصاً به أصلاً، ليبلغنا إياه، أو أنه واجب الاتباع، وقد برهنّا سابقاً لمصلحة من كان إبعاد الناس عن القرآن والله سبحانه وتعالى يقول لنا كما قال للمشركين من قبلنا:

﴿أمْ لكم سلطانٌ مُبينٌ * فأتُوا بِكتابكُم إنْ كُنتم صادقينَ﴾(٢)

﴿الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللّهِ بِغَيرِ سلطانٍ أتاهُم﴾(٣)

﴿إنَّ الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللّهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم إنْ في صدورِهم إلّا كِبرٌ ماهُم بِبالِغيهِ﴾(٤)

وماذا عندهم من سلطان يأتوننا به؟ ليس عندهم إلا كتب الحديث الصحيح ليأتونا به، والله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم وحكم لنا في القرآن الكريم في الآية التالية:

﴿ولو كانَ من عندِ غيرِ اللّهِ لَوَجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(٥)

وهذا أكبر دليل على أن كلّ مافي الصحيحين ليس من عند الله. لقد برهنت على هذا في كتابي الثاني دين السلطان ببحث شامل لصحيح البخاري ومسلم رحمهما الله.

ليس في كل الحديث الذي تعبوا في جمعه ودراسة سنده ومتنه إلا الاختلاف الكثير فليس فيه حديث واحد لم يختلف الرواة فيه، ولكي لايظن القارئ أننا نتجنّى عليهم فإنا سوف نشهد على هذا الكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (علم الحديث)(*) على مانقول، مع أنه ليس بعد الله شاهدٌ ولاحكم.

يقول ابن تيمية رحمه الله (قسم علماء الحديث السنة النبوية إلى ثلاثة أقسام (صحيح - حسن - ضعيف) ثم يضيف بعد ذلك أن مصدر ذلك من الله تعالى نزل بالوحي على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهل في القرآن

صحيح، وحسن وضعيف؟ هذا أول الاختلاف في المصدر الموهوم. ثم يتابع قائلاً: (الحديث ستة وثلاثون نوعاً إذ أن بعضها متداخل ببعض)

ولأجل أن تعمّ الفائدة نذكر هنا مايكثر تردده وتداوله من أقسام الحديث وهي: المتواتر والمشهور - والصحيح - والحسن والضعيف والمرسل - والمسند والمرفوع - والموقوف - والموصول - والمقطوع - والمنقطع - والمعضّل - والمعلّق - والمدلّس - والشاذّ - والمحفوظ -

---

(*) علم الحديث: ابن تيمية:، نشر عالم الكتب، ط١٩٨٥ ص ٨١

(٢) سورة الصافات: ١٥٦ - ١٥٧

(٣) سورة غافر: ٣٥

(٤) سورة غافر: ٥٦

(٥) سورة النساء: ٨٢

والمنكر ـ والمعروف ـ والمتابع ـ والمتروك ـ والمعنعن ـ والعزيز ـ والغريب ـ والمعلل ـ والمضطرب ـ والمدرج والمعلوب والموضوع ـ والمسلسل ـ والمصحّف ـ والمؤتلف ـ والمتّفق ـ والمفترق ـ والمتشابه ـ والعالي ـ والنازل ـ والناسخ ـ والمنسوخ) انتهى كلام الشيخ.

فمن كان ذا بصيرة فليتأمل: ستةٌ وثلاثون نوعاً مختلفاً من أنواع في الحديث! أيدل هذا على حق واحد وطريق واحد؟ أم إلى ستة وثلاثين طريقاً؟ والعاقل من يعقل، إليكم على سبيلِ المثال حديث: (إنما الأعمال بالنيات) فقد يبدو للسامع أنه من أحسن الأقوال والحِكَمْ، تمعّن وتَبصّر قليلاً سوف تجد أنّه يفتح أبواباً واسعة للكذب على الله وعلى الرسول وعلى الإسلام بحجة حُسن النية: (لقد فعلت كذا لاعتقادي بأنني أخدم الإسلام) وهذا بالضبط مافعله أهل الكتاب الذين حرّفوا كتبهم وظنوا أنهم يحسنون صنعاً بدافع حسن النية، فألفوا فيها أشياء تناقض العلم، وعندما أتى العلماء واكتشفوا أن حقائق الكون تناقض ماورد في كتبهم من تحريف حاروا في أمرهم فلا هم قادرون على الاعتراف بخطيئتهم الأولى، ولاهم يستطيعون أن يكذبوا الحقائق التي تضيء بالحق وحدها وبرهانها فيها، وهذا الحديث من أحاديث البخاري ومسلم أي من الصحيحين.

وإليكم الحديث الآتي:(*)

(اكتب فو الذي نفسي بيده ماخرج من بينهما إلا حق ـ (يعني شفتيه) أخرجه الإمام أحمد وأبو داوود. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه)

فإذا كان هذا الحديث صحيحاً وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله فعلاً فلا يمكن أن يكون معناه إلا الآتي: إن كل ماآتيتكم به على أنه وحي من الله فهو كله حق فاكتبوه، أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقصد القرآن الكريم ليس غير.

أما إذا كنا نفهم منه: كل ماقاله لنسائه أو لأصحابه أو كل ماتحدث به في حياته الشخصية فهذا خطأ، والقرآن يكذب هذا الكلام لأن الله صحح للرسول ما ألقى الشيطان إليه لكي لايتقول عليه يوماً ما، وعاتبه الله في آيات كثيرة على مواقفه، عاتبه على سبيل المثال عندما صلى على شيخ المنافقين مرة، وعندما عبس بوجه إبن أم مكتوم مرة، وعندما سلم الأسرى مرة، وعندما حرم على نفسه شرب العسل مرة. وهكذا يجب أن نتصور على الدوام أن الرسول بشر مثلنا، يوحى إليه، ويصحح له الله سبحانه، لكنه ليس ببشر معصوم عن الخطأ، فهذا وهم وباطل، فالرسول غير معصوم بذاته من

(*) المصدر نفسه ص٥٧

الخطأ وإنما يعصمه الله بمراقبته وتوجيهه بالوحي القرآني.

وإليكم أيضاً الحديث الآتي المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في موضوع البحر: (هو الطهور ماؤه والحل ميته).

هذا الحديث يناقض العلم، ويناقض القرآن. بأمور كثيرة كان يجهلها من دلّس هذا الحديث، ولو كان وحياً من الله لما ناقض الحقيقة والواقع والقرآن وهو مما أخرجه ابن ماجة في سننه وواضح أن واضعه يجهل أن في البحر أنواعاً من الأحياء تعيش فيه أكثر من الأنواع التي تعيش على الأرض مرات عديدة ومن هذه الأنواع حيوانات كثيرة تتنفس خارج الماء، وهي تلد وترضع، فليس كل مافي البحر من أحياء يموت إن أخرج من الماء كالسمك الذي لايستطيع التنفس خارج الماء ففيه الحيتان التي تبقى حية خارج الماء، وكذلك السلاحف والحيوانات البحرية القطبية، وفيه الدلفين وحيوانات كثيرة يجري فيها الدم الأحمر بعضها يلدُ ولادة كالدلافين، وبعضها يبيض كالسلحفاة. وهذه الحيوانات لابد من ذبحها قبل أكلها، وهذا الحديث ليس صحيحاً حتى بالنسبة إلى السمك، لأنك إذا وجدت سمكة ميتة طافية على سطح البحر لايحل لك أكلها بينما نص الحديث يحلله، وهكذا نلاحظ على الدوام أن ماكان من عند غير الله يقع فيه اختلاف كثير، أو لايطابق الحقيقة والواقع.

فليس هدفي في هذا الكتاب نقد الأحاديث، وإنما أحببت أن أُظهر الحقيقة للقارئ وأبين أن الحديث كله مصدر للأوهام والأباطيل، وأن من أَقدَمَ على كتابة الحديث في الإسلام بحجة النية الحسنة والحرص على خدمة الإسلام أجاز لنفسه أن يرتكب بدعة فرقت الإسلام شيعاً. غفر الله لهم جميعاً، فنحن لانقف متّهمين أحداً ولكن علينا أنفسنا. وليس لنا أن نردد مارددة الأقدمون ممن سبقونا:

﴿إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أمةٍ وإنا على آثارِهِم مهتدونَ﴾(٦)

ولا نقول ماقاله الذين اتبعوا آباءهم في الإشراك بالله:

﴿أو تقولوا إِنّما أَشركَ آباؤنا من قبل وكنّا ذُريةً منْ بعدِهِم﴾(٧)

فهذا الكلام لن يفيدنا، بل علينا أن نتبصر لأنفسنا، ونتفهم الحقائق على أصولها، ونعلم علم اليقين أن رسولنا الأمي لم يكن عنده شيء خاص غير القرآن ليعطينا إياه أو يأتينا به، فالرسول كما يدل عليه صفته يحمل رسالة، ومن يحمل رسالة لانتوقع منه أن

(٦) سورة الزخرف: ٢٢ (٧) سورة الأعراف: ١٧٣

يعطينا إلا ماحُمل من رسالة، وهل حمل الرسول رسالة غير القرآن الكريم؟ هل نستطيع أن ندعي ونقول: إن الله المنزه عن النسيان، قد نسي أموراً لم يذكرها في القرآن، فذكرها لنا الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك؟ وهل تجدون ذلك تسويغاً مقبولاً للحديث عن الرسول؟ والله سبحانه يقول في القرآن الكريم بوضوح وصراحة آيات لاتحتمل التناقض أو التعارض:

﴿ولله غَيبُ السمواتِ والأرضِ﴾[٨]

﴿قلْ لايعلمُ من في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا الله﴾[٩]

ألم يكن الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم هو الذي نقل هذه الآية إلينا؟

﴿عالم الغيبِ فَلا يُظهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحداً﴾[١٠]

من هذه الآيات نعلم أن الله قد منع كل مخلوقاته بأن تعرف أسراره وغيبه، ولم يشارك في ذلك أحداً إلا بما شاء وأخبر عنه في كتاب، لذلك يطلب الله في المواقف التي تتطلب حججاً الأدلة والبراهين: ﴿قلْ هاتوا برهانَكم إنْ كُنتُم صادقينَ﴾[١١]

ويقول سبحانه: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادل في اللّهِ بِغيرِ عِلمٍ ولاهدىً ولاكتابٍ منيرٍ﴾[١٢]

فمن يدعي أن للرسول سنة وحديثاً ويجادل في ذلك لاعلم لديه من الله ولاهدى منه، ولاكتاب من الله يحكم له، والله تعالى هو الذي يقول لنا جميعاً:

﴿قالَ علمُها عِندَ رَبّي في كتابٍ لايضلّ ربّي ولاينسى﴾[١٣]

بل لنستمع للرسول في القرآن الكريم وهو يقول: للناس جميعاً في القرآن:

﴿قلْ لا أَقولُ لكم عندي خزائنُ اللّهِ ولا أَعلمُ الغَيْبَ﴾[١٤]

﴿ولو كنتُ أَعلمُ الغَيبَ لاستكثَرتُ من الخَيرِ﴾[١٥]

تلكم هي الأحاديث الصحيحة للرسول صلى الله عليه وسلم نلتمسها من القرآن وحده، لامن مصدر سواه.

وبعد كل ماقرأناه عن الغيب في الآيات الكريمة فكل كلام عن غيب الله، كالكرسي -

---

(٨) سورة النحل: ٧٧ — (١١) سورة البقرة: ١١١ — (١٤) سورة الأنعام: ٥٠

(٩) سورة النمل: ٦٥ — (١٢) سورة الحج: ٨ — (١٥) سورة الأعراف: ١٨٨

(١٠) سورة الجن: ٢٦ — (١٣) سورة طه: ٥٢

وعرش الله وماذا عنده في السموات من لوح محفوظ أو غيره من غيب الله مما لم يرد في القرآن الكريم هو كذب وافتراء على الله وعلى الرسول، وإن نقله أو الاستماع إليه حرام وإشراك بالله وبمعلوماته وأسراره، وكل المعجزات التي ترويها الأحاديث عن الرسول ومنها أن الماء نبع من أصابعه، أو حديثه مع الشجرة أو انشقاق القمر، كلها أكاذيب وافتراءات على الله وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد نسج رواة الحديث حول الآية ﴿اقتربتْ الساعةُ وانشقَّ القمرُ﴾[١٦].

معجزة ركبها خيالهم، وخيل لهم أن اقتراب الساعة (القيامة) يقاس بمواقيتنا فذهب أحدهم إلى أنها لن تزيد عن مئة سنة، وهكذا ومادامت النية الحسنة تشفع لهم فقد اخترعوا حديثاً آخر يقول (لايبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة).

لكن الأيام مرت ومر أكثر من مائة عامة بل قرون ولم يحدث شيء مما زعموا، بل ظل الناس على سطح الأرض في ازدياد دائم، فوقع أولئك المتنبئون ومبتدعو الأحاديث في موقف حرج هل تعلم كيف اخترعوا تخريجاً لأنفسهم، قالوا المقصود أنه لن يبقى على سطح الأرض بعد مئة سنة نفس منفوسة قول الرسول لهذا الحديث، وكلهم بالفعل ماتوا بعد مئة سنة ولكن كيف علموا بموت الذين كانوا في الصين مثلاً. أو في أمريكا الشمالية التي لم تكن مكتشفة بعد. فلا بشرى لهم ولأكاذيبهم، ولالسوء تخلصاتهم، أولها باطل بدؤوا به بعد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكتابة، وآخرها ضلال وتفتيت لأمة الإسلام، وإشراك بالله بأوهام لاسند لها من كتاب ولاسلطان مبين، وليس فيها علم بل باطل كله ووهم استمعوا إلى هذه الأحاديث (الصحيحة)، فكرتها واحدة لكن التزيد والتعديل فيها واضح لأغراض لاتخفى والغريب أنها كلها صحيحة.

(من روى عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)

(من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار)

(من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)

(من قال مالم أقل فقد تبوأ مقعده من النار)

هذه أربع روايات مختلفة يعدها رواة الحديث رواية متواترة، وكل حديث يختلف عن الثاني اختلاف السماء عن الأرض، فالذي يرويه (على أن التعمد شرط لدخول النار) يكذب كما يشاء بحجة (حسن النية) وإنما الأعمال بالنيات - ومن ينسى وهو حَسَنُ

---

(١٦) سورة القمر: ١

النية نص حديث ما يجيز لنفسه ابتداع نص من عنده ويدعي أنه صحيح و(لكنه لم يتعمد أن يكذب) على الرسول صلى الله عليه وسلم.

إليكم هذا الحديث:

(من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كُنَّ له كعتق رقاب)(*) وهذا الحديث يناقض ماورد في القرآن الكريم، فأي قول لايقترن ولايعززه العمل الصالح لاقيمة له في الإسلام، بدليل كل آيات القرآن الكريم - في حين أن هذا يفتح أبواب المغفرة ورضى الله للكافر والمشرك والمنافق على حد سواء إذ يكفي أن يكرر هذه الكلمات إنسانٌ حتى لو لم يكن مؤمناً بها لينال رضى الله، مع أن الإيمان غير كاف لنيل الغفران إذا لم يصاحبه العمل الصالح وآيات القرآن التي تؤكد ذلك يبلغ عددها ثماني وعشرين آية، وهي تقرن الإيمان بالعمل الصالح ﴿من آمَنَ باللّهِ وَعَمِلَ عَملاً صالحاً﴾

فالعمل شرط أساسي في الإسلام القرآني ولاضرورة له في إسلام الصحيحين. وإليكم هذا الحديث أيضاً:

(لاحسد إلا في اثنتين رجلٍ آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق. وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها).

وهذا الحديث رواه مسلم والبخاري في صحيحيهما. وورد في مسند الإمام أحمد وهو موجود في مصادر كثيرة، هذا الحديث يستحيل أن يكون صحيحاً، مثلما يستحيل أن يكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد قاله، للأسباب الآتية:

- إن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عربي اللسان، وهو يعرف معنى الحسد لغة أكثر من أي شخص آخر، والحسد في لغة القرآن، وبدليل آيات القرآن الكريم: أن تتمنى زوال نعمة غيرك. فهل يعقل أن يعلّم الرسول الكريم الناس نقيض ماعلمه الله في القرآن؟ هل يعقل أن يعلمنا أن نحسد الرجل ذا المال ينفقه في الخير، فنحسده لزوال نعمته! أو نحسد رجلاً آتاه الله الحكمة واستخدمها في الخير، فنحسده حتى تزول نعمة الله عنه ما أعجب هذا الأمر وماأغربه! علماً أن آيات القرآن الكريم التي أتى بها الرسول نفسه تعلّم عكس ذلك تماماً. ففي القرآن أربع آيات سأذكرها كلها لتكون برهاناً على كذب الحديث السابق، المدون في الصحيحين وختاما لتعليقنا على هذا الحديث الباطل، يقول تعالى:

(*) من مقدمة التمهيد: لابن عبد البر ص١٤

﴿ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ﴾[١٧]، فالحسد عند الله شر كله لاخير فيه ﴿أمْ يَحسدونَ الناسَ على ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضلِهِ﴾[١٨]

ولكي نفهم سبب ورود الآيتين نذكر الآيات التي قبلها:

﴿ألم ترَ إلى الذين أوُتوا نصيباً من الكتابِ يؤمنون بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذينَ كَفروا هؤلاء أهدى من الذينَ آمنوا سبيلاً * أولئكَ الذينَ لَعَنَهُم اللّهُ ومنْ يَلعَنِ اللّهُ فَلنْ تجدَ لَهُ نصيراً * أمْ لَهم نَصيبٌ من المُلكِ فإذا لايؤتونَ الناسَ نقيراً * أمْ يَحسدونَ الناسَ على ما أتاهُم اللهُ مِنْ فَضلِهِ فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُم مُلكاً عظيماً﴾[١٩]

فالحسد في هذه الآيات شر كله كما هو معناه في الآيتين السابقتين، وهو نابع من نفوس شريرة لعنها الله لأنها تتمنى زوال نعمة الآخرين.

وقد ورد ذكر الحسد مرة ثالثة في قوله تعالى:

﴿سيقول المُخَلَّفون إذا انطلقتُم إلى مغانم لتأخذوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُم يريدونَ أَنْ يُبدِّلوا كلامَ اللّه قلْ لنْ تَتَّبِعونا كذلكم قالَ اللّهُ مِنْ قَبلُ فسيقولونَ بل تحسُدونَنا بلْ كانوا لايفقَهون إلّا قليلاً﴾[٢٠]

وموقف الله من الحسد في هذه الآية لايختلف عنه في الآيات السابقة، وجاء ذكر الحسد في القرآن الكريم مرة رابعة في قوله تعالى:

﴿ودَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يردونكُم من بعدِ إيمانِكم كفّاراً حَسَداً من عندِ أنفسِهِم من بعدِ ماتبيّنَ لَهم الحقّ فاعفوا واصفَحوا حتى يأتي اللهُ بأمرِهِ إنّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾[٢١]

والمعنى في هذه الآية واضح وضوح الشمس، فأهل الكتاب يتمنون زوال نعمة الإيمان عن المؤمنين ليعودوا كفاراً حسداً من أنفسهم.

وهكذا يتبين لنا أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم ليس له معلم سوى الله يعلمه معاني الكلمات ومقاصدها في القرآن الكريم، فكيف يخالف كل ماتعلمه في القرآن من ربه عن الحسد، ويقول للناس من عنده افتراء على الله وعلى المؤمنين أن الله يسمح لكم

---

(١٧) سورة الفلق: ٥
(١٨) سورة النساء: ٥٤
(١٩) سورة النساء: ٥١ ـ ٥٤
(٢٠) سورة الفتح: ١٥
(٢١) سورة البقرة: ١٠٩

أن تحسدوا فقط الغني المحسن والحكيم الذي آتاه الله الحكمة ويحكم بها بالعدل والخير؟ وإن كان هؤلاء يُحسدون؛ فَمَنْ بقي بعد هؤلاء ولايجوز أن نحسدهم ونتمنى زوال نعمتهم؟ أم يقولون على الله ما لايعلمون.

﴿فلعلَّكَ باخعٌ نفسَك على آثارِهم إنْ لَمْ يؤمنوا بِهذا الحَديثِ أَسَفاً﴾(٢٢)

﴿فجاؤوهم بالبيّناتِ فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به منْ قبل﴾(٢٣)

وقد يجد بعض الناس في كلامي مفاجأة لهم، لكنني لاآتي بشيء من عندي، فكلها آيات بينات في القرآن الكريم،حتى أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التي تطابق أوامر الله والقرآن مطابَقةً شديدة تصدق كل ماذهبنا إليه، إليكم أحد هذه الأوامر المرويّة عن الرسول صلى الله عليه وسلم: والتي برهنّا في بحث سابق على صحته بدليل استجابة الصحابة له ولاسيما الخلفاء الأربعة منهم وتنفيذهم مضمونه تنفيذاً تاماً، ولو لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أصدر هذا الأمر لما أحرق أبو بكر الصديق مثلاً الأحاديث التي تعب في جمعها وكتابتها. عن أبي سعيد الخدري روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (من كتب عني غير القرآن فليمحه) ويقول متابعاً: كنّا لانكتب إلا القرآن والتشهد)(*)

(وفي رواية ثانية عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لاتكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه)(**)

وكتب الدكتور محمد عجاج الخطيب معلقاً على الحديث:(***)

«وهذا الحديث أصح ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب، مثلما أورد الدكتور الخطيب أيضاً(****) الحديث الآتي: «عن أبي هريرة: خرج علينا الرسول صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث، فقال ماهذا الذي تكتبون قلنا أحاديث نسمعها منك قال: أكتابٌ مع كتاب الله. والله ما ضلَّت الأمم التي قبلكم إلّا بما اكتتبوا مع كتاب الله.» وهناك رواية ثالثة عن أبي سعيد الخدري تقول:

(جهدنا بالنبي صلى الله عليه وسلم يأذن لنا في الكتاب فأبى) وفي رواية أخرى عنه

(*) تقييد العلم: ص٩٣

(**) صحيح مسلم.

(***) السنة قبل التدوين.

(****) المصدر نفسه، وتقييد العلم: ص٣٤

(٢٢) سورة الكهف: ٦ (٢٣) سورة يونس: ٧٤

أيضاً (أستأذنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فلم يأذن لنا)(*****)

وهكذا نجد ثلاثة روايات لمحدث واحد وفي موضوع واحد وكلها لاتسمح بالكتابة وتأمر من كتب بأن يمحو ماكتبه. نحن المسلمين نعلم أن إطاعة الرسول من إطاعة الله. كما في الآية الكريمة ﴿مَنْ يُطع الرسولَ فقد أطاعَ اللّه﴾[٢٤]

ونحن المسلمين أأطعنا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر الدائم وقدرنا حرصه صلى الله عليه وسلم وخوفه من أن تتحول رواية الأحاديث عنه إلى إيجاد كتاب آخر غير كتاب الله أم فعلنا تماماً، بفضل الشيطان، ماكان يخاف منه الرسول الكريم. أم نتعلل بقوله تعالى: ﴿سيقولُ الذين أشرَكوا لَو شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا﴾[٢٥] أو نقول: (بَلْ قالوا إنّا وجدْنا آباءَنا على أمةٍ وإنّا على آثارِهم مهتدونَ﴾[٢٦]

أم نقول ﴿لو شاء الله ما أَشْرَكْنا ولا آباؤنا ولاحرمْنا من شيءٍ﴾[٢٧]

﴿أوَ تقولوا إنّما أَشركَ آباؤنا من قبل وكنّا ذريةً من بعدِهِم﴾[٢٨]

غير أننا يجب ألا ننسى أيضاً ماقاله الله سبحانه عن المشركين. ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾[٢٩]

﴿إنّ اللّهَ لايغفرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويغفرُ مادونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾[٣٠]

أو ليس من الأفضل لنا أن نترك الأوهام والأباطيل التي ضيعتنا مدة ألف سنة وأبعدتنا عن نور الله وحقه وهداه، ونؤمن بالله وحده ولانشرك به أحداً ، بشعور أو بلا شعور من أنفسنا ونعود لقرآننا المهجور ونقول:

﴿وقالوا الحمدُ للّه الذي هَدانا لهذا وما كنّا لنهتديَ لَولا أَنْ هدانا اللّهُ﴾[٣١]

صدق الله العظيم.

قد يسأل سائل منا السؤال المعترض الآتي:

- إذا نصب اليوم المسلمون في كل أقطار العالم المحارق في مدنهم وأحرقوا كل الكتب التي فيها الأحاديث التي نهى الرسول (ص) عن كتابتها هل ستنتهي حالة الإشراك التي هم فيها وتتحسن أمورهم ويزول غضب الله عنهم؟ ويعيش المسلمون بعدها في ثبات

(*****) تقييد العلم: لابن عبد البر ص٣٤

(٢٤) سورة النساء: ٨٠
(٢٥) سورة الأنعام: ١٤٨
(٢٦) سورة الزخرف: ٢٢
(٢٧) سورة الأنعام: ١٤٨
(٢٨) سورة الأعراف: ١٧٣
(٢٩) سورة المائدة: ٧٢
(٣٠) سورة النساء: ٤٨
(٣١) سورة الأعراف: ٤٣

ونبات كما يقولون؟ الجواب: لن يزول شيء ولن يتحسن شيء. ستبقى الأمور على ماهي إن لم تزد الأمور سوءاً ويزداد الناس ضلالاً. لماذا؟؟؟

إن حالة الإشراك موجودة داخل النفس الإنسانية وليس خارجها، ولذا فإن مجال التغيير أيضاً ينطلق من داخل النفس وليس من خارجها، والله سبحانه وتعالى قد دلّنا تماماً أين يجب أن يحصل التغيير في الآية الكريمة:

﴿إنَّ اللّهَ لايغيّر الله مابقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾(٣٢)

وأوهامنا موجودة في رؤوسنا، وليست موجودة خارجها، فلاأوهام خارج النفس كل شيء هناك حقائق ناصعة براقة تسبّح باسم ربها: الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار ومخلوقات الله الأخرى تسعى لتحصيل رزقها كل يوم صباحاً، مشكلة الإشراك قائمة في موقف المسلمين من فهم النص المقدس سواء في القرآن الكريم أم في غيره، فهماً شيطانياً وهمياً وباطلاً، كأن يفهم المسلم أن الأرزاق مقسومة ومكتوبة، بمعنى أن كل شخص سواء سعى أم لم يسعى سوف يصل إليه رزقه المقسوم له والمكتوب باسمه عند الله سبحانه، وهذا الفهم يناقض القرآن الكريم ـ لأن من يقرأ القرآن يعلم أن مفتاح الرزق عند الله هو الماء الذي يتحول إلى رزق والله ينزله بقدر محسوب بحسابات خاصة به لأنه يعلم عدد خلقه ولانعلمه نحن، ولذلك فإذا سعى الإنسان لتحصيل رزقه لن يخيب سعيه لأن رزقه كما وعد الله محسوبٌ وموجود. لننظر إلى الآيات التالية:

﴿لانسألُكَ رزقاً نحن نرزقُكَ﴾(٣٣)

﴿لاتقتلوا أولادَكُم خشيةَ إملاقٍ نَحنُ نُرزقهُم وإيّاكُم﴾(٣٤)

﴿أمن هذا الذي يرزُقكم إنْ أَمسَكَ رِزقَه﴾(٣٥)

ما الرزق الذي يتحدث عنه تعالى في هذه الآية؟ إنه الماء ينزل من السماء رزقاً والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وما أنزلَ اللّهُ من السماءِ من رزقٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها﴾(٣٦)

فإذا تفكر الإنسان في هذه الآية وجد أن كل مايسميه الإنسان مالاً أصله من الماء الذي أنزله الله سبحانه على الناس رزقاً ورحمة للعالمين، ولولاه لانتهى كل شيء. والله

---

(٣٢) سورة الرعد: ١١ (٣٤) سورة الإسراء: ٣١ (٣٦) سورة الجاثية: ٥
(٣٣) سورة طه: ١٣٢ (٣٥) سورة الملك: ٢١

سبحانه يعلم، ونحن لانعلم لو أنه أنزل من هذا الرزق أكثر من اللازم ما الذي سيقع؟ وماذا يحدث لو بسط الله الرزق لعباده؟ ﴿ولو بسطَ اللّه الرزقَ لعبادِهِ لبَغَوا في الأرضِ﴾(٣٧)

المهم أن يفهم الإنسان هذه الآيات كلها فهماً حقيقياً لاوهم فيه، لكي يعلم من الأمثلة والآيات القرآنية كيف يمكن أن يحصل رزقه في هذه الأرض.

ويذهب العلماء اليوم بحسب نتائج الدراسات التي توصلوا إليها ماتنتجه الأرض من الأرزاق من لحوم أو مزروعات تتحول إلى طعام بشري، وبعد خمس وعشرين سنة من الآن، وبتقدير ماسوف يكون عليه العالم من الكثافة السكانية، تبين لهم أن منتوجات الأرض من هذه الأرزاق لن تكفي الناس آنذاك، وهم يقولون هذا الكلام لأنهم يجهلون أساساً أن الله سوف يزيد عندها كما وعدنا في القرآن الكريم من نسبة الأمطار على الأرض زيادة تفي بزيادة السكان على الأرض، لذلك يقول لنا كما أوضحنا سابقاً: ﴿ولاتقتلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحن نرزقُهم وإيّاكُم﴾(٣٨) فالله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب كله وهو يعلم أنه سوف يأتي يوم يجلس فيه علماء الأرض ليتباحثوا في السماح للنساء بالإجهاض، وقتل مافي أرحامهن من الأولاد، خوف الفقر والجوع، فيقول لهم سبحانه: لاتقتلوا هؤلاء الأولاد خوفاً من الفقر والجوع أنا قد حسبت حسابهم، وسوف أنزل من الأمطار مايكفي رزقهم وعيالكم، فلاتخافوا من ذلك أبداً..

ولنستمع إلى هذه الآية الكريمة:

﴿وكَأَيِّنْ من دابةٍ لاتحمِلُ رزقَها اللّهُ يرزقُها وإيّاكُم﴾(٣٩)

﴿وماأنزلَ اللهُ من السماءِ من رزقٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها﴾(٤٠)

ماذا ينزل الله من السماء من رزق يحيي به الأرض بعد موتها سوى الماء؟

فالله سبحانه وتعالى يقول للإنسان انظر لأي دابة في الأرض إنها لاتحمل رزقها ولاتجمع ماتأكله غداً، لكنها منذ الصباح الباكر في كل يوم جديد تسعى لتحصيل رزقها، وتعود مساء وقد شبعت ـ وإذا راقب الإنسان ولاحظ وجد أن بعض الحيوانات تحصل على رزقها بسهولة فتتكاثر أكثر كالأرانب مثلاً، ثم نجد حيوانات أخرى كالسباع لاتحصل على رزقها بسهولة ويُسر؛ بل الأمر يحتاج إلى تدريب من الأب

---

(٣٧) سورة الشورى: ٢٧

(٣٨) سورة الإسراء: ٣١

(٣٩) سورة العنكبوت: ٦٠

(٤٠) سورة الجاثية: ٥

والأم وحيلة وتدبير، زرعها الله فيها غريزة لكي تحتال لرزقها، وكلنا نعلم أن تحصيل الإنسان رزقه يتطلب سعياً وتدبيراً، والقرآن الكريم لخلوه من أي وهم فهو المصدر الصحيح للمؤمن شريطة ألا يدخل الوهم في أسلوب فهمه لآيات القرآن.

ولذلك: يجب أن نفهم الأعمار فهماً حقيقياً وليس وهمياً.

ويجب أن نفهم الأعمال فهماً حقيقياً وليس وهمياً.

ويجب أن نفهم قضاء الله فهماً حقيقياً وليس وهمياً.

ويجب أن نفهم قدر الله فهماً حقيقياً وليس وهمياً.

ويجب أن نفهم مشيئة الله فهماً حقيقياً وليس وهمياً.

إن فهم كل هذه الأمور على حقيقتها القرآنية بعيداً عن الوهم ستحررنا من السجن الذي وضعنا عقولنا فيه لنخرج للحياة، حيث النور والشمس والرزق، والخير أيضاً الذي يسهل لنا القيام بالعمل الصالح والابتعاد عن الفساد والإفساد في الأرض، آنذاك نفهم معنى قوله تعالى: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فهماً صحيحاً. لافهماً باطلاً كما يفعل بعض الناس بأن يقفوا في الشارع يقاتلون الناس ويريدون أن يعلموهم دينهم، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، وكأنّ الله سبحانه وتعالى قد سلّطهم على رقاب الناس لإصلاحهم، أو يكفّرون من لايعجبهم، أو يقتلونه إذا فقدوا الأمل في إصلاحه، ﴿ويَدْرؤونَ بالحسنةِ السيئة وممّا رزقناهُم يُنفقون﴾[٤١].

صدق الله العظيم.

---

(٤١) سورة القصص: ٥٤

٨٦ ـ كيف تتشكل أفكار المشرك وأعماله ومشاريعه وكيف يوجهها؟

بما أن المشرك يعيش في حالة وهم كاملة فإن كل الأفكار والمشاريع الاستثمارية للمشرك تكون أيضاً وهمية.

والمشركون كأفراد بمجموعهم يشكّلون مجتمعاتٍ من المشركين تكون لها صفات مميزة خاصة:

١ ـ من أهم صفات المجتمع المشرك: الكذب الذي يصبح صفة عامة وطبيعية فيه مثلما يصبح الصدق حالة شاذة ونادرة، والصادق في مثل هذا المجتمع يوصَف بصفات خاصة: (مسكين ـ درويش ـ على نياته ـ قلبه طيب ـ ابن حلال..) وهذه كلها صفات تقال في معرض الذم ـ ولايحب أن يتصف بها أحد من المشركين.

٢ ـ الصفة الثانية: النفاق والرياء لأصحاب السلطة والمال خاصة تقرباً وتحسباً.

٣ ـ الصفة الثالثة: الغيبة والنميمة فالشاغل الأول والأخير للناس الكلام بعد أن تركوا الأفعال ـ صراعهم وخصوماتهم التافهة ومشاكلهم سببها الرئيسي الكلام الذي لانهاية له.

٤ ـ الصفة الرابعة: الحسد، يتمنون زوال كل النعم حتى يصبحوا سواء.

٥ ـ الصفة الخامسة: سوء الظن، الكل يسيء الظن بالكل، الشك وسوء الظن حالة عامة ومميزة للمجتمع المشرك.

٦ ـ الجبن والخوف من الموت وجبن المشرك ناتج عن أوهامه وتخّيلاته فهناك أشياء وهمية، ومخاوف كثيرة موجودة في ذهنه لاوجود حقيقي لها، ومن أكبرها الخوف من الموت نتيجة الأوهام الكثيرة التي يحملها من عذاب القبر وتعذيب الله للناس في القبور.

٧ ـ عبادات المشرك كلها نظرية تقع خارج النفس، يصلي ولايدفع الزكاة، يصوم عن الطعام ولايصوم عن الكذب وهي تقريباً أهم الصفات المشتركة والعامة ضمن المجتمع الذي وقع فيه الإشراك الخفي ـ لأن كل الأفراد أيضاً يقولون (أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وغالباً يؤدون الصلاة في أوقاتها، والصوم في رمضان ولكن عبادتهم لاتدخل عميقاً إلى نفوسهم فلا تغير منها شيئاً مذكوراً. ويحجون إلى بيت الله ولأكثر من مرة أحياناً. ولايشربون غالباً الخمرة، ولايأكلون لحم الخنزير، ويحرمون ماحرم الله، وهم يظنون أنفسهم مؤمنين صالحين مصلحين في الأرض

ولكنهم مشركون وهم لايشعرون.
﴿وإذا قِيلَ لهم لاتُفسدوا في الأرضِ قالوا إنّما نحنُ مُصلِحونَ* ألآإنهم هم المفسدون ولكنْ لايشعرونَ﴾(١)

ونتيجة لتلك الصفات العامة المشتركة السابقة يتحول الفرد المشرك إلى كائن انفرادي قوته في فرديته كالزنبور إذا ماقارناه بالنحل. فالنحلة ضعيفة لاحيلة لها لوحدها. وقوّتها في اجتماعها، وعملها المنظم ضمن خلية نحل، أما الزنبور فقوته في فرديته، ومجموع الزنابير في العالم قوتهم تساوي قوة زنبور واحد لأنها فردية السلوك.

لذلك فإن كل المشاريع والأعمال التي يمكن أن تظهر ضمن المجتمع المشرك مشاريع فردية ليس للشركات وجود في هذا المجتمع، وإن ظهرت سرعان ماتزول نتيجة للصفات العامة السابقة من الكذب وسوء الظن والحسد. وحتى لو نجحت فإنها تزول أسرع ممّا لو أخفقت.

والأفراد نتيجة عدم ميلهم للاستثمارات وعدم ثقتهم بالشركات يحولون مدخراتهم إلى ذهب، وهم لايعلمون بأن الذهب معدن ليس له قيمة ذاتية، وقيمة الذهب الفعلية تحسب بقيمة العمل الذي بذل لاستخراجه من الأرض، فيعود المشرك ليدفع هذه القيمة من أجل أن يُعيد دفنَه من جديد تحت الأرض أو يضعه في معصمي زوجته أو بناته وهو لايعلم أنه بذلك يقتل ويدفن الثروة القومية كلها وينهي فعاليتها، وهو لايعلم أنه بعمله الذي قد يبدو بسيطاً يسهم بشكل فعال في حالة البؤس والفقر التي يعيش فيها مجتمعه كله، نتيجة قلة الأعمال والمشاريع في البلد، فتنتشر البطالة، ومع البطالة تظهر كل أنواع الشرور الأخرى مثل المخدرات والمشروبات الكحولية، والدعارة، وجرائم السرقة والاحتيال والنصب، فيتحول المجتمع إلى بؤرةٍ للفساد وكأن أفراده ديدان تجمعت داخل جيفة ليأكل بعضُها بعضاً إن لم تجد ماتأكله.

لنتصور أن ذلك يحصل للأفراد ظلماً لأنفسهم من أوهامهم التي يحملونها في رؤوسهم على أنها حقائق، وكتاب الحقائق ومنهج الرحمن على بعد أمتار من كل واحد منهم ولايلجأ إليه منقذاً له، هل هناك في العالم كله ظلم للذات أشد من ذلك؟

﴿فما كان اللهُ ليظلِمَهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلمونَ﴾(٢)
﴿وماظلَمَهُم اللهُ ولكنْ أنفسهم يظلمون﴾(٣)
صدق الله العظيم.

(١) سورة البقرة: ١١ - ١٢ (٢) سورة التوبة: ٧٠ (٣) سورة آل عمران: ١١٧

٨٧ ـ أيها المسلم هل تشرك بالله سبحانه وتعالى؟ من غير أن تعلم؟

بدليل آيات القرآن الكريم

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ومايؤمِنُ أكثرُهم بالّله إلاّ وهم مشركون﴾(١)

وإن قراءتك هذا الكتاب الذي هو دراسة جادة بأسلوب العقل والمنطق واستخدامك القرآن الكريم آيات شواهد وبراهين لموضوعات كثيرة منها المعتقدات الوهمية الطاغية على تفكير مسلمي اليوم من دون أن يكون لديهم دليل عليها إلا ماكتبه السلف الصالح. وكله من الوهم الكبير الذي يجب أن نتخلص منه اليوم قبل الغد. أيقدّم السلف الإشراك بالله للخَلَفِ عادةً أم يقدّم لهم الإيمان الصافي الشافي الوافي - من غير شوبٍ ولااختلاط؟

نستطيع أن نبحث ذلك كلّه بدليل آيات القرآن الكريم بحثاً خاصاً مستقلاً، ونحتكم إلى رأي الله سبحانه وتعالى من غير الرجوع إلى آراء البشر المعرضين للخطأ والسهو والنسيان بسهولة. ولكي نكتشف الحقيقة علينا أن نلاحظ ماوقع للناس من قبلنا في الماضي حيث عاشت أقوام سبقتنا في العالم، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها في القرآن الكريم، ومع أن الله عز وجل كان ولازال في كل الرسالات يأمر الناس وينصحهم ولاسيما الذين يحبون أن يؤمنوا بالله وحده، ويقول لهم:

﴿قل إنّما أُمِرتُ أنْ أعبدَ اللّهَ ولاأُشْرِكُ به إليه أدعو وإليه مآب﴾(٢)

﴿قلْ إنّي أُمرتُ أنْ أكونَ أولَ منْ أسلمَ ولاتكُونن من المشركينَ﴾(٣)

لكن الناس الذين يقعون في الإشراك الخفي لايعلمون أنهم يشركون بالله، فما سيكون دفاعهم عن أنفسهم إن سألهم سبحانه يوم القيامة لماذا كنتم تشركون:

﴿ثم لمْ تَكُنْ فتنتهُم إلاّ أنْ قالوا واللهِ رّبنا ماكنّا مشرِكينَ﴾(٤)

والله سبحانه وتعالى يعد الشرك من أكبر الكبائر التي يقع فيها الإنسان، لذلك يضعه

---

(١) سورة يوسف: ١٠٦

(٢) سورة الرعد: ٣٦

(٣) سورة الأنعام: ١٤

(٤) سورة الأنعام: ٢٣

الله سبحانه وتعالى في رأس قائمة الكبائر.

﴿ومن يُشرِكْ باللهِ فقد افترى إثماً عظيماً﴾(٥)

والله سبحانه وتعالى يعلم أن المسلم والمؤمن إذا لم يحترزا على الدوام فمن السهل أن يقعا في الإشراك بسهولة والمشركون يفهمون غالباً آيات الله بأسلوب وهمي ولايعلمون أن الله سبحانه قد سبقت مشيئته إعطاء الإنسان الحرية والإرادة فيما يتعلق باختيار الكفر أو الإيمان أو الإشراك بالله، لذلك سوف يتحججون قائلين: ﴿لو شاءَ اللهُ ما أشرَكْنا ولاآباؤُنا﴾(٦)

أو يلومون آباءهم وشيوخهم بأنهم هم الذين أضلوهم

﴿أو تقولوا إنّما أشرَكَ آباؤنا من قبل وكنّا ذريةً من بعدِهِم﴾(٧)

والله سبحانه يعلم أنه لو شاء ألا يشركوا، وكانت إرادته من الأساس ألا يعطيهم الحرية والإرادة والمشيئة الأولى لما استطاع أحد منهم أن يشرك بالله أحداً:

﴿ولو شاءَ اللهُ ماأشْرَكوا﴾(٨)

لو شاء الله لآمن من في الأرض جميعاً كما حصل للملائكة، لأن الله سبحانه وتعالى لم يعطهم حرية الاختيار أصلاً:

﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كلّهم جميعاً﴾(٩)

لكن شاء الله الذي يفعل مايريد أن يعطي الجن والإنس على الأرض حرية اختيار الكفر أوالإيمان. وجعل المؤمن الذي لايحرص على نقاء عقيدته ولايرعاها تحت مراقبته وملاحظته. يقع في الإشراك الخفي من دون شعور منه ولا إدراك.

فالله سبحانه وتعالى يحذر المؤمن على الدوام من الظن والظنون، فهي مصدر الشرور أبداً أما العلم والحق والنور فهي مصدر الخير أبداً والمؤمن يجب أن يتبع قاعدة الشك بما يسمع. فالشك هو دائماً مفتاح اليقين.

فمن يحسب أن شيخه لايخطئ ولايكذب لأنه يتوقع منه الخير على الدوام يقع في خطأ كبير:

﴿وأنّا ظننّا أن لنْ تقولَ الإنسُ والجنُّ على الله كذباً﴾(١٠)

---

(٥) سورة النساء: ٤٨
(٦) سورة الأنعام: ١٤٨
(٧) سورة الأعراف: ١٧٣
(٨) سورة الأنعام: ١٠٧
(٩) سورة يونس: ٩٩
(١٠) سورة الجن: ٥

والعلم دائماً لايقبل بالظن لأن العلم يقين وغير العلم وهمٌ وظن:

﴿ومالهمْ بذلك من علم إنْ همْ إلاّ يظنّونَ﴾(١١)

﴿إن يتّبعونَ إلاّ الظّنّ﴾(١٢)

﴿ومايتّبعُ أكثرُهم إلاّ ظناً إنّ الظّنَّ لايُغني من الحقِ شيئاً﴾(١٣)

والإشراك قد يقع من الإنسان حتى إذا لم يشرك بالله إلهاً آخر(*) فمشركو مكة مثلاً نراهم، من خلال آيات الله في القرآن الكريم يؤمنون بالله لكنهم كانوا يجعلون مع الله شفعاء من الملائكة الذين كانوا يعتقدون أنهم من الإناث، ولهذا أشركوا بالله، لكن الذي يجعل مع كتاب الله كتاباً آخر أيضاً يشرك بالله، والذي يعتقد أن هناك سنة أخرى مع سنة الله مع عدم وجودها في القرآن الكريم وفي آياته أيضاً يشرك بالله، وإشراكه يأتي من باب الظنون وليس من باب العلم، لأن القرآن وآياته خالية من أي حديث لله إلا حديثه ومن أي سنة إلا سنته ومن أي كلام إلا كلامه فمن يجعل من المسلمين للرسول حديثاً وسنة وكلاماً غير الذي ورد ذكره في القرآن الكريم يكون قد وقع في إشراك صريح واضح بالنسبة لله وإن كان خفياً بالنسبة للمسلم نتيجة جهله وأوهامه وظنونه التي لاأساس لها من الصحة أبداً.

بالنسبة لنا نحن المسلمين يُعدّ إبراهيم عليه السلام أبا الرسل والأنبياء فماذا قال سبحانه وتعالى عن الإشراك في قوم إبراهيم، وفي أيام إبراهيم عليه السلام؟ ﴿وحاجّه قومُه قالَ أتحاجّوني في اللهِ وقد هداني ولاأخافُ ماتشرِكونَ به إلا أنْ يشاءَ ربّي شيئاً وسعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكرون* وكيفَ أخافُ ما أشركْتُم ولاتخافونَ أنّكم أشركتُم باللّه مالمْ ينزّل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقينِ أحقّ بالأمنِ إن كنتم تعلمونَ﴾(١٤)

وهكذا تجد كما في هذه الآية أن الذي يحاجج بآيات الله وبقرآنه الكريم ويتخذ من كتاب الله شاهداً له يكون على الدوام في الحصن الأقوى، لوجوده مع الله في ذلك المكان، وهو يحاجج باقي الناس من المسلمين الذين يتخذون الظنون والأوهام دفاعاً عن معتقداتهم، وسبباً لإشراكهم بحديث الرسول وسنته وكلامه ظناً منهم أن مايدعون هم وشيوخهم صحيح من دون أن يعودوا لآيات الله في القرآن ليتركوا لتلك الآيات القول

(*) والإشراك قد يق من الإنسان حتى إذا لم يشرك بالله إلهاً آخر.

(١١) سورة الجاثية: ٢٤ — (١٣) سورة يونس: ٣٦

(١٢) سورة الأنعام: ١١٦ — (١٤) سورة الأنعام: ٨٠ ـ ٨١

الفصل فيعودوا لحصن الله وقلعته، كما كان الرسول وصحبه أيام كانوا فرقة واحدة وحزباً واحداً وكلهم مع الله سبحانه وتعالى، أفلا يرون أن كل مامعهم من أوهام وروايات تناقض بعضها بعضاً ويختلف بعضها عن بعض ولاتتفق؟ وكل رواية تضرب وتعاكس الرواية الأخرى؟ ألا يرون أن الله سبحانه يقول لهم الكلمة الفصل عندما يعطيهم الميزان الصحيح في مثل تلك الأحوال ليكون ذلك الميزان هو الحكم الفصل والنهائي؟ ألم يقرؤوا بعد الآية الكريمة التي تقول:

﴿ولو كانَ من عندِ غيرِ اللّه لَوَجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(١٥)

لو كانت تلك الأحاديث المدرجة في صحيح البخاري أو مسلم وحياً من الله لكانت مثل القرآن تماماً، ليس فيها مايناقض العلم ولامايناقض آيات القرآن الكريم وليس فيها روايات مختلفة وكل رواية تناقض أختها. بينما لانجد في القرآن أباطيل وليس فيه ظنون وأوهام. بل كله حقائق نورانية.

والعلم الحديث اليوم يثبت ذلك كله للقرآن، ويثبت عكسه للأحاديث، فليس من تفسير لكل هذا إلا ماقاله الله سبحانه وتعالى من أن القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وهذا فعلاً مانجده في كل الأحاديث تقريباً. وسوف أبرهن ذلك في كتابي الثاني (دين السلطان) على صحيح البخاري وصحيح مسلم والله الموفق دائماً.

فهل توقف أهل الكتاب عند ذلك الحدّ؟

أبداً، وإنما غالوا برفع رسولهم ظناً أنهم بذلك يحسنون صنعاً، فألّهوه، وجعلوه شريكاً كاملاً لله سبحانه وتعالى:

﴿قالوا إنّ اللهَ هوَ المسيحُ ابنُ مريمَ﴾(١٦)

كذلك اتخذوا رهبانهم أرباباً من دون الله، يسمعون كلامهم ويصدقونهم دون الله سبحانه:

﴿اتّخذوا أَحبارَهُم ورُهبانَهُم أرباباً من دونِ الله، والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لاإله إلّا هوَ سُبحانَه عمّا يُشركونَ﴾(١٧)

الله سبحانه يبين في كتابه لهم ألا يعبدوا إلا الله، بينما هم وبما أضافوه على تلك الكتب من الظنون والأوهام جعلوا أحبارهم ورهبانهم مع المسيح أرباباً من دون الله.

---

(١٥) سورة النساء: ٨٢ (١٦) سورة المائدة: ١٧ (١٧) سورة التوبة: ٣١

وهذه حقيقة جلية لنا نحن المسلمين، ونظن أننا لم نفعل مثلهم. ولكنّا قد فعلنا ونحن لانعلم.

فالله سبحانه وتعالى يقول لنا الحق في القرآن الكريم، نحن إلى اليوم لانقول إلاّ ظنوناً وأوهاماً وأباطيل، في آلاف الأحاديث من الروايات التي نروي ظلماً وبهتاناً باسم الرسول، تماماً كما فعل أهل الكتاب برسولهم، إذ جعلوه إلهاً مع الله. ولسنا بأفضل من أهل الكتاب في هذا المجال في شيء، هم أشركوا بالله الرسول، ونحن أيضاً أشركنا بالله الرسول، بالحديث والسنة بأن أوجدنا كتاباً مع كتاب الله، وهو الذي يقول لنا: لايستطيع رسول أن يأتي بآية من عنده دون إذن الله ـ ونحن نقول: لا.. بل إن رسولنا قام بمعجزات وآيات كثيرة، وليس لنا دليل في القرآن يثبت ذلك.. بينما آيات عيسى وموسى كلها مذكورة بالتفصيل في القرآن. وماهو الأهم للمسلم؟ ذِكرُ آيات محمد ﷺ ومعجزاته إن وجدت له آيات ومعجزات؟ أم ذِكرُ آيات ومعجزات موسى وعيسى؟ ماذا يقول العقل والمنطق في الأهم؟.

ونحن إذ نقول: إن رسولنا شارك الله في كل غيبه، وعلم كل أسرار الله في السماء، وحدّث عنها بالتفصيل، نجد الله سبحانه وتعالى يهدم كلامنا كله من أساسه في القرآن الكريم وبآياتٍ صريحة.. فيقول:

﴿قلْ لايعلمُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا الله﴾[١٨]

﴿عالم الغيبِ فلا يَظهَرُ عَلى غَيبِهِ أحداً﴾[١٩]

كذلك نجد في القرآن الكريم آيات صريحة تقول:

﴿قلْ لا أَقولُ لكم عندي خزائنُ اللّهِ ولا أَعلمُ الغيبَ﴾[٢٠]

﴿ولو كنتُ أَعلمُ الغَيبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِن الخيرِ﴾[٢١]

أهل الكتاب حرفوا كتبهم، وكتبوا مايشاؤون فيها، بدوافع كثيرة ومختلفة كالكذب والوصولية وحسن النية، كذلك فعلنا نحن، لكن ليس في كتابنا، لأن الله سبحانه وتعالى عصم كتابه عنا، وإنما فعلنا مثلهم وأكثر في مجال آخر، حين جعلنا أو خلقنا وهماً وكذباً كتاباً آخر مع كتاب الله، ووضعنا في ذلك الكتاب كل ظنوننا وأوهامنا. والآن لو قارن المؤمن المتبصر بالعلم والنظرة العلمية بين الكتابين ـ كتاب الله الناطق

---

(١٨) سورة النمل: ٦٥

(١٩) سورة الجن: ٢٦

(٢٠) سورة الأنعام: ٥٠

(٢١) سورة الأعراف: ١٨٨

بالحق والحقائق والنور والهداية، وكتابٍ آخر لايمت لله وللقرآن بشيء، لأنه أوهام وظنون، ومناقضٌ للحق والحقائق والنور والهداية - لوجد اختلافاً كثيراً، لأن كتاب الله ينطق بالحق، وهو ميزان كشفه من الخبث والأباطيل فيقول:

﴿ولو كانَ من عند غير اللّه لوجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(٢٢)

ونحن لانجد إلا الاختلاف الكثير، وليس بعد الله في هذا الموضوع حكم، فصدق الله العظيم في كل ماقاله لنا، وكذب الذين قالوا مايناقض كلام الله سبحانه من أوهام وأقاويل وظنون.

﴿فويلٌ للذينَ يَكتبونَ الكتابَ بأَيديهُم ثمَّ يقولونَ هذا من عندِ اللّه فويلٌ لهم مما كَتَبَتْ أيديهُم وَوَيلٌ لَهم ممّا يَكسبونَ﴾(٢٣)

أهل الحديث ورواته كانت مهنتهم رواية الأحاديث وكتابتها، فهم يرتزقون مما يرددون ويكتبون. وقالوا: إن ماكتبوه بأيديهم وحي آخر من عند الله مثل القرآن. وقالوا: إن كتاب الله هو القرآن، ومامعهم من الروايات والأقاويل كتابُ الحكمة، ظناً وظلماً، فهم قالوا عن أكاذيبهم: إنها من عند الله، تماماً كما فعل أهل الكتاب من قبلهم في تحريفاتهم. وهم أيضاً يظنون أن الله سبحانه وتعالى لايقصدهم في هذه الآية:

﴿فويلٌ يومئذ للمكذّبين﴾(٢٤)

بينما هي تنطبق عليهم الانطباق التام، وهم لايختلفون عمّا فعله أهل الكتاب قبلهم في شيء. وقد نسوا أن الله عز وجل يقول عن نفسه:

﴿ومَنْ أَصدقُ مِن اللّهِ حديثاً﴾(٢٥)

فهو بذلك يعلمنا أن حديثه أصدق من أحاديث البخاري ومسلم، لأنه عزّ وجل الذي يعلم الغيب، وعلم أننا سنقع في مشكلة الأحاديث، التي ستكون سبباً في إشراك المسلمين في مستقبل الأيام.

﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾(٢٦)

صدق الله العظيم.

---

(٢٢) سورة النساء: ٨٢
(٢٣) سورة البقرة: ٧٩
(٢٤) سورة الطور: ١١
(٢٥) سورة النساء: ٨٧
(٢٦) سورة الجاثية: ٦

٨٨ ـ ماهو سبب غضب الله الشديد على المشرك وأكثر من الكافر؟

قلنا سابقاً: إن غضب الله سبحانه غير ناتج عن تحسس خاص من الإشراك به، أو إتيان المشرك مايضرّ الله.. إذ ليس في هذا الكون من مخلوق بقادر على أن ينفع أو يضر الله في شيء. فالإنسان مثلاً حين يقول: إنه ضحى لوجه الله بأضحية أو تقدم بقربان، فما الذي ينال الله من قربان وأضحية العبد؟:

﴿لن ينالَ اللهَ لحومُها ولادماؤها ولكنْ ينالُه التّقوى منكم﴾(١)

فالله عز وجل يبحث عن تقوى العبد ومسلكه طريقَ الصلاح الذي يختاره بنفسه وبحريته المطلقة، لكن المشرك لأوهامه وضلاله سواءَ السبيل يظلم نفسه دون علم منه. مثال ذلك: الغني البخيل، يحرم نفسه من ماله لشعوره أن بقاء ماله سيضمن بقاءه حياً، ولأن لديه شعوراً وهمياً أن المال سبب بقاء الكائن حياً ومن دونه يموت جوعاً، فهذا وهم ولكنه موجود، لذلك يقول الله تعالى:

﴿يحسَبُ أنّ مالَه أَخلَدَهُ﴾(٢) ـ و«يحسب» هنا بمعنى الوهم والظن، وهي ليست حقيقة.

﴿وماتُنفقوا من خيرٍ فلأنفسِكُم﴾(٣)

والله عز وجل يريد من البخيل أن يصحو من وهمه، لأنه سيموت حتماً ويترك ماله الذي تعب في جمعه، ولم يدع أحداً ينتفع منه، لذلك يقول الله تعالى:

﴿وأَنفِقوا ممّا رزقْناكم من قبل أن يأتيَ أحدَكم الموتُ﴾(٤)

فبعد الموت لن ينفعه مال الأرض بشيء، لأن نصيبه منه انتهى، وصار لغيره. وهذا ظلم للنفس منشؤه الوهم.

كذلك الذي يفهم أن الله تعالى سوف يرسل له رزقه إلى باب داره لأنه مقسوم ونصيبه مكتوب عند الله من قبل أن يخلق، فيضرب الله له مثلاً بالحيوانات وبالطيور، هل تأتيها أرزاقها إلى أعشاشها أم أنها من صلاة الفجر تصحو لتبحث عن رزقها الذي وعدها الله

---

(١) سورة الحج: ٣٧
(٢) سورة الهمزة: ٣
(٣) سورة البقرة: ٢٧٢
(٤) سورة المنافقون: ١٠

به فتعود مساء وقد شبعت من رزق الله؟

والكافرون الذي يسمعون آيات القرآن الكريم يؤوّلونها تأويلات وهمية غير حقيقية فيقولون للمؤمنين:

﴿وإذا قيلَ لهم أنفِقوا ممّا رزَقَكُم اللّهُ قالَ الذين كفروا للّذين آمنوا أنُطعِمُ مَن لو يشاءُ اللّهُ أطعمَهُ﴾(٥)

لايقولونها إيماناً فالكافرون يعلمون أن الله لايرمي بالأرزاق لكل واحد نصيبه لكن الله تعالى يعلم أيضاً أن بين الناس فقراء فجعل لهم في أموال الأغنياء حقاً معلوماً، لأن أموال الأغنياء أصلاً من الرزق الحقيقي الذي أنزله الله من السماء بشكل مطر فصار خيراً أو رزقاً. وكذلك المؤمن المشرك بالأوهام إذا مرض ابنه اعتقد أن الأعمار بيد الله بأسلوب وهمي، واعتقد وهماً أيضاً أنه لن يصيب ابنه إلا ما قدر الله وقضى وكتب لابنه من قبل أن يخلقه فتركه حتى يموت، وهو لم يترك ابنه يموت بخلاً عليه بالمال وإنما وهماً أنه لن يصيبه مرض ولاموت إلا إذا كتب الله له، بينما بيّن له الله هذه الأمور في الآجال عندما شرحها له في آيات القرآن فسمع غيرها، فظن أنها أيضاً صحيحة ومن الله، فاعتقد بها وهماً وظلماً لنفسه. وكذلك من يكون عنده أرض خصبة أو معمل أو مصنع ورثه عن أبيه فيترك العمل ويلجأ للعبادة والصلاة والدعاء متوقفاً عن العمل الصالح الذي يعتبر من أهم العبادات، معتبراً أن رزقه أيضاً مقسوم ولأن هذه الدنيا فانية فيتوهم أن الله أمره أن ينسى نصيبه في هذه الدنيا فيزهد فيها اعتقاداً وهمياً منه طبعاً أن الله يحب الزهاد أكثر من العمال النشيطين الذين ينفعون الناس وينتفعون، فيظلم نفسه وأهله. وهكذا تستطيع أن تضرب أمثلة حتى الصباح وكلها ناتجة عن الأوهام الظالمة بدل الحقائق العادلة، والحقائق من الله والأوهام من الشيطان.

وغضب الله هنا مثل غضب الأب على ابنه الذي علمه في أحسن المدارس وصرف عليه حتى تخرج من أحسن الجامعات، ثم عندما يحين الوقت ليدخل مغترك الحياة ليقوم بالأعمال الصالحة وليؤدي دوره في إفادة نفسه والناس خيراً وصلاحاً، يتوقف ليضيع في الأوهام والأحلام فيصبح عالة على نفسه وعلى الناس ولم يعد فيه من خير لينفع نفسه قبل أن ينفع الناس. فهل تعجب بعد هذا من غضب الأب الذي لم يكن

(٥) سورة يس:٤٧

يتوقع من ابنه إلاّ أن يكون نافعاً لنفسه والناس؟ ولم يكن الأب ينتظر أية منفعة ذاتية أو خاصة لنفسه كأب.

ونحن المسلمين أوهامنا الحالية هي سبب ضعفنا، أوهامنا هي سبب تفرقنا وانقسامنا وجهلنا وفقرنا، وأوهامنا سبب كل المصائب التي نعاني منها فإلى متى ستبقى هذه الأوهام المسببة للمصائب عزيزة على نفوسنا؟ ومتى سنقول كفاناً نوماً يجب أن نصحو ونلتفت للحقائق التي في القرآن. لننجو من كل تلك المصائب والأوهام والأباطيل والظنون والروايات؟ فعندما نقول (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لايكفي أن نقولها بلساننا فقط، لأن هذه الجملة المكونة من أربع كلمات وحرفي جر ليست تعويذة سحرية تبعد الشياطين بقدرة الله، ولو شاء فعلها لكن ليس هذا هو المقصود بها. المقصود أن نبعد الباطل والأوهام من أذهاننا ونفوسنا ونحتفظ فيها دائماً فقط بالعلم الصحيح والمعرفة الصحيحة دون تدخل الوهم والباطل فيها وهو الشيطان.

لأن الوهم يخرب كل شيء حقيقي. وليس عند الله أوهام أرني مخلوقاً وهمياً للّه! ليس هناك مخلوقات وهمية. كلها مخلوقات حقيقية تقع في نور الله وفي كونه العريض الواسع. مقر الأوهام كلها في رؤوسنا، فإن تخلصنا من أوهامنا تخلصنا من إشراكنا ورجعنا مؤمنين بالله لانشرك به أحداً، وزال سبب غضب الله عنا ورضي الله عنا وعلينا ومنا، وأعادنا لديارنا وإلى أراضينا وأعطانا من رزقه الذي وعدنا في الدنيا وأعدّ لنا مايليق بنا أيضاً في الآخرة. وهذه هي الأمة التي يبحث عنها الله ويرضى عنها ويختارها من بين الأمم

﴿ولاتهِنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلَونَ إن كنتم مؤمنينَ﴾(٦)

(صدق الله العظيم)

---

(٦) سورة آل عمران: ١٣٩

٨٩ ـ من هم كفار الأمس وكفار اليوم بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿ومن كفَرَ فإنّ اللّهَ غنيٌّ عن العالمين﴾(١)

كلمة كفر من الكلمات الكثيرة الورود هي ومشتقاتها في القرآن الكريم، ولأهمية معنى الكلمة نتبيّن الفرق بينها وبين الإشراك والبعد القائم أيضاً بين الكفر والإيمان. ففي آيات القرآن الكريم تنتشر مئات الكلمات من مشتقات الكفر:

﴿هو الذي خلقَكُم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ﴾(٢)

﴿ومنْ كفَرَ فعليه كُفرُهُ ومن عَمِلَ صالحاً فلأنفسِهم يَمْهَدونَ﴾(٣)

﴿قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطرُّهُ إلى عذابِ النار﴾(٤)

﴿أفرأيتَ الذي كفَر بآياتنا وقال لأُوتينَّ مالاً وولداً﴾(٥)

فمن هم الكفار وماهي صفاتهم المميزة عن غيرهم بدليل آيات القرآن الكريم؟ تبين لنا من الدراسة السابقة أن الإشراك حالة مرضية تصيب المؤمنين نتيجة أوهام تأتيهم من الجهل، فكل حالات الزهد والتصوف التي نراها ماهي إلا حالات هروب من الواقع والحياة التي خلقها الله ليختبرنا فيها، فهرب هؤلاء من الدنيا باختيارهم هرباً من الامتحان والاختبار، ظناً منهم أنهم بذلك يكسبون الآخرة غير عالمين أنهم خسروا الدنيا والآخرة بفعلهم هذا وهروبهم من الاستخلاف في الأرض وحمل الأمانة بالإيمان والعمل الصالح. ومايعاكس ويعارض حالة الإيمان هي حالة الكفر، لذلك وجدنا أن الله سبحانه يقول:

﴿فمن شاءَ فليؤمن ومن شاءَ فليكفُر﴾(٦) لكنه سبحانه وتعالى لم يقل ومن شاء فليشرك، لأن الإشراك حالة مرضية طارئة على المؤمنين وليس على الكفار، علماً أن المشرك الذي يوالي كافراً يهديه الكافر إلى كفره فيصبح بذلك المشرك كافراً أيضاً فوق إشراكه.

ومن هنا يجب أن نعلم أن مايقابل المؤمن ويعاكسه دائماً الكافر، ومن يحارب المؤمن

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧ (٣) سورة الروم: ٤٤ (٥) سورة مريم: ٧٧

(٢) سورة التغابن: ٢٠ (٤) سورة البقرة: ١٢٦ (٦) سورة الكهف: ٢٩

هو الكافر ولذلك عندما يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿كلاّ بل تحبّون العاجِلَة﴾[7] والذين يحبون الدنيا والحياة العاجلة هم الكفار.

﴿وتحبّون المالَ حبّاً جمّاً﴾[8] والذين يحبون المال هم الكفار.

﴿لاتعتدوا إنّ الله لايحبّ المتعدينَ﴾[9] والمعتدون هم الكفار.

﴿والّله لايحبّ المفسدِينَ﴾[10] والمفسدون هم الكفار.

﴿لاتُسرفِوا إنّه لايحبُّ المسرفينَ﴾[11] والمسرفون هم الكفار.

﴿إنّ الّله لايحبّ الخائنينَ﴾[12] والخائنون هم الكفار.

وهكذا إذا عدت إلى الجدول الذي مررنا به سابقاً وذكرنا فيه ماذا يحب الله وماذا يكره فستجد أن صفات المؤمنين هي التي يحبها الله، وصفات الكفار هي التي يكرهها الله سبحانه، وأهم ميزة من ميزات الكفار أنهم يكفرون ببعض الكتاب ويؤمنون ببعض منه:

﴿أفَتؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتكفرونَ ببعض﴾[13]

ومنهم إبليس الذي كفر استكباراً فصار عدو الله والمؤمنين.

فبماذا يحبون أن يؤمنوا؟ وبماذا يحبون أن يكفروا؟ إنهم يحبّون الأشياء السهلة، كأن يصلوا مثلاً كل أسبوع مرة كما يفعل أهل الكتاب، يحبون أن يقولوا الشهادتين فقط وكل الأشياء السهلة في الإسلام والإيمان، ويكرهون أول مايكرهون:

١ ـ الزكاة ودفع الأموال للفقراء: لأنهم يحبون المال حباً جماً.

٢ ـ الصلاة: إلاّ أن تكون مخففة.

وبعد ذلك لابأس من الإسلام والإيمان.

والميزة الثانية للكفار هي: عدم إيمانهم بيوم البعث:

﴿زَعَمَ الذين كفروا أن لن يُبعثوا﴾[14]

﴿وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعةُ﴾[15]

---

(٧) سورة القيامة: ٢٠
(٨) سورة الفجر: ٢٠
(٩) سورة المائدة: ٨٧
(١٠) سورة المائدة: ٦٤
(١١) سورة الأنعام: ١٤١
(١٢) سورة الأنفال: ٥٨
(١٣) سورة البقرة: ٨٥
(١٤) سورة التغابن: ٧
(١٥) سورة سبأ: ٣

﴿وقال الذين كفروا أَئِذا كنّا تُراباً وآباؤنا لَمُخرَجون﴾(١٦)

البعث والحساب من جديد هذا الموضوع، لايستطيعون تصوره في مخيلتهم القصيرة الإدارك، فهم يؤمنون بهذه الدنيا فقط، فمن نالها كسب ومن خسرها خسر كل شيء. هذا هو اعتقادهم ومن هنا يأتي سعيهم وتعلقهم الشديد بالمال والحياة الدنيا، لدرجة أن يتحول فيها المال إلى معبود حقيقي لهم. هذه حالة يمكن ملاحظتها الآن في العالم الغربي كله، فهي حضارة الكفر في الأرض - وحضارة المادة والمال والبنوك. لذلك نجد من صفات الكافر أنه إنسان نشيط فعال، يستخدم كل ماأوتي من مواهب وعقل وذكاء ودهاء وعلم في سبيل هذه الحياة الدنيا. فهم يعرفون الحقيقة ويفصلونها تماماً عن الوهم، وليست أفكارهم ناتجة عن أوهام كالمشركين، لكن عدم إيمانهم بالله سبحانه وتعالى أولاً ثم عدم الإيمان باليوم الآخر يجعلهم قصيري النظر، فيجعلون هذه الحياة الدنيا أكبر همهم، وتزول حالة الوسط التي يدعو إليها الإسلام، حالة عدم التعلق الشديد بالحياة واعتبارها دار ممر وليست دار مقام ودوام. وهذا هو الفرق بينهم وبين المؤمنين الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويعلمون أن لهم نصيباً في هذه الدنيا فلاينسونها، لكنهم كما قلنا لايجعلونها أكبر همهم ولاأكبر سعيهم. فهم يوزعون سعيهم بين الدنيا والآخرة. يَعملونَ في هذه الدنيا عملاً صالحاً إطاعة لله ولأخذ نصيبهم منها ولكنهم ينتظرون الحياة الأخرى بشغف أكبر وحب أعظم. بينما نجد أن الحياة الدنيا قد أعمت بصيرة الكافر فلا يرى غيرها، ولهذا يقول الله تعالى:

﴿إنّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتُهم أم لم تُنذِرهم لايؤمنون﴾(١٧)

لايريدون أن يسمعوا أي شيء عن أخبار السماء، فهم لايؤمنون إلا بالواقع الملموس بحواسهم، ومن هنا يمكن أن ترى في الكفار حالة معكوسة عن المشركين. المشركون حالمون يسبحون في أوهام لاوجود لها، والكفار لايؤمنون إلا بما كان مادياً ملموساً تحت بصرهم وحواسهم المباشرة، وكل حديث عن المستقبل والحياة الثانية لايستهويهم ولاينفذ إلى عقولهم ومداركهم الحسية المادية.

﴿زيّنَ للذين كفروا الحياةَ الدنيا ويَسخرون منَ الذينَ آمنُوا﴾(١٨)

وبنو إسرائيل مثال نموذجي للذين كفروا، فهم يحبون الدنيا ويسعون لها ويعرفون

(١٦) سورة النمل: ٦٧ (١٧) سورة البقرة: ٦ (١٨) سورة البقرة: ٢١٢

كيف. ولايؤمنون باليوم الآخر، ولايريدون أن يسمعوا عنه خاصة الأغنياء منهم.

﴿لعنَ الذين كفروا من بني إسرائيلَ على لسانِ داوود﴾(١٩)

طبعاً كأي أمة من أمم الأرض ليس كل بني إسرائيل من الكفار بل بينهم المؤمنون لذلك يقول الله تعالى عنهم:

﴿فآمنتْ طائفةٌ من بني إسرائيلَ وكفَرتْ طائفةٌ﴾(٢٠)

وبما أن اليهود عمليون وماديون يتعاملون بالحقائق أكثر، تجد بينهم حالة الإشراك نادرة، ليس عندهم أوهام كثيرة ليقعوا فيها مثل غيرهم. ومن صفات الكفار أنهم يساعدون ويؤازرون بعضهم ليطغوا على باقي الشعوب.

﴿والذينَ كفروا بعضُهُم أولياءُ بعضٍ﴾(٢١)

والكفار لايريدون أن يحكموا بما أمر الله؛ بل يريدون أن يسنّوا شرائع خاصة يشرعونها بما يشاء أغنياؤهم وأقوياؤهم وإن كانت عندهم شرائع سماوية حرفوها بحسب تلك المصالح:

﴿ومَن لَم يَحكُم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم، الكافرونَ﴾(٢٢)

ويحبون حكم الطاغوت:

﴿والذين كفروا أولياؤُهُم الطاغوتُ﴾(٢٣)

﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوتِ﴾(٢٤)

والطاغوت هو الحاكم الطاغية الذي يؤمن لهم مصالحهم الدنيوية لذلك قال الله تعالى للمؤمنين:

﴿فمَنْ يَكفُرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ باللّهِ فقد استمسَكَ بالعُروةِ الوُثقى﴾(٢٥)

والكافر يعتقد في ذاته أنه ذكي، يعرف مصلحته بل ويعتقد أن في المؤمن سذاجة وبساطة أكثر من اللازم فيسخر منه:

﴿زيّن للّذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا﴾(٢٦)

﴿بل زينَ للّذين كفروا مكرَهُم وصَدّوا عن السبيلِ﴾(٢٧)

---

(١٩) سورة المائدة: ٧٨
(٢٠) سورة الصف: ١٤
(٢١) سورة الأنفال: ٧٣
(٢٢) سورة المائدة: ٤٤
(٢٣) سورة البقرة: ٢٥٧
(٢٤) سورة النساء: ٧٦
(٢٥) سورة البقرة: ٢٥٦
(٢٦) سورة البقرة: ٢١٢
(٢٧) سورة الرعد: ٣٣

﴿وقالَ الذين كَفروا لِلذين آمنوا لو كانَ خيراً ماسَبَقونا إليهِ﴾[28]

وهذا يدلك على غرورهم بنفسهم وأنهم الأذكى دائماً، يعرفون مصلحتهم فيقتنصونها فوراً، هذه مبادئهم في الحياة الدنيا وهذه مثلهم.

وإذا سألت الكفار عن رأيهم في الدين الحق قالوا:

﴿وقالَ الذين كفروا إن هذا إلاّ إفكٌ افتراهُ﴾[29]

﴿ويقولُ الذينَ كَفَروا لَستَ مُرسَلاً﴾[30] وحتى الآن لايعترفون برسالة محمد ﷺ.

﴿وقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحرٌ مُبينٌ﴾[31] وقالوا لكل الرسل:

﴿إنّا كَفَرنا بما أُرسِلتُم بهِ﴾[32]

﴿يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلينَ﴾[33]

أهل الكتاب وحتى الكفار من بين أمة المسلمين يعتبرون الرسل مجرد مُصلِحين اجتماعيين، عباقرة وأذكياء، وهم يحسدون المؤمنين، لكنهم لايستطيعون صبرهم لتعلقهم الشديد بالحياة الدنيا وشهواتها الزائلة:

﴿وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يردّونَكم من بعدِ إيمانِكُم كُفاراً حَسَداً من عندِ أنفسِهم من بعدِ ماتَبَيَّنَ لهم الحقُّ فاعفُوا واصفَحوا حتى يأتي اللّهُ بأمرِهِ..﴾[34]

﴿وَدُّوا لو تكفرونَ كما كفروا فتكونونَ سواءً﴾[35]

هكذا... حسداً من عند أنفسهم.

الآن بعد عرفنا صفاتهم وأوضاعهم كلها، ماهو موقفهم من الله سبحانه وتعالى؟:

﴿والذين كفروا أَعمالُهم كسرابٍ بِقَيْعَةٍ﴾[36]

﴿ولاتحسبَنّ الذين كفروا مُعجِزينَ في الأرضِ﴾[37]

﴿تعرفُ في وجوهِ الذين كفروا المُنكَرَ﴾[38]

ولن يؤمنوا باليوم الآخر حتى تأتيهم بغتة:

---

(٢٨) سورة الأحقاف: ١١
(٢٩) سورة الفرقان: ٤
(٣٠) سورة الرعد: ٤٣
(٣١) سورة المائدة: ١١٠
(٣٢) سورة إبراهيم: ٩
(٣٣) سورة الأنعام: ٢٥
(٣٤) سورة البقرة: ١٠٩
(٣٥) سورة النساء: ٨٩
(٣٦) سورة النور: ٣٩
(٣٧) سورة النور: ٥٧
(٣٨) سورة الحج: ٧٢

﴿ولايزال الذين كفروا في مِريَةٍ منه حتى تأتِيَهُم الساعةُ بَغتةً﴾[٣٩]
﴿ولايحسبنّ الذين كفروا سبقوا إنّهم لايعجزون﴾[٤٠]
وماهو رأي الله سبحانه وتعالى فيهم؟:
﴿إنّ شرَّ الدوابِ عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنونَ﴾[٤١]
أفضل وصف لهم وصف الدواب التي لاتعرف مصلحتها الحقيقية أين تكون؛ تبحث الدواب عن مصلحتها القريبة لو رأت حشيشاً أخضر في أرض ملغومة لأسرعت إلى الحشيش، لأنها لاتدرك ماذا تكون الألغام، فتقع فيها بغتةً فيكون دمارها. ﴿إنَّ الذينَ كفروا وماتوا وهم كفارٌ أولئك عليهم لعنةُ اللّهِ﴾[٤٢] والكافر يعرف ويحرف:
﴿فلّما جاءَهُمْ، ماعَرفوا كفَروا بهِ﴾[٤٣]
﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتِنا أولئك أصحابُ النارِ﴾[٤٤]
﴿إنّ الذين آمنوا ثمّ كفروا ثم آمنوا ثمّ كفروا ثم ازدادوا كُفراً لم يَكُنْ اللهُ لِيَغفِرَ لهم﴾[٤٥]
﴿ذلك جزاؤهم جهنّم بما كفروا واتّخذوا آياتي ورُسُلي هُزواً﴾[٤٦]
﴿فويلٌ للّذين كفروا من النارِ﴾[٤٧]
﴿والذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ﴾[٤٨]
﴿مايجادلُ في آياتِ اللهِ إلاّ الذين كَفَروا﴾[٤٩]
﴿وقالَ الذينَ كفروا لاتسمعُوا لهذا القرآنِ والغَوا فيهِ﴾[٥٠]
ألغَوا فيه: أي شوّشوا و«شَوْشِروا» عليه.
﴿ربّنا لاتجعلْنا فتنةً للّذين كفروا واغفِرْ لنا ربّنا إنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾[٥١]
صدق الله العظيم.

---

(٣٩) سورة الحج: ٥٥
(٤٠) سورة الأنفال: ٥٩
(٤١) سورة الأنفال: ٥٥
(٤٢) سورة البقرة: ١٦١
(٤٣) سورة البقرة: ٨٩
(٤٤) سورة البقرة: ٣٩
(٤٥) سورة النساء: ١٣٧
(٤٦) سورة الكهف: ١٠٦
(٤٧) سورة ص: ٢٧
(٤٨) سورة محمد: ١٢
(٤٩) سورة غافر: ٤
(٥٠) سورة فصلت: ٢٦
(٥١) سورة الممتحنة: ٥

٩٠ ـ من هم المؤمنون الصادقون؟ ومن هم المتّقون بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليهِ من ربّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبهِ ورُسُلِهِ لانُفرِّقُ بينَ أحدٍ من رُسلِهِ وقالوا سَمِعنا وأطعنا غفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المصيرُ﴾(١)

من شروط الإيمان بالله تعالى، الإيمان باليوم الآخر شرطاً أساسياً، والشرط الآخر هو العمل الصالح، وبه يكتمل الإيمان:

﴿مَن آمنَ باللهِ واليوم الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾(٢)

والإيمان عمل طوعي اختياري، لاإكراه فيه ولا إجبار:

﴿وقل الحقُّ من ربِّكم فمن شاءَ فَليُؤمن ومن شاءَ فَليكفُر﴾(٣)

﴿لاإكراهَ في الدين قد تَبَيَّنَ الرّشدُ من الغيّ﴾(٤)

لذلك من الطبيعي أن نجد المؤمن والكافر كلٌّ يختار حسب أهوائه وميوله، ولو شاء الله سبحانه أن يجعل كل من في الأرض مؤمنين لفعل، وماذلك بمعجزهِ:

﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَن في الأرضِ كلّهم جميعاً﴾(٥)

لكنها مشيئة الله، أن يختار الإنسان بنفسه الإيمان، والله صادق الوعد، يفي بوعوده وعهوده كلها، فلايمنح الحرية للإنسان ليختار مايشاء، ثم يسحبها منه في اليوم الثاني. ولايميّز بين إنسان وإنسان من خلقه، كأن يكتب على البيض الإيمان وعلى السود الكفر، فهذا تأليف على الله والرسول، والحق والحقيقة في قوله تعالى:

﴿وإذ أخَذَ ربُّكَ من بني آدمَ من ظهورِهِم ذريّتهم وأشهدَهُم على أنفسِهِم ألستُ بربِّكُم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يومَ القيامةِ إنّا كنّا عن هذا غافلينَ﴾(٦)

كل حيوان يخلقه الله سبحانه وتعالى يزرع فيه المعلومات الضرورية لحياته وتصرفاته وتحركاته. مثلاً النحلة، زرع الله فيها الغريزة وهي تعلم لوحدها ماذا تفعل باتقان ودون مجال للتعرض لأخطاء، فالله نظم حياتها وزرع هذا التنظيم في ذرية النحل، فليس عند النحل معاهد تعليم؛ وإنما تخلق عالمة لأمورها التي زرعها الله في الذرية، وهكذا كل

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥
(٢) سورة المائدة: ٦٩
(٣) سورة الكهف: ٢٩
(٤) سورة البقرة: ٢٥٦
(٥) سورة يونس: ٩٩
(٦) سورة الأعراف: ١٧٢

الحيوانات، وكذلك الإنسان في كل أموره إلا في مجال الفكر والعقل له أن يتعلم وأن يختار. ﴿وإذا أخذ ربُّكَ من بني آدم﴾ فالله سبحانه وتعالى يقول لنا في الآية السابقة: إنه زرع في ذرية آدم قابلية الإيمان والتوحيد بشكل فطري ودون تدخل الإنسان، وهكذا نرى أن الآية تقول: إن هذه الفطرة للإيمان موجودة أصلاً وقبل تدخل الأهل بالتعليم وتدخل الشيطان وتدخل النفس الأمارة بالسوء وتدخل الشهوات لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يفتن النفس التي هيّأها بشكل فطري للإيمان بكل تلك الفتن. وأعطى فوق كل ذلك الحرية لاختيار الحق أو الباطل للإنسان بعد ذلك كله لايؤمن إلا القليل، تماماً كما إذا دخل فريق من الطلبة إلى فحص واختبار صعب لما نجح في الاختبار كل الطلبة، بل نجح قسم قليل من المجدّين الذين سهروا الليالي. لذلك فالنجاح الذي نالوه بالصبر والعناء والتعب له قيمة كبيرة عند الله أما أن نؤمن أن الله كتب الإيمان على فريق والكفر على فريق فهذا تكذيب لله وللرسول ﷺ لايجوز أن نقع فيه على الإطلاق. لكنا وقعنا فيه بعد أن أشرك أغلبنا على أيدي شياطين الإنس.

والإنسان الذي يخطئ في هذه الحياة الدنيا ويكفر بالله فترة من حياته الأولى ثم يعود عقل الرحمن إليه يحبّب الله إليه الإيمان، فيعود إليه ويقبل الله تعالى عودته ويغفر له:

﴿إلاّ مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئك يدخلون الجنّة﴾(٧)

وحتى الذي يغرق في الشرور ويسرف على نفسه بالمعاصي فإذا رغب التوبة والعودة إلى الصراط المستقيم فإنه يجد الله دائماً غفوراً رحيماً:

﴿قل ياعباديَ الذين أسرَفوا على أنفسِهِم لاتقنَطوا من رحمةَ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَغفِرُ الذنوبَ جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم﴾(٨)

وهنا قد يسألنا سائل بشكل معترض: إنّ القرآن يقول: إن الله عادل وعدله مطلق، فهل من العدل أن يتساوى الذي آمن بالله مباشرة دون أن يعرض نفسه للأخطاء والمعاصي مع الإنسان الذي وقع في المعاصي ثم عاد وتاب إلى الله؟

والله سبحانه وتعالى يجيب عن هذا التساؤل ويقول عن التائبين مثلاً:

﴿إلاّ من تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئكَ يدخلونَ الجنّةَ﴾(٩)

هكذا نجد مكافأتهم مجرد دخولهم الجنة.. ماذا عن الذين آمنوا مباشرة؟

---

(٧) سورة مريم: ٦٠ (٨) سورة الزمر: ٥٣ (٩) سورة مريم: ٦٠

﴿إلاّ من آمنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئكَ لهم جزاءُ الضِّعفِ بما عَمِلوا وهُم في الغُرفاتِ آمنون﴾[10]

وهكذا نجد أن الله سبحانه قد أعطاهم ضعف ماأعطى الآخرين وخصّهم في الجنة بمقام خاص ومكان خاص سمّاه الغرفات وهو من غيب الله لانعرف عنه شيئاً سوى أنه ليس بالمكان العادي في الجنة، بل مكان خاص لايدخله إلا من نال مرتبة معينة عند الله سبحانه وتعالى. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿وأمّا من آمنَ وعَمِلَ صالحاً فله جزاءً الحُسنى﴾[11]

وجزاء الحسنى هو الجزاء الذي شرحناه في الآية التي قبلها. فالله سبحانه وتعالى عادل وعدله مطلق ولايظلم مثقال ذرة: ﴿وتَمَّت كلمةُ ربّك صدقاً وعَدلاً لامبدّل لكلماتِهِ﴾[12] والآن ماذا عن الذي يؤمن في آخر لحظة من حياته؟ وهذا ماحصل مع فرعون:

﴿وجاوَزنا ببني إسرائيلَ البحرَ فأَتبَعَهُم فرعونُ وجنودُهُ بَغياً وعَدواً حتى إذا أدركَهُ الغَرَقُ قالَ آمنتُ أنّه لاإلهَ إلاّ الذي آمنَت بهِ بنو إسرائيلَ وأنا من المسلِمين﴾[13] فماذا كان جواب الله سبحانه له؟

﴿آلآنَ وقد عَصَيتَ من قبلُ وكُنتَ من المفسدين* فاليومَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لتكونَ لِمَن خَلفَكَ آيةً وإنَّ كثيراً من الناسِ عن آياتِنا لَغَافِلونَ﴾[14].

ننجيك ببدنك أي ننقذ بدنك (جسمك) من البحر. وفي القرآن كله لايقول الله سبحانه وتعالى: قتل البدن وإنما يقول: قتل النفس، أي قتله الله وأنقذ بدنه. لماذا؟

المعروف أن الفراعنة كانوا يحنّطون وتبقى أجسادهم محفوظة حسب اعتقاداتهم القديمة الباطلة، لكنهم كانوا يتبعونها، فأراد الله سبحانه أن ينقذ بدن فرعون فيحنّط ويحفظ ليكون بدنه شاهداً وعبرة وآيةً لمن يأتي بعده من الناس والله سبحانه وتعالى يبين شروط التوبة في الآيتين التاليتين من سورة النساء:

﴿إنّما التوبةُ على الله للذين يعملون السوءَ بجهالة ثم يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوبُ عليهم وكانَ اللّهُ عليماً حكيماً* وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضر أحدَهُم الموتُ قال إني تُبتُ الآن ولاالذين يموتون وهم كفارٌ أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليما﴾[15]

(١٠) سورة سبأ: ٣٧
(١١) سورة الكهف: ٨٨
(١٢) سورة الأنعام: ١١٥
(١٣) سورة يونس: ٩٠
(١٤) سورة يونس: ٩٢
(١٥) سورة النساء: ١٧ - ١٨

وقد رأينا أن مجرد القول باللسان: آمنت بالله وباليوم الآخر، لايكفي كشرط للإيمان، بل يجب أن يصدقه العمل الصالح. أما إذا كان العمل فساداً وإفساداً فهو من الكافرين وإن قال بلسانه إنه من المؤمنين. وعلماء الطبيعة دائماً أقرب الناس للإيمان لأن الإيمان نوعان: فطري وعقلي، فهم أقرب دائماً للإيمان العقلي. لماذا؟

لأنهم يرون بشكل دائم آيات الله تحدث أمامهم وفي مخابرهم كل ساعة، وهي مذكورة في آيات الله في القرآن، فيعلمون من الأولى أن مايرونه من قوانين وأنظمة دقيقة لايمكن أن تتم إلا بوجود خالق عظيم ويجدون هذا الخالق العظيم يخبرهم بتلك الحقائق في القرآن الكريم فيؤمنون بالإسلام ديناً. والإيمان الفطري هو الإيمان المزروع أصلاً في الإنسان بفطرته، وشرحناها في الآية السابقة التي تقول ﴿وإذ أخذَ ربُّك من بني آدمَ من ظهورِهم ذرّيتهم وأشهدَهُم﴾(١٦) ذلك الإيمان الفطري إذا لم يخربه الآباء بتحويل ابنهم أو ابنتهم إلى دين آخر غير دين التوحيد، فهذا الاستعداد الفطري موجود في النفس البشرية.

﴿والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عندِ ربّنا﴾(١٧)

والعلماء حتى ولو كانوا من الكفار عندما يرون الحقائق العلمية وحقائق الله لايمكن تكذيبها فماذا يحصل؟ يعترفون بالله بمجرد رؤية الحقيقة العلمية الصادرة عن الله سبحانه وتعالى: ومن أجل ذلك وضع الله سبحانه تلك الحقائق العلمية في القرآن الكريم:

﴿وليعلم الذين أوتوا العلمَ أنه الحقُّ من ربّكَ فيؤمنوا به﴾(١٨)

والذي آمن عن طريق العقل والعلم لايمكن جرّه إلى الوهم والإشراك بالله بسهولة.

بينما المؤمن الفطري إذا لم يتمسك بآيات الله، وفهمها فهماً صحيحاً واتبع من يفهمها بشكل وهمي باطل وقع في الإشراك بسهولة فبَطُلَ إيمانه كلّه وكأنه لم يكن قد آمن من قبل. لذلك ينصحنا الله بل يأمرنا ويقول سبحانه:

﴿ولاتَقفُ ماليس لكَ بهِ علمٌ﴾(١٩)

﴿بل اتّبعَ الذين ظلموا أهواءَهُم بغيرِ عِلم﴾(٢٠)

---

(١٦) سورة الأعراف: ٦ (١٨) سورة الحج: ٤٥ (٢٠) سورة الروم: ٢٩
(١٧) سورة آل عمران: ٧ (١٩) سورة الإسراء: ٣٦

﴿ومن الناسِ من يجادل في اللهِ بغيرِ علمٍ ولاهدى ولاكتابٍ منيرٍ﴾[٢١]
﴿ومالهم بذلك من علمٍ إن هم إلاّ يظنّون﴾[٢٢]
﴿قل هل عندكُم من علمٍ فتُخرجوهُ لنا﴾[٢٣]
﴿إنّ الظّنَّ لايُغني من الحقِ شيئاً إنّ الله عليمٌ بما يفعلون﴾[٢٤]

ولايمكن للإنسان الذي يرغب أن يسجل إسمه في سجل نادي المؤمنين أو كما يسميه الله سبحانه حزب الله. لايمكن أن يقبل في حزب الله إلا إذا نجح في امتحان القبول وأَذِنَ له الرحمن في الدخول لذلك الحزب:

﴿ماكان لنفسٍ أن تؤمنَ إلاّ بإذنِ اللّهِ﴾[٢٥]

وهذا شيء طبيعي لايمكن لكل من يقول بلسانه دون أن يحوز على باقي الشروط آمنت بالله واليوم الآخر أن يسجل في حزب الله. والارتقاء في ذلك الحزب يحتاج إلى صبر وإيمان وعمل مستمر تحت فتنة النفس الأمارة بالسوء وفتنة الدنيا والشهوات، وفتنة الشيطان، والنفس تقاوم كل ذلك وتنحاز دائماً لله، وتدعو الله دائماً بالمساعدة والعون فلا يخذل الله سبحانه أبداً عباده المؤمنين الصادقين؛ بل يساعدهم وينقذهم من أصعب المواقف.

﴿لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليومِ الآخرِ يُوادّون من حادَّ اللّهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهُم أو أبناءَهُم أو إخوانَهم أو عشيرتَهُم أولئك كَتَبَ في قلوبهم الإيمان وأيَّدهُم بروحٍ منه ويُدخلُهُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رَضي الله عنهم ورَضُوا عنه أولئك حزبُ الله ألا إنّ حزبَ اللّهِ هم المفلحون﴾[٢٦]

عرفنا من هم أعضاء حزب الله، فكيف نتعرف على أعضاء حزب الشيطان؟

﴿أَلَم ترَ إلى الذين تَوَلَّوا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهم ماهم منكم ولامنهم ويحلِفون على الكذب وهم يعلمون * أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً إنّهم ساءَ ماكانوا يعملون * اتّخذوا إيمانَهم جُنّةً وصَدّوا عن سبيل الله فلهم عذابٌ مُهينٌ * لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من اللهِ شيئاً أولئك أصحابُ النّارِ هم فيها خالدون * يومَ يبعثُهم اللهُ جميعاً فيحلِفون له كما يحلِفون لكم ويحسبونَ أنّهم على شيءٍ ألا إنهم هم الكاذبون *

(٢١) سورة لقمان: ٢٠ — (٢٣) سورة الأنعام: ١٤٨ — (٢٥) سورة يونس: ١٠٠
(٢٢) سورة الجاثية: ٢٤ — (٢٤) سورة يونس: ٣٦ — (٢٦) سورة المجادلة: ٢٢

استحوذَ عليهم الشيطانُ فأنساهُم ذكرَ اللّهِ أولئك حزبُ الشيطان ألا إنّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون﴾(٢٧)

والله سبحانه وتعالى يعلم أن اختباره القادم على الإنسان لن يكون سهلاً بل سوف يقابل فيها المؤمن أموراً صعبة جداً، فنيل شهادة الرحمن ليست سهلة كما قد يتصورها البعض، لكن الله سبحانه وتعالى لايهجر ويترك طلابه بل يدلهم وينصحهم ويعظهم ماذا يفعلون في كل موقف:

﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ إنّ اللّه مع الصابرين﴾(٢٨)

﴿يا أيّها الذين آمنوا لاتُبطِلوا صدقاتِكُم بالمَنِّ والأذى﴾(٢٩)

﴿يا أيّها الذين آمنوا أنفِقوا من طيّباتِ ماكسبتُم﴾(٣٠)

فصاحب البستان إذا أثمر شجره من طيبات الثمر لايوزع الساقط منها على الفقراء وإنما يتصدق من أفضل الثمار ومن أحسنه، هذا لمن أراد النجاح في الامتحان. وليس أن يقول: أعطوا هذه لجيراننا المساكين أحسن من رميها في الزبالة.

﴿يا أيها الذين آمنوا لايحلّ لكم أن تَرِثوا النساءَ كرهاً﴾(٣١)

﴿يا أيها الذين آمنوا لاتأكُلوا أموالَكُم بينَكم بالباطلِ﴾(٣٢)

﴿يا أيها الذين آمنوا أطِيعوا اللّهَ وأطيعوا الرّسول﴾(٣٣)

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيلِ اللّه فتبيّنوا﴾(٣٤)

ما معنى هذه الآية الكريمة؟ معناها أن نكون مؤمنين متبصرين، لانمدّ أيدينا إلى الناس فنقتل بتهمة الكفر إنساناً يقول أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله بحجة أنه يقولها وهو كاذب، الله سبحانه وحده هو الذي يعلم كذبه من صدقه، وغيره من الإنس لايعلم ذلك، لذا ينهى الله أن نقتل إنساناً يقول بالشهادتين ولو بلسانه بحجة أنه كافر:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتُم في سبيل الله فتبينوا ولاتقولوا لِمَن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمِناً﴾ أي لانقول لمن يعلن إسلامه بلسانه لست مسلماً.

(٢٧) سورة المجادلة: ١٤ - ١٩
(٢٨) سورة البقرة: ١٥٣
(٢٩) سورة البقرة: ٢٦٤
(٣٠) سورة البقرة: ٢٦٧
(٣١) سورة النساء: ١٩
(٣٢) سورة النساء: ٢٩
(٣٣) سورة النساء: ٥٩
(٣٤) سورة النساء: ٩٤

وهذا كله حصل في الإسلام الأول أما الآن فكل إنسان حرّ بأن يختار الإيمان أو أن يختار الكفر، والآية أنستها كما بيّنا قبل قليل آية أخرى.

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لاتتّخذوا الكافرينَ أولياءَ﴾[٣٥]

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا أَوفوا بالعُقودِ﴾[٣٦]

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لاتُحلّوا شعائرَ اللّهِ﴾[٣٧]

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكُم وأيديكم إلى المرافق﴾[٣٨]

تعليمات ونصائح وأوامر للمؤمن بالنظافة والتطهر والوضوء.

﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ﴾[٣٩]

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلّكم تُفلحون﴾[٤٠]

﴿إنّما يريدُ الشيطان أن يوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويَصدُّكُم عن ذكرِ اللّهِ وعن الصلاة فهل أنتم مُنتَهونَ﴾[٤١]

ومن لايريد أن يسمع وينتهي فهو حرّ لكنه لن يكون من المؤمنين بعد ذلك:

﴿وأطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسول واحذَروا فإن تولّيتُم فاعلموا إنما على رسولنا البلاغُ المبين﴾[٤٢] فالذي يدير ظهره لله وللإيمان لن يضر أحداً بذلك إلا نفسه.

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسُكم لايضرّكم من ضَلَّ﴾[٤٣]

المؤمن عليه نفسه، فإن أصلح نفسه واستقام على الهدى ذكر جاره وقريبه بالحسنى، فإن سمع منه كان بها، وإن لم يسمع منه فما عليه إلا ماكان على الرسول الكريم: البلاغ المبين. وكل فهم يعارض هذا الفهم يخالف الحق والقرآن الكريم، ومايكون صاحبها إلا في ضلالٍ مبين. فهو نفسه بحاجة إلى من يدله ويهديه الطريق السليم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا اللّهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكُم﴾[٤٤]

﴿يا أيها الذين آمنوا إنّما المشركون نجسٌ﴾[٤٥]

---

(٣٥) سورة النساء: ١٤٤
(٣٦) سورة المائدة: ١
(٣٧) سورة المائدة: ٢
(٣٨) سورة المائدة: ٦
(٣٩) سورة المائدة: ٥١
(٤٠) سورة المائدة: ٩٠
(٤١) سورة المائدة: ٩١
(٤٢) سورة المائدة: ٩٢
(٤٣) سورة المائدة: ١٠٥
(٤٤) سورة الأنفال: ٢٧
(٤٥) سورة التوبة: ٢٨

﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجُدوا واعبدُوا رَبَّكُم﴾[٤٦]
﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتّبعوا خطوات الشيطان﴾[٤٧]
﴿يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسَلّموا تسليماً﴾[٤٨]
﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللّه يَنصرْكُم﴾[٤٩]
﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا﴾[٥٠]
﴿يا أيها الذين آمنوا لايسخَر قومٌ من قوم﴾[٥١]
﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنِبُوا كثيراً من الظّنِّ﴾[٥٢]
﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا اللّهَ ولتنظُر نفسٌ ماقدَّمَت لِغَدٍ﴾[٥٣]
﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء﴾[٥٤]
﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالاتفعلون﴾[٥٥]

أكثرت من هذه الآيات كي أقول لمن كان يبحث عن أحاديث الرسول الصحيحة:

إنه سوف يجدها في القرآن الكريم، حيث لم يترك الله سبحانه وتعالى صغيرة ولاكبيرة إلا وجعل الرسول يقولها للناس بطرق مختلفة، وكلها أحاديث من الله يبلغها الرسول للناس وماعلى الرسول إلا البلاغ، إذ ليس عليه أن يأتي بشيء من عنده، لايشترط بأي رسول أن يفعل هذا، بل يمنع الرسول من فعل ذلك. وإلاّ ماسمّي رسولاً بل بحث الله سبحانه وتعالى عن اسم آخر. إليكم هذا الحديث القرآني: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارةٍ تُنجيكم مِن عذاب أليم * تؤمنونَ باللهِ ورسولِه وتجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفسِكم ذلكم خيرٌ إن كنتُم تعلَمون * يَغفْر لكم ذنوبَكم ويُدخلكم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ ذلك الفوز العظيم﴾[٥٦]

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوا إلى ذكر الله وذَرُوا البيعَ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون* فإذا قُضِيَت الصلاةُ فانتشروا في الأرضِ وابتَغُوا من فضلِ اللّهِ واذكُروا الله كثيراً لعلّكم تُفلِحون﴾[٥٧]

---

(٤٦) سورة الحج: ٧٧
(٤٧) سورة النور: ٢١
(٤٨) سورة الأحزاب: ٥٦
(٤٩) سورة محمد: ٧
(٥٠) سورة الحجرات: ٦
(٥١) سورة الحجرات: ١١
(٥٢) سورة الحجرات: ١٢
(٥٣) سورة الحشر: ١٨
(٥٤) سورة الممتحنة:
(٥٥) سورة الصف: ٢
(٥٦) سورة الصف: ١٠ ـ ١٢
(٥٧) سورة الجمعة: ٩ ـ ١٠

وحتى أن نتفسح لبعضنا في المجالس إذا احتشد الناس في المساجد لم يتركها الله سبحانه إلا وذكّرنا بها:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكم تَفَسَّحوا في المجالس فافْسَحوا﴾(٥٨)

﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى اللهِ توبةَ نصوحاً﴾(٥٩)

﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكُم وأَهلِيكم ناراً وقودُها الناسُ والحجارة﴾(٦٠)

﴿قالتِ الأعراب آمنّا قلْ لم تؤمنوا ولكنْ قولوا أسلَمْنا ولمّا يدخُلْ الإيمانُ في قلوبِكُم﴾(٦١)

﴿الأعراب أشدُّ كفراً ونِفاقاً وأجدَرُ ألاّ يعلموا حدودَ ماأنزلَ اللّهُ على رسوله واللهُ عليمٌ حكيم﴾(٦٢)

الأعراب هم البدو، وهم مثال نموذجي لمجموعة من الناس الذين يسنّون قوانين اجتماعية صارمة وتنتقل للأبناء عن طريق الرواية والتقيد بها في الحياة الدنيا، فالتزموا بتلك القوانين الثابتة التي لاتتغير مع الزمن فجمّدوا أنفسهم ونموذج حياتهم على شكل واحد لايتغير ولايتطور مع الزمن، مخالفين بذلك قوانين الله كلها. ولإيمانهم الشديد بتلك القوانين القبلية البدوية تصبح لهم أقوى من أي دين، وتصبح هذه العادات أقوى من أي شيء في حياتهم. رأيت خلال حياتي أمثلة تصدق ماأقوله، رأيت شباباً جامعيين متخرجين من كليات الحقوق ومسلمين يقومون بكل الشعائر الدينية من صلاة وصيام، لكن إذا كان واجبه القبليّ يلزمه بالثأر مثلاً نفذ الثأر بغض النظر عن تعليمه السابق أو ديانته التي كانت ظاهرةً عليه، فهناك في داخل البدوي ديانة آبائه وأجداده التي زرعت فيه وهو طفل في الخيمة، أثناء اجتماع الآباء في الأمسيات الطويلة من الليالي اللامتناهية هناك في البادية القاسية بكل شيء فيها، حيث تصبح الشرور كلها سهلة ومباحة للقوة والسيف والغزو، فتصبح هذه المعتقدات غشاء يغلف قلب هذا الإنسان فلا ينفذ إليه الإيمان بسهولة. لكن بالمقابل يجب أن لا ننسى أن الدولة الإسلامية يجب أن تتولى أخذ واسترداد حق البدوي بقوة القوانين أو الشرائع المقتبسة من القرآن.

وليس أن نتركه إلى محاكم كفيلة بضياع حقه بالكامل. عندها لن يلومه أحد إذا عاد إلى سنة آبائه وأجداده. لكن هذا لايمنع مطلقاً وجود بعض الأعراب يشذون عن تلك

(٥٨) سورة المجادلة: ١١
(٥٩) سورة التحريم: ٨
(٦٠) سورة التحريم: ٦
(٦١) سورة الحجرات: ١٤
(٦٢) سورة التوبة: ٩٧

القاعدة فيصبحون من خيرة المؤمنين لذلك أيضاً يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ومن الأعراب من يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر ويتّخِذُ مايُنفقُ قُرُباتٍ عندَ الله وصلواتِ الرسولُ ألا إنها قُربةٌ لَهم سيُدخِلُهم الله في رحمتِهِ إنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[٦٣] وهكذا نكون قد تعرفنا على المؤمنين الصادقين في كتاب الله تعالى.

﴿ولكنّ الله حبّبَ إليكم الإيمانَ وزيّنَه في قلوبكم﴾[٦٤]

صدق الله العظيم

---

(٦٣) سورة التوبة: ٩٩ (٦٤) سورة الحجرات: ٧

٩١ ـ والآن من هم المؤمنون الذين بلغوا صفة المتقين بدليل آيات القرآن الكريم؟

﴿ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً في الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عذابَ النار﴾[(١)]

قنا: في هذه الآية بمعنى احمنا ـ وقى: حمى

وقاية: حماية.

قنا: احمنا.

﴿ومن تَقِ السيئاتُ يومئذٍ فقد رَحِمتَه﴾[(٢)] أي من تحميه من السيئات.

﴿ومن يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون﴾[(٣)]

ومن يحمى من شح نفسه؟

﴿فلاتزكّوا أنفسَكم هو أعلَمُ بِمَن اتّقى﴾[(٤)]

لاتمدَحوا أنفسَكم فهو أعلَمُ بمن حَمى نفسَه من العيُوبِ والآثام.

﴿ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لَمَثوبةٌ من عندِ الله خيرٌ﴾[(٥)]

أي لو أنهم آمنوا وحموا أنفسهم من الإثم والمعصية لمثوبة. لذلك قال تعالى:

﴿والذين اتّقوا فوقَهم يومَ القيامة﴾[(٦)]

إذاً ليس هناك مؤمن عاديّ ملاك غير معرّض لإثم أو معصية. فإشارة أو غمزة على صاحب أو صديق قد يكون همزاً أو لمزاً.

والآثام كثيرة والمؤمن الحريص الذي يحرص بقدر استطاعته هو المؤمن المتقي، لأن لكل إنسان حدوداً من طاقة ولايحمّل الله نفساً إلا وسعها وطاقتها:

﴿لايكلّفُ اللّهُ نفساً إلا وُسعَها﴾[(٧)]

﴿ربّنا ولاتُحمِّلنا مالاطاقةَ لَنَا بِهِ﴾[(٨)]

﴿ليسَ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا إذا مااتّقوا وآمنوا وعَمِلوا

---

(١) سورة البقرة: ٢٠١
(٢) سورة غافر: ٩
(٣) سورة الحشر: ٩
(٤) سورة النجم: ٣٢
(٥) سورة البقرة: ١٠٣
(٦) سورة البقرة: ٢١٢
(٧) سورة البقرة: ٢٨٦
(٨) سورة البقرة: ٢٨٦

الصالحات ثم اتّقوا وآمنوا ثمّ اتقوا وأحسنوا واللّه يحبّ المحسنين﴾[٩]

﴿وسِيقَ الذين اتّقَوا ربَّهم إلى الجنة زُمُراً﴾[١٠]

﴿وإن تؤمنوا وتَتَّقوا فَلَكُم أجرٌ عظيم﴾[١١]

﴿ياأيها الذين آمنوا إنْ تتّقوا اللّهَ يجعلْ لكم فُرقاناً﴾[١٢] ماهو المقصود بهذه الآية الكريمة؟

لقد رأينا سابقاً أن للمؤمنين العادين صراطاً مستقيماً بينما يعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يزينون إيمانهم بالتقوى أن يجعل لهم فرقاناً. وإذا بحثنا في القرآن الكريم عن كلمة فرقان، وجدنا في آخر سورة الفرقان مجموعة من الآيات هي نفس مجموعة آيات الصراط المستقيم مع بعض الإضافات التي تناسب أهل التقوى. لنقرأ هذا الفرقان الخاص الذي جعله الله للمتقين:

﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبَهُم الجاهلونَ قالوا سلاماً * والذينَ يَبيتونَ لربِّهم سُجَّداً وقياماً * والذينَ يَقولونَ رَبَّنا اصرفْ عنّا عذابَ جَهنَّم إنَّ عَذابَها كانَ غراماً * إنَّها ساءَتْ مستَقَرّاً وَمَقاماً * والذينَ إذا أَنفقوا لَمْ يُسرِفوا وَلَمْ يقتّروا وكان بين ذلك قواماً * والذين لايدْعونَ مع اللهِ إلهاً آخرَ ولايَقتلونَ النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحقّ ولايزنونَ ومَنْ يَفعَلْ ذلكَ يَلْقَ أثاماً * يُضاعِفْ لَهُ العَذابُ يومَ القيامةِ ويَخلُدْ فيها مُهاناً * إلّا مَنْ تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئِكَ يبدّلُ اللهُ سَيئاتِهِم حَسناتٍ وَكَانَ اللهُ غفوراً رحيماً * وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالحاً فَإِنَّهُ يَتوبُ إلى اللهِ متاباً * والذينَ لايشهدونَ الزّورَ وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً * والذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم لم يَخِرّوا عَليها صماً وعمياناً * والذينَ يقولونَ رَبَّنا هَبْ لَنا من أزواجِنا وَذرّياتنا قُرّةَ أعينٍ واجعلْنا للمتقينَ إماماً * أولئكَ يُجْزَوْنَ الغرفةَ بما صَبَروا ويلقونَ فيها تحيةً وسلاماً * خالدينَ فيها حَسُنَتْ مستقرّاً ومقاماً﴾[١٣]

هذا هو فرقان المتقين الوارد في سورة الفرقان في القرآن الكريم.

وهذه أعلى درجة من الصراط المستقيم الخاص بالمؤمنين، التي وردت في سورة الأنعام:

﴿قل تعالوا أتلُ ماحرَّمَ رَبُّكم عليكم ألّا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتَقتلوا أولادَكم من إملاقٍ نحنُ نُرزقُكم وإياهُم ولاتَقربُوا الفَواحِشَ ماظَهَرَ منها ومابطنَ

(٩) سورة المائدة: ٩٣
(١٠) سورة الزمر: ٧٣
(١١) سورة آل عمران: ١٧٩
(١٢) سورة الأنفال: ٢٩
(١٣) سورة الفرقان: ٦٣ - ٧٦

ولاتقتلوا النفسَ التي حَرَّمَ اللّهُ إلّا بالحقِ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون * ولاتقربوا مالَ اليتيم إلّا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدَّهُ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ لانكلِّفُ نفساً إلّا وسعَها وإذا قلتم فاعدِلوا ولو كانَ ذا قربى وبعهدِ اللهِ أوفوا ذلكم وصّاكم بِهِ لعلّكم تذكّرون * وأنّ هذا صراطي مُستقيماً فاتبعوه ولاتتّبعوا السبلَ فَتَفرَّقَ بكم عن سبيلهِ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون﴾(١٤)

هنا المؤمن له هدف أمامه هو الارتقاء إلى درجة (المتقين) بينما في الآيات السابقة كان هدف المتقين أن يبلغوا ليصبحوا بالتقوى (إماماً للمتقين) والفروق واضحة بين الأولى والثانية.

فالله سبحانه وتعالى لايقول للمؤمن الذي وصل إلى درجة التقوى في الإيمان لاتقتلوا أولادكم، أو لاتقربوا الفواحش باعتبار الشذوذ الجنسي من الفواحش، بينما يقول له لاتقربوا الزنى.

أو لايقول له لاتقربوا مال اليتيم، لأنها بالنسبة له من البديهيات.

أو لايقول له أوفوا الكيل والميزان، أيضاً من البديهيات بالنسبة له.

وعندما يدعون ربهم يقولون: اجعلنا للمتقين إماماً. فهو يسعى للأعلى درجةً ومقاماً عند ربه. وجزاؤهم في الآخرة أعلى من المؤمنين العاديين الذين تابوا وآمنوا، فيصبح مقام المتقي في الجنة مثل مقام المؤمن الذي لم يقع في المعاصي، فصار له الغرفة مثلهم، لأن المتقي قد يكون مؤمناً تاب وطبعاً طالما أن الله عادل فإذا كان هناك مؤمنٌ لم يقع في المعاصي وارتقى بإيمانه إلى التقوى سوف يرفع الله درجته أيضاً فوق ماكانت عليه وهكذا... والله سبحانه وتعالى في كل القصص القرآني عندما كان يعذب الكافرين ويدمرهم لآثامهم وعصيانهم وطغيانهم كان أيضاً وبصورة دائمة ينقذ المؤمنين الصالحين والمتقين منهم. كما في الآيات التالية:

﴿ثم نُنجّي الذين اتّقَوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً﴾(١٥)

﴿وينجّي اللهُ الذينَ اتّقَوا بِمَفازَتِهِم لايمسُّهم السّوءُ﴾(١٦)

والتعبير القرآني: ﴿لعلكم تتقون﴾ يُقال للمؤمن الذي يسعى للتقوى، ومنها الآيات التالية:

---

(١٤) سورة الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣ (١٥) سورة مريم: ٧٢ (١٦) سورة الزمر: ٦١

﴿كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلِكُم لعلّكم تتّقون﴾[17]
﴿خذوا ما آتيناكمْ بقوةٍ واذكروا مافيه لعلّكُم تتّقون﴾[18]
أي خذوا آيات القرآن الكريم وافهموها وتمسكوا بالأوامر والنواهي والمواعظ التي فيها لعلكم تتقون.
﴿قالَ ياقوم اعبُدوا اللّهَ مالكُم مِن إلهٍ غيره أفلا تتّقونَ﴾[19]
وتعبير (ألا تتقون) تأتي بمعنى ألا تخشون؟ ألا تخافون؟:
﴿إذْ قالَ لهم أخوهم نوح ألا تتّقونَ﴾[20]
﴿إذْ قالَ لهم أخوهم هود ألا تتّقونَ﴾[21]
﴿إذْ قالَ لهم أخوهم صالح ألا تتّقونَ﴾[22]
﴿إذْ قالَ لهم أخوهم لوط ألا تتّقونَ﴾[23]
والأقوام الأربعة دمرت بوسائل مختلفة لأنها كانت لاتتقي الله ولاتخشاه.
إذاً ففي هذه الآيات نلاحظ أن سنة الله في الأقوام والأمم التي لاتخشى الله، أن يدمرهم الله في الحياة الدنيا ويذيقهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولن تجد لسنةِ الله تبديلاً.
﴿فليؤدِّ الذي أؤتُمِنَ أمانته ولْيتّقِ اللّهَ ربَّهُ﴾[24]
﴿وَمَن يتّق ويصبر فإنّ اللّهَ لايضيعُ أجرَ المحسِنين﴾[25]
﴿ومن يتّق اللّهَ يجعلْ له من أمرِه يُسراً﴾[26]
﴿ومن يتّق اللهَ يجعلْ له مخرَجاً﴾[27]
إذاً خشية الله والخوف من غضبه يجب أن لاتغيب عن ذهن المؤمن لحظة واحدة. وإنْ فَعَل، كان الله معه؛ وإلا استحق غضب الله عليه وتركه نهباً للشياطين.
﴿ومن يتّقِ اللّه يكفِّرْ عنه سيئاتِه ويعظِمْ له أجراً﴾[28]
﴿وماكان الله ليضلّ قوماً بعد إذْ هَداهُم حتى يبيّنَ لهم مايتقّونَ﴾[29]

---

(١٧) سورة البقرة: ١٨٣
(١٨) سورة البقرة: ٦٣
(١٩) سورة الأعراف: ٦٥
(٢٠) سورة الشعراء: ١٠٦
(٢١) سورة الشعراء: ١٢٤
(٢٢) سورة الشعراء: ١٤٢
(٢٣) سورة الشعراء: ١٦١
(٢٤) سورة البقرة: ٢٨٣
(٢٥) سورة يوسف: ٩٠
(٢٦) سورة الطلاق: ٤
(٢٧) سورة الطلاق: ٢
(٢٨) سورة الطلاق: ٥

والله سبحانه وتعالى وفى بعهده وأظهر لنا ماذا نتقي في آيات الكتاب حتى لانضل بعد أن هدانا ونتوه وراء أوهام وأباطيل وظنون من خارج القرآن الكريم، وإن فعلنا لم يرحمنا الله لحظة، لأن كل آياته واضحة كالشمس تبين لنا ماالذي يغضب الله وماالذي يحبه من المؤمنين المتقين. وأكثرَ اللّهُ من آيات الوعيد والتهديد بالعذاب وبنار جهنم تخويفاً للناس حتى يخافوا ويتقوا الله ويخشونه إن لم يكن حباً به فيكون خوفاً من ناره رغم أن الله سبحانه وتعالى ليس من هواة التعذيب وإنما يصف نفسه دائماً بأنه غفور رحيم.

﴿وما نرسِلُ الآياتِ إلاّ تخويفاً﴾[30]

﴿وكذلك أنزلْناه قرآناً عربياً وصَرَّفنا فيه من الوعيدِ﴾[31]

﴿ذلك لمن خافَ مقامي وخافَ وعيدِ﴾[32]

﴿وماأنتَ عليهم بجبّارٍ فذكِّرْ بالقرآنِ من يخافُ وعيدِ﴾[33]

ومن يدقق في آيات القرآن يكتشف أن العذاب والنار موجودان حقيقة عند الله، فالله سبحانه وتعالى لايكذب على عباده، لكنه أيضاً غفورٌ رحيم لن يدخل النار أحداً بظلم، أو لأنه أخطأ وعصى ربه فترة ثم تاب وآمن، فالله سبحانه يقول:

﴿إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنهونَ عنه نكفِّرْ عنكم سيئاتِكُم وندخِلْكم مُدخَلاً كريماً﴾[34]

وكل مايريده الله سبحانه ليس تعجيز الإنسان، فالدين دين يسر وليس بدين عسر بدليل الآيات التالية التي تشرح مطالب الله من الإنسان ببساطة عملية سهلة التنفيذ:

﴿والذينَ يجتنبونَ كبائرَ الإثمِ والفواحشِ وإذا غضبوا هم يغفِرون* والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاةَ وأمرُهُم شورى بينَهم وممّا رزقناهم يُنفِقون* والذينَ إذا أصابَهم البغيُ هم ينتَصِرون* وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمن عفَا وأصلَحَ فأجرُه على الله إنّه لايحبّ الظالمين* ولمن انتصَر بعد ظلمِه فأولئك ماعليهم من سبيل* إنما السبيلُ على الذين يظلمون الناسَ ويَبغون في الأرض بغيرِ حقٍّ أولئكَ لهم عذابٌ أليم. ولَمن صَبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلك لَمِنْ عَزمِ الأمورِ﴾[35]

وهكذا فالمطلوب من الإنسان الإيمان بالحقائق الكبرى:

ـ الحقيقة الأولى: أن الله موجود وهو سبب لكل وجود.

---

(٢٩) سورة التوبة: ١١٥

(٣٠) سورة الإسراء: ٥٩

(٣١) سورة طه: ١١٣

(٣٢) سورة إبراهيم: ١٤

(٣٣) سورة ق: ٤٥

(٣٤) سورة النساء: ٣١

(٣٥) سورة الشورى: ٣٧ ـ ٤٣

ـ الحقيقة الثانية: أن الكون موجود بالخلق بقدرة وتدبير وتنظيم الحقيقة الأولى.

ـ الحقيقة الثالثة: الإيمان بوجود المؤمن نفسه ككائن إنساني مفكّر ومدبّر ومنظّم وحرّ التصرف والاختيار ونتيجة للحقيقة الأولى والثانية.

ـ الحقيقة الرابعة: أن هذا الكون الحالي زائل وهو طريق إلى كون آخر له قوانين ومادة وأنظمة تختلف عن قوانين ومادة وأنظمة هذا الكون الزائل الغافي مع الزمن إلى كون خالد باقٍ لاتأثير للزمن عليه.

ـ الحقيقة الخامسة: أن في الكون الآتي مكانين أحدهما للمؤمنين الذين آمنوا بتلك الحقائق السابقة واتقوا الله وعملوا بما يرضي الله في الدنيا وأصلحوا في الأرض، والثاني للذين كذبوا بتلك الحقائق، وفضلوا اتباع شهواتهم الآنية وأفسدوا في الأرض وظلموا وبغوا على العباد، أو أنهم أشركوا بهذه الحقائق الكبرى أوهاماً كبرى، فصارت تصوراتهم كلها سلبية مريضة كانت نتيجتها انسحابهم من الحياة الحقيقية وفعالياتها ونقلوا مجال عملهم إلى مابعد الموت ناسين حقيقة كونهم أحياء يرزقون على هذه الأرض، التي جعلت داراً للاختبار، فكان تصرفهم هذا انسحاباً من الاختبار المفروض عليهم فخسروا بذلك فرصتهم في الدنيا وصار نصيبهم في الآخرة دار العذاب.

﴿فمَن اتّبع هُدايَ فلا يَضِلُّ ولايَشقى﴾(٣٦)

صدق الله العظيم.

(٣٦) سورة طه: ١٢٣

٩٢ ـ من هو العبد الصالح في عرف الله بدليل آيات القرآن الكريم؟!

في شبابي مابعد الثامنة عشرة، كنت من الذين هجروا الصلاة، ليس لسبب معين وإنما لأني لم أكن قد تبيّنت من هو الله سبحانه وتعالى بعد. هكذا.. لاأريد أن أصلي وأنا لاأعرف لمن أصلي، وكان كل ماأسمعه من أهلي وأصحابي المتدينين منهم لايقنعني، ولايقربني إلى الصلاة.

أما اليوم وأنا في الخامسة والخمسين من عمري، فإذا سألني سائل: من هو العبد الصالح برأيك؟ وأراد مني جواباً مختصراً ومحدداً، فإن الأمر بالتأكيد يختلف عما سبق في شبابي، وسيكون جوابي على سؤاله كما يلي:

(العبد الصالح هو من كانت أخلاقه القرآن).

أيام الشباب كنت أتوهم العبد الصالح في كل من يصلي، لأنها العبادة الوحيدة التي يمكن أن تُرى من العبد كل يوم، بينما الزكاة والصوم من العبادات التي لاتظهر للناس، لأنها بين العبد وربه. واليوم أعلم ونعلم جميعاً أنّ الصلاة بحد ذاتها ليس لها علاقة بصلاح العبد وطلاحه، وغالباً ماتكون عادة تعوّدها، أو وسيلةً ليكسب ثقة الناس. وعليه: كيف السبيل لمعرفة العبد الصالح؟

نبحث في القرآن، فنرى ماذا يقول لنا الله عز وجل فيه ليهدينا سواء السبيل:

﴿فاستَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا له يحيى وأصلَحْنا له زَوجَهُ﴾(١)

لقد دعا النبي زكريا ربّه أن يرزقه ولداً صالحاً، فاستجاب الله دعاءه، وبما أنّ زوجته كانت عاقراً لعيب جسدي يمنعها من الولادة قال تعالى: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ ليكون دليلاً على أن الله أزال المانع الجسدي بمعجزة، والمعجزة هنا ليس التحدي أو مشاهدة الناس فقط؛ وإنما الخروج عن سنة الله لحالةٍ خاصة، إذ إن الله تعالى لايخرج عن سننه وقوانينه إلاّ في حالات خاصة جداً. والإصلاح عكسه الإفساد، بدليل الآية:

﴿الذين يُفسِدونَ في الأرضِ ولايُصلِحونَ﴾(٢)

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٠ (٢) سورة الشعراء: ١٥٢

وهكذا رأينا من الآية الأولى أن معنى الإصلاح والإفساد لايأتي بمعنى الإصلاح المعنوي، أو الإفساد المعنوي، كالكذب والرياء والنفاق، فهذه ليست من الإفساد وإنما من الفسق. زراعة الأشجار في الطبيعة مثلاً: إصلاح، وقلع الأشجار: إفساد، وتنظيف البحار من القاذروات: إصلاح، وقذف النفايات والأشياء الضارة في البحر: إفساد.

لذلك نقول: عمل صالح، لارتباطه بعمل معين. مثلاً الإيمان بالله ليس عملاً صالحاً، فيقول الله تعالى:

﴿من آمن باللهِ واليوم الآخرِ وعَمِلَ صالحاً فلهم أجرُهُم عندَ ربِّهِم﴾(٣)

فالله تعالى يعلم أن مقياس صلاح العبد ليس صلاته أو عبادته أو هما معاً، إذ ليس في القرآن آية واحدة يقول فيها: إنّ من صلى وصام سيدخل الجنة. وهاهو القرآن أمامنا جميعاً، وآياته واضحة، لايمكن أن يخفيها أحد، لم يقل الله سبحانه وتعالى أبداً: إن من صلى وصام أو زكى وحج أو قال الشهادتين أو كلّها مجتمعة سيدخل الجنة ولامرة واحدة. في ضوء ذلك ماهو شرط الله لدخول الجنة؟

الله سبحانه أرسل لنا الكتاب في قسمين: القرآن وأم الكتاب، والقرآن مصدق لأم الكتاب. وهو يريد منا أن نقدم أيضاً شيئين: الإيمان، ومايصدّقه. وهل غير العمل مايصدق الإيمان؟ لذلك يقول تعالى:

﴿من آمنَ باللّهِ واليوم الآخر وعَمِلَ صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾(٤)

إذاً الدليل على وجود الإيمان ليس الصلاة، ولاالعبادات، إنما الدليل الوحيد هو العمل الصالح، وليس لمرة واحدة، وإنما بصورة دائمة، والعمل الصالح هو العمل المتقن، الذي تنفذه وكأنك ترى الله يراقبك أثناء أدائه. ويجب أن يكون هذا العمل خدمة للناس، فالله تبارك وتعالى لم يقل: إن الذي يقوم بالأعمال الصالحة سيكافئه بالجنة فقط، بل قال تعالى:

﴿من عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيّبةً﴾(٥)

فالله سبحانه يعده حياة طيبة، هنا في الحياة الدنيا أيضاً. أما الذين أفسدوا في الأرض فترة، ثم استدركوا الأمر، فتابوا وآمنوا وعملوا الصالحات فما هو مصيرهم؟

---

(٣) سورة البقرة: ٦٢ (٤) سورة المائدة: ٦٩ (٥) سورة النحل: ٩٧

﴿إلاّ من تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئك يدخلون الجنّة﴾[٦]

﴿وإني غفارٌ لِمَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً ثمّ اهتدى﴾[٧]

وهنا نجد الله تعالى دقيقاً كما تعودنا في كل الآيات:

﴿وإنّه في الآخِرةِ لَمِنَ الصالحينَ﴾[٨]

والصلاح تأتي صفة للمؤمن في الآخرة، بينما في الحياة الدنيا فإنه يربط الإيمان بالعمل الصالح، فلا يقول أبداً مؤمناً صالحاً على سبيل المثال.

فالمطلوب عمل فيه خدمة للناس، كصناعة أو تجارة، أو أي عمل يكون مصدراً للرزق، وهذا يحتم على كل مؤمن ومؤمنة أن يكون له عمل محدد، خدمةً للمجتمع الذي يعيش فيه، وإلاّ مقابل أي شيء سيأكل ويشرب؟ فالزوجة تعمل في بيت زوجها مدبرة له بكل ماتستطيع من طبخ وتنظيف وتربية للأطفال، وهذا من أعظم الأعمال، وهذا مادعا الشاعر حافظ إبراهيم للقول:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعدَدْتَها ... أَعدَدْتَ شَعباً طيّبَ الأَعراقِ

كما أنه ليس في خلية النحل نحلة عاطلة عن العمل، كذلك في الإسلام، ليس من مؤمن عاطل عن العمل ذكراً كان أم أنثى، ومن غير العمل لايقبل كل إيمانه. ومن يظن أن الصدق عمل صالح، وأن التبرع بالأموال عمل صالح، فهو يحلم، وربما يكون كل ذلك صالحاً، لكنه ليس بعمل، فلا نقول عمّن تصدق بمال: إنه قام بعمل، لذلك نجد الآيات العديدة في القرآن تؤكد أن العمل الصالح مقرون بالإيمان:

﴿وأمّا من آمنَ وعَمِلَ صالحاً فلهُ جزاءً الحسنى﴾[٩]

حتى الرسل ليسوا مستثنين من العمل:

﴿ياأيها الرُّسُلُ كلوا من الطّيّباتِ واعملوا صالحاً﴾[١٠]

ثم إنه لايشترط بالعمل أن يكون يدوياً، كحرفة، فهناك أعمال فكرية كثيرة عن طريق الفكر، كالكتاب، والمعلمين، والقضاة، والمحاسبين إلخ.. المهم أن يكون في العمل خدمة للناس مطلوبة وضرورية، وإلاّ مقابل ماذا سوف يأكل الإنسان الطيبات؟

---

(٦) سورة مريم: ٦٠
(٧) سورة طه: ٨٢
(٨) سورة البقرة: ١٣٠
(٩) سورة الكهف: ٨٨
(١٠) سورة المؤمنون: ٥١

إذاً لابد أن يؤدي الإنسان دوراً ما في هذه الحياة الدنيا، خدمة مطلوبة من باقي الناس، وليس أي عمل.

التقيت أحد معارفي في الولايات المتحدة مصادفة، وكان قد افتتح متجراً لبيع الخمور، فشعر بالحرج وقال دون أن أسأله: إني أبيع الخمور للكفار. فقلت له: عفواً لصراحتي، إنّ عذرك أقبح من ذنب، فأنت كمسلم هنا يجب أن تكون قدوة للمسلمين، ومثلاً صالحاً لغيرهم ودين الإسلام لايسمح بأن يكون ذا وجهين، فالمحرم علينا فعله مع المسلم، محرّم علينا أيضاًمع غيره، علينا بأنفسنا. أما أن أفتي نفسي وأقول: إن لم يشتروا الخمر مني اشتروها من غيري وهم في الحالين شاربوها، فلم لاأربح من الكفار؟... فهذا كله خداع للنفس وللناس ولدين الإسلام، وليس في الدين مكان للخداع والمخادعين، وبالتالي لانستطيع أن نقول: إن الذي يرتزق من الخمور ولو تصدق بكلِ أرباحه لفقراء المسلمين، إنه يقوم بعمل صالح. والإسلام كله مبني على الطهارة أساساً، فلا يقبل أي دنس.

﴿ومنْ أحسنُ قولاً ممّن دعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالحاً﴾(١١)

إذاً الدعوة إلى الله ليست عملاً، وإنما من الحسنات، والعمل الصالح معها لابد منه، لأن من يدعو إلى الله لايطلب أجراًمن الناس عليها، بينما العمل الصالح مأجور:

﴿الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ﴾(١٢)

باختصار: المطلوب من الإنسان في هذه الدنيا أمران بالتحديد: الإيمان بالله، ثم إطاعة الله فيما أمر من عبادات، واختيار عمل صالح له ولعامة الناس، وعليه أن يتقن هذا العمل مخلصاً وكأن الله يراه، وسيختبر عمله كل لحظة. حتى وإن كان يعمل في مصنع أو معمل لكافرٍ أو للكفار.

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة﴾(١٢)

صدق الله العظيم.

---

(١١) سورة فصلت: ٣٣ (١٢) سورة المائدة: ٩ (١٣) سورة النساء: ١٢٤

٩٣ ـ أسباب التأخر الذي يعاني منه المسلمون في العالم الإسلامي:

بعد قراءتنا فصول الكتاب، نستطيع أن نتحدث عن أسباب تأخر العالم الإسلامي المعاصر وأسباب مانعاني من الجهل والفقر والذل والضياع والعذاب.

١ ـ أول الأسباب وأهمها هجر القرآن، الدستور العام والفاعل في حياة الناس، العامة والخاصة (المجتمع والفرد)، وعدم الاهتداء بآياته، فيما يجب أن نفعل، وأن نترك، حسب الأوامر الصريحة لله سبحانه، والتي كلها تعتبر أيضاً أوامر للرسول صلى الله عليه وسلم. لأن الرسالة كلها وصلتنا على لسانه، وأول من طبقها الرسول الكريم وصحبه رضوان الله عليهم، إلاّ أن مصلحة بعض الساسة وأولي الأمر والنفوذ كانت أن يوجدوا مصادر أخرى غير القرآن، وأوجدوها بمساعدة رواة الحديث، وفقهاء السلطان، الذين تعاونوا على خلق هذه البدعة في الإسلام، رغم النهي الشديد الذي رأيناه من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والتزام الصحابة الكرام كلهم بتنفيذ أوامر الرسول التي كانت مفهومة من قبل الجميع، بأن إطاعة الرسول من إطاعة الله سبحانه. فاستحدثوا كتابة الحديث مستخدمين كل الوسائل والمبررات غير المعقولة للإفتاء بجواز إيجاد هذه البدعة، بحجة أنها مفيدة للمسلمين، وهكذا سحبوا من أيدي الناس القرآن بدعوى أنه كلام لله شديد، وأن فهمه واستيعابه على العقل العادي غير المتفقه صعب، والمقصود أن يفهم القرآن بأحاديث الرسول، فغابت الغاية عن الناس بهذا الكلام المعسول، الذي لاغبار عليه نظرياً فسهل عليهم التحوير والتحريف، والتبديل والإضافة والتأويل في مجال الأحاديث المتنوعة من الروايات المختلفة، فبلغوا مقصدهم من ذلك الباب بعد أن كان موصداً عليهم من باب القرآن الكريم الذي استحال عليهم تحريفه بحرف واحد.

وصار الحديث بضاعة رائجة، واعتبروا العمل فيه علماً، واعتبروا مافي الحديث من أقاويل متضاربة ومختلفة علوماً، فضاعوا وضيعوا الناس معهم إلى اليوم. فأوجدوا بذلك كتباً مع كتاب الله، مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داوود، وابن ماجة، والترمذي، وكمسند أحمد، وغيرهم وغيرهم، فأشركوا بكتاب الله كتباً أخرى، مدعين كذباً أن هذه الكتب أيضاً هي من الكتب التي أنزلها الله على الرسول باسم الحكمة. وصدّق الناس تلك الأكاذيب، والغريب جداً أن الناس حتى اليوم يصدقونها ويؤمنون بصحتها، وكانت النتيجة كما يمكن أن يتوقّعها كل عاقل أنْ تحوَّلَ النّاسُ من

عقلية القرآن العلمية التي فيها الحق والحقائق والنور والهداية والسبيل الواحد إلى عقلية الأوهام والظنون والأباطيل، فتحولت أحوال الناس بالتدريج من العلم والنعمة إلى الجهل والنقمة، وليس ذلك بغريب، فكل إناء بما فيه ينضح.

٢ ـ المجتمع القبلي: سواء كان المجتمع الكبير، أم الصغير (البيت)، فما زال مجتمعنا قبلياً، عصبوياً، يسن قوانين اجتماعية صارمة، وللأسف متوارثة من الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء، وهي ثابتة لاتتغير ولاتتطور مع الزمن يلتزمها الكبير والصغير، الذكر والأنثى، وفي ذلك مخالفة قوانين الله كلها. فمجتمعنا لإيمانه الشديد بما ورثه من قوانين قبلية عطّل دين الله وسنته في خلقه، وغرسَ ديناً غيره في أفهام الناس، زرع فيهم منذ الطفولة، فلا هو أنصف ولاهو تراجع عن إشراكه بالله نتيجة مخالفة أوامره، وسحب ذلك على أفراد المجتمع ككل، فالطفل الذي ينشأ على هذه العصبية القبلية وقد يشبع منها تماماً عندما يكبر ويتحول إلى مرحلة الرجولة يصبح ضحية المجتمع والتقاليد والأعراف السائدة فيه، وأساسها الأوهام والأباطيل والخرافات، ومجتمع كهذا يتحول للمراقب من بعيد إلى مجتمع ينتحر ذاتياً، وهذا المجتمع هو الذي وقع في حالة الإشراك التي نها عنها الله سبحانه وتعالى وقال:

﴿إنّ اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشرَكَ به ويغفرُ مادونَ ذلك لِمَن يشاءُ﴾(١)

ونلاحظ هنا أن الله سبحانه لم يقل في القرآن الكريم كله: إن الله لايغفر أن يكفر به، أي أن الإنسان الملحد الكافر أقرب إلى الله من المشرك، لذا نرى الله سبحانه يقول:

﴿فمن شاءَ فليؤمِن، ومَن شاءَ فليكفُر﴾(٢)

ثم إنه سبحانه لم يقل أبداً في القرآن: ومن شاء فليشرك..وإنما نهى عن الشرك نهياً شديداً.

٣ ـ ثم إن دور التعليم الذي يأتي متأخراً بعد تشبع الطفل بكل الأمور التي شرحناها يكون مفعوله ثانوياً، بل يكون عاجزاً عن تغيير تلك العقلية الأولى التي كانت سابقة فترسخت في لاشعور الطفل، وفي عقله الباطن...

٤ ـ ٩٩٪ من رجال الدين وأئمة المساجد، الذين عليهم دور تربوي هام في المواعظ مازالوا نموذجيين في هجر القرآن، أو في تفسير وتأويل آياته معتمدين على مختلف الأحاديث الوهمية المروية عن الرسول ﷺ وقد يكون الرسول ﷺ بريئاً من كل تلك

---

(١) سورة النساء: ٤٨ (٢) سورة الكهف: ٢٩

الأباطيل التي تلغي دور آيات القرآن الكريم وتشل فاعليتها في نفس المسلم وعقله. كما أن جهل رجال الدين للعلوم عامة (الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، وعلم التاريخ، وعلم النفس، وعلم المنطق والفلسفة، وعلم الاجتماع وعلوم السياسة والاقتصاد وغيرها من العلوم التي من الضروري معرفة أصولها ومبادئها) حتى تأتي خطبهم ومواعظهم مواكبة للعصر وعقلية العصر، بينما نجدها تواكب فقط الأوهام والخرافات السائدة بين العامة في البيت والمجتمع، فإن ذلك يجعلهم سطحيين في مواعظهم ونهيهم عن الكذب والغش والخداع والرياء والنفاق، فلاتنفذ مواعظهم إلى أفهام الناس ونفوسهم لما نشأت عليه من تقاليد وأعراف، فنرى أغلب الحضور يتثاءبون أو ينامون عندما يسمعون تلك المواعظ، أو ينظرون بفارغ الصبر إلى ساعاتهم يريدون الانتهاء من تلك الخطبة الغليظة على قلوبهم، لينصرفوا إلى أشغالهم الدنيوية التي تركوها لواجب تعوّدوا القيام به كل جمعة مع آبائهم مذ كانوا أطفالاً. وإذا ماطلب الخطيب من القادرين زكاة أو تبرعاً لمشروع خيري إنساني تجد أغلبهم من الذين يسرعون لمغادرة المسجد بعد صلاة الفرض وقبل البدء بجمع التبرعات.. الأمر الذي يفاقم تدهور الأوضاع، فيزيد الفقر والحاجة والبؤس، كما ينتشر الحقد والحسد والبغضاء في المجتمع بين الأغنياء والفقراء، وكل تلك الأمور من المواضيع التي تعالجها آيات القرآن الكريم لمن يتدبر كتاب الله وحده. بينما المسلمون قد تركوا كتاب الله جملة وتفصيلاً وتحوّلوا إلى غيره، وماعادوا يرون خيراً أبداً، وإن نصحهم ناصح للعودة إلى سبيل الله وحده في القرآن وآياته وأحكامه وصراطه المستقيم، تألب عليه الناس من قبل أدعياء الفقه الذين ورثوا الوعظ والإمامة عن آبائهم الذين كانوا فقهاء السلطان في زمانه وعندما كان لايريد من أحد أن يوقظ النيام الغرقى في الأباطيل والأوهام ليتبصروا النور والحق والحقيقة في كتاب الله، يؤلبون الناس عليه لأنه يريد أن يحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا الأولين:

﴿أَوَلَو كانَ آباؤهم لايَعقِلون شيئاً ولايَهتَدونَ﴾(٣)

٥ ـ ومن أسباب التأخر العام الذي نعاني منه، العقلية الفردية، وهي السائدة في كل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وقد يسأل سائل: ماهو الدليل؟ وأين البرهان؟

في الولايات المتحدة الأمريكية جاليات إسلامية كثيرة، من باكستان شرقاً حتى أديس أبابا غرباً، ومن القوقاز شمالاً حتى اليمن السعيد جنوباً، وهذه الجاليات الإسلامية

(٣) سورة البقرة: ١٧٠

موجودة كلها في بلد ديموقراطي، بحيث يستطيع كل مواطن يعرف حقوقه الديموقراطية أن يقول ويفعل مايريد شريطة ألاّ يخالف القانون. وفي الشرق وفي بلاد المسلمين الأصلية يحتج الجميع أن الحكام هم الذين يمنعون الناس من العمل والتقدم، وهم السبب في كل البلاء المحيط، ناسين أن العيب فينا وليس في الحكام.

والدليل مايقع في نفس المسلمين في أمريكا، حيث الموانع المدّعاة غير موجودة. فعدد المسلمين العرب في أمريكا يعدّ بالملايين، وأقل دخل للفرد في أمريكا ـ للعامل العادي الذي لاخبرات لديه ـ حوالي أربعين دولاراً في اليوم، فلو دفع كل مسلم عربي مبلغ أربعين دولاراً ليس تبرعاً، وإنما كقيمة سهم، لبلغ مايجمع من المسلمين أكثر من مائة مليون دولار.. وهذا المبلغ كافٍ لإنشاء أكبر محطة تلفزيونية ناطقة باللغة العربية تغطي الولايات المتحدة كلها، ويستطيع العرب المسلمون بواسطتها أن يبلغوا وجهات نظرهم، وتوحيد صفوفهم بالإضافة إلى التوعية والتعليم، كما أنهم يجنون منها فوائد لاتعدّ ولاتحصى، فهي مشروع رابح وفيه كسب مادي كبير.. وحدث أن دعوت إلى هكذا مشروع هناك، فوجدت أن الذين عارضوا المشروع (وهوّشوا) عليه قبل أن نبدأ به كانوا أكثر بكثير من الذين أعلنوا استعدادهم للمساهمة والاكتتاب فيه.

وهكذا نرى أن أمراضنا مستوطنة فينا، تذهب معنا أينما ذهبنا، وليست موجودة في حكامنا، أو في الاستعمار والصهيونية. صحيح أن كل هؤلاء يستغلون واقعنا، لكنهم ليسوا السبب المباشر لما نحن فيه اليوم بل نحن ومانحمل من أفكار، ومن هنا ينبهنا الله عز وجل دائماً في القرآن إلى أن الظلم حاصل من أنفسنا:

﴿إنّ اللهَ لايظلمُ الناسَ شيئاً ولكن الناس أنفسَهم يظلمونَ﴾[٤]

وأسوق على هذا الكلام مثالاً واقعياً من التاريخ القريب نسبياً. الهنود الحمر الذين كانوا يستوطنون قارة بأكملها، أشركوا بالله وتوقفوا عن العمل، وعجزوا عن الاستخلاف في الأرض، ضاعوا في الأوهام والخيالات، فماذا فعل الله بهم نتيجة موقفهم الإشراكي هذا؟ هل تركهم يمرحون ويرتعون في قارة أمريكا كما يشاؤون؟ أم سلط عليهم أقواماً آخرين من أوروبا فأبادوهم وسلبوهم مكانهم وأنشؤوا فيه حضارة أمريكية؟ الآن: هل ماحصل في أمريكا بإذن الله ومشيئته وعلمه أم رغماً عنه وضعفاً؟ (أستغفر الله العظيم) ها هو القرآن الكريم يجيب بأفصح بيان:

---

(٤) سورة يونس: ٤٤

﴿إنّ الأرضَ يَرِثُها عبادي الصّالحونَ﴾(٥)

﴿إنّ الأرضَ لله يُورِثُها من يشاءُ من عبادِهِ﴾(٦)

إذاً كل ذلك حصل في الماضي، ويحصل اليوم، وسيحصل غداً، إذا لم نعرف الأسباب الداعية للحصول واحترصنا منها، ويمكن أن نكون نحن أيضاً في يوم من الأيام معرضين للخطر نفسه، ولاأمان من ذلك إلا بالتمسك بهدي الله سبحانه، وبنوره والحق الذي أنزله على رسولنا محمد ﷺ في القرآن الكريم للناس كافة.

وقد شرحت في هذا الكتاب وفي أكثر من موضع أن الصلاح بالنسبة لله وحسب آياته في القرآن هو الإصلاح في الأرض، والإصلاح على الأرض، وكلاهما عمل، بينما العبادة والإيمان لايشكلان إلا القسم النظري منه فقط.

٦ ـ عدم إدراك الناس بشكل عام أن هدف الدين هو إصلاح حياتهم في الدنيا وطريقة عيشهم للوصول بهم في هذا النموذج الأرضي إلى السعادة والخير، فيحصلون به على رضى الله، ويستحقون به النجاح في الاختبار الدنيوي لنوال جنة الله في الآخرة. فلا يمكن للعبد نوال جنة الآخرة إن لم ينجح في جنة الدنيا أولاً، فهي دار الاختبار والاستخلاف، ودار الأعمال الصالحة، ودار إطاعة الله وأوامره في كتابه، والابتعاد عن نواهيه. وفهم الناس هذه الأمور مقلوب ومعكوس، فأشركوا بالله دون علم، وتحولوا إلى الأعمال الفاسدة المفسدة، ظناً أنهم مصلحون:

﴿وإذا قِيلَ لهم لاتُفسِدوا في الأرضِ قالوا إنّما نحنُ مُصلِحونَ﴾(٧)

ومن هنا يجب أن نعلم أن العبادات ليس لها علاقة في الإفساد والإصلاح في الأرض، وإنما بالعمل والأعمال الصالحة يتم الاستخلاف على الأرض. وقصور إدراك الناس لمصالحهم كان المدخل لاستغلال فقهاء السلطان، ليستغلوه ويفعلوا فعلهم وفق مصالحهم، مفسرين للناس آيات الله وقرآنه كما يشاؤون أوهاماً وظنوناً وأكاذيب مروية على لسان الرسول الكريم ظلماً، جاعلين الباطل حقاً والحق باطلاً، فضلوا وأضلوا الناس أجمعين.

بينما الله سبحانه وتعالى يطالب الجميع من عباده بالعلم والتعلّم والعمل الصالح في كتابه العزيز:

---

(٥) سورة الأنبياء: ١٠٥ (٦) سورة الأعراف: ١٢٨ (٧) سورة البقرة: ١١

﴿قل سِيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ بَدَأَ الخَلقَ﴾(٨)
وهذه دعوة صريحة للعلم والتعلم، ثم قال سبحانه:
﴿وقل اعمَلوا فسَيَرى اللهُ عملَكُم﴾(٩)
والله سبحانه لم يقصد بهذا العمل العبادات؛ وإنما عمل الإصلاح في الأرض ليكون خيراً عميماً.

٧ ـ غضب الله للإشراك به وعدم تدبر أحكام الله: لم يَعِ الناس بشكل عام أن أسباب العذاب والهوان والذل الذي يواجهونه كحقيقة لايمكن إنكارها في الحياة الدنيا، ناتج عن غضب الله عليهم لإشراكهم وعدم تدبرهم أحكام الله من آياته في القرآن، وهو الذي أرسله إليهم ليخرجهم به من الظلمات إلى النور. فتركوا القرآن ولحقوا كتب الظن على أنها النافعة الوحيدة والشافية والكافية علماً بأنها لاتحوي سوى الأوهام والظنون والاختلافات والمرويات والأقوال المتضاربة والمتناقضة التي ليس فيها علم ولانور ولاهداية، ولاصراط مستقيم، كما ليس فيها سبيلٌ موحد، بل سبل متفرقة ومتعددة وملتوية، يروج لها شياطين الإنس الذين لهم مصلحة في ذلك قبل شياطين الجن، لإضلال الناس عن سبيل الله وصراطه وشرعه الذي أنزل رحمة بالعالمين وبالناس أجمعين.

فلا هم كفروا بالدين وبالله؛ وآمنوا بالعلم والعقل كما فعل الغربيون بعد أن كفروا بالكنيسة، حيث آمنوا بالعلم والعقل فنجحوا في الحياة الدنيا وخسروا الآخرة. ولاهم ثابوا إلى رشدهم، بل أشركوا بالله وكتابه كتباً أخرى، وهجروا كتاب الله وشرعه، ونسوهما، فغضب الله عليهم وحرمهم كما نرى بأعيننا من جنة الدنيا ونعيمها، بل ويعذبهم فيها ويعدهم في الآخرة ناراً لاخلاص منها.. (وبإمكان القارئ أن يراجع آيات الحكمة في سورة الإسراء ٢٢ ـ ٣٩)

كذلك ضرب الله لنا مثلاً في سورة الكهف الرجل ذا الجنتين، فأشرك بالله، فدمّر له جنته التي على الأرض أمام ناظريه، ووعده إياها إن بقي على إيمانه الصحيح، فلا يدع الشياطين والنفس الأمارة بالسوء أن تفتنه عنها، فوقع في الخطأ، وأصبح من أهل النار الخالدين. ومن أراد أن يتعظ ويعتبر، فليتصفح القرآن وآياته، ليرى نور الله وحقائقه الناصعة في صفحات كتاب الله كله:

﴿إنّ هذا القرآن يهدي لِلّتي هي أَقومُ ويُبَشِّرُ المؤمنينَ﴾(١٠)

صدق الله العظيم

---

(٨) سورة العنكبوت: ٢٠ (٩) سورة التوبة: ١٠٥ (١٠) سورة الإسراء: ٩

٩٤ ـ الدعوة إلى الإسلام من جديد

لنبدأ هذا البحث بصراحة تامة ونقول: إن من يظن أن ماعليه المسلمون اليوم من دين واعتقاد هو الإسلام الذي كان عليه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام يكون من أكبر الواهمين، وإذا كنا نتوخى الحقيقة يجب أن نعترف ونقول: إنهم إذا كانوا يتجهون في دينهم باتجاه اليمين فنحن كلنا على الاتجاه المعاكس تماماً.

وحتى نعود إلى ماكانوا عليه يجب أن نعود جميعاً إلى كتاب الله وحده، الذي بقي لنا بفضل الله وحده سليماً كاملاً لاينقصه حرف ولا يزيده حرف عما نزل به على قلب سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

وأن نهضم بعد ذلك القرآن ونتمثله ليظهر نوره على فكرنا وتصرفاتنا ومعاملاتنا وأخلاقنا في سلمنا وحربنا ويجب على المسلم الصحيح أن يشع نوراً وخيراً وهداية وحباً وإلا فهو ليس على دين الله وإنما هو منافق مثل باقي المنافقين.

والمسلم الذي يصل به القرآن إلى هذا النور والحب سوف يسعى لنشره حتى يعم ذلك الخير كل الناس. ولكن من يتخيل من المسلمين أن نشر الإسلام في هذا العصر الذي نحن فيه وفي الآتي من الأيام عن طريق القوة العسكرية والفتوحات، وبأسلوب معركة القادسية واليرموك كما يتخيله بعض الأصوليين الإسلاميين اليوم وأنها سوف تتم باستخدام الخيول والسيوف نقول لهم: هذا خيال ساذج مضى وقته وأصبح من يفكر بتلك العقلية في أيامنا الحالية بعيداً عن الواقعية والعلم والنظر السليم بعد السماء عن الأرض.

فإذا كان هناك أي نوع من أنواع الغزو في مستقبل الأيام لنشر الإسلام من جديد فسوف يتم عن طريق الغزو الفكري فقط وليس بغيره وهذا هو أمر الله الذي في القرآن وليس هذا اقتراحاً أتبرع به من نفسي.

والغزو الفكري موجود حالياً للفرق المسيحية في جميع أنحاء العالم مستخدمين كل الوسائل العلمية والعصرية. مع أنهم لايحملون فكراً صالحاً للنشر أو الغزو يمكن أن يصمد أمام حوار العقل والمنطق السليم.

وماذا مع المسلمين من شيء إذا دعوا له لن يصمد أمامهم داعيةُ فكر أو دين آخر إلا

وترك حلبة الحوار والنقاش وسلم بعجزه أمامه؟ هل هي روايات مانظنه نحن المسلمين بأنها هي أقوال الرسول وأحاديثه الشريفة وكلها قيل عن قال وكل رواية تنقض أختها، وليس بينها روايتان متطابقتان؟

هل نستطيع أن نغزو فكر العالم اليوم بنفس أفكار مسلمي اليوم وبروايات أبي هريرة وابن مسعود وابن عباس رضي اللهم عنهم التي لانعلم علم اليقين إن كانت صحيحة أو مكذوبة حتى على هؤلاء الصحابة الكرام؟

ليس في الإسلام معجزة خالدة سوى كتاب الله الذي بين أيدينا نحن المسلمين وهجرناه إلى كتب أخرى نظن فيها الخير والنور والهداية، والله سبحانه وتعالى الذي هو أصدق القائلين يقول لنا في كتابنا الذي نسيناه ﴿ومايتّبع أكثرُهم إلّا ظناً إن الظنّ لايُغني من الحقّ شيئاً﴾[1] وماقال لنا ربنا إلا الحقيقة.

فأصبح كل مامعنا نحن المسلمين فيما عدا القرآن بعد هذه الآية لايساوي شيئاً أبداً بل وجوده أصبح ضاراً لأنه جعلنا نشرك بكتاب الله كتباً أخرى، ضلتنا عن سبيل الله الواحد إلى سبل متفرقة كما تشاهدونه بأعينكم من واقع حالنا اليوم. وليس بعد رؤية العين كيف؟

إن معجزة الإسلام الدائمة هي القرآن الكريم. كتاب الله الدائم بمشيئته سبحانه بين أيدي الناس من دون تحريف أو تبديل أو تشطيب. ودليل ذلك كله موجود في ذات الكتاب بإحصاء آياته وكلماته وأحرفه التي بيناها كلها في فصل الإعجاز العددي في القرآن الكريم من هذا الكتاب.

إذاً ليبعد كل إنسان منا عواطفه وأهواءه لحظة ثم يفكر بعقله وحده سيجد الإجابة العلمية والصحيحة عن التساؤل الهام التالي:

أين تقع معجزة الإسلام من كل التراث الإسلامي الهائل المكتوب على آلاف الكتب والمستنسخات؟

إننا في واقع الأمر بالكتب التي أوجدناها بأيدينا، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داوود والترمذي لانختلف عن أي دين من أديان الأرض الباقية مع الناس إلى اليوم ابتداءً من كونفوشيوس وبوذا وانتهاءً باليهودية والمسيحية كلنا سواء وكلنا حرّفنا بل وتنافسنا في التحريف في أدياننا كما نشاء، علماً أن كل ديانات الأرض أصلها

---

(١) سورة يونس: ٣٦

واحد من الله سبحانه وتعالى، وأتت كلها بالإسلام وحده، لأنه ليس عند الله الواحد أديان متعددة فحرف كل الناس أديانهم التي وصلتهم عن طريق رسلهم بحسب أهوائهم وماتمليه عليهم شياطينهم:

﴿إنَّ الذينَ ارتدّوا على أَدبارِهِم من بعد ماتبيَّن لهم الهدى الشيطانُ سوّلَ لهم وأملى لهم﴾(٢)

فأصبحت كل الأديان تختلف عن ذلك الموجود في القرآن الكريم لايشذ عنه دين واحد بما فيه دين المسلمين اليوم، ولاأقول دين الإسلام لأن دين الإسلام لازال محفوظاً باقياً في كتاب الله الذي بين أيدي المسلمين، والذي أتانا بدايةً على لسان الرسول الكريم فأصبحت طاعة ماورد فيه من تعليمات وأوامر من طاعة الله والرسول وستبقى كذلك إلى يوم يبعثون. فاسم الرسول محمد صلوات الله عليه سيبقى مقروناً بالإسلام مابقي الإسلام على هذه الأرض، ودين الإسلام الذي هو رسالة الله الدائمة لبني الإنس والجن سوف يبقى رسالة دائمة ومستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وعلى المؤمن بهذه الرسالة أن يؤمن أول مايؤمن بأنه لاشفاء لأمراض الإنسان الفردية النفسية والأمراض الاجتماعية إلا بهذه الرسالة المهجورة اليوم من كل الإنس على سطح هذه الكرة الأرضية تقريباً. وهذه الرسالة بحاجة إلى دعوة صادقة يقوم بها المؤمنون من جديد على أنها هي رسالة الله الدائمة لكل البشر، وأن هذه الرسالة سوف تعم يوماً ما كل البشر فتصبح رسالة الإنسانية جمعاء تصديقاً لخبر أصدق القائلين في كتابه العزيز حين يقول:

﴿كتَبَ اللهُ لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويٌ عزيزٌ﴾(٣)

﴿إنّنا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا﴾(٤)

﴿وإن قوتِلتُم لننصرنّكم والّلهُ يشهدُ أنهم الكاذبون﴾(٥)

﴿لينصرنّ الّله من ينصرُه إنّ الّله لقويٌ عزيزٌ﴾(٦)

والله سبحانه الذي أرسل القرآن الكريم ويعرف مافيه من معجزات علمية ورياضية ويعرف أن هذه المعجزات لن تظهر للناس إلا بعد القرن العشرين حتى يظهر مَنْ المؤمنون به وبرسالته العالمية في ذلك الوقت ﴿وما أرسَلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾(٧)

والله سبحانه وتعالى يعلم أن هذه الرسالة التي كلها حق ونور وعدل وعقل ومنطق

---

(٢) سورة محمد: ٢٥ | (٤) سورة غافر: ٥١ | (٦) سورة الحج: ٤٠
(٣) سورة المجادلة: ٢١ | (٥) سورة الحشر: ١١ | (٧) سورة الأنبياء: ١٠٧

وعلم تحتاج في نشرها وللدعوة إليها لعقول نيرة مستنيرة تستخدم في نشرها أساليب العلم والمنطق. وتجادل بالتي هي أحسن بالحجة والبرهان وليس بالسيف والساطور:

﴿لاإكراهَ في الدين قد تبيّنَ الرّشدُ من الغيّ﴾(٨)

والإنسان بعد ذلك حر فيما يختاره من سبيل:

﴿فمنْ شاءَ فليؤمنْ ومن شاءَ فليكفُر﴾(٩) والدعوة سلمية بالحكمة والموعظة الحسنة:

﴿ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَة﴾(١٠)

وبهذا الأسلوب يمكن للمسلم المتعلم المثقف الموهوب أن يكون داعية للإسلام، أن يتخطى الدفاعات والحصون والقلاع إلى نفوس الناس حاملاً لهم نور الله وهديه الحقيقي، وليس خليطاً عجيباً لرؤى وخيالات وأكاذيب عصر الانحطاط الإسلامي وطغاته وشياطينه التي يمجها العقل السليم وينفر منها، ويعلم أن لانور ولاحق فيها إلا الأوهام والظنون وكما قلنا فالمسلم الداعية يجب أن يكون مسلماً أولاً بالإيمان. ولكن الإيمان بماذا؟ وبالتحديد!

يجب على المسلم المعاصر أن يؤمن بالله وحده ولايشرك بالله شيئاً وبأنه لاكتاب للإسلام إلا كتاب واحد هو القرآن الكريم. وبأنه لاسنة لله إلا ماسنّهُ في ذلك الكتاب الذي بيّنه للناس أجمعين وبأنه لاحديث إلا حديث الله وحده، الذي أنزله سبحانه على قلب رسول الله محمد ﷺ في آيات القرآن الكريم وحياً من عنده وحده.

﴿فبأيِّ حديثٍ بعد اللّهِ وآياتِهِ يؤمِنون﴾(١١)

وأن يؤمن المسلم بعد ذلك كله بأن كل ماعدا ذلك لايتعدى الظنون والأوهام والأباطيل، التي أدخلها شياطين الإنس للدين لغايات دنيوية فتبعها الناس ظلماً لأنفسهم وضلالاً وضياعاً عن الصراط المستقيم:

﴿فويلٌ لّلذين يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عندِ اللّه فويلٌ لهم مما كتَبَتْ أيديهم وَوَيلٌ لهم ممّا يكسبونَ﴾(١٢)

ـ ألم يكتبوا الأحاديث عن الرسول الكريم وهم يعلمون بأن الرسول قد أمرهم بعدم كتابتها، ومن كتب أمره بأن يحرق ماقد كتب.

---

(٨) سورة البقرة: ٢٥٦
(٩) سورة الكهف: ٢٩
(١٠) سورة النحل: ١٢٥
(١١) سورة الجاثية: ٦
(١٢) سورة البقرة: ٧٩

ـ ألم يقولوا بعد أن كتبوا تلك الأحاديث بأنها أيضاً وحي من الله سبحانه وبأنها تمثل آيات الحكمة؟ واستدلوا على ذلك بآيات في القرآن مثل ﴿ويزكّيكم ويعلّمكم الكتابَ والحكمةَ﴾(١٣)

فقالوا: الكتاب هو القرآن والحكمة هو الحديث النبوي الشريف. علماً بأننا قد برهنا في هذا الكتاب بأنه لاكتاب ولاوحي أنزل من الله سبحانه إلا القرآن الذي حفظه لنا الله سبحانه سليماً لاينقصه حرف وليس فيه تناقض أو اختلاف على الإطلاق، ثم نبهنا جميعاً أنه إذا ادعى أحد من الناس يوماً أن هناك كتاباً آخر مع كتاب الله أنزله الله للناس كيف بإمكاننا أن نكشف لكل المدعين كذب دعواهم في الآية التالية:

﴿ولو كان من عندِ غيرِ اللّه لَوَجَدُوا فيهُ اختلافاً كثيراً﴾(١٤)

وهل في كل الكتب التي يدعيها المدعون بأنها من الله سبحانه إلا الاختلاف الشديد؟ وقد برهنا على ذلك في مكانه في الكتاب الثاني دين السلطان ـ ببحث شامل في كتابَيْ صحيح البخاري ومسلم، ودراسته حديثاً حديثاً دون إغفال حديث واحد. والله الموفق دائماً وعليه توكلنا بعد نعمة من الله سبحانه وفضل بأن أصبحنا مؤمنين.

---

(١٣) سورة البقرة: ١٥١ (١٤) سورة النساء: ٨٢

٩٥ ـ فكرة الجهاد في الإسلام: الدعوة للإسلام نوع من أنواع الجهاد

إن الله سبحانه الذي خلق الكون وخلق الإنسان ويعلم الغيب، كان في علمه ماجرى ومايجري الآن.

والله سبحانه وتعالى يعلم تأثير الزمن المغير لكل شيء، فلا شيء ثابت ولاشيء دائم أو باقٍ سوى الله سبحانه في هذا الكون العظيم:

﴿كلّ مَن عليها فان * ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلالِ والإكرامِ﴾(١)

فالله سبحانه وتعالى تماشياً مع أعراف العصر الذي نزل فيه القرآن ذكر آيات كثيرة مثل:

﴿والمحصَّنات من النساء إلاّ مامَلَكَتْ أيمانُكم﴾(٢)

﴿فما ملكَت أيمانكُم من فتياتِكم المؤمناتِ﴾(٣)

﴿هل لكم من ما ملكَت أيمانُكم من شركاء فيما رزقْناكم﴾(٤)

﴿أو بني أخواتِهِنّ أو نسائِهِنّ أو ماملكَتْ أيمانُهنّ﴾(٥)

وهناك في القرآن ١٥ آية مختلفة تذكر ملك اليمين أي العبيد. وكل هذه الآيات كان لها مفعول عندما كان لايزال في عرف الناس العبد والعبودية، ولم يعد لها أي فعل بعد أن خرجت العبودية من أعراف الناس في العصور الحديثة عصر العلم والنور، عصر الحقائق لاعصر الأوهام والأباطيل.

وقد برهنا في مكان سابق كيف فهم الصحابة الأولون هذه الأمور فضربنا بعمر بن الخطاب مثلاً كيف فهم هذا التطور الزمني لأحكام القرآن وآياته عندما أبطل مفعول كلمة المؤلفة قلوبهم والحق الذي كان لهم في بداية الإسلام فأوقفه عمر رضي الله عنه عندما تبدلت الظروف ولم يعد المسلمون بحاجة لائتلاف قلوب الكفار أو الداخلين الجدد للإسلام ترغيباً وتحبيباً بدفع المال لهم من أموال المسلمين.

وهكذا ليس في أحكام القرآن الكريم أي حكم لايقبل للاجتهاد فيه إلغاءً أو تبديلاً أو

---

(١) سورة الرحمن: ٢٧
(٢) سورة النساء: ٢٤
(٣) سورة النساء: ٢٥
(٤) سورة الروم: ٢٨
(٥) سورة النور: ٣١

باستنباط الأحكام الجديدة بحسب تغير الزمان والمكان.

وينطبق هذا فيما ينطبق من الآيات على آيات الأحكام في الإسلام الذي هو الشرع الإسلامي الحنيف.

أما مَنْ يظن أن كلمة الجهاد تعني القتال في آيات الله في القرآن يكون من أكبر الواهمين والدليل في آيات الله نفسها:

﴿وإنْ جاهداكَ لِتُشرِكَ بي ماليَسَ لكَ به علمٌ فلا تُطِعهُما﴾(٦)

﴿وإنْ جاهداكَ على أن تشرِكَ بي ماليس لكَ به علم فلا تُطِعْهُما﴾(٧)

﴿إنَّ الذينَ آمنوا وهاجَروا وجاهَدوا بأموالِهِم وأنفسِهِم في سبيلِ اللّه والذين أوَوا ونَصَروا أولئك بعضُهم أولياءُ بعض﴾(٨)

﴿إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللّهِ ورسولِه ثم لم يرتابوا وجاهَدوا بأموالِهِم﴾(٩)

﴿وجاهَدوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ﴾(١٠)

والمسلمون الأوائل الذين كانوا يتحملون ويصبرون على أذى المشركين والكفار من قريش ومن غيرهم كانوا يجاهدون في سبيل الله وإن كانوا لايقاتلون بالسيف والرمح، بتحملهم وبصبرهم.

وحتى نتبين حالة القتال بالذات ونميزها عن حالة الجهاد فقد ذكرها الله لنا سبحانه في آيات كثيرة في القرآن مثل:

﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلَموا أنّ اللّهَ سميعٌ عليم﴾(١١)

﴿فقاتِلوا أئمةَ الكفرِ إنّهم لاإيمانَ لهم لعلّهم يَنتَهون﴾(١٢)

﴿قاتلوا الذينَ لايؤمنون باللّهِ ولاباليومِ الآخرِ﴾(١٣)

﴿وقاتِلوا المشرِكينَ كافّةً كما يقاتِلونَكُم كافّة﴾(١٤)

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتِلوا الذين يَلُونَكُم من الكفّار﴾(١٥)

والقتال حالة خاصة تختلف عن حالات الجهاد سمح بها الله سبحانه لأنها كانت

---

(٦) سورة العنكبوت: ٨
(٧) سورة لقمان: ١٥
(٨) سورة الأنفال: ٧٢
(٩) سورة الحجرات: ١٥
(١٠) سورة الحج: ٧٨
(١١) سورة البقرة: ٢٤٤
(١٢) سورة التوبة: ١٢
(١٣) سورة التوبة: ٢٩
(١٤) سورة التوبة: ٣٦
(١٥) سورة التوبة: ١٢٣

ضرورية في بداية الإسلام، ولولا القتال وقتها لقضي على المسلمين ولما انتشر الإسلام. والله سبحانه يعلم هذا لذلك بعد أن انتشر الإسلام وقوي أنسى الله سبحانه وتعالى آيات القتال وأرسل بدلاً عنها الآيات التي تقول:

﴿لاإكراهَ في الدين قد تبيّن الرشدُ من الغيّ﴾(١٦)

﴿فمن شاءَ فليؤمن ومن شاءَ فليكفُر﴾(١٧)

﴿ادعُ إلى سبيلِ ربّك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنة﴾(١٨)

ومن يظن بعد ذلك أن الإسلام انتشر بالسيف في الفتوحات الإسلامية يكون أيضاً واهماً ـ لأن غاية الفتوحات كانت بهدف الدفاع عن النفس لأن الروم والفرس كانوا قد عزموا القضاء على الإسلام والمسلمين. وكل المسلمين كانوا يعرفون ماهي الآيات التي بقيت فعالة في آيات القتال ولم تُنْسى بعد مثل الآيات التالية:

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحِوا بينهما فإنْ بغَتْ إحداهُما على الأخرى فقاتِلوا التي تبغي حتى تَفيءَ إلى أمر الّله فإن فاءَت فأصلِحوا بينَهما بالعدلِ وأقسِطوا إنّ الّلهَ يحبُّ المقسِطين﴾(١٩)

﴿وقاتلوا في سبيلِ الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إنَّ الّلهَ لايحبُّ المعتدين واقتلوهم حيث ثَقِفْتُموهم وأخْرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ولاتقتلوهم عند المسجدِ الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتُلوهم كذلك جزاءُ الكافرين﴾(٢٠)

﴿أُذِنَ للّذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا وأنّ الّلهَ على نصرِهم لقدير* الذين أُخرِجوا من ديارِهم بغيرِ حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الّله﴾(٢١)

وهذه الآيات باقية مابقي الإسلام لأن دين الحق هو دين الأقوياء ولايقبل الله سبحانه لأتباعه المؤمنين به الذل والخنوع أبداً، فإذا قوتلوا ظلماً وأخرجوا من ديارهم من غير حق فلهم الحق دائماً بأن ينتصروا لأنفسهم ويقاتلوا الذين أخرجوهم كافة من دون رحمة ولاشفقة طالما لم يراعوا عندما اعتدوا قانوناً ولاعرفاً في عدوانهم على المؤمنين وحروب عصر عمر بن الخطاب كانت من هذا النوع فقط.

في يد من تكون سلطة القتال في سبيل الله في الإسلام؟

---

(١٦) سورة البقرة: ٢٥٦
(١٧) سورة الكهف: ٢٩
(١٨) سورة النحل: ١٢٥
(١٩) سورة الحجرات: ٩
(٢٠) سورة البقرة: ١٩٠ ـ ١٩١
(٢١) سورة الحج: ٣٩ ـ ٤٠

قد بينا سابقاً أن كل آيات القتال في سبيل نشر الإسلام والدعوة الإسلامية قد أُنْسيَتْ وتوقف مفعولها كلها وبقي مفعول القتال للآيات الأخرى التي بيناها بعد ذلك لكن سلطة القتال فيها تكون لأولي الأمر من المسلمين فليس من حق المسلمين أن يقاتلوا بشكل إفرادي اعتباطي أو فوضوي وكل مسلم على هواه وإنما تحت قيادة سياسية موحدة تضم باقي مسلمي البلد أو الإقليم أو الأمة وبحسب نص الآية التي تحدّد الإطاعة وحقوقها:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ وأوُلي الأمِر منكم﴾(٢٢)

حتى يكون للقتال هدف وغاية تريد المجموعة الإسلامية أن تتوصل إليها من خلال القتال الذي يشترط فيه أن يكون رداً لقتال أو ظلم وبغي بإخراج من الديار. أما إذا تساءلنا كيف أصبح مسلمو اليوم يخلطون بين الجهاد والقتال في سبيل الله في عقيدة المسلمين؟

فهذا من أعقد المواضيع التي تصديت لها وبحثتها بالتفصيل في بحث خاص عنوانه (الجهاد في الإسلام) في كتابي الثاني (دين السلطان)، ولكنني سوف أذكر هنا بعض الحقائق القرآنية لفهم الموضوع بشكل مبدئي في هذا الكتاب الذي لامجال فيه للبحوث الموسعة، خاصة وأن المسلم الذي مازلت أحاوره غالباً مازال تحت تأثير أوهام أكبر وضلالات أهم ورثها عن آبائه، الذين ظُلموا بها فظلموه من دون علم وإدراك بحقيقة مايفعلون.

باختصار: لقد كان للسلطان مصلحة مادية دنيوية كبيرة في قلب آيات الجهاد الدائمة في الإسلام، والتي ليس فيها عنف وقتال ودم أصلاً وجعلها آيات مترادفة مع آيات القتال، بحيث جعل من دين الإسلام الذي يدعو الناس للسلام دينَ عنفٍ وقتال دائم لم يتوقف طوال حكم السلاطين، وذلك كله من أجل جمع الغنائم والسبايا من كنوز الأمم التي يفتحها جنودهم باسم الجهاد والمجاهدين ونشر الإسلام، ظلماً لنفسه بتغيير الحق وتحريفه، وظلماً للناس من المقاتلين، وظلماً لعباد الله الآخرين من شعوب الله الآمنة التي كان السلطان يُرَوِّعُهم بالسَّيف تحت راية نشر الإسلام والسلام. علماً أن الدعوة الصحيحة كما يأمر بها رب العالمين في لقرآن الكريم يجب أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة:

---

(٢٢) سورة النساء: ٥٩

﴿ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَة﴾[٢٣]

وما الجهاد مع تلك الدعوة إلا مايتحمله الداعية من أموال ونفقات وسفر وترحال خاصة في تلك الأيام قاطعاً البراري والقفار والصحارى مع الصبر على قلة الطعام والمياه والتعرض للمخاطر والزوابع والعواصف الرملية، فكل ذلك كان يسمى جهاداً بالمال والنفس، أي يشترك فيها الإنسان في نشر الدعوة بنفسه وبماله. وهناك من الناس من لايستطيعون ذلك، إما لانشغالهم في عمل أو تجارة، أو أن أجسادهم وأعمارهم لا تساعدهم على تلك المشاق فكانوا يساهمون بأموالهم.

ولكن الله سبحانه دقيق جداً باستخدام العبارات والكلمات في القرآن، لذلك لا يسمي هؤلاء من المجاهدين، لأنهم لم يبذلوا جهداً وإنما بذلوا أموالاً فقال عنهم سبحانه:

﴿مَثَلُ الذينَ يُنفقونَ أموالَهُم في سبيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سبعَ سنابل في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبّةٍ واللّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يشاء﴾[٢٤]

أما الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم يقول عنهم سبحانه:

﴿الذين آمنوا وهاجَرُوا وجاهدوا في سبيلِ اللّهِ بأموالِهِم وأنفسِهِم أعظمُ دَرَجَةً عندَ اللّهِ﴾[٢٥]

لذلك لانجد في القرآن جهاداً بالأموال لوحدها ـ لأننا لو فكرنا لوجدنا أن الذي يدفع المال فحسب لا يشارك بالجهد. فالقرآن لايقول إلا حقائق، ولو قال: جاهدوا بأموالهم؛ لصار هذا وهماً كما حدث في الوحي الثاني الذي ادّعاه جنودُ السلطان ظلماً في الأحاديث التي نسبوها تحريفاً للرسول الكريم. لذلك عندما نقرأ في القرآن الكريم:

﴿أَمْ حَسِبتُم أنْ تدخلوا الجَنّةَ ولمّا يَعْلَمُ اللّهُ الذين جاهَدوا منكم ويعلَمُ الصابرين﴾[٢٦]

فالله سبحانه يقصد فقط الذين ساهموا بأنفسهم وجاهدوا وصبروا على المتاعب في سبيل نشر دعوةِ الإسلام وتعليم المسلمين الجدد مبادئ الإسلام والقرآن.

كما أن الناس الذين يشتركون مع المقاتلين ويتولّون مثلاً شؤون التموين والإمداد أو شؤون التمريض والعناية بالجرحى، أو يساعدون في مواضيع أخرى ولايشتركون فعلياً في عمليات العنف والقتال يمكن أن نسمي عملهم جهاداً، لأن مافعلوه يقتصر على

---

(٢٣) سورة النحل: ١٢٥

(٢٤) سورة البقرة: ٢٦١

(٢٥) سورة التوبة: ٢٠

(٢٦) سورة آل عمران: ١٤٢

الجهد الإنساني الذي قدموه. وكذلك الخروج بالسلاح للدفاع عن الحق، مع عدم الاشتباك مع العدو في قتال وعنف قتالي حقيقي، يندرج أيضاً تحت الجهاد، لأن الجنود لم يمارسوا القتل، فكل مافعلوه كان جهداً إنسانياً بذلوه في سبيل الله والإسلام. وآيات الله شاهدةٌ على ذلك:

﴿انْفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهِدُوا بأموالِكُم وأنفسِكُم في سبيل اللهِ﴾(٢٧)

هذا وقد برهنت بثلاثة براهين في بحث (الجهاد في الإسلام) الذي ستقرؤنه في الكتاب الثاني (دين السلطان) أن الجهاد ليس هو القتال. وذلك باختصار كما يلي:

أولاً: أ ـ آيات الجهاد وردت في كل القرآن الكريم في القسم المكي والقسم المدني.

ب ـ آيات القتال وردت فقط في القسم المدني، لأن الله سبحانه لم يسمح للرسول بقتال المشركين إلاّ بعد الهجرة للمدينة المنورة.

ثانياً: أ ـ آيات الجهاد كلها لم يرد فيها أي ذكر عن عنف وقتال، لذلك لا نجد في تلك الآيات أي ذكر لضحايا وشهداء وقتلى أو جرحى.

ب ـ آيات القتال يرافقها عنف وقتال وضرب فوق الرقاب بالسيوف ويرافقها ذكر لقتلى وجرحى.

ثالثاً: البرهان بدليل آيات القرآن أن أسلوب القتال لنشر الدعوة في الإسلام سمح به الله سبحانه لحالة خاصة ـ وفي حاة الرسول فقط من أجل تثبيت عاقدة قوية للإسلام في الجزيرة العربية قبل توقّف الوحي من السماء وذلك طبعاً قبل وفاة الرسول محمد ﷺ بدليل قول الله سبحانه:

﴿فقاتِلْ في سبيلِ اللّهِ لا تُكَلَّفُ إلا نفسَكَ وحَرِّضْ المؤمنين عسى الله أن يكفَّ بأسَ الذين كفروا﴾(٢٨)

وهذا النوع من القتال أبقاه الله تحت إشرافه المباشر، وذلك باتصاله الدائم وتوجيهه للرسول، حتى لايقع المسلمون في أي أخطاء بارتكاب مظالم كثيرة يمكن أن تقع لولا ذلك الإشراف من قبل الجنود مثل: قتل الأطفال أو النساء أو الشيوخ دون وجه حق، سوف تؤثر سلباً على نشر الدعوة الإسلامية التي مازالت فتية.

وإذا تأملنا العبارة القرآنية في الآية: لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ

---

(٢٧) سورة التوبة: ٤١ (٢٨) سورة النساء: ٨٤

لعلمنا مشيئة الله بإنهاء هذا النوع من العنف الاضطراري كما يقول سبحانه ﴿عسى الله أن يكفَّ بأسَ الذين كفروا﴾

على الأقل حتى يشتدّ عودُ المسلمين ويقوى.

فالذي يزرع شتلة صغيرة لشجرة سنديان، يحاول في الفترة الأولى أن يحميها بشتى الوسائل من عبث الأطفال، ويبعدها عن الحيوانات مثل الماعز التي يمكن أن تنهيها بقضمة واحدة من أسنانها، ولكن يتوقف عن كل تلك الوسائل من الحماية بعد أن يغلظ ساقها وتمتد جذورها وتتفرع أغصانها عالية في السماء بعيداً عن متناول الأطفال والحيوانات. فهذا هو ما حاول سبحانه أن يفعله في بداية الإسلام وربط كل ذلك كله بحياة الرسول بعبارة واضحة لا يمكن تأويلها إلا تحريفاً وهو قوله سبحانه ﴿لا تُكَلَّفُ إلا نفسَكَ﴾ معنى ذلك بوضوح أن هذا النوع من أسلوب نشر الدعوة يجب أن يتوقف فوراً بعد انتقال نفس الرسول إلى بارئها راضية مرضية بعد أن بلغت رسالة ربها للناس. ولكن الله سبحانه أكد على ذلك بآيات قرآنية قبل وفاة الرسول أيضاً. وذلك بإنساء آيات القتال وتوقيف عملها بإرسال آياتٍ أخرى لتحل محلها. ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّنَ الرّشدُ من الغيّ﴾(٢٩)

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاءَ فليكفر﴾(٣٠)

بعد هذه الآيات لايمكن أن نقول للناس بوجود دعوة إلى الإسلام بالسيف بل عادت الدعوة إلى الأسلوب الذي يجب أن تكون إليه كل دعوة لله:

﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة﴾(٣١)

صدق الله العظيم

---

(٢٩) سورة البقرة: ٢٥٦ (٣٠) سورة الكهف: ٢٩ (٣١) سورة النحل: ١٢٥

٩٦ ـ هل يجوز للمؤمن الذي يسعى إلى التغيير باستخدام العنف والقتل وسيلة لإعادة الإسلام الصحيح لدى الناس؟

المسلم المؤمن الغيور على دينه وإسلامه وإيمانه، والمحب لإعادة عزّ الإسلام مرة أخرى يجب أن يعلم موقف الله تعالى معرفةً تامة لاتحوطها الشبهات ويجب على من يريد الحصول على تلك المعرفة أن يلجأ إلى آيات الله في القرآن الكريم دون اللجوء إلى ماسواه من الأوهام التي تضيّع عليه جهوده وربما ضيّع بها دنياه وآخرته دون علم ولاهدى ولاكتاب منير.

يجب على المؤمن أن يكون علمياً بتفكيره. والعلم نور يضيء الطريق دائماً، ومن يتبع العلم وأساليب العلم لايمكن أن يتوه أو أن يضل السبيل، أما من اعتمد الأوهام والأباطيل من الأقاويل فإن باب الضياع فيها سهل وسريع. والعلم الذين نعرفه اليوم يثبت أنّ كل لحظة تمرّ على الكون يتغير فيها الكون كلّه بمقدار تلك اللحظة بشكل لايمكن أن تقول: إن أي لحظة مرت من يوم خلق الكون إلى الآن لحظة تشبه اللحظة التي سبقتها، فالأرض في تلك اللحظة قد غيرت مكانها كلّه، وكذلك القمر والشمس والنجوم والمجرات، كل شيء في الكون يتغير من لحظة إلى أخرى وكذلك الإنسان، كل دقة من قلبه تقربه من أجله المسمى لحظة للأمام، وهكذا تمضي الطفولة والشباب فتأتي الكهولة فالشيخوخة فالموت وكل شيء يتجدد، لكن الجديد لايمكن أن يشبه الجديد القادم، كل شيء متطور ومختلف وهذه هي سنة الحياة وسنة الله سبحانه وتعالى في هذا الكون الرائع العظيم، وكل من يتخيل أنه بإمكانه الرجوع إلى الخلف خطوة واحدة في الزمن واهم ـ لكنّ الممكن الحصول هو أن الإنسان إذا كان في نعيم مقيم وكان لنعيمه هذا سبب لم يحصل هكذا بالمصادفة بل تعب في تحصيله آباء وأجداد فيأتي جيل لايقدّر تعب الأجداد ولايعلم أن سبب السعادة والنعيم الذي ينعم فيه كان بسبب سعي الآباء وعملهم باتباع سنن الله وقوانينه وتعليماته وصراطه المستقيم فأثابهم الله في الدنيا باتباع تعاليم القرآن، فيأتي الجيل الجديد ويترك طريق آبائه وأجداده ويتبع أهواءه ونفسه الأمارة بالسوء، فتسوء الأمور وتنقلب أمورهم من نعيم إلى تعاسة وبؤس وشقاء يعذبهم الله في الدنيا بأعمالهم وعلى هؤلاء تصدق الآية الكريمة:

﴿ذلك بأن اللّه لم يكُ مغيِّراً نعمةً أنعمَها على قومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهِم﴾[1]

وقد حدث هذا مع المسلمين، ومنذ ألف سنة إلى اليوم لم تر الأجيال كلها نعمة واحدة إلا شقاءً وعذاباً مهيناً، لماذا؟ الجواب ببساطة: لأننا لجهلنا صدّقنا بعض أصحاب المصالح من الإنس، الذين دعونا إلى ترك القرآن الكريم واستبداله جهلاً وضلالاً بكتاب آخر ظننا أن فيه الخير العميم وماكان فيه إلا الأوهام وهانحن في الألف الثانية من تاريخنا ولم نر يوم نعيم واحداً بعد أن تركنا منهج الله منهج الرحمن في القرآن، الذي كان رسالة الإنسان على هذه الأرض حتى نعيش بسلام وأمن واطمئنان، فبادلنا الغالي بالرخيص وماربحت تجارتنا ومانحن إلا في خسران مبين من يوم إلى يوم. والشباب يسعون من جديد للتغيير ولايعلمون أن كل حركة من الإنسان يجب أن تكون بعلم، وهل لنا من علم حقيقي لاشك فيه مثل كتابنا العزيز، قرآننا العظيم، رسالة الإسلام إلى كل هذا العالم التعيس؟! اليوم ـ فماذا يقول الله تعالى عن أسلوب الدعوة لهذا الدين العظيم علماً أني قد شرحت قبل قليل أن التفكير بأن نعود للخلف، إلى عهد الصحابة والرسول غير ممكن، فما مضى قد مضى ولن يعود، وإذا كان من الممكن إعادة ذلك الزمان لكان أيضاً في الإمكان إعادة الصحابة، وخالد بن الوليد وعمربن الخطاب، ولكن لاتحلموا بالمستحيل، لن نستطيع أن نعود للخلف خطوة واحدة، بل خطوة للأمام دائماً مع الزمن. هل رأيتم يوماً الشمس تعود من المغرب إلى المشرق؟ وكأنه يعود للخلف، لن تروا هذا المنظر إلى يوم يبعثون، فالشمس دائماً سوف تسير على نفس الاتجاه، والزمن لايعود إلى الوراء ومن مات لايعود إلى الحياة، لكن الأفكار الصحيحة لاتموت والقرآن حيّ متجدد مع الزمان، إنه جاهز ليتمشى معنا إن كنا نحن جاهزين أن نتقدم للأمام.

إذاً في الخطوة الأولى يجب أن ننسى الماضي كله، والذي علينا أن نتذكره هو أمر واحد، أن الله أرسل لنا من السماء برقية إنذار اسمها القرآن.

وإذا فتحت القرآن وقرأته سوف تجد الحق كله دون وهم ودون ضياع ودون ضلال، والله تعالى قد صاغ هذا القرآن وهو يعرف إمكانيات من خلق أم هل نسيت أنه هو الذي خلقنا؟ إذن فهو الوحيد الذي يعرف إمكانياتنا في الفهم. القرآن فيه قسمان قسم هو القرآن لن يفهمه كلّه بشر ولو حاول لأنه بحر عظيم، وفيه قسم آخر هي الرسالة،

(١) سورة الأنفال: ٥٣

وآياتها واضحة وليس فيها غموض لمن أراد أن يفهم، وكلها تقول له ماذا يجب أن يفعل وماذا لايجوز أن يفعل. وأين تبدأ حقوقه وأين تنتهي، وماهو الحلال وماهو الحرام، ويشرح له الله تعالى بنود الصراط المستقيم ويبين له العبادات. إن هذا الجزء لن يضل فيه إنسانٌ فهو سهل والقسم الآخر لاتتعب نفسك فيه فهو للعلماء والراسخين في العلم من علماء الفلك والفيزياء والعلوم الأخرى فيها أسرار كثيرة من أسرار تلك العلوم، هي كلها معجزات إلهية شاهدة لهذا الدين بأنه من عند الله وحده فيكثر عدد المؤمنين به من كل فئات الناس ومن كل أمم الأرض وأجناسها. وكل مايهمك أن تفهم آيات الرسالة وكيف تدعو إلى سبيل ربك:

﴿ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ﴾[٢]

في الولايات المتحدة هناك عشرات من الكنائس والأساليب الجديدة للدعوة للديانة المسيحية لطوائف عديدة ومختلفة، المهم أن الدعوة تتبع هناك العلم والأساليب العلمية.

أولاً: يجب انتقاء الدعاة من الموهوبين، وفق شروط معينة. كأن يكون واسع المعرفة والاطلاع على الموضوع الذي يدعو له ـ بالإضافة إلى كونه مؤمناً مسلماً متحمساً من غير تعصب محباً لله ولرسوله وأن يكون إنساناً طليق اللسان حاضر البديهة ليتصرف بذكاء حسب المواقف والأسئلة المحرجة التي يتعرض لها من الناس.

ثانياً ـ أن يكون إنساناً هادئاً رزيناً لاينفعل أبداً، وكل إنسان إنفعالي يجب فصله فوراً من الدعاة وليس في هذا الموضوع واسطة لأنه يسيء أكثر مما يحسن للدين.

ثالثاً ـ أن يكون حسن الهيئة والمنظر ـ بلباسه وهندامه وأناقته الشخصية دون مبالغة فيها ودون إهمال.

رابعاً ـ أن يكون صادقاً أميناً لطيف المعشر بشوشاً، يتصرف بأدب جمّ ويساعد عند اللزوم ويحبب نفسه للناس من دون مبالغة وإنما عن صدق وعفوية وإيمان بالله.

بمثل هذا الأسلوب يجب أن نعود كلنا إلى إسلامنا مجاهدين حقيقيين من دون عنف بل بالحكمة والموعظة الحسنة ندعو المسلمين كلّهم للعودة إلى القرآن وحده بهذا الأسلوب لإزالة فكرة التشيع فلان سنيّ وفلان شيعي، وفكرة التمذهب هذا حنفي وذاك شافعي وهذا مالكي أو حنبلي، كل هذا من عصر الكهف اللعين يجب أن يكون من الماضي الذي كان كابوساً لنا جميعاً. فالمسلمون كلهم من مراكش وحتى الصين

(٢) سورة النحل: ١٢٥

كلهم إخوة، إلههم واحد، ودينهم الإسلام، ورسولهم محمد رسول الله ﷺ. والرسول موجود معنا في القرآن ففي كل كلمة ـ قُل ـ نتذكره وعلى لسانه نطق القرآن أول مانطق، فهو رسولنا العظيم المحبوب منا جميعاً، ولن ننسى فضله علينا ماحيينا. ومن أجل استعادة القرآن واستعادة قوة الإسلام يجب أن نتوقف عند الرسول فقط لانريد أن نعيد باباً للتشيع لأحد أو التمذهب لإمام، كل ماقاله الرسول الكريم للناس هو القرآن وحده، لم يكن يعرف قبله من شيء ولم يكن له معلم إلا الله، ولم يعلمه الله من شيء سوى القرآن، وهذه حقيقة، فحديث الرسول هو القرآن، وسنة الرسول هي القرآن، ليس في الإسلام كتابان ولاحديثان ولاسنتان، هذا الخلط أضاعنا وأضلنا فوق الألف سنة، كفانا ضياعاً وضلالاً، إنما الهدى هدى الله وإنما النور نور الله، وإنْ بحثنا عن هدى ونور في مكان آخر غير القرآن لما وجدنا شيئاً. والله سبحانه وتعالى يعلم الغيب ويعلم الماضي والمستقبل كله في علمه، ويعلم أننا نتعذب ظلماً من أنفسنا وليس ظلماً منه سبحانه وتعالى، ويعلم أننا سنبحث عن السبيل الصحيح لإعادة نور الله وهديه وصراطه المستقيم إلى الناس الذين أضاعوا أو ضلوا أو ضيعوا كلّ شيء وهذا طبيعي أن يحدث في كل أمة لم تمت، ولكنها ضلت الطريق دهراً من الزمن.

﴿إنّ اللهَ لايغيرّ مابقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسِهم﴾[٣]

الله سبحانه وتعالى يضع لنا القانون الأساسي للتغيير.

قانون فيه بندان، كل بند مرتبط بالثاني ارتباطاً شرطياً.

الله سبحانه يقولها لنا بصراحة. وهو ينتظر حتى نفهم الرسالة.

يقول لنا (أنا الله سبحانه وتعالى قدرت أن لاأغيّر ما بأحوالكم من سوء حتى تبدأوا أنتم أولاً وتغيّروا مافي رؤوسكم كلها من أباطيل وأوهام ودجل وجهل وخرافات وسحر وطلاسم واعتقاد بالأولياء الصالحين وبالكرامات والمعجزات، والاعتقاد بالقدر المكتوب سلفاً للناس من أعمال وأرزاق وأعمار، ومن كسل وتواكل باسم الزهد والتصوف، واعتقاد بعذاب الأموات في القبور إلى آخر تلك الأباطيل وتغيّروها إلى حقّ وحقيقة وعلم وعلوم من جميع الأصناف: الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم الفضاء والبحار وعلم طبقات الأرض وعلم الأحياء والزراعة والتجارة وكل علوم النفس والاجتماع والتقنية الحديثة، والتخلص من كل الأوهام السابقة جملة وتفصيلاً، عندها أنا أيضاً سوف أغير

(٣) سورة الرعد: ١١

أحوالكم إلى قوة واتحاد وعلم ومحبة وعز ونصر وغنى في الحياة الدنيا، ولكم في الآخرة جنة عرضها السموات والأرض تنتظركم جزاء لما قدمت أيديكم من خير في هذه الدنيا ومن نجاحكم في الاختبار العظيم يوم البعث).

وقد يسأل سائل: وكيف لنا أن نعلم متى سيتصل بنا الرحمن إذ ليس بيننا وبينه رسول لينقل لنا أخبار السماء؟

افتحوا القرآن الكريم سوف تجدون أن الله وفى بكل عهوده وبكل مواثيقه مع الناس، وعد زكريا ابناً صالحاً وهو شيخ وامرأته عاقر فأصلح له زوجه ورزقه يحيى نبياً صالحاً، ربما تقولون هذا حدث في الماضي، نريد شيئاً يحدث الآن ومستمر؛ إليكم الأمثلة التالية: دعوات إبراهيم إلى ربه سبحانه وتعالى في الآيات التالية:

﴿وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعل هذا بلداً آمِناً وارزق أهلَه من الثمرات من آمنَ منهم باللهِ واليومِ الآخر قال ومن كفَرَ فأمتّعهُ قليلاً ثم اضطرّه إلى عذابِ النار وبئس المصير﴾(٤)

هذه الدعوة عن مكة وأهلها والله سبحانه وتعالى ملتزم بكل بنود هذه الدعوة بدقة متناهية تدعو للعجب لدرجة المعجزة الدائمة إلى يومنا هذا. في كل الحروب العالمية والحروب الأخرى ظل هذا البلد آمناً إلى اليوم، وأهلها يرزقون من أيام سيدنا إبراهيم وإلى اليوم، ورزقهم يزداد ولاينقص أبداً مع أنهم في وادٍ غير ذي زرع. ومثلها الآية التالية تشهد بذلك:

﴿ربّنا إني أسكنتُ من ذريّتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتِكَ المحرّم ربّنا لِيُقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزُقهم منَ الثمراتِ لعلّهم يشكرون﴾(٥)

﴿ربّنا واجعلنا مسلمينَ لك ومن ذرّيتِنا أمةً مسلمةً لك وأَرِنا مناسِكَنا وتُب علينا إنّك أنتَ التوابُ الرحيم * ربّنا وابعث فيهِم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِكَ ويعلّمهم الكتاب والحكمةَ ويزكّيهم إنّك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾(٦) والله سبحانه وتعالى أيضاً نفذ بنود هاتين الآيتين بدقة متناهية تدعو أيضاً للدهشة. فهذا إعجاز مستمر من الله تعالى، لأن الرسول إبراهيم الخليل دعاه فاستحاب له الدعاء سبحانه ولاتزال الاستجابة مستمرة إلى اليوم ولكن إذا عدنا للآية ١١ من سورة الرعد سوف نجد أن الله سبحانه لم يعدنا أبداً بأن يغير أحوالنا إلا إذا بدأنا نحن الخطوة الأولى وغيرنا ما بأنفسنا من وهم إلى حقيقة ومن عقلية الأساطير إلى عقلية علمية متطورة.

---

(٤) سورة البقرة: ١٢٦ (٥) سورة إبراهيم: ٣٧ (٦) سورة البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩

هل يجوز استخدام العنف في الدعوة إلى الإسلام؟

إن من لم يتفهم معنى الآيات الكريمة التالية لم يتفهم الإسلام الصحيح بعد:

﴿لاإكراهَ في الدين قد تبيّن الرشدُ من الغيّ﴾[٧]

﴿وقل الحقُّ من ربّكم فمن شاءَ فليؤمن ومن شاءَ فليكفُر﴾[٨]

إن قبول الإسلام من قبل العبد ترك بمشيئة الله المسبقة لحرية الإنسان واختياره، وهذه الحرية طالما يحترمها الله سبحانه وتعالى فقد أصبحت مقدسة لايجوز الاعتداء عليها أو سلبها من أي إنسان بأي حجة كانت، ليس المهم أن نجعل كل الناس مسلمين. فها نحن مليار مسلم وليس لنا وزن ولاقيمة في العالم اليوم تساوي قيمة ذبابة، فهل بعد هذا نتوهم ونظن من جديد ونضيف إلى أوهامنا وهماً جديداً؟ المشكلة أننا كلنا نحاول أن نعالج أمراضنا بالأوهام، لأنه لم يبق في رأسنا إلا منها:

(مصطفى أتاتورك) توهم أن التغيير لابد حاصل إذا غير الشروال بالبنطال والطربوش «بالكاسكيت» - فماذا غيّر؟ - غيّر المظهر وترك الجوهر، فبقي التركي بالبنطلون والكاسكيت تركياً، جاهلاً ومتأخراً وأسوأ مما كان بالشروال والطربوش، لماذا؟

لأنه غيّر المظهر ولم يغيّر مافي نفوس الأتراك من جهل وأوهام واعتقادات باطلة، وغيّر أحرف الكتابة العربية إلى اللاتينية ظناً أن الأوهام تأتيه من القرآن الكريم، هكذا وهماً وظلماً لنفسه ولشعبه، واليوم يعود الأتراك إلى تعلم القرآن وقراءته، والعودة إلى دينهم الصحيح للخلاص مما هم فيه، من جهل ووهم وفقر وتأخر.

من كان يعتقد ويظن أن الناس قديماً قد أدخلوا للإسلام بالعنف باحتلال بلادهم عنوةً يكون مخطئاً وواهماً. الإسلام لم يحتل ويستعمر البلاد ولم يدخلها عنفاً إلا من طواغيتها. الشعوب كلها استقبلت المسلمين وقبلت بالإسلام خلاصاً لما هي فيه من ذل وعذاب وهوان من الطواغيت. البلد الوحيد الذي استخدم فيه العنف بشكل زاد فيه عن الحد ودخل شيطان الاستعمار إلى قلوب الناس حصل في إسبانيا، فلم تقبل إسبانيا على الإسلام مثل باقي البلاد لأنهم رفضوا أسلوب العنف من الأساس. لايكره الإنسان على الإيمان بأي شيء، إن منطقة الاعتقاد مصونة من قبل الله بحرية الإنسان وعقله واختياره، ولذلك كل من يفكر بالعنف وسيلة لإعادة تحبيب الناس بالإسلام واهم، وكل ماسيفعله مستخدم العنف هو إبعاد قلوب الناس عن الإسلام، وتنفيرهم منه

---

(٧) سورة البقرة: ٢٥٦ (٨) سورة الكهف: ٢٩

وإعطائهم فكرة خاطئة عن الإسلام لأن من كان في قلبه ذرة حب وهوى من نفسه باتجاه الإسلام سوف يتخلص منها، بل سيجعلها قوة معاكسة كرهاً وصداً للإسلام وأهله.

إن استخدام العنف في الإسلام تكون له نتائج مدمرة على كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. العنف غير وارد كأسلوب إسلامي على الإطلاق نحن نقول: دين سلام فنقلبها إلى دين دم وقتل وإكراه وحرب ودمار وتخريب، إنها جريمة لاتغتفر، وأكبر من جرمنا في حق أنفسنا بالجمود والرقود بالبقاء في أوهامنا مدة ألف عام ويزيد.

إن الأسلوب الوحيد للتغيير هو أسلوب الدعوة الصحيحة، الدعوة للمسلمين وليس لاتباع باقي الأديان، أقول دعوة لأن الدين الذي معنا هو دين آخر يختلف عن دين الله في القرآن الكريم كاختلاف الليل عن النهار. ويبعد عنه كبعد السماء عن الأرض.

والله سبحانه وتعالى يعلم أننا قد أشركنا معه الرسول بالحديث والسنة ولذلك يقول لنا سبحانه وتعالى: ﴿ومايؤمنُ أكثرُهم بالّله إلّا وهم مشرِكون﴾[٩] فحصلنا على غضب الله عن جدارة بعد أن ضللنا السبيل وأصبحنا نتبع الأوهام والظنون بدل أن نتبع القرآن الذي أرسله الله منهجاً لديننا ودنيانا وآخرتنا - والتي ليس فيها إلا الحقائق، بينما ليس في رؤوسنا نحن إلا الأوهام والأباطيل التي نظنها وهماً وتخميناً أن الرسول قد قالها. وهل أتانا الرسول إلا بالقرآن الكريم؟ وهل علمه الله علماً غير القرآن الكريم؟ وكل هذه الأوهام تناقض القرآن جملة وتفصيلاً. فمن أين أتتنا كل هذه المصائب إن لم تكن من شياطيننا؟ فإذا قال الله تعالى يوم القيامة وأمامنا يوم الحساب:

(يامحمد بن عبدالله أأنت قلت للناس كل هذه الأوهام والأباطيل فجعلتهم يتركوني وكتابي القرآن إلى أوهام الشيطان وأباطيله؟)

ماذا تتوقعون أن يكون جواب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؟

إنه سوف يقول تماماً مثل ماقال عيسى بن مريم قبل ذلك وقد ضربه لنا الله مثلاً وليس لأهل الكتاب، لأن أهل الكتاب لايقرؤون أصلاً قرآننا، ولم يعترفوا به إلى الآن حتى يقرؤوه. إنها لنا نحن، حتى نصحوا من أوهامنا وتكون لنا عبرة.

﴿قال سبحانَك مايكونُ لي أن أقولَ ماليس لي بحقّ إن كنتُ قلتُه فقد علِمتَه تعلَمُ مافي نفسي ولاأعلَمُ مافي نفسِك إنّكَ أنتَ علّامُ الغيوبِ﴾[١٠]

---

(٩) سورة يوسف: ١٠٦ (١٠) سورة المائدة: ١١٦

﴿ماقلتُ لهم إلاّ ما أمرتَني به أن اعبدوا اللّهَ ربّي وربَّكم وكنتُ عليهم شهيداً مادمتُ فيهم فلما توفّيتَني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنتَ على كلِ شيءٍ شهيد﴾[١١]

هاتان الآيتان الكريمتان هما جواب الرسول محمد ﷺ لله تعالى يوم القيامة أمامنا عندما نقول لله: إننا ياربنا ظننا أن ماسمعناه منقولاً عن أبي هريرة وابن عباس وأبي ذر وابن مسعود هو القرآن مشروحاً أتانا بالوحي من عندك وإذا سأل الله تعالى هؤلاء الصحابة الكرام:

أأنتم قلتم للناس كل هذا الدجل والأكاذيب عن رسولكم؟ تتهمونه بمعجزات قام بها دون إذن من الله وتتهمونه بكلام خطير عن غيب الله وتدعون أنه تَقَوَّل على الله كذباً؟

أعتقد أن جوابهم رضي الله عنهم جميعاً سوف يطابق كلام رسولهم المحبوب ﷺ ولن يخونوه بمثل هذا الكلام وهم لم يخونوه في معارك بدر والقادسية واليرموك حتى يخونوه في كلام ليس فيه إلا الاختلاف الشديد.

فإذا قام المسلمون خلال جيل أو جيلين بتغير مابأنفسهم من أوهام وأباطيل، وعادوا إلى منهج الرحمن السليم باتباع أحكام القرآن مباشرة دون الإشراك مع كتاب الله كتاباً آخر ومع سنة الله سنة أخرى، كيف نتوقع تدخل الله سبحانه وتعالى بإجراء التبديل الذي وعدنا به، طالما ليس بيننا اليوم نبيّ ولارسول ليكون صلة الوصل بيننا وبين الله سبحانه وتعالى؟

باعتقادي أنها سوف تحصل بنفس السهولة التي حصلت فيها مع الثورة الإسلامية في إيران. قبل أشهر معدودات من حصول الثورة الإسلامية كان الشاه يحتفل فرحاً بقوته وعزّه وجبروته، وهو يعتز بأنه يملك أكبر قوةٍ ضاربة في آسيا كلها. معتزاً بجيشه القوي المجهّز بأحسن التجهيزات العسكرية الحديثة، والمدرّب على استخدام تلك المعدات أحسن تدريب، ومعتزاً بمخابراته القوية التي تأتيه بكل الأخبار قبل حصولها.

وبشرب كأس قوته وعزه وجبروته ومعه رئيس الولايات المتحدة على طاولته، بعدها بأشهر وكأنه حلم انهارت تلك القوة وذابت، وكأنها تمثال من الملح تعرض للماء، وهكذا إذا شاء الله وأراد فليس على الله سبحانه وتعالى صعب وليس أمامه ذكي ذو مكيدة أو ذوة قوة أو ذو مكر وخداع:

---

(١١) سورة المائدة: ١١٧

﴿إنّهم يَكيدون كَيداً• وأَكيدُ كَيداً﴾[١٢]
﴿وأُملي لهم إنّ كَيدي متينٌ﴾[١٣]
﴿ومَكَروا ومَكَرَ اللّهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾[١٤]
﴿قل اللّهُ أسرع مَكراً﴾[١٥]
﴿وقد مَكَروا مكرَهم وعندَ الله مكرهم وإن كان مكرُهم لتَزولُ منه الجبالُ﴾[١٦]
﴿فانظر كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهم إنّا دَمَّرناهم وَقومهم أجمعين﴾[١٧]

وهكذا فإن من كان الله سبحانه وتعالى معه وهو لايشرك به ولابكتابه أحداً لاخوف عليه من قوي أو ذي كيد أو عدو ماكر، وهكذا نحن بحاجة إلى إيمان وعمل معاً. إيمان قوي كإيمان الرسول ﷺ وهو يقول لأبي بكر الصديق:

﴿لاتحزن إنّ اللّهَ معنا﴾[١٨]
﴿فأنزلَ اللهُ سكينتَه عليه وأيَّدَهُ بجنودٍ لَم تَرَوها وجَعَلَ كلمةَ الذين كَفرُوا السفلى وكلمةَ الله هي العليا واللهُ عزيزٌ حكيم﴾[١٩]

إن الله سبحانه وتعالى له سننه وقوانينه في كل شيء في المواد، وفي مخلوقاته أيضاً له قوانينه ﴿ومن يتّقِ اللهَ يجعل له مخرَجاً﴾[٢٠]

مثلاً في المادة من قوانينه التي اكتشفها علماء الفيزياء الذين صنعوا القنبلة الذرية علموا أنّ هناك شيئاً اسمه الكتلة الحرجة. فما هي الكتلة الحرجة في الفيزياء النووية؟: لو فرضنا أنه عندنا (١٠٠ غرام) من اليورانيوم المشع وحاولنا تفجيره نووياً فلن ينفجر مهما حاولنا من محاولات، وكذلك لو جعلنا معها أربعة أمثالها (٥٠٠ غرام) لاتنفجر.

الآن إذا فرضنا أن الكتلة الحرجة لليورانيوم المشع هي (١١٥٠ غرام) يجب أن لاتقل كتلة اليورانيوم المشع عن (١١٥٠ غرام) حتى يحصل التفاعل المتسلسل، وحصول الانفجار النووي ببروتون شارد، لذلك علم علماء الفيزياء أن وضع كتلة أكبر من (١١٥٠ غرام) من اليورانيوم يعرضه للانفجار النووي في أي لحظة، فمرور أي بروتون شارد واصطدامه بتلك الكتلة مصادفة تحدث الانفجار الخطير. هذا في المادة فماذا عن البشر؟

---

(١٢) سورة الطارق: ١٦
(١٣) سورة الأعراف: ١٨٣
(١٤) سورة آل عمران: ٥٤
(١٥) سورة يونس: ٢١
(١٦) سورة إبراهيم: ٤٦
(١٧) سورة النمل: ٥١
(١٨) سورة التوبة: ٤٠
(١٩) سورة التوبة: ٤٠
(٢٠) سورة الطلاق: ٢

كذلك عند البشر عندما تصبح نسبة الذين غيروا مابأنفسهم من الأوهام والأباطيل إلى الحق ونور الله عن إدراك نسبة معينة في المجتمع يحصل التغيير فجأة بالنسبة للآخرين، لكنه يكون متوقعاً من المؤمنين لأنه صار مطلباً من مطالب حياتهم التي لايستطيعون العيش بدونه، بعد أن تأصّل في تكوين المؤمن فكرياً، وتغيرت عقليته وأسلوب تفكيره من العقلية الوهمية إلى العقلية العلمية التي لاتؤمن إلا بالحقائق النورانية القرآنية وإن أدرك الناس هذا القانون فسعوا بأنفسهم إلى تبديل مافي رؤوسهم من أوهام إلى علوم حقيقية وبدأوا يتعايشون بتلك العقلية الجديدة بدل القديمة كمجتمع، عندها يتدخل الله سبحانه وتعالى فيغيّر مابحال الناس من جهلٍ وضلال ووهم وأباطيل إلى قوة وعلم وهدى ونور، والأمور عند الله سبحانه بكلّ تلك البساطة. المهم أن نعرف القانون ونطبق نحن أولاً القسم الذي علينا فالقسم الثاني سوف يأتي حتماً وفي وقته دون تأخير من الله سبحانه وتعالى حسب وعده بعد هذه المعرفة العلمية من قانون الله في الآية الكريمة.

﴿إنّ اللّهَ لايغيّرُ مابقومٍ حتى يُغيّروا مابأنفسِهِم﴾[٢١]

فكل من يلجأ لتغير أحوال المسلمين مستخدماً أية وسيلة من وسائل الإكراه أو الضغط أو العنف يكون قد أخطأ في حق نفسه وفي حق شعبه وفي حق الله، وهذا ليس بجهاد في سبيل الله، ولن ينال رضى الله بمثل تلك الأفعال. وحتى يمنع الله سبحانه هذا التفكير عن رؤوسنا فإنه سبحانه لم يسمح لرسوله أن يستخدم أية وسيلة من وسائل العنف إطلاقاً، وخلال فترة تزيد عن عشر سنوات دامت كلها في الدعوة السلمية إلى أن نصر الله المسلمين وصارت لهم دولة مستقلة سياسياً. عندها اختلف الموضوع صار للمسلمين دولة ورئيس دولة.

طبعاً للدولة ولرئيسها حقوق وقوانين جديدة. ولكن الوقت الذي نحن فيه مبكر جداً حتى نفكر في الدولة الإسلامية، ونحن لم نغيّر أوهامنا وأباطيلنا بعد. والجهاد في الإسلام يقسم إلى نوعين ويتمّان خلال مرحلتين مختلفتين تمام الاختلاف.

١ ـ مرحلة قيام المسلم بالتغيير المطلوب والمفروض كشرط إلهي للتغيير:

هذه المرحلة تبدأ أولاً كمرحلة تحضير فردية وذاتية:

فما هو المطلوب من المسلم خلال مرحلة التحضير الذاتية؟

---

(٢١) سورة الرعد: ١١

١ ـ فهم قسم الرسالة من القرآن (أم الكتاب) أي كل الآيات التي تحوي على الأمور التالية:

١ ـ الحرام والحلال ـ مع التطبيق الكامل.

٢ ـ الأحكام ـ وحدود الله في الأحكام ـ مع التطبيق الكامل.

٣ ـ الصراط المستقيم مع التطبيق الكامل.

٤ ـ تعليمات ومواعظ مع التطبيق الكامل.

٥ ـ العبادات مع التطبيق والالتزام الكاملين.

ثم يعود المسلم إلى بناء عقيدته الدينية من جديد مستنداً للقرآن وآياته فقط، ومن غير مساعدة أحد إلا إذا أحب الإنسان الاستعانة بقاموس أو قرآن وعلى حاشيته شرح للكلمات العربية الصعبة.

لكن يشترط عدم الاستعانة بأي تفسير للقرآن، لأن التفسير يقلب مفاهيم الله سبحانه وتعالى إلى تعاليم خاصة بالمفسر. ولذلك يجب الانتباه إلى أن القرآن لايمكن فهمه تماماً إلا بشكل مباشر، وهكذا يحاول المسلم أن ينسى كلّ ماكان يحفظه من أحاديث وهمية للرسول محمد ﷺ ويلزم نفسه في أحاديثه الدينية أن لايستشهد إلاّ بالآيات القرآنية، وأن يعلم نفسه أن القرآن رسالة إنذار شخصية، ليسير بمنهجها وليس من أجل استخدامه للطقوس الدينية فقط من زواج وولادة وجنازة ومآتم، ولاللتنغم بلحنه لمجرد الطرب له، على صوت مقرئ ذي صوت رخيم كعبد الباسط عبد الصمد.

الالتزام بفهم معاني القرآن المعنى الرحماني الحقيقي لها والابتعاد عن المعنى الوهمي الشيطاني لها ـ لأن هذا الفهم للقرآن هو أهم خطوة من الخطوات الشخصية لفهم القرآن فهماً صحيحاً.

٢ ـ والمرحلة الثانية المهمة بعد الفهم تنفيذ كل الآيات تنفيذاً تاماً من قبل المسلم والالتزام بها التزاماً عقائدياً نابعاً عن إيمان أنها أوامر مقدسة من الله سبحانه ويجب الالتزام بتنفيذها من قبل المسلم في جميع الظروف، بعد هذا الإعداد الشخصي الذي قد يدوم خمس سنوات في الوسطي منها بعدها يمكن الانتقال للدعوة كما قلنا على مبادئ القرآن وحدها: أي:

﴿ادعُ إلى سبيلِ ربّك بالحِكمةِ والموعظةِ الحَسَنَة﴾[٢٢]

٣ ـ أسلوب الدعوة:

يجب على المسلم الذي انتهى من تحضير نفسه علماً ومعرفة بالله تعالى وبالقرآن الكريم فهماً للمعاني أن ينتقل للدعوة أول ماينتقل لأقرب الناس إليه أهل بيته وأصحابه والمقربين منه، وخلال هذه الفترة سيكتشف إذا انتبه لنفسه الأمور التالية: هل يستمع له الناس بانتباه؟

ـ هل ينفعل إذا عارضه أحد من الناس ويخرج عن طوره ظاناً أن الله قد وكله وجعله حامي حمى الدين وكلّ من يعارضه كافر بعيد عن الله؟

هل يجد معارضة الناس له من الأمور الطبيعية ويأخذ الأمور ببساطة وبشاشة وصبر جميل؟

هل يفقد صبره إذا وجد من يعانده ويشاكسه؟

وأمور كثيرة من هذا النوع.

فإذا اكتشف أنه لم ينجح مع أحد رغم محاولاته المتكررة. يجب أن يعلم أنه غير مهيأ للدعوة فيكتفي بدعوة نفسه وحدها، ويكفي شره عن الناس.

لأن ضرره سوف يكون أكبر بكثير من فائدة دعوته وأسلوبه المنفّر، ولذلك قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفَضُّوا من حولِكَ﴾[٢٣]

وكان الرسول بأخلاق عظيمة نادرة:

﴿وإنّكَ لَعَلَى خلقٍ عظيمٍ﴾[٢٤]

وإذا وجدت نفسك تتمتع بصفات جيدة والناس يستمعون لك ويأخذون برأيك يمكن أن تتابع حسب الآيات الكريمة التالية:

﴿ومن أحسنُ قولاً ممّن دعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالحاً وقالَ إنني من المسلمين﴾[٢٥]

﴿يا أيها الذين آمنوا استَجيبوا لّلهِ ولِلرسولِ إذا دعاكُم لما يُحييكُم﴾[٢٦]

﴿وإذا سألَكَ عبادي عنّي فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ﴾[٢٧]

﴿قل هذه سبيلي أدعو الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني وسبحانَ اللهِ وماأنا من

---

(٢٢) سورة النحل: ١٢٥ — (٢٤) سورة القلم: ٤ — (٢٦) سورة الأنفال: ٢٤

(٢٣) سورة آل عمران: ١٥٩ — (٢٥) سورة فصلت: ٣٣ — (٢٧) سورة البقرة: ١٨٦

المشركينَ﴾[٢٨]
﴿قل إنما أدعوا ربّي ولاأُشرِكُ به أحداً﴾[٢٩]
﴿يا قومُ مالي أدعوكُم إلى النجاةِ وتدعونَني إلى النارِ﴾[٣٠]
﴿تدعونَني لِأَكفُرَ باللّهِ وأُشرِكُ به ماليسَ لي بِهِ علمٌ وأنا أدعوكُم إلى العزيزِ الغفّار﴾[٣١]
﴿فلا تَهِنُوا وتدعو إلى السَّلْم وأنتم الأعلَون واللّهُ معكُم﴾[٣٢]
أي تدعو إلا الإسلام.
﴿قل إني نُهيتُ أن أعبدَ الذين تَدعونَ مِن دونِ اللّه لمّا جاءَني البيناتُ من ربّي﴾[٣٣]
﴿ولتَكُن منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ وأولئك همُ المفلِحون﴾[٣٤]

صدق الله العظيم

---

(٢٨) سورة يوسف: ١٠٨
(٢٩) سورة الجن: ٢٠
(٣٠) سورة غافر: ٤١
(٣١) سورة غافر: ٤٢
(٣٢) سورة محمد: ٣٥
(٣٣) سورة غافر: ٦٦
(٣٤) سورة آل عمران: ١٠٤

مراجع الكتاب

١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ المكتبة الإسلامية استانبول ـ تركيا ـ ١٩٨٤

٢ ـ علم الحديث ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ عالم الكتب ـ بيروت

٣ ـ مجلة اللواء الإسلامي ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي ـ القاهرة

٤ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير الدمشقي ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ـ ١٩٨٨

٥ ـ السنة قبل التدوين ـ الدكتور محمد عجاج الخطيب ـ دار الفكر ـ ١٩٨١

٦ ـ السنة ـ الشيخ مصطفى السباعي ـ المكتب الإسلامي ١٩٨٥

٧ ـ الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ـ الدكتور عبد العظيم المطعني دار الوفاء ـ المنصورة ١٩٩٢

٨ ـ الروح ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٩١ ابن قيم الجوزية

٩ ـ الفوائد دار الهدى ـ بيروت ١٩٩٤ ابن قيم الجوزية

١٠ ـ الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة . الدكتور محمد شحرور ـ الأهالي للطباعة والنشر دمشق ـ ١٩٩٤

١١ ـ القرآن الكريم

١٢ ـ أسباب النزول للواحدي ـ دار القبلة ـ المملكة العربية السعودية ـ جدة ـ ١٩٨٧

١٣ ـ ألفية السيوطي ـ لجلال الدين السيوطي ـ القاهرة ١٣٥٣ هـ

١٤ ـ تأويل مختلف الحديث ـ ابن قتيبة ـ مطبعة كردستان بمصر ١٣٢٦ هـ

١٥ ـ صحيح البخاري بحاشية السندي ـ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

١٦ ـ صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٦

١٧ ـ الجواب الكافي ـ ابن قيم الجوزية ـ دار الهدى ـ الرياض ١٩٩٤

١٨ ـ التوابين ـ ابن قيم الجوزية دار الهدى ـ الرياض ١٩٩٤

١٩ ـ عدة الصابرين ـ ابن قيم الجوزية دار الهدى ـ الرياض ١٩٩٤
٢٠ ـ حادي الأرواح ـ ابن قيم الجوزية ـ دار الهدى ـ الرياض ١٩٩٤
٢١ ـ فقه السنة ـ السيد سابق ـ الفتح للإعلام العربي ـ القاهرة ١٩٩٠
٢٢ ـ الأديان الحية ـ أديب صعب ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٩٣
٢٣ ـ تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم ـ دار الكتاب اللبناني ـ عاطف السيد ـ بيروت ١٩٨٤
٢٤ ـ قصة الحضارة ول ديورانت. طبع الجامعة العربية ـ القاهرة ١٩٨٠
٢٥ ـ الكتاب المقدس L B I ١٩٨٨
٢٦ ـ الكتاب المقدس (دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٨٨)
٢٧ ـ الكتاب المقدس (دار الكتاب المقدس في العالم العربي ١٩٨٢)
٢٨ ـ سنن أبي داوود دار المعارف القاهرة
٢٩ ـ سنن ابن ماجة. مطبعة دار السلام ـ القاهرة
٣٠ ـ مسند الإمام أحمد ـ دار المعارف ـ القاهرة
٣١ ـ الأحكام في أصول الأحكام ـ لابن حزم الأندلسي ـ دار المعارف القاهرة
٣٢ ـ سنن الدارمي ـ مطبعة الاعتدال ـ دمشق
٣٣ ـ سير أعلام النبلاء (شمس الدين الذهبي) ـ دار المعارف القاهرة
٣٤ ـ طبقات بن سعد (الطبقات الكبرى)
٣٥ ـ قصص ـ القرآن ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٩١
٣٦ ـ موطأ مالك ـ عيسى الحلبي ـ القاهرة ١٩٥١
٣٧ ـ جامع بيان العلم وفضله ـ المطبعة المنيرية ـ القاهرة.

الفهرس

• صدر للمؤلف:

الكتاب الأول: إنذار من السماء ـ «النظرية».

• سيصدر قريباً جداً:

الكتاب الثاني: دين السلطان ـ «البرهان».

• ومازال تحت الإعداد للطبع:

الكتاب الثالث: دين الرحمن ـ «الحقيقة».

• كتب سوف تصدر للمؤلف:

الكتاب الأول: كيف نفهم كتاب الله.
الكتاب الثاني: كيف نفهم آيات القرآن.
الكتاب الثالث: كيف نفهم آيات الفرقان.